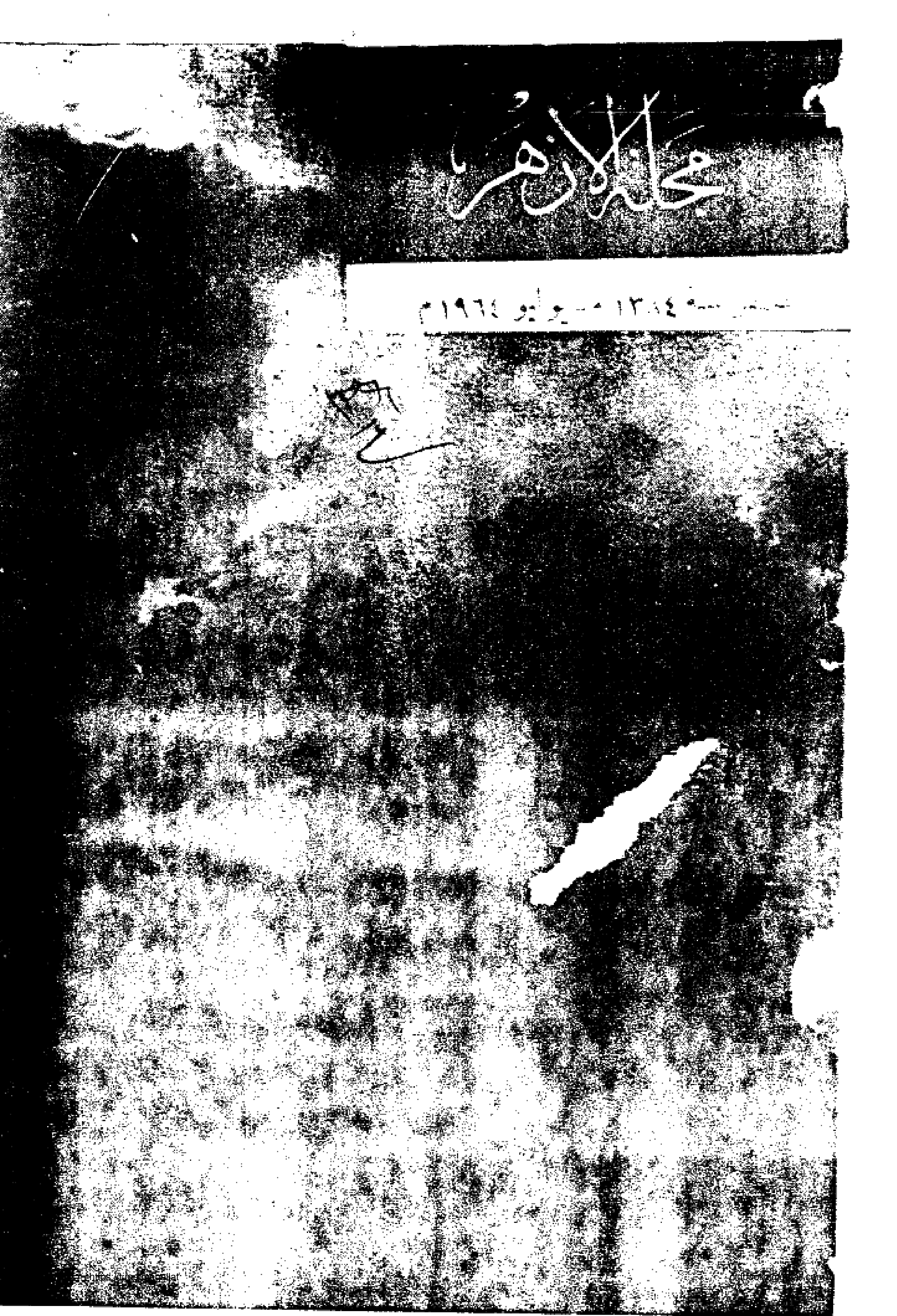

مجلة الأزهر
١٣٨٤ هـ – يوليو ١٩٦٤ م

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثاني - السنة السادسة والثلاثون - صفر سنة ١٣٨٤ هـ - يوليو ١٩٦٤ م

البلاغة بين الإيجاز والإطناب

بقلم : أحمد حسن الزيات

جرى عرف البلاغيين على أن يجعلوا الأسلوب الوسط الذي تساوت فيه ألفاظه ومعانيه أصل الأساليب . فإذا زادت الألفاظ على المعاني كان الإطناب ، وإذا زادت المعاني على الألفاظ كان الإيجاز ، فالطرق المستقيمة عندهم ثلاثة : مساواة وإيجاز وإطناب . وأنا أرى أن البليغ الحق لا يكون من طبعه الطول ولا الفضول وإنما يسلك إلى تأدية معانيه إلى ذهن القارئ أو السامع أحد طريقين : طريق المساواة والتقدير ، أو طريق القصر والحذف . أما الإطناب أو الإسهاب فليس من طبيعة اللغة العربية ، لأنها لغة سامية وأول الفروق بين اللغات السامية واللغات الآرية أن الأولى إجمالية والأخرى تفصيلية . تجد ذلك واضحاً في هذه الجملة التعجبية : قتل الإنسان ! فإن الفعل في هذه الجملة دل بصيغته الملفوظة وقرينته الملحوظة على الزمن والمعنى والتعجب والدعاء وحذف الفاعل ، وهي معان لا تستطيع أن تعبر عنها في اللغات الأوربية وهي آرية ، إلا بأربع كلمات أو خمس . وطبيعة اللغات الإجمالية الاعتماد على التركيز والاقتصار على الجوهر والتعبير بالكلمة الجامعة والاكتفاء باللمحة الدالة . أما طبيعة اللغات التفصيلية فهي العناية بالدقائق والإحاطة بالفروع والاهتمام بالملابسات

والاستطراد إلى المناسبات والميل إلى الشرح . ولم تعرف العربية التفصيل والتطويل والمط وتعاقب اللفظ كلما أو جملا على المعنى الواحد إلا بعد اتصالها بالآرية الفارسية فى العراق والآرية الأوربية فى الأندلس . نشأ ذلك فى أسلوب عبد الحميد ، ثم زاد فى أسلوب ابن المقفع ، ثم فاض فى أسلوب الجاحظ ، ثم طغى فى أساليب من خلفوهم من ضعفة الكتاب وعبدة الصنعة فى عهود الوهن والانحلال حتى ليدهشك أن تجد فى كتب الدواوين ، وعهود السلاطين ، كتاباً أو عهداً يبلغ به كاتبه مائة صفحة يحشوها بالفقر والأسجاع ولا يعنى بها شيئاً ! ! . وهذا هو الإسهاب الذى تنكره العربية ولا يسيغه العرب . وهذه الزيادة اللفظية التى يسميها البلاغيون إطناباً قد اشترطوا فى بلاغتها أن تسلم من الحشو والتطويل وأن تدل على معنى جديد فى الجملة تقتضيه الحال كتفصيل المجمل أو توضيح المبهم أو تأكيد الإسناد أو دفع الإيهام أو تقوية الأسلوب وتوشيته بضروب البيان وألوان البديع ليؤثر فى الذهن والنفس من طريق الامتاع والإقناع . وما دامت هذه الزيادة قد جاءت لمعنى وسيقت لغرض فلا تخرج الكلام عن حدود المساواة . فقول زكريا عليه السلام فى مقام الاسترحام : « رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً » . أبلغ من قول القائل فى المقام نفسه : « رب إنى كبرت وشبت » . لأن طول القول الأول قد أطال فى معناه ، وقصر القول الثانى قد قصر به عن مداه ...

والإيجاز بقسميه أصل فى اللغة العربية لأنها لغة أمة صافية الذهن دقيقة الحس سريعة الفهم تشعر بقوة وتعبر بقوة وتفهم بقوة . وقوة الروح والقلب ، وقوة العقل والإدراك تلازمهما قوة اللسان والقلم أى البلاغة ، والبلاغة الإيجاز . والإيجاز امتلاء فى اللفظ وشدة فى التماسك . ولا ترى التميع والتفكك والانتشار الا حيث ترى الضعف فى شيء من أولئك . وملاك الإيجاز غزارة المعانى ووضوحها فى الذهن ، وطواعية الألفاظ ومرونتها فى اللسان . وإنما يكون العى والثرثرة ومضغ الكلام من جدب القريحة أو قلة العلم أو سقم الذوق ، وقديما قالوا : « من ضاق عقله اتسع لسانه » .

لذلك كان الإسهاب أول ما يصاب به ناشئة الكتاب ، لأن جهدهم القليل يضيق عن شرح الفكرة فيدورون حولها مجمجمين بالكلم الفوارغ والجمل الجوف وهو اليوم فاش فى أساليب الصحف لأن أكثر كتابها يؤثرون الكم على الكيف فيكبرون الصغير ويطولون القصير وينشئون من المعنى القليل مقالة ، ويجعلون من الخبر العادى قصة ... وقد كان أحد شيوخ الصحافة يكتب مقالا فى عمودين كل صباح ، فإذا نظرت فيه على أن تقرأ سطرين وتترك أربعة بلغت آخره وقد حصلت من ثلثه على ما كان فى ثلثيه ،

وكأنك لم تحذف شيئاً ! ! وأكثر رواة الأخبار فى الصحف لا يكادون يختلفون عن ذلك الرجل الذى تحدث عنه ابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) إذ يقول :

« جلس إلى فى بعض الأيام جماعة من الإخوان وأخذوا فى مفاوضة الأحاديث وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التى تقع فى العالم فذكر كل من الجماعة شيئاً، فقال شخص منهم: إنى كنت فى الجزيرة العمرية زمن الملك فلان وكنت إذ ذاك صبيا صغيراً فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان بالحارة الفلانية وصعدنا إلى سطح طاحون ابنى فلان وأخذنا نلعب على السطح فوقع صبى منا على أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فخفنا أن يكون آذاه، فأسرعنا النزول إليه فوجدناه قد وطئه البغل فختنه ختانة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيرا منها » .

« فقال له أحد الحاضرين : والله إن هذا عى فاحش وتطويل كثير لاحاجة إليه، فإنك بصدد أن تقول إنك كنت صبياً تلعب مع الصبيان على سطح طاحون فوقع صبى منكم إلى أرضها فوطئه بغل من بغالها فختنه ولم يؤذه . ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة فى بلد نعرفه أو لا نعرفه . ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب لم يقدح ذلك فى غرابتها . وأما أن تذكر أنها كانت فى الجزيرة العمرية فى الحارة الفلانية فى طاحون بنى فلان فإن مثل هذا كله تطويل لا حاجة إليه والمعنى المقصود يفهم بدونه » .

وأعود إلى الإيجاز لأسوق إليك بعض الأمثلة على قسميه ، فمن الأمثلة على إيجاز المساواة والتقدير قول الله تعالى فى آخرة طوفان نوح « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . وقول الرسول الكريم فى تقييد الحرية : « إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا . »

* * *

كان أمراء النثر العربى من أمثال جعفر ابن يحيى وسهل بن هارون يتوخون جانب القصد ويؤثرون طريق الإيجاز حتى قال جعفر للكتاب : إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . ويريد بالتوقيعات مايعلقه الوزير أو الرئيس على مايقدم إليه من الكتب فى شكوى حال أو طلب نوال وكانت تجرى مجرى الأمثال فى الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة كتعليقته على كتاب رجل شكا إليه عاملا من عماله : « لقد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت » .

وقيل لإياس لا عيب فيك إلا أنك تطيل قال : أخيرا تسمعون أم شرا ؟ قالوا خيرا . قال : فالزيادة فى الخير خير ، وروى ذلك

الجاحظ وعلق عليه بقوله : « وليس الأمر كما قال إياس، فإن للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذى سمعت الحكماء يعيبونه ».

كذلك كان أقطاب النثر الفرنسى من أمثال (شاتوبريان) و(فلوبير) يتشددون فى الإيجاز ولا يتسمحون فى التكرار حتى حرم واحد أنفسهم استعمال اللفظ مرتين فى صفحة واحدة. وقد أخذ فلوبير فى إحدى رسائله على شاتوبريان أنه كرر ألفاظا مرتين فى وصفه قدوم (أودور) إلى روما فى كتابه (الشهداء). ومن كلام (بوالو): «يجب أن تعرف كيف توجز لتعرف كيف تكتب».

ونفور نوابغ الكتاب من الإطناب منشؤه فيهم تلك القوة البلاغية التى تحدد الغاية وتريد أن تبلغها من أقصر طريق. فهم لا يلغون لأنهم يعلمون المعنى الذى يفيد، ولا يحشون لأنهم يعرفون اللفظ الذى يدل، ولا يخبطون لأنهم يبصرون الأمد الذى يرام. أما الذين لا يقدرون ما يقولون أو لا يدرون أين يقصدون، فهم كالماء الهائم على وجه المنحدر قصاراه زبد وجرجرة، أو كاللسان المخبول نطقه لغط وثرثرة، وثرثرة اللسان كقرقرة البطن، أصوات تذهب مع الريح!!

والإيجاز فى البليغ قوة وروية وجهد؛ لأن الإيجاز غربلة ونخل، وتصفية وتنقية، وتصعيد وتركيز. وذلك لا يتهيأ لك إلا بدوام النظر وطول التعهد، ومهما تقلب الجملة على وجوه البيان فإنك لا محالة واجد فيها عوجا تعدله أو نتوءاً تسويه أو فضولا تشذبه.

قيل للرئيس الأمريكى ولسون وكان من رجال الخطابة: كم تنفق من الزمن فى إعداد خطبة تلقى فى عشر دقائق؟ فقال: أسبوعين فقيل له: فكم تنفق إذن فى إعداد خطبة تلقى فى ساعة؟ فقال: أسبوعا. فقيل له: فإذا طلب إليك أن تلقيها فى ساعتين؟ فقال: ألقيها على الفور!

والمزية الظاهرة للإيجاز أنه يزيد فى دلالة الكلام من طريق الإيحاء. ذلك لأنه يترك على أطراف المعانى ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال حتى تبرز وتتلون وتتسع، ثم تتشعب إلى معان أخر يتحملها اللفظ بالتفسير أو بالتأويل. والقرآن الكريم معجزة الدهر فى هذا الصدد.

وليس بسبيل الإيجاز البلاغى من يقص أطراف الخيال ويطفىء ألوان الحس ويترك أسلوبه كأسلوب البرق شديد الاقتضاب والجفاف، فإن للكلمة الموجزة سحرا يأخذ بالقلوب وشعراً يجرى فى الشعور. وقد قال فيها سيد البلغاء محمد بن عبدالله: (إن من البيان لسحرا) وسماها الكلمة الجامعة وقال فى مقام الفخر والشكر: أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا.

احمد حسن الزيات

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدنى

— ٣ —

تكلمنا فى المقال السابق عن مذهب الشيعة الإمامية فى الطلاق ، وبينا أنهم يحكمون بعدم وقوع الطلاق الذى لم تتحقق فيه الشروط التى اشترطها الشارع ، وبأن للطلاق صيغة خاصة يشترط أن تكون فصيحة غير ملحونة ، وأن تكون مجردة من كل قيد ، حتى ولو كان معلوم التحقق ، وأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، أو بتكرار الصيغة متتابعة ، لا يقع به مع تحقق الشروط إلا طلقة واحدة ، وأن الطلاق بالكناية لا يقع ، وكذلك الطلاق بالإشارة إلا من الأخرس العاجز عن النطق ، ولا يقع بغير العربية مع القدرة على التلفظ بها ، ولا بالحلف واليمين ، ولا بالنذر والعهد ... إلخ

هذا هو مذهب الشيعة الإمامية ، وهناك من العلماء المجتهدين من اتجه هذا الاتجاه على الجملة - أى فى بعض هذه الأحكام التى ذكرها الإمامية ، وفى مقدمتهم من فقهاء الحنابلة ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، فقد قررا أن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة لا يقع به إلا واحدة ، قال ابن القيم : « وأفتى به بعض أصحاب مالك ، حكاه التلمسانى قولا لبعض المالكية فى شرح تفريع ابن الجلاب ، وأفتى به بعض الحنفية - حكاه أبو بكر الرازى عن محمد ابن مقاتل ، وأفتى به بعض أصحاب أحمد - حكاه ابن تيمية عنه ... وجاء فى نيل (الأوطار للشوكانى) أن ابن مغيث نقله فى كتاب الوثائق عن محمد ابن وضاح ، ونقل الفتوى به عن جماعة من مشايخ قرطبة ، كمحمد بن على ، ومحمد ابن عبد السلام ، وحكاه أيضا عن علىّ وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، ونقله ابن المنذر عن أصحاب ابن عباس كعطاء وطاوس وعمرو بن دينار ، كما حكاه صاحب البحر عن أبى موسى[1] .

وهناك أيضا من علماء السنة من يقول بعدم وقوع الطلاق فى الحيض ، جريا مع القاعدة التى ذكرناها ، واستدلالا ببعض الأحاديث الثابتة ، وفى مقدمتهم أيضا ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، ورجحه الشوكانى فى كتابه (نيل الأوطار)[2] .

وقد سلك المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر

(١) راجع البحوث التى كتبها المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى عن أسانيد قانون الزواج والطلاق رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ص ٧٤ .

(٢) ص ٢٢٦ ج ٦ من كتاب نيل الأوطار المطبوع بالمطبعة العثمانية فى سنة ١٣٥٧ هـ .

المصرى ، فى كتابه (نظام الطلاق فى الإسلام) مسلك ابن تيمية وابن القيم فى ذلك ، حيث يقول [١] :

١ — الزواج عقد بين الزوجين ، وهما طرفا العقد ، والقاعدة العامة فى العقود أنها تلزم كل طرف من طرفيها بما التزم به من حقوق فى العقد وأنه لا يملك أحد منهما الإخلال بشىء من حقوق التعاقد ، وأنه لا يملك أحدهما فسخ العقد أو إلغاءه أو إنهاءه وحده ، إلا أن يرضى الطرف الآخر ، وهذا بين بالاستقراء التام لا يحتاج إلى دليل .

٢ — [illegible] ب فى الجاهلية يتزوجون [illegible] يتعاقدون بأنواع أخرى من العقود فى المعاملة ، وكان العـــرب أيضا يطلقون الزوجات ما شاءوا من غير قيد ولا حصر ، وجاء الإسلام فأقر كثيرا من عقودهم ومعاملاتهم مع تشريع جديد دقيق ، هذب به طرقا جمة من طرق التعاقد بينهم ، وأقر فيما أقر عقود الزواج ، وشرط فيها شروطا لتهذيبها ، وجعلها مطابقة للعدالة التامة .

٣ — ثم شرع فى تهذيب الطلاق ، وهو حل لعقدة النكاح ، يقوم به أحد طرفى العقد وحده ، وكان القياس — أو طبيعة التعاقد يقضى بألا يملك حل هـذا التعاقد إلا طرفاه معا ، واقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يشرع لعباده الإذن للرجل بالانفراد بالطلاق دون المرأة ، لما فى ذلك من المصلحة الظاهرة فلو لم يأذن الله بذلك ، لكان الطلاق باطلا كله ، إلا أن يرضى الطرفان ، كما هو فى سائر العقود ، فمن طلق كما أذنه الله فقد صح طلاقه ووقع ، ومن طلق على غير ما أذن الله كان طلاقه باطلا غير صحيح ، لأنه لا يملكه وحده بطبيعة التعاقد ، وإنما يملك ما أذنه الله به وما ملكه أياه ، وكان عمله هذا داخلا تحت عموم قول النبى صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد ، ومسلم فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها .

٤ — وهذا المعنى قد أشار إلى ما يقرب منه حجة الإسلام أبو بكر الجصاص فى أحكام القرآن (ج ١ ص ٣٧٥) بعد أن ذكر أن آية (الطلاق مرتان) تضمنت الأمر بإيقاع الاثنتين فى مرتين ، فمن أوقع الاثنتين فى مرة فهو مخالف لحكمها ، ثم فسر بعض الآيات الأخرى فى أحكام الطلاق ثم قال : (وحكم الطلاق مأخوذ من هذه الآيات ، ولولاها لم يكن الطلاق من أحكام الشرع ، فلم يجز لنا إثباته مسنونا إلا على هذه الشريطة وبهذا الوصف ، وهو كلام جيد لولا قوله (فلم يجز لنا إثباته مسنونا .. إلخ) لأن الآيات والأحاديث لم تدل على طلاق مسنون وطلاق غير مسنون وإنما دلت على طلاق بأوصاف خاصة وشروط معينة أذن به الشارع ، فمن أوقعه على غير هذه الشرائط والأوصاف كان قد تجاوز ما أذن له

---

(١) من صفحة ١٤ وما بعدها .

فيه ، وأتى بعمل لا يملكه إذ لم يؤذن به من الشارع ، فكان لغوا ، فلم يجز لنا إثباته أصلا إلا على هذه الشريطة ، وبهذا الوصف » اهـ .

ومن الذين سلكوا هذا المسلك الفقهي في شأن الطلاق ، المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، وله في ذلك بحوث جيدة ، طبعت بعنوان « بحوث في التشريع الإسلامي وأسبابه وأسانيد قانون الزواج والطلاق رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ » وقد تكلم فيها عن كثير من مسائل الطلاق مؤيداً هذا الاتجاه .

وكذلك تكلم في هذا الشأن تأييداً لهذا المسلك فضيلة المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر السابق ، كما نرى في كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » ومما قاله في هذا الكتاب (١) :

« وإذن فالطلاق الثلاث في كلمة واحدة ، لا يقع إلا واحدة ، وكما رسم الإسلام في الطلاق التفريق .. وجعل الجمع لغوا لا يقع به شيء - أي فوق الواحدة - كذلك رسم فيه أن يكون منجزا ، أي موقعا بالفعل ، ليس معلقا على شيء يفعل منه أو منها ، كأن يقول إن فعلت كذا ، فأنت طالق ، وكذلك رسم فيه ألا يتخذه يمينا على شيء يفعله أو لا يفعله كأن يقول : على الطلاق أن هذه السلعة بكذا ، أو امرأتي طالق إذا لم تكن السلعة من نوع كذا ، وهكذا من الأيمان التي تجرى بين الناس وهم في أسواقهم ومجتمعاتهم دون أن يكون لزوجاتهم شأن بها .

وكذلك رسم أن يكون الطلاق في طهر لم يمسها فيه ، فإذا طلقها في طهر مسها فيه ، فإنه يكون لغواً ولا تأثير له على الحياة الزوجية ، وكذلك إذا طلقها في غير طهر ، وهكذا وضع الإسلام الطلاق الذي يقع قيودا بالنظر إلى لفظه ، وبالنظر إلى أهلية الزوج وبالنظر إلى حالة الزوجة ، وبذلك ضاقت الدائرة التي يقع فيها الطلاق ويكون له تأثير على الحياة الزوجية التي استقرت وأخذت حظها من الوجود . . ونريد بهذا العرض أمرين : أحدهما أن الطلاق في جميع صوره التي يقع فيها ليس إلا نوعا من إعطاء فسحة للزوجين يتدبران فيها أمرهما ...

أما ثاني الأمرين فهو تحديد ما يقع به الطلاق وما لا يقع تحديداً بينا واضحا عن طريق الفقه المأثور عن أئمتنا ، وفيه من اليسر ورفع الحرج ما يحقق سماحة الدين ، ويسر الشريعة ، وسيجد المصلحون فيه متى حسن النظر والاختيار الوقاية الكافية من ظاهرة كثرة الطلاق التي يزعم بعض الناس بحسب ما يذكرون من أرقام — أنها كثرة تهدد حياة الأسر ، وليس للأسر ما يهددها في ظل الفقه الإسلامي الواسع إلا التزمت والجمود على مذاهب معينة ، تتخذ دينا يلتزم ، وقانونا يتحاكم إليه الناس فيما بينهم .

(١) ص ١٦٤ .


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

صداقة الفكرة بين شلتوت والرسالة

للأستاذ محمد رجب البيومي

يقول الدكتور البهى وزير الأوقاف السابق فى خطاب للأستاذ الزيات نشر بمجلة الأزهر جمادى الآخرة سنة ٨٣ :

« وإن مدرسة الرسالة لتمثل فى تاريخنا المعاصر تجديداً أدبياً فكريا وروحيا قوميا تلتمس جذوره وأصوله فى مدرسة الأستاذ الإمام » .

وهذه العبارة الموجزة تحدد لنا سر الصداقة العميقة التى نشأت بين الرسالة وزعماء الإصلاح الدينى فى مصر ، بل تفسر لنا سر الاهتمام المخلص المثابر بالأزهر على صفحات الرسالة حيث لا يكاد يخلو مجلد من مجلداتها الأربعين من نقاش متصل متتابع يدور حول الأزهر ، يبدؤه الزيات ثم تتفرج شقته إلى أبعاد مترامية ، حتى نشأ بين كتاب الرسالة رهط يصدق أن نسميه رهط الإصلاح الأزهرى ، وفى مقدمته الأساتذة محمود شلتوت ومحمد البهى ومحمد المدنى ومحمود الشرقاوى ومحمد يوسف موسى من رجال الأزهر ، عدا الآخرين من غير أبنائه وكثير ما هم ! وقد تحدث الأستاذ الزيات عن سر هذا الاهتمام البالغ بالإصلاح الأزهرى فقال : لعلك تقول لنفسك ما بال الرسالة لا تنفك تذكر الأزهر فى معرض الإصلاح والنهضة ، وما الأزهر فى رأى أكثر الناس إلا متحف آثار ومقبرة أفكار وطلل مذاهب ، وقولى فيما تقول : إن الشرق لا ينهض إلا بالدين وأن الدين لا ينهض إلا بالأزهر وأريد الأزهر الجديد الذى يضع لثقافة الشعب أساسا من الدين يقوى بقوة الله ، ويثبت بثبوت الحق ، ويدوم بدوام الدنيا ثم يقيم عليه من القواعد والنظم والأوضاع ما يقره العقل ويؤيده العلم ، ويتقبله العصر » الرسالة (٤٤٤) . وهذا الكلام الواضح تحديد مركز لما تبتغى الرسالة من دعوتها الأزهرية ، وهـــو يؤكد ما ذكره الدكتور البهى من انتماء هذه الدعوة إلى مدرسة الإمام ، وستتحدث الآن عن دور الأستاذ شلتوت فى الإصلاح الأزهرى على صفحات الرسالة ، لنرى كيف جمعت صداقة الفكرة المخلصة بين إمام كبير هو الشيخ الراحل وكاتب هادف هو الأستاذ الزيات !!

كانت الرسالة فى مبدأ حياتها متبرمة بجمود شيخ الأزهر وعناده ، فلما تهيأ الأمر للأستاذ المراغى استقبلته فرحة مسرورة ، ونشرت صورته مع ترجمة موجزة لحياته ،

وما زالت توليه المودة والتقدير ، وتخصه بكتابة افتتاحيات الأعداد الهجرية الممتازة واثقة أنه سيواصل جهوده فى معركة الإصلاح ، إذ أن المراغى فى رأى الزيات إذ ذاك « إمام هذا العصر بإعداد من الله تجلى فى فهمه الدقيق لرسالة دينه وإدراكه الصحيح لحاجة عصره وعلمه الراسخ بطبيعة قومه ، وملكته السليمة فى أدب لغته وأفقه الرحيب لاقتران المشكلات الاجتماعية فيه تحت ضوء من الفكر الثاقب يبدد عنها ظلام الإشكال فترجع إلى طريقها الواضح من الدنيا أو الدين » الرسالة (٣٥٦).

وقد دافعت عنه بحرارة حين قدم بعض المغرضين عريضة شاكية إلى الدوائر المسئولة ، فكتب الأستاذ ابن عبد الملك بالعدد ٢٩٥ كلمة تؤيد الرجل فى مهب العاصفة وكان المظنون بالشيخ أن يمضى بالإصلاح إلى وجهته ولكن أموراً شائكة اعترضته وقد تحدث عنها الأستاذ الزيات فى معناه إذ قال :

« وكان الظن بالفقيد الكريم وقد ورث أكثر خصائص الأستاذ الإمام أن يؤدى رسالة الإصلاح على الوجه الذى يرتضيه المسلم ، ويقتضيه العصر ، ويرتجيه الناس ولكن الأسباب المعوقة من مهادنة السياسة ومما نعة المعارضة ، ومماطلة الحزم ، واضطراب السلام فى الخارج ، وانقطاع الوئام فى الداخل حالت بين الشيخ وبين ما يريد » الرسالة (٦٣٤) .

لذلك كله نرى الرسالة تتجه إلى الأستاذ شلتوت ، وتدفع به مع جماعة الشيخ عبد المجيد سليم إلى أداء الدور الهام فى معركة الإصلاح وإن الأستاذ الزيات ليعلن ذلك صريحا حين يقول بالعدد ٤٠٦ ص٥٣٣ ما نصه : « تعتقد الرسالة أن الأستاذ شلتوت لسان صادق من ألسنة الإصلاح الدينى فى هذا العصر فإذا أيد الرسالة فى دعوتها الإصلاحية بقلمه ولسانه كسبت منه ما كسبته الدعوة الكبرى من عمره ، ومنذ هذه الكلمة والأستاذ شلتوت يتسنم مكانه فى أوج الرسالة والزيات يتابع جهوده الإصلاحية بالتزكية والتعضيد وكان يمهد لمقالاته الأولى بالرسالة تمهيد الصديق المؤيد ، على قلة احتفاء الزيات بتقديم الكاتبين ! مما ربط بين شلتوت وصاحبه بأقوى رباط فى معركة الإصلاح والتجديد !

ومن السهل الميسور لمن يريد أن يؤرخ كفاح شلتوت فى نهضة الأزهر أن يرجع إلى أعداد الرسالة ، فقد سايرته فى دعوته مسايرة نشيطة ، وقسمت صفحاتها لمن يحللون مواقفه ، ويباركون حركته ، والحق أن الأستاذ محمد المدنى كان فى طليعة هؤلاء توقد حماسة ، وإذكاء غيرة ، إذ كان العضد الأول للشيخ فى دعوته يبسطها على صفحات الرسالة شارحا ، ويهاجم خصومها ناقدا ، مما تسجله له حركة الإصلاح بإعجاب وتقدير .

لقد تقدم الأستاذ شلتوت باقتراح إلى هيئة كبار العلماء بمجلته الرسالة بالعدد (٤٣٧) وهو يدعو إلى إنشاء مكتب علمى دائم للجماعة تكون مهمته ما يأتى :

(ا) معرفة ما تهاجم به الأديان عامة والدين الإسلامى بخاصة فى عصرنا الحاضر مع الرد عليه .

(ب) بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها أو ليس كذلك ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بدعة مما ليس بدعة .

(ح) العمل على وضع مؤلف يحتوى على بيان ما فى كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات التى دست على التفسير وأخذها الناس على أنها من معانى القرآن .

(د) بحث المعاملات التى جدت وتجد فى العصر الحاضر من جهة حكم الشريعة فيها .

(ه) تنظيم طرق الوعظ والإرشاد والاتصال بالهيئات المعدة لذلك .

(و) إحياء الكتب النافعة فى مختلف العلوم والإشراف على مجلة الأزهر وإصدار الفتاوى فى ما يطلب من الاستفتاءات » .

هذا ملخص الاقتراح ، وقد بسطته الأقلام بالرسالة بسطا واضحا ، حتى كتب عنه الأستاذ المدنى كلمتين معجبتين والأستاذ السبكى مقالا جيدا ، وأشار الزيات إلى جدواه فى مقال افتتاحى ، وبدل أن يكون لذلك تأثيره النفاذ لدى المسئولين ، نرى بعض من يحرفون الكلم عن مواضعه يفسرون اقتراح الأستاذ شلتوت بأنه مهاجمة للشيخ المراغى ، وتدور الدسائس المغرضة مداراً يدعو الشيخ الأكبر إلى الإغضاء عنه فلا يمهد الأسباب لتنفيذه على ضرورته الملحة وخطره الكبير .

وكان من أثر مقالات الرسالة المتتابعة ، وجهود جماعة الشيخ عبد المجيد سليم على صفحاتها ما أوهم الأستاذ المراغى بأن الزيات يثير عليه الثوائر ، وبخاصة حين ظهرت الرسالة تحمل مذكرة شهيرة كان الإمام المراغى قد أعدها أثناء ولايته الأولى على الأزهر بسط بها وجوه الإصلاح كما يرتئيه .

ثم تولى الأمر بعد ذلك فنسى ما اقترح أو تناساه ، وقد مهد لها الأستاذ الزيات بمقدمة جريئة قال فيها الرسالة ٤١٢ « والأستاذ المراغى قد وضع هذه المذكرة لتكون برنامجه فى سياسة الأزهر ثم أقرتها الحكومة وارتضتها الأمة فلم يبق عليه إلا أن ينفذ ما وضع ، ويطبق ما شرح ، ولكن أزهر المراغى لا يزال كأزهر الظواهرى يغير فى الشكل ولا يغير فى الموضوع ، ويستعير هيكل الجامعة الحديثة ، ويحتفظ بروح الجامع القديم فهل يستطيع كاتب من الكتاب أن يبين الحوائل ويشرح الأسباب ؟

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأى أن تترددا

ومن ذلك الحين والرسالة سافرة الخطة تحتضن أنصار الإصلاح ، وتقيم بينهم علائق المودة على نهج واضح ومذهب مبين ! فلا غرو أن وقفت مع شلتوت وجماعته لا تحيد!

لقد كان أبرز مواقف الأستاذ شلتوت فى هذه الحقبة المجاهدة ، محاضرته الشهيرة عن السياسة التوجيهية العلمية فى الأزهر ، إذ كانت ثورة قوية على تردد الأستاذ الأكبر فى تنفيذ برنامجه الإصلاحى وقد احتشد لها من السامعين صفوة ممتازة يحتلون مراكز هامة فى الدولة من الأزهريين وغيرهم وفى مقدمتهم وكيل الأزهر ومفتى الديار المصرية وكان المحاضر الثائر يقاطع بالتصفيق الحاد والهتاف المدوى كما ذكر الأستاذ المدنى بالرسالة (٥١٢) إذ قال : « ولما انتهى منها هنأه فضيلة الأستاذ الكبير مفتى الديار المصرية وعانقه فضيلة الأستاذ الكبير وكيل الأزهر مقبلا بين عينيه على ملأ من الناس أجمعين ، وعلا التصفيق والهتاف لهذا المظهر الرائع وأبى الطلاب إلا أن يحملوا فضيلة المحاضر على أعناقهم إلى فناء الكلية ، فتم لهم ما أرادوا وكان يوما فى الأزهر عظيما !

أما عناصر المحاضرة فنشير إليها من نقاط سجلها الأستاذ المدنى بالرسالة (٥١٥) وأهمها « لم تزل كتبنا هى الكتب المعقدة التى لها طريقة خاصة فى التأليف ، لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية » .

« لم نحاول أن نقرب للناس ولا لأنفسنا هذه الكتب ، ولم نحاول أن نأخذ النافع منها لنعرضه عرضا يروج عند أهل العصر» .

« لم نزل ننفق أوقاتنا فى المناقشة اللفظية وفى خدمة نصوص المتون وعبارات المؤلفين ، ونحن لا نقرأ من المقررات إلا نسبا ضئيلة تافهة لا تكون ملكة ولا تعد تحصيلا » .

وإن العامل الذى وقف بالأزهر هذا الموقف لا يرجع إلى الطلاب ولا إلى الأساتذة ولا إلى المناهج وإنما يرجع إلى أن الإصلاح لم ينفذ بالروح التى وضع بها ، ولم يتعهد حتى يؤتى ثماره وإلى أن تحدث هذه الخطوة الجريئة سيبقى الأزهر فى عزلته عن الأمة لا يسعفها بحاجتها ولا تقدره فى وجوده ولو سن له ألف قانون) تلك نقاط من هذه المحاضرة التى أيدتها الرسالة ونشرت مقالات هامة فى تحليلها ، فنبهت القراء إلى ما يزال الأزهر يملكه من المماحكات والقشور وأصبح الشيخ شلتوت من يومها فتى الإصلاح المرتقب تمتد نحوه الأعناق فى تطلع حتى أتيح له فيما بعد أن يتولى مشيخة الأزهر ويتم التطوير التجديدى على يده فيستريح .

وقراء الرسالة يذكرون للإمام الراحل — غير محاضرته السابقة — مقالتين رنانتين دوى صداهما دويا شديدا ، أولاهما مقالته عن رفع عيسى إذ نشر بالعدد (٤٦٢) فتواه السديدة بهذا الشأن مؤيدة بالحجج

والأسانيد وخلاصتها الموجزة تشير إلى أنه ليس فى القرآن الكريم ولا فى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه حى إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض .

إن كل ما تفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفى ولم يصلبوه ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه .

إن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء وأنه حى فيها إلى الآن وأنه سينزل منها آخر الزمان لا يكون بذلك منكرا لما ثبت بدليل قطعى فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه بل هو مسلم مؤمن .

هذه الفتوى الجريئة لم تكد تظهر بالرسالة حتى هاج عليها من يدافعون عن الإسلام بالسباب والشتائم ، ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، وقد تورط بعضهم فاتصل بعضو فى مجلس النواب ليثير المسألة فى البرلمان ! ووجه آخر خطابا مفتوحا إلى رئيس الوزراء لمحاكمة الأستاذ ! وقام شيخ إسلام تركيا السابق بما عرف عنه من تهجم وتجريح حتى حكم بالكفر والزيغ على الإمام المجتهد ! وأذكر من باب الفكاهة أيضاً أنه حكم على شخصى الضعيف بالكفر أيضاً لمقال نشرته بالرسالة عن الرصافى وزاد فألحق الأستاذ الزيات بى فى حكمه ، وذلك منشور مسجل فى كتبه الهادمة ! ! وعما هاج هائج هؤلاء المتسرعين أن عالما قاديانيا أفتى بما أفتى به الشيخ شلتوت ، فتوهموا هذه الموافقة مدعاة للريب الآفك والظن الآثم ! وفاتهم ـ وهم العلماء ـ أن صاحب الإفتاء يصدر عن اجتهاده دون نظر إلى موافق أو مخالف ، وقد اضطر الأستاذ شلتوت أن يدافع عن رأيه فى سلسلة من المقالات الفقهية الأصولية بالسنة الحادية عشرة من الرسالة فتحدث فى بحوث ضافية عن آيات الكتاب فى المسيح، وعن الإجماع ومعناه وحجيته ... السنة والاست...

ومحمد عبده ورشيد ر... الموضوع ! وجاءت سلسلة بحوثه آية فى استواء المنطق ، وصحة الاستدلال وقوة التعليل ، وقد جمعها فيما بعد فى بعض كتبه التى طبعت أثناء مشيخته للأزهر ! بعد أن نشرها الزيات فى بضعة أعداد .

أما المقالة الثانية فبحثه الهام بها عن الهجرة وشخصيات الرسول بالعدد ٤٤٩ من الرسالة إذ ذهب فيه إلى أن للرسول شخصيات متعددة شخصية الرسول وشخصية الإمام العام وشخصية المفتى وشخصية القاضى وأعطى لكل شخصية حكمها فى منطق التشريع ! ومع استناد الرجل إلى أدلته الواضحة فإن خصومه المغرضين قد ملئوا المجلات الدورية بمهاجمته دون أن يفهموا كلامه على وجهه الصحيح ، ولغط

بعض خطباء المساجد عنه بما زينه له الجهل والغرور والادعاء . ولو كان لدى هؤلاء مسكة من عقل لعرفوا أن الشيخ مجتهد ! وله أن يبدى الرأى ولغيره أن يمحصه بالجدل السديد ! ولا أذكر من مجادليه فى هذا الموضوع عالما بحاثة ناقش الرأى بالرأى غير الأستاذ الأكبر محمد الخضر حسين فقد أفرد لمقالة الرسالة وحدها مؤلفا بمفرده وكان من النزاهة والحيدة مضرب المثل فى حجاج الراسخين من أولى العلم ، ولست أنا من القوة [illegible] لأحد الرجلين على صاحبه [illegible] أقول إن [illegible] بل نقد صاحبه يدثر [illegible] الصغار من الضعفاء أنه يحمل له حزازة حارة فى صدره ، وتوقعوا أن يقف فى وجهه حين تقدم لجماعة كبار العلماء ولكن الشيخ شلتوت قد أبدى ترحيبه السار وقال قولته الشهيرة : من أسقط الخضر فقد أسقط نفسه ! وياله مثلا رائعاً فى النزاهة والإنصاف ، لو اقتدى به العلماء !.

مضت الرسالة بعد ذلك فى دعواتها المخلصة للإصلاح الدينى ، وقد اتجهت إلى حل حاسم لمشكلة الأزهر نشر على صفحاتها بتاريخ ٨ إبريل سنة ١٩٤٦ وهو فى لبابه يقترب كثيرا من قانون الأزهر الجديد الذى تم به التطوير التقدمى أخيرا على يد الإمام الراحل ولا أريد هنا أن أوجز الحل الحاسم كما رسمه الأستاذ الزيات لأنى كتبت عنه مقالا مسهبا بالعدد (١٠٢٠) من مجلة الرسالة ١٩٥٣/١/١٩ ومن أراد أن يقف عليه فليرجع إليه : أو إلى مقالات الزيات نفسها فى الرسالة متتبعا ما دار حولها من نقاش طويل اشترك فيه الأساتذة العقاد والمدنى والغمراوى وغيرهم مما يعيه قراء الرسالة ولا يزالون يتحدثون عنه ذاكرين .

ولم ينقطع الأستاذ شلتوت عن التحرير فى الرسالة حتى توقفت ، بل إن الأستاذ الزيات قد دعى إلى تحرير مجلة الأزهر حين أسند الأمر إلى الشيخ عبدالمجيد سليم فقام بواجبه ، وظهرت الرسالة إذ ذاك تبشر بالإصلاح وتتفاءل بالبعث ، وأخذ اهتمام الكاتبين بتجديد الأزهر يتزايد على صفحاتها أثناء ذلك ، لولا أن الشيخ الأكبر قد انسحب من الميدان فجأة على غير إرادته ، وترك الأستاذ الزيات مجلة الأزهر ، ليعود إليها من جديد وقد انقشعت السحب المتكاثفة ، وتمهد السبيل الواضح وأصبح الأستاذ محمود شلتوت شيخ الأزهر وداعية الإصلاح ورجل البعث الجديد ...

أما جهاد الأستاذ الزيات فى مجلة الأزهر فيبعد عن عنوان هذا المقال وإن دعا إليه اطراد الحديث .

محمد رجب البيومى

ذكرى وتحية :

شاعر الإسلام والقوة والتصوف

للأستاذ محمود الشرقاوى

فى ليلة من ليالى الربيع - ربيع القاهرة ذى النسيم الرقيق المنعش - اجتمع فى نادى خريجى الجامعات المصرية صفوة من المثقفين لإحياء ذكرى عظيم من عظماء الإسلام والشرق ، كانت صفوة قليلة العدد ولكنها كبيرة القيمة . وكان من أسماء الخطباء الذين دعينا لسماعهم اسم رجل من رجال الأزهر - الغير الرسميين - ولكنه لم يتكلم ولم يجىء . فافتقدنا بذلك عنصراً كان يجب أن يشارك فى تحية شاعر ظل طول عمره يتغنى بأمجاد الإسلام ويسعى لتجديد قوته والبعد بمعتقديه عن الخرافات وعن المذلة والهوان .

وقد كان سعادة سفير باكستان من شهود الحفل ، تقديراً لشاعر الإسلام العظيم .

* * *

حياة إقبال وثقافته :

فى سنة ١٨٧٣ ولد محمد إقبال لأسرة تعمل بالزراعة فى مدينة « سيلاكون » بولاية البنجاب فى الهند ، وكانت الأسرة تقيم قبل ذلك فى كشمير . وتلقى أول دروسه على أبيه ، ثم دخل « الكتاب » فحفظ القرآن وبعد ذلك دخل مدرسة أجنبية تتبع الإرسالية الأسكتلندية فى سيلاكون ، وكان يرعاه فى هذه المدرســـة أستاذ قدير فى اللغتين العربية والفارسية وآدابهما ، وهو فى نفس الوقت صديق أبيه ، هو السيد/ أمير حسن . وأتم إقبال دراسته فى هذه المدرسة الخاصة حتى تخرج منها بدرجة « ممتاز » والتحق بعدها بجامعة لاهور وكان من أساتذته فيها مستشرق كبير هو السير : « توماس أرنولد » . ومن هذه الجامعة حصل على درجتين علميتين وانتقل بعد ذلك مدرساً للتاريخ والفلسفة فى الكلية الشرقية بلاهور ، ثم لتدريس الفلسفة واللغة الانجليزية فى الجامعة التى تخرج منها ، وفى سنة ١٩٠٥ انتقل إقبال إلى بيئة جديدة ودراسات جديدة مكملة لدراساته فى الهند : سافر إلى انجلترا فالتحق بجامعة « كمبردج » ، ثم إلى ألمانيا فالتحق بجامعة « هيدلبرج » ونال منها الدكتوراه فى الفلسفة عن :

« تطور الفكرة العقلية فى إيران » كما وضع رسالة فى القانون .

ثم دعى بعد ذلك لإلقاء محاضرات فى مدن الهند الكبرى : « مدراس » و « والله آباد » و « عليكرة » ، فتكون من هذه المحاضرات فكرته ودعوته لإصلاح أحوال المسلمين وتقويم المناهج لدراسة الإسلام وفلسفته . وهى المحاضرات التى نقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ عباس محمود بعنوان : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » .

ومن ذلك نعرف أن محمد إقبال « مزيج رائع من ثقافات مختلفة متباينة ، وورراثات مختلفة أيضا أما الوراثات المختلفة التى شاركت فى تكوين شخصيته الفكرة القوية الشاعرة فقد جاءت من أصله السلالى الذى يرده إليه بعض دارسى حياته ، هذا البعض الذى يقول إن أجداده كانوا من البراهمة ، وإن بعض أجداده اتصل بصوفى مسلم صادق الإيمان فتلقى عنه الإسلام وأسلم على يديه ، فإقبال بأصله البرهمى ، ودينه الإسلامى ، ونزعة أسرته الصوفية ، ثم بدراساته المتنوعة بعد ذلك - كان عقلا خصباً مفكراً وقلبا شاعراً ذا نزعة إصلاحية خاصة ، كانت أبرز سماتها الجرأة والحذر معا . ولكنها ، فى كل حال ، عميقة الإخلاص .

وكانت ثقافته - كما رأينا - تجمع بين الدراسات الدينية الجادة ، والدراسات المدنية الجامعية

نشاطه فى الإصلاح والسياسة :

كان لإقبال نشاط مزدوج ولكنه يكمل بعضه بعضا : نجد من تنوع نشاطه السياسى أنه كان أول داعية لفصل مسلمى الهند عن غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى فى دولة مستقلة ، وهى الفكرة السياسية الدينية التى دعا إليها بإيمان تام وناضل فى سبيلها نضال الأبطال ، وتلقفها من بعده الزعيم محمد على جناح حتى انتهت ، كما فصلم ، بتأسيس دولة « باكستان » مستقلة منفصلة عن الهند فى أغسطس سنة ١٩٤٧ ، وكان هذا أبرز عمل سياسى قام به ، وأعظم مشاريعه السياسية الناجحة ، بل هو من أعظم الأعمال السياسية التى تمت فى عالمنا الحديث .

ومن نشاطه السياسى أنه كان عضواً فى المجلس النيابى لولاية « البنجاب » ، ورئيسا لحزب مسلمى الهند - قبل إنشاء باكستان - ومراقباً لمؤتمر « الله آباد » ، ورئيسا لجمعية « حماية الإسلام » التى كانت تشرف على طائفة من المؤسسات ، وأنه اشترك فى مؤتمر « المائدة المستديرة » الذى عقد فى لندن سنتى ١٩٣١ و ١٩٣٢ .

وكان نشاطه الإصلاحى قائما على تجديد الفكر الدينى وإيجاد المسلم الواعى القوى

العارف بحقائق عصره وأهدافه . وكان في ذلك يدعو إلى «صوفية» بعيدة عن التراخي والتواكل والسلبية قائمة على « قوة النفس » وصلابة الإيمان وإقرار حرية الفرد وكرامته كما أمر القرآن ، وعدم الخضوع لمغريات الحياة : المال والشهوة والمجد .

كان تجديد الفكر الديني عند إقبال - كما يقول الأستاذ الزيات في الرسالة « العدد ١٠٦٣ » : قائما على (فهم الإسلام على حقيقته التي أنزلها الله ، وعلى رسالته التي بلغها الرسول ، وعلى سياسته التي طبقها الصحابة ... فهمه على أنه عمارة الدارين بالعمل الصالح ، وسعادة الحياتين بالإيمان الحق ، وقوة المشرقين بالوحدة الجامعة) فقد كان إقبال من دعاة الوحدة الإسلامية الشاملة .

ومن هذا النشاط المزدوج ندرك أن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال كان يمزج بين أهدافه السياسية لمسلمي الهند وبين الدعوة الدينية لهم ولبقية إخوانهم المسلمين جميعا . شأنه في الجمع بين الدين والسياسة شأن الشيخ جمال الدين الأفغاني في الشرق .

مزاجه الصوفي :

كان إقبال ذا مزاج صوفي ، ولكنه لم يكن صوفيا من المعتزلين الهاربين المستدبرين للحياة القانعين منها بالنصيب الأقل والمنزل الدون .

بل كانت صوفيته صوفية التطلع والاندماج وصدق الإدراك وسعة الشمول وعمقه . وهذا كله مزاج ليس غريبا عن الهند ، حيث ولد وعاش ، وطن الفلسفات القديمة والصوفية الشاملة والاندماج بالحس والروح في الكائنات والحياة المتجددة . كما أنه ليس غريباً عن الإسلام : دين التطلع والبحث عن الإدراك والفهم والعمق .

وعلى هذا الأساس أقام دعوته الإصلاحية وفكرته لتجديد الفكر الديني ، لم تكن دعوته تلك ولا فكرته هذه صوفية مطلقة ولا عملية مطلقة . بل كانت مزيجا من الاتجاهين حتى يبدو أحيانا - لبداهة النظرة الأولى - أن في دعوته شيئاً من التناقض ، ولكنه عند التعمق لم يكن كذلك .

كان له في فهم القرآن إدراك صوفي يختلف عن تفاسيره التي نعرفها للمتصوفة . امتزج فيها إحساسه الصوفي الرقيق الخاص وشفافية روحه بعقل العالم العصري . وفي بعض هذه الآراء جرأة يسترها ذلك الثوب الشاعري الرقيق الذي صيغت فيه ، كما يسترها الإخلاص الواضح للفكرة والعقيدة .

كان يرى تخلف الحياة الإسلامية المعاصرة عن مسايرة العصر والحياة العامة في العالم ، ويرى تخلف المسلمين في الهند وغيرها عن اللحاق بغيرهم من الذين سيطروا - بقوة


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

جعلوا عليا وآل البيت مركزاً لتبلور فلسفاتهم ومحورا لكل ما استفادوا من الديانات السابقة ولما انتقلت نظرياتهم الفلسفية من الخاصة المفكرين إلى العامة السذج سادتها الخرافة وطغت عليها المبالغات.

وأشد أنواع الفلسفة تأثيرا فى المذهب الباطنى والعقيدة الشيعية هو فلسفة أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية ولهذا نجد نظريات المثل والقبض والإشراق والعدد تحتل جانبا واسعا من عقيدتهم وتفسيرهم.

ونظرية المثل ... وإن كانت تنسب دائما لأفلاطون. أقدم منه بكثير ولكنه هو الذى وضحها وأشاعها فنسبت إليه.

يجعل أفلاطون هذه المخلوقات التى نحسها جميعا مثلا لحقائق أخرى لا يصل إليها حسنا ويجعل الباطنيون لكل شىء ظاهرا وباطنا وهذه المخلوقات كلها إنما هى ظواهر لأخرى خفية تدل هذه عليها الظواهر ولا قيمة لها بدونها وكما أن أجسام الحيوانات لا قيمة لها بغير أرواحها كذلك هذه الظواهر لا قيمة لها بغير بواطنها. والسذج العوام يعنون بهذه الظواهر ويجهلون ما وراءها كما يعنون بأجسامهم ويغفلون تربية أرواحهم - أما خواص الناس ومفكروهم فهم الذين يعنون بما وراء الظواهر والقرآن كذلك بطبيعة الحال له ظاهره وباطنه.

إذا نحن رجعنا إلى الوراء وجدنا هذه الفكرة فى كثير من الديانات السابقة.

فمن قديم جداً فسر البراهمة وعلماء البوذيين نصوص الفيدا تفسيراً باطنا يعطى معنى غير المعنى الظاهر من الألفاظ - وفى مدرسة الإسكندرية، وعمادها الفلسفات التى قام عليها مذهب الفاطميين - فسرت الكتب المقدسة هذا التفسير.

ففيلون اليهودى وكان وثنيا قبل أن يتهود فسر التوراة تفسيراً باطنياً وعلماء المسيحية أمثال أوغسطين وأرجينوس - فسروا الأناجيل تفسيراً باطنيا وذهب اكليمنطس فى هذا مذهبا أوسع فقد وضع شروطا للتفسير منها أن كل لفظ من الإنجيل لا بد أن يكون له معنى مجازى بجانب معناه الحقيقى.

وهؤلاء جميعا كانوا من مدرسة الإسكندرية وعنوا بالفلسفة اليونانية بوجه عام وبفلسفة أفلاطون بوجه خاص وعملهم هذا إنما هو تطبيق لنظرية المثل.

وليس بعيدا عن هذه النظرية ما تمسكت به الكنيسة المصرية من أن المسيح هو كلمة الله المتجسدة وأن له طبيعة واحدة هى الطبيعة اللاهوتية - وقد سببت هذه النظرية العداء المعروف بين الكاثوليكيين واليعاقبة وبين اليعاقبة والنساطرة ولقى المصريون بسببها مر العذاب - وهى تعنى أن المسيح مع مظهره البشرى وتجسده أمام الناس هو فى واقعه روح الله وإذن فبشريته مثل ووراءه ممثول.

وقد استفادت الفاطمية من المسيحية،

من غير شك، بل أن عقيده الفاطميين مجموع من الديانات و الفلسفات القديمة مزجت كلها ودارت حول محور معين كما قلنا ، وقد ذكر المرحوم الدكتور محمد كامل حسين أمثلة مما استفادته من ديانات المصريين القدماء وعلوم اليونان وفلسفاتهم ومن والزرادشتيه والعبرية والبابلية وغيرها .

ومن الأفكار المشتركة بينهم وبين اليهود والمسيحيين فكرة المنقذ المخلص من الشرور.

فاليهود ينتظرون المخلص من ذرية موسى أو طائفة اللاويين ، والمسيحيون يؤمنون برجعة المسيح ليملأ الأرض سلاما وعدلا والشيعة يؤمنون بالمهدى المنتظر .

وإذن فهذا اللون من التفسير سر لتلك الفلسفة والفاطميون ليسوا بدعا فى هذا ـ فالفكر الفلسفى فى كل مكان لون الأديان وترك فيها أثرا باقيا فى عقائدها وقوانينها ، وإنما الغريب لدى الفاطميين والشيعة أيا كانوا هو الغلو فى الفكرة وتحميل النص معانى بعيدة كل البعد عن ألفاظه ولا يمكن أن يحتمله تركيبها بوجه من الوجوه فالسير فى هذا الطريق يجعل القرآن غير عربى الأسلوب ويسمح لكل مفسر أن يضمن النصوص ما يشاء من المعانى من غير قانون ولا حساب .

ويبدو أن هذا التفسير، شأن كل المذاهب الأخرى ، بدأ مبسطا ساذجا خاليا من الغلو .

وهذه كلها ترد إلى نظرية المثل التى نادى بها أفلاطون ونجد لهذه النظرية ظلالا فى فلسفات الهند والصين وليس أفلاطون أول من نادى بها ولكنه هو الذى وضحها ووسع دائرتها وأشاعها حتى نسبت إليه .

وإلى وجود هذه النظرية فى بلاد شرقية قبل أفلاطون نجد أن بعض البراهمة والبوذيين فسروا الفيدا بمثل هذا التفسير فجعلوها ذات معانى ظاهرة وأخرى باطنة ، وقد حاول هذه المحاولة فيلون اليهودى وتلاميذه فى تفسير نصوص التوراة وليس من شك أن هذا نتيجة لدراستهم الفلسفية فى مدرسة الإسكندرية وكانت تقوم على الفلسفة الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة بنوع خاص .

وهذه الفكرة تبدو فى المسيحية بوجه أظهر فى جعل المسيح كلمة الله المتجسدة وقد أصرت كنيسة الإسكندرية على أن له طبيعة واحدة هى الطبيعة اللاهوتية فهو فى مظهره البشرى ليس إلا مظهرا ـ مجرد مظهر لسر لاهوتى ، أو بعبارة أخرى إنه مثال لممثول غير مرئى وهى نفسها نظرية أفلاطون .

وقد شاع عند الفاطمية والشيعة بوجه عام تطبيق الممثول والمثل . ولكننا لا نجد هذه الفكرة تظهر إلا فى وقت متأخر وتوضحها بوجه خاص كتب داعى الدعاة . ومال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين إلى أنها لم تظهر إلا بعد عصر الترجمة فى عصر المأمون

فمنذ القرن الثالث الهجرى اطلع المسلمون على ثقافات وديانات كانت شائعة قبل الإسلام وكانت لا تزال لها بقايا فى البقاع التى فتحها المسلمون من ناحية ونقلتها إليهم الترجمة من ناحية أخرى ومع أن الإسماعيلية اتخذوا طريقة التأويل مذهبا لهم إمعانا فى شرف على وآل البيت لم يستطيعوا أن يخلصوا عقيدتهم من نظريات الفلسفات الأخرى فاعتمادهم عليها فى التأويل جعلها تدخل ضمن عقيدتهم ولهذا كانت عقيدة الفاطميين مزيجا من ديانات ومذاهب متعددة ـ ففيها أقباس من ديانات المصريين القدماء وفيها من علوم اليونان وفلسفاتهم أفلاطونية وأفلاطونية حديثة وفيثاغورية وررواقية كما نجد فيها زرادشتية وعبرية وبابلية وهكذا ... وقد ذكر الدكتور كامل أمثلة لهذا كله تؤيد فكرته وتوضح كلامه .

وإذن فهذا اللون من التفسير ظل لهذه الفلسفة ـ والفاطميون ليسوا بدعا فى هذا فالفكر الفلسفى فى كل مكان لون الأفكار الدينية وترك أثرا فى قوانينها وعقائدها ، لكن الغريب لدى الشيعة هو الغلو فى الفكرة وتحميل النص معانى لا يمكن أن نجد بينها وبين الألفاظ أية صلة أو ارتباط . فالسير فى هذا الطريق يجعل القرآن غير عربى ويسمح لكل مفسر أن يضمن النصوص ما يريد من غير قانون ولا حساب . ويبدو أن شأن هذا التفسير كشأن كثير من الأفكار تبدأ ساذجة مبسطة ثم يدخلها الغلو والتعقيد فهو فيما يظهر قام فى أول أمره على فكرة تضمين النص .

ثم زاد غلوه وكثرت خرافاته ـ فالمذهب الشيعى نفسه كان أول أمره بسيطاً يقف عند حد المطالبة بحق على فى الخلافة ورمى الخلفاء الآخرين بالكفر لا يخرج المذهب إلى جانب بعيد عن الفكر الإسلامى وقد عفت طائفة الكيسانية المتفقة على رميهم بالتكفير .

ومنذ عصر الترجمة وبعد أن نقلت للمسلمين ألوان من التراث العقلى والدينى لم يكونوا قد اطلعوا عليها من قبل بدأ المذهب الشيعى يتعقد وتدخله آراء ونظريات بعيدة عن تفكير السنيين وغير السنيين من المسلمين ـ ولعل دعاة الفاطمية تقبلوا خرافات العامة استكثارا للأتباع وتأييداً للحكام وأغضوا عما فى هذه الخرافات من بعد عن سنة المسلمين ـ وقد انتقل الفكر الفاطمى إلى اليمن ولكنه تحور هناك وبعد كثيراً عما كان عليه دعاة الفاطميين .

وأهم مستند نعتمد عليه فى هذا هى محاضرات داعى الدعاة الباقية فى المجالس المؤيدية والمجالس المستنصرية وهى تباين ما عليه الزيديا من اليمنيين ؟

عبد الجليل شلبى
عضو المكتب الفنى بمجمع البحوث الإسلامية

غـزوة أحـد
بين القرآن والشعر

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي

— ٢ —

أما الشعر فقد اشترك فى معركته من الفريقين زهاء عشرين شاعراً ، وكثيرا ما كان الشاعر يتحدث عما يجول بنفسه إزاء تلك الغزوة ، ثم ينهض شاعر يرد عليه من الفريق الثانى ، وأكثر ما كان ذلك من ناحية المشركين ، يفخرون بما أوتوه من نصر على المؤمنين ، فينهض من هؤلاء شعراء يردون على أولئك.

وقد لعب الشعر فى هذه المعركة كثيراً من الأدوار .

فهو مرة يقوم بدور المحرض على حرب الرسول ، فهذا أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى قد من عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وكان فقيراً ذا عيال وحاجة ، وكان فى الأسارى ، فقال للرسول : « إنى فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها ، فامنن على فن عليه الرسول ، فقال له صفوان بن أمية يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك فاخرج معنا ، فقال : إن محمدا قد من على ، فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال : بلى ، فأعنا بنفسك ، فلك الله على إن رجعت أن أغنيك وإن أحببت أن أجعل بناتك مع بناتى ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير فى تهامة ، ويدعو بنى كنانة ، ويقول :

إيها ، بنى عبد مناة الرزام
أنتم حماة ، وأبوكم حام (١)
لا تعدونى نصركم بعد العام
لا تسلمونى ، لا يحل إسلام

ومضى مسافع بن عبد مناف إلى بنى مالك ابن كنانة يحرضهم على حرب الرسول ويقول:

يا مال ، مال الحسب المقدم
أنشد ذا القربى ، وذا التذمم (٢)
من كان ذا رحم ومن لم يرحم
الحلف وسط البلد المحرم
عند حطيم الكعبة المعظم

وكان لهذا الشعر أثره ، فاستجابت له كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا مع قريش إلى أحد .

---

(١) الرزام : جمع رازم ، وهو : من يثبت ، ولا يبرح مكانه وحام : أى الحامى .

(٢) مال : مرخم مالك . وذو التذمم : من له ذمة وعهد .

ودعوة صفوان بن أمية لأبي عزة أن يساعد قريشا بشعره يدل على ماكان للشعر من قوة آسرة فى هذا المجال .

فلما التقى الفريقان كان للشعر أثره فى التحريض على القتال والاستماتة فيه ، فهذه هند بنت عتبة مع النسوة اللاتى معها يأخذن الدفوف ، ويضربن بها خلف الرجال وتنشئ هند الشعر تحرض به ؛ فكان مما قالت :

ويهـا ، بنى عبد الدار
ويهـا ، حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار (١)

وكان مما قالته أيضا :

إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق (٢)
أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق (٣)

وإذا كانت فى الرجز الأول قد خصت بنى عبد الدار ، فلأنهم كانوا حملة لواء المشركين يوم أحد ، ولثبات حامل اللواء أثر كبير فى نفوس الجند ، وسوف نتحدث عن قصة هذا اللواء وماكان له من أثر فى شعر هذه المعركة .

وإذا كانت قد أغرت بنى عبد الدار فإنها قد عادت تغرى جند المشركين جميعا ، وتصفهم بأنهم حماة قومهم ، وتحثهم على الزحف ، حتى يصلوا إلى عدوهم ، ويضربوه بسيوفهم الباترة .

وهى فى الرجز الثانى تغريهم بالقتال وتعدهم إن صدقوا فيه ، بهبة القلوب والأجسام ، أما إن فروا فلن يكون نصيبهم إلا البغض والفراق .

وكما كان الشعر يحرض المحاربين على القتال اتخذه الشعراء وسيلة لتحريض أنفسهم عليه ويتخذون من نغماته وموسيقاه ، ومن معانيه الحماسية مشجعا لهم على استقبال المـوت لا يهابون ؛ فهذا أبو دجانة يخرج إلى القتال وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى
ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول (١)
أضرب بسيف الله والرسول

ولعل الخليل الذى عاهده هو سيفه ، ولعله ذكر النخيل هنا كأنه يجعله شاهدا على هذا العهد حتى لا يخيس به ، ولا ينقضه ، ولعل الفعل

(١) حماة الأدبار : من يحمون الجيش من التقهقر والبتار : القاطع .

(٢) النمارق : جمع نمرقة ، وهى : الوسادة الصغيرة .

(٣) الوامق : المحب .

(١) الكيول : آخر صفوف الجيش فى الحرب .

المضارع جاء هنا مجزوما ساكن الآخر دلالة على ما فى قلبه من الجزم والتصميم .

وهذا أبو زعنه بن عبد الله يقول يوم أحد:

أنا أبو زعنة يعدو به الهزم (١)
لم تمنع المخــزاة إلا بالألم (٢)
يحمى الذمار خزرجى من جشم (٣)

وهذا الجندى شاعر بمرارة القتال ، ولكنه يقدم عليه ، ليدفع عن نفسه العار والخزى ، وإذا كان قد نسب نفسه إلى قومه وقبيلته فكأنه بذلك يجعل حماية الذمار ديدن هؤلاء القوم وشيمة تلك القبيلة .

وهذا لشرجز اهر آخر من المسلمين أيضاً يتحدث عن إقباله من بعيد يقطع المهامه والقفار ، بين السيوف والرماح ، يريد أن يحمى رسول الله ، فيقول :

لاهم ، إن الحارث بن الصمة
كان وفياً ، وبنا ذا ذمة
أقبــل فى مهامه مهمة
كليلة ظلماء مدلهمة (٤)
بين سيوف ورماح جمة (١)
يبغى رسول الله فيما ثمه

وحديثه عن المهامه المظلمة المدلهمة ربما فهم منه أنه أقبل من بعيد ، ولم يكن من أبناء المدينة .

وكذلك يقول عكرمة بن أبى جهل ، من جنود المشركين فى ذلك اليوم ، يحث جواده على الإقدام ، ويصف نفسه بالرئيس العظيم ، وكأنه بهذا الوصف يشعر نفسه بما ينبغى أن يكون للرئيس من صفات الشجاعة والبسالة ، فيقول :

كلهم يزجره ، أرحب هلا (٢)
ولن يروه اليوم إلا مقبلا
يحمل رمحاً ورئيساً جحفلا (٣)

وعثمان بن أبى طلحة يحمل لواء المشركين ويقول:

إن على أهل اللواء حقاً
أن يخضبوا الصعدة (٤) أو تندقا

فهو يرى من واجب قومه أن يحاربوا حرب المستميت ، حتى يخضبوا الرماح بدماء أعدائهم ، أو يحطموها فى صدرهم .

وشداد بن الأسود يرى حنظلة بن أبى عامر يعلو أبا سفيان بسيفه يريد قتله ، فقتل شداد حنظلة ، وهو يقول :

---

(١) الهزم : الذى يسمع صوت جريه
(٢) يريد أن العار لا يرد إلا ببذل المرء جهودا مؤلمة
(٣) الذمار : كل ما يلزم المرء حمايته .
(٤) المهامه : جمع مهمه ، وهو : القفر ، وكليلة : لا يستطيع البصر أن يحقق ما يراه فيها ، ومدلهمة : شديدة الظلام .

(١) جمة : كثيرة
(٢) مما يزجر به الخيل .
(٣) رئيس جحفل : عظيم القدر
(٤) الصعدة : القناة المستوية المستقيمة .

لأحمين صاحبي ونفسي
بطعنة مثل شعاع الشمس

ولا بد أن يكون هناك رجز كثير غير هذا الذى حفظه التاريخ ، قاله كثير من الجند ، يقوون به روحهم المعنوية ، ويدفعهم إلى القتال دفعاً .

* * *

وكان نصر المشركين فى هذه المعركة مجال فخر شعرائهم ، يسجلونه ضمن ما يسجلون من مآثرهم ، فنرى هبيرة بن أبى وهب يعد بين ما يعد لقومه من المآثر أن كان لهم دور كبير فى معركة أحد ، إذ يقول :

نحن الفوارس يوم الجر[1] من أحد
هابت معد ، فقلنا : نحن نأتيها
هابوا ضرابا وطعنا صادقا خذما[2]
مما يرون ، وقد ضمت قواصيها[3]
ثمت رحنا كأنا عارض برد[4]
وقام هام بنى النجار يبكيها

وضرار بن الخطاب يفتخر بشجاعة قومه يوم أحد ، فيقول :

وما انتميت إلى خور ولا كشف
ولا لئام غداة البأس أو راع[1]
بل ضاربين حبيك البيض إذ لحقوا
شم العرانين عند الموت لذاع[2]
شم بهاليل ، مسترخ حمائلهم
يسعون للموت سعياً غير دعداع[3]

وقد فخر عمرو بن العاص بانتصاره على أهل المدينة ، وتحطيم آمالهم :

تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا
لدى جنب سلع[4] ، والأمانى تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة
كراديس[5] خيل فى الأزقة تمرق
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا
ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قبابا أومنت قبل ما ترى
إذا رامها قوم أبيحوا ، وأحنقوا[6]

وظهر فى فخر المشركين التشفى والفرح

---

(١) الجر : أصل الجبل .
(٢) خذم الشىء : قطعه بسرعة .
(٣) قواصيها : جمع أقصى ، وهو الأبعد . أى اجتمع فى الحرب ما تفرق .
(٤) العارض : السحاب . والبرد : ما فيه برد .

(١) الخور : الضعفاء ، والكشف : جمع أكشف ، وهو من ينهزم فى الحرب .
(٢) البيض : السيوف والحبيك : طرائقها . وشم : مرتفعة والعرانين : جمع عرنين . وهو الأنف . ولذاع : يضربون ضربا لاذعا .
(٣) البهاليل : جمع بهلول ، وهو : السيد . والاسترخاء حمائل السيف كناية عن طولهم ودعدع : إركض متباطئا .
(٤) سلع : اسم جبل .
(٥) كراديس : جمع كردوسة ، وهى : الطائفة العظيمة من الخيل
(٦) أحنقوا : أغضبوا

بالانتقام ، والأخذ بثأر الذين قتلوا يوم بدر ، بل ظهر التشفي بالتمثيل بجثمان حمزة ، يقول عبد الله بن الزبعرى :

فسل المهراس من ساكنه
بين أقحاف وهام كالحجل (١)
ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل (٢)
حين حكت بقباء بركها
واستحر القتل في عبد الأشل (٣)
ثم خفوا عند ذاكم رقصا
رقص الحفان يعلو في الجبل (٤)
فقتلنا الضعف من أشرافهم
وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وابن الزبعرى في هذا الشعر يفتخر بكثرة من قتلوا من المسلمين ، ويشير إلى المهراس ، وما فيه من هام بترت عن الأجسام ، ويتمنى أن لو استطاع أشياعه الذين قتلوا ببدر أن يروا كيف أخذ بثأرهم في تلك المعركة التي قتل فيها الكثير من أشراف المدينة ، حتى انتقموا لمعركة بدر التي هزموا فيها ، وكان عليهم ، أن يغسلوا عن أنفسهم بأحد عار هزيمتهم في بدر .

ويقول ضرار بن الخطاب الفهري :

فياليت عمراً وأشياعه
وعتبة في جمعنا السورج (١)
فيشفوا النفوس بأوتارها (٢)
بقتلى أصيبت من الخزرج
وقتلى من الأوس في معرك
أصيبوا جميعاً بذي الأضوج (٣)
ومقتل حمزة تحت اللواء
بمطرد مارن مخلج (٤)
بأحد ، وأسيافنا فيهم
تلهب كاللهب المرهج (٥)

ويقول أبو سفيان :

وسلى الذي قد كان في النفس أنني
قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرما كريما ومصعبا
وكان لدى الهيجاء غير هيوب (٦)
ولو أنني لم أشف نفسي منهم
لكانت شجاً في القلب ذات ندوب (٧)

---

(١) المهراس : اسم موضع والأقحاف : جمع قحف ، وهو : العظم الذي فوق الدماغ ، والهام : جمع هامة ، وهي : الرأس والحجل . طائر .
(٢) الأسل : الرماح
(٣) البرك : الصدر . واستحر القتل : اشتد .
(٤) رقص : اضطرب والحفان : صغار النعام .

(١) السورج : المتقد .
(٢) الوتر : الانتقام .
(٣) ذو الأضوج : موضع .
(٤) المطرد : الرمح المستقيم . والمارن : اللين في صلابة ومخلج : ضارب .
(٥) أرهج : أثار الغبار .
(٦) القرم : السيد العظيم ، والمصعب : الفحل . والهيجاء : الحرب .
(٧) الشجا : الحزن ، والندوب : جمع ندب ، وهو أثر الجرح .

ويريد بالقرم الكريم من بنى هاشم حمزة عم الرسول .

أما هند بنت عتبة وزوج أبى سفيان فقد اتخذت من آذان الرجال وآنافهم خلخالا وقلائد ، وأعطت خلخالها وقلائدها وقرطها وحشيا قاتل حمزة ، وبقرت عن كبده فضغتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ؛ ثم علت على صخرة مشرفة فقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر(١)
ما كان عن عتبة لى من صبر
ولا أخى ، وعمه ، وبكرى
شفيت نفسى ، وقضيت نذرى
شفيت وحشى ، غليل صدرى (٢)
فشكر وحشى على عمرى
حتى ترم(٣) أعظمى فى قبرى

ويحس القارئ بأن شكرها الوحشى نابع من صميم فؤادها ؛ لأنها أدركت ثأرها على يديه ، فشفى نفسها ، وقضى نذرها .

وتتحدث عن تمثيلها بحمزة فتقول :

شفيت من حمزة نفسى بأحد
حتى بقرت (٤) بطنه عن الكبد
أذهبت عنى ذاك ما كنت أجد
من لذعة الحزن الشديد المعتمد(١)
والحرب تعلوكم بشؤبوب برد (٢)
تقدم إقداماً عليكم كالأسد

وهذا شعر يصورها مهتاجة العواطف ، متأججة الحزن ، حتى كأنما خرجت من طبيعة الإنسان إلى طبيعة الوحوش الكاسرة .

ماذا كان موقف شعراء المسلمين إزاء هذا الفخر والتشفى ؟

لقد حاول بعض شعراء المسلمين أن يقال من قيمة ما يدعيه المشركون من المفاخر ؛ وأظهر ما كان ذلك فى أمر لواء المشركين ؛ فإن التاريخ يروى أن أبا سفيان قائد جيش المشركين قال لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار وكان لهم اللواء والحجابة ودار الندوة يحرضهم على القتال : يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلو بيننا وبينه فنكفيكموه ، فغضبوا ، وقالوا : ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؛ وهكذا نجح أبو سفيان فيما أراد .

« يتبع »

دكتور أحمد أحمد بدوى

---

(١) السعر : الجنون .

(٢) الغليل : الحقد وحرارة الحزن .

(٣) ترم : تبلى .

(٤) بقرت : شققت

(١) لذعت النار الشىء : أحرقته . والمعتمد : الذى يعمد إليه القلب .

(٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر والبرد : ذو البرد (بفتح الراء) .

من بحوث مجمع البحوث

ملكية الأفراد للأرض ومنافعها فى الإسلام

للأستاذ محمد السايس

موضوع البحث الذى تقدم به فضيلته المؤتمر فى دورته الأولى . وقد مهد له ببيان الحكمة من استخلاف الله الإنسان على الأرض وهى تعميره لها . الأمر الذى كان لا يمكن أن تقوم له قائمة بغير تعاون أفراد الجماعة الإنسانية على النهوض بأعبائه الثقيلة مع ما بين هؤلاء الأفراد من اختلاف فى القوى والميول والمشارب قضى بألا تستقيم حياة هذه الجماعة بغير دستور محدد حقوق أفرادها وواجباتهم . فكان الدستور الإنسانى العام بمبادئه الخمسة . حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال : الذى أقرته جميع الشرائع السماوية والوضعية . والذى من المبدأ الأخير فيه تولدت نظرية الملكية

ثم بين الملكية فى عرف اللغويين والقانونيين والفقهاء بما لا يخرجها عن كونها : اختصاص إنسان بشىء على وجه يمكنه من التصرف فيه دون غيره إذا لم يوجد مانع من ذلك : وهذا الملك كما يطلق على العلاقة النسبية بين الشخص وما يملكه كثيرا ما يطلق على الشىء المملوك .

وحصر ما يملك من الأشياء فى ثلاثة :

١ — الأعيان وهى الأشياء المحسة من عقار أو منقول .

٢ — المنافع وهى ما يقصد من الأعيان.

٣ — الحقوق المتعلقة بالمال كحق المرور مثلا أو بغيره كحق الحضانة . وقسم الأعيان بالنسبة لقابلية التملك إلى ما لا يقبل التملك أو التمليك بحال وهو ما كان خاصا بالمنافع العامة ما بقيت له صفة العموم وما يقبله بمسوغ شرعى كالعين الموقوفة إذا زادت نفقاتها على ما تغله . وما يقبله بلا قيد وهو ما عدا النوعين ثم قسم الملك إلى : تام : وهو ما يقع على الشىء ومنافعه جميعا : وإلى : ناقص : وهو ما يقع على أحدهما العين أو المنفعة ووضح خصائص النوع الأخير من كونه يقبل التغيير بالزمان والمكان والصفة . ولا يقبل التوارث إلا فى هذه

الخصائص كما وضح الأسباب التى بها ينتهى هذا النوع من الملك وذكر أن من الملك الناقص حق الارتفاق : وهو الحق المقرر على عقار لمنفعة عقار آخر مملوك لغير مالك العقار الأول : كحق الشرب والمرور وبين أيضا مايثبت به هذا الحق . من الشركة العامة كما فى الطرق والأنهار . ومن النص عليه فى عقد المعاوضة إلى غير ذلك .

وختم هذا التمهيد ببيان خصائص الملك التام وأسبابه . وموقف الإسلام من حرية الملك عامة .

ثم انتقل بعد ذلك إلى بحث ملكية الأفراد للأرض ومنافعها فى الإسلام . فأورد النصوص القرآنية التى تثبت أن ملكية الأرض كانت موزعة بين الأفراد فى جميع العصور ولدى جميع الدول وفى الديانات المتعاقبة ، يتبادلون ملكيتها ويتوارثونها حسبما تقضى به شرائعهم ونظمهم . وأتبعه بإيراد بعض الأحاديث والآثار الدالة على أن الأرض كانت مملوكة للأفراد ينتفعون بها بكل وجوه الانتفاع . ثم ساق بعض نصوص فقهاء المذاهب الأربعة المتعلقة بهذا الموضوع .

* * *

وإليك جزء هذا البحث الخاص . بأسباب الملك التام وخصائصه . وبموقف الإسلام من حرية الملكية عامة وملكية الأفراد الأرض ومنافعها مع بعض ما أورده من الأحاديث والآثار التى تؤيد هذه الملكية .

الملك التام خصائصه وأسبابه :

١ — من تعريف الملك التام السابق يثبت للمالك مطلق التصرف فى العين ومنافعها بكافة التصرفات المشروعة من بيع وإجارة وإعارة وغيرها . وهذه الحرية المطلقة للمالك لا تتقيد إلا بأمرين : الأول عدم الإضرار بغيره فردا كان ذلك الغير أو جماعة ، الثانى أن يكون تصرفه فى نطاق الأوامر والقرارات التى تصدرها السلطات الحاكمة تحقيقا للمصلحة العامة ويشمل ذلك نزع الملكية للمنفعة العامة والاستيلاء المؤقت على العقار فى حالة حصول غزو أو قطع جسر وقيود المفروضة لصالح الأمن أو الصحة العمومية كالقيود المختصة بالتنظيم وإنشاء العزب والزرائب والمحلات المقلقة للراحة والمضرة بالصحة والخطرة وإقامة الآلات الرافعة وتركيب الآلات البخارية والقيود المفروضة لصالح الزراعة الملزم باتباعها مالكو الأرض المجاورة للترع والمصارف ونحوها .

والقيود الموضوعة لحفظ وإنماء الثروة الأهلية كالقيود الخاصة بالمناجم وحماية الآثار التاريخية وتحريم بعض المزروعات .

٢ – للمالك حق الانتفاع بالشيء المملوك بأي وجه من وجوه الانتفاع غير متقيد بزمان ولا مكان ولا بشكل معين ما لم يكن ذلك محرما شرعا كأن يجعل داره ناديا للقمار .

٣ – أن هذا الملك غير مؤقت ؛ فلا ينتهي إلا بهلاك العين المملوكة أو بانتقاله إلى غيره بالوراثة إذا مات المالك أو بتصرف شرعي ناقل للملكية كالبيع والهبة .

٤ – أن ملكية الأعيان لا تقبل الإسقاط لأنه لا سائبة في الإسلام .

أسباب الملك التام :

من المفيد هنا أن ننقل ما جاء في البحر نقلا عن كتاب الحاوي للقدسي ونصه :

الملك : الاختصاص الحاجز وأنه حكم الاستيلاء لأنه به ثبت لا غير إذ المملوك لا يملك لأن اجتماع الملكين في محل واحد محال فلا بد وأن يكون المحل الذي ثبت فيه الملك خاليا عن الملك والخالي عن الملك هو المباح والمثبت للملك في المباح الاستيلاء لا غير وهو طريق الملك في جميع الأموال لأن الأصل الإباحة فيها وبالبيع والهبة ونحوها ينتقل الملك الحاصل بالاستيلاء إليه فمن شرط البيع شغل المبيع بالملك حالة البيع حتى لم يصح في مباح قبل الاستيلاء ومن شرط الاستيلاء خلو المحل عن الملك وقته وبالإرث والوصية تحصل الخلافة عن الميت حتى كأنه حي لا الانتقال حتى ملك الوارث الرد بالعيب دون المشتري أي المشتري من المورث الذي مات . فالأسباب ثلاثة مثبت للملك وهو الاستيلاء وناقل للملك وهو البيع ونحوه وخلافة وهو الميراث والوصية ومن هنا نعلم أن أسباب الملك التام ثلاثة :

١ – الاستيلاء على المال المباح .

٢ – العقود الناقلة للملكية من بيع وهبة مثلا .

٣ – الخلافة : أن يقوم شخص مقام شخص فيما كان يملكه ويخلفه فيه كما في الإرث ولا تعتبر الشفعة وهي حق تملك العقار جبرا على المشتري بما قام عليه لأنها هي حق التملك وليست هي التملك .

وحقيقة التملك إنما تكون بالتراضي أو بقضاء القاضي ومرده إلى العقد بإقامة القاضي مقام الممتنع الجبر وكذلك لا يعتبر التولد من المال المملوك سببا جديدا لإفادة الملك في المتولد أو المستفاد من المملوك لأن من خصائص الملك التام كما قدمنا أن يكون المال بمنافعه وثمراته المتصلة والمنفصلة ملكا لصاحبه مقصورا عليه لا يشاركه فيها أحد فيكون ملك ما تولد ثابتا بالسبب الأول الذي ثبت به الملك في أصله فمن ملك حيوانا بعقد أو بإرث فإنه يملك ذاته وما ينتج منه

فى المستقبل لأن النتاج حين وجوده يكون كالجزء المنفصل فلا يحتاج إلى سبب جديد .

ثم إن لهذه الأسباب أوصافا مختلفة تنقسم باعتبارها ثلاثة تقسيمات ، فتنقسم أولا إلى اختيارية وجبرية أما الاختيارية فهى الاستيلاء على المال المباح والعقود ، والجبرية هى الخلفية التى تتحقق بالميراث فإن هذا السبب يثبت الملك فيه جبرا على كل من المورث المالك السالف والوارث الخليفة عن المورث فإن الشارع جعل الوارث يحل محل المورث فى ملكه المنتهى فالملك الجديد امتداد للملك القديم ولهذا لا يشترط قبوله ولو رده لا يرتد بالرد والذى يثبت فيه الملك بهذا السبب هو المال الباقى بعد تجهيز الميت وسداد ديونه وتنفيذ وصاياه وعلى هذا تكون الخلافة فى ملك الباقى فقط وليست خلافة فى كل شىء ، فلا يلزم الوارث بسداد دين الميت فى ماله الخاص إذا لم تف تركته بديونه .

وتنقسم ثانياً إلى ما هو منشىء للملكية وناقل لها من شخص إلى شخص آخر فالمنشىء للملكية هو الاستيلاء على المال المباح فإن المال المباح لا يوصف قبل الاستيلاء عليه بالمملوكية ويدخل فى هذا السبب الاستيلاء على الغنائم الحربية ، لأن أموال الحربيين تعتبر مباحة لأن المال المباح هو الذى لم يدخل فى ملك يحترمه الشارع ولم يوجد ما يمنع شرعا من تملكه ومال هؤلاء غير محترم فى نظر الإسلام فى حالة الحرابة .

والناقل للملكية هى العقود والخلفية فإن هذين لا يثبت بهما ملك الشخص إلا إذا كان المال الذى ورد عليه العقد أو الميراث مملوكا من قبل فالمال المباح لا يكون محلا لعقد من العقود كما لا يكون ميراثا لأحد .

وبهذا يظهر أن أول أسباب الملك وجوداً الاستيلاء على المباح ثم بعد ذلك يجىء النقل بالعقد أو الإرث . وتنقسم ثالثاً إلى فعلية وقولية واعتبارية شرعية — والاستيلاء سبب فعلى لا يتحقق إلا بالفعل ولهذا يصح من ناقصى الأهلية كالصبيان والمحجور عليه فإذا استولى صبى ولو غير مميز أو محجور عليه أو مجنون على مباح استيلاء حقيقياً صحيحاً ملكه مع أن العقود الصادرة من هؤلاء قد تكون باطلة أو موقوفة على إذن الولى .

والعقد سبب قولى فى غالب صوره لأن الأصل فيه أن يكون بالقول وقد يتحقق بالفعل نيابة عن القول كما فى الكتابة أو الإشارة وشرط إثباته الملك أهلية العاقد الكاملة .

والإرث يثبت الملك من غير فعل ولا قول من الوارث أو المورث فهو سبب

اعتبارى جعله الشارع موجباً للملك من غير أن يكون لأحد دخل فيه ؛ لذلك يثبت للصغير والكبير والمميز وغير المميز بل يثبت للجنين فى بطن أمه .

هذا وموضوع البحث وهو ملكية الأفراد للأرض ومنافعها يقتضينا أن نخص السبب الأول وهو المنشئ للملكية بالبحث لأن نشأة الملكية للأرض منذ بدء الخليقة ترتبت عليه فإن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بأن جعل لهم الأرض جميعاً أى الأرض وما فيها بأن يراد بالأرض ناحية السفل بدليل المقابلة بالسماء « ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » واللام للملك والاختصاص وقال تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » .

وقد استدل العلماء بالآية الأولى على إباحة الأشياء قبل ورود الشرع والملك فى الحقيقة لله سبحانه ولكن الله الغنى تفضل على عباده المحتاجين للانتفاع بمخلوقاته من الأرض وغيرها بإباحتها لهم وتمليكها لهم إن أحيوها واستولوا عليها على ما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم : (الأرض أرض الله والعباد عباد الله من أحيا أرضا مواتا فهى له) والإحياء يكفى أن يكون وحده سببا للملك بدون حاجة إلى إذن السلطة الحاكمة ، لأن الأرض الغير مملوكة لأحد مباحة والمباح لا يحتاج فى تملكه إلى إذن من الإمام . ولأن الحديث الذى بين الطريق التى تملك بها الأرض المباحة لم يقيد ذلك بالإذن . ولفظه كما جاء فى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من أعمر أرضا ليست لأحد فهى له).
ويرى أبو حنيفة أن الملك لا يثبت بمجرد الإحياء بل لا بد من إذن الإمام أو نائبه . لأن الأرض وإن كانت مباحة إلا أنه قد يتزاحم الناس عليها فتقع الشحناء بينهم . فنما لهذا يشترط إذن الإمام ؛ لأنه بما له من الولاية العامة يستطيع قطع أسباب الخصام فلا يأذن إلا بما ليس فيه ضرر . ويشهد له حديث : ليس للمرء إلا ما طابت به نفس الإمام .
والخلاصة أن الاستيلاء على الأرض المباحة كاف التملك إن لم تكن هناك مظنة تنازع أو تزاحم ولم يكن هناك منع عام من الإمام وأنه لا بد من إذن الإمام إن خيف التنازع والتخاصم . وعلى ذلك فليس فى مصر الآن أرض موات بالمعنى الذى عناه الفقهاء ، لأن أراضيها غير المملوكة للأفراد أو الشركات والموقوفة مملوكة للدولة ولها وحدها حق تمليكها لمن تشاء بعوض أو بغير عوض . ونسوق بعد ذلك كلمة فى احترام الشارع للملكية بوجه عام وتقريره لحريتها وحرمتها .

حرية الملكية :

من الضروريات الخمس التى أجمعت الشرائع السماوية على وجوب حفظها وقررت احترامها وحرمتها المال ، فى الحديث : كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ـ لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب من نفسه .

وقد كفل الإسلام حرية الملكية بأحكام شرعها :

فأولا : جعل التراضى والرضا أساسا للمبادلات المالية فكل ما شرعه الله من التصرفات التى تفيد نقل ملكية العين أو منفعتها من بيع وإجارة وإعارة جعل أساس صحته ونفاذه حرية المتصرف ورضاه واختياره قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » .

ثانيا : نهى الله ورسوله فى مواضع عدة عن التعدى على مال الغير وأخذه من مالكه بغير حق قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . وقال : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

ثالثاً : ضمانا لحرية الملكية وتأمينا للناس على أموالهم قررت الشريعة عقوبة السارقين وتضمين الغاصبين . قال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

وفى الحديث (لا يحل لأحد أن يأخذ متاع أخيه لاعبا ولا جادا فإن أخذه فيرده عليه) وفى حديث آخر على اليد التى أخذت أن ترد .

ومما يؤيد حرمة الملكية قوله صلى الله عليه وسلم لمن كان يغبن فى البياعات إذا بايعت فقل : لاخلابة ولى الخيار ثلاثة أيام ، ونهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الغرر ، فإن فى شرعية الخيار والنهى عن بيع الغرر ضمانا لتحقيق رضا المالك بالتبادل وعدم خروج الملك من مالكه وفى نفسه شبهة قهر أو خداع له وكذلك تقرير حق الشفعة دفعا للضرر عن الجار أو الشريك ، مما يؤيد احترام حق الملكية وإحاطة المالك بما يدفع عنه الضرر ، وتقرير حقه فى الانتفاع بملكه على أحسن الوجوه ، وصيانته مما يتوقع من إضرار .

وقد آن لنا أن ننتقل بعد هذا التمهيد إلى بحث ملكية الأفراد للأرض ومنافعها فى الإسلام .

(للبحث بقية)

محمد السايس

الملكية الفردية وتحديدها في الإسلام

للأستاذ علي الخفيف

— ٣ —

موقف الشريعة الإسلامية من النوعين :

لعلنا فيما مضى من بيان قد تبينا أن الإسلام حين ظهر بجزيرة العرب أقر الملكية بنوعيها الفردية منها والجماعية فأما إقراره الفردية منها فهو مما يصح أن يقال فيه إنه مما يعلم من الدين بالضرورة ومعنى ذلك أن إقراره أياها يتجلى فيما نزل من آيات وفيما فرض من فرائض وفيما ندب إليه من صدقات وهكذا على وضع يزول معه كل شبهة وريبة وأما إقراره الملكية الجماعية فهو ظاهر في المساجد إذ جعلها لله تعالى وليس معنى ذلك إلا أنها لجماعة المسلمين يؤدون فيها عباداتهم وشعائرهم وظاهر في الوقف حين شرعه لتوجه غلاته ومنافعه إلى سبل الخير العام أي إلى مصلحة عامة لجماعة المسلمين ، وظاهر فيما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من قسمته غنائم خيبر نصفين جعل أحدهما للنوائب والوفود التي تفدعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . وظاهر فيما حماه صلى الله عليه وسلم من الأرض لخيل المسلمين التي يحملون عليها حين يغزون في سبيل الله . وقد أشرنا فيما مضى إلى أنه صلى الله عليه وسلم قد حمى النقيع لهذا الغرض فكان للمسلمين عامة وكذلك أشرنا إلى أن هذا الأثر يدل على أنه كان لجماعة المسلمين من الخيل التي يحملون عليها ما اقتضت المصلحة أن يحمى لها من الأرض . وكذلك كان شأن الملكية في الفيء والغنائم قبل قسمتها في الناس إذ كان الملك فيها حينئذ لجماعة المسلمين مما كان يسوغ لبعض الصحابة أن ينعته بأنه مال الله وليس يريد إلا أنه مال المسلمين جميعا وهذا هو المعنى الذي تمسك به أبو ذر رضي الله عنه وحمل معاوية بن أبي سفيان وهو أمير الشام يومئذ من قبل عثمان رضي الله عنه على إظهاره وذلك حين سمعه يقول : إن المال مال الله فقال له : لا تقل ذلك وما الذي يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ فقال له معاوية يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله ؟ فقال أبو ذر : لا تقل ذلك (١) وأصر على رأيه مخافة أن يتخذ قول معاوية ذريعة إلى احتجاز هذا المال عن أصحاب الحقوق فيه من المقاتلة والجند وإلى استبداد ولي الأمر بالتصرف والتدبير فيه بحسب

(١) الطبري ج ٣ (٣٢٠) .

رأيه دون مساءلته فى ذلك من أحد وليس الأمر كذلك بل المال مال المسلمين لكل منهم فيه حق وله أن يسأل الخليفة أو ولى الأمر عنه بناء على هذا الحق . وذلك ما كان عمر رضى الله عنه يقرره إذ كان يقول: ما أحد من المسلمين إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه ( ) ويقول من أراد أن يسأل عن ذلك المال فليأتنى فإن الله تبارك وتعالى جعلنى له خازنا وقاسما (٢) .

وهذا مايدل على أن الإسلام حين أقر هذه الملكية الجماعية إنما أقرها على أساس أنها ملكية لجماعة مكونة من أفراد تتعلق بمال لكل منهم حق فيه يخول له ضربا من القيام عليه يظهر فى طلب المحاسبة عليه قسمة ورعاية وحفظا كما يفرض عليه أن يقوم على رعايته وحفظه ما وجد إلى ذلك سبيلا . ولذا كان عمر رضى الله عنه يوصى رجاله الذين أقامهم على حفظ هذا المال أن يلاحظوا أنه مال للمسلمين لكل منهم فيه حق ويقول فيما رواه زيد بن أسلم عن أبيه : لا يترخص أحدكم فى البرذعة أو الحبل أو القتب فان ذلك للمسلمين ليس أحد منهم إلا وله فيه نصيب فإن كان لإنسان واحد رآه عظيما وإن كان لجماعة المسلمين ارتخص فيه (٣) بهذا يحذرهم من أن تكون رعايتهم لهذا المال قائمة على أنه مال الجماعة أو مال الله دون ملاحظة حق لكل فرد فيه - وهذا ما يجلى معنى الملكية الجماعية فى نظر الإسلام وأنها للأفراد مشتركين لا للهيئة بوصف أنها هيئة لها شخصية اعتبارية ولها ملك هذا المال ولها حقوقه . ولم تجعل الشريعة الإسلامية لكل من هذين النوعين نطاقا لا تتجاوزه بل كان كل مال فى نظرها صالحا لأن يكون ملكا لفرد أو ملكا لجماعة وذلك ما تدل عليه الآثار التى أوردناها فيما سبق وقد استثنى من ذلك الماء والكلأ والنار وكذلك الملح وذلك لحديث أبى خراش أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (المسلمون شركاء فى ثلاثة فى الماء والكلأ والنار) رواه أحمد وأبو داود ورواه ابن ماجة من حديث ابن عباس وفى رواية (الناس شركاء فى ثلاثة فى الماء والكلأ والنار) وقد دل على أن الناس شركة فى جميع أنواع الماء من غير فرق بين المحرز وغيره ولكن هذا العموم مخصوص بالإجماع إذ قد قام الإجماع على أن الماء المحرز ملك لمحرزه وكذلك دل على شركة الناس فى الكلأ وهو النبات رطبه ويابسه وشركاء فى الاستضاءة بالنار والانتفاع بلهبها وأما الشركة فى الملح فلحديث بهية عن أبيها أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء الذى لا يحل منعه فأجابه : (الملح) رواه أحمد وأبو داود (١)

(١) الأموال لأبى عبيد (٢٢٣) .
(٢) الأموال لأبى عبيد (٢١٣) .
(٣) الأموال لأبى عبيد (٢٦٨) .

(١) نيل الأوطار حـ ٥(٢٥٧) ، (٢٥٨) .

وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت يارسول الله ما الشيء الذى لايحل منعه قال: (الملح والماء والنار)، رواه ابن ماجة وألحق الشافعى رضى الله عنه بذلك ما يوجد فى الأرض مما ترى منفعته بادية وفى متناول من يطلبها دون جهد منه أو عمل من كل معدن ظاهر كالذهب والتبر وغيرهما والنبات والماء مما لا يملكه شخص معين ولا يحتاج فى إظهاره وإدراكه إلى مئونة فإن الناس جميعا يكونون فى ذلك سواء لا يختص به واحد من الناس بإحياء أو اقطاع من ولى الأمر بل يكون شأنه شأن الماء والكلأ والنار والقاصد إليه شريك فيه كشركته فى الماء والكلا الذى ليس فى ملك أحد ـ قال الشافعى ومثل هذا كل عين ظاهرة كنفط أو قار أو كبريت أو حجارة ظاهرة فى غير ملك لأحد فليس لأحد أن يحتجزها دون غيره ولا لسلطان أن يمنعها لنفسه ولا لخاص من الناس [1].

ويرى المالكية فى أشهر أقوالهم أن ليس شيء من المعادن فى حالما « مناجمها » مالا مباحا حتى يتملكها من يستولى عليها وإن كان استيلاؤه عليها لم يحدث إلا بعمل قام به أو بنفقة أنفقها فى سبيله وإنما هى ملك للمسلمين جميعاً نتيجة قيامهم على ما وجد فيها من الأرض قيام ولاية وحماية ولا تعد تابعة لأرضها مملوكة لصاحبها نتيجة لتملك أرضها إذ ليس لمثل هذا طلبت الأرض أو ملكت وعلى ذلك يكون أمرها إلى الإمام يستغلها بعماله لمصلحة المسلمين إن رأى المصلحة فى ذلك أو يقطعها من شاء إقطاع انتفاع مؤقت بمدة أو بحياة من أقطعها نظير مال يصرف فى مصالح المسلمين فاذا انتهت المدة رد الأمر فيها إلى الإمام لا فرق فى ذلك بين ما يوجد فى أرض مملوكة وما يوجد فى أرض غير مملوكة ولا بين نوع ونوع وجاء فى منح الجليل الشيخ عليش أن أساس هذا الحكم هو المصلحة العامة إذ أنها تقتضى ذلك.

أما ما يحتاج إلى عمل ومئونة فى إظهاره واستخراجه فان منفعته تكون لمن كان ذلك منه بما استحدثه من ماله « الأم حـ٣ ص ٢٦٥).

ومن هذا يتبين أن مجال الملكية الجماعية فى الأموال لا تحده حدود فى الشريعة الإسلامية وأن مجال الملكية الفردية بناء على ما ذكره الشافعى رضى الله عنه لا يتناول من الأموال ما كان قائما فى محله باديا لكل من قصد إليه بحيث لا يتطلب فى الحصول عليه نفقة ولا جهدا ولا عملا ومنفعته عامة تتطلبه مصالح المسلمين.

ويجب أن يلاحظ مع هذا أن عدوان إحدى الملكيتين على الأخرى محظور محرم فلا يجوز أن يتملك الفرد ما كان ملكا للجماعة مخصصا للمنافع العامة إلا إذا خرج عن ذلك بالاستغناء عنه فعند ذلك يجوز تملكه بعوضه على أن يقوم بهذه المبادلة ولى الأمر متحريا

(١) الأم حـ ٣ (٢٦٥) ومابعدها إلى (٢٦٦).

ألا يكون فيه غبن كما لا يجوز لولى الأمر أن يعتدى على ملك فرد من الأفراد فليس له أن يجعله فى منفعة عامة مملوكا لجماعة المسلمين إلا إذا تطلبت مصلحة المسلمين ذلك فيأخذه الإمام عن رضا أو عن قهر يبدله دون غبن على صاحبه وذلك لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة وذلك ماحدث فى توسعة المسجد الحرام حين ضاق على الناس فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد كانت دور الناس محدقة به من كل جانب عدا فتحات يدخل منها الناس إليه فاشترى عمر دورا منها وأبى عليه أصحاب الدور الأخرى فأخذها منهم قسرا ووضع قيمتها بخزانة الكعبة وأدخل الجميع المسجد وظلت القيمة بالخزانة إلى أن أخذها أصحابها ثم كثر الناس فى عهد عثمان وضاق عليهم المسجد مرة أخرى فأراد توسعته فاشترى من قوم وأبى عليه آخرون فأخذ دورهم جبرا وعزوهم ، لأنه ليس للمالك أن يأبى حين يدعوه إلى بيع ملكه داعى المصلحة العامة فاذا أبى كان إباؤه ظلما فيدفع.

وليس يجوز أن يؤخذ ملك إنسان بلا عوض لمصلحة عامة بل يجب تعويضه من بيت مال المسلمين فإن لم يكن فيه ما يقوم بذلك كان لولى الأمر أن يفرض على القادرين من الوظائف المالية ما يقوم بحاجة الدولة ويدفع ما نزل بها بالقسطاس المستقيم فيعم بذلك جميع القادرين كلا بقسطه ولا يقصره على بعضهم وبذلك يشترك كل قادر فى دفع ما ألم بالأمة مما يجب دفعه .

الملكية وظيفة اجتماعية :

جاء القرآن الكريم بما يدل على أن لله ما فى السموات وما فى الأرض له ملك ما فيهما ونص على ذلك فى آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى : « ألا أن لله ما فى السموات والأرض » (يونس ٥٥) وقوله : « قل لمن السموات والأرض قل لله » (الأنعام ١٢) وقوله : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » البقرة (١٠٧) فدل بذلك على أنه سبحانه وتعالى مالك لجميع مصادر الثروة ومالك للثروة نفسها ومالك لما على ظهر الأرض من مال أيا كان نوعه . ولم يخلقه ويملكه لحاجته إليه فالله هو الغنى عما سواه وإنما خلقه وجعله للإنسان قال تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » (البقرة ٢٩) وقال : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره » (الحج ٦٥) وقال : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان ٢٠) فكان للناس جميعهم كل منافعه وكان فيهم سداد عوزهم وقيامهم وكان اختصاص الإنسان به وانتفاعه بثمراته صورة تمثل الملكية العامة الشائعة التى أسس عليها عمل الفرد فيه وانتفاعه به

فانتفع الناس به جميعاً فى البداية بلا اختصاص وكان انتفاع الفردية على هذا الوضع . ثم ظهرت بعد ذلك الملكيات الفردية فأقرها المجتمع ولم يعارضها إذ كانت أمراً شائعا فى الناس دعت إليه حاجتهم وغريزتهم وكان قيام أصحابها بها بعد الإباحة العامة برضا الناس وإقرارهم قيام خلافة ونيابة عن المجتمع بهذا الاعتبار وكان الفرد على هذا الأساس عاملا فى مال الجماعة نيابة عنها وقد كلفه الله سبحانه وتعالى بالعمل فيه قال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (التوبة ١٠٥) ولهذا التكليف وجب عليه أن يعمل فى نطاق إرادته ومواهبه وقوته وكان سلطانه فى عمله هذا وولايته فيه ممتدا بامتداد مواهبه وقدرته وكانت ثمرة عمله بحكم ذلك ثمرة استخرجها من مال الجماعة فكان له فيها حق كما أن تلك الثمرة من ناحية أخرى هى لله تعالى آتاه إياها واستخلفه فيها بدليل قوله تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (الحديد ٧) وفى بيان معناها يقول الزمخشرى : يعنى أن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله بخلقه وإنشائه لها وإنما مولكم إياها وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاءه فى التصرف فيها فليست هى بأموالكم فى الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها فى حقوق الله وليهن عليكم الإنفاق كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن فيه وقوله تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (النور ٣٣) وقوله تعالى « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » (آل عمران ١٨٠) وقوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون » (البقرة ٣٠) وكان بناء على ذلك نائبا فى ملكه أميناً فيه خازنا لثمراته جعل له التصرف فيه فى الحدود المشروعة وهى حدود قصد بها خيره ونفعه ومصلحة مجتمعه فليس له أن يتجاوزها فإذا تجاوزها كان ذلك خروجا منه عن خلافته وولايته واستوجب بذلك الجزاء بالحجر عليه وغل يده ومن دلائل هذه النيابة رجوع مال من يتوفى عن غير وارث إلى بيت المال باعتباره خزانة لأموال المجتمع فإليه كل مال لا يظهر له مالك .

ومن ذلك يتبين أن الملكية وبخاصة الفردية وظيفة اجتماعية : المالك فيها أمين وخازن فيما يحوزه من مال الله تعالى أو من مال مجتمعه . فإذا ما تجاوز ما وضع له فى القيام عليه من حدود فتلك جرثومة الفساد ومصدر ما يأتيه الناس فى أموالهم من مظالم

وطغيان وفساد ـ وأن هذا المعنى ليسمو عند بعض الأفراد ويستولى على النفس حتى يرون حرجا فى تخير ما ينفقون وفى تقدير ما يبذلون كما حدث ذلك لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفقوا يسألونه ماذا ينفقون ، بما أشار إليه القرآن الكريم فى أكثر من موضع مثل قوله تعالى «ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل» البقرة (٢١٥) وقوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » البقرة (٢١٩) .

ونيابة الفرد فى هذا القيام على ماله نيابة تقوم على أهليته لذلك العمل بما منحه الله فيه من عقل ونظر كما قدمنا ، فوجب أن يكون عمله فيه موجها إلى الخير ووضعه موضعه وإنفاقه فى وجوهه وإنمائه بالطرق المشروعة ، ولذا جاءت الشريعة بإخراجه من هذه الولاية وغل يده إذا أساء التصرف فيها لسفه أو غفلة أو أصابته آفة أعجزته أن يقوم بذلك . وفى ذلك نزل قوله تعالى : «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » (سورة النساء ٥) ولهذا المعنى أضاف القرآن الأموال فى حديثه عنها إلى الله سبحانه وتعالى وإلى جماعة المخاطبين كما يرى فيما ذكرنا من الآيات سابقا ، وكما يرى فى قوله تعالى : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون »(البقرة ١٨٨) وقوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » (النساء ٢٩) وقوله تعالى : « وأكلهم أموال الناس (النساء ١٦١) وقوله : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى » (سبأ ٣٧) وقوله: « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » (الأنفال ٢٨) وغير هذه كثير وعلى هذا الأساس حاج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من حاجه فى الحمى قائلا : حيث بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية وأسلمنا عليها فى الإسلام فقال عمر : «البلاد بلاد الله وتحمى لنعم الله يحمل عليها فى سبيل الله » الأموال لأبى عبيد ٢٩٩ .

إقرار الملكية الفردية وحمايتها :

المواطن مختلفة اللسان متغايرة فى العادات والتقاليد منقطعة الصلة فيما بينها فى بعض الأحوال بما يدل على أنها كانت أثرا لطبيعة من طبائع الإنسان وغريزة من غرائزه وأنها نظام قد واءم فطرته وساير تطوره واتسق مع ما انتهت إليه مجتمعاته من أوضاع ونظام وتقاليد .

ولقد استمر قيام هذا النظام وانتشاره وشموله إلى أن ظهر الإسلام فكان له من نظره ما كان لغيره من الأناظيم والعادات والتقاليد التى واجهها الإسلام عند ظهوره وهو نظر

يهدف فى واقعه العام وفى غرضه الأساسى إلى الإصلاح والتهذيب لا إلى الهدم والنقض إلا أن يكون الشر خالصا والخبث غائر الجذور والفساد لا يشوبه صلاح فعند ذلك يعمد إلى النقض والهدم والتحريم والمنع .

ولم تكن الملكية الفردية مع كفالتها بتوفير الحاجات وموافقتها لسليم الطباع ومع تأسيس النظام القائم عليها وبقائها على مرور الزمن وانقضاء العصور دعامة من دعائم الحياة الاجتماعية بالأمر الخير الذى لا يخالطه شر ولا بالشر المحض الذى لا يرى فيه خير بل كانت كغيرها من النظم نظاما فيه النفع وفيه الصلاح وفيه الشر والإثم إذ قد يؤدى فى أحوال إلى تمزيق المجتمع بقسمته إلى طبقات متصادمة كما قد يتخذ ذريعة إلى شرور وفساد وتمال واستعباد وإهدار الحقوق واكتناز للأموال .

لذلك عمد الإسلام إلى أن أقرها مع الإصلاح والتهذيب بما يحول دون أن تتخذ مصدر لاضطراب وفساد وتنازع وصدام ، وسبيلا إلى جعل المجتمع طبقات متنازعة متنافرة ودون أن تتخذ ذريعة إلى إشباع الشهوات والانغماس فى الترف والملذات وطريقا إلى التسلط والطغيان . وذلك بما سنه لها من نظام وشرعه لها من أحكام ودعا إليه فيها من فضائل وحض عليه من بذل ومواساة ، وعمد الإسلام إلى إقرارها مع الإصلاح لأنها كانت هى النظام العام الذى قامت عليه حياة المجتمعات على تعددها واستقرت عليه نظمها الاقتصادية على اختلافها . ولم يكن من إقرارها بد حتى يستمر للحياة الإنسانية سيرها ويستقر لها وضعها واتجاهها إلى غايتها وحتى يحصل الناس منها على ما يبغون من منافعها ويسعون إليه من ثمراتها وحتى تطمئن نفوسهم ويمضون بحماس إلى أهدافهم بجميع ما لهم من قوة .

من هذه الناحية كانت الملكية الفردية ضرورة اجتماعية أقرها الإسلام لذلك وأضفى عليها حمايته ثم كان فى غنى عن أن يأمر بها وأن يحض على التزامها وعلى الاستمساك بنظامها وأن يجعلها واجباً دينياً يجب إليه السعى قصداً فتركها على ما هى عليه أمراً مباحا تهدى إليه الطبائع البشرية ولا بد أن يوجد ويقوم نتيجة للغرائز التى فطر الإنسان عليها فمنها يحصل الإنسان على ما يقيم به حياته والحصول عليه واجباً تجنباً للهلكة وبعداً عن الفناء . ولقد أمر الله سبحانه وتعالى فى كتابه بالعمل فقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » التوبة ١٠٥ ، وأمر بالسعى فقال : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (الجمعة ١٠) ، وقال : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها

وكلوا من رزقه وإليه النشور » (تبارك ١٥) والأمر يتجنب الهلكة أمر بما به تجتنب ولا طريق إلى تجنبها فى مجال الاقتيات، إلا بالملكية الفردية فكان ذلك أمراً بها فى هذا النطاق أى فى سبيل المحافظة على الحياة وضروراتها — عليه تكون هذه الملكية واجباً بقدر ما به يدفع الضرر وهو ما يعرف فى الإسلام بمراعاة الضروريات ووجوب المحافظة عليها لأن الوسيلة إلى الواجب تعد واجبة بوجوبه أما الوسيلة إلى غيره فلها حكم ما تفضى إليه من مندوب أو مكروه أو محرم. وعلى ذلك تكون الملكية الفردية بالنظر إلى ما سبق مما يعتريه الأحكام الشرعية وهى الوجوب والندب والإباحة والكراهة والتحريم وذلك بحسب ما تفضى إليه من ذلك شأن كل مباح يفضى إلى شىء من ذلك .

ولقد أضفى عليها الإسلام حمايته كما أشرنا إلى ذلك آنفا فصانها عن العبث بها إذ حرم اتخاذها وسيلة للترف الممقوت والفسق البغيض والملذات الرخيصة والإسراف المرذول والاعتداء الظالم والأكل بالباطل.

ففى سبيل تحريم الترف جعله القرآن سبباً لنزول العذاب بأصحابه وحرمانهم من نصر الله فجاء فيه قوله تعالى : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذاهم يجأرون لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون » (المؤمنون ٦٤، ٦٥) وقوله تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » (الواقعة ٤١ إلى ٤٥) كما جعله باعثا على الظلم والإجرام فجاء فيه قوله تعالى : « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (هود ١١٦).

وفى سبيل تحريم التبذير والإسراف جاء قوله تعالى : « ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » (الإسراء ٢٦، ٢٧).

وفى تحريم الاعتداء جاء قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » (النساء ٢٩) وقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم » (البقرة ١٨٨) وأمر بقطع يد السارق فقال : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » (المائدة ٣٨) وبذلك وأمثاله صينت الملكية الفردية عن أن تمس إلا بحق فيها أو بواجب فرضته الشريعة الإسلامية فى أموال الناس لتطهرهم وتزكيهم وتدفع عنهم وتقويهم بما يرهب أعداءهم .

(البحث بقية)

على الخفيف

الحرية السياسية والقيادة الجماعية في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

٢ — نظام الشورى :

وهو الصورة الثانية التي تجسدت فيها الحرية السياسية فى الإسلام ، ويقصد به مشاورة رئيس الدولة ذوى الرأى والثقة فى كل ما يحل أو يدعو إلى السؤال .

ولقد نص على هذا النظام الديموقراطى فى قوله تعالى :

« وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله » .

« وأمرهم شورى بينهم » .

وهذه الشورى هى ما يعبر عنه فى مصطلحنا الحديث بالقيادة الجماعية ، وهى أسمى مدارج الديمقراطية التى انتهى إليها المشرعون المعاصرون لما تحققه من حرية سياسية للأفراد فى ظل المساواة ، وما يترتب عليها من تقدم ورخاء للمجتمع ، وصلاح للعالم بأسره .

شواهد وبينات .

ويحفل الكتاب الكريم والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامى بأروع الآيات والصفحات فى تطبيق هذا النظام ، الذى جاء به الإسلام ليعمل به قادته وأئمته ضمانا لسلامة العقيدة وسياجا للأمة يحميها من شر انفراد الحاكم بالسلطة ، وإساءة استعمالها أو تجاوزه الحدود التى بينتها الشريعة ، فتصان حرية الشعب وينطلق فى تحقيق آماله فى الحياة الحرة الكريمة .

وترتكز تلك القيادة الجماعية على روح الوحدة والجماعة التى بثها الدين الحنيف فى نفوس المؤمنين ـ قادة ومواطنين ـ عملا بقوله تعالى : .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

« هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(يد الله مع الجماعة) .

(عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو مع الاثنين أبعد من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة) .

والهدف الذى يتوخاه الإسلام من حث

أبنائه على التمسك بروح الجماعة هو كبح جماح الأنانية البغيضة ، وتربية عادة التشاور الحميدة ، ذلك أن تبادل الرأى هو الطريق إلى المعرفة الصحيحة من خلال استعراض وجهات النظر المختلفة وتحليلها ، واختيار الأصلح منها للعمل به ، وهو الضمان الحقيق من خطأ الفرد عن قصد أو حسن نية والأمان من الزيف والانحراف .

« والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

ويقول النبى الكريم :

(الدين النصيحة .. قالوا : لمن يارسول الله ، قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

ولقد اتبع الأنبياء قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - مبدأ المشاورة ، فاستعانوا فى إبلاغ رسالتهم بمن توسموا فيهم الحكمة وصواب الرأى ، ومنهم موسى عليه السلام إذ يقول كما جاء فى القرآن الكريم : « واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيرا » .

واستجاب الله سبحانه لهذه الدعوة .

« قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » .

وفى فضل المشاورة الصادقة والمناصحة الأمينة يقول الرسول :

(إذا أراد الله بالأمير « الحاكم » خيرا جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه) .

روح الجماعة فى العبادات :

كما تتجلى روح الوحدة والجماعة فى الفرائض الإسلامية ، فمن المكروه فى الصلاة أن يؤم المصلين رجل لا يحبونه ، فإذا أمهم رجل مختار وجب عليه أن يلتزم بالشروط المتفق عليها للصلاة ، والتى يؤمن بها الكافة ، ولو زاد الإمام فى الصلاة أو نقص ذكره المصلون قائلين له :

« سبحان الله ... »

وإذا توقف الإمام فى تلاوة التنزيل الحكيم فتح عليه أحد المصلين بالآية التى توقف فيها ، وإذا نسى آية ذكره بها أحدهم ، وإذا أخطأ فى آية صححت له ، وإذا اضطر الإمام إلى ترك الصلاة أو ضعف عنها استخلف فى الإمامة من ينوب عنه من المصلين ، وهكذا كما شرعه الله .

والحج إلى بيت الله ، هو المؤتمر الذى تتبلور فيه الروح الجماعية فى الإسلام ، إذ يتشاور فيه أبناؤه فيما بينهم فى مسائل الدين والدنيا .

كذلك تبدو تلك الروح فى فريضتى الصوم والزكاة ، فيلتقى المسلمون فى مواقيت واحدة فى صيامهم وإفطارهم وتوزع الزكاة على المستحقين كما يجمع عليهم أهل الشورى .

ومن ثم يتجلى الدور الرئيسى الذى تقوم

به العبادات فى إرساء القيادة على أساس التخطيط الجماعي الذى يصهر الأفراد والجماعات معاً فى قالب واحد ويجمعهم على شعار واحد وغاية مشتركة ، فلا سمعة ، ولا رياء ، ولا جاه ، ولا سلطان . بل الواحد للكل والكل للواحد.

ولقد أرشد النبي المسلمين بالقول والعمل فى حياته إلى أصول الحكم الصالح الذى يقوم على جماعية القيـــادة ، حتى تتأصل فيهم الديموقراطية السليمة ، وتكون لهم نبراساً فى مستقبل تاريخهم يرسون فى ضوئه قواعد حضاراتهم الإنسانية السامية ، بل إن اختيار الله سبحانه وتعالى لرسالته الخالدة ، رجلا من أبناء الشعب عرف اليتم وذاق مرارة الفقر ، لهو أروع مثل يضربه للناس أجمعين كى يقتدوا به فى تصريف شئون حياتهم ، وليست سياسة الحكم إلا منحى من مناحى الحياة المختلفة ، وفى ذلك يقول النبي لرجل أصابه وجل عند لقائه :

(رويدك ياهذا ، إنما أنا بشر : أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) .

وكانت الأمثلة التى ضربها المعلم الأعظم فى الأخذ بالمشورة الصالحة آية فى عظمة القيادة ونضج السياسة ، فمن الحكمة أن يقتنع القائد الرشيد مهما بلغ من قدرة على رسم الخطط بتجارب الخبراء من أتباعه ، وأن يشحذ لرسالته ما استطاع من سداد الرأى وكمال الإدراك .

ومن ذلك أنه عليه السلام ، لم يأنف - على ما حباه الله من رجاحة الفكر - أن يأخذ برأى الحباب بن المنذر فى غزوة بدر حين أشار إلى مكان غير الذى نزلوا فيه أول الأمر ، ثم بتغوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه المشركون ، فقد قبل الرسول هذه المشورة ، وكذلك الأمر حينما نصح سلمان الفارسى بحفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه الأعداء على المدينة ، فأمر النبي بحفر الخندق وشارك المسلمين فى ذلك.

والأخذ بمشورة الأتباع المخلصين من الرعية من أسس القيادة الحكيمة ، مما يطلق عليه فى ميثاقنا الوطنى العودة إلى القواعد الشعبية لاستطلاع رأيها . وبفضل هذا المبدأ تتحقق ديمقوقراطية الحكم وتنشأ قيادة من التفكير الجماعى القادر على صد نزعات التحكم الفردى واستبداده .

وقد اقتدى بالرسول الكريم فى هذه السياسة أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فجرت خطتهما على الإصغاء إلى النصح والعمل بالقويم من الآراء ، وآية ذلك أنه استشهد كثير من حفاظ القرآن فى حروب الردة وخيف على من بقى منهم أن تأتى عليهم حروب أخرى ، فأشار عمر رضى الله عنه على الخليفة أبى بكر أن يجمع القرآن ، فتردد فى بادىء الأمر وهو يقول : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ ثم انشرح صدره لما أشار به عمر ، وأمر بجمع القرآن وتدوينه فى المصاحف .

على أن مبدأ الشورى - كسائر المبادئ - ليس مبدأ مطلقا فى الإسلام ، فللخليفة حق الاستقلال بالرأى حين تكون التبعة فيه تبعته هو دون غيره ، وحين تختلف وجهات النظر فيطلب منه الرأى الفصل ، ومثال ذلك استقلال أبى بكر برأيه فى اختيار الخليفة من بعده بعد أن شاور الصفوة من المسلمين ففوضوه فى الأمر ، وذلك أنه جمع إليه نخبة من أهل الرأى ليختاروا من يشاءون ، وقال لهم فيما قال : (... وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم ، فأمّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمّرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا من بعدى) . . فلم يجمعوا على رأى وعادوا إليه يقولون : (إن الرأى يا خليفة رسول الله رأيك) فاستمهلهم حتى (ينظر لله ولدينه ولعباده) ، ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبدالرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان وسعيد بن زيد وأسيد ابن الحضير.

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان ابن عفان فكتبه وختمه وخرج به مختوما ونادى فى الناس: أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ وقيل إن أبا بكر أشرف من كوته فقال : يا أيها الناس إنى قد عهدت عهدا أفترضونه ؟. فقالوا : رضينا ياخليفة رسول الله . فكانت البيعة التى أجمع عليها المسلمون .

(٣) مبدأ الإجماع :

ومن خلال الممارسة العملية لنظام الشورى نشأ مبدأ الإجماع فى الإسلام ، وقد توطد هذا الركن الأساسى من أركان السياسة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين .

فقد كان أبو بكر إذا احتكم إليه المتخاصمون نظر فى كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى به بينهم قضى به ، وإن لم يجد فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك سنة قضى بها ، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتانى كذا وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى ذلك بقضاء ؟ » فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر فيه عن رسول الله قضاء ... فإن أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على شئ قضى به .

وكذلك كان يفصل عمر رضى الله عنه ، فإن أعياه أن يجد فى القرآن أو السنة نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ، فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، وإلا دعا رءوس الناس فإذا اجتمعوا على أمر قضى به .

وفى قول آخر : إن عمر كان يستشير الصحابة على فقهه ، حتى كان إذا رفعت إليه حادثة قال: ادعوا لى عليا ، وادعوا لى زيدا... فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه . كما روى عنه أنه كانت ترفع إليه القضية

فربما تأمل فى ذلك شهراً ويستشير أصحابه. وفى ذلك يقول عمر لأحد ولاته : (أن أقض بما استبان لك من أئمة المسلمين ، فإن لم تعلمه فاجتهد برأيك، واستشر أهل العلم والصلاح).

وليس أدل على إعمال الخليفة الثانى لمبدأ الإجماع برغم ما اتصف به من الفطنة والحكمة ، من أنه كان يعارض الرأى فى بعض الأمور ، ولكنه حين يعلم أن مصدره الإجماع يعدل عن معارضته ، اعتقاداً منه أن الخير فى رأى الجماعة ، وآية ذلك أنه علم أن جيش المسلمين بالشام قرر الانتقال من حمص إلى دمشق فكتب إلى قائده أبى عبيدة الجراح يقول :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح ، وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار ، والتابعين بإحسان ، والمجاهدين فى سبيل الله ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فإنه بلغنى توجهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم ، وخليتموها لعدوكم وخرجتم منها طائعين ، فكرهت هذا عن رأيكم وفعلكم ، وسألت رسولكم : أعن رأى من جميعكم كان ذلك ؟ فزعم (قال) إن ذلك كان من رأى خياركم وأولى النهى (العقل) منكم وجماعتكم ، فعلمت أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد فى العاجلة والعاقبة ، فهون ذلك على ما كان دخلنى من الكراهية قبل ذلك لتحولكم ، وقد سألنى رسولكم المدد لكم ، وإنى ممدكم قبل أن يقرأ عليكم كتابى هذا ....».

وقد روى عن الخليفة على بن أبى طالب قوله : « قلت يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ولم تمض فيه عنك سنة ، قال : اجمعوا له العالمين أو قال العابدين من المسلمين فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد » .

صفوف القادة :

وبفضل هذه الآيات البينات والمثل الرفيعة ثبت مبدأ القيادة الجماعية فى نفوس المسلمين ، فنفروا من الفردية والاستبداد ، وتمرسوا بالتفكير الجماعى فألفوه وأفادوا منه فى دينهم ودنياهم ، وتكون فى ظل هذا التفكير صف ثان من القادة ، ثم صف ثالث ، وهكذا توالت الصفوف مؤمنة بعقيدتها معبرة عن إرادة الأمة الإسلامية مناضلة فى سبيل سيادتها وتحقيق أهدافها الإنسانية .

وكان الصف الأول من قادة الإسلام - فى عهد الرسول وبعده - يتألف من مجموعة من وجوه الصحابة وصفوة المسلمين الذين أطلق عليهم « أهل الحل والعقد » وهم الذين صاروا موضع الثقة ومبعث الخبرة بما قدموه

من آيات الصدق والوفاء والتفانى فى سبيل الصالح العام وما تحلوا به من مناقب الذكاء والسداد.

ومما يجدر بالذكر فى هذا المقام قول الباحث الإسلامى الهندى أبو الأعلى المودودى عن هؤلاء القادة:

فما كان أهل الحل والعقد فى عهد الخلافة الراشدة منقسمين إلى أحزاب متفرقة، وما كانوا متقيدين من الضوابط البرلمانية بمثل ما تتكون المجالس التشريعية متقيدة فى هذا الزمان، وما كانوا يحضرون مجالس الشورى بعد أن يعقدوا مؤتمراتهم الحزبية ويضعوا لها خطة العمل والسياسة، بل كانوا كلما دعوا للمشاورة يأتون المجلس بقلوب ملؤها الإخلاص، وكان الخليفة بينهم يعرض عليهم الأمر، ويدلى كل واحد منهم برأيه، إما مؤيداً أو معارضاً له، حتى تصير جميع نواحى المسألة متجلية واضحة. ثم يوازن الخليفة بين الحجج الموافقة والمعارضة، ويعرض عليهم ما عنده من الدلائل ويبين رأيه، وكان هذا الرأى فى عامة الأحوال رأياً يسلم به أعضاء المجلس كلهم».

وكان الرسول يقصر مشورته على هذه الصفوة من المسلمين، أو يوسع الدائرة حتى تشمل السواد الأعظم وفقاً لمقتضى الحال وفى هذا المعنى جاء فى (تفسير المنار) عن ركن الشورى فى الإسلام:

(أقام النبى صلى الله عليه وسلم هذا الركن فى زمنه بحسب مقتضى الحال، من حيث قلة المسلمين واجتماعهم معه فى مسجد واحد فى زمن وجوب الهجرة التى انتهت بفتح مكة فكان يستشير السواد الأعظم منهم، وهم الذين يكونون معه، ويخص أهل الرأى والمكانة من الراسخين بالأمور التى يضر إفشاؤها».

وقد جاء فى كتاب «عبقرية الصديق» الأستاذ عباس العقاد فى شأن هذه الصفوة من أولى الرأى: (وقد آثر أبو بكر أن يبقى عنده نخبة الصحابة فى المدينة، فلا يقصيهم فى الولايات ولا يفرقهم بين الأقطار؛ لأنهم أحق الناس أن يستشيرهم ويرجع إليهم ويشركهم معه فى رقابة العمال والولاة، وسئل فى أهل بدر لم لا يوليهم عملا فقال: أكره أن أدنسهم بالدنيا، ولعله يريد بالتدنيس تعرضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المال والمتاع.

ولا ندرى على التحقيق أى الصاحبين - أبو بكر وعمر - كان صاحب الفكرة الأولى فى هذه السياسة التى اتفقا عليها ولم ينحرفا عنها قط فى عهديهما، إلا لضرورة نادرة. ونعنى بها سياسة الإقلال من إسناد الأعمال إلى كبار الصحابة».

جماعية القيادة فى الميثاق:

ينص الميثاق على القيادة الجماعية كمبدأ

أساسى للديموقراطية ، لا غنى عنه فى تثبيتها والانطلاق بها لتحقيق أهداف الشعب فى ظل الدفع الثورى ، وضمان وطيد يحول دون إساءة استعمال السلطة أو استغلالها لتحقيق أهواء ذاتية أو أغراض نفسية أو الانحراف بها نحو الحكم المطلق والاستبداد بمقدرات الأمة .

وقد جاء فى الباب الخامس من الميثاق ـ الخاص بالديموقراطية السليمة :

« إن جماعية القيادة أمر لا بد من ضمانه فى مرحلة الانطلاق الثورى . إن جماعية القيادة ليست عاصما من جموح الفرد فحسب وإنما هى تأكيد للديموقراطية على أعلى المستويات ، كما أنها فى الوقت ذاته ضمان للاستمرار الدائم المتجدد » .

وفى تحليل حتمية القيادة الجماعية بوصفها تجسيدا لروح الثورة واستجابة لشعبيتها ، وعاصما من الجموح ، وسبيلا لتحقيق إرادة الجماهير فى بناء الاشتراكية ، يقول الميثاق :

« إن الثورة ليست عمل فرد ، وإلا كانت انفعالا شخصيا يائسا ضد مجتمع بأكمله ، والثورة ليست عمل فئة واحدة ، وإلا كانت تصادما مع الأغلبية ، وإنما قيمة الثورة الحقيقية بمدى شعبيتها وبمدى ما تعبر به عن الجماهير الواسعة ، وبمدى ما تعبئه من قوى هذه الجماهير لإعادة صنع المستقبل ، وبمدى ما يمكن أن توفر لهذه الجماهير من قدرة على فرض إرادتها على الحياة » . ويقول :

« إن الديموقراطية هى توكيد السيادة للشعب ووضع السلطة كلها فى يده ، وتكريسها لتحقيق أهدافه » .

وفى سبيل خلق صفوف من القادة ينبثقون من القاعدة الشعبية ليلتفوا حول قيادة القمة فى سبيل العمل الوطنى المشترك عن طريق القيادة الجماعية يؤكد الميثاق .

إن حركة النضال الثورى قد استوجبت من العمل الثورى أن يمتد نطاق القيادات الشعبية من القاعدة إلى القمة حول القيادة الطليعية » .

ويقرر فى فصل (الديموقراطية) أيضا :

« إن الديموقراطية السياسية إذ تقوم على مبدأ سيادة مجموع الشعب لا يمكن أن تتحقق فى ظل سيطرة طبقة بذاتها من بين طبقات المجتمع » .

ويقول أيضا :

« وتمثل القيادة الجماعية الشعبية ـ على جميع مستوياتها ، ضمانا آخر لدعم الديموقراطية السليمة ، فهى إذ تعصم من الانحرافات الفردية ، تؤكد التفاعل الديموقراطى بحكم قيامها على المناقشة وتبادل الرأى » .

حسن فتح الباب
ماجستير فى العلوم السياسية

الذوق الأدبى

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

— ١ —

ما أكثر ما يرجع الأديب والناقد إلى حكم الذوق الأدبى ، أو يستدل به فى قضايا الأدب والنقد ؛ أو يجادل به حكم المخالفين لرأيه وقضائه فى مشكلات الفن والنقد ... إن مرجع الأحكام فى الأدب إنما هو إلى ذوق الناقد ، فالنقد هو فن دراسة النصوص الأدبية ، والتمييز بين الأساليب المختلفة ، وأداة التمييز هو الذوق الأدبى الذى يميز بين نص ونص ، وأسلوب وأسلوب ، ولفظة ولفظة ...

فما هو هذا الذوق الأدبى ؟

لقد رجع النقاد العرب إلى هذا الذوق فى الحكم على النصوص وعلى الأدباء ؛ وإن كانوا لم يستطيعوا تحديده . يقول ابن سلام الجمحى البصرى الناقد المتوفى عام ٢٣١ هـ فى مقدمة كتابه « طبقات الشعراء » : قال قائل لخلف الأحمر (توفى عام ١٨١ هـ) : إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته ، فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك ، فقال له خلف : إذا أخذت أنت درهما واستحسنته فقال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له ؟

ومعنى ذلك أن الحكم الأدبى مرجعه إلى ذوق الناقد الخبير البصير بأساليب الكلام ، ولفظة « النقد » توحى إلى ذلك كله ... وفى ذلك يقول ابن سلام أيضاً : الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات [١] . ويؤكد ابن سلام ضرورة المران والدربة فى تكوين الذوق فيقول[٢] : « إن كثرة المدارسة لتعدى على العلم » . والذى قرره ابن سلام هو ما انتهى إليه الغربيون فى حقيقة النقد الأدبى ، يقول « لانسون » عميد النقد الموضوعى فى فرنسا : « إذا كان النص الأدبى يختلف عن الوثيقة التاريخية ، بما يثير لدينا من استجابات فنية وعاطفية ، فإنه يكون من الغرابة والتناقض أن ندل على هذا الفارق فى تعريف الأدب ، ثم لا نحسب له

(١) مقدمة كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام ص ٥ .
(٢) المرجع السابق .

حساباً في المنهج ، ففي الأدب لا يمكن أن يحل شيء محل التذوق » [1] .

وسار الآمدي (المتوفى عام ٣٧١ هـ) في كتابه « الموازنة إلى ما ذهب إليه بن سلام ، فقرر أن مرجع الأمر في الأدب إلى الذوق وهذا الذوق يتكون بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة ، وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن تقصت قريحته ، وقلت دربته ؛ وحكى إسحاق الموصلي ، قال ، قال لي المعتصم : أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي ، فقلت له : إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة [2] ، ويذكر الآمدي أن الناقد لا يستطيع أن يأتيك في النقد بعلة قاطعة ولا حجة باهرة [3] وهذا هو رأى لانسون أيضا حيث يقرر أننا نكون أكثر تمشيا مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثرية في دراستنا ، وما دامت التأثرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها فلنستخدمه في ذلك صراحة [3] ، وهو يعني استخدام الذوق الأدبي في أحكامنا على الأدب ؛ وإذا كان حكم الذوق أو النقد التأثري هو المنهج الوحيد في الحكم الأدبي كما يرى الآمدي ولانسون ، فإن صبغ النقد بالأحكام العلمية باقتباس النظريات المختلفة له من علم الجمال وعلم النفس والاجتماع أمر لا يمكن أن يؤدي إلى عناية ، وفي ذلك يقول « لانسون » أيضا : إن التجربة قد حكمت بفشل تلك المحاولات [1] وإذا فكرنا في مناهج العلوم فيجب أن يكون ذلك لإثارة ضمائرنا أكثر من أن يكون لبناء معارفنا [2] فالنقد إذن شيء مستقل عن كل علم آخر لأن قوامه الذوق ومنهجه هو التأثرية ، وليس شيئا موضوعيا على الراجح يكون مرجعه نظريات العلوم المختلفة وأقدر الناس على النقد هم الأدباء والشعراء لا العلماء ولقد سأل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (توفى عام ٣٠٠ هـ) الشاعر البحتري (توفى عام ٢٨٤ هـ) : مسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، فقال له عبيد الله : إن أبا العباس (أي ثعلبا المتوفى عام ٢٩١ هـ) لا يوافقك على هذا ، فقال البحتري : ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ، ممن يحيط بالشعر ولا يقوله وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه (٣)

---

(١) ١٣٠ في الميزان الجديد للدكتور مندور .

(٢) ١٧٦ الموازنة للآمدي

(٣) ١٣٥ في الميزان الجديد

---

(١) ١٣٢ المرجع السابق

(٢) ١٣٣ المرجع نفسه

(٣) ٤ و ٥ رسالة الكشف عن مساوىء شعر المتنبي للصاحب بن عباد

ورأى ابن سلام والآمدى فى الذوق هو رأى القاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » (المتوفى عام ٣٩٢ هـ على أرجح الآراء) حيث يرى أن الذوق هو مرد الحكم فى الأدب وأنه يكتسب بصحة الطبع وإدمان الرياضة [١] ، وكذلك صنع ابن طباطبا (المتوفى عام ٣٢٢ هـ) فى كتابه (عيار الشعر) فذهب إلى أن الذوق إذا استحسن أو استهجن فلأسباب فى نفس الكلام والشعر [٢] .

ويقول المرزوقى (م ٤٢١ هـ) فى شرحه على الحماسة : إن ما يختاره الناقد قد يتفق فيه ما لو سئل عن سبب اختياره إياه وعن الدلالة عليه لم يمكنه فى الجواب إلا أن يقول :

هذا يوافق طبعى ، أو ارجع إلى غيرى ممن له الدرية والعلم بمثله فإنه يحكم بمثل حكمى [٣]

ومثل ذلك يقول عبد القاهر الجرجانى (م ٤٧١ هـ) : « أعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الكلام عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها تارة أخرى [١] » ، فعبد القاهر يرى أن النقد يجب أن يكون فنا طليقا ، لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبى السليم والملكات الفنية الخالصة ، وقد سبق عبد القاهر بمذهبه فى النقد مدرسة الرومانتيكيين فى فرنسا التى حاربت نظرة الكلاسيكيين إلى النقد كعلم له أصوله ومناهجه وقواعده ، ورجعت إلى الشعور والعاطفة والنفس فى أحكام النقد ، وإلى هذا نادى « سانت بيف » فى قوله : « ليس هناك قواعد تخلق الكاتب الكلاسيكى » ، وقوله : « النقد لا يمكن أن يصبح علما موضوعياً وسيبقى فنا دقيقا فى يد من يحاولون استخدامه » ، ويقول جول ليتر : « إننا نحكم بالجودة على ما نحب ، أى أننا نرى حسنا ما نحب » ، أما تين الناقد الفرنسى فكان يعتبر النقد الأدبى علما يسير على مناهج مدروسة ، وهو فى ذلك يشبه قدامة من بين النقاد العرب . ويقول عبد القاهر أيضا فى ذلك وفى الذوق الأدبى وأهميته فى الحكم على الأدب والأدباء [٢] : إن المزايا

(١) ص ٣١٠ الوساطة بين المتنبي وخصومه .
(٢) ص ١٤ عيار الشعر .
(٣) ص ١٠ ج ١ شرح ديوان الحماسة للمرزوقى.

(١) ٢٢٥ دلائل الإعجاز .
(٢) ٣٤٢ و ٣٤٤ دلائل الإعجاز .

التي تحتاج أن تعلمهم مكانها ، وتصور لهم شأنها أمور خفية ، ومعان روحانية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها ، وتحدث له علما بها ؛ حتى يكون مهيئا لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة ، يجد لها فى نفسه إحساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ، ومن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر ، فرق بين موقع شيء منها وشيء . .

وعبد القاهر يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ثم ينتهى إلى الذوق الشخصى الذى هو المرجع الأخير فى دراسة الأدب [١] وكذلك يعتمد ابن الأثير صاحب كتاب المثل السائر (المتوفى عام ٦٣٧ هـ) على الذوق ، حتى ليرى أن مدار علم البيان على حكمة ، الذى هو أنفع من ذوق التعليم (٢) .

أما ابن خلدون فيفسر الذوق بحصول ملكة البلاغة للسان ، ويقول إنه قد استعير لهذه الملـــكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق (٣) . ويؤكد ابن خلدون (المتوفى عام ٨٠٨ هـ) أن هذه الملكة إنما تحصل بالممارسة والاعتبار والتكرير لكلام العرب .

(١) ١٦١ فن الميزان الجديد لمندور .

(٢) ص ٣ للمثل السائر .

(٣) ص ٦٤٥ المقدمة لابن خلدون مطبعة التقدم .

٢ — هـذا هو رأى القدماء فى الذوق وتحديدهم لمعناه أما المعاصرون فيذهبون إلى أن الذوق قوة يقدر بها الأثر الفنى وهو ذلك الاستعداد الفطرى المكتسب الذى تقدر به على تقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته [١] .
ويذهب أحمد ضيف إلى تحكيم الذوق العام واطراح الذوق الخاص فى الحكم الأدبى (٢) ويقسم طه حسين (٣) . الذوق إلى خاص وعام ويقول : إن هذين الذوقين هما اللذان يقضيان فى المسائل الأدبيـة ، وإن الحياة الفنية مزاج من هذين الذوقين .

والذوق ملكة هى مزيج من العاطفة والعقل والحس [٤] والدرس ينميه .

٣ — ويختلف الذوق باختلاف البيئة والثقافة والعصر ومقدار التمرس بكلام العرب وبلاغتهم ، وبالموهبة الأدبية عند الناقد .

وقصـة على بن الجهم الشاعر العباسى (م ٢٤٩ هـ) مع المتوكل معروفة ، حين جاء من البادية يمدح الخليفة بمثل قوله :

أنت كالـكلب فى حفاظك للود
وكالتيس فى قراع الخطوب

(١) ٣٤٧ فى علـم النفس لحامد عبد القادر .

(٢) ص ٩٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

(٣) حافظ وشوقى لطه حسين .

(٤) ١٢١ أصول النقد الأدبى للشايب .

ولما عاش فى بغداد وتأثر بحضارتها عاد إليه ينشده قصيدته :

عيون المها بين الرصافة فالجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وبتأثير العصر قدر الناس الصفة البديعية فى القرن الثالث الهجرى ، كما قدرها بعضهم الجانب الفكرى فى الشعر فى هذا القرن أيضا ، حتى انبرى البحترى للرد عليهم فقال :

كلفتمونا حدود منطقكم
فى الشعر يغنى عن صدقه كذبه

ومما يدل على أثر التمرس بكلام العرب وبلاغاتهم فى الذوق وأحكامه النقدية قصة بشار ، حين أنشد بيته :

بكرا صاحبى قبل الهجير
إن ذاك النجاح فى التبكير

فقال له خلف الأحمر : لو قلت مكان « إن ذاك النجاح بكرا فالنجاح » كان أحسن وأليق بصنعة المحدثين .

فأجابه بشار : إنما بنيتها إعرابية وحشية فقلت ما قلت ، ولو قالت : بكرا فالنجاح ، كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة (١) .

٤ — وباختلاف الذوق تختلف أحكام النقد اختلافا كثيرا ، فترى ابن قتيبة (المتوفى عام ٢٧٦ هـ) يعيب فى كتابه الشعر والشعراء أبيات كثير :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المطايا رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

وكذلك صنع أبو هلال العسكرى أما ابن جنى فى الخصائص وعبد القاهر فى أسرار البلاغة فيرفعان من منزلتها فى البلاغة .

ومن مثل الاختلاف فى الحكم على الشعر قول الشاعر المصرى إبراهيم ناجى (توفى فى ٢٥ مارس ١٩٥٣) وذلك من قصيدة له بعنوان « قلب راقصة » (١).

أمسيت أشكو الضيق والأينا
مستغرقا فى الفكر والسأم
فمضيت لا أدرى إلى أينا
ومشيت حيث تجرنى قدمى

فقد أعجب أبو شادى والسحرتى بالقصيدة وبالأبيات إعجابا شديدا (٢)، ولكن الدكتور طه حسين يرى أنها من الكلام المألوف الذى شبع منه الناس(٣) ، وينقد البيت الثانى لأنه

---

(١) ٤٥ الإيضاح للقزوينى .

(١) ٣٦ ديوان وراء الغمام لناجى .
(٢) ٢٠٤ الشعر المعاصر للسحرتى .
(٣) ١٧١ حديث الأربعاء .

لا يعجبه أسلوب « تجرني قدمي » لأن المرء لا يجر قدمه وهي لا تجره ، ويرد السحرتي على هذا بأن العبارة تصوير شعري بديع للسأمان المتحير الذي تجره قدمه لشرود عقله حتى تصبح قدمه هي المسيرة له ، ويتابع عبد الوهاب حمودة طه حسين في نقد العبارة ويرد على دفاع السحرتي السابق بأنه كيف يستقيم الاستغراق في الفكر مع السأم ، ويقول : أول ما يصادفك من هذه الألفاظ الابتذال والسوقية ، ثم انظر إلى هذه الصورة التي لا تلائم شعرا ولا لغة ، فالقدم لا تجر صاحبها وإنما تحمله ، وإنما يجر صاحب القدم قدمه(١) ، ويدافع السحرتي عن القصيدة بأنها رائعة في عواطفها وانفعالاتها المتنوعة وفي جمال صياغتها وخفة أسلوبها ، ويقول : إن الدكتور طه تجاهل ما يشع في هذا الشعر من عاطفة رائعة وانفعالات وثابة وأسلوب فني وموسيقى ارتكازية (٢) .

والخلاف الأدبي حول مذاهب الكلاسيكيين والرومانتيكيين ومناهجهم في التعبير والأساليب والتصوير كثيرة ومتناقضة .

٥ — واختلاف أحكام النقد التي كتبت حول الشعراء المحدثين والمعاصرين ، وتباين أذواق النقاد تباينا شديدا في منازلهم الأدبية أمر ظاهر الوضوح . . ومن مثل اختلاف النقاد حول أدبائنا وشعرائنا اختلافهم في شوقي وحافظ اختلافا كثيرا ، فطه حسين يقول عنهما : إنهما لم يبلغا من التفوق ما كنت أحب لهما ، وأتمنى للشعر العربي الحديث ، ولكن لا ينبغي أن تلومهما في ذلك فلم يكونا إلا مرآتين صادقتين للعصر الذي عاشا فيه ، وقد أديا ما ألهمهما هذا العصر فأحسنا الأداء ، وكان يفضل (مطران) عليهما . . والعقاد يرى أن الشعر يقاس بمقاييس ثلاثة : أولها أن الشعر قيمة إنسانية قبل أن يكون قيمة لفظية أو صناعية ، فيحتفظ الشعر بقيمته الكبرى إذا ترجم إلى جميع اللغات ؛ وثانيها أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه ؛ فالشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع وليس ذا شخصية أدبية ،

وثالثها أن القصيدة بنية حية وليست أجزاء متناثرة يجمعها الوزن والقافية . وحكم العقاد هذه المقاييس الثلاثة في شاعرية حافظ وشوقي ، ونفى عن شوقي الشاعرية ، ورأى أن حافظا أشعر ولكن شوقيا أقدر (١) .

وذهب بعض النقاد إلى أن شوقي في العصر الحديث مثل المتنبي في القرن الرابع : وفضله

---

(١) ١٣٥ التجديد في الأدب المصري الحديث .

(٢) ٢٠٤ و ٢٠٥ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتي .

(١) ٢٨ : ٣ قصة الأدب المعاصر .

بعضهم على جميع الشعراء المعاصرين .

٦ — ويصر أهل كل فن على أنه هناك حاسة سادسة تولد مع الطفل بها يدرك ما فى الصورة من جمال، وما فى الموسيقى من سحر، كما يتذوق بها ما فى الشعر من حسن الخيال، وجودة التصوير وهم مع هذا يرون أن التجارب الخاصة وتأثيرات البيئة ، مما قد يساعد على نمو هذه الحاسة وإرهافها ، وللمسألة فى رأيهم ناحيتان ؛ الأولى فطرية نشترك فيها جميعا إلى حد كبير ، والناحية الثانية مكتسبة وهى تلك التى تتكون فينا كأثر مباشر لتجاربنا الخاصة فى البيئة .

وهناك فريق آخر من أهل الفن يرون أن الإحساس بالجمال أمر اعتبارى شخصى تختلف فيه اختلافا بينا ، ولا نكاد نصل فيه إلى مقاييس مشتركة ، ويجعل الأمر فى الاحساس الفنى بالجمال راجعاً إلى الدربة والذكاء العام أكثر من أى شىء آخر ، لا إلى ما يسمونه بالغريزة والفطرة أو بحس(١) .

وأحكام النقاد على الجمال تختلف ، ولا بد أن تختلف كما يقول « برك » مادامت الأذواق والثقافات مختلفة (٢) .

والشعور بالجمال يعلله علماء النفس بعلل كثيرة ، فبعضهم يرجعه إلى التأثير النفسى السيكولوجى الذى تحدثه ألوان الجمال فينا ، وعبد القاهر الجرجانى فى الأسرار والدلائل يميل إلى ذلك ؛ والبعض الآخر يرجعه إلى ما تحدثه ألوان الجمال من الأثر فى النفس من ذكريات ومسرات وأشجان عميقة من تداعى المعانى فى العقل ؛ وآخرون منهم ينفون ارتباط الفن بالجمال لأنه مرتبط بالتعبير عن الانفعالات ، وآخرون يقفون نحو ألوان الجمال موقفا عقليا نقديا أكثر منه انفعاليا (١) .

وبعد فإن الذوق منحة إلهية فى نفس الأديب وموهبة متحيزة فى وجدانه ، وبه يستطيع التمييز والتفضيل والتقييم؛ وهو وحده القاضى فى مسائل الأدب ومشكلاته ، وبدونه يتعسر الفهم ، بل يتعذر الحكم .

وحتى اليوم لا نستطيع أن نحدد هذا الذوق الأدبى تحديداً دقيقا متميزا ، لأن أثر الله فى الإنسان طالما يعجز الإنسان عن فهمه وتصوره وإدراكه .

محمد عبد المنعم خفاجى

---

(١) ص ٥ وما بعدها موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس

(٢) فيض الخاطر لأحمد أمين ٧ : ٢٥٩ — ٢٦٢ ، مجلة الثقافة السنة السابعة (١٩٤٥) العدد ٣٥٠ .

---

(١) ص ٦ التجديد فى الأدب المصرى الحديث عبد الوهاب حمودة .

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

— ٧ —

ملحمة « نبي الحرية »

للأستاذ محمود حسن إسماعيل [١] وقد تضمنت عدة قصائد ذات صبغة دينية قصة ظلام ، جنازة الشرك ، العنكبوت ، الفارس المندحر ، نشيد الغار ، النور المهاجر ، وقد لخص فى الأولى تاريخ العقائد السابقة إلى أن انبثق النور المحمدى فأضاء الكون ، وأدار فى الثانية حديثاً طريفاً بين الأوثان ثم صور فى الثالثة نسج العنكبوت على فم الغار وتعشيش الحمامتين ، وفى الرابعة صور خيبة سراقة فى إدراك النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى الخامسة نشيد على لسان غار حراء . أما السادسة فقد صور فيها قصة الهجرة .

ومما جاء فى هذه القصيدة الأخيرة : —

سار على البيد ، هز الكون مسراه
صلى عليه ، وحيا نوره الله
شق الصحارى ، فخيته سباسبها
وأوشكت برياض الخلد تلقاه

* * *

سرى محمد تطوى الشمس رايته
فى موكب ، قبل هذا ما سمعناه
يمشى وصاحبه الصديق وحدهما
فى مهمه تفزع الأيام لقياه
عقيدة جنبها الإيمان يملؤها
صفواً ، وتملأ بالبشرى حناياه
ويخطفان الثرى رطبا إلى بلد
لا خيب الله من يسعى لمغناه

ثم يختمها بما يدور فى نفسه من أمان فى تحقيق آمال الشرق :

يحق من جاء يا رباه يبلغه
للخافقين ، ومن للحق أداه :
ترعى خطانا ، وتحدو القوم فى سفر
للشمس ينشد فيه المجد شطاه
وتنفح الشرق هديا فى مسالكه
فصيحة الحق دوت فى حناياه

ومجموعة هذه القصائد متسلسلة فى فكرتها ، ولذلك تعتبر عملا أدبيا واحدا بعنوان واحد هو : « نبي الحرية » كما فعل محرم فى إلياذته الكبرى وعامر بحيرى ، وقد أنشئت هذه القصائد بعد عام ١٩٥٢ ماعدا الأولى منها :

(١) ديوان نار وأصفاد ـ الأنجلو ١٩٦٠ .

وفى ديوان الشاعر مدحة نبوية أخرى كبيرة بعنوان «هادى الظلم» وقد علمت منه أن له ملحمة جديدة ذات اتجاه صوفى بعنوان «رياح المغيب» ما تزال تحت الطبع أيضا وله ملحمتان أخريان إحداهما بعنوان «العودة إلى الله» وأخرى بعنوان «شاطىء التوبة» وقد حدت للشاعر هذا الاتجاه ورجوت أن تتاح الفرصة للانتفاع بمثل هذه الأشعار ..

ملحمة السموات السبع:

للأستاذ كامل أمين [1] وهى ملحمة من نوع آخر جمعت «قصة خلق الإنسان الأول، وصراعه فى الحياة وتدرج البشرية بين الحرب والسلم والخير والشر» وتروى قصتها كفاح - الأنبياء من أجل الخير والسلام، وكفاح الأبطال من أجل خير وطنهم، وتقف وقفة طويلة عند حروب «صلاح الدين» مع الصليبيين، وحروب الظاهر بيبرس مع التتار والصليبيين معا [2].

وقد اشتملت على افتتاحية وأربعة فصول: وتناولت الافتتاحية تصوير حالات الشاعر النفسية التى يحس بها حيال المجتمع وما يلقاه من عناء وعدم تقدير بدأها بقوله:

الله . باسم الله جل جلاله
نور على نور أرود سمائى
باسم السماء نشرت قصتها وباسم
م الله سرت بها على الغبراء
إنى سأكتب قصة فى هذه السحب
ب التى كالصفحة البيضاء
وأقول - أول ما أقول - وفى يدى
قلمى ، وفى تلك الدواة دمائى :
ما خطه قلم السماء على الثرى
لن يمحى أبداً من الأحياء

ثم يقول :

ما حيلتى إن لم أجد لسفينتى
ريحا لتدفعها برغم كفاحى
وقفت سفينتى رغم نشر قلوعها
كركود جسمى رغم نشر جناحى
إن كان للملاح قلع سفينة
فالريح ليست فى يد الملاح
حقا لقد ملكت دفة زورق
لكن رياح الجو لسن رياحى
وأنا امرؤ حاولت فهم طبيعتى
فعجزت عجز فمى عن الإفصاح
ورأيت نفسى رغم أنى كائن
ما زدن عن شبح من الأشباح ..

---

(١) مطبعة الشبكشى بالأزهر سنة ١٩٥٨ فى ١٦٠ صفحة والأستاذ كامل أمين شاعر معاصر وأكثر شعره ذو صبغة إسلامية - وهو الآن موظف بوزارة الأشغال .

(٢) ص «ل» من المقدمة .

ارتاد من خلف الجسوم نقوشها
وأضل حول سواحل الأرواح ..
من شاء يدوك روح إنسان يحا
ول نزح ماء البحر بالأقداح

وبعد أن يسير في انفعال يصور عزة نفسه، وكيف أنه لو احترف حرفة، أو سمح لنفسه بأن يكون ذيلا للكبراء .. لأثرى ولكنه يؤثر الكرامة مع الفقر ويقول :

يا من يراع من الذباب إذا علا
ويعيب قلة حيلة العنقـــاء
ما عاقنى إلا جنـــاحا باشق
لم تتسع لهما الثرى كفضائى
فطواهما ضيق الدروب، وهكذا
يعلو البغاث على قنى الغبراء
كل له أجواؤه، وأنا الذى
قعدت بى الأقدار عن أجوائى

وقد تناول الفصل الأول (النور القديم) : قصة خلق آدم، وما صار من أمره هو وحواء فى الجنة حتى خرجا إلى الأرض.

وتناول الفصل الثانى (معبر الأجيال) : قصة بدء الخليقة على الأرض ومولد التاريخ، وصراع الأنبياء مع أممهم عبر التاريخ، وتوالى الأحداث إلى الحروب الصليبية ولكن فى اختصار وإشارات ملخصة.

وتناول الفصل الثالث تفصيل الحروب الصليبية وبطولة صلاح الدين ...

وتناول الفصل الرابع تفصيل حروب التتار وبطولة الظاهر بيبرس ...

وقد استغرق الفصلان الأخيران أكثر من نصف الملحمة التى بلغت أبياتها ألفان وثمانمائة بيت.

وقد نسجت هذه الملحمة جميعها على بحر واحد هو « الكامل »، وجعل لكل مجموعة من أبياتها حرف روى يختلف من مجموعة لأخرى، وقد يتكرر حرف الروى فى بعض المجموعات، كما فعل عامر بحيرى فى ملحمة أمير الأنبياء غير أنه لم يقسم الأبيات مثل عامر عشرات عشرات.

وقد بدأ الفصل الأول بتصوير خلق آدم فى صورة شعرية رائعة[1] :

كانت قديماً خلف أسوار السما
من قبل أن يحيا التراب ويعلما
من قبل أن يرد الوجود خطيئة
ويرى بعينيه مـــدامع والدما
نفس أراد الله أن تحيا لأمر ما
لتسعد فيـــه أو تتألمـــا

* * *

حتى إذا قضت المشيئة ما قضت
فيـه، وشـاء الله . أصبح آدما

ثم يأخذ فى تصوير الجنة وما فيها من نعيم، وملائكة، ثم خلق حواء وفرح آدم بهـا،

(١) ص ٧ .

ثم إغواء الشيطان لهما حتى خالفا أمر الله، وكان ما كان من خروجهما.

والذى لفت نظرى فى هذا التصوير دقة الشاعر، وسعة إطلاعه.. عندما عالج نقطة المخالفة، وكيف أن المسئول هو الإنسان، ولا ينبغى أن يحتج بالقضاء والقدر فى الخطيئة وهى من مسائل «التوحيد» الدقيقة.

فبعد أن صور تأثير الشيطان على حواء، ومحاولتها أخذ موافقة آدم على أكل التفاحتين أدار بينهما هذا الحوار[1]:

قالت: أرى الدنيا تضيق، فقال: كيـ
ـف تضيق، ماذا جد فى دنياك؟
الجنة الخضراء حولينا وعين اللـ
ـه ترعانى كما ترعاك
عجبا أتنكر عينك الدنيا وكل
سمائها ونجومها عيناك
قالت له: يوم يكرر نفسه
فى عمرنا قال: اشكرى مولاك...
ما كنت شيئاً ما، فصرت بفضله
شيئاً وأعطاك الذى أعطاك
قالت: ولكنى أخاف من الفنا
.. فقال: هذا شأن من أحياك
إن شاء أحيانا هنا، أو شاء أفنانا هنـ
ـا، أو شاء أغلق فاك

إن كان حقاً ما تقول، فكيف تملك
قدرة التقدير، قال: كفاك
الله قـدر ما أراد لأنـه
قد كان يعلم قبل أن ألقاك
ما سوف يحدث منك أو منى،
لحذرنا من الشيطان والإشراك
واختص هذا الفرع من شجر الخطيئـ
ـة، حيث تختارين سبل خطاك
فإذا أطعنا أو عصينا كان ذا
ما قدمته يدان لى ويداك
ولذاك كان الله يعلم ما ورا
ء الغيب سوف يكون حين نهاك
ما كان من خير فنه، وكل شركا
ن منا ليس من مولاك
إن اختيار المرء بين الخير والشر
اختيار العقل والإدراك...
وبقدر ما تغوى وتستهدى العقول
تجىء بالفساق والنساك

ثم يأخذ تصوير تدخل إبليس فى إقناع آدم إلى أن يقول على لسان آدم الذى يصر على مخالفة إبليس:

فالشىء كان، وكان قبل وجودنا
فى علمه الأزلى كالموجود
يدرى متى سيكون وقت حدوثه
فينا، وكيف تكون فيه جهودى

(١) ص ٢٢٢١.

ومتى سيفنى ، شأنه شأنى وشأ
نك فى وجودى هاهنا ووجودى
ولكى يحدد خيره من شرنا
مستقبلا فينا ، أتى بقيود
فأباح أشياء وحرم غيرها
بالحق ، والناموس ، والتأييد
حتى إذا ما حان يوم خطيئة
وقعت حيال الشرع ، دون سدود
فإذا اجترأت على حدود الله كا
ن على حق جزائه الموعود

* * *

فالاختيار هنا اختيار فى حدو
د الحق بين العبد والمعبود
ليس اختيار رغائب الإنسان مطلقة
ة ، ولكن أطلقت بقيود
من شاء أن يختار ، فليختر ولكن لي
س يوم حسابه ببعيد

ولكن قوة آدم هذه سرعان ما تنهار بعد حوار وتفكير وإغراء من الشيطان حتى وافقاه ، وظنا الخلود فى تناول هذا المحرم :

وتناول الشيطان من أثمارها
تفاحتين إليهما متهللا
وتلفتا حواليهما كالسارقيـ
ن الخائفين ، وقال إبليس : كلا
الخلد بين يديكما ، فتأهبا
والسكون فى فكيكما ، فتقبلا
وتهكمت ضحكاته فى القضية الأولى
ى وقال : الأرض تحتكما انزلا
ثم اختفى ، وكأنه لما اختفى
قال : الشقاء دعاكما فتفضلا
ومضى اللعين إلى الظلام مباعدا
من بعد ما أغراهما وتسللا

ثم يصور الشاعر الهبوط إلى الأرض فى صورة شعرية موسيقية بديعة ، وما كان من حوار الجن فى عالم الأرض عند استقبال آدم ، ثم تصوير قواعد الشر ، ووصايا إبليس لجنوده فى طرق إغراء بنى آدم .

وبدأ الفصل الثانى بقوله :

قف بى ، فهذا مولد التاريخ فى
أرض الفناء ، ومفود الأزمان
الليـل ملتطم العباب كأنه
شط الظلام على الوجود الثانى
والدهر يبدأ فى طفولة عمره
شيخا يمد يدا لكل زمان
يضع البرايا فى ضمير الغيب (التـ
وراة) و (الإنجيل) و (القرآن)
ويكدس الأيام فى (أرشيفه)
لمارك الإنسان والشيطان

* * *

فإذا الزمان يقول - أول ما يقو
ل من الحياة بصوته الرنان
بدأت حياة الأرض باسم الله إنى استعيـ
ذ به من الشيطان

وتناول القلم العتيق وخط أول صفحة

فى ويداه ترتعشـــان

كتبت يداه : إن هذى قصة الدنيا

وتلك إرادة الرحمن

كانت حياة الناس أول مرة

إنسانا تبكى على إنسان

بدأ الحياة بغربة ، وتلاقيا

فى غربة ، فوق التراب الفانى

وهكذا يسير فى تصوير استقبال الأرض الناس ، ثم رحيلهم إلى باطنها جيلا بعد جيل ، وقصة قابيل وهابيل ، ثم انتشار بنى آدم وحياتهم الأولى ، وكيف بدأ الإنسان يتخذ الأوثان باغواء إبليس الذى أغوى آدم من قبل . . ثم يصور ظهور الديانات وما دار حول المسيحية من خلافات بتفصيل يختمه بقوله :

وإذاً يكون المنطق المعقول : أن الله ، قل : سبحانه وتعالى صمد ، وفرد لم يلد أحدا ، ولم يولد ، ولم يخلق له أمثالا .

وبعد أن ينتقل إلى وصف حياة العرب فى الجاهلية وصور الفوضى التى كانوا يعيشون فيها يقول مشيرا إلى بعثة محمد عليه الصلاة والسلام :

هذا « محمد بن عبد الله » يتعبد فى حراء ودونه جبريل .

ثم يأخذ فى تصوير موقف قريش من دعوته وهجرته ... ثم ينتقل إلى الإشارة إلى فتنة مقتل عثمان ، وقيام دولة بنى أمية ثم العباسيين ، إلى عهد صلاح الدين .

ثم يبدأ قصة الحروب الصليبية فى الباب الثالث وموقف صلاح الدين وبطولته فى تفصيل شامل ، ويصور هزيمة « ريكارد » قلب الأسد ملك الانجليز ، وهنا نراه يربط بين الماضى والحاضر ، ويصور موقف حكام الأردن من القضية العربية ، ثم يشيد ببطولة جمال عبد الناصر فيقول :

هذه الرسالة من (صلاح الدين) ما

زالت تمـــد لنا الشعاع الهاديا

(بجمال عبد الناصر) انطلقت فنا

د به (صلاح الدين) إننا ثانياً

لن تستطيع قوى الصليبيين أن

تثنية عن أن يستعيد الماضيا

إن الخرائط بين أيدينا تر

ينا كيف ظل الغرب فينا باقياً

فلتجمع العرب الصفوف وراءه

وليرتفع علم العروبة عاليا

أرقى الشعوب هى التى إن رددت

تاريخها مهـــرت عليه الغاليا

واستلهمت أحداث ماضيها لتأ

خـذ منه عبرتها وتسعد ثانياً

* * *

وينتقل إلى الفصل الرابع حيث يذكر

حروب التتار وبطولة الظاهر بيبرس ويسجل معركة عين جالوت وأثرها ...

وهو هنا مصور بارع لبعض ألوان الحياة المصرية فى تلك الفترة وما يدور فى الموالد من حلقات المتصوفة ومناظر الباعة ...

ويصور كذلك موقف بيبرس من الصليبيين وهزيمة لويس التاسع وأسره بالمنصورة .

وبعد فهذا عرض سريع لهذه الملحمة ، ونلاحظ أن الروح الصوفى يشيع فى كثير من أجزائها كما أنها تدل على معلومات الشاعر وفهمه التاريخ فهماً واعياً ، وحرص شديد على إبراز الشخصية الإسلامية والدعوة إلى القيم الإنسانية .

ونجده فى ختام الملحمة يشير إلى أن صور البطولة تتكرر فى أشخاص وصور الخيانة تتكرر فى أشخاص عبر التاريخ وأن هذا التغير ظاهرى فى الأجسام أما الأرواح فهى متناسخة ، فالبطولة التى مثلها « صلاح الدين » « وبيبرس » يمثلها اليوم « جمال عبد الناصر » . وطغيان قيصر يمثلها اليوم « إيدن » « ونورى السعيد » :

تتناسخ الأرواح ، والأجسام كالأشـ
ـباح ، لا تخفى ولا تتحور

فهل كان الشاعر يؤمن بعقيدة التناسخ أو أنه يذكر التناسخ على أنه يريد « التشابه ؟؟؟ » .

أما من حيث الصياغة فإن السهولة بادية عليها فى جميع أجزائها والشاعر مقدرة عجيبة على تطويع المسائل الدقيقة وبسطها كما رأينا فى عرض مسألة القضاء والقدر والمسئولية الشخصية ، وكذلك على قوة التصوير ، وربما اضطرته السهولة التى تتوخاها أن يضمن أبياته كلمات عامية مثل :

وإذا (بأسطى) قال فى أذن الأمـ
ـير : نخاف من عثمان حين يثور

أنظر إليه تجده يفتل شعر شا
ربه (وزقلته) هناك تشـير

* * *

يا قوم هذا ما جرى من أمر بيـ
ـبرس ، ويبقى بعده عثمان

عثمان سار بأهل (بولاق) و (طو
لون) وما حشدت له (الجدعان)

* * *

كانت قيادتهم تمثـل كل ما
فى الشعب من فوضى ، فهم ألوان

الشيخ ، والتربى ، والنجار ، والحجـ
ـار ، والقروى ، والعجان

هذا بسكين وذاك (ببلطة)
وأشد ما ادرعوا به الإيمان

ومضت جموع الشعب فى خمسين ألفـ
ـا من رعاع قادهم عثمان

ربما اضطر الشاعر إلى هـذا النزول

(البقية على صفحة ٢٠٨)

فلما كان الغد دخلت عليه فقال : سلى يا ليلى تعطى . قالت : أعط فمثلك أعطى فأحسن . قال لك عشرون . قالت : زد فمثلك زاد فأجمل . قال : أربعون . قالت : زد فمثلك زاد فأكمل . قال : ثمانون . قالت : زد فمثلك زاد فتمم . قال : مائة : واعلمى أنها غنم . قالت : معاذ الله أيها الأمير ، أنت أجود جوداً ، وأمجد مجداً ، وأورى زنداً من أن تجعلها غنما . قال : فما هى ويحك يا ليلى ؟ قالت : مائة من الإبل برعاتها . فأمر لها بها ، ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت : تدفع إلى النابغة الجعدى . فإنه كان يهاجيها .

وكانت ليلى طويلة حسنة القوام دعجاء العينين ، حسنة المشية ، حسنة الثغر ، وكما رأيت كانت آية فى الأمانة والإخلاص لزوجها ، لقد لجأت إلى ركن ، وثيق من فضلها وعفتها حتى تنجو من المأثم ، ويسلم الشرف والعرض ، كما زانها الوفاء لتوبة الذى تيمته بحبها ولعج قلبه بها ، فبقيت تلهج بذكراه ولا تنسى حبه بعد أن أمسى جثة هامدة ولا تبرح تمر بقبره وتقول : السلام عليك يا توبة حتى ماتت : تحقيقا لما قاله توبه فى شعره فيها :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح

أحمد أبو الخضر منسى

(بقية المنشور على صفحة ٢٠٥)

بالأسلوب لأنه يصور ثورة حينما استعد لقتال الصليبيين ، ولكى تكون الصورة صادقة فلا بد أن تلون بالألوان الطبيعية المناسبة ، ولكن مقاييس الشعر الرفيع لا تعترف بهذا .

ولئن كانت الملحمة تنقصها قوة السبك أحيانا ، أو يؤخذ عليها هذا التساهل فى بعض الألفاظ والتعبيرات ... فإن قوة العاطفة ، ودقة التصوير وشيوع روح الإيمان وإبراز الوطنية المصرية فى صورة قوية واضحة ، ثم هذه الروح المرحة فى تصوير المجتمع المصرى فى عصر المماليك . كل ذلك يستهوى قارئ هذه الملحمة ويجعله يحس فيها بحيوية وتجاوب مع نفسيته .

ولولا خوف الإطالة لنقلت الكثير من النماذج فإنها مقسمة الجوانب .

دكتور سعد الدين الجيزاوى

ليلى الأخيلية الشاعرة

المثل الأعلى في الوفاء

للأستاذ أحمد ابو الخضر منسى

لم تؤت المرأة نظم القريض . ما كان الشعر سليقة لها وفطرة الشعراء من الرجال جم عديدهم ، ومن النساء أقل من القليل عدا ، ولا سيما المشهورات النابغات . ومن فلتات الطبيعة وشذوذها ما أذاقنا طعم حلاوته أدب العرب من منظوم شعراء الجاهلية والإسلام ، إذ نحن نتلو فيه شعراً كعقود اللآلىء ، ونفيس الجوهر لشاعرتين عربيتين مطلقتين قد أبرمتا شعراً ، وجاءتا بالمطرب المعجب ، والجزل الرصين هما الخنساء وليلى الأخيلية .

وعن ليلى نحن محدثوك . إنها المرأة التي امتازت بخليتين ، وطار ذكرها بوصفين : النبوغ في الشعر ، والوفاء ما مثله وفاء ، للزوج الذي تعاشره ، وللرجل الآخر الذي استهان بحبها وفاء العفة والطهر ما مستها فيه ريبة ، ولا لحقتها لائمة .

هي ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن الرحال من بني الأخيل ، من المتقدمات في الشعر ، جوالة فيه صوالة تبذ الرجال ، لا يتقدم عليها في نظم إلا الخنساء . فإذا ما تلجلج الشعر في صدرها وطاح بها ، أسمعتك منه الرائع المتين ، والناصع الرفيع .

كانت ذات بعل وأحبها . توبه بن الحمير (بضم ففتح وياء مشددة) شاعر إسلامي أحد عشاق العرب المدلهين المشهورين بذلك . أحبها حباً كان له بين جوانحه اشتعال . فنظم فيها الشعر الرقيق العذب كنظم الدر وتغريد البلابل ، فما بلغ منها وطراً ، ولا ظفر أحدهما من صاحبه بمطمع أو منال ، ولكنه كان الحب العف الخالص بين الروحين . في معتصمه بالإخلاص لزوجها ، مارث وفاؤها له لحظة عين ؛ وتوبة العاشق العبد المستهام لم يخلع في هواه عذارة ولا رام منها قرباً ووصالا . وهو القائل فيها :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
علي ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح

وأغبط من ليلى بما لا أناله
ألا كل ما قرت به العين صالح

وهو القائل :

يقول أناس لا يضيرك نأيها
بلى كل ما شف النفوس يضيرها
أليس يضير العين أن تكثر البكا
ويمنع منها نومها وسرورها

وكانت ليلى قدمت على الحجاج وقد أسنت ، فذكرت ما كان بينها وبين توبة ، وكيف كان حبه لها طاهراً نزيها . ثم قالت : غير أنه قال مرة قولا ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر فقلت :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل

فذلك كان وفاؤها لزوجها .

وكان توبة فارساً صنديداً . وكان قتل من بنى عوف فارساً وابنه فقتلوه . فقالت ترثيه بقصائد من مختار الشعر الجيد يدل على إخلاصها ووفائها بعهده . فمن ذلك قولها :

وتوبة أحيا من فتاة حيية
وأجرأ من ليث بخفان خادر
ونعم فتى الدنيا إذا كان فاجراً
وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر
فتى كان للمولى سناء ورفعة
وللطارق السارى قرى غير نائر

ومن قولها فيه من قصيدة طويلة :

أيا عين بكى توبة من حمير
يسبح كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفاجة نسوة
بماء شئون العبرة المتحدر

ومرت ليلى وقد أسنت بفتية حضريين يتعاطون الراح فعاجت عليهم التماسا للراحة ، فسقوها من خمرهم ، فلما نال منها الشراب وتمشت حميا الكأس فى أعطافها قالت أيشرب نساؤكم هذا الشراب ؟ قالوا : نعم . قالت : لقد زنين إذن ورب الكعبة .

وقدمت ليلى على الحجاج فأنشدته :

إذا ورد الحجاج أرضا مريضة
تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لها : لا تقولى غلام . قولى همام . ثم قال لها : أى نسائى أحب إليك أن أنزلك عندها الليلة ؟ فقالت : ومن نساؤك أيها الأمير ؟ قال : أم الجلاس بنت سعيد ابن العاص الأموية ، وهند بنت أسماء ابن خارجة الفزارية ، وهند بنت المهلب ابن أبى صفرة العتكية . فقالت : القيسية أحب إلى ، تريد هند بنت أسماء ، وإنما اختارتها لأنها على ما رواه الأصفهانى فى أغانيه ، ابنة عمها .

فلما كان الغد دخلت عليه فقال : سلى يا ليلى تعطى . قالت : أعط فمثلك أعطى فأحسن . قال لك عشرون . قالت : زد فمثلك زاد فأجمل . قال : أربعون . قالت : زد فمثلك زاد فأكمل . قال : ثمانون . قالت : زد فمثلك زاد فتمم . قال : مائة : واعلمى أنها غنم . قالت : معاذ الله أيها الأمير ، أنت أجود جوداً ، وأمجد مجداً ، وأورى زنداً من أن تجعلها غنما . قال : فما هى ويحك يا ليلى ؟ قالت : مائة من الإبل برعاتها . فأمر لها بها ، ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت : تدفع إلى النابغة الجعدى . فإنه كان يهاجيها .

وكانت ليلى طويلة حسنة القوام دعجاء العينين ، حسنة المشية ، حسنة الثغر ، وكما رأيت كانت آية فى الأمانة والإخلاص لزوجها ، لقد لجأت إلى ركن ، وثيق من فضلها وعفتها حتى تنجو من المأثم ، ويسلم الشرف والعرض ، كما زانها الوفاء لتوبة الذى تيمته بحبها ولعج قلبه بها ، فبقيت تلهج بذكراه ولا تنسى حبه بعد أن أمسى جثة هامدة ولا تبرح تمر بقبره وتقول : السلام عليك يا توبة حتى ماتت : تحقيقاً لما قاله توبة فى شعره فيها :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح

أحمد أبو الخضر منسى

(بقية المنشور على صفحة ٢٠٥)

بالأسلوب لأنه يصور ثورة حينما استعد لقتال الصليبيين ، ولكى تكون الصورة صادقة فلا بد أن تلون بالألوان الطبيعية المناسبة ، ولكن مقاييس الشعر الرفيع لا تعترف بهذا .

ولئن كانت الملحمة تنقصها قوة السبك أحيانا ، أو يؤخذ عليها هذا التساهل فى بعض الألفاظ والتعبيرات ... فإن قوة العاطفة ، ودقة التصوير وشيوع روح الإيمان وإبراز الوطنية المصرية فى صورة قوية واضحة ، ثم هذه الروح المرحة فى تصوير المجتمع المصرى فى عصر المماليك . كل ذلك يستهوى قارئ هذه الملحمة ويجعله يحس فيها بحيوية وتجاوب مع نفسيته .

ولولا خوف الإطالة لنقلت الكثير من النماذج فإنها مقسمة الجوانب .

دكتور سعد الدين الجيزاوى

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

٩ — طرق الكسب والتملك

١ — أشرنا فى مقال سابق إلى أن أطيب وجوه الكسب هى عمل الرجل بيده والبيع الذى يعود على البائع والمشترى بالبر والخير ويدخل فى معنى العمل اكتساب الخبرة واستخدامها فيما ينفع الفرد وينفع المجتمع ، ولاشك أن مستوى الدخل يتفاوت بتفاوت الخبرات ويختلف باختلافها ، لأن تقدير الأجور يتوقف إلى حد كبير على قيمة ما يبذل فى الأشياء المخترعة أو المصنوعة من حذق ومهارة ، فالدخل أو الربح الذى يحصل من وراء ذلك حلال مشروع مالم يصطدم بمصلحة عامة أو يؤدى إلى ضرر محقق . أو يكون ثمرة لعمل محرم ، وهناك إلى ذلك طرق أخرى للكسب الحلال ، يلاحظ فيها مظهر احترام الملكية من جانب ، ومظهر الاشتراكية العادلة الفاضلة من جانب آخر .

٢ — فالميراث إذا نظرنا اليه من جانب نجده عبارة عن نقل ملكية المتوفى إلى أقرب الناس اليه ، وإذا نظرنا اليه من جانب آخر وجدنا فيه اشتراكية لاسبيل إلى إنكارها ، لأن التركة فيه شركة بين الأقربين يأخذ كل منهما بالقدر الذى فرضه الله له فيها « للرجال نصيب مما ترك الوالدين والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » ، ولا شك أن الميراث بالوضع الذى نراه فى الإسلام حق وعدل ، إذ ليس مما يستقيم مع المنطق السليم أن يعمل الإنسان ما وسعه الجهد ليعول أهله وأبناءه ، ويهيء لهم عيشا رغدا وحياة طيبة ، ثم يكون مآل ماله إلى غير أهله وأبنائه بعد موته ، بل إن ذلك — إذا حدث — يعطل النشاط ، ويضعف العمل ، ويغرى بالكسل اليائس والخمول البليد ، أما إذا وثق الإنسان بأن عمله لنفسه ولأهله وللمجتمع من حوله . فإنه يضاعف نشاطه ، ويعبىء قواه ، وتغريه الآمال بعظائم الأعمال ، ومن ثم يكثر الخير ويعظم الإنتاج ويعم الرخاء . وإذا كان الولد يرث عن أبيه بعض ذاته وصفاته الجسمية والعقلية والنفسية ، وكان الأولاد كما يقول الشاعر :

وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشى على الأرض

فكيف يستقيم مع منطق الفطرة ومنطق الحق ، ومنطق المصلحة حرمانهم من ثمرات جهود آبائهم . لهذا كانت الملكية عن طريق الإرث مبدأ مقررا تمليه شريعة الله ، وطبيعة خلق الله .

٣ — والوصية كذلك طريق من طرق الكسب والتملك ، ومعناها نقل ملكية عين أو منفعتها إلى الموصى له بعد موت الموصى بها ، فهى من جانب مظهر من مظاهر احترام الملكية . ومن جانب آخر لون من ألوان الإشتراكية التى تقوم على دعائم البر والخير ، أما مظهر احترام الملكية فيها فلأنها تتيح للمالك حرية التصرف فى بعض ما يملك ، ثم هى إلى ذلك نقل ملكية لا إلغاء ملكية ، وأما مظهر الاشتراكية فيها فلأنها تدخل مع الورثة شركاء فى التركة ، وقد اشترط لصحتها الا تكون لوارث حتى لا يشعر أحد الورثة بظلم أو غبن وذلك لأن إيثار بعضهم على بعض بشىء من التركة يثير بينهم الشعور بالحسد والعداوة والبغضاء ، وذلك مما يكدر صفاء جو الأسرة ويوهن عراها ، ثم إن الوصية مع ذلك لا تصح فى أكثر من ثلث المال أو التركة ، وإلا كان فى ذلك جور على حق الأقربين ، فقد روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه قال : جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى ، فقلت يا رسول الله : قد بلغ بى الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثنى الا ابنة لى واحدة ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا قلت : أفأتصدق بشطره يا رسول الله ؟ قال : لا ، (الثلث والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) .

هذا إذا كان المالك غنيا يملك الكثير ، فإذا كان فقيرا لا يملك إلا القليل كان عليه أن يدع ماله لأهله وورثته دون سواهم ، وقد فهم هذا من قوله تعالى : « إن ترك خيرا » ، وروى عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت : ما أرى فيه فضلا .

٤ — والهبة كالوصية فى أنها طريق من طرق الكسب والتملك المشروع وتختلف عنها فى أن الملكية تتم للموهوب له فى حياة الواهب بخلاف الوصية فإن الملكية فيها تنتقل للموصى له بعد وفاة الموصى ، ولا يشترط فى الهبة ما اشترط فى الوصية من أنها لا تكون لوارث ولا تتجاوز ثلث المال ، لأن للمالك حرية التصرف فيما يملك مادام رشيدا سليما متمتعا بقواه العقلية ، فله أن يهب لغيره ماله كله أو بعضه ، سواء كان وارثا أو غير وارث ، ولا يحق له أن يرجع فى هبته ، لأن ذلك يثير الشعور بالمرارة فى نفس الموهوب له ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : (العائد فى هبته كالعائد فى قيئه) وما يرى من مظهر احترام الملكية ومظهر الاشتراكية فى الوصية يرى فى الهبة فإن فيها هذين الجانبين كذلك .

٥ — ومن طرق الكسب والتملك المشروع الإقطاع : ومعناه فى العرف الإسلامى لا فيما عرف الناس من الإقطاع الظالم الآثم فى أوربا وغيرها ـ تمليك الإمام أو ولى الأمر أرضاً لا مالك لها لإنسان يقوم بتعميرها واستغلالها ، والغرض من ذلك هو التشجيع على العمل والتعمير واستثمار الأرض لخير الفرد والمجتمع ، فإذا أهمل المالك فى ذلك ، فأغفل استثمارها وتعميرها نزعت منه وأعطيت لغيره . ولا شك أن هذا الإقطاع على طرف النقيض من الإقطاع الذى عرفه الغرب فى القرون الوسطى وعرفته مصر وبعض الشعوب الشرقية فى العصور الحديثة القريبة ، فإن الإقطاع الغربى كان لوناً من ألوان استعباد الإنسان لأخيه الإنسان ، إذ كان السيد يملك الأرض الواسعة ومن عليها من الفلاحين وما عليها من الحيوان ، وكان يباح له مطلق التصرف فيها وفى من فيها وما فيها دون قيد أو شرط ، أما الإقطاع الذى عرفته مصر وبعض الشعوب الشرقية فظهر الانحراف فيه سوء الاستغلال ، وطغيان رأس المال ، والتحالف مع الاحتلال الأجنبى على مصلحة الأكثرية الكادحة الشقية ، ولا شك أن هذا الانحراف يجب أن يقاوم ويقوم لتسلم البلاد من شروره وشرور القوى التى تحميه وتطلقه . وهذا ما كان فى الجمهورية العربية وما سيكون بإذن الله فى جميع الشعوب التى تدين بالإسلام .

٦ — بقى بعد ذلك أحياء الأرض الموات فإنه كذلك طريق من طرق الكسب والتملك والأصل فى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : (من أحيا أرضاً ميتة فهى له وما أكلت العافية منها فهى له صدقة) . وقوله عليه الصلاة والسلام : (من عمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها) ، وقد اشترط أبو حنيفة لذلك إذن الإمام ، ومعنى إحياء الأرض جلب الماء إليها إن كانت خالية منه . وتجفيفها إن كانت مغمورة به ، وزراعتها أو البناء عليها . أو العمل فيها بما يجعلها صالحة للاستثمار ، ولا يتسع المقام لتفصيل كل ما قيل فى صفتها وصحة ملكيتها ووسائل إحيائها ، وشروط تملكها ، فليرجع إليه من شاء فى كتب الفقه .

وهناك إلى ذلك وسائل أخرى من وسائل الكسب والتملك كالقرض واستثماره فيما يحقق كسباً ومنفعة . وكالقراض . والعارية . وهى كلها مع دلالتها على احترام مبدأ الملكية تقوم على نزعات إشتراكية أصيلة فى نفوس المؤمنين وفى المجتمع المؤمن المتدين الذى يتعاون أعضاؤه على البر والتقوى ويبدو كما وصفه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) . وقوله : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) .

عبد الرحيم فوده

الذوق الأدبي
كما يراه ابن خلدون

للأستاذ على العمارى

— ١ —

تكاد تتفق كلمة علماء البلاغة ، وعلماء النقد الأدبى على أن الحكم الفيصل فى جودة الكلام ورداءته ، والعامل الأول على تأليف كلام بليغ ، إنما هو الذوق السليم ، بل لقد ذهب كثير منهم إلى أن إعجاز القرآن لا يدرك حق الإدراك إلا عن طريق الذوق ، حتى لقد قال أبو يعقوب السكاكى - وهو الذى قيد مسائل البلاغة فى قوانين جافة - حين كان يتحدث عن وجوه الإعجاز فى القرآن ، فذكر أربعة أوجه عقب عليها بقوله : يخصها ما يجده صاحب الذوق السليم ، ثم قال : ولا استبعاد فى إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه ، فكم سحبنا الذيل فى إنكاره ، ثم ضممنا الذيل ما إن ننكره . ويقول فى موضع آخر : ومدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا .

وحتى قال الإمام الخطابى : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن أوجه الإعجاز فى القرآن من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق [١] . ثم جاء عبد القاهر الجرجانى إمام البلاغيين فهاله أن يتحدث العلماء عن صعوبة إدراك أسرار الإعجاز ، وأن يستنيموا إلى حكم الذوق وحده ، فوضع كتابه (دلائل الإعجاز) ليلخص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجة ، واستظهارا على الشبهة ، واستبانة للدليل - كما يقول - .

ولكنه - كغيره - صغا إلى حكم الذوق ، وصعب عليه فى بعض الأحايين أن يدرك سر حسن الكلمة الواحدة فى موضع ، وقبحها فى موضع آخر ، وكان يدلل ويعلل ، ولكنه أخيرا يستنجد بالذوق ، ويحيل عليه . وقد جاءت آخر عبارات فى كتابه هكذا : (ومن الباب قول النابغة) :

نفس عصام سودت عصاما
وعلمته الكر والإقداما

لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الإظهار ، وأن له موقعا فى النفس ، وباعثاً للأريحية ، لا يكون إذا قيل : نفس عصام سودته : شىء منه ألبتة) . فتراه يحيل على الذوق ، والأريحية ، والموقع فى النفس .

وتلقف ابن خلدون أقوال العلماء السابقين ، ونسج على منوالها ، وكتب فى الذوق الأدبى ،

(١) انظر رسالة صغيرة عنوانها (حول إعجاز القرآن) من وضع صاحب هذا الحديث .

ولكنه فصل حديث الملكة ، ووصل إلى بعض النتائج التي ستكون محل نظر في حديثنا هذا .

وابن خلدون لم يذكر لنا في مقدمته ، ولا في كتابه (التعريف) ثبتا بالكتب التي درسها في البلاغة والنقد والأدب ، ولكن يبدو واضحا في مقدمته أنه أعجب بكتابين عظيمين ، فأثنى عليهما ، وأشاد بهما ، أولهما كتاب (العمدة) لابن رشيق القيرواني ، ومن قوله فيه ، وهو يتحدث عن صناعة الشعر : « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة ، وإعطاء حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ، ولا بعده مثله » .

وثانيهما كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ، فقد ذكر في كتاب (التعريف) أنه حفظ طائفة من أشعار هذا الكتاب ، ثم أشاد به في المقدمة فقال : إنه كتاب العرب ، وديوانهم ، وفيه لغتهم ، وأخبارهم ، وأيامهم ، وملتهم العربية ، وسيرتهم ، وآثار خلفائهم وملوكهم ، وأشعارهم وغناؤهم ، وسائر معانيهم ، فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب .

وفي كل ما كتب ابن خلدون في هذا البحث نجد أثر ابن رشيق ، وأثر العلماء السابقين ، كما نجد ذهنية الرجل الفلسفية ، ونظرته العقلية ، ومنطقه العلمي .

رأى ابن خلدون — كما رأى غيره من السابقين — أن الذوق هو الحاكم الذي لا يرد حكمه في فهم بعض وجوه الإعجاز فردد ما قيل من أن ثمرة علم البيان إنما هي في فهم الإعجاز في القرآن وهذا الإعجاز — كما يقول — تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه ، ولهذا — كما يقول أيضا — كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما في ذلك ، لأنهم فرسان الكلام وجهابذته ، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه .

ورأى أن صاحب الذوق السليم لا يكاد يخرج في أسلوبه عن طريق البلاغة العربية ، ومتى سمع كلاما مخالفا لكلام العرب أعرض عنه ، ولم يستسغه ، وربما فكر في رفض هذا الكلام ، بل ربما رفضه بمجرد أن يسمعه دون فكر أو روية ، بل رأى أن صاحب الذوق العربي محكوم بهذا الذوق ، فلو أراد أن يحيد عن بلاغة العرب ، وطريقة نظم كلامهم أعوزه ذلك ، وصعب عليه ، وخانه لسانه ، وقلبه ، لأنه لم يتعود أن ينحو غير منحى العرب ، وقد ذكر في كلام ابن خلدون هذا ببيت لأحد شعراء العصر :

من ساد ساد لأنه
لم يستطع ألا يسود

وهو دائم الاحتكام إلى الذوق حين يفصل في قضية أدبية ، ولكن :

ما الذوق ؟ وكيف يتكون ؟ وماذا رتب ابن خلدون من نتائج على آرائه في الذوق ؟ .

هذه أسئلة نجيب عنها في هذا البحث مع التعقيب ببعض ما يعين لنا، مؤمنين سلفا بفضل هذا العالم الكبير على العلم [١].

* * *

يعرف ابن خلدون الذوق بأنه حصول ملكة البلاغة للسان، ويشرح هذا التعريف فيقول:

فالمتكلم بلسان العرب، والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب، وأنحاء مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده، فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب [٢].

ويعود فيقول: إن ملكة البلاغة عندما تستقر وترسخ تسمى ذوقا، فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل، ويعلل تسمية ملكة البلاغة هذه باسم الذوق فيقول:.

وإنما هو - يعني الذوق - موضوع لإدراك الطعوم، ولكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه

(١) كنت نشرت مقالا في العدد (١٠٤٩) من الرسالة عرضت فيه لبعض آراء ابن خلدون في الذوق الأدبي، وهذا البحث تكملة لذلك.

(٢) المقدمة ص ٥٦٢.

وأيضا فهو - أي الذوق - وجداني اللسان كما أن الطعوم محسوسة له، فقيل له ذوق [١].

ويمضي ابن خلدون يتحدث طويلا عن الملكة التي تنتهي عندما تستقر وترسخ إلى الذوق:

وأول ما نلاحظه أنه جعل لكل فن ملكة ولكل صناعة ملكة، فللبلاغة ملكة، واللغة ملكة، وللنجارة ملكة والخياطة ملكة، وهكذا بل جعل لكل فرع من فروع الكلام ملكة، فللشعر ملكة، وللنثر ملكة.

وثاني ما نلاحظه أنه تنبه إلى أن الملكات لا تزدحم، فعنده أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معا إلا الأقل، والسبب في ذلك عدم ازدحام الملكات وذلك أن اللسان إذا سبقت إليه ملكة قصرت به عن تمام الملكة اللاحقة، لأن تمام الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر فإذا تقدمت ملكته كانت منازعة للملكة الجديدة في المادة القابلة، وعائقة عن سرعة القبول فتقع المنافاة بين الملكتين، وهذا مشاهد في الملكات الصناعية كما هو مشاهد في ملكات اللغات.

ويترتب على ذلك أن الأعجمي الذي سبقت له لغة لا تتحقق له ملكة كاملة باللسان العربي عن طريق التعليم، وذلك هو السبب في أن من طلب العلم من أهل هذه الألسن يقصر في معارفه عن الغاية والتحصيل، وكل

(١) المصدر السابق ص ٥٦٣ ط التجارية.

الذي قاله ابن خلدون مشاهد معروف ، وقد زاد هو تعليله تعليلا علميا ، فنحن لا نعرف في العربية - مثلا - أديبا كانت إجادته في الشعر كفاء إجادته في النثر ، وهـذا ما عبر عنه سهل بن هارون قديما في قوله : « اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد ، وأعسر من ذلك أن تجمع بلاغة الشعر وبلاغة الكلم » .

كما أنا نشاهد كل يوم الطلاب الوافدين من البلاد التي لا تتكلم العربية فلا نرى فيهم واحدا نبغ في اللسان العربي ، ولا في علومه كمثل زميل له من الأعاجم نشأ وربي بين أهل اللسان العربي .

ولا يفوت ابن خلدون أن يستدل على حكمه بالواقع المشاهد فأهل إفريقية والمغرب - على عهده - لما كانوا أعرق في العجمة ، وأبعد عن اللسان الأول قصروا في حصول ملكة اللسان العربي بالتعليم ، وكانت أشعارهم نازلة عن الطبقة ، ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق ، وابن شرف وأكثر ما يكون الشعراء طارئين عليها

ويسجل ابن خلدون في هذا الفصل كتابا لطيفا يستدل به على قصور ملكات أهل المغرب في الكتابة ، وهو من بعض كتاب القيروان إلى صاحب له ، ونصه : « يا أخي ، ومن لا عدمت فقده ، أعلمني أبو سعيد كلاما أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي ، وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج ، وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين ، فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا ، وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله » .

ووجه الغرابة في هذا الكتاب أنه من بعض الكتاب ، ومن كتاب مدينة هي من الحواضر . ثم إنه لابد أن يكون كاتبا مشهورا معروفا حتى يتصل خبره بابن خلدون وليس العيب في الكتاب في الخطأ المعنوي فحسب ، ولكنه أيضا في هذه الركة ، واضطراب التراكيب .

ولو عاش ابن خلدون إلى أوائل القرن التاسع عشر ، ورأى بنفسه لغة الكتابة في مصر ، والرسائل الديوانية التي كانت تصدر عن قصر الوالي لأضاف كثيرا من الكتب والرسائل والمقالات إلى هذا الكتاب الذي ذكر ، فهل كان السبب في ذلك هو أن المصريين في ذلك التاريخ كانوا (أعرق في العجمة) . ؟

وكذلك ينفي حصول ملكة البلاغة عن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي ، الطارئين عليه ، المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك بالمشرق ، وكالبربر بالمغرب ، وقصاراهم بعد طائفة من العمر أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب .

رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة

الأستاذ أحمد الشرباصى

— ٥ —

مراحل الثقافة وطرقها :

نحن نعرف للتعليم والتثقيف ثلاث مراحل أساسية ، هى المرحلة الأولى الابتدائية ، والمرحلة الثانية الثانوية ، والمرحلة الثالثة الجامعية ، والمسجد عرف خلال تاريخه الطويل هذه المراحل الثلاث ، فقد كان للصبيان معلمون فى بعض المساجد ، وهذا التعليم للصبيان يقابل المرحلة الابتدائية ، وكان الطالب بعد أن يبدوا جانباً من التعليم بأن يعرف القراءة والكتابة ، ويحفظ مايستطيع من القرآن الكريم ، يحضر حلقة تدرس بعض الكتب السهلة مع شئ من التوسع فى الإفهام أو الشرح ، وهذه المرحلة تقابل المرحلة الثانوية فى الدراسة النظامية .

وبعد هذه المرحلة ينتقل الطالب إلى دراسة كتب واسعة مبسوطة ، فيها تحليل وتفصيل واعتراضات ومناقشات ، ويدرس كل كتاب منها عالم متخصص فى مادته ، ومتخصص أحياناً فى دراسة كتاب بعينه ، وهذه المرحلة تقابل المرحلة الجامعية فى الدراسة النظامية .

ونستطيع أن نقول بتعبير آخر : إن التلميذ فى المسجد كان يحفظ المتون فى المرحلة الابتدائية ، ويطالع الشروح فى المرحلة الثانوية ، ويدرس الحواشى والأمهات فى المرحلة الثالثة الجامعية !.

* * *

وقد عرف المسجد أنماطاً عدة من طرق التدريس ، ومنها طريقة « الحلقة » ، أى تحلق الطلاب أو التلاميذ حول شيخهم ومدرسهم ، ونظام الحلقة كان معروفا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روت لنا كتب الحديث الأمهات عن أبى واقد الليثى أن النبى صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس فى المسجد ، والناس معه ، إذ أقبل ثلاثة نفر (رجال) فأقبل إثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذهب واحد .

فوقف الإثنان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما أحدهما فرأى فرجة (مكاناً خالياً) فى الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، أى رجع ولم يجلس معهم ، فلما فرغ الرسول من حديثه قال : (ألا أخبركم من النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله (لجأ إليه)

فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) ، رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى.

ولقد اشتهر نظام «الحلقة» فى المساجد، وهو نظام ثقافى ديمقراطى عميق، فالحلقة تضم الجميع بلا تفرقة، وكل مكان منها صالح لأن يجلس فيه أى طالب دون أن يصد عنه، وفى الحلقة معنى البساطة والتواضع، فالكل جلوس على الأرض، والأستاذ على مقعد أو مكان مرتفع قليلا، أو يجلس مثلهم على الأرض، وهو يمثل واسطة العقد بينهم، فالأنظار متجهة إليه، والأسماع مصغية نحوه، والقلوب معلقة به، والعقول تفكر فيما يقول.

وإذا كان نظام الحلقة مشهوراً فى مختلف المساجد التعليمية الكبرى فى تاريخ الإسلام فإنه أكثر شهرة وذيوع صيت فى تاريخ الجامع الأزهر الشريف، حتى كان المسلم يتمنى أن يولد له ولد، وأن يتعلم ثقافة الإسلام حتى يصير عالما، ويغدو صاحب «عمود» وصاحب «حلقة» فى الأزهر الشريف، أى يصير مستحقاً لأن يستند إلى عمود من أعمدة الأزهر الشريف، وتلتف حوله حلقة الطلاب ليدرس لهم، فذلك مجد عريق ومكان ملحوظ!.

كان الطلاب ينتظمون فى الحلقة قبل مجئ الشيخ، فإذا أقبل بدا عليهم سرورهم بمجيئه وألقى عليهم السلام فردوا التحية بأحسن منها، ثم أخذ فى درسه، فهو إما أن يملى ويلقى، وإما أن يشرح ويفسر، وإما أن يصحح ويقوم، وإما أن يجيب على الأسئلة وإما أن يسأل ويناقش، وإما أن يطالع الكتاب بعد الشرح وإما أن يطالع فقرة فقرة ويشرحها، وإما أن يسمع من طلابه يطالعون.

والطالب يعرف الدرس الذى يتلقاه اليوم ولذلك هو يطالعه فى الكتاب قبل مجيئه إلى الحلقة، ويحاول بمفرده أو مع بعض زملائه أن يفهم منه ما يستطيع وقد يطالع الطالب كتابا آخر فى الموضوع فوق الكتاب المقرر أو المدروس، والشيخ المدرس يعلم هذا، ويعلم أن من طلابه أذكياء، وأنهم طالعوا الدرس قبل مجيئهم، وأخذوا عنه فكرة عامة ومنهم من يكون قدفهم فيه أشياء كثيرة، ومنهم من يكون قد طالع أكثر من كتاب.

فلابد للشيخ إذن من الاحتيـاط والاستعداد وكثرة التحصيل، ولا بد له أن يرجع إلى كتب أكثر من الكتب التى رجع إليها الطلاب قبل سعيهم إلى الدرس، أو إلى الكتب التى رجعوا إليها على أقل تقدير، ولا بد له أن يذاكر جيداً

أن الطلاب سيسألون وسيناقشون وسيوجهون اعتراضاتهم بحسن نية غالبا ، وبسوء نية فى بعض الأحيان ، كأن يريد أحدهم أن يتعالم أو يعاند ، أو يعاكس ... الخ

ويمضى الشيخ فى درسه ، ويشرح النقطة الأولى أو العنصر الأول منه ، فإذا اطمأن إلى أنه قد بلغ من هذا الشرح مبلغا يحسن السكوت عليه والانتقال منه إلى عنصر آخر يقول للطلاب مستفهما أو متأكدا : « مفهوم » ؟ . فإذا ردوا قائلين : « مفهوم » جاز للشيخ الانتقال والاكتفاء بما قال ، وإذا قيل من قليل منهم أو كثير : « غير مفهوم » عاد الشيخ إلى شرح المسألة مرة ثانية وثالثة حتى يفهم الجميع ! ! .

وهذا نمط فى التدريس والتعليم والتثقيف وتوسيع الأفق وتمحيص المسائل نادر المثال !

وكان الأستاذ فى الحلقة يستند عادة إلى أحد أعمدة المسجد ، وهو على وضوء ، ويستقبل القبلة ، ويتطيب تكريما لمجلس العلم ، وقد يسبق الدرس تلاوة جانب من آيات القرآن الكريم ، ويبدأ الشيخ درسه بالبسملة والحمدلة والصلاة والسلام على الرسول والآل والصحابة والتابعين ، ويدعو لشيوخه وطلابه ونفسه ، وإذا انتهى من الدرس ختمه بمثل هذا الدعاء ، وقد يقرأ فاتحة الكتاب ، ويعين لطلابه موطن الدرس التالى ، ثم ينهى مجلسه بالكلمة العظيمة : « والله أعلم » ! .

وفى نظام الحلقة كان بعض الشيوخ يختص ببعض الأعمدة المعينة ، حتى يشتهر به ، فيقال : « هـذا عمود فلان » ، أو « فلان صاحب العمود الفلانى فى الجامع » وقد يجلس الشيخ إلى عمود واحد طيلة حياته لا ينتقل عنه ، كما حدث من إبراهيم ابن نفطويه الذى جلس فى مسجد الأنباريين إلى عمود معين فيه طيلة خمسين سنة ! ! .

وإذا تعود شيخ الجلوس إلى عمود معين كان أولى به من غيره . ولذلك يورد الماوردى فى « الأحكام السلطانية » هذه العبارة : « وإذا ارتسم بموضع بجامع أو مسجد فقد جعله مالك أحق بالموضع إذا عرف به ، والذى عليه جمهور الفقهاء أن هذا يستعمل فى عرف الاستحسان ، وليس بحق مشروع ، وإذا قام عنه زال حقه منه ، وكان السابق إليه أحق » . .

وجاء فى الجزء الثانى من كتاب « تاريخ التمدن الإسلامى » هذه الجملة : « كانوا يسمون التلامذة المجتمعين حول أستاذ يتلقون علما من علوم (حلقة) ، وتفرعت العلوم بتوالى الأعوام ، واتسعت دوائرها ، حتى أصبح للعلم الواحد عدة حلقات .

والغالب أن تنسب الحلقة إلى أستاذها ،

فيقولون مثلا : حلقة أبي إسحاق الشيرازى فى جامع المنصور ، أو نحو ذلك » .

* * *

ومن طرق التدريس فى المساجد « الرواية » وهى إلقاء المدرس أو الأستاذ لما يحفظه من ذاكرته ، سواء أكان هذا المحفوظ حديثا أو فقها أو أدبا أو شعرا ، والرواية لها شأنها الجليل فى تاريخ الإسلام عامة وتاريخ المساجد خاصة ؛ ولا ننسى أن العرب هم أمة الإسلام الأولى ، وهى أمة تعتمد فى أول تاريخها على الحفظ والرواية ، لا على التقييد والمطالعة ، حتى إنه كان لكل شاعر مشهور راوية ، ثم كان للحديث النبوى رواة ورواة ، وكان لأيام العرب وقصص السابقين رواة ، وهكذا وشهدت ساحات المساجد ألوانا وأنماطا من روايات هؤلاء الرواة .

ووضعوا للرواية قيودا وشروطا ونظما ، ويروى أن محمد بن شهاب الزهرى المتوفى سنة أربع وعشرين ومائة للهجرة ، والذى جمع حديث النبى بأمر خامس الراشدين الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز - كان أول من قرر شروط الرواية ، وتبعه شعبة ابن الحجاج المتوفى سنة ستين ومائة ، إذ كان أول من تحدث عن « الجرح والتعديل » فى الرواية .

وكذلك صار من لوازم الرواية « الإسناد » ، وهو تبيان نسبة الأقوال إلى أصحابها بدقة وأمانة ، ولذلك يقول الإمام السيوطى فى كتاب « التدريب » هذه العبارة :

« حقيقة الرواية نقل السنة ونحوها ، وإسناد ذلك إلى من عزى إليه بتحديث وإخبار وغير ذلك ، وشروطها تحمل راويها لما يرويه بنوع من أنواع التحمل : من سماع أو عرض أو إجازة ونحوها ، وأنواعها الاتصال والانقطاع ونحوهما ، وأحكامها القبول والرد ، وحال الرواة العدالة والجرح ... » إلخ .

وبعد أن كانت الرواية شبه مقصورة على الحديث النبوى والنصوص الدينية امتد سلطانها إلى اللغة وبقية الكلام ، ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى هذه العلوم على أنها خادمة الدين ، فيجب أن تحظى بمزيد من العناية والتحقيق .

ومن طرق التدريس فى المساجد « السماع » ، وكان السماع فى الماضى طريقاً أساسياً من طرق التثقيف لقلة الكتابة ، وندرة الورق ، وصعوبة التقييد ، وعدم الطباعة ، فكان المؤلف إذا أراد نشر مؤلفه بين مجموعة من الناس أسمعهم إياه ، وإذا حدث وسجل السامع شيئاً من كلام الشيخ دون على ما يسجله اسم الشيخ وتاريخ السماع ، ويسمى ما يكتبه « سماعا » .

وأول ما حدث نظام السماع خلف الأحمر ، إذا سعى إلى حماد الراوية وطلب منه أن يسمعه - وكان حماد ضنيناً بأدبه - ففعل حماد ، واستمع إليه خلف .

ومن طرق التدريس في المساجد « الإملاء » والإملاء نتيجة طبيعية للإسماع ، لأن من سمع شيئا وأعجبه عنى بتسجيله ، والتسجيل يكون عن طريق الإمـــلاء . ويختلف الإملاء عن السماع ، بأن المدرس في أثناء إسماعه تلاميذه لا يحرص على أن يكتبوا ما يسمعه لهم ، ولكنه عند الإملاء يحرص على تقييدهم ما يملى ، ولذلك يضبط المدرس كل كلمة يمليها والتلميذ يقيد كل كلمة يسمعها .

وإذا رجعنا إلى تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى وجدناه يعنى ببيان طرق التدريس في هذا المجال ، وينقل أوصافا لمجالس إملاء مختلفة فالنووى مثلا في كتابه « التقريب » يقدم إلينا صورة لمجلس من مجالس إملاء الحديث النبوى وآداب هذا المجلس فيقول :

يستحب للمحدث العارف عقد مجلس الإملاء للحديث ، فإنه أعلى مراتب الرواية ويتخذ مستمليا محصلا متيقظا ، يبلغ عنه إذا كثر الجمع على عادة الحفاظ ، ويستملى مرتفعا وإلا قائما ، وعليه تبليغ لفظه على وجهه ، وفائدة المستملى تفهيم السامع على بعد ، أما من لم يسمع إلا المبلغ فلا يجوز له روايته عن العملى إلا أن يبين الحال ...

ويستنصت المستملى الناس بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن ، ثم يبسمل ويحمد الله تعالى ، ويصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتحرى الأبلغ فيه ، ثم يقول للمحدث من : (أو ما ذكرت رحمك الله ، أو رضى عنك) ، وما أشبهه .

وكلما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، قال الخطيب : ويرفع به صوته ، وإذا ذكر صحابيا رضى عليه ، فإن كان ابن صحابى قال : رضى الله عنهما ، ويحسن بالمحدث الثناء على شيخه حال الرواية بما هو أهله ، كما فعله جماعات من السلف ، وليعتن بالدعاء له فهو أهم ولا بأس بذكر من يروى عنه بلقب أو وصف أو حرفة أو أم عرف بها .

ويستحب أن يجمع في إملائه جماعة من شيوخه مقدما أرجحهم ، ويروى عن كل شيخ حديثا ، ويختار ما علا سنده ، وقصر متنه ، والمستفاد منه ، وينبه على صحته ، وما فيه من علو وفائدة وضبط مشكل ، وليتجنب ما لا تحتمله عقولهم وما لا يفهمونه .

ويختم الإملاء بحكايات ونوادر وإنشادات بأسانيدها ، وأولاها ما في الزهد والآداب ومكارم الأخلاق ، وإذا قصر المحدث أو اشتغل عن التخريج للإملاء استعان

بعض الحفاظ ، وإذا فرغ الإملاء قابله وأتقنه » .

وهذا هو السيوطى فى كتاب « المزهر فى علوم اللغة » يصف لنا طريقة إملاء اللغة ، فيقول :

« يكتب المستملى أول القائمة : مجلس إملاء شيخنا فلان فى جامع كذا فى يوم كذا . ويذكر التاريخ ، ثم يورد المملى بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ، ومن الفوائد بإسناد وغير إسناد ما يختاره » .

ومجموع ما يمليه الأستاذ يسمى « الأمالى » أو « المجالس » وتاريخنا الأدبى يعرف « الأمالى » لأبى على القالى التى أملاها بمسجد الزهراء بقرطبة ، و « الأمالى » للشريف المرتضى ، كما يعرف « مجالس ثعلب » فى اللغة وغيرها .

ومن طرق التدريس « القراءة » ، وهى أن يطالع الأستاذ أو المدرس شيئاً علمياً من عمل غيره ، وهى الطريقة التى تسمى عند المحدثين بطريقة « العرض » ، وقد يقرأ الأستاذ ، وقد يقرأ الطالب ، وقد أدت هذه الطريقة إلى ذيوع الصيت لبعض الكتب التى نالت رواجا عند قراءتها ، حتى بلغ الأمر بالمربين أن يعدوا قوائم بأسماء الكتب التى يطالعها الطلاب فى مراحل دراستهم المتوالية ، وهذا نظام فيه فوائد من جهة ، ولكن فيه مضرة الاقتصار على كتب بعينها ، كما أن الكتب المقروءة كانت فى أول الأمر واسعة مبسوطة ، فتقاصرت عنها همم البعض فعمدوا إلى تلخيصها فى ملخصات ومختصرات فيها بتر حيناً ، وغموض حيناً آخر .

وهذه الملخصات والمختصرات تذكرنا بأمر آخر يتصل بمادة الدروس فى المساجد ، فقد كانت هذه المادة تنتقل فى مراحل تبدأ من الصغير وتنتهى إلى الأكبر ، وقد تعود فتنتهى من الأكبر إلى الأصغر .

قد تكون مادة الدرس أحد « المتون » التى تمتاز بالاختصار والتركيز ، ثم يأتى شخص فيفسر هذا المتن ، ويفك عبارته ، ويوضح معانيه ، فيسمى هذا الإيضاح « شرحا » ، ثم يقبل شخص ثالث فيزيد فى هذا الإيضاح ويوسع فى ذلك الشرح ، ويسمى هذا التوسيع « الحاشية » ، وقد يقبل رابع فيكتب زيادات على هذه الحاشية بالموافقة أو المراجعة أو التمحيص ، فتسمى هذه الزيادات « تقريراً » ، وقد يقبل خامس فيتناول هذا « التقرير » بشىء من النظر أو البحث ، ويسمى ذلك « تعليقاً » ! ...

أرأيته ؟ ... لقد بدأت السلسلة من أقل شىء وهو المتن ، ثم الشرح للمتن ،

ثم جاء « شرح الشرح » ، وهو الحاشية ، ثم جاء « شرح شرح الشرح » وهو التقرير ، ثم جاء « شرح شرح شرح الشرح » وهو التعليق .

وقد يقبل شخص على الكتاب الواسع الضخم فيلخصه ، وقد يقبل بعده ثان فيختصره ، وقد يقبل ثالث فيزيده اختصارا وقد يقبل رابع فيزيد في الاختصار ، وهكذا حتى يبلغ الكتاب الكبير الضخم بعد توالى الاختصار والتلخيص مرتبة « المتن » .

قد يكون في هذه التنقلات عيوب ولكنها مهما قيل فيها — تقتضى حركة ذهنية ومرانا عقليا ، وتعرض الطالب لألوان من مواد الدراسة تثير فيه نزعة الحفظ حينا ونزعة الشرح حينا ثانيا ، ونزعة الاعتراض حينا ثالثا ، ونزعة التعليق والحكم حينا رابعا ... الخ

ولقد شهدت المساجد كذلك وسائل مختلفة لتحصيل العلوم والمعارف ، فكانت هناك طريقة « الحفظ » التي تعتمد على اختزان النصوص في الذاكرة ، وطريقة « الدراية » أي الفهم ، وهي الطريقة المقابلة لطريقة « الرواية » في التدريس ، فاذا اعتمدت « الرواية » على الحفظ ، فإن « الدراية » أساسها الفهم والإدراك ولذلك كانوا يعدون الجمع بينهما غاية سامية لا يبلغها إلا عمالقة الرجال ، فإذا بلغها أحدهم قالوا في تمجيده إنه « يجمع بين الرواية والدراية » .

ولقد قال الزمخشري المفسر المشهور : « العلم مدينة أحد بابيها الدراية ، والثاني الرواية » ، وأشاد أبو حيان التوحيدي بمكانة القاضي أبي حامد المروذي فقال عنه : « كان غزير الرواية لطيف الدراية » . ولقد قال أبو بكر الحافظ لأبي زكريا بن الخطيب : « أنت تريد مني الرواية ، وأنا أريد منك الدراية » .

ومن وسائل التحصيل التي عرفتها المساجد وسيلة السؤال والمناقشة لأن الحقيقة بنت البحث ، ولأن السؤال مفتاح لباب أساسي من أبواب العلم .

ومن الوسائل أيضاً « المناظرة » لأن كلا من المتناظرين يحرص على الانتصار ، ولذلك لا يدخر وسعاً في إقامة الدليل وتبيان الحجة ، مما يؤدي إلى غزارة العلم وسعة المعرفة .

أحمد الشرباصي

الحقيقة الضائعة

للأستاذ محمد محمد خليفة

إنها حقيقة النفس المسلمة التي كانت تمتزج بروح الإسلام فتتكشف لها أسراره ، ثم تتفاعل بتلك الروح مع مجتمعها ، وتمتد فيه منسابة بفضائلها كما تنساب الغدران الرقراقة في الوديان المجدبة فتحمل فيها وتنفي عنها ماشاب تربتها حتى تبدلها بعد حين إلى جنات أكلها دائم وظلها .

تلك هي حقيقة النفس المسلمة حقيقة هادية للمجتمع تبث فيه من إشراق فضائلها إشعاعات تبدد ظلمات الرذائل التي تضطرب في المجتمع أمواجها .

وهي مع ذلك حقيقة محاربة تحارب في المجتمع ما كان يعيش فيه ويعيش له من مادية كانت تستذله ، وغرائز كانت تستبد به وأطماع كانت تنتهب ضعافه .

حقيقة النفس المسلمة التي عرفها فجر الإسلام كانت تعيش في قلب الراعي إيماناً بكل حقوق الرعية وإحساساً بمشاعرها فإن عض الجوع فقيراً في بادية العراق انتفضت خوفا من الله روح الراعي في المدينة ، وكانت تعيش في قلوب الرعايا قوى خلاقة بناءة لا تخمد عزماتها عن التفاني في بناء المجتمع ، ولا تتوانى عن الكدح في توطيد جوانبه حين يدعوها العمل .

كانت حقيقة المسلم تزحف مع القائد عقلا يفكر ، ورأيا يدبر ، وحكمة تسيطر ، وقوة تقاتل الشر لتنقذ الخير وهي لا تطغى حين تظفر ، ولا تستغل حين تغنم ، ولا تتذأب حين تحكم ، ولكنها تنشر شريعة الإنسانية ، وتنشد في ظلها خير تلك الإنسانية فلا يلبث الذين كانوا ينكرون الإسلام حين يعرفون حقيقته إلا أن ينسلخوا من باطلهم وباطل دنياهم لينعموا في ظلال الإسلام بحقيقته التي تربط أرواحهم وأسرهم ومجتمعهم كله برباط تعجز يد الشيطان عن حل عروته أو صدع وحدته .

وكانت تلك الحقيقة تعيش في قلوب المحاربين قوة وعزة ونكراناً لذات الفرد وحسبه ونسبه ، وعصبيته القبلية ، وبأسه في الجلاد ، وسبقه في الإسلام ، ومكانته من الرسول .

فكبار المهاجرين والأنصار جنود يعملون تحت إمرة أسامة بن زيد لا تضجرهم أمارة الأسود ، ولا تزعزع نفوسهم حداثة سنه .

وخالد بن الوليد يتلقى عزله من إمارة الجيش وهو يقود المعركة العاتية فيتحول راضياً إلى جندي يحارب بالروح التي كان يقود بها المعركة دون أن يمس هوى السلطان قلبه الكبير فينثني أو يتوانى عن الكفاح في سبيل المجد الذي يعمل له كل مسلم.

وكانت حقيقة النفس المسلمة في قلوب الحكام رقة تتجاوب دموعها مع دموع اليتامى والأرامل، وتدرأ عن المظلوم بطش الظالم وكانت أملا يلبي البائس في هدأة الليل، وخوفا من الله يتدفق دموعا في الأسحار، وقضاء يقيم موازين العدالة في الضحى، وعلما يهدي إلى الحق وإلى صراط العزيز الحميد في الأصائل وهي بين كل هذا للناس ومع الناس لا تحجبها عنهم الأستار، ولا تصدهم عن لقائها الأسوار.

وكانت حقيقة النفس المسلمة في البيت رحمة حكيمة ينشرها الأب، وحنانا صادقا تبثه الأم بالقسطاس بين بنيها فشاعرها نحوهم تتدفق ولا تفرق حتى لا يحقد كبير على صغير، ولا يشمخ صغير بنصيبه من الحنان على كبير، وهم جميعاً يعملون حين يقدرون، يؤلف بينهم حب لا تكدرصفوه الأنانية، وكفاح في سبيل العيش لا يعرف التواكل ولا الإعياء بالأعباء، ولا يفسد قلوبهم الاستئثار بما هيء من المهود أو المضاجع يؤثرون بعضهم على نفوسهم ولو كان بهم عرى أو خصاصة.

فإذا دوى النفير تزاحموا على الموت بالمناكب يتمنون الشهادة في ظلال السيوف، وهم حين تضمهم جوانح البيت قلوب مؤتلفة ونفوس نظمها الحب والوفاء والاحترام.

وكانت حقيقة النفس المسلمة في الأسواق لا تعرف الاحتكار ولا يطغيها الشره في ساعة العسر بل هي حينذاك أكثر ما تكون جودا تؤدي الزكاة المفروضة من خير ما تملك، وتخرج غير المفروضة من طيبات ما كسبت، لا تصيخ إلى ما يعدها به الشيطان من الفقر وإنما تصيخ إلى ما وعدها الله به من الفضل، وهي تخرج عن نصف ما ملكت أو كل ما ملكت للدولة في الحرب تعبء به الجيوش وتشترى به السلاح والخيل والرواحل، فليس للنفس المسلمة مال حين تفتح لهاتها رحى القتال، وإنما كل ما تملك لله وفي سبيل الله.

وكانت حقيقة النفس المسلمة في المجتمع أخوة تبتسم لأخوة وحبا في الله يعانق حبا لوجه الله وصدقا في الصداقة يقابل الأخلاء بوجه ليس كجلد الحرباء.

ولم تكن حقيقة تلك النفس فردا يعيش لنفسه أو لأسرته الصغيرة بل إنسانا سمت

إنسانيته عن الذاتية الفردية والعصبية الإقليمية ، وانطلقت تعمل فى مجال الإنسانية الواسع لتحقق لها الكمال الذى آمنت بمعانيه فى نفوس الرسل والأنبياء .

ولم تكن تلك الحقيقة مظهرا وصوراً تعيش بين المآتم والملاهى أو تسابيح وتهاليل ترتمش لها الشفاه ولا تأخذ طريقها إلى القلوب لتربطها بخالقها فاطر السموات والأرض ، وإنما حقيقة النفس المسلمة فكر يسبح فى ملك الله وإيمان يصل الأرواح برب الأرواح .

أين المصلحون وأين رجال الدين والتربية والاجتماع والأخلاق والصوفية ينشدون فى هذا الوجود حقيقة النفس المسلمة التى ضاعت فى متاهات الزمن ، واجتاحتها عواصف الهوى والشيطان فعاش المسلمون فى وجودهم هياكل إسلامية جوفاء وصورا تتحرك بين المحاريب فى ركوعها وسجودها وليس فيها روح الحقيقة المؤمنة العاملة . ؟

أين هؤلاء . وأولئك تتضافر عقولهم وأقلامهم وألسنتهم ، ليبعثوا الناس تلك الحقيقة ويوجهوهم إلى السبل التى تنتهى إليها لعل بين الناس من لم تطغ على بصيرته غشاوة المادة ، فيراها فى نفسه إشراقا وتفاعلا وامتزاجا ، ونراها نحن فيه مرآة تعكس إلينا الماضى البعيد الحبيب ، وقوة فيها معنى الشمس فى الهداية والانتشار ، والحرارة التى تنفع وتحرق ؟ ليتنا نجد فى دنيانا بين المحاريب أو الأكواخ أو ضجيج المصانع ، أو أزير النواعير أو بين المعاهد والمدارس أوابين إلى الله ، يعيشون بحقيقتهم المسلمة فوق حقيقة دنيانا الزائفة ، ويجذبون إلى عالمهم الطاهر السامى عالمنا المتحلل من القيم الروحية .

وليس على الله بعزيز أن يعيد تلك الحقيقة الضائعة إلى وجودنا فى نفوس ملايين من المسلمين ليقودوا الدنيا كما قادها أسلافهم إلى خير الإنسانية والسلام ؟

محمد محمد خليفة

النقود التاريخية
فى عهد حكم المسلمين فى الهند

للأستاذ محي الدين الألوائى

النقود التاريخية لها قيمة عظمى ، ومكانة كبرى فى البحث التاريخى والوصول إلى أنباء الماضى وأخبار الأمم السالفة كالتماثيل ، والمنحوتات ، والمخطوطات سواء بسواء. ونرى من خلالها أنباء الأمبراطوريات المنهارة وآثارها الثقافية . وتنير الطريق إلى اكتشاف بقايا الآثار القديمة والعثور على تراث الأمم الماضية والمعالم التاريخية الحوادث الكبرى التى غيرت مجرى التاريخ البشرى وأول من بدأ سك النقود واستعمالها هم القدماء اليونانيون . وكان ملك بابل المعروف باسم نابانيسيس يحتفظ فى مكتبته بنقود الملوك القدماء . وكان من هواة جمع النقود الأثرية فوق أن كان مؤرخا كبيرا . وهو الذى اكتشف تاريخ اعتلاء الملك اليونانى المشهور « سارغون » على عرشه بعد أن كان مثار مناقشات عديدة واختلافات شديدة بين المؤرخين والباحثين . وكان ذلك الاكتشاف بطريق النقود التاريخية التى كان يحفظها فى مكتبة قصره ويتمكن علماء الآثار أن يعثروا على نقود تاريخية بطريق الحفر والتنقيب فى عواصم الأمم السالفة مثل أثينا ، ومصر ، وبابل ، والهند وغيرها .

أما النقود التى عثر عليها فى « مصر » فى منتصف القرن الثامن عشر فأصبحت نقوشها وصورها وثائق تدل على كيفيات وأشكال حكومات قدماء المصريين . واستطاع المؤرخون الوقوف على مجريات العصور الوسطى التاريخ البشرى والتطورات العالمية بفضل النقود الأثرية .

وأما النقود التى عثر عليها الباحثون فى « يورشيلم » فهى التى ساعدت علماء الآثار على معرفة لهجات ولغات الفينيقيين وكذلك العادات والطقوس المنتشرة فى عهد استيلاء الآريين على اليونان . وكما أن النقود الأثرية التى وجدت فى حفريات هارباومو هنجودارو قد فتحت دورة جديدة فى تاريخ الهند الحديثة ومنها النقود التى تدل على ثقافات « سيندرا » التى كانت لها أدوار هامة فى خلق تاريخ الهند وأصبحت هذه التحف التاريخية نبراسا للباحثين عن الثقافة الآرية ودورها فى صفحات تاريخ العالم عامة وتاريخ الهند خاصة . والأستاذ

« كيل هون » الذى بذل مجهودات جبارة فى سبيل اكتشاف تاريخ الهند بطريق النقود التاريخيـــة والمنحوتات الأثرية والصفائح النحاسية يقول : إن النقود القديمة لمرآة الماضى. ويحتوى شعارها وتاريخها وأرقامها على أنباء الماضى . وأنها لسان حال الأمم القديمة وحكوماتها الغابرة . وتخاطب هـذه النقود أبناء المستقبل من أجيال العهد البائد بلسان طلق لا غموض فيه ولا خفاء . وتحمل هذه النقود الصغيرة الأحجام فى طياتها صورا لثقافات عظيمة وحكومات جبارة وأمم قوية التى طوتها الأزمان فى زوايا‌ها . وهذه النقود الأثرية لنعمة كبرى للعصر الحديث لأنها تعطينا فكرة عامة عن الحروب والسلم والنزاع والنضـــال فى مختلف الأزمنة والأمكنة بين الأمم والشعوب . ولا يجد الباحث العلمى شيئاً أقوى وأحسن من هذه النقود لتحقيق أمنيته والوصول إلى مأربه الخاص . ويجب أن يجد علم النقود مكانته اللائقة فى علم التاريخ ولدى المؤرخين ».

ويقول « كرنل تاد » العلامة فى تاريخ النقود : « إن النقود العشرية المصنوعة من النحاس كانت منتشرة فى الهند قبل عهد الأمبراطور « أشوكا » . وقد عثر علماء الآثار على النقود التاريخية الجارية فى عهدى أشوكا وجندوكبتا . وكذلك عثروا على النقود المشهورة فى جنوب الهند منذ القرن الثالث للميلاد . ونقشت عليها الحروف البرهمية . واستطاع المؤرخون بفضل هـذه النقود أن يكتشفوا عدة أمور عن الثقافتين : « الآرية» و « الدراودية » ، اللتين لهما صفحات مليئة بالأحداث العظام والتطورات الهامة فى تاريخ الهند القديمة . واكتشفوا أيضا كيفيات الحكم وأنواع الحكومات القائمة فى شتى أنحاء الهند خلال الفترات الماضية بين القرن الرابع قبل الميلاد والثالث بعده ، هذا بواسطة حوالى ثلثمائة عملة تاريخية عثروا عليهـــا فى مختلف أنحاء الهند .

وبدأ الهنود البحث عن النقود الأثرية فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى . وكان من ضمن الآثار التاريخية التى اكتشفت فى عاصمة كيرله القديمة أى مدينة كدنغلور قبل سبعة قرون عدد من النقود السائرة فى أنحاء البلاد فى العصور الغابرة . وأهدى ملك كدنغلور نقودا أثرية نقشت عليها الحروف الروميـــة إلى الأجانب الكبار على سبيل التكريم . وساعدت المؤرخين مساعدة كبيرة على التمكين عـــن عهود الملوك الهنود تلك النقود الأثرية المكتشفة فى راجبوتانا التى يبلغ عددها أكثر من ألفى قطعة ذهبية . وإنما عرفت العظمة المدفونة تحت التراب والهيبة المخفية تحت الأنقاض

بعد نبش القبور لعظماء الملوك وفحص القلاع لجبابرة الحكام فى بنغال ، وراجبوتانا ، وباتنا وغيرها من المدن التى كانت عواصم الأباطرة العظام . وتنبه كثير من الحكام الانجليز إلى أهمية النقود التاريخية وبدءوا يدرسونها بدقة وتعمق للوصول إلى ما أخفته الأيام من عبر وعظات وسير وحكم تنير الطريق إلى بناء مستقبل موطد الأركان ومدعم الأساس . وأدرك المؤرخون الكبار مثل كننغهام بأن النقود الأثرية لهى مفتاح البحث التاريخى ونبراس علماء التاريخ !

وانهمك آر . دى . بانرجى فى بحث النقود التاريخية ، واكتشف عظمة الهند التى حكمها موهن جودارو وتيكشيلا . وقدم أمام العالم كله ثقافات الهند القديمة وحضاراتها العريقة وتقاليدها القيمة فى مختلف الميادين مستدلا بنقوش تلك النقود الأثرية ومستنيرا بتلك التوقيعات والحروف المسجلة فى جنباتها ، وقال : « إن بلادنا الهند بلاد الساسة المهرة والعلماء المفكرين . وفيها حضارة تفوق حضارات جاراتها وشقيقاتها من البلدان والأمم » .

وبذل القائمون بالإشراف على الجمعية الآسيوية بمجهودات جبـــارة فى النهوض بقسم النقود الأثرية الهندية . وقام « تيوبولد » بدراسة المعادن التى ضربت بها النقود ومزاياها وخاصيتها بينما انهمك « واسن أسمث » فى دراسة طبيعة نقوشها وحروفها . وقضى العالم الأثرى سبونر عدة سنوات فى وضع قائمة خاصة منظمة للنقود التاريخية التى عثر عليها فى نواحى رجبوتانا وتكشيلا . والشىء الذى أتعب جميع المؤرخين الباحثين هو تحديد التواريخ بدقة ووضوح . وأما العثور على بضعة نقود فألقى النور على عدة قرون فى تاريخ الهند بعد أن كانت فى غياهب الظلام وقام دركا برشاد وردى بمساعى جليلة فى سبيل اكتشاف تواريخ ملوك بلوا وحكوماتهم وعاداتهم وطقوسهم من هوامش النقود الأثرية . ولهم صفحات مجيدة فى هذا المضمار الخطير ، ولا يزال العلماء الأثريون يحاولون أن يكتشفوا مزيداً من المعلومات من تلك المجموعة القيمة من النقود التى عثرت عليها فى تكشيلا ، وليفهموا تلك الحروف والنقوش التى عليها . ومن ضمن تلك المجموعة نقود على شكل مربع وعلى جانب منها حروف رومية قديمـــة وعلى الآخر حروف اللغة الدراويدية السائدة فى جنوب الهند من الزمن القديم . ومنها استنبط بعض المؤرخين بأنه كانت فى الهند حضارة مزدوجة وثقافة مخلوطة فى تلك الأيام ثم تطورت وتقلبت حسب تقلبات الزمن . وقال المؤرخون الكبار : كوديليان ، وأغسطين ، وباتى فى كتبهم :

أن النقود الرسمية كانت شائعة فى الهند منذ عهود « يجورويد » وقد حاول الحكام نقش صور ثلاثة وثلاثين من الآلهة التى جاء ذكرها فى رجوويد على صفحاتها. وكذلك جاء ذكر علم النقود وفنها فى الملاحم الهندية القديمة مثل أرتهشا سترم ، روبشابدام ، وواجترمكنى ، وأشتدهام وغيرها من الملاحم الهندية المشهورة. ويتضح من الكتب العلمية بأن ضرب النقود كان شائعاً فى الهند منذ عهود بالغة فى القدم.

ويعرف فى اللغة البالية نوع من النقود باسم كاشى بنم. ويستعمل الباحثون الجدد النقود المعروفة باسم « بنج ماركى » فى بحوثهم التاريخية. ويهتم الأثريون فى جميع بقاع الأرض بهذا الصنف من النقود وكان الملوك فى جنوب الهند يهتمون جداً بضرب النقود الحكومية فى عدة أشكال. واستعملوا الفضة والنحاس لهذا الغرض بتوسيع بالغ وتحدث الدكتور ج. ن. سوكار عن مساهمة نقود جنوب الهند فى فن النقود والبحث التاريخى حديثا مستوعبا فى محاضرات ألقاها فى دراسة النقود الهندية القديمة.

وأما النقود الجديدة فكانت تأتى إلى الأسواق العامة فى المناسبات الخاصة وفى عهد الملوك « بلوا » خصوصا بمناسبة الاعتلاء على العرش والتتويج لملك جديد.

وكانت لقبيلة شاخن وقبيلة هون يد طولى فى نشر النقود العديدة.

ومن أهم المراكز لضرب النقود ، مدينتا مكدها وبتالى بترا. وتسربت تطورات بسيطة إلى هيئات النقود وأشكالها بعد الفتح البوذى. وكذلك أدخل الأمبراطور أشوكا عدة تعديلات فى النقود لتسهيل التبادل الخارجى مع البلاد التى كانت تتاجر مع الهند.

وانتشرت الدنانير فى جنوب الهند منذ قدوم الفرس إليه والتجارة فيه ، كما انتشرت النقود الرومية مع مجىء التجار الروم إليه. فيختلف ختم الدولة على النقود باختلاف صور الحكم فيها وعقلية الحكام وتقاليدهم. ومعظم النقود فى ذلك الزمن كان ممزوجا من عدة معادن. وكانت للوزن قيمة تذكر أكثر من جمال الشكل وحسن المنظر. وأصبح كل هذا وذاك منذ الدخول إلى خفايا تلك الدول وخباياها ، كما أنه معيار قيم الوقوف على مدى حضارتها ، ومدنياتها ، وعصورها ، وبيئاتها. ويوافق المؤرخ الأثرى الكبير بهناركر على رأى الدكتور سوكار فى هذه المسألة موافقة كاملة.

ويوجد نقش التاريخ فى ناحية ، وشعار الدولة فى الناحية الأخرى فى جميع النقود الشائعة فى عهد كنفك. وكانت لجان خاصة

فى عهود ملوك كبتا تقوم بمهمة ضرب النقود وتحديد أشكالها . وتحتوى تلك اللجان على أشخاص بارزين من الساسة والأدباء والفنانين ، لأنها أخطر اللجان فى تقرير مصير اقتصاديات البلاد .

وكانت النقود التى شاعت فى عصر فلكامترن من المعادن التى لا تتكسر أبدا ولا يعلوها البلى والتلف بطول الأمد وتقدم الأزمان . وتوجد صور الثور والأشجار فى النقود المكتشفة فى مقاطعة بنجاب وشمال الولايات الحدودية . ويظهر من النقود الأثرية أن أيام حكم جندر كبتا كانت أيام الغنى والرخاء فى البلاد كلها . وضرب ستون نوعا من النقود الذهبية فى ذلك العهد فى أشكال مختلفة ومقاييس متعددة ونقشت فى إحدى نواحى تلك النقود علامات الثرى والهناء . وأشاع وشنو كبتا نقودا تحمل صورة قرينته المحبوبة واسمها . ودخلت تغيرات عديدة فى النقود الهندية أيام حروب جنكيز خان . وضربت النقود بقطع من الحديد الخفيفة . ونقشت مناظر الأنهار الجارية وحروب الفرسان على النقود التى ضربت فى عهد هونس مع أنها كانت خفيفة الأوزان .

وفى عهد حكم المسلمين انتشرت فى الهند نقود ضربت على الأشكال المعروفة فى بلاد الشرق الأوسط ثم بدأت الهند نفسها تضرب نقودها على ذلك الطراز . وتقدمت الهند تقـــدماً ملحوظا فى هذا الميـــدان فى عهد السلطانة رضية . وعثر الأثريون على عدة أنواع من النقود الرضية ، ومن ضمنها نقود ذهبية خالصة . وكانوا يستعملون النقود فى نشر دعوة التوحيد ، وفى ناحية منها كتبت وصايا السلطانة . ووزع السلطان محمود غزنوى حوالى أربعـــة عشر نوعا من النقود الرسمية ، وكتبت فى ناحية منها ألفاظ ما معناها : الله أحد ، والذين لا يذكرون الله القوى المتين هم الخاسرون . واتبع الامبراطور همايون ، والامبراطور شاهجهان النظم الفارسية فى ضرب النقود وتحديد أشكالها واختيار كيفياتها ونحت الامبراطور أكبر شعار مذهبه الجديد « دين إلاهى » أى الدين الإلهى على نقود دولته . وكان الامبراطور جهانكير يهدى نقوده التى تحمل توقيعه الخاص إلى الأمراء وأعيان المملكة . وقام كل واحد من الحكام المغول بالنهوض بمصلحة النقود الحكومية ، وأدخلوا تعديلات خاصة فى هيئاتها وطرازها إن النقود التى ضربت فى عهد المغول لمن أغلى النقود قيمة ، وأحسنها شكلا ، وأروعها منظراً فى تاريخ النقود الهندية . واكتشفت عدة أنواع من النقود المغولية ويبلغ تعدادها أكثر من ألف نوع .

ولمستر « كننغهام » بيان رائع فى كتابه (الهند المغولية) عن ذاك العهد المغولى الذى له دور خطير فى تغيير مجرى التاريخ الهندى فيقول : ابتدأ العصر الذهبى فى الهند بعد أشوكا فى أيام حكام المغول . ونرى قوة خيال المغول ومقدرتهم الفنية من خلال الأحجار الأثرية والمعادن المنقوشة والأبنية التى تبهر العقول ، وتبهج القلوب ، وإذا استثنينا بعض الأخطاء الشخصية من بعض السلاطين المغول فنجد أن عصرهم فى الهند هو العصر الذهبى فى تاريخها المجيد ، وحكمهم لمن أعدل الأحكام وأنصفها وأخلدها أثراً فى صفحات التاريخ الهندى ، وتدل شعائر نقودهم والنقوش المنحوتة فيها على مظاهر الحب الخالص والمودة الصادقة والإخلاص المتين ، كما أن المجلس العلى لامبراطور أكبر ومجلس الدولة لجهانكير كان يهتم اهتماما بالغا بمسألة نقود الدولة ورسومها وأشكالها وأهدافها ، وتتجلى من صفحات هذه النقود موهبة المغول الفنية وشغفهم بالفنون الجميلة وجمال الطبيعة ، ونحتوا وصايا الحق والعدل والصدق فى النقود باللغة الفارسية والسنسكرتية وأثبتوا شعار المحبة والمساواة فى جنباتها فى هاتين اللغتين ، ونرى الآن قلوب سلاطين المغول الصافية ، وصدورهم الواسعة وعقولهم المنيرة من خلال هذه النقود الأثرية .

أما النقود الأجنبية فلها انتشار واسع فى بلاد الهند منذ القدم لأن العملة الأجنبية كانت تستعمل للتبادل التجارى بينها وبين البلاد الخارجية ؛ فتطرقت النقود الرومية ، والصينية ، والتونسية ، والفارسية إلى المراكز التجارية فى الهند ، ويتضح هذا جيدا من كتابات السواح الصينيين والمؤرخين البرتغاليين .

ويسجل المؤرخ المشهور الإيطالى بيترود بلاولى (١٦٢٧-١٦١٤) فى مذكرات رحلاته بأن النقود الرومية ، والعربية ، والصينية كانت شائعة ومستعملة بتوسع كبير فى سواحل الهند الغربية .

أما السلطان لارى الذى كان يحكم بلاد الشرق الأوسط سنة ١٥٣٣ م ، أرسل النقود اللارية للأغراض التجارية إلى جنوب الهند وجزيرة سيلان وحاول نشرها فى تلك البقاع . والنقود اللارية هى التى كانت تقود الحركات التجارية فى ذلك الزمن . وفى أيام غارات البرتغاليين كانت النقود اللارية تستعمل بكثرة فى موانىء كاليكوت وكوتشين وفى الأسواق التجارية الكبيرة . وكثر استعمالها أيضا فى التبادل التجارى .

وأما النقود التى كانت شائعة فى ولاية ترافنكور بجنوب الهند إلى عهد قريب باسم جكرم فهى صورة مصغرة للنقود لارى

إذ هي لا تختلف منها إلا اختلافا بسيطا يتعلق بالرموز والحروف . والعائلات المالكة في جنوب الهند مثل جولا ، وبانقيا نقود خاصة . وفيها الفيل ، والسمك والنمر ، والقوس ، والترس ، وغيرها .

ووصلت إلى مليبار نقود سنهالية خفيفة الوزن خلال أعوام ما بين ٨٥٠ — ٩٦٠ ، وفي نفس الوقت كانت تجرى في ترافنكور نقود خاصة مثل جندرا كتش ، وأيزووكاش وغيرها . وفي ولاية مليبار كانت تلكن بتن ، وسلطان ولى ، ورومانشلى وغيرها من النقود الشائعة — (مليبار الدكتور شمس الله قادرى) وجاء ذكر هذه النقود في الأغاني الشعبية والقصص المحلية .

وبدأت النقود الانجليزية تنتشر في الهند شيئا فشيئا منذ تأسيس « شركة الهند الشرقية » وأنزل أمراء الولايات نقوداً خاصة خفيفة الأوزان لمبالغ صغيرة إلى جانب النقود الانجليزية ، واستطاع الانجليز توحيد النقود نوعا ما ، ولكن لم يدخلوا تعديلات تذكر في تلك النقود .

وبعد أن تحررت الهند من نير الاستعمار الأجنبي ، تطرقت تعديلات خاصة إلى النقود الحكومية وها هي الآن نفذت الهند النظام العشرى في النقود الرسمية أسوة بالنقود السائرة في البلدان الأخرى ، وتسهيلا للمعاملات الاقتصادية وفوق هذا وذاك أن هذا النظام العشرى ليزيل عن عامة الشعب التكاليف التي يتحملها في الحسابات وفي التبادل التجارى خصوصا مع البلاد الخارجية والعملة الأجنبية ؟

محيي الدين الالوائي

« لا تتعجل بالحكم »

قال الشعبي : كنت جالسا عند شريح القاضي ، إذ دخلت امرأة تبكي بكاء شديداً وتشكو زوجها ، وكان غائباً ، فقلت أصلحك الله ، ما أراها إلا مظلومة ، قال : وما أعلمك ؟ قلت : لبكائها ، قال : لا تقطع بظلمها ، فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون ، وهم ظالمون ...

تصنيف العلوم عند الغزالي

للأستاذ فوزي عرفه

يعد موضوع تصنيف العلوم من الأمور الهامة في كل فكر إنساني إذ بحسب قدرة العقل على جمع شتات الموضوعات يتحدد منهجه لدراستها وطريقته للتحدث عنها ، وقد عرف عن المسلمين شديد عناية بإحصاء العلوم ويشتهر لديهم في هذا المجال كتاب « إحصاء العلوم » للفارابي ، والفهرست لابن النديم ، ومقدمة ابن خلدون وغير ذلك من المجلدات الضخمة التي تستوعب بطون الحكمة وتجمع بين دفتيها فنون المعارف وشتى العلوم .

وقد لجأ الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » إلى مثل هذا الضرب من التصنيف للعلوم إلا أن ما يعطي لتصنيفه أهمية في تاريخ الفكر أنه مشتق من روح التصوف وينبوع الباطن . الأمر الذي يجعل لتصنيفه طعما خاصا ومذاقا يختلف عن غيره من التصانيف ، ونحسب أن الحديث فيه يطلع القراء على لون إسلامي طريف مبدع ، ويفتح عيونهم على منحى جديد من مناحي التصانيف والإحصاء .

يقدم الغزالي لتصنيفه بمقدمة يراها ضرورية لتوضيح المذهب الذي سيسلكه فيقول : « فضيلة العلم مشتقة أساسا من الفضل وهي الزيادة ، فإذا تشارك شيئان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله ، وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء كما يقال : الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة العدو وحسن الصورة ، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء » على أن القاعدة « العلم فضيلة » لا تدل على تفاضل بين العلوم فقط ، وإنما مفهومها الصحيح أن يوجد ذلك التفاضل الذي يترقى في مدارج حتى يصل إلى ما هو أرفع وأشرف ، ودليل ذلك نظرة الغزالي إلى الفضيلة إذ يقول : « الفضيلة نسبية واستحقارنا الصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظنن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر » ومعنى هذا أن العلوم يمكن أن تتدرج من أدنى إلى أعلى مع اشتراكها جميعا في الفضل إلا أن هناك ما هو أكثر فضلا من غيره ، ودليل ذلك ـ فيما يرى ـ أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى :

(١) ما يطلب لغيره .

(٢) ما يطلب لذاته .

(٣) وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا .

وما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره .

ثم ينظر الغزالى فى مقاصد الخلق ليرتبها فى درجات يعلو بعضها على بعض وتتفاوت فى الأهمية وإجابة المطالب حتى يربط بينها وبين تصنيف العلوم فيرى أن هذه المقاصد مجموعة فى الدين والدنيا ، ولاينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين التى تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) قوام العالم : وهى الزراعة والحياكة والبناء والسياسة .

(٢) حذم السابقة : كالحدادة التى تخدم الزراعة والحلاجة والغزل ... الخ .

(٣) تتميم الأصول : كالطحن والخبز والعصارة والخياطة وهى التى تتم بها سابقتها .

هذا بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضى وهى ثلاثة أيضا :

(١) الأصول : كالقلب والكبد والدماغ من الإنسان .

(٢) والخادمة : كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة .

(٣) والمتممة للأصول : كالأظافر والأصابع والحاجبين .

وأشرف هذه الموضوعات السياسة التى تنقسم إلى أربع مراتب وهى :

١ — السياسة العليا : وهى سياسة الأنبياء فى حكمهم على ظاهر العامة والخاصة وباطنها .

٢ — سياسة الخلفاء والملوك والسلاطين : وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم .

٣ — سياسة العلماء بدين الله : وهم ورثة الأنبياء ولهم الحكم على الباطن فقط عند الخاصة .

٤ — سياسة الوعاظ : وحكمهم على بواطن العوام فقط .

هذه المقدمات أساسية فى النظر إلى العلوم فالعلوم - على هذه التقسيمات - تنقسم إلى نوعين : علوم محمودة ومذمومة ، وعلى الرغم من تواتر الآراء بين عشرين رأيا حول معنى العلم إلا أنه يرى أن العلم ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة ، والعلم المفروض على المسلمين فى قول الرسول (طلب العلم فريضة على كل مسلم) : هو علم المعاملة الذى ينقسم إلى ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك .

والاعتقاد يبدأ بإقرار الشهادتين ، والفعل بأن يتعلم الطهارة والصلاة والزكاة والحج . والترك . فيكون بحسب مايتجدد من الحال.

والعلم الذى هو فرض كفاية : هو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب والحساب وما إلى ذلك ، والمذموم منه هو علم السحر والطلسمات والشعبذة والتلبيسات والمباح هو علم الأشعار التى لا سخف فيها ، أما العلوم الشرعية فكلها محمودة إلا ما يتلبس بها ويظن أنها شرعية ، والعلوم المحمودة منها هى :

أولا : الأصول . وهى كتاب الله وسنة الرسول وإجماع الأمة وآثار الصحابة .

ثانياً : الفروع . وتنقسم إلى :

(١) ما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقهاء والمتكفل به الفقهاء .

(ب) ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب .

ثالثاً : المقدمات . مثل علم اللغة والنحو وهى تسهل فهم الأصول .

رابعاً : المتممات . وهى :

(ا) القراءات ومخارج الحروف فى القرآن من حيث اللفظ .

(ب) ما يتعلق بالمعنى كالتفسير .

ونستطيع أن نلاحظ على هذه القسمة للعلوم ما يأتى :—

١ — ألحق الغزالى الفقه بعلم الدنيا لأن الفقه يقوم الدنيا بما فيها من شهوات ويقضى على كبوات السلطان « فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات — ولعمرى أنه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا فإن الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين وأصل السلطان حارس » . ولكن ليس معنى هذا أن علم الفقه يشبه أى علم آخر يتعلق بالدنيا وإنما هو يمتاز عليها جميعاً لثلاثة أمور . أولها : أنه علم شرعى وثانيها : لا يستغنى عنه أحد من سالكى الطريق إلى الآخرة . وثالثها : أنه مجاور لعلم طريق الآخرة أى علم المكاشفة .

٢ — أنه ينعى على الفقهاء إهمالهم لعلم الباطن على الرغم من تواتر الأحاديث بفضل علماء الباطن ويصح ذلك عند ترتيبه للعلوم بأنها علوم الأبدان والأديان ثم الباطن ، والأولان مقدمة ومدخل تدريجى لعلم الباطن .

٣ — أنه يجعل العلم مقدمة للتصوف ويستدل على ذلك بقول الجنيد رحمه الله : قال لى السرى شيخى يوما : إذا قمت من عندى فمن تجالس ؟ قلت : المحاسبى ، فقال : نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين ، ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفيا ولا جعلك صوفيا صاحب حديث . أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه » .

٤ — أنه لم يذكر من هذه العلوم — علم الكلام والفلسفة لأن ما يشتمل عليه علم الكلام مذكور فى القرآن والأخبار مشتملة عليه وما عدا ذلك فهو مشاغبة وبدع مذمومة وأما الفلسفة فليست علما برأسها وإنما هى :

١ — الحساب والهندسة وهما مباحان .

٢ — المنطق وهو داخل فى علم الكلام .

٣ — الإلهيات وهو داخل فى علم الكلام أيضاً .

٤ — الطبيعيات وبعضها مخالف للشرع والدين الحق .

التكبير عند ختم القرآن

للأستاذ أحمد على منصور

أرسل الله الصادق الأمين ، بالهدى ودين الحق ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا ، وأنزل عليه القرآن العظيم من فوق سبع سموات ، بلسان عربى مبين ، فى صورة بلاغية يعجز عنها الخلق ، وأقوى حجة تخضع لها العقول النيرة ، وضمنه من القواعد والأحكام ما يكفل سعادة الناس فى الدنيا والآخرة « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ».

وفى صدر الإسلام تأخر الوحى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مدة من الزمان فكان لذلك أثر بالغ فى نفسه ، وقال قائل من كفار مكة زورا وبهتانا : إن رب محمد ودعه وقلاه فدحض الله مفترياتهم ، وكذب قولهم ، وأنزل على رسوله الكريم قوله عز علاه « والضحى والليل إذا سجا ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى » وما أن أتم أمين الوحى جبريل هذه السورة الشريفة ، أمام خير الورى ورحمة الله العالمين ، حتى قال « الله أكبر » شكر الله على ما أولاه ، من نزول الوحى بعد انقطاعه عنه حينا من الدهر وردا على ادعاءات المشركين ، واغتباطا بنعم مولاه عليه ، وسرورا بهذا الوعد العظيم ، الذى تضمنه قول الله تبارك وتعالى فى هذه السورة الجليلة « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ، وصدر عنه ، صلى الله عليه وسلم ، الأمر بالتكبير من الضحى مع نهاية كل سورة ، حتى يختم التنزيل الحكيم تعظيما للعلى القدير ، وقياما بشكر أنعمه ، وفرحا بختم كتابه الحكيم .

ولقد روى هذا التكبير عن الرسول الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعن الصحابة والتابعين ، وذهب رجال الحديث إلى أن حديث التكبير رفعه البزى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورواه غيره موقوفا على ابن عباس ومجاهد . وهذا التكبير عام داخل الصلاة وخارجها ، قال البزى قال لى الإمام الشافعى رضى الله عنه : إن تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وروى السخاوى عن أبى محمد القرشى ، إنه صلى بالناس التراويح خلف المقام بالمسجد

الحرام ، فلما كانت ليلة الختم كبر من خاتمة والضحى إلى آخر القرآن فى الصلاة فلما سلم إذا بالإمام محمد بن إدريس الشافعى قد صلى وراءه ، وقال القرشى لقد أحسنت وأصبت السنة . والأفضل أن يكون التكبير فى الصلاة سرا ، سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية ، حتى لا يسبق إلى أذهان العوام فى الجهرية أن التكبير من القرآن العظيم .

وصيغة التكبير عند الجمهور « الله أكبر » ويرى بعض العلماء زيادة التهليل قبله والتحميد بعده ، فتصير صيغته على هذا لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد ، وجرى عمل الشيوخ والقراء قديما وحديثا ، على الأخذ بذلك ، لأن المقام مقام إطالة وتلذذ بذكر الله جلت حكمته ، عند ختم قرآنه الكريم . وابتداء التكبير عند الأكثرين من أول سورة والضحى ، وانتهاؤه على رأيهم عند أول سورة الناس . وذهب فريق إلى أن ابتداءه من آخر والضحى ، وانتهاءه عند آخر الناس .

وسبب هذين الرأيين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « الله أكبر » عند فراغ جبريل عليه السلام من قراءة سورة والضحى عليه ، كما مر فى صدر مقالنا هذا ، ثم قرأها صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يعلم إلا الله سبحانه ، هل كان تكبير نبيه لقراءة نفسه ، أو لختم قراءة أمين الوحى جبريل ؟ والذى عليه الأكثرون أن تكبيره عليه الصلاة والسلام كان لختم قراءة جبريل ، فذهبوا إلى أن بدءه من ختام الضحى إلى ختام الناس .

ويرى هذا الفريق أن تكبير الرسول صلى الله عليه وسلم كان لقراءة نفسه ، فبدء التكبير عندهم من أول الضحى ونهايته أول الناس .

وبعد : فينبغى العمل بهذه السنة المأثورة عن أشرف الورى ، وتلاوة التنزيل الحكيم بترتيل وخشوع ، والتدبر فى آياته ، والعمل بأحكامه ، وتسريح النظر طويلا فى رياضه ، والإلمام التام بالمتشابه من آيه ، حتى لا ينسى شىء منه ، ولا يلحن فى بعض سوره ، والرغبة إلى الله جل جلاله ، أن يوفقنا لما يرضيه ، ويبعدنا عما يغضبه ، ويهدينا الصراط المستقيم .

احمد على منصور

العوامل الضرورية في بناء الجماعات وإقامة المدنيات

للأستاذ عباس طه

يخيل لمن لا بصيرة له في العلوم الاجتماعية أن تقليل الحاجات المادية في الأمم يحفظ عليها مالها ويكفل لها استقلالها ويجعلها أقل احتياجاً إلى سواها، فترى كل همه متجهاً إلى مكافحة ما لا فائدة له في نظره من الكماليات رجاء أن ينشيء شعباً لا تتعدى مطامعه ما يقيم صلبه، ويكسو جسمه، لينصرف بكليته إلى الكمالات الروحية، والترقيات المعنوية.

وهذا خطأ بين يقع فيه كل من يتصدر صفوف الجماعات ويعلو منابر التوجيه والإرشاد. لقد تسببت هذه النظرة العابرة التي لم تبن على قواعد علمية اقتصادية واجتماعية خلال العصور في إهلاك جماعات دانت لهذه النظرة الخاطئة والرأي الفطين فلم تلبث أن انحلت روابطها وفنيت في أجساد أمم أخرى ومنها جماعات لم تصادف مزاحماً لها في الحياة بقيت على ما كانت عليه قروناً كثيرة في حالة تخلف وجمود.

لذلك - حفزنا أن نكتب في هذا الموضوع عن الحاجات الإنسانية وأثرها في بناء الجماعات وإقامة المدنيات نقتبسه من صميم النظريات الاقتصادية الكلاسيكية والحديثة مسترشدين بهدى الفرقان الذي أنزل هدى للإنسان حتى لا يندهؤلاء الذين يعلون المنابر في المساجد والجماعات ناصحين بما يخالف الدين ويخرج عن سنن النظريات الاقتصادية والاجتماعية في إنهاض الشعوب من ربقة الأفكار البالية.

العوامل الباعثة لحركات الجماعات:

(القوى الديناميكية)

الحاجة الحيوية التي يشعر بها الإنسان هي العامل الوحيد الباعث للحركة الماشية في العالم وهي بهذا الوصف أساس علم الاقتصاد السياسي.

كل كائن حي لأجل أن يصل إلى كماله الشخصي مضطر لأن يستعين بالعالم الخارجي وأن يستمد منه عناصر يحيا بها حياته المقدرة له. وهو مضطر لبذل جهود للحصول على حاجاته لأن حصوله عليها يدفع عنه ألماً والحرمان منها يوقعه في أذى.

ولحاجات الإنسان طبائع مختلفة عظيمة الخطر، ولكل طائفة منها قوانين اقتصادية خاصة بها تتلخص فيما يلي :—

أولا : الحاجات الإنسانية غير محدودة العدد . وهذا مما يميز الإنسان عن الحيوان ، وهو فى الوقت ذاته الباعث على المدنية بأوسع معانيها .

وحاجات النوع الإنسانى تتدرج فى نوعها وقيمتها بقدر تقدمه فى الحضارة . وحياته من هذه الناحية كحياة الطفل من نوعه . فإنه فى المهد لا يتطلب أكثر من الغذاء المناسب ثم يتدرج فى توفير حاجاته من الأغذية المختلفة والملابس والألاعيب المروضة ، ولا تكاد تمضى عليه سنة حتى تنشأ له حاجات جديدة . كذلك الحال فى الجماعات البشرية ، فإننا اليوم وقد قطعنا أشواطا فى المدنية نجد أنفسنا فى حاجة ماسة إلى كل ما يتعلق بالصحة والنظافة والتعلم والسياحة وتلك لم تكن معروفة لأسلافنا . ومما لا مشاحة فيه أن أحفادنا سيشعرون باحتياجهم لأكثر منها ، ولو أتيح لنا أن نقف على خبر كائن فى بعض الكواكب لآنسنا عنده احتياجات جمة لأمور لم نتخيلها نحن الآن ولا تمر فى خاطرنا .

لكن ما الحكم على الأمم التى تقنع بالقليل من الحاجات ولا تمد مطامعها إلى ما يبعد عن الدائرة التى حصرت نفسها فيها ؟ هذه الأمم إذا بقيت مكتفية من الغذاء بشىء من الفاكهة والخضر واللبن ، ومن المأوى بجدار يقيها لفح الشمس ، فبشرها بالجلاء العاجل عن هذه الأرض التى لم تستطع الاستفادة منها مع ما منحت به من القوى والقدرة التى تبلغ بها أرقى مراتب الوجود المادى والمعنوى .

ههنا يمكن أن يقول قائل : هل ترقى الإنسان فى الاحتياج خير له أو شر عليه ؟

الجواب : إن الحاجات التى تنشأ للإنسان هى عوامل تحفزه للعمل ، وتظهره للابتكار والاختراع وهذا يدفعه للترقى فى العلم فإذا أردنا أن نعمل على تقليل هذه الحاجات كنا دافعين إلى خوف هذه العوامل فتقل الجهود العقلية ويهبط مستوى الثروة العامة

وهذه الحاجات الاقتصادية ليست بمجردة من نتائج أدبية عالية وذلك أن كل حاجة منها هى بمثابة رابطة جديدة تزيد انضمام الناس بعضهم إلى بعض لأن نيلها لا يتأتى إلا باشتراك مجموعهم فى إيجادها .

ومن هنا ينمو فى البشرية الشعور بالتساند والترافد ، فالرجل القليل الحاجات لا يحتاج لغيره ، ولكن يكتفى بنفسه ، وهو ما لا يجب أن يكون بين النوع الإنسانى الذى عليه ترقى أفراده على التعاون الاجتماعى .

ثانيا : الحاجات الإنسانية محدودة فى مقاديرها . وهذه من الأصول الهامة التى ترتكز

عليها النظريات الحديثة فى علم الاقتصاد السياسى . ومقدارها أن لكل حاجة يشعر بها الإنسان مقدارا خاصا لا تتجاوزه الرغبة مثال ذلك أن الإنسان يحتاج إلى المواد الغذائيه ولكن احتياجه إليها يقف منها عند حد لا تتجاوزه خلافا لحاجاته الصناعيه أى الإجتماعية ، فلا تكاد تجد لها حدا تقف عنده فإنك لاتستطيع أن تدرك مقدار المال الذى يشبع نهمة الرجل المتمدن .

ثالثا : الحاجات الإنسانية متعارضة ، ومعنى ذلك أن الحاجة من الحاجات لا تحصل إلا بملاشاة حاجة أخرى أو امتصاصها ، وهذا مبدأ اقتصادى يقوم عليه إمكان إصلاح الأمة عن طريقه وذلك بأخذ احتياجات مالية للأمة لتبيد إحتياجاتها المنحطة الرديئة ـ وقد شوهد أنه يمكن الإستعاضة عن عادة مادية بعادة عقلية ، فيمكن إحلال التردد على النوادى محل التردد على الملاهى العامة ،

رابعا : الحاجات الإنسانيه متآلفة . هذا الناموس يبدأ بادىء ذى بدء منافيا للتقدم وليس هو كذلك فالناس من ناحية العمل أليسوا متزاحمين ومتآلفين فى وقت واحد؟ فالتخالف يوجد بين الحاجات التى تطلب لغرض واحد ، لا بين الحاجات التى تطلب لحاجات متعددة وأغراض شتى .

فحاجة الإنسان للتغذى من الأغذية تتمادى وحاجته لنوع آخر منها ، ولكنها تأتلف مع حاجته للخوان والكرسى والمنشفة والسكين الخ .

خامسا : ميل الحاجات الإنسانية إلى عادات راسخة ، وكما يقال طبيعة ثانية . وهذا له أثر كبير بالنسبة للأجور ـــ ذلك أن الإنسان متى ارتفع إلى مستوى من العادات صعب عليه أن ينحدر فجأة عنه . فلقد مضى ذلك الزمن الذى كان لا يلبس منه العامل الملابس البيضاء ولا ينتعل حذاء ، ويتعاطى القهوة والتبغ ولا يأكل اللحم وخبز القمح ، ولكنه الآن أصبح أسير هذه الحاجات بحيث يهلك إذا لم يستطع توفيتها . فضلا أن العادة متى مر عليها فى الأمة أجيالا متعاقبة رسخت فى الأعقاب فصعرت الحواس بضرورتها الأمر الذى لا يمكن الاستغناء عنها أو التقليل منها .

سادساً : زوال العادات وظهور عادات على أنقاضها أرفع أو أخطر منها . هذا ناموس طبعى فى ترقية الأمم بإنشاء حاجات جديدة لها خصال سامية وأغراض شريفة وتقويتها بحيث تصبح فيها عادة أو طبيعة ثانية ومتى تم ذلك سارت الأمة إلى أوج الكمال والشرف مدفوعة بعوامل وبواعث ذاتية لا أثر للتصنع فيها وكان حظ الجماعة من وراثها عظيم الغاية .

بسطنا هذه البدهيات التى يغفل عنها هؤلاء الذين يخلعون على أنفسهم ألقابا فى التوجيه والإرشاد فلا يقدرون مدى العلاقة الوثيقة بين الحاجات الاقتصادية وبين الشئون الاجتماعية ، فالذى ينتدب لترقية نفسية آمنة لا يجوز له أن يقوم بهذه المهمة إلا إذا ألم بأطراف هذه الأصول المقررة لئلا تكون تعاليمه ضارة بالمجتمع الذى يعيش فيه فالملاحظ على أكثر دعاة الاصلاح فى هذه الأيام كما تسميهم الصحف أنهم يدعون لتقليل حاجات الأفراد وتبسيط معيشتهم توهما منهم أن ذلك يحفظ على الشعب صحته وأبدانه ويحصر همته فى وجهة واحدة هى الترقى ماديا وأدبيا ، فلو قدرنا لهؤلاء المصلحين نجاحا رأينا أنه قد إبتنى عليه فساد اجتماعى كبير تظهر آثاره فى تدهور الصناعات وانحطاط الفنون والنتيجة الطبيعية لهذا قلة الأعمال وانتشار البطالة واشتداد الفاقة على الطبقة الأخيرة من الأمة ومتى جاعت انصرفت إلى التلصص والسلب وارتكاب الجرائم .

من هنا يدرك الناس حكمة الإسلام فى إباحته متع الحياة ما دامت فى حدود الاعتدال بعيدة عن المآثم والعدوان ، قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » . وفى الحديث (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) .

وقد آنسنا اعتراضا من بعض الجماعات على هذه الرخصة زاعمة أن مهمة الدين الحث على الزهادة والاخشيشان ، وتكريه الناس فى متع الحياة ولذاتها فكيف يبيحها الإسلام إلى حد أن ينزل فيها قرآنا وإنى لأظن أن القراء قد فقهوا الآن بعد ذكرنا المكان الحاجات من شئون الاجتماع أن هذا التنويه وراءه حكمة ما لا يستطيع أن ينكره إلا متعنت ، فلو كان الإسلام قد سام أهله الاخشيشان فى المعيشة والقناعة من المصنوعات بما يسد الحاجة منها وزهدهم فى الدنيا حتى كرهوا كل متعها ولذاتها لما قامت لهم جماعة ولا انتظمت لهم حياة ولا ازدهر لهم علم ولا تلألأت لهم مدنية ، ولكنهم كانوا يجلون من الأرض بعد جيل أو جيلين من قيامهم غير تاركين وراءهم إلا ما تتركه كل جماعة لم تنتفع بوجودها ولم يستفد من مواهبها .

لذلك علم الله ما سيقال فى ترخيصه فى نعم الحياة وزخرفها وزينتها من الاعتراضات التى مثارها قصر النظر فذيل الآية بما يشعر بأن هذا الأمر سوف يدركه الذين يعلمون الحقائق ويذيعونها بين الناس مضيفين به إلى معجزات القرآن معجزة جديدة فقال تعالى : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .؟

عباس طه

من وحي الهدى "قصيدة"

للأستاذ حسن فتح الباب

ألا ليتني يوماً شددت رحاليا
ووفيت نذري أن أزورك جاثيا

فأقضي حقوقاً ند عني قضاؤها
وأرخص دمعاً في رحابك غالياً

وأروي غليلاً من حنين ولهفة
إليك وأشفي من شجوني ما بيا

واستشفع الذات الكريمة خاشعاً
لغفران ذنب قد تجنته ذاتيا

أفي كل يوم أرتجيك لزورة
أعود وأشواقي إليك كما هيا ؟

وكيف وإني في رحابك آمن
وفي ظلك الممدود أحدو رجائيا ؟

عفوت عن الجاني وإني موحد
أدين بإيماني وما كنت جانيا

وقفت على التوحيد عليا قصائدي
وأرسلتها في العالمين سواريا

فهل لي في الغفران آمال ضارع
وهل أرتجي لي مقعداً منك دانيا؟

فأنت إذا هو العزاء عزائيا
وإنك نور فوق أفق حياتيا

* * *

أحن إلى آل النبي وصحبه
ويسبق تحناني إليهم دعائيا

أغني بهم هيمان مستلهماً هوى
عفيفاً شريفاً صادق العهد وافيا

وينصرهم بين الورى لي مقول
لعلهم أن يرتضوني موالياً

أغني بمدحيهم وأشدو بذكرهم
وأستلهم المعنى الرفيع القوافيا

وأجهد أن أزجي إليهم روائعاً
لعلي ملاق بعض ما كنت راجياً

روائع من ذ. ب الفؤاد بديعها
أمين بما يوحي إليه فؤاديا

صناع إذا صاغ المعاني أبية
مطاع إذا راض القوافي عواصيا

بحبهم في الكون هام مفرداً
وأطلق آيات المدائح شاديا

شفى من سقام النفس وروحا مريرة
ونضر قلبا كان بالأمس ذاويا
وقوم معقولا وسدد نهية
وناصر مخذولا وأيقظ غافياً
فكانت ترانيم أجدت مباهجي
وكان نعيم رد عنى شقائيا
نبى الهدى عمت بشائرك الدنى
رياضا جنيات وبيداً فيافيا
طلعت على الأيام كالنور غامراً
وأشرقت فى الميلاد كالبدر هاديا
فهلت على وجه الوجود أئتلاقة
كما غمرت شمس الوجود الروابيا
ورفت على ثغر البرية بسمة
تفيض شعاعات حسانا زواهيا
ترقرق كالأمواه فى كل جدول
تدفق من قلب الروابى هواميا
وتهفو على الآفاق أجنح نشوة
تواسى شجياً أو تسامر خالياً
وشاعت بأعطاف الطبيعة هزة
ترد الحزين الجهم جذلان ساليا
وشعت بأرجاء السماء كواكب
تقبل بالنور العيون الجواريا
وأقبلت الغبراء أنضر ما بدت
تضاحك فى الزرقاء شهبا دراريا

نضت من قتام الضجو عنها غلائلا
كما غيض الشاجى دموعا هواميا
أفاءت عليها طلعة البشر رونقا
فرفت جبينا واستضاءت حواشيا
وأقبلت الأيام غراً حميدة
على الدهر تزهى ضحوة ولياليا
لما ـ ماسرت فى الكون ـ خفقة ملهم
يحن إلى الآتى ويذكر ماضيا
بشائر من فيض السماء تتابعت
فصيرت الدنيا عيونا روانيا
وأشرق فى الأكوان يدعو إلى الهدى
رسول فلبت كلهن المناديا
إذا خير اختار الجهاد رسالة
فقد رجحت شمسا وبدرا تساميا
إذا وضعا فى راحتيه ليثنى
عن العزم منه كان للنور قاليا
فقد وهب النور الذى هو ساطع
على النور فانجاب الدجى عنه عانيا

* * *

رسول الهدى ما أطيب الذكر مسعداً
وما أروع الإيمان للشعر هاديا

(البقية على صفحة ٢٤٨)

كما يذكر المؤلف أن منهجه فى كتابه هو تعقب الأخطاء الواردة على ألسنة الكتاب إما جهلا وإما سهوا ، وتقييد شاردها وواردها وتمييزه شطارين : منها ما هو خطأ لا ريب فيه ، ومنها ما ذكره بعض النقاد على خطأ وليس بخطأ .

الحق أن تصويب أخطائنا اللغوية أمر ليس باليسير ، لو صدقت نياتنا ، كما أورد كتاب الأستاذ مفتى مثلا من الأخطاء المشهورة :

تعرفت بفلان ـ عضوة فى مجلس كذا ـ بالرغم عن ـ تخرج من جامعة كذا ـ جاء فى البند الأول ـ مهازل .

ولا نظن أن تصويب مثل هذه الأخطاء مما يشق علينا فقلنا : تعرفت إلى فلان ـ عضو فى مجلس كذا ـ على الرغم من أو على رغمه ـ تخرج فى جامعة كذا ـ جاء فى الشرط الأول ـ مهازل أو مقابح .

وبعد ـ فإن القضية أكبر من أن نستهين بها مادمنا نرى أن لغتنا العربية من أبرز مقومات عروبتنا ، وإذا كانت الصحافة أصبحت مصدر هذه الاستهانة بلغتنا العربية اليوم ، فمن عن طريقها يمكن أن تستقيم لغتنا ، ولكن حين يوكل أمرها إلى كتاب أدباء ، وليسوا من محترفى الكتابة الصحفية ، أو من المشتغلين بحرفة الأدب دون اهتمام باللغة الفصحى وهى عصب الأدب نفسه ؟

محمد عبد الله السمان

(بقية المنشور على صفحة ٢٤٣)

طلعت على الصحراء أظلال رحمة بسطت على الأكوان كف سماحة
فقرت قفاراً واستكانت بواديا فنضرت مجرودا وزينت حاليا
وآسيت محروما وأغنيت معدما تأبيت أن تهشو لأصنام مكة
وبجدت مضموراً وأرشدت غاويا وكنت لمن شاد السموات جاثيا
جلوت عن المكروب آثار كربه وكنت عن الأقذاء والفكر قاصيا
ورويت صديان الجوانح ظاميا فأصبحت من عرش المهيمن دانيا

حسن فتح الباب

الكتب

١ — إعجاز القرآن :

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

هذا الكتاب الأول فى الموضوع الذى اختاره المؤلف لدراسته عن إعجاز القرآن ، ويقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وقد قصر البحث فيه على الإعجاز فى دراسات السابقين . المؤلف فى مقدمته يكشف عن منهجه فى البحث ، فهو يذكر أن بحثه لايعدو أن يكون نظرات فى كتاب الله تتمثل فيها مفاهيم المسلمين للقرآن على اختلاف وجهات نظرهم وتغاير أزمانهم وثقافاتهم .. كما يذكر أنه ربما كان من عيوب هذا البحث أو من حسناته ، أنه لم يواجه الموضوع مواجهة مباشرة ، بل جعل يطوف حوله ، ـ مدانيا ومباعدا ـ تطوافا طويلا ، استنفد كثيراً من الوقت ، وكثيراً من الجهد ، الأمر الذى ربما يكون قد تحيف الموضوع الأصلى وأدخل الضيم عليه .

وقد قسم المؤلف البحث أربعة أقسام ، بعد أن قدم بمدخل كان بمثابة طرقات خفيفة استفتح بها الباب الذى يصل القارئ بكتاب الله ، ويهيئ كيانه للوقوف على موارده .

كان الباب الأول « نظرة فى كلام الله وكلام الناس » وكان الباب الثانى « المعجزة » ما هى ؟ لماذا تعددت واختلفت ؟ وهل المعجزة لازمة للرسول ؟ موقف الناس من المعجزات، المعجزة الخالدة ، زمان المعجزة ومكانها ، ثم وقفة مع الشعر الجاهلى ، وموقف الإسلام منه ، وكان الباب الثالث « مباحث وآراء فى الإعجاز » استعرض آراء الجاحظ والخطابى والباقلانى وعبد الجبار ، والجرجانى، والقاضى عياض وابن عطية والرافعى وأبى حيان التوحيدى ، والراغب الأصفهانى والسكاكى ، والفخر الرازى وفريد وجدى . أما الباب الرابع فكان « شبهات ودعاوى ومفتريات» ناقشها المؤلف، منها خلق القرآن ، والنسخ فى القرآن ، ومعارضة القرآن .

الحق أن هذا الموضوع شائك الغاية ، وليس فى حاجة ـ وحسب ـ إلى سعة اطلاع ، ودقة تفكير ودرجة كبرى ، من الاستيعاب ، بل إنه فى حاجة أيضا إلى جرأة فى الرأى ،

وقد أعجبني رأي المؤلف مثلا في المعجزة ، فبعد أن أورد كلام السيوطي في الإتقان وملخصه أن أكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمة الإسلامية عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر ـ بعد أن أورد المؤلف رأي السيوطي هذا عقب بقوله : ونحن نقول : إن معجزة الرسول هي القرآن ، وليست له معجزة غيرها ، وإن كان كل آية من آيات القرآن معجزة ، بل معجزات ..

هذا رأي المؤلف ، ولكن القليلين من المثقفين من يقنعهم هذا الرأي ، وما أجدره لو أنه قال رأيه في المعجزات المادية المنسوبة إلى الرسول في الأحاديث الصحيحة التي ارتبطت بأذهان العامة من المسلمين عقيدة في صدورهم ، وناقشها مناقشة علمية ، ولا أظن أن قوله فيما بعد أنها لو صحت لا تكون شيئا إلى منزلة الرسول ولا تقاس إلى القرآن الكريم ، لا أظن أن مثل هذا القول وحده يحدد موقفه من القضية .

وعلى العكس فرأي المؤلف في قضية النسخ واضح وقائم على استيعاب لشعاب القضية ، فهو ينفي أن يكون قد وقع نسخ في القرآن ، ولا يرى التعارض بين الآيات التي تختلف أحكامها في الأمر الواحد ، إذ كل حكم له حال تخصه ، وعلة تدور معه وجوداً وعدما ، فكل أمر يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ ، إذ أن النسخ معناه الإزالة ، حتى لا يجوز امتثاله أبدا .

الواقع أن الأستاذ عبد الكريم الخطيب كتب دراسة على جانب من الأهمية والخطورة معا ، فجاءت جديرة بما تليق به من تقدير .

* * *

٢ ــ مختصر سياسة الحروب :

للهرثمي صاحب المأمون

هذا الكتاب من التراث الإسلامي ، حققه الأستاذ عبد الرءوف عون ، وراجعه الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وقد اعتمد المحقق على نسخة مخطوطة فريدة ، حصل عليها من معهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية من مكتبة « كوبريللي » بالآستانة .

وواضح أن الكتاب مختصر لكتاب آخر ، أما هذا الكتاب الآخر فهو « الحيل في الحروب » للهرثمي أيضا ألفه للخليفة المأمون ، ولا وجود له الآن ، ويرى المحقق أنه ربما فقد فيما فقد من الكتب أيام نكبة بغداد بالغزو التتري المعروف .

كما يذكر المحقق فى مقدمته أن المرثمى هو أبو سعيد الشعرانى كما فى فهرست ابن النديم وليس بالمراجع التى رجع إليها شىء من ترجمة للمؤلف ، ولكن يبدو أن المرثمى قد يكون منسوبا بالولاء إلى هرثمة بن أعين القائد الذى كان من أبرز قادة الرشيد وقائد جيوش المأمون بعد ذلك ، وكانت وفاته فى عصر الخليفة المتوكل .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب صغير فى حجمه ، إلا أنه تضمن أربعين بابا ، استوعبت على وجه التقريب كل ما يتصل بسياسة الحروب على ضوء الإسلام وتعاليمه ، فنظام الأمر فى الحرب تقوى الله والعمل بطاعته ، ومقتضيات الحرب تتطلب حسن سياسة الرئيس أصحابه ، والحذر وسوء الظن ، والأناة والرفق ، والاستشارة وترك الاستبداد بالرأى ، والتعبئة عند وقوع الخوف فى المسير ، والتحرز عند النزول والمقام ، وهكذا يتناول الكتاب أساليب الحرب وفنونها وجداراتها ، وأمورا شتى من أحوالها فى عبارات موجزة أشبه ما تكون بالاصطلاحات والمواد القانونية أو الدستورية . وإذا كان المؤلف ـ منعا للإسهاب ـ كثيرا ما يتجنب الاستشهاد بالآية القرآنية أو بالحديث النبوى ، أو بالكلمة المأثورة عن السلف ، إلا أنه من الواضح أنه كان يتمثل كل هذه وهو يسجل أفكاره التى هى على جانب من الأهمية .

* * *

٣ — قاهر التتار

للأستاذ لبيب البوهى .

هذا الكتاب الجديد للمؤلف نشرته الدار القومية ضمن سلسلة الكتاب الماس وصفحاته تزيد على ثلثمائة صفحة من القطع الكبير .

والمؤلف ممن أحرزت مؤلفاتهم القصصية وغيرها كثيرا من الجوائز فى وزارة التربية ووزارة الثقافة والمجلس الأعلى للفنون . وكتابه هذا قصة طويلة من التاريخ فى أسلوب قصصى يمثل جزءا ذا أهمية فى تاريخ العروبة والإسلام ، مليئا بالآلام والمفاخر ، ويقصد المؤلف بقاهر التتار الأمير قطز فى معركة عين جالوت ويذكر فى مدخل بحثه أن القصة تصور فترة حاسمة من الفترات التاريخية التى تمت فيها الوحدة فى تاريخ النضال العربى فغارات التتار التى حطمت بغداد وأحرقتها بقيادة هولاكو ، ثم احتلت الشام وأخذت تهدد مصر ، لم يردها على أعقابها ناكصة ، ولم يوهنها ويحطم قواها ، ويكسر شوكة غرورها إلا وحدة بين شعوب العالم العربى بزغ إشعاعها يومذاك من القاهرة .

القصة فى ثلاثين فصلا ، بدأت منذ أن

تولى الأمير قطز مهام منصبه الجديد ـ منصب نائب السلطان فى القاهرة والسلطان يومئذ صبي لم يتخط الخامسة عشرة من عمره . إنه المنصور على بن عز الدين أيبك التركمانى ، الذى تولى السلطة بعد مقتل أبيه وانتهت هذه الفصول بعودة قاهر التتار إلى القاهرة بعد انتصاره فى موقعة عين جالوت ، ولكن البطل المنتصر لم يقدر له أن يصل إلى القاهرة لأن بعضا من المماليك هاجموه فى مدينة الصالحية وأرادوه على الاعتراف بالملك لبيبرس ، ولم ينته الجدل إلا بقتله ليعود بيبرس إلى القاهرة ملكا متوجا على مصر .

الحق أن القصة بفصولها الثلاثين تصوير دقيق لفترة حاسمة من تاريخنا ، نجح المؤلف فى ابراز صور الخيانة التى تسللت إلى كثير من أحداثها ، وفى إبراز الشجاعة الأدبية لبعض العلماء وفى مقدمتهم العز بن عبد السلام وقد حرص المؤلف على أن يتنقل بنا من بغداد إلى الشام إلى القاهرة حيث تقع أماكن القصة ، ولكن دون مراعاة للترتيب الزمنى للأحداث نفسها ، حتى لنكاد القصة تبدو فى الفصول العشرين الأولى منها مفككة الأوصال .

كما أن المؤلف أهمل قليلا الدين كأقوى عامل من عوامل الانتصار ، وهذه الوحدة التى حققتها الحاجة بقيادة قطز الرشيدة ؛ إنما دعا إليها علماء الدين باسم الإسلام . واعتمد المؤلف فى مدخلى قصته على الرؤيا والنبوءة ، وهما عنصران يجب أن لا يعول عليهما فى أحداث التاريخ .

ويمكن أن نقول بعد ذلك : إن المؤلف كتب قصة تاريخية قيمة ، بعث من خلال صفحاتها الحياة فى كل شخصياتها ، وجعلنا نعيش مع كل أحداثها .

* * *

٤ — حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب :

للأستاذ أحمد أبو الخضر منسى

هذا الكتيب ـ على صغر حجمه ـ بعيد الأثر ، وعلى الرغم من أنه بضعة بحوث نشرت فى الصحف منذ عام ١٩١٥ م إلى عام ١٩٥٠ ، إلا أن لضم هذه البحوث فى كتاب له قيمته ، فنحن محتاجون دائما إلى أن نستدرك أخطاءنا اللغوية فى حياتنا الأدبية على الأقل .

المؤلف يذكر فى مقدمته أنه يسلك مسلك العلامة اللغوى الشيخ إبراهيم اليازجى الذى أنشأ إذ استوطن مصر عام ١٨٩٤ م مجلة البيان ، ثم أخرج بعدها مجلة الضياء عام ١٨٩٨ م ، فكتب بحوثا متتالية تحت عنوان « لغة الجرائد » .

كما يذكر المؤلف أن منهجه في كتابه هو تعقب الأخطاء الواردة على ألسنة الكتاب إما جهلا وإما سهوا ، وتقييد شاردها وواردها وتمييزه شطارين : منها ما هو خطأ لا ريب فيه ، ومنها ما ذكره بعض النقاد على خطأ وليس بخطأ .

الحق أن تصويب أخطائنا اللغوية أمر ليس باليسير ، لو صدقت نياتنا ، كما أورد كتاب الأستاذ مغنى مثلا من الأخطاء المشهورة :

تعرفت بفلان ـ عضوة في مجلس كذا ـ بالرغم عن ـ تخرج من جامعة كذا ـ جاء في البند الأول ـ مهازل .

ولا نظن أن تصويب مثل هذه الأخطاء مما يشق علينا فقلنا : تعرفت إلى فلان ـ عضو في مجلس كذا ـ على الرغم من أو على رغمه ـ تخرج في جامعة كذا ـ جاء في الشرط الأول ـ مهازل أو مقابح .

وبعد ـ فإن القضية أكبر من أن نستهين بها مادمنا نرى أن لغتنا العربية من أبرز مقومات عروبتنا ، وإذا كانت الصحافة أصبحت مصدر هذه الاستهانة بلغتنا العربية اليوم ، فمن عن طريقها يمكن أن تستقيم لغتنا ، ولكن حين يوكل أمرها إلى كتاب أدباء ، وليسوا من محترفي الكتابة الصحفية ، أو من المشتغلين بحرفة الأدب دون اهتمام باللغة الفصحى وهي عصب الأدب نفسه ؟

محمد عبد الله السمان

(بقية المنشور على صفحة ٢٤٣)

طلعت على الصحراء أظلال رحمة ... بسطت على الأكوان كف سماحة

فقرت قفاراً واستكانت بواديا ... فنضرت مجرودا وزينت حاليا

وآسيت محروما وأغنيت معدما ... تأبيت أن تعشو لأصنام مكة

وجدت مضموراً وأرشدت غاويا ... وكنت لمن شاد السموات جاثيا

جلوت عن المكروب آثار كربه ... وكنت عن الأقذاء والفكر قاصيا

ورويت صديان الجوانح ظاميا ... فأصبحت من عرش المهيمن دانيا

حسن فتح الباب

أنباء وآراء

حروب الإسلام حروب فتح

ليقل من شاء ما شاء فإن الإسلام سيظل دين الإنسانية الخالد ولن ينال منه الطاعنون فى أصـــوله ، أو فى سلوكه حيال الأمم التى أنعم الله عليها بنشر تعاليمه فيها ، إلا ما ينال النمل من أركان ثهلان على حد قول الشاعر .

ومن واجبنا أن ندفع عن الإسلام كل طعن يوجه إليه ، وأن نكشف كل شبهة تحوم حوله ، وأن نرشد كل قلب يريد أن يهتدى إلى الحق .

ولكن علينا أن نحذر مجاراة أحد أو تملق الأفهام والعقول القاصرة ، فإن شريعتنا ليست فى حاجة أكثر من بيان تعاليمها على وجهها الصحيح .

ربما تجذبنا بهارج المعاصرين ، وتحملنا اصطلاحاتهم التى يتشدقون بها على أن نجارى تفكيرهم القاصر رغبة فى ردهم عن عداوتهم للإسلام ، أو طمعا فى أن تقر فى نفوسهم المزعزعة تعاليم الإسلام ، ولكن ذلك التهاون لن يجئ بخير لا للإسلام ، لا لهؤلاء .

ذكرت كل ذلك حين سمعت فضيلة الشيخ محمد الغزالى يذيع فى التليفزيون فيقول فى حدته المعروفة ، وفى إخلاصه المعهود ، إن حروب الإسلام لم تكن حروب فتوح ، وإنما كانت حروبا لتحرير الشعوب من ظلم المستعمرين وطغيانهم ، وضرب مثلا لذلك . بحروب الإسلام فى مصر والشام وشمال أفريقيا ، وقال : إن كل هذه الحروب كانت لتحرير هذه الشعوب من طغيان الرومان الذين استعمروا هذه البلاد زهاء ستة قرون .

وهذا كلام قد يستهوى العامة ، وأشباه العامة ، ولكنه لا يرضى الحقيقة ، ولا يرفع من قدر الإسلام .

الإسلام حارب فى كل بلد دخله لغاية نبيلة هى نشر دعوته فى هذا البلد ، فحارب فى مصر لينشر الإسلام فى مصر وحارب فى فارس لينشر الإسلام فى فارس .

ولا عيب على الإسلام ، ولا تلحقه أية مذمة أن يكون قصده نشر دعوته ، فالمسألة كلها ترجع إلى حقيقة واحدة ، متى سلم بها كل ذى عقل كان كل ما يأتى تبعا لها طبيعيا : « إن الدين عند الله الإسلام » هذه هى القضية ، فإذا كانت صحيحة ـ وهى لا شك صحيحة نتيجة للأدلة الحاسمة التى قامت على صحتها ـ كان كل تصرف بعد ذلك يهدف

إلى سيادة الإسلام تصرفاً صحيحاً وواجباً.

وإذ قلنا: إن الإسلام حارب فى البلاد التى كان يستعمرها الرومان لتحريرها من طغيانهم، فماذا نقول عن حروبه فى الأندلس وفى فارس وفى غيرهما من البلاد التى لم تكن مستعمرة لأحد؟.

هل أراد أن يحرر الفرس من حكم القياصرة مثلا؟ لو كان غرض الإسلام هذا كان عليه أن يرحل من هذا القطر بمجرد القضاء على نفوذ هؤلاء الحكام، ولكن الإسلام لم يفعل ذلك - كما هو معروف - بل أقام فى كل بلد فتحه، وعمل على نشر تعاليمه، ونشر لغته، وظل فيها إلى يومنا هذا.

وليس معنى ما أقول أن الإسلام انتشر بالسيف، وأن العرب المسلمين أكرهوا الناس على قبول دينهم، لأن الإسلام كان يفتح البلاد، ويترك أهلها على دينهم إذا أرادوا، ويدعوهم إلى الإسلام، ولا يرغمهم على قبوله، بل كان يحمى كنائسهم وبيعهم، ويعاملهم فى عامة شئونهم كما يعامل المؤمنين به، وإنما معناه أن السيف كان ضروريا لحماية الدعوة الإسلامية، ولتبليغها، والتبشير بها، ورد كيد أعدائها.

وكيف ننفى كلمة الفتح عن حروب الإسلام والله سبحانه وتعالى يخاطب رسوله الكريم فى سورة من سور القرآن: «إنا فتحنا لك فتحا مبينا»، وقد وردت كلمة (الفتح) فى آيات من القرآن بمعنى الإنتصار فى الحرب والإستيلاء على البلد المحارب: «لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى». «الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا». «إذا جاء نصر الله والفتح ...» إلى غير ذلك من الآيات.

وجاءت كلمة الفتح فى وصايا كبار رجالات الإسلام، وهم يودعون جيوشهم ويوصونهم أو يكتبون لهم، كما جاءت على ألسنة الرسل الذين كانوا يجيئون من لدن الجيوش يبشرون المسلمين فى عاصمة الخلافة بفتح قطر من الأقطار، أو بلد من البلاد، ولا أذكر - على قدر ما قرأت فى كتب التاريخ الإسلامى أن كلمة التحرير جاءت فى وصية أو كتاب.

ونحن نفخر بشريعتنا التى كان من أهم أهدافها أن تنشر دعوتها السليمة الصحيحة النافعة فى كل أقطار الأرض؛ فهى لم تحارب لتكسب مالا أو جاها، أو لتستعبد شعوبا وإنما حاربت لتكون كلمة الله هى العليا.

على العمارى

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الجواب مقارنا بأجوبة مماثلة للأستاذين الراحلين الشيخ محمود شلتوت ، ويوسف الدجوى)

طروء الأفكار والوساوس على المصلى أثناء الصلاة :

السؤال :

تطرأ على فى الصلاة وساوس وأفكار فى شئون الدنيا وينتابنى بعد هذا الهم والحزن خشية أن يذهب هذا بثواب الصلاة ؟ فأرجو توضيح حكم هذا على صفحات المجلة .

عبد العزيز عيد
كلية طب القصر العينى

الجواب :

طلب الله من المؤمنين الصلاة ، وحث فيها على الخشوع ، وكمال التوجه إليه سبحانه : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وفسرت الصلاة الوسطى بالصلاة الفضلى ، وهى ذات الخشوع والتوجه الكامل إليه سبحانه ، وربط الله بالصلاة ذات الخشوع فلاح المؤمنين : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

والصلاة لا تثمر ثمرتها من النهى عن الفحشاء والمنكر ، واقتلاع بذور الشر من النفس إلا إذا كانت ذات خشوع وتوجه كامل .

والله العليم بطبائع ما خلق ، علم عسر الخشوع القلبى على الإنسان ، وعلم أن شرود الفكر عنده ، غالب عليه ، فاجتزأ منه فى صحة الصلاة ، وخروجه من عهدتها ، أن يؤديها تامة الشروط والأركان ، وأن يتجه إليه بالتكبير قاصداً وجهه ، مستشعراً عظمته . ثم رغب إليه أن يحارب ما يغلب عليه من الشواغل القلبية والخطرات النفسية التى تحول بينه وبين الشعور بلذة الصلاة الروحية ، وأعلمه على لسان رسوله بأن اشتغال الفكر أثناء الصلاة بغير جلال الله ، من وسوسة الشيطان وزعزعة النفس ، وعدم الصبر فى مكافحة هذه الخطرات .

وقد صور الرسول هذا المعنى أبلغ تصوير ليس فى الصلاة فقط ، بل فيها وفى تلبية ندائها ، والإسراع إليها وذلك فيما

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله خصاص - كناية عن النفرة التي تصم الآذان - حتى لا يسمع الآذان، فإذا قضى الآذان أقبل، فإذا ثوب بالصلاة «أقيمت» أدبر، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: أذكر كذا، أذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل أن يدرى كم صلى، فإذا لم يدر أحدكم أثلاثا صلى أم أربعا فليسجد سجدتين وهو جالس «يريد سجدة السهو»».

وقد أرشدنا الحديث إلى أن حديث النفس في الصلاة بما يصرف القلب عن الموقف على من عمل الشيطان مما يجب على المسلم مكافحته في صلاته وفي حياته. وأرشدنا رحمة بنا، نظراً لصعوبة الموقف إلى صحة الصلاة التي استوعب التفكير جزءاً منها. فعلى المسلم إذن أن يذكر إذا وقف بين يدى الله وكبر للصلاة أن الشيطان واقف له بالمرصاد فليعتصم بذكر الله، وليتدبر ما يجريه على لسانه من تكبير إذا قام أو ركع وتسبيح وحمد إذا رفع أو سجد، وقراءة إذا قرأ. عليه أن يروض نفسه على ذلك. المرة بعد الأخرى حتى يسد على نفسه مسالك تلك الوسوسة التي تسلبه إذا استمرت روح الصلاة، وتجعلها صورة جافة لا تصعد بالنفس، ولا تزكى الروح.

هذا وقد علم أن من خواص النفس البشرية أنها لا تتجه في وقت واحد إلا إلى شيء واحد، وأنها إذا حصرت في دائرته لا يصل إليها غيره، وأن الحواس متى ربطت بمواقع معينة تبعها التفكير وانحصر في دائرتها.

ومن هنا قال العلماء الذين حاربوا الوسوسة فغلبوها: ينبغي للمصلي أن ينظر إلى موضع سجوده وهو قائم وإلى قدمه وهو راكع، وإلى أرنبة أنفه وهو ساجد، فيربط حواسه بهذه المواقع، ويحصر فكره في تدبر ما ينطق به من تكبير وتسبيح وقراءة، وبذلك تكمل للمسلم صلاته ويحظى فيها بلذة السمو الروحي، وقرة العين التي كان يجدها الرسول في الصلاة.

حكم إمامة من يزاول مهنة تلوث ملابسه، ومن هناك من هو أعلم منه، ومن يبغضه الناس:

السؤال:

ما حكم: إمامة من يعمل في مهنة تلوث ملابسه كالدباغة؟

عبد الوارث أحمد

الورديان — اسكندرية

تقدم للإمامة رجل وفى القوم من هو أعلم منه فما حكم الصلاة وراءه ؟

متولى إسماعيل - سوهاج

فى قريتنا شخص ذو لجاجة يبغضه فيه الناس فهل تصح الصلاة وراءه وفى نفسى منه شىء ؟

غانم أحمد غانم - درشابة

الجواب :

عن الأول أن الدباغ ونحوه من أصحاب المهن التى لا تخلو عن مباشرة النجاسة يعفى عما يصيب ثيابهم منها متى كانوا يجتهدون فى دوئها لعسر التحرز ، وقد يشهد لذلك قوله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقوله عليه الصلاة والسلام: (بعثت بالحنيفية السمحة) ويستحب لهم إعداد ثوب خاص للصلاة به . وعلى ذلك فصلاة الدباغ بثيابه التى يباشر فيها المهنة صحيحة والنجاسة معفو عنها . وأما إمامته فمكروهة لمن ليس مثله ، أما مثله من ذوى الأعذار المقتضية للعفو عن النجاسة فلا يكره أن يكون إماما له ، وأما رائحة ثيابه فهى مانعة من حضوره الجماعة متى كانت تؤذى غيره . فعليه أن يخلصها قبل الذهاب إلى المسجد وإلا حرم عليه دخوله فضلا عن أن يكون إماما للناس، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا ضرر ولا ضرار) .

وعن الثانى إمامة الجاهل فيها تفصيل : فإن كان جهله يؤثر فى صحة صلاته بأن كان لا يحسن قراءة الفاتحة أو لا يحسن الوضوء أو الاغتسال من الجنابة ، أو ترك فرضا من فروض الصلاة كالطمأنينة فصلاته باطلة فضلا عن إمامته ، وإن كان جهله لا يؤثر فى صحة الصلاة فصلاته وإمامته صحيحتان ولو لم يميز الفرائض من السنن إذا كان يعتقد أن فى الصلاة فرائض وغير فرائض ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (صلوا كما رأيتمونى أصلى) فمتى كانت الصلاة مستوفية لجميع ما يعتبر فى صحتها شرعا فهى صحيحة والاقتداء أيضا صحيح نعم الفقيه أحق بالإمامة من الجاهل الذى تصح إمامته .

وعن الثالث . إمامة من يكرهه أهل بلده فيها تفصيل أيضا : فإن كانت الكراهة لأمر دينى فإمامته مكروهة حيث كرهه النفر اليسير الذين ليسوا من ذوى الفضل والعلم فإن كرهه أهل البلد كلهم أو أكثرهم أو كرهه أهل الفضل وإن قلوا حرمت إمامته لقوله صلى الله عليه وسلم : (لعن الله من أم قوما وهم له كارهون) .

بين الصحف والكتب

للأستاذ عبد الرحيم فودة

مكانة النبي

صلى الله عليه وسلم

١ — لا شك أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هم القمم العالية في المجتمع والمنائر الهادية أمام الناس، والمنابر الداعية إلى الحق والخير، وقد جعلهم الله في مقدمة الذين أنعم عليهم كما يفهم من قوله تعالى: «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً»[1]، وكما يفهم من قوله سبحانه بعد أن ذكر زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وإدريس: «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا»[2]، ثم إن كلمة النبي في أصل وضعها تشير إلى شرف وضع الأنبياء فإن كانت من النبأ - وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم - كان معنى النبي ... المنبيء عن الله أو المنبأ من الله وإن كانت من النبوة أو النباوة - وهي المكان العالي - كان معنى «النبي» الرفيع المكانة العظيم الشأن.

ولا شك أن وضع النبي بين قومه كوضع الربوة العالية الحالية بالعشب والشجر والزهر والثمر فهم يتلقون من الله فيوض الوحي كما تتلقى الربوة فيوض الغيث فتهتز وتنبت وتزهر وتثمر.

٢ — والنبوة كما قيل: (هبة الله لا تنال بالكسب)، لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح المستعد لها القادر على حملها: «والله أعلم حيث يجعل رسالته»، ومحمد صلى الله عليه وسلم أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه، أحمره وأسوده إنسه وجنه، وأعد لأن يحمل أكمل رسالة وأكمل دين، ولأن يختم به الأنبياء والرسل، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء، وتنكدر النجوم، وتتبدل الأرض غير الأرض

---

(١) ٦٩ النساء (٢) ٥٨ مريم

والسموات »(١) ، وتظهر عناية الله بإعداده وتربية استعداده لحمل رسالته العظمى فيما يفهم من قوله له : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » (٢) ، فإنه يفهم منه أنه سبحانه هو الذى آواه وهداه وأغناه كما يفهم من قوله له : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما »(٣) ، أنه كما قال فيه القائل :

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة
فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

٣ — أما مكانته صلى الله عليه وسلم بين الأنبياء فتبدو واضحة جلية فى قول الله فيهم وقوله فيه : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » (٤) ، فإنه مع ما يفهم من قوله : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » (٥) ، وقوله فيه وفى أمته : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »(١) يدل على أن مكانته بين الأنبياء كما يقول فيه القائل :

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

فإن معنى قوله تعالى : « أمة وسطا » أن أمته خير أمة ، لأن خير الأمور الوسط ، وذلك يفهم صراحة من قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »(٢) ، وقوله سبحانه : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » ، فإذا كان المسلمون شهداء للأنبياء على الناس ، وكان صلى الله عليه وسلم شهيداً على هؤلاء . كانت منزلته بمثابة السماء التى لا تطاولها سماء ، ولعل ذلك بعض ما يفهم من عهد الله إلى الأنبياء حيث يقول الله : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٣) .

٤ — هذا إلى أن عموم رسالته للناس ، وبقاء معجزته على الزمن وسعة الدين الذى بعث به لكل نواحى الحياة ، واستجابته

(١) الشيخ الرافعى فى مقدمة كتاب محمد .
(٢) ٦ ، ٧ ، ٨ الضحى .
(٣) ١١٣ النساء .
(٤) ٤٢ ، ٤١ النساء .
(٥) ٨٩ النحل .

(١) ١٤٣ البقرة .
(٢) ١١٠ آل عمران (٣) ٨١ آل عمران .

لكل حاجات البشر في كل زمان ومكان ، مما يفسر به قول الله فيه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وقوله فيه « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » (١) وقد بشرت التوراة والأنجيل به وبالنور الذي أنزل معه كما يفهم من قول الله : « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » (٢) .

٥ — بل أن المتأمل في دعاء إبراهيم وابنه اسماعيل حين كان يرفعان قواعد البيت ويقولان ما يحكيه القرآن « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » (٣) ثم قول الله فيه « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة (١) يشعر أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان استجابة الله لهذه الدعوة المباركة ، وأن مولده كان فجرا يرتقب الوجود ظهوره ونوره .

٦ — أما مكانته اللائقة به بين المؤمنين فلا يرقى إلى تصورها غير قول الله فيه : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وقوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ، وقوله سبحانه : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » ، وقوله جل شأنه « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا وآل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ؟

عبد الرحيم فوده

من مجلة لواء الإسلام

(١) ٤٥ ، ٤٦ الأحزاب .
(٢) ١٥٧ الأعراف .

(١) ٢ الجمعة .



الفهرس

الثمن اربعون مليما

مطبعة الأزهر

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثالث ـ السنة السادسة والثلاثون ـ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ ـ أكتوبر ١٩٦٤ م

المذاهب الأدبية المنحرفة

بقلم : أحمد حسن الزيات

ما دام المنطق قانونا للفكر، واللغة أداة البيان، والوضوح طبيعة للأسلوب، والذوق حاكما على الفن، فإن الكاتب يكتب ليصيب والقارئ يقرأ ليفهم، والناقد يبحث ليجد، ولا يجرى الأمر على خلاف ذلك إلا إذا فسدت الطباع وانقلبت الأوضاع فيصبح المنطق خطلا وفهاهة، واللغة لغوا وثرثرة، والكتابة معاياة وشعوذة، والفن كله عبثا ومهزلة.

ولقد كان الأدباء : كتابهم وشعراؤهم على سواء الطريق حين كانوا يسيرون فى ضوء العقل، ويهتدون بأعلام الحق، فيجددون إذا اقتضت الحال التجديد، ويطورون إذا فرضت الطبيعة التطوير، ويدلون بركب الخليقة فى طريق الحياة المبهم إلى الغاية التى حددها الفن والأدب والعلم بالجمال والخير والحق.

كان الأدباء العالميون ينهجون هذا النهج القويم حتى أصاب العالم فى النصف الأول من هذا القرن حربان عامتان زلزلتا الأرض وبلبلتا الأنفس ودمرتا الحضارة وخلفتا الشك والتهمة فى القيم والمبادئ، وأشاعتا الخوف والقلق فى الفرد والجماعة، وكان من أثر ذلك فى الأدب أن ظهرت فئة من الكتاب ضلوا السبيل فأنكروا العقل وجافوا البيان وعارضوا الواقع وزعموا

أن الحياة المجردة سخف وعبث ، وأن القيم المقررة إفك وزور ، وأن محاولة فهم الحياة أو تفسيرها عناء وباطل ، فما عليهم إلا أن يعيشوها على علاتها ، ولا عليهم أن يعالجوها بإصلاح فاسدها وحل مشكلاتها . ثم جعلوا مسرحياتهم صورا لهذه الحياة التي تخيلوها ، فلا عقل يقيد ولا منطق يعصم ولا علم ينير ولا خلق يربط ولا دين يهدى ولا حق يقنع ولا شرف يراعى ولا غرض يرمى ، ولا أمل يحفز ولا مطمع ينال ولا لغة تعبر ، حطموا كل أولئك فحطموا معه الإنسان نفسه .

بدأ ذلك الانحراف بعد الحرب الأولى الفوضويون والداديون والسرياليون ، وتبعهم بعد الحرب الثانية اللامعقوليون : فبلغ « بيكت » و « أرنسكو » و « آدموف » بالعبث المسرحي الغاية التي يختلط عندها حوار الممثلين بهذيان المحموم وكلام النائم ، وإذا شئت مثلا على ذلك فاقرأ « لعبة النهاية » لصمويل بيكت ، و « الكراسي » لأوجين أونسكو ، و « ياطالع الشجرة » لتوفيق الحكيم

نشأت المذاهب الأدبية القويمة عند العرب والفرنج إما مرحلة لتطور مذهب تقدم به مبتدعوه ، وإما رد فعل لمذهب غلا فيه متبعوه ، فمذهب عبد الحميد بن يحيى كان الطور الأول للأسلوب العربي الضيق الموجز دعت إليه مقتضيات المجتمع الجديد من تشعب أطراف الدولة وبدو ثمار الحضارة ودنو العربية من الفارسية ، ومذهب ابن المقفع الذي ظهر في فجر الحضارة العربية كان طوره الثاني دعا إليه اتساع الخلافة وتنوع الثقافة وشدة اختلاط العرب بالفرس .

ثم كان طوره الثالث مذهب الجاحظ الذي اقتضاه نقل العلوم الأجنبية وازدهار المدنية العباسية وانتشار المقالات الإسلامية وتعقد الحياة الاجتماعية واقتباس الآراء الفلسفية .

ثم أترف المسلمون وتقلبوا في أعطاف النعمة وتأنقوا في مظاهر العيش فظهر طوره الرابع في مذهب ابن العميد المسجوع المنمق .

وإلى هنا كان التطور في النثر الفني تطورا طرديا يسير من الضيق إلى السعة ومن الجزالة إلى الرقة ومن الترسل المتوازن إلى الصنعة المطبوعة ، فلما ضعفت الخلافة وصار الأمر إلى غير أهله جرت على الكتابة أعراض الفساد والوهن ، فكثر الزيف وانتشرت الصنعة وكان من ذلك مذهب القاضي الفاضل وهو الطور الخامس من أطوار الأسلوب العربي غلا فيه أصحابه حتى أفسدوا الفكرة وشوهوا الصورة ، ومن هنا كان رد الفعل بظهور مذهب ابن خلدون إذ رغب عن السجع وزهد في البديع وسار باللفظ وراء المعنى ، ثم تطور هذا المذهب بتأثير الحضارة الأوروبية ونقل الآداب الأجنبية إلى الأسلوب الذي يكتب به الكتاب الموهوبون اليوم .

* * *

كذلك كانت نشأة المذاهب الأدبية في أوربا ففي فرنسا مثلا كانت اللغة وآدابها خاضعة لسلطان الإغريقية واللاتينية على أثر انبعاث الروائع اليونانية والرومانية في إيطاليا ، فالألفاظ يكثر فيها العامي والدخيل ، والتراكيب يطغى عليها هوميروس أو فرجيل والنظم والنثر يجريان على المحاكاة الشكلية ، والموضوعات تؤخذ من الأساطير الوثنية ، فكان لا بد لهذه العبودية الأدبية من محرر يكفكف شرتها وينظم فوضاها ، فظهر المذهب الاتباعي في أوائل القرن السابع عشر وهو يقوم على تقليد اليونان والرومان تقليد التلميذ لمعلمه لا تقليد المصور لمثاله ، ثم طهروا اللغة من الدخيل والعامي ، ووسعوا دائرتها بالوضع والاشتقاق ، وجعلوا للعقل السلطان المطلق على الأدب ، فلا يكادون يلقون بالهم إلى الخيال والعاطفة ، ثم قيدوا الفنون الشعرية والقصصية بقيود من القواعد الصلبة وأخذوا أنفسهم بها حتى انفرجت الحال بينهم وبين العامة ، وانقطع السبب بينهم وبين الطبيعة ، وكان رد الفعل الطبيعي لذلك ظهور المذهب الابتداعي الذي عزف عن المحاكاة الأجنبية ، واستمد موضوعاته من أسرار المسيحية وعهود الفروسية ، وقدم الخيال على العقل والشعور على المنطق والفردية على الجمعية والذاتية على الموضوعية.

ثم أطلق الفن من القيود التي كبله بها الاتباعيون فأمعن الشعراء في الخيال وأوغل الكتاب في الحرية واتحد الفن بالطبيعة وهبط الفنان إلى الشعب حتى كان من أثر الاستخفاف بالقواعد والإسراف في معاداة الواقع والاتكال على عمل المخيلة والاتجاه إلى أثر الحساسة أن قل الوضوح وأعوزت الدقة وأبعد الخيال وطغى الشعور ، ومن ثم كان للاتباعية رد فعل من جهتين : جهة الإفراط في الخيال نشأ عنه المذهب الواقعي وجهة الإفراط في الحس نشأ عنه المذهب البرناسي وهو رجعة إلى الاتباعية من بعض نواحيها ، ولكنه لا يعنى عنايتها بالخوالج النفسية ، ولا يصطبغ صبغتها بالألوان الأرستقراطية ، وإنما يلاحظ الطبيعة وينقلها نقلا موضوعيا محايداً أمينا لا يتدخل الفنان بشعوره الشخصي فيه ، ولا يحفل بإظهار السمات الجمالية به ، ولا يقصد إلى استنباط المغزى الخلقي منه . فهو بهذا الاعتبار مذهب علمي يعتمد على الحقائق والوثائق لا على الفروض والأخيلة .

وأما المذهب البرناسي فيبغض الشعر العاطفي ويحب الجمال المصنوع ، ويعنى بالصورة على حساب الفكرة ، ويؤثر جانب الصنعة على جانب الطبيعة ، ويشتد في طلب القافية المحكمة والفقرة الموقعة والتعبير الفخم والتركيب الجزل والوصف النادر والوشي العجيب ، فشعره أشبه شيء بالتماثيل المنحوتة من جميل المرمر ، فيها الصقل والبروز وتبين الملامح وتعيين الحدود ولكن فيها كذلك الصلابة والجفاف والعي والبرود .

ومن إسراف البرناسيين في الوضوح والصراحة والتعيين والتبيين حدث رد الفعل الذي نشأ منه المذهب الرمزي وهو يدعو إلى التعبير بالإيماء والإيحاء والتكنية والهمس والميوعة ليدع للقارئ نصيبا إيجابيا في تكميل الصورة وتوسيع الفكرة وتقوية العاطفة بما يضيفه إلى المعاني من توليد فكره وتجديد شعوره. قال الشاعر « مالرميه » زعيم الرمزية الثاني : « إن البرناسيين يتناولون الشيء كله ويظهرونه كله فيفقدون بذلك سحر الخفاء ويسلبون الذهن نشوة الطرب التي ينشئها فيه اعتقاده بأنه يخلق . إن الشاعر إذا سمى الشيء باسمه فقد أفقد القصيدة ثلاثة أرباع المتعة ، وما هذه المتعة إلا أثر السعادة التي يشعر بها القارئ وهو يضرب رويدا رويدا في أودية الحدس ، وذلك هو الحلم » ؛ فالشعر الرمزي ينكر الواضح وينفر من المحدد ويطلب المتخيل ويبحث عن المشقة ويحملك على أن تحلم لا على أن تفكر ، فالألفاظ عند الرمزية لم تعد تدل على الأفكار أو الصور التي وضعت لها وإنما تدل كما تدل الرموز على مناسبات بعيدة ومشابهات مبهمة .

وقد وقع الرمزيون فيما وقع فيه البرناسيون فأخذوا من الموسيقى الغموض والاختلاط ، كما أخذ أولئك من النحت الوضوح والتحديد .

فأنت ترى أن المذاهب الأدبية الأوربية كانت سلسلة متصلة الحلقات من ردود الفعل ، كما رأيت أن المذاهب الأدبية العربية نشأ أكثرها من أثر التطور وأقلها من رد الفعل . ولذلك لا نجد في منطق الأشياء ولا في واقع الأمر ما يسوغ لأحد أن يسمى هذا الانحراف الذي أصاب الأدب في الغرب والشرق مذهبا جديدا من مذاهب الكتابة ؛ لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان نتيجة لتطور أو أثراً لرد فعل ؛ ومن المحال أن تكون السريالية أو اللامعقولية وأمثالها من أعداء العقل واحداً من هذين ؛ لأن التطور يقتضي أن يكون هناك تخلف وهذه استعجاله ، أو نقص وهذه استكماله ، ورد الفعل يستلزم أن يكون هناك جور وهذه قصده ، أو فساد وهذه صلاحه ؛ وهذا لا نسلم به إلا إذا سلموا أن العلة خير من الصحة ، والخطل أولى من المنطق ، والسلب أجدى من الإيجاب ، والهدم أنفع من البناء والعدم أصلح من الوجود ، والقبح أحسن من الجمال ، والعجمة أفصح من البيان ، والعامية أبلغ من الفصحى ، والثرثرة أفضل من الفن ، وهم لن يسلموا ببعض ذلك إلا إذا سلبوا ملكة التمييز وحرموا نعمة العقل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

أحمد حسن الزيات

• • •

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدنى

— ٤ —

موضوع هذه المسألة قول القائل لزوجته : أنت طالق ثلاثا ، وفى حكمه أيضاً من قال لها : أنت طالق اثنتين أو أربعاً أو أكثر ، ولذلك يعبر عنه بعضهم بقوله : « الطلاق المقترن بعدد » .

وقد اختلف العلماء فيه من قديم :

١ — فمنهم من يقول : لا يقع به شيئاً أصلا [١] ، وذلك تمشياً مع القاعدة التى تقرر أن كل طلاق خالف ما رسمه الشارع لا ينعقد ولا يقع به شئ ، وهذا قد خالف قوله تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ، كما أنه ينطبق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » .

٢ — ومنهم من يقول : « لا يقع به إلا واحدة رجعية » [٢] ، واستدلوا بقوله تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » .

(الآيتان ٢٢٩ ، ٢٣٠ من سورة البقرة)

قالوا : دلت الآية على أن الطلاق المشروع بعد الدخول نوعان :

١ — الطلاق الذى لا يملك الرجل فيه الرجعة ، وهو ما دل عليه قوله تعالى : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » .

٢ — والطلاق الذى يملك الرجل فيه حق الرجعة ، وهو ما سبق هذه الطلقة ، وقد شرعه الله مرتين ، ولا يفهم العرب من كلمة (مرتين) ونحوها إلا الحصول متعاقباً دفعة بعد دفعة [١] .

وقال ابن القيم بعد أن ذكر أن الله تعالى جعل الطلاق مرة بعد مرة :

(١) ذهب إلى ذلك بعض الإمامية ، وحكى عن بعض التابعين وهما ابن علية ، وهشام بن الحكم ، وبه قال أبو عبيدة ، وبعض أهل الظاهر .

(٢) ذهب إلى ذلك الزيدية من الشيعة ، وابن تيمية وتلميذه ابن القيم من الحنابلة وغيرهم من فقهاء المذاهب والصحابة والتابعين — انظر كتاب مقارنة المذاهب للأستاذين الشيخ محمود شلتوت ، والشيخ محمد السايس ص ١٠٦ .

(١) ص ١١١ من مقارنة المذهب للأستاذين: شلتوت والسايس

« وما كان مرة بعد مرة لم يملك المكلف إيقاع مراته جملة واحدة كاللعان [1] ، فإنه لو قال : أشهد بالله أربع شهادات أنى لمن الصادقين ، كان مرة واحدة ، ولو حلف فى القسامة [2] وقال : أقسم بالله خمسين يميناً أن هذا قاتله كان ذلك يميناً واحدة ، ولو قال المقر بالزنا : أنا أقر أربع مرات أنى زنيت ، كان مرة واحدة ، فمن يعتبر الأربع لا يجعل ذلك إلا إقراراً واحداً ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » . فلو قال : سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يحصل له هذا الثواب حتى يقولها مرة بعد مرة ، وكذلك قوله : من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وحمده ثلاثا وثلاثين ، وكبره ثلاثا وثلاثين » . الحديث لا يكون عاملا به حتى يقول : « ذلك مرة بعد مرة ، لا يجمع الكل بلفظ واحد ... » [3] .

وقد كرر ابن القيم هذا المعنى فى كتبه الأخرى مستدلا به على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع به إلا واحدة [1] .

واستدلوا أيضاً بما رواه طاوس عن ابن عباس قال : « كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر : طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم .

قالوا : « إن عمر رضى الله عنه فعل ذلك اجتهاداً منه وقد وافقه عليه كثير من الصحابة منهم ابن عباس - على رواية - وسبب هذا هو ما وجدهم عليه من مخالفة الكتاب ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يغضب لهذه المخالفة ويقول : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » ، فحرم عليهم الرجعة إلا بعد زوج آخر ، والرجعة مباح من المباحات ، وليست بواجبة ، فهو لم ينه الناس عن واجب ، وإنما ينهاهم عن مباح للمصلحة ، وهى ردهم إلى ما كان عليه الناس زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أى ألزمهم بالثلاث حتى يردهم إلى ما كان عليه الناس فى عهد رسول الله

---

(١) هو ما يحدث حين يتهم الزوج زوجته بالزنا وليس له بينة على دعواه ، ولا تصدقه الزوجة باعترافها على نفسها ، وهو المقرر بقوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين » الآيات ٦ - ٩ سورة النور .

(٢) هى الأيمان التى تتوجه على المتهم بالقتل فى حالات خاصة مذكورة فى الفقه .

(٣) أعلام الموقعين لابن القيم ص ٢٧ ج ٢ .

(١) انظر (زاد المعاد - لابن القيم ص ٥٥ ج ٤) و (إغاثة اللهفان) له أيضا ص ١٥٨ .

صلى الله عليه وسلم من تحاشى الإقدام على هذه الصيغة غالباً [1] .

وهناك أدلة أخرى استدل بها أصحاب هذا الرأى ولسنا بصدد الاستقصاء .

٣ — وجمهور الفقهاء يقول بوقوع الطلاق ثلاثا فى لفظ واحد ثلاث طلقات ، فتبين الزوجة به بينونة كبرى ، ولا يحل لها أن تعود إلى زوجها إلا بعد أن تنكح زوجا غيره .

وعلى هذا الرأى أئمة المذاهب الأربعة المشهورة وغيرهم فى مختلف العصور ولهم أدلتهم على مارأوه :

ومنها من القرآن أن آيات الطلاق وردت مطلقة لم تفرق بين الواحدة وغيرها ، وأن غاية ما تدل عليه آية « الطلاق مرتان » أن الطلاق الذى يكون الرجل فيه أحق برد زوجته ما كان مرتين ، فإن طلقها ثالثة فليس أحق بها ، وهذا لا يقتضى أن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة لا يقع أصلا أو يقع به واحدة ، وإنما يرجع فى ذلك إلى السنة .

وتكلموا فى حديث ابن عباس :

واستدلوا بعدة أحاديث منها حديث فاطمة بنت قيس « طلقنى زوجى ثلاثا ، فلم يجعل لى رسول الله سكنى ولا نفقة » .

قالوا : فلو أنه لم يقع أصلا ، أو وقع واحدة رجعية لما حرمها السكنى والنفقة ، الى غير ذلك .

وقد جرت بين الفريقين مناقشات كثيرة ، ومن أشهر الكتب التى عنيت بذكرها وتفصيلها كتب ابن القيم : (أعلام الموقعين) و (زاد المعاد) و (إغاثة اللهفان) وإلى هذه الكتب غالبا يرجع كل من كتب فى هذا الموضوع ممن ألفوا حديثا .

وقد استعان بها واضعوا « القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ » بتعديل بعض أحكام الأحوال الشخصية فى مصر ، والقوانين المماثلة التى شرعت فى البلاد العربية الأخرى .

ما أخذت به القوانين الحديثة للأحوال الشخصية فى مصر وغيرها من البلاد العربية فى طلاق الثلاث :

كانت المحاكم الشرعية بمقتضى القوانين السابقة على القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ المشار إليه ، تحكم فى مسألة الطلاق الثلاث فى لفظ واحد ، بمذهب الجمهور ، أى بإيقاعه ثلاثا ، وكذلك فيمن قيد الطلاق باثنتين فإنها تحكم فيه بوقوع اثنتين .

وذلك أن القضاء كان يجرى على الراجح من مذهب الحنفية إلا فيما نص فيه بمقتضى القوانين على غير ذلك .

نعم إنه صدرت قبل قانون سنة ١٩٢٩

(١) ص ٨٣ من « بحوث فى التشريع الإسلامى وأسانيد قانون الزواج والطلاق » للمغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى .

قوانين تشتمل على أحكام كثيرة عدل فيها عن مذهب أبي حنيفة ، مثل قانون (يوليو سنة ١٩٢٠) الذى أخذ كثيرا من مذهب مالك ، وقانون ١٩٢٣ الذى حدد سن الزواج بثماني عشرة سنة ، بالنسبة للزوج وست عشرة سنة بالنسبة للزوجة ،وقد أخذ فيه برأى ابن شبرمة ،وعثمان البتى وأبى بكر الأصم من غير فقهاء المذاهب الأربعة .

ولكن موضوعات الطلاق ظلت فى هذه القوانين خاضعة لأحكام الفقه السائد على مذاهب الجمهور ، ثم جاء القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ فأخذ فى الطلاق الثلاث برأى الشيعة الإمامية وابن تيمية وابن القيم ولم ير الإبقاء على ما حكمت به المذاهب الأربعة فى هذا الشأن .

وفى ذلك يقول المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى :

« لقد كثرت المفاسد فى هذا الزمان من القول بوقوع الثلاث بكلمة واحدة ، فمن الناس من يلجأ إلى القول بفساد العقد (أى فيتحايل لمن ينطق بالطلاق ثلاثا بكلمة واحدة ، حتى لا يفارق زوجته وأولاده ، بأن ينظر إلى العقد الذى تم بين الزوجين فلعله يرى أنه لم يكن عقدا صحيحا ، وبذلك يقول : إن الزواج الذى وقع بين هذا الرجل وهذه المرأة لم يقع صحيحا ، وإنما وقع فاسدا لتخلف شرط من شروط العقد ، وإذن فالطلاق الثلاث الذى نطق به هذا الزوج قد ورد على نكاح فاسد ، فلا عبرة به، وهذه حيلة للتخلص من إيقاع الثلاث والتفريق بين الزوجين) - ومنهم من يلجأ إلى «المحلل» وهما أمران أحلاهما مر ، ومفاسد التحليل لا تخفى على أحد ، وقد كتب فيها ابن القيم وشيخه فصولا طوالا ، فإذا رد الناس إلى ما كان عليه الأمر زمن النبي صلى الله عليه وسلم كما يفيد حديث ابن عباس تزول هذه المفاسد أو تقل ، وقد راعت الشريعة الإسلامية منتهى الحكمة فى جعل الطلاق على ثلاث دفعات ، وذلك ليجرب الرجل نفسه بعد المرة الأولى والثانية ، ويروضها على احتمال الصبر والأذى ، حتى إذا لم تفده التجارب ووقعت الثالثة علم أنه ليس فى البقاء خير ، وأن الانفصال البات بينهما أحق وأولى ، والقول بوقوع الثلاث دفعة واحدة مبطل لهذه الحكمة . (١)

* * *

ولهذا جاء فى المادة الثالثة من القانون المصرى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ما يأتى :

(الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة لا يقع إلا واحدة)

---

(١) المصدر السابق ص ٨٣

وجاء فى مدونة الأحوال الشخصية المراكشية ما يأتى :

(الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة أو كتابة لا يقع إلا واحداً) .

وجاء فى المادة الثانية والسبعين من قانون حقوق العائلة الأردنى ما يأتى :

(الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة لا يقع إلا واحدة) .

وجاء فى الفقرة رقم (١) من المادة السابعة والثلاثين من القانون العراقى للأحوال الشخصية رقم ١٨٨ لسنة ١٩٥٩ مثل هذا النص أيضاً .

وكذلك الأمر فى قانون الأحوال الشخصية السورى .

* * *

وبذلك نرى أن القانون المصرى حسم الخلاف فى هذا الأمر ، منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وأن أكثر البلاد العربية قد أخذت بما أخذ القانون المصرى فى ذلك ، بل ذكر الأستاذ علاء الدين خروفة قاضى مدينة البصرة فى كتابه (شرح قانون الأحوال الشخصية العراقى) : أن كافة القوانين العربية قد أخذت بما أخذ به القانون المصرى ، ولم يخالف منها أحد (انظر ص ٤٥٥ من الجزء الأول من الكتاب المشار إليه) .

* * *

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن هذه المادة وإن كانت فتحاً جديداً ، وقد رفعت عن الناس كابوس الطلاق الثلاث ، لكنها لم تمنع حيل المحتالين الخاتلين من المأذونين فى إثبات الطلاق الثلاث بالإشهادات التى يكتبونها ، فيتحيل المأذون بأن يكتب على لسان المطلق أنه اعترف بأن هذا الطلاق مسبوق بطلقتين قبله ، ثم يكتب « وبذلك بانت منه بينونة كبرى » ؛ لأن بعض المأذونين لا يقتنع بصحة هذه المادة من القانون ، ويعتقد أن الطلاق وقع ثلاثا باللفظ الواحد ويتدين بوجوب التحيل لإثباته ، ويقدم بذلك على جريمة التزوير ، ثقة منه بأن إثباتها عليه غير يسير[1] .

ويقترح لإصلاح ذلك أن ينص على ما يأتى :

(المعتدة لا يلحقها الطلاق) .

(وذلك لأن الأدلة الشرعية قائمة على بطلان الطلقتين التاليتين للطلقة الأولى فى العدة) .

محمد محمد المدنى

---

(١) راجع ص ١١٤ وما بعدها من كتاب (نظام الطلاق فى الإسلام للمرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر)

حول أزمة الإيمان

للأستاذ محمد الغزالى

معرفة الله والخضوع له، والإعداد للقائه والرهب من عقابه، هى لباب الدين وروح شرائعه.

نعم؛ فى تعاليم الدين نظم خلقية واجتماعية كثيرة، تتناول الحياة الخاصة والعامة من القاع إلى القمة.

لكن هذه التعاليم كلها بناء دعامته العقيدة. أو هى أعمال غايتها وجه الله، فإذا انهارت الدعامة، أو اختفت الغاية فقدت هذه النظم الخلقية والاجتماعية طابعها المميز، وقيمتها النفسية وصارت شيئاً آخر له قيمة أخرى. كما تفقد الأوراق المالية قيمتها إذا فقدت رصيدها الذهبى.

الدين قبل كل شئ: «شعور بوجود الله. واعتراف بحقه فى حكم عباده، ووضع المبادئ التى ينطلقون منها، والحدود التى ينتهون إليها».

ومقتضى هذا الشعور الباطن، والاعتراف الظاهر، أن نفعل ما يوصينا الله به، لا على أنه خير فقط، بل على أنه «انقياد لله - وقيام بحقه ... إلى جانب ما فيه من خير ذاتى» ...

إن الوجودى قد يرى الصدق فضيلة فى المعاملات التجارية وغيرها ...

ولكنه لا يعبد الله حين يصدق مع غيره؛ فهو لا يعرف الله، ولا يؤمل فيما عنده !!.

أما المؤمن، فالصدق عنده طاعة لله الذى قال: «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله، وكونوا مع الصادقين».

فهو يصدق أولا إيماناً بالله، ثم هو يرتفع بإيمانه هذا إلى فضيلة الصدق ...

إن الأعمال الصالحة كلها، نفسية كانت أو اجتماعية عند ما تكون جزءاً من تعاليم الدين، أو جزءاً من سلوك المؤمنين، تأخذ طريقها فى الحياة مقترنة بهذا اليقين السماوى، أو مصطبغة بهذه الصبغة الإلهية، فيكون الإيمان بالله هو الباعث على العمل، وتكون تقواه جل شأنه إحساساً دائما مصاحبا.

ونحن بهذا الكلام نلفت الأنظار إلى خطورة ما شاع من مسالك بشرية مجردة تجعل الناس يتواضعون على أعراف وتقاليد قد تكون حسنة أو لا تكون، ثم يرون فى الوفاء لهذه الأعراف والتقاليد الخير والفضيلة.

مع أن صلتها بالإيمان مقطوعة، بل ربما لم يفكر صاحبها فى الله لحظة ...

وهذا الفريق من الناس قسم الدين قسمين: فما كان من عقائد وعبادات طرحه جانباً أو ازورعنه.

وما كان من معاملات ونظم احتفى به وروجه وأكثر من الحديث عن قيمته !!

وقد علمت أن أي عمل أمر الله به ، فإنما الجدوى من فعله ابتداء طاعة الله والقيام بحقه.

أما إتيانه دون نظر إلى وجه الله فلا قيمة له، وإن صلحت به إلى حين بعض شئون الدنيا .

إن الإيمان بالله ليس نافلة قط في المجتمع المؤمن . إن تسبيحه وتمجيده جل جلاله ، يجب أن يكونا شغلا للناس ، وشارة لحياتهم بالغدو والآصال .

وقد يضحك البعض من الحديث عن الآخرة ، والجنة والنار ، ويظن ذلك كلاماً فات أوانه ، أو كلاماً يتهامس به بعض الوعاظ في مواكب الموت .

والحق أن الدين يذوب ويتلاشى يوم يكون الحديث عن الآخرة عبوثاً أو لغواً .

إن قوافل الأحياء يجب أن تعي بلباقة وجد ، أن عقيدة الجزاء الأخير ليست هزلا ، وأن البعد بنشاط الحياة عن الإيمان بالله واليوم الآخر ، بعد عن الصراط المستقيم . وجرى وراء سراب خداع ...

ونحن المسلمين ، يجب أن نشوب نشاطنا كله بمعالم هذا الإيمان الحق ، وإلا تجرفنا تيارات الحضارة المادية التي تسود الشرق والغرب ، تلك الحضارة التي ذهلت عن الله، وتجاهلت وحيه ، وآثرت أن تحيا وفق هواها ، وأن تأخذ من دينه ما لا يصادم هذه الأهواء ... ثم تطرح جانباً أم شعب الإيمان .

* * *

المعروف في دراستنا النظرية أن الدين عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات ، وأن الصلة بالله هي القائد الأول لبقية الشرائع ، وأن صحة هذه الصلة ضمان للنجاة وإن قلت حظوظ المرء من بقية التكاليف الشرعية ...

ونريد أن نتوقف قليلا لنناقش هذا التفكير ، فلا نجور على أصل الإيمان ، ولا نجور على مجموعة الأعمال المرتبطة به ، والناشئة عنه .

من حق علمائنا الأقدمين أن يهدروا كل خير يصنعه الكافر ، وأن ينوهوا بثقل كلمة التوحيد في ميزان الصالحات .

إن وجهة نظرهم واضحة فإن الذي يرتكب في عصرنا جريمة الخيانة العظمى ، تعصف جريمته بكل خيرة له من قبل .

ويوم يقال : فلان خان وطنه وباعه للأعداء فلن ترى إلا الازدراء والمقت والإجماع على استحقاق أقسى العقاب .

ولو قيل : إن هذا الشقي كان براً بأمه ، أو كريما مع خدمه ، أو لطيفا مع أصدقائه ، فإن هذه الخصال جميعا تطوى في صمت ، وتزم دونها الشفاه !! ولا تغني عن حكم الموت المادي والأدبي الذي يستحقه هذا الخائن .

والواقع أن سلفنا نظروا إلى الكافر بالله نظرة العصر الحاضر إلى الخائن لأمته ، ورفضوا الاعتراف أي خير يفعله ، أو الإقرار بأي ميزة له .

والكافر ـ في نظرنا ـ أهل لهذا الهوان .

والجاحد لوجود الله ، الخائن لنعمته ، المنكر للقائه ، يرتكب بهذه الخلال أشنع جرائم الخيانة العظمى ، وليس له مايدفع عنه ، مهما صنع : « ومن يهن الله فما له من مكرم » .

إلا أن هذه الحقيقة تولد عنها خطأ شائع ، ألحق بالإيمان وأهله ضرراً بليغاً .

فقد فهم العامة أن حسن الصلة بالله — وهو فضيلة بيقين — قد يجبر النقص فى بقية الواجبات المفروضة .

ثم تدرج هذا الفهم إلى أن هذه الواجبات يمكن أن تتلاشى ويبقى الإيمان المجرد عنها .

وانضم إلى هذا الوضع أن الذين انحرفوا عن الإيمان الحق ، ونسوا الله ، اتقنوا طائفة من الأعمال الإنسانية ، والفنون الحيوية وسبقوا بها سبقا بعيداً .

وعندما قام فى العالم هذا التناقض ، اهتزت قضايا الدين ، وتخاذلت صفوف المؤمنين وتجمعت فى أرجاء الدنيا فتن عاصفة .

والأمر بحاجة إلى أولى الألباب يتداركونه بصدق الفهم ، ولطف العلاج .

وعلينا معشر المؤمنين أن نصلح شأننا قبل أن نطالب غيرنا بتغيير نفسه وفكره إن الإيمان أعظم الفضائل فى هذا الوجود ، وهو عنصر غال ، ما دخل فى شئ إلا زانه ، ولا نزع من شئ إلا شانه ...

بيد أن الإيمان الذى يستحق هذه النعوت له نواحى عديدة ، فهو صلة بالله قائمة على الخشوع والإخبات ، وهو صلة بالنفس قائمة على التأديب والضبط ، وهو صلة بالمجتمع قائمة على العدل والرحمة ـ وهو صلة بالكون قائمة على السيادة والارتفاق .

ذلكم هو الإيمان الجدير بالإعظام وحسن المآب وهو إيمان غلاب منتصر لا يثبت الإلحاد أمامه فى معركة ولا يقاس به فى مفاضلة .

إنما يزرى بالإيمان أن يكون علاقة مفتعلة برب العالمين لا تبعث على كمال ولا تصون عن نقص تدارى هوانها بصور العبادات المفروضة ، ولا تحقق فى صاحبها ولا فيما حوله خلقا عظيما ، أو سلوكا ناضراً .

ومثل هذا الإيمان الصورى ـ وما أشيعه بين الناس ـ لا يرفع رأساً ولا يكسب نصراً .

وهل انتفخ الإلحاد ، وتحركت وساوسه إلا فى ميدان لقى فيه هذا الإيمان الزائف ؟

وهل رفع رايته وفرض شارته إلا بين مؤمنين من هذا الطراز المهين .. ؟

إننا نرفض رفضا باتا أن تعيش الخليقة بغير دين يصلح بالها ، ويزكى أحـــوالها ؛ ونرفض كذلك أن تعيش الخليقة بدين تأوى إليه الخرافة وتنهزم فيه الخصائص الإنسانية العليا ، وتتأخر فى ظله الحياة الدنيا ، وتذبل ملكات الابتكار والإبداع والتجمل !.

إن المعنيين بالتربية الدينية قد يسيئون إلى الإيمان حين يتصورونه منديلا يمسح فيه الخطاءون عيوبهم ، فهم يعثرون والإيمان يغفر ، ويكسرون والإيمان يجبر .

وكثير من أتباع الأديان السماوية ظنوا التمسك بأصل الدين كافيا فى النجاة مهما صنعوا. وقالوا: «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم ....».

وقد فند القرآن الكريم هذه المزاعم، ورسم طريق النجاة الحقيقى، وهو مزيج من الإيمان الحى، والإحسان فى العمل والإخلاص لله. «قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى: من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

وبعض الوعاظ القصار النظر قد يقفون على آثار دينية محدودة المعنى والمجال، فيسيئون فهمها وتطبيقها، ويتجاهلون بها جملة الكتاب والسنة، بل طبيعة الإيمان نفسه.

تلك الطبيعة التى تخلق من الموات حياة ومن الفوضى نظاما.

خذ مثلا، حديث البطاقة الذى رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى سيخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلا، كل سجل مثل مد البصر. ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا يارب).

فيقول تعالى: بلى؛ إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات! فقال: فإنك لا تظلم.

فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شىء)...

هذا حديث مثير الدلالة، وهو لو أخذ على ظاهره يضع عن الناس شتى التكاليف الإلهية ويبطل قوله تعالى: «إن الله لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته، ولو كره المجرمون».

وعندى أن هذا الحديث - إن استقام سنده - إنما يصح فى شخص مشرك، قضى حياته فى الفساد، ثم آمن قبل أن يحين أجله بقليل، فلم يستطع بعد إسلامه أن يبقى مدة يصلح فيها ما مضى، والحديث بهذا ينوه بما للخاتمة الإيمان من قيمة، وما لتوحيد الله من منزلة.

أما إطلاق هذا الحديث وأشباهه بين العوام أو بين الناشئة دون وعى فهو هدم للدين كله، وهو الأساس لتكوين طوائف من المتدينين، تحط من قدر الإيمان وأثره ..

إن العالم اليوم فقير إلى الإيمان الذى يصله بربه صلة وفاء وبر، ويربطه بالحياة رباط إنتاج وجد، وإلا فالمستقبل حافل بالنذر.

محمد الغزالى

رسالة الأصول للإمام الشافعيّ

للأستاذ الفاضل بن عاشور

— ٤ —

كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون فى مسالك أصول الفقه ، ويستدلون ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة ، وفى كيفية معارضاتها وترجيحاتها فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه ووضع للخلق قانونا كليا ، يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعى ، إلى علم الشرع ، كنسبة أرسطاطاليس ، إلى علم العقل » .

بهذا الوصف الدقيق الضابط كشف الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه مناقب الشافعى عن ماهية العمل الذى قام به الإمام محمد ابن إدريس فى وضع علم أصول الفقه . فلم يكن الشافعى فى رسالته معلما الفقهاء قواعد الاجتهاد ولا موجههم إلى مسالك الاستدلال ولكنه وجدهم يتفقهون ، ويجتهدون ويستدلون ، فتتبع عملهم ، واستقرأ مناحى نظارهم ومسالك اجتهادهم ، ونظر بين بعض تلك المناحى والمسالك وبعض ، حتى خلصت له من الاستقراء والتنظير ، نتائج علمية موضوعية صورت له ، فى وضوح معنى عمل المجتهد ، فى استنباط الحكم من دليله ، فتوصل بذلك التصور الواضح الذى حصل له من الاستقراء والتنظير أن يتبين صوره الأدلة وأصنافها ومراتبها ، وأن يتعرف إلى اختلاف طرق سلوك الفقهاء للاستدلال بسبب اختلاف مراتب الأدلة وأصنافها ، ثم بحسب اختلاف مذاهب المجتهدين ، وهذا الوصف الموضوعى هو الذى كان نتيجة المراس القوى للشافعى ، بالمذاهب المختلفة والبيئات الفقهية العديدة ، وهو العمل الذى ما كان ليصدر عن غير الشافعى فى عميق دراسته للمذاهب ، وشديد اتصاله بأئمتها السابقين والتالين ، وبذلك كانت رسالته فى أصول الفقه وضعا لعلم أصول الفقه ، لأنه وجد عملا فى الاستدلال والاستنباط ، يأخذ به الفقهاء ومنهجا يسيرون عليه بدون أن يبحثوا عن ماهيته ، ولا أن يضبطوا اختلاف عوارضه ، وتعدد صوره وأصنافه فجاء هو يبحث عن ماهية العمل ويضبط اختلاف صوره ، وتعدد أصنافه وتفاوت مراتبه فكان بذلك واضع علم جديد ، لا مكونا للواقع الذى يتعلق ذلك العلم بوصف جواهره وأعراضه ، فكما أن واضع النحو لم يعلم أهل اللغة كيف يركبون كلامهم ، ولكنه وصف ذلك التكيف ، وعدد أعراضه

وضبط صوره ، وأن واضع علم الاجتماع لم يكون فى البشر روح المدنية الذى به يترابطون ، ولكنه كشف بالتعبير عن حقيقته ، ما كان الناس يعيشون به ولا يجدون للتعبير عن وصفه طريقا ، وكذلك واضع كل علم ، ليس إلا واصفا لواقع ، ومسجلا لظواهر ومعمما بالحكم الكلى ، صور الجزئيات الداخلة تحت الاستقراء حتى قيل فى شأن واضع علم العروض قد كان شعر الورى صحيحا من قبل أن يخلق الخليل ، وكذلك كان الفقهاء قبل الشافعى فى أمصار الإسلام ، يسير كل منهم على طريقة فى الاجتهاد تتفق مع الطريقة التى يسير عليها غيره فى أشياء ، وتختلف فى أشياء أخرى ، وكانت الأحكام الفقهية الناشئة عن تلك الطرائق تتفق وتختلف وتتقارب وتتباعد ، والفقهاء يدركون ما بين الأحكام التى تقررت باجتهاد هـــذا ، والتى تقررت باجتهاد ذاك ، ويشعرون بأن مرجع ذلك الاختلاف إلى اختلاف فى الطرائق ، فكان أهل الأثر يشعرون بما بينهم وبين أهل الرأى من اختلاف منهجى ، وأهل الحجاز يشعرون بما بينهم وبين أهل العراق من اختلاف ليس حاصلا فى الأحكام الفرعية فحسب ، ولكنه راجع إلى اختلافهم فى ما تتفرع عنه تلك الأحكام فى أصول إجمالية فلقد كانوا يعرفون الأفراد من الفقهاء خصوصياتهم فى المناهج الاجتهادية ، ويعرفونهم بها ، حتى لقب ربيعة ابن أبى عبد الرحمن فقيه المدينة ربيعة الرأى ، وكانوا يعلمون حتى العلم أن ما يقوم دليلا عند واحد من المجتهدين على إثبات حكم شرعى ، لا يقوم دليلا عند غيره ، حتى تناظروا فى حجية أنواع من الأدلة ، كما تناظر مالك والليث بن سعد فى حجية عمل أهل المدينة على ما يرى مالك ، وعدم حجيته على ما يرى الليث بن سعد ، فى الرسالتين اللتين دارتا بينهما وأثبت نصهما العلامة ابن القيم فى كتاب أعلام الموقعين .

وأمام هذا العمل العميق الغور ، البعيد المدى ، الذى يضطلع به الفقهاء ، كانت طائفة من أهل الأثر الذين عرفوا بالعلم ولم يعرفوا بالفقه تقف حائرة مبهوتة من سبب اختلاف هؤلاء الفقهاء ودرجة تصرفهم فى ما يستخرجون وما لا يستخرجون من الأدلة وما يقبلون وما يردون من الأخبار ، وكان الشافعى قد نشأ بين هؤلاء العلماء ، ثم فارقهم فاتصل برجال الفقه ومارس أساليبهم وتخرج باجتهاداتهم وتميز بالفقه بعد أن تميز قبل بالأثر . فكان من الضرورى أن هذه الطائفة من أهل العلم والحفاظ التى كانت مستشرفة إلى ما يفعل هؤلاء الفقهاء ، حريصة على فهم

ما يتصرفون به فى الأحكام وأدلتها ، تجد فى وبيها الذى انتقل من حجر العلم إلى حجر الفقه ، مرجعا تستكشف دخيلة هذا العمل الذى يستغرق فيه الفقهاء ويسمونه «اجتهادا».

وعلى ذلك نجد أن علماً من أعلام رجال الحديث ، وحافظا من مشاهير الحفاظ ، هو عبد الرحمن بن مهدى ، اتجه إلى الشافعى بعد أن اتصل الشافعى بالمذهبين الحجازى والعراقى وخبرهما ، فكتب إليه من بغداد، وكان الشافعى فى مكة ، على ما يظهر فى عودته إليها قبل سفره عنها إلى مصر ، يرجوه أن يضع له كتابا فى معانى القرآن وقبول الأخبار وحجة الإجماع والناسخ والمنسوخ ، فأجابه الشافعى بكتاب يتضمن ما يريد ، وجهه إليه من مكة إلى العراق، ولذلك سمى هذا الكتاب «رسالة» ، لأنه صنف جوابا ، عن سؤال ورد بالمراسلة ، وصدر عن مكان إلى مكان موجها ومرسلا به .

ومن هنا يدرك الناظر فى رسالة الشافعى وجه ما ابتدأها به من التنويه بشأن رجوع الأحكام الشرعية كلها إلى كتاب الله ، وأن الانتباه إلى ما هو راجع إليه مما يظن أنه غير راجع إليه على حسب تفاوت طبقات الناس فى العلم به ، والغوص على معانيه ، إذ يقول : « فليست تنزل بأحد من أهل دين الله، نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبل الهدى فيها » . ويقول : « وكل ما أنزل الله فى كتابه جل ثناؤه ، رحمة وحجة ، علمه من علمه وجهله من جهله ، لا يعلم من جهله ولا يجهل من علمه ، والناس فى العلم طبقات موقعهم من العلم بقدر درجاتهم فى العلم به » .

ومن هنالك ابتدأ يقسم أصناف معانى البيان للأحكام فى القرآن العظيم بما يرجع إلى ما هو مسمى الآن عند علماء الأصول بأقسام الدلالة ، ثم أفاض فى الكلام على نسبة الأدلة بعضها من بعض بين القرآن والسنة بما يرجع إلى المجمل والمبين ، والناسخ والمنسوخ ، سالكا فى ذلك مسلك العرض التحليلى والوصف الموضوعى ، متنكبا طريق النقاش والجدال .

أقبل الشافعى ، فى رسالته إلى عبد الرحمن بن مهدى يبين أن مرجع استفادة الأحكام الشرعية إلى القرآن ، من طريقتين : هما طريق النص ، وطريق الاستنباط ، قائلا . « إن من أدرك علم أحكام الله فى كتابه ، نصاً واستدلالا ، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه . فاز بالفضلية فى دينه ودنياه ، وانتفت عنه الريب ، ونورت فى قلبه الحكمة ، واستوجب فى الدين موضع الإمامة . »

ثم أخذ يشرح اختلاف طرق الاستفادة من القرآن : نصاً واستدلالا فسمى إفادة القرآن ذلك « البيان » وابتدأ بعنوان : « باب

كيف البيان ، فقال : إن البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول ، متشعبة الفروع ، وبين أن وجوه البيان عديدة ، وعقد لكل وجه منها باباً : مما جاء بيناً بنص القرآن فلم يحتج إلى بيان ، وما احتاج فيه بيان القرآن إلى ما يكمله من السنة ، أو ما يبينه ، أو ما انفردت ببيانه السنة ، وما فتح فيه القرآن باب الاجتهاد والقياس بما يتوقف عليه ذلك من معرفة ، وعلى الأخص بفنون اللغة العربية ، عقد بعد ذلك أبواباً متتابعة لاختلاف الدلالة بالعموم والخصوص ، وضعاً واستعمالا وأصالة ولحوقاً ، منتهياً إلى أن السنة تخصص ما جاء فى القرآن عام الدلالة ، ومتخلصاً من هنالك إلى ما للسنة من أثر فى تبيان الأحكام ، مفيضاً فى هذا المعنى بياناً واستدلالا وبسطاً لمسألة علاقة السنة بالقرآن ، من حيث الناسخ والمنسوخ والمجمل والمبين ، والمخصص ، يضرب الأمثال لذلك من عديد أبواب الفقه . وبعد أن بلغ الشافعى هذا المبلغ من البيان ، على طريقة من البسط ، والبيان المطرد ، بدون استحضار نقاش ، ولا افتراض جدال ، ولا إجراء الكلام مجرى الجواب والسؤال ، ابتدأ بعد ذلك يتعرض للسؤال والاعتراض والاستكشاف على طريقة الافتراض والتقدير : بقوله : فإن قال قائل وابتدأ هذا الأسلوب أولا بالسؤال عن الوجه والتطلب للدليل ، إيجازاً واقتضاباً ، يتبعه ببيان طويل للكشف عن وجه السؤال . ثم لما وصلت نوبة الكلام إلى علل الأحاديث ووجه الأخذ ببعضها وترك بعض ، واعتبار بعضها راجحاً وبعضها مرجوحا ، هنالك أصبح يذكر الأسئلة على وجه الوقوع والثبوت ، لا على وجه التقدير والافتراض ، فيقول « قال لى قائل » ولا يقول كما كان يفعل فى أول الكتاب « فإن قال قائل » . ثم يفيض فى بيان ذلك القول معلنبا فى أدلته ووجوه توقعه ، ثم يجيب عنه مبتدئا بقوله « قال الشافعى » ويطرد فى البيان والتفصيل والتعليل وضرب الأمثال ثم لا يقطع سياق المحاورة فيستمر مورداً أسئلة المعترض واستكشافاته من قوله « وما هو » وقوله « فمثل لى كل صنف مما وصفت مثالا تجمع لى فيه الإتيان على ما سألت عنه » ، وقوله « فهل عن النبى رواية بما قطعتم » ، وهكذا يستمر فى هذه الطريقة من الحوار الجدلى المسترسل ، يورده أولا بين طرفين ، ثم كأنه يصف دخول ثالث فى الحوار ، إذ ينصرف عن قوله « قلت فقال » أثناء الموضوع بعينه ، فيقول فقال لى قائل ويستمر يجيب القائل الثانى : ثم يعيد أسئلة القائل الأول مبتدئا استئنافها بقوله قال الشافعى : « قال ، يعنى السائل

الأول. حتى ينتهى إلى منقطع الحديث ليستأنف جدلا آخر حول استدلال آخر . وهكذا يستعرض على هذا النحو مباحث النسخ ، والتخصيص والأمر ، والنهى ، وأخبار الآحاد ، على منهج يتجه إلى بيان أن للسنة أثراً فى وضع الحكم الشرعى بالاستدلال، على نسبة من القرآن ، يختلف باختلاف الصور والأماكن . ثم لما أفضت نوبة الكلام إلى الأصول الأخرى ، غير الكتاب والسنة : وهى الإجماع والقياس جعل الحجاج دائراً على أن دلالة الكتاب والسنة هى المثبتة على الإجمال لحجية الأصلين (الإجماع والقياس) مع كونهما أصلين منفصلين عن المسموع من الكتاب والسنة ، لكن فى الكتاب والسنة ما يشهد للإجماع والقياس : بأن كلا منهما عامل فى استنباط الأحكام الشرعية .

ولما أثار البحث فى القياس بحثا فى أنه يخطىء ويصيب ، وقد يكون حقا فى الظاهر والباطن وقد يكون حقا فى الظاهر فقط ، فيكون حقه مقصوراً على قائله دون غيره وينشأ من ذلك الاختلاف بين القائلين ، مع سقوط الحرج والإثم عن كل منهم ، أثار البحث على ذلك الوجه فى حجية القياس ، مسألة الاجتهاد .

فإذا المحاور يسأل عن أصل تجويز الاجتهاد والشافعى يجيب بالإثبات متمسكا بما جاء فى القرآن العظيم . بما يقتضى إعمال الدلائل لأداء أصناف من العبادات ، مع أن تلك الدلائل قد تصيب وقد تخطىء ، وقد يعرف بها إنسان غير ما يعرفه غيره ، فيبنى كل منهما على ما عرف وإن اختلف ما أتى به كل منهما عما أتى به الآخر . ويلح المحاور فى طلب الدليل على جواز الاجتهاد من الحديث ، فيروى الشافعى له حديث : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » ، فيجرى الحوار حول الصواب والخطأ وتنهض حجة الشافعى على ما أراد بأن الأجر على الخطأ يقتضى على الأقل أنه يسع الإنسان أن يخطىء فى الاجتهاد غير آثم ، ويلخص حجته فى الاجتهاد ، بقوله :

« إن الله جل ثناؤه من على العباد بعقول فدلهم بها على الفرق بين المختلف وهداهم السبيل إلى الحق : نصا ودلالة » ولما سأله صاحبه مثالا على ذلك ، ضرب له المثل باستقبال القبلة وما خلق الله للناس من أدلة كونية يهتدون بها إلى جهة البيت الحرام قائلا : « وكان عليهم تكلف الدلالات بما خلق لهم من العقول : التى ركبها فيهم ليقصدوا قصد التوجه للعين التى فرض عليهم استقبالها . فإذا طلبوها مجتهدين بعقولهم وعلمهم بالدلائل ، بعد استعانة الله والرغبة إليه فى توفيقه ، فقد أدوا ما عليهم » .

الفاضل بن عاشور
تونس
(للبحث بقية)

نفحات القرآن

العهد : مسئولية دينية
والوفاء به : غاية حتمية

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(أ) « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين .
(ب) فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا ، وهم معرضون .
(ج) فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » .

(أ) وردت هذه الآيات فى رجل من المسلمين ، كان فى طليعة الصحابة ظاهراً وكان يلازم الرسول فى حضور الجماعات بالمسجد ، ثم فتنته الدنيا فخرج من الإسلام كما خرج إبليس من الجنة ... وتبين للناس من قصة حاطب بن ثعلبة هذا أن الوفاء بالعهد شعبة من شعب الإيمان الحق ، فالآخذ بعهده واصل إلى جنات ربه ، والناكث بعهده فإنما ينكث على نفسه .

كان حاطب هذا يخرج من صلاة الجماعة خلف الرسول مهرولا إلى بيته ، كالكاره البقاء فى موضع الصلاة . أو فى معية الرسول عليه السلام .

فقال له صلى الله عليه وسلم : يا حاطب !! إنى أراك تعمل عمل أهل النفاق !! فقال : يا رسول الله : إن لى ثوبا واحدا يصلح للصلاة ، وأنا أسرع إلى زوجتى لتلبسه ، وتدرك به الصلاة فى أول وقتها .. فادع الله لى أن يرزقنى مالا ...

فاستشف النبى ببصيرة النبوة أن العسر خير لهذا الرجل من اليسر ، وقال له : يا حاطب قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

فأعاد الرجل سؤاله مرة ، ومرة : وفى كل منهما يسمع نفس الجواب ، ثم قال معاهدا ربه أمام رسول الله وأصحابه : لئن أتانى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه .

وكان فى هذا العهد جاهلا بحقيقة نفسه ، وظانا أنه يغلب الدنيا ، فلا تنال من دينه ، ولا تفتنه عن عهده .

ومن شأن النبي صلى الله عليه وسلم — أن يحكم بالظاهر ، ولا يتعلق بالغيب فى شأن كهذا لا يعتبر حكما تشريعيا ينتظر فيه الوحى ، أو يجتهد فيه .

فدعا ربه لحاطب أن يرزقه مالا ...

ومن هنا جرى على حاطب قدر من الله لم يكن يتخيله ، ذلك أن ماله كثر وكثر .

حتى ضاقت المـــدينة ، وضاق ربضها بالأغنام ، والأبقار ، والإبل لحاطب صاحب الثوب الواحد .

وكان كلما كثر ماله يتخلف عن الرسول وعن الصلاة معه شيئا فشيئا ، حتى انقطع لماله دواما .

ولما افتقده النبي ، وسأل عنه أخبروه بشأنه ، وانقطاعه لماشيته بعيدا فى جنبات الوادى ، فأرسل إليه الرسول عامل الصدقات يجىء منه بزكاة أمواله التى كانت مصداق عهده ، وكانت دعوة الرسول إلى ربه .

فاستبدت به الدنيا ، وغلبته على عهده ، ونسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وراوغ مع عامل الصدقات مرة وأخرى .. ثم قال له أخيرا : ما هذه إلا جباية . . يريد أن الزكاة تحصيل للمال بالإكراه ودون استحقاق مشروع .

فانظر إلى الرجل : ما بين عشية وضحاها ، يتمرد على دينه ، ويكفر بنعمة ربه ، ويتبجح فى وجه الوافد عليه من جانب الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه .

تزعزع يقينه بإغراء المال له واستعبدته دنياه ، فقطعته عن صحبة الرسول ، وأصحابه إلى عشرة الأغنام ، والإبل ، والأبقار .

ثم نفث من حقده على الدين ما كان خافيا عليه من أمر نفسه ، حينما تعلق بالمال ، وألح بسؤاله للرسول أن يدعو له باليسر بدل العسر .

وكأن طغيان دنياه أنساه أن الله الذى أعطاه قادر على أن يسلبه هـذا العطاء ، أو يسلبه ما هو فيه من هـذا العطاء ، وإن تضاعف حظه .

وقد كان فى هذا شقاؤه ، وكانت نعمته نقمة عليه . . إذ نزل فيه قول الله سبحانه : « ومنهم من عاهد الله » الآيات السابقة .

وحين نزولها أخبر بها الرسول أصحابه ، وقال لهم : أتدرون فيمن نزلت هذه الآيات ؟ نزلت فى حاطب بن ثعلبة التميمى .

ففزع الصحابة لذلك الحدث ، ولما أصاب حاطبا من مروقه من الدين ، وبغيه على نفسه وفزع إليه أخوه ، وأخبره بما نزل فى شأنه من نذير القرآن .

وهنالك تقشعت ضلالته ، وعظمت ندامته وبادر إلى الرسول يعتـذر ، ويستعتب ، ويستأذن فى تقديم زكاته التى ضن بها على العامل وتنكر له طاعنا فى تشريع الله .

(ح) ولكن النبي أبى أن يقبل منه شيئا ، بعد أن حكم الله فى قضية هـذا المارق « والله يحكم لا معقب لحكمه » .

ولماذا لم يقبل الله توبة هـذا الخاطىء ؟ ولم يقبل الرسول منه معذرته وزكاته ؟ مع أن الله غافر الذنب ، وقابل التوب .

يبدو أن طوية هذا الرجل من أول أمره كانت غير مظهره ، وشاء الله أن يكشف له حقيقة نفسه ويكشف للرسول وللمؤمنين ماخفى عليهم فى واحد من أقرب الناس إليهم .

وليضرب الله المثل به فى فضيحة المتصنعين للإسلام ، وأن فى النـاس من يعبد الله على حرف ، حتى إذا أصابته فتنة انقلب على وجهه وخسر دنياه وآخرته .

ولعل من حكمة الله فى رفض المعذرة ، والإعراض عن توبته لدى الرسول أنها لم تكن توبة من قلبه ، وإنما هى كذلك مخادعة أمام القوم ، حتى تخفف عنه اللائمة والمذمة نوعا ، ولا يكون معرة لذويه ، كما يكون الحال فى شأن من لم يحاول تدارك خطيئته ، ولو رياء .

وفى هذا عبرة للمؤمنين الصادقين ليتحاشوا غرور الدنيا ، ويكونوا على شكر الله أحرص من التعلق بالمال ، والضن به فى سبيل الله ، الذى يهبه لمن يشاء ، ويمنعه عمن يشاء .

حاول الرجل فى عهد أبى بكر أن يقدم زكاة أمواله ، فلم يقبلها منه ، وقال له : ما كان لى أن أقبل شيئا لم يقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم حاول كذلك فى عهد عمر ، فقال له مثل ما قال أبو بكر ... وانتهت حياة حاطب ابن ثعلبة ، وخلف دنياه لغيره ، وخرج منها على نفاق أرداه فى جهنم خالدا فيها مع الخالدين المعذبين .

ولو أن الرجل كان وفيا بعهده لله لكان فى مقام غير هذا .

ولكن الله أعقبه نفاقا فى قلبه إلى يوم يلقى ربه بسبب ما كان من خلفه لوعد الله ، ومن كذبه على رسول الله ، فيما عاهده عليه !

فانظر إلى قيمة الوفاء بالعهد ، وإلى خطر الغدر فيه !!

* * *

هذا ـ وقديما عرف التاريخ عن العرب أكثر مما عرف عن سواهم فى صيانة العهد من الخيس فيه ، حتى لو اقتضاهم الوفاء بالعهد تضحية بالأموال ، والأنفس .

غير أن العرب فى جاهليتهم أسرفوا فى تشبثهم بالوفاء ، إذ توسعوا فى مفهومه ، حتى جعلوا منه عصبية للقبيلة ، أو للحليف فى غير اعتدال . واستباحوا إراقة الدماء ، وفاء بالعهد كما ـ زعموا ـ ولو دون سبب القتال .

وكانوا يفاخرون بذلك فى ندواتهم ، وفى قصيدهم ، وخطبهم .

ولما جاء الإسلام متكفلا بصلاح دنيانا ، وتهذيب أخلاقنا كان طبيعيا أن يختار من معانى الوفاء مايلائم وجهته ، ويندمج فى منهجه وأن يعتبر هذا الوفاء المعتدل بالعهد النافع أصلا من أصول الأخلاق .

بل وكنا من أركان العقيدة ، ينهض عليه قوام الدين الحق .

فإن إيمان المرء بالله ، وبما أنزل على رسله لايعدوا أن يكون وفاء بما عهد الله إلى عباده من توحيده ، والأخذ بأحكامه ، وأخلاقه ، وسائر توجيهاته فى حياتنا الدنيا . وتركيزا لمبدأ الوفاء بالعهد بين شعب الإيمان .

عنى القرآن كثيرا بذكر العهد ، وبالدعوة إلى صيانته من الغدر به ، وبالثناء المستطاب على الموفين بعهدهم إذا عاهدوا .

وانظر تجد للقرآن بسطة فى بيان العهود التى يعنيها ، ويقرها فى تشريعه .

١ - فعهد أزلى ، أخذه الله عباده ، حين كانت الإنسانية فى عالم الأرواح ، أن يدينوا له وحده بالربوبية ، ويذكرهم به بعد وجودهم ليكونوا على علم بما سلف ، وعلى وفاء بما علموا وهم فى عالم الأشباح « وإذ أخذ ربك من بنى آدم : من ظهورهم ، ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين » !!

فيكون من مقتضى الفطرة الإنسانية المعتدلة أن نستجيب لما ذكرنا الله به ، وأن نفى به حبا فى الله ، وتقديراً لفضله ، وخشية منه ، والتماسا لرضوانه ، ومؤازرة لدعوة رسله .

٢ - ولكن الإنسان ظلوم لنفسه ، جهول بمسئوليته « إنا عرضنا الأمانة » تكاليف الدين « على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها » .

لم تتهيأ تلك المخلوقات العظيمة لقبول التكاليف ، وقصرت طبيعتها مع ضخامتها عن الصلاحية لحمل أمانة الدين .

وكأن هذا إباء وخوف من التقصير فيما عهد الله به إليها ، « وحملها الإنسان » بفطرته المتهيئة ، ومواهبه المستعدة ، وبما عرفه من طريق الرسالات النبوية ، ثم تخلف عن تمام الوفاء بهذا العهد ، فكان ظلوما لنفسه ، جهولا بمسئوليته .

٣ - وعهد ثالث - قطعه الله على نفسه للجاهدين فى سبيل الله - بأموالهم وأنفسهم : ما استطاعوا - أن يكون جزاؤهم الجنة فى سعة من محبة ربهم « يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح - عناء الجهاد -

ومناعب الطاعة ـ للذين أحسنوا منهم ، واتقوا ، أجر عظيم » . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ـ بعهدكم ، ووفائكم مع الله بما عهد إليكم ـ وذلك هو الفوز العظيم » . « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ـ فى بيعة الرضوان يوم الحديبية سنة ست من الهجرة ـ فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريباً » .

فتلك عهود بين الله وعباده ، والله يتعهد لخلقه فيها بالوفاء ، جزاء على وفائهم .

وفى مجموعها يقول الله تعالى : « وأوفوا بعهدى ، أوف بعهدكم ، وإياى، فارهبون » .

وقد اتسع مفهوم العهد المنشود فى تشريع الله حتى جعل منه كل عهد صالح نلتزمه فيما بيننا « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» . « وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسئولا » .

وكذلك تقرر سنة النبى صلى الله عليه وسلم أن من علامات الإيمان فى المؤمن إذا وعد أوفى وأن من علامات النفاق فى المرء أنه إذا وعد أخلف . وأنه لاعهد لمن لا وفاء له : أى أن الناكث للعهد لا يعتبر من أهل العهود ، يريد أهل الإيمان .

وقد تعهد الله فى تشريعه لنا أن يأخذ كل ناقض العهد بجريرته ، كما صنع مع اليهود فيما عرف منهم كثيرا حتى سجل عليهم لعنته ، وكرر تهديدهم بغضبه « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية » .

إلى كثير من آياته التى تثير الرعب لدى كل ذى قلب يعى « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » . « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

ومع ما تبين من شأن العهد وخطره عند الله فإن بعض الأئمة يفرق بين العهد ، والوعد وينظر إلى ما فى العهد من توثيق والتزام كعقود المعاملات مثلا وإلى ما فى الوعد من هوادة لا تبلغ مبلغ التوثيق والاستيثاق ، وجعلوا إنجاز الوعد مستحبا لا واجبا ، وخلف الوعد مكروها لا محرما .

فإذا وعدت صديقك بالزيارة فالوفاء بمثل هذا مروءة تليق بالمسلم ، والخلف حين لا يبلغ مبلغ الإثم ... وهذا كلام مقبول فيما يكون نادرا وغير متعمد .

أما إذا كان دأبا للمرء أن يخلف وعده فهذه هى نقيصة المنافق التى حذرنا منها الرسول فى قوله ـ وإذا وعد أخلف .

وليس من العهد المطلوب وفاؤه ، ولا من

الإسلام ... وما يُفتَى عليه

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

هناك ظاهرة تكاد تكون حقيقة واقعة، وهي أن القضايا التي تتحكك بالدين، وتتمسح بشريعته وأحكامه، يدخل عليها كثير من الضعف والوهن، على حين يقدر أولئك الذين يذهبون بها هذا المذهب، فيلقون عليها ظلالا من الدين، ويضعون بين يديها «جواز مرور» مختوم بخاتم الدين، موسوم بأحكامه وتعاليمه - هؤلاء يقدرون أن ذلك شفيع لا يرد عند الناس، وأنها بهذا الشفيع ستغزو القلوب، وتمسك الناس من مقاودهم! لكن الأمر يجيء أبداً بعيداً عن هذا التقدير، بل وآخذا اتجاها مضاداً له في أغلب الأحوال ... وذلك أن للنفس البشرية نفرة بطبيعتها من كل أمر يلقاها

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

الوعد المقتضى للصدق أن يكون في باطل، أو إضرار بالغير كالتعهد بالعدوان على الغير أو التحالف على مساس بالوطن أو الاتفاق على ارتكاب جريرة خلقية أو المشاركة في أي نقيصة ينكرها الدين، أو يأباها عرف الناس، ومروءتهم.

والأرذلون من الناس يحسبون التعاهد على شيء من هذه المنكرات يقتضيهم الوفاء به في عرف الأبطال والرجولة، والصداقة.

وهذا خلط كخلط أهل الجاهلية فيما سلف وهي خصائص دنيئة، يأباها الإسلام على أهله وغير أهله ... كما يحرص على الوفاء الجدي بين أهله، ومع غير أهله وأنت ترى في قصة حاطب التي تعلقت بها آيات الموضوع أخذا له بالشدة، وحرمانا من قبول الرجل في عداد المسلمين، وتسجيلا لبشاعة موقفه وتلاعبه بما وعد الله ورسوله ليكون الوفاء بالعهد وبالخير دائما نصب أعيننا وسياجا لحياتنا ومظهراً إنسانيا لجماعة المسلمين أكثر من سواهم، فهم أولى بذلك الكمال، كما قرر الرسول في قوله إنا قوم لا يصلح في ديننا الغدر.

حتى لو شئنا نقض عهد مع غير المسلمين وجب أن نخبرهم من قبل وإلا نأخذهم على غرة، فإن ذلك من تمام الوفاء واحترام العهد، حتى في ساعة نقضه لسبب ما، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء - فاطرح لهم عهدهم على علم - إن الله لا يحب الخائنين .؟

عبد اللطيف السبكي

الإسلام ... وما يُفتَى عليه

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

هناك ظاهرة تكاد تكون حقيقة واقعة ، وهى أن القضايا التى تتحكك بالدين ، وتتمسح بشريعته وأحكامه ، يدخل عليهــا كثير من الضعف والوهن ، على حين يقدر أولئك الذين يذهبون بها هذا المذهب ، فيلقون عليها ظلالا من الدين ، ويضعون بين يديها « جواز مرور » مختوم بخاتم الدين ، موسوم بأحكامه وتعاليمه ـ هؤلاء يقدرون أن ذلك شفيع لا يرد عند الناس ، وأنها بهذا الشفيع ستغزو القلوب ، وتمسك الناس من مقاودهم ! . لكن الأمر يجىء أبداً بعيداً عن هذا التقدير ، بل وآخذاً اتجاهاً مضاداً له فى أغلب الأحوال . . . وذلك أن للنفس البشرية نفرة بطبيعتها من كل أمر يلقاها

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

الوعد المقتضى للصدق أن يكون فى باطــل ، أو إضرار بالغير كالتعهد بالعدوان على الغير أو التحالف على مساس بالوطن أو الاتفاق على ارتكاب جريرة خلقية أو المشاركة فى أى نقيصة ينكرها الدين ، أو يأباها عرف الناس ، ومروءتهم .

والأرذلون من الناس يحسبون التعاهد على شىء من هذه المنكرات يقتضيهم الوفاء به فى عرف الأبطال والرجولة ، والصداقة .

وهذا خلط كخلط أهل الجاهلية فيما سلف وهى خصائص دنيئة ، يأباها الإسلام على أهله وغير أهله ... كما يحرص على الوفاء الجدى بين أهله ، ومع غير أهله وأنت ترى فى قصة حاطب التى تعلقت بها آيات الموضوع أخذا له بالشدة ، وحرمانا من قبول الرجل فى عداد المسلمين ، وتسجيلا لبشاعة موقفه وتلاعبه بما وعد الله ورسوله ليكون الوفاء بالعهد وبالخير دائمــا نصب أعيننا وسياجا لحياتنا ومظهرا إنسانيا لجماعة المسلمين أكثر من سواهم ، فهم أولى بذلك الكمال ، كما قرر الرسول فى قوله إنا قوم لا يصلح فى ديننا الغدر .

حتى لو شئنا نقض عهد مع غير المسلمين وجب أن نخبرهم من قبل وإلا نأخذهم على غرة ، فإن ذلك من تمام الوفاء واحترام العهد ، حتى فى ساعة نقضه لسبب ما ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ـ فاطرح لهم عهدهم على علم ـ إن الله لا يحب الخائنين . ؟

عبد اللطيف السبكى

على غير الوجه الذى ، وترقبه منه .. فهى مثلا .. تنفر من الهزل فى مواقف الجد، و تقفز من الجد يلقاها فى مواطن الهزل .. !

وليس كالهزل بالدين - وأمره كله جد - حين تجرى بين يديه تفاهات الحياة كلها ، وحين يتحرك على مسرحه صغير الأمور وسفسافها .

صنيع أولئك الذين يعرضون الدين فى كل سوق ، ويبيعونه بكل عرض ، وبأى ثمن !

وحسن أن يلتفت الناس إلى الدين ، وأن تعلق أبصارهم وقلوبهم به ، وأن يعرضوا أنفسهم وأعمالهم عليه ، وأن يردوا موارد أمورهم ومصادرها عليه .. فهذا من شأنه أن يقيم فى النفوس وازعا ، وأن يجعل للدين فيها سلطانا ، فتعتصم به من أن تضل ، أو تضعف ، أو تسقط .. إذا نازعتها شهوة ، أو تسلطت عليها فتنة !

ولكن ماذا يرد إلى الدين من أمور الناس ؟ وماذا يستفتى فيه الدين من شئونهم ؟

ولك أن تأخذ الجواب على هذا من نفسك حين تسألها هذا السؤال : ماذا ترد من أمورك أو تعرض من شئونك على ذوى الرأى والنصيحة من ثقاتك وخلصائك ؟

أتراك تجىء إليهم فى صغير أمرك وكبيره ؟ وأتطلب الرأى عندهم فى ظاهر شئونك وخفيها ، وفى جليلها وحقيرها ؟ أم تراك تواجه الحياة برأيك ، وتصحبها بما يدلك عليه عقلك وقلبك .. حتى إذا طرقك أمر ضل معه عقلك ، أو حار فيه رأيك ، طلبت الرأى والنصيحة عند من تتوسم فيه الرأى والنصيحة ؟ فأى الحالين حالك ؟ وأى الواقعين واقعك ؟

وانظر أى الرجلين أنت .. وتفقد وجودك ، وتعرف على ذاتيتك فى كلا الحالين هذين ! .

وليست بك حاجة إلى من يدلك على أنك تنظر فى الرجل الأول إلى إنسان آلى ، منزوع الإرادة ، مسلوب التفكير ، ضائع الشخصية ، يعيش فى ظل غيره ، ويتحرك بإرادة سواه .. وهيهات أن يكون فى الناس إنسان على تلك الصفة ، وإن يكن هناك كثير من الناس على اللون الغالب فيها .. فإن أدنى الناس شأنا ، وأقلهم عقلا ، له رأى ، وله إرادة ، على أية صورة من صور الرأى والإرادة .. فإن يكنه فهو إنسان فقد وجوده ، وأهدر آدميته ، ودخل فى عداد المجانين والمعتوهين !

أما مع الرجل الآخر فإنك منه فى حضرة إنسان يحمل مسئولية الحياة كإنسان ، ويتحمل تبعاتها كرجل .. إنسان جدير بأن يؤثر أثره فى الحياة ، وأن يكون أهلا لإرث هذا اللقب الكريم : « خليفة الله » فى هذا الكوكب الأرضى ! ثم إنه لا فرق بين أن يكون ذلك السلطان الذى يملك وجود الإنسان ، ويشل إرادته - سلطانا دينيا ، أو اجتماعيا ،

أو سياسيا ، ما دامت آثارها واحدة ، فى ضمور الشخصية ، وفى اغتيال ذاتية الإنسان، وقتل المعالم الأصيلة فيه.

وليس هناك من سلطان أقوى وأقدر من سلطان الدين فى أخذ النفوس إليه وحملها على الولاء له ، والانقياد لحكمه ، والاستسلام لسلطانه .. ومن هنا كان الدين ، رسالة الأنبياء ، الذين تخيرهم الله من عباده ، واصطفاهم لأداء هذه الرسالة الكريمة الخطيرة ، التى لو لم تمسك بها يد حكيمة موجهة بحكمة الله وقدرته لتحول نورها الوضىء إلى نار ، لا تبقى ، ولا تذر .. فما أكثر ما أحرقت الديانات السماوية ـ بله غير السماوية ـ أهلها ، بعد أن ذهب رسولها ، وقام عليها من بعده أقوام لا تتسع نفوسهم لحقيقة الدين ، ولا ترتفع مداركهم إلى مطالع جلاله ، وبهائه وحكمتـــه ، حيث تتمثل حقائق الدين فى خواطرهم ، وتتشكل فى عقولهم ، أمساخا شائهة من القوى المستبدة المتألهة ، مضروبة بالجهل والهوى ، أو مدموغة بالكيد والتضليل ، وبهذه الحبال المفتولة باسم الدين ، والمصنوعة على حسابه يمسكون بخانق الناس ، ويفرضون عليهم باسم الدين سلطانا قاهراً مستبداً ، يحصى عليهم أنفاسهم ، ويسلبهم إرادتهم ، ويشل حركات عقولهم ، فلا يملكون ـ مع الدين ـ من أمرهم فتيلا ، ولا قطميراً !

وإذا ذكرنا أن الديانات ـ والديانات السماوية خاصة ـ إنما جاءت لتفك الإنسان من أسر العبودية بجميع صورها وأشكالها عبودية ـ الأوهام والخرافات ـ عبودية الجهل والهوى ـ عبودية الجبابرة والطغاة من ملوك وسلاطين ـ عبودية الفقر والحاجة ـ وذلك لتقيم فى الحياة إنسانا سوى الإنسانية ـ حر الإرادة ، مستنير العقل ، سليم الوجدان ، صحيح العقيدة ، مستقيم الطريقة ـ إذا ذكرنا ذلك من أمر الدين ، ومن رسالته فى الحياة ، ومقامه فى الناس ـ كان لنا أن ننكر كل ما يحمل إلى الناس باسم الدين ، ليسوقهم سوق الأنعام إلى مغارات وكهوف ، رطبة مظلمة ، لا يرون فيها إلا قطع الظلام ، تتحرك فى أحشائها المفزعات من الأشباح والخيالات !

وإذا صح ما يقال من أن القانون للإنسان ، وليس الإنسان للقانون . أو كما يقول السيد المسيح : « إنما السبت للإنسان ، وليس الإنسان للسبت » ـ فإنه يصح ـ بل يجب ـ أن يقال : إن الدين للإنسان ، وليس الإنسان للدين .. فما الدين ـ فى صميمه ـ إلا قانون سماوى ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد .. غايته حماية الناس من أنفسهم ، ومن عدوان بعضهم على بعض . فهو الرحمة الراحمة

التى تتنزل من السماء كما يتنزل الغيث على الجديب فيهتز ويربو، وينبت من كل زوج بهيج

والإسلام - بحق - هو دين الإنسان ... الإنسان فى أكمل كمالاته، وأكرم منازله..

والإنسان عقل وإرادة. وتعاليم الإسلام كلها قائمة على العقل والإرادة معاً ... عقل الإنسان العاقل، وإرادة الإنسان المريد ... فعلى مقاييس العقل السليم، وعلى منطقه جاءت أحكام الإسلام، وأحكمت تعاليمه، وعلى الإرادة الحرة، والاختيار المطلق قدرت أوامره ونواهيه ...

ومن أجل هذا كانت «النية» مقطع كل قول أو عمل، يصدر من الإنسان المسلم ... وفى هذا يقول النبى الكريم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى).. فلا حساب فى الإسلام عن قول أو عمل إلا بالنية التى تصحبه ... وليس للنية منطلق إلا عن إرادة حرة مختارة ... وليست الإرادة إلا عن عقل يدرك، ويقدر ... ولهذا يقول النبى صلوات الله وسلامه عليه: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه» ... وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى، وقد دعانا - سبحانه - إلى أن ندعوه به: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» ... فما أسقط الإسلام هذه الأعمال والأقوال التى تقع عن خطأ أو سهو، أو إكراه، وما أهدر آثارها إلا لأنها وقعت على غير إرادة الإنسان، وإلا لأنها جاءت بعيدة عن مشيئته، وعلى غير تقديره وتفكيره!!

وسيرة نبى الإسلام كلها قائمة على بناء المجتمع الإسلامى على هذين الأمرين: العقل والإرادة ... العقل السليم، المصفى من شوائب الهوى والضلال، والإرادة الحرة المنطلقة من هذا العقل السليم المدرك ... فلقد عاش الرسول الكريم حياته كلها بين أصحابه بإنسانيته كلها، وببشريته جميعها، يستشير ويشار عليه، وليس ذلك إلا ليقيم فى المجتمع الإسلامى هذه الحقيقة، وهى أن يعيش الناس بعقولهم، وبإرادتهم، وألا يتخلوا عنهما لأحد حتى ولا لنبى. فإن المسلم لمطالب حين ينزل على أمر النبى أن يصحب معه عقله وإرادته، ليكون لتسليمه بما سلم به - مفهوم عنده، وأثر عامل فى كيانه، ليقوم لهذا الأمر بما ينبغى له من احتفاء ووفاء!.

وموقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى صلح «الحديبية» أشهر من أن نذكر به.

* * *

نقول هذا القول فى وجه تلك الوجوه التى تقف بساحة الدين، مستجدية، ملحة فى الاستجداء، لتحمل عليه كل أمر من أمور الحياة ولتضع «بصماته» على كل شأن من شئون الناس ...!

فلقد استهوى هذا البدع كثيراً من النفوس الصغيرة ، التى تحسب أنها بهذه « الوظيفة » تكون شيئا ، وأنها بهذا التطفل تجعل لها سلطانا على الناس ، وتقيم لها وزنا فى الحياة ، وحتى كأن الناس لا يتحركون إلا بإشارتهم ، ولا يأخذون أو يدعون إلا عن أمرهم ... وهؤلاء لو علموا حقيقة وجودهم ، وواقع حالهم لرأوا أنهم أهون هواناً من « تيم » .. تلك القبيلة التى رماها الشاعر بقوله :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم
ولا يستأذنون وهم شهود

فما كانت الحياة لتنتظر إشارتهم ، أو تسمع لقولهم !.

ولا تحسبن أن هذه الظاهرة هى وليدة هذا العصر أو أنها عن دعوة من الأحداث الكثيرة التى نجمت فيه ، بل هى قائمة فى كل عصر وفى كل أمة ، وفى محيط كل دين ... فلكل عصر أحداثه وجديده ، ولكل عصر علماؤه وأدعياؤه وطفيليوه ! ! .

ولكن الذى يلفتنا من هذه الظاهرة اليوم هو أنها قد اتسعت دائراتها ، وكثر المتنافسون فيها ، والمتهالكون عليها ... من كل جماعة ومن كل قبيل ! فما يبزغ فى أفق الحياة شىء إلا تداعى له الأدعياء ، وإلا تلقاه منهم بالفم وباليدين - من يحسن ومن لا يحسن ... كل يحاول أن يجره إلى الدين جرا ، وأن يجىء له من الدين بشاهد ودليل ... وإذا بالدين ينطلق من بين أيديهم فى كل اتجاه ويندفع فى كل سبيل ... وإذا به يلهث وراء رواد الفضاء من روس وأمريكان ، وإذا به يتعلق بأذيال المراكب المصعدة إلى الكواكب ، يفتى سكانها فيما أحل الله وما حرم ... وكأن الأرض قد ضاقت فلم تتسع لعلمهم فراحوا يبذلونه - بلا مقابل - لسكان السماء .

* * *

وبلية ليس بعدها بلية أن يزج بالدين فى هذه الشئون التى هى من خاصة شأن الناس ، وخالصة أمورهم ، والتى هى داخلة فى اختصاص « الوظيفة » الإنسانية ، بل فى صميم هذا الاختصاص ، الذى لا يسمح الدين لنفسه أن يتدخل فيه ، أو يغتصب شيئا منه .

فلقد خلى الدين - والإسلام بصفة خاصة - بين الناس وبين الحياة ، يعالجون شئونها بما عندهم من ذكاء واستعداد ، وليس للدين فى هذا المجال الفسيح الذى يسع الحياة كلها إلا قولة واحدة : هى أن يتحرك نشاط الناس فى غير بغى ولا عدوان .

وعن هذا الإيمان بحق الإنسان فى الاستقلال بوجوده ، والحياة مع ذاته ، وفى الانتفاع الكامل بعقله ، وخبراته ، وتجاربه - عن هذا الإيمان كان قول الرسول الكريم لصحابته من أهل المدينة : (أنتم أعلم بشئون دنياكم) :

وكان صلوات الله وسلامه عليه قد أشار عليهم بتأبير النخل على صورة رآها ، فامتثلوا أمره فيه ، وكان ذلك جاريا على غير عادتهم ، وكانت نتيجة هذا أن جاء التمر دون ما اعتادوا وفرة ، وجودة

وما نحسب هذا الحدث إلا عن تدبير من السماء ، ليتأكد حق الناس فى ضروب من الاستقلال فى التفكير والعمل ، ليخطئوا حينا ويصيبوا أحيانا ، وهم فى خطئهم وصوابهم ممسكون بزمام الحياة ، ماثلون أيديهم منها ، ومن وجودهم فيها .

وفى كل مرة كان يدخل الدين فيها على الناس من غير بابه ، وفيما ليس له كان يقع البلاء ، وتعظم الفتنة ، وتتحول أحوال الناس ، وتنقلب أوضاعهم ، ويضطرب تفكيرهم ، وإذا هم فى وجه عاصفة هوجاء ، وعلى ظهر حيرة لايدرون معها ما يأتون وما يذرون .

وتاريخ الإسلام يحدثنا حديثاً طويلا حزينا عن تلك المعارك التى أشعل فتيلها أصحاب الأهواء والفتن ، باسم الدين ، وشبوا ضرامها تحت رايته ، فأكلت ما أكلت من قوى المسلمين ، المادية والمعنوية ، وخلفت وراءها دخانا كثيفاً ، ظل منعقداً فى سماء الإسلام قرونا عدداً ولا تزال بعض آثاره قائمة إلى اليوم .

وفى هذه المعارك جميعها كان يساق الدين إليها قسراً ، ويقحم فيها إقحاما ، دون أن يكون له فى كثير منها ناقة ولا جمل - كما يقولون : وقل أن كان الدين يدخل معركة من تلك المعارك ثم يخرج منها سليما معافى ، بل كان دائما أبداً يخرج مثخنا بكثير من الجراح ، فلا يراه الناس - فى غبار تلك الفتن ، إلا شائه الوجه ، مغبر الأديم . . إذ يرون ما يبنيه الدين بأيدى رجاله المحسوبين عليه ، يهدمه الدين بأيدى رجاله والمضافين إليه أيضاً !

حيث يتجه به بعضهم يمينا ، على حين يتجه به آخرون شمالا ، وبينما يذهب به بعضهم شرقا ، يذهب به آخرون غربا ، أو شمالا ، أو جنوبا . وبين هذه الاتجاهات المختلفة يعيش المسلم زائغ البصر ، كثير التلفت ، لا يدرى أى اتجاه هو الصحيح . . القائم على سمت الشريعة ، المستقيم مع وجهة الدين !

وتعظم المصيبة ، ويتضاعف البلاء حين ينجلى غبار هذه المعركة ، بعد زمن - طويل أو قصير - ثم يتلفت الناس فلا يجدون للدين مكانا فيما نشب فيه الخلاف ، ودار حوله القتال . . إذ لم يكن للدين موقف تقتضيه طبيعته ، وتستدعيه شريعته فيما اختلف فيه المختلفون ، وتقاتل عليه المتقاتلون ، وإنما هى أمور من حساب الحياة خاصة ، ومن شئون الناس خالصة لهم !

ولمن لا يعرف حقيقة الدين ، ولا يعلم

حدوده ، وهو يحسن الظن بحملة « البخور » فى محاريب الدين ، وينظر إلى هذه القضية من جميع أطرافها — له أن يدهش ويعجب ثم لا عليه إذا هو اختنق بهذه المقولات المتناقضة فى أمر واحد ، وضاق بها صدره ثم لا عليه إذا هو جعل يسأل نفسه أو يسأل الناس : أى دين هذا الذى تقوم فيه المتناقضات ، وتعيش فى ظله المتضادات ؟

ما هذا ؟ وماذا يفعل المتدين فى مثل هذا الموقف إذا هو أراد أن يأخذ بأمر دينه ، ويستقيم على شريعته .. فى أهله وولده ؟ . .

إنها حيرة . أو قل كانت حيرة فى يومها ، انتهت بكثير من الناس إلى أن يغضوا البصر عن الدين فى هذه القضية لا يأخذون بحلاله أو حرامه فيها . لا استخفافا به ، وإنما هو إسقاط لتلك الحجج المتضاربة ، وعدم التعويل على أى منها بل لقد اندفع بعض الناس إلى أكثر من هذا فصرفوا النظر عن الدين فى كل أمر ، وفى كل شأن ، ولو كان من صميم الدين إذ تزعزعت عقيدتهم فيه ، وساء رأيهم فى موازين أحكامه ، حين امتحنوه فى هذا الأمر الذى جاء إليهم « المفتون » بهذه المتناقضات المتدافعات من الآراء ! ! .

هذه جزئية صغيرة من جزئيات الحياة ، كان لها هذا الأثر المزلزل المدمر فى الحياة الروحية للمجتمع الإسلامى ، ولا زال كثير من الناس وفى قلوبهم مرض منها إلى اليوم ! إنها - على صغرها - أشبه بالجرثومة الخبيثة تندس فى جسم سليم فتهدمه هدما ، وتأتى على بنيانه بين عشية وضحاها ! .

وهل تفعل هذه الجرثومة فعلها فى هذا الكائن العظيم إلا لأنها غريبة عنه ، مناقضة لطبيعته ؟ كذلك تلك الهنات الصغيرة من عوارض الحياة حين تندس على الدين ، وتتحرك فى كيانه . إنها أشد فتكا به ، وتضييعا له من تلك الجراثيم الخبيثة ، التى تتسلط على الأجسام الحية القوية ، فتفسد نظامها ، وتبطل عملها ! .

وانظر قضية السفور التى اضطرب المفتون فيها كثيرا وأمر الدين فيها لا يخرج عن الدعوة إلى العفة ، وعدم التبذل ، والظهور فى مظهر الفتنة والإغراء . . .

وليست قضية السفور وحدها هى التى صدعت رءوس المسلمين زمانا ، وأصابهم منها ما أصابهم من دوار ، وذهول عن الدين وتخوف منه ، بل إن لهذه القضية أخوات كثيرات ، ولدن فى هذا العصر ، حيث كثرت واردات أوربا وأمريكا من مخترعات العلوم ، ومحدثات الفنون ... فكان هناك

فى دائرة الدين أحاديث كثيرة متشعبة عن كل جديد . . فى « السينما » و « الراديو » ، وفى التصوير والنحت والتمثيل وغيرها حتى ما يتصل بألوان الطعام والشراب وأدواته ، والزى وأشكاله . . ففى كل شىء من هذه الأشياء وأمثالها كان لأصحاب « الفتيا » وقفة حادة صارمة ، تدفع الناس دفعا عن هذا البدع الجديد . . ثم لا يلبث التيار الجارف أن يكسر هذا السد الوهمى ، ويغمر السهول والوديان ، ويجرف فيما يجرف هؤلاء « المفتون » بغير علم ، ويدخل عليهم ديارهم من كل باب ونافذة !

وتصور المسألة على أن معارك قد كانت بين الدين وبين هذه الأمور . . ثم قدر بعد هذا ما يبقى فى قلوب الناس وفى مشاعرهم من جلال الدين وهيبته ، بعد أن يشهدوا راياته تسقط واحدة بعد أخرى فى كل معركة يخوضها مع الحياة !

أمران لا ثالث لهما يمكن يفسر عليهما هذا الوضع بين الدين وبين الحياة ! .

إما أن يكون الدين شىء ، والحياة شىء آخر . . كل منهما يسير فى اتجاه ، لا يلتقيان فيه أبدا . . وإذن فلا بد من أن يستمر بينهما هذا الصراع إلى أن يقتصر أحدهما ، فيبتلع الدين الناس ودنياهم معا ، أو أن يجلى الناس الدين من هذه الدنيا ، ويعيشون مع دنياهم بلا دين !

وإما أن يكون الدين - كما قلنا - إشارة مضيئة من السماء تكشف الناس معالم الطريق وتقيمهم على الجادة ، فلا يتصادم الناس فى موكب الحياة ، ولا يتقاتلون ! وفى هذه الحال يمكن أن يجتمع الدين والدنيا على وفاق ، وأن تهتف الحياة بالدين حين تعمى على الناس السبل ، فتجد فى أضوائه الهدى والنجاة ! .

* * *

ثم ماذا ؟

لا شىء إلا كلمة ألقى بها فى آذان أولئك المتهافتين المتهالكين على التحكك بالدين ، الضاربين فى وجهه بكل شىء - أن دعوا الناس والحياة ، فهم أعلم بشئونهم ، ولا تزحموا طريقهم إلى دين الله الخالص وإلى حقائقه المشرقة الصافية بهذا الغثاء الذى تسوقونه إليهم باسم الدين ، وتحملونه على ظهره ... فهم بفطرتهم أهدى سبيلا ، وأقوم طريقاً إلى دين الله ، وإن يكن منكم فى هذا المقام خير تقدمونه لهم فهو الصمت ، والصمت الطويل ... ورحم الله امرأ قال فغنم ، أو سكت فسلم ؟

عبد الكريم الخطيب

المرونة في اللغة العربية

للأستاذ عبد الحميد حسن

سأعرض في هذا الموضوع بإيجاز لخصائص اللغة العربية وما فيها من مرونة ومسايرة التجديد . وأتابع في هذا العرض مراحل اللغة العربية في نشأتها ونموها واتساع نطاقها وتسجيل قواعدها وتدوين كلماتها .

(المرحلة الأولى) في العصر الجاهلي :

وقد نشأت اللغة العربية ، في هذه المرحلة ، في كنف الفطرة وفي رحاب الصحراء الممتدة الآفاق ، وتابعت الخطا في النمو والتهذيب والاستقرار في حرية وبعد عن القيود التي تحد من حركة الفكر ، أو تقييد الجهاز الصوتي في انطلاقه ، مع تجنب ما عسى أن يعترض النطق من وعورة الحروف أو تزاحمها بسبب تقاربها أو تباعدها ، فقد أرسل العرب منطقهم على سجيته فتغلب على هذه الصعاب بشتى الظواهر اللغوية . ولذا نجد في اللغة العربية الإدغام والإعلال والإمالة وامتزاج الحروف المتماثلة أو المتقاربة والنحت والتقريب بين الحركات في مثل (الحمد لله) بضم الدال أو كسرها ، ونجد أيضاً ذلك البحث المعروف في علم الصرف باسم (رد الأبنية بعضها إلى بعض) أي تغيير ضبط الكلمة كما في عنق وشعير ورغيف بكسر الراء ، ونجد غير ذلك من مظاهر المرونة اللفظية .

وإلى جانب ذلك نجد مرونة معنوية كالتضمين والتغليب ونيابة حروف الجر بعضها عن بعض والمجاز والاستعارة وغير ذلك .

وهناك ظاهرة أخرى في اللغة نشأت عن اختلاف لهجات القبائل ، فقد تفاعلت هذه اللهجات وامتزجت ونشأت عنها مرونة لغوية تتسم بألوان من النطق وأنواع من الضبط الإعرابي وتحديد صيغ الكلمات وضبط حروفها في الفعل الثلاثي ومضارعه ومصدره ، وفي جموع التكسير ، ويشيع فيها أن يكون للكلمة الواحدة ألوان من المعاني التي قد تتباعد إلى حد واضح . والذي ساعد على كل ذلك هو اختلاط القبائل بعضها ببعض وتجمعها في مواسمها وأسواقها الخاصة والعامة . وقد نشأ عن هذا التجمع امتزاج اللهجات واستقرار أسلسها نطقاً

وأسهلها مأخذاً وأخفها على الألسنة والأسماع. ونجم عن ذلك مايشبه اللغة المشتركة التى حوت كثيراً من خصائص اللهجات مما اتخذ منه العلماء فيما بعد معايير اتسمت بالمرونة فى ضبط الكلمات والعبارات ضبطاً نحوياً وصرفياً وفى تحديد معانيها لغوياً.

ونجد فى إطار هذه المرونة مرونة أخرى تختلف درجاتها فى الشيوع والكثرة والقلة، ولكنها جميعاً مما ارتضاه العرب أو فريق منهم، أو مما ورد على لسان أحدهم. ولقد كان للعلماء الذين دونوا اللغة وقعدوا لها القواعد فى هذه الناحية، مواقف تشعبت فيها آراؤهم واختلف موازينهم وتباينت طرائقهم.

وإن الخصائص التى نراها فى هذه المرحلة هى المرونة والتنوع فى الكلمات والعبارات لفظاً ومعنى، ولكنها تلتقى جميعاً عند غاية واحدة هى التى تتحكم فى كل ذلك، وهى المعنى والوصول إليه، فالعربى يقصد إلى المعنى أولا، ولا يضيره أن يختلف النطق أو تتنوع الوسائل أو تتشعب الطرائق فى الضبط والتعبير.

* * *

(المرحلة الثانية) بعد الإسلام ونزول القرآن الكريم:

وفى هذه المرحلة نجد استقرار الأوضاع اللغوية وإقرار الصافى من لهجات العرب، فقد نزل القرآن الكريم مسايراً لما شاع فى هذه اللهجات من مظاهر، وذلك تيسيراً على الناطقين حتى تجد كل قبيلة ما يطاوع لسانها. وفى الحديث الشريف (أن القرآن أنزل على سبعة أحرف) والمراد بالأحرف أوجه مختلفة من الأداء تساير ما درج عليه العرب، وتجتلى فيها خصائص اللغة العربية ولهجات العرب وأساليبهم فى النطق وفى طرائق التعبير، وهى التى نجدها فى وجوه القراءات التى سجلتها الروايات الصحيحة المتواترة عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهى مطابقة لقواعد اللغة العربية، فإن هناك شروطا ثلاثة يجب أن تتحقق فى القراءات القرآنية وهى:

١ — أن توافق اللغة العربية ولو من وجه.

٢ — وأن توافق رسم أحد المصاحف العثمانية.

٣ — وأن يصح سندها.

فالقراءات إذن سجل للغة العربية الصحيحة التى يمكن أن نحتذيها. وهنا يبرز سؤال وهو: هل لنا أن نقيس على وجوه القراءات القرآنية فى أى وجه من شيوعها؟ وسنرى الرأى فى هذا حينما ننظر فيما وصل إليه علماء اللغة من أصول القياس وقواعده حينما سجلوا اللغة وقواعدها ومفرداتها وطرائق الاشتقاق

وتفرع الكلمة إلى صيغ مختلفة . وحسبنا هنا أن نقول : إن قراءات القرآن الكريم هي صورة صادقة من لهجات العرب ومن مظاهر المرونة التي نستطيع أن نتخذ منها أساساً للتيسير التطبيقي في اللغة ، وسنداً لما ننشد من سعة في الذخر اللغوي ومرونة في التعبير .

وهناك حقيقة ثابتة ولها دلالتها في استعداد اللغة العربية لسكل جديد يوافق ما وصل إليه العلماء من آراء ، وهي أن الإسلام قد امتدت رقعته ، وشملت أقطاراً واسعة ، وأن العرب بعد الإسلام قد خرجوا من جزيرتهم إلى آفاق فسيحة واختلطوا بشعوب لها طرائقها في التفكير وفي مظاهر الحياة ، ومع ذلك كله لم تقف اللغة جامدة أمام هذا الجديد، بل سايرت الحياة مسايرة طبيعية ، واتسعت للمعاني الجديدة الشرعية والفقهية وللاصطلاحات اللغوية والنحوية وغيرها ، ونظرة عابرة في اللغة بعد الإسلام توضح هذا .

* * *

(المرحلة الثالثة) وهي مرحلة التعليل والقياس والاستنباط والتسجيل :

وقد بدأت هذه المرحلة حين اهتم الباحثون بدراسة القرآن وتعرف أساليبه والعناية بضبط كلماته وعباراته وتفسيرها . وقد دعاهم هذا إلى أن يتتبعوا كلام العرب في شعرهم ونثرهم وأن يتبينوا خصائصه وما يمكن أن تخضع له من قواعد وأصول صرفية ونحوية ولغوية .

وحين نظروا في هذا التراث اللغوي وجدوا أنه يختلف في خصائصه كثرة وقلة : فمنه المطرد والغالب والكثير والقليل والأقل، والنادر والشاذ. وقد وقفوا أمام كل هذا يقلبون وجوه الرأي، وكانوا في ذلك طوائف، فمنهم:

١ — البصريون الذين يتشددون في القياس ولا يجيزون قاعدة إلا إذا توافرت الشواهد التي تدعمها ، وكانوا لهذا يؤولون الشواهد التي تحيد عما اطرد أو كثر ، أو يخطئونها .

٢ — ومنهم الكوفيون الذين كانوا يكتفون بالشاهد الواحد فيستنبطون منه القاعدة ، ويجيزون اتباعها والقياس عليها . وكان بعض رجال هاتين الطبقتين البصرية والكوفية يؤيدون رجال الطبقة الأخرى في آرائهم في كثير من المسائل .

وقد استمرت هذه الطبقات تستكمل القواعد النحوية والصرفية واللغوية، ويضيف اللاحق إلى ما جاء به السابق، حتى أتمت الطبقتان مباحث علمي النحو والصرف ، وكان ذلك في نهاية القرن الثالث الهجري ، والذين

جاءوا بعد ذلك لم يضيفوا إلى هذا التراث جديدا فى أصوله الأساسية .

وفى خلال تدرج هذه الطبقات البصرية والكوفية ظهر المذهب البغدادى حين أنشئت بغداد فى صدر الدولة العباسية ، وأصبحت مقرا لخلفائها ، وعكف رجال هذا المذهب على البحث فى اللغة وقواعدها ، وعلى النظر فى آراء البصريين والكوفيين وترجيح بعضها على الآخر ، وكانت لهم فى ذلك آراء كونوا منها مذهبا أخذ مكانه بين غيره من المذاهب.

وفى خلال ذلك أيضا نشأ مذهب رابع فى ذلك القطر العربى الجديد فى الأندلس وإلى جانبه المغرب ، وكان لعلماء هذين القطرين كذلك آراء فى اللغة وقواعدها لها وزنها والاعتداد بها .

وبهذا كان التراث اللغوى الذى خلفه علماء هذه المذاهب اللغوية تراثا حافلا بأنواع كثيرة من الآراء التى تنطق بالمرونة وتثبت دعائمها ، وقد سجل الباحثون فيه كل صغيرة وكبيرة ، ولم يتركوا رأيا إلا سردوه مفصلا تفصيلا دقيقا وذكروا منه ما اتفق فيه العلماء وما اختلفوا فيه وما انفرد به أحدهم وما يتراوح بين القبول والرفض أو بين الإجازة والمنع .

والكتب التى بحثت فى اللغة وقواعدها لا حصر لها ، ومنها ما أتت عليه أحداث الزمن ومسته أيدى الضياع ومنها ما لا يزال فى زوايا المكتبات فى أنحاء العالم ، ومنها ما تنبه الباحثون والعلماء فى نهضتنا الحاضرة إلى قيمته ومكانة مؤلفيه فشرعوا فى إعداد العدة لتحقيقه ونشره ، وسيكون لهذه الكتب شأن فى التحقيق والتمحيص ، وربما كان لها أثر فى التغيير والتعديل .

والذى أريد أن أبرزه فى ميدان البحث هو أن هذه الكثرة من آراء علماء اللغة هى سند قوى لما ننشد من مرونة تساعد على التوسع والتجديد ، ولما نتطلع إليه من تيسير يعين على فك الأغلال عن كثير من الكلمات والعبارات ، وعلى رد الاعتبار لطائفة من مفردات اللغة تعيش على حافة الحياة اللغوية أو بمنأى عنها وهى تلتمس القبول وترتقب أن يطلق سراحها ويرخص لها بالدخول فى الإطار اللغوى ، لكى تأخذ طريقها فى خدمة الفكر والثقافة ، وتكون دليلا على مرونة لغتنا العربية التى أثبتت على توالى الأحقاب وتباين الناطقين بها ، أنها وسعت صدرها للجديد الذى يوافق ذوقها وتعززه الأشباه والنظائر من كلام العرب ، وتسانده خصائص اللغة وآراء علمائها ولهجات قبائلها ؟

(البحث بقيــة)

عبد الحميد حسن

جماعة إخوان الصفا

للأستاذ محمد غفرانى الخراسانى

أثرهم فى تطوير القصة على لسان الحيوان

تمهيد :

أولا : قبل أن نتحدث عن الدور الذى لعبه إخوان الصفا فى تطوير القصة على لسان الحيوان فى اللغة العربية وإخراجها من المضامين الأخلاقية والاجتماعية التى تتمثل فى حكايات كتاب « كليلة ودمنه » إلى مضامين فلسفية فى كتابهم « رسالة الحيوان » نقف برهة لنلقى نظرة عابرة على تاريخ نشأة هذه الجماعة والأهداف التى كانت تدعو إليها من طريق نشر رسائلها فى البيئة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى تلك الرسائل التى أحدثت دويا هائلا فى توجيه التيار الفكرى الإسلامى مدة هذه الحقبة من التاريخ .

١ — أصل اسم « إخوان الصفا » وهل اقتبس من « كليلة ودمنه » :

وقد وردت لفظة إخوان الصفا فى اللغة العربية من قديم فى شعرها ونثرها ، فن العصر الجاهلى ورد شعرا قول أوس بن حجر يذم طفيل بن مالك الملقب بملاعب الأسنة :

لعمرك ما آسى طفيل بنفسه
بنى عامر إذ ثابت الخيل تدعى
وودع إخوان الصفا بقرزل
يمر كمريخ الوليد المفزع

ومن ذلك أيضا قول أبى حناك البراء بن ربعى الفقعسى :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا
أرجى الحياة أم من الموت أجزع
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم
بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم
وما الكف إلا إصبع ثم إصبع

وقد روى أبو حيان فى كتابه « الأدب والإنشاء فى الصداقة والصديق » البيت الأخير وجعله ثالثا لبيتين آخرين لم يذكرهما أبو تمام ولم يذكر أبو حيان كذلك اسم الشاعر فقال : وقال شاعر :

لعمرك إنى بالخليل الذى له
على دلال واجب لمفجع

وإنى بالمولى الذى ليس نافعى
ولا ضائرى فقدانه لممتع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم
وما الكف إلا إصبع ثم إصبع

وجاءت كلمة إخوان الصفا أيضا فى نصوص غير جاهلية شعرا ونثرا فن الشعر ما أنشده الزيدى :

إلا أن إخوان الصفاء قليل
فهل لى إلى ذاك القليل سبيل
قس الناس تعرف غثهم من سمينهم
فكل عليه شاهد ودليل

وورد نثرا قول عبد الله بن المقفع فى باب الحمامة المطوقة من كتاب كليلة ودمنة : « قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف حدثنى أن رأيت إخوان الصفا كيف يبتدئ تواصلهم ويستمتع بعضهم بعضا ، قال الفيلسوف : إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئا فالإخوان هم الأعوان على الخير كله والمواسون عند ما ينوب من المكروه » ومن هنا اختلف الباحثون فى صلة هذه التسمية بـ « كليلة ودمنه » لابن المقفع فذهب فريق ومنهم المستشرق الانجليزى « جولد زيهر » إلى أن هذا الاسم قد اقتبس مما جاء فى قصة الحمامة المطوقة .

وفريق آخر ومنهم الباحث العربى أديب عباسى ينفى أن يكون ورود هذه الكلمة فى قصة الحمامة المطوقة سببا فى تسمية جماعة إخوان الصفا فإن إخوان الصفا جرت عادتهم على أن يأتوا بالمثل لكل فكرة يعالجونها ويعرضون لها بالبحث فى رسائلهم ويفسر هذا سر اهتمامهم بقصة الحمامة المطوقة التى سردوها فى الرسالة الثامنة من القسم الثانى من رسائلهم ، وإنى أؤيد هذا الفهم إذ أن التركيب (إخوان الصفا) قديم وقد سبق الشعراء الجاهليون ابن المقفع إلى استعمال التركيب (إخوان الصفا) كما أسلفنا وكل ما هنالك أن جماعة إخوان الصفا حينما نقلوا قصة الحمامة المطوقة فى رسائلهم وتصرفوا فى مغزاها استأنسوا بهذا التعبير الذى ورد فى هذه القصة فاتخذوه رمزا للاتحاد والتعاون والاتفاق .

تلك المفاهيم التى كانت تربط بعضهم ببعض برباط وثيق من المحبة والإخاء وتحوطهم بسياج متين من السرية والكتمان وإذا قلنا إن تركيب إخوان الصفا فى قصة الحمامة المطوقة هو الذى أوحى لهم باختياره اسما لجماعتهم فعلينا إذن أن نلتمس لكل تركيب يرادف هذا التركيب فى المعنى أصلا اقتبست منه كلمات إخوان الصدق وإخوان الوفاء وإخوان الحفاظ وكلها وردت فى اللغة العربية نثرا وشعرا غير أنه لم يقل أحد بذلك ومهما كان من أمر فإن ما ذكرته فى هذا

المجال ما هو إلا مجرد فروض علمية على دراستي لرسائل إخوان الصفا وخلاصة ذلك كله أن التركيب (إخوان الصفا) معروف فى اللغة العربية من العصر الجاهلي ولكن اتخاذ هذا التركيب اسما لجماعة معينة لها أهداف خاصة هو الجديد فى الأمر وهذا لا يعني أنه غير مألوف فى التعبير اللغوى ولا أنه مقتبس من مصدر معين مثل كليلة ودمنه .

٢ — سر تسمية إخوان الصفا :

لفظ الصفا فى اللغة العربية يدل على التصافى والمودة والمحبة وجاء فى لسان العرب الصفو والصفاء بالمد نقيض الكدر وصفوة كل شيء خالصه من صفوة المال وصفوة الإخاء والصفوة بالكسر خيار الشيء وخلاصته وما صفا منه ، وعلى ضوء التخريج اللغوى يكون إخوان الصفا هم الأصدقاء الذين تجمعهم المودة والإخاء ويقول المستشرق الانجليزى « جولد زيهر » : (إن أخا الصفا حسب الاصطلاح العربي تعنى الذى صفت نفسه وخلصت سريرته كقولهم « يا أخا المروءة وهو رأى محتمل وإن كان ليس قاطعا ويقول المستشرق الفرنسى « دى فوها » لهذه التسمية صلة بكلمة « فيلسوف » التى ترد فى اصطلاح الفيثاغوريين فكلمه « أخ » تقابل الشطر الأول من كلمة « فيلسوف » وهو « فيلو » ، وكلمة « صفا » تقابل الشطر الثانى من الكلمة وهو « سوفيا » ، وعلى ذلك يكون معنى الاسم (محبو الحكمة) وهو رأى يقوم على الحدس والخيال ويقول الباحث العربي أديب عباسي معلقا على رأى المستشرق دى فو : « إن هناك رأيا آخر لإخوان الصفا أنفسهم فى أصل التسمية فقد جاء فى الجزء الرابع من رسائلهم ما يأتى :

« وإنما سمينا رسالتنا هذه رسالة السحر ليستدل إخواننا على الأسرار الخفية وليكونوا إذا بلغوا معالى العلوم ذوى غنى عن الحاجة إلى من سواهم فى جميع ما يحتاجون إليه من أمر معيشة الدنيا فإذا وصلوا إلى هذه المرتبة صح لنا أن نسميهم بإخوان الصفا » . ويقول أديب عباسي « فإخوان الصفا كما يعرفون أنفسهم فى رسائلهم هم جماعة حذقوا علوم الدين والدنيا معا واستغنوا بها عن الحاجة إلى من سواهم ، وهذا الرأى قد يكون أقرب إلى الحقيقة وتؤيده نصوص كثيرة وردت فى رسائل إخوان الصفا فنها قولهم « ينبغى أن نبين كيف يكون تواصل إخوان الصفا وكيف تكون معاونة بعضهم بعضا فى طلب معيشة الدنيا ومنها أيضا قولهم فهكذا ينبغى أن يكون تعاون إخوان الصفا فى طلب صلاح الدين والدنيا وذلك أن معاونة الأخ ذى المال للأخ ذى العلم

بماله ومعاونة الأخ ذى العلم للأخ ذى المال بعلمه فى صلاح الدين والدنيا جميعا كمثل رجلين أصطحبا فى الطريق فى مفازة أحدهما بصير ضعيف البدن معه زاد ثقيل لا يطيق حمله والآخر أعمى قوى البدن وليس معه زاد فأخذ البصير بيد الأعمى يقوده خلفه وأخذ الأعمى ثقل البصير لحمله على كتفه وتواسيا بذلك الزاد وقطعا الطريق ونجوا ومحور هذا الرأى أن الصفا من صفاء السريرة ونفوذها إلى دقائق العلوم والحكم والآداب ومختلف ألوان الثقافات ونستنتج من هذه النصوص أيضا أن مذهب جماعة إخوان الصفا كما يدل عليه اسمهم بنى على المواساة والأخوة وتعاون بعضهم مع بعض فى أمر المعاش والمعاد .

٣ — « نشأة إخوان الصفا »

أجمع المؤرخون على أن جماعة إخوان الصفا قد نشأت فى أواخر القرن الرابع الهجرى فى مدينة البصرة ويقول أديب عباسى « الغريب أن ابن تيمية دون باقى المؤرخين الذين وقفنا عليهم يذكر أن رسائل إخوان الصفا صنفت قريبا من بناء القاهرة فإذا صح هذا الزعم فإنه يرجح أن يكون مركز هذه الجماعة القاهرة وتكون جماعة البصرة فرعا منها » .

ويبدو أن الباحث العربى قد التبس عليه لفظ البناء فتوهم أنه بمعنى المكان فى حين أن ابن تيمية يقصد من قوله « قريبا من بناء القاهرة » قرب الزمان لا قرب المكان إذ من المعروف أن مدينة القاهرة قد بدأ فى بنائها جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى فى عام ٣٥٨ هـ « فتكون جماعة إخوان الصفا قد قامت قبل ذلك أو بعد ذلك بقليل » .

٤ — زعماء إخوان الصفا .

اختلف المؤرخون فى أسماء مؤسسى هذه الجماعة . وقد ذكر أبو حيان التوحيدى فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » أسماء خمسة منهم وذلك فى معرض الحديث عن سيرة زيد بن رفاعة وهو أحد زعماء هذه الجماعة فيقول : « وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستى ويعرف بالمقدسى وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى وأبو أحمد المهرجانى والعوفى وغيرهم فصحبهم وخدمهم » .

وعلى الرغم من ذلك فإن الغموض لا يزال يكتنف شخصية زعماء « إخوان الصفا » بحيث كان من الصعب الوصول إلى معرفة أسمائهم والاهتداء إلى معرفتهم .

٥ — طبقات جماعة إخوان الصفا :

تتكون جماعة إخوان الصفا من أربع طبقات وهى فى ذلك ذات صبغة صوفية واضحة

الطبقة الأولى :

وهى تتألف من شبان تتراوح أعمارهم ما بين خمسة عشرة سنة وثلاثين سنة تنشأ نفوسهم على الفطرة وهم الذين يدعون فى الرسائل بالإخوان الأبرار حيث إنهم فى مرحلة النشأة والتسليم ويجب عليهم الانقياد لأساتذتهم والانصياع لأوامرهم دون مناقشة أو جدل .

الطبقة الثانية :

وهى تتألف من رجال أعمارهم بين الثلاثين والأربعين يتلقون الحكمة ومهمتهم رعاية الإخوان ومساعدتهم وهم الذين يطلق عليهم فى الرسائل بالإخوان الأخيار الفضلاء .

الطبقة الثالثة :

وهى تتألف من أفراد يتراوح سنهم بين الأربعين والخمسين ويسمح لهم بمعرفة النواميس الإلهية وشرائح العالم المقدسة معرفة تطابق درجتهم وأنهم أصحاب الأمر والنهى وهم الذين يسمون فى الرسائل بالإخوان الفضلاء الكرام وكان لهم الدور الرئيسى فى تأليف الرسائل والعمل على نشرها .

الطبقة الرابعة :

وهم الذين تزيد أعمارهم على الخمسين وهى أعلى مراتب السلوك التى يمكن الوصول إليها إذ يعتقد إخوان الصفا أن الرجل إذا نيف على الخمسين من عمره ينخرط فى سلك الموجودات المجردة ، ويرتقى إلى مقام العليين وعالم الشهود فيرى حقائق الأشياء على ما هى عليه كالملائكة المقربين وفى هذا المقام يكون الإنسان فى رأى جماعة إخوان الصفا قد بلغ فوق الطبيعة والشريعة والناموس .

٦ — نظام جماعة إخوان الصفا فى مجالسهم :

كان إخوان الصفا يعقدون اجتماعاتهم سرا لا يعرف مكان انعقادها ولا زمانه إلا أعضاء الجماعة فقط ويقولون فى ذلك «ينبغى لإخواننا أيدهم الله حيث كانوا من البلاد أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم يتذاكرون فيه علومهم ويتحاورون فيه أسرارهم وينبغى أن تكون مذاكرتهم أكثرها فى علم النفس والحس والمحسوس والعقل والمعقول والنظر والبحث فى الكتب الإلهية ويستفاد من كلام إخوان الصفا أنهم كانوا لا يسمحون للغير بالدخول فى محافلهم إلا بعد التأكد من أحواله وسيرته وذلك عن طريق الاختبار ويقولون فى ذلك ما نصه :

« ينبغى لإخواننا أيدهم الله حيث كانوا فى البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقا

مجدداً مستأنفاً أن يختبر أحواله ويتعرف أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أم لا ؛ لأن الناس أقوام طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة جائرة .

٧ — أهداف إخوان الصفا :

اختلفت الآراء وتضاربت الأقوال حول مذهب إخوان الصفا والهدف الذي كانوا يرنون إليه من دعوتهم بين قادح ومادح وليس هنا مجال استعراض تلك الآراء ومناقشتها وإنما نشير إلى بعضها لنعطي القارئ صورة إجمالية عن جماعة إخوان الصفا وأهدافهم والغاية التي أنشأوا جماعتهم من أجلها .

وقد كشف أبو حيان التوحيدي عن غاية إخوان الصفا بقوله : « كانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته . وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علمياً وعملياً وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء وكتموا أسماءهم وبثوها في الوراقين وذهب قوم إلى أن إخوان الصفا ينحدرون من نسل علي بن أبي طالب عليه السلام وكانوا يدعون إلى مذهب التشيع وقال آخرون إنهم من متكلمي المعتزلة في العصر الأول إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تزال مثاراً للبحث والنقد لدى الباحثين ولكل دليل يؤيد وجهة نظره على ضوء ما استنبطه من آراء إخوان الصفا في رسائلهم ويقول المستشرق بارتولد في وصف هذه الجماعة : إن إخوان الصفا جماعة من المفكرين الأحرار ظهروا في البصرة في القرن الرابع الهجري وأن اتحادهم يشبه بالجمعية الماسونية .

وقد قوبلت دعوة إخوان الصفا بهجوم عنيف من قبل مخالفيهم من المفكرين المسلمين من أمثال أبي سليمان محمد بن بهرام المنطقي السجستاني من معاصريهم الذي يصفهم بقوله : « تعبوا وما أغنوا ونصبوا وما أجدوا وحاموا وما وردوا وغنوا وما أطربوا ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا ... ومن أمثال الإمام الغزالي الذي جاء بعدهم وطعن في مذهبهم ، وغيره من الفلاسفة والعلماء ؟

محمد غفراني خراساني
المدرس بجامعتي الأزهر والإسكندرية

من بحوث مجمع البحوث

ملكية الأفراد للأرض ومنافعها في الإسلام

للأستاذ محمد السايس

مما لا يمترى فيه أحد أن الأرض كانت ملكيتها موزعة بين الأفراد ، في جميع العصور ، مع اختلاف الدول والديانات ، يتوارثونها ويتبادلون الملك فيها ، حسبما تقضى بذلك شرائعهم ونظمهم التي يسيرون عليها .

ففي سورة الكهف : واضرب لهم مثلا رجلين : جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا » .

وفي سورة نون : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين » .

وفي سورة الأحزاب « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم » .

وفي سورة سبأ : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال » .

وفي سورة الشعراء في شأن عاد : « واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » .

وفي شأن ثمود : « : أتتركون فيما ههنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم » .

وفي سورة الدخان في شأن فرعون وقومه : « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين .

فلما كان الفتح الإسلامي ودخل الناس في دين الله أفواجا لأنهم وجدوا شريعة سمحة مصدقة لما بين يديها من الشرائع السماوية بانية لا هادمة فأقرت نظام الملكية وضمنتها واحترمتها بما شرع من الأحكام التي جاءت لحفظ الأموال وحماية الملكية وأصبحت الأرض بعد الإسلام بخصلة من خصال .

إما أرض أسلم عليها أهلها فهي مبقاة على ملكهم الأول لا ينازعهم فيها أحد وإما أرض فتحت صلحا فهي على ملك أهلها وعليهم دفع ما تقضى به شروط الصلح في رقابهم وأرضهم .

وإما أرض فتحت عنوة ومن على أهلها بها في أرض مكة فهي باقية على ملكهم .

وإما أرض فتحت عنوة وقسمت بين الفاتحين فهي ملك لهم خاصة بهم وبذراريهم من بعدهم كأرض خيبر .

وإما أرض فتحت عنوة ولم يقسمها الإمام بين الفاتحين بل استبقاها ملكا للدولة أو لبيت المال كما فعل عمر بسواد العراق فى رأى أئمة من الفقهاء .

وإما أرض فتحت عنوة وتركت بأيدى أهلها ملكا لهم كما كانت من قبل على أن يدفعوا خراجها لبيت المال كسواد العراق على رأى الحنفية .

وإما أرض بقيت بأيدى ملا كها من المشركين الذين هم فى ديارهم لم يظهر المسلمون عليهم فهى على ما تقضى به نظمهم وقوانين دولهم التى تحكمهم والمتتبع للأحاديث والآثار وما دونه الفقهاء على اختلاف مذاهبهم تسعفه النصوص الكثيرة التى تشهد بأن الأرض ومنافعها مملوكة للأفراد ويخرج منها باجماع عملى وقولى لم يشذ عنه أحد على مر العصور واختلاف الأمم والديانات وسنجتزىء ببعض ذلك حتى لا يطول بنا المقام ونخرج عن القصد .

الأحاديث والآثار الواردة فى هذا الصدد :

نكتفى هنا بالنقل من كتاب منتقى الأخبار وشرحه نيل الأوطار لأنه مبوب على أبواب الفقه فيسهل الرجوع اليه .

جاء فى كتاب المساقاة والمزارعة ص ٢٣١ جزء خامس من نيل الأوطار : وعن طاوس أن معاذ بن جبل أكرى الأرض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان على الثلث والربع فهو يعمل به إلى يومك هذا رواه بن ماجه قال البخارى وقال قيس بن مسلم عن أبى جعفر قال ما بالمدينة أهل بيت هجرة الا يزرعون على الثلث والربع وزارع على عليه السلام وسعد بن مالك وابن مسعود وعمر بن عبد العزيز والقاسم وعروة وآل أبى بكر وآل عمر قال وعامل عمر الناس على أنه إن جاء عمر بالبذر من عنده فله الشطر وإن جاءوا بالبذر فلهم كذا ه قال الشوكانى وقد ساق البخارى فى صحيحه عن السلف غير هذه الآثار ولعله أراد بذكرها الإشارة إلى أن الصحابة لم ينقل عنهم الخلاف فى الجواز خصوصا أهل المدينة ثم قال واجابوا عن الأحاديث القاضية بالنهى عن المزارعة بأنها محمولة على ما إذا اشترط صاحب الأرض ناحية منها معينه ـ وهو ما يدل عليه الحديث الآتى : ـ

ص ٢٣٣ منه عن رافع بن خديج قال : (كنا أكثر الأنصار حقلا فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما أخرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا عن ذلك فأما الورق فلم ينهنا أخرجاه) وفى لفظ كنا أكثر أهل الأرض مزدرعا كنا نكرى الأرض بالناحية منها تسمى لسيد الأرض قال فربما يصاب ذلك وتسلم الأرض وربما تصاب الأرض ويسلم ذلك فنهينا فأما الذهب والورق

فلم يكن يومئذ » رواه البخارى . وفى لفظ قال إنما كان الناس يؤاجرون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما على الماذيانات وإقبال الجداول وأشياء من الزرع فيهلك هذا ويسلم هذا ويهلك هذا ولم يكن للناس كرى إلا هذا فلذلك زجر عنه فأما شيء معلوم مضمون فلا بأس - وفى نيل الأوطار (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المحاقلة والمزابنة وقال إنما يزرع ثلاثة : رجل له أرض ورجل منح أرضا ورجل أكترى أرضا بذهب أوفضة) أخرجه النسائى وأبو داود باسناد صحيح عن أبى رافع فى ص ٢٣٦ منه عن سعد بن أبى وقاص بأن أصحاب المزارع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يكرون مزارعهم بما يكون على السواقى وما سعد بالماء مما حول النبت فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختصموا فى بعض ذلك فنهاهم أن يكروا بذلك وقال اكروا بالذهب والفضة رواه أحمد وأبو داود والنسائى وما ورد من النهى المطلق عن المخابرة والمزارعة يحمل على ما فيه مفسدة كما بينته هذه الأحاديث أو يحمل على اجتنابها ندبا واستحبابا فقد جاء ما يدل على ذلك فروى عمر بن دينار قال قلت لو تركت المخابرة فانهم يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عنها فقال أن أعلمهم يعنى ابن عباس أخبرنى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم ينه عنها وقال لأن يمنح أحدكم أخاه خير له من أن يأخذ عليها خراجا معلوما رواه أحمد والبخارى وابن ماجه وأبو داود وعن بن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحرم المزارعة ولكن أمر بأن يرفق بعضهم ببعض رواه الترمذى وصححه - وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كانت له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه فان أبى فليمسك أرضه) أخرجاه وبالإجماع تجوز الإجارة ولا تجب الإعارة فعلم أنه أراد الندب .

ومن باب الإجارة ص ٢٤٨ من الجزء الخامس من نيل الأوطار :

وعن أنس لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء فكانت الأنصار أهل الأرض والعقار فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم نصف ثمار أموالهم كل عام ويكفوهم العمل والمؤنة - أخرجاه - قال البخارى وقال ابن عمر أعطى النبى صلى الله عليه وسلم خيبر بالشطر فكان ذلك على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وصدر من خلافة عمر ولم يذكر أن أبا بكر وعمر جددا الإجارة بعد ما قبض النبى صلى الله عليه وسلم .

قال الشوكانى وحديث أنس فيه دليل على جواز إجارة الأرض (التى هى مملوكة لأفراد

لأنصار كما هو نص الحديث) بنصف الثمرة الخارجة منها فى كل عام .

ومن كتاب إحياء الموات ص ٢٥٥ وما بعدها من نيل الأوطار جزء خامس :

عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أحيا أرضا ميتة فهى له) رواه أحمد والترمذى وصححه وفى لفظ : (أحاط حائطا على أرض فهى له) رواه أحمد وأبو داود ولأحمد مثله من رواية سمرة وعن سعيد بن زيد قال قال:رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحيا أرضا ميتة فهى له وليس لعرق ظالم حق) رواه أحمد وأبو داود والترمذى - قال العلماء - (والعرق الظالم من غرس ، أو زرع أو بنى أو حفر فى أرض غيره بغير حق ولا شبهة) وعن أسمر بن مضرس قال أتيت النبي فبايعته فقال: (من سبق إلى مالم يسبق اليه مسلم فهوله) قال : فخرج الناس يتعادون يتخاطون رواه أبو داود قال الشوكانى الأرض الميتة هى التى لم تعمر شبهت عمارتها بالحياة وتعطيلها بالموت والإحياء أن يعمد شخص إلى أرض لم يتقدم ملك عليها لأحـــد فيحيها بالسقى أو الزرع أو الغرس ، أو البناء فتصير بذلك ملكه كما يدل عليه أحاديث الباب وبه قال الجمهور وظاهر الأحاديث أنه يجوز الإحياء سواء كان بإذن الإمام أو بغير إذنه وقال أبو حنيفة لا بد من إذن الإمام وعن مالك يحتاج إلى إذن الإمام فيما قرب مما لأهل القريه إليه حاجة من مرعى ونحوه وبمثله قالت الهادوية .

ومن باب الناس شركاء فى ثلاث وشرب الأرض العليا قبل السفلى إذا قل الماء أو اختلفوا فيه ص ٢٥٨ وما بعدها من نيل الأوطار . جزء خامس .

عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يمنع الماء والنار والكلأ) رواه ابن ماجة وعن أبى خراش عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلمون شركاء فى ثلاثة الماء والكلأ والنار) رواه أحمد وأبو داود ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس وزاد فيه وثمنه حرام .

وما سقناه من الأحاديث والآثار يدل أبلغ الدلالة على أن الأرض ومنافعها مملوكة للأفراد ينتفعون بها بكل وجود الانتفاع يزرعونها أو يزارعون أو يعيرون حتى كان لهم أن يعطلوها وإن كان ذلك مكروها لما ورد من النهى عن إضاعة المال كان ذلك فى عصر النبوة ووقع عليه إجماع الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار فى جميع العصور ؟

محمد السايس

حق الفقراء فى أموال الأغنياء

للأستاذ الدكتور ابراهيم اللبان

هذا البحث تقدم به سيادته لمؤتمر المجمع فى دورته الأولى ، وضح فيه موقف الإسلام من مشكلة الفقر والطريق الذى سلكه فى علاجها ، ومدى ما كان لذلك من تأثير على تفكير الأمم الأخرى بالنسبة لعلاج هذه المشكلة فى العصور التى تلت ظهور الإسلام إلى عصرنا الحاضر .

استهله ببيان نشأة مشكلة الفقر كنتيجة طبيعية لوجود طبقتين فى المجتمع الإنسانى ، إحداهما تحيا فى بحبوحة النعيم ، والأخرى يكاد يقضى عليها شظف العيش ، الأمر الذى دفع الناس منذ أقدم العصور إلى التفكير فى حل لهذه المشكلة كانت بعض صوره قاسية أما أغلبها فكان يحمل طابعا إنسانيا قوامه شعور الرحمة الذى لم يخل ذمة الغنى من التطوع لانتشال الفقير من هوة البؤس والفاقة ، إلى أن جاء الإسلام فطور هذا الحل بحيث جعل له من المقومات والأسس ما يكفل له النجاح فى علاج هذه المشكلة .

ومما ذكره فى توضيح ذلك قوله : إذا كانت كلمة التطور تعنى الانتقال من حال إلى حال ، فلكى نتصور تطوير الإسلام لعلاج مشكلة الفقر ، نبدأ من فكرة الإحسان التى استخدمتها الأديان السماوية كعلاج لهذه المشكلة عصورا طويلة قبل ظهور الإسلام فهى على سموها لم تستطع استئصال الفقر من جذوره بل لم تنهض بجموع المعوزين إلى مستوى الحياة الإنسانية الكريمة ، نظراً لأن فكرة الإحسان لم ترتفع فى عصر من عصورها إلى درجة الإلزام ، بل بقى الأمر فيها موكولا إلى شعور الأغنياء فى أداء ما يقضى به هذا الشعور حيال الفقراء. وهو شعور يعارضه الحب الطبيعى للمال والنفور من بذله ، مما كان سببا فى عجز الإحسان عن النهوض بحل مشكلة الفقر ، فلما جاء الإسلام وفرض الزكاة ، حقا ثابتاً لازم الأداء من أموال الأغنياء للفقراء اعتبر ذلك تطورا فى علاج مشكلة الفقر ، لوحظ فيه تلافى أسباب النقص التى قعدت بالإحسان عن حلها ، فقد غدت الزكاة فى المجتمع الإسلامى حقا مطالبا به لأصحابه ، وأصبحت الدولة مسئولة عن تحصيله وتوزيعه ، وأصبح هذا الحق محددا معلوما . آثاره فى علاج مشكلة الفقر ليست وقفا على المسلمين بل تتعداهم إلى من يستظلون براية الحكم الإسلامى من غير المسلمين .

ثم يبين أثر الزكاة فى تطور التشريع الاشتراكى فى الغرب ، فذكر أن الغربيين أدركوا عدم كفاية الإحسان فى حل مشكلة الفقر وبهرهم التشريع الإسلامى للزكاة فى مواردها ومصارفها ، فلجأوا إلى محاكاته ، بفرض ضريبة اجتماعية مقدرة على حسب المستويات تقوم الدولة على جبايتها وتوزيعها على المستحقين وتقوم هذه الضريبة على أساس الاعتراف بحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، وبمرور الزمن طورت فكرتها بظهور ضريبة الدخل بمعناها الواسع وقدرتها على مجابهة جرثومة الفقر ، فهذا التشريع الضريبى الذى ظهر فى بريطانيا وتجاوز حدودها حتى وصل إلى أمريكا والذى يبدو فى أساسه الاقتباس من تشريع الزكاة الإسلامى ، يمكننا القول بأن فرض الزكاة فى الإسلام لم يكن تشريعا خاصا وإنما كان تشريعا لتطوير الأوضاع الاجتماعية التى تتصل بالفقر فى محيط الإنسانية ، ظهر فى البيئة الإسلامية ثم لم يلبث أن تخطاها إلى العالم بأسره فأضاء نوره للمفكرين الطريق إلى الأوضاع الاشتراكية الحديثة ، وبذا يكون الإسلام قد أحدث ثورة اشتراكية كبرى تأسى بها كثير من أمم الأرض فى علاج مشكلة الفقر .

وتكلم عن ضريبة الدخل فى الإسلام . فذكر أن الزكاة لما كانت محدودة ترتبط بمقدار رأس المال قلة وكثرة والدولة لا تملك رفع مقاديرها حتى تظل كما كانت على كفايتها فى سد حاجات الفقراء المتطورة . كان لابد من التفكير فى مورد آخر يساند الزكاة فى مهمتها الاجتماعية . وخاصة بعد تدفق الأموال على كبريات المدن الإسلامية على أثر اتساع نطاق الفتح وظهور طبقة الأغنياء أصحاب الملايين فى الوقت الذى لم يخل فيه المجتمع الإسلامى من طبقة أخرى لا يغطى دخلها كل حاجاتها . وتوجهت أنظار كثير من مفكرى المسلمين إلى أموال الأغنياء للأخذ منها زيادة على الزكاة القدر الذى يساعد على دفع غائلة الجوع والحرمان عن الفقراء . بل رأى فريق منهم بزعامة أبى ذر الغفارى أن يؤخذ من هذا المال الزائد عن حاجة أصحابه لكى ينفق هذا القدر فى سد حاجات الفقراء والمعوزين . وصدع أبو ذر بالدعوة لهذه الفكرة فى خلافة عثمان بن عفان ، وبذل كل ما يملك من جهد فى سبيل نشرها ، فاعتبرت دعوته لها أول حركة اشتراكية إسلامية . ثم جاء من بعده ابن حزم ، فحدد فكرتها تحديداً وافياً بحيث جعلها صالحة لأن تكون تشريعاً منظماً قادراً على البقاء ، واعتبر ذلك منه تشريعا لضريبة الدخل فى الإسلام .

ثم عرض فى كلامه لشخصية ابن حزم ومنهجه فى البحث المتميز عن منهج الفقهاء .

الآخرين بفهمه للنصوص فى حدود الطاقات الإنسانية لأنه يرى أن هذه النصوص ما جاءت إلا لتنظيم الحياة الإنسانية ، وهو حين يقرأ النص لاستخلاص حكمه تكون عينه مفتوحة على ما تعج به البيئة الإنسانية من فقر وبؤس أو غنى ويسر وغير ذلك مما له ارتباط بهذا النص . وفى ضوء هذا المنهج كانت محاولته إيجاد حل إسلامى يقضى نهائياً على مشكلة الفقر فعمد إلى تحديد مظاهر هذه المشكلة وحصرها فى الجوع والعرى وفقد المأوى (ولكل عصر مستواه) . ثم استخلص من النصوص تشريعاً يجبى بمقتضاه من أموال الأغنياء فوق الزكاة ما يساعدها على اختفاء هذه المظاهر من حياة المجتمع . وجعل تنفيذ هذا من الواجبات التى تضطلع بها الدولة بحيث يصبح من مهمتها فى الإسلام :

١ — توفير الغذاء الكافى للفقير .

٢ — تحقيق المسكن الضرورى له .

٣ — ضمان حصوله على اللباس الذى يقيه برد الشتاء وحرارة الصيف . وقد أحاط هذا التشريع بكل ما يكفل له النجاح من إلقاء تبعة تنفيذه على الدولة ومن تحديد مورده المالى وأبواب إنفاقه . ثم تقدم به فى شجاعة لا تبالى بما كان متوارثا من أنه لا يجب فى مال الأغنياء حق سوى ما أوجبته الزكاة . وأيده بالأدلة التى تثبت صحته ، فهو قبل كل شىء فقيه ومحدث .

وإليك نصوص هذه الأدلة من الكتاب والسنة والآثار مع تعقيب السيد الباحث عليها ورأيه فى التجديد الذى أتى به ابن حزم وأثر هذا التجديد فى العصر الحاضر . ثم النتيجة التى انتهى إليها فى بحثه من أن الضريبة التى تلجأ إليها الدولة لمكافحة الفقر وتوفير المال اللازم للخدمات الاجتماعية ، تعتبر ضريبة إسلامية ، مكملة للزكاة فى سد حاجات الفقراء المتنوعة . وفرض هذه الضريبة وتحصيلها من صميم دعوة ابن حزم التجديدية .

الأدلة :

ويمكن أن تنقسم الأدلة التى استند إليها ابن حزم إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : الأدلة المستمدة من الكتاب والسنة .

والثانى : الآثار المروية عن كبار الصحابة والتابعين الذين يرون هذا الرأى .

الكتاب الكريم :

يقول ابن حزم مستدلا على صحة رأيه السابق الذكر : (برهان ذلك قول الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ») .

وقال تعالى : « وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل » .

فأوجب الله حق المساكين وابن السبيل وما ملكت اليمين مع ذى القربى .

وافترض الإحسان إلى الأبوين وذى القربى والمساكين والجار وما ملكت اليمين ـ والإحسان يقتضى كل ما ذكرناه . ومنعه إساءة بلا شك

وقال تعالى : « ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين » . فقرن تعالى طعام المسكين بوجوب الصلاة .

وينبغى أن نتنبه إلى أسلوب ابن حزم فى فهم الكتاب والسنة فهو لا يقبل الفهم الضيق ويصر على أن نفهم الكتاب والسنة فهما متحرراً غير مثقل بالقيود والشروط التى قد تضيق الأفق وتخنق روح الشريعة أو تحول دون تحقيق مقاصدها .

وبهذه الروح يتجه ابن حزم إلى الحديث يستخلص منه الأدلة التى تظاهر دلالة الكتاب الكريم .

السنة :

يروى ابن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من لا يرحم لا يرحم) ويعقب على هذا بقوله : (ومن كان على فضلة من المال ورأى أخاه جائعاً عريان ضائعاً فلم يغثه فما رحمه بلا شك) .

ويروى أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) ، ويقول معلقاً على هذا : (من تركه يجوع ويعرى ـ وهو قادر على إطعامه وكسوته ـ فقد أسلمه) .

ثم يروى مرة أخرى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) .

قال أبو سعيد الخدرى فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل .

ويعقب ابن حزم على هذا بقوله : (وهذا إجماع من الصحابة يخبر بذلك أبو سعيد) . ثم يردف معلقاً فيقول : (وبكل ما فى هذا الخبر نقول) .

ولا بد لنا هنا أن نذكر أنفسنا بحقيقة هامة لا بد منها لفهم روح ابن حزم لم يهمل الجو العام الذى تولده الأحاديث والآيات القرآنية ، بل ربما كان هذا الجو العام هو المؤثر الأول فى تفكيره والعامل الأساسى فيه . فالواقع أن مجموع الآيات والأحاديث إذا ضم بعضها إلى بعض تلتقى فى روح من يقبعها أن واجب المسلم أن يساهم بكل ما يستطيع فى تقديم ما لا بد منه لإنقاذ أخيه من حياة الفقر والعوز وتمكينه من الحياة الإنسانية الكريمة .

الآثار :

لهذا النوع من الأدلة قيمة خاصة بالنسبة لنظرية ابن حزم فهو يدل على أن ابن حزم

لم ينفرد برأيه أن فى حق الفقراء فى أموال الأغنياء يتجاوز حدود الزكاة وأنه (بعد استنفاد الزكاة) يشمل كل المال الضرورى لرد عادية الفقر عن المسلمين بل الواقع أن ابن حزم إنما بنى على أساس وضع فى عهد الصحابة والتابعين وأثره فى الأمر لا يعدو التفريع والتحديد والتدعيم.

ولن نورد هذه الآثار كلها وإنما نجتزئ منها بما له أثر بين تدعيم هذه النظرية وتوضيح معالمها.

وأول ما ينبغى أن نلاحظه أن بعض هذه الآثار يقرر المبدأ فى صورة مجملة فقد روى ابن حزم عن ابن عمر أنه قال: (فى مالك حق سوى الزكاة) ، ثم قال (وصح عن الشعبى ومجاهد وطاوس وغيرهم كلهم يقول فى المال حق سوى الزكاة) ثم أردف هذا بقوله: (ما نعلم عن أحد منهم خلاف هذا إلا عن الضحاك ابن مزاحم فإنه قال: (نسخت الزكاة كل حق فى المال) .

ثم أعرب ابن حزم عن رأيه فى الضحاك فقال: وما رواية الضحاك بحجة فكيف رأيه) .

ولا ينبغى أن يفوتنا أن نلاحظ أن بين هذه الأسماء صحابياً جليلا وهو ابن عمر وبقيتهم من التابعين.

وهذه الآراء كلها مجملة كما قلنا من قبل فهى تقرر المبدأ فى صورته العامة ولكن ابن حزم يورد بعدها رأياً مفصلا يحدد المقدار الواجب والغاية التى يستخدم فيها وصاحب الرأى هو على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد روى عنه ابن حزم أنه قال: (إن الله فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يكفى الفقراء فإن جاعوا أو عروا فبمنع الأغنياء حق على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه) .

المال المفروض إذن هو ما يكفى الفقراء لا الزكاة وحدها والذى يكفى الفقراء يتناول ما يسد حاجة الجوع والعرى ويوفر لهم الغذاء والكساء.

هذا هو الرأى الذى يقرره ابن حزم وابن حزم فى الواقع لم يقرر إلا ما قرره على بن أبى طالب ولم يزد على بن أبى طالب عما روى عن غيره إلا التفصيلات التى لم تظهر فى كلامهم ، أما المبدأ العام فمشترك بين الجميع.

قيمة هذا التجديد:

وتظهر قيمة هذا التجديد إذا فكرنا فى الهدف الذى ترمى إليه شريعة الزكاة وفى مدى ما تستطيع أن تحققه الزكاة من هذا الهدف.

ولعله من الواضح أن الزكاة شريعة اجتماعية يقصد بها القضاء على الفقر وشروره فى المجتمع الإسلامى.

ولكن هل تستطيع الزكاة وحدها فى كل الظروف والأحوال أن تقضى على الفقر . وهل فى طبيعتها ما يكفل ذلك . وإذا كانت تعجز فى بعض الظروف عن الوفاء بهذه المهمة فهل فى الشريعة الإسلامية وسيلة أخرى تساعد على ذلك وتتمم عمل الزكاة فى هذا الميدان ؟

والحقيقة الواضحة أن الزكاة وإن كانت تهدف إلى مكافحة الفقر فإن مقاديرها لم تقم على هذا الأساس مباشرة . فالزكاة الواجبة لا تحدد على أساس حصر الفقراء وتقدير احتياجاتهم ثم تحصيل ما يسد هذه الحاجات ولكنها وضعت على أساس آخر . فهى نسبة معينة من رأس المال تزيد إذا زاد رأس المال الذى تجب عليه الزكاة وتنقص إذا نقص دون اتجاه مباشر إلى توفير المقدار الدقيق الذى قد يحتاج إليه الفقراء ، ومن ثم كان من المتوقع أن تجد أحوال لا تفى فيها الزكاة بكل حاجات الفقراء . وإذا تذكرنا أن هدف الشريعة فى هذا الميدان هو محو الفقر والعوز من المجتمع كان من الطبيعى أن نتوقع أن الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تقف فيما تفرضه للفقراء عند حد الزكاة . فمعضلة الفقر تحتاج إلى مورد آخر متمم للزكاة ومعين لها على أداء مهمتها .

وواضح أن هذا المورد الذى يتخطى حدود الزكاة يجب أن يكون مرنا قابلا للزيادة والنقص حتى يستطيع أن يواجه جميع الظروف ويكفل للفقراء سد حاجاتهم الضرورية ولا يعجز عن الوفاء بها إذا ما زاد عدد الفقراء فى المجتمع . يجب فى الواقع أن تقدر هذه الضريبة الجديدة على أساس إحصاء الفقراء وتحديد احتياجاتهم وتقدير قيمتها المالية حتى تستطيع الضريبة الجديدة منضمة إلى حصيلة الزكاة أن تسد حاجات جميع الفقراء فى المجتمع كله .

وهذا فى الواقع هو أساس هذه الفكرة التى ظهرت فى عهد الصحابة والتابعين ثم تبناها بعد ذلك ابن حزم فالمقصود تأسيس ضريبة مرنة تنضم إلى الزكاة وتتعاون معها على تحقيق الهدف الإسلامى العظيم وهو محو الفقر من المجتمع .

مغزى هذه الفكرة فى العصر الحاضر .

يجب أن نلاحظ أن ابن حزم لم يزد على أن قرر أن الحاكم بل عليه أن يضرب ضريبة أخرى غير الزكاة تتعاون وإياها على محو الفقر . ولكن ابن حزم لم يبين لنا كيف تضرب هذه الضريبة فهل تضرب على رأس المال كالزكاة أم تضرب على نحو آخر .

والذى يبدو لنا أن المهم هو ضرب الضريبة لتحقيق الهدف أما طريقة فرضها على الأغنياء فأمر ثانوى وليس ثمة ما يمنع من ضربها على الأرباح ما دامت حصيلتها كافية لتحقيق الغرض . وطبيعى أن تتدرج صاعدة مع مقدار الربح .

وقد آن لنا هنا أن نكشف الستار عن طبيعة النتيجة التى انتهى إليها البحث . وهذه النتيجة هى أن الطريقة الحديثة التى تلجأ إلى ضريبة الدخل لمكافحة الفقر والقيام بالخدمات الاجتماعية المختلفة هى طريقة إسلامية . فإنها هى الطريقة التى نادى بها ابن حزم منذ عهد بعيد ومرة أخرى ضريبة الدخل التى تعرض لمكافحة الفقر والقيام بالخدمات الاجتماعية هى صميم دعوة ابن حزم ودعوته التجديدية .

تبقى بعد ذلك نقطة هامة تتصل بطريقة تقدير هذه الضريبة ليست ضريبة مستقلة ولكنها ضريبة تكميلية تسد النقص الذى يتخلف عن ضريبة الزكاة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن نتساءل كيف تقدر ؟ والذى يبدو أن الوضع الإسلامى والمعقول هو :

١ — أن نبدأ فنقدر تقديرا إجماعيا عدد الفقراء وحاجاتهم .

٢ — ثم نقدر قيمة الزكاة الواجبة على المسلمين فى المجتمع ونوازن بينها وبين قيمة احتياجيات الطبقة الفقيرة .

٣ — تحدد ضريبة الدخل الإسلامية على أساس الفرق بين قيمة الزكاة وقيمة احتياجات الطبقة الفقيرة .

وربما كان من الخير أن توضع ضريبة واحدة للقيام بحاجات الفقراء وخدماتهم . وفى هذه الحالة تتكون هذه الضريبة المتحدة الغرض من قسمين

القسم الأول الزكاة :

والقسم الثانى ضريبة الدخل المتممة لها .

وغنى عن البيان أن هذا يتطلب العودة إلى الوضع الأساسى الأصلى وهو أن تجبى الدولة الزكاة وتقوم بتوزيعها على المستحقين.

ابن حزم والعصر الحاضر

ونحب أن نختم كلمتنا هذه بملاحظة خاصة عن مستوى الحياة الذى اقترحه ابن حزم فقد وضعه تحت تأثير الجو الفكرى للعصر الذى كان يعيش فيه ، وقد تغيرت الأفكار الآن بالنسبة لمستوى الحياة الضرورى الذى يجب أن يبلغه كل فرد فى المجتمع فاتسع مداه وانفسح مجاله ، وأصبح يشمل عناصر أخرى كانت من قبل تعد من الكماليات فصارت تحسب الآن من الضروريات ، وذلك كالتعليم والعلاج وغيرهما فمن الخير أن ندخل كل ذلك فى نطاق مستوى الحياة الذى تطلبه الفقير فى العصر الحاضر ، وأن نقدر ضريبة الدخل الإسلامية على أساس هذا المستوى الجديد ، وبهذا نصل إلى حل إسلامى لمعضلة الفقر أسمى مما وصل إليه التفكير لحلها فى أمريكا وأوربا فى الوقت الحاضر .

ابراهيم اللبان
عضو مجمع البحوث

الملكية الفردية وتحديدها في الإسلام

للأستاذ علي الخفيف

تقييد الملكية الفردية وتحديدها :

إن حب التملك والرغبة فيه غريزة فطر الإنسان عليها وهى فى قوتها واندفاعها تفوق غيرها من الغرائز إلا غريزة حب البقاء والحياة وسر الحركة الدائبة فى هذه الحياة ومصدر النشاط الذى تتمثل فيه صورة الوجود وبه قيامه وهى القوة الدافعة فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل إلى حيث الأمل المرجو والغاية المطلوبة والإنسان مطبوع على الاستجابة لغرائزه وإشباعها بالعمل لها والحصول على ما يرغب فيه ولذلك يرى كادحا ساعيا إلى جمع المال — والاستكثار منه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو كان لابن آدم واديان من المال لابتغى ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم ، إلا التراب) رواه مسلم ج ٣ ص ٩٩ ويقول: (يهرم ابن آدم وتشب معه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر) رواه مسلم ج ٣ ص ٩٩ وإلى هذا لا يرى فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ما يدل على تقييد الملكية الفردية بحد تنتهى إليه فلا تتجاوزه بل أباح للناس أن يتملكوا ما وسعهم أن يتملكوا وأن يمضوا فى تملكهم للأموال إلى حيث يشاءون ما دام ذلك فى غير ما حرم الله لأن ذلك هو ما يتفق مع ميولهم التى يجب أن يحسب لها حسابها فى إقامة نظام المجتمع ومع مصلحة الجماعة فى إغراء أفرادها على بذل أقصى جهودهم لتحسين أحوالهم وتنمية أموالهم وفى ذلك صلاح المجتمع وثراؤه — ولهذا كان لهم الخيرة فى مقدار ما يملكون — ولقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان واسع الثراء إلى درجة تجاوزت ثراء غيرهم من الصحابة بمسافات بعيدة وبمقادير كبيرة ولم تكن ثرواتهم هذه مع عظمها مثار إنكار عليهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أو من أصحابه ولا مصدرا لاتهامهم بأنهم قد خالفوا عن أمر الله تعالى ومن هؤلاء : عبد الرحمن بن عوف والزبير ابن العوام وعثمان بن عفان وغيرهم — ولقد يرى فى حديث القرآن الحكيم عن المهر فى قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا

فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ، (النساء ٢٠) إشارة إلى إباحة التملك لا إلى حد لأنه إذا جاز أن يكون المهر يصدقه الزوج لزوجته قنطارا فكيف يكون مقدار ثروته وقد كانت هذه الإباحة متسقة مع النظام القائم المنتشر فى المجتمعات يوم ظهور الإسلام ولا تتعارض والإصلاح المأمول والتطور المنتظر .

هذا وللمال منافعه التى لا تخفى فى إقامة حياة الإنسان وحياة أسرته وتوفير هناءته وسعادتهم وإنفاقه فى سبل الخير المتعددة المختلفة وله آثامه فى اكتنازه مع الشح به وفى إنفاقه فى مطالب الهوى والشهوات ومجالى الترف والفسوق ومظاهر العلو والتفاخر والطغيان وهو مع ذلك أداة طيعة خاضعة لمشيئة الإنسان إن شاء كان له نعمة وفضلا ينال به الطيبات ويبغى به الدار الآخرة دون أن ينسى نصيبه من الدنيا وإن شاء كان نقمة يبغى بها الفساد فى الأرض ويبغى فيها على قومه وعلى نفسه غير أن ميل النفوس إلى رغائبها وملذاتها أشد وتوليها إلى هذه الوجهة أقوى فكانت كثرة الأموال أقرب أن تتخذ وسيلة إلى الآثام منها إلى المنفعة والخير العام يقول الله تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » سورة اقرأ ويقول : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » الحديد » .

ويقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (آل عمران) ، ويقول : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (التغابن ١٥) ، وتكاد تكون غريزة حب التملك وراء كل بغى وعدوان فيما بين الأفراد والأمم فما رأينا أكثر الخصومات بين الأفراد إلا نتيجة خلاف على مال أو نزاع فيه وما كانت الحروب منذ القدم فى غالب الأحوال إلا طلبا لزيادة التملك وسعة الملك والثراء .

هذا وليست الحاجات العارضة من مطالب الإنسان فى نطاق ما يقيم به حياته من طعام ونحوه هى التى تغرى الإنسان وحدها بطلب المال والاستكثار منه بل وراء ذلك آمال وأحلام تجيش بها الصدور وتتجه إليها الأنظار ويدفع إليها حب التنافس والتفاخر تلك أحلام التعالى وأمانى السيادة والسلطان ومطالبها لا تنتهى وفى سبيلها تهون الصعاب ، وللملكية الفردية سيئات عديدة تنتظمها الأحوال الآتية :

الحال الأولى : أن تجمع الأموال لا لإنفاقها فى سبلها المشروعة ، بل تضن بها النفوس ويقبض أربابها أيديهم أن ينفقوا منها فى سبل

الخير فلا يكون فيها مواساة فقير ولا سد حاجة محتاج ولا صلة لقريب ولا تفريج لكربه ولا مساهمة فى عمل بر فيتحللوا بها على الناس أو عليهم وعلى أنفسهم وفى مثل هذه الحال يقول الله تعالى : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» (التوبة ص ٣٥).

وأرباب هذه الأموال هم البغيضون الممقوتون تسلقهم الناس بألسنة حداد فبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر. وربما أدى ذلك إلى الثورة عليهم فسلبهم الناس أموالهم وأذاقوهم حتفهم.

الحال الثانية : — أن يكون المال وسيلة إلى تلويث صاحبه وتدنيس نفسه إذا ما مد له فى ملكه فاستكثر منه واتخذه وسيلة لنيل مآربه وملذاته وشهواته ومظاهر ترفه ولهوه وشيوع مثل هذا فى الأمة يمزق وحدتها ويوهن قوتها وفى ذلك يقول الله تعالى : «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» (الإسراء ص ١٦).

الحالة الثالثة — أن يسىء المالك استعمال حقوقه فيما يملك فيجاوز فيها الاستعمال المشروع تجاوزا يضر بغيره أو يكون من نتائج استعماله ضرر ظاهر بغيره حين يكون له من ذلك منجاة وسعة إذ لم يكن استعماله لحقه بالأمر الضرورى له الذى ليس له منه بد فى سبيل منفعة مشروعة مطلوبة له فى تركها ضرر يفوق مايلحق غيرهم من ضرر.

الحال الرابعة — أن يسوء توزيع الثروة العامة فتحتاز الأموال وتختص بوافر الثراء فئة قليلة من الأمة دون باقى فئاتها فتنقسم الأمة طبقات متباغضة متنافرة متحاسدة يشيع فيها الاضطراب والتفرق والفساد فتشتعل نيران الفتن والثورات فيها ولقد راعى الإسلام ما للملكية الفردية من هذه المساوىء والأضرار إذا لم يكن الخلق الرشيد والضمير الخالص عليها قيام تخفف من سيئاتها وتحد من غلوائها بما شرع لها من تنظيم ووضع لها من قواعد وأسباب تقوم عليها نشأتها واستقرارها واستثمارها واستعمالها وتوجهها وجهة صالحة تنفى خبثها وتزكى آثارها وينعم الناس بثمراتها — وبما قيدها به من قيود ووضع لها من أغلال تحول بينها وبين سوء استعمال وآثارها وحقوقها تفضى إلى الحد من تضخمها وبما حملها من حقوق لتسكين النفوس الثائرة وكبت الرغبات الحاقدة وتوجهها وجهة الخير والمصلحة الجماعية.

ففى سبيل نشأتها واستقرارها واستثمارها بين أسباب اكتسابها واستثمارها واسهاعلى التراضى ومنها أن تقوم على باطل أو خداع أو غرر أو تدليس وأن يكون منها اغتصاب أو سلب أو أكل مال بلا عوض لا عن طيب نفس حتى لا يكون منها ما كان عن إكراه أو استغلال لضرورة محتاج أو ضعف عقل وتمييز وفى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » « البقرة ٢٦٧ » دلالة على وجوب تجنيب الملكية كل ما فيه خبث يرجع إلى طريقة تملكه أو إلى فساد فيه إذ أن غايتها الانفاق منها وإذا امتنعت الغاية وحرمت لم يكن للوسيلة محل ولا اعتبار.

هذا وفى تحديد وسائل اكتسابها وسلامتها على الوضع الذى شرعه الإسلام حائل دون تضخم الثروات عادة إلا ببطء فلا تتسع الفوارق فيها بين الأفراد إلا قليلا وفى سبيل الحيلولة دون إساءة استعمالها قيدها بعدم الإضرار بالناس كافة وعدم الإضرار بالأفراد كالجار وغيره إلا إذا كان الضرر أقل مما يصيب المالك من منعه وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار) رواه احمد وابن ماجه وعلى ذلك إذا ابتغى المالك بملكيته منفعة يستغل بها غيره ضرب الشارع على يديه وبناء على ذلك منع احتكار الطعام وما فى معناه ومنع رفع أثمان الضروريات إلى حد إرهاق الناس فلا يجوز مجاوزتها حدود الاعتدال فى الربح وذلك بتسعيرها بالسعر الذى لا يضر ويحقق الربح المعتدل المعروف بين الناس على ما يراه كثير من الفقهاء كما منع مالك العقار أن يتصرف فيه تصرفا يؤذى جاره ويضره ضرراً فاحشا وأن يأبى عليه أن ينتفع بعقاره بما جرى به عرف الناس من غير ضرر به وكذلك منع المالك السلاح أن يبيعه لأهل البغى والفساد والفتنة ومنع الموصى فى ماله أن يضر بوصية ورثته وهكذا وبناء على ذلك قرر المبدأ القاضى بمنع صاحب الحق من إساءة استعمال حقه .

ومن أدل الآثار على ذلك ما روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة فى جداره) رواه احمد وابن ماجه وما روى من قضاء عمر للضحاك بن خليفة الانصارى بامداد الخليج فى أرض محمد بن مسلمة وذلك حين أراد الضحاك ان يشرع خليجا من العريض « واد بالمدينة » إلى أرضه لترو منه فلم يقدر إلا أن يمره فى أرض محمد بن مسلمة فأبى عليه محمد ذلك فقال له الضحاك لا تمنعنى وهو لك منفعة تشرب منه

أولا وآخرا ولا يضرك فأصر على إبائه فرفع الضحاك أمره إلى عمر رضى الله عنه فدعا محمد ابن مسلمة فكلمه وأمره أن يخلى سبيل ابن عمه بجرالماء فأبى فقال له عمر: لم تمنع أخاك ماينفعه وهولك نافع تسقى أولا وآخرا وهولا يضرك؟ فقال محمد لا والله فقال عمر والله ليمرن ، لو على بطنك وأمر عمر الضحاك أن يمر به ففعل) «الموطأ ج ٦ ج ٤٧ والخراج ليحيى بن آدم (١١١) وبمثل ذلك قضى عمر أيضا لعبدالرحمن ابن عوف فقد روى عمرو بن يحيى المازنى عن أبيه أنه كان فى حائط جده ربيع «ساقية» لعبد الرحمن بن عوف فأراد عبد الرحمن بن عوف أن يحوله إلى ناحية من الحائط هى أقرب إلى أرضه فمنعه صاحب الحائط فكلم عبد الرحمن بن عوف عمر فى ذلك فقضى لعبد الرحمن بتحويله غير آبه بمنع صاحب الحائط «البستان» إذلم يرد بمنعه إلا الضرر «الوطأ ج ٦ (٤٧)» .

وفى سبيل الحد من ضخامتها وتسكين النفوس الحاقدة الثائرة لحرمانها والرغبات الطامعة المتطلعة إليها أوجب الصدقات والصلات فجعل منها ما هو واجب فى المال ومنها ماهو أمر مرغوب حض عليه ولم يصل به إلى مستوى الأمر الواجب المفروض - ففرض الزكاة وجعلها ركنا من أركان الدين وأوجبها فى النعم السائمة وفى الذهب والفضة وفى أموال التجارة على اختلاف أنواعها عقارا كانت أم منقولا وفى الثمار والزروع وأوجب الخمس فى الغنائم والإنفاق على الأهل والولد وذوى القربى وأوجب الخراج على الأرض الخراجية وأوجب المساهمة فى نفقات ما يعرض للأمة من ضرورات وما ينزل بها من نوازل وما تتطلبه من مصالح وما يجب لها من عدة للدفاع أو لحفظ الأمن والنظام والمساهمة فى إطعام الجائع وإغاثة الملهوف وفك الأسير وعلاج المرضى من الفقراء المعوزين إذا لم يكن فى بيت المال ما يكفى لذلك وقد أشير إلى هذا فى قوله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة) «البقرة ١٧٧» وكذلك أوجب قرى الضيف عند الحاجة على ما ذهب اليه بعض الفقهاء لآثار وردت فى ذلك «المحلى ج ٩ ص ١٧٤» وإلى ذلك كله حض على التصدق والإنفاق فى سبيل الله وكانت آيات القرآن فى هذه الفضيلة كثيرة العدد مختلفة الأساليب فمنها آيات آمرة مثل قوله تعالى: (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا أن الله يحب المحسنين) «البقرة ١٩٥» وآيات مرغبة مثل قوله تعالى (: والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) «التوبة ٣٦» ومثل قوله: (قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين)

(المدثر ٤٤) إلى غير ذلك من الأساليب .

ذلك ما يرجع إلى ما جاء به الكتاب العزيز أما ما جاء فى السنة فهو من الكثرة بحيث أن نشير إلى مثل قوله صلى الله عليه وسلم (يقول العبد مالى مالى وإنما له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأقنى وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس) رواه مسلم .

وعلى الجملة فتوجيه الإسلام فى ذلك يرمى إلى عدم ترغيب الناس فى اكتناز المال وحبسه وإلى أن الخير لهم فى إنفاقه فى سبيل الله وفى ذلك ما رواه أبو ذر إذ يقول (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه فقال : يا أبا ذر قلت : لبيك يا رسول الله فقال : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال كذا وكذا عن يمينه وعن شماله و قدامه وخلفه وقليل ما هم ثم قال يا أبا ذر ، قلت : نعم يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، فقال : ما يسرنى أن لى مثل أحد ذهبا أنفقه فى سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين قلت : أو قنطارين يا رسول الله قال : بل قيراطين . ثم قال : يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقـــل) . رواه الشيخان . وهذا عندما يكون الانفاق حال الحياة . أما فيما يوصى به الإنسان بعد الوفاة فإن الخير له أن يبقى من أمواله لورثته ما يدفع عنهم أن يكونوا عالة على غيرهم . وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص وهو مريض يريد الوصية : (الثلث والثلث كثير . إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس) رواه الشيخان ومما تقدم يرى أن الشارع حين أقر الملكية الفردية لم يقرها مطلقة فى آثارها بل أقـــرها مقيدة بقيود عديدة أريد بها تخليصها من شرورها وأخباثها وتوجيهها الوجهة السليمة التى تطيب معها فتكون خيرا محضاً لصاحبها وصلاحا لمجتمعه . وذلك ما يتسق مع ما قدمناه من أنها نوع من الخلافة يقوم فيها الفرد خليفة عن مجتمعه أو عن الله سبحانه وتعالى وذلك ما يستوجب مساءلته مساءلة الوكيل أمام موكله وإلزامه بألا يحيد عما قيد به وعما أوجبه عليه من واجبات أراد بها الخير لخلقه والصلاح لهم وذلك هدف الشريعة وغايتها كما يدل على ذلك مثل قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (البقرة ١٧٥) وقوله تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم . وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون » المائدة ٦ وقوله تعالى قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق » (الأعراف ٣٣) ولهذا الغرض قيدت الملكية الفردية لتخلص من آثامها وسيئاتها وينعم الناس بخيرها .

(للبحث بقيـــة)

علي الخفيف

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

الاستغلال الحلال للمال

— ١٠ —

معنى استغلال المال استخدامه فيما يعود على صاحبه بالغلة ، وهى المنفعة أو الثمرة أو الأجرة ، ومن حق المالك أن يستغل ماله وينميه بالطرق التى يرى فيها مصلحته مادامت لا تتعارض مع المصالح العامة ، ولا تؤدى إلى ضرر يحيق بغيره ، ولا تنحرف به أو ينحرف بها إلى مأثم أو محرم ، لأن حرية تصرف المالك فيما يملك هى معنى الملكية أو النتيجة الطبيعية لمعنى الملكية ، ولكن الحرية لا يقصد بها السفه أو البله أو إطلاق العنان لنزوات الشيطان ، أو تعدى حدود القصد إلى البغى والطغيان ، ولهذا أمر الله بالحجر على السفهاء كما يفهم من قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وذكر أن المبذرين كما يقول سبحانه « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

ثم إن ملكية الإنسان للمال إنما هى ملكية نسبية ناقصة لا ملكية حقيقية تامة كما سبق بيان ذلك فى مقال سابق ، وهذا يستتبع أن تكون حرية التصرف فيه بالقدر المناسب الذى لا ينشأ عنه ضرر أو ضرار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لا ضرر ولا ضرار ، وقامت أحكام الإسلام كلها على هذه القاعدة الشرعية العامة المرعية ، ومن ثم كان حق الشفعة وحق الارتفاق ، وحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، وحق ولى الأمر فى أن يفرض من الضرائب ما شاء ليحقق بها مصلحة عامة ، أو يسد بها حاجة مهمة للأمة كان ذلك كله ، وما إليه من مظاهر النسبية فى الملكية الفردية ، والنسبية فى حرية تصرف المالك ، ومعنى ذلك بعبارة أصرح وأوضح أن الملكية الفردية ليست مطلقة ، وأن حرية تصرف المالك فيما يملك ليست مطلقة ، وعلى هذا الأساس كان استغلال المال محدودا بالحلال ، ومعناه أن يكون بالطرق التى أحلها الله وبينها كتابه وسنة رسوله :

١ — فالتجارة طريق مشروع من طرق الاستغلال الحلال كما يفهم من قول النبى

صلى الله عليه وسلم : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » ولكن التجارة فى الإسلام مشروطة بالتراضى بين البائع والمشترى ، فإذا خرجت عن ذلك إلى استغلال الحاجة واختزان السلع ليشتد الطلب عليها ويرتفع سعرها ، وتباع بثمن مرتفع ، دخلت فيما يفهم من قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ودخل أصحابها فى مفهوم قوله صلى الله عليه وسلم : والمحتكر ملعون ، وقوله عليه السلام : لا يحتكر إلا خاطىء ، وقد بين صلى الله عليه وسلم حال المحتكر بقوله : (بئس العبد المحتكر إن سمع برخص ساءه وإن سمع بغلاء فرح) ومن ثم كان على الدولة أو ولى الأمر أن يتدخل لمنع الاحتكار والتلاعب بالأسعار ، تطبيقا لقاعدة لا ضرر ولا ضرار وتحقيقا لمصلحة المجموع التى تقدم على مصلحة الأفراد .

٢ — والقراض أو المضاربة من طرق الاستغلال الحلال ، وهو نوع من التعاون على أساس عادل بين العمل ورأس المال ومعناه أن يشترك صاحب المال بماله مع العامل بعمله أو بجزء من ماله وعمله فى مشروع من المشروعات الصناعية أو الزراعية أو التجارية ، فإذا ربح المشروع الذى تعاقدا عليه اشتركا فى الربح وإذا خسر اشتركا فى الخسارة حسبما اتفقا عليه من نسبة كل منهما فى الربح والخسارة ، النصف أو الثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر أما الاتفاق على نصيب محدد مضمون لصاحب المال لا يزيد بزيادة الربح ولا ينقص بنقصه ولا يتحمل المال نصيبه فى الخسارة إن أصيب المشروع بخسارة ، فهذا مما لا يبيحه الإسلام بل يجعل هذا النوع من الاستغلال الحرام ولا شك أن استغلال المال فى هذا النوع السليم من المعاملة يفتح له مجالات واسعة ، فى شركات الأسهم المتنوعة .

٣ — وإذا كان المال أرضا زراعية فلصاحبه أن يستغله بعدة طرق ، كأن يتعهدها بنفسه فيصلحها ويجلب الماء إليها ، ويتولى زرعها وسقيها ورعايتها حتى تخصب وتؤتى أكلها ، وله أن يعطيها لمن يزرعها بآلته وبذره وحيوانه على أن يكون له نسبة مما يخرج منها كالنصف أو الثلث أو الربع حسبما ينعقد عليه اتفاقهما ، وهذا النوع من الاستغلال يسمى مزارعة أو مساقاة أو مخابرة ، والأصل فيه عمل النبى صلى الله عليه وسلم كما ورد فى الصحيحين ، فقد عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من زرع وثمر ثم عمل به الخلفاء الراشدون من بعده وعمل به أهل المدينة حتى قيل إنه لم يبق من المدينة أهل بيت إلا عمل به . أما إجارة الأرض بنقد معين معلوم فقد أجازها كثير

من الفقهاء ، ومنعها آخرون ولكل وجهة لا يتسع المقال للحديث عنها وتفصيل القول فيها ، ولا شك أن أفضل الطرق التى تتبع فى استغلال الأرض بصفة عامة هى منحها لمن يزرعها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه وعن جابر رضى الله عنه قال : كنا نخابر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنصيب من القصرى (١) ومن كذا ، وكذا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه وإلا فليدعها.

٤ — وإذا كان المال حيوانا . فاستغلاله بالتربية والتغذية لانتاج اللبن أو الصوف أو التسمين أو إنسال العجول حلال مشروع ويجوز كراء الدواب فى مختلف الأعمال التى يحتاج فيها إلى الدواب من حرث أرض ونقل أمتعة وإدارة آلة كالساقية ونحوها ، وقد قيل كلام كثير حول الشركة فى تربية الحيوان والمواشى ، ولم يجد بعض العلماء بأسا فى هذه الشركة ، إذا دفع أحد الطرفين ثمن الحيوان أو الماشية على أن يقوم الطرف الثانى بالنفقة عليها ورعايتها وينتفع فى مقابل ذلك بلبنها أو عملها فى حرثه ثم يكون الربح لهما والخسارة عليهما ، وقد أجيز هذا النوع من الشركة بطريق القياس على الشىء المرهون فقد روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الظهر يركب بنفقته إذا كان مرهونا ، ولبن الدر يشرب بنفقته إذا كان مرهونا ، وعلى الذى يركب ويشرب النفقة » وقد علق الأستاذ يوسف القرضاوى على هذا الحديث فى كتابه القيم « الحلال والحرام » فقال : فى هذا الحديث جعل النبى صلى الله عليه وسلم النفقة على الحيوان مقابل ركوبه إذا كان ذا ظهر يركب أو مقابل لبنه إذا كان ذا در يحلب ، وإذا جاز هذا فى الرهن لحاجة التعامل واستيثاق الناس بعضهم من بعض — مع أن قيمة النفقة على الحيوان قد تكون أقل أو أكثر من قيمة ما ينتفع به من ركوبها أو درها — فلا بأس أن نجيز مثل ذلك فى شركة الحيوانات التى ذكرناها لحاجة الناس إليها وهذا الذى استنتجناه من هذا الحديث رأى خاص لنا ، أرجو أن يكون سداداً .

وأما الاشتراك فى العجول الصغيرة التى لا ينتفع فيها بعمل ولا لبن على أساس أن يكون الثمن من جانب . والنفقة من جانب . فإن قواعد الإسلام تأبى إباحة ذلك . لأن الطرف المنفق يغرم وحده دون مقابل يعود عليه من عمل أو لبن ، والطرف

(١) القصرى بضم القاف أو كسرها ممدودا ما يبقى من الحب فى قشره أو سنابله بعد الدرس أو القصر.

الآخر هو المستفيد الغانم على حساب هذا ، وليس ذلك من العدل الذى يتحراه الإسلام فى كل صور المعاملات .

ويظهر أن الأستاذ غفل عن جانب من الصورة الأخيرة كان ينبغى ألا يغفله أو يهمله ، فإن صاحب المال قد يغرم المال كله إذا نفق العجل والعجول التى اشتراها ولا يتحمل الطرف الثانى من الغرم إلا ما أنفق أو بذل من عمل فى التربية والتغذية ، وقد تكون خسارته فى هذه الحال ضئيلة قليلة بالنسبة إلى خسارة صاحب المال ، ومع هذا فإنى لا أسمح لنفسى بالحكم على هذا النوع من الشركة . وقد يكون حكم الأستاذ الفاضل أقرب إلى الورع منه إلى العدل والإنصاف ، ولعلنا نسمع كلمة مجمع البحوث فى هذا الموضوع .

أما استغلال المال فى بناء المساكن والانتفاع بتأجيرها فلم يقل أحد بمنعه ، ولكن لولى الأمر - متى رأى جوراً فى الاستغلال - أن يتدخل لمنعه ورده إلى حده الذى يجب أن يقف عنده ولا يتعداه

وهكذا نرى استغلال المال بالطرق التى ذكرناها حلالا لا إثم فيه ، وليس معنى ذلك حصر الاستغلال فى هذه الطرق ، فشراء الآلات الزراعية والصناعية والسيارات وما إليها واستخدامها فيما يحقق لأصحابها الخير والمنفعة ويجلب لهم مزيدا من الربح والكسب كل هذا حلال مشروع ما لم يخرج إلى أكل أموال الناس بالباطل واستغلال حاجتهم ، والثراء على حسابهم .

ويلاحظ مع كل هذا أن استغلال المال واستثماره فى الوجوه المشروعة النافعة قد ورد الأمر به حتى لا تأكله الزكاة ، ثم هو إلى ذلك سبيل إلى أداء ما فرضه الله علينا من العبادات المالية ، وما أكثرها فى شريعة الإسلام وما أجدرها بأن تشرف بها القيم الفاضلة للاشتراكية العادلة ؟

عبد الرحيم فودة

وما المال والأهلون إلا ودائع
ولابد يوما أن ترد الودائع

« لبيد »

الذوق الأدبي
كما يراه ابن خلدون

للأستاذ علي العماري

— ٢ —

ويمضي ابن خلدون في حديثه عن الملكة فيرى أن كل ملكة تحتاج إلى أمور: ممارسة العمل، وتكرار هذه الممارسة، ثم طبع سليم يساعد على تكوين الملكة.

فلا بد لتكوين ملكة البلاغة من حفظ كثير من جيد الكلام العربي، شعره وخطابته، ورسائله، وتفهم هذا الكثير، ثم لا بد أن ينصرف المتأدب - بعد ذلك - في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلامهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم، وترتيب ألفاظهم، وكلما ازداد حفظه واستعماله ازدادت الملكة رسوخاً وقوة، على أنه يحتاج - مع ذلك - إلى سلامة الطبع، والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب، ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال.

وعندما يتحدث ابن خلدون عن علم الأدب لا يرى له ثمرة إلا تربية الذوق، ذلك الذوق الذي به يدرك إعجاز القرآن، فثمرته عند أهل اللسان الإجادة في فني المنظوم والمنثور فهم يجمعون من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الاجادة ... حتى مسائل اللغة والنحو، وأيام العرب، وأنسابهم، وأخبارهم العامة، كل ذلك قصد بدراسته الاستعانة على فهم كلام العرب، وأساليبهم ومناحي بلاغتهم؛ لأن الملكة - كما يقول ويردد - لا تحصل من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.[1]

والملكة تتبع نوع المحفوظ؛ لأن النفس وإن كانت واحدة في جبلتها - تختلف في الناس بالقوة والضعف في الإدراكات، واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات، فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والكلام المرسل، والملكة العلمية تنشأ من مخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث. والفقهية من مخالطة الفقهاء، وتنظير المسائل، وتخريج الفروع على الأصول .. وهكذا.

ولطرق تعليم الناشئة أثره في تربية الملكة أو تعطيلها، وعند ابن خلدون أن حفظ القرآن وحده لا ينشأ عنه - في الغالب - ملكة

(١) المقدمة ص ٥٥٣

وعلل ذلك بأن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه ، والاحتذاء بها .

هذا رأيه ، وهــذا تعليله . ولو أننا تغاضينا عن رأيه فى صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن لأن هذا موضوع طويل الذيول لكان لنا أن نقول إنه ليس معنى الملكة الاحتـــذاء الكامل لأسلوب من الأساليب ، وإن أسرف ابن خلدون فى التمسك بهذه النظرية ، وأكثر من ترديدها حتى عدّ المتنبي وأبا العلاء خارجين عن أصول الشعر العربى لأنهما لا يجريان على أساليب العرب فى نظمهم ، وإنما معنى الملكة أن دراسة الكلام الجيد تمكن الكاتب صاحب الطبع الموهوب أن ينشئ كلاما جيداً ، ولا تلزمه أن يحتذى فى كل خصائص الكلام ما درسه ، وتخرج عليه ، فليس بحتم — مثلا — لمن أطال النظر فى كلام الجاحظ أن يكون أسلوبه كأسلوب الجاحظ حذو القذة بالقذة ، وإنما قد يساعده هذا على تكوين ملكة ، فيكتب بأسلوب لعله ما كان فى العربية إلى عهد الجاحظ ، كما تشاهد ذلك فى كثير من كتابنا الذين استقرت لهم أساليب عرفوا بها .

والذين حفظوا القرآن من شعراء العربية وخطبائها وكتابها لم يحتذوا أسلوب القرآن، وليس ذلك لأنه كان يلزمهم أن يحتذوا فصرفوا عنه ، وإنما ذلك لأن الاحتذاء الكل أثر أدبى احتذاء تاما يجعل عمل المحتذى ساقطا .

وابن خلدون يرى أن الذى يقتصر فى حفظه على القرآن لا تنشأ عنده ملكة ، وبذلك يعلل قصور أهل أفريقيا والمغرب عن ملكة اللسان جملة باقتصارهم على دراسة القرآن ، ويقول إن أهل أفريقية أخف فى ذلك من أهل المغرب ، لأن هؤلاء يخلطون فى تعليمهم القرآن بعبارات العلوم ، وأما أهل الأندلس فقد أفادهم التفنن فى التعليم ، وكثرة رواية الشعر والترسل ، ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى ، وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث.

وقد وقفت طويلا عند هذه العبارات لابن خلدون ، فقد سبق هذا الكلام بقليل قوله : « وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه ، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا فى التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه ، بل يخلطون فى تعليمهم الولدان رواية الشعر فى الغالب ، والترسل وأخذهم بقوانين العربية ، وحفظها » .

فرأيته - فيما بدا لى - يرجع عما قاله ، ثم رجعت إلى نفسى فقلت لعله أراد - أولا - من جعل القرآن أصلا ، ومن تعلم القرآن من حيث هو تحفيظه للولدان دون دراسة شيء من علومه كالتفسير والبلاغة والنحو ، وهو ما أراده فى عبارته الثانية ، وأيا ماكان فأهل الأندلس - فى الحقيقة ، وكما يرى ابن خلدون - أهل أدب بارع ، أو مقصر ، على حسب اختلاف الدراسة والطبع .

ويظهر من كلامه أن هناك تعليما أولا ، وهو تعليم الصبى ، وتعليما ثانيا ، وهو تعليم الولدان فى عصر الشبيبة ، وربما فسر لنا ذلك بعض ما يتراءى من التناقض بين بعض عباراته .

ويسلمه المنطق ، والتحـــديد العلمى ، والخضوع إلى التعليلات النظرية البحتة إلى قضية أبدى رأيه فيها بكل صراحة ووضوح .

فقد أصل هذا الأصل ، وهو أن جودة الملكة بجودة المحفوظ ارتفاعا وانخفاضا ، فهو يرى - مثلا - أن من كان محفوظه شعر حبيب أو العتابى ومن فى طبقتهما ، أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون ومن فى طبقتهما تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة فى البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبيه أو ترسل البيسانى أو العماد الإصبهانى لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك [1] .

وعنده أنه تهيأ للإسلاميين من حفظ الكلام الجيد مالم يتهيأ للجاهليين، فالإسلاميون حفظوا من القرآن والحديث ومن كلام أهل الجاهلية فى حين أن هؤلاء لم يحفظوا هذا كله ، ورتب على ذلك أن الشعراء الإسلاميين من أمثال عمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجرير والأحوص وحسان بن ثابت وبشار أرفع طبقة فى البلاغة من الشعراء الجاهليين أمثال النابغة وعنترة وزهير ، وكلام الإسلاميين فى نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة، وأصفى رونقاً، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفاً من كلام الجاهليين ، ثم يحتكم أخيراً إلى الطبع والذوق فيقول : والطبع السليم ، والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة ، ويعود فيقول : وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهـل الذوق والبصر بالبلاغة ، ويذكر أنه حدث بذلك شيخه أبا القاسم قاضى غرناطة لعهده ، وكان - كما يقول - شيخ هذه الصناعة ، استبحر فى علم اللسان ، وجاء من وراء الغاية فيه ، قال : سألته يوماً ، ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة فى البلاغة من الجاهليين ؟ ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه ، فسكت طويلا ، ثم قال لى : والله ، ما أدرى ،

(١) المصدر السابق ص ٥٧٨

فقلت : أعرض عليك شيئاً ظهر لى فى ذلك ، ولعله السبب فيه ، وذكرت له هذا الذى كتبت ، فسكت ، معجباً ، ثم قال لى : يافقيه[1] ، هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب ، وكان من بعدها يؤثر محلى ، ويصيخ فى مجالس العلم إلى قولى ، ويشهد لى بالنباهة فى العلوم .

وقبل أن نناقش هذا الرأى نحب أن نشير إلى بعض ملاحظاتنا على كلام ابن خلدون هذا .

فأول ما نلاحظه أن مدار البلاغة عند ابن خلدون على اللفظ ، فقد جعل وجه التفضيل بين الجاهليين والإسلاميين الديباجة الحسنة ، والرونق الصافى ، ويدخل فى هذا ما يشير به إلى الصنعة من مثل المبنى المرصوف ، والتثقيف المعتدل ، وهذه الكلمة الأخيرة واضحة الدلالة على أن ابن خلدون يؤثر الصنعة على الطبع ، فالتثقيف والتهذيب للشعر أعدل عند الإسلاميين .

وهو يصرح فى موضع آخر بأن فضيلة الكلام ترجع إلى اللفظ حيث يقول فى أول الفصل السابع والأربعين : (اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وإنما المعانى تبع لها) ويقول بعد أن يسير قليلا فى هذا الفصل : (وأيضا فالمعانى موجودة عند كل واحد ، وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى) وهو بالطبع تابع فى ذلك للفظيين من أمثال الجاحظ وأبى هلال وابن رشيق ، وقد ردد كلمة الجاحظ ، المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمى والعربى وإنما الشأن فى إقامة الوزن . . إلخ .

وثانى هذه الملاحظات أن آخر عباراته يدلنا على هذا الخلق الذى كان يسيطر على ابن خلدون ، والذى ظهر فى كثير من كتاباته عن نفسه ، وخاصة فى كتابه (التعريف) وهو خلق الإعجاب بالنفس ، فشيخه قاضى غرناطة أثنى ثناء مستطابا على رأيه هذا ، وكان بعد ذلك يؤثر محله ، وهو يلقى أول درس فى مصر بالمدرسة القمحية ، ويصف هذا الدرس ويقول فى ختام وصفه : وانفض ذلك المجلس ، وقد سبقتنى العيون بالتجلة والوقار .

وكذلك يقول حين يتولى كرسى الحديث فى مدرسة صرغتمش ، ويلقى أول درس فيها ، ويختم حديثه قائلا : وانفض ذلك المجلس وقد لاحظتنى بالتجلة والوقار العيون ، واستشعرت أهليتى للمناصب القلوب ، وأخلص فى ذلك الخاصة والجمهور .

وكان لهذا الخلق مظهر آخر تحدث عنه ابن حجر فقال : كان ابن خلدون يتمسك

(١) كان لقب الفقيه عند أهل الأندلس أعلى الألقاب العلمية .

بزيه المغربى ، ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشىء سوى حبه المخالفة فى كل شىء .

قلت : ولعل رأيه فى الجاهليين والإسلاميين من هذا ، من حبه المخالفة فى كل شىء .

وثالث هذه الملاحظات أنه فضل الإسلاميين جملة ، هؤلاء الذين عاصروا النبى صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين ، والذين عاصروا الدولة الأموية ، وصدروا من الدولة العباسية ، على الجاهليين جملة ، فكل واحد من أولئك يفضل كل واحد من هؤلاء . فبشار - مثلا - أعلى طبقة فى البلاغة من أى شاعر جاهلى ... وهكذا .

ورابع هذه الملاحظات أن ابن خلدون اعتمد - فى حكمه - على شيئين ، طبقة الجودة فى المحفوظ وكثرته ، ثم الذوق السليم .

ثم نعود بعد هذه الملاحظات إلى مناقشة رأى ابن خلدون فنرى أنه وقع فى أخطاء .

أولها : اعتماده على ذوقه ، وهو ذوق أدبى متهم لأن الرجل خلط محفوظه من الشعر والنثر بكثير من قوانين العلوم . فقد حفظ - كما حدث عن نفسه - قصيدتى الشاطبى الكبرى والصغرى فى القراءات ، وتدارس كتابى ابن الحاجب فى الفقه والأصول ، وجمل الخونجى فى المنطق ، وبعض كتاب التسهيل ، وشهد هو بأن ذلك المحفوظ من قوانين التعليم الذى امتلأت به ذاكرته قد خدش وجه ملكته ، تلك التى استمد لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب .

ولعل ذوق شيخه أبى القاسم لا يسمو كثيراً عن ذوقه .

وليس يقف المحفوظ مهما جاد وكثر أمام الطبع الصافى ، وقد اتفقت كلمة النقاد على أن أحسن أشعار الأمم ما قالته أيام بداوتها ، وأن السر فى ذلك هو صفاء الطبع وسلامته، وقد قالها الناقد العربى الأصيل واضحة قوية ، ذكر الأموى فى كتابه (الموازنة بين الطائيين) أن (الذى يورده الأعرابى، وهو محتذ على غير مثال أحلى فى النفوس ، وأشهى إلى الأسماع ، وأحق بالزيادة ، والاستزادة مما يورده المحتذون على الأمثلة) . . وقد أخذ هذا الكلام من الجاحظ حيث يقول : ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ، ولا ألذ فى الأسماع ،ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة من حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء [1] .

ومن عجب أن ابن رشيق - ولعل ابن خلدون نظر إليه - يفضل الصنعة على الطبع ، فيرى أن البيت المصنوع إذا كان فى جودة المطبوع كان أفضل ، ويقول : ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعا فى غاية الجودة ، ثم وقع فى

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٥ ط هارون.

معناه بيت مصنوع فى نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ، ولا ظهر عليه التعمل كان المصنوع أفضلهما [1] .

وهو كلام غريب ، ولا يعتقده - فى رأيى - إلا الأدباء الذين غلبت الناحية العلمية على أذهانهم ، أما أصحاب الأذواق الأدبية الخالصة فلا يؤثرون على الطبع شيئاً ، فى أى فن من الفنون المسموعة أو المنظورة .

ويؤيد اتجاه ابن رشيق هذا أنه أورد ثلاثة أبيات لبعض الرؤساء يتشوق فيها إلى أهله ، وقال إن أحداً لن يزيد عليها شيئاً ولو كان أعرابياً يتشوق إلى نجد ، وكأنه شعر بأنه متهم فى حكمه ، ولكنه - أى ابن رشيق - رأى الحق فعرفه ، وهذه هى الأبيات :

ولى كبد مكلومة من فراقكم
أطامتها صبراً على ما أجنت
تمنتكمُ شوقاً إليكم وصبوة
عسى الله أن يدنى لها ما تمنت
وعين جفاها النوم واعتادها البكا
إذا عن ذكر القيروان استهلت

وقد أكثر شعراء العرب من الحنين إلى نجد ، وجاءوا فى ذلك بأشعار غاية فى الرقة والطبع ، ولن يسع صاحب الذوق السليم إلا أن تطربه هذه الأبيات التى زين بها ابن رشيق وحلى باباً من أبواب كتابه - كما يقول :

ولنأخذ على سبيل المثال بعض أبيات من قصيدة الصمة بن عبد الله القشيرى :

قفا ودعا نجدا ومن حلّ بالحمى
وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الرّبا
وما أحسن المصطاف والمتربعا
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها
عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى
على كبدى من خشية أن تصدعا

فأين أبيات مولى ابن رشيق الساذجة من هذا الشعر الرائع المطبوع ، كبده مجروحة من فراق الأحبة ، وقد تمنتهم شوقا إليهم وصبوة ، عسى الله أن يحقق لها أمنيتها ، وعينه جفاها النوم ، واعتادها البكا ، وإذا حضر ذكر الوطن استهلت ، إن كل هذه المعانى البسيطة الساذجة لا تعدل كلمة واحدة من شعر الصمة ، وأين استهلال العين بالبكاء إذا ذكر القيروان مما أبدع به الصمة فى البيت الأخير ؟

أنا لا أتهم ابن رشيق بالتعصب لذاك المولى ، ولكنى أتهم ذوق ابن رشيق نفسه فى هذا الموضع على الأقل .

(1) العمدة ج ١ ص ٨٥ طبعة أولى .

وثاني أخطاء ابن خلدون أنه لم يعر المعنى أية عناية ، وجعل الشأن كله للفظ في حين أنه لو نظر إلى المعاني ، وفاضل بين الجاهليين والإسلاميين فيها لوجد مجال القول أمامه مفسحا ، فقد كان يمكن أن يقول — مثلا — إن الإسلاميين وجدوا من اتساع الحياة أمامهم ، ومن تغير نظام المعيشة ، ونظام الحياة السياسية والاجتماعية ما يسر لهم من المعاني ما لم يعرفه الجاهليون ، كان يمكن أن يقول شيئا مثل هذا فيجد من يصيخ إلى قوله ، ويؤمن على حكمه .

لكنه وقف عند اللفظ ، وجاء بتشبيه غير سليم حين شبه المعاني بالماء والألفاظ بالأواني التي منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، فالجودة تختلف في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء ، لأنه واحد ، وقاس على ذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال فإنها تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه ، والمعاني واحدة في نفسها .

وأنا — والله — ما أدري ، كيف يذهب عن هذا العبقري النابغة أن المعاني تختلف أيضا ، وأن الذي يوضع في الأواني ليس نوعا واحدا من السوائل ، وإنما يوضع فيها الماء والخمر والزيت والنفط ، وما إلى ذلك .

على أن المعاني الجاهلية في دقتها ووضوحها لا تقل روعة عن المعاني اللاحقة بها ، وللأوائل فضل السبق حين يشترك المعنيان أو يتقاربان ، ولا نقول — في المحدثين — كما كان يقول أبو عمرو بن العلاء : (ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ليس النمط واحدا ، ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسح ، وقطعة نطع ...)[1] .

بل نقول : إن للشعراء في كل عصر من المعاني الجديدة ما لا يخطر لمن سبقوهم على بال .

وقد وقف الشاعر عند معنى لأبي نواس ، وأشاد بشعر هذا الشاعر ، ووصفه بجودة السبك ، وجودة الطبع ، والحذق في الصنعة ، وقال : إن الذي لا يخضع لعصبية يفضل أبا نواس ، فإن اعترضته العصبية لا يبصر الحق من الباطل .

والمعنى الذي وقف عنده الجاحظ هو وصف أبي نواس لكلاب الصيد بأنهن (يرفعن ما لم يقع ، وهو معنى جميل — ولا شك — ولكن الذي أعجب الجاحظ — كما هو واضح من كلامه — إنما هي الناحية اللفظية ، ولا اعتراض لنا على ما قاله في أبي نواس ، ولكن ، أليس وصف امرئ القيس لفرسه بأنه (مكر ، مفر ، مقبل ،

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٥٧ . ط أولى .

مدبر ، معا) لا يقل روعة ودقة ، وحسن أداء عن معنى أبي نواس ، وإن كانت كلمة أبي نواس - عندى - أحلى .

نعم ، للمحدثين معان كثيرة لا ترى لها شبها فى الشعر الجاهلى ، ويحضرنى منها الآن وأنا أكتب هذا البحث معنى جميل لإبراهيم ابن العباس الصولى فى وصف قصر ليلة من من ليالى السرور :

وليلة من الليالى الزهر
قابلت فيها بدرها ببدرى
لم تك غـــير شفق وفجر
حتى تولت وهى بكر الدهر

فقد تفنن الذين سبقوه فى وصف أيام السرور ولياليه بالقصر، ولكن واحدا منهم - فيما أعلم - لم يقع على هذا المعنى (لم تك غير شفق وفجر) .

وقد يكون هذا وجها من وجوه تفضيلهم على الجاهليين ، ولكن ابن خلدون وسلفه ومشايعه لا يرون لأحد فضلا عن طريق المعانى ، مع أن ابن خلدون انساق مع الطبقة حين حكم على شعر الربانيات والنبويات بأنه قليل الجودة لأن معانيها متداولة [١] .

والذى أريد أن أؤكده هنا أن الجاهليين أصدق طبعاً ، والطبع مقدم على الصنعة فى كل فن ، وأن لمعانيهم وقعا فى القلب ، ولهم فضل السبق بها ، وأن من جاءوا بعدهم ربما فضلوهم باتساع المعانى وجدتها ، وبذلك يبدو لنا ضعف الحكم الذى ذهب إليه ابن خلدون .

وسواء التفتنا إلى المعانى أم لم نلتفت إليها فان هذه المدرسة التى أنشأها الجاحظ ، وكان من تلامذتها العسكرى ، وابن رشيق ، وابن خلدون يرون أن المولد (أرق حوكا ، وأحسن ديباجة) .

وثالث أخطاء ابن خلدون أنه ذكر فى الشعراء الإسلاميين الذين فضلهم على الجاهليين سيدنا حسان بن ثابت ، والنقاد يكادون يجمعون على أن شعر حسان نفسه كان فى الإسلام أضعف منه فى الجاهلية ، فكيف يفوق حسان من سبقوه ، وهو لم يفق - وهو مسلم - نفسه ، وهو جاهلى .

رابع هذه الأخطاء أن ابن خلدون لم يجعل لغير المحفوظ دخلا فى المفاضلة ، وهو تحجير واسع ، لأن لنبوغ الشاعر وتقدمه أسباباً كثيرة غير نوع المحفوظ لعل فى مقدمتها ما منحه الشاعر من طبع ، وما يفاض عليه من أسرار ؟

على العمارى

(١) المقدمة ص ٥٧٥ .

غزوة أحد بين القرآن والشعر

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي

— ٣ —

حمل بنو عبد الدار اللواء ، وقد رأينا هند امرأة أبى سفيان تحرضهم على الثبات فى الميدان ، ورأينا أحدهم يرتجز موطنا نفسه على صدق القتال .

وحافظ بنو عبد الدار على اللواء ، إذا سقط فى المعركة قتيل ، قام مقامه آخر يحمل اللواء ، حتى قتل تسعة منهم ، قتل حمزة واحدا ، وقتل على آخر ، ويظهر أنهم كانوا مثال الثبات ؛ لدرجة أن قتل على لواحد منهم هو طلحة بن أبى طلحة دفع أحد الشعراء إلى مدح على بقوله :

لله أى مذبب عن حرمة
أعنى ابن فاطمة المعم المخولا
سبقت يداك له بعاجل طعنة
تركت طليحة للجبين مجدلا
وشددت شدة باسل ، فتركتهم
بالجر إذ يهوون أخول أجدلا

وكان آخر من حمل اللواء صؤاب ، وهو غلام لبنى عبد الدار حبشى ، أخذ اللواء ، وقاتل به حتى قطعت يداه ، ثم برك عليه ، فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه ، وخر اللواء صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية ، فرفعته لقريش ، فالتفوا به واجتمعوا حوله .

كان ذلك ، بدون ريب ، مجال فخر المشركين فجاء حسان ، وحاول أن يجد منفذا يقلل به من شأن هذا الفخر ؛ فرة يعترف لبنى عبد الدار بالشجاعة والشهامة والصبر على القتال حتى ماتوا ، ولكنه يعير قريشا بأنها لم تستطع حماية اللواء ولا حمله بعد أن سقط من يدى بنى عبد الدار ، بل مضوا من الميدان يفرون فى خفاء ؛ وقد كان ذلك فى أول المعركة عند ما كان النصر فى جانب المسلمين ، واستمع إليه يقول متحدثا عن صبر بنى عبد الدار ، وانهزام بنى مخزوم :

ولى البأس منكم إذ حضرتم
أسرة من بنى قصى صميم
تسعة تحمل اللواء ، وطارت
فى رعاع من القنا مخزوم
لم يولوا حتى أبيدوا جميعاً
فى مقام ؛ وكلهم مذموم

بدم عاتك ، وكان حفاظاً

أن يقيموا ، إن الكريم كريم

وأقاموا حتى أزيروا شعوباً

والقنا فى نحورهم محطوم

وقريش تلوذ منا لواذاً

لم يقيموا ، وخف منها الحلوم

لم تطق حمله العواتق منهم

إنما يحمل اللواء النجوم

وهكذا وجد حسان فى ترك اللواء ملقى لم يحمله رجل من قريش بعد أن سقط من يدى بنى عبد الدار مجالا للغض من قريش ، كما وجد فى هربهم فى أول المعركة مجالا للحط من شأنهم وإضعاف ما افتخروا به من الثبات حول اللواء .

وحينما يجد حسان فى حمل « صؤاب » للواء مجالا للذم لا للفخر ، إذ يقول :

فخرتم باللواء ، وشر فخر

لواء حين رد إلى صؤاب

جعلتم فخركم فيه لعبد

من الأم من يطا عفر التراب

أقر العين أن عصبت يداه

وما إن تعصبان على خضاب

أما الحارثية التى رفعت اللواء بعد « صؤاب » ففضلها عليهم لا ينكر ، فلولاها لأصبحوا أرقاء يباعون عبيدا فى الأسواق .

فلولا لواء الحارثية أصبحوا

يباعون فى الأسواق بيع الجلائب

وكان قتل أصحاب اللواء مجال فخر لكعب ابن مالك ؛ لأن حملة اللواء يكونون سادة الناس وأشرافهم ، إذ يقول :

أبلغ قريشاً ، وخير القول أصدقه

والصدق عند ذوى الألباب مقبول

أن قد قتلنا بقتلانا سراتكم

أهل اللواء ، ففيما يكثر القيل

أما فخر المشركين بمن قتلوا من المسلمين يوم أحد فقد قابله شعراء المسلمين بفخر مثله بمن أصابوا من المشركين يوم بدر ، فالحرب دول ، ويوم بيوم ، وإذا كانوا قد أصابوا يوم أحد من المسلمين ، فقد أصاب المسلمون منهم كذلك فى تلك المعركة ، فنسمع حسان يرد على فخر ابن الزبعرى ، ويقول له : إن هذا الفخر مصدره ما ذهب بلبه من وقعة بدر التى تفضل هذه المعركة ، وتدل على بسالة المسلمين وشجاعتهم ، ولقد كان النصر لنا فى أول المعركة ، حيث فررتم أمام قوة بأسنا قال حسان :

ذهبت بابن الزبعرى وقعة

كان منا الفضل فيها لو عدل

ولقد نلتم ، ونلنا منكم

وكذلك الحرب أحيانا دول

نضع الأسياف فى أكتافكم

حيث نهوى عللا بعد نهل

إذ تولون على أعقابكم

هربا فى الشعب أشباه الرسل

إذ شددنا شـدة صادقة
فأجأناكم إلى سفح الجبل
برجال لستم أمثالهم
أيدوا جبريل نصراً فنزل
وعلونا يوم بدر بالتقى
طاعة الله ، وتصديق الرسل
وقتلنا كل رأس منهم
وقتلنا كل جحجاج رفل
وتركنا فى قريش عورة
يوم بدر ، وأحاديث المثل

ويتحدث عبد الله بن رواحة عن بدر ، وعمن سقط صريعا من رؤساء المشركين فيقول :

وقبل اليوم ما عرفوا ، وذاقوا
وقائعنا بهـا يشفى الغليل
نسيتم ضربنا بقليب بدر
غداة أتاكم الموت العجيل
غداة ثوى أبو جهل صريعا
عليه الطير حائمة تجـــول
وعتبة وابنه خـرا جميعاً
وشيبة عضه السيف الصقيل
ومتركنا أميـــة مجلعبا
وفى حيزومه لدن نبيل
وهام بنى ربيعة سائلوها
ففى أسيافنا منها فـلول

فاذا كان أبو سفيان وغيره من شعراء قريش يفتخرون على حمزة فهاهوذا كعب يعدد بعض من أصابوه يوم بدر ، كما فعل حسان أيضا ، وهو يرد على أبى سفيان ، ويقول :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
ولست لزور قلته بمصيب
أتعجب أن أقصدت حمزة منهم
نجيبا ، وقد سميته بنجيب
ألم يقتلوا عمراً ، وعتبة وابنه
وشيبة ، والحجاج ، وابن حبيب
غداة دعا العاصى عليا ، فراعه
بضربة عضب بله بخضيب

ويفخر كعب بن مالك بأنهم قد انتصروا بالملائكة فى يوم بدر :

ويوم بدر لقيناكم لنـا مـدد
فيه مع النصر ميكال وجبريل

ويذكر حسان أنهم فى معركة أحد أيضا قد قتلوا بعض صناديد الشرك ، كما قتل بعض صناديد المسلمين ، إذ يصف جند الرسول قائلا :

بأيديهم بيض إذا حمش الوغى
فلا بد أن يردى لهن صريع
كما غادرت فى النقع عتبة ثاويا
وسعداً صريعا ، والوشيج شروع
وقد غادرت تحت العجاجة مسندا
أبيا وقد بل القميص نجيع
بكف رسول الله حيث تنصبت
على القوم مما قد يثرن نقوع

أولئك قوم سادة من فروعكم
وفى كل قوم سادة وفروع

فكأنه يقول لهم: إن أصبتم منا فى معركة أحد فقد أصبنا منكم فيها.

وافتخر شعراء الإسلام بالصبر فى الحرب وبأنهم يتحملون نتائجها فى شجاعة وثبات، فلا يستطيع شىء أن يفت فى عضدهم، يقول كعب بن مالك مجيباً هبيرة بن أبى وهب:

ونحن أناس لا نرى القتل سبة
على كل من يحمى الذمار ويمنع
جلاد على ريب الحوادث لا نرى
على هالك عيننا لنا الدهر تدمع
بنو الحرب، لا نعيا بشىء نقوله
ولا نحن مما جرت الحرب نجزع
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش
ولا نحن من أظفارها نتوجع

والشاعر بذلك يؤكد للأعـــداء أنهم يستقبلون الهزيمة من غير أن ينهار لهم عزم، أو تتضعضع لهم إرادة، بل إنهم يستعدون لجولة جـديدة، مطمئنين إلى النصر فيها، يقول عبد الله بن رواحة:

ألا من مبلغ عنا لؤيا
فبعد اليـــوم دائلة تدول
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا
وقائعنا بهـا يشفى الغليـــل

وعنى شعراء المسلمين برد تهمة الحرب التى رماهم بها المشركون، فهذا ضرار بن الخطاب يتحدث عن مصرع حمزة، وأنه كان عند ما سقط فى الميدان كأنه:

حوار ناب، وقد ولى صحابته
كما تولى النعام الهارب الشرد

وحسان يرد على ذلك بأن الحق سوف يتضح، فتنهار أمامه هذه الدعوى الكاذبة؟ لأن الأوس والخزرج ثبتوا فى الميـدان، ودافعوا دفاعا جيـدا، وما كان منهم جبان ولا هياب، وذلك إذ يقول:

وقل: إن يكن يوم بأحد يعده
سفيه فإن الحـق سوف يشيع
فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم
وكان لهم ذكر هناك رفيع
وحامى بنو النجار فيه. وصابروا
وما كان منهم فى اللقـاء جزوع

ولذلك أكثر شعراء المسلمين من وصف شجاعتهم التى ورثوها عن آبائهم، وسيورثونها أبناءهم من بعدهم، يقول كعب بن مالك:

فإن كنت عن شأننا جاهلا
فسل عنه ذا العلم ممن يلينا
بنا، كيف نفعل إن قلصت
عوانا، ضروسا، عضوضا، حجونا
ألسنا نشد عليها العصا
ب، حتى تدر، وحتى تلينا

ويوم له رهــج دائم
شديد التهاول حامى الأرينا
تخـال الكماة بأعراضــه
ثمـالا على لذة منزفينا
تعـاور أيمانهم بينهم
كئوس المنايا بحـد الظبينا
شهدنا ، فكنا أولى بأســه
وتحت العماية والمعلمينا
وعلمنا الضرب آباؤنا
وسوف نعـلم أيضاً بنينا

لحديث شعراء المسلمين عن الشجاعة يدفعون به تهمة الفرار من ميدان القتال .

وظهر الفخر بالعقيدة الجديدة عند شعراء المسلمين ، فرأينا حسان بن ثابت يعترف بنصرة رسول الله ، ويعير قريشاً بكفرهم ، ويعلن أن الكافر والمسلم ليسا سواء ، فيتحدث عن الأوس والخزرج ، وأنهم . أمام رسول الله ، لا يخذلونه

لهم ناصر من ربهم وشفيع
وفوا إذ كفرتم يا سخين بربكم
ولا يستوى عبد وفى ومضيع

كما يذكر لهم أن قتلى المسلمين فى الجنة ، وقتلاهم فى النار :

فلا تذكروا قتلى ، وحمزة فيهم
قتيل ثوى لله ، وهـو مطيع
فإن جنان الخلد منزلة له
وأمر الذى يقضى الأمور سريع
وقتلاكم فى النار أفضل رزقهم
حميم معاً فى جوفها وضريع

ويقول كعب بن مالك :

وأشياع أحمد إذ شايعوا
على الحق ذى النور والمنهج
فما برحوا يضربون الكماة
ويمضون فى القسطل المرهج
كذلك حتى دعاهم مليك
إلى جنة دوحة المولج
أولئك ، لا من ثوى منكم
من النار فى الدرك المرتج

بل ظهر أثر العقيدة الجديدة فى الترحيب بالموت فى سبيل الله ، يقول :

إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا
والقتل فى الحق عند الله تفضيل

ويقول أيضا مخاطبا المشركين :

فخرتم بقتلى أصابتهم
فواضل من نعم المفضل
فحلوا جناناً ، وأبقوا لكم
أسوداً تحامى عن الأشبل

فهو يرى القتل فضلا يمنحه الله من يستشهد فى سبيل دينه ، وذلك أثر العقيدة الجديدة التى جاء بها القرآن الكريم ؟

« للبحث بقية »

دكتور أحمد أحمد بدوى

رسالة المسجد في نشر الثقافة والحضارة

للأستاذ أحمد الشرباصي

(تتمة البحث)

بين المسجد والمدرسة :

تنقل التعليم فى المجتمع الإسلامى فى أماكن متعددة ، فهناك « الكتاب » أو « المكتب » الذى بدأ منذ عهد بعيد لتعليم القراءة والكتابة ، وتحفيظ القرآن الكريم ، وهناك قصور الخلفاء والأمراء ومنازل العلماء ، وهناك حوانيت الوراقين ، وهناك المساجد والجوامع والزوايا والخلاوى ، ثم كانت هناك المدرسة .

وقد بدأ التعليم فى المسجد ، ثم انتقل إلى المدرسة ، وذلك لمنع الضجيج الذى يحدث فى أثناء التدريس ، وللمحافظة على وقار المسجد وإبعاده عن حدة المحاورة والمناقشة ولكى يجد المعلمون فى المدارس وظائف يحترفونها ويرتزقون منها ؛ لأن التعليم فى المساجد يقوم على التطوع والاحتساب ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يحتسب حين يعلم ويثقف الناس فى المساجد ، والصحابة اقتدوا به فى ذلك ، وكذلك التابعون وكان الصحابة يرون أن أخذ الأجر على تعليم القرآن أمر مكروه .

ومع أن تعليم المجموعات الكبيرة من الصبية أو الفتية قد انتقل من المسجد إلى المدرسة ، فقد ظل الارتباط بين المسجد والمدرسة قائما ، بحيث نجد العادة تجرى بأن تلحق بالمسجد مدرسة ، وظل التشابه بين المسجد والمدرسة قويا ؛ فهناك مدرسون يعينون فى المساجد ، وهناك أئمة أو مؤذنون يعينون فى المدارس ، فكأن المدرسة مسجد وكأن المسجد مدرسة .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » هذه العبارة :

« إن التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره يكاد يكون خفيا سره : مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد ، يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوى والمتأدب والفيلسوف والفلكى والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدى الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب ، وإذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الإقناع

والإلزام ، وسقطت قيمة الغلو في التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن المدارس بصورتها النظامية قد تأخر إنشاؤها في المجتمع الإسلامي ، وأول مدرسة منظمة - وهي المدرسة النظامية ببغداد المنسوبة إلى الوزير نظام الملك من السلاجقة - أنشئت وتمت سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، فكأن المسجد ظل هذه القرون السابقة لهذا التاريخ يقوم بواجب التثقيف والتعليم .

ولقد قلت : إن المدرسة كانت تقوم بجوار المسجد في العادة ، وعلى ذلك عشرات من الأدلة والأمثلة فهناك « المدرسة المستنصرية » ببغداد التي أنشئت بين عامي ٦٢٥/٦٣١ هـ كان فيها إيوان لكل مذهب يوجد به المسجد وموضع التدريس ، وهناك « مسجد ديوريكي » ومدرسته في تركية ، تم سنة ست وعشرين وستمائة ، ويضم مدرسة وتعلو جميع أروقة الجامع والمدرسة قبوات . وتقع المدرسة خلف جدار المحراب ، وبناؤها من طراز بناء الجامع .

وهناك « مدرسة صيرت جالي بقونية » بتركية ، أسست سنة أربعين وستمائة ، وتتألف هذه المدرسة من إيوان لبيت الصلاة ، به محراب تحف به قاعتان لكل منهما قبة . وهناك « مسجد إينجة » ومدرسته بقونية في تركية ، وهناك « مدرسة وجامع قرامين » ، من العصر السلجوقي في إيران ، تما سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة .

وهناك المدرسة القمحية التي أنشأها صلاح الدين سنة ست وستين وخمسمائة بجوار جامع عمرو . ومسجد الإمام الشافعي كان أصله مدرسة تسمى بالمدرسة الصالحية ، بناها صلاح الدين سنة خمس وسبعين وخمسمائة بجوار قبر الإمام الشافعي .

وهناك المدرسة الأقبغاوية الملحقة بالجامع الأزهر الشريف ، وقد أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا سنة أربعين وسبعمائة ، وهناك المدرسة الطيبرسية الملحقة أيضاً بالجامع الأزهر الشريف ، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى سنة تسع وسبعمائة . وهاتان المدرستان تشغلهما الآن دار المكتبة الأزهرية ، الموجودة على يسار الداخل من باب الجامع الأزهر الشريف ، ويقول كتاب « تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى » عنهما :

« وهاتان المدرستان تمثلان تطوراً في حياة المسجد والمدرسة معاً ، فقد أصبحت المدرسة هي المعهد العلمي المفضل ، وهي تمثل أيضاً نوعاً جديداً من الجامعات يتحد فيها المسجد بالمدرسة ، وقد أكد هذا من صفة الأزهر العلمية ، وأصبح مسجداً تعليمياً دائماً ، تعاونه في عمله كليتان ملحقتان به ، وهو أمر لم يكن معروفاً في المسجد من قبل » .

ويحدثنا التاريخ عن المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق في مصر ، وكذلك المدرسة القمحية وكانت خاصة بفقهاء المالكية والمدرسة الصرغتمشية الملاصقة لجامع ابن طولون بناها

الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى سنة سبع وخمسين وسبعمائة ، ومدرسة السلطان حسن كانت مدرسة وجامعا ، وهى التى تسمى الآن جامع السلطان حسن ، ومدرسة الظاهر برقوق ، كانت تستخدم كمدرسة وخانقاه ، ثم صارت تستخدم مسجدا للصلاة .

وهناك مدرسة الصهريج بفاس ، بناها الأمير أبو الحسن بن أبى سعيد ، وموضعها غربى جامع الأندلس من حضرة فاس ، والمدرسة العظمى أو مدرسة العطارين بفاس ، بإزاء جامع القرويين ، أشرف على إنشائها الشيخ أبو محمد عبد الله بن قاسم المزوار ، والمدرسة العظمى بمراكش قبلى جامع ابن يوسف .

وهناك المدرسة المصباحية بفاس ، التى انشأها السلطان أبو الحسن سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة ، وموضعها جوف جامع القرويين وسميت بهذا الاسم نسبة للفقيه أبى الضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتى الذى كان يتولى التدريس بها ، وتسمى أيضا مدرسة الرخام .

ويتحدث كتاب « تاريخ الجامعات الإسلامية » عن المسجد الأقصى وتاريخه ، ثم يسرد المدارس التى أنشئت حوله بقوله : « وفى العصرين الأيوبى ثم المملوكى أنشئت بداخله وحوله عدة مدارس أكدت صبغته العلمية ، وجعلت منه جامعة إسلامية كبرى ، أهمها المدرسة الشريفة السلطانية الأشرفية داخله ، بالقرب من باب السلسلة ، وسبب بنائها أن الأمير حسن الظاهرى من أمراء المماليك كان قد بنى المدرسة القديمة للملك الظاهر خشقدم ، ثم بعد وفاته سأل الملك الأشرف قايتباى قبولها ، فقبلها منه ونسبت إليه ، ورتب لها شيخا وصوفية وفقهاء ، وصرف لها المعاليم .

ثم حضر الملك الأشرف قايتباى إلى القدس فى سنة ٨٨٠ هـ فلم تعجبه ، وهدمها وأنشأ أخرى مكانها أوسع مساحة وأفخم بناء .

ومما أنشىء حول المساجد من المدارس المدرسة الناصرية التى سميت فيما بعد بالغزالية لإقامة الإمام أبى حامد الغزالى بها . وقد أعاد إنشاءها الملك المعظم عيسى الأيوبى ، وجعلها زاوية لقراءة القرآن ، ووقف عليها كتبا من جملتها إصلاح المنطق لابن السكيت ، وذلك سنة ٦١٠ هـ . قال مجير الدين القدسى : « وقد دثرت الزاوية المذكورة فى عصرنا ولم يبق لها نظام » ، وتوفى المقدسى هذا سنة ٩٢٨ هـ ـ فتلك إذن حالها فى مطالع القرن العاشر الهجرى .

والمدرسة النحوية على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب ، بانيها الملك المعظم عيسى الآنف الذكر ، وكان بناؤها سنة ٦٠٤ هـ .

والمدرسة التنكزية ، واقفها الأمير تنكز الناصرى نائب الشام فى العصر المملوكى ، وهى مدرسة عظيمة ليس فى المدارس أتقن من بنائها ـ كذا يقول المقدسى .

والمدرسة الكريمية ، بناها كريم الدين

عبدالكريم من رجال الدولة المملوكية بالقرب من باب يسمى باب حطة .

ولا شك أن ارتباط المساجد بالمدارس ، على هذا النحو الذى قدمنا له عشرات من الأمثلة ، يدل على ارتباط رسالة المساجد برسالة المدارس ، كما يدل على أن كلا من المسجد والمدرسة كان يؤثر فى الآخر ويتعاون معه ويكمل رسالته ، وبخاصة فى مجال التوعية والتوجيه والتثقيف الدينى والدنيوى .

ولقد كان للمسجد تأثير آخر فى لون من ألوان الحضارة وهو « المعمار » فإن المساجد قد اتخذت أشكالا وأنماطا من الهندسة والبناء والزخرفة والتصميم والتزيين ، وهذه الأشكال صارت قدوة عند الكثيرين فى الأبنية المختلفة وفى القرن التاسع للهجرة - كما يبين بعض المؤرخين - غلب تصميم المدرسة على المسجد فأنشىء على طرازها مساجد كثيرة ، ولكن تصميم المسجد ظل سائدا جنبا إلى جنب مع المدرسة ، وزيد على المسجد إلحاق « السبيل » و « الكتاب » به .

ونستفيد من هذا فائدتين : الأولى أن المسجد كان له تأثير حضارى من ناحية المعمار والزخرفة ، والأخرى أن المسجد كان يرتبط بالمدرسة حتى فى هذه الناحية ، مما يدل على أن المسجد كان يسير جنبا إلى جنب مع المدرسة ينشران الثقافة ويبثان ألوان الحضارة .

ويتصل بالموضوع الذى نعالجه أن المساجد عرفت نظام المكتبات منذ عهد بعيد ، والمكتبة منبع ثرار عظيم للثقافة والحضارة وقد جاء فى الجزء الثالث من كتاب وتاريخ التمدن الإسلامى ، ما نصه : « وكانوا يجعلون فى كل جامع خزانة كتب للمطالعة أو الاستنساخ » .

ولو أردنا أن نأخذ صورة متكاملة عن رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة لكان من واجبنا أن نتتبع الجهود التعليمية التى صدرت عن المساجد الكبيرة المشهورة التى يعد كل منها جامعة وهى : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، والمسجد النبوى بالمدينة والمسجد الأموى بدمشق ، والمسجد الجامع بالبصرة ، والمسجد الجامع بالكوفة ، والمسجد الجامع بالفسطاط (جامع عمرو) وجامع الزيتونة بتونس ، والمسجد الجامع بالقيروان ، وجامع المنصور ببغداد ، والجامع الأعظم بقرطبة ، وجامع القرويين ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر الشريف ، وقبة على بالنجف بالعراق ، وغيره مما غاب عن الذاكرة .

إن هذا الموضوع طريف وواسع ونافع حين تقيمه وتجميع كل ما يتعلق به ، وإذا كنت وضعت على طريقه قنديلا متواضعا ، فانى آمل أن تتتابع من خلفه قناديل وثريات تضىء وتنير ، وتمتع وتفيد ، وعلى الله قصد السبيل .

أحمد الشرباصى

نظرات فى الأدب والتصوف :

مناجاة الخالق

للأستاذ محمد ابراهيم الجيوشي

المناجاة من الأغراض التى انفرد الصوفية بها ، فلم يطرقها غيرهم ، ولم ينهج سبيلها سواهم ، فهم فرسان حلبتها ، وآباء عذرتها وأبناء بجدتها ، لأنها تعبر عن إحساساتهم الرقيقة ، ومشاعرهم السامية ، وعواطفهم الراقية ، وأرواحهم الصافية ، وقلوبهم المتصلة بنور الله ، ترى عظمته فى كل موجود ، وتحس قدرته فى كل ما يقع بين أيديهم ، وتحت أبصارهم .

والأدب الحى وليد الإحساس المرهف ، وصدى الانفعالات النفسية الصادقة ، وبقدر ما يهيأ لهذه المشاعر والأحاسيس من صدق وتجارب مع ما تحس به ، بقدر ما يكون رقى الأثر الأدبى الذى يعبر عنها ، وما يمتاز به من علو ، وما يحفل به من رؤى شعرية سامية ، ونماذج فنية تكون قدوة تحتزى ، وأمثلة تراعى .

ومن أبدع ما أثر عن الصوفية من هذه الألوان مناجاتهم لخالقهم وتوسلاتهم لبارئهم ، فهى غنية بالقوى الجبارة ، والذخائر الحية ، وإن قوبلت بالإهمال ، ولم تحظ بما تستحق من تقدير ، وما تتمتع به من أثر فعال فى ترقية الأحاسيس ودفع النفوس إلى السمو والصفاء فى الخلق والروح .

وهذه هى الوظيفة الأصيلة الأولى للأدب ، وهل كان الأدب فى يوم ما إلا عاملا من عوامل سمو الخلق وعلو النفس ، وهذا هو الذى دفع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أن يقول : (رووا أبناءكم ما حسن من الشعر ، فإنه يدل على مكارم الأخلاق) وما روى عن خلفاء الأمويين فى هذا المعنى .

وقد يتبادر إلى الظن أن فى هذا تغاليا بقيمة الأدب الصوفى ، وإلباسه ثوبا فضفاضا ، ويكفى لدفع هذا الظن أن نقف على آثارهم ، ونرقب معا هذه النماذج العالية ، حين نلقى بأسماعنا إلى هذه الترنيمة السماوية الرائعة ، ثم نتحسس نفوسنا حين تتلى لنرى إن كانت لا زالت على الأرض أو ارتقت إلى السماء ، يقول ابن عطاء الله فى حكمه مناجياً مستغيثاً .

إلهى : أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى ؟

إلهى : أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟

إلهى : وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى ، أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى ؟

إلهى : منى ما يليق بلؤمى ، ومنك ما يليق بكرمك .

إلهى : إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ، ولك المنة على ، وإن ظهرت المساوى فبعدلى لى ولك الحجة على .

ما أنا أتوسل إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟

أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك ؟

أم كيف أترجم لك بمقالى ، وهو برز إليك ؟

أم كيف تخيب آمالى ، وهى قد برزت إليك ؟

أم كيف لا تحسن أحوالى ، وبك قامت ؟ (١)

ألا ترى معى أن هذه الفقرات معبرة أصدق تعبير عن الفكرة الصوفية القائلة بأن الخير كله فى نسيان الذات ، فهو يرى أن من العبث الشكوى إلى عالمها ، ثم يرى أن ماله من عمل لا قيمة له بجانب فضل الله سبحانه فيقول :

« إلهى : كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك وكلما آيستنى أوصافى أطمعتنى مننك .

من كانت محاسنه مساوى ، فكيف لا تكون مساويه مساوى ؟

ومن كانت حقائقه دعاوى ، فكيف لا تكون دعاويه دعاوى ؟

إلهى : كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟

ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟

إلهى : أمرت بالرجوع إلى الآثار ، فارجعنى إليها بالأنوار ، وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك مصون السر عن النظر إليها ، مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، إنك على كل شىء قدير .

إلهى : منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك ، فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك » .

تراه فى هذه الفقرات يتلهف على الوصول إلى الله ، ثم يتحاور متفلسفا فيقول :

(١) غيث المواهب العلية على شرح الحكم العطائية ص ٨٧ ج ٢ .

إلهى : تقدس رضاك عن أن يكون له علة منك ، فكيف يكون له علة منى ؟

أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنياً عنى ؟

إلهى : إن رجائى لا ينقطع عنك ، وإن عصيتك ، كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك .

(إلهى : هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى) .

خبرنى بربك ، ماذا أنت شاعر به من المعانى والأحاسيس والانفعالات بعد أن تتلو هذا التوسل الفريد ؟ هل كنت ترى بعد هذا مجالا لإبداع ؟ أو تجد قولا لقائل ؟ اللهم لا . غير هؤلاء الصنف من الناس الذين سمت أرواحهم فأتت بهذا الضرب من الإعجاز فى البيان .

وإليك توسلا آخر لأبى العباس المرسى :

(إلهى : معصيتك نادتنى بالطاعة ، وطاعتك نادتنى بالمعصية ، ففى أيهما أخافك ؟ وفى أيهما أرجوك ؟ إن قلت بالمعصية قابلتنى بفضلك فلم تدع لى خوفا ، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لى رجاء ، فليت شعرى كيف أرى إحسانى مع إحسانك ؟ أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك (١)) .

إخالك بعد قراءة هذا الدعاء قد وثب إلى ذهنك الأثر النبوى الشريف « المؤمن بين مخافتين » ، وقد سبح فكرك كيف استطاع الصوفية أن يتغلغلوا إلى أعماق هذه الجوامع النبوية فيحللوها تحليلا فلسفيا أدبيا دقيقا رائعا يأخذ بالألباب ويستهوى الأفئدة .

وهذا توسل آخر لذى النون المصرى :

(إلهى : وسيلتى إليك نعمك علىّ ، وشفيعى إليك إحسانك إلىّ) .

(إلهى : أدعوك فى الملا كما تدعى الأرباب ، وأدعوك فى الخلا كما تدعى الأحباب) .

(أقول فى الملا : يا إلهى ، وأقول فى الخلا يا حبيبى ، أرغب إليك ، وأشهدك بالربوبية مقرا بأنك ربى ، وإليك مردى ، ابتدأتنى برحمتك من قبل أن أكون شيئا مذكورا ، وخلقتنى من تراب) .

وقوله : (إلهى ، ما أصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على أنه ليس كمثلك شىء ، وأنك غالب

(١) التصوف الإسلامى جـ ١ ص ١٥٧ .

لا تغلب ، وعالم لا تجهل ، وحليم لا تسفه ، وعدل لا تجور ، وصادق لا تكذب .

إلهى ، فإنى أعترف لك اللهم ، بما دل عليه صنعك ، وشهد لك فعلك ، فهب اللهم طلب رضاك برضاى ، ومسرة الوالد لولده ، ووقار الطمأنينة ، وتطلب العزيمة إليك ، لأن من يشبعه الولوع باسمك ، ولم يروه من ظمئه ورود غدران ذكرك ، ولم ينسه جميع الهموم رضاه عنك ، ولم يلهه عن جميع الملاهى تعداد آلائك ، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك كانت حياته ميتة ، وميتته حسرة ، وسروره غصة ، وأنسه وحشة .

إلهى ، عرفنى عيوب نفسى ، وافضحها عندى ، لأتضرع إليك فى التوفيق للتنزه عنها ، وأبتهل إليك بين يديك خاضعا ذليلا فى أن تغسلنى منها ، واجعلنى من عبادك الذين شهدت أبدانهم ، وغابت قلوبهم تجول فى ملكوتك ، وتتفكر فى صنعك ، ترجع بفوائد معرفتك ، وعوائد إحسانك ، وقد ألبستهم خلع محبتك ، وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك .

إلهى ، لا تترك بينى وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته ، ولا حاجزاً إلا رفعته ، ولا وعرا إلا سهلته ، ولا بابا إلا فتحته ، حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك ، وتذيقنى طعم محبتك ، وتبرد بالرضى منك فؤادى ، وجميع أحوالى حتى لا أختار غير ما تختاره وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك ، ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك .

إلهى ، كيف أسترزق من لا يرزقنى إلا من فضلك ، أم كيف أسخطك فى رضى من لا يقدر على ضرى إلا بتمكينك ، فيا من أسأله إيناسا به ، وإيحاشا من خلقه ، ويا من إليه التجائى فى شدتى ورجائى ، ارحم غربتى وهب لى من المعرفة ما أزداد به يقينا ، ولا تكلنى إلى نفسى الأمارة بالسوء طرفة عين .

ابراهيم الجيوشى

يظلمنى وارحمه

قال أحد الشعراء :

إنى وهبت لظالمى ظلمى وغفرت ذاك له على علمى
ورأيته أسدى إلى يداً لما أبان بجهله حلمى
ما زال يظلمنى وأرحمه حتى رثيت له من الظلم

الهندوكيّة

للأستاذ محيي الدين الألوائي

الديانة الهندوكية ، أو الهندوسية ، أقدم ديانات الهند ويدين بها الآن ٨٠ ./. من مجموع سكانها ، والهندوكية لا ترجع بأصلها إلى نبي معين ، ولا إلى كتاب واحد ، بل نمت على مر السنين ، واستندت إلى عدد من الكتب التي تجمل وتجمع فلسفة الحكماء القدامى ومعرفتهم وتعاليمهم ، التي تحتوى على أفكار عالية وقصص ذات عظات وعبر ، استلهموها خلال تأملاتهم العميقة المصحوبة بإنكار الذات والتفانى فى سبيل معرفة الحق .

وأقدم الكتب التي تضم المبادئ الهندوكية وفلسفتها ونظامها « الفيدا [١] » وربما هو أقدم الكتب فى الدنيا ، ومعنى كلمة « الفيدا » المعرفة لأنها تتضمن المعرفة التى نالها حكماء العصور القديمة والذين كانوا يسمون « ريشيس [٢] » و « مونيس [٣] » ، وقد كتبت فى لغة سنسكرتية بالأناشيد والأغانى التى اعتاد الآريون القدماء أن يتغنوا بها ، ويعرف العصر الذى دونت فيه « الفيدا » بالعصر الفيدى ، وأولها أو أسبقها وجوداً هو ما سمى بـ « الركفيدا [١] » ، وهو أقدم الكتب عن الآريين الذين نزحوا إلى الهند منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ، وحاربوا سكانها الأصليين من الجنس الدرافيدى ، وقد غزوهم من الشمال ، واستقروا على مقربة من كشمير ، وأفغانستان أولا ثم أتوا إلى الجنوب ثم استمروا فى الانتشـــار حتى بلغوا مقاطعات الهند الوسطى ، واستطاع بعضهم أن يعبروا الجبال والأنهار ويهبطوا إلى الجنوب ، أما كثرتهم فلم تستطع ذلك ، ولهذا بقى الجنوب فى الغالب موطناً للدرافيدين ، سيما فى منطقة مدراس .

بعد انتهاء العصر الفيدى بالهند ظهر ما يسمى بعصر الملاحم لأن الملحمتين الكبيرتين الهنديتين «الراماياناو المهابهاراتا» اللتين تقصان علينا وقائع الأبطال العظام ، والحرب العظمى قد كتبتا فيه ، وتفرع من الركفيدا ثلاث من الفيدات وهى « ساما » و « يجر » و « أثر » . والتحقيق العلمى يدل على أن أطوار الركفيدا من مراحله الابتدائية إلى دور تكمله ، بعد أن توطدت أركان

(١) VEDA
(٢) RISHIS
(٣) MUNIS

(١) The RIGVEDA

الفيدات الأربعة كانت تتطلب قرونا عديدة ، وقد أكد كثير من العلماء الباحثين أن تاريخ الفيدا ، الذى يسبق البوذية بآلاف السنين ، لمن أقدم التواريخ المتعلقة بالجنس البشرى .

يحتوى الركفيدا على ثمانين ألف بيت مع أن خمسة آلاف منها مكررة ، ويقول الزعيم الهندى الراحل جواهر لال نهرو فى إحدى رسائله عن الهند القديمة : « لعل هذه الكتب لم تدون فى أول الأمر ، وإنما حفظت عن ظهر قلب ، وبقيت محفوظة فى صدور الحفاظ من حكماء تلك العصور ، يتناقلونها باللسان والمشافهة جيلا بعد جيل ، وبعد انتشار نظام الكتابة كتبت الفيدا الأربعة فى اللغة السنسكرتية الكلاسيكية وسمى المجموع « سمهتا » أى « الديوان المجموع » .

والفلسفة الهندوكية الفيدية تثبت وحدة العالم فى النهاية ، كمخلوق الخالق الواحد الذى ينتمى إليه جميع المظاهر المختلفة ، وإليه مصير الكون كله ، ويدعوه الروح الأعظم ، أو العلة الأولى . وتهتم كثيراً بالتقدم الفكرى والروحى ، ويبدو من الأدعية الواردة فى الركفيدا مثل الدعاء المسمى باسم « كياترى منترام » ، أنها تحث على عبادة الآلهة العديدة التى يرجى منها البركة والإحسان ، وتدعو إلى تقـــديم القرابين والتضحيات إلى الآلهة مع ترتيل الأناشيد الدينيـة ، والأدعيـة ، وربمـا تصحبها الرقصات ، والطقوس المعينة المبينـة فى الركفيدا ، وتتحدث الفيدا عن نظام التشكيلات الإدارية ، والسياسية ، فى البلاد كما يلى :

١ — كرها (الأسرة) .
٢ — كرام (القرية) .
٣ — ديش (المقاطعة) .
٤ — جنا (الشعب) .
٥ — راشترا (الدولة) .

وأما الأسرة فوحدة تتألف من بضعة نفر يعيشون تحت رئيس عائلى ، إما هو الأب أو الأخ الأكبر ، فى مكان تحيط به مزارع الأسرة ومرعى مواشيها . والقرية عبارة عن مجموع عائلات تقطن فى منطقة معينة مع ما فيها من المزارع والبيوت والمواشى ، ويكون على رأسها كبير يشرف على شئونها . وأما المقاطعة فتتشكل عدة قرى مجاورة مع حدود معينة تفصلها عن شقيقاتها الأنهر أو الجبال أو الخطوط الوهمية المعلمة بعلامات ظاهرة .

وذكر الركفيدا بأن الدولة التى يحكمها ملك فى بلاد معينة ذات حدود ودفاع تدعى راشترا . وإذا لم يكن فيها ملك أو محافظ فيضطر الشعب لانتخابه من بينهم لمواجهة العدو تحت قيادة منظمة ، وعليه أن يقود

جيش الدفاع بنفسه فى وجه الأعداء ، معرضا نفسه للخطر . وكان يتلقى بمقابل خدماته طاعة الرعية والخراج والهدايا والتحف من القبائل، وأعيان البلد ، مكافأة على إشرافه على كرامة الدولة .

وحسب تعاليم الفيدا يرث الولد أباه ولا ترثه بنته إلا إذا كانت وحيدته ، وتعترف بحق الملكية ، وتبيح التمليك فى الممتلكات المتنقلة كالمواشى والخيول والذهب والحلى ، وينص دعاء من الأدعية المعروفة الهندوكية على أنه يجب لكل هندوسى أن يتذكر صورة وطنه دائما ، بل ويعبدها بصفة كونها مجموعة من الأنهر السبعة المقدسة ، وهى :

جنجا ، ويمنا ، وكوداورى ، وسراسوتى ، ونرمدا ، وسند ، وكاويرى ، ومجموع مساحة الأراضى الهندية مقسمة فيما بين هذه الأنهر السبعة الكبيرة . وكما أن دعاء آخر يفرض على الهندوكى أن يتصور موطنه مجموعا للمدن السبع المشهورة وهى :

أيودهيا ، ومتهورا ، ومايا ، وكاش ، وكنجى بورام ، وأوجين ، ودواركا ، والمطلوب من كل هندوسى أن يزور ولو مرة فى حياته ، هذه المدن المقدسة التى هى جزء من معتقداته . وما يزيد هذه الزيارة نفعاً أن هذه الأماكن واقعة فى مختلف أنحاء البلاد ، فالذى يقوم بها يتنقل من أقصى البلاد إلى أقصاها ، وورد فى بعض الكتب المقدسة للهندوكيين أن الهند أى بهارت بمثابة الجنة على الأرض بسبب بيئتها المحركة للروح . وتقول تلك المصادر أيضاً بأن الأم والوطن يفوقان الجنة فى العظمة .

والديانة الهندوكية تقسم حياة الفرد إلى مراحل مختلفة :

١ — براهما جارى : أى مرحلة طلب العلم .

٢ — كراهستا : أى الحياة المنزلية .

٣ — بابراستا : أى دور العبادة .

٤ — سنياسى : أى مرحلة ينصرف فيها المرء إلى التأمل والزهد فى الدنيا .

وعندهم أعمار خاصة لكل من المراحل المذكورة . فمرحلة العبادة مثلا تبدأ والمرء فى الخمسين من عمره وهو العمر اللائق — فى نظر الهندوكية — لصاحب الأهل والبيت أن يعتزل قليلا عن متاعب الدنيا ، وينصرف للعبادة ، والمراد بالمرحلة السنياسية الاستعداد للانتهاء من علائق الدنيا الفانية

وكما يكون نظام المراحل فى حياة الفرد مطلوبا فى الطريقة الهندوكية ، أصبح المجتمع الهندوسى مقسما إلى أربع طبقات بحكم الولادة فى الحياة الاجتماعية وهى : البراهمة ، وتشتريان وويسيان ، وشودران وفى كل منها توجد طبقات وطوائف عديدة .

ويقول نهرو – ومن المعلوم أنه ينتمى إلى طبقة البراهمة من الهندوكية – فى معرض الكلام عن معتقدات الآريين فى الهند: «ولفظة الآرى تعنى الرجل الشريف أو إنسانا من نوع أرق وأعلى ، وكان الآريون يحبون الحرية والعزة ، وعلقوا أهمية عظمى على الزراعة ومن ثم قدروا كل شىء من شأنه أن ينهض بالزراعة .

وقد رأوا أن الأنهار الكبرى أمدتهم بالماء ولهذا أحبوها ونظروا إليها نظرتهم إلى الأصدقاء والمحسنين الكبار ، والثور والبقرة ساعداهم أيضا مساعدة كبيرة فى الزراعة وفى حياتهم اليومية ، كما أعطتهم البقرة كذلك من لبنها غذاءا، وقد اعتنوا بهذه الحيوانات وتغنوا ببركاتها عليهم .

ثم مر على ذلك العهد زمن طويل نسى فيه الناس فى الهند السبب الحقيقى فى عناية قدمائهم بالبقرة ، ولهذا بدأوا يعبدونها كأن فى ذلك نفعا لهم .

وإعجاب الآريين بأنفسهم واعتزازهم بعنصرهم دفعهم إلى التخوف من الاختلاط بغيرهم من سكان الهند ، ومن ثم سنوا من القوانين والقواعد ما يحول دون هذا الاختلاط وما يجعل زواج الآرى من غير عنصره أمرا متعذرا ، وقد تطور ذلك فيما بعد إلى ما يسمى الآن بنظام الطبقات . ومما يضحك أن الاعتزاز الطبقى قد بلغ إلى درجة أن بعض الناس يخافون من لمس غيرهم أو مؤاكلتهم ، وإنه لمن دواعى الغبطة أن هذه النزعة قد بدأت تقل وتخف حدتها شيئا فشيئا فى عصرنا الحاضر» .

وله أيضا بيان طريف عن فكرة تقديس الأماكن فى الهند القديمة فيقول : «كان الآريون مغرمين بهلال القمر ولهذا اعتبروا كل الأماكن التى على شكل هلال أماكن مقدسة . وكثير من مدنهم الكبرى مثل مدينة (بناراس) كانت على شكل هلال وأن نهر الجنج ، المعروف يبدو عند مدينة الله آباد على شكل هلال حيث تلتقى الأنهر الثلاثة المقدسة لدى الهندوكيين وهى الجنج ، ويمنا وسراسوتى .

وكانت الهند الآرية ممتدة من جبال الهمالايا إلى سلسلة جبال فيندهيا بشكل هلال ، ومن ثم سموها فى كتبهم القديمة (آريا فارتا) أى أرض القمر ، فلفظة الهند تعنى القمر ، وهكذا كانت آريا فارتا أرض الهند» .

ويقول الفيدا فى معرض بيان طريقة أداء القرابين للآلهة التى يرجى منها البركة والإحسان إن الحق واحد يتحقق بطرق شتى ، فلا مانع من عبادة آلهة كثيرة ، وتقديم التضحيات لها ، بقصد التقرب إلى الروح الأعظم ولو اختلفت مظاهره ، وأما أنواع القرابين التى يحث عليها الركفيدا المذكور فتقديم اللبن

والحبوب والسمن واللحوم، وكذلك أنواعا من المرطبات الممزوجة من عصير الفواكه والنباتات، إلى جانب ترتيل الأناشيد الدينية والأدعية الفيدية، تصحبها رقصات وحركات تعبدية.

والرقص جزء أساسي من الشعائر الدينية يستمد وحيه من التعبيرات والابتهالات التي تلازم الحفلات الدينية المقامة حسب التعاليم الفيدية والموسيقى الهندية شأنها في ذلك شأن الرقص مصحوبة بحركات تعبيرية، من ثم كان الرقص الهندي الكلاسيكي خليطا من الفن والدين والفلسفة، بل وكانت نشأته الأولى في المعابد الهندوكية، حيث يعتمد على حركات رمزية تعبيرية أمام الآلهة، ثم تدرج منها الرقص الهندي إلى الأسلوب القصصي والرمزي، يقص الحوادث والوقائع، ويرمز إلى مظاهر الحياة، ولذا نرى الهندوكية تنظر إلى الرقص الكلاسيكي الهندي نظرة تقدير وتقديس.

وتعتقد الفلسفة الهندوكية في حياة بعد الممات في عالم يسيطر عليه (ياما)، وتقول بضرورة انتهاء جميع العلائق بالمادة لتحقيق النجاة الأبدية، وبعبارة أخرى تقول الهندوكية: إن النجاة الأبدية . . . لا تتحقق إلا بالفناء الكلي، ولهذا تدعو الأفراد إلى القيام برياضات شاقة، مثل رياضة اليوجا والإمعان في ترويض النفس على التقشف والزهد، والروحانية البالغة بدرجة لا تفسدها أي صلة مادية.

تقول الكتب المقدسة الهندوسية عن خلق العالم: إنه كان من قبل أن يوجد شيء ما، بيضة كونية تسميها الأساطير «براكرتي» أي الطبيعة، وتطورت هذه البيضة تطورات كثيرة في مختلف الدهور حتى تحولت إلى بيضة ذهبية، واستكن سيد الكون فيها، وكانت البيضة عائمة فوق سطح البحر المحيط، ومن تلك البيضة خلق العالم الحاضر، وجاء في أسطورة «تاراين» عن خلق الكون: أن الخليقة انبعثت من دموع (براجاباتي). فلما جاء (براجاباتي) إلى الوجود من العدم بكى، فلما سالت دموعه تحولت إلى الأرض وما مسها منها تحول إلى السماء . . وجاء في ترنيمة تاراين المشهورة في وصف إله الكون وحمده وثنائه:

ياروح الأرواح! أنت الذي بسطت المكان في جميع الجهات.

وبسطت الزمان الذي لا نهاية له، فأنت الموجود قبل وجود السماء والأرض، فأنت استويت على الأرض. إلى أن قالت:

ولكن لا أرى الآن شموسا، ولا عوالم، فإني أرى الله فقط، وأحمده فقط!.

وترد الأساطير الهندوكية وحدة الكون إلى (كلبا) أي إلى يوم من زمن (براهما) الخالق فكان براهما يخلق في الصباح العوالم

الثلاثة الأرض والجنة والنار، وتنتشر في الليل هذه العوالم الثلاثة فتسير الأيام والليالي بأحداثها وتطوراتها، وتدل النظرية الهندوكية نحو الحياة على أنها نظرية الارتقاء التدريجي ثم إلى الانحطاط، وقد أوردت كتب «بوراناس» الهندوسية صورة أخرى عن كيفية انتهاء الكون فتقول: إن الإله «وشنو» سيظهر على صورة إله كالي، بطلا مسلحا وراكبا على حصان أبيض له جناحان محليان بالجوهرات محركا بيده من فوق رأسه حسام الدمار والخراب، حاملا في يده الأخرى قرصا ضخما، ويرفع حصانه قدمه اليمنى الأمامية، والدنيا واقفة على رأس أفعى جالسة على ظهر سلحفاة وعندما يضرب الحصان بقدمه على الأرض تسقط السلحفاة في الهاوية، وتتخلص من الثقل العظيم، ويهلك جميع خبثاء العالم» وورد في كتاب كيتا عن نهاية العالم:

الغيوم تمتنع عن المطر لمدة مائة عام، فلا يجد الناس طعاما يأكلونه، فلما يشتد الجوع بهم يضطرون لأكل بعضهم بعضا، وهكذا يلقون بأيديهم إلى التهلكة والفناء.

وهناك وصف آخر عن نهاية العالم:

طوفان مخيف يحيط بالأرض، وشموس ملتهبة في السماء تمتص مياه الطوفان، ثم تهب على الأرض ريح من نار تأكل جميع الأشياء وهكذا يحترق العالم بأسره.

وأما نظرية الفيدا عن العالم فتقول بوجود الأرض والسماء، ولكن لها آراء مختلفة عن هيئة الأرض الأصلية فمرة تقول إن الأرض إذا اتحدت بالسماء تكونا بهيئة كأسين وضعا وجها لوجه. ومرة أخرى شبهت الأرض والسماء بدولابين على طرفي محور، وتقول إحدى الأساطير الهندوكية: إن الأرض يحملها أربعة من العفاريت فوق أكتافهم، وأن الزلزال تقع في الأرض حينما يعتريهم التعب وينقلونها من كتف إلى آخر.

وإذا ثبت من التاريخ أن البوذية ترعرعت في الهند في القرن السادس قبل الميلاد، فلابد أن تكون الحضارة البرهمية، والثقافة الهندوكية قد وطدت أقدامها فيها قبل البوذية؛ لأن الكتب القديمة البوذية تذكر عنهما، وكما أن الحضارة البرهمية قد اكتملت بعد مدة طويلة بعد العهد الفيدي، لأن الأدب البرهمي المتشكل من أربعة مصادر رئيسية: سوترا، وأرنياكا، وأبانيشد، وبرهمنا قد تم ترتيبه بعد الركفيدا بزمن طويل، يمكن أن يقال بصورة قاطعة إن تاريخ الثقافة الهندوكية المبنية على الفلسفة الفيدية يرجع إلى قرون عديدة قبل الميلاد.

محي الدين الألوائي

شوقي وتاريخ العرب والإسلام

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

— ١ —

كان شوقي صاحب بيان ، أنضر الله به صفحة الأدب ، ولغة العرب ؛ وحفظ به تراث الإسلام والمسلمين . كان صوتا قويا من أصوات العروبة ، وسيفا مجلوا ينتضى للذياد به عن العرب ، والدفاع عن الإسلام . كان حبه كله لبلاده ، وإخلاصه كله لدينه . وقصائد شوقي وفرائده ، في الإسلام وتاريخه ومآثره ومفاخره ، وفي الاعتزاز بكتابه الخالد ، وبلغته المبينة الفصيحة ، ورسالته في القديم والحديث ، ظلت وستظل منهلا عذبا ينهل منه الواردون والظامئون ، ويأخذ الحكمة منه السابقون ممن أتوا بعده واللاحقون ...

إن أمير الشعراء سبق جيلنا في الدعوة إلى بناء الحاضر الممتد لشعوب الإسلام على أساس قوي من تراث العربية وثقافتها وماضيها ؛ وفي المناداة بوحدة الشعوب الإسلامية والعربية وإخائها ؛ وفي تعظيم شأن العرب وقوميتهم ؛ وفي الدعوة إلى اشتراكية الإسلام السمحة ، بما تحتوي عليه من حب وعدل ومساواة وإخاء ومثل عالية رفيعة .

— ٢ —

وهنا نتحدث عن آراء شوقي وآياته الخوالد ، في كتابه « دول العرب وعظماء الإسلام » ، الذي نظمه في منفاه بالأندلس ، إبان الحرب العالمية الأولى ، والذي قصره على الحديث عن تاريخ الإسلام وبطولات أعلامه الخالدين ، وقد طبع الكتاب لأول مرة في القاهرة عام ١٩٣٣ بعد وفاة شوقي بعام ... وكله من بحر الرجز العذب المستساغ يقول شوقي في مقدمة هذا الكتاب أو الديوان على حد سواء ، مشيراً إلى الحرب العالمية الأولى ، ويذكر تأليفه لهذا الديوان في منفاه :

لما رمى الله بهذي الحرب
على بني الشرق وأهل الغرب
تحركت سواكن الأقدار
واطردت عوامل الأكدار
وحكم الله بهجرة الوطن
وطالما ابتلي بها أهل الفطن
فكنت أستعدي على الهموم
بنات فكر ليس بالمذموم

حتى أراد الله أن نظمت
من سير الرجال ما استعظمت
واخترت بحراً واسعا من الرجز
قد زعموه مركباً لمن عجز
يرون رأيا وأرى خلافه
الكأس لا تقــوم السلافة
وقيمة اللؤلؤ فى النحور
بنفسه وليس بالبحــور
شعر لوسع فيه ما لا يلزم
وتركه أليق بى وأحـــزم

وهو هنا يشير إلى مجمل منهجه فى هذا الديوان من حيث الموضوع والشكل ، وإن كان لم يستطع الإفصاح كل الإفصاح عن قيمة أعماله الفكرية أو الأدبية ، أو الفنية على السواء ، وقد يكون مبعث ذلك أن الشاعر غير الناقد ، وأن حديث الشاعر عن شعره قلما يكون ذا قيمة نقدية كبيرة وعلى الجملة فطلاوة ديباجة شوقى ، وعذوبة أسلوبه هنا أكبر من مغزى كلامه ومعناه .

— ٣ —

ولسوف نتناول بعض آراء شوقى فى هذا الديوان بالدراسة والتحليل والنقد ، لأهميتها ولأهمية الديوان معا ؛ إذ أنه من أروع ما يمكن أن يكتبه شاعر ليقرب التاريخ إلى عقول الناس ، وليتخذ منه مادة لأدبه ، وموضوعا لشعره .

شوقى واللغة العربية :

يحتوى الديوان على قصيدة عن العربية عنوانها « لغة العرب » ، مجد فيها شوقى لغة القرآن وعذوبتها وفصاحتها ، وأشار إلى أطوار تهذيبها ، ونزول القرآن بها ، وحملها لرسالته وثقافته وحضارته ، واستعارتها من فارس واليونان ما استعارته من معرب منقول ؛ ودعا الشباب العربى منها إلى التزود من ثقافات العرب والعربية بكل جليل ومفيد داعيا إلى ترك الزيف من دعوات الداعين لهدم تراثنا ، والانقضاض على قديمنا ؛ وإلى الأخذ بطرف من كل جديد مفيد ، وإلى الإقبال على القرآن والحديث إقبال المستفيد المسترشد لما فيها من حكمة وأدب وبلاغة .

يقول شوقى ـ فيما يقول ـ من هذه القصيدة :

إنها لغة الأول فى الكتاب
ولغة الصبوة والعتاب
فخض عباب فقهه وسره
وغص على صحيحه وحره
لا ترض منه مبلغ الرعاع
وحصة الأعمى من الشعاع
واقرأ علوم السلف الأعلام
فإنها معالم الكلام
رب قديم كشعاع الشمس
ابن غد واليوم وابن أمس

وخل ما زيفت الليالى
وما نفت مصارف الأجيال
ولا تضع من الجديد كله
يفتك وضع الشيء فى محله
رب جديد عنده المعول
ورب كنز لم يثره الأول
إن طريق العقل لا يسد
ومذهب الأفكار لا يحد

وما أعظم ما رسم شوقى هنا من منهج قوى يحافظ على العربية ، وإن كان لا يتنكر للتجديد المقبول الذى يقره أئمتها سواء فى مفرداتها أو قواعدها ، إن شوقى فى هذه القصيدة كان يصدر عن عقل حصيف ، وتجربة حكيمة ، وفكر مضىء ... وقد دعا شوقى إلى تسجيل تاريخ العرب بالشعر ، وفضل الشعر التاريخى والنثر التاريخى على كتابات المؤرخين ، الذين يسجلون الأحداث فحسب ؛ وذلك فى قصيدة له فى هذا الديوان أي عنوانها « التاريخ » ، ويشير شوقى فى قصيدته الوطن إلى سيادة العرب والعربية بعد الإسلام ، فيقول :

وأنجز الله النبى وعده
وساد قومه الزمان بعده
فورثوا قيصر فى المشارق
وأخذوا الغرب بسيف طارق
وأمنوا الأمصار فاتحينا
وعدلوا فى العالمين حينا
واتخذوا كل القرى أوطانا
وحاسنوا الأهلين والقطانا
فحيث حل العربى حيا
من الملا قبيلة وحيا
وشاطر الأرض على التساوى
محاسن الأقوام والمساوى
حتى انقضى سلطانهم وزالا
وفضلهم باق ولن يزالا
وذلك اللسان باق لم يزل
يمضى عليه من جلا ومن نزل
لم يبق منهم سوى الأصوات
وعجب تكلم الأموات

البيت الحرام :

وقصيدة شوقى فى الديوان عن البيت الحرام تنبىء بحبه للعرب والعربية والإسلام وكتابه ولغته وبيته العتيق ، وقد تحدث فيها عن قداسة البيت وعظمته وتاريخه وسدنته من قريش أبناء إسماعيل ، ومن العرب الميامين الذين انتشروا فى كل صقيع .

انتشروا قبائلا على الزمن
ملء الحجاز والشآم واليمن

ويختم القصيدة ببيان أهمية البيت الحرام وجلالته حتى فى الجاهلية ، حيث يقول :

لا ينطق الحجر به والإفك
ولا يحــل للدماء سفك

وما أروع ما قال شوقى فى البيت الحرام .

شوقى والسيرة :

وإذا كان شوقى قد حلق فى قصيدته النبوية « البردة » فقد حلق هنا فى هـــذا الديوان فى مطولته الرائعة « السيرة النبوية » التى تحدث فيها عن الرسول حديثا عجبا جامعا ، فى طفولته وشبابه ورجولته ، وفى بعثته ورسالته ودعوته وهجرته وغزواته .... صلوات الله عليه .

تاريخ الإسلام فى الديوان :

ويمضى شوقى فى الديوان فى تسجيل تاريخ الإسلام تسجيلا رائعاً فى قصائده : الخلفاء الراشدون ، خلافة أبى بكر ، خلافة عمر ، عمر وخالد بن الوليد ، مقتل عمر ، خلافة عثمان ، الخصمان ، أمير المؤمنين على ، معاوية ، عمرو بن العاص ، خالد بن الوليد ، دولة بنى أمية ، خلافة عبد الله بن الزبير ، البيعة للسفاح ، أبو مسلم الخراسانى ، الدولة العباسية ، أبو جعفر المنصور ، صقر قريش ، دولة الفاطميين .

ففى هذه القصائد يسجل تاريخ الإسلام وملوكه وخلفاء المسلمين ، تسجيلا صادقا واعيا ، ويصور الأحداث تصويراً فنياً عاليا ، وينطق الزمن حتى لكأن الزمن يتحدث عن بطولات المسلمين وتاريخهم وسير أعلامهم .

وهنا نشير إلى أن اتخاذ شوقى القصيدة العربية موضوعا لتسجيل التاريخ كما يبدو فى همزيته فى الجزء الأول من ديوانه ، وفى هذا الديوان ، كان عملا كبيراً فى تجديد الشعر وفتح الأبواب أمام الشعراء ، وإمداد الشاعر بطاقات كبيرة من المعانى والأفكار والأخيلة والحكم الأصيلة ، ولا شك أن ذلك كان خطوة من خطوات التجديد الشعرى عند شوقى ، وكان مقدمة لكتابة شوقى رواياته التاريخية التى عدت فتحا كبيراً فى الشعر العربى الحديث .

ونحن لا ننكر أن شعراء العربية القدامى سبقوا (شوقياً) فى هذا المضمار ، من مثل ابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) الذى نظم تاريخ الخليفة المعتضد العباسى (٢٧٩ — ٢٨٩) وكما فعل ابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) فى نظم تاريخ الناصر الخليفة الأموى الذى حكم الأندلس خمسين عاما (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ولكننا لا نتجاهل أن شوقيا قد جدد الشعر العربى بنظمه لأحداث التاريخ الإسلامى وبطولاته وسير أعلامه وجدد طريقة الأقدمين فى كتابة السيرة ، وتسجيل تاريخ الإسلام منذ بدأ فجره يضىء فى آفاق الدنيا وأرجائها .

رحمك الله يا شوقى فى الخالدين ؟

محمد عبد المنعم خفاجة

توضيح وتصحيح لتفسير آية

للأستاذ عباس طه

يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » .

يذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية وجهين :

أحدهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يهيئ في نفسه شئونا أخروية فيخطر الشيطان بنفسه خواطر دنيوية ، ويسوقون للاستشهاد على ذلك حديث (إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله سبعين مرة) فنزلت الآية تعزية للرسول ، ويكون معناها على هذا : أنه ما من نبي ولا رسول إلا كان إذا اتجه بنفسه إلى شئون الآخرة أثار الشيطان في نفسه خواطر الدنيا .

وثاني الوجهين : أن الرسول كان قد تمنى ألا ينزل عليه من الوحي ما ينفر قومه من تحقير معبوداتهم ، وتسفيه أحلامهم ، ثم كان أول ما نزل بعد تردد هذه الأمنية بنفس الرسول سورة « والنجم إذا هوى » فلما بلغ في قراءتها « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ، أجرى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهم الترتجى . فنزل جبريل فأخبره الخبر ، فاغتم لذلك ، فنزلت « وما أرسلنا من قبلك من رسول » الآية ، ويكون معناها على هذا : ما من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألا يكون من الوحي ما ينفر منه قومه ألقى الشيطان في أمنيته : أي أجرى الشيطان على لسانه كلاما من تأليف الشيطان كالذي أجراه على لسان الرسول من قوله : تلك الغرانيق إلخ . هذا ما يقوله المفسرون في سبب نزولها ، وفي تفسيرها .

وإنا قبل أن نناقشهم فيما يمس صميم الدين وأصوله من جراء هذا التأويل ، نناقشهم في أمور دون ذلك .

وأول ما نناقشهم فيه من هذا هو أن ذلك التأويل يقتضي أن كل نبي قد تمنى ألا يكون فيما يوحى إليه من ربه ما ينفر قومه كما يقتضي أن كل نبي أجرى الشيطان على لسانه غير ما أنزل إليه من الله ، فهل يمكن لأحد من الناس أن يثبت ذلك إثباتا صحيحا أو قريبا من الصحيح ؟ إنا موقنون أن لا جواب لذلك سوى النفي البات .

وثاني ما نناقشهم فيه : أنه بناء على هذا التأويل فإن النسبة تنقطع كل الانقطاع بين الآية وبين ما سبقها من آيات ، إذ الآيات السابقة كلها عزاء للرسول صلى الله عليه وسلم بذكر ما كان من تكذيب الأمم السابقة لرسلهم ، وكما ترى ليس بين (أن كل رسول

قد تسلط عليه الشيطان . وملك عليه لسانه فأجرى به ما شاء لا ما شاء الله ، وبين تكذيب الأمم (رسلهم) مناسبة ما .

وثالث ذلك : أنه إذا كانت أمنية رسولنا الكريم هى ألا يكون فى الوحى ما ينفر قومه لا يكون إجراء (تلك الغرانيق العلا) على لسان الرسول من قبيل الإلقاء فى الأمنية بل هو تيسير اسبيلها ، ومحاولة لتحقيقها .

أما ما نريد أن نناقشهم فيه مما يمس صميم الدين ويهدم أسسه وأصوله فأول ذلك : أنا نعلم أن أساس الرسالة هو دعوة الناس إلى توحيد الله بالإعظام والتقديس والرجاء ، وإفراده بالعبادة والدعاء ، فلا مناص ـ والأمر كذلك ـ عن حجاجهم فى معبوداتهم وبناء الأدلة والبراهين على بطلان عبادة غير الله ليخلصوا دينهم لله ، فلو جاز أن يكون مثل هذا المتمنى نبيا أو رسولا لكان معناه أننا نجيز على الأنبياء أن يجاملوا فى دينهم ويلاينوا فى رسالتهم ، وذلك الذى طالما عبناه على العادى من الناس فضلا عن الرسل والأنبياء .

وثانى ذلك : ما يستلزمه حديث الغرانيق من أن يكون للشياطين من السلطان المادى ما يصل فى قوته وهيمنته إلى حد أن يملكوا على الأنبياء ألسنتهم ، فيجروا عليها الكفر الصراح والشرك الهادم ، واللازم البين لذلك أن يكون ما يملكون على الناس من غير الرسل والأنبياء أكبر من هذا وأفظع ، وذلك ما ينكره الدين وينكره الواقع ، فإنه ليس للشياطين من صلة بالناس إلا أن يوسوسوا لهم بالكفر والفسوق والعصيان ، وحتى هذا أيضا نرى الله قد استثنى منه عباده المخلصين ، وليس من ريب فى أن الأنبياء الرسل هم صفوة المخلصين .

وثالث ذلك : ما يستلزمه حديث الغرانيق من اقتلاع الثقة من النفوس بكل ما جاء به رسول الله من أصول وأحكام . فما من أصل ولا حكم إلا ويجيز مجيز أن يكون مما أجراه الشيطان على لسان النبى إن كان قولا ، وعلى جوارحه إن كان فعلا .

من هذا يتبين القارىء انه يجب وجوبا لا مراء فيه أن يسلك فى تفسير الآية الكريمة وجهاً غير هذا الوجه ، وسبيلا غير هذا السبيل . وإليكم ذلك :

إننا نعلم أنه ليس للرسل والأنبياء من غاية فى هذه الحياة يحاولون تحقيقها ولا من أمل منها يتحملون من أجله أهول المشاق وأعظمها ، إلا شىء واحد هو : أن يستجيب لهم قومهم ويؤمنوا برسالتهم فتلك مهمتهم فى هذه الحياة وأمنيتهم التى لا يرجون سواها ، ولا يمكن أن يخطر ببالهم غيرها . نعلم إلى ذلك أيضا أنه ما من أمة دعيت على لسان رسول إلى خير ورشاد ، وإصلاح ونظام إلا صدهم الشيطان ووسوس إليهم وزين لهم الشر والكفر ، وقبح فى نظرهم الخير والإيمان ، وأثار حول أدلة الرسول وإرشاداته شبهات

وشكوكا مختلفة الألوان والاتجاهات، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وهذا الصد وتلك الوسوسة هو إلقاء الشيطان فى أمانى الرسل، فإنه بالصد والوسوسة وإثارة الشبه والشكوك كأنما يلقى الأشواك والصخور (فى طريق الأنبياء إلى غايتهم التى هى استجابة قومهم لهم، وإيمانهم بهم. فيكون معنى الآية على هذا: إنه ما من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى إيمان قومه واستجابتهم للخير والرشد، صدهم الشيطان عن الإيمان وعاق الرسل عن أمانيهم بما يثير من شبه وشكوك حول آيات الرسل وحججهم، وحول ما جاءوا به من أصول وأحكام، ثم ما هو إلا قليل حتى تنطوى شقشقة الباطل، وينقشع دخان الشكوك والشبه التى أوحت بها الشياطين إلى نفوس المدعوين، ثم يبدو الحق محكم البنيان، راسخ الأركان، باسق الفروع.

هذا هو التأويل الصحيح، والمعنى الحق الذى يجب أن تحمل عليه الآية.

أما أولا: فلأننا نتحاشى به باطلا لا يدانيه باطل، وفسادا لا يساويه فساد، ألا وهو بجاملة الأنبياء فى دينهم، وهيمنة الشيطان على ألسنتهم.

وأما ثانيا: فلأن الآيات السابقة قد ذكر فيها تكذيب الأمم الماضية لأنبيائهم مما يدل على أنهم جميعا قد عاقهم الشيطان عن غاياتهم بما زين للقوم، وأوحى إليهم من شبهات، وبذلك ترى بين الآية وبين الآيات السابقة صلة تامة واضحة.

وثالثا: ماتراه من العدول عن سلوك سبيل الحقيقة فيما أسنده إلى الشيطان، إذ لم يقل بدل (ألقى الشيطان فى أمنيته) عاق الشيطان أمانيهم بالوسوسة إلى قومهم، بل سلك سبيل المجاز فكان ماترى من إيجاز هو أكثر شمولا وفائدة مما فى أسلوب الحقيقة من تفصيل، ثم هو إلى ذلك الإيجاز قد أبرز وساوس الشيطان وما يوحى من شبهات فى صورة الأشواك والصخور تلقى فى الطريق المعبد فتقف بالسائرين عن مواصلة السير إلى غاياتهم: ذلك أن الإلقاء من خصائص الماديات، فلما أسند الإلقاء إلى الشيطان والشيطان لا يكون منه إلا الوسوسة والتخييل، كان ذلك تصويرا للوساوس إلى السامعين بالأشواك والصخور والسدود مما يزيد فى نفور الناس من الشياطين ويضاعف الحذر منهم.

وهنا يقف بك بين مواكب الجلال والجمال ما يتجلى من روائع القرآن، ويلتمع فى ثنايا الأسلوب من دقائق تختلب القلوب، وتملك النفوس. فإنه تعالى لما أراد تعزية رسوله بما قص عليه من تفصيل ما كان للأنبياء والرسل من أقوامهم، وكان مهما أطال بذكر رسل وأنبياء. فإنه يبقى احتمال أن يكون هناك رسل وأنبياء لم تذكر أسماؤهم تكون قد تحققت لهم أمانيهم واستجابت لهم أممهم دون أن يعوقهم الشيطان عن سرعة تحققها فلا تتم التعزية مع

هذا الاحتمال ، لما كان كذلك تراه قد أجمل التسلية فى أسلوب شامل مستقص فى الأفراد ومستقص فى الأزمان ، حتى إذا أفلت واحد من عموم الأفراد فى قوله (من رسول ولا نبى) لا يفلت من عموم فى الأزمان قوله (من قبلك) لأن (من) الأولى فى الآية لاستقصاء الأزمان ، والثانية لاستقصاء الأفراد ، وبذلك لا يبقى هذا الاحتمال ، فتتم تسلية الرسول حين يعلم أنه لم يشذ عما بينه وبين قومه نبى من الأنبياء .

وتراه ثانيا لم يذكر مفعول (تمنى) فلم يقل : إلا إذا تمنى هداية قومه ، لأن المفعول يشعر دائما بأنه قيد فى فعله وأن الفعل متعلق به هو دون غيره مما يصلح أن يتعلق به ذلك الفعل ، فذكره مفهم لا محالة أنه للاحتياط عما عداه من المفعولات ، فلو ذكر مفعول (تمنى) الذى هو هداية القوم ، لأشعر أن للرسل متمنيات غير هداية قومهم . وعلى هذا يكون إنما ترك للإيذان بانحصار تمنيهم فى ذلك المطلب العالى وتلك الغاية النبيلة ، وفى ذلك من التنويه بشأن الأنبياء ما فيه : وكذلك الشأن فى (قوله ألقى الشيطان فى أمنيته) إذ لم يذكر المتعلق ، فلم يقل : ألقى الشيطان فى أمنيته العوائق من شبهات ووساوس ، لأن ذكر المفعول وهو - كما قلنا قيد فى فعله - يفهم أنه للاحتياط عن مفعول آخر ، وهذا يشعر بصحة تعلقه بذلك الآخر ، فيفيد أن الشيطان يصح أن يلقى غير الشر الذى هو الشبهات والوساوس ، وعليه فيكون عدم ذكر المتعلق للإيذان بانحصار ما تلقيه الشياطين فى الشر وأنه لا يكون عن طريقهم خير فمجرد ذكر الإلقاء مسنداً إليهم مفهم نوع ما يلقون إلى الناس ، وفى ذلك من تقبيح أمر الشيطان ما فيه .

وإلى هنا أستميح القارئ عذراً فى أن شغلت بروائع القرآن عما أنا بصدده والآن سأعود ثانية إلى موضوعنا الأصلى فأقول .

إنى بعد أن اهتديت فى تأويل الآية إلى ذلك المعنى راجعت تفسير الإمام الألوسى فوجدته بحمد الله قد أغفل حديث الغرانيق إغفالا ولم يعرض له غير أنه فسر قوله تعالى (تمنى) بقرأ وفسر ما يلقيه الشيطان بما يشبه المغالطات ، ولكنى على أى حال قد سرنى كثيراً سلوك الأستاذ الألوسى هذا المسلك المشعر بأنه يرى بطلان حديث الغرانيق ، والمشعر بوجوب صيانة القرآن الكريم عن الترهات والأباطيل وما يخدش قدس الرسل والأنبياء ، ولقد أيدلدى ما اهتديت إليه من تأويل فى الآية ما أخبرنى به أحد شيوخنا الأجلاء الذين ضربوا فى علوم التفسير بسهم أسدّ ورأى أشد وقد نحا هذا النحو إمام المحققين وقطب الواصلين سيدى عبد العزيز الدباغ أكرم الله مثواه ورضى عنه وأرضاه ؟

عباس طه

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

« المعلقة الإسلامية : أو معلقة الكعبة »

للأستاذ اليعربي محمد محمد توفيق ، وشرح الأستاذ محمد أمين التميمي وقد ذكر في المقدمة فكرة هذه المعلقة :

وقبل أن أفكر جديا في طبع هذه المعلقة عرضتها على كثير من شعراء العالم العربي وأدبائه ، فكان الإجماع على الإعجاب بها ، والطرب لها ، ووصفها بأنها إلياذة إسلامية ، وكانت الرغبة في طبعها حفظا لها من الضياع ، وكان السعي الحثيث لذلك ، حتى تم التوفيق بإخراجها إلى العالم الإسلامي بهذا الثوب القشيب .

فإلى أنصار المدرسة القديمة ، وإلى متذوقي اللغة العربية ، وإلى عشاق الأدب العربي وإلى كل مسلم يهمه الإلمام بتاريخ الكعبة ، والمسجد الحرام ، حيث يولي وجهه خمس مرات كل يوم : أقدم هذه المعلقة الإسلامية .

وهي طراز آخر من الملاحم الشعرية الحديثة ، إذ اتجه الشاعر فيها إلى التاريخ لناحية هامة ، وعرض هذا التاريخ في شعر رصين يطرب له عشاق الأدب الكلاسيكي وتتطلع إليه قلوب المشتغلين بالتاريخ الإسلامي في مختلف مناحيه .

وهو لم يقتصر على سرد التاريخ بل أنه ضمن هذه المعلقة كثيرا من أحكام الحج ، وفضل العرب على غيرهم ، ومزايا الإسلام ...

وقد تضمنت هذه المعلقة :

١ — مقدمة :

وقد قدر لها أن تبقى ألفين من السنين ، وعلل لماذا سلك سبيل « المدرسة القديمة » على جاهلي اللفظ بحرت آمنا

ومن لهجات العرب سقت الأحاسنا

أيمدح بيت الله بالغث إن يكن

سمين ؟ وقد بز المكان الأماكنا

وفي جاهلي من زمان ومسلم

حياة له تروى قديما وراهنا

وقال في « رغبة الحج » :

حجاج بيت الله

لا ثروة لا جاه

الكل في أخراه

طوبى لكم حج

في ملبس الأحرام
دنيا من الأقوام
حمام يؤاخى حام
والطـــرق ترتج

ذنب الورى مغفور
والنفس فيها نور
بيت هنا معمور
يعلو به العج

يا أيها الأبرار
صلوا على المختار
في جنة لا نار
يمضى بنا فج

٢ ـ المعلقة : وقد تضمنت العناوين الآتية :

إلهام الكعبة ـ هجرة الخليل بهاجر وإسماعيل ـ زمزم ـ رفع القواعد من البيت ـ أصنام إبليس ، عبد المطلب وإعادة حفر بئر زمزم ـ ذهب الكعبة والنذر ـ العروبة في جاهليتها ـ المعلقات على الكعبة ـ البيت رب يحميه ـ إعادة بناء الكعبة ـ ظهور الإسلام وتحطيم الأصنام ـ تحويل القبلة ـ مناسك الحج ـ أحكام عامة وحرمات البيت ـ خاتمة . خادم البيت .

وقد تضمنت هذه العناوين قصائد تختلف طولا وقصراً بحسب طبيعة موضوعها وقد نظمت جميعها على بحر واحد هو « الطويل » ، وقد استطاع الشاعر أن يجعل لها جميعا قافيه واحدة جعل لها « الدال » رويا وقد بلغت مجموع أبياتها ثمانمائة وخمسين بيتا ما عدا الأخيرة « خادم البيت » فقد جعل لها رويا آخر هو « الراء » وأبياتها خمسة عشر ومائة بيت .

ولعل الذى يسر للشاعر ذلك هو اختلاف الموضوعات ، فهى وإن كانت متسلسلة في أحداثها إلا أن كل عنوان منها يمكن أن يعتبر موضوعا مستقلا ولكن كيفما كان الأمر فإن التزام قافية واحدة فى هـذا العدد من الأبيات قد اضطر الشاعر إلى التكرار والتكلف .

ونعرض هنا نماذج قليلة منها :

يقول عند « ظهور الإسلام وتحطيم الأصنام » :

ولما أراد الله إظهار دينه
تنزل فرقان على قلب أحمد
نبي الورى طه القرشى محتداً
وسيد أهل الأرض من سبط سيد

ثم يأخذ في وصف النبي الكريم وقبيلته ، ويبين عجزه عند إيفائه حقه مهما أوتى من فصاحة وبلاغة . ثم يبين كيف حطم النبى الأصنام . وينتقل بعد ذلك إلى معالجة موضوع دقيق وهو تحويل قبلة الصلاة

من بيت المقدس إلى الكعبة وما كان من موقف اليهود منها .

لقبلة دين الله خبء فصاحتي
وما هذر ما قيل في نعت ممجد

وأرجو بها طبعا لدى الخلد حاليا
فقد مر من دنياي عيشي الممدد

تماجدت لما صغت فيها ، ولم أزل
أصوغ حديث الشاعر المتمهد

وفي جهمة ، والليل بالصبح حالم
بكيت ، ومن يشهد من الحب يكمد

إلى أن يقول :

وقد شرق من جهات ومغرب
ولكننا وجه الهدى في التزود

بمكة صلى الناس ، ثم بيثرب
إلى القدس في ساكونه المتهود

بميدانه أمجاد دين وحكمة
أطلت عليه في علا متأبد

ومن سبل ما حوله من محافل
ويرفل في زيتونه المتعمد

إليه سرى فوق البراق محمد
بعزم نبي وانبثاقة موجد

وبعد أن يصف بيت المقدس وأمجاده يقول :

على أن بيت الله أولى بأحمد
وإن يغن بيت الله في النسك يأمد

لميداه نور ، والتراب عطاؤه
ويقبس مـــد نوره المتفرد

وفي نهر مـــد النهار بأفقه
وثم غمام كالقطيع المندد

إلى أم بشر سار طه وصحبه
وكانت أعدت من ثمار ومعقد

وحانت صلاة الظهر والشمس جذوة
وأطرافهم بلت بماء ممهد

فنص أمين الله جبريل آية
إلى المصطفى في لهفة المتنشد

بها ضاء بيت الله في الدين قبلة
لكل قريب في الصلاة وأبعد

وآخر صف صار للناس أولا
ومن يك ذا حرص على الوحي يأفد

وأطلق نعت القبلتين تيمنا
على مسجد في يثرب الخير مفرد

فما اليهود ، والألى ضل وجههم
وقبلتنا ؟ بل وجههم في التنقد

يقولون : ما ولاهم عن سبيلهم
وفيهم من البشرى وجيفة أكبد

ألا فليكن فيهم لهابا وغصة
تثوب وإن يستوخ عنها تزيد

١ — وقد حرص الشاعر في هذه المعلقة على اختيار الألفاظ الفصحى وإن كانت غريبة غير متداولة مثل : ميداء ، متأبد ،

مؤجد ، يأمد ، لديداه ، يأفد ، وبه ، أكبد في هذه الأبيات القلائل .

٢ — والتزم قافية واحدة في ثمانمائة وخمسين بيتا ، وهذا قد اضطره إلى صوغ معانيه صياغة خاصة تغلب فيها الحرص على اختيار الألفاظ على السبك الشعرى الذى يحتاج إلى رنين الشعر المنبثق من الاهتمام بالمعانى ، فالرنين الموسيقى للفظة « قريب » يقابله لفظة « بعيد » لا « أبعد » كما قال : « لكل قريب فى الصلاة وأبعد » ولكنه حكم القافية .

ومن ثم فقد كان الشاعر مقيدا بأمرين يحولان دون انطلاقه فى ترقيق هذا الشعر وهما : وحدة القافية وما يدع ذلك من الحرص على ألفاظ بعينها ، ثم إشاعة الكلمات العربية المهجورة .

وهو أمر يحمد عليه الشاعر إذا قصد تسجيل الألفاظ لإحيائها كما فعل المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب ، وكما فعل من قبله السيد البكرى وغيره ، وكما دعا إلى ذلك الأستاذ أحمد حسن الزيات فى كتابه « دفاع عن البلاغة » .

ولكن هذا الأمر يقرب هذه المعلقة إلى الشعر التعليمى ، ويجعل الإفادة منها مقصورا على الدراسة التاريخية واللغوية .

وكيفما كان الأمر فإنها عرضت لموضوع شائق ، يتصل بالعقائد الإسلامية ويسجل ناحية من أمجاد تاريخ العرب والمسلمين ، وأضافت إلى الدراسات الإسلامية سفرا جليلا ...

ملحمة عيد الغدير :

للشاعر اللبنانى بولس سلامة نشرها عام ١٩٤٨ ، متضمنة خلاصة لتاريخ العرب فى الجاهلية وبروز قريش بين قبائلها وظهور النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم تاريخ الإمام على بن أبى طالب وتصوير المآسى التى وقعت لآل البيت على يد الأمويين .

وهذه الملحمة فى حوالى خمسة آلاف وخمسمائة بيت ، وكلها من بحر واحد هو الخفيف ولكنها قصائد متعددة القوافى ...

وقد ذكر فى التصدير أن اختلاف الدين لا يمنعه أن يتناول ناحية تاريخية تصور جزءاً من تاريخ العروبة ويتحدث عن بطل من رجالات العرب .

ومما جاء فى التصدير عن منهجه فى نظم هذه الملحمة قوله : « ومع الانطلاق الشعرى الذى حاولته ، فلقد بقيت مغلول الجناحين ، لا أستطيع أن أخلع على الواقعات من الفن إلا بمقدار ، ذلك لأن الملاحم تدور على الأساطير حيث يسبح الشاعر ولا رقيب عليه إلا ذوقه . وكتابى هذا محوره التاريخ ، والتاريخ حرام على الخيال حتى فى الحوادث

العادية فكيف به عند ما يستند معظمه إلى الأحاديث النبوية :

ونكتفي هنا بذكر نموذج من شعر هذه الملحمة .

مما جاء في وصف شجاعة علي يوم الخندق وقتله عمرو بن ود :

ومشى حيدر يروم هصوراً
يلتوى الأخشبان قبل التوائه
أيها النسر ، دونه كل نسر
ليس غير النجوم في أجوائه

« ملحمة الذكريات الإسلامية » :

« والرسالة النبوية المحمدية » :

لمنشئها « محمد البدرى محمدين » .

وأبيات هذه الملحمة خمسون وأربعمائة بيت ، وقد نظمها الشاعر على طريقة المربعات واختار لها بحراً واحداً هو الرمل ، وقافية موحدة للمربع هي الهمزة .

وقد تضمنت صورة الحياة الجاهلية ثم ذكرى مولد الرسول الكريم وبعثته والإسراء والهجرة ثم الغزوات وانتشار الإسلام في أكثر بقاع العالمين :

وقد جعلها قصائد لكل منها عنوان ، وختم كل موضوع بهذا المقطع : جددوا الذكرى لخير الأنبياء . ماعدا آخر بيت فقد ختمه بقوله : « خلدوا الذكرى لخير الأنبياء » . قال في المطلع :

جددوا الذكرى لخير الأنبياء
من لداء الشرك وافى بالدواء
وبدا في ظلمات فأضاء
وبه الأرض استنارت والسماء

ومما جاء في قصيدة انتشار دعوة الإسلام :

شمل الله البرايا بهداه
أيقنوا أن ليس معبوداً سواه
خضعوا للدين والكل اقتفاه
لم يعد في العقل عن رشد غباء

* * *

وابتنى الدنيا بناء من جديد
فعلا الصرح ، وحاشا أن يميد
لبنات الحق أقوى من حديد
وبناء الله يعلو عن فناء

وتعتبر الملحمة تلخيصاً للسيرة النبوية وآثار الإسلام بأسلوب شعرى بعيد عن التعقيد اللفظى ، وطبيعي أن الشاعر مقيد في خياله بالعقيدة الإسلامية كغيره من شعراء المطولات .

ملحمة الثورة :

الأستاذ علي زهران وقد رأيت الأشارة إلى هذه الملحمة لأهمية موضوعها وطولها إذا تقع في تسعين صفحة تسجل أعمال ثورتنا المجيدة من يوم قيامها إلى نهاية ١٩٥٧ .

وهي صورة لأدبنا الشعبي الجاد الذى ينبغى أن تعنى بنشرة الأذاعة والتليفزيون لأنه

أجدى من كثير مما يذاع من الأغانى العاطفية الرخيصة .

وقد نظمها مقطوعات زجلية ، ولذلك لم أر داعيا لعرض نماذج منها لأنها لا تدخل فى باب الشعر الفنى من حيث نسجها ولغتها . أما موضوعها وأفكارها فغاية فى الأهمية ونحن الآن قد اتجهنا إلى الاعتزاز بفنوننا الشعبية المختلفة ، ومن الإنصاف ألا نغفل منها الناحية الأدبية .

ملحمة الشعر التاريخية فى ثورة الجيش التحريرية :

للأستاذ محمد البندارى

وعلى الرغم من أن هذه « الملحمة » عبارة عن قصيدة واحدة من مائة وعشرين بيتا إلا أنها صورت فترة دقيقة من مراحل نهضة مصر الحديثة وأثبتت لرجال الجيش فضلهم .

وقد تضمنت لمحة عن أمجاد مصر السالفة وعظمتها فى التاريخ ثم تصويرا لما كانت عليه أحوال البلاد قبل الثورة ثم وثبة الجيش وعزل الملك ثم زوال عهد الأقطاع وتحديد الملكية والاتجاه إلى النهضة الكبرى ، واستنهاض همم أبناء العروبة .

وقد نظمها على بحر واحد هو البسيط وقافية واحدة فى شعر رصين يفيض حماسة بعيد عن غريب الألفاظ .

وما جاء فيها عن وثبة الجيش بعد تصوير العهد الغابر :

وما دروا أن فى مصر أشاوسة
هم معقل الأصل الباقى بواديها

هم الجنود : جنود الجيش قد نهضت
بالليل فى غسق الأسحار تحميها

والعدل ، والرفق ، والإحسان ديدنها
ورفع شأن الحمى أسمى مراميها

ومما جاء فى استنهاض همم العرب :

كم بالعروبة من أهوال أندلس
وكم مآسى تتالت فى أراضيها

فيا بنى العرب : ردوا العار واقتحموا
عرائن الأسد إن بانت عواديها

فى مسمع النجم عنكم كل صالحة
وفى يمين الملا منكم عواديها

وكم لكم يا حماة الضاد من نعم
على العباد تسامت فى مبانيها

سودوا البرايا كما سادت أوائلكم
فأنتم الأمن للدنيا ومن فيها

سعد الدين الجيزاوى

ما يقال عن الإسلام

مستشرق من اليابان
يكتب عن الله والانسان فى القرآن

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

كان عهدنا بالمستشرقين أنهم من أبناء الدول الغربية ، مثل ألمانيا وفرنسا وانجلترا وهولاندا وإيطاليا وأسبانيا ، وأقصى مابلغه هؤلاء المستشرقون فى أوربا هو روسيا ، ولم يكن عددهم فيها كثيرا ، ولا بحثهم غزيرا أما أن يبلغ الاستشراق أقصى الشرق البعيد ، أو الشرق الأقصى حيث اليابان ، فهذا شىء جديد فعلا على دولة الاستشراق .

واليابان دولة عظمى ، ولها مصالح كثيرة مع الدول العربية بدأت قبل الحرب العالمية الأخيرة بزمن ، واستمرت بعدها حتى الآن وهى مصالح تجارية تبلغ الملايين من الجنيهات وقد كان الاستشراق فى الدول الغربية تابعا لهذه المصالح ، ثم انقلب إلى استعمار سياسى لم يكن يقدر له النجاح لولا المعرفة الوثيقة بتاريخ هذه الشعوب وجغرافيتها وآدابها ودياناتها ، وهذا ما فعله المستشرقون حين درسوا كل هـذه النواحى دراسة منهجية عميقة ، وكان بعض هذه الدراسات علميا محضا ليس وراءه أغراض سياسية خفية ، وكان بعضها الآخر يخفى أغراضا خبيثة ، ويستهدف غايات استعمارية .

وقد أسهم اليابانيون أخيراً فى هذه الدراسات ، قام بها أصحابها باللغة اليابانية ، ولا سبيل لنا إلى معرفة حقيقة هذه الدراسات لأننا لا نعرف اللغة اليابانية ، كما أنها ليست لغة عالمية وقد تعلم فى مصر كثير من اليابانيين وبخاصة فى الأزهر ، والتحق قلة قليلة منهم بالجامعة ، وقد عرفت أحدهم وهو الأستاذ « أوداكا » الذى نقل مقدمة ابن خلدون إلى اليابانية .

وكتب بعض اليابانيين باللغة الإنجليزية ، فأصبحت آراؤهم معروفة ومنتشرة ، وهذا ما فعله الدكتور « طوشيهيكو إيزوتسو » Toshihiko tzutsu من اليابان ، ومن عاصمتها طوكيو ، والأستاذ بجامعتها كيو ، وكانت رسالته التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه عن : « المصطلحات الأخلاقية فى القرآن » ، طبعت الرسالة بالإنجليزية وصدرت فى طوكيو سنة ١٩٥٩ ، وقد تسنح

فرصة أخرى للتعريف برسالته ، أما حديثنا الآن فيتناول آخر ما نشره وهو كتاب : « الله والإنسان فى القرآن ـ دراسة سمنتية » وقد صدر هذا العام ، ونشر فى طوكيو أيضاً .

ولا سبيل إلى القيام بمثل هذه الدراسات على الوجه الأكمل إلا بعد تعلم اللغة العربية ، ولذلك أنشأت اليابان معهداً فى طوكيو لتعليم اللغة العربية وما يتصل بها من دين وأدب وتاريخ ، وفى هذا المعهد تعلم الأستاذ إيزوتسو العربية وقام بتقديم رسالته عن (الأخلاق فى القرآن) غير أن تعلم العربية وآدابها فى اليابان شىء ، وتعلمها فى مهدها شىء آخر ، ومهد العربية وقلبها النابض منذ القرن التاسع عشر بل قبل ذلك كان ولا يزال فى القاهرة ، حيث الأزهر الشريف أكبر جامعة إسلامية ، وحيث جامعة القاهرة ، وحيث المجتمع الذى يتحدث بلغة الضاد آناء الليل وأطراف النهار ، ولذلك نجد أن معظم النابهين المشهورين من المستشرقين كانوا يتخذون من القاهرة قبلتهم ، يتممون فيها تعليمهم ، ويفصحون لسانهم ، ويطلعون على أسرار العربية .

فعل الأستاذ إيزوتسو كما فعل كبار المستشرقين من قبل ، وفد إلى القاهرة حيث أمضى بها عاما أو نحو ذلك سنة ١٩٦٠ ، وتسنى له فى هذه الفترة التى قضاها أن يتصل بالثقافة الإسلامية والعربية فى منابعها ، وأن يطلع على أحدث ما أخرجته المطابع بالعربية ، وأن يقتنى لنفسه مكتبة غزيرة من نوادر الكتب فى شتى فروع العلوم الإسلامية ، والتقى بكثير من رجال الفكر واتصل بيننا حبل المودة ونعمت بصحبته وصداقته ، ورأيت أنه على خلق عظيم ، ولا غرو فهو يمت بصلة إلى الأسرة المالكة فى اليابان ، ثم هو إلى ذلك يجيد عدة لغات أوربية وشرقية خلاف الانجليزية التى يؤلف بها كتبه ، وهو الآن منتدب التدريس بمعهد الدراسات الإسلامية بمونتريال فى كندا ، وقد عين عضوا مراسلا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

* * *

المنهج الذى يتبعه الأستاذ إيزوتسو فى أبحاثه هو : « السمنتية » أى علم المعانى أو تطور الدلالات ، ذلك أننا نعبر عن أفكارنا بألفاظ ، والألفاظ تدل على معان ، ويتغير المعنى بحسب السياق وبحسب التطور التاريخى . وقد اكتسب هذا المنهج فى العصر الحاضر أهمية خاصة ، وألف كثير من الكتب فى علم « المعنى » وفى تحليل المعانى بغية النفاذ إلى أعماق الفكر الذى تعبر عنه وقد حدد الأستاذ إيزوتسو هذا المنهج بقوله : « إنه دراسة تحليلية للمصطلحات الأساسية فى لغة ما للوصول إلى معرفة نظرة قوم من الأقوام عن العالم الذى يعيشون فيه حين يستخدمون هذه اللغة أداة لا للحديث

والتفكير فقط بل لتصور العالم الذى يعيشون فيه وفهمه » . إن السمنتية هى هذا النحو نظرة إلى العالم ، وهى إلى حد ما نظرة فلسفية والكتاب الذى نقدمه الآن وهو « الله والإنسان فى القرآن » يحمل عنوانا فرعيا آخر هو : دراسة سمنتية للقرآن ، أو بالضبط « دراسة سمنتية للنظرة القرآنية نحو العالم » يريد بذلك أنه سيدرس المصطلحات الأساسية التى وردت فى القرآن والتى يتألف من مجموعها نظرة معينة إلى العالم.

* * *

هذه المصطلحات التى نجد لها تحليلا فى الكتاب هى : عبد ، عبادة ، أجل ، الآخرة ، الله ، عقل ، عرب ، عجم ، آية وآيات ، بعث ، باطل وحق ، ضلال ، دهر دين ، دعاء ، الدنيا ، غيب ، حمية ، حنيف ، حشر ، هوى وأهواء ، حلم وحليم ، هدى إفك ، إله ، إلهام ، علم ، إيمان وإسلام ، جهنم ، جنة ، جهل وجاهلية ، الجن الكعبة ، كلام الله ، الكفر ، الخلق ، الكتاب ، نبى نجاة ، نعمة ، نزل وتنزيل ، قضاء وقدر ، رب ، رسول ، رأى ، صلاة ، شكر ، صراط ، سجود ، طاعة ، تقوى ، تصديق ، أمة ، وعد ، وحى ، وعيد ... الخ .

وقد رتب الكتاب على مقدمة وتسعة فصول ، الأول والثانى فى السمنتية بوجه عام ، وتطبيقها على المعانى الواردة فى القرآن.

الفصل الثالث فى التركيب الأساسى للقرآن ، تحدث فيه عن الله والإنسان ، الجماعة الإسلامية ، عالم الغيب وعالم الشهادة ، الدنيا والآخرة ، بعض المسميات .

الفصل الرابع عن « الله » لفظة الله ، معنى هذا اللفظ فى الجاهلية ، وعند اليهود والنصارى ، وعند الحنفاء .

الفصل الخامس فى العلاقة الانطولوجية (الوجودية) بين الله والإنسان ، وتشتمل على مفهوم الخلق ، ومفهوم البعث .

الفصل السادس فى العلاقة الاتصالية بين الله والإنسان ، وفى هذا الفصل يبحث الاتصال بغير طريق اللغة ، أى آيات الله ، والهدى ، والعبادة سبيلا إلى الاتصال بالله .

وفى الفصل السابع يبحث الاتصال عن طريق اللغة ، كلام الله ، والوحى ، والصلاة .

الفصل الثامن عن الجاهلية والإسلام ، ويبحث عن الإسلام ومفهوم الطاعة والخضوع ثم الحلم الذى كان شعار الجاهلية فانتقل إلى الإسلام ، ثم مفهوم الدين باعتبار أنه الطاعة .

وفى الفصل التاسع يبحث عن العلاقة الأخلاقية بين الله والإنسان ، وعن إله الرحمة ، والوعد والوعيد .

* * *

وقبل أن نقدم نماذج لهذا البحث السمنتى نقول : إن المصطلحات القرآنية أو الدينية بوجه عام ، ليس من اليسير تحديدها تحديداً

دقيقاً كالحال فى المصطلحات العلمية . ذلك أن أى دين ، مثله فى ذلك مثل الفن ، يختلف عن « العلم » الذى يبحث فى الواقع ويمكن تحديد وقائعه بدقة وقياسها قياساً كميا .

أما الدين - وكذلك الفن - فإنه يعتمد على معان تعد من قبيل « القيم » . والقيم إنسانية أساساً ، تشيع حولها جواً يحس به المرء ولكن يصعب تحديده وقياسه . ولذلك يصعب القول مثلا بأن هذا الشخص أكثر إيماناً من ذاك ، بل يصعب القول عن الشخص الواحد إن إيمانه الآن أكثر منه قبل ذلك بوقت قليل وإذا نحن أردنا تحليل مصطلح كالصلاة مثلا ، فمن اليسير وصف الحركات الظاهرة ، ولكن يصعب إن لم يكن من المستحيل تحديد الإحساس الباطن الذى يغمر قلب المصلى وهو يقف بين يدى الله . فهذا الشعور أمر لا سبيل إلى تحديده بالألفاظ.

ومع ذلك فلا بد من اتخاذ طريقة القياس ، أى طريقة ، وإلا تعذر البحث ، ولا بأس بطريقة تحليل المصطلحات الأساسية القرآنية ، فإن هذه الطريقة ليست جديدة مبتكرة ، وقد اتبعها كثير من علمائنا قديما ، كل ما فى الأمر أن الأستاذ إيزوتسو أضاف عند التطبيق ما وصل إليه علم السمنتية بعد تطور المنطق الحديث .

* * *

النظرية التى يذهب إليها المؤلف يمكن تلخيصها بإيجاز بأن الله والإنسان يكونان طرفين متقابلين أحدهما فى أقصى اليمين والآخر فى أقصى الشمال . وكان الإنسان فى الجاهلية هو المحور الذى تدور عليه جميع المعانى الأخيرة ، فهو مركز العالم ، حتى الأرباب التى كان يعبدها فهى تابعة له حتى إذا جاء الإسلام انعكست الآية ، فأصبح الله هو مركز العالم ، وكل شىء آخر يتصل به . وهذه الصلة إما أن تكون وجودية ، فالله هو الخالق ، ووجود الإنسان مستمد منه . وإما أن تكون صلة ارتباط متبادل ، فهى من جهة الله وحى ، ومن جهة الإنسان دعاء ، ومعرفة الله تتم بالنظر إلى الآيات أو بالتجلى فى الصلاة . وإما أن تكون صلة ربوبية وعبودية ، فالله هو الرب والإنسان هو العبد . وإما أن تكون صلة أخلاقية ، من جهة الله الرحمة والعدل ، ومن جهة الإنسان التقوى والشكر ، والتقوى والشكر تابعان للإيمان ، وهما يقابلان الكفر .

ومن الطبيعى أن يكون بدء الحديث عن المجتمع الإسلامى ما هو ، وكيف نشأ ، وما وجه اختلافه عن المجتمعات السابقة عليه والمعاصرة له والمتأخرة عنه ، وما تركيب هذا المجتمع حقوقه وواجباته ؟

يرى المؤلف أن « المجتمع » الإسلامى لم يكن يسمى بهذا الاسم ، أو هذا المصطلح نعنى المجتمع أو الجماعة ، وإنما المصطلح

القرآنى والذى يعد حجر الزاوية فى نظره هو «الأمة» وما يتفرع عنه من: أمى، وأميون، وأمم.

والمؤلف بطبيعة الحال يرجع إلى القرآن لتأييد وجهة نظره. فنى سورة البقرة آية ١٢٨ يقول الله: «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك». فالأمة المسلمة هى الجماعة المسلمة. هذه الجماعة تختلف فى مبادئها وأسسها عن الجماعة فى الجاهلية التى تقوم على أواصر الدم والقرابة، أما الجماعة الإسلامية - أو الأمة الإسلامية - فإن الروابط التى تصل بين أفرادها هى الإيمان الدينى المشترك لا علاقة القرابة والدم. فالأصل فى معنى «الأمة» أنها الجماعة، وفى الآية السابقة يخاطب إبراهيم ربه يطلب أن تكون أمته مسلمة لله، وكذلك أن يكون من ذريته «أمة مسلمة» لله.

ولما استقر الإسلام بعض الشىء، واستقرت فكرة الأمة الإسلامية رأى المسلمون أنهم محاطون بجماعات أخرى دينية كانت موجودة من قبل ظهور الإسلام فى جزيرة العرب، كاليهود والنصارى والصابئة، وهذه الجماعات يسميها القرآن «أهل الكتاب»، وهكذا نرى أن القرآن يقسم عرب الجاهلية قسمين أساسيين هم:

١ — أهل الكتاب.

٢ — الأميون.

ويقابل بينهما، كما نرى فى سورة آل عمران حيث جاء: «وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين»، والمقصود من الأميين فى هذه الآية عبدة الأصنام، وهم الذين لم ينزل عليهم كتاب سماوى.

فإذا مضينا فى تحليل مصطلح الأميين أكثر من ذلك، رأينا أنه يشمل ثلاثة أفكار متصلة به، أنهم بغير كتاب، وأن الله يرسل إليهم رسولا يحمل إليهم ما يوحى إليه، وأنهم قبل نزول الكتاب عليهم كانوا فى ضلال، كما جاء فى الآية الثانية من سورة الجمعة: «هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين».

فالعرب الذين كانوا أميين، أى غير ذوى كتاب سماوى، أصبحوا بعد الرسالة «أمة مسلمة»، وهذه الأمة المسلمة تتصف بالنسبة لأصحاب الديانات الأخرى بصفتين، أنها «خير أمة»، وأنها «أمة وسط» كما جاء فى القرآن: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله». وفى قوله تعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس».

الواقع كان أهل الكتاب فى الجاهلية قد انحرفوا وضلوا بحسب ما يحكيه عنهم القرآن.

كانوا فى البداية متدينين بالدين الصحيح ، ويسيرون على الطريق المستقيم ، وأصل الدين كله هو « الحنيفية » التى كان يدين بها ابراهيم ، ثم انحرفت هذه الحنيفية كذلك . وليس الإسلام إلا الرجوع إلى الدين الأصلى المستقيم ، وتخليص الدين القائم من الشوائب التى أفسدته .

ولفظ « حنيف » من الألفاظ التى يصعب تحديدها ، وكشف الستار عنها تماماً . واللفظ يرتبط ارتباطا وثيقا بإبراهيم ، فنى سورة آل عمران يقول القرآن : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » وقد وردت عبارة « ملة إبراهيم حنيفا » فى أكثر من آية . وهناك تقابل واضح بين الحنيفية التى تمثل الوحدانية وبين الشرك فى الآيات القرآنية .

ولا نزاع أن العهد كان قد بعد بين إبراهيم وديانته الحنيفية وبين الديانات التى ظهرت على مر التاريخ بعد ذلك من يهودية ونصرانية ولذلك يلوح - وهذا هو الأغلب - أن الحنيفية كانت قد انقرضت . ولو أن هذه الديانة كانت باقية فى الوقت الذى ظهر فيه محمد عليه السلام ، لسجل القرآن هذه الظاهرة ، والواقع ان القرآن ينص على عكس ذلك ، نص على أن الله « أوحى » إلى محمد باتباع ملة إبراهيم . فنى سورة النحل بعد قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » .

إلى آخر الآية ، يقول بعد ذلك : « ثم أوحينا إليك - (أى يا محمد) - أن اتبع ملة إبراهيم ... » .

ولكن المستشرقين ، والأستاذ ايزتسو يتابع دراساتهم أو يلخصها عنهم ، فاتهم ذلك المعنى الذى أشرنا إليه وراحوا يتلمسون افتراض وجود جماعة من الحنفاء فى الجاهلية قبل الإسلام مباشرة ، وأن محمدا كان على صلة بهم ، وتعلم عنهم هذا الدين . وذكروا من هؤلاء الحنفاء عدد من العرب فى الجاهلية منهم أو أشهرهم أمية بن أبى الصلت شاعر ثقيف فى الطائف . وتدور حول هذا الشاعر قصص كثيرة أقرب إلى الوضع منها إلى الحقيقة . فلما أعلن محمد النبوة غضب أمية لأنه كان يطمع أن يكون هو هذا النبى .

وهذه كلها مباحث طريفة ، ولكننا نقول إذا تعارضت الروايات التى نقلت ودونت عن الجاهلية مع ماجاء فى القرآن ، فلا شك أن النص القرآنى أثبت وأيقن ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والقرآن إلى ذلك مرآة صادقة للعصر الذى نزل فيه على محمد عليه السلام ، فهو إلى جانب أنه وثيقة دينية أى كتاب منزل سماوى ، فإنه وثيقة تاريخية أصدق من سائر الوثائق الموجودة بين أيدينا .

محمد فؤاد الاهوانى

من وحي القرآن "قصيدة"

للأستاذ حسن جاد

يا ساقي الأرواح من كاساته
روحي فداك فهات جامك هاته
واسكب غناءك في مسامع مهجتي
يشدو الفؤاد على صدى رناته
رتله ياغــــرد السماء مفصلا
تصبو النفوس إلى بليغ عظاته
يا من ندماه القلوب وراحه
من كرمة البارى ومن جناته
عطر به الدنيا ، فأية نفحة
أندى من القرآن في نفحاته ؟
وأشج القلوب به ، فأية نغمة
أشجى من القــرآن في نغماته ؟
واجل النفوس به فأية جلوة
أبهى من القرآن في آياته
إن تسقها من كرمه تفتح لها
حجب السماء عن الإله وذاته

* * *

عين من الفصحى ونبع هداية
يشفى غليل الروح عذب فراته
السحر كالسحر في ألفاظه
والجرس أحلى الجرس في نبراته
أعيا العقول معانياً ومرامياً
ورمى فحول القول عن صهواته
حسب النبي به دلائل حجة
دكت صروح الشرك فوق مناته
من كل بالغ حكمة أصغى لها
سمع الزمان وزنها لرواته
أو كل ذكر من جلالة قدسه
وجل الفؤاد ولج في دقاته
أو كل رائع قصة تأثيرها
راع الجحود وهز صلب قناته
أو كل موعظة بكى من وقعها
طرف العصى وتاه في عبراته
اسمع لشدو الفشء في ترتيله
ينساب قدسياً على لهواته
تحسب عصافير الربيع ترنمت
في الروض واجتمعت على دوحاته

* * *

قبس من الرحمن يهدى من سرى
في ظلمة الدنيا سنا مشكاته

يحيا به ميت القلوب بشاشته
كالجدب أحيا الغيث ميت نباته

تفنى دساتير العباد ، وإنما
دستوره ماض إلى غاياته

يا باعثا روح السلام بهديه
ضل الأنام عن السلام لهاته

الكون مضطرب الخواطر حائر
تتعثر الآمال فى خطواته

صدفت عن النور البهى عيونه
فتخبطت فى الوهم من ظلماته

يعدو القوى على الضعيف كأنه
ذئب ترصد فى الخفاء لشاته

دنيا من الجشع البغيض ، وعالم
قد ضل بالأهواء فى غمراته

لو أنه أصغى إلى القرآن لم
ير ما يطب لدائه كأساته

هو طهر هذى الأرض من أوضارها
وخلاص هذا الكون من آفاته

وزكاة ما فى النفس من أوزارها
وشفاء ما فى الصدر من علاته

ومشارع للحق والأخلاق فى
آدابه تحميه من عثراته

عودوا إليه لتستقيم حياتكم
وخذوا الحقيقة من لسان دعاته

فأقل ما يدعو إليه سعادة
العالم الملتاع من ويلاته

حسن جاد حسن

الكتب

عرض وتقديم : للأستاذ محمد عبد الله السمان

١ — أبو زكريا الفراء :

للدكتور أحمد مكى الأنصارى

أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة هو موضوع الرسالة التى نال بها الدكتور أحمد مكى الأنصارى من كلية الآداب جامعة القاهرة درجة الدكتوراة فى الآداب بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية بطبع الرسالة على نفقة الدولة تمجيدا وتقديراً وقد اهتم المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بنشرها ، وقام بطبعها فى ستمائة وخمسين صفحة

قسم المؤلف دراسته عن الفراء إلى بابين ، تناول فى الأول منهما عصر الفراء وحياته وآثاره ، كما تناول فى الباب الآخر مذهبه فى النحو واللغة ، وفى المقدمة الموجزة للدراسة ، أشار المؤلف إلى موضوع البحث وأهدافه ، ودوافعه ، ومنهجه ، ومصادره ، وفى الخاتمة ، لخص معالم البحث وأوضح الجديد فيه ، وأشاد بالعلماء والمحققين أن يتعاونوا على إخراج أكبر أثر للفراء ، وهو كتاب «معانى القرآن» ، كما دعا إلى إصلاح النحو العربى لتيسيره .

والباب الأول ثلاثة فصول : فى الفصل الأول عرض لعصر الفراء ، تناول الحياة السياسية حيث نشأ العصر الذهبى وقامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس وازدهرت الفتن والاضطرابات وتناول الحياة العقلية حيث حدث احتكاك الأفكار وامتزاج الثقافات ، وأخيراً تناول الحياة الاجتماعية ، حيث أطل عليها ترف وسرف وثراء ورخاء ، وامتزج الدم العربى بالدم الفارسى ، كما امتزج الصلاح والفساد والهدى والضلال ، وفى الفصل الثانى عرض المؤلف للفراء فى حياته ومماته ، فحقق اسمه ولقبه ونسبه ومولده ، ووفاته ، الموجود منها والمفقود ، جملة وتفصيلا ، كما عرض منهج

الفراء فى التأليف وعوامل تأثره بالمنهج الفلسفى .

أما الباب الثانى فقد كان فصلين ، عرض المؤلف فى الفصل الأول مذهب الفراء فى النحو ، باعتباره المؤسس الحقيق للمذهب البغدادى ، وكشف عن مظاهر النزعتين الكوفية والبصرية عنده ، وأوضح آراءه فى النحو ، وأثره فى تيسيره ، وعرض فى الفصل الثانى مذهب الفراء فى اللغة ، مظاهر النزعة البصرية فى مذهبه اللغوى ، ومظاهر استقلاله وجهوده فيه ، ولا سيما الثروة اللغوية التى رواها .

وفى الخاتمة لخص المؤلف المعالم الكبرى لنتائج البحث وبيان الجديد فيه ، كما دعا إلى ضرورة مواصلة الجهود لإخراج أكبر أثر للفراء إخراجا كاملا إلى حيز الوجود ، وهو كتاب (معانى القرآن) وإلى التفكير الجاد فى إصلاح النحو العربى وتيسيره .

وبعد — فإن الجهد الذى بذله المؤلف الدكتور الأنصارى فى رسالته هذه ، استحق بحق تقدير اللجنة التى ناقشتها حين قالت : لقد أظفرنا هذا البحث بصورة واضحة المعالم عن حياة الفراء ، وتحقيق مفصل لطائفة من آثاره العلمية ، وقد أعانه استعداد أصيل عنده ومقدرة فائقة ، ثم صبر ودءوب فكر ومثابرة وجلد وغرام يوشك أن يكون هياما .

٢ — الغزو الفكرى :

تأليف : محمد جلال كشك

نشرت هذا الكتاب الجاد الهادف مكتبة دار العروبة بالقاهرة للأستاذ محمد جلال كشك .

والكتاب يقع فى أكثر من مائة وأربعين صفحة من القطع المتوسط . وهو فى إيجاز يناقش علاقة الإسلام بالثورة العربية ، ويفند المفاهيم المعادية للإسلام ، ويرى أن إسلامية الثورة الجزائرية هى الوضع الطبيعى للثورة العربية الشاملة ، ويتصدى لبعض النماذج المتأثرة بالغزو الفكرى الاستعمارى ، كما يكشف الستار عن الحملة الجديدة فى الحرب الصليبية الأبدية بين الغرب والشرق والغرب هو قائد هذه الحملة ، ومن بين السطور لم يفت الكتاب أن يهتك ستر حزب البعث ويعرى مفاهيمه التى لا مفهوم فيها .

فى مدخل الكتاب يثير المؤلف قضيتين مهمتين . الأولى ، قضية وجودنا ، فيرى أن خروجنا للوطن العربى لم يكن رد فعل — حتى وإن بدا كذلك — بل حتمية تاريخية نابعة من وجودنا ، جاءت فى توقيتها الطبيعى ، فنحن وبالتالى ثورتنا — ما دامت تعبر عنا — مصريون — عرب — مسلمون ، والعدوان الغربى على بلاد العروبة منذ الحروب الصليبية ليس إلا امتدادا لهذه الحروب الطائشة ،

وكيف ننسى ما قاله اللورد إللنبي في عقب الحروب العالمية الأولى (لقد انتهت الحروب الصليبية الآن) بعد أن اطمأن إلى القضاء على آخر معقل للإسلام ، وهو الخلافة الإسلامية ؟ بل وكيف ننسى أن وكالات الأنباء الاستعمارية خلال نضال الجزائر كانت تشير إلى أنه قتل من الجيش الفرنسي كذا ، ومن المسلمين كذا ، وأكثر من هذا - كما يذكر المؤلف - أن مقبرة خلال نضال بور سعيد عام ١٩٥٦ كتب عليها الفرنسيون (عشرون مسلما) . أما القضية الأخرى فهي الخلاف الحضاري ، وهو في رأي المؤلف خلاف حتمي بين حضارتنا والحضارة الغربية أساسه الخلاف العقيدي .

وأبرز ما في الكتاب وأعنفه معا مناقشة المؤلف لبعض النماذج التي رآها متأثرة بالغزو الفكري الاستعماري ، ومن هذه النماذج الدكتور مصطفى محمود لدأبه على النيل من الدين والتدين ، وعقدته شغفه بإغاظة المسلمين من جانب ، ومن جانب آخر لكي يبدو أمام القراء بمظهر الكاتب التقدمي ، ثم غالي شكري الذي لا يسلك الإسلام في عداد التراث الإنساني ، ولا يعتبر المسلمين عنصرا لا بد من إضافته في وضع قوانين عامة للجنس البشري ، ثم عبد الرحمن الشرقاوي الذي أن أهم ادعاء له بالثورية - وهي قصة الأرض - ليست إلا عملا وجميا معاديا للثورة ثم مسرحيته جميلة التي لم يردها مأساة إسلامية مأساة اضطهاد صليبي استمر مائة وثلاثين عاما ومارسه كاثوليك وملاحدة وشيوعيون ، ولم يردها مأساة عربية مأساة شعب عربي يحرم عليه التطور بلسانه ، لكي تمحى قوميته وعقيدته معا ، بل أرادها مأساة جزائرية وكفى ...

أما الدكتور لويس عوض ، فقد سلط عليه المؤلف أضواء مشتعلة حين ناقشه في مسرحيته (الراهب) وكتابه (المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي) وفي رأيه أن المسرحية والكتاب ترفضان كل قيم الأدب العربي أو الفكر الإسلامي ، لأنهما يمثلان أوضح صور الغزو الفكري الاستعماري .

الحق أن في الكتاب جرأة وعنفا وتحديا وربما لجأ المؤلف أحيانا إلى السرعة في مناقشة بعض القضايا ، ولكنه على كل حال استطاع أن يهتك قناع كتاب يتقايأون في كتاباتهم أحقادهم على العروبة والإسلام ، باستثناء عبد الرحمن الشرقاوي وقد أصابه من المؤلف ما يشتم منه رائحة الغلو والإسراف .

والعجيب أن الأستاذ أنيس منصور تناول هذا الكتاب بقسوة واتهم المؤلف بأنه قاض ينطق بالأحكام وليس تحت يديه مستندات ، بينما مستندات الكتاب واضحة في كل قضاياه

وعيب الكتاب بعد ذلك عنايته بأمثال غالى شكرى ، وهو أضعف وأهون من أن يكون الرد عليه موضوعا فى كتاب ، إلا إذا جاز لناقد أن يصوب مدفعا رشاشا على ذبابة قطن فى مجالاتها ، وعيب آخر فى الكتاب كثرة الأخطاء اللغوية ، ولو أن هذا وذاك لم يفقد الكتاب قيمته الأدبية ، وهو يمثل وجهة نظر إسلامية وعربية معا .

* * *

فى صحبة العقاد

للأستاذ محمد طاهر الجبلاوى

هذا الكتاب الذى أصدرته مكتبة الأنجلو المصرية ـ يقع فى مائتين وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، والمؤلف أقدر أصدقاء العقاد على الكتابة عنه . فقد صحبه كاتبا قوى الحجة ناصع البيان ، وشاعراً رقيق الحس رفيع الخيال ، وصحبه صديقا حميا ، ولازمه فى الغدوات والروحات نيفا وأربعين سنة ، وهو يقرر فى تمهيده الكتاب بأن كتابه لن يكون تعريفا بالعقاد كما قد يتبادر إلى الذهن ولا درسا لأدبه وحكمته ، ولكنه صفحات مطوية لعلها تنشر لأول مرة ، يسجل فيها ذكريات غاليات عن الحقبة التى لازم فيها العقاد .

يحدثنا الأستاذ الجبلاوى عن أول لقاء له مع العقاد وكان ذلك فى عام ١٩٢٢ ، بدار صحيفة الأخبار اليومية ، لينشر بها أبياتا نظمها الشاعر حافظ ابرهيم فى تقريظ ديوان صغير نظمه ، وقلب المرحوم المازنى بعض صفحات الديوان فزم شفتيه وهز رأسه ، ولم يكتف بأن الشعر لم يعجبه بل قال لا يستحق النقد ، وسنحت الفرصة مرة أخرى ليلقى العقاد فى قهوة متاتيا بالأزبكية ويعرض عليه نماذج من شعره المخطوط ، وكانت نصيحته له : إن الشعر شىء آخر غير الديباجة الحسنة ، الشعر أن تحس وتعبر تعبيراً جيلا عما تحس ـ وكان مما أشار به عليه أن يقرأ كثيراً من الكتب ، ويعقب الأستاذ الجبلاوى بقوله : كان المازنى على حق ، ولكنه كان حقا سلبيا مميتا ، وكان العقاد على حق ، ولكنه كان حقاً إيجابياً مفيداً .

حدثنا المؤلف عن العقاد فى نشأته ، وفى المدرسة حيث كان فى حياته مدرستان : مدرسة التعليم الابتدائى ليتلقى التعليم على أيدى أساتذة مفروضين ، والمدرسة الأخرى مدرسة الكتاب وقد اختار أساتذتها بنفسه ، وقدكانوا جميعا من جلة المؤلفين المشهود لهم بالسمو وحدثنا عن العقاد فى الوظائف ، حيث اشتغل بوظائف الحكومة وبالتدريس ، فى المدارس الأهلية ، ولكن لم يطل أمد اشتغاله بأى منها ، فكان يرى فى وظائف الحكومة قيداً وخضوعا ،

وفى وظائف التدريس فوضى وخنوعا ، كما حدثنا عن العقاد رافع راية التجديد فى عصر اعتمد الشعر فيه على المحاكاة وتقليد المتقدمين فى استعراض الديباجة الحسنة والقوالب الرصينة قبل أن يستعرض المعانى والأحاسيس ، وعن العقاد الصديق ، ثم قدم نماذج من أشعار وأزجال تبودلت بين المؤلف والعقاد فى رسائل .

كما حدثنا المؤلف عن العقاد السياسى الذى اشتغل بالصحافة لأنها عمل وطنى يتيح لصاحبه أن يدافع عن وطنه ميدان السياسة ويذود عنها أعداء الحرية والاستقلال ، وعن العقاد فى بيته حيث عاش المؤلف معه فى بيته لاهيا ومرحا صاخبا ، وراضيا عن أناس تارة وساخطا على أناس تارة أخرى ، أما المرأة فى حياة العقاد فيذكر الأستاذ الجبلاوى أنه حين سأل العقاد لماذا لم تتزوج ؟ فأجاب بأنه لا يكره الزواج ولا يأباه ، ولكنه طبع على أنه لا يشاركه أحد فى حياته لأنه لا يطيق هذه المشاركة . ومع ذلك فلم يخل قلبه من حب المرأة فقد شغل بالحب فى صباه الباكر وذاق عذوبة القرب ومرارة الحرمان ، وفى الفصل الأخير حدثنا المؤلف عن أخلاق العقاد عن شعره الذى ارتسمت فيه شخصيته وتبينت صفاته ، ومن أبرزها قوة شخصيته وصلابتها واحتمالها الشدائد .

كلمة واحدة أريد أن أقولها : ذكريات العقاد مع الجبلاوى أكبر عشرات المرات من هذا الكتاب ، وربما كان عذر المؤلف أنه ليس من اليسير أن يكتب كل أسرار العقاد ، ولكن أسرار العقاد أصبحت جزءا من تاريخ العقاد ، بل جزءا من تاريخ الأدب والسياسة فى مصر فى أكثر من نصف قرن .

كتب جديدة

رجال حول الرسول

للأستاذ خالد محمد خالد

دار الكتب الحديثة - القاهرة

اختار المؤلف عشرة من أصحاب الرسول السابقين إلى الإسلام ، وعرض شخصياتهم عرضا تحليليا فى أسلوب أدبى رفيع ، مسلطا الأضواء على مركز العظمة فى كل شخصية ، منهم مصعب بن عمير أول سفراء الإسلام ، وسلمان الفارسى الباحث عن الحقيقة ، وأبو ذر زعيم المعارضة ، وعبدالله بن عمر المثابر الأواب ، ومعاذ بن جبل أعلمهم بالحلال والحرام .

مى أديبة الشرق والعروبة

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

عالم الكتب - القاهرة

يقع الكتاب فى حوالى ثلثمائة وأربعين صفحة ، وهو دراسات عن مى زيادة الأديبة المعروفة ، ودورها فى ميدان الأدب ، وقد

(البقية على صفحة ٣٨١)

تعليق :

العقد - من وجهة نظر الدين بالتفصيل الذى ذكرته لجنة الفتوى الموقرة - صحيح ما فى ذلك شك ، غير أنه يجدر القول هنا إن حكمة الأب عليها معول كبير ، إذ واجبه يدعوه لأن يدرس - مباشرة أو بسبب - ميول ابنته بتعمق ، فإذا وجد أن أسباب الكراهية مما يزول مع الأيام فليتطف معها بالقول الهادئ والنصيحة الأبوية الرقيقة عسى قلبها أن يتفتح لزوجها فتشاركه حياة لا تنقصها السعادة .

أما إذا تأكد لديه استحالة ذلك فدفعا للضرر وتجنبا لما قد يؤدى اليه مثل هذا الزواج من مخالفات دينية أنصح بعدم إتمامه ودين الله يسر وما جعل عليكم فى الدين من حرج والخشية مما يصاحب فصم العقد من أقاويل تمس الزوج وتعقد حياته - الأمر الدافع على إصراره كما يبدو - هذه الخشية تدفعها خشية أشد من مصائب أنكى يأتى بها إصراره على التمسك بحياة زوجية لا تجاوب فيها والله الموفق .

ابراهيم محمد الأصبل

(بقية المنشور على صفحة ٣٧٢)

سبق للمؤلف أن أصدر كتابا عن (مى) عام ١٩٤٢ إلا أن الزيادات الكثيرة التى أضافها للطبعة الأولى جعلت كتابه الأخير هذا جديدا بحق .

يوم العروبة :

للأستاذ مصطفى نعمان البدرى

مكتبة دار العروبة — القاهرة

محاكاة شعرية فى تمثيلية تقع فى ثلاثة فصول قصيرة ، وهى تصوير لمهرجان الوحدة العربية ، وقد راجعها الأستاذ عادل غضبان .

وحى النهضة الوطنية :

فى الخطب المنبرية

للأستاذ الشيخ على رفاعى

مكتبة صبيح بميدان الأزهر

هذه هى الطبعة الثانية من الكتاب الذى امتاز بعرضه ألوانا من الخطب المصرية المتصلة بحياتنا السياسية والاجتماعية ، ثم بتقديمه نماذج لدروس الوعظ من التفسير والحديث .

الحب عند العرب :

للعلامة أحمد تيمور

لجنة نشر المؤلفات التيمورية

هذا الكتاب ينشر لأول مرة ، وهو من المخطوطات القيمة التى تتناول الحب فى أرفع معانيه وأسمى اتجاهاته ، من حقل الأدب العربى شعراً ونثراً وقصة .

محمد عبد الله السمان

أنباء وآراء

الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر

صدر قرار جمهورى فى الأسبوع الأخير من شهر يوليو الماضى بتعيين فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخا للأزهر ، ويعتبر فضيلته الشيخ التاسع والثلاثين فى تعداد شيوخ الأزهر ، ومن الجدير بالذكر أن منصب شيخ الأزهر شاغر منذ ١٣ ديسمبر الماضى إثر وفاة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

وفضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون من مواليد عام ١٨٩٤ بحى الخليفة بالقاهرة ، وظل يعمل فى مناصب القضاء بمصر والسودان خمسة وأربعين عاما ، وفى عام ١٩٤١ عين قاضيا لقضاة السودان وظل فى منصبه ست سنوات عاد بعدها إلى القاهرة - بعد موقفه الوطنى المعروف - رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الشرعية ، ثم عضوا فى المحكمة الشرعية العليا ثم نائبا لها ثم رئيساً ، وفى عام ١٩٥٥ عين مفتيا للديار المصرية خلفا لصاحب الفضيلة الشيخ حسنين مخلوف إلى أن أحيل إلى الاستيداع . وكان أن صدر القرار الجمهورى فى أواخر شهر يوليو الماضى بتعيينه إماما أكبر وشيخاً للجامع الأزهر .

وينص قانون تطوير الأزهر الذى صدر فى يونيو ١٩٦١ على أن شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر وصاحب الرأى فى كل ما يتصل بالشئون الدينية والمشتغلين بالقرآن وعلوم الإسلام ، وله الرياسة والتوجيه فى كل ما يتصل بالدراسات الإسلامية ، ويرأس المجلس الأعلى للأزهر .

هذا ومجلة الأزهر إذ تهنئ الإمام الأكبر بهذا المنصب الكبير تسأل الله عز وجل أن يكتب له التوفيق فى رسالته الإسلامية الكبرى ، فلم تزل الشعوب الإسلامية قاطبة تنظر إلى الأزهر الشريف باعتباره مناراً للإسلام ورافعا لواءه وذائداً عن حماه ، والذى يجب أن يناط به وبعلمائه الأجلاء الوقوف أمام تيارات الإلحاد وموجات التبشير فى معظم بلاد المسلمين ، ولإثبات وجوده للإسهام فى إقرار السلام العالمى إزاء هذه القلاقل الموزعة بين أركان العالم تهدد السلام وتنذر بشرر حرب عالمية ثالثة .

أمد الله فى حياة الإمام الأكبر وكتب للأزهر فى عهده ما يرجوه من نهوض وتقدم يليقان بمكانته ؟

مدير جامعة الأزهر

كان لصدور القرار الجمهورى فى ١٤ يوليو الماضى بتعيين العالم الأديب فضيلة الشيخ احمد حسن الباقورى مديراً لجامعة الأزهر هزة سرور غمرت الأوساط الأزهرية وغير الأزهرية.

والذى لا شك فيه أن الجامعة الأزهرية فى تطورها الجديد ـ حيث أريد لها أن تدخل معترك الحياة فى شتى ميادين المعرفة ، كانت فى حاجة إلى عالم أديب كالشيخ الباقورى ، عرف عنه بالإضافة إلى علمه ، سعة أفقه ، ومرونة تفكيره ، وتمتعه بطاقة كبرى من الحيوية والنشاط .

ومجلة الأزهر إذ تهنئ الشيخ الباقورى بهذا المنصب الرفيع ، تهنئ جامعة الأزهر بابن من أبنائها ، سيهب لها كل يملك من طاقات وجهود فى سبيل النهوض بها .

* * *

مدير مجلة الأزهر

سافر فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات مدير مجلة الأزهر إلى أسبانيا حيث يجرى له طبيب العيون العالمى الدكتور باراكير عملية جراحية فى عينه فى مستشفاه ببرشلونة .

والمجلة تسأل الله سبحانه أن ترافقه السلامة فى ذهابه وإيابه ، وأن يكلل العملية بالنجاح .

أهدم للدين أم تجديد له ؟

بمناسبة ما ينشره الدكتور محمد أحمد خلف الله مدير إدارة المجلات التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد تحت عنوان : « التجديد الدينى » أبعث بهذا إلى قادة الفكر الإسلامى مستفسراً عن مدلول عبارة « التجديد فى الدين » ، لأنها أصبحت تداعب اليوم تفكير عدد من الناس .

وهل يفهم من هذا التجديد تجديد رسوم الدين الذى أبلاه المبتدعون والمصابون بالخمول الذهنى فى عصور الانحطاط ، كما فعل حجة الإسلام الإمام الغزالى فى إحيائه المتدفق بالروح والريحان ، ومحمد إقبال فى محاولاته التجديدية ، أم هو محاولة لتفتيت الأحكام الشرعية ، المبنية على أسرار عظيمة لا يدركها إلا الذين امتزج إيمانهم بالإخلاص ؟

أظن ـ وليس كل الظن إثماً ـ أن الحقيقة الناصعة لا ترتبط بالآخر ، الذى يتطاول به المتطاولون على الإسلام :

فانظر إلى الأخوين من أدناهما
شبهاً بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسة
ورياسة لولا القياس الفاسد

ومهما يكن من أمر فإننى أهيب بقادة الفكر الإسلامى أن يواجهوا هذا التطاول

على شريعة الإسلام ، وقد بدت بوادر طيبة نرجو لها المزيد .

صالح بن أحمد السنغالى
بالدراسات العليا ـ الأزهر الشريف

* * *

حاجتنا الى شباب جاد :

كما أن الأمة فى حاجة إلى حكمة الشيوخ ، هى فى حاجة أيضاً إلى فتوة الشباب ، ولقد كانت الأمة الإسلامية بشبابها الجاد مهيبة الجانب ، منذ فجر انطلاقها لنشر دعوة الحق ، والوقوف إلى جانب الشعوب المغلوبة على أمرها فى فارس وغيرها ، ولو شئت أن تتساءل : ما السر وراء هذه الانتصارات المذهلة مع الفارق بين القوتين ، لأيقنت بأن من وراء هذه الانتصارات شباباً جاداً لم يعرف العبث فى حياته ، شباباً وهب كل حياته ووجوده لعقيدته وإيمانه ...

والعروبة اليوم تقف فى مفترق الطرق ، تتحدى قوى الاستعمار غير وجلة ولا هيابة ، وتصر على أن يحمل هذا الاستعمار عصاه ويرحل من كل شبر فى أرض عربية ، وربما اضطرت العروبة إلى مواجهة الاستعمار مرة أخرى كما سبق لها أن واجهته فى بور سعيد ، والواجب يحتم علينا أن نكون على أهبة الاستعداد ، وأن نهيء شبابنا إلى خوض المعركة ومعه رجولته وإيمانه .

ولكن المؤسف أن بعض صحفنا والأسبوعية على الأخص تعيش فى واد بعيد عن حاضرنا ومستقبلنا ، فلم تزل تواصل نشر الأدب المكشوف ، وتشجع الانحلال الخلق باسم المدنية والحرية الشخصية ... ومثل هذا الأدب الحرام ـ كما أسماه أستاذنا الزيات ـ ينخر فى كيان شبابنا الذى نحن فى أمس الحاجة إلى رجولته وإيمانه إن لم يكن اليوم ، فلا بد أن يكون فى الغد القريب ...

محمد ربيع عبد الماجد
مدرس بأسوان

* * *

* انعقد مؤتمر القمة العربى الثانى بقصر المنتزة بالإسكندرية من ٥ ـ ١١ من شهر سبتمبر ١٩٦٤ ، وقد تحققت هذه الدورة إنجازات جديدة فى دعم التضامن والعمل العربى المشترك .

هذا وقد اتخذ المؤتمر القرارات الكفيلة بتنفيذ المخططات العربية ، وخاصة فى المجالين العسكرى والفنى ، بداية العمل الثورى فى المشروعات العربية باستغلال مياه نهر الأردن وروافده ، ومنها قيام منظمة التحرير الفلسطينية دعما للكيان الفلسطينى ، ومنها تصفية الجو العربى ، وتأييد كفاح الشعوب ضد الاستعمار ، وفى مقدمتها شعب الجنوب العربى ، ومن هذه القرارات أيضا تأليف مجلس عربى مشترك للبحوث الذرية للأغراض السلمية فى نطاق الجامعة العربية وإنشاء محكمة الدول العربية .

هذا وقد ووفق أن ينعقد مؤتمر القمة العربى فى شهر سبتمبر من كل عام ، وسيكون انعقاده فى العام القادم فى المغرب العربى إن شاء الله .

* بدأ الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر دراسة المشروعات الجديدة فى الخطة الخمسية الثانية مع كبار المسئولين فى إدارة الأزهر وتبلغ تكاليف هذه المشروعات حوالى خمسة ملايين جنيه ، وفى مقدمة هذه المشروعات :

إنشاء مجمع جديد للأزهر على مساحة خمسة عشر فدانا بالدراسة يضم جميع الأجهزة الفنية والإدارية وإدخال التعليم الفنى الأول مرة فى الأزهر، وإقامة مبنى جديد للمعهد النموذجى للبنين ، ومبنى آخر لمعهد القاهرة ، ولأول مرة كذلك تقرر إنشاء خمسة وعشرين مدرسة ابتدائية لقبول الأطفال من سن السادسة .

* * *

* تدرس وزارة الأوقاف حاليا مشروعا يهدف إلى مساعدة الطلبة على التقدم العلمى عن طريق تنظيم دروس إضافية لطلبة الكليات العلمية بالجامعات وطلبة الثانوية العامة تبلغ ، تكاليف المشروع نحو ٨٧ ألف جنيه ويستفيد منه ٣٠٠ طالب جامعى و٢٠٠ طالب ثانوى .

* * *

* قررت وزارة التربية والتعليم النهوض بمستوى تدريس مادة الدين فى المدارس بتخصيص ٢٥ ٪ من النهاية الكبرى لدرجة الدين من النسبة المخصصة لأعمال السنة لسلوك الطالب فى المجالات المدرسية المختلفة يقدرها رائد الفصل وتوفير مكان لائق فى كل مدرسة لإقامة الشعائر الدينية وتزويد المكتبات المدرسية بما يحتاج إليه من كتب فى شتى النواحى الدينية وتنظيم مسابقات بين الطلاب فى الموضوعات الإسلامية .

* * *

* من الأخبار العلمية أن البحرية الأمريكية استطاعت أن تصمم منزلا كاملا لأربعة من العلماء يعيشون داخله فى أعماق المحيط حيث اتجهت الأبحاث التى تجرى الآن إلى استغلال المساحات الشاسعة ، ومن الجدير بالذكر أن المحيطات فى العالم تشغل ما يقرب من ثلثى المساحة الكلية للكرة الأرضية .

* أصدرت الأمم المتحدة منذ أسابيع كتاب التعداد السنوى ، وذكر أن تعداد سكان العالم يتزايد بحوالى ٦٣ مليون نسمة سنويا على الأقل نتيجة ارتفاع المواليد عن الوفيات ، هذا ويقدر عدد سكان العالم فى الوقت الحاضر بحوالى ثلاثة آلاف وربع مليون نسمة وسكان الصين الشعبية وحدها يمثلون ٢٠ ٪ من سكان العالم .

السراج

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الإجابة للجنة الفتوى بالأزهر)

قراءة القرآن لدى القبر - الوليمة - الأدعية - هل للصلاة سورة خاصة - البيع بالمسجد - كتابة القرآن والحديث بالحروف اللاتينية - التصوير - الاشتغال فى حانات الخمر ، وزراعة موادها الأولية .

السؤال :

١ - هل يجوز قراءة القرآن حول القبر ، ما حقيقة تلقين الميت بعد دفنه ؟

٢ - أيجوز للمسلم أن يولم كالإفرنجى ، أعنى اتباع نظامهم فى حفلات الزفاف ؟

٣ - هل توجد أدعية خاصة للشهور الأخرى كما فى نصف شعبان ورمضان ؟

٤ - أجعل الله سوراً من القرآن خاصة للصلاة من الصلوات الخمس ؟

٥ - أصبح من المألوف أن نرى بعض الباعة يزاولون عملهم فى بيوت الله ، ما الحكم فى هذا ؟ ولدينا الآن أوراق اليانصيب تباع فى كل مكان فما حكم الإسلام فيها ؟

٦ - هل يجوز قراءة القرآن فى المآتم كما يفعل الناس الآن ، وهل ورد من السنة شىء فى هذا ، وهل يثاب الميت بالقراءة ؟

٧ - هل لصلاة التراويح دعاء خاص يدعوه المصلى بعدها ؟

٨ - هل يجوز كتابة القرآن أو الحديث النبوى بالحروف اللاتينية ؟

٩ - ما حكم التصوير ، والمصور فى الإسلام أحرام أم حلال ؟

١٠ - فى حياتنا الراهنة نرى بعض المسيحيين يساهمون فى بناء المساجد ويبادلهم المسلمون نفس الشعور ويساهمون فى إقامة الكنائس فما حكم الدين فى هذا ؟

١١ - المسلمون غزوا ميدان العمل واشتغلوا فى كل شىء حتى حانات الخمور مالكين لها أو عاملين فيها وتجاوزها البعض إلى زراعة مواد إنتاجها فما حكم الدين فى هذا ؟

إسحاق أجا كسوزى الأوغندى
(الرابطة الإفريقية بالزمالك)

الجواب :

عن الأول : نفيد بأن قراءة القرآن للميت جائزة شرعا ويكون ثوابها له متى كان القارئ قد وهبها له ، ويكون للقارئ ثواب على ذلك .

وسواء أكانت القراءة عند القبر أو بعيداً عنه ، وهذا عند كثير من الأئمة ، كما تنفعه الصدقة والدعاء له بإجماع العلماء .

ويجوز كذلك تلقين المريض فى حالة الاحتضار وتلقين الميت بعد دفنه كلمة الشهادتين وعقيدة الإيمان ويكون التلقين فى حالة الاحتضار برفق ، وتلطف حتى لا يسأم المريض فى هذه الحالة العصبية .

عن الثانى : نفيد بأن الوليمة فى العرس مستحبة شرعا ويدعى إليها بلا تفرقة بين الأغنياء والفقراء ويجب ألا تشتمل الوليمة على شىء محرم كشرب ما يسكر أو اختلاط الرجال بالنساء أو الرقص أو نحو ذلك وإلا كانت حراما .

عن الثالث : نفيد بأن الدعاء مطلقا مشروع قال تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » وقال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » وفى الحديث « الدعاء مخ العبادة » .

وقد وردت أدعية مأثورة فى بعض المواسم والأوقات لا مانع من استعمالها والأخذ بها متى ثبتت .

عن الرابع : نفيد بأن المطلوب قراءة السورة أو بعضها بعد الفاتحة أية سورة كانت من القرآن وتحصل بذلك السنة والأكمل أن يقرأ فى الصبح والظهر بطوال المفصل الذى أوله سورة الحجرات وآخره آخر النازعات وفى العصر والعشاء أواسط المفصل وأوله سورة عبس وآخره آخر والليل ، وفى المغرب قصاره وأوله والضحى إلى آخر القرآن كما أن الأفضل أن يقرأ فى صبح الجمعة بألم تنزيل وهل أتى ...

عن الخامس : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة فقولوا لاردها الله عليك ، وحسنه الترمذى ، من هذا يعلم أن البيع والشراء وطلب الضالة فى المسجد حرام) قال تعالى : « وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » ، فالمساجد بنيت للعبادة .

أما أوراق اليانصيب فإن بيعها من باب اللعب بالميسر يمنع مطلقا فإن حصل ذلك فى المسجد كان أغلظ ، فإن الله تعالى حرم الميسر بنص القرآن حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب

والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وعن السادس : نفيد بأن قراءة القرآن مطلقا عبادة يثاب عليها القارىء والمستمع فإذا كان ذلك فى المأتم كما يفعل الآن فلا مانع منه وينتفع الميت بالقراءة إذا قرأ بقصده أو قرأ عنده أو وهب ثواب القراءة له .

وعن السابع : نفيد بأن صلاة التراويح كغيرها من الصلوات يدعو الله تعالى بعدها بما يدعو به بعد غيرها من الصلوات .

وعن الثامن : نفيد بأنه لا تجوز كتابة القرآن بالحروف اللاتينية وكذا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، صيانة للنصوص الشرعية عما لا يؤمن معه الخطأ فى مدلولها المقصود ولا مانع من تفسير القرآن والحديث وترجمة التفسير بغير اللغة العربية للاستفادة .

وعن التاسع : نفيد بأن التصوير لغير ذى الروح من الأشجار والأزهار والمبانى وغيرها جائز وكذا لذى الروح إذا كان بهيئة لا يعيش بها وإذا كان لغرض التثقيف كان أولى بالجواز فإن كان بهيئة يعيش بها كان حراما .

وعن العاشر : نفيد بأن بناء المساجد مشروع قال تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ... الآية » ومساهمة الكافر فى بنائها لا مانع منه ويخفف عنه بها من عذاب غير الكفر ، أما بناء الكنائس فحرام وأفظع فى الحرمة أن يساهم المسلم فى بنائها .

وعن الأخير : نفيد بأن صنع الخمر والاتجار بها بيعا أو شراء حرام شرعا يأثم عليه مرتكبه أما زراعة المواد التى يتخذ منها المسكر أو المخدر فإذا كانت لا تصلح إلا لذلك فزراعتها ممنوعة فإن صلحت لغير الإسكار كالعنب مثلا يتخذ للأكل كانت الزراعة مباحة .

حكم الزواج العرفى المستوفى لشروط العقد الصحيح

السؤال :

تزوج رجل بامرأة بعقد عرفى مستوفى لجميع شروط عقد الزواج الشرعية فما حكم هذا الزواج ؟

عبد اللطيف حليم

الجواب :

حيث تم عقد الزواج بإيجاب وقبول شرعيين وبحضور شاهدين شهدا على ذلك فقد صح العقد شرعا ووجب الصداق وترتبت عليه آثاره من لزوم النفقة ولحوق النسب والتوارث بينهما - إذا مات أحدهما - إذا لم يقترن

ذلك بمانع شرعي غير أن عدم توثيق هذا العقد رسميا أمام المأذون أو في محكمة الأحوال الشخصية يجعله عرضة للإنكار إن لم يكن من الزوجين فيما بينهما فقد يكون ممن يطلع على ذلك من غيرهما وإن كان قد كتب بذلك ورقة عرفية فهذه الورقة عرضة للضياع وعرضة لعدم الاعتراف بها أمام القضاء خاصة إذا مات الشاهدان اللذان وقعا على هذه الورقة هذا فضلا عما قد يقترن بذلك من احتمال إنكار الولد وضياع نسبه إن حصل إنجاب ولد بينهما .

حكم عقد زواج البكر إذا استؤذنت وأفادت بما يفهم منه القبول وظهر العكس .

السؤال :

بنت تبلغ العشرين من عمرها أراد والدها أن يزوجها لابن عم لها فأرسل إليها والدتها وبعض أقاربها النسوة ليخبرنها عن ذلك فكان ردها « الرأى فى ذلك لوالدى » غير أنها أبدت بعد ذلك انكماشا وأصبحت تبكى ليل نهار ، وقد حمل أهلها ذلك على أنها عادة تعودت البنات العذارى عليها عند ما يبلغ لهن مثل هذا الخبر .

ومضى الوالد وعقد لها على ابن عمها هذا ، وبعد انقضاء مراسم الزواج بعدة أيام ظهر لوالدها ما لم يكن يعلمه من قبل ، ظهر أن هناك عداء وبغضا مستحكمين بينهما من الصغر ، فأسقط فى يده .

وأخيرا امتنعت من تسليم نفسها لابن عمها كما أصر هو من جانبه على ألا يطلقها فما الحكم لاختلاف آراء العلماء فى جنوب الجزيرة العربية .

أبو بكر أحمد حسين العيدروسى

الجواب :

العقد المسئول عنه فى هذا الاستفتاء صحيح فإن والد الفتاة له الحق فى تزويجها من غير استئذانها باعتباره والدها المجبر لها ، دون توقف على رأيها كما هو فى مذهب مالك والشافعى وأحمد رضى الله عنهم وفوق هذا فوالدها تابع السنة النبوية وأخبرها ، واستأذنها فى تزويجها من هذا الخاطب فأذنت بقولها « الرأى فى ذلك لوالدى » وذلك صريح فى الإذن والتوكيل كما هو المطلوب فى مذهب أبى حنيفة .

وبهذا صارت موافقة ، وصار العقد سليما من كل شبهة وعليها أن تسلم نفسها للزوج .

وأما ما يقال بعد ذلك من أنها على خلاف سابق منذ الصغر مع هذا الزوج فهو غير مانع من صحة العقد السالف لأن هذا كلام غير جدى فيما يظهر .

وعلى فرض صدقها فيه فقد أذنت ، وإذنها سابقا يسقط حقها فى الاعتراض بعد فوات أوانه .

تعليق :

العقد - من وجهة نظر الدين بالتفصيل الذى ذكرته لجنة الفتوى الموقرة - صحيح ما فى ذلك شك ، غير أنه يجدر القول هنا إن حكمة الأب عليها معول كبير ، إذ واجبه يدعوه لأن يدرس - مباشرة أو بسبب - ميول ابنته بتعمق ، فإذا وجد أن أسباب الكراهية مما يزول مع الأيام فليتلطف معها بالقول الهادئ والنصيحة الأبوية الرقيقة عسى قلبها أن يتفتح لزوجها فتشاركه حياة لا تنقصها السعادة .

أما إذا تأكد لديه استحالة ذلك فدفعا للضرر وتجنبا لما قد يؤدى اليه مثل هذا الزواج من مخالفات دينية أنصح بعدم إتمامه ودين الله يسر وما جعل عليكم فى الدين من حرج والخشية مما يصاحب فصم العقد من أقاويل تمس الزوج وتعقد حياته - الأمر الدافع على إصراره كما يبدو - هذه الخشية تدفعها خشية أشد من مصائب أنكى يأتى بها إصراره على التمسك بحياة زوجية لا تجاوب فيها والله الموفق .

ابراهيم محمد الأصيل

(بقية المنشور على صفحة ٣٧٢)

سبق للمؤلف أن أصدر كتابا عن (مى) عام ١٩٤٢ إلا أن الزيادات الكثيرة التى أضافها للطبعة الأولى جعلت كتابه الأخير هذا جديدا بحق.

يوم العروبة :

للأستاذ مصطفى نعمان البدرى

مكتبة دار العروبة — القاهرة

محاكاة شعرية فى تمثيلية تقع فى ثلاثة فصول قصيرة ، وهى تصوير لمهرجان الوحدة العربية ، وقد راجعها الأستاذ عادل غضبان .

وحى النهضة الوطنية :

فى الخطب المنبرية

للأستاذ الشيخ على رفاعى

مكتبة صبيح بميدان الأزهر

هذه هى الطبعة الثانية من الكتاب الذى امتاز بعرضه ألوانا من الخطب المصرية المتصلة بحياتنا السياسية والاجتماعية ، ثم بتقديمه نماذج لدروس الوعظ من التفسير والحديث .

الحب عند العرب :

للعلامة أحمد تيمور

لجنة نشر المؤلفات التيمورية

هذا الكتاب ينشر لأول مرة ، وهو من المخطوطات القيمة التى تتناول الحب فى أرفع معانيه وأسمى اتجاهاته ، من حقل الأدب العربى شعراً ونثراً وقصة .

محمد عبد الله السمان

فى محيط العالم الإسلامى

بقلم : محمد عبد الله السمان

بين أندونيسيا وماليزيا :

لم يزل النزاع بين أندونيسيا واتحاد ماليزيا على أشده ، حتى أوشك أن يهدد باندلاع ألسنة الحرب بينهما ، ولا سيما بعد تسلل فدائيين أندونيسيين إلى سنغافورة والملايو وهما عضوان فى الاتحاد ...

وعلى الرغم من أن أمريكا نصحت بريطانيا بعدم العمل على إشعال حرب ، إلا أنه قد تحركت منذ أيام قوات وسفن وأسلحة بريطانية لمواجهة هجمات الفدائيين الأندونيسيين التى أصبحت تمتد الآن من بورينو إلى قلب الملايو .

إن سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا يتهم الملايو بأنها كانت تشجع الثوار ضده فى سومطره عام ٩٥٨ . ومن الجدير بالذكر أن إتحاد ما ليزيا يضم ١٠ ملايين ، ويعتبره زعماؤه محاولة للوقوف فى وجه الشيوعية ، وقد تعهدت بريطانيا فى اتفاقيتها بالدفاع عن ما ليزيا .

بين باكستان والهند :

سافرت فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر إلى باكستان بعثة هندية غير رسمية برياسة نارايان ، وهو زعيم سياسى مستقل عن الأحزاب ، للعمل على تحسين العلاقات بين البلدين ، وقد اجتمعت البعثة مع الرئيس الباكستانى أيوب خان .

ومن المعروف أن مشكلة المشكلات بين الهند وباكستان هى مشكلة كشمير .

قضية عمان :

بدأت لجنة التحقيق فى تطورات عمان فى أول سبتمبر مهمتها فى الاستماع لآراء ممثلى عمان فى الشرق الأوسط وهذه اللجنة الخماسية تابعة للأمم المتحدة برياسة عبد الرحمن بازواك مندوب أفغانستان ، وقد تنقلت من الدمام إلى الكويت إلى القاهرة هذا وقد رفضت بريطانيا السماح لأعضاء اللجنة بزيارة إمامة عمان نفسها ، مما اضطرها إلى عقد مؤتمرات فى لندن .

ومن الجدير بالذكر أن مشكلة عمان عرضت أول مرة على الأمم المتحدة عام ١٩٥٧ عندما دعا مجلس الأمن لبحث العدوان المسلح الذى شنته بريطانيا ضد استقلال إمامة عمان ووحدة أراضيها ، وقد صرح بازواك رئيس اللجنة ، بأنه يجرى الآن إعداد دراسة كاملة لجميع المسائل المتعلقة بالقضية ، حتى يمكن اللجنة أن تستعرض الحقائق أمام الجمعية العامة فى ١٠ نوفمبر القادم . أما هذه اللجنة الخماسية فتتألف من أفغانستان والسنغال ونيجيريا ونيبال وكوستاريكا .

الجمهورية العراقية :

عثر فريق بريطانى أمريكى للآثار على أنقاض مدينة حصينة فى العراق يعود تاريخها إلى عام ١٨٠٠ قبل الميلاد ، وذكر الدكتور فروليتش ريتى رئيس متحف جامعة بنسلفانيا أن هذه المدينة تعرف باسم « تل الرماح » ، وتقع إلى الشرق من الموصل بشمالى العراق . هذا وقد ترأس فريق الآثار المشترك المستر دافيد أوتس من مدرسة الآثار البريطانية فى العراق والدكتور كارثر من متحف جامعة بنسلفانيا .

وقد ذكر الدكتور ريتى أن الفريق عثر على قلاع مرتفعة ودهاليز داخل المدينة المبنية من الطوب ، كما عثر فى الجانب المكشوف من مدخل المدرسة على تمثال له شكل مارد جبار يعتقد أنه ذو أهمية دفاعية .

كشمير :

اعتقل باكش غلام محمد رئيس وزراء كشمير السابق بتهمة تأييد المنشقين على الحكومة ، كما اعتقل خمسة من كبار أعضاء البرلمان بمقتضى قانون الدفاع عن الهند .

وتواجه حكومة كشمير الحالية تهديدا بهزيمتها فى المجلس التشريعى للولاية ، بعد أن اتخذ اثنان وأربعون من حزب المؤتمر القومى الحاكم قرارا بعدم تأييدها وقد اتخذ هذا القرار — على حد قولهم — لأن حكومة غلام محمد صادق لا تستطيع إدارة البلاد بطريقة مناسبة .

ورئيس الوزراء المعتقل تولى رياسة وزارة كشمير لمدة عشر سنوات خلفا للشيخ عبد الله الذى اعتقل عشر سنوات لمناهضة سياسة الهند فى كشمير ، ومن الجدير بالذكر أن كشمير ولاية يمثل المسلمون فيها ٨٠ ٪ .

المملكة العربية السعودية :

قررت وزارة المعارف السعودية فتح ٨٠٠ مدرسة لمحو الأمية بالإضافة إلى المدارس الموجودة حالياً .

وقد صرح وزير المعارف أن الوزارة حريصة على رفع مستوى جميع المعاهد والكليات بالمملكة ، وتطورها بحيث

تساير مناهجها التطورات العلمية الحديثة ، وأن الوزارة ستواصل الاستعانة بالمدرسين من الأقطار العربية الإسلامية والأجنبية .

أصبح من المنتظر أيضا أن تنتهى جميع أعمال الهدم القائمة بمكة المكرمة لإنشاء الميادين الخمسة حول المسجد الحرام .

أخبار سريعة :

* بدأ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، محاولة ترجمة تفسير القرآن إلى اللغة الفلبينية ، وأسندت هذه المهمة إلى مجموعة من العلماء مع الشيخ أحمد بشير أحد زعماء المسلمين فى الفلبين ، وسوف يطبع من النسخة المترجمة عشرة آلاف ، فى الفلبين ثلاثة ملايين مسلم .

هذا وقد قرر المجلس منح المسلمين الزنوج بأمريكا عشرين منحة دراسية للطلاب المسلمين للتعليم بالأزهر الشريف خلال العام الدراسى الحالى .

* هاجمت بعض صحف نيجريا السيد / أحمد بللو رئيس وزراء نيجيريا الشمالية بسبب تأييده للعرب ضد إسرائيل ، لأنه خلال زيارته الشرق الأوسط دعا إلى إنشاء جبهة إسلامية تشترك مع العرب فى تحرير فلسطين .

* تكلفت بعثة الأمم المتحدة فى اليمن ٧٠٠ ألف جنيه ، وأعلن يوثانت سكرتير الأمم المتحدة أن الجمهورية العربية المتحدة والمملكة السعودية قد أسهمت كل منها بـ ٢٨٥ ألف جنيه .

* قال سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا الإسلامية التى يمثل الإسلام بها أكثر من ٩٥ ٪ .

« أنا شيوعى ومتدين ووطنى » :

وذلك فى أثناء الاحتفال بضم وزيرين شيوعيين إلى حكومته التى يبلغ عدد أعضائها ٧٧ وزيرا .

يبلغ تعداد الحزب الشيوعى فى أندونيسيا مليونين .

* قررت وزارة الأوقاف إنشاء أول مؤسسة عربية إسلامية لنشر الإسلام وتعليم العربية فى آسيا وأفريقيا ، وسوف تبدأ هذه المؤسسة مهمتها بإنشاء عشرة مراكز فى عشر بلاد أسيوية وأفريقية ، واعتمد لهذه المراكز مبلغ ٨٠٠ ألف جنيه ، وسيضم كل مركز مسجدا ومدرسة ووحدة صحية علاجية .

* عثر طالب ألمانى يدعى هرمان تايزر فى جزيرة روجين فى بحر البلطيق على قطعة من العملة العربية التى كانت مستعملة فى عهد هارون الرشيد .

* تساهم الكويت بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه استرلينى فى بناء مركز إسلامى بلندن .

محمد عبد الله السمان

choses d'Islam en Particulier nous trouverons que de essais ont été faits au cours du xixe Siécle pour extraire les Préceptes morauxs du Koran. Mais le cadre de ces essais est souvent très restreint, et le contenu en est loin de répondre rigoureusement à la vraie doctrine Koranique.

Pour ce qui est du cadre, non seulement on a omis le côté théorique de la question : aucun savant Enropéen n'a encore essayé de dégager du Koran ses principes éthiques généraux. Mais en outre, nul d'entre eux n'a eu le souci de formuler ses règles pratiques et de les présenter sous la forme d'une loi complète. Tout leur effort réside dans ce fait qu'ils ont groupé et traduit litteralement un nombre plus ou moins grand de versets Koraniques relatifs au culte et à la conduite.

C'est Garcin de tassy qui nous semble avoir ouvert cette série des Extraits thématiques du Koran par un opuscule intitulé : "Le Korâan : Doctrines et devoirs" (Paris 1840). Il fut suivi par le fèvre qui publia en (1850) des morceaux choisis de la traduction de savary sous le titre : "Mahomet, lois morale, Civiles et Religieuses" puis par Barthélemy saint-Hilaire dans "Mahomet et le koran" (Paris Didier 1865).

Quant aux défauts de fond, ce la tient soit à une traduction incorrecte, sait à un mauvais compte-rendu, soit aux deux facteurs réunis. ceci se rencontre surtout chez Jules La Beaume dans son "Koran Analysé" (Paris maisonneuve 1878), qui est d'ailleurs l'œuvre analytique la moins incomplête.

Il nous a paru donc indispensable de reprendre le sujet et de le traiter suivant une méthode plus saine, en Vue de rectifier ces erreurs, de combler cette lacune dans la bibliothèque Européenne et de montrer aux savants occidentaux le véritable visage de la morale Koranique. et ce fut en réalité notre lut essentiel dans le présent travail.

(Suit)

INTRODUCTION

" Un ouvrage nouveau doit traiter exclusivement d'une des sept questions : une chose insolite à créer, incomplète à achever, confuse à éclaircir prolixe à resumer désordonnée à mettre un ordre, dispersée à révnir ou erronée à rectifier " (1)

Ce sage précepte d'un savant azharien du XVIIe siècle garde toujours sa valeur et requièrr de chaque écrivain qu'li se conforme à sa chate.

Not'e lecteur attentif aura l'occasion d'apprécier jusqu'à quel poir l'ouvrage que nous lui présentor aujourd'hui remplit ces conditions. Ce n'était pas pour perdre notre temps. Importuner nos l'ecteurs, charger nos biblitéques, que nous avons entrepris ce nouvel ouvrage sur Le Korân ; et c'eût été le cas si notre œuvre n'apportait rien de neuf dans le monde oriental ou occidental.

I Etat antérieur de la question.

Un regard rapide sur les traités de morale générale, écrits par des savants occidentaux suffit pour y apercevoir un vide bien large et bien profond, dû à leur silence absolu sur la morale koranique ces traités nous entretiennent en effet plus ou moins longuement des principes moraux, tels qu'ils ont vus par le paganisme grec, puis par les religions suive et chrétienne mais une fois ces trois périodes parcourues, les voilà qui nous transmettent par un saut brusque aux temps modernes en Europe, laissant de côté tout ce qui touche la loi morale de l'Islam.

Et pourant l'apport koranique en ces matières est d'une valeur inestimable. l'histoire des doctrines éthiques y gagnera en étendue. en profondeur et en harmonie; et le problème moral lui-même n'en oura que des profits. Pour résoudre ses difficultés, tant nouvelles qu'-éternelles.

N'est-ce pas une perte immense qu'une telle doctrine soit ainsi omise et passée sous silence ?

Il est vrai que si, au lieu de chercher dans ces troites de morale générale, nous consultons les ouvrages européens qui traitent des

(1) Chams Ed-Dine ell Bâbili mort en 1077 de l'hégire, cité par moulla El-Mohbbi, Khoulâssat el-Athr, fi Agâne el Karn El Hâdi achar T.IV.P. 41 (èd caire 1284 H)

Pourrais-je, après tout, brosser, par ce rapide aperçu, la biographie d'un homme dont les inoubliables vertus vaudraient d'être rapportées dans un livre plus détaillé où serait mis en lumière un passe glorieux d'efforts et de luttes ? Je sollicite de Dieu tout puissant l'aide dans la mise en œuvre d'un pariel projet afin que ce livre puisse voir le jour très prochainement. C'est une dette dont je veux m'acquitter et message que je me dois de repmlir.

C'est un grand honneur pour moi de présenter aux lecteurs de la revue "AL AZHAR", un ouvrage du grand maître et camarade, le regretté Dr. Mohamed Abdullah Draz. "La morale du Korân".

J'espère avoir l'occasion d'en faire un aperçu analytique, rendant ainsi d'hommage à l'oeuvre et à l'écrivain.



Il ne se laissa jamais décourager par les lourdes charges de sa famille dont chaque membre rêvait, un avenir digne et heureux. Il n'oublia point ses obligations envers son pays et envers l'Azhar, malgré les violentes cannonades et les vrombissements des bombardiers pendant toute la durée de la guerre mondiale.

Rien de tout cela ne l'empêchait de recevoir chez lui les membres des communautés musulmanes ou les visiteurs de passage venant des diverses parties du monde islamique. Il les accueillait avec aménité, les complait de prévenances et leur réservait la plus généreuse hospitalité.

Le jour où il obtint la licence, je me rappelle lui avoir posé cette question : "Quel profit avez-vous tiré de vos études à la Sorbonne?" "De la méthode dans l'enseignement et certains aspects de morale", rèpondit-il. "Quel serait le sujet de votre thèse ?" repris-je. "La morale, fit-il, et plus précisément la morale du Korân".

Ce fut alors que j'appris que notre moniteur s'était attelé à sa thèse dès le premier jour de son arrivée à Paris. Il ne cessait de réciter le Korân, en ma présence, et je le voyais s'arrêter à chaque verset comportant un point de morale. On eût dit qu'il le confrontait avec toute théorie ou tout système philosophique présentant une analogie en la matière.

Il croyait en la perplexité de la conscience morale dans la démonstration des diverses civilisations. Il assurait que le malheur de toutes les civilisations c'etait l'absence de l'élément fondamental et véritable de cette conscience, c'est à dire de la source dont elle puise sa raison d'être, son essence et son efficience. Car, que serviraient toutes les idéologies de l'histoire et tout le génie des historiens si le monde continuait à danser sur un volcan ? Et s'il était dangereux et effrayant de parler du destin, où donc trouverions-nous la sécurité morale, la tranquillité de l'esprit, la confiance en l'existence et l'optimiste foi dans la marche de l'univers ?

Il affirmait que le Korân est la source de toute éducation humaine et de toute morale pratique et théorique, et que nous devrions inéluctablement y puiser le système morale auquel aspire l'humanité pour réaliser ses idéaux et parfaire son bonheur durable.

Que les peuples égarés soient donc orientés vers les principes de morale contenus dans le Korâan et que les mécréants se plient à la parole révélée,, toute de vérité et de justice.

Dr. MOHAMAD ABDULLAH DRAZ

Par : Dr. AFIFI ABDEL FATTAH

Directeur des Recherches Islamiques

Descendant d'une lignée d'hommes lettrés connus par leur attachement aux préceptes de la morale, Mohamad Abdullah Draz fut, dans son enfance, entouré par les soins paternels les plus tendres et les plus attentifs, dans une famille dont le riche patrimoine de vertus s'était transmis de génération en génération.

Je l'ai d'abord connu par ouï-dire, grâce aux nombreux éloges dont le comblaient les érudits de son temps. Ensuite, j'ai eu l'occasion de le rencontrer, de temps en temps, au cours de ses leçons qui révélaient en lui un professeur modeste, indulgent, doux, d'esprit large, d'expression élégante et de pensée profonde, abordant avec tact et sagesse les problèmes les plus ardus, pour les clarifier, par la suite, sous la forme la plus nette et la plus agréable.

Rendant gloire à ces dons qui étaient le témoignage d'une faveur divine, je nourrissais alors un seul voeu : c'était de pouvoir, avec l'aide de Dieu, entrer en rapport plus étroit avec ce grand homme.

Repondant à mon désir, le destin voulut que nous fussions choisis tous deux comme membres de la mission de l'Azhar à Paris. Nous restâmes dans cette capitale une dizaine d'années au cours desquelles, Mohamad Draz fut pour moi et pour tous les membres de la mission, le dirigeant, le guide, le contrôleur et le protecteur. Les travaux de la mission furent, grâce à Dieu couronnés de succès et tous ses objectifs réalisés.

Avant son voyage en France, Mohamad Draz avait déjà une connaissance assez profonde de la langue française et de sa littérature. Il lui fut ainsi facile d'obtenir les titres universitaires. Cependant, animé par une curiosité pressante d'apprendre, il tint à entreprendre des études plus vastes et plus approfondies. Il se fit inscrire à la Faculté des Lettres où il suivit avec la plus grande perséverance les cours de philosophie. Il réussit à décrocher toutes les licences requises dans cette discipline, malgré les circonstances difficiles que traversaient alors les citoyens français eux-mêmes et, à plus forte raison, les étrangers vivant en France.

who would at times demand his assent to terms that were derogatory to his personal honour, even then He would accept them and act on them under all circumstances. Even before He had received the messengership, his integrity and impartiality had become proverbial. He was referred to by all, friends and foes, as "AL-AMIN", the Trust worthy. People would bring their disputes to him to be settled.

The Prophet was a living example for the spread of Justice and equality. Muslims or non-Muslims, friends or foes, high or low, all were, alike to him. Even in the treatment of his servants, everywhere he observed the same principles of equality and justice. It is reported that Anas was in the service of the Prophet Muhammad for about ten years. He said that during this long period he was not once repromanded by him.

The Prophet of Islam enjoined the acquisition of knowledge upon all Muslims, both males and females. The Holy Qur'an says: "Whose ever is given knowledge is given in reality, much goodnes." The prophet says: "Acquire knowledge even if you must go to China to find it" He is reported to have said that the pen is mightier than the sword, and a drop of ink from the writer's quill is more sacred than the blood trickling from the wounds of a martyr." While the achivements of every great man are limited to a definite sphere, those of the Holy prophet cover the entire field of human life. He gathered to gether a people like the Arabs, split up into warring tribes, severed by generations of blood feuds. He lifted up a nation sunk solow, as were the Arabs, and made of them torch-bearers of a living culture and a great civilization. His greatness is to be found in a mighty and comprehensive personality. His words inspired and His personality radiated the hearts of His companions, whowere not persons of inferior standing or mental calibre, but men of high rank, wealth culture and Position. His life was the assemblage of all the virtues, human and divine. Sincerity, generosity, broadmindedness frimness and tenacity of purpose, His calmness in adversity. His meakness in prosperity, His humility in greatness, His modesty of character, His love for people, His care for animals, His bravery and magnanimity of spirit, His unbending sense of justice are the manifestations of his practical life. It would need volumes to describe the unique qualities of His Unique Personality.

MOHIADDIN ALWAYE

PROPHET MUHAMMAD

THE PERFECT EXAMPLE FOR HUMANITY

Prophet Muhammad (Allah's choicest blessings on him) belived in teaching his message by example more than by speeches and percepts. There is not a single order or rule from God that did not find complete manifestation in his own action. The Holy Prophet practised rather than preached. His actions were the virtual translation of the teachings of Quran. How can the percepts and principls, that are not practised by their own teachers, infuse into others any enthusiasm of any acceptance ? The people are not to be guided by those who only preach.

The actions of teachers far more than words should entitle them to our allegiance. Muhammad was the perfect and complete example of Quranic Principles and rules. In His own life every phase of human morals and human values found complete manifestation. His whole life was an eloquent and practical commentary on the Holy Quran. Both the records and experiences satisfy all that could be demanded of a real great leader, who came to guide the humanity to the right path, that is the path of Allah.

From childhood, Muhammad climbed to the summit of glory. The most furious storm of hardship and calamities failed to move him an inch from his position and the mission which He prized above all things. He held fast to the verse of Quran: "Surely with difficulty Surely is ease." His spirits remained unmoved by the turns of fortune's wheel. The followings are Some of his great characters and noble qualities.

Sincerity and Simplicity were the key-notes of the character of the Prophet Muhammad. High morals were ingrained in his verynature. They were something which grew in him from his very child hood and they became the compelling feature of his character. He was not only peace-lover by nature but also a peace-maker. War was alien to his nature, He was by sheer force of circumstances, driven to take up arms. It was due to this intrinsic virtue in him that he preferred the "Peace of Hudaibiyya" to continued blood-shed, though according to terms of that Truce, the concessions obtained by Muslims were almost nil, and they were treated as conqured.

As a ruler also Muhammad entered into treaties with enemies,

it and adorned it, and there are no gaps in it. And the earth We have spread it out, and set thereon mountains standing firm, and produced therein every kind of beautiful things in pairs. To be observed and commemorated by every servant turning to God. And We send down from the sky rain charged with blessing, and We produce therewith gardens and grain for harvests. And tall palm-trees with shoots of fruit-stalks, piled one over another. As sustenance for God's servants ; and We give new life therewith to land that is dead : thus will be the Resurrection. "

The Holy Qur'an blames those who do not think and mind when it says :

" And how many Signs in the heavens and the earth do they pass by ? Yet they turn their faces away from them."

It is reported, also, that Bilal, the companion of the Prophet, went to call out for the Morning Prayer when he saw the Prophet crying. Upon asking him about the matter, the Prophet said :

" What, should not I cry ? God revealed to me this night this verse : Behold ! In the creation of the heavens and the earth, and the alternation of night and day-there are indeed signs for men of understanding." Then the Prophet added : " Woe to those who read this verse and do not think deeply about it ".

" Those who divided their religion, and turned into sects and groups, you have nothing to do with them, their matter is to God, Who will bring them to requital ".

QUESITON :

What is the meaning of the word "Faith" ?

ANSWER :

"Faith" is the belief in somthing with all yours heart with no dout or hesitation.

People are different in their faith according to whether the evidences of their faith are clear or ambiguous. Suppose, for example, that a person has heard from another truthful one that there is a country in the world called "Nigeria", the first will believe the latter, especially if he has heard about the same fact from other truthful men. If it happened that he saw the picture of the capital of that country, his belief about the existance of that country will be stronger. And if he went actually to Nigeria, his certainty will be quite aboslute, and he will harbor no doubt at all about that fact.

In this way, people are different in the grades of their religious faith. Some believe by imitation and inheritance, just because they were born to Muslim parents. Such faith is liable to doubt and suspicion. Some other acquire their faith through thinking and deliberation which make their faith stronger. Still some others combine their thought with their obedience to God in their search after truth until its light shines in their heart. Those are described in this Holy Verse :

"To those who recieve guidance, God increases the light of guidance, an bestows on them their piety and restraint from evil."

QUESTION :

What are the basic sources of faith in Islam ?

ANSWER :

Islamic faith is based upon the Holy Book of God and the Traditions or "Sunna" of the Prophet (peace be upon him). This faith is in complete harmony with reason and scientific facts.

Therefore, God, the Almighty, honoured the reason and directed His speech to it, made it the criterion of responsibility, and called it to think and search after truth. The Holy Qur'an says :

"Say : Behold all that is in the heavens and on earth. . . "

And :

" Do they not look at the sky above them ? How We have made

faith in the Angels, the Books of God, His messengers, the Day of Judgment, and the divine laws. The Quran says :

"The Apostle believes in what has been revealed to him from his Lord, as do the men of faith. Each one of them believes in God, His Angels, His Books, and His Apostles."

And :

" It is not righteousness that you turn your faces towards east or west ; but it is righteousness to believe in God, the Last Day, and the Angels, and the Book, and the Messengers".

No one is considered a Muslim if he does not believe in the existence of God, His oneness, His being exalted above similarity to, or discendance in, others, His being distinguished by disposal and management of the Universe, and His being the only one deserving worship. He will not be counted among Muslims who does not believe in the messages of God to His servants through His messengers and Books, or does not believe in what is implied in these books, or makes a distinction between any of God's messengers and believes in some of them and disbelieves in some others. Nor is he a Muslim who does not believe in the life hereafter, and that the other life is the life of requital and eternity, or who denies the laws of God, His orders and His prohibitions.

QUESTION :

Why was Islam named by this word ?

ANSWER :

All other religions are named after a certain man or a certain nation. Christianity and Buddhism were named after their founders "Christ" and Buddha.

Zoroastrianism is ascribed to Zarathusrta, and so on.

Islam, however, is not ascribed to any person or nation. The word Islam, however, is not ascribed to any person or nation. The word "Islam" indicates that nobody or no nation established Islam.

It is the natural religion of all people from eternity, as the Holy verse says :

"... The pattern on which He has made mankind; no change in the creation of God. That is the standard religion. But most amon mankind understand not".

QUESTION :

What is the meaning of the word " Islam" ?

ANSWER :

" Islam " means " submission ",

Principles of Islam

By: Abdul Wadood Shalaby

What are the basic creeds of Islam ?

ANSWER :

The basic creeds which should be believed in by Muslims are : First : the existence of God, His oneness, His being distinguished by the disposal and management of the universe, His being exalted over partnership of others with Him in power and glory or His similarity to anything else in being or attributes, and His deserving of worship solely. No creator but He, no partner to Him, and nobody is asked for help or mercy save Him. The Holy Quran says :

"Say: He is God, the One and the Only. God, the Eternal, the Absolute. He begets not, nor is He begotten. And there is none like Him."

Second : to believe that God chooses from among His servants some messengers to convey His messages, through divine revelation, to His servants, and to call them to right faith and good action. Therefore, a Muslim should believe in all the prophets and Messengers of God from Noah down to Muhammad (peace be upon them all).

Third : to believe in the Angels who are the agents of God to carry His revelation to His messengers. And to believe in the divine Books of God.

Fourth : to believe in what is called for in the different missions of the messengers of God, such as the belief in the Day of Judgment, and the divine laws and legislation.

QUESTION :

How are these creeds realized by the one who wishes to be a Muslim ?

ANSWER :

These creeds are realized by the "shahada" or the witness that God is One and that Muhammad is His servant and His messenger. To witness that "There is no god but God and Muhammad is the Messenger of God" is the key of Islam.

The belief in the oneness of God demands complete faith in Him as the Only diety, and the sole Cherisher of humankind. Thus He is the Only One Who is distinguished by worship.

The belief in the messengership of Muhammad calls for complete

the female, and made you nations and tribes so that you may know each other, but the most righteous of you is the most respected before God."

"The members of the human family are similar to the teath of a comb and there is no superiority for the Arabs over the non-Arabs exept on the basis of piety."
"All of you from Adam, and Adam was from dust."

Islam declared a non-stop war against slavery which prevailed all over the world in those days and it gave equal statues to men and women in rights and duties.

Then Islam declared the freedom of belief. The Qur'an says: "There is no compulsion in religion the right has become evident from the wrong. If thy lord willed all those on earth would believe. Would you then compel the people to believe?" It Shows full respect to all religions and guarantees freedom of worship, peaceful life and justice.

Islam also declared the freedom of thinking and expression. It rejected blind faith, and despotic rule. Islam calls its followers to ponder the kingdom of the heaven and the earth and to adopt way of generosity liberality and forgiving. The law of Muhammad guarantees freedom to all minority communities for preaching their faith and ideas and teach them in schools tembles etc. without any kind of interefrence. It also approves the right of ownership with some suitable conditions in the general interest of the community and the state. These are the main natural rights which Islam guaranteed to all people without any Consideration of colour, race, language or religion. The prophet Muhammad declared these rights fourteen hundred years ago, at a time when everywhere ignorance, error and tyranny reigned supreme. Then Muhammad lit the tourch of truth before the erring humanity and showed mankind right path. And he freed them from the bonds of Fanaticism, selfishness and Materialism. Through this way he promised the world prosperity, peace and happiness

Alas! what a pity for the mankind of to-day who are misled by these hypocrites who are to-day preaching these human rights and at the same time they are continuing the colour war against the black skinned people and practicing the law of discrimination.

colour has its own value and every religion has its own place. But the test of weight and value depends on man's ability and his disability not on his humanity and dignity. While knowledge, wealth and power are the means of sovereignty, ignorance poverty and weakness will lead to slavery. Sovereignty is a fundamental unconditioned right. Incontrary slavery is a duty without any right.

Muslims alone can understand " man " in its true sense because they are followers of Muhammed. Muhammed declared human rights in its true form clearly and openly by the inspiration of God who sent him as the messenger of peace and mercy to the whole world.

God send him as the messenger of mercy to the persecuted people who face suppersion, or weakness and poverty in this world. He removed class distinction, established social justice, freed the slaves and declared the law of equality, and brotherhood between man and man.

The message of Muhammed was not directed to a particular race, nation or country, but God sent him as His messenger of peace and mercy to the whole of humanity. In the law of Muhammad there is no distinction or preference between man and man on the basis of colour, language, race, religion, Social or political Considerations. This universal message brings together the people who dwell on the surface of this earth, under one law that is the law of God and one banner that is the banner of truth. Arabs, Romans, Turks, Indians, Chinese, Africans, Europeans and Negros stand side by side with equal statues before the law of Muhammad.

Islam honours no one on the basis of colour or Social position and it does not allow the sons of Adam, to bow their heads before any one save God Almighty as the Quran Says : " Indeed we have honoured mankind ".

The Jews pretended that they were the sons of God and His select people ; the Romans Said that they were his servants ; the Arabs were claiming that they were the masters of eloquence ; and the Hindus believe that God created the Brahmans from His head, Rajput from His hand and the untouchablar from His feet.

In one way or the other, the Social Statues of man was counted on the basis of race, creed, wealth or power, and this state of affairs continued until Muhammad came and declared before the world that "the believers are brethren". "O people ! God created you from the male and

MAN IN THE LAW OF MOHAMMAD

(in the context of Racial discrimination)

BY : A. H. EL-Zayyat

EDITOR - IN - CHIEF

The Learders of Europe and America pretended that they had proclaimed in December 1949, the charter of human rights in the United Nations Organisation and they promised to the people prosperity, happiness and peace.

Before that the leaders of French Revolution also had proclaimed these rights in 1789 and they made it a preface to their constitution consisting of 17 articles. The policy of discrimination prevailing in certain parts of America and Africa, the inhuman treatment which the coloured people are facing at the hands of the white men who have pretended that they are the pioneers of human rights has left one to ask himself what the Europeans and Americans mean by the word "human" and to whom they have proclaimed these rights ?

Whether he is some man whom God created from different races, lands, and colours or he is white man who Comes from th Latins, Saxons or Tutons ? It appears from their present policy and behaviour that they mean only the white man, because black and red people have all duties but no rights.

The deprived existence of the people in the land of liberal democrats is the worst fib in the constitution of democracy in Washington and the biggest mockery of the statue of liberty in Newyork. But the coloured people of Asia and Africa in the eyes of Europeans are like the animals which are born to be trained to work or like the raw materials to be used in the industrial production. They are usually a matter of dispute during the time of peace and a bone of contention in war time among the big powers. Because of this fault in the interpretation of the word "man" the basis of rule and law has been disturbed and the principles of democracy and freedom are contradicted. Every race of the humam family has its own weight, and every

الفهرس

الثمن اربعون مليما

مطبعة الأزهر

مجلة الأزهر

جمادى الآخرة ١٣٨٤ — نوفمبر ١٩٦٤ م

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

بدل الاشتراك
٤٠ فى الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الرابع ـ السنة السادسة والثلاثون ـ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ هـ ـ نوفمبر ١٩٦٤ م

تمنع التبنى

بقلم : عبد الرحيم فوده

التبنى عادة قديمة . ومعنـــاه أن يتخذ الإنسان إنساناً آخر ابناً له ، ينفق عليه فى حياته ويشركه فى الميراث بعد مماته ، ويخلطه ببنيه وبناته ، ويجعل له من الحرمة والحقوق والواجبات ما للابن الحقيقى من حقوق وما عليه من واجبات ، فله أن يخلو بزوجته وبنته ، لأن زوجته أمه . وبنته أخته ، ويحرم عليه أن يتزوجهما فى حياة أبيه المدعى أو بعد مماته ، لأنه يحرم على الإنسان أن يتزوج أخته أو أمه ، ويحرم على أبيه المدعى أن يتزوج امرأته إذا طلقها أو مات عنها ، لأنها من حلائل الأبناء التى تحرم على الآباء . وكل ذلك وما إليه مما يتجافى عن طبيعة الذوق والحق ويتنافى مع شريعة الإسلام . وللتبنى قصتان مثيرتان فى القرآن :

الأولى قصة يوسف مع امرأة العزيز ، إذ قال لها زوجها : « أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » فإنه لما بلغ أشده فتنت به ، وكان ما يحكيه القرآن إذ يقول الله فيه : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء

إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

والجانب الذي يجب ألا يغفل أو يهمل في هذه القصة ، هو ما كان من امرأة العزيز نحو يوسف فإنها على الرغم من طول عهدها به وحدبها عليه لم تشعر نحوه بعاطفة الأمومة ، بل حاولت إغراءه وإغواءه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، ولولا العصمة التي تعهد الله بها أنبياءه لوقع يوسف فيما كانت ترجوه وكان يخشاه كما يفهم من قوله تعالى : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » .

أما القصة الثانية فهي قصة زيد بن حارثة ، فقد سبي وهو صغير . ثم اشتراه حكيم ابن حزام لعمته خديجة ، فوهبته للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تزوجته ، ثم علم أبوه به ، فطلبه هو وأخوه من النبي صلى الله عليه وسلم . ولما خير زيد أبى أن يعود مع أبيه وعمه . وآثر البقاء مع رسول الله فأعتقه ، وكان صلى الله عليه وسلم يغمره بعطفه وحبه ، فكان لذلك يدعى زيد ابن محمد ، وينادى بهذا الاسم والنسب قبل النبوة ، ثم نزل قوله تعالى : ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » .

وبهذا القول الفصل ظهر حكم الله في هذا الأمر ، وكان ظهوره بهذه الصورة التي لا يرقى إليها الريب ، فكما لا يكون للرجل قلبان في جوفه ، لا تكون الزوجة أما بقول زوجها أنت على كظهر أمي . ولا يكون الدعي ولداً لمن ادعاه وتبناه ، إنه ابن لرجل واحد إذا عرف يجب أن يلحق به وينسب إليه ؛ لأنه هو أبوه الذي انحدر من صلبه كما يفهم من قوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » فإذا لم يعرف لم ينبذ من المجتمع ولم تنقطع صلته بمن يعيشون فيه ، بل هو لهم أخ وهم له إخوة كما يفهم من قوله تعالى : « فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين » وقوله جل شأنه : « إنما المؤمنون إخوة » .

وقد مضى الإسلام فى استئصال هذه العادة المستحكمة إلى مدى أبعد من الكلام ، فكان بدء التجربة القاسية مع النبى صلى الله عليه وسلم إذ أمره الله أن يتزوج بزينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد الذى كان يدعى باسم (زيد بن محمد) ليتأكد الحكم بالعمل بعد بيانه بالقول ، ولكيلا يكون على المؤمنين حرج فى الزواج بمطلقات الأدعياء الذين ادعوا أنهم أبناء . وذلك بعض ما يفهم من قوله : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » .

هذا هو حكم الله وأمره ، وهو صريح فى أن التبنى عمل غير مشروع ، ثم هو – مع ما فيه من الاستهتار بحرمة الأسرة فى أغلب الأحوال – يدخل ما لا حق له فى الميراث شريكا للمستحقين فيه . فيرث الغريب كالقريب ، وتختلط الأنساب الصحيحة بالأنساب الزائفة ، ويجد الشيطان مجال الإغراء والإغواء واسعا فسيحا فيعمل على إفساد الأسرة وإفساد المجتمع تبعا لفساد الأسرة ، ومن ثم لم أصدق ما نسبته بعض الصحف أو إحدى المحررات فى إحدى الصحف من حديث كان عنوانه بالخط العريض وزيرة الشئون تطالب بإباحة تبنى الأطفال وكان ختامه . إن أمنيتها أن تسمح الدولة بالتبنى على أن يحمل الطفل اسم الأسرة التى تتبناه ويكون له الحق فى الميراث ...

إن ذلك إذا صح لا يمكن أن يكون تعبيراً عن إرادة هذه الأمة التى تدين بالإسلام ، ولا عن روح هذه الثورة التى تستلهم هدى الإسلام وتقيم بناء الأسرة على أساس الدين والأخلاق ، ولو تذكر الذين يتصدون للكتابة او الحديث فى هذا الموضوع ماذكره الرئيس فى مؤتمر القوى الشعبية ، وفى الجموع التى احتشدت حوله فى اليمن ، وفى الميثاق الوطنى والتقرير الذى جعل مذكرة مفسرة له لو تذكروا الجو الذى يعيشون فيه ، والبيئة التى تحيط بهم لتريثوا فى إعلان هذه الأمنية الباطلة ولكننا نذكرهم جميعاً بقول الله فى هذه العادة القديمة المذمومة : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عندالله » وقوله جل شأنه : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

عبد الرحيم فوده

حديث هام

لفضيلة الإمام الأكبر
الشيخ حسن مأمون
شيخ الأزهر

١ — الخلافة الإسلامية .
٢ — الإسلام والتطور .
٣ — دور المرأة المسلمة فى المجتمع المتطور .
٤ — موقف الإسلام من المسيحية واليهودية .

تقابل الصحفى الألمانى مانفردفون يوتر تشيشكا مندوب إذاعة « دويتش لاندفونك » فى ألمانيا الغربية بفضيلة الأستاذ الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر . . وسأل فضيلته هذه الأسئلة :

١ - فضيلة الإمام الأكبر : توليتم فضيلتكم منصب الإمام الأكبر للجامع الأزهر العريق وهو منصب كان يتولاه الخلفاء فيما مضى ، ويعتبر قمة فى التشريع الإسلامى ، وبحكم منصبكم هذا نود أن نسأل سيادتكم : هل هناك تفكير فى عودة الخلافة فى المستقبل فى العالم العربى ؟

٢ - يقال إن الإسلام لم يكن يكيف نفسه فى الماضى مع التغيرات التى تطرأ على المجتمع فهو وثيق الصلة بالماضى . هل هذا صحيح ؟ كيف يكون من الممكن - فى رأى فضيلتكم - أن يأخذ الإسلام بأسلوب التطور الحديث ؟ هل هناك اتجاه نحو هذا ؟ وما الذى تم إنجازه فى هذا الشأن ؟

٣ - هل سيتأثر دور المرأة المسلمة فى المجتمع بهذا التطور ؟

٤ - كم يبلغ عدد طلبة الجامعة الأزهرية فى الوقت الحاضر ؟ وكم عدد الفتيات منهم ؟

٥ - هل تعتقدون أن أخذ الإسلام بأسلوب التطور الحديث سيجد تربة خصبة فى جميع البلدان العربية ؟ وهل سيكون هناك استثناء محتمل ؟

٦ - ماهو موقف الإسلام من المسيحية بمناسبة زيارة البابا بولس السادس للأردن ؟ .

فى بداية هذا العام دار الحديث حول إيجاد علاقات أكثر قوة ووثوقا بين الإسلام والمسيحية : علاقات التعايش القائم على التسامح والمودة - ما رأى فضيلتكم ؟ ومارأيكم

فى اليهودية كدين؟ هل من الممكن التعايش بين العرب واليهود فى العالم العربى؟

٧ ـ ما دور الإسلام فى الجهود التى تبذل من أجل الوحدة العربية كما تراه سيادتكم؟

٨ ـ ما هى علاقة السنة بالشيعة؟ هل الخلافات (التناقضات) بينهما تقل تدريجيا؟ وهل تبذل الجهود لإيجاد تقارب أشمل بينهما مثل ما حدث فى المجلس الدينى بروما بين الرومان الكاثوليك والأرثوذكس المسيحيين؟

٩ ـ كيف ترون مجالات الإسلام للانتشار؟ هل هناك اتجاه لهذا؟ وأين سيكون مجاله؟

وقد أجاب فضيلة الأستاذ الإمام بما يلى:

الخصومة:

الخلافة التى يعرفها التاريخ لم تكن خلافة فى العالم العربى، ولكنها كانت خلافة فى العالم الإسلامى، وهذه الخلافة ليست مما يشغل المسلمين الآن، وإذا كانت الخلافة تعنى توحيد الأوطان الإسلامية تحت راية واحدة، فإن فى مبادىء الإسلام ما يغنى عنها وإن تعددت الشعوب، فقد ترك فينا الرسول صلى الله عليه وسلم ما إن تمسكنا به فلن نضل بعده كتاب الله وسنة رسوله، فهما إذن الجامعان لكلمة المسلمين وعلى مبادئهما تتحد الصفوف والأهداف فى خدمة الإنسانية كلها.

الإسلام والتطور

طبيعة الإسلام كدين سماوى ختم الله به الأديان وكدين عام فى الزمان والمكان تقتضيه أن يكون صالحا لكل عصر، ملائما لكل بيئة، وقد مر الإسلام زمن العباسيين فى عصور حضارية وأجناس متعددة فاتسع صدره لكل تطور صالح، وأرضت تعاليمه كل الأجناس التى حكمت به حتى إنهم تعشقوها وعرفوا بها النور بعد الظلام، والإنسانية بعد الوحشية.

وإذا كان فى أصول الإسلام ما لا يتغير أبدا، فإن فى فروعه ما يفسح الرأى أمام المجتهدين الذين يراعون ملابسات الحياة ومستجد الظروف وفى أبوابه ـ باب المصالح المرسلة ـ الذى لا يضيق بتطور معقول أو ارتقاء متزن ما دام لا يصادم حكما ورد فى الكتاب أو السنة.

المرأة المسلمة:

المرأة المسلمة أعطاها الإسلام ما لم تكن تحلم به فى عصور ما قبل الإسلام فقد أعطاها حق التملك والتعاقد والهبة والإرث، ورأيها معتد به فى كل الشئون الخاصة بها وأهمها رضاها بالزوج، وأعطاها حق التعلم وجعلها تسهم فى كل أمر لا يخرجها عن طبيعتها التى فطرها الله عليها.

وإذا كانت المرأة المسلمة قد منيت فى بعض العصور بمن يحرمها هذه الحقوق فإن ذلك راجع إلى جمود لا يعترف به الإسلام ولا


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

من قبل ذلك ومن بعده : يشغله كله فلا يدع فيه مكانا للأغيار .

٥ — وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد القطيع من البشر إلى الله تعالى ، : أخذوا فى محاولة جاهدة مستمرة - لانتزاع الإنسان من الإخلاد إلى المادة ليتطلع إلى السماء :

لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس إلى الله، عن طريق آلائه التى تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أتقن كل شىء صنعا ، سبحانه :

أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : فى الزهرة تتفتح ، وفى الزرع ينبت متجها إلى السماء ، وفى الشمس تشرق ، وفى القمر يتألق ، وفى مواقع النجوم ومداراتها . . .

وفى كل هذا الإبداع السارى فى الكون !

أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » .

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ، وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة وهم - فى تعبيراتهم - : يشرحون: أن الله سبحانه وتعالى ، هو المعد الوجود لكل موجود : إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشى بالمشى ، والمتحرك بالحركة . . .

إنه - على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة : الذى يقطع ، وليست السكين هى التى تقطع ، وهو الذى يحرق، وليست النار هى التى تحرق ، وهو الذى حينما يريد ، يقول للنار كونى بردا وسلاما ، فتكون بردا وسلاما . . .

ومهما عبر الصوفية ، فى هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقالوا فى ذلك ، وأسرفوا ، واشتطوا ، فإنهم : سوف لا يبلغون المدى الذى بلغته الآية القرآنية الكريمة :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .

وهذه الآيات القرآنية التى ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعا إلى الشعور بقيومية الله ، سبحانه وتعالى مهيمنة ، وهيمنته مسيطرة ، والشعور بتوجيه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله فى كل أمر من أموره وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن :

« لا إله إلا الله » .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك إنهم مهتدون بهدى القرآن والسنة — يريدون للإنسان : أن يكون ربانيا ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون إلى الأرض ، وينظرون دائما إلى أسفل ، فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله تعالى ، خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالإخلاد إلى الأرض وبالنظر إلى أسفل، وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء، ويوجههم إلى الله، تعالى، فهؤلاء: إنما يحاربون الله ورسوله، وجزاؤهم معروف.

٦ – وقد نتساءل: فيم إذن حوكم الحلاج وقضى عليه بالقتل؟!

إن أمر هذه القضية: قضية الحلاج: معروف سرها وما كان سرها خافيا في يوم من الأيام:

لقد كان الحلاج قوة جارفة: كان مركز الجاذبية لا يضارع، يلتف حوله الناس أينما حل، ويسيرون معه أينما ارتحل.

وكان – ككل صوفي –: يحب آل البيت لأنه كان يحب الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكان آل البيت إذ ذاك: يطمحون في أن تكون الدولة لهم، وما كان بنو العباس يطمئنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت.

نسل رسول الله، صلوات الله عليه، ومادام الحلاج دعاية قوية تسير في كل مكان، وتتجه إلى كل بلد، فيجب، حفظا على أمن الدولة وتحصينا لاستقرارها: أن ينكل بالحلاج.

وما كان مقتل الحلاج دينيا قط، كلا، وإنما كان سياسيا بحتا ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا، وأن يأتوا بشهود الزور، وأن يعدوا القضاة بالمال والترقية وأن ينفذوا أهواءهم ...

فكان ما كان من قضية ومن قتل .. والدين من كل ذلك براء والألفاظ التي ينسبونها إلى الحلاج ليست في كتاب من كتبه، وكتبه: وبعضها موجود – لا تسند خصومه ولا تؤيدهم.

هذا ما كان من أمر الحلاج. وبقيت كلمة:

إن المنطق الصحيح: ألا يفتي المهندس في أبحاث الأطباء، وألا يحكم الأديب – باعتباره أديبا – في أعمال المهندسين ...

ومن العدالة – على هذا الوضع –: ألا يحكم على هذه القمم الشامخة: ابن عربي، الحلاج، ابن الفارض. من لم يبلغ مدهم أو يقاربه.

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء: إن فلانا: ينتقد ابن عربي في المجلات، فقال، رضوان الله عليه: وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ومنطقها دائما منطق الخنافس

لا بد أن يبلغ الإنسان المستوى، أو ما يقارب المستوى. وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه رضي الله عن سيدنا محي الدين، ورضي الله عن الحلاج، ورضي عن ابن الفارض ونفعنا ببركتهم هذا وبالله التوفيق:

عبد الحليم محمود
عميد كلية أصول الدين

بعد نجاح مؤتمر القمة العربى

هذا واجب العرب فأين واجب المسلمين ؟

للأستاذ حسن جاد

أكد نجاح مؤتمر القمة العربى الثانى بعد المؤتمر الأول أن العرب مهما غامت سماؤهم بالسحب العارضة ، أو وهت صلاتهم بالدسائس الواغلة ، لا يتغير طبعهم العريق بعوارض الفتن ، ولا يتأثر جوهرهم الأصيل بغبار الأهواء ؛ يكشف الخطر الدامم عن أصالته ، وينم الليل الداجى عن لمعانه . فهم - كما عرفهم التاريخ - أنف أباة ، لا يقيمون على ضيم ، ولا ينامون على مذلة ، ولا يغضون على هوان .

هاهم أولاء وقد جدا الجد ، بعد أن استفحل الخطب ، واستشرى الظلم ، وبلغت المأساة ذروتها فى فلسطين ، وطال الأمد على قضيتها الإنسانية ، التى هزت العوالم ، ووخزت الضمائر ، وفطرت القلوب ؛ يتسامون عن الجراح الصغيرة ، ويتلاقون على الآمال الكبار ، ويجتمعون على الخطب المشترك ، ويجمعون على الهدف الموحد ، ويقررون بالعزم الواثق ، والحزم المصمم ، أن يأخذوا بالعمل ما لم يأخذوا بالكلام ، وأن يستردوا بالقوة ما ضاع بالسلام ، وأن ينالوا بغضبة الكريم ما لم ينالوا بحلم الحليم ، وهم يتمثلون قول الشاعر :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه
إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وهكذا يبرز كيان فلسطين ، ويظهر لها جيش ، وتنتظم لها جبهة تحرير ؛ وهكذا ينتفض الأسد العربى الرابض بعد جمام ، ويتحفز للوثوب بعد لبد ، ويزأر زأرته الغاضبة الجلجلة ، فيصم آذان إسرائيل ، ويذوب فى ضجته بغامها الحالم ، ومواؤها الضعيف .

وهكذا تتحرك الهمم الأبية للأخذ على يد العابثين بالنهر العربى ، فلا يعيثون فى مائه الطاهر ، ولا ينتفعون بورده النمير .

لقد تحول الأمل الواعد الحالم إلى عمل حازم حاسم ، وصفع العرب بالحقيقة خيال الكلام ؛ وقاموا بواجبهم المقدس ، وهم يعلمون أن فلسطين قلب العالم العربى ؛ فهى بين القاهرة ودمشق ، وهى الجسر الذى يصل آسيا العربية بإفريقيا العربية ، وهى منفذ جزيرة العرب إلى البحر المتوسط ،

وشعب فلسطين شعب عريق فى العروبة ، تحدر من أصلاب القبائل العربية قبل الفتح الإسلامى وبعده ، فالخنجر المسموم الذى أصاب هذا القلب خليق أن يثير الألم فى نفس كل عربى ، ويستثير مشاعره ، ويقض مضجعه ، ويقلق وجدانه .

إن الصهيونية الآثمة ليست إلا حركة عدوانية مدمرة ضد العرب ، بل ضد البشرية كلها . فهى إلى ما استهدفته من اتخاذ فلسطين وطنا للدولة اليهودية التى فكرت أول ما فكرت فى إنشائها ، تستهدف تدمير الحكومات التى لا توالى اليهود ، وتريد السيطرة على الحكومات العالمية ، وتتوخى التأثير على الدول القوية مثل أمريكا .

وقد استطاعت بتسللها الخفى ، ووسائلها الدنيئة أن تحقق كثيراً مما تريد حتى رأينا استهلال الغدر البريطانى بوعد بلفور المشئوم عام ١٩١٧م ذلك الوعد الذى قطعه للمليونير اليهودى (روتشيلد) بتأسيس وطن قومى لليهود ، والذى تردد صداه فى شعرنا العربى فندد بهذا الذى يجود من جيب غيره :

ألا ليت بلفور أعطاكمو
بلاداً له لا بلاداً لنا
فلندن أرحب من قدسنا
وأنتم أحب إليه لندنا

ثم توالت حلقات الغدر فى ظل الانتداب الذى شجع اليهود على شراء الأرض المقدسة ، ومكنهم من التأثير على كثير من غير الفلسطينيين وقليل من الأسر العربية ، بالأثمان المغرية ، والعروض السخية ، ليبيعوا ما يملكون من الأرض لهذه الفلول الشتيتة من العصابات اليهودية :

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعا
بالمال ، لكنما أوطانهم باعوا
قد يعذرون لو ان الجوع أرغمهم
والله ما عطشوا يوما ولا جاعوا
يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة
ولا تعلمت أن الخصم خداع
لقد جنيت على الأحفاد والهفى
وهم عبيد وخدام وأتباع
وغرك الذهب اللماع تكنزه
إن السراب كما تدريه لماع
فكر بموتك فى أرض نشأت بها
واترك لقبرك أرضا طولها باع

وظلت بريطانيا تعمل على تحقيق وعد بلفورها الذى جاد بما لا يملك ، حتى اقترحت قرار التقسيم ، وعملت هى ومثيلاتها من الدول الاستعمارية التى ترتبط مصالحها بالصهيونية على إحكام الخاتمة للمأساة فى عام ١٩٤٨ م والجيوش العربية — إذ ذاك — تعصف بها رياح الخيانة ، وتفتك بها أسلحة الغدر . فلا راية تجمعها ، ولا قائد يوحدها ،

ولا إخلاص من ورائها . فهى تقاتل بلا سلاح ، وتحارب فى غير ميدان والشاعر العربى يتفجع لهذا المصير ويهاجم المقصرين والخائنين :

أيعرب يدرى أن غدرتم أذلة
لعمرى لقد سودتمو وجه يعربا
بنى العرب قد برأت منكم محمداً
فما كان إلا ثابت الجأش أغلبا

لقد تدارك أبطال العروبة اليوم ما فاتهم بالأمس ، وتعلموا من هذه المحنة القاسية أعظم درس فهم يتلافون ما شجر من الخلاف ويطبون لما جنته الفرقة ، وينتفضون انتفاضة عملاقة تمسح عن جباههم الكريمة تراب المذلة ، وتحمل كواهلهم الشامخة واجب الشرف والكرامة ، وتثير فى نفوسهم العربية نخوة الإباء ، وحمية الأنفة ، لإنقاذ العروبة فى فلسطين .

ذلك واجب العرب نحو فلسطين العربية ، فأين واجب المسلمين نحو فلسطين المسلمة ؟ على ثراها الطاهر درج موسى والمسيح ، وفوق روابيها الخضر اتصلت الأرض بالسماء وإلى مسجدها الذى بارك الله حوله سرى خاتم الأنبياء ، وهو ثالث المساجد التى تشد إليها الرحال ، وتتعلق بها الآمال ، وتهفو المشاعر وتصبو القلوب

إن إسرائيل التى تحالف الاستعمار لتحقيق أغراضها ، وتستغل السياسة لبسط سلطانها ، تحاول جاهـــدة أن تنافق الدين بالتدليس الصريح ، وأن تتملق المسيحية بتهويد المسيح لتبرر وجودها الزائف وتدعم كيانها المزعوم فما بال المسلمين - ودينهم بتاريخه وذكرياته وقبلته ومناسكه يربطهم بهذه الأرض المقدسة ويشدهم إليها - لا ينهضون باسم الإسلام لنجدتها واستنقاذها ؟ !

إن الحقيقة التى تهزم الباطل لتهيب بالمسلمين فى شتى بقاع الأرض أن يهبوا مع العرب لاسترجاع تلك البقعة السليبة من وطنهم الإسلامى .

وإن دينهم الذى شرع الله لهم ليفرض عليهم الجهاد المقدس لإنقاذ هذه الأرض المغصوبة ، فليكن منهم جيش إسلامى يقف مع جيش العروبة ، ولتكن لهم منظمة إسلامية تشد أزر منظمة التحرير العربية ، وليعلموا أنهم فى حق دينهم آثمون ، إن استناموا للضيم ، واستكانوا للذلة ، وأصموا آذانهم عن صيحات إخوة لهم مشردين ، أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وغضوا أبصارهم عن أرض ترتبط بها مشاعرهم وفيها مقدساتهم ، تعيث فيها ذئاب اليهودية وتمرح بها كلاب الصهيونية ، وليتذكروا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ؟

حسن جاد حسن
مدرس بكلية الدراسات العربية
جامعـــة الأزهر

الكيان الفلسطيني

للأستاذ محمد محمد خليفه

ولد الكيان الفلسطيني بعد ستة عشر عاما قضاها أحرار هذا الشعب فى سجون الحسرة والألم تشويهم نار الغيظ ، وقضاها غير الأحرار ممن استعبدهم حب الحياة الوادعة غرباء عن قضيتهم ، منهم من نزح وراء العيش ومتاع الحياة إلى أرض عربية أو غير عربية ، وأكثر هؤلاء لا تربطهم بفلسطين غير أطياف من الذكريات البعيدة التى تعبر خواطرهم كلما ذكرت فلسطين ، وقد يعاودهم الحنين إليها فى المنأى ، ولكن حنينهم لا يلبث أن تخمد جذوته أمام العيش الناعم والحياة المطمئنة فى المهجر .

ومنهم من يعيش على أرضها وقد شغلته دنيا أسرته الصغيرة عن كيان شعبه الممزق ، أو استسلم لليأس فانطوى معه لا يهزه ضجيج الأحداث التى ترعد من حوله ومن أجله .

لقد ولد الكيان الفلسطيني ولكنه لن يقوى على مجابهة الأهوال والأنواء التى تواجهه إلا إذا أحس كل فلسطيني نازح أو مقيم بواجبه نحو هذا الكيان ، وآمن بأنه قوة تتفاعل وتتساند وتتفانى فى دعم هذا الكيان وفى خلق جيش يحمل أعباء الأمانة التى ألقاها على كاهله مؤتمر القمة العربى .

وإن واجب الفلسطينيين الذين يعيشون فى البلاد العربية فى ظلال الجنسيات الممنوحة أن يتخلوا عن تلك الجنسيات ، وأن يرجعوا إلى حيث يخفق لواء فلسطين ليتجمعوا فى ظلاله ويحسوا بالعزة التى غاب عنهم سلطانها والوطنية التى تاه عنهم مكانها .

وإن عشرات الألوف من المهاجرين والمهاجرات ليس مكانهم بعد ميلاد الكيان الفلسطيني فى الأسواق والمتاجر ، ولا بين المدارس والمعاهد والجامعات ولا بين المزارع والحقول فى فلسطين وفى غير فلسطين ، وإنما مكانهم معسكرات التدريب فيها وفى جاراتها ، وفى المصانع التى تصنع الموت لمن اغتصبوا منها الحياة .

وواجب كل ملك أو رئيس عربى أن يرغم على العودة إلى فلسطين كل من أنكر جنسيته الفلسطينية واستمرأ الضيافة ، أو استطاب الحياة فى كنف الجنسية الموهوبة .

وإن منهج المعسكرات كما سيعنى بالتدريب يجب أن يعنى بالخلق والتربية والتهذيب خلق الإيمان بهذا الكيان ، وخلق الاستعداد لبذل الطاقات التى اختزنت ستة عشر عاما ، ثم تربية النفوس تربية صادقة يكون قوامها حب العمل

فى كل مجال يدعوهم إليه بناء الدولة الجديدة ونسيان الفردية التى كانت تعمل من قبل فى ظل الهوى الفردى ، ولا تلقى لها وجودا فى مجال العمل الشعبى وتكوين الأخوة الشعبية التى أضعف التقسيم عراها فوهت على الزمن أقوى رابطة لا ينكر أثرها فى الخلق والقوة حتى ليكاد يحس ابن جليل أنه لا يرتبط بالعربى الحيفى أو الرملى برباط شعبى .

وأخيرا يجب أن يعنى بتهذيب تلك الطباع التى جعل منها التشريد والحرمان فى رأى الدعايات المفسدة طباعا حاقدة على الأصدقاء والأعداء على السواء إن طباع المغتربين والمقيمين أحوج ما تكون إلى الصقل والتثقيف وإزالة الرواسب التى غيرتها وربطها بالكيان العربى الكبير، وخلق الإيمان بمستقبل الأمة العربية الكبيرة قبل أن تزحف تلك القوى إلى المعركة الفاصلة .

وهنا يبرز دور الهداة والمصلحين إلى جانب دور القادة والمدربين ، وقد يكون جهد المصلح أشق وأعتى من جهد المدرب لأن الوصول إلى طوايا النفوس واكتشاف خفاياها ، وإزالة ما فيها من شذوذ قد ينحرف بها عن صراط الحق وغرس الحب والوفاء والصدق والأمانة ، وتعهد كل ذلك بالإنماء فى ظل الأخوة العربية قد لا يتيسر كل ذلك أو بعض ذلك إلا لمن آتاه الله الحزم والعزم والإيمان والصبر وآتاه مع كل ذلك روح الطبيب الحاذق يشخص ويداوى بعد أن يلمس الداء .

ومن ثم يجب أن يختار إلى تلك المعسكرات صفوة منتقاة من الهداة والمصلحين الذين يؤمنون برسالتهم ويؤمنون بالعمل وبذل كل الطاقات لخير هذه الرسالة ، لحين ترسم القيادة وتخطط يجب أن يوضع فى حسابها أن الموقف يستدعى قيادات روحية دينية واجتماعية تصلح النفوس ، وتهيء الأرواح وتخلق فيها روح الفدائية والتضحية التى حملها الآباء العرب فى الماضى الأبعد والبعيد ، فحطمت كبرياء الفرس وإباء الروم ، وردت عن الشرق وحشية التتار .

تلك الروح المؤمنة العاملة الباذلة هى التى ترتقبها فلسطين الجريحة فى عهدها الجديد .

وتلك الروح هى التى يجب أن يتسلح بها الفلسطينى قبل أن يخوض المعركة وقبل أن يأخذ مكانه فيها .

وليس مكان الفلسطينى على الحدود ينتظر صيحة الانطلاق ، وإنما مكانه قلب يافا وحيفا وتل أبيب حيث ينقض صاعقة تحرق قبل أن تحترق وتدمر قبل أن تدمر ، وتقضى على الأخضر واليابس قبل أن تتحول إلى رماد وتحمل الفناء لمن حرمها البقاء ، وتهدى الموت لمن نزع منها الحياة ، وكل ذلك حين تدوى على الحدود صيحات الزحف ، فكأنه

فى معركة العودة قلبها لأن الأرض التى باعها أبوه بثمن بخس، والأرض التى اغتصبت من أبيه ، والأرض التى قدم لها أبوه روحه ودمه ثم طرد منها بنوه ، كل تلك الأرض خليق بالفلسطيني أن يستردها بكل ما يملك ليعرف ما بذل فيها حتى يكون حرصه عليها أشد مما لو أهدتها إليه الجيوش العربية بعد أن تشتريها بالمال والدم والأرواح .

وجيوش الأمة العربية كلها حين ترى الفلسطيني فى قلب المعركة لن تضن عليه بالمال ولا بالدم ولن تمن عليه يوماً بما بذلت لأن الأخوة الصارخة فى الدم تستحثها أبداً للعمل لحق العربي ويسعدها البذل فى رد هذا الحق وإن كان غاليا ، ويسعدها أن تصون له ودمه هذا الحق ، وإن عادت فى سبيل ذلك الدنيا وإن عرضت اقتصادها للاضطراب فكل غال هين بذله فى سبيل الأخوة .

وإن أسلحة الشعوب العربية فى معركة الكيان الفلسطيني مختلفة الألوان ولكنها متضافرة القوى، ستحارب إسرائيل فى أرض فلسطين بالمال والرجال والعتاد ، وتحارب الشعوب التى تقف وراء إسرائيل بسلاح الحرمان من البترول الذى تغله الأرض العربية ولهذا السلاح خطره على الذ ب، وإن العرب ليرتقبون اليوم الذى يعلن فيه تنفيذ قرار حرمان الدول المنتصرة لإسرائيل من البترول ليجعلوه عيدا من أعيادهم القومية .

وإن أنصار الحق والحرية فى كل شبر من العالم سينتصرون للقضية التى مل الرأى العام العالمى شهودها .

ولن تستطيع الصهيونية العالمية التى تتجر بمصائر الشعوب أن تخرج من المعركة منتصرة لأن مالها الذى تشترى به العروش ، وتقيم به العروش لن يجدى شيئاً حين يغضب أنصار الحق للحق ، وحين تتكشف للدنيا الأصابع العابثة بالحكومات المتلاعبة بالرياسات . أيها الملوك والرؤساء العرب .

إن عشرات الملايين التى عاشت معكم أرواحها أيام مؤتمر القمة فترجمت مالاح فى وجوهكم وعيونكم من المعانى ، ثم رأت فى الجلسة الأخيرة إشراقات الأمل، وابتسامات المنى تشع على الوجوه وترتسم على الشفاه . هذه الملايين التى سرها اجتماعكم يسرها أبدا أن تراكم قلبا واحدا ورأيا واحدا وعزما واحدا وصفا واحدا تقف وراءه شعوبكم تنتظر إشارة الانطلاق إلى بناء مجد عربى موحد تلتقى فى بنائه الأيدى والقلوب والعقول والآمال وتعمل طاقات العرب جميعاً لخير العرب جميعاً وإن الكيان الفلسطيني هو أول عمل فى صرح المجد العربى الموحد فمتى ترى ملايين العرب ذلك الصرح المنشود يطاول السماء .

محمد محمد خليفة

وثنية بني اسرائيل

للأستاذ علي الخطيب

لم يكن يبدو أن الأكثرية من بنى إسرائيل راضية بحال عن موسى صلوات الله وسلامه عليه ، ولم تكن - فى الوقت نفسه - تحترم فى شخصه جلال النبوة ، أو ترعى لها أدبا . فكانت تصرح بسخطها منه وتقول لموسى : « ... أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا - الإعراف ١٢٩ » ، وكان هرون عليه السلام يشعر بعداوة فريق منهم له . وهذه الروح المتمردة فيهم لا ينكرها العهد القديم المتداول فقد سجل موقف هذا الفريق من موسى وهرون فى قولهم : « ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر . إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع ، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع - خروج ١٦ - ٢ ، ٣ » .

وتاريخ بنى إسرائيل مع أنبيائهم ناطق بهذا الجحود والنكران حتى أسفروا فى النهاية عن مقت شديد للنبوة فأعملوا فى أنبيائهم قتلا وتذبيحا . وفى القرآن الكريم أكثر من آية تصمهم بهذه الجريمة النكراء ضد قوم عزل لا يرقبون صلاحا ، ولا يملكون إلا الكلمة الطيبة ، والدعوة المخلصة دون أن يسألوا أجراً أو يطلبوا نفعا يقول تعالى : « لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون - المائدة - ٧٠ » .

فلم يكن المولى جل وعلا مطاعا فيهم ، ولا كانت شريعته - وهى هدى ونور - سارية فى أوساطهم . خرجوا على الرب ، وفسقوا على شريعته فالتمسوا إلها غير ربهم ، ودينا يخالف شرعته وانحرفوا مبكرين إلى الوثنية ، وموسى وهرون بين ظهرانيهم .

وحسبنا أن نمر بالعهد القديم ، ونطلع على وثنيتهم وتخطيطها حتى تتبين فى جلاء أن القوم لم تكن لهم فلسفة فى وثنيتهم . وذلك لسبب بسيط هو أنهم تلمسوا الوثنية من غيرهم ، وطلبوها خارج حدودهم . فلم تكن للقوم وثنية تخصهم لذلك كان نزوعهم إلى هذه الوثنية يسجل عليهم فحولة الفكر ، ونضوب الروح ، وضيق الأفق الذى يستبدل بجلال الوحدانية ، وسمو تكريمها للخلق عبادة بشر أو حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا . فى نفس الوقت الذى

أعجبت بشريعتهم فيه أمم ودانت لها مختارة[١]. فما كانت هذه الوثنية فيهم إلا حبا للخروج على ربهم والضيق بشريعته، ومخالفة أمره حتى لقبوا فى العهد القديم بالبيت المتمرد (حزقيال ٣ - ٩).

وقد تمردوا من عهد موسى حتى ظهر فيهم المسيح عليهما السلام.

١ — فبعد أن عبر بهم موسى البحر، ورأوا بأعينهم قدرة الله الخارقة، وإعجازه المحيط، مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم: «فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون: إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين» - الأعراف ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ -.

وحين تركهم للقاء ربه الذى استغرق أربعين يوما ليتلقى ألواح الشريعة استخلف فيهم هرون أخاه. فاتخذ لهم السامرى عجلا جسداً له خوار وتنادوا فيما بينهم: «هذا إلهكم وإله موسى» ولم يعبأوا بنصح هرون ولا بقوله: «يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى» - ٩٠، ٩١ -، واستضعفوا هرون وهموا أن يقتلوه، فخشى أن تتفرق كلمتهم، وتذهب وحدتهم، ويأتى موسى فيراهم ممزقين فانتظر بعد أن ذهبت جهوده سدى. وإذ رجع موسى ورأى ما فعلوه أخذه الغضب فألقى بالألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه وصاح فيه: «يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى أفعصيت أمرى قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى» - طه ٩٢، ٩٣، ٩٤ -.

«إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين» - الأعراف ١٥٠ -، فناجى موسى ربه قائلا: «رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين» - الإعراف ١٥١، وقال تعالى فى أصحاب العجل: «إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين. الإعراف ١٥٢.

٢ — ولما قضى موسى وهرون تمادى بنو إسرائيل فى العصيان، وأمعنوا فى التمرد، وجلبوا الأصنام ممن أحاط بهم من أمم، وأقاموها فى أنحاء شتى بمدنهم: فى المرتفعات، وعلى الطريق وأقاموا لبعضها كهنة، وعكفوا عليها رجالا ونساء متناسين كل نعم

(١) انظر «المسألة الصهيونية فى نظر العلم» الدكتور محمد عوض محمد - من رسالات الجامعة العربية.

الله وأفضاله عليهم . وقام النسوة بحرق البخور لها ، وقدم الكثير منهم لها نذوراً ، وصرخ فيهم أنبياؤهم وهددوا بالإبادة دون جدوى وفى سفر حزقيال ورد الإنذار : « وأضع جثث بنى إسرائيل قدام أصنامهم ، وأذرى عظامكم حول مذابحكم ٦ - ٥ » ، لكنهم استمروا الزيادة والتوسع فى ألوان الوثنية فعبدوا النار : « وبنوا المرتفعات التى فى وادى ابن هنوم ليجيزوا بنيهم وبناتهم فى النار لمولك - إرميا ٣٢ - ٣٥ » ، ومولك - كما يبدو - هو من أوثان الفينيقيين الذى نقلوه معهم إلى « قرطاجنة - تونس » وكانت له ذراعان ممدودتان ذوا محور . توقد تحت نصبه النار . ويوضع الطفل فوق ذراعيه فتهبطان به فيها . فقتل بنو إسرائيل كثيراً من أطفالهم سفها وفيهم من ينذرهم بجرم ما يفعلون .

ولم يكتفوا بما نصبوا من أوثان فوق الجبال ، وبين الطرق فنقلوا رجسهم داخل بيت المقدس وملأوا بها مقاصيره حتى كان ببعض حجراته ... « كل شكل دبابات ، وحيوان نجس ، وكل أصنام بيت إسرائيل مرسومة على دائرة ، وواقف قدامها سبعون رجلا من شيوخ بيت إسرائيل - حزقيال ٨ - ١٠ » ، وفى مكان آخر بالبيت كان : « هناك نسوة يبكين على تموز حزقيال ٨ - ١٥ » ، وفى أحد أماكن الصلاة أعطوا ظهورهم للقبلة ، ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس حزقيال ٨ - ١٦ » .

٣ - وقد ختمت فرقة منهم وثنيتها بعبادة البشر فعبدت عزيراً - عزراً - كاتب الشريعة التقى الذى كان يحفظ التوراة عن ظهر قلب . فى القرآن الكريم : « وقالت اليهود عزير بن الله . التوبة ٣٠ » ، وكان عزير فى أسرى بابل . وخرج بكثير منهم إلى بيت المقدس حين سقطت بابل تحت الحكم الفارسى . وقد تذلل العزير لربه أن يقبل توبتهم ويصفح عنهم ، فما كان من فرقة منهم إلا أن عبدته بنظرية الحلول . تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً . وعبدوا كوشان ملك آرام ، وعجلون ملك موآب (قضاة ٣) .

تلك صورة سريعة لوثنية بنى إسرائيل يبدو فيها قليل من كثير مما حواه العهد وصدقه القرآن ، وهى وثنية واسعة النطاق تمثل الصابئيـــة فى عبادة الكواكب ، والتوتمية فى تقديس الحيوانات . والمجوسية فى عبادة النار . وبذلك ضاع بينهم منهج التوراة ، ونقضوا عهد الله وحرفوا شرعته فضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضبه : « لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » .

على الخطيب
مجمع البحوث الإسلامية

بمناسبة افتتاح العام الدراسي

مشاكل التربية الدينية والخلقية والاختلاط

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

يكثر الحديث في هاتين المشكلتين في فاتحة كل عام دراسي ، ويذهب الناس في شأنهما مذاهب شتى ، ولكنهم يكادون يجمعون على أننا لم نصل بشأنهما إلى حل سليم يرضى عنه نظامنا الديني ، ويوائم تقاليدنا وعرفنا الخلقي وأوضاعنا الاجتماعية العامة . بل يكاد يجمع علماؤنا على أننا لم نصل في صددهما إلى حل يتفق مع ما تقرره علوم التربية .

١ — أما فيما يتعلق بالناحية الدينية والخلقية فقد قامت النظم التي وضعت للمدارس الابتدائية والثانوية في عهد الاحتلال ، وهي التي وضعها دنلوب المستشار الإنجليزي لوزارة المعارف حينئذ وتعهدها خلفاؤه من الإنجليز والمصريين ، قامت هذه النظم على إغفال ناحية الدين من التربية في المدرسة بل على محاربته من وراء ستار ومحاربة ما يتصل به من شئون التربية الخلقية والاجتماعية ، وجرت على طريقتها الماكرة في ستر سوءاتها وذر الرماد في العيون ، فسمحت السياسة الدنلوبية في هذا الصدد مجالا يسيرا لبعض دروس في الديانة ، ولكنها أمعنت في التهوين من شأن هذه الدروس ، فوضعتها في هامش المنهج الدراسي ، وأعفت التلاميذ من الامتحان فيها ، أو قررت فيها امتحانا رقيقا لا يترتب عليه أثر ما في نجاح التلميذ ورسوبه ، أو يترتب عليه أثر ضئيل — وما كان ينتظر من "سياسة الدنلوبية أن تعنى بنواحي التربية الدينية والخلقية في مصر ، وقد كان كل همها العمل على انحلال الشعب المصري !

ثم أخذت المدرسة المصرية بعد أن تحررت من سيطرة الإنجليز توجه قسطاً من عنايتها إلى هذه النواحي ، ولكنها لا تزال إلى الوقت الحاضر مقصرة في جنبها تقصيرا كبيرا ، ولا تزال بعيدة كل البعد عما ينبغي أن تكون عليه . ففي أحدث خطة للمدارس الثانوية التي يجتاز طلبتها مرحلة المراهقة والبلوغ ، وهي أدق مراحل الحياة جميعاً ، وأشدها حاجة إلى التربية الدينية والخلقية ، لا نجد إلا نحو ساعة واحدة فقط في الأسبوع للدين والتهذيب ، بينما خصص فيها أكثر من ثلاثين ساعة أسبوعيا لمراد كسب الحقائق وحشو الذهن بالمعلومات .

والمدرسة المصرية إذ تقصر في شئون التربية الدينية والخلقية إلى هذا الحد تعمل على إضعاف أهم دعامة من مقومات الحياة الإنسانية على العموم ومقومات الشعب المصري بوجه خاص ، وتفسح المجال لعوامل القلق والاضطراب والانحراف في التفكير والسلوك

هذا إلى أن دروس الديانة والتهذيب

بالصورة التى تدرس بها فى مدارسنا لا تقوى وحدها على تحقيق الغرض من التربية الدينية والخلقية مهما كثر عددها ، حتى لو وضعت فى صلب المنهج الدراسى ، وقرر فيها امتحان دقيق تترتب على نتائجه آثار ذات بال فى نجاح التلميذ ورسوبه . فمهما بولغ فى شأنها فإنها لا تعدو أن تكون مجرد مادة من مواد كسب المعلومات وحقائق تحشى بها أذهان التلاميذ ، وليست التربية الدينية والخلقية بمواد تدرس ، ولا حقائق تحفظ ، وإنما هى مناهج للسلوك يؤخذ بها الطالب فى مدرسته بوسائل تربوية سليمة حتى يألفها وتصبح محببة إليه وجزءاً من طبيعته ، هى طرق عملية تنشؤه على الفضيلة وتزينها فى قلبه ، وتنفره من الرذيلة وتبغضه فيها ، وتكون لديه الحس الخلقى السوى الذى يستطيع بفضله أن يميز بالبداهة الخير من الشر والخبيث من الطيب وفقاً للنظم التى يرتضيها دين أمته ويقرها عرفها الخلقى ؛ هى قوالب يدرب الطالب فى مدرسته تدريباً عملياً متواصلا على أن يصب فيها أعماله وأفكاره المتعلقة بشئون الأخلاق وبواجب الإنسان نحو ربه ونفسه وأسرته ووطنه والإنسانية جمعاء .

فبناء مسجد مثلا فى فناء المدرسة ، وإشراك التلاميذ فى تشييده وتأثيثه وأخذهم بإقامة الصلاة فيه فى مواقيتها ، وتوزيع الأعمال اللازمة له عليهم من أذان وإمامة وخطابة وتعهد مرافق ، وما إلى ذلك ، وتمرسهم بهذه الأمور تمرساً عملياً تحت إشراف أساتذتهم ، كل ذلك خير من ألف درس وموعظة تلقى عليهم فى أهمية الصلاة وثواب فاعلها وعقاب تاركها يوم القيامة ، وتكوين جمعيات من بين الطلبة لشئون الخدمة الاجتماعية والإصلاح الاجتماعى والإسعاف والنجدة والبر بالفقراء وشئون التعاون بمختلف فروعها ، ومزاولتهم لهذه الأمور مزاولة عملية تحت إشراف أساتذتهم خير من ألف درس يلقى عليهم فى فوائد التعاون والتواصى بالخير والتكافل الاجتماعى وواجب الإنسان نحو أخيه الإنسان .

وقد عنى الإسلام وعنى مفكرو الإسلام أكبر عناية بتكوين العادات الصالحة عن طريق القدوة الحسنة وعن طريق أخذ النشء بمزاولة الفضائل والواجبات الدينية مزاولة عملية . قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ، وفى الأثر الشريف : (مروا أولادكم بالصلاة لسبع) أى وهم فى سن السابعة (واضربوهم عليها لعشر) أى اضربوهم على تركها إذا بلغوا العاشرة ، ويقول عمرو بن عتبة لمعلم ولده : « ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح لديهم ما تركت » ، ويرى الغزالى وجوب أخذ الطفل بمزاولة الفضائل والواجبات الدينية مزاولة عملية متى بلغ سن التمييز ، وفى هذا يقول : « متى بلغ الطفل سن التمييز وجب

ألا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة وأن يؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان » .

ويؤسفنا أن نقول إن المدرسة المصرية فى الوقت الحاضر قد أضافت إلى تقصيرها فى تدريس الدين والتهذيب تقصيراً آخر فى أخذ تلاميذها بشئون السلوك الدينى والخلق فهى لا توجه إلى هذه الناحية العملية من الدين والأخلاق ما ينبغى أن يوجه إليها من عناية بل إن جودها لا يساعد كثيراً على بث العادات الصالحة فى النفوس .

٢ - وأما فيما يتعلق بالاختلاط بين الجنسين فى معاهد التعليم، فإنه يحدث لدينا فى مرحلتين : إحداهما مرحلة التعليم الابتدائى والأخرى مرحلة التعليم الجامعى ، وكلا هذين النوعين من الاختلاط دخيل فى الشعوب العربية قد انتقل إليها من نظم التعليم فى أمم الغرب .

ويكاد الباحثون من العرب يجمعون على أنه لا خوف مطلقاً من اختلاط الجنسين فى المرحلة الأولى من التعليم ، بل لا خوف أن يمتد هذا الاختلاط إلى بعض سنى المرحلة الإعدادية ما دام الأطفال دون الثالثة عشرة ، أى قبل أن يبلغوا سن المراهقة وتبدو لديهم مظاهر الغريزة الجنسية بل يكادون يجمعون على أن للاختلاط فى هذه المرحلة آثاره الطيبة فى حياة الجنسين وائتلافهم ومحو النظرة الجنسية من نفوسهم

ولكنهم يختلفون فى نظرتهم إلى الاختلاط فى مرحلة التعليم الجامعى :

فبعضهم يرى أنه ضرورة من ضرورات الحياة الجديدة ، وأن من شأنه أن ينمى من شخصية الفتاة ويشعرها بذاتيتها وكرامتها ، ويزيد من تجاربها ، ويغير من نظرتها إلى الجنس الآخر ، كما أن من شأنه أن يكسب الفتيان شيئاً غير قليل من الحذر والحيطة والصقل والوداعة فى أخلاقهم وسلوكهم ومظهرهم وحديثهم . ويذهب هذا الفريق إلى أن العثرات والانحرافات التى تحدث بسبب هذا الاختلاط هى من الندرة والتفاهة بحيث لا تستحق أن تثير فى نفوسنا أقل قلق ، كما يدل على ذلك سجل الحوادث والعقوبات فى كثير من الكليات .

ويذهب الفريق الآخر إلى أن هذا الاختلاط قد أدى إلى أضرار خلقية بالغة ، وأخذ يتهدد البيت العربى الإسلامى ويتهدد تقاليده ومقدساته بشر مستطير ، وأن ما يصل من عثرات هذا الاختلاط ومخالفاته وانحرافاته إلى علم العمداء ورؤساء الأقسام وما يدون منها فى سجل الحوادث لا يعد شيئاً مذكورا بالقياس إلى ما يحدث بالفعل ولا يصل شىء من أخباره إلى علم الرؤساء ولا إلى أوراق الملفات . بل إن ما يصل منها إلى علم الرؤساء وأوراق الملفات يتمثل معظمه فى أمور ملفقة كيدية يقصد بها إلى النكاية بالأبرياء لإشباع الأحقاد أو تحقيق


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نفحات القرآن

البذل في سبيل الله بيع رابح

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

مر أعرابي مسلم على النبي صلى الله عليه وسلم - والنبي يتلو قول الله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - الآية » .

فقال الأعرابي : هذا بيع مربح - رابح - والله لا نقيله ، ولا نستقيله .. أي لا نرضى برفضه علينا من جانب الله ، ولا نعرض عن التمسك به والحرص على إنفاذه من ناحيتنا ! !

ثم نشط الأعرابي من ساعته إلى الجهاد غازيا مع الجيش حيث كان .

وقد صدق الله أمنية الأعرابي ، فاستشهد في جهاده كما أحب ، وذهب من أهل الجنة كما وعد الله .

فطن الإعرابي إلى أن في هذه الآية عهدا من جانب الله لعباده المؤمنين : أن من بذل نفسه وماله ، أو بذل أحدهما في مقاتلة أعداء الله فكأنه باع ذلك المبذول لله بثمن مضمون ، مربح ، تتعلق به الرغبة .

ومن نوازع الفطرة أن البائع دائما يطمح إلى عوض تطيب له نفسه غاية ما يمكن .

والله تعالى يمثل هذه التضحية من جانب عباده في صورة المبادلات المالية التي يقترن فيها المثمن بثمنه .

ويسوق ذلك في صيغة مؤكدة ، ويبادرنا فيها بذكر الشراء من جانبه ، ليشعرنا بأن الرغبة في هـــذه المعاوضة من ناحيته هو - سبحانه -

فهو يتطلب من عبده أن يستجيب لرغبة علوية أبدية له ، ويطمئن عبده على استحقاقه للعوض ، دون امتنان عليه بما هو حق يستوجبه عند ربه كاملا غير منقوص .

وصورة هذا فيما يجري بيننا أن يتقدم الراغب في شيء ، ويبتدر صاحبه بقوله :

أنا اشتريت منك هذا بكذا . يتفاءل صاحب الشيء بالرغبة فيما عنده قبل أن يعرضه للبيع، وتهش نفسه لرواج سلعته وارتفاع ثمنها .

فكذلك العبد المؤمن : حينما يسمع هذا التعبير من كتاب ربه يطمئن إلى التقدم بتضحيته ، ثم يستحق الجزاء الذى وعد به .

وهذا أسلوب من أساليب المعاهدة بين الله وعباده . . . والله يوفى الجـــزاء بغير حساب .

وهل يكون عهد الله مجازفة : وهو القادر على كل شيء ؟ ؟

أو يكون تفضله على عبده بما يشاء من جزيل العطاء أمرا مريبا ؟ « ومن أوفى بعهده من الله » ؟

إن الله خلق الناس ، وهو مالكهم ، ومالك أموالهم التى منحهم إياها .

وهو مع ذلك يدعوهم إلى ترضيته ببذل ما منحهم ... ويعدهم حقا بحسن العوض على هذه الترضية ، حتى كأنهم متفضلون : لا مدينون لله . .

فأى إشادة فوق ذلك الثناء ؟ وما عسى أن يكون الجزاء بعد هذا ؟ .

هو الجنة . والجنة غاية الغايات للطامعين .

وكل نعمة ترمقها العين فى الدنيـا ، أو تهفو إليها النفس فى الحياة . أو يسبح وراءها الخيال فهى وميض من ملامح الجنة، وقبس من نفحها ، ورمز تذكارى لما هناك فى عالم الرضوان والخلود .

أليس يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » صدق رسول الله .

هذه الجنة : هى مصداق عهد الله الذى رضى البيع والشراء مع المجاهدين من عباده المؤمنين الذين نهضوا إلى دعوة الله ، ووقفوا فى مصاف جنوده « يقاتلون فى سبيل الله » فيقتلون العدو ، أو يقتلهم العدو .

فإذا كانت لهم الغلبة فقد نكلوا بمن كان يتبجح لله ، ويناوىء دعوته ، ويتطاول على جبروت ربه القادر .

وإذا ما كانت عليهم الغلبة من العدو فهذا بلاء من الله لإيمان المؤمنين : ثم ذلك فى حقيقته تنبيه وإشعار للعدو بأن لله جنوداً من عباده يرخصون أرواحهم ، ودماءهم فى نصرة دين الله ، مؤثرين الموت على الحياة فى نصرة حق الله على باطل أعدائه ، وفى سبيل تمهيد الطريق أمام كلمة التوحيد ، ليمتد صداها فى الآفاق .

فهؤلاء المجاهدون أنصار لله على كلتا الحالتين : حياة . أو موتا .

ومن أجل هذا كان انتقالهم عن الدنيا إلى حياة أخرى عند ربهم . لا إلى خمود وفناء كغير المجاهدين ... ولا إلى عذاب

وجحيم كاقتتال الكافرين «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

ذلك مقام الشهداء عند ربهم، وهو عهد سجله الله على نفسه: فى التوراة، والإنجيل والفرقان ... وليس أحد أصدق حديثا من الله ... ولا أوفى بعهده من الله!!

وهذا — هو قول الله تعالى: «فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم» ...

غير أن البذل فى الجهاد قد يشوبه رياء أو يخالطه تردد، فيكون جهادا فى ظاهره، دون حقيقته ولا يكون الباذل لنفسه، أو ماله، معدوداً فى حساب المجاهدين عند الله كأناس أخذهم الغرور بالشجاعة، أو استبد بهم الرياء أو كان همهم إدراك الغنائم فحسب فلم يكن لهم من فضل الجهاد نصيب.

ولقد كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم رجل مغوار، عرف بين الصحابة بالبطولة النادرة، إذا نزل إلى ساحة الجهاد أزعج الأبطال، وفتك بالكثيرين.

وحينما بلغ النبى ما بلغه عن شجاعة هذا المجاهد قال: إنه من أهل النار.

فزع الصحابة لهذا النبأ، وأخذهم الأسف والعجب لهذه المفاجأة، وظلوا فى ارتقاب لشأن صاحبهم هذا.

ثم وقعت غزوة، واشترك فيها البطل، وأصيبت ذراعه، وتدلت معلقة بجانبه، فلم يطق ألمه، وبادر بالتخلص من الحياة، فغرس حربته فى الأرض على قبضتها، وتحامل على شفرتها ببطنه فنفذت من ظهره، ومات لساعته.

فكان أسف الصحابة ثانياً من قسوة لرجل على نفسه.

وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه خبره، فصاح الرسول فى نشطة، وقال: (أشهد أنى رسول الله، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها.

وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)

ومن أول الحديث ظهر للصحابة أن صاحبهم كان مرائيا فى جهاده، ولم يكن صادق الإيمان كما ظنوا ولو كان صادق النية ومحتسبا جهاده لله لصبر على بلائه، كما صبر ويصبر غيره من المجاهدين.

وبسبب ذلك حبط عمله، وصدقت نبوءة رسول الله فيه

وعلى عكس هذا : من يكون بعيداً عن الطاعة ، ثم يزداد يقينه ويخلص فى عمله، فإنه يكون مقبولا ، ولو كان فى خاتمة المطاف من دنياه « ولكل درجات مما عملوا » .

لذلك بين الله لنا أن المجاهد الموعود بما سلف هو من كان متسما بسمات الإيمان الحق وهم المذكورون فى قوله تعالى : « التائبون العابدون — الحامدون — السائحون — الراكعون ـ الساجدون ـ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر — والحافظون لحدود الله » ...

فحينما يكون المرء على هذه المناقب : من توبة مستمرة ، وعبادة خالصة ، وسياحة فى أفق العلم ، والتفكير فى صلته بربه وما بقى من المحامد المذكورة يكون جهاده ـ إن جاهد بنفسه وماله ـ جهادا حقاً ، ويكون هو المعنى بوعد الله على أكمل ما يتعلق أمله ...

ويزيدنا اطمئنانا إلى ما فهمنا : أن الله تعالى يختم هذه الآية كلها بتأكيد وعده ، ويجمل ثنائه فيقول : « وبشر المؤمنين » .

فماذا بقى من تأكيد وعد الله أكثر من ذلك .

وماذا بقى من ترغيب فى عطاء الله فوق ماحفلت به آية البيع المربح كما قال الأعرابى ؟

وبعـــد :

فقد تبين لنا أن سبيل الله فى هذه الآية هو خصوص القتال دفاعا عن الدين ، وكفا لأعداء الإسلام عن مقاومة الدعوة إلى الله ، وذلك هو قول الله « يقاتلون فى سبيل الله » ولكن كلمة ـ سبيل الله ـ تذكر فى القرآن وعلى لسان الرسول كثيرا .

فهل معناها قاصر على خصوص القتال دائما ؟؟

سبق إلى بعض الأذهان تخصيصها بالقتال حتى جعلوا هذا المعنى هو المراد فى كل مقام ، ومن ذلك صرف الزكاة فى سبيل الله ، أى فى الجهاد ، وما ذكر معه فى آية الصدقات من المصارف الأخرى كالفقراء ، والغارمين ، وابن السبيل . الخ .

واستشهدوا لذلك بما أثر لديهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيان هذا المصرف بأنه خصوص القتال ولكن تفسير سبيل الله عند جمهرة من العلماء يتسع لأكثر من هذا الحصر .

وإذا ترجح أن الزكاة الواجبة ـ خاصة ـ يجوز صرفها أو صرف بعضها فى الجهاد كبقية مصارفها المذكورة فى الآية ، فإن سبيل الله على لسان الشرع تصدق على كل عمل من أعمال الخير التى يرتضيها الدين ، ويصلح عليها شأن الأفراد والجماعة .

فإذا قرأنا مثلا « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » كان

القصد أن المهاجر من بلد المعصية إلى بلاد متدينة والمهاجر فى تحصيل العلم ، والمهاجر فى طلب الرزق ، وفى نشر الثقافة النافعة ، أو بذل النفع لقوم آخرين : كل أولئك يجاهدون فى سبيل الله .

وإذا ذكر القرآن من مخازى الأحبار ، والرهبان أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ؛ فالقصد أنهم يمنعون الناس من إنفاق مالهم فى وجوه الخير عامة : لا خصوص القتال .

وإذا أنكر القرآن على الناس أن يكنزوا الذهب والفضة ولا ينفقوها فى سبيل الله كان القصد أنهم يبخلون بمالهم عن الزكاة ، وعن وجوه الخير عامة ؛ لا خصوص القتال .

وإذا أمرنا الله أن ننفق من أموالنا فى سبيل الله كان ذلك توجيها إلى كل ناحية من نواحى البر بالنفس ، وبالأهل ، وبالوطن وبكل ما يجلب نفعا أو يدفع ضررا .

وهذا هو سبيل الله - فى غير باب الصدقات الواجبة - على لسان الشريعة .

بل ذهب أكثر الفقهاء إلى أن سبيل الله فى باب الصدقات تشمل القتال وغيره على السواء ولكننا نحتاط ، ولا ننفق الصدقات الواجبة إلا فى مصارفها المذكورة ونعتبر من بين المصارف خصوص القتال للكفار .

وقد أثر عن الصحابة كثير من العبارات يريدون فيها التعميم فى معنى سبيل الله ...

ومن ذلك أن أبا بكر رضى الله عنه حينما لدغته العقرب فى الغار يوم الهجرة - وكان يتحسس بيده على أرض الغار وقاية للرسول من الحشرات - كان يحمد الله على أنها لدغته هو ، ولم تلدغ النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول راجزا فى خطاب إصبعه .

ما أنت إلا إصبع دميت
وفى سبيل الله ما لقيت

يريد أبو بكر أنها تضحية هينة فى سبيل وقاية النبي من أذى الحشرات .

وهذا تعميم تتسع له اللغة ، والشريعة .

فليكن عملنا الخير كله على أنه جهاد وبذل وبناء لمعالم المجد فى سبيل الله بمعناها الواسع ؟

عبد اللطيف السبكى

من أجمل ما قيل فى وصف السخاء قول زهير بن أبى سلمى :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

١١ — استغلال المال الحرام

ذكرنا فى المقال السابق الطرق المشروعة لاستغلال المال الحلال ، ورأينا من خلالها أنها كلها أو جلها يبدو فيها التعاون والتضامن بين العمل ورأس المال ، كما يلاحظ فى القراض والمزارعة والمساقاة وشركات الأسهم ، وما إليها من المشروعات الاقتصادية النافعة ، غير أنه يجب أن نذكر أن المال الذى يحق له ولصاحبه أن يسهم فى هذه المشروعات هو المال الحلال ، وهو الذى ينشأ من أصل صحيح وبوسائل صحيحة يعترف بها الإسلام ويقرها أساسا للتملك ، وهذه الوسائل فى جملتها ترجع إلى العمل ، فإنه السبب المباشر وغير المباشر فى الحصول على المال ، وعلى هذا يكون المال فى الأعم الأغلب عملا أو قيمة عمل يشترك مع عمل آخر فى الإنتاج ويتقاسمان الربح والخسارة بالنسبة التى ينعقد عليها الاتفاق ويتم بها التراضى بين صاحب العمل وصاحب رأس المال .. ومن ثم كان الربا حراما لأنه يهيئ لصاحب المال قدراً من الربح المضمون المأمون يزيد به رخاؤه وثراؤه . ولا يحمله قدراً من الخسارة إذا أصيب المشروع بخسارة ، فإذا كان القرض بفائدة للاستهلاك لا للإنتاج كان الإثم أعظم ، لأن فيه — مع ذلك — استغلال الحاجة وانتهاز فرص الضائقات المالية التى تلم بالمعسرين لزيادة يسر الموسرين وعسر المعسرين ، وتلك وحشية لا تقرها إنسانية ، ولا تتفق مع ما يجب على الإنسان نحو أخيه الإنسان ، فإن عليه أن ينفس عنه كربه إذا نزل به كرب ، وأن يهون عليه خطبه إذا حل به خطب وأن يكون فى عونه ليكون الله فى عونه ، كما يفهم من قول النبى صلى الله عليه وسلم : (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه) .

١ — فالربا طريق من طرق استغلال

المال الحرام ، وهو - قليله وكثيره - مما نهى الله عنه وحذر منه ، وقد توعد الذين يصرون عليه بحرب لا قبل لهم باحتمالها ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » وقد بلغ اهتمام الإسلام بمحاربة هذا الاستغلال الحرام إلى حد لعنة كل من يشارك فيه حتى الغارم المحتاج إليه ، وحتى كاتبه وشاهده فقال صلى الله عليه وسلم : (لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه) وطبيعي أن يكون هذا موقف الإسلام من الربا ، لأن هذا النوع من الكسب الحرام يتجافى مع ما يدعو إليه من اشتراكية عادلة فاضلة تقوم على الزكاة ، وتجعل للفقراء حقا معلوما في أموال الأغنياء ، فالربا زيادة يدفعها الفقير المعسر للغنى الموسر ، والزكاة زيادة يدفعها الغنى الموسر للفقير المعسر ، والفرق بينهما هو الفرق بين الرذيلة والفضيلة . والشر والخير ، بل هو الفرق بين مجتمع فاضل متكافل ومجتمع منحل مختل فإن الربا من العوامل التى تقسم المجتمع إلى طبقات يستغل بعضها بعضا ويستذل بعضها بعضا وكل ذلك وما إليه بعض ما يفهم من قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » وقوله سبحانه : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

٢ — والرشوة كذلك من طرق الاستغلال الحرام ؛ لأنها طريق إلى أكل أموال الناس أو المجتمع بالباطل ، ثم هى السبيل إلى شراء الذمم . وفساد الضمائر وشيوع الفساد . وخراب الأخلاق .

وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت خرابا

وكل من الراشى والمرتشى آثم ظالم . كما يفهم من قول النبى صلى الله عليه وسلم : (لعن الله الراشى والمرتشى) فإنهما قد اشتركا فى الجرم والظلم ، وقد قيل فى تفسير قوله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » لا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذى لم يبحه الله ولم يشرعه كالسرقة ، والغصب ، والغش ولا تلقوا أمرها والحكم فيها إلى الحكام لتأكلوا عن طريق التحاكم إليهم بعض أموال الناس بما يستوجب الإثم كشهادة الزور وكاليمين الكاذبة وكالصلح أمامهم مع العلم بما ينطوى عليه من ظلم ، وفسر كذلك قوله تعالى :

« وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم » على معنى لا تلقوا بأموالكم إلى حكام السوء لرشوتهم وشراء ذممهم وضمائرهم لتصلوا عن طريق ذلك إلى أكل أموال الناس بالإثم .

٣ — ومن طريق الاستغلال الحرام الاحتكار ، وقد أجملنا الحديث عنه فى المقال السابق ، وقلنا إن على الدولة أو ولى الأمر أن يتدخل لمنع الاحتكار والتلاعب بالأسعار تطبيقا لقاعدة لا ضرر ولا ضرار . وتحقيقا لمصلحة المجموع التى تقدم على مصلحة الأفراد ، وسواء كان الاحتكار من أفراد أو شركات فإن على الدولة أن تضع يدها على المواد المحتكرة لتخرجها إلى الناس بسعرها المناسب أو تتولى الإشراف على إنتاجها أو استيرادها لتيسر للناس ما تعسر عليهم فى ظل الاحتكار الآثم الظالم ، ولا عبرة بما قيل أو يقال فى المواد التى يحرم احتكارها هل هى الأطعمة دون غيرها أو هى الأطعمة وغيرها من السلع الضرورية اللازمة كالأدوية والأكسية ، فإن باب المصالح المرسلة واسع يفسح لولى الأمر أن يتدخل لمنع الضرر أيا كان شأنه ولونه وتحقيق المصلحة متى تحقق أنها مصلحة عامة ، صحيح أنه يجوز احتكار ما لا يضر الناس كأدوات الزينة وما إليها ولكن احتكار الضروريات وكل ما يحتاج إليه الناس ليرتفع سعرها مما يدخل فى مفهوم قول النبى صلى الله عليه وسلم : (من احتكر فهو خاطىء) وقوله عليه السلام : (يحشر الحاكرون وقتلة الأنفس فى درجة واحدة ، ومن دخل فى شىء من سعر المسلمين يغليه عليهم كان حقا على الله تعالى أن يعذبهم فى النار) .

٤ — أما الغش فى المعاملة فهو أسوأ أنواع الاستغلال ، والمستغل عن طريق الغش يدخل فى عداد اللصوص وفاقدى الشعور والضمير ، بل هو ممن برىء منهم النبى صلى الله عليه وسلم كما يفهم من قوله : (من غش فليس منا) والغش كما يكون من البائع فى السلعة يكون من المشترى فى الثمن « فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » ، كما يقول عليه الصلاة والسلام .

ويدخل فى معنى الغش أو يلحق به النجش وهو أن يتظاهر إنسان بالرغبة فى شراء السلعة المعروضة للبيع . ويعرض لها ثمنا أكثر من قيمتها ليغرى آخر بشرائها ودفع ثمن أكثر أو أكبر من ثمنها الطبيعى العادل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا تناجشوا) فالكسب من هذا الطريق حرام يدخل فى معنى أكل أموال الناس بالباطل ، وقد احتكم خصمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لهما قبل أن يحكم بينهما : (إنما أنا بشر ،

وأنتم تختصمون إلى ، ولعـــل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئا فإن ما أقضى له قطعة من نار . فبكيا . وقال كل واحد منهما حق لصاحبي . فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم اذهبا فتوخيا . ثم استهما . ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه) وقد أنكر الله على الذين يكنزون الذهب والفضة أنهم لا ينفقونها فى سبيل الله ، وأخبر أنهم سيعذبون بسبب ذلك عذابا أليما : « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : « هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » فكيف بمن يحتالون على أكل أموال الناس ؟ إنهم كما يقول الله « إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » .

٥ — والتجارة فى الحرام من سوء استغلال المال كالتجارة فى الخمر . والخنازير . والمخدرات وكل ما حرمه الله ـ لقد أحل الله لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث ـ فمسر الطيب بالحلال والخبيث بالحرام ـ وبذلك يكون كل كسب حرام خبيثا . وكل كسب حلال طيبا ، وصدق الله إذ يقول : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

وصدق الشاعر الحكيم إذ يقول :

ينفع الطيب القليل من الرز ق ولا ينفع الكثير الخبيث

عبد الرحيم فوده

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خـــير عند ربك ثوابا وخير أمـــلا » .

قرآن كريم

« ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم »

زهير بن أبى سلمى

إلى أي مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

مما لا شك فيه أن بعض الأحكام الشرعية تغيرت بتغير الأزمان والأحوال ، وذلك واضح فى الأحكام المبنية على العرف ، فإنها تختلف باختلاف العرف فى كل زمان ومكان ، والمطلوب هو بيان الحدود التى ينبغى أن تراعى عند الفتيا أو عند وضع تشريع يلزم الأمة العمل به أو عند القضاء بين المتخاصمين حتى لا تكون الأحكام الشرعية تابعة للأهواء والنزوات .

وقبل الدخول فى صميم الموضوع ينبغى أن نعلم أن الأهواء مختلفة ومقاييس العقول متباينة ، وليست هناك معايير ثابتة للحسن والقبح الموجبين للثواب والعقاب فلا بد إذن من مشرع منزه عن الأهواء والأغراض التى تحسن القبيح وتقبح الحسن ، وليس ذلك المشرع إلا الله سبحانه ـ ولو تركنا أمر تغيير الأحكام لعوامل الزمن من غير أن تكون هناك حدود ومعالم ينتهى إليها المفتون والقضاة والواضعون للتشريعات لكان الدين تبعاً للهوى يتلاعب به المغرضون ولزالت من النفوس قداسة التشريع الإلهى .

ولبيان هذه الحدود والمعالم لا بد أن تقسم الأحكام الشرعية التى جاء بها الإسلام إلى أحكام عقائدية وأخرى عملية .

فأما الأحكام العقائدية فليست محلا للتطور والتغيير ؟ كما أنها ليست محلا لاختلاف الآراء ، وإذا كان فى علم الكلام ـ وهو الذى يبحث عن العقائد ـ مسائل خلافية فليست من صلب العقيدة ، ولا يكفر فيها من أخذ بأى رأى متى كان لوجهة نظره حجة يعتمد عليها مهما يكن ولو كانت ضعيفة ، ولكن يخطأ رأيه بالحجة والبرهان .

وأما الأحكام العملية سواء كانت راجعة إلى العبادات أو المعاملات أو العادات فليست كلها قابلة للتطور والتغيير بتغير الأزمان والأحوال كما أنها ليست كلها ثابتة على مر الدهور ، ولابد من النظر إلى الدليل الذى استنبطت منه ، فالأحكام التى اعتمدت على دليل قطعى فى ثبوته كالقرآن والأحاديث المتواترة والإجماع الذى توفرت شروطه ونقل إلينا تواترا ، وقطعى فى دلالته على معناه بمعنى أن النص لا يحتمل إلا هذا المعنى

الواحد ؛ الأحكام التي اعتمدت على هذا الدليل أحكام ثابتة لا تقبل التغيير ولا التبديل مهما تعاقبت الأزمان وتغيرت الأحوال كقوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » ، وكقوله جل شأنه : « وأحل الله البيع وحرم الربا » فهذه الآية قائمة في حل البيع وحرمة الربا ؛ ولكن ماهي البيوع التي أحلها الله وما هو الربا الذي حرمه الله فهذا مجمل تكفلت السنة ببيانه بما أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم من حق البيان ، ومثل ذلك ما أجمع عليه علماء الإسلام من أحكام كحرمة زواج المسلمة بغير المسلم وإن كان كتابيا وكتوريث الجد والجدة عند عدم الأب والأم إلى كثير من الأحكام التي أجمع عليها ونقل إلينا هذا الإجماع نقلا متواتراً .

وأما الأحكام التي استمدت من أدلة ظنية سواء في ثبوتها كالأحاديث التي رويت آحاداً وكالقياس فإنه ظني في حجيته ، أو كانت ظنية في دلالتها كبعض آيات الأحكام ؛ فإن هذه الأحكام هي محل اختلاف أنظار العلماء منذ الصدر الأول إلى اليوم ؛ ولا حرج على مسلم أن يأخذ بأي رأي من الآراء ولكنني لا أسمي هذا الاختلاف تطورا أو تغييراً لاختلاف الزمن واختلاف الأحوال ولكنه اختلاف ناشيء من تفاوت الأفهام والأنظار ؛

وكل ما يمكن أن يرد من هذه الأحكام إلى سنة التطور هو الأخذ ببعض الآراء التي قد تكون ضعيفة من حيث الدليل ولكن فيها تيسيراً على الناس أو أقرب إلى ما ألفوه ، على ألا يكون رأياً ساقطا لا اعتبار له في نظر الشرع ، أو أن يكون في الأخذ به إبطال لقاعدة شرعية مقررة ، وقد اتجه التشريع أخيراً إلى الأخذ بهذا المبدأ في كثير من الأحكام ، وعدم التقيد بآراء الأئمة الأربعة الذين التزم أكثر المسلمين منذ أعصار طويلة التقيد بآرائهم ، وذلك كعدم وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد وعدم وقوع الطلاق المعلق الذي أجرى مجرى اليمين ، كما ترك المذهب الحنفي الذي كان ملتزما العمل به في القضاء أمداً طويلا في مسائل كثيرة كالتطليق للإعسار والتطليق للإضرار إلى غير ذلك .

هذا ومن النصوص التي قد تخضع لقانون التطور تلك النصوص التي تدل على أحكام معللة بعلة منصوصة وجاء زمن لم توجد فيه هذه العلة فإن هذا الحكم لا يطبق في ذلك الزمن حتى توجد العلة وذلك كآية مصارف الزكاة وهي قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

فإن هذه الآية علقت إعطاء الصدقات على وصف الفقر والمسكنة والعمل على جمع الزكاة وتأليف القلوب وفك الرقاب والغرم إلخ ، فإذا وجد وقت لم توجد فيه بعض هذه العلل لا يطبق هذا النص فى هذا الزمن ؛ إذ المقرر عند الأصوليين أن الحكم المتعلق بمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق ، وهو المصدر ؛ وقد سبق عمر رضى الله عنه إلى تطبيق هذا الأصل حينما منع المؤلفة قلوبهم من أخذ شىء من أموال الصدقات ؛ فإنه رضى الله عنه لم يعطل هذا النص برأيه وهواه بل طبقه أحسن تطبيق ، فإن علة التأليف لم تكن موجودة يومئذ ، فإن الدولة التى كانت تضرب كسرى وقيصر - وهما يومئذ سيدا عصرهما - لم تكن فى حاجة إلى تأليف أمثال الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس وأضرابهما ؛ وليس هذا تعطيلا للنص بالاجتهاد ولكنه تطبيق النص بمفهومه ودلالته ؛ ومثل هذا يقال فى زماننا بعدم دفع الزكاة إلى العاملين عليها ولا فى فك الرقاب لعدم وجود هذين المصرفين ؛ ولو عادت الحاجة إلى التأليف أو وجد العاملون على الصدقات أو وجدت الرقاب لعاد استحقاقهم فى الصدقات .

ومن النصوص التى تخضع لسنة التطور ولا حرج على المسلمين أن يراعوا فيها ظروف بيئتهم ومتطلبات زمانهم تلك النصوص التى وردت عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه بوصفه إماما لهذه الأمة وحاكما يرعى مصالحها ولم ترد عنه بوصفه رسولا ومبلغا عن ربه وذلك كتنظيم الجيوش واختيار الولاة واستقبال الوفود وعقد المعاهدات وتوزيع الجوائز على من أدى للدولة خدمة وإنشاء الوظائف التى تحتاج إليها الدولة ؛ فهذه الأحكام قابلة للتطور بما يتفق مع صالح الأمة فى كل عصر ومكان ؛ على أنه ينبغى الاحتياط كل الاحتياط فى التفرقة بين ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه رسولا وما ورد عنه بوصف آخر غير الرسالة والتبليغ والقرائن والملابسات هى الفيصل بين هذين النوعين من الأخبار والآثار ؛ وشتان بين أن ينهى الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن أمر مما تقع فيه العامة ؛ وبين أن يضع خطة حربية أو يقابل وفداً على هيئة خاصة أو يعقد مع قوم عهداً خاصاً .

وأما الأحكام التى مردها إلى القياس فهى - كذلك - مجال اختلاف العلماء على مدى العصور ؛ بل منهم من منع القياس ورده ، وأياما كان ، فالذى أدين الله عليه أن القياس - متى تحققت شروطه - باب واسع من أبواب معرفة الأحكام الشرعية ؛ ولا أسمى اختلاف

العلماء فيه تطوراً فى التشريع بالمعنى الذى يتبادر إلى الأذهان ، ولكنى أسميه اختلاف نظر فى معرفة علة الحكم ؛ ويسع كل مسلم أن يأخذ من هذه الأحكام ما يتفق وظروفه ومتطلبات حياته .

ومما يمكن رده إلى القياس وهو قابل للتطور تطبيق بعض الحوادث والنوازل على قواعد شرعية ثم يتبين أن هذا التطبيق خطأ فى عصر دون عصر وذلك كقاعدة لا ضرر ولا ضرار فإن الفقهاء الأقدمين طبقوها على مسائل كثيرة فأفتوا بحرمتها أو كراهيتها ، ثم قامت الشواهد على أنه لا ضرر يعتد به أولا ضرر أصلا فينبغى أن ألا يقال بالحظر أو الكراهية وذلك كرأى بعض الفقهاء فى التوضؤ أو الاغتسال بالماء المشمس وقد ثبت الآن أن الطاقة الشمسية يمكن أن تستغل فى غلى الماء أو طهى الطعام من غير أن يكون هناك ضرر على الصحة وكرأى بعض الفقهاء فى تصرف الملاك فى ملكهم وما قد يصيب الغير من أضرار فأجازوا بعض التصرفات بحجة أنه تصرف فى خالص الملك وأنه لا ضرر يذكر يعود على الغير ومنعوا بعض التصرفات بحجة أنها ضارة بالغير ، فمثل هذه الأحكام قابلة للنظر وينبغى أن تخضع لناموس التطور فما غلب خيره على شره فهو جائز وما غلب شره على خيره فهو محظور ؛ والذى يقدر هذا قوم ذوو خبرة وأمانة يطمئن إليهم ولى الأمر ؛ وهو مسئول أمام الله عن اختيارهم وهم مسئولون أمام الله عن حسن نصيحتهم الأمة ؛ فإن ظهر عليهم أو على بعضهم انحراف أو تحكيم الهوى فعلى ولى الأمر أن يعزلهم ويستبدل بهم قوما غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم .

وأوسع الأحكام الشرعية قبولا لسنة التطور هى الأحكام المبنية على العرف أو المصالح المرسلة ؛ وتفصيل ذلك يحتاج إلى مقال آخر ، والله نسأل أن يكون هوانا تبعا لديننا وألا يكون ديننا تبعاً لهوانا والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

بدر المتولى عبد الباسط
الأستاذ المساعد للفقه المقارن
بكلية الشريعة

« من وصية عبد الله بن الحسن لابنه »

كف الأذى ، وارفض البذا ، واستعن عن الكلام بطول الفكر ، فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام .

من روافد الثقافة الإسلامية :

رسالة الأصول للإمام الشافعيّ

للأستاذ الفاضل بن عاشور

« تتمة البحث »

بدأ محاور الإمام الشافعي يستكشفه من الأصول المختلف فيها بين الشافعي ، وبين غيره من أئمة المذاهب الفقهية ، فبحث عن ثلاثة من الأصول المختلف فيها هي : الاستحسان ، وعمل أهل المدينة ، وقول الصحابي . أما الاستحسان وقول الصحابي ، فهما من أدلة المذهب الحنفي ، وأما عمل أهل المدينة ، فهو من أدلة المذهب المالكي . وقد أفصح الشافعي بأنه لا يرى حجية واحد من هذه الثلاثة ، وأنه إذا كان يرى الاجتهاد ، ويرى حجية القياس ، فإنه إنما يحصر ذلك في الرجوع إلى أصل مسموع يجتهد المجتهد في القياس عليه ، بالشروط المقررة لذلك . وأخذ يورد مثلا من الأقيسة ليرى أن ما تأتى للمجتهد فيها من الرجوع إلى أصل يقيس عليه ، لم يتأت له في الاستحسان : قياساً على غير أصل . ويرد الشافعي على حجية قول الصحابي بأن حجيته ليست في ذاته وإنما نأخذ به إما لموافقته الكتاب أو السنة أو الإجماع وإما لكونتنا نرجح ما بني عليه قول الصحابي من القياس جاعلا مستنده في ذلك اطراد وجود مخالف من أقوال الصحابة لكل ما أخذ به الفقهاء من قول واحد منهم . فالحجية حينئذ فيما عضده ورجحه لا في ذاته .

وفي الرد على حجية عمل أهل المدينة يسلك الشافعي مسلك إلزام محاوره بأن مالكا يريد أن يجعل عمل أهل المدينة آيلا إلى الإجماع مع أنه لا إجماع في ما يحكيه في ذلك بقوله « الأمر عندنا ، والأمر المجتمع عليه عندنا » ، لأن في كل ذلك مخالفين حتى من فقهاء المدينة . وهو يعبر عن مالك في هذا الحوار بقوله «صاحبنا» . وهو حين يطرد في مخالفته الأئمة في تلك الأدلة يعود به محاوره إلى الاختلاف هل يجوز بين الفقهاء ؟ فيجيب بأنه جائز في غير المنصوص البين وهو يرد أمثالا كثيرة من الاختلاف القديم ، في عصر الصحابة وعصر التابعين

ومناقشته من الأمور النظرية ، وينتهى إلى أن تعدد الأصول واختلافها من طبيعته أن يحدث اختلاف الأقوال فى الأحكام.

إن ما سبق عرضه وتعليله ، من رسالة الإمام الشافعى ، فى أصل الفقه ، ليوضح أن أسلوب هذه الرسالة قد اختلف : بين بيان مبتدأ منسق ، فى غير حوار ولا جدال ، وبين نقاش مبنى على البحث والاستكشاف دائر على السؤال والجواب بقصد الاحتجاج للأنظار ، والبرهان على المذاهب ، وفى ذلك الأسلوب المختلف ، ما يوضح ظروف تحرير تلك الرسالة وتأليفها ، وما دخل عليها ، فى تحريرها وتأليفها : من أطوار .

فلقد كانت الرسالة ، على حسب ما كنا رجحناه ، محررة فى مكة ، فى سنة ١٩٧ لما عاد الشافعى إلى مكة قبل سفره إلى مصر ، وكانت موجهة إلى عبد الرحمن بن مهدى فى العراق ، جوابا لطلبه .

ولكن كثيرا من الذين ترجموا حياة الإمام الشافعى ، وأثبتوا ذكر كتبه يعدون هذه الرسالة رسالتين : الرسالة القديمة والرسالة الجديدة ، وقد ذكر الإمام فخر الدين الرازى : فى كتاب مناقب الشافعى : « أن الشافعى ، رضى الله عنه ، صنف كتاب الرسالة قبل استقراره بمصر ، ثم أعاد تصنيفه فى مصر ، والذى وصل إلينا ، وهو اليوم بين أيدينا ، من الرسالة ، إنما هو تصنيفها المصرى ، لأن المرجع فيها إلى أصلين خطيين أحدهما أهم بكثير من الآخر . فأحد هذين الأصلين هو أصل الربيع بن سليمان . من القرن الثالث ، وثانيهما نسخة حديثة نسبيا ، من القرن التاسع ، ترجع إلى الأصل الأول أصل الربيع بن سليمان ، وأصل آخر بما روى عن الشافعى ، بمصر أيضا ، هو أصل حرملة بن يحيى التجيبى ، من أصحاب الشافعى فى القرن الثالث .

أما أصل الرسالة التى وجهها الشافعى إلى بغداد ، وتلقاها عبد الرحمن بن مهدى فلم يصل إلينا ، ومن هنا يتمهد لنا طريق البحث عن سر الاختلاف فى الأسلوب ، الذى وجدنا عليه نص الرسالة الذى بين أيدينا .

فإذا كان الشافعى قد أعاد تصنيف الرسالة فى مصر . حيث تلقاها عنه صاحبه الربيع ابن سليمان ، وغيره ، فإن معنى ذلك أنه بعد ان كان أصدر رسالة إلى عبد الرحمن بن مهدى جاء مصر وقد تكون عنده مدارك وأنظار جديدة فيما يرجع إلى ما اشتملت الرسالة عليه ، فأقبل عليه أصحابه بمصر ، يحملون الرسالة ، السابق صدورها عن إمامهم ، مطلبا عليها ، يحيطونه بالبحوث والأسئلة والاستكشافات فجاء بذلك ما عبر عنه بالتصنيف الجديد ، المصرى ، للرسالة ، فهو إعادة لما كان كتب

الشافعي إلى عبد الرحمن بن مهدي : إما بإملائه من ذكره ، حكاية للمعاني لا للألفاظ ، وإما بإيراد نصه عن أصل مكتوب ، وذلك هو الجزء الأول من الرسالة التي عندنا الآن أعني الجزء المسترسل المتماسك ، الذي يسير فيه البيان متسلسلا متحما ، موحد الموضوع وإن تعددت العناصر ، ولئن كان فقيدنا العزيز ، الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر ، يرجح أن تقرير الرسالة في مصر ، إنما كان إملاء عن ذكر ، لا استحضارا للكتاب ، ويستدل على ذلك بما ورد في أثنائها ، عند سرد أحاديث وإسنادها من الاعتذار بأن بعض كتبه غائب عنه . فإننا لا نرى وجها للترجيح الذي أخذ به الشيخ شاكر ، رحمه الله ، ولا نرى في ما استدل به ما يثبت مدعاه في الترجيح ، لأن الكتب التي اعتذر الشافعي بغيابها عنه ، لا يتعين كونها كتاب الرسالة . بل يترجح أنها كتبه الأولى : التي هي دواوين الأحاديث التي سمعها بدليل أنه لا يورد ذلك الاعتذار إلا في مقام الرواية والإسناد .

وكيفما كان الأمر ، فإن أصحاب الشافعي الجدد الأخيرين ، وهم أصحابه بمصر ، وأولهم الربيع بن سليمان المرادي . قد تلقوا عن الشافعي ما كان كتب به الشافعي إلى عبد الرحمن بن مهدي من مكة ، قبل مقدمه مصر ، ولما أعاد الشافعي ذلك الكتاب ، استتبع إيراده إياه، استحضار ما سمع أو توقع أو جاش في نفسه ، من أوجه توقف موارده على ما تضمنته رسالته ، فطفق يبحث ذلك ويرده من قوله « فإن قال قائل » ، ويفتحه باب البحث في رسالته ، والتعليق عليها ، انفتح باب البحث لأصحابه ، بما أثار من مباحث جديدة ، ومواضيع لم تطرق في الرسالة من قبل هي المتعلقة بمحل الاختلاف بين الشافعي والمذاهب الأخرى ، مما جاء تحت عنوان « العلل في الأحاديث » والعناوين التي تلته مثل « خبر الواحد » و « والاستحسان » و « أقاويل الصحابة » ، وذلك من مجموع سابقه ولاحقه ، هو الذي تلقاه الربيع ابن سليمان ، وغيره من أصحاب الشافعي المصريين ، وكتبوه عنه ، شاملا لما كان كتبه ، في الرسالة الأولى إلى عبد الرحمن ابن مهدي ، وما تفرع عن ذلك وتبعه : من نظر وبحث ، ويزيد هذا التقدير رجحانا ، أن الأبواب التي ذكر الخطيب : في تاريخ بغداد ، اشتمال رسالة الشافعي إلى عبد الرحمن ابن مهدي عليها ، هي الأبواب التي اشتمل عليها المقدار الذي فرضنا ذلك فيه . من نص الرسالة الذي بين أيدينا : وهي أبواب معاني القرآن ، وقبول الأخبار فيه ، وحجة الإجماع ، وبيان الناسخ والمنسوخ .

فيكون الجزء الأول من الرسالة ، وهو الذى ليس فيه بحث ولا سؤال ، رسالة عبد الرحمن بن مهدى ، والذى تلاه هو ما علق بها فى مصر من بحث وتوسع ، وكذلك جاءت تجزئة الكتاب فى نسخته العتيقة ، التى هى أهم الأصلين المشار إليهما آنفا ، وهى نسخة الربيع بن سليمان . فإن من أثمن الذخائر ، فى تراثنا العربى الإسلامى ومن أهم الأصول الخطية وأنفسها بلا نزاع : ذلك المخطوط الذى كتب فى منتصف القرن الثالث ، من رسالة الإمام الشافعى ، بمصر برواية الربيع بن سليمان المرادى عن الشافعى ، وسواء أصح أن النسخة بخط الربيع نفسه كما يذهب إليه الشيخ أحمد شاكر أو لم يثبت ذلك ، فإن على النسخة سطرين بخط الربيع ، فى الأجازة بنسخها بتاريخ سنة ٢٦٥ وبذلك يظهر ما لهذه النسخة من القيمة العديمة النظير . بل لعلها تكون أقدم مخطوط لكتاب كامل باللغة العربية اليوم .

وقد خرجت هذه النسخة من مصر إلى الشام وأقامت فى الشام قرونا ثم رجعت إلى مصر فى القرن الماضى ، وهى الآن درة فى تاج دار الكتب المصرية . وتقع هذه النسخة فى ثلاثة أجزاء ينتهى ثالثها بإجازة الربيع بن سليمان بخطه ولذلك قلنا إن النسخة الأخرى وهى نسخة ابن جماعة ، لا تذكر إلى جنب هذه حتى تعادلها ، وإن كانت ذات قيمة بما عليها من إسماعات ومقابلات وبخطوط وإجازات الأعلام الذين تعاقبوا عليها . وقد طبعت الرسالة بمصر ثلاث مرات سابقة طبعات عادية ، ثم أعيد طبعها رابعة منذ خمسة وعشرين سنة بشرح وتحقيق العلامة الشيخ احمد شاكر طيب الله ذكراه . فجاءت بحسن تحقيقه وإتقان تعليقه ، واعتماده مباشرة على أصل الأصول ، وهى نسخة الربيع آية يصدق فيها قول المثل « أتى الوادى فطم على القرى » .

محمد الفاضل بن عاشور

قال تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » .

(النساء ١٧٤ ، ١٧٥)

الناحية العلمية
من إعجاز القرآن

للأستاذ أحمد محمد الغمراوى

إعجاز القرآن متعدد النواحى والجوانب . لكن أهم نواحيه فى عصرنا هذا لمن يريد أن يدعو به إلى دين الله هى الناحية العلمية .

أما الناحية البيانية فقد عملت عملها وحققت الغرض منها بإسلام العرب أهل الفصاحة والبيان الذين أنزل فيهم القرآن . فلما زالوا لم يقدر هذه الناحية قدرها إلا أهل البصر باللغة والبصيرة فى الدين ، حتى إذا قل هؤلاء بتطاول الزمن وضعف الدين فى نفوس أهله ابتلى المسلمون بمن اغتر بفصاحة ابتلاه الله بها فأنكر حتى الثابت الواضح من الإعجاز البيانى ، مثل ابراهيم النظام فى القديم الذى ابتدع القول بالصرفة ، وبعض أهل الأدب فى الحديث الذين توفاهم الله إلى حسابه ، فأصبحت الناحية البيانية من إعجاز القرآن محل نظر حتى بين المشتغلين بالأدب من شباب المسلمين ، فكيف بغيرهم من مثقفى الشباب الإسلامى الذين ابتلوا فى هذا العصر بدعوة الإلحاد تدعوهم إليه الشيوعية ، وبالشبهات ينقلها إليهم من ترجم عن خبثاء المستشرقين طعونهم فى الدين ، من أمثال (جلدتسيهر) و (مرجليوث) و (ماسينيون) ، بعد أن كانت عقاربهم محبوسة فى لغاتهم الأصلية لا تدب ولا تصل إلى جمهرة الشباب الذى ليس له من التربية الإسلامية والتبصير بالدين وقاية تحميه .

أما غير المسلمين من غير العرب فلن تغنى الناحية البيانية من إعجاز القرآن شيئاً فى إقناعهم بأنه كتاب الله الذى عليهم قبوله والإيمان به لينجوا من عذاب الله ، وليدخلوا فى رحمته . وناحية الإعجاز التشريعى أو النفسانى أو التاريخى لم تلق بعد من الاهتمام ما يجليها ويظهرها بحيث تصبح منها حجة لله على الناس . ولو جليت وظهرت فإن الإقناع بها أصعب وأعسر من الإقناع بالناحية العلمية من إعجاز القرآن إذا جليت وأظهرت فى عصر العلم هذا بما ينبغى لها من الحيطة والدقة فى البحث والاستدلال

والحيطة والدقة لازمان فى كل بحث ، لكنهما فى البحوث القرآنية ألزم وأوجب .

فالقرآن كلام الله سبحانه، خاطب الله فيه البشرية على لسان رسوله النبي الأمي. فضمير المتكلم فيه هو ضمير الجلالة، وضمير المخاطب فيه هو ضمير الرسالة. وتجد الضميرين كليهما ماثلين في الآيات الأولى من أول سورة فيه بعد الفاتحة:

« بسم الله الرحمن الرحيم. الۤمۤ. ذلك الكتاب لاريب فيه، هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون ».

آيات ست ذكر الله كتابه الكريم في ثالثتها بأوصاف ثلاثة أو بالأحرى بأوصاف أربعة بالسمو والرفعة في اسم الإشارة للبعيد، وبأنه الكتاب لاكتاب غيره، وبأنه لا يعلق به ريبة ولا موضع فيه للشك، وبأنه هدى لمن يتقي. ومن التقوى الإيمان بالغيب ومن الغيب ما أودع الله في كتابه في آياته الكونية من أسرار الخلق وحقائقه التي كان يجهلها الناس حين أنزل القرآن، والتي كشف العلم الحديث عن بعضها فكان كل كشف منها معجزة علمية ودليلا لاشك فيه على أن القرآن من عند الله فاطر الفطرة وخالق الكون.

وكما استوى القرآن والفطرة في أنهما من عند الله فهما أيضا سواء في وجوب الحيطة والدقة في تفهمهما، والبحث عن أسرارهما. وليس وراء دقة الطريقة العلمية وحيطة علمائها في دراسة الفطرة، وراء. ومن حيطتهم أنهم لا يقبلون فرضا ولا حدسا لا يمكن اختباره عن طريق التجربة العلمية واختبار الفروض والآراء عن هذا الطريق إن هو إلا احتكام إلى الفطرة وسنن الله فيها لينظر هل يتفق الفرض والرأي معها أو يخالفها.

والفرض ينبذ ويرفض من باب أولى إذا ظهر من الأول أنه يناقض حقيقة ثابتة أو قانونا عاما في علم من العلوم المتعددة في ميدان العلم الحديث. فمن الثابت مثلا استحالة توليد حركة دائمة بأي اختراع يخترعه الإنسان. فلو تقدم باحث ببحث يزعم أنه توصل إلى طريقة لتوليد تلك الحركة لحكم ببطلان البحث من عنوانه، ولرفض من غير نظر فيه، فهل هناك يا ترى طريق لمثل هذه الحيطة في دراسة القرآن، كتاب الله المنزل، لاكتناه أسراره والتماس غرائبه وعجائبه التي لا تنقضي كما جاء في الأثر الصحيح؟.

إن أول الطريق - ولعله آخره أيضا - العمل ببديهية استحالة التناقض بين بعض آي القرآن وبعض، أو بينها وبين اليقيني

الثابت من قضايا العلوم الكونية التى جرى العرف بتسميتها بالعلوم الطبيعية، هذه البديهية آتية من أن التناقض مستحيل على الله فاطر الكون ومنزل القرآن . فكل فهم فى القرآن أو تفسير يؤدى إلى تناقض بين آياته ، أو بينها وبين شيء من الحقائق الثابتة فى العلم، فهو فهم خاطىء ، وتفسير باطل . ومعرفة الباطل والخطأ نصف الطريق إلى معرفة الحق والصواب . وهى على أى حال تقينا شر قبول شيء من الباطل على أنه حق ، وهو شر مستطير . لأن القضية الخاطئة التى نتقبلها على أنها صواب تفسد علينا كل الحقائق المتصلة بموضوع القضية والتى لابد أن تتناقض أو تتخالف معها ، ثم هى تؤدى بنا حتما إلى نتائج فاسدة فى كل قياس تكون تلك القضية إحدى مقدمتيه . فشرها لايقف عند إفساد ما يتصل بموضوعها من الحقائق بل يستشرى فيفسد من الحقائق الأخرى ما يمكن أن يدخل معها فى قياس . ثم يتفاقم الشر بنفس الصورة عن طريق كل نتيجة نشأت عنها وقبلت طبعا على أنها صواب . من أجل ذلك حذرنا الله فى كتابه من اتباع الظن فإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ومن أن نقفو ما ليس لنا به علم ، وتفضل سبحانه فأرشدنا إلى الطريق الذى يمكن أن نعلم به ما نجهل ، طريق إحسان استعمال السمع والبصر والفؤاد « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . وسؤاله سبحانه إيانا عن السمع والبصر والفؤاد يوجب علينا استعمالها جميعا ، وإحسان استعمالها ، وتجنب إهمال ما يؤدى إليه ذلك الإحسان من نتائج . وهو نفس الطريق الذى هدى الله إليه أهل العلم الحديث فى ميادينه المختلفة ، فأظهر على أيديهم من أسرار الفطرة ما أظهر، ليبتلى الإنسانية بها كيف تستعملها وليعين أهل القرآن على إظهار جانب عظيم من جوانب إعجاز كتابه ، بإحسان المطابقة بين ما أنزل فيه من آيات كونية ، وبين ما يتصل بكل منها ، أو بمجموعات منها من تلك الأسرار . وليس من تلك الأسرار ما فى العلم من نظريات لا تزال محل النظر والاختبار ، فهذه لا ينبغى المطابقة بينها وبين ما يتصل بها من آيات القرآن ، اللهم إلا الحكم عليها مقدما : أصحيحة هى أم باطلة ، حسب ما يظهر البحث من موافقتها القرآن أو مخالفتها إياه .

لكن البحث القرآنى له أخطاره التى ينبغى توقيها . وأول تلك الأخطار الخطأ فيه ولو عن حسن نية واجتهاد . إن حسن النية يشفع للمجتهد عند الله فلا يؤاخذه بخطئه فى الآخرة بل يثيبه على نيته . ولو كان المجتهد يؤاخذ فى الآخرة بخطئه فى اجتهاده لوقف

الاجتهاد خوفا من عذاب الله ، ولظلت عجائب القرآن فى التشريع وغير التشريع مدفونة ، لا يعتبر بها أحد ولا ينتفع بها الناس لكن الخطأ معناه مخالفة حكم من أحكام الله أو سنة من سننه ، ولذلك عاقبته السيئة فى الدنيا قبل الآخرة . فالحياة الدنيا مبنية على سنن لا تتخلف ، وأحكام الله فى الدين الذى أنزل ، على نبيه الذى أرسل ، هى تطبيق محكم لتلك السنن التى فطر الله عليها الإنسان ، وفطر عليها الكون . فمخالفتها ولو عن حسن نية لا يمكن أن تؤدى إلا إلى الضرر ، سواء فى ذلك السنن النفسية فى الفرد والمجتمع ، أو السنن الكونية فيما حول الإنسان . وحادث تأبير النخل وحديث أنتم أعلم بأمور دنياكم ليس إخراجا لأمور الدنيا من الدين ولكنه تشريع من الله وتبيين أن على الناس فى أمور الدنيا ، من زرع وغير زرع ، العمل بسنن الله فى تلك الأمور كما تبينها وتكشف عنها التجربة . ولو شاء الله لصدق ظن نبيه ولجعل النخل يثمر من غير تلقيح . فهذا أوضح مثل للإخلاص فى الاجتهاد لا يدفع عاقبة الخطأ فيه .

هاتان عاقبتان للخطأ إذن توجبان بذل الوسع لتوقيه خصوصا فى البحث القرآنى لما للقرآن من قداسة : سوء العاقبة عمليا ، وفساد التفكير المترتب على اعتبار الخطأ صوابا كما سبق التنبيه إليه . ولابد من التماس قواعد تعين ما أمكن على الإصابة فى البحوث القرآنية ، وتوقى الخطأ فيما نحن بصدده من تحقيق الناحية العلمية من إعجاز القرآن .

وأول تلك القواعد ـ بعد بديهية بطلان كل فهم وتفسير يؤدى إلى التناقض بين بعض الآى وبعض أو بينه وبين الثابت من الحق ـ هى قاعدة تحرى المنطق الصارم فى الفهم والاستنباط ، بالضبط كما يفعل العالم الطبيعى فى ميدان بحثه . لكن مهمة الباحث القرآنى أشق من مهمة أخيه الباحث العلمى الذى قلما يتأثر بالعاطفة فى بحثه ، وإن تأثر فسترغمه التجارب العملية على النزول على حكمها مهما خالف ميله وهواه لكن احتمال التأثر بالعاطفة عند المطابقة بين الآيات الكونية فى القرآن والحقائق التى كشف عنها العلم بعد نزول القرآن أمره عظيم قد يحمل الباحث على التراخى والتساهل فى النظر والاستدلال . رغبة فى إثبات التطابق التام بين العلم الحديث والقرآن . والعاصم من هذا بعد الاستعانة بالله هو التزام المنطق الصارم فى الفهم والاستنباط ، أى اتباع ما أمر الله به فى كتابه من مخالفة الهوى ، وتطلب البرهان .

والقرآن الكريم مادته لغوية بيانية لها خصائصها ومميزاتها ولابد فى تفهم آياته وتلمس أسراره من مراعاة تلك الخصائص

والمميزات التى جلاها علماء اللغة والبيان فيما قاموا به من دراسات لتبين وجوه إعجازه البيانى من ناحية، ولتفقه أحكامه التشريعية من ناحية أخرى. ومن أجل تلك الدراسات قعدت قواعد اللغة العربية من نحوية وصرفية وبيانية، وجمعت مادتها اللغوية، وكل ذلك على أوسع نطاق وأدقه. فلابد من مراعاة ذلك كله عند دراسة إعجاز القرآن من الناحية العلمية.

لابد فى الألفاظ القرآنية من مراعاة معناها حين أنزل القرآن، لا معناها الذى قد تكون اكتسبته بتطور اللغة فى الاستعمال.

ولابد فى الجمل القرآنية من مراعاة القواعد التى توصل إليها أئمة النحو عن طريق الاستقراء.

ولابد فى التعابير القرآنية من مراعاة القواعد والأصول التى أصلها وقعدها أئمة البلاغة والبيان عن طريق الاستقراء أيضا. خصوصاً تلك القاعدة الأساسية التى تقرر أن الألفاظ والتعابير لا تنقل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت قرائن كافية فى نفس الكلام تدل على أن المعنى المجازى هو المراد.

هذا هو التمهيد. والله المستعان على بيان ما وراءه من الإعجاز العلمى فى القرآن.

محمد أحمد الغمراوى

جاء النبيون بالآيات فانصرفت
وجئتنا بحكيم غير منصرم
آيات كلما طال المدى جدد
يزينهن جلال العتق والقدم

« شوقى »

نحو حضارة مؤمنة راشدة

مع الفكر المؤمن

للأستاذ محمد الغزالى

فى الحضارة الحديثة جوانب لا أجد بدأ من احترامها وتزكيتها ، بل أجدنى مسوقا بدوافع من دينى إلى الإعجاب بها ، والتملى منها .

وأبرز هذه الجوانب إدمان النظر فى الكون والبحث عن خواص الأشياء ، والتعرف على القوانين الدقيقة التى تسير عليها الحياة ، وانتهاج خطة بعيدة عن الحدس والتخمين فى تقرير شتى الحقائق .

إن أى حضارة تقترب من الفطرة فى بعض نواحيها ، أشعر باقترابها من طبيعة الإسلام فى هذا البعض ... ولو كانت غريبة عنى .

وإن أى حضارة تجنح إلى التكلف أو التخرص أشعر بانحرافها عن طبيعة دينى ولو كانت قريبة منى .

وفى تراثنا الثقافى كتابات عن عالم الغيب لم تعتمد على الوحى .

وكتابات عن عالم الشهادة لم تعتمد على التجربة والاستقراء .

كلتا الكتابتين واهية العلاقة بخطة القرآن فى تكوين المعرفة الصحيحة .

فالمعرفة المادية ... لا سبيل لها إلا النظر الصائب فى الكون وأسراره وقواه .

وصلة الإنسان بربه أو بأخيه الإنسان لا سبيل لها إلا توقيف الشارع الحكيم .

ومعنى هذا أن علوم الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والطب والهندسة وما إلى ذلك تقوم على استقصاء الحقائق من الواقع وحده ، ولا مكان لفروض وهمية أو أوصاف شاعرية ، أو حدود تقليدية ، أو سلطات استبدادية .

المجال للعقل الحر الدءوب ، يداوم النظر ويتابع الجهد حتى يصل إلى ما يبغى دون ما قيد . وإنى لأقرر فى غير تحرج : أنى كنت أطالع بعض البحوث العلمية التى هديت إليها الحضارة الحديثة ، فأشعر كأن مؤلفى هذه البحوث ، كانوا يستجيبون - سواء شعروا أو لم يشعروا - لقوله تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » .

إنه نداء الفطرة الإنسانية على كل حال .

وقد صم عن هذا النداء من فتحوا عيونهم

دون تدبر ، أو من استعملوا ذكاءهم فى بحوث ما وراء المادة ، فعادوا منها بقبض الريح ، أو من كتبوا فى المادة نفسها فشطحوا مع الخرافات ونظروا فى كل شىء إلا فى الكون وآفاقه والعناصر وخصائصها .

إن القرآن الكريم جعل مجالى الطبيعة مدارس الإيمان ، وكلما استكثر المرء من حصيلة المعرفة الكونية ربا يقينه ، وزادت بالله معرفته .

وإنك لتعرف الشخص الذكى بآثاره العملية ، ولا تفكر فى معرفة ذكائه بالكشف على تلافيف مخه .

فإذا كان التعرف على قدر إنسان تبصره لا يتم إلا بهذا الأسلوب . فكيف بالتعرف على من (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ؟) .

إن ذلك لا يتم إلا بالتأمل فى آثاره ، ومطالعة صفاته فى أرجاء خلقه الوسيع .

وأمل درسا فى وظائف الأعضاء ، أو فى دوران الأفلاك ، يكون أنجح فى غرس الإيمان وأدنى إلى التعريف بعظمة الله من بعض القراءات النظرية ، أو المقدمات الجدلية .

فى الأيام الماضية مرت بى لحظتان مضيئتان :

أولاهما :

فى إحدى الحدائق وقد علقت عينى بزهرة لما يكمل تفتحها .

كانت دقيقة من أسفلها ، مسترخة من أعلاها ، والغلاف الأخضر منحسر عن أغلبها .

إنها توشك - لو بقيت على ساقها يومين - أن تبرز بأوراقها وألوانها جميعا .

لكنى تعجلت فض الملفوف من كمها ، لأقف مشدوها أمام ما بدا لى منها .

كانت الأصباغ زاهية كأنما وضع المصور ريشته الآن من رسمها ، وكانت هذه الأصباغ موزعة فى نقوش تبرق جدتها ، ويستغرب المرء من أن الألوان المتناقضة المتجاورة لم يسح شىء منها على الآخر .

ونظرت إلى الأرض السبخة الهامدة ، وإلى الفلاح الساذج فوقها ، وقلت : من أبدع هذه الزخارف الرائقة واستخرجها من بين هذه الأكوام ؟ . من ؟ .

وانساب إلى قلبى شعور بالجمال الإلهى المتأنق فى ألوف مؤلفة من الأزهار والأثمار تزحم القارات الخمس . والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد » .

أما اللحظة الأخرى :

فعلى شاطىء البحر الأبيض فى ليلة من ليالى العمل .

أرسلت طرفى إلى البحر الهادر ، وكنت أسمع ثوران الموج ولا أرى مده ، والماء فى لون الحبر ، والأفق معتكر فى أبعاد غير متناهية .

ولم يجر فى خاطرى قول العقاد الشاعر :

وهذا الظلام خير من النور

إذا كنت لا ترى وجه حر

ذلك لأنى لم أكن مهتما بأحوال البشر وقتئذ ، فإن طنين الموج المستمر بقوى لا تهن مع مضى الوقت جعلنى أتساءل : أما لهذا الحراك من توقف ؟ .

وكان الجواب مزيداً من الهدير القادم من بعيد كلما تلاشى على رمال الشط حل محله آخر ، وهكذا دواليك .

إن البحر أضعاف اليابس على ظهر الأرض ، وهذا الخلق العجيب عالم وحده .

وغلبنى الكرى قليلا ثم عاودتنى اليقظة ، أو الأرق والموج الموار لا يزال يزأر .

إن الله الذى لا تأخذه سنة ولا نوم وكل إلى شعاع من قدرته أن يهز هذا الركام الهائل من المياه هزاً يشمل المشارق والمغارب . فالرقعة المنداحة التى نسميها نحن بحاراً ومحيطات .. وسواء غفونا أم صحونا فعمل القدرة ماض فى طريقه ، ينتبه اليه بين الحين والحين أولو الألباب ليسبحوا بحمد الله الكبير .

* * *

قد يقال : إن حضارة الغرب التفتت بالفعل إلى الكون الكبير ، واستكشفت من أسراره ما فات القرون الأولى .

ولكن اهتمامها بالكون كان لارتفاقها منه وانتفاعها به ، لتتزود منه باليقين الواجب والإيمان المبرور . ! !

وفى هذا الكلام قدر من الصحة غير منكور فإن عبادة الحياة هى الدين الشائع فى الحضارة الحديثة ، تستوى فى ذلك أحزاب الميسرة المجاهرة بإلحادها ، وأحزاب الميمنة المخافتة به .

والغرض من البحث الكونى الذى طلبه القرآن الانتقال من الكون إلى المكون ومن المخلوق إلى الخالق .

وشتان بين منهجين : أحدهما يتعرف إلى الله فى أرجاء العالم الذى أبدعه ، والآخر يتعرف على أسرار العالم ، ويحتبس داخلها فلا يعرف ربه ..

والحضارة الحديثة يمكن أن تدان من هذا الجانب ، بيد أن الأمر يحتاج إلى قليل من التفصيل ومن يدرى ؟ لعل أهل الإيمان يدانون قبل غيرهم عندما تحدد التبعات وتنصب موازين العدالة . ! !

عندئذ يعرف أن السبب الأكبر فى شيوع الإلحاد، وهجر الدين، هو تصرف جمهور المتدينين وتفكيرهم.

ما الذى يجعل الحضارة الحديثة تغالى بالإيمان وتتحمس للرحمن ؟

إذا نظرنا المسيحية التى تسود الغرب وجدناها قبلت من الإضافات والبدع ما يستحيل على العقل البشرى قبوله.

ومن حق هذا العقل أن يرفض النقائض ويعتزل دعاتها ويحيا بعيداً عنها، والحضارة الحديثة فى خصومتها للمسيحية معذورة.

وإذا نظرنا للإسلام وجدنا أهله أبعد الناس عنه، ومن حق الأحياء أن يطرحوا ديناً زهد فيه أهله أنفسهم.

إن المسلمين مع تقصيرهم فى جنب الإسلام علماً وعملا يلاحظ عليهم من قديم الزمان تناقض غريب فهم مؤمنون - دون خلاف - بعموم الرسالة الإسلامية، وأن محمداً رحمة العالمين، وأن دعوته تحيط بالقارات الخمس.

ومع ذلك فإن سياستهم العملية جعلت الإسلام رسالة عربية وحسب.

فهم لم يحسنوا تمكين الروابط الثقافية بين الأجناس الداخلة فى الإسلام، ولا بين الأجناس التى لم تدخل فيه.

ومن الغفلة تعريب البشر كلهم ليسلموا إسلاماً كاملا.

ومن الغفلة أيضاً ترك الأعاجم يتلقون الإسلام عن طريق تراجم لم يشرف عليها الدعاة العرب.

والمعروف أن العرب لا يزيدون عن خمس المسلمين، وأن المسلمين جميعاً لا يبلغون خمس سكان الأرض.

فماذا صنع الجهاز الإسلامى الذى يعرف عموم الرسالة الإسلامية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟.

ماذا صنع ليربط المسلمين بدينهم وليعطى عن المسلمين فكرة صحيحة عن الإسلام ؟

* * *

إننا لا نقول هذا الكلام اعتذاراً عن شرور الحضارة الحديثة، ولكننا نقوله اعترافاً بتصورنا، ووخزاً للضمائر التى راحت فى نوم طويل.

على أن حقائق الإيمان ألصق بالفطرة، وأقرب إلى التناول من أن يتعذر عنها بتقصير الدعاة، خصوصاً بالنسبة إلى مدنية بلغت مكانة مرموقة من التقدم كمدنية العصر الحديث.

والواقع أن شيوع الإلحاد، وانتشار التحلل يرجعان إلى أسباب أخرى غير تفريط أصحاب الدين.

من بين هذه الأسباب. الغرور بالقليل من المعرفة، والتفرج به إلى الزيغ.

وجمهرة المنكرين الذين من هذا القبيل ، فهم يعرفون أبواباً معينة من العلوم المادية أو النظرية يبنون عليها كفرهم.

ويجهلون أبواباً أخرى أكثر وأخطر لو أدركوها لردتهم إلى الله تائبين .

ومعظم الذين قابلناهم أو قرأنا لهم من أولئك الشاكين نعتبرهم أنصاف متعلمين مهما بلغت دعاواهم !.

ومن بين هذه الأسباب غلبة الشهوات العاجلة من نفسية ومدنية .

فإن سيطرة الشهوات على أصحابها تجعلهم يحكمون بالهوى لا بالعقل ، وبالجور لا بالعدل ،

وقديما كفر بنو إسرائيل بمحمد تمشيا مع هذه النزعة ، لا لغموض الدليل أو خفاء الدعوى .

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » .

وقد أشبه اليهود بهذا عدوهم فرعون الذى كفر بموسى هو وملؤه « وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر . كيف كان عاقبة المفسدين » .

والبشر هم البشر فى كل زمان ومكان ، لا يزال فيهم من يحارب الحق وهو يعرفه لشهوات تحكمت فيه واستبدت به .

لقد شق الفكر الإسلامى الأول طريقه إلى الحياة والسيادة بقوة رائعة أمكنته أن يتشعب مع النشاط الإنسانى دون كلال .

ونستطيع القول بأنه ترك فى الحضارة العالمية آثاراً خالدة .

بل إننا - من غير تعصب - نقرر : أن الحرية العقلية ولدت أولا فى القاهرة ودمشق والقدس وبغداد ، قبل أن تولد فى لندن وباريس وبرلين وروما .

وأن الصليبيين الأقدمين عادوا إلى بلادهم بهذه الحرية العقلية المجلوبة من الشرق ، ليغسلوا بها أوضارهم ، ويجددوا حياتهم ، ويتخلصوا من قيود هائلة ، لو بقوا بها ما نالوا قط قسطا من تقدم أو رخاء .

إن التفكير النير الخير تألق فى بلادنا دهرا طويلا . واستطاع فى ميدان التشريع والتربية وفى آفاق الحياة العامة أن يصنع العجائب .

ومن المؤسف أن هذا التفكير الخصب قد احتبس تياره مع إغلاق باب الاجتهاد وفى الفقه ومع الانحراف الذى وفدت به علينا فلسفة اليونان وغيرها .

لكن هذه العوائق العارضة لا تبخسه حقه الأصيل ولا قدرته على صنع مستقبل زاهر كيف وهو مرتكز على الفطرة الراشدة والعقل الحر . . ؟

إن عظمة التفكير الإسلامى تقوم على أنه يقدم للعالم إيماناً يعمر الدنيا ، ويمهد للأخرى ويعد الوجود الأول والأخير وحدة كاملة .

ولا نريد فى هذه العجالة ... التحدث فى فكر العقيدة والشريعة الذى ألفه الناس بل نريد الإشارة السريعة إلى فكر الحياة نفسها ، الذى يظن البعض أن المسلمين تخلفوا فيه ، لأنه ينظر إلى أحوال المسلمين اليوم فيظنهم الصورة المثلى لتعاليم الإسلام .

يقول الأستاذ المستشار / عبد الحليم الجندى ، فى كتابه (توحيد الأمة العربية) تحت عنوان « ألف عام من العلوم التطبيقية والفنية . . . والرفاهية » واصفاً المجتمع الإسلامى القديم .

فى هذا المجتمع ازدهرت حضارة علمية أساسها العلوم التطبيقية البحتة والهندسة المعمارية والصناعات والعلوم الاجتماعية ، تعتبر الأولى من نوعها فى التاريخ ، صبغت المدنية العربية بصبغة علمية وتجريبية تقوم على العلوم والفلك والطب والهندسة البحرية وما إليها ...

وفى حين كانت حضارة اليونان حضارة فلسفية ، وكانت حضارة الرومان حضارة مادية تقوم على القوة العسكرية أو على النظم الشكلية كانت الحضارة العربية أول حضارة تقوم على العلوم والحرية — وهى التى أورثت الحضارة المعاصرة الكشوف العلمية والروح العلمى الذى استمرت به فى كشف أسرار الطبيعة . ولم تكد تظهر رسالة الإسلام ، حتى تفردت العلوم الإسلامية بالوجود الإنسانى نحو من ألف عام [؟] تهذبه وتهديه ...

ويقول : « وانطلق العرب بأفكارهم فى مهاب الرياح الأربع حتى أصبحوا كما يقول « راندال » يمثلون الطراز الفكرى العلمى فى الحياة العملية الصناعية ، التى تضنى مثلها الآن على ألمانيا الحديثة . وعلى عكس الإغريق ، لم ينصرفوا عن الاختبار العملى والسير عليه فى الطب وعلم الآليات » .

وفى التحقيقات الفنية يلوح أنهم أخضعوا العلم لخدمة الحياة الإنسانية مباشرة .

لقد ورثت عنها أوربا روح (بيكون) التى ترمى إلى مد سلطة الإنسان على الطبيعة وتداولت العلوم العربية جامعات مونبيليه وباريس وأكسفورد وفينسيا وبادوا ، وفيرارا ، وبارى ، وأنشأ الامبراطور فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر جامعة فى نابولى لنقل العلوم العربية واليوم تشهد باريس صورتى الرازى وابن سينا على حوائط كلية الطب وأثر المساهمة التى شارك بها المهندسون العرب فى بناء كنيسة نوتردام

(فى باريس) كما تشهد الكتابة الكوفية والعربية فى النقوش الانجليزية وأبواب الزخرفة والمعمار والنقوش العربية فى مناطق كثيرة فى أوربا .

الصيدلة علم عربى ، والكيمياء علم عربى ، والفلك والطب والميكانيكا والرياضيات والطبيعة والجغرافيا ، ما تزال تحمل الأسماء العربية الفصحى ، هكذا ساد الروح العلمى الأمة العربية وقال « ديورانت » :

(ربما ملك الصاحب بن عباد من الكتب فى القرن العاشر ما يقدر حينئذ بما كان فى مكتبات أوربا مجتمعة . وكانت تجد فى ألف مسجد منتشرة من قرطبة إلى سمرقند ، علماء لا يحصيهم العدد ، كانت تدوى أركانها بفصاحتهم) .

ويقول المؤرخ الفرنسى (روبير بريفو) :

(كانت أوربا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تتجه إلى العرب باحثة عما استجد عندهم من صناعات وعلوم وفنون خاصة بالملاحة ، منقبة عن كشوفهم فى علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، وكانت تبحث عندهم عن آثار أرسطو وابن سينا وابن رشد ، وكان علماؤها من أمثال ...) يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم . ووجد « ريجيو مونتانوس » عندهم المعارف التى مكنت هنرى الملاح وفاسكودى جاما (مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح) وكرستوف كولومبس (مكتشف أمريكا) من ارتياد المحيطات والوصول إلى أطراف العالم وعثر « دى باث » فى قرطبة على النسخة الوحيدة فى العالم من مخطوط (أوسليد) الذى ظل يلقن للطلبة فى مدارس أوروبا حتى سنة ١٥٣٣ ، وطاف كل من أفلاطون لو يزون وفيبار ناس أرجاء أسبانيا ليتزود بالعلوم الرياضية لا سيما الجبر والتقويم واللوغاريتم .

بل إن الكنيسة نفسها التجأت إلى العرب لتجد عندهم ما يعينها على إقامة صرح الفكر المدرسى وبحث كل من « البير الأكبر » و « توماس الأكوينى » عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها فى بالنسبة عند الفارابى وفى الوقت الذى أنشد فيه الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة أسبانيا العربية صرح « روجير بيكون » فى اكسفورد (انجلترا) بأن وجود الفكر الأوربى والعلم الأوربى كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية ـ لقد دعيت أوروبا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت فى ظلمات الجهل طوال خمسة قرون . وهى مدينة للعرب بكل تقدمها .

ترى ... أيعرف المسلمون قدرهم ؟ ... ويستأنفون أداء رسالتهم ؟ .

إن ذلك ما نرجوه ... وما يفتقر إليه العالم الآن ... ؟

محمد الغزالى

الليلة المباركة

للأستاذ أحمد حنفي نصار

إن من خير ما تفضل الله به على عباده المتقين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم « الليلة المباركة » كما سماها رب العالمين فى القرآن الكريم - والبركة النماء والزيادة - وذلك إشارة إلى ما يضاعف للمؤمنين فيها من الثواب وما يقدر لهم من خير كثير ولا أدل على ذلك من إنزال القرآن فيها وهو المنار الأعظم القائم والهدى الأقوم الدائم سعد به من أقبل من البشر عليه منذ أشرق نوره وفاح عبيره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إذ لا كتاب بعده ولا هدى إلا هداه.

وذكر الله هذه الليلة المباركة فى سورة خاصة من القرآن هى « سورة القدر » فقال تعالى: « إنا أنزلناه فى ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر. سلام هى حتى مطلع الفجر » كما ذكرها فى أول سورة الدخان ».

وقد تشعب القول فى علة تسميتها ليلة القدر فقيل إنها سميت بذلك من القدر بمعنى الضيق لأن الأرض تضيق بكثرة الملائكة الذين ينزلون فيها أو لأن الله يقدر فيها ما يشاء من أمره فى العباد إلى مثلها من السنة القابلة من الموت والحياة والمطر والرزق وغير ذلك. أو أن اسمها من القدر بمعنى الشرف لما لها من عظيم المنزلة أو لأن للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا. أو لأن من لم يكن له قدر وخطر يصير فى هذه الليلة ذا قدر إذا ما أحياها بالعبادة لما ينزل الله فيها من الخير وما يهب من بركة وما يتفضل به من مغفرة أو لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخطر أو لأن الله أنزل فيها كتابا ذا قدر على رسول ذى قدر على أمة ذات قدر.

ويرجح هذا القول لقول الله تعالى عند ذكرها فى أول سورة الدخان « حم والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ».

وكما تشعبت الأقوال فى علة تسميتها كذلك تعددت فى تحديدها فقيل إنها فى الليالى الأوتار من العشر الأواخر من شهر رمضان إما ابتداء من أولها وإما ابتداء من آخر الشهر فتكون الأولى ليلة الثلاثين ثم ليلة ثمان وعشرين لأنها الثالثة وهكذا إلى ليلة اثنين وعشرين لأنها التاسعة ، وقيل أنها تدور فى العشر الأواخر ولا تثبت فى ليلة واحدة منه أى أنها تتغير من ليلة إلى أخرى فى كل عام ، وقيل إنها مخفية فى رمضان كله أو فى العام كله ، وقيل إنها ليلة النصف من شعبان وهذا بعيد لأن الله تعالى يقول : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ويقول « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » فدل ذلك على أن ليلة القدر محصورة فى رمضان قطعا .

وذهب قوم إلى أنها رفعت وهذا قول لا يصح فإن الرفع كان خاصا بتعيين موعدها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر وأنه تلاحى فلان وفلان فرفعت عسى أن يكون خيرا لكم » .

وقيل إنها ليلة سبعة عشر من رمضان لأن وقعة بدر كانت صبيحة هذه الليلة وكأن أصحاب هذا القول استندوا إلى آية « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » وفهموا فيها أن الإنزال للقرآن وليس للملائكة .

هذا ولم يفت المتصوفة أن يدلوا بدلوهم فى تحديد ليلة القدر ونكتفى هنا بما ورد عن الشيخ أبى الحسن الحرالى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ فقد أرجع تحديد ليلة القدر إلى ابتداء شهر رمضان وقال إنها ليلة التاسع والعشرين إن بدأ رمضان بيوم الأحد وليلة الحادى والعشرين إن بدأ يوم الاثنين وليلة الرابع والعشرين إن بدأ يوم الثلاثاء والسابع والعشرين إن بدأ يوم الأربعاء وليلة الخامس والعشرين إن بدأ يوم الخميس وليلة التاسع عشر إن بدأ يوم الجمعة وليلة الثالث والعشرين إن بدأ يوم السبت . أى أنها تدور فى الليالى الأوتار من ليلة التاسع عشر لآخر الشهر مضافا إلى ذلك ليلة الرابع والعشرين ليلة ابتداء نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يقل فى غير هذه الليلة على أى أساس استند فى هذا التحديد . وقد قيل إنه كان صاحب أحوال غريبة وحكايات عجيبة وله مؤلفات فى علوم الأسرار وهو شيخ أبى العباس البونى المعروف بمؤلفاته فى هذه العلوم فلعل سنده فى هذا التحديد خاص به كما هو الشأن فى حال رجال التصوف أصحاب الأحوال والشطحات .

والمستصفى بعد هذا الاستعراض للأقوال الكثيرة الواردة فى ليلة القدر أنها باقية لم ترفع وأنها تدور مع الليالى الخمس الأوتار

من العشر الأواخر من شهر رمضان من ليلة الواحد والعشرين إلى التاسع والعشرين .

وبعد هذا فالأحوط للمؤمن الحريص على ثوابها الضخم وبركاتها العظيمة أن يقوم ليالى العشر كلها ويضم اليها ليلة السابع عشر والتاسع عشر وبذلك يضمن أن يصادفها فيرجع بمالا يخطر من الخير على بال .

وإن ميزة هذه الليلة الكبرى التى جعلتها بحق أعظم الليالى وأفضل الأوقات هو اختصاصها بإنزال القرآن فيها وقد قال بعض العلماء ان فيها ابتداء إنزاله على الرسول صلى الله عليه وسلم: وهذا بعيد لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «أنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» .

فابتداء نزول الوحى بالقرآن على الرسول متعين بهذا الحديث وليلة القدر لم يعينها الرسول للمؤمنين كما هو معلوم ، وقال البعض الآخر إن القرآن أنزل فيها جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ثم كان ينزل به جبريل عليه السلام بعد ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم نجوما نجوما وهذا أقرب إلى الحق فالله تعالى أسند إنزاله إلى نفسه فى الموضعين اللذين ذكرت فيهما ليلة القدر فى القرآن الكريم .

ويقول الله تعالى : « وما أدراك ما ليلة القدر » وهذا تضخيم لقدرها وتعظيم لشأنها ، وقد قيل كل ماجاء فى القرآن مصدرا بما أدراك فقد علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وماجاء مصدرا بما يدريك فانه لا يعلمه وعلى هذا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم على علم بليلة القدر على التحديد .

ثم عرفها الله فقال : « ليلة القدر خير من ألف شهر » والمعنى الواضح المتبادر لهذه الآية أن من قامها كتب الله له مثل أجر العبادة فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وقيل فى سبب النزول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا ممن تقدم عبد الله ألف شهر فعجب المسلمون ورأوا أن أعمارهم تنقص عن ذلك القدر فأعطاهم الله ليلة القدر وجعل ثواب العبادة فيها خيرا من عبادة ألف شهر .

وقال الإمام مالك رضى الله عنه سمعت من أثق به يقول: « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أعمار الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر فأعطاه الله تعالى ليلة القدر وجعلها خيرا من ألف شهر »

وهذا وما قبله فى معنى واحد وهو أصح ما ذكر فى هذا الصدد .

وروى (أن الحسن بن على رضى الله عنهما

هو تب حين بايع معاوية رضى الله عنه بالخلافة فقال : « إن رسول الله عليه وسلم رأى فى المنام بنى أمية ينزون (أى يثبون) على منبره نزو القردة وأعلمه الله أنهم يملكون أمر الناس ألف شهر فاهتم لذلك فأعطاه الله ليلة القدر وهى خير من ملك بنى أمية » . ثم كشف الغيب أنه كان من بيعة الحسن لمعاوية إلى مقتل مروان بن الجعدى آخر ملوك بنى أمية بالمشرق ألف شهر) وهذا كلام غريب عليه طابع الوضع لركاكته وفساد معناه ولا يعقل أن يكون هذا من منطق النبوة وآل البيت رضى الله عنهم لا يطلبون ملكا ولا يرغبون فى عوض عنه وإن كانوا قد قاتلوا على الخلافة فلأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك لصالح الإسلام والمسلمين لا لحساب بجدهم لذاتى ورغباتهم النفسية . هذا وإن ليلة القدر ليست خاصة لآل البيت وحدهم حتى تكون لهم مقابل ملك بنى أمية وإنما هى للمسلمين كافة كما أنه ليس صحيحا عند الحساب أن مدة ملك بنى أمية ألف شهر.

ثم قال تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » والروح جبريل عليه السلام وقيل الروح صنف من الملائكة جعلوا حفظة على سائرهم وإن الملائكة لا يرونهم كما لا نرى نحن الملائكة وهم أشرف الملائكة يقومون صفا والملائكة كلهم صفا وقيل الروح الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام ومعه الملائكة فى هذه الليلة على أهل الأرض بدليل قول الله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » أى بالرحمة .

وأيا ما كان القول المختار من هذه الأقوال فإنه يدل على عظم قدر ليلة القدر وكثرة ما يجرى على المؤمنين فيها من رحمة وتكريم وإن المستفاد المقطوع به أن أهل السماء تتنزل بإذن الله على المؤمنين من أهل الأرض يسلمون عليهم ويؤمنون على دعائهم فتشملهم بركات الله فى تلك الليلة المشهودة المباركة التى هى سلام وخير كلها حتى مطلع الفجر .

أما علاماتها فقد قال الحسن بن على قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة القدر : « إن من أماراتها أنها ليلة سمحة بلجة لا حارة ولا باردة تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع » كما أن من علاماتها فيما ذكر من المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم غير هذا أن الكلاب لا تنبح فيها ونذكر فى الختام ماروى من أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول قال : قولى اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » والعفو حط الذنوب ومن تركت له ذنوبه فقد فاز فوزاً عظيما . ؟

أحمد حنفى نصار الفوصى

إنسانية الحضارة العربية وإبداعها

للأستاذ يوسف حسن نوفل

تعددت الجوانب المشرقة فى تاريخ المسلمين بالأندلس ، واستحقت بذلك أن تعد أروع ما يحفل به تاريخ الإنسانية بأثرها ، لا تاريخ الإسلام لحسب .

فقد اجتاز الإسلام ساحة واسعة المدى ، خصبة التربة من ساحات التاريخ ، وطبعها بطابع متألق وهاج ملأ جوانب الدنيا .

وحق لنا أن نقول إن التاريخ قد رسا على ضفاف الأندلس ، ليبصر مجداً ، ويبارك حضارة أسس دعائمها المسلمون إيماناً منهم بامتداد روابط الحياة ، وبأن من أقدس واجبات الأجيال أن يورث كل منها من يليه أعمالا نابضة بالحق والخير والجمال ... ولهذا فقـــد غدت الحضارة العربية يومئذ مدرسة الدنيا بأثرها وملتقى حضارات جمة : شرقية وغربية ، ومزدحم ألوان شتى من الفنون ، فحققت بذلك شيئاً مما طمحت إليه الأمم والشعوب فى ميدان التقدم ، وبلغت الحد الذى تفوقت فيه على نفسها ... وكل شىء صدر عنها كان ممثلا لخصيصة من الخصائص الإنسانية ، ومنمياً لصيد الحضارة البشرية ، فغدت أغنية عذبة فى أفواه المنصف من المؤرخين ، وغصة محرقة فى أفواه المتعصبين الذين حرصوا على إغفال دور حضارة الإسلام فى عصر الإحياء الأوربى وإنارة العصور الوسطى ، وإذا ما بدت الحقيقة الناصعة تجلو الدور الإنسانى الخالد ، الذى حملته حضارة الإســـلام فى الأندلس على كاهلها ثمانية قرون ، حطمت فيها الجهل والجمود ، وبددت سجف الظلمة وعروش الاستبداد ... إذا ما بدا لهم ذلك ردوا المؤثرات إلى الحضارة الرومانية .

والأقبح من ذلك أن يعتبروا العرب ضمن الأجناس المتأخرة البربرية التى شوهت مدنية الرومان ! !

وكان الزمن كفيلا أن يقنع هؤلاء أن الحضارة التى بددت ظلمات العصور الوسطى بثتها أرواح وعقول ارتفعت فوق العصور والمجتمعات ، تقديراً منها الحقيقة التى تقرر أن ثمرات التفكير البشرى ملك للإنسانية ، وتكفل الزمن ـ أيضاً ـ بإقناعهم أن عصر الإحياء الأوربى ـ وإن كان حركة عقلية كبيرة ـ فقد سبقته نهضة علمية فى أوربا على يد الرهبان النصارى الذين استمدوا النور من علماء الإسلام فى الأندلس .

وبعد ... فكيف كان ذلك الأفق الواسع مجالا لانطلاق شمس المعرفة الإسلامية ،

ومدرسة تخرج فيها حملة مشعل الإحياء الأوربى ... مع الملاح القادمة ... أرجو أن أفلح فى جلاء حركة ذلك الانطلاق العملاق .

لقد كانت المعرفة هى الأجنحة التى ارتقت بها تلك الحضارة فلم تقتصر هواية جمع الكتب الثقافية على الخلفاء فقط بل شغف بها عامة الشعب .

ومن أخبار الوفود فى عهد «عبد الرحمن الناصر» يخبرنا «ابن جاجل» أن فى مقدمة هدايا «أرمانيوس» ملك الروم إلى «الناصر» سفران قديمان أحدهما نسخة مصورة عن كتاب «ديسقوريدس» عن الحشائش والأعشاب الطبية ، والأخرى نسخة من تاريخ العالم القديم «لاورسيوس» باللاتينية .

وكانت مكتبات قصور الخلفاء نواة المكتبة الأموية العظيمة التى ضمت أربعمائة ألف مجلد والتى كانت من أعظم مكتبات العصور الوسطى ، والتى كانت تحتضن نفائس الكتب من كل قطر وفى كل فن .

وعرفت النسخ الأولى من المؤلفات طريقها إلى الأندلس وكوفىء عليها أصحابها .. من ذلك مكافأة الأصفهانى على «الأغانى» بألف دينار .

وقد انتشر الوراقون فى بغداد والقاهرة ودمشق يجمعون وينسخون .

ولست أدرى هل رغب الشعب فى منافسة حكامه فى تلك الميزة أم أنها هواية طبيعية دفعتهم إلى اقتناء المكتبات الخاصة حتى وجد من ذوى الدخل الضئيل من كان يحرم نفسه الطعام وجيد الثياب فى سبيل تكوين مكتبة .

ووجد من النساء من اشتهرت بذلك أيضاً ... منهن عائشة بنت أحمد بن قادم ... يقول الطبيب المؤرخ الأمريكى : «فيكتور روبنس» فى كتاب له يعرض قصة الطب :

«كان رهبان أوربا يلحنون فى تلاوة سفر الكنيسة بينما كان معلمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع فى ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة» .

وتبعا لذلك كانت معرفة القراءة والكتابة أمرا عاديا فى الوقت الذى كان فيه أرفع الناس فى أوربا فيما عدا رجال الدين لا يعرفها وغزت المكتبات الحدائق العامة فى قرطبة حيث توسطت رفوف الكتب صفوف المقاعد .

وكان فى قرطبة دكان نسخ استخدم مائة وسبعين وراقا فى نقل المؤلفات .

وفى ميدان التأليف والبحث العلمى تحولت قرطبة إلى «أكاديمية» عظيمة .. وانتشرت الجامع العلمية والأدبية التى تشبه مجامع اليوم .

وحدد الخلفاء والملوك جوائز للمخترعين فظهر من بين العلماء من ألف العديد من الكتب أمثال : أبو محمد على بن حزم الذى بلغت مؤلفاته نحو أربعمائة كتاب ، والمظفر الأفطس الذى ألف كتابا فى الأدب فى نحو مائة مجلد ، ومؤرخ الأندلس أبو حيان الذى ألف كتابه فى ستين مجلدا .

وعرفت تلك المؤلفات وغيرها طريقها إلى كل عقل متفتح يهفو إلى توسيع دائرته وزيادة رحابة أفقه ، فانتفع المسلمون ، ومدوا يد النور إلى الأوربيين الذين وجدوا فى تلك المنابع سبل هداية ، وطرق تقدم . . يقول « إرنست رينان » : إن الآثار والأسفار المحتوية على شيء من الفنون والعلوم التى أضفاها علماء الإسلام على الكون والتى نقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الفرنجة وما تقدمها من احتكاك بين العرب وأوربا عن طريق الأندلس . . أدى كل ذلك إلى إفعام المكتبات الأوربية الخاوية الفقيرة بكنوز لا تفنى من العلم الذى أنتجته قرائح العرب ، وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمى فى البيئة الأوربية بأسرها كارتفع مستوى شعوبها إلى أفق التمدن الذى نشاهدها عليه اليوم .

وفى هذا الميدان تتجلى ظاهرة تشهد بالنزعة الإنسانية التى اتسمت بها الحضارة العربية ، فقد وقف العلماء على اختلاف عقائدهم صفا واحدا . ولم يعرف الخلفاء التفرقة بينهم فرأينا الحكم ، لايبالى باختلاف الدين ويؤثر الأسقف العالم (ريشموند الإلبيرى).

(ربيع بن زيد) ؛ لسعة علمه بالفلك والفلسفة وتمكنه من آداب العرب واللاتين.

وتعددت مجالس البحث والمناظرة ، وحرص (محمد بن أبى عامر) على عقدها أسبوعيا .

وكان ثمرة تلك الحضارة البالغة وتلك الخطوات الفسيحة أن برز علماء عديدون واشتهروا بالنبوغ فى تخصصهم أمثال :

المتصوف الكبير : ابن عربى ، والفيلسوف ابن حزم ، وصاحب الألفية ابن مالك ، وصاحب العقد الفريد : ابن عبد ربه ، وصاحب قلائد العقيان : ابن خاقان ، وصاحب المخصص : ابن سيده ...

ومن الشعراء : ابن خفاجه ، وابن هانئ ، وابن زيدون . ومن الفلاسفة : ابن رشد ، وابن طفيل ، وإمام القراء أبو القاسم الشاطبى ومن النساء : حمدونة التى لقبت بخنساء المغرب وعائشة بنت أحمد ، وولادة بنت المستكفى .

ولعل خير مثال نستطيع أن نستشف من خلاله الصورة المالية التى كانت عليها الأندلس هو خبر الهدايا المتبادلة بين الوزراء والملوك من ذلك هدية ابن شهيد المقدمة الناصر حيث وصلت إلى خمسمائة ألف مثقال من الذهب وحوالى مائتى أوقية من المسك والعنبر وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب ومائة فرس مسرجة ... إلخ .

والذى يمكن استنتاجه من هذا هو اطمئنان الناس هناك إلى ميزان المادة ، واستمتاعهم بالنعيم .

أما مجالسهم فقد اتسمت بالطابع العلمى . . وحفلت المتنزهات والبساتين بمجالس الشعر والزجل والغناء والموسيقى ، والفكاهة .

وقـــد كان من أشهر تلك المجالس ذلك الاجتماع الذى انعقد بمناسبة قدوم سفراء ملك الروم محملين بالهدايا، وأمر الناصر العلماء أن يخطبوا ولهول المجلس أغلق عليهم القول، ولم ينج من ذلك «أبو على القالى» نفسه.

يقول «منذر بن سعيد» فى هذا الحفل:

وقد حدقت حولى عيون أخالها
كمثل سهام أثبتت فى المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن
لمقتبل أو فى العصور الأوائل
ترى الناس أفواجا يؤمون بابه
وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه
مخافة بأس أو رجاء لنائل

* * *

ولم يتخل المسلم عما التزم به إزاء دينه، ولم ينس أن دستوره الوحيد (القرآن الكريم) يشرع له فينتظم حياته بما فيها من سلوك نحو الآخرين، فنشأت لديه تلك النزعة الإنسانية التى لا تفرق بين الناس: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»... وحين تطلع بنظره إلى ما وراء أفق الصحراء ... بل حين توطدت أقدامه فى أنحاء لم يكن يحلم بارتيادها ... حينذاك أيقن أنه ليس فاتحاً ولا غازياً بقـدر ما هو داع ومبشر بعهد جديد، فلم يفكر أن يبطش أو ينظر نظرة متعالية ... هى نظرة الحاكم والمنتصر، ولكنه مارس حقوقه محترما حقـــوق الآخرين، فأكد احترام الإسلام لقيم الإنسانية، وحرصه على الكرامة وإزالة الفوارق بين الطبقات، فرحب العبيد، ورقيق الأرض بذلك، ولم يعد من المبالغة فى شىء ما يشهد به الأستاذ «هاريسون» فى كتابه «العرب فى وطنهم» إذ يقول:

«فحيث حل الإسلام تأكدت قيمة الفرد ونهض الناس معتزين بكرامة لا تقهر»[1].

وغـدا موقفهم إزاء اليهود والنصارى موقف المحترم المتسامح رغم سيطرته على كل شىء، فعلموهم كيف يكون التسامح الذى هو أغلى ما يمكن أن تعتز به الإنسانية فى تاريخها الطويل فأباحوا لأساقفة النصارى أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر إشبيلية الذى عقـد فى سنة ٧٨٢ م، ومؤتمر قرطبة النصرانى الذى عقد سنة ٨٥٢ م ... وسمحوا لهم أن يبنوا البيع فـاوسوا معتقداتهم بحرية ولم يتخل المسلمون أبداً عما التزموه إزاء دينهم الذى يقضى باحترام العقائد والحرية الشخصية.

أما اليهود فقـد كانت الأندلس المكان الوحيد فى أوربا الذى يتمتعون فيه بحماية الدولة، ورعايتها فزاد عددهم، وأسلم كثير

(١) عن مجلة المجلة. العدد ٦٨ (١٩١٢) ص ٤٤.

من النصارى واليهود عن رغبة خالية من الإكراه فأكدوا أن الإسلام ليس دين قوة وسيف بل دين حرية، وإلا فما بالك بخليفة كالحكم يعرف أن أحد عماله ظلم واحدا من أهل الذمة فيأتى به ويصلبه ... أية ضمانات أكثر من ذلك يمكن أن تمنح لتحفظ حقا أو لتحمى كرامة !!.

وشرع الجميع يعملون جنباً إلى جنب بلا أضغان، ولا كراهية وجمعتهم لغة واحدة وتقاسموا دراسات مشتركة فبدا: «أن كل الحواجز التى تفرق بين بنى الإنسان قد انهارت، وأن الجميع كانوا يسهمون متفقين فى تشييد الحضارة المشتركة»[1].

ورغم حرص الإسلام على بسط روح الصفاء بين الجميع فقد حدث أن ثار بعض متعصبى النصارى، ومع هذا فقد أعاد المسلمون الصفاء ليرفرف من جديد وكأن لم يحدث شىء، والعجيب فى الأمر أن هؤلاء الثائرين كان يغيظهم مايرون من المسلمين من تسامح، وحسن معاملة، فكانوا يتشوقون للتعذيب فى سبيل دعوتهم.

ولاتصاف المسلمين بنبل الأخلاق جوانب مضيئة كثيرة، أهمها رفقهم بالمغلوب، واحترامهم لكلمتهم والتزامهم الصدق، واحترامهم للمرأة، وقد اقتبس الأوربيون كل هذا منهم، وذلك شىء لا يحتاج إلى برهنة، فمن المسلمين فى إسبانيا تعلم الأوربيون قوانين الفروسية. وحدث أن حاصروا فى قرطبة (سنة ١١٣٩) مدينة طليطلة، وكانت بيد النصارى، فأرسلت إليه ملكتها «بيرانجر» تبلغه أنه ليس من الشجاعة أن يحاصر فارس «امرأة». فما كان منه إلا أن ارتد عنها.

وهذا هو الكاتب الأسبانى «أبانيز» يؤكد أن الغرب لم يكن يعرف الفروسية ولا يدين بآدابها المرعية وحماستها إلا بعد وفود المسلمين على الأندلس، وانتشار فرسانهم وأبطالهم.

ويتحدث المستشرق «رينو» عن ذلك فيرى أن قصص الفروسية ثبت فى العصور الوسطى أثراً باقيا جعل الاسم العربى يتبوأ فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى مكانة عظيمة.

ويضيف «ول ديورانت» رأيه إلى رأى «ستانلى لين بول» الذى يقول إنه: «لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم عادل كما نعمت به فى أيام الفاتحين العرب»[1].

وبعد أن خرج المسلمون من الأندلس عاشت تلك اللمسات الإنسانية فى النفوس الخيرة بل لم يجد الجميع مفرا من الاعتراف بأحقية تلك الحضارة الإنسانية فى أن تعيش مدى الدهر، وحين فكر الإسبان والبرتغال

(١) رينان. (الأزهر أغسطس ١٩٦١)

(١) قصة الحضارة جـ ٢ مجلد ٤ ص ٢٩٢.

فى التوسع ، ورغبوا فى أمريكا الوسطى واللاتينية ... هناك تذكروا تعاليم العرب ، وعدم اتخاذهم حواجز مصطنعة بين الغالب والمغلوب ، فاختلطوا وتزوجوا بسكان البلاد الأصليين .

وقد رفع الإسلام من شأن المرأة وكفل لها مكانه اجتماعية ممتازة تحسدها عليها أختها الأوربية إبان العصور الوسطى التى لم تنل حظها من العناية تبعا لاتجاه المذهب الكاثوليكى الذى كان يعد المرأة مخلوقا فى المرتبة الثانية ، ولهذا فإن المرأة لم تمنح هناك فى تلك الفترة شيئا من حقوقها ووصل حرمانها إلى درجة أن حرمت من أى لون من ألوان التفرد سوى هذا المجال الضيق الذى تقطن فيه ، وهو المنزل ، كما عاملها أمراء النصارى الإقطاعيون فى القرون الوسطى معاملة سيئة ، فلم تنل منهم احتراما بل كانت ترضخ لغلاظتهم حتى تعلم هؤلاء النصارى من المسلمين كيفية معاملة المرأة ، وعرفوا عنهم حقوق معاملتها من بين مبادئ الفروسية التى انتقلت إليهم ، ومن بينها احترام المرأة والمحافظة عليها .

فالإسلام بحق هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه ، وكل من أرخ لتلك الناحية من الأوربيين لم يجد معدى من الاعتراف بذلك أمثال «غوستاف لوبون» ، وسبقه «كوسان دوبرسنال ومسيو بارتلمى سان هيلر» ، وغيرهم .

وقد ضم بلاط الخليفة ـ بالأندلس ـ من النساء العالمة باللغة والأدب ، والرياضة والعلوم ، فهذه ولادة بنت المستكفى ، حفيد الناصر ، ولها فى الأدب والشعر شأن كبير حيث كانت تدير ما يشبه الصالونات الأدبية فى العصر الحديث وهذه «لبنى» يعتمد الخليفة الحكم بن عبد الرحمن عليها فى كتابة رسائله الخاصة وكانت دقيقة التفكير وقامت «مريم بنت يعقوب الأنصارى» بتعليم بنات الأسر الراقية فى أشبيلية ، وتخرج على يديها نساء رعات ، أما عائشة بنت أحمد القرطبية فقد كانت من عجائب زمانها ، وكانت جيدة الخط تكتب المصاحف وشاعرة ، وكانت خزانة كتبها من أثرى المكتبات الخاصة ، ولقبت حدونه بخنساء المغرب ، وحرر الخليفة «عبد الرحمن الناصر» «راضية» ثم تنازل عنها لابنه الحكم ، ولما مات ساحت فى الشرق ، وقدرها العلماء .

وهكذا كان للمرأة منزلتها الاجتماعية التى تحترمها أولا : ككائن اجتماعى يضطلع بدور كبير فى بناء الأمة ، وثانيا كإنسانة تتمتع بمواهب فذة ، وكفاية حية ينبغى أن تأخذ حقها من الاحترام . ؟

يوسف حسن نوفل
خريج كلية دار العلوم

مفهوم التجديد الدينى

للأستاذ رءوف شلبى

منذ الحركة اللوثرية التى دعت إلى الإصلاح الدينى – المسيحى – فى أوربا ليتقبل العقل الغربى تعاليم كنيسته التى تمزقت واختلفت فى:

* تعاليمها الرئيسية .
* وتشريعاتها السلوكية .
* ومناسباتها الدينية .

منذ ذلك الحين ، والمفاهيم الدينية يحوطها ضباب كثيف ... حتى صارت فكرة التجديد الدينى «موضة» يتحشدها المارقون على الدين ، ويقبلها السذج من العاطفة والثقافة ، والعقيدة .

ومن غير تردد ، فإن كل فكرة تدعو إلى التجديد فى الدين فى الشرق الإسلامى أو يكون فيها تطاول على سدنته ، وعلمائه ، هى دعوة تقليدية للعمل الأوربى القديم الذى حطم كبرياء الكنيسة فى ظل الثورات الدينية ، والعسكرية ، الدوافع الاجتماعية والسياسية والنفسية ، التى ربما كانت تقتضى ذلك .

وليس أدل على تفاهة موضوع ما ، يدعو به إنسان ما ، مهما كانت قيمته العلمية من أنه يتحدى أسلوبا لغيره فى زمن لا يسعفه الوضع الاجتماعى ، ولا التهيئة النفسية المستفيدة لقبول منطقه .

ويدعى – مغالطة – إصالة دعوته ، ويداريها استقر فى عقله الباطن إشراك بما يتوهمه عقله الظاهر المقلد .

ومن أمثاله تلك القضايا – فى شرقنا المسلم – أصحاب دعوة التجديد الدينى فى الإسلام ، الذين يتعبون أنفسهم ، وأقلامهم ، فى شرح مفاهيم فكرتهم بحجة سماحة الإسلام ويسره .

ولقد كان ينبغى لأصحاب هذه الدعوة أن يستعرضوا كتاب الله الكريم ، ليروا مقدار ما يكون لدعوتهم من البوار ، أو الرواج ، عندما تحدد مفاهيم التجديد الدينى ، تلك القصاصة التى نقلوا عنوانها من أحداث أوربا فى صدها المظلم القاسى إلى حياتنا المعاصرة فى ظل الإسلام الحنيف .

وبوضوح فإن القرآن يحدد :

١ – «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» .

٢ – وأنه لا مجال للتشريع بالرأى ما دام هناك نص من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقضى بذلك القرآن الكريم : «ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا» .

٣ – وأن الجهة الخاصة بالتشريع للأمة هى ما توضحها الآية الكريمة : «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» .

لجهة التشريع ، والفتوى خصصها القرآن بطائفة محددة : —

إنها الجماعة التي هيأ الله لها :

١ — وضوح المعرفة الدينية .

٢ — والفقه اللغوى العربية الفصحى ، وإدراك سر المعانى .

٣ — والأمانة العلمية الدقيقة .

٤ — والسلوك الدينى الرفيع .

٥ — والغيرة على ربط الحياة فى مجرياتها ، الفرد ، والجماعة ، والأمة بقواعد الإسلام : نصوصه ، وروحه .

وهذا النسق الأصولى للتشريع الإسلامى مراده ربط حياة المسلمين فى كل زمان ومكان بثقافتهم التى افتتحها الله تعالى لهم بالقرآن الكريم ، وغذاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة الإسلامية المطهرة .

وإذا : فكل تطاول على مفاهيم التشريع الإسلامى وأصوله ، وأئمته ، هو اعتداء على الثقافة الإسلامية الأصيلة فى مجال تطبيقها على أمتها .

والمعركة دائرة منذ التوسع الإسلامية فى الأندلس ، ومناهضة البرتغال لهذه الحركة الإنسانية ، بالاستيلاء على الموانى الإسلامية فى بحار الشرق الأقصى ـ المعركة دائرة منذ ذلك الحين ـ حول تحطيم الأمبراطورية الإسلامية ، ومن المفهوم جيداً أن أية أمة عظمى لا تدك حصونها إلا يوم أن تتلاشى شخصيتها ومقوماتها .

ومقوم الأمة العربية ، هو الإسلام : بأصوله ، وفقهه ، وأئمته .

ولهذا فقد أراد المخطط الاستعمارى أن يزاوج بين وسيلتى الاستعمار العسكرية والثقافية ، ذلك أن أمر الاستعمار العسكرى قريب الأجل ، أما الغزو الثقافى فإنه يستقر فى الدم ويملك زمام العقل ، ويسيطر على الوجدان والسلوك .

ومن هنا فقد ربى له مدارس خاصة تناهض الأمة الإسلامية مع زحمة الحديد ، وضغط الجيوش والمتابعون لهذا المخطط يستطلعون هذا المكر فى تيارات الهدم من أبناء الشرق فى حركات .

١ — الشعر الجاهلى :

٢ — أصول الحكم فى الإسلام :

٣ — ولدينا دعوة جديدة هى التوأم الثالث وهى فكرة التجديد الدينى وتستند كل ما تستند هذه القضية إلى مفهوم خاص فى معنى الإجماع ...

وعلى أية حالة فإن دراساتها لكتب أصول الفقه هى دراسة المبغض المتلمس وشيجة ـ فى زعمه ـ واهية ليقطع بقية الأواصر والأوشاج .

والحق أن مفهوم الاجماع هو تنظيم الحياة الإسلامية للأمه فى حادثة جديدة ليس لحكمها نص من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بروح الشريعة الإسلامية . بحيث لا يكون هذا الحكم مفرغا لمشكلات أخرى لا تتفق مع أحكام الشريعة أو تصطدم مع العقائد الأساسية فى الدين ، أو لا تتسق مع أهداف الإسلام وأخلاقه .

ومعنى هذا : أن الإجماع الأول مفهومه حرص دقيق على استمرار الحياة الإسلامية مرتبطة بمفاهيم ثقافة الإسلام الأولى ، وإذن فدعوى إحلال مجالس التشريع المعاصرة على هذا الإجماع الشريف دعوة للتحلل من انتظام حياتنا المعاصرة مع الحياة الإسلامية الأولى ويظهر هذا التحلل مايذكر من علة «أن الاجماع المعاصر شاهد جدداً من الحضارة والقانون والعلوم ... الخ لم يشهدها الإجماع الأول» .

ومعنى هذا : انتصار الثقافة الغربية فى ميدان التطبيق على الثقافة الإسلامية فى عقر ديارها .

ومن جانب آخر : لو كان لأصحاب دعوة التجديد الدينى فى الإسلام وضوح فى إخلاص النية ، لاتجهوا من فورهم بهذه الفكرة إلى الجهاز الذى أقره « إجماعهم » الذى يؤمنون به فى دعوتهم ، ويعرضون عليه تفاصيل ما يدعون إليه .

فإن الدولة فى نهضتها العربية المسلمة قد أنشأت بالقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ مجمع البحوث الإسلامية .

١ — لتستمر شعوب العالم الإسلامى والأمم العربية متجهة نحو قيادة الأزهر فى مجال الدعوة الإسلامية .

٢ — ولتبعث من جديد مواريثنا الثقافية القديمة .

٣ — ولتهذيب الثقافة الإسلامية من الفضول والشوائب التى رماها بها الاستعمار الفكرى الأوربى فى القديم . والحديث .

٤ — ولينشط العمل الإسلامى فى حياة الشعوب المسلمة على نظام من قواعد الإسلام ولتوضع له الحلول فى كل ما يعن لمجتمعاتهم من مشكلات .

ومعنى هذا : إن مجلس الأمة قد أعفى نفسه من النظر فى التشريعات الدينية وأنشأ لها جهازاً جمع فيه جهابذة العلوم الإسلامية والقانونية والحضارة ليحقق ما انعقد عليه من آمال .

وأخيراً نقول لأصحاب فكرة التجديد إن الدولة فى تخطيطها الشامل لميادين الإصلاح قد ربطت العلماء وأصحاب الفكر بأجهزة يتوجهون إليها فى كل اختصاصه .

لولا أن سنة الأجداد لا تزال تتعب سلوك الأحفاد إذاً ما سطع نور الحق ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

إن هذا الشرق قد ولد على يد العقيدة وانتشر فى نهضة واسعة بعزة الإسلام وليس لتاريخه وحضارته سند إلا هذا الدين، فليرجع عنه تلاميذ المخطط الاستشراقى العجوز وليخلعوا ثيابهم الخادعة بكلمة الإسلام ، لتظهر سوأة الإلحاد فإنه لاعاصم لهم من أمر الله .

وبالله التوفيق ؟

رءوف شلبى

في التجديد الديني

للأستاذ منشاوي عبود الخولي

قرأت مقال التجديد الديني المنشور بمجلة الرسالة عدد ٥٩ فلاحظت عليه ملاحظات أجملها فيما يأتي :

١ — يرى الكاتب أن التحريم إذا كان بنص من الكتاب والسنة يجب الإذعان له والعمل به .

وأما إذا كان التحريم عن طريق الإجماع فلا تترتب عليه النتيجة السابقة ويعلل رأيه هذا بقوله :

(لأن الإجماع ليس إلا لونا من ألوان التشريعات المدنية التي تسود الجماعة في وقت من الأوقات والتي تحرص عليها الجماعة ما دامت محققة للمصلحة العامة وملبية لحاجة الناس) .

وهذا يدل على نقص الإدراك لحقيقة الإجماع الشرعي فإن الإجماع الذي اعتبر من أدلة الأحكام الشرعية هو :

اتفاق جميع المجتهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في عصر من الأعصار على حكم شرعي : وللاجتهاد شروط كثيرة تكفلت كتب الأصول ببيانها ، ولا تتوفر هذه الشروط إلا الصفوة الممتازة من أعلام الشريعة الإسلامية .

والإجماع لابد له من سند فيجب أن يكون لأهل الإجماع سند يستخرجون منه الحكم ويجمعون عليه لأن الاستقلال بإثبات الأحكام ليس للبشر . ولو جاز الإجماع بلا دليل انقلبت الأباطيل صوابا بالإجماع لأن الإجماع قول كل من المجتمعين وقول كل منهم بلا دليل محرم فكونه بلا سند باطل .

والسند قد يكون نصا من الكتاب أو السنة فإذا كان الإجماع على تحريم شيء . يكون التحريم في الحقيقة ثابتاً بهذا النص من الكتاب أو السنة .

وعمل المجتهدين بإجماعهم هو الاتفاق على إبراز هـذا التحريم الذي دل عليه النص .

غاية الأمر أنه بعد اشتهار الإجماع يحتج بهذا الإجماع على ثبوت الحكم الشرعي .

ولا يلزم غير المجتهدين البحث عن سنده لأنه يكفي أن يكون السند معروفا للمجتهدين عند إجماعهم .

لذا كان من المقرر عند علماء الأصول كون الإجماع حجة شرعية يثبت الحكم قطعا .

ومن هذا يتبين أن تفرقة الكاتب في العمل

بين حكم التحريم الذى ثبت بنص من الكتاب أو السنة وبين حكم التحريم الذى ثبت بالإجماع تفرقة لا تقوم على أساس بل تدل على تجرد من فقه الإجماع ودراسة مباحثه .

٢ — قال الكاتب :

(إن من المجتهدين المسلمين من خالف إجماع الفقهاء ولم ير فى مخالفته بأساً) .

واستدل الكاتب على فهمه هذا بقوله :

(لقد أجمع الفقهاء على أنه يحرم بالرضاع ما يحرم بالمصاهرة . ولكن ابن تيمية لم يذهب إلى هذا الرأى) .

وهذه المسألة التى يتحدث عنها الكاتب قد بينها الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار فقال :

قد وقع الخلاف هل يحرم بالرضاع ما يحرم من الصهار .

وقد ذهب الأئمة الأربعة إلى أنه يحرم نظير المصاهرة بالرضاع . فيحرم عليه أم امرأته من الرضاعة وامرأة أبيه من الرضاعة — ويحرم الجمع بين الأختين مع الرضاعة — وبين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها من الرضاعة .

وقد نازعهم فى ذلك ابن تيمية كما حكاه صاحب الهدى .

وحديث عائشة [١] فى دخول « أفلح » عليها فيه دليل على ثبوت حكم الرضاع فى حق زوج المرضعة وأقاربه كالمرضعة .

وقد ذهب إلى هذا جمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين وسائر العلماء . وقد وقع التصريح بالمطلوب فى رواية لأبى داود بلفظ قالت عائشة : (دخل على أفلح فاستترت منه . فقال : أتستترين منى وأنا عمك . قلت : من أين . قال : أرضعتك امرأة أخى . قالت : إنما أرضعتنى المرأة ولم يرضعنى الرجل . فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال : إنه عمك فليلج عليك) .

وروى عن عائشة وابن عمرو بن الزبير . ورافع بن خديج . وزينب بنت أم سلمة . وسعيد بن المسيب . وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، والقاسم بن محمد ، وسالم وسليمان بن يسار ، وعطاء بن يسار ، والشعبى ، والنخعى ، وأبى قلابة ، وإياس بن معاوية القاضى أنه لا يثبت حكم الرضاع للزوج حكى ذلك عنهم ابن أبى شيبة ، وسعيد بن منصور ، وعبد الرازق ، وابن المنذر .

---

(١) نص هذا الحديث : (عن عائشة أن أفلح أخا أبى القعيس جاء يستأذن عليها وهو عمها من الرضاعة بعد أن نزل الحجاب . قالت : فأبيت أن آذن له . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته بالذى صنعت فأمرنى أن آذن له) رواه الجماعة .

وروى أيضاً هذا القول عن ابن سيرين، وابن علية، والظاهرية، وابن بنت الشافعي.

وقد روى بما يدل على أنه قول جمهور الصحابة فأخرج الشافعي عن زينب بنت أبي سلمة أنها قالت:

كان الزبير يدخل علي وأنا أمتشط أرى أنه أبي وأن ولده إخوتي لأن امرأته أسماء أرضعتني فلما كان بعد الحرة أرسل إلى عبدالله ابن الزبير يخطب ابنتي أم كلثوم على أخيه حمزة بن الزبير وكان للكلبية. فقلت: وهل تحل له فقال: إنه ليس لك بأخ، إنما إخوتك من ولدت أسماء دون من ولد الزبير من غيرها. قالت: فأرسلت فسألت والصحابة متوافرون. وأمهات المؤمنين. فقالوا: إن الرضاع لا يحرم شيئاً من قبل الرجل، فأنكحتها إياه.

وأجيب بأن الاجتهاد من بعض الصحابة والتابعين لا يعارض النص - ولا يصح دعوى الإجماع لسكوت الباقين - لأنا نقول نحن نمنع:

أولا: أن هذه الواقعة بلغت كل المجتهدين منهم.

وثانيا: أن السكوت في المسائل الاجتهادية لا يكون دليلا على الرضا.

وأما عمل عائشة بخلاف ما روت فالحجة روايتها لا رأيها، وقد تقرر في الأصول أن مخالفة الصحابي لما رواه لا تقدح في الرواية.

وقد صح عن علي القول بثبوت حكم الرضاع للرجل - وثبت أيضا عن ابن عباس كما في البخاري) اهـ.

من هذا يتضح أن المسألة خلافية، وأن القول بأنه يحرم بالرضاع ما يحرم من الصهار رأى الأئمة الأربعة وجمهور الفقهاء وقد قام رجحان دليلهم

فليست هذه المسألة من مسائل الإجماع - كما فهم الكاتب - لأنها لو كانت من مسائل الإجماع لما ساغ لواحد مخالفة حكم الإجماع. فصنيع الكاتب الذي أراد به أن يجعل من هذه المسألة أساسا يبني عليه ما أراد يعتبر عملا مهدراً، وأساسا منهاراً لا يحقق له ما يهدف إليه من محاولة طائشة.

٣ - قال الكاتب: فجميع مشروعاتنا المستحدثة كغزو الفضاء. واستخدام الطاقة الذرية في السلم تدخل في باب الإباحة من حيث إنه لا نص في الكتاب أو السنة على تحريمها.

ونقول له. من الذي قال بحرمة غزو الفضاء واستخدام الطاقة الذرية في السلم؟

إن نصوص القرآن الكريم تأمر بالنظر في ملكوت السموات والأرض. وتعرف سنن الله في الكون وما أودع فيه من

خصائص وأسرار للانتفاع بها وأخذ العبرة منها ، والاستدلال بها على عظمة الخالق وإبداعه فى خلقه قال تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) .

٤ — قال الكاتب : (بل نستطيع أن نذهب إلى أن جميع المشروعات المستحدثة لا تحتاج إلى فتوى من رجال الدين . إذ من المسلم به أن الكتاب والسنة لم يتعرضا لها لأنها لم تكن موجودة) .

وهذا يدل على أن الكاتب لم يفقه شريعة الإسلام . فإنه لا ريب أن شريعة الإسلام شريعة خالدة وأنها الدين الذى رضيه الله لعباده . وأنها تكفلت بأحكام المكلفين فى جميع الحالات والأزمنة .

ولا يقبل من أحد اتباع سواها ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ، فإذا وجدت حادثة معينة نص القرآن أو الحديث على حكمها . ووجدت حادثة أخرى بعد عصر النبى صلى الله عليه وسلم فإن المجتهد بواسطة القياس ينظر فى علة الحكم للحادثة السابقة فإذا وجد هذه العلة متحققة فى الحادثة الجديدة حكم بأن النص الوارد فى الحادثة الماضية وارد فى الحادثة الجديدة أيضا . ويكون حكمها ثابتا بهذا النص — ولذا كان معروفا بين علماء الأصول أن القياس مظهر للحكم لا مثبت له — فيكون حكم الحادثة الجديدة ثابتا بالنص الذى أثبت حكم الحادثة السابقة — فعندما يسأل رجال الدين عن حكم مسألة لا يجيبون عنها بالهوى وإنما يبحثون عن الحكم الثابت بالنص فى نظيرها .

وبعد أن يطمئنوا إلى المساواة فى علة الحكم بين المسألة السابقة والجديدة ينقلون الحكم الثابت بالنص إلى المسألة الجديدة ما دامت علة الأصل متحققة فى الفرع .

فللمجتهد أن يدرج الحادثة الجديدة فى عمومات النصوص — أو عمومات العلل حتى يكون حكم الحادثة الجديدة ثابتا بالنص أو القياس .

٥ — يقول الكاتب (يذهب أبو يوسف إلى أن الحكم الشرعى المبنى على العادة يعطل إذا تغيرت العادة ، ولا ضير من مخالفة النصوص) .

لم يذكر لنا الكاتب المصدر الذى نقل عنه هذه القاعدة — ونستبعد أن تصح نسبة القول إلى أبى يوسف أو غيره من أئمة الإسلام بتعطيل نصوص الشريعة تبعا لعادة الناس ، فإن ذلك يؤدى إلى وقوع النسخ فى الشريعة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ووقوع النسخ بعد عصره عليه الصلاة والسلام لا يجوز إجماعا .

وأيضاً يجعل شريعة الله خاضعة لعادة الناس ، وذلك سبيل للتخلص من هذه الشريعة

والقضاء عليها ، فإنه لا وجود لها إلا بأن تكون مهيمنة على أحوال الناس ، وأن يخضعوا لها تقاليدهم ورغباتهم قال صلوات الله وسلامه عليه (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

٦ — بعد أن ذكر الكاتب أحكام الشريعة فى الغنائم دعا إلى عدم العمل بها لأن عادات الناس تغيرت ، والأسلحة التى يحاربون بها فى هذا العصر تختلف عن الأسلحة السابقة فقال ما نصه (هذه الأحكام الشرعية وجدت يوم كانت الدنيا كلها تجرى تقريبا على هذه القواعد أو على تلك العادات .

ونحن اليوم نمضى فى الحرب على أسس لم تكن معروفة للسابقين من مدفعية ودبابات ثم قال : لقد تغيرت العادات وتغيرت القوانين تبعا لها . وقال أيضاً إن تغير كل هذا قد عطل نصوص الشرع الشريف الخاصة بالغنائم ولا ضير فى ذلك ولا ضرر) .

ولا ريب أن هذا قول بالغ الخطورة ، ودعوة جريئة آثمة ، ومحاولة باغية لإلغاء نصوص القرآن والسنة فى باب من أبرز أبواب شريعة الإسلام ، ومن أجل أى شىء يقترف هذا الفساد والدمار ؟ من أجل اختلاف الأسلحة فى عصرنا عن العصر الماضى أى منطق هذا ؟ وأى عقل يسيغه ؟ وأى حليم يصبر على هذا الهراء ؟

لقد دعا الإسلام إلى الاستعداد للأعداء بكل قوة تتسع لها طاقتنا وإمكانياتنا فقال جل شأنه « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ولم يحدد القرآن نوع القوة التى نعدها لتفسر فى كل زمان بما يرهب أعداء الإسلام فإذا كانت الرهبة بالسيف ، كان الإعداد بالسيف ، وإذا كانت الرهبة بالقنبلة والصاروخ كان الإعداد بهما وهكذا ... فكل ما يجد من آلات حربية تخيف الأعداء مأمور به فى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

وهذا من الأدلة على عموم الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

على أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال فى تعليقه على هذه الآية (ألا إن القوة الرمى) وذكرها ثلاثا وذلك يشمل كل ما يرمى به . وهذا من معجزات النبوة الباهرة فليس فى الآية إذن خصوص الإعداد بالسيف حتى يتخذه الكاتب مطية إلى ما يريد من بغى وضلال .

٧ — يوجه الكاتب إلى رجال الدين وعلماء الأزهر كلمة تتعلق بملكية الأراضى فيقول متحدثا عنهم .

« إنهم من غير شك أولى الناس بتطبيق أحكام الشرع الشريف . وأحكام هذا تفيد أن أرضنا المفتوحة عنوة ملك للدولة

ووقف على المسلمين فهل لهم أن يعلنوا أن أراضيهم التى تحت أيديهم ليست ملكا لهم وإنما هى ملك للدولة وأنها تحت أيديهم على أنها أرض عشرية وأن ما دفعوه فيها من أموال للبائعين كانت من قبيل خلو الرجل »

وهذا كلام يعترض عليه من وجوه .

الأول - إنه يناقض رأى الكاتب فى أول المقال فإنه يرى أن التحريم لا يثبت إلا بنص من القرآن أو السنة ، وكلامه هذا يتضمن تحريم انتفاع هؤلاء بأراضيهم فأين النص من القرآن أو السنة على هذا التحريم ؟

الثانى : قوله : إن ما دفعوه فيها من أموال للبائعين كانت من قبيل خلو رجل : يفيد هذا القول أن خلو الرجل مشروع مع أنه أمر غير مشروع إذ المال المأخوذ فيه ليس له عوض ولا مقابل فيكون من باب أكل أموال الناس بالباطل ، وقد حرم الله ذلك بقوله « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

الثالث : الحكم بأن أرض مصر غير مملوكة لأهلها حكم غير سديد لأن أرض مصر فتحت عنوة حين فتحها عمرو بن العاص . وأقر عمر رضى الله عنه أهلها عليها - ووضع الخراج على أرضها فتكون أرضاً خراجية - والأرض الخراجية مملوكة لأهلها يجوز تصرفهم فيها بيعا وإجارة وغير ذلك : قال فى المختار وشرحه الاختيار :

(والسواد[1] أرض خراج) لأنه يجوز إقرارهم على الكفر فقد وجد شرط الخراج ولأن عمر رضى الله عنه فتح سواد العراق ووضع عليه الخراج بمحضر من الصحابة - وأجمع الصحابة على وضع الخراج على الشام . وكذلك وضع عمر رضى الله عنه على مصر الخراج حين فتحها عمرو بن العاص ثم قال : (وأرض السواد مملوكة لأهلها يجوز تصرفهم فيها) لما بينا أن الإمام إذا فتح بلده قهراً له أن يقر أهلها عليها ويضع عليهم الخراج - فإذا أقرهم عليها بقيت مملوكة لهم فيجوز تصرفهم فيها بيعاً وشراء وإجارة وغير ذلك كسائر الملاك والأملاك . اهـ

هذا بقيت كلمة أتوجه بها إلى هذا الكاتب وأمثاله : إنه ينبغى ألا يتطاول الإنسان إلى مقام علمى إلا بعد أن يعد له عدته دراسة شاملة وبحث مستنير . ونظرة فاحصة امتثالا لقول العليم الحكيم « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ؟

منشاوى عبود

---

(١) قال صاحب اللباب فى تفسير السواد (أى سواد العراق سمى سوادا لخضرة أشجاره وزروعه وهو الذى فتح على عهد سيدنا عمر فأقر أهله عليه . ووضع على رقابهم الجزية . وعلى أراضيهم الخراج) . اهـ

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

لا يكاد يمر يوم دون أن يسجل الراصد للتيارات الفكرية فى أيامنا هذه تياراً منحرفاً فى التفكير الدينى .

فقد كثرت وسائل الإعلام ، واتسع مجالها ، من صحف ومجلات ، وإذاعة مسموعة ، وأخرى مشاهدة منظورة ، و (سينما) ومسرح ، وأندية ثقافية ... إلى أنماط أخرى تتيح للناس أن يعبروا عن آرائهم .

وقد يكون من الخير أن يتذاكر الناس شئون دينهم ، وأن يعبر كل ذى رأى عن رأيه ؛ فإن الحقيقة بنت البحث - كما يقال - وأن المذاكرة تعدى على العلم - كما يقال أيضاً - .

ولكن الذى لا يبشر بخير ، أن يقول كل من أراد ما أراد دون أن يرجع إلى فقه فى موضوعه ، ودون أن يتعمق الدراسة ليحض رأيه ، وأن يتقحم الكاتب كل موضوع دون أن يكون من أهله ، فإن أضرار هذا التقحم كثيرة ، وأولها يعود على الكاتب نفسه ، لأنه يظهره فى ثوب الجاهل المتعالم ، أو الأجنبى المتطفل .

ولعلك أيها القارىء لاحظت كما لاحظت أن كثيرين ممن يتكلمون فى الإصلاح الدينى تنقصهم الدراسة الواعية ، ويتملكهم الغرور المتعالى ، وتسيطر على أقلامهم ، وعقولهم (اللامبالاة) فيهرفون بما لا يعرفون ، ويعتسفون فى مجاهل ليست لهم أية خبرة بشعابها ووديانها ، وقديما قال العرب : قتل أرضا عالمها وقتلت أرض جاهلها .

هل سمعت (حلاق القرية) فى ساحة الحى حيث يجلس متعالياً متطاولا ، وحوله أهله وعشيرته متحلقون ، يحاضر فى أدق شئون الطب ، ويشخص أكثر الأمراض تعقيداً ، ويصف لها من الأدوية ما كانت تصفه العجائز منذ قرون ؟ !

إذا كنت رأيت هذا المشهد الرائع العجيب ، أو سمعت به ، فاعلم أنه مثل واضح صادق لبعض أصحابنا الذين يحاضرون ، أو يكتبون ، أو يذيعون آراء يزعمون أنها لتجديد الدين ، أو لتفسيره ، أو لحل مشاكل الناس من الناحية الدينية ، وهم فيما يبدو لم يقرأوا كتاباً واحداً فى أصول التشريع ، أو على الأقل لم يفهموا هذا الكتاب إذا كانت كبرياؤهم سمحت لهم فحاولوا أن يمروا بصفحاته مرور العجالى المجتهدين .

ولعل أخطر هذه الآراء تلك التي يذيعها أناس يملكون حق النشر والطي ، فهم في الوقت الذي يعلنون فيه أنهم يقدسون حرية الرأي ، ويقدرون قيمة الكلمة ، لا تسعفهم الشجاعة النفسية أن ينشروا كلمة واحدة تعاسرهم الحساب ، أو تبين لهم مدى الخطأ الذي يقعون فيه ، في الوقت الذي يذيعون فيه كل كلمة منحرفة ما دامت تسير في الطريق الذي يسيرون فيه ، وتهدف إلى الغاية التي يقصدونها .

ولسنا نطلب من الدولة أن تضرب على أيدي هؤلاء ، ولا من المسئولين الحقيقيين عن أجهزة الإعلام أن يطهروها ممن يقولون بغير علم ، ويجترئون على الحقائق بغير اكتراث ، ويعتدون على مقدساتنا لغير صالح أمتنا ، لسنا نطلب شيئاً من ذلك ، ولكننا نطلب منهم أن تكون لهم رقابة على سير هذه الأجهزة حتى يدركوا أن اتجاهات خاصة تسيطر على بعضها ، ولا أثر لاتجاهات أخرى تحد من غلواء تلك الاتجاهات ، وتقلل من خطرها على عقائد الناس ، وعلى أخلاقهم .

لقد كان منذ سنوات كاتب كان حواريوه يصفونه بأنه من أعمدة الفكر في هذا العصر ، وكان يكتب (يومياته) في صحيفة يومية ، وكثيراً ما تناول قضايا دينية وحشد لها من المنحرفين ، وطلاب الشهرة من يؤيد آراءه ويحطب حباله ، وكان أكثر ما يتبجح به حرية الرأي ، ولست أذكر أنه سمح مرة واحدة لكلمة حق أن تنشر في (يومياته) على الرغم من الكلمات الجادة ، الواضحة الحجة ، البينة المحجة التي أرسلت إليه .

* * *

ذكرت كل ذلك حين رأيتني في الأيام الأخيرة أطلع كل يوم على عجيبة في مهاجمة الدين ، أو في تحريف نصوصه ، أو في تفسير قواعده وأصوله ، على طريقة (حلاق قريتنا) العالم بالطب والجراحة ، وهو لا يعرف إلا الحجامة والكي بالنار ، ونزع الأضراس (بكماشته العتيدة) .

وآخر ما قرأت من هذا مقالات في (التجديد الديني) للدكتور محمد أحمد خلف الله ، آثر بها مجلة الرسالة .

وعلى الرغم من معرفتي القديمة للدكتور من يوم أن نعل فعلته بكتابه (القصص الفني في القرآن) فقد تابعت قراءة هذه المقالات على أمل أن أجد فيها جديداً ينفع أمتنا ، وينفع المسلمين في وقتهم الحاضر ، ولكن وجدتني بعد أن أتم الدكتور مقالاته أذكر هذه القصة القصيرة :

لقي رجل صديقا له فسأله : آلحسن والحسين بنتا معاوية بن أبي طالب ؟ فقال له صاحبه : والله ، ما أدري أي أخطائك أصحح

وقد مست هذه المقالات أصولا وفروعا فى التشريع الإسلامى مساً عنيفاً .

وسأترك للمتعمقين فى دراسة الفقه والأصول الرد على ما أثاره من مسائل جزئية ، وأراجعه فى القضايا الكبرى التى أثارها ، والتى أظن أنها لا تخفى على من له إلمام ما بالتشريع الإسلامى ، وسيتبين من هذه المراجعة أن الكاتب لم يكن يعتقد ما يقول .

* * *

١ - ابتدأ الكاتب فوضع (أصلا) ليبنى عليه كل ما أتى به بعد ، ذلك الأصل هو أن فى التشريعات الدينية عناصر ثابتة خالدة لا تتأثر بزمان أو بمكان وعناصر أخرى غير ثابتة .

ومثل الأولى بالمعتقدات الدينية الخاصة بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهى التى وصى الله بها جميع الأنبياء - كما ورد فى هذه الآية التى ساقها الكاتب فى هذا الموضع - : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . واعتمد - هنا - على تفسير الرازى لهذه الآية ، وخلص إلى العناصر غير الثابتة ورأى أنها (التكاليف والأحكام) فهى - كما يقول - خاضعة للتغيير والتبديل .

وهكذا فى غفلة من العقل ، وذهول من المنطق ، وفى جرأة على الحق حكم الكاتب على (التكاليف والأحكام) فى شريعتنا الإسلامية الثابتة الخالدة ، بأنها غير ثابتة ، ولا خالدة .

فالصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، ينالها التغيير والتبديل أصولا وفروعا فى رأى الكاتب .

وإذا كانت الصلاة - مثلا - تختلف فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عن شريعة إبراهيم ، ونوح ، فينبغى - كما يزعم الكاتب - أن تختلف فى القرن العشرين عنها فى حياة الرسول ، وهكذا يقال فى كل التكاليف .

ولا أعتقد أن هذا جهل من الكاتب ، فهذا لا يكاد يجهل الحق فيه مسلم ، ولا غير مسلم ، فبقى أن يرجع القارىء إلى حدسه وتخمينه ليعرف ما الذى حمل كاتباً يشرف على مجلات وزارة الثقافة أن يثبت مثل هذا الكلام .

ونمضى مع الكاتب فنراه يصر على هذا الذى ارتآه ، ولكنه يبدأ يتراجع شيئاً فشيئاً ، فيرى أن نصوص الشرائع السماوية نصوص مقدسة لا يمكن أن تكون محل تغيير ، ولكنه فى الوقت نفسه يرى أن آيات الأحكام أو بعضها يمكن أن تتأثر بفعل الزمن ، هكذا (آيات) فهو لم يقل : الأحكام التى استنبطها الفقهاء من بعض

الآيات ، وإنما قال (الآيات) كأنه يرى أن بعض النصوص المقدسة يمكن أن يتأثر بفضل الزمن.

ويضرب فى عمياء مظلمة ، فى خبط وخلط ، راجعاً مرة إلى ابن خلدون ، وأخرى إلى ابن قيم الجوزية ، وثالثاً إلى بعض الآيات ليصل أخيراً فى إعياء وإجهاد إلى بعض الفقهاء الذى يرى أن مخالفة الأحكام المأخوذة من النصوص الدينية تجوز فى غير الضرورة وذلك إذا زالت علة الحكم الشرعى ، أو تغير العرف والعادة ، ويعلن هنا عن قاعدة ذهبية رآها فى بعض الكتب دون أن يتعمق فى دراستها ، وينسبها إلى (الفقهاء المسلمين) هكذا بصيغة التعميم ، وهى : « إن الحكم الشرعى المبنى على علة يدور مع علته وجوداً وعدماً » .

وأنا أترك شرح هذه القاعدة ، وبيان مافيها لمن يناقشونه من فقهائنا ، أو أحيله على أى كتاب من كتب أصول الفقه ليتفهم هذه القاعدة جيداً .

ويذكر هنا - مثلا - وهو - كما يقول - تعطيل سيدنا عمر بن الخطاب لبعض النصوص القرآنية الخاصة بالمؤلفة قلوبهم ، وأحيله على أحد الشيوخ ليشرح له صنيع عمر ، فإن مثل هذا الكاتب لا يحتاج فقط إلى كتاب يقرأ فيه ، وإنما يحتاج إلى معلم يرشده

ومن هذا القبيل ما نسبه إلى الإمام أبى يوسف فى جرأة غريبة ، وتعميم عجيب من جواز ترك النص واتباع العادة .

٢ - وينسب إلى الفقهاء أنهم يقولون إن الإجماع إنما يكون حين لا يوجد نص من كتاب ، أو سنة صحيحة ، ومعنى ذلك - عنده - أن الحكم الشرعى الذى يجىء عن طريق الإجماع يكون حكما شرعياً مستحدثاً .

وهذه غلطة سببها أن الكاتب لم يحاول أن يطلع حتى ولا على (تعريف) الإجماع . ويستطرد الكاتب فيبنى على أصله هذا أن طبيعة الإجماع هى بعينها طبيعة التشريعات المدنية ، أى أنها وضع القوانين والقواعد المنظمة للعلاقات بين الناس ، وإن كانت القوانين المدنية - فيما يرى - أدق ، وأكمل تنظيما.

وما دام سبيل الإجماع ، والتشريعات المدنية واحداً فلماذا لا نعتبر التشريعات المدنية الحديثة الخاصة بالمعاملات ، والصادرة عن الهيئات التشريعية الحديثة من قبيل الإجماع ، أنه يعتبرها كذلك ، ولا عبرة فى هذا الموقف بمخالفتها لإجماع سابق ، ولو كان هذا الإجماع إجماعا للصحابة - رضى الله عنهم - كما قال .

ونقول له :

أولا : اعلم - وفقك الله - أن الإجماع لابد أن يعتمد على نص ، من كتاب أو سنة (فإذا لم يكن فى نازلة كتاب ولا سنة وأتى

فيها السلف بفتوى ، ولم يعلم عن أحد منهم خلاف فى تلك الفتوى ؛ فإن جمهور الفقهاء يرى ذلك حجة فى الدين وذلك إن اجتماعهم لا يكون عن رأى ، إذ الرأى إذا كان تفرق فيه .

وذلك - فى الحقيقة - راجع إلى العمل بالسنة ، واعتبار ما كان من عدم الخلاف دليلا على وجود سنة رجعت إليها تلك الفتوى ، وهذا قليل الوجود جداً ، فيما اجتهد فيه العلماء) (١) .

وأظن أن هذا كلام واضح لا يحتاج إلى شرح، فالإجماع ليس عن رأى محض، وإنما هو مستمد من النصوص

والاتفاق على فتوى دون أن يعلم مصدرها من الكتاب والسنة قليل جداً .

ولعل من هذا القبيل تقسيم الكاتب الأحكام الشرعية إلى ما كان عن آية قرآنية ، أو سنة متواترة، وما كان عن رأى الفقهاء ، كأن الفقهاء يقولون من عند أنفسهم دون أن يكون لآرائهم مستند من كتاب أو سنة ، ووضع كلمة (متواترة) هنا بجانب السنة يهدف إلى غاية منكرة ، إذ من المعلوم أن المتواتر من الأحاديث قليل ، وأن الأحكام الشرعية المأخوذة من الأحاديث غير المتواترة كثيرة ، وكأن الكاتب يريد ألا يعتد بهذه الأحكام ، وهو - فى هذا - يجهل لباب علم الأصول .

ونقول له ثانيا : إن الاجماع فى كل مسألة لا يعتد به إلا إذا كان من (المتخصصين) فى هذا العلم ، وليست أحكام الدين بأقل حرمة من قضايا الهندسة والطب والجغرافيا، فإذا كنا لا نقبل من أعلام الهندسة أن يفتونا فى أدق الشئون الطبية ولا فى أوضحها فكيف نقبل من رجال لم يتخصصوا فى الدراسات الدينية أن يفتونا فى شئون ديننا ، وأن نعتبر إجماعهم ملزما لنا ، بل ناسخا لاجماع الصحابة .

كيف نقبل من لجنة فيها كوهين ، ورقص والمستشرق فلان من أعداء الإسلام أن يكون حكمهم ملزما لنا فى شريعتنا ، بل ومعطلا للحكم الذى أجمع عليه صحابة رسول الله .

إننى مرة أخرى أجهل الغاية الحقيقية التى يجرى الكاتب خلفها ليدركها بمثل هذا الهراء .

٣ - وقريب من الاجماع اجتهاد المجتهدين .

والكاتب يرى فيه ما رآه فى الاجماع ، إنه يرى أن الاجتهاد منفصل عن الكتاب والسنة ، ويجعل هذا الاجتهاد قسيما لهما ، فمصادر التشريع عنده ثلاثة : الكتاب ، والسنة ، والاجتهاد - ونسى هنا الإجماع - ثم إن أقوال المجتهدين غير ملزمة لنا ، لأن لنا من الحق مثل ما لهم .

ولو أن الكاتب مال على طالب أزهرى

---

(١) تاريخ التشريع للشيخ الخضرى ص ٢٠٦ ط أولى .

صغير ، وسأله أن يعرف له الاجتهاد فقال له : إنه استفادة المكلف الحكم من كلام الوحى هكذا (كلام الوحى) . ولو ظفر بطالب آخر لعرف له الاجتهاد تعريفا آخر فقال له: هو بذل أقصى الوسع لتحصيل حكم شرعى عملى بطريق الاستنباط من الأدلة الشرعية .

وربما أسعده الحظ فلقى عالما أزهريا يقول له إن الاجتهاد هو الفقه ، وإن الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية ، وإذن فليست أقوال الوحى هى الأحكام وإنما هى (أدلة الأحكام) والعالم إذا وجه همه ، وبذل جهده واستخرج حكما من هذه الأدلة سمى (مجتهدا) .

فالاجتهاد - أيها السيد الجليل - ليس منفصلا عن الكتاب والسنة ، وإنما هو معتمد عليهما ، آخذ منهما .

ويخبط الكاتب - كعادته - فى موضوع الاجتهاد ، فيرى أن شروطه معجزة ، وأنه الآن أيسر منه فيما مضى للتقدم العلمى والرقى الفكرى اللذين يساعدان على المضى فى الاجتهاد دون خشية من الانحراف أو الخطأ ، ولتعدد الدراسات الذى يجعل ثقافة من يريد أن يجتهد أدق وأعمق من ثقافات السابقين .

ولا غرو ، فما دام يريد أن يقول فى الدين كل (من هب) وكل (من دب) فشروط الاجتهاد معجزة ، وما دام يرى أن من حق الفلاح فى الحقل ، والصانع فى المصنع ، والصحفى فى مكتبه بتلك المجلة التى تنشر الفساد ، ما دام يرى أن من حق كل هؤلاء أن يجتهدوا ، فلا بأس ، لأنهم أعمق ثقافة من السابقين ، ولا علينا أن يجتهد فى الدين من لا يحفظ آية من كتاب الله ، ولا من لا يعرف معنى السنة . ولا من لم يدرس شيئا فى سيرة الصحابة والتابعين ، والأئمة المجتهدين ، لا علينا من ذلك مادام قد قرأ (كارل ماركس) وتعاليم (لينين) ووجودية (سارتر) أليس هؤلاء أدق وأعمق ثقافة من السابقين .

٤ - ويبدو أن الكاتب (مجن ما مجن) ليصل إلى الرأى فى المعاملات الحديثة ، فهو يطالعنا - أولا - بأن السنة العملية كانت تدور أكثر ما تدور حول العبادات ، أما المعاملات فكانت عبارة الرسول عليه السلام : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

لقد ذكرنى هذا الكلام بموقف أبى حنيفة رضى الله عنه من ذلك الرجل الذى احترمه ، ثم تبين له .

قالوا إن أبا حنيفة كان يدرس فى المسجد ، وبينما هو جالس دخل رجل له هيئة وشارة حسنة ، وكان أبو حنيفة مادا رجله - لعل ذلك من وجع - فلما رأى الرجل ضمها ، ثم قال أبو حنيفة : إذا أدبر النهار من هنا ،

وأقبل الليل من هنا أفطر الصائم ، فقال الرجل : يا هذا ، إذا أدبر النهار من هنا ، وأقبل الليل من هنا ولا تزال الشمس طالعة ، فماذا نصنع ، فقال الإمام : إذن ، أبو حنيفة يمد رجله .

هل يصدق أحد لو لم يكن إمضاء الدكتور خلف الله مذيلا لمقاله أن مثله يقول هذا الكلام .

والمعاملات ، ليست فى كتاب . ولا سنة ، المعاملات فصل فيها النبى بقوله : أنتم أعلم بشئون دنياكم ، ومن عجب أن الكاتب ذكر أن كلام النبى هذا جاء فى حادثة أبر النخل .

فأولا من المعاملات البيوع والرهن ، والحجر والشفعة والوكالة والحوالة والكفالة وكثير غير هذه ولو قرأ الكاتب كتابا صغيراً فى الفقه الإسلامى لوجد فى أول كل باب من هذه الأبواب : دليل مشروعيته الكتاب والسنة .

وثانيا من قال ، ومن يعقل أن (أبر النحل) من المعاملات ؟

إن الكاتب فى سبيل هدفه يغفل عن أوضح الأمور ، وأبينها ، وهذا ليس شأن من يدعو إلى (التجديد الدينى) إلا إذا كان الدين عندنا أهون من كلمة تكتب فى صحيفة .

ومن هذا الخبط - أيضا - قول الكاتب إن الرجوع إلى السنة النظرية وبخاصة فى باب المعاملات كان قليلا ، يوم أن كانت تجمع وتدون ، كأن الفقهاء لم يكونوا يرجعون إلى هذه السنة إلا حين يجدونها فى كتاب .

ومرة أخرى أقول للكاتب ارجع إلى كتاب من كتب الفقه لتعرف أن السنة كانت مصدرا مهمـــا لكل التشريعات ، ومنها المعاملات .

ويخطو الكاتب خطوة أخرى فى شأن المعاملات فيرى : أن ما وافق مصلحتنا قلنا به ، وما لم يوافق أعرضنا عنه . فالأساس فى ميدان المعاملات - كما يقول - هو رعاية حاجات الناس ، والمصلحة العامة

وهذا كلام سبقه به الكاتب إسماعيل مظهر ، ورددنا عليه فى حينه ، ونريد أن نوجز له القول هنا . فنقول : إن معنى هذا أن المصلحة هى التى توجه النصوص ، وتفسر الآيات ، وليس الشرع هو الذى ينظم هذه المصلحة ، ويبين ما هو مصلحة فى الحقيقة ، وما ليس مصلحة ، إننا حين نخضع التشريع للمصلحة نختلف اختلافا كبيرا لأن بعض ما يراه الرأسماليون مصلحة لا يراه الشيوعيون . . . وهكذا .

ثم يخطو الخطوة الأخيرة - ولعلها الهدف الأصيل - فيرى أن جميع مشروعاتنا المستحدثة لا تحتاج إلى فتوى من رجال الدين إذ من المسلم به أن الكتاب والسنة لم يتعرضا لها ، لأنها لم تكن موجودة .

ما شاء الله . هل يعتقد الكاتب هذا الكلام حقا ؟ ألا يعرف الكاتب أن كثيراً من مشروعاتنا كان فى كل زمان ومكان ؟ ألا يعرف الكاتب أن فى التشريع الإسلامى قواعد كلية ، يرجع إليها للحكم فى المسائل الجزئية ؟ .

إن الكاتب نفسه يعى فيذكر أن من القواعد أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، وما دامت معاملاتنا الحديثة لم تكن موجودة فلم يرد فيها نص بالتحريم فهى مباحة .

أليس ذلك رجوع إلى قاعدة من قواعد التشريع ؟ يؤكدها من ينكر أن يكون للتشريع الإسلامى رأى فى هذه المستحدثات ، وليس بين الإثبات والإنكار فاصل يجعله ينسى . .

٥ ــ ويلح الكاتب فى رأى أبى يوسف فيما يتعلق بحكم العادة ، فينسب إليه مرة أخرى القول بأن الحكم الشرعى المبنى على العادة يعطل إذا تغيرت العادة ، ولا ضير من مخالفة النصوص .

وأنا لا أناقش الكاتب فى مدى صحة نسبة هذا القول إلى الإمام أبى يوسف ، ولكنى أناقشه فى المثال الذى أراد أن يطبق الحكم فيه بناء على هذا القول :

قال الكاتب : إنه ليس من حقنا اليوم أن نقتل الجندى المقاتل ، أو نسترقه ، وليس من حقنا أن نسبى النساء والأطفال ونسترقهم ، وليس للجندى نصيب فى الغنائم ، وليذهب قول النبى صلى الله عليه وسلم : من قتل قتيلا فله سلبه ، أدراج الرياح .

لماذا ؟ لأن قوانين الحرب قد تغيرت ، كما تغيرت العادات ، وكل ذلك قد عطل نصوص الشرع الشريف الخاصة بالغنائم ، ولا ضير فى ذلك ، ولا ضرر .

وهذا ــ أولا ــ اجتهاد من الكاتب ، وهو ليس أهلا لهذا الاجتهاد ، لأنه فيما أعرف ، وفيما يبدو من مقالاته لم يدرس أية دراسة جادة لكتب التشريع الإسلامى .

و ــ ثانيا ــ إن الحكم على شرعنا بالقوانين الدولية رفع لهذه القوانين فوق نصوص الشرع ، ولا يرضى بذلك مسلم .

و ــ ثالثا ــ على الكاتب أن يقرأ (باب الجهاد والسير) فى كتب الفقه ليعرف أنه لا ضير فى أن نسترق الجندى المقاتل لنا إذ توفرت الشروط التى كان يسترق بها الجندى فى حروب الإسلام ، وأن أخذ القاتل سلب القتيل لا يمنعه مانع ، ولا يعترض على هذا بأنا لا نستطيع اليوم أن نتبين من قتل القتيل فهذه ليست صورة مستحدثة ، وإنما كانت فى العهود الإسلامية الأولى ، وكان لها حكمها الإسلامى .

و ــ رابعا ــ من قال إن بلاد الإسلام تطبق

فيها هذه الأحكام حتى نرضى أو لا نرضى .

إن الكاتب يستخدم الأساليب الخطابية في أدق الشئون الدينية ، إنه يريد أن يعطل نصوص الشرع الشريف كما يقول ، لأننا لا نسمح بتطبيق هذه النصوص علينا .

أبهذه السهولة ـ ياصاحب الفن القصصي ـ تقضي على آيات بينات محكمات في كتابنا المقدس ؟

أهذا هو التجديد الديني ؟

لقد هزلت حتى بدا من هزالها

كلاها ، وحتى سامها كل مفلس

٦ - وأخيراً ـ وقد قلت إني لا أريد أن أراجع الكاتب في شيء من التفاصيل ـ أحب أن أقف معه وقفة قصيرة في دعوته التي ختم بها مقالاته :

لقد توجه إلى رجال الدين ، وإلى علماء الأزهر الشريف أن يطبقوا أحكام الشرع الشريف فيعلنوا تنازلهم عن أراضيهم التي تحت أيديهم ، لأن مصر فتحت عنوة ، والأرض المفتوحة عنوة ملك للدولة ـ كما تفيد نصوص الشرع فيما يرى الكاتب ـ .

ولست أريد أن أبين (تفاهة) هذا الكلام، ومايحمل من سوء قصد كما أني لا أريد أن أبين له أقوال الفقهاء في أرض مصر .

وإنما أريد أن أوجه نظره إلى أمرين :

الأول : أنه في كل ما سبق من مقالاته يرى أن المعتبر هو نص القرآن ، والحديث المتواتر ، وما عدا ذلك فأقوال فقهاء لنا أن نأخذ بها ، ولنا أن نلغيها .

فأين وجد في القرآن ، أو في الحديث المتواتر أن الأرض التي فتحت عنوة ملك للدولة ؟

الثاني : هل يعرف الكاتب الرقعة التي كانت مزروعة في مصر أيام فتح العرب لها ؟

إن بعض العارفين يقدر هذه الرقعة بعشر المساحة المزروعة الآن أما التسعة الأعشار الباقية فهي مما أصلحها الناس أو أصلحتها الدولة وباعتها للناس ، والنص الشرعي يقول : (من أحيا مواتا فهو له) .

أليس قول الكاتب هذا مما يؤكد له أن من الضروري لمن يكتب في مسألة أن يحيط بجميع ما قيل فيها ؟ وإلا كان قوله رداً عليه ، ودليلا على أنه يقول فيما لا يعرف .

إن رجال الدين ، وعلماء الأزهر الشريف ـ أيها السيد ـ كانوا وما يزالون المثل الأعلى للباذلين في سبيل الوطن ، وفي سبيل مصلحة الأمة ، وفي مقدمة الداعين إلى أن يأخذ الفقير حقه ، ولا نعرف فيهم من استغل مركزه أو عمله في سبيل كسب مادي ، والاحتيال على هذا الكسب بالمشروع وغير المشروع من الأعمال والأقوال ؟

علي العماري

من بحوث مجمع البحوث

الملكية الفردية وتحديدها في الإسلام

للأستاذ علي الخفيف

— ٥ —

تحديد الملكية الفردية في مقدارها :

إن الإسلام حين أقر الملكية الفردية مقيدة فى آثارها على ما بينا إنما أراد تجنيبها أن يساء استعمالها فتتخذ وسيلة للإضرار بالناس أو بصاحبها وكثيراً ما يجعلها النفوس طريقاً إلى الترف أو المفاخرة والمكاثرة والتعالى والطغيان وغير ذلك مما ترغب فيه النفوس عادة لمتعتها وهى الأمارة بالسوء إلا من رحم الله ـ والنفوس هى النفوس فى كل زمن وكل جيل ولذا كانت الداعية إلى العلاج قائمة فى كل عصر وزمن وكان إقرار الإسلام لها على هذا الوضع استجابة لتلك الداعية الإصلاحية التهذيبية .

ولقد قامت الدولة الإسلامية الأولى فى يثرب عقب الهجرة النبوية فابتدأ بقيامها عصر التشريع المالى والاجتماعى وقام الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغ هذه الشريعة على فترات زمنية تبعاً لما وقع فى عهده من الحوادث ونزل من النوازل وحدث من الحاجات فكان تبليغه للفصل فيما حدث وعلى وفق ما يتطلبه الفصل فيه استجابة لداعى الحاجة وعلى ذلك كانت الشريعة بقدر الحاجة وعلى وفق ما تتطلبه وكانت الثروة العامة يومئذ للمسلمين ضيقة الحدود قليلة المقدار فى جملتها بالنسبة إلى ثراء غيرها من الأمم الأخرى المعاصرة لها وكانت أهم مصادرها ضعيفة هزيلة إذ لم تتجاوز الزراعة فى مساحات ضيقة ينقصها ما تحتاجه من وفر الماء فقد كانت الزراعة فى حوائط معدودات لا يزال مظهرها الضئيل ماثلا إلى اليوم وكانت التجارة بقدر حاجتهم البدائية أما الصناعة والمصانع فلا تكاد يرى لها وجود وكان توزيع الثروة بينهم اضآلتها قريبا إلى أن يكون متعادلا إذ كانت موارد رزقهم لا تعدو فى الغالب أن تكون عطاء من غنائم أو من زكاة تقسم بينهم وقد كانوا فيه متساوين أما ما عدا ذلك فعمل قليل لبعضهم فى زراعة الأرض وأكثرهم من الأنصار أصحاب الأرض وعمل بعض لآخرين من المهاجرين والأنصار فى الأسواق ولم يعرف منهم بالثراء الواسع إلا عدد قليل منهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف

والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهم الذين أكبوا على التجارة والعمل فيها ومع هذا فقد كانت استجابتهم لدواعي البذل والإنفاق في سبيل الله على اختلاف وجوهه وتعددها استجابة سريعة قوية كريمة فكانوا يسارعون إلى الخروج عن جزء عظيم من أموالهم ثلثها أو نصفها بل قد يبذلونها جميعها وذلك على حسب الحاجة ومقتضى الداعية وليس إنفاقهم في هذه الوجوه بالأمر المجهول فعثمان رضى الله عنه يقوم بتجهيز جيش العسرة ، ويقحط أهل المدينة في زمن أبي بكر فيتصدق عليهم بألف راحلة تجيئه من الشام محملة بالبر والطعام فيدفعها في سبيل الله بما تحمل وعلى مثال ذلك تروى لنا صدقات عديدة تصدق بها عبد الرحمن ابن عوف والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله حتى إنهم كانوا يبرمون من كثرة أموالهم ويخشون أن يكون الله سبحانه وتعالى قد عجل لهم جزاءهم في الحياة الدنيا وكذلك نرى في الآثار المروية عن أصحاب رسول الله الكثير مما يشبه ذلك مما يدل على أن المسارعة إلى الإنفاق والبذل في سبيل الخير لم يكن من شأن المكثرين وحدهم بل كان ذلك أيضا من المقلين منهم حتى كان منهم من يؤثر على نفسه ولو كان بهم خصاصة وفيهم نزل قوله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » الحشر .

من هذا نرى أنه لم يكن في عهد رسول الله من داعية عن مصلحة أو ضرورة تدعو إلى النظر في دفعها بتحديد الملكية في مقدارها بل كانت الحال يومئذ إلى حفز القوى وإشاعة العمل والنشاط في سبيل تنمية الثروة ، ولذا نرى في السنة كثيرا من الآثار تدعو إلى العمل والسعي في كسب المال وتنميته ، ولذا ظلت الملكية الفردية مطلقة في مقدارها للإنسان أن يتملك من المال ما يستطيع كسبه ، غير أن الإنسان قد فطر على حب المال والضن به وعلى حب ادخاره والاستكثار منه ، وفي ذلك يقول الله تعالى « وإنه لحب الخير لشديد » (العاديات) ويقول : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا » (الإسراء ١٠٠) ويقول : « وأحضرت الأنفس الشح » ، (النساء ١٢٨) ، وذلك ما قد ينتهي به إلى الاستكثار من المال والضن به ، وقد يفشو ذلك وينتشر في بعض طوائف من الأمة لسبب من الأسباب كالانهماك في التجارة والمضاربة في الأموال أو الإيغال في زراعة الأرض وتملكها أو نحو ذلك ، فإذا أدى ذلك إلى التفاوت بين أفراد الأمة في الثراء تفاوتا عظيما تباعدت معه الفروق بينهم ،

واتسعت حتى ساء بذلك توزيع الثروة العامة بينهم وانتهى الأمر بسبب ذلك إلى أن أصبحت الثروة العامة فى أيدى طائفة أو طوائف معينة محدودة العدد وهم القلة فى الأمة، أما الكثرة فقد فقدت كل شىء إلا الفقر والحاجة والاستكانة والخضوع لأرباب الثراء العريض، الذين طفقوا يستخدمونهم بأبخس الأجور، ويستذلونهم ويغلبونهم على إرادتهم تحت تأثير عوزهم واضطرارهم إلى ما يقيتهم وإلا الحقد والبغضاء لأصحاب هذا الثراء العريض الذين يرونهم دونهم دما وخلقا ومنزلة حتى اضطغنت بسبب ذلك نفوسهم فانطوت على الثورة عليهم - إذا وصل الأمر إلى مثل هذا كان من الواجب شرعا علاج هذه الحال بما يرفع هذا الضرر العام اللاحق وذلك بما يراه ولى الأمر من وسائل لا يتجاوز فيها حدود ما يقتضيه دفع هذه الضرورة.

لم يحدث مثل هذه الحال ولا ما هو قريب منها فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانت تستوجب منه علاجا بالتشريع كما لم يحدث فى عهد الخلفاء الراشدين وكل ما لوحظ أنه قد جاء ما يدل على أنه قد حدث فى عهد عمر رضى الله عنه ما استدعى تفكيره فيه والنظر فى أمر علاجه وهو وجود فقراء ووجود أغنياء ضنوا بالمال عليهم فأمسكوا أن يتصدقوا بالفاضل منه فى سداد عوزهم بما دعاه إلى أن يقول بعد أن طعن تلك الطعنة التى قضى بها : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء. وهذا إن صح أن عمر رضى الله عنه قد قاله فليس يدل إلا على أنه وجد فى عهده فقراء وأغنياء ضنوا بالفاضل عليهم وهى حال توجد فى كل زمن ولم يكن لها من علاج سوى ما شرعه الله من زكاة وإنفاق وليس لعمر ولا لغيره أن يشرع ولا أن يأخذ ما لا من مالكه إلا بحق ولكن له أن يجتهد ويستنبط فإذا ساءت أخلاق الناس وضعف دينهم فتركوا ما طلبه منهم خلقا وأدبا من رعاية الفقراء ومعونة المحتاجين كان من الجائز حملهم على ذلك بقوة السلطان فيفرض عليهم فى أموالهم ما يقوم بسد هذه الحاجات ودفع هذه الضرورات.

إن الأمر الذى لا تصل اليه ريبة ولا شك هو كراهية الإسلام لأن يحتبس المال لدى فئة خاصة من الأمة فيتداول بينهم دون غيرهم ممن لا يجدونه ويدل على ذلك ن الله سبحانه وتعالى قد جعل ذلك علة لقسمة ما يفيئه على رسوله من أهل القرى بين أرباب الحاجات من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وذلك فى قوله تعالى «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم» الحشر ٧

إذ المعنى أن ما يفيئه الله على رسوله من أموال أهل القرى بلا إيجاف من خيل أو ركاب بل كان عن مفاوضة وصلح هو لله ولرسوله ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل مقسوما بينهم حتى لا يكون متداولا بين الأغنياء خاصة يتعاورونه فلا يصيب أحدا من الفقراء منه شيء وذلك ما يدل على أن تداول المال بين الأغنياء خاصة أمر كريه بغيض يجتنب ويجتنب كل ما يؤدى اليه. وأظهر ما يبدو فيه هذا الأمر الكريه أن تكون الثروة العامة فى أيدى طائفة من الأمة تحتازها وتمنعها فلا يصل إلى فقرائها منها شيء إلا ما يترك لهم وهم الأكثرون فى الأمة.

وقد يكون فيما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً فيما أفاء الله عليه من أموال بنى النضير دليل على ذلك فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قسم تلك الأموال التى تركها بنو النضير بعد إجلائهم وإخراجهم من ديارهم بين المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم إذ هاجروا بدينهم إلى المدينة وذلك لما كانوا عليه من فقر بعد هجرتهم مما اضطره إلى أن يؤاخى بينهم وبين الأنصار ليحملهم الأنصار إلى أن يرزقوا بكدهم وعملهم ولم يجعل للأنصار من ذلك المال حظا ما عدا اثنين ظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقرهما وبهذا اعتاض المهاجرون عن بعض ما تركوه من أموال بمكة عند هجرتهم وفى هذا نزلت الآيات من أول سورة الحشر ولقد وصلت هذه الكراهية فيما يرى أبو ذر رضى الله عنه إلى درجة الحظر والتحريم إذ كان يرى أنه يجب على المالك أن ينفق ما فضل عن قوته وقوت أهله فى سنة فيجعل ذلك الفاضل فى سبيل الله ويحرم عليه ادخاره ويستند فى ذلك إلى قوله: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» «التوبة ٢٤، ٢٥» كما يروى عن رسول الله الحديث الذى ذكرناه فى كلامنا على تقييد الملكية ولكن هل يرى أبو ذر فى ذلك ما يدل على أن إنفاق جميع ما يفضل عن قوت سنة أمر واجب فلا يجوز أن يستبقى من المال ما يستثمر فى التجارة أو العمل مثلا؟ ذلك ما أستبعده ولا أراه فأبو ذر هو ذلك الصحابى الجليل الذى عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاصر أصحابه ورأى منهم من كان يستثمر أمواله فى التجارة على مشهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم دون إنكار منه واعتراض مثل أبى بكر وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان.

وما كان لأبي ذر وقد شاهد ذلك ليرى رأيا يخالفه فالعمل في التجارة لا يكون إلا برأس مال يستثمر فيها وهو من غير شك مال فاضل عن قوت سنة ولم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كنزا مع ما كان يقوم به هؤلاء من الإنفاق في سبيل الله . ولم يكن مثل هذا ليخفى على أبي ذر . وعليه فكل ما في الأمر أن رأى أبي ذر لم ينقل إلينا ما يكشف عن حقيقته ويفصل لنا اتجاهاته ومداه . ولا نظنه إلا أن يكون رأيا ينكر على الأشحاء شحهم وضنهم بأموالهم عندما تدعوهم الداعية إلى النفقة في سبيل الله . ويرى ذلك مع كثرة المال أمرا محرما وإن رآه الجمهور بعد أداء فريضته أمرا مكروها .

وقد يرى أيضاً فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن زراعة الأرض وكرائها ما يدل على هذه الكراهية وعلى استحباب بذل الفاضل لمن هو في حاجة إليه وعلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كره أن تزيد ثروة أناس عن حاجتهم بينما يوجد فيهم من لا يجدون حاجتهم فقد كانت المزارع قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تكرى كما يدل على ذلك حديث ابن خديج إذ يقول (كنا من أكثر الأنصار حقلا فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما أخرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك) ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نهى عن كراء المزارع والأرض فقال : (من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه وإن أبى فليمسك أرضه) ووردت في هذا المعنى روايات أخرى صحيحة . كما روى عنه كذلك أنه أجاز كراءها بالذهب والفضة أو بالشيء المعلوم المضمون وأنه عامل أهل خيبر على الشطر مما يخرج من أرضهم ونخلهم وأن ذلك ظل باقيا إلى أن أجلاهم عمر في خلافته كما أن الناس لم يزالوا يتعاملون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على كراء الأرض دون نكير عليهم وذلك دليل على رفع ما ورد من الحظر على كرائها وعلى ذلك جمهور السلف والفقهاء .

وقد يبدو من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة كانت الثروة العامة فيها ممثلة في الأرض وزراعتها وكانت يومئذ في يد الأنصار ومنهم من كان يملك منها فوق حاجته ومن يعيا عن زراعة جميع ما كان يملكه منها فيؤجره لغيره فرأى أن المصلحة تقضى بالنهي عن كرائها وأن يشير على من عنده فوق طاقته وحاجته منها أن يمنح الزائد أخاه ليقوم على زراعتها لنفسه دون أجر يؤخذ منه نظير ذلك وذلك توسعة على الفقراء من المهاجرين بإيجاد عمل لهم يرزقون منه

إلى أن تستقر أمورهم وهذا نوع من العلاج أريد به الحض على رد ما يفضل عن الحاجة إلى من هو فى حاجة إليه . فلما استقرت الأمور ووجد الفقراء من المهاجرين لهم مرتزقا أباح لأصحاب هذه الأرض كراءها لغيرهم كما كان الحال قبل مقدمه ، وبناء على ما تقدم إذا ما تجمعت الثروة العامة فى أيدى فئة من الأمة إلى درجة أفقرت كثرتها فلم يجدوا حاجتهم فاستذلهم عوزهم وألصقهم بالترب عدمهم وساءت لذلك أحوالهم ولم يجدوا من ذوى الثراء يداً ولا معونة واشتدت بذلك المضرة وتحققت الضرورة فإن على ولى الأمر حينئذ أن يعمد إلى علاج هذه الحال دفعاً للضرر وإذا لم يكن لعلاج هذه الحال من وسيلة سوى أن يحد للملكية الفردية حداً لا تتجاوزه جاز له ذلك بما له من ولاية شرعية تخول له إيجاب ما فيه صالح الأمة وأن يجعل هذا حداً مطلقاً يتناول جميع أنواعها أو خاصاً فى نوع منها كالملكية الأرض مثلا إذا ما رأى أن الضرر يرتفع بذلك وقد بينا أن الشارع قد حد لها حدودا فى آثارها وحقوقها حين اقتضت المصلحة ذلك فإذا ما اقتضت كذلك أن تحد فى مقدارها وجب أن يحد له حدا كما حدد آثارها ، وقد بينا أن زيادة الملكية من المباحات قبل الإسلام وبعده ولم يرد فيها نص يجعل الحد منها خلافا عنه وفى مثل هذا يرى الفقهاء أن لولى الأمر أن ينهى هذه الإباحة بحظر يصدر منه لمصلحة تقتضيه فيصبح ما تجاوزه أمراً محظوراً فإن طاعة ولى الأمر واجبة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » « النساء ٥٩ » ومن نتائج نفاذ أمر هذا عدم ثبوت ملكية المستزيد لما زاده على الحد المرسوم .

والمراد بأولى الأمر الأمراء والولاة وهذا مروى عن ابن عباس وأبى هريرة ويقول الطبرى إنه أولى الأقوال بالصواب لكثرة ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم من إيجاب طاعتهم إلا فى معصية وهذا الإيجاب يتناول ما يأمرون به من إيجاب مباح أو تحريمه لمصلحة تقتضى ذلك .

وقد اشترط العلماء لذلك أن يكون من يصدر منه ذلك من الأمراء والولاة مجتهداً أو قد رجع فيه إلى رأى مجتهد حتى يكون أمره هذا مستنداً إلى دليل شرعى . ومن الأدلة الشرعية المصلحة المعتبرة شرعا . وتقدير هذه المصلحة وضرورتها مرجعه إلى ولى الأمر لأنه المنوط به إقامة الحدود وتأمين السبل وجهاد العدو وتنفيذ الأحكام والإشراف على شئون الرعية وتوفير المصلحة لهم وفى هذه الحال يكون ما أمر به حكما شرعيا يجب اتباعه شرعا .

اما إذا لم يكن مجتهداً ولم يرجع فى أمره إلى رأى مجتهد فإن طاعته حينئذ تجب باعتبار أمره أمراً يقوم عليه النظام وتضطرب بمخالفته الأحوال ويعرض مخالفه للعقاب .

ولقد كان من أعمال الخلفاء الراشدين ما يؤيد ذلك نذكر منها ما يأتى :

١ — اقتضت المصلحة فى عهد عمر رضى الله عنه أن يمنع الناس من أكل اللحوم يومين متتاليين من كل أسبوع لقلة فى اللحوم رآها فلم تكن تكفى جميع الناس فى المدينة فعمد إلى هذا المنع فأوجبه وكان يأتى بجزورة الزبير بن العوام بالبقيع ولم يكن بالمدينة سواها فإن رأى من خرج عن هذا المنع ضربه بالدرة وقال له هلا طويت بطنك يومين وقد فعل ذلك ليتداول اللحم بين الناس وكان منعه هذا فى أمر مباح « ترجمة عمر لأبى الفرج الجوزى » .

٢ — حمل عثمان رضى الله عنه الناس حين قام بجمع القرآن على قراءته على حرف واحد بعد أن كان لهم أن يقرءوه على سبعة أحرف كانت مباحة لهم وذلك لما رأى من اختلاف الناس فى قراءته وما أدى إليه اختلافهم هذا من نزاع وخلاف بينهم خاف تفاقم شره .

٣ — منع عمر رضى الله عنه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من تزوج الكتابيات مع حل ذلك بنص الكتاب وقال إنى لا أحرمه ولكنى أخشى الإعراض عن الزواج بالمسلمات . « القرطبى ص ٣ سنة ٦٨ » .

وبناء على ذلك فليس ما يمنع من تحديد الملكية تحديدا عاما أو خاصا فى نوع من الأنواع إذا ما اقتضت المصلحة والضرورة ذلك ولا شك أن تحديدها فى مقدارها كتحديدها فى آثارها بل ربما كان تحديدها فى آثارها أقرب سبيلا لأن تحديد الآثار يستلزم أن يسلب السبب الشرعية أثره فلا يصير سبباً .

وإذا ما أقدم ولى الأمر على هذا التحديد الضرورة التى اقتضته فهل تنتهى عند الحد الذى رسمه كل ملكية قائمة تجاوزته فيؤخذ منها ما زاد عليه ويعود إلى ملك الأمة ؟ وإذا أخذ منها فهل يؤخذ منها ببدل ؟

إنه لا سبيل إلى ترك هذه الزيادة لأصحابها لأن تحديد الملكية إنما كان واجبا شرعيا اقتضاه رفع ضرر ماثل فى تجميع الثروة فى أيدى فئة قليلة وفى تفاوت الفروق فيها بين أفراد الأمة إلى درجة أدت إلى الاضطراب والفتن وفى ترك هذه الزيادة فى أيدى أصحابها إبقاء على ثروتهم وفيه إهمال وترك لهذا الواجب ونقض لمقتضى الحد منها وعدم ثبوت ملكية صاحب الزيادة لما فى يديه

من زيادة وعلى ذلك يجب أخذ هذه الزيادة وانتقاص ملكية صاحبها بأخذها . ولا يتم هذا الانتقاص إلا إذا أخذت بلا بدل ذلك لأن فى أخذها بالبدل إبقاء على مقدار ثروة صاحبها وليس فيه إلا تغيير عناصرها وذلك بأن يستبدل بعنصر منها آخر يضم إليها وليس يعد هذا اعتداء على ملك محترم لأنه لا ملك بعد الحد منها وجوب ونفاذ ذلك شرعا ومثل ذلك مثل المال يؤخذ فى تجهيز الجيوش وإعداد العدة للدفاع عن البلاد ضد المعتدين عليها وذلك إذا لم يكن فى بيت المال ما يقوم بذلك من الأموال فقد ذهب العلماء والفقهاء إلى أن ذلك يؤخذ كما تؤخذ الوظائف والضرائب بلا عوض والأخذ فى الحالين سواء فهو مما تقضى به الضرورة فى كل منهما .

وعلى ذلك يكون ما يؤخذ لهذا الغرض ملكا للأمة شأنه شأن ما يجبى من الأموال العامة كالخراج فيصرفه ولى الأمر فى دفع هذا الضرر بالطرق التى يراها دافعة له .

وإذا لاحظنا أن ما للمالك من حق فى حماية ملكيته وعدم المساس بها إنما هو من حق مقيد كغيره من الحقوق التى منحها الشارع مقيدة بعدم الضرر وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار) تبينا أن ليس فى أخذ الزيادة اعتداء على هذه الحماية لأنه أخذ بحق وإذا كان بحق لم يكن اعتداء إذ لا قيام للملكية ولا لحمايتها أمام حق يطلب ولذا أخذ للجائع المشرف على الهلاك من مال غيره ما يقيم من حياته دفعا للهلاك عنه دون أن يمنع من ذلك ما للمالك صاحب المال من حماية ، ألا ترى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر بقلع نخل سمرة بن جندب دون مراعاة لحقه فى حماية ملكه حين اتخذها وسيلة إلى الإضرار بغيره وأبى بيعه أو هبته لصاحب البستان الذى يقوم فيه ذلك النخل . وقد ذكرنا ذلك فيما مضى وعلى أساس ذلك كان قضاء عمر رضى الله عنه للضحاك بن خليفة الأنصارى إذ قضى له بإمرار خليج من أرض محمد ابن مسلمة رغم إبائه ذلك ولعبد الرحمن بن عوف إذ قضى له بتحويله ساقية فى بستان إلى جهة قريبة من أرضه على الرغم من إباء صاحب البستان وقد ذكرنا ذلك فيما سبق فهذا وأمثاله مما يروى يدل على أنه لا حماية للملكية عند تحقق الضرر .

ولقد شاطر عمر رضى الله عنه بعض ولاته الذين وردوا عليه من ولاياتهم بأموال لم تكن لهم استجابة لمصلحة عامة تمس الولاية وهو البعد بها عن الشبهات وعن اتخاذها مغنما ووسيلة للاستكثار من الأموال ففعل ذلك مع عتبة بن أبى سفيان إذ ولاه على كنانة فقدم عليه بمال فقال له : يا عتبة ما هذا ؟

فقال : مال خرجت به واتجرت فيه فقال له : لم تخرج هذا المال منك فى هذا الوجه ثم صيره فى بيت المال وكذلك فعل مع أبى هريرة وقد ولاه على البحرين . وإذا قيل : إن مرجع ذلك إلى الشك فى طريق تملكهم هذا المال لا المصلحة التى قضت بالأخذ منهم فالشك فى طريق تملكهم لا يرقى إلى إبطال ملكية تقوم على اليد والمشاهدة .

وعلى ذلك يرى أن أخذ هذه الزيادة إذا ما دعت مصلحة عامة إلى أخذها بغرض إنقاص ملكية صاحبها إنما يكون بلا بدل يعطى له وعندئذ تكون هذه الزيادة ملكا لكافة المسلمين يوجهها ولى الأمر الوجهة التى من أجلها أخذت لا لوجهة أخرى وإلا كان أخذها اعتداء لا يستند إلى حق .

ذلك ما انتهى إليه النظر فى هذا الموضوع وهو رأى رأيته فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فلا عصمة إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يشرع للناس .

على الخفيف

متاع الغرور

إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

هذه الرمزية

حرب جديد على اللغة والدين

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

ظهرت فى السنوات الأخيرة بدعة الشعر الجديد ، الذى خرج على أصول الشعر فى صورة مزعجة ، فتلقاه الناس غير ملتفتين إليه ، أو آبهين له ، إذ كان مبهم المعانى ، مضطرب الأساليب ، لا تستريح إليه الأذن ، ولا يتجاوب معه العقل ، وكان أن ترك الناس هذا الشعر يمضى لقدره المقدور له ، من الموات والضياع لأول أيامه فى الحياة ، إذ ما كان لمثل هـذا المخلوق الشائه أن يحيا ، وأن يمتد عمره فى الحياة . !

ومع ما يقوم بين يدى هـــذا الشعر من دلالات قوية قاطعة على المصير المحتوم له ، فإن هناك أشتاتا من الناس قد تظاهروا على التشبث المستميت به ، وبذلوا له فى سخاء ماء وجوههم ليجدوا له أنصارا من الكتاب والنقاد ، وليأخذوا له مكانا فى الصحف والمجلات والإذاعة ، متوسلين لذلك بكل وسيلة من وسائل الإغراء والاستجداء . !

وقد عجب الناس لهذا الإصرار العنيد على التشبث بهذا الشعر أشد من عجبهم لهذا الشعر نفسه ، وللصورة الممسوخة التى ولد عليها ، وذهب الناس مذاهب شتى فى التعليل لهذه الجهود الضائعة المضنية ، التى يبذلها أنصار هذا البدع المنكود من القول ، وكان أحسنهم ظنا من قدر أن هؤلاء الذين ينافحون عن الشعر الجديد إنما ينزعون عن رغبة طيبة فى الإصلاح والتجديد وأن يكونوا قد أخطأوا الطريق وضلوا السبيل ، وأنه لا بأس من أن يتركوا وما يحاولون حتى تنقطع بهم الحيل ، ويومها يدركون أن العود أحمد ، وأن السلامة فى الإياب !

* * *

هذه حال كنا فيها مع الشعر الجديد إلى يوم قريب .. قد غفل الناس عنه ، وعن أصحابه وأنصاره ، وتركوه لهم ، وتركوهم له ، يمضون إلى حيث ينتهى بهم وبه المطاف ، ولكن الذى حدث فى هذه الأيام يجعلنا نحمل الأمر على غير هذا المحمل ، ونقدره على غير هذا التقدير ، فلقد تكشفت الحال عن خبايا وخفايا ، كانت تكمن وراء هـذه الدعوة الملحاحة إلى التجديد فى الشعر ، وظهر أن لهذه الدعوة مرامى بعيدة ، ومقاصد معينة تريدها

وتعمل لها ، لتنال من اللغة العربيـة منالا يصيبها فى صميمها ، ويذهب بوجودها الذى إن ذهب ضاع بذهابه كيان الأمة العربية ، وانطمست معالم الدين الذى يدين به العرب ، وتدين به شعوب كثيرة تتلقى مصادره من اللسان العربى الذى لا مصدر لها غيره .

وإنه ليحق لنا ـ وقد داخلنا هذا الشعور من جهة الشعر الجديد وأنصاره ـ يحق لنا أن نعيد النظر فى موقفنا من هـذا الشعر ودعاته ، وأن نقف من هذه الحركة موقفا يدفع الخطر الذى يمكن أن ينال اللغـــة والعقيدة لو قدر لهذه الدعوة أن تمضى إلى الغاية التى تريدها ، وتعمل جاهدة لبلوغها !

وليس هـذا الكيد الذى يكاد للإسلام ولغة الإسلام أول رمية يرمى بها أعداء هذا الدين فى وجهه للقضاء عليه ، أو لتعويق حركته ، أو لتضليل النَّاس عنه ..

ففى كل دورة من دورات الحياة كان الإسلام فى مواجهة عداوات ظاهرة ومستترة ، وفى مجال رميات مسعورة مسمومة . « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون » .

وهذا البدع الجديد لدعاة حركة التجديد فى اللغة هو ـ فيما نعتقد ـ رمية من تلك الرميات الخبيثة الماكرة التى تتخفى تحت دعوة الغيرة على اللغة ، وحمايتها من الزحف الأجنبى عليها ، على حين أنها تريد أن تقتلع هذه اللغة من جذورها ، وأن تذهب بها فى مذاهب التيه والضياع !

وقد آن لنا أن نخرج من هذا التلميح إلى التصريح ، وأن نواجه الامر بما ينبغى أن نلقاه به من الدع والردع !

ولقد أشرنا من قبل إلى المشاعر التى استقبل بها الناس هذا الشعر الحديث أول عهدهم به ، وأنهم لم يلتفتوا إليه ، ولم يقفوا عنده ، وعدوه ضرباً من اللهو ، ومجالا للعبث ويشغل أوقات الفراغ عنـــد العابثين والفارغين .

ونقول إن هـذا الوقت قد أغرى أصحاب هذه الدعوة بالكشف عن وجهها والإفصاح عن مضمونها ، والمعالنة بالغاية التى تتغياها ، فرأينا دعوة جديدة تقوم وراء هذه الدعوة ، وهى أن هـذا الشعر ليس كما يراه الناس ، ألفاظاً مفككة ، وعبارات مهلهلة ومعانى هزيلة تافهة ... وإنما هو عوالم فسيحة تموج بالصور والمعانى التى تندس فى كيان الحروف والكلمات التى يتشكل منها هذا الشعر المخترع !

ومن هنا بدأت نطفة انطلاق جديدة لدعاة هذه الحركة ، وشهد الناس لهؤلاء الدعاة نشاطاً مركزاً على إقامة مفاهيم لهذا الشعر تعتمد

على « الرمزية » التي بها يمكن أن تحل طلاسمه ، وتكشف معمياته ، وتنفتح مغاليقه .

ومنذ وقع لأنصار هذا الشعر المسيخ أن يضيفوه إلى « الرمزية » وأن يحسبوه عليها ، حسبوا أنهم قد وجدوا لهذا الشعر ما يضمن له وجوده ، ويحفظ عليه حياته ، ويرد عنه كل ما يمكن أن يتهم به من ضحالة المعانى ، واضطراب الأساليب ، وركاكة العبارات ... ففى حمى الرمزية تختفى كل هذه العيوب ، ومن حماها تنطلق المعانى ، والأخيلة ، والرؤى التى يمكن العثور عليها من كل أفق ، وانتهابها من كل فن ثم ادعاؤها لهذه الكلمات الخرساء الميتة التى يتشكل منها جسد الشعر الجديد ، والتى كان استغلاقها وصممها آذنا بقبول كل قول يقال عنها !

ولقد استطاع دعاة الشعر الجديد أن يضعوا كلماته الخابية الخامدة أمام الناس ، ثم يطلقون من حولها المباخر ، ويرسلون فى وجهها التعاويذ والرقى ، كما يفعل السحرة والمشعوذون ، حتى إذا خيل إليهم أن الناس قد أصابهم خدر مما ترسله هذه المباخر من أدخنة ، وقد غشيهم صداع مما يلقى إليهم من تهاويل وتخريفات ـ أطلقوا لهم من تلك القماقم أشباحا ، تتبدى فى صور شائهة لا يعرف الناس لها رأساً ولا ذنباً ، يخيلون للناس منها أنها آيات معجزات ، وروائع لا يجود الزمان بمثلها أبداً .

إن بدعة « الرمزية » هذه قد جاءت لتغطى عوار هذا الشعر الذى أراد به أصحابه إفساد اللغة العربية ، وتضييع معالمها ، وقطع الصلات التى بين الناطقين بها ... فلما أن عرف الناس وجه هذا الشعر ، ورموه بالازدراء والمقت ، مد إليه أصحابه حبال هذه « الرمزية » لينقذوه من الغرق ، ولينتشلوه من الهاوية التى يهوى إليها .

ثم كان من كيد أصحاب هذا البدع أن دخلوا « بالرمزية » على الأدب العربى فى مجال القصة ، فخرفوا فيها الكلم عن مواضعه ، وولدوا من الألفاظ والعبارات مواليد عجيبة لم تقع فى خيال كاتب القصة نفسه ، ولم تدر بخاطره !

ومن يدرى ؟ فلعل أصحاب هذه الرمزية ـ إن مد لهم فى هذا الطريق الذى سلكوه ـ أن يجعلوا الرمزية هى الحكم الذى يحتكم إليه فى لغة العلم ، كما احتكموا إليه فى لغة الفن ، ثم لا يقف الأمر عند هذا ، بل يمتد إلى لغة التخاطب أيضاً ... ويومها تفقد اللغة وظيفتها من الإفهام والفهم ، ويكون على الناس أن يتعلموا التنجيم والسحر ، ليفكوا هذه الطلاسم وتلك المعميات ، ثم لا يكون على أحد

منهم حرج إذا فهم غير ما سمع ، أو فهم عنه غير ما أسمع !

« والرمز » بلا شك له مكانة فى الأدب ، وفى الفنون الجميلة كلها ... ذلك أن الفن إنما يختلف عن العلم فى أنه يعرض الحقائق التى يعترف بها العلم فى أسلوب يزاوج بين التلميح والتصريح ، ويجمع بين الغموض والوضوح ، وبهذا لا يعطى العمل الفنى كل ما اشتمل عليه من حقائق مرة واحدة ، وفى نظرة واحدة ، وإنما يكون الفن على حظ من الإصالة والجمال حين ينظر الناظرون فيه فيأخذ كل بحظه منه ، قطرة قطرة ، وحالا حالا ، وهذا هو الذى يضمن للأعمال الفنية حياة متجددة مع كل نظرة ، وعند كل ناظر ! .

واللغة العربية تعرف « الرمز » بهذا المفهوم فى شعرها ونثرها ، لأنها لغة قوم عرفوا بالذكاء ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، واكتفوا فى كثير من المواقف باللمحة الدالة ، والإشارة الموحية ، وقالوا : رب إشارة أبلغ من عبارة !

وقال شاعرهم :

يرمون بالخطب الطوال وتارة
وحى اللواحظ خيفة الرقباء

كما عرفوا اللحن ، وهو تحميل الكلام دلالات معهودة بين المتخاطبين ، لا يفهمها منه غيرهما ... قال الشاعر :

منطق صائب ، وتلحن أحيا
نا وخير الكلام ما كان لحنا

وقال أيضا :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا
ووحيت وحيا ليس بالمرتاب

ولقد جاء فى القرآن الكريم : « الرمز » و « الوحى » و « اللحن » بهذا المفهوم ، فقال تعالى : « قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » . . وقال سبحانه : « فخرج على قومه فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » ، وقال : « ولتعرفنهم فى لحن القول » . .

وهذا كله يدل على أن اللغة العربية تعرف « الرمز » الذى هو إيحاءات وإشارات يزداد بها المعنى ثراء ، وقوة ، ووضوحا ، لا هذه « الرمزية » التى يروج لها اليوم أخلاط من الناس قد اختلفت ثقافاتهم ، وتباينت مشاربهم وعقائدهم ، وجمعهم هذا البدع الذى سعى إليه كل منهم لحاجة فى نفسه ، إذ بينما أراده بعضهم لهدم اللغة وتضييعها ، تعلق به بعض آخر ليلحق ـ كما قدر ـ بركب المجددين المتحررين ! ـ فهذه « الرمزية » لا تأخذ معطياتها من إيحاء العمل الفنى ، وإنما هى وساوس وخطرات تموج فى صدور

أصحابها ، وتنطلق على أقلامهم بلا وعى ، وبغير حساب !.

ونود أن ننبه إلى أن هـذه « الرمزية » المغلقة العمياء إنما همها الأول هو الترويج لإذاعة الفوضى فى اللغة ، بالتحلل من أصولها وقواعدها ، والخروج على مقررات نحوها وصرفها ، والإهدار لمدلولات كلماتها ، ولأنماط أساليبها وأوزان شعرها ، فذلك هو الذى يتيح لتلك « الرمزية » مجال العمل فى هـذه الصور الشائهة المعتمة من صور القول ، حيث يستوى العالم والجاهل فى النظر إليها ، والفهم عنها ، فـكل قول يقال عنها ليس غيره أولى منه بالدلالة عليها ، والتعريف لها .. إذ كل الأقوال عنها رجوم وظنون

ونود أن ننبه أيضا إلى أن هذه « الرمزية » قد كانت سلاحا من أسلحة أصحاب الدعوات المنحرفة ، سواء فى مجال العقيدة أو السياسة ، إذ كثيراً ما شهر هذا السلاح المدمر فى وجه النصوص الواضحة الصريحة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فغير صورتها ، وشوه حقيقتها ، وجاء بمفاهيم ومقولات ما أنزل الله بها من سلطان ، وحسبنا أن نذكر هنا ما أثمر هذا المكر بآيات الله وسنة الرسول من ثمر نكد ، وما أخرج من مذاهب ومعتقدات أفسدت تعاليم الإسلام ، وشوهت معالمه ، كما نرى ذلك فى تعاليم الباطنية ، ومعتقداتهم ، وتأويلاتهم لنصوص الكتاب والسنة ، ونكتفى هنا بمثل صغير فى فهمهم لقوله تعالى : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها . » فقالوا عن الشمس إنها « على » وعن ضحاها أنه « فاطمة » ، وعن القمر إنه « الحسن » ، وعن النهار إنه « الحسين » ، وعن الليل إنه دولة « بنى أمية » .

وهكذا يذهب الباطنية ومن إليهم هذه المذاهب الملتوية المضللة فى تأويل آيات الكتاب ، ومقولات السنة ، يلوونها ليا إلى ما يتفق وأهواءهم ، دون أن يقيموا وزنا لدلالات اللغة ومفاهيمها التى يتعامل بها أهلها .

والرمزية التى تطل برأسها اليوم أشد خطراً ، وأكثر تدميراً وفتكا بالشريعة الإسلامية ولسانها من جميع ما عرف من أسلحة تهددت اللغة العربية والشريعة الإسلامية إلى اليوم ...

ذلكم أن تلك القوى المحاربة للغة أو العقيدة كانت تلتقى بهذه أو تلك فى مجال محدود ، وفى قضايا واضحة ظاهرة قد استقرت فى ضمير المجتمع العربى والإسلامى ، ومن هنا كان مصير هذه المحاولات كلها الاندحار ، والضعف والزوال .

أما هذه « البدعة » - بدعة الرمزية - فإنها تحمل الطابع التدميرى لهذا العصر ، وتعمل بأسلحته المدوية التى لا تبقى على شىء.

فلقد جاءت هذه الرمزية مغلفة فى أغلفة التجديد ، والدعوة إلى استنقاذ اللغة العربية وحمايتها من أن تطغى عليها اللغات الأوربية ، بحجة أن الرمزية هى القادرة على أن تحمى اللغة العربية من ظهور هذا النقص فيها ، بما تستخرج من نتاجها - أياكان - كل معنى مبتكر ، وكل خيال محلق يحمله الأدب الأوربى ، ثم تخرج به على الناس منسوباً إلى هذه الأمساخ الشائهة من القول وبمثل هذا الخداع والتضليل تتخدر أعصاب كثير من الناس فيقبلون أولا نسخ اللغة ، والخروج على أصولها وقواعدها لينفسح مجال العمل الرمزية فيها ، ثم يقبلون ثانيا أن تتولى هذه الرمزية إعطاء مفاهيم لهذه النصوص التى يقدمها الشعراء والكتاب الذين أطلقتهم هذه الرمزية طلائع لها ...

ثم ينتهى الأمر باللغة العربية وآدابها ، وشريعتها التى تحملها - ينتهى الأمر إلى أحد احتمالين لا ثالث لهما :

إما قبول التراث العربى كله ، ومن بينه نصوص الكتاب والسنة لحكم الرمزية فيه ، ومقولاتها عنه ، وتخريجاتها له ، وإما موات هذا التراث وإحالته إلى مخلفات القرون البائدة ، لا ينظر الناس إليه ، إلا كما ينظرون إلى ما فى قبور الفراعنة من جثث ، وما عليها من نقوش .

إن التجديد فى اللغة - أى لغة - ينبغى أن يكون مواتيا لطبيعة هذه اللغة ، نابعا من أصولها ، مستلهما من روحها .

وفى اللغة العربية طبيعة سخية معطاءة لكل من ورد مواردها ، ودخل عليها من بابها .

أما هذا التجديد الذى يجيئها من مترجمات باردة غير ناضجة من الغرب والشرق فهى رقع غريبة إن قلت كانت تشويها ولا شىء وراءه غير هذا ، وإن كثرت غلبت على اللغة العربية وذهبت بسماتها وكانت أشبه بطيلسان ابن حرب الذى يقال إنه كان كلما وجد رقعة ألصقها به حتى ذهب الطيلسان ، وبقيت المرقعات !

وبعد ، فهل يتنبه ، ذوو الغيرة على العروبة والإسلام لهذا الكيد الذى يكاد للعرب ، وللإســــلام ؟ ذلك ما نرجوه ونلح فى الرجاء له ؟

عبد الكريم الخطيب

جماعة إخوان الصفا

للأستاذ محمد غفراني الخراساني

— ٢ —

٦ — يقول المستشرق « دى بور » فى موضوع رسائل إخوان الصفا « وأما رسائلهم فهى أشبه ما تكون بدائرة معارف مرتبة تضم علوم ذلك العصر وتدل على أنهم أصابوا من الرقى الفكرى حظا وافرا » ويقول أيضا « لا نعرف على وجه اليقين مدى نجاح هؤلاء الاخوان فى تحقيق المثل الأعلى الذى كانوا يرمون اليه » . [١] ويقول القفطى فى وصف رسائلهم « هؤلاء ـ إخوان الصفا ـ جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب فى أنواع الحكمة الأولى ورتبوه مقالات عدتها إحدى وخمسون مقالة ، خمسون منها فى خمسين نوعا من الحكمة ، ومقالة حادية وخمسون جامعة لأنواع المقالات على طريق الاختصار والإيجاز وهى مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج وكأنها للتنبيه والايماء إلى المقصود الذى يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة [٢] فنرى أن القفطى يصف الرسالة الحادية والخمسين بأنها جامعة فى حين أن رسالة الجامعة رسالة مستقلة تختلف عن مجموعة الرسائل وكلها كما يصرح بذلك إخوان الصفا أنفسهم فى رسائلهم فيقولون « اعلم أيها الأخ البار الرحيم ... أنا قد جعلنا فى كل رسالة من رسائلنا فصلا جعلناه من لبها وخالصها إذا وفق له من فهمه ، وعمل به نال السعادة فى الدنيا والآخرة . وقد لخصنا ما أوردناه فى رسائلنا الإحدى والخمسين فى رسالة مفردة عن الرسائل سميناها « الجامعة » وهى خارجة عن جملة الرسائل » [١] ويقولون فى موضع آخر من رسائلهم : « هذه فهرست إخوان الصفا ... وهى اثنتان وخمسون رسالة فى فنون العلم وغرائب الحكم وطرائف الآداب وحقائق المعانى عن كلام خلصاء الصوفية صان الله قدرهم وحرسهم حيث كانوا فى البلاد [٢] .

وكلام إخوان الصفا هذا ينص على أن الرسالة الجامعة تلخيص عن مجموعة الرسائل ومفتاح لكشف غوامضها وإذن يكون من الخطأ أن يقول قائل إن رسالة الجامعة تعد

---

(١) تاريخ الفلسفة لدى بور ترجمة أبو ريدة ص ٩٨ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ٥٨ .

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣ .

من ضمن مجموعة الإحدى والخمسين رسالة بل هي زائدة عليها ، اللهم إلا أن يقال أن معنى جامعة هو شاملة فهذه اللفظة ليست اسما بل وصفا (١) .

ولقد نالت هذه الرسائل إقبالا عظيما من الناس وحملها أحد رياضي أسبانيا إلى بلاده في أواخر القرن الرابع الهجري وفي نهاية القرن الثامن الهجري ترجمت إلى الفارسية لأحد وزراء تيمورلنك (٢) .

هذا عرض موجز لتاريخ إخوان الصفا ونشأتهم ورسائلهم (٣)

ثالثا

١ — رسالة الحيوان : ألف إخوان الصفا هذه الرسالة على غرار كتاب كليلة ودمنه من مجموعة رسائلهم وتتألف من خمسة وستين فصلا (١) وكان لهذه الرسالة أثر كبير في موضوع القصة في اللغة العربية إذ تطورت القصة على لسان الحيوان بعد تأليف إخوان الصفا رسائلهم هذه إلى صورة أخرى ذات مظهر خطير من ناحية الفكرة الفلسفية في البيئة الإسلامية فقد نقلوها من مغزاها الاجتماعي والأخلاقي إلى الميدان الفلسفي .

وتتضمن هذه الرسالة محاكمة طويلة بين

---

(١) وتوجد نسخة مخطوطة بعنوان « رسالة الجامعة » في مكتبة المرحوم الدكتور كامل حسين أستاذ كرسي الأدب المصري بجامعة القاهرة وهي كبيرة الحجم ولكنني لم أتأكد من صحة نسبتها إلى إخوان الصفا وتحتاج إلى دراسة لمعرفة هل هي نفس رسالة الجامعة التي يشير إليها إخوان الصفا في رسائلهم .

(٢) الحضارة الإسلامية لبارتولد ترجمة حمزة طاهر ص ٤٥ .

(٣) ومن يطلب الاستزادة في ذلك فعليه بالرجوع إلى المصادر التاريخية التي تتحدث عن هذه الجماعة بشيء من التفصيل ، ومن تلك المصادر كتاب الامتاع والمؤانسة ج ٢ لأبي حيان التوحيدي ، وكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي وكتاب تاريخ الفلسفة « لدى بور » ترجمة أبو ريدة . — وكتاب ضحى الإسلام ج ١ لأحمد أمين والمقالات التي نشرها أديب عباس في مجلة الرسالة (لأعداد ٣٤ و ٣٥ و ٤ عام ١٩٣٤ م في القاهرة) ، والمقدمتين العلمية والتاريخية الأولى للدكتور طه حسين والثانية لأحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفا تحقيق خير الدين الزركلي طبعة القاهرة . والحضارة الإسلامية لبارتولد ترجمة حمزة طاهر وكتاب إخوان الصفا لعمر الدسوقي وكتاب إخوان الصفا لكل من عمر فروخ وعبد اللطيف الطيباوي والبولسي طبعة بيروت والأخير نشر في مجموعة فلاسفة العرب وكذلك كتاب رسائل إخوان الصفا للمرحوم الدكتور حسين الهمداني بسكون الميم نسبة إلى قبيلة همدان اليمنية — أستاذ الأدب الفارسي بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة وكتاب تاريخ فلاسفة العرب لمحمد لطفي جمعة غيرها من المصادر العربية والفارسية والأوربية التي عرضت لإخوان الصفا

(١) انظر الرسالة الثامنة من القسم الثاني من رسائل إخوان الصفا

الإنسان والحيوان أمام « بيراست الحكيم » ملك الجان . وقد أطنب إخوان الصفا فى هذه المحاكمة ليثبتوا بها دعائم مذهبهم ويدعوا بها آراءهم الفلسفية ، ويعد أكثر الباحثين هذه الرسالة من أقوى رسائل إخوان الصفا أسلوبا ومنطقا .

٢ - غرض إخوان الصفا من تأليف رسالة الحيوان .

يبين لنا إخوان الصفا أنفسهم فى مقدمة هذه الرسالة وختامها الغرض الذى دفعهم إلى أن يعرضوا أفكارهم الفلسفية بصورة الهزل والمتعة وذلك عن طريق نقلها على لسان الحيوان فيقولون فى مقدمة الرسالة « إن الإنسان إذا كان فاضلا خيراً فهو ملك كريم خير البرية وإن كان شريرا فهو شيطان رجيم شر البرية ، وجعلنا بيان ذلك على ألسنة الحيوانات ليكون أبلغ فى المواعظ ، وأبين فى الخطاب ، وأعجب فى الحكايات ، وأظرف فى المسامع ، وأطرف فى المنافع وأغوص فى الأفكار وأحسن فى الاعتبار[1] » ويقولون كذلك فى ختام الرسالة : « اعلم أيها الأخ أنا قد بينا فى هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب ، ولا تظن بنا ظن السوء ، ولا تعد هذه الرسالة من ملاعبة الصبيان ، ومخارقة الإخوان ، إذ عادتنا جارية على أن نكسو الحقائق ألفاظا وعبارات واشارات كيلا يخرج بنا عما نحن فيه[1] » وهذا نفس الغرض الذى كان يرمى إليه ابن المقفع من ترجمة كتاب كليلة ودمنة إذ يقول : فى باب عرض الكتاب « وكذلك يجب على القارىء هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر معانيه ، ولا يظن أن نتيجته إنما هى الإخبار عن حيلة بهيمتين - كليلة ودمنة - أو محاورة سبع لثور فينصرف بذلك عن الغرض المقصود . . . وينبغى الناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض أحدها : ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة من مسارعة أهل الهزل من الشبان إلى قراءته فتستمال به قلوبهم . لأن هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات[2] » لقد ألف إخوان الصفا هذه الرسالة على لسان الحيوان تقليدا لكتاب كليلة ودمنة ليكون الجد بصورة المتعة ، ومن ثم أخطأ بعض الباحثين حيث زعموا أن إخوان الصفا عمدوا فى رسالة الحيوان إلى نقد الأوضاع الدينية والسياسية التى كانت تسود المجتمع الإسلامى فى تلك الآونة بأسلوب رمزى لكى يأمنوا بطش أصحاب السلطة وولاة

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٨٢ .

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٣١٧ .

(٢) كليلة ودمنة ص ٨٣ - ٨٥ تحقيق خليل اليازجى طبعة بيروت عام ١٩٠٧ م .

الحكم ، ومن هؤلاء المستشرق « دى بور » إذ يقول : « وقد أخفى إخوان الصفا آراءهم الانتقادية فى رسائلهم بعض الإخفاء ، وذلك لأسباب غنية عن البيان غير أن حملتهم المجتمع وعلى الأديان الموروثة تتجلى من غير أدنى احتياط فى رسالة الحيوان والإنسان وفيها ألبسوا آراءهم ثوبا رمزيا فقالوا على ألسنة الحيوان مالو جاهر به أحدهم لثارت حوله الشكوك[1] كما قيل مثل ذلك بالنسبة لابن المقفع كذلك فى سبب ترجمته لكتاب كليلة ودمنة[2] .

وهذا الرأى لا يخلو من الضعف وذلك للأسباب الآتية :

أولا : عندما نقرأ رسالة الحيوان ونعمق فى مضامينها العالية نتأكد من أن تلك النظر المضامين والمفاهيم الفلسفية لا تخص عصر دون عصر أو طائفة دون طائفة بل هى فكرة صالحة لكل زمان ومكان بذر نواتها إخوان الصفا فى القرن الرابع الهجرى ونشروها فى ربوع العالم الإسلامى .

ثانياً : إن أخوان الصفا كما أسلفنا يصرحون بالغرض الذى من أجله ألفوا هذه الرسالة وذلك فى مقدمتها وختامها . وخلال عرض المحاكات فإن عرض أى تفكير فلسفى لعامة الشعب يحتاج إلى أسلوب قصصى سهل بسيط مشوق ليجذب الجمهور إلى الفكرة وليبسط الفكرة له دون حاجة إلى تصوير المفاهيم والأفكار فى قالب فلسفى معقد ليستطع القارئ العادى الفهم والاستنباط وهذا مما دفع إخوان الصفا إلى صف أفكارهم فى أسلوب قصصى على لسان الحيوان .

ثالثا : موازنة بين رسالة الحيوان وبين كليلة ودمنة :

ويتضح لنا مما تقدم أن إخوان الصفا تأثروا بابن المقفع فى تأليف هذه الرسالة تأثرا كبيرا بحيث يمكن أن نعد رسالة الحيوان محاكاة لكتاب كليلة ودمنة وإن لم يعترف بذلك إخوان الصفا فى رسائلهم . إذ ذكروا أن موضوعات رسائلهم مقتبسة من أربعة مصادر أحدها الكتب الرياضية والطبيعية التى صنفت على ألسنة الحكماء والفلاسفة ، والثانى الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل والفرقان . والثالث الكتب الطبيعية التى صنف لبيان تركيب الأفلاك وحركة الكواكب وأقسام البروج والوقوف على أسرار فنون الكائنات من المعادن والحيوانات والنبات . والنوع الرابع على حد تعبيرهم ، هو الكتب الإلهية التى لا يمسها إلا المطهرون والملائكة التى هى بأيدى سفرة كرام بررة ، وهى جواهر النفوس وأجناسها

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٠٥ .

(٢) وقد أثبتنا بطلان هذا الزعم فى كتابنا « ابن المقفع والتيار الفارسى فى تأليفه » فى معرض الحديث من باب عرض الكتاب لكليلة ودمنة .

وأنواعها (١) غير أننا عند ما نقرأ رسائل إخوان الصفاء نحس بأنهم كما قلنا سابقا كانوا معجبين بقصص كليلة ودمنة وخاصة قصة الحمامة المطوقة فمن ذلك قولهم « فاعتبر بحديث الحمامة المطوقة المذكورة فى كتاب كليلة ودمنة (٢) فإذن ليس هنا مجال للشك بأن إخوان الصفا قد أفادوا من حكايات كليلة ودمنة وأمثالها فى تصنيف رسائلهم وخاصة رسالة الحيوان التى نحن بصددها فى هذا المقال .

وأما السبب فى أن إخوان الصفا لم يذكروا اسم كتاب كليلة ودمنة فى ضمن المراجع التى اعتمدوا عليها فى تأليف رسائلهم فهو أن الأفكار الفلسفية التى شرحوها والآراء التى دعوا إليها فى رسائلهم لم يستمدوها من كتاب كليلة ودمنة وإنما أفادوا منه وخاصة فى الإطار الفنى القصصى العام الذى بثوا فيه تلك الآراء الفلسفية وقلما استفادوا من ابن المقفع فى محاكاتهم له فى سرد قصصه عن قرب كما فعل ابن الهبارية ، وابن عربشاه وصاحب مرزبان نامة وغيرهم ممن ألفوا حكايات على ألسنة الحيوانات محاكاة لكتاب كليلة ودمنة إلا أن إخوان الصفا تأثروا بابن المقفع فى بعض آرائه الاجتماعية التى تضمنتها حكايات كليلة ودمنة فضلا عن تأثرهم بالخصائص الفنية .

(للبحث بقية)

محمد غفرانى الخراسانى

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٦٠١ .

(٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٦٢ و ٦٣ .

لا تحذو حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا فى المجامع انكروا من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض فى القديم وهدمه وإذا تقدم للبناية قصرا

« شـــوقى »

المنهج الإسلامى فى الأدب ونقده

للدكتور عبد الرحمن عثمان

قد يكون هذا الموضوع وثيق الصلة بمجلة الأزهر، لأنه يعرض للقراء فن القول فى إطار إسلامى عربى خالص بحيث لا تشوبه شائبة من فضول المعرفة أو بهرج الثقافة عما تعج به مطبوعات تنشر كل يوم، وليس لها حظ من المعرفة أو الثقافة إلا حظ الجنين الذى تدفعه الأرحام قبل أن يكتمل خلقه وتتضح قسماته.

وهذا المنهج الذى أوثر به هذه المجلة إنما هو امتداد لما كنت أنشر فى مجلة الرسالة أوائل هذا العام والعام الذى قبله والقراء يذكرون ما أثارته مقالاتى من جدل ومكابرة، وبخاصة حول الغموض والإفصاح فى الأدب العربى، فقد تربص بى كاتب له فى المجلة باب بعنوان «تعقيبات».

وما كنت أظن أن كاتباً عربياً ينكر أن الرمزية الأوربية لا مجال لها فى الأدب العربى الأصيل، فلما قال صاحب التعقيبين فى مجلة الرسالة: إن الرمزية الصوفية لون من ألوان الرمزية الأوربية آمنت أن «الخضر» على تسامح فى شكل الكلمة وتحويلها من فتحة «الخاء» إلى خفضها — يريد أن يقول لى كما قال لرفيقه: ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً.

* * *

والمنهج العربى الذى بدأته فى الرسالة كان يدور حول قضية بدهية تتلخص فى أن الأدب العربى يعتمد فى إصالته على الإفصاح والبيان ويبرأ من الغموض والرمزية، وكنت أدفع بهذا منهجاً دخيلا على الأدب العربى دعا إليه كتاب لهم مكانهم فى التوجيه الأدبى بما أتيح لهم من وسائل النشر فى الصحف والمجلات ووسائل الأعلام المختلفة، وقد خشيت أن يترك ذلك أثراً فى عقول الناشئة العربية تلك الناشئة التى نعقد عليها الأمل فى بث الروح العربى، وتمكين الوعى الإسلامى حين تشرق شمس الغد ويطل على الربوع العربية ذلك المستقبل الذى نعيش من أجل تحقيقه، ونتحمل لبعثه مشرقا بساما.

والداعون إلى الغموض وما إليه فى أدبنا يفكرون بغير عقولنا ، ويتجاهلون حكم البيئة وأثرها فى التراث الفنى كله ، وتلك قضية أوضح من أن يشار إليها لدارسى الأدب ورواد الفنون ؛ فالعادات ، والتقاليد ، والمعتقدات ، أمور تسيطر على الفكر ، وتترك طابعها الواضح على العواطف والمشاعر ومن ثم فاستعارة الأفكار والعواطف دون تمييز بين ما يصلح وما لا يصلح من الأخطار التى لا تؤمن عواقبها فى هذا المجال .

ويلحق بهذه المجازفة محاولة نقد الأدب العربى على هدى النظريات الأوربية التى تستند فى بيئتها إلى أصول غير قابلة لمنطق « الاستيراد والتصدير » لأن ما قام على حكم البيئة سيبقى حيا فى بيئته ، فأما إذا أخرج منها أصابه الذبول الذى هو أول مظهر من مظاهر الموت والفناء ؛ على أن الرجوع إلى طبيعة الأدب العربى حين يراد نقده ضرورى لا يقبل بديلا ، لأنه نزول على منطق الأشياء وخضوع لقانون الحياة العادل .

* * *

وهناك فرية تتردد على ألسنة بعض المثقفين وتجرى بها أقلام استقامت على الفكر الأوربى ودارت فى فلكه ؛ ملخصها أن الإسلام لم يشرع منهجاً عادلا للفنون ، وأن القرآن الكريم هاجم فن القول (الشعر) هجوماً عنيفا حين حقر الشعر وامتهن الشعراء فى قوله : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » ، وقد دعاهم ذلك إلى الاعتقاد بأن الإسلام عدو لدود للفنون ، يصرف عنها كل مسلم ذى عاطفة ، وينفر منها كل ذى خيال وشعور ؛ وتلك قالة سوء لا تجرى إلا على ألسنة الخراصين أو الجهلاء بما فى الإسلام من رقة وسماحة ، وتوجيه الجمال الذى هو حقيقة ما فى الكون من صعود بالنفس البشرية إلى الآفاق الجميلة التى تعمر بالخير والصدق والفضائل على اختلاف أنواعها .

ولهذا رأيت أن أبطل هذه الفرية وأمثالها بحقائق يقوم عليها البحث العلمى ، تاركا استخلاص النتائج إلى ذوى العقول المستقيمة وهم بحمد الله كثيرون .

* * *

إذا كان القرآن الكريم قد استحدث للعرب نظاما جديدا ينتظم المساواة والجهاد والحب فى إله واحد لا شريك له ، وبسبب هذا النظام اختلفت أنماط الحياة من جاهلية ، وتحولت إلى ألوان إسلامية تتسم بالمحبة ، وتميل إلى الاستقرار ، وإذا كان القانون السماوى قد أذهل فصحاء العرب بنسقه الفريد فى جلال معانيه وحلاوة نظمه وفيهم

الفصحاء المقاويل والشعراء الفحول ، إذا كان التنزيل المعجز قد أحدث كل هذا التحول فى المجتمع حينذاك ، فهل كان كل ذلك سببا فى انصرافهم عن الأدب ونقده كما يرجف السذج والمغرضون ؟ ؟.

ثم إذا اعتبرنا ظهور هذين الحدثين الكبيرين صارفا للعرب عن فن القول والنظر فيه ، فمعنى هذا بداهة ، أن الأدب العربى لا مكان له فى المجتمع الإسلامى الجديد ! ! ، مع أن المعجزة الكبرى لتثبيت هذه الدعوة جاءت قرآنا عربيا غير ذى عوج بحيث يسحر القلوب بحسن تصويره ويستهوى الألباب بجمال تعبيره ، وذلك إلى جانب ما عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا تحدث أو خطب ، فإذا انضم إلى هذين الأصلين اللذين لا يقبلان الجدل أصل ثالث هو أن التحدى للعرب لم يزد على مطالبتهم بشحذ قرائحهم الصافية ليأتوا بسورة من مثله ، أو بآيات قصار تثبت على النظر وتتودد ببلاغتها إلى النفوس والأفئدة حتى تملك زمامها أو تستثير فيها لوناً من الإعجاب والقبول ؛ وكل ما قدمنا يحتاج فى إبطاله إلى كثير من الجهد ليستقيم القول : بانصراف البيئة العربية فى صدر الإسلام عن الأدب ونقده . ولا نريد المسارعة إلى التأكيد بشىء معين فى أمر يتصل بموضوعنا هذا ، حتى نستعرض أمرين لهما وزنهما فى هذه الفترة ، فربما هدانا أحدهما أو كلاهما إلى الأخذ برأى يعتمد على الحجة ويقوى على البرهان :

١ — نعلم أن الحرب الشعرية ـ قبل فتح مكة ـ كانت أشدها بين المسلمين فى المدينة ، والمشركين فى مكة ومن ناصرهم فى البادية والقرى ؛ فشعراء الفريقين يتراشقون بالهجاء الموجع ـ وقد كان غرضاً له خطره فى الجاهلية ـ ، وهذا النوع من الشعر كان وقعه على الفريقين أشد من وقع السهام فى الحروب الدائرة بينهما ؛ وعلى هذا ، فالهجاء من الفنون الأدبية التى وجدت فى هذا الصراع العقيدى عوامل نشاطها وتنوعها ، وهو أمر لم يتح له فى العصر الجاهلى حيث الوثنية ، والإيمان بتعدد الوسطاء إلى الله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

ولئن تحرج الرواة من رواية الشعر الذى نظمه المشركون ، لأنه يمس العقيدة الإسلامية فى جوهرها المعتمد على التوحيد والمساواة والتعاطف ، ولأنه يتناول الرسول الأمين عن ربه بما لا يليق أن يردده مؤمن برسالته ، ومعجب بإنسانيته كبشر عاش بينهم ثم خرج من الدنيا لا يملك من حطامها شيئا ، وقد كان فى استطاعته أن يعيش عيشة الأكاسرة أو القياصرة ، ولكنه آثر أن يكون رءوفا رحيما بالآخرين ، فاختار لنفسه الإيثار ، وترك الأثرة لمن يحبها ، وإن يكن نهى عنها وبغضها لمن تنزع إليها نفسه من المسلمين ؛ فإذا تحرج الرواة المسلمين من

رواية كثير مما يخدش العقيدة أو يعيب محمداً عليه السلام ، فإن الرواية الإسلامية لم تضن علينا بما يهدينا إلى رأى فى الأدب ونقده أوائل العصر الإسلامى ، فهذا ابن رشيق يحدثنا : « فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » فهو غلط وسوء تأويل ، لأن المقصود بهذا النص : شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء ، ومسوه بالأذى ، فأما الذين من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شيء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم عز وجل ، ونبه عليهم فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا » ، يريد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم ، الذين ينتصرون له ، ويجيبون المشركين عنه كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وقد قال فيهم النبى الله عليه وسلم : هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل ، وقال لحسان بن ثابت أهجهم - يعنى قريشا - فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام ، اهجهم ومعك جبريل روح القدس ، والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات » .

فالرسول يقرر فى هذه الرواية حكمين : أولهما : التحريض على هجاء المشركين الذين يشككون فى القيم الإنسانية التى جاء بها الإسلام ، وثانيهما : توجيه الشعر إلى الدقة فى صحة المضمون بحيث يتحرى الواقع ويعبر عنه تعبيراً دقيقا حتى لا يختلط الأمر على السامع ، فالرسول من قريش ، وشاعره حسان يهجو عنه قبيلته ، فاذا أصاب الشاعر قريشا بما يشين أصاب النبى فى أصوله أصابة قد يألم لها وإن لم تكن من قصد الشاعر المحب لصاحب الدعوة عليه السلام .

ومن أجل هذا نستطيع أن نقول فى ثقة إن النقد بمعنى التوجيه للأديب ظهر لأول مرة فى تاريخ النقد العربى بفضل ظهور الإسلام ، وليست هذه مجرد دعوى ، وإنما هى حقيقة ستزداد قوة خلال ما يساق من الحديث .

وبمثل هذا البيان تبطل دعاوى المرجفين فى العالم العربى بأن الالتزام فى الأدب إنما هو ظاهرة أوربية ، ونظرية جديدة نادى بها الوجوديون فى النصف الأول من القرن العشرين ! ! فالذى يعرفه كل دارس لفلسفة المذهب الوجودى أن زعيمه « جان بول سارتر » الفرنسى أكد هذا الالتزام وفرضه على كتاب المذهب وشعرائه وفنانيه بوجه عام ، وذلك حين ألف مسرحياته كتطبيق عملى لإقرار

نظرية الالتزام فى الفنون ، ولعل من خير ما كتب فى هذا المعنى : «اليد القذرة والذباب والأبواب الموصدة ، أو الجلسة السرية » .
وعلى ضوء ما كتب « سارتر » درس أدباء المذهب الوجودى معا كل العالم على اختلاف أنواعها دراسة عميقة هدتهم إلى نتائج إنسانية رددوها فى فنونهم ، والتزموها موضوعات وأهداف يدور حولها فنهم ويهدف إليه ، فإيمانهم بحرية الإنسان مثلا ، جعلتهم نصراء لثورة الشعب الجزائرى فى كفاحه المشهور ضد الشعب الفرنسى الذى ينتمى إليه سارتر ويفديه بالروح والأهل كل فنان وجودى نسل من أصل فرنسى ، ولكن الإيمان بحرية الانسان دفعتهم مختارين إلى المجاهرة بعدوان الحكومة الفرنسية على كيان الشعب الجزائرى الذى لا يطلب من فرنسا أكثر من حريته التى يؤمن بها كل فنان وجودى .

ولا أظن أن مذهب الالتزام فى الأدب شىء جديد بعد ما قررناه فى صدر هذا الحديث ، وبعد ما استشهدنا عليه بما كتب ابن رشيق عن الشعر المنكر ، والشعر الذى يريده الإسلام ، حين وضع له منهجا ، ومهد له سبيلا .

٢ — لم يقتصر الشعر فى صدر الإسلام على التهاجى بين المسلمين والمشركين ، بل كان نشاطه ملحوظا فى باب الرثاء ، ووصف الخمر على المألوف من عادات الشعر الجاهلى ، فالشاعر ابن مقبل - فيما يروى ابن سلام الجمحى : « كان جافيا فى الدين ، وكان فى الإسلام يبكى أهل الجاهلية ويذكرهم ، فقيل له : أتبكى أهل الجاهلية وأنت مسلم ؟ فقال : .

ومالى لا أبكى الديار أهلها
وقد زارها زوار دعك وحميرا
وجاء قطا الأحباب من كل جانب
فوقع فى أعطاننا ، ثم طيرا

والشاعران : أبو محجن الثقفى ، فارس القادسية المشهور ، وعبدة ابن الطبيب ، يقولان الشعر فى الخمر التى نهى عنها الإسلام وعاقب على شربها ، فأبو محجن هو القائل فى الإسلام على الرغم من ذلك كله .

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة
تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة ، فإننى
أخاف إذا مامت الا أذوقها

« للحديث بقية »

دكتور عبد الرحمن عثمان

الى رسول الله

للشاعر محمد أحمد العزب

ملأت فضاءها طهرا ... وكنت لليلها فجرا
وهز نداؤك المنغوم فى آذانها وقرا
فغرد فى روابيها الشذى إطلالة فهى
وزاحمت الجوع الضوء عبر دروبها الحيرى
تود لديك معذرة ... وأنت وهبتها عذرا
فكم من شارد ضل الطريق وعانق القفرا
أتاك فكنت واحته .. سناً تهديه أو زهرا
وكم من ضائع فى لجة الأحزان ما قرا
أتاك فكنت مرفأه الغنى الوادع البرا
تهدهده ... وتأسو جرحه ... وتعيده حرا
كأنك رافد ينساب حبا هائلا ثرا
نروحى أنت ... ما أقوى يمينك تعصر الصخرا
وما أحنى يمينك تقطر الفيروز مفترا
ملأت فضاءها طهرا ... وكنت لليلها فجرا
وما زالت نداءاتك فى آفاقها تترى
تكفكف أدمع الباكين تمسح أعينا حسرى
فللطير اليتيم على غصونك أفرع سكرى
تميس به ... ترقصه ... تهدهد ريحه الخضرا
تداعب فجره المجروح ... تزرع دربه عطرا
فيضحك ملء عينيه ... وينسى قسوة الذكرى
وكم من ساغب يطوى على الأيام أو يعرى
أضأت له ولم ترهش يداك حقيقة كبرى

: حصاد الأرض للحصاد .. لا لهرقل ... أو كسرى
وظل الدوح العارى الذى قد ذوب الصمرا
يرعرع فيه أغصنه ... ويسجد تحته شكرا
ودفء الحب للساعين فوق دروبها طهرا
كأن جموعهم جيل يشكل عالما بكرا
وكم من راسف فى الطين يسكب دمعه نهرا
صحا ... فانهارت الأصفاد خلف صباحه ذعرا
وعانق عمره غز لا يشيد للسنى قصرا
أقول - وأنت فوق مداى شعراً قلت أو نثرا
: زرعت ضفافها خيراً ثرياً يبهر الحيرا
لقد كانت شعاب الأرض قبلوا يخنق الفكرا
وكانت مسرحا يفتر عن مأساته الكبرى
تهاويل بحنطة الرؤى تستغفر الدهرا
وتابوت تعفن ضوؤه المشلول واصفرا
وجبهة راهب شرس يغازل طفلة صغرى
يموه السيف والإعصار خلف جفونها قهرا
وألف نجيمة تبكى لما .. وتبرعم الثأرا
لقد كانت حياة الناس قبلك غابة ... صحرا
وكان الزاحفون إلى ضحى قاماتهم أسرى
فصحت بهم ليحيوا من جديد أمة أخرى
فزقت الملايين الجريحة قيدها المرا
وداست عارها ومضت تشق طريقها الوعرا
وتصنع للطغاة هناك خلف المنتهى قبرا
وتطلع فى سماء الكون شرقا يغزل السحرا
وأنت وراءها ... تأسو الجراح ... وتلهم الصبرا

محمد أحمد العزب

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

[الإجابة للجنة الفتوى بالأزهـــر]

حكم معرفة الرسل المذكورين في القرآن

السؤال :

هل يجب على المكلف أن يعرف الرسل المذكورين فى القرآن بأعيانهم وأسمائهم ، بالتفصيل أم لا ؟

إلياس زين ـ كمبوديا

الجواب :

يجب على كل مكلف أن يعتقد أن لله رسلا مبشرين ومنذرين ، لايعلم عددهم على التحقيق إلا الله ، ويجب عليه أن يعرف على التفصيل الخمسة والعشرين ـ على الأصح ـ المذكورين فى القرآن الكريم بأسمائهم بحيث لو سئل عن أحدهم لا ينكره ، منهم ثمانية عشر مذكورون فى آية « وتلك حجتنا » سورة الأنعام ، والبقية الباقية هم : إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، ذو الكفل ، آدم ، محمد صلى الله عليهم جميعا وسلم .

وهناك قول بأن آدم وإدريس نبيان فقط ، وما جاء فى السؤال عن معرفتهم بأعيانهم فذلك غير مستطاع ، لأنه يتوقف على مشاهدة أشخاصهم وذواتهم .

عدد الرسل المذكورين في القرآن

السؤال :

كم عدد الرسل المذكورين فى القرآن ؟

نفس السائل

الجواب :

عدد الرسل المذكورين فى القرآن قد فهم من السؤال الأول ، وأولهم هو آدم عليه السلام على القول برسالته وهو الأصح .

حكم من أنكر رسالة آدم وإدريس

السؤال :

هل يكفر من ينكر رسالة آدم وإدريس ، وقال : إنهما ليسا رسولين ، بل آدم خليفة ونبي فقط ، وإدريس نبي فقط ، معتقداً أن الرسل المذكورين فى القرآن ثلاثة وعشرون فقط ، أولهم نوح وآخرهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

نفس السائل

الجواب :

قد فهم من الجواب عن السؤال الأول أن آدم وإدريس مختلف فى رسالتيهما وعلى ذلك فلا يكفر من يقول بنبوتهما فقط ولا حق لمن يكفره .

هل حديث أبى ذر عن الأنبياء صحيح يحتج به أم لا ؟ .

السؤال :

سأل أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً . قال كم الرسل منهم ؟ قال ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أول الرسل آدم وآخرهم نبيكم محمد - عليه الصلاة والسلام - وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام » .

هل هذا من خبر الآحاد أم من المتواتر ؟ وهل هو صحيح أم ضعيف ، وهل يمكن أن نحتج به ونستدل به ؟ .

نفس السائل

الجواب :

هذا الحديث من أخبار الآحاد لا يفيد القطع فى العقائد ، والأولى تفويض علم ذلك إلى الله سبحانه .

حكم التلفيق :

السؤال :

هل يجوز لأحد أن يختار حكما ما من أى المذاهب الأربعة ، فيعمل بحكم من الأحكام التى يحبها ويترك ما لا يحبها ؟ وهو التلفيق وهل له أن يقول عن الحكم الذى لا يحبه أنه خطأ أو صعب عليه ؟ .

سائل من أندنيسيا

الجواب :

يجوز للمكلف أن يقلد من شاء من الأئمة الأربعة ولا يصح له أن يقول : إن الحكم الذى لا يحبه خطأ بمجرد عدم محبته له وإن صح له أن يقول إنه صعب عليه .

الاجتهاد - الخطأ فيـــه

السؤال :

هل توجد الأخطاء فى بعض المسائل الاجتهادية للعالم المجتهد ؟ نفس السائل

الجواب :

يجوز الخطأ على المجتهد فى بعض المسائل ويثاب على اجتهاده مع ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم ما معناه إن المجتهد إذا أخطأ فله أجر واحد ، وإذا أصاب فله أجران .

السؤال :

هل يجوز لأحـــد فى زمننا هذا أن يخطىء العالم المجتهد فى بعض المسائل التى اجتهد فيها ؟ . نفس السائل

الجواب :

إذا وجد من بلغ درجة الاجتهاد المطلق فله أن يخطىء من قام الدليل على خطئه من المجتهدين.

المذاهب الأربعة

السؤال :

ما حكم من نفى كل المذاهب الأربعة ويخطىء كل واحد من هذه المذاهب وهو من العوام معتمداً على الآية « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول - الآية » .

نفس السائل

الجواب :

حيث إنه من العوام وليس فيه أدنى أهلية الاجتهاد فيجب عليه أن يقلد أحد المذاهب المعتمدة ولا يرجع إلى الكتاب والسنة لجهله وعدم أهليته للأخذ منهما .

بناء المسجد على الأرض الموقوفة

السؤال :

هل يجوز بناء مسجد أو مدرسة على أرض موقوفة فيها قبر قديم أو مقابر قديمة زالت آثارها منها ؟ حيث لا توجد أرض غيرها ؟ وإن كان هناك مدفن جديد هل يمكن أن يبنى عليه المسجد أم لا ؟

نفس السائل

الجواب :

القبر موقوف على الميت مادام لم يبل بأن بقى من جسمه شىء فإذا بلى ولم يبق له أثر جاز الانتفاع بالقبر فى مسجداً أو مدرسة حيث زال حق الميت عنه حينئذ .

نعم إذا دعت المصلحة العامة الانتفاع بقبر لم يبل ميته نقل منه إلى مدفن آخر غيره بشرط ألا يكون فى ذلك تمثيل بالميت كأن انفجر ولم يجف صديده .

حكم صلاة الجمعة فى قرية بها ثلاث مساجد

السؤال :

ما حكم صلاة الجمعة فى قرية كبيرة يوجد فيها ثلاثة مساجد وبين كل مسجد مسافة كيلو متر ، هل صلاة الجمعة صحيحة عند الشافعى فى هذه المساجد الثلاثة حيث إنه لا يمكن أن يجتمع المصلون فى مسجد واحد ، إما للعداوة بين أهل كل مسجد والآخر أو لكون المسجد لا يتسع للمصلين جميعاً من أبناء القرية ؟

نفس السائل

الجواب :

بأن الراجح من مذهب الشافعية رضى الله عنهم أنه يجوز تعدد الجمعة إذا لم يكن فى البلد مكان يسعهم جميعاً أو تعذر اجتماعهم لعداوة أو نحوها والجمعة حينئذ صحيحة .

الصلاة بانحراف عن القبر

السؤال :

بناء ببلدتنا حوله الأهالى إلى مسجد وقد

بنى على غير القبلة ولما كانت القبلة تحدد بالنسبة لموقعه فى الجنوب الشرقى فقد أقيمت القبلة بالمبنى فعلا ، ولكن بعض الأهالى يصرون على الصلاة متوجهين إلى الجنوب حتى تتساوى الصفوف وتستقيم موازيه للجدار .

وقد اختلف الرأى ، ونرجو بيان الحكم الشرعى ؟ . وحكم الصلاة السابقة التى صليت على غير القبلة عن عمد ؟ .

عبد الحميد المصيلحى
ميت الخولى ـ دكرنس الدقهلية

الجواب :

الله تعالى تعبدنا بالاتجاه نحو الكعبة قال تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

فالواجب إذا التوجه نحو الكعبة المشرفة فى البيت الحرام وكل صلاة صليت عمدا إلى غير القبلة باطلة لعدم استيفاء شرطها ويجب قضاؤها

أما عن الصفوف فهى مع هذه الحالة يمكن تسويتها وإن كان الصف الأول أقصر مما يليه وهكذا فإن هذا لا يضر فى تسوية الصفوف

الصلاة داخل مقصورة الولى :

السؤال :

سمعت من علماء كثيرين أن الصلاة داخل مقصورة الولى محرمة شرعا خصوصا إذا كان القبر أمام المصلى لحديث (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ونصح هؤلاء العلماء بأن تعطى المقصورة حكم المقبرة فلا يصلى فيها وفى بقية المسجد متسع للصلاة.

وحدث أخيرا أن كنت أصلى فى أحد المساجد التى بها مقصورة أحد الأولياء ووجدت مصليا يصلى بداخلها والقبر أمامه فنصحته بالحسنى وقلت له إن هذا حرام شرعا ، وتصادف أن كان إمام المسجد مارا بجوار المقصورة وسمع الكلام فقال لى : إن هذا ليس بحرام وليس فيه شىء مطلقا فأرجو إفادتى عن حكم الشرع فى هذه المسألة ؟ .

السؤال من/ السيد محمد بن غالب (العراق)

الجواب :

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وفى رواية أخرى (إن من قبلكم اتخذوا قبور أوليائهم وصالحيهم مساجد فلا تتخذوها إنى أنهاكم عن ذلك) .

وقد فهم الشارحون وبعض الفقهاء أن محل النهى إذا كان القبر فى جهة القبلة واستقبله المصلى ، وعللوا ذلك بأنه فيه تعظيم لصاحب القبر ، وقد يفضى إلى الافتتان المؤدى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

وعلى هذا فاتخاذ المقبرة فى المسجد منهى

عنه شرعا إذا استقبل القبر بالصلاة ، أما إذا لم يستقبل فان ذلك جائز لا شيء فيه غير أنه ينبغى أن يلاحظ أنه لا فضل للصلاة فى مكان على مكان إلا الأماكن الثلاثة التى فضلها الله ، وهى : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد فسر العلماء اتخاذ القبور مساجد : بالصلاة عليها أو بالصلاة إليها واستنبطوا من ذلك أن الصلاة فى المقصورة أو الضريح حرام .

فلا تجوز الصلاة فى المقصورة أو الضريح خصوصا مع ما يلابس ذلك فى زماننا من الاعتقاد فى الأولياء ، اعتقادا يتنافى والعقيدة الإسلامية الصحيحة النقية .

الزواج على غير إرادة الوالد الغائب إذا عضل

السؤال :

لى أخ غاب عن وطنه مدة ١٤ عاما وكان متزوجا وله ولد وبنت ، الولد توفى والبنت على قيد الحياة ، وعمرها الآن ١٥ سنة ، ويريد ابن أختى التزوج من هذه الفتاة ، وهى موجودة فى اليمن مع عمها .

وبعد المراسلات اشترط والد الفتاة مهراً قدره ألف دولار ، وعرض الخاطب خمسمائة فقط ، ولما كان كل من الفتاة وابن أختى راغبا فى إتمام هذا الزواج كتبت البنت وكالة باسم والد الفتاة لعمها الذى تقيم عنده من غير علم والدها .

وقد عرض أخى الكبير الموكل فى الزواج هذه الوكالة على القاضى الشرعى ، الذى سمح له بإتمام الزواج بناء على وكالة والد الفتاة .

وأريد أن أسأل عن حكم الشرع فى هذا الزواج هل هو صحيح أم فاسد ؟ .

وهل ما قامت به يعتبر جرما أم أنه من أحكام الضرورة ؟

محمد زين محمد صالح - أمريكا

الجواب :

إذا عضل الولى الخاص أو غاب مسافة القصر كانت الولاية حينئذ للقاضى يزوج أو يأذن لمن يزوج ، فبقى أن سبب الإذن الوكالة وهى مزورة على ما يظهر من خطاب السائل ، والجواب عن هذا أن سبب الإذن فى الواقع الغيبة أو العضل وهذان لا تزوير معهما .

أما الوكالة المقول عنها فلا حاجة إليها فى إذن القاضى ، وكان يكفى أن يعلم القاضى بالغيبة أو العضل وقد حصل ، على أن للبنت أن تزوج نفسها أو توكل من يزوجها متى كانت بالغة عند الحنفية ، وهذا حصل فى مسألتنا فالعقد صحيح عند الشافعية والحنفية .

أنباء وآراء

مناقشات ... ؟

(لمسة) :

إن فكرة تبرئة اليهود من دم المسيح ، والمناورة السياسية الخطيرة التي يقوم بها الكرادلة في أروقة الفاتيكان يجب أن لا تمر بدون تعليق الأوساط الإسلامية المسئولة في كل بلد إسلامي ...

فصحفنا مثلا تناقش القضية من الوجهة السياسية فقط دون اعتبار لعقيدتنا ، وكأن من المسلم به أن المسيح عليه السلام قد صلب فعلا ، وقد انحصرت القضية في تبرئة اليهود من دمه أو إلصاقها بهم .

ونحن لا يهمنا إن كانت السياسة الأمريكية تلعب دوراً خطيراً من خلف أستار ، كما هو واضح من المؤتمر الديني الأمريكي الذي انعقد منذ أيام في سانت لويس ، حيث أصدر هذا المؤتمر الواحد والستون للمجلس الأسقفي القومي في أمريكا بياناً شديداً يبرىء اليهود من دم المسيح ويلقي اللوم على الإنسانية جمعاء ، ولكن الذي يهمنا أن نقرر أن القضية قائمة من وجهة نظرنا على أساس منهار .

كنا نود أن لا يتورط كتاب كبار تقرر شهادات مواليدهم أنهم مسلمون ، ولكن يظهر أن الاحتراف الصحفي أرفع لديهم من العقيدة والدين والقرآن .

السمان

هذا الحديث ليس متواترا :

استمعت منذ أيام إلى حديث ديني من أحاديث الصباح الإذاعية لعالم جليل ، يشير فيه إلى أن حديث : «إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى» حديث متواتر ، وهذا الحديث رواه يحيي سعيد الأنصاري عن محمد بن ابراهيم التيمي ، عن علقمة ابن وقاص الليثي قال : سمعت عمر رضي الله عنه على المنبر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الحديث .

يقول النووي في شرح صحيح مسلم في الجزء الثالث عشر ما مضمونه ، إن الحديث لم يروه من الصحابة إلا عمر ، ولم يروه عن عمر إلا علقمة ، ولم يروه عن علقمة إلا محمد ابن ابراهيم التيمي ، ولم يروه عن محمد إلا يحيي ، وهؤلاء الثلاثة تابعيون ، ثم رواه عن يحيي نحو مائتين من الشيوخ ، ولهذا قال الأئمة ليس هو متواتراً وإن كان مشهور عند الخاصة والعامة لأنه فقد شرط التواتر في أوله وفي طرفه من طرق الإسناد .

هذا وقد اتصلت بالأستاذ الجليل المتحدث فاقتنع ، ولم أرد بهذا النشر إلا تعميم الفائدة والله الموفق .

محمد نجيب المطيعي ـ العباسية

فى محيط الأزهر

العام الدراسى

افتتح العام الدراسى فى جامعة الأزهر بمؤتمر كبير حضره الأساتذة والطلاب ، وقد ألقى فيه فضيلة الإمام الأكبر كلمة قيمة وجه فيها الأذهان إلى رسالة الأزهر وصلة العلم بالدين فى علوم الأزهر ، ثم ألقى فضيلة السيد الأستاذ الباقورى مدير الجامعة كلمة أظهر فيها مكانة الأزهر فى مجتمعه ووافقه ونوه بما قدمه للإنسانية من خدمات .

اتحاد طلاب الجامعة

وأقام اتحاد طلاب جامعة الأزهر حفلا كبيرا فى قاعة الشيخ محمد عبده حضره السيد أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء لوزارة الأوقاف وشؤون الأزهر . والسيد الدكتور نور الدين طراف نائب رئيس الوزراء ، والسيد الأستاذ طلعت خيرى وزير الشباب . وقد بدئ الحفل بالقرآن الكريم ثم ألقى مقرر الاتحاد تقريراً عن أعماله فى العام الماضى وألقى فضيلة الأستاذ الشيخ الباقورى مدير الجامعة كلمة قوبلت بالاستحسان العام والتصفيق الحاد ، وألقى السيد وزير الشباب كلمة قيمة كان لها تأثير طيب فى نفوس الحاضرين .

مؤتمر عدم الانحياز :

انعقد مؤتمر عدم الانحياز بالقاهرة من اليوم الخامس من شهر اكتوبر عام ١٩٦٤ إلى اليوم الحادى عشر فيه ، وقد حضر المؤتمر رؤساء ثمان وخمسين دولة من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية وأوربا .

وأذيعت القرارات التاريخية الكبرى ظهر اليوم الحادى عشر ، التى تؤيد نضال الشعوب الحرة وفى مقدمتها شعوب فلسطين والجنوب العربى وأنجولا وكوبا ضد الاستعمار من كل لون .

لقد كان المؤتمر خطوة جادة من أجل تحقيق الحياد الإيجابى والتعايش السلمى . وتجنيب العالم ويلات حرب ثالثة مدمرة .

فى ذكرى العدوان الثلاثى :

أذاع فضيلة الإمام الأكبر هذه الكلمة بمناسبة ذكرى العدوان .

يستقبل العالم العربى ذكرى العدوان الثلاثى على مدينة بور سعيد فتمر بخواطره بشاعة اجتراء الباطل على الحق ، وجبروت الاستعمار فى مناهضة الأحرار ، وأن هذه الذكرى لتعيد إلى الأذهان الخصائص المشرقة للإيمان فهو مهما ضعفت أسبابه ،

لن يقتحم بابه ولا يزيده العدوان عليه إلا إغواء به ، وهكذا أيقظ العدوان الثلاثي الضمير العالمي ، وجمع كلمة العرب ، وحيا حماس المسلمين فكان ما كان من نصر الله الحق ، وغلبة الحرية على الرق ، فحيا الله عن الإنسانية كلها كل من أسهم فى هذه المعركة بكلمة حق أو معونة صدق ، وجزى الله بالرضوان أرواح الشهداء الذين خطوا بدمائهم خلود وفائهم وكرمهم فى عليين مع النبيين والصديقين .

وأدام الله على الدنيا عبرة هذه الذكرى حتى تظل للظالمين درساً يردعهم وللمظلومين سابقة تشجعهم ، وحيا الله زعيم العروبة وجامع كلمتها يوم أن وقف على منبر الأزهر ونادى سنقاتل . . سنقاتل . . فكان نصر الله ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز .

جائزة نوبل :

اقتسم عالمان ألمانيان جائزة نوبل للطب فى هذا العام ، الأول كونراد بلوخ الذى حصل على الجنسية الأمريكية عام ١٩٤٤ والآخر فيودور لنين الأستاذ بمعهد الكيمياء الحيوية فى ميونيخ ، وقد توصل الاثنان إلى اكتشافات عاونت الإنسانية فى نضالها ضد أمراض الدورة الدموية .

* أحدث الاكتشافات ، هذه الطائرات التى صممت أخيراً ، بحيث تعلق فى أجنحتها عربات اللورى ، والمعدات الثقيلة ، لتوصلها إلى الأماكن القريبة من المواقع الحربية ، وبذلك يتوافر عامل السرعة فى الامدادات الحربية .

الطائرة مصممة بحيث يتحمل جناحها وزن ١٣٠٠٠ رطل زيادة على ثقل اللورى وما تحمله الطائرة نفسها .

تدعيم مجمع البحوث :

ستتجه النية إلى تدعيم مجمع البحوث الإسلامية والتوسع فى نشر وتوزيع الكتب الدينية والثقافية ، فقد استقبل الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر منذ أيام المهندس السيد أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء حيث دار البحث حول الشئون الدينية والتعليمية للأزهر .

تقرر قبول مائة وخمسين طالبا من حملة الثانوية العامة بجامعة الأزهر على الرغم من عدم نجاحهم فى امتحان القبول بالجامعة ، وقد تم الاختيار طبقا لمجموع الدرجات فى الثانوية العامة مضافا إليه درجات امتحان القبول ، ومن الجدير بالذكر أنه كان قد تقدم لامتحان القبول ٤٨٠ طالبا لم ينجح منهم أحد .

محمد عبد الله السمان

الكتب

نقد وتعريف : الأستاذ محمد عبد الجواد

---

١ — شاعر الإسلام حسان بن ثابت

للأستاذ وليد الأعظمي

هذا الكتاب الذي نشرته مكتبة المنار بالكويت يقع في زهاء ثلثمائة صفحة من القطع المتوسط ، وهو دراسة أدبية تاريخية لشاعر الإسلام حسان بن ثابت الأنصاري في أربعة فصول :

الفصل الأول : ترجمة لحسان ، نسبه ونشأته ، وكنيته وذريته ، وحياته في المدينة ، ثم بحث في شعره الجاهلي .

والفصل الثاني : تناول المؤلف فيه ظهور الإسلام ، وانقسام المجتمع العربي ، ودفاع الشاعر عن الإسلام ، ومواقفه تجاه الوفود ، ثم مدرسة حسان الشعرية .

والفصل الثالث : منزلة الشاعر عند النبي ، وشبهات حول حسان ، وموقفه من حديث الإفك ، ثم منزلته عند الخلفاء .

والفصل الرابع والأخير : تناول المؤرخ فيه مواقف حسان مع الصحابة ، وأثره في الشعر العربي ، وجهوده التجديدية ، والتاريخية ، وتأثره بالقرآن ، ثم قدم المؤلف في نهاية الفصل نماذج متنوعة من شعره .

أثار المؤلف في الفصل الثالث شبهات حول حسان ، أولاها أنه كان جباناً خواراً ، وذكر قصته مع صفية بنت عبد المطلب حين دعته إلى النزول لقتل يهودي يطيف فأبى وقال : يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، وما كان منها إلا أنها أخذت عموداً ثم قتلته .

المؤلف لا ينكر القصة ولكنه لا يعتبرها دليلا على جبن حسان ، ويراها فلتة لا يمكن أن تقوم دليلا قاطعاً على صفة عامة في حسان ، ثم استشهد بكثير من المواقف لحسان تنفي عنه هذه الوصمة .

والشبهة الثانية : شعر حسان نفسه واتهامه بالضعف ، ويرى المؤلف أن حسانا فوق هذه التهمة التي كان مردها الكيد للإسلام ، وإلا ما جاز لأمثال أبي عبيدة أن يقول : فضل حسان الشعراء بثلاث . كان شاعر الأنصار

فى الجاهلية وشاعر النبى فى النبوة ، وشاعر اليمن كلنا فى الإسلام » . كما لا ينفى المؤلف أيضاً أن يكون شعر حسان فى الإسلام قد لان وضعف . ويعلل ذلك بتأثر حسان بالإسلام ولا سيما القرآن .

أعجبنى فى المؤلف استعداده للدفاع عن حسان فى شبهات سلطت عليه ، لولا أن عاطفته غلبت أحيانا على منطقه فى دفاعه ، وعلى كل فحسب المؤلف من التقدير أن قدم لنا دراسة متكاملة عن حسان الشاعر الإسلامى الفحل ، تعتبر بحق مرجعا محدوداً للدارسين .

* * *

٢ — الإباضية فى موكب التاريخ

للأستاذ على يحيى معمر

هذا الكتاب ثلاثة أجزاء فى أكثر من ستمائة صفحة نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة والمؤلف أديب ليبى ذو ثقافة ناضجة وأفق واسع ، تناول فى الجزء الأول نشأة المذهب الأباضى ، وناقش فيه معنى الخوارج ، والخوارج فى نظر الإباضية ، وميزان الخطأ والصواب للفرق الإسلامية ، وتكوين المذاهب الإسلامية ، ثم نشأة الإباضية وموقفها فى أسواق الجدل ، ووضعها فى قيادة الأمة ، وترجمة موجزة لمؤسس المذهب الأباضى جابر بن زيد وتلميذه أبى عبيدة مسلم .

وفى الجزأين الأخيرين قدم المؤلف دراسة عن الإباضية فى ليبيا ، كيف دخلت على يد سلمة بن سعد ، وكيف قاومت الطغيان وكافحت الظلم فى ليبيا وشمال أفريقية ، وكيف انتشرت دعوتها وتأسست مدارسها .

وقد اشتمل الكتاب على تراجم وافية لعدد كبير من أعلام المذهب الإباضى ، فسلط أضواء كاشفة على هؤلاء الأعلام الذين نشروا مبادئ المذهب وتحملوا فى سبيل ذلك الكثير من المشاق .

إن معظم كتب التاريخ التى تعرضت للفرق الإسلامية يعمد إلى اعتبار الإباضية إحدى فرق الخوارج ، ويبذل المؤلف هنا جهداً كبيراً فى إزالة هـــذا اللبس الذى رسخ فى الأذهان قروناً عديدة ، ويذكر أن اشتراك طائفة مع غيرها فى رأى معين لا يعنى اشتراكها فى جميع الآراء ، ومن ثم لا يجوز أن تنخرط هذه الطائفة فى سلك أية طائفة أخرى تشترك معها فى رأى ، وقد تسربت الشبهة لأنها تشترك ـ أى الإباضية ـ مع الخوارج فى انتقاد قبول التحكيم ، وفى تخطئة على فى قبوله ، وتوافق الإباضية فى هذه النقطة لا يجعل الإباضية خوارج ، كما لا يجعل الخوارج إباضية ،

وإلا فالمعتزلة والأشاعرة مثلا يشتركون فى أصل تنزيه البارى وبعض المعتزلة والشيعة يشتركان فى نظرية حصر الخلافة فى البيت الهاشمى ، فهل معنى هذا أن كلا من المعتزلة والأشاعرة فرقة واحدة . وكذلك المعتزلة والشيعة ؟

الحق أن كتاب الأستاذ على يحيى معمر دراسة كلفته جهداً ومشقة ، وحسبه من التقدير أنه أزال كثيراً من اللبس ، وراعى الحق والعدل فى ما كتب ، وأنه بذل مجهوداً أيضاً فى استيعاب المراجع النادرة وغير النادرة ليبرئ ذمته وقلمه وليكون كتابه بعد ذلك مرجعاً أمينا لكل دراس باحث .

* * *

٣ — علم القلوب :

للعلامة أبى طالب المكى

حقق هذا الكتاب الذى نشرته مكتبة القاهرة بالأزهر الأستاذ عبد القادر أحمد عطا المدرس بالأزهر ، والمؤلف هو أبو طالب المكى صاحب « قوت القلوب » المشهور ، والمتوفى عام ٣٥٨ هـ .

وهذا الكتاب مع شقيقه الذى بين أيدينا يعتبران — كما يقول المحقق — من أسس السلوك الدينى القويم الذى نحتاج إليه فى تصحيح الأعمال والنيات والعقائد ، ويوقفنا على دسائس النفوس ومكائد الشيطان حتى تتضح السبيل ويستنير الطريق .

يتناول الكتاب ماهية الحكمة وعظم قدرها ومن المستحق لبذل الحكمة وشرفها ، ثم الفرق بين الحكمة والعلم ، ومعنى قول الرسول طلب العلم فريضة على كل مسلم ، كما يتناول بيان التوحيد والتفريد على لسان أهل الإشارة من العارف والمريد ، ووصفاً للعارفين الذين وصفهم المعروف بالصفاء واليقين ، وتوضيحاً لصفة الإخلاص وطبقات المخلصين بالقلب . وإلى غير ذلك من آداب السلوك النفسى والقلبى والعقائدى .

الكتاب — كسائر كتب المتصوفين — خليط من التوجيه السليم الذى يتفق ومفهوم الإسلام وواقعيته ، ومن المثاليات التى لا تصلح كقواعد عامة فى السلوك الإنسانى لا نحو نفسه ولا نحو ربه ، لأنها تناقض طبيعة الإنسان نفسه وسنن الحياة كذلك .

فى هذا الكتاب مثلا أن أباعبد الله اشترى جارية فلما دخل داره قال : قومى وافرشى الثياب . قالت : ماذا تصنع يامولاى ؟ قال : أنام . قالت : ألك مولى ؟ قال : نعم . قالت : وينام مولاك ؟ قال : لا . قالت : أما تستحى أن تنام ومولاك لا ينام ؟ وكانت حبيبة العدوية تقول :

عجباً للمحب كيف ينام
كل نوم على المحب حرام

كنت أود على الأقل أن يكون للمحقق تعليق على مثل هذا القول ، ولا سيما أنه يذكر فى مقدمته ان المكى قد خلط فى كلامه فهجره الناس وابتعدوا عنه ونسبوه إلى البدع ، أما دفاعه بأن بعض الناس تعودوا أن ينكروا ما لم يألفوه من مسائل العلم إنكاراً كاملا ، وتعود البعض الآخر أن يتوقف أقرب فيا لم يألف ويسلم علم أمرها لله ، وهو إلى الصواب من سابقه ، فهو لا يهدم جازما بالخطأ بل يترك ما لا يناسب مداركه إلى من يناسب مداركهم ـ مثل هذا الدفاع لا يقوم حجة ، فالإسلام معان واضحة لا لبس فيها ، وليس ألغازا تفرض على عقول المسلمين فرضاً .

* * *

كتب جديدة

• **المجتمع فى شعر أحمد الزين**

للأستاذ عبد الرحمن خليل إبراهيم

المجلس الأعلى لرعاية الفنون

الكتاب يقع فى أكثر من مائتين وستين صفحة من القطع الكبير ، قدم له الأستاذ على الجندى بمقدمة موجزة ، وقد جاءت هذه الدراسة فى سبعة فصول ، تناول المؤلف فيها حياة الشاعر وصلته بشعراء عصره ومشاركته الوجدانية لهم ، والشاعر فى مرحلة ما بعد الشباب ، والحياة الاجتماعية ، والحياة النفسية ، والحياة السياسية ، والحياة التعليمية ، والحياة الصناعية التى عاصرها أحمد الزين ، ثم ختم المؤلف دراسته المستفيضة الجيدة بقصائد لم تنشر للشاعر رحمه الله .

* * *

• **صراع بين الحق والباطل**

للأستاذ سعد صادق محمد

مكتبة أنصار السنة المحمدية

يقع الكتاب فى أكثر من مائة وستين صفحة ، وهدفه تصفية الدين عما علق به من خرافات وأباطيل لم يزل السذج يعتقدونها عقيدة راسخة فى أذهانهم والمؤلف يحمل الصوفية معظم أوزار هذه الخرافات ، ولا سيما فيما يتعلق بالكرامة والتوسل .

* * *

• **البناء الفنى للقصيدة العربية**

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

مكتبة القاهرة بالأزهر

كتاب جديد للأستاذ خفاجى يقع فى أكثر من مائتين وسبعين صفحة من القطع الكبير جاء فى تسعة أبواب هى .

الشعر مقوماته وعناصره ، القصيدة من المقطعات إلى المعلقات ومن المعلقات إلى الأراجيز بعد الأراجيز ، الموشحات ، حركات التجديد فى القصيدة ، الشعر المرسل ، القصيدة العمودية ثم الخليل بن أحمد .

• أضواء جديدة على الحروب الصليبية

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

المكتبة الثقافية ـ دار القلم بالقاهرة

هذا البحث أصدرته المكتبة الثقافية التى تشرف عليها وزارة الثقافة والإرشاد القومى ويقع فى مائة وعشر صفحات من القطع الصغير ، وقد ناقش فيه ماهية الحروب الصليبية ووضع الصليبيين فى الشام ، وموقف مصر من هذه الحروب والغرب الأوربى وسياسة الحصار الاقتصادى والحروب الصليبية فى شمال أفريقيا وأوربا ، ثم أثر الحروب الصليبية فى الشرق والغرب .

• بسط سامع المسامر

فى أخبار مجنون بنى عامر

لشمس الدين الدمشقى

مكتبة القاهرة بالأزهر

هذا الكتاب الذى يقع فى مائة وستين صفحة من القطع الكبير قام بتحقيقه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، وقد أضيف إلى الكتاب فى آخره أخبار ليلى الأخيلية وتوبة ، وأخبار قيس بن ذريح ولبنى ، وقد قدم الأستاذ الصعيدى ترجمة لابن طولون الدمشقى وابن عبد الهادى شيخه ؟

عبد الله السمان

avoir ramené à l'équilibre leur balance, qui penchait tantôt d'un côté tantôt de l'autre, il les a poussées toutes dans une même direction et leur a insufflé un même esprit, si bien qu'on a le droit de lui attribuer en propre l'ensemble de cette oeuvre.

Plus admirable encore, et absolument original, est son côté créateur. Il ne suffit pas, en effet, pour décrire la morale Koranique de dire qu'elle a conservé et consolidé le patrimoine des anciens et qu'elle a concilié les différentes vues qui avaient divisé leurs successeurs. Il faut ajouter qu'elle a agrandi et embelli cet édifice sacré, en y joignant de chapitres tout-à-fait nouveaux et hautement progressifs, par lesquels elle a achevé à jamais l'œuvre morale.

Dans la présente étude, nous aurons à considérer les préceptes pratiques du Koran en eux-mêmes et dans leur stade définitif. Or il suffit de feuilleter les Extraits que nous en donnons à la fin de ce volume pour se rendre compte de l'ampleur et de la beauté de cette institution.

Notre méthode d'exposer, dans cette branche, diffère assez de celles adoptées par nos prédécesseurs.

En premier lieu, n'ayant pas jugé nécessaire d'épuiser les passages ayant trait à l'action, nous nous sommes contentés d'en relever un nombre suffisamment représentatif pour établir les différentes règles de la conduite.

Ensuite, nous avons essayé, dans la mesure du possible, d'éviter les rèpétitions.

Enfin, au lieu de suivre l'ordre des sourates (comme Ghazâli) ou l'ordre alphabétique des concepts (comme La Beaume), nous avons adopté un ordre logique. Les textes sont groupés en chapitres, suivant le genre de rapport que la règle a pour object d'organiser; et, à l'intérieur de chaque catégorie, nous avons distingué plusieurs petits groupes de textes, auxquels nous avons donné des sous-titres résumant l'enseignement particulier qui s'en dégage. De manière à permettre au lecteur ce trouver facilement le précepte qu'il aura à chercher.

L'ensemble des textes ainsi ordonnés constitue un programme complet de la vie pratique selon le Koran. Comment l'homme doit-il se comporter en lui-même, dans sa famille, avec les hommes en général, quels sont les principes qui doivent regir les rapports entre gouverneurs et gouvernés, entre Etats ou communautés; comment faut-il rendre le culte à Dieu. Tout y est dit, de façon claire et assez définie.

Cet ordre logique, nous le trouvons chez certains savants chi^{c}ites tel que A. M. el-Ardabîli, mort en 993 H. dans sa "Dourrat el-Baïane" et A.I.A. el Djazâïri en-Nadjafi, mort en 1150 H., dans ses Kalâïd ed-Dourar" Mais ces deux livres, qui peuvent être considérés comme des répertoires pour les passages du Kor'an relatifs au droit islamique, ne traitent que rarement des préceptes moraux.

Ainsi, personne, a notre connaissance, n'a entrepris jusqu'ici de dégager la loi morale du Kor'an dans son ensemble et n'a essayé d'en présenter les principes et les règles sous la forme d'une structure cohérente, indépendamment de toutes ses attaches avec les disciplines voisines. Et c'est cette tâche que nous nous sommes proposé d'accomplir ici, dans la mesure de nos moyens.

II. Division et méthode.

Sous le vocable générique de *loi morale*, nous distinguons comme tout le monde deux branches différentes : *théorie* et *pratique*.

Or notre étude du texte Koranique nous a révélé, non seulement la présence dans le Kor'an de ces deux branches de la science éthique, mais encore que la formule qu'il en donne atteint un degré de perfection qui ne laisse rien à désirer.

Aspec pratique - Dans une publication récente, nous avions considéré la morale pratique du Kor'an dans son rapport avec la sagesse ancienne, et nous avons pu en relever trois caractères, que nous rappelons ici brièvement.

D'abord, en tant que gardian et continuateur de la tradition, le Kor'an se distingue déjà par cette immense étendue dans laquelle il a embrassé toute la substance de la loi morale qui restait dispersée dans les enseignements des saints et des sages, fondateurs et rèformateurs éloignés les uns des autres à travers le temps et l'espace, et dont certains mêmes n'ont laissé aucun vestige. Ce côté-là est peut-être la caractéristique la plus saillante du Koran, mais non la plus précieuse ni la plus originale.

L'orininalité de cet enseignement apparnît avec plus d'éclatg dans sa maniére de présenter et de rapporcher ces différentes leçons de l'antiquité, de façon à en transformer la diversité en une unité indivisible, et la divergence en un parfait accord. C'est qu'il a commencé par écarter dans les lois antérieures tout ce qu'il y avait d'apparemment médiocre ou excessif ; et, après

moralité et qui n'adoptent pas toujours rigoureusement le point de vue spécifiquement moral, la théorie qu'on en donne dépend dans une large mesure, sinon des vues personnelles, du moins de l'esprit d'école de leurs auteurs, le Koran n'étant cité par eux qu'à titre complémentaire, comme illustration de telle ou telle conception déjà adoptée.

Sur le plan pratique, il est vrai, nous savons qu'Al-Ghazâli avait essayé dans son ouvrage intitulé "les Joyaux du Koran", d'analyser la substance Koranique et de la ramener à deux éléments essentiels, l'un ayant trait à la connaissance, l'autre à la conduite. Il en venait à désigner dans le premier ordre 763 versets, et 741 dans le second.

Malheureusement, cette sorte d'inventaire, qui constituait un premier pas dans la préparation des matériaux à construire, n'était pas suivie de l'élaboration nécessaire pour en élever l'èdifice.

Il faut reconnaître, toutefois, que le choix de matériaux y a été fait en somme d'après une règle, et que les versets choisis dans la section pratique coïncident souvent avec l'objet de notre étude. Il n'en est pas de même de extraits faits, soit par le cadi Abou-Bakr el-Djassas, Hanafie, mort en 370 de l'Hégire, dans ses " Ahkâme Koran" (Stamboul 1338 H), soit pare le cadi Abou Bakr Ibn el "Arabi, Mâlikite, mort en 542 H., dans son livre intitulé également Ahkâme el-Koran (éd Sa'àda, Caire 1321 H.) soit par Moulla Ahmad Djioune, Indou, hanafite mort en 1130 H. dans ses "Tafsirât Ahmadyya fi Baïâne el Aïât ech-Chari'yya" (Bombay 1327 H.) Non seulement les textes Koraniques ayant trait à la morale sont inextricablement submergés, dans ces ouvrages, par les textes relatifs aux sujets juridiques, principologiques, théologiques, cosmoloiques et autres; mais nous voyons chez les deux Cadis des versets cités à propos des questions auxquelles le texte n'a qu'un rapport lointain, ou dont il est simplement l'occasion.

En tous cas, par leur manière de grouper les passages Koraniques selon l'ordre des sourates, tous les auteurs, y compris Ghazâli, ont fait de leurs extraits un agrégat de matières éparses qu'aucun esprit de famille ne relie, et dans lesquelles n'apparaît aucune suite d'idées. Ainsi, après avoir rompu l'unité primitive de chaque sourate, ils n'ont pas pu y suppléer par une unité logique entre les fragments choisis et par un classement méthodique qu'exige la règle de l'enseignement.

"La Morale du Korân"

(2)

Par

Dr. Mohammad Abdullah Draz

Mais, en consultant notre bibliothèque islamique elle-même, nous avons constaté qu'elle n'a connu jusqu'ici que deux sortes d'enseignement moral: ou bien ce sont des conseils pratiques, destinés à former les mœurs de la jeunesse, en lui inspirant la conviction de la haute valeur de la vertu; ou bien c'est une description de la nature de l'âme et de ses facultés, puis une définition et une division de la vertu, calquées le plus souvent sur le modèle platonicien ou péripatéticien. Et il n'est pas rare de voir les deux méthodes se succéder sous la plume d'un même auteur. Il s'agissait ainsi, dans tous les cas, d'œuvres purement humaines, où les auteurs s'efforçaient de mettre les fruits de leurs méditations et de leurs études philosophiques, et dans lesquelles le texte Koranique faisait défaut ou ne figurait qu'à titre secondaire.

Pas plus donc chez les Musulmans que chez les Islamisants, la morale Koranique n'avait fait l'objet principal d'étude et de codification, ni du point de vue théorique ni du point de vue pratique. Afin que cette double affirmation revête un caractère rigoureux, et qu'elle soit exempte de toute équivoque, nous croyons devoir y joindre quelques précisions.

D'abord dans le domaine spéculatif, nous ne prétendons pas par nos recherches avoir à pénétrer dans un pays jusqu'ici inexploré. Les savants musulmans ont, de bonne heure, exercée leur talent sur ce sujet : les théologiens et les principologistes, sur le critère du bien et du mal (ou selon leur expression, sur la question du beau et du laid); les jurisconsultes, sur les conditions de la responsabilité; les moralistes et les mystiques sur l'efficacité de l'effort et la pureté de l'intention. Mais, outre que ces noitons sont restées ainsi disséminées dans les diverses disciplines, qui touchent de près ou de loin la

Western Writers On Islam

Before the contact of Western culture with Islam, the uncharitable and unkind writers and preachers from that part of the world poured forth torrents of abuse on the Prophet, but to say with Carlyle :

" Muhammad is no longer an impostor, but a great reformer: He is no longer a neurotic patient suffering from epilepsy, but a man of tremendous character and unbending will. He is no longer a self-seeking despot, ministering to his own selfish ends, but a beneficent ruler shedding light and love around him. He is no longer an opportunist, but a Prophet with a fixed purpose, and a man of strong will, undeviating in his consistency."

All this Europe acknowledged and freely, too. Carlyle and Gibbon, gifted writers. both have each in his own way, done full justice to this man, in whom merges all that is best in humanity. His whole being was permeated with Divine Love. In fact, he was so much in love with his Maker that his whole fife was devoted to an uphill struggle for Truth and Righteousness. Davenport and Boswell in English, Krehl and Gremence in German and Gaetani in Italian have opened to the Western world vista s of the life of the Prophet, which demolish completely the stock arguments employed by unjust critics against this, the greatest benefactor of humanity. George Bernard Shaw sings the following paean of praise :

"I have always held the religion of Muhammad in high estimation because of its wonderful vitality. It is the only religion which appears to me to possess that assimilating capability to the changing phases of existence which can make itself appeal to every one. I have prophesied about the faith of Mnhammad that it would be acceptable to the Europe of tomorrow as it is beginning to be acceptable to the Europe of today; The medieval ecclesiastics either through ignorance or bigotry painted Islam in the darkest colours.

They were, in facet, tratined to hate the man Muhammed and his religion. To them Muhammad was anti-Christ. I have studied him—the wonderful man, and in my opinion, far from being an anti-Christ, he must be called the saviour of humanity : I believe that if a man like him were to assume dictatorship of the modern world, he would succeed in solving its problems in a way that he would bring it the much needed peace and happiness. But to proceed, it was in the ninetenth century that honest thinkers like Carlyle, Gibbon and Goethe perceived intrinsic worth in the religion of Muhammad—already, even at the present time many of our people have gone over to his faith, and Islamisation of Europe may be said to have begun."

(THE MESSAGE)

of 10. Oxygen is the medium of life for all animals on the earth, and it cannot be procured except from air.

Oxygen is out of mixture with other gases in the space and is always found in the rate which is necessary for life. If oxygen were in the rate of 50, for examble, all combustable elements in the world would burst into flame.

On the other hand, the life of all plants depends upon the tiny measures of carbon dioxide in the air. It is a scientific fact that the leaves of trees are functioning as the lungs in animals. Those leaves reduce carbon dioxide through the rays of the sun into carbon and oxygen. Plant repels oxygen and keeps carbon mixed with the hydrogen of the water which is absorbed by the plant's roots. Through these chemical processes, nature produces, through plant, cellulose, other chemicals, fruits, flowers, nourishement for plant itself ; while the repelled oxygen is inhaled by animals and humans.

So, oxygen, hydrogen and carbon dioxide, carbon, whether isolated or mixed are the basis of the principal biological processes, which are necessary for life. There is no one single chance out of millions of chances which realizes the proportion of these elements in the way that is necessary for life as it is found actually in nature. Certainly beyond this wonderful system there is a power certifying that God, the Almighty, is the Sole Creator and Planner of this universe. The Holy Qur'an says :

" He brought down from the sky a rain for you, out of which you drink, and out of which there grows plant in which you graze your animals. Out of it He grows for you grass, olives, palm-trees grapes, and all fruits : certainly in this there is a sign for people who think. And He made subservient to you night, the day, the sun, the moon and the stars : all are made subservient by His order : in this there is a sign for people who mind. And there is a sign in what He Created in the earth of all kinds : surely, in this there is a sign for people who remember. And He made subservient to you sea, out of which you eat tender meat, and bring forth out of it ornament which you wear : and you see the ships running therein to seak God's favour thereby, so that you may thank Him. And He put in the earth mountains to make it stable, and rivers and roads to guide you. And He made the stars as guide, by which you know your way. Is He Who creates as he who does not create ? Would you not mind ? And if you count God's favours, you will not be able to do it : surely God is Forgiving, Merciful. "

and evidence. Abu-Hanifa was chosen to meet that athiest in a certain time, but Abu-Hanifa was late intentionally. When he arrived to the meeting place, he was asked by his opponent about the cause of his delay. Abu-Hanifa answered in this ways :

"Here is the cause of my delay: I had to cross the river to reach here, but the boat was on the other side of the river, and there was no boatmen to bring it over to my side. So I had to point out to the boat to move by itself until it came to me to cross me over the river. This is the cause of my delay." The athiest said amazingly : "This is unreasonable! How a boat could move by itself? Abu-Hanifa answered :" If you could not believe that a boat may move by itself, how possibly you want us to believe that this world is functioning with no God and Creator?"

The athiest was at loss to answer. The present audience shouted praising. God, the Almighty, while Abu-Hanifa recited these Qur'anic Verses :

"God is He, than whom there is no other God: Who know all things both secret and open; He Most gracious, Most Merciful. God is He, than whom there is no other God; the Sovereign, the Holy One, the Source of Peace, the Guardian of Faith, the Preserver of Safety, the Exalted in Might, the Irresistable, the Supreme. Glory be to God! High He above the partners they attribute to Him. He is God, the Creator, the Evolver, the Bestower of Forms; to Him belong the Most Beautiful Names : whatever is in the heavens and on earth declare His praises and glory; and He is the Exalted in Might, the Wise."

QUESTION :

Is it true that there is a contradiction between the believe in God and science ?

ANSWER :

Let us take from the example of oxygen a proof for the power of God in this universe. It is a scientific fact that the air is composed of oxygen, netrogen, argon, neon, carbon dioxide and other rare gases. Carbon dioxide in the air is in the rate of 3 out of 10,000; argon has the rate of one percent, and netrogen the rate of 78 %, while oxygen has the preportion of 21%. The pressure of air on the ground is at fifteen pounds per squere inch in the sea level. The rate of oxygen in this pressure is three pounds. The rest of oxygen in nature is in solid ground, and also in sea with the rate of 8 out

QUESTION :

How possibly, then, could we know God without understanding His Mighty Being ?

ANSWER :

If you look to the creation of the universe, its wonders and its harmony ; to the sky with its stars and planets ; to the earth with its kingdoms of animals and plants ; and to the humankind with its wonderful structure-if you look to all this you will undoubtedly come to believe that beyond this great and perfect universe there is a Perfect Creator. The power of this creator should be unlimited, and beyond the limited human mind to understand. The Almighty Being is in no need of others, while all others are in need of Him. He is the Planner of the universe, and He Himself is above all plans and laws.

Thus, you will find yourself fully convinced that the Creator of the universe is distingnished by all perfect attributes, and is exalted above all the attributes of imperfection and disablity. This belief in the Existence and the Perfect Attributes of God is the natural belief of humankind from eternity, as the Holy verse states :

" The nature of God in which He created humankind, no alteration in the creation of God. This is the upright religion, but most of people know not. „

QUESTION :

How can we prove the existence of God through reasonable argument which is more accepted in our modern time ?

ANSWER :

If you have left your book on your desk and returned back to find that your book is in the drawer, you will be sure that someone has put in the drawer, for it is certain that the book cannot transfer itself from its place. But if you find a certain person in two different times in two situations like sitting and lying down on the ground, you will not question his movements, because he can move by himself.

Thus all things in the universe are created ; because we know from its nature and attributes that they cannot exist without a creator. Since the perfection of Godhead necessitates that God is in no need of others, we come to the conclusion that God is Existent and is no need of others to bring Him to existence.

It is said that a man denied the existence of God and assumed that this world existed by itself. He challenged the Muslim scholars to argue against him with proof

THE FUNDAMENTAL BELIEF IN ISLAM

BY

ABDUL WADOOD SHALABY

What is the first basis in the major prnciples of Islam which we should believe in ?

The first basis of faith in Islam is to believe that God, the Almighty, is the Creator and Manager of this universe, and that his Mighty Being is beyond human comprehension which is limited in vision and reason.

The Prophet, therefore, ordered us to think over the creation of God, but not over His Being. It is reported through Ibn Abbas that some people tried to think about the Divine Being when the Prophet told them: " Think about the creation and the work of God and not about his Mighty Being, for you could not judge God's essence." This is not an order from the Prophet against the freedom o' thought and mind, but is a safe guard aganist misguidance ε aganist the search after the known, which is beyond our m to comprehend. If human rc could not so far understand essense of electricity and magnetism which are actually utilized by people, how, then, can come to comprehend the essence of God who described Himself in this Holy Verse :

" Vision comprehends Him not, and He comprehends all vision, and He is the All-Kind, All-Knowing ".

Al-Shibly, the great Muslim mystic (mercy of God be upon him), said when he was asked : what is God ? : " He is the One and the Known to be beyond limits and words. "

Someone asked Yahya ibn Mu'ath : " Tell me about God, the Almighty. " Yahya Said : " He is the One." " How is He ?", He was asked. " He is the Almighty ", he answered. " Where is He." he was asked again. " He is waching over everything ? he answered, " Then ie enquirer said : " I did not ask ɔu about this." Yahya answered: Nothing beyond this. The des- ɪtion of the created is other the Attributes of the Creator."

He is a ideal example for the people. "Verily in the messenger of Allah you have a good example, for him who looketh unto Allah and the Last Day and rememberth Allah much." His relationship with the Belivers is as the Quran Said :

"The prophet is closer to the belivers than their selves."

Every beliver is bound to ask for God's blessing for His prophet : "Allah and His angels Shower blessings on the prophet. O ye who belive ! Ask blessings on him and Salute him with a worthy Solution."

His apostolical mission was not confined to any particular race, community, time or place. The entire teaching of the Prophet Muhammad is based on the universal path of submission to the one lord of the universe ; who created all men alike as human beings, but divided themselves into groups and factions on the basis of race, clour, language, nationality ect ;

The Quran explains that these differences are artificial, But one Single relation ship held them to gether; that is the bond of human brotherhood. There is one Sacred bond which could unite them inspite of all differences; this is the commen worship of the one God. This is the fundamental teaching of the apostle. The Islamic faith is to follow man's orginal nature as designed by God. The Quran Says :

"Set thy purpose for religion as a man by nature upright the nature (framed God) in which He hath created man. There is no altering (the law of) God's creation. That is the right religion, but most men know not."

into a Single brotherhood. Then God sent the prophet Muhammad with a complet and perfect system of life for the mankind, and He called to people to build a universal brotherhood. The Qur'an declared :

Say, O man kind ! I am the messenger of Allah to you all. Him unto whom belongeth the soverignty of the heaven and the earth. There is no God Save him."

The Lord of the mankind has prepared Him and blessed Him, from his childhood, inorder to become the ideal example for humanity in all walks of life. About the God's direction and protection, the Quran Says :

"Did he not find thee an orphan and protect thee ?

Did he not find erring and direct thee ?

Did he not find thee destitute and enrich thee ?"

He is a apostle of Mercy for the world. "We sent thee not save as a mercy for the people " His position among the prophets is clear from this Quranic verse :

" O Prophet ! We have Sent thee as a witness and a bringer of good tidings and a warner, and as a Summener unto God by His permission and as a lamp that giveth ht."

The place of the apostle amonge Prophets is clear from the following verses :

(1) But how (will it be with them) When we bring of every people a witness, and we bring thee (O Muhammad) a witness against these ? On that day those who disbelieved and disobeyed the messenger will wish that they were level with the ground, and they can hide no fact from Allah."

(2) "And (be think you of) the day when we raise in every nation a witness against them of their own folk and we bring thee (Muhammad) as a witness against these ".

(3) " When Allah made (His) Covenant with the prophets, (He Said) : Behold that which I have given you of the scripture and Knowledge. And afterwards there will come unto you a messenger, Confirming that which ye posses. ye shall believe in him and ye shall help him. He Said : Do ye agree, and will ye take up My burden (which I lay upon you) in this (Matter) ? They answered : We agree. He Said : Then bear ye witness. I will be a witness with you ".

What is the place of His people among other nations ? The Quran Says : " Thus we have appointed you a middle nation, that ye may be witnesses against Mankind, and that the messenger may be a witness against you".

" Ye are the best Community that hath been raised up for mankind ".

THE GREATNESS OF THE APOSTLE

By : ABDUL RAHIM FUDA

The Prophets are the high peaks of the human society. They are the torch bearers of truth and guidance to the people. And they are the apostles of peace and Divine path in the world. They form the fore-line of the righteous people upon them God has showered his favour and grace. The Qur'an Says :

" Whose obeyeth God and the messenger, they are with those unto whom God hath shown favour, of the prophets and the saints and the martyrs and the righteous. The best of company are they ! "

There was a chain of apostles whom God sent, one after another, as Divine messengers. The Qur'an Says :

" We have sent a number of messengers before thee (Muhammad), among them those of whom we have told thee something and others of whom we have not told thee anything. "

The Qur'an has stressed the universality of Divine guidance and proclaimed that there have been countless prophets in various places and at different times. " For every nation there has been a messenger." He sent every messenger with the language of people. As the Qur'an Says : " And we never sent a messenger save with the language of his people that he might make (the message of God) clear for them. "

The teachings of all prophets were basically the same, and each of them was confirming the other, and the Qur'an Said :

" We have sent the book (O Muhammad !) to thee with the truth, confirming the books sent down before it. "

The Qur'an has repeatedly warned against discrimination among the prophets and the Holy books. It declared : " It is not righteousness that you turn your faces to the east or to the west but righteous is he who belives in God and the Last Day and God's angels and the book and the prophets."

When the prophet Muhammad has come, the followers of the various apostles and books had fallen into some great errors, like religious groupsm, narrow mindedness. They forgot the object of religion, ignored the fundamental teachings of it. This condition led to mutual hatred, enmity and wars. The mankind was looking foreward to able guide who could sweep away all artificial differences and factions and reunite the people

Judgment or Reckoning. Man must be prepared to face the consequences of his acts, as he expects every thing else to have a known, natural and inevitable effect. Thirdly, man should expect only justice, the due result of his acts, God is neither arbitrary nor revengeful.

4 — In making submission to Him and acknowledging and seeking His help, it is not said merely that we worship Him and seek His help. It is said instead :

" Thee (alone) we worship; and Thee (alone) we ask for help." Not only has it fixed the relationship between man and his Lord, but it has also proclaimed in unequivocal terms the unity of God, and it closes all paths to polytheism, in whatever form.

5 — The path of profit and grace is described as the straight path. The straight path is easier to recognise and follow, and the more one deviates from it the greater the danger of one's going astray.

6 — Often, however, it is not easy to distinguish which is the straight path Man is helpless, for the answer to the question is hidden in the womb of the future, and he can but proceed on the basis of his very limited knowledge and very restricted reason. He can then but seek the grace of God and pray : O Lord, direct us on the straight path, "the path" — for I know not which it is — of those on whom thou hast bestowed thy grace, not of those who have brought upon themselves thy wrath and have gone astray. (1)

(1) The Quintessence of Islam.

BY : ASHFAQUE HUSAIN

This Sura, Al-Fateha, Sets forth these fundamentals, with incomparable effect, in words which are few and numbered and yet soprecise and simple that they make a direct impact on the mind and heart of the reader. That is as it Should be, for the more simply a truth is stated the more convincing it is; nature itself is simple and it is only artifice and ornamentation which make things complicated. So this sura says the simplest things in the simplest words. It addresses God by those very attributes whose manifestations surround one all the time, even if one is ignorant or negligent enough not to notice them; it proclaims submission to the Lord of the Universe; it acknowledges His help in everything; it prays for the path of rectitude, avoiding the world's temptations and pitfalls. There is aparently nothing remarkable in all this; it contains no difficult thought or novel idea or esoteric formula. Now that we have been repeating it countless times and its message has been before mankind for centuries, it appears a common place; yet, when it was presented to the world there appeared to be nothing more obscure and strange.

Very briefly, this short simple prayer, with out entering into any argument or even explanations, sets before mankind in the clearest possible terms the following basic spiritual lessons :

1 — One of the greatest spiritual errors of man has been to conceive of God as an awesome and terrifying being rather than as Love. The Sura, therefore, begins with HAMD, adoration through praise ; there is no reference to any fearsome aspect of divinity.

2— The first attribute of God referred to is that of Rabbil-Alameen, the Cherisher, Nourisher and Sustainer of the Universe, and it contains two lessons. It tells man of God Who gives him all he needs by way of sustenance, material and spiritual, so that he may protect himself from all evil and proceed to his full development. Secondly, it tells him that God is the God of the Universe, not of any part of it. There is no room left for any narrow mindedness, prejudice and exploitation, Whether individual, tribal, communal, racial, national, religious or of any other kind, His grace and gifts are for all mankind, not for any particular group or any particular religion.

3— He is the Lord of the Day of Judgment. Firstly, He is the Supreme Judge; to none else is it given to sit in judgment upon man. Secondly, there is a Day of

The opening sura (chapter) of the Qur'an has been variously referred to as Fatehatul-Kitab (the opening of the book), Ummul-Qur'an (the most prominent in the Qur'an or, alternatively, the essence of the Qur'an), Al-Kafia (the sufficitient), Al-Kanz (the treasure), etc. The Qur'an itself gives a special place to this chapter, for it refers to it thus : "we have bestowed upon thee the Seven oft-repeated and the great Qur'an" (XV : 87). The expression "Seven oft-repeated" it has been estabilished, refers to this chapter which contains Seven verses and which is repeated over and over again in prayers and also on other solemn occasions.

The prominent place given to this chapter is due to the fact that it is not only the introduction to the Qur'an but also its essence. All that has been stated at length in the Qur'an about the fundamentals of religion has been said in the seven brief verses of this chapter. If a man is unable to read anything else of the Qur'an but can master the meaning of these few short phrases, he will have fully grasped the fundamental purpose of religion and the path to truth and self - fulfilment.

The entire sura is in the form of a prayer and its words are so simple and telling that even an uneducated person can understand them and be moved by them. It was with this in view that this chapter was made the central piece of Islamic litrature, and it is repeated several times during each prayer and on all other solemn occasions.

What are the fundamentals of true religion ?

They can perhaps be reduesd to the following :

a) To have a correct conception of the attributes of God. The errors into which man has fallen in his worship of God have all emanated from his misunderstanding of God's attributes.

b) To belive in the law of just returns. Everything in the world has particular properties and a natural effect, and so man's actions also have certain properties and effects; Good actions lead to good and evil actions to evil.

c) To belive in life after death. Man's life does not end in this world; life will continue beyond it and man will continue to reap the returns of his actions.

d) To recognise the path of rectitude and grace.

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

A. H. AL-ZAYYAT

JUMADA'L - UKHRA 1384 H. A.	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	NOVEMBER 1964

AL-FATEHA
The Opening Chapter of the Qur'an

BY

MOULANA ABUL KALAM AZAD

[Moulana Abul Kalam Azad was a scholarly teacher and a learned theologian. He had strong literary tastes and he was interested in the modern language and litrature. While his training and upbringing had given him a great deal of knowledge of classical litrature, nature had endowed him with a creative and objective mind. Thus he combined true conservatism with modernism. He did not leave everything that is old simply because it was old. And he did not accept the new merely because It was a new.

In his explanation of messege of the Qur'an he warned that the principles of Qur'an could not be tested by the ever limited knowledge of man. Because the science and philosophy can lead man only to a limited extent. The ultimate guide of man must be inspiration beyond Science, faith, logic and philosophy. It is noteworthy that Moulana Azad Spent his whole life in controvercial politics but his writings have no sign of any prejudice or bias.

Moulana Abul Kalam Azad's commentary of the first chapter of the Qur'an, Al-Fateha, contains all the spritual teachings of the Qur'an, the fundamentals of Islam and it deals with several problems which have been a challenge to religious thought. This commentary will give the reader a clear idia of Islam inits true original form, as set forth in the Qur'an, by a theologian, humanist and a modern intellectual — M. Alwaye]

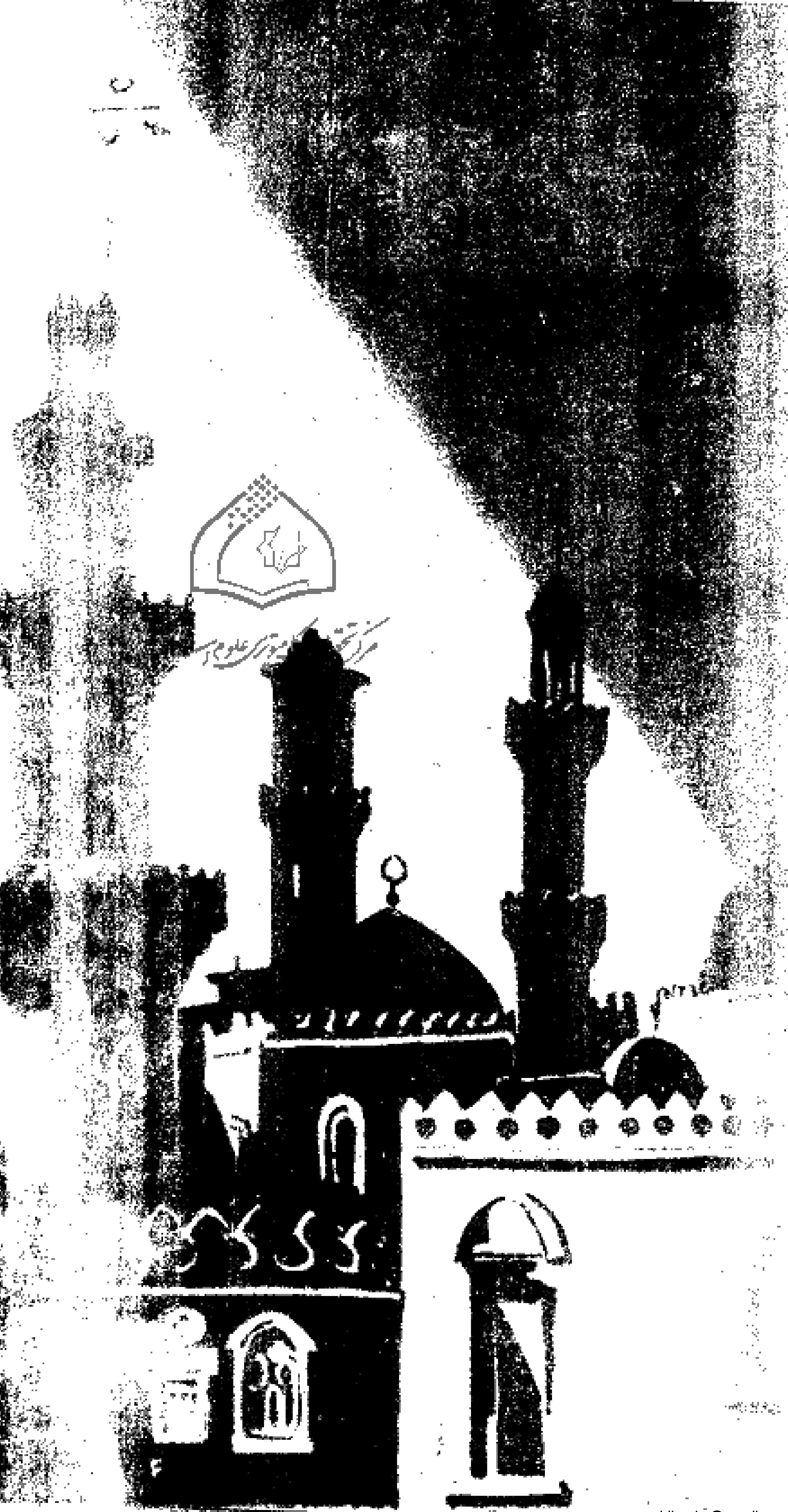
الفهرس

الثمن اربعون مليما

مطبعة الأزهر

مجلة الأزهر

رجب ١٣٨٤ هـ — ديسمبر ١٩٦٤ م



مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

بدل الاشتراك
٤٠ فى الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الخامس ـ السنة السادسة والثلاثون ـ رجب سنة ١٣٨٤ هـ ـ ديسمبر ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مكانة المرأة فى المجتمع

بقلم : عبد الرحيم فوده

١ ــ أتت أسماء بنت يزيد الأنصارية إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فى المدينة فقالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك وبإلهك ، إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل ، وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا أولادكم ، أفنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال : هل سمعتم مسألة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها .. ؟ فقالوا : يا رسول الله ما ظننا امرأة تهتدى إلى مثل هذا ! فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها فقال : افهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك أن حسن تبعل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله ،

فانصرفت وهى تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب ، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففرحن وآمن جميعهن .

من هذه القصة تلوح مكانة المرأة من حيث هى زوجة فى المجتمع الإنسانى ، فعملها لإرضاء زوجها ، وحسن عشرتها له ، وعنايتها بشئونه وشئون بيته وأولاده ، وموافقته فى غير ما يغضب الله يعدل ما يقوم به دونها من حج وعمرة وجهـــاد فى سبيل الله ، وعلى هذا تكون المساواة فى الأجر والثواب لا فى نوع العمل والوظائف ، وهذا هو ما يفهم من قول الله : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » فالرجال من النساء ، والنساء من الرجال ، وهما يتساويان فى الأجر والجزاء وإن اختلفت وظائفهما باختلاف طبيعتهما ، لأن عمل كل منهما متمم لعمل الآخر .

٢ — والمرأة من حيث هى أم يجب أن تكون منزلتها أعلى من منزلة الرجل فى نظر أبنائهما ، وذلك هو ما يشير إليه قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنـا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » . فإن تخصيص الأم بالذكر دون الأب بعد التوصية بهما يدل على أنها أجدر منه بالشكر ، وذلك لأنها كما يقول الله : « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين » ، وبذلك التوجيه من الله والتنبيه إلى مكانة الأم جاء توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد سأله رجل فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى .. ؟ قال : أمك قال : ثم من .. ؟ قال : أمك قال : ثم من .. ؟ قال : أمك ، قال : ثم من .. ؟ قال : أبوك ..

٣ — أما نظرة الإسلام إليها قبل أن تكون زوجا وأما فيمكن أن نلمحها من قوله تعالى : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما » فإن التعبير بكلمة « يهب » يشير إلى أن الأنثى والذكر من الأولاد كلاهما نعمة موهوبة ، فينبغى أن تكون محبوبة ، وأن تقابل بما ينبغى للخالق الرازق من ذكر وشكر ، ولهذا نعى الله على العرب وغيرهم من الكافرين أنهم كانوا كما يقول فيهم « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » ، ثم بين قبح حالهم هذه وسوء حكمهم هذا بقوله « ألا ساء ما يحكمون » .

٤ — وكما يراد الزرع من الحقل تراد

المرأة للنسل ، فإن ذلك هو وظيفتها الأولى ، وذلك هو بعض ما يفهم من قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » وقوله جل شأنه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وقوله سبحانه : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » فالبنون والبنات لا يكونون من غير الأزواج والزوجات ، ومن فى حكم الزوجات والتبنى عادة مذمومة أبطلها الإسلام ، ليصون كرامة الأسرة وحرمة الأسرة وحقوق الأسرة ، وجو الأسرة ، ولا مجال لقائل بعد قول الله : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم » وقوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عنـــد الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » .

٥ — ويفهم من قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » : أن قيام الزوج بأمر الزوجة ليس مقصوراً على الرياسة والولاية بل يشمل إلى ذلك حسن العشرة والرعاية . وما يتصل بهما من ألوان البر والخير بدليل قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » وقوله صلى الله عليه وسلم : (استوصوا بالنساء خيرا) وقوله عليه السلام : (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر) ولا شك أن طاعة المرأة لزوجها أمر طبيعى ، وأن رياســة الرجل للأسرة مما تقضى به الضرورة والنظام فى كل مجتمع ، فإن لكل مصلحة رئيسا ، ولكل مدرسة رئيسا ، ولكل قرية رئيسا ، ولكل دولة رئيسا ، والأسرة أساس المجتمع فيجب ألا تشذ عن نظام المجتمع ، بل إن لها شأنا أخطر وأكبر ، يجب ألا يغفل أو يهمل .. وليس معنى ذلك أن يستبد الزوج وتأخذه العزة بالإثم . وتعيش الزوجة فى جو من القهر والأسر ، فإنه ليس له عليها أى سلطان أو سبيل إذا أطاعته فيما يرضى الله كما يفهم من قوله تعالى : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا » .

هذه هى بعض الخطوط الرئيسية التى تحدد مكانة المرأة فى المجتمع وعملها فيه ، وقد فسح لها الإسلام مجال العمل الصالح ، ووعدها بالحياة الطيبة كالرجل سواء بسواء ، كما يفهم من قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

عبد الرحيم فوده

الجهـــاد

لفضيلة الإمام الأكبر
الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر

الجهاد بين اللغة والشريعة :

الجهاد فى أصل اللغـــة المشقة ، يقال : جاهدت جهادا أى بلغت المشقة .

وفى استعمال الشرع ، بذل الجهد فى قتال الكفار ويستعمل أيضاً لمجاهـــدة النفس والشيطان والفساق .

ومجاهدة النفس تكون بتعلم أمور الدين والعمل بها ، وتعليمها لمن يجهلها وحثه على العمل بهـا .

ومجاهدة الشيطان تكون بعدم الإصغاء إلى وسوسته والاستعاذة بالله منه ومن شره .

ومجاهـدة الفساق تكون بدفع الشبهات عنهم وما تزينه لهم شهواتهم من الأفعـال والأقوال التى نهى عنها الشارع الحكيم .

وأما مجاهدة الكفار فتكون برد اعتدائهم على المسلمين باليد والمال واللسان والقلب .

ولا خلاف بين المسلمين فى أن الجهاد فرض على المسلم ، ومحل الخلاف هو أنه فرض عين على كل مسلم أو فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين . وهما قولان مشهوران فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه .

ونختار أنه فرض عليهم إذا لم يكف من نهض به من أهل البلد المعتدى عليه ، إذ فى هذه الحالة يكون مفروضا على المسلمين من أهل البلاد الأخرى أن يعاونوهم فى جهادهم بالنفس والمال وغيرهما من وسائل الجهاد حتى يظفر المسلمون برد اعتداء غير المسلمين على أى بلد من بلاد الإسلام .

وهو فرض كفاية إذا كان أهل البلد الذين نصبوا أنفسهم لرد اعتداء غير المسلمين على بلدهم من القوة والكثرة بحيث يغلب عليهم الفوز على أعدائهم من غير معونة أهل البلاد الأخرى .

الدعوة قبل الجهاد :

ولم يشرع الجهاد فى الإسلام أول الأمر وإنما شرع بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فلم يشرع الجهاد ولم يؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين الذين ناصبوه العداء وهو مقيم بينهم فى مكة بل استمر يدعو الناس إلى الإسلام دعوة سلمية لم يمتشق فيها حساما ولم يعلن فيها حربا على أحد أكثر من ثلاثة عشر عاما .

وقد بدأ الرسول دعوته بإنذار عشيرته الأقربين امتثالا لأمر ربه فى قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنى

يرى بما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين . إنه هو السميع العليم » .

ثم انتقل بدعوته إلى أهل مكة وغيرهم ممن كان يفد إلى مكة للحج وغيره من أهل يثرب ممتثلا في ذلك أمر ربه في قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .

وكانت طريقته ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الدعوة خلال هذه الأعوام الطويلة ما رسم له القرآن في قول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وقد أثمرت هذه الدعوة السلمية ثمرات طيبة . فأسلم عدد من المشركين وجدوا في الدعوة نورا يضيء لهم ظلمات الشرك والجهل ، وعدد من الأرقاء والخدم وجدوا فيها دعوة إلى الحرية والإخاء والمساواة ، وهو ما افتقدوه في حياتهم حيث كانوا يعيشون خدما وأرقاء لسادتهم الذين يمنحون أنفسهم كل شيء ويحرمون أتباعهم وخدمهم من كل شيء ، وعدد من المظلومين والمعتدى عليهم وجدوا في الدعوة الإسلامية العدل والمساواة فآمنوا بالله وأجابوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبرز من هؤلاء المؤمنين الأولين أبو بكر الصديق وعمر ، وحمزة ، وعلي وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وبلال ، وعمار بن ياسر وغيرهم رضي الله عنهم .

ولم تصل هذه الدعوة إلى القلوب المتحجرة من سادات قريش الذين خشوا على سلطانهم ونفوذهم في قومهم كما خشوا على أموالهم أن ينفقوها في سبيل الله وسبيل البر والتقوى كأبي جهل ، وأبي سفيان ، وعقبة بن ربيعة وغيرهم ، فقد أعرضوا عن الدعوة وجاهروا بعدائهم لها ، وصدوا الناس عن قبول هذه الدعوة وحاولوا فتنة من أسلم منهم بإيذاء المسلمين وتجويعهم وإلحاق الضرر بهم .

الإذن بالقتال :

أمضى الرسول « صلى الله عليه وسلم » في مكة ثلاثة عشر عاما ، بلغ فيها الدعوة إلى أهل مكة وغيرهم من الوفود ، ولقي هو وأصحابه ألوانا كثيرة من أذى المشركين وظلمهم ، فلما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بتآمر المشركين في مكة عليه ومكرهم به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ـ استشرفت نفسه الشريفة أن يأذن الله له بالهجرة إلى يثرب التي بايعه نفر من أهلها بيعة العقبة الأولى والثانية على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم ، فأذن الله له بالهجرة ، فهاجر إلى يثرب واصطحب معه صديقه أبا بكر الصديق « رضي الله عنه » ، وبعد أن استقر بالرسول « صلى الله عليه وسلم » المقام بالمدينة شرع يفكر في تنظيم أمور الدولة الإسلامية الجديدة ، وكان أول عمل في السياسة الداخلية مؤاخاته

بين المهاجرين والأنصار وفي السياسة الخارجية أي في سياسة الدولة نحو إعداد الدعوة استعدادا لرد عدوان من يفكرون في الاعتداء على الدولة الإسلامية، وحماية العقيدة، وأنزل الله على رسوله في هذا الوقت أولى آيات القتال وهي قوله تعالى في سورة الحج: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز».

وينقل الطبري في تفسيره عن قتادة في قوله تعالى: «أذن للذين يقاتلون... قال: هي أول آية أنزلت في القتال وأذن للمؤمنين أن يقاتلوا وكان أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» استأذنوه قبل الهجرة في قتل الكفار غيلة سرا إذ آذوهم واشتدوا عليهم بمكة فلم يأذن الله سبحانه وتعالى في القتال الذي طلبوه، ونزل قوله تعالى: «والله لا يحب كل خوان كفور».

ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة أطلق لهم قتلهم وقتالهم أي أن الله سبحانه وتعالى أذن للمؤمنين الذين أخرجهم مشركو مكة من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله - بأن يقاتلوا المشركين الذين ظلموهم أولا بالإخراج من ديارهم، وثانياً بقتال المؤمنين والاعتداء عليهم في وطنهم الثاني، فالإذن بالقتال في الآية إذن بقتال فريق معين من المشركين أرادوا أولا صد الناس عن الدعوة بعنف وتعذيب وتنكيل وطغيان ووحشية أساليب وأكرهوهم بما فعلوا بهم ثانيا على الخروج من وطنهم الحبيب فرارا بدينهم إلى حيث الغربة عن الأهل والعدم من المال والوحشة من الأجانب، ولولا أنسهم بالعقيدة السمحة والدين الحق لماتوا كمدا، وقضوا حسرة، فالإذن بالقتال في أول آياته معه مبرراته التي تحتمها حماية الدعوة الجديدة من اجتراء سفهاء يريدون لها الهوان لو حلم المسلمون عليهم لتمردوا تمرد اللئيم، وقديما قيل:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان
وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

ولهذا يعتبر الإذن بالقتال رداً طبيعيا لا يحمل إكراها على إيمان وإرغاما على دين وصدق الله العظيم في قوله: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم».

محمود مأمون
شيخ الأزهر

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدنى

٢ — الطلاق غير المنجز

— ٥ —

١ — إذا قال زوج لزوجته : أنت طالق أو أنت مطلقة ، فهذا طلاق منجز ، أى أنه ليس معلقا على حصول شىء ، وقد قصد به إيقاع الطلاق فورا .

وحكم هذا الطلاق أنه يقع فى الحال ، إذا كان صادرا من أهله ، ووقع فى محله .

٢ — وإذا قال رجل لزوجته : إذا دخلت الدار فأنت طالق أو إن لم أدفع دينى غدا فأنت طالق أو : على الطلاق لا تخرجى من البيت ، أو إن دخلت البيت فطلاقك على واجب، أو: أنت طالق أول الشهر أو أول السنة

فكل هذا طلاق معلق ، أى غير منجز ، وذلك أنه علق الطلاق فى المثال الأول والمثال الثانى على دخولها الدار ، أو على عدم دفع دينه غدا .

والمثال الثالث يفهم منه التعليق وإن لم يصرح به لفظا فكأنه قال : إن خرجت من البيت يلزمنى الطلاق — والتعليق فى المثال الرابع صريح فى هذا المعنى الذى آل اليه المثال الثالث .

والمثال الخامس تعليق فى المعنى أيضاً ، لأنه بمثابة أن يقول : إن جاء أول الشهر أو أول العام فأنت طالق .

والطلاق المعلق ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : الطلاق الذى هو فى معنى اليمين ، كما لو أرادت المرأة أن تذهب إلى بيت أهلها مثلا ، وأراد زوجها منعها فهددها بالطلاق قائلا لها : إن ذهبت إلى بيت أهلك فأنت طالق ، فهذا بمثابة أن يقول لها : والله لا تذهبين إلى بيت أهلك غير أنه أتى بالطلاق بدل الحلف بالله ! وليس له غرض فى الطلاق ولكن غرضه أن يمنعها من الذهاب إلى بيت أهلها .

ومثله من يقول لصاحبه : إن لم تتغد عندى اليوم فامرأتى طالق ، فكأنه حلف عليه بالطلاق بدل أن يحلف بالله ، ليحثه على الفعل .

وكذلك لو أراد أن يحث نفسه على فعل شىء ، أو على ترك شىء ، كأن يقول إن شربت الدخان فامرأتى طالق ، أو إن لم أسافر إلى الإسكندرية فامرأتى طالق .

فكل هذه الصيغ التعليقية ، إنما هى أيمان لا يراد بها الطلاق ولكن يراد بها الحث أو المنع .

الثانى من قسمى المعلق : الطلاق على الصفة مثل أن يقول لها ، وهما بصدد التفاوض على إنهاء الزوجية : إن دفعت لى مبلغ مائة جنيه فأنت طالق ، أو إن أبرأتنى من مؤخر صداقك فأنت طالق .

فهذا رجل له رغبة فى الطلاق وغرض منه يرمى إليه وليس بمجرد تعليق يحث به على شىء أو يمنع به من شىء ، كما يفعل الحالف بالله ، وقد اصطلحوا على تسميته (بالطلاق على الصفة) .

هذه هى أقسام الطلاق من جهة تنجيزه أو تعليقه . ويمكن إيجاز التطور التشريعى الذى مر به هذا الموضوع فيما يأتى :

١ — فهم بعض العلماء أن الطلاق الذى وسعه الشارع وأذن فيه هو ما كان منجزاً ، فإنه لم يرد فى القرآن ولا فى السنة نص على جواز التطليق المعلق بالشرط .

بل لعل القرآن أشار إلى أن الطلاق لا يقع إلا منجزاً حيث يقول :

« يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاجميلا » ، فنى هذه الآية شرط وهو قوله تعالى إن كنتن وجواب معلق على هذا الشرط وهو قوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . فهو تخيير ليس فيه تنجيز الطلاق عند وقوع الشرط ، ولكن فيه وعد لهن بالتطليق إذا اخترن المتاع ، ولو كان قد قال ، قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فأنتن طوالق ، لدل ذلك على مشروعية الطلاق المعلق لكنه عدل عن ذلك ليمكن أن يسرحهن سراحا جميلا إذا اخترن الحياة الدنيا وزينتها بأن يطلقن مستقبلات العدة تحقيقا لقوله تعالى فى آية أخرى : « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة » فهذه الآية الأخيرة تبين أن الطلاق المشروع هو طلاق النساء فى الوقت المشروع للطلاق ، وهو وقت استقبال المرأة العدة والطلاق المعلق على الشرط كثيراً ما يجر إلى إيقاع الطلاق فى غير وقت استقبال العدة ، وما يؤدى إلى غير المشروع لا يكون مشروعا .

وهناك أحاديث نبوية معروفة تقرر أن الطلاق المشروع — المعبر عنه عند الفقهاء بالطلاق السنى ، المقابل للطلاق البدعى — هو الذى يكون والمرأة مستقبلة عدتها ، ومنها ما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عمر بن الخطاب رسول الله عليه وسلم عن ذلك فقال : مره

فليراجعها ، ثم ليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل له : قل أنت طالق إذا استقبلت العدة لأن ذلك ينافى الحكمة التى قصدها الشارع من إعطاء فرصة للزوجين فى مراحل الحيض والطهر مرة بعد مرة ، لعلهما أن يصلحا من أمرهما فلا يكون الطلاق الذى يكرهه الله .

وبذلك يكون الطلاق المعلق على الشرط غير جائز ، وغير مشروع ، إلا مادل الدليل على جوازه وصحته مثل التعليق على مال وهو الخلع .

وقد روى هذا عن على وشريح ، وطاوس وعطاء ، وأبى ثور ، وإليه ذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب الشيعة الامامية .

٢ — ويرى جمهور أهل المذاهب ، ومنهم الأئمة الأربعة والزيدية جواز التعليق ، على اختلاف بينهم بالنسبة لأنواعه .

ولهم على ذلك أدلتهم ، وقد ناقشهم مخالفوهم فيها ، ومن أراد تفصيل ذلك فليرجع إلى مثل كتاب (زاد المعاد لابن القيم) .

٣ — وقد كان العمل فى مصر وشقيقاتها العربيات على رأى الجمهور ، وهو اعتبار الطلاق المعلق بشرط واقعا إذا تحقق الشرط دون تفرقة بين ما كان على سبيل اليمين ، وما كان طلاقا على الصفه ، حتى صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ فنص فى المادة الثانية منه على ما يأتى :

(لا يقع الطلاق غير المنجز ، إذا قصد به الحمل على فعل شىء أو تركه لا غير) .

وقد تضمنت هذه المادة :

١ — إيقاع الطلاق المنجز بدون قيد ولا شرط .

٢ — إيقاع الطلاق المضاف إلى زمن مستقبل مثل أنت طالق أول الشهر أو أول العام .

٣ — وإيقاع قسم من المعلق وهو الطلاق على الصفة ، مثل إن دفعت إلى مائة جنيه مثلا فأنت طالق .

٤ — إلغاء اليمين بالطلاق ، وهو على الطلاق لأفعلن كذا ونحو ذلك .

٥ — إلغاء قسم من المعلق هو الذى فى معنى اليمين مثل إن فعلت كذا فأنت طالق وهو لا يقصد إلا الحمل على تركه ، أو إن لم تفعلى كذا وهو لا يقصد إلا الحمل على فعله .

وما قرره هذا القانون من إلغاء اليمين بالطلاق هو رأى طائفة من أصحاب الشافعى كالقفال : وصاحب التتمة ، ورأى داود وأصحابه : ورأى طائفة من المالكية فى بلاد المغرب ، وأنه كان يفتى به فى فارس والعراق والشام ومصر والجزيرة وخراسان فى زمن ابن تيمية : كما نص عليه ، وأن الذين كانوا

يفتون به كثيرون من علماء المذاهب الأربعة وغيرهم ، وإن لم يكن هو رأى جمهورهم .

وأما ما قرره من إلغاء الطلاق المعلق على شرط بقصد الحمل على الفعل أو الترك ، فقد بنى على أن هذا النوع من التعليق هو فى معنى اليمين ، وإن لم يكن بلفظ « على الطلاق » « أو » يلزمنى الطلاق » وأخذ فيه برأى الظاهرية ، والإمامية ، وما اختاره ابن القيم وشيخه ابن تيمية .

وقد وقفت القوانين الحديثة فى البلاد الشقيقة موقف القانون المصرى المشار إليه تقريبا :

فجاءت المادة السادسة والثلاثون من القانون العراقى تقول :

« لا يقع الطلاق غير المنجز ، أو المشروط أو المستعمل بصيغة اليمين » .

وهذا النص أكثر توسعا فيما لا يقع من المعلق ، فقد شمل إلغاء كل معلق ، أو مشروط أو صيغة لليمين ، بينما القانون المصرى يقرر وقوع المعلق الذى هو على الصفة ، وهو ما للمطلق فيه وطر وغرض يقصده سوى الحمل على فعل شىء أو تركه .

وجاء فى الفصل الخمسين من مدونة الأحوال الشخصية المراكشية ما يأتى :

« الحلف باليمين أو الحرام لا يقع به الطلاق » .

وجاء فى الفصل الثانى والخمسين منها ما يأتى :

(الطلاق المعلق على فعل شىء أو تركه لا يقع) .

وهو نص دال على التعميم فى عدم الوقوع بالتعليق أيا كان نوعه .

وجاء فى المادة السبعين من قانون حقوق العائلة الأردنى ما نصه :

(لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شىء أو تركه) .

وفى المادة الحادية والسبعون منه :

(على الطلاق ، وعلى الحرام ، وأمثالهما ، لا يقع بها الطلاق ما لم تتضمن صيغة الطلاق مخاطبة الزوجة وإضافته إليها) .

وجاء فى المادة التسعين من قانون الأحوال الشخصية السورى ما نصه :

(لا يقع الطلاق غير المنجز إذا لم يقصد به إلا الحث على فعل شىء ، أو المنع منه ، أو استعمل استعمال القسم لتأكيد الإخبار لا غير) .

ويرى بعض العلماء المعاصرين أنه يجب تعديل المادة الثانية من القانون المصرى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ تعديلا يؤدى إلى تحقيق ما يأتى :

الطلاق المعلق بجميع صوره وألفاظه لا يقع به شىء أصلا — (وهذا ما أخذ به القانون العراقى) .

اليمين بالطلاق لغو ولا يقع به شىء .

(وأقرب عبارة لهذا هى عبارة القانون العراقى أيضا)

محمد محمد المدنى

إلى أي مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ٢ —

انتهيت فى المقال السابق إلى أسس ينبغى أن تكون نصب أعين المفتين والذين يضعون للأمة قوانين يلزمونها بها . وتتلخص هذه الأسس فيما يأتى : ـ

(ا) أحكام غير قابلة للتطور ولا لاختلاف الآراء . وهى : ـ

١ ـ الأحكام الاعتقادية .

٢ ـ الأحكام المستنبطة من أدلة شرعية قطعية فى ثبوتها وفى دلالتها .

(ب) أحكام وقع فيها الخلاف ، لأنها مستنبطة من أدلة ظنية فى ثبوتها أو فى دلالتها ولا يسمى هذا الاختلاف تطورا ؛ وإنما هو اختلاف حجة وبرهان ؛ فمن ترجح عنده دليل رأى من الآراء أخذ به ؛ وكل ما يمكن أن نسلكه فى سلك التطور من هذا اللون من الأحكام هو الأخذ ببعض الآراء المرجوحة ـ غير الساقطة ـ إذا كان فى الأخذ بها توسعة على الناس ، ولا بدع فى ذلك ؛ فقد سبق الفقهاء الأقدمون إلى ذلك ، فقد روى عن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رضى الله عنهما أنه كان يرى أن روث البهائم نجس نجاسة مغلظة كما يقول الإمام ؛ ثم قال : إنه نجس نجاسة مخففة ؛ يعفى عن مقدار ربع الثوب أو العضو الذى أصيب به ؛ ثم لما ذهب إلى بلخ ورأى اختلاط الأرواث بالطين ، وعموم بلوى الناس أفتى بطهارتها ، وقد قال فقهاء الحنفية إن الأساس الذى بنى عليه صاحبا أبى حنيفة وهما أبو يوسف ومحمد قولهما فى النجاسة تغليظاً وتخفيفاً هو اتفاق العلماء على القول بالنجاسة أو اختلافهم فيها ؛ ومع هذا فقد أفتى محمد بالطهارة لعموم البلوى أخذاً برأى من يرى طهارتها كالإمام مالك ، ووسعه أن يخالف إمامه .

وعندى أن المفتى الدقيق فى فتواه ينبغى أن ينظر فى أحوال المستفتين ، ويفتيهم بما يتفق وظروف بيئتهم ؛ فإذا كان المستفتى تساعده ظروف حياته على أن يتحرز عن الأرواث وما فى معناها ينبغى أن يفتى بأنها نجسة نجاسة مغلظة لا يعفى منها إلا عن النذر القليل الذى حدده الفقهاء .

وأما إن كانت ظروفه لا تساعده إلا على التحرز اليسير ؛ فإنه يفتى ـ حينئذ ـ بأن هذه الأشياء نجسة نجاسة مخففة ؛ يعفى منها عما كان دون الربع من الثوب أو العضو .

وأما إن كان مبتلى كالرعاة مثلا فإنه يفتى بطهارتها .

وقد ضربت المثل بهذه المسألة لتكون كنموذج يحتذى فى المسائل الخلافية ؛ وروح التطور فيها هو الأخذ بالرأى الأنسب لكل فرد وكل جماعة ، فقد يتطلب المقام الأخذ بالأحوط وقد يتطلب المقام التساهل ؛ وإذا كان البلغاء يقولون : لكل مقام مقال : فينبغى أن يقول الفقهاء : إن لكل مستفت ظروفه وملابساته .

فلو أنى سئلت عن صحة نكاح أصول أو فروع المزنى بها ، وكان السائل - بعد - لم يعقد عليها لأفتيته بحرمة الزواج بأصل أو فرع من زنى بها ، أخذاً برأى الحنفية والحنابلة وكثير من الفقهاء ؛ فليس من المروءة ولا من الآداب الإسلامية أن يطلع الرجل من المرأة على ما اطلع عليه من ابنتها أو أمها .

وإما إن كان الزنى لاحقا لعقد الزواج فلا أفتى بفسخ النكاح القائم ، وإنما آخذ برأى الشافعية وبعض الفقهاء إبقاء على كيان أسرة قائمة ، وعملا بالنصوص التى تدعو إلى الستر فى مثل هذه الأحوال ، اللهم إلا إذا اشتهر بها أو كان قيام الزوجية مدعاة إلى دوام تلك العلاقة الآثمة .

ولو استفتيت فى شأن التزوج بمن رضع معها أو منها ، ولم يكن الزواج وقع فعلا لأفتيت بالمنع أخذا برأى الحنفية وكثير من الفقهاء فإن ذلك أحوط وأبعد عن الندم والشك الذى يحطم الحياة الزوجية ، وأما إن كانت الزوجية قائمة فإننى أفتى بأوسع الآراء وأسهلها فى باب الرضاع كمذهب الشافعى الذى اشترط خمس رضعات مشبعات متفرقات .

وقد توسعت فى هذا الاون من الأحكام فى هذا المقال لأنى اقتضبته اقتضابا فى مقالى السابق ، ثم هو باب واسع من أبواب الفقه التى ينبغى أن يعنى بها الفقهاء ، وأن يكونوا كالأطباء فيفتون كل شخص أو كل جماعة بما يلائمهم من أقوال الفقهاء .

ويعجبنى فى هذا المقال ما نقل عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أن إمرأة سألته فقالت إننا نغزل - ليلا - على ضوء مصابيح بعض الظلمة أيحل لنا ذلك ؟ فقال : من أنت ؟ يرحمك الله ، فقالت : أخت بشر الحافى فقال : من بيتكم خرج الورع ، أما أنت فلا .

فإن سؤال هذه السيدة سؤال عام يتناولها وغيرها ، ولكن جوابه خاص لأنه علم من حالها أنها تستطيع أن تأخذ بالأحوط والأورع ، فأفتاها بالحظر بالنسبة اليها فقط .

(حـ) أحكام هى بطبيعتها قابلة للتطور وقد أجملتها فى مقالى السابق إجمالا وأعود فأفصلها بعض التفصيل وأحصرها - استقراء - فى الأحكام الآتية :

١ — أحكام علقها الشارع على أوصاف بما يؤذن أن لهذه الأوصاف مدخلا فى تعليل الحكم كما ضربت لذلك مثلا بآية مصارف الزكاة ، وبينت فهم عمر رضى الله عنه لهذه الآية .

ووجه التطور فى هذا النوع من الأحكام أنه إن وجدا لوصف المعلق عليه الحكم وجد الحكم وإن عدم انعدم الحكم .

هذا إذا كانت العلة منصوصة أو فى حكم المنصوصة ، وأما إن كانت العلة مستنبطة كالإسكار فى الخمر أو مظنة الضرر فى لحم الخنزير كما يقول بعض الناس - فإن الحكم لا يتغير فالخمر حرام أسكرت أو لم تسكر إما لقلتها أو لاعتيادها إلا إذا زال عنها معنى التخمر بأن صارت خلا ، لأنها - حينئذ - ليست خمراً ، ولحم الخنزير حرام مهما كان نقيا من الجراثيم والديدان ومهما بولغ فى طهيه وإعداده وتربيته إذ من الجائز إن لم يكن من المؤكد أن هذه الأشياء محرمة لذواتها ، وقد تعبدنا الله بتحريمها ليميز الخبيث من الطيب وليعبد المتمرد من العبد الطائع .

٢ - الأحكام التى استنبطها الفقهاء من تصرفات الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى غزواته وسراياه وعطاءاته ومعاهداته فإن هذه الأحكام منها ما صدر عنه بوصفه رسولا مبلغا عن ربه ، وهذا - كما قلت - لا يجوز أن يكون محل جدل ، أو أن يقال : إنه من الأحكام المتطورة ، وأما ما صدر عنه بوصفه إماما لهذه الأمة فقد راعى فيها ظروف بيئته ومتطلبات وقته ، ويسع الأمة أن تأخذ فى مثل ذلك بما يتفق وظروفها - وكما قلت - إن الفيصل فى ذلك هو القرائن .

٣ - أحكام استنبطها الفقهاء من أقوال مأثورة عن بعض الصحابة ، وجعلوها فى حكم الأحاديث المرفوعة بحجة أن مثل هذه الأقوال لا تقال بالرأى وإنما تقال عن توقيف من صاحب الشرع وذلك كرأى الحنفية فى أقصى مدة الحمل وأنها سنتان ، وكقولهم فى تحديد أقل مدة الحيض وأنها ثلاثة أيام وأن أكثره عشرة معتمدين فى ذلك على ما نقل عن عائشة رضى الله عنها مستبعدين أن يصدر عنها ذلك إلا عن توقيف ، مع أنه يمكن أن يكون قولها هذا عن استقراء وتتبع منها فمثل هذه الأحكام يمكن أن نعتمد فيها على استقرائنا ، ولست أغالى إن قلت إن إمكانية الإحصاء والتتبع فى عصرنا هذا - فى مثل هذه الأمور - أيسر ولا أرى غضاضة شرعا أن آخذ بما يثبت الاستقراء أنه الأكثر وقوعا مع الاحتياط فى أمر الأبضاع والأنساب .

نعم هناك أحكام نقلت عن الصحابة - رضوان الله عليهم - لا يمكن إلا أن تكون عن توقيف ، وهذه تلتحق بالأحكام المستنبطة من السنة وتخضع لقوانين الترجيح والتجريح التى وضعها العلماء لمعرفة الصحيح المقبول من غير المقبول ، ثم هى بعد ذلك تخضع لقطعية الدلالة أو ظنيتها على ما هو معروف عند الأصوليين ، وهذا - أيضاً - باب واسع من أبواب التطور فى الفقه ، وما علينا إلا تتبع أمثال هذه الأحكام فى كتب المذاهب المختلفة .

٤ — الأحكام التى استنبطها الفقهاء من القواعد العامة للشريعة .

مثل قاعدة لاضرر ولا ضرار ، الضرورات تبيح المحظورات ، درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ارتكاب أخف الضررين . لا يسأل المالك من أين ملك ، المالك يتصرف فى ملكه كيفما يشاء . الحرج مدفوع بالنص . إلى غير ذلك من القواعد التى استنبطها الفقهاء من تتبع فروع الشريعة ثم أخذوا يطبقونها على ما قد تجد من حوادث ونوازل لم يرد فيها نص .

وهذه الأحكام هى من أوسع أبواب الفقه قابلية للتطور فكم من أمور ظن المتقدمون أنها ضارة فقالوا بمنعها ثم تبين أنها لا ضرر فيها أو أن ضررها أقـــل كثيراً من خيرها وكم من أمور ظن ـ قديماً ـ إنها من الضرورات فأباحوا لأجلها المحظورات وكذا العكس . وكم من أمور رأوها غير ضرورية ثم بمضى الزمن تبين أنها ضرورة كبعض أنواع الإكراه الذى اعتبره بعض الفقهاء إكراها غير ملجىء كالتهديد بهتك عرض عزيز عليه أو التهديد بإفشاء سر يؤدى إلى قتله إلى غير ذلك ؛ فإنى أرى أن مثل هذا من قبيل الضرورة التى تبيح المحظور .

وباب درء المفاسد وتقديمه على جلب المصالح من أخطر المزالق التى تنزلق فيها الأقدام وذلك لأنه ليس درء كل مفسدة مقدما على جلب كل مصلحة ؛ وإلا لزم حظر جل الأشياء أو كلها ، فكل خير مشوب بشر ما ، وكل شر مشوب بخير ما ؛ فما بين الله حكمه تقبلناه طائعين راضين وأما الأمور التى لا نص فيها فيتطلب الأمر فيها التدقيق والتمحيص والرجوع فى ذلك إلى من يظن فيهم الخير ممن لهم بهذه المسائل خبرة وعلم .

ولهذه المناسبة أعجبتنى فتوى فضيلة الأستاذ عبد الله غوشه مفتى الأردن بتحريم بيع الأراضى فى القدس أو المناطق المحيطة بها إلى الأجانب واعتبار كل بائع لأجنبى خائنا لدينه ووطنه وسيكون مثواه جهنم .

هذه الفتوى التى نشرتها جريدة الأهرام القاهرية صباح يوم الجمعة ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٦٤ فإن هذه الفتوى روعى فيها درء مفسدة عامة على الوطن العربى المسلم ، ولم يقم وزنا لما قد يجلبه هذا البيع من منافع عاجلة مهما كان قدرها .

فقد زرت القدس وعلمت أن الدول الأجنبية تتسابق لشراء العقارات التى تحيط بالمسجد الأقصى والتى تقع بينه وبين كنيسة القيامة وأنها تبذل الأموال الطائلة فى هذا السبيل لتحيط المسجد الأقصى بملك غير المسلمين والله ـ من وراء كيدهم ـ محيط ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ولنا عودة بإذن الله .

بدر المتولى عبد الباسط

نفحات القرآن

الأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « لقد جاءكم رسول من أنفسكم : عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ... » آية ١٢٨ .

(ب) « فإن تولوا ـ فقل : حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » آية ١٢٩ سورة التوبة .

(ا) ١ ـ حينما قام الصحابة بجمع القرآن فى مكتوب واحد على عهد أبى بكر ، وتحت إشراف عمر ، وباشتراك نخبة من حفاظ الصحابة ـ رضى الله عنهم جميعاً ـ كانوا يعتمدون فى الجمع والترتيب على شيئين هامين .

أحدهما : الحفظ الأكيد الذى كان معهوداً عند العرب ، والذى تركز عند الصحابة فى هذه الناحية ـ خاصة ـ بتكرار التلقى عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والثانى : الرقاع المكتوبة التى كانوا يدونون فيها ما يأتى به الوحى من القرآن ، حينما يتلقونه لساعته من الرسول ، ثم يحفظون تلك المكتوبات تحت أيديهم . صيانة لها ، واعتزازا بها ، واقتداء بما كان يفعله الرسول فى كتابة الوحى ، والحفاظ على هذه الوثائق تحت يده .

٢ ـ فلما انتهى عمل الحفاظ إلى الآية السابعة والعشرين بعد المائة ـ ١٢٧ ـ من سورة التوبة وجدوا أنفسهم يحفظون آيتين أخيرتين ـ ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ ولم يجدوا بأيديهم النص الكتابى الذى يوثقون به حفظهم ، وجمعهم ، وترتيبهم ...

فتسا لوا عن هذا النص ، وسرعان ما تقدم به أبو خزيمة الأنصارى إلى عمر ، ومن معه .

وعندئذ تطابق الحفظ الجماعى ، مع النص الكتابى لهاتين الآيتين ، وختمت بهما سورة التوبة : توقيفا عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ وجمهور الصحابة أو المفسرين

بعدم يحدثوننا أن هاتين الآيتين آخر ما نزل على النبي من الآيات كلها .

وهناك آثار أخرى بأن آخر ما نزل : « اليوم أكملت لكم دينكم ـ الآية » ، أو آية « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله . الآية » إلخ .

وتعدد الروايات فى هذا لا يمس جوهر الآيات ، ولا يخدش قداستها ، فإن ذلك مجرد اعتبار تاريخى : لا أكثر ...

والتاريخ الزمنى شىء ، وصدق الآية وقداستها شىء آخر .

والقرآن بعد تمامه ، وانتهاء الوحى منه ، أصبح وحدة : لا يتفاوت فيها نص عن نص ، سواء تقدم هذا على ذاك فى النزول ، أو تأخر بالنسبة لما معها

ولا يسوغ فى تشريع الله أن تقرأ الآية على غير ترتيبها فى المصحف . على أن بعض العلماء قالوا بصحة الآثار كلها باعتبار كل آية مما تناوله الخلاف كانت آخر ما نزل فى موضوعها الذى تتعلق به .

فالآيتان المذكورتان آخر ما نزل فى تعريف العرب بشأن محمد فيهم ... وفى تعريف النبى بما يفعله مع المعرضين عنه ـ وهكذا كل آية أخرى مما قيل فيه إنها آخر ما نزل .

* * *

٤ ــ وفى الآية الأولى توجيه إلى شخصية النبى من جهات عدة .

فهو إنسان من جنس الناس ، وليس من جنس آخر كالملائكة أو الجن مثلا .

واتحاد الجنس مدعاة إلى الألفة ، والاطمئنان : لا إلى النفرة والخصومة كما بدا من الكفار عامة ، ومن قريش خاصة ، وفوق ذلك : أن محمداً من نفس العرب ، وتلك علاقة أخص من علاقة الجنسية العامة .

ومحمد فى قومه من ذؤابة العرب ـ قريش ـ غير منازع ... وهم أعرف به فى نشأته ، وحياته ، طهراً وسمواً ...

فكان من حقه على قومه أكثر من سواهم أن ينحازوا إلى دعوته ، ويفخروا برسالته ، ويتمدحوا شخصيته ...

فهو منهم ، ومجدهم يستمد من مجده ... كما كانوا يفخرون بأبطالهم ، وشعرائهم ، وكرمائهم ، ويتمجدون بهم .

وكل ما لديهم من المفاخر لا يبلغ شيئاً مما توج الله به رسوله محمداً بن عبد الله : من مياسيم الشرف ، والعزة ، والطهر ، والعصمة من كل شائبة أدبية ، أو نقيصة خلقية .

ولكن العناد ، والغباء ، والجهالة ، والغرور بالباطل : طغت كلها على نفوس قريش كما طغت على سواهم ، فتجهموا للرسول ، وكذبوه ، وقالوا : « لو شاء ربنا لأنزل ملائكة » وقالوا : « أبعث الله بشراً رسولا » ، وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ... إلخ » .

٥ — ومن توجيهات الآية الأولى بعد الإشادة بنسبه أن فيه خصائص ذاتية تقتضى منهم أكثر مما تقتضيه الصلة النسبية العربية .

ويقول فيها الله تعالى : « عزيز عليه ما عنتم » يعنى : يصعب على نفسه ما يصيبكم من مكروه وأنه لا يغض من عطفه عليكم ما يلقاه من إساءتكم له .

« حريص عليكم » شديد الرغبة فى هدايتكم وإيمانكم ، مع أن جزاء الطاعة محسوب لكم وعقوبة العصيان واقعة عليكم : فلاله ولا عليه فإنما عليه البلاغ ، وقد بلغكم كل ما أوحى به إليه .

« بالمؤمنين رءوف رحيم » فرأفته تتمثل فى دفعه للضار عنكم ... ورحمته تتمثل فى جلب المنافع لكم .

ودفع الشر ، وجلب الخير أحب ما يناله المرء من غيره .. والرأفة ، والرحمة من صفات الله الحسنى وقد شهد الله بهما لمحمد صلوات الله عليه وسلامه .

٦ — وهذه المحامد كلها مظهر حق لأهليته للرسالة ، وجدارته بالقدوة فى أقواله وفى مسلكه فإذا كان فى مستوى الكمال فيما تشهدونه : نسبا ، وحرصا عليكم ، ورأفة ورحمة بكم فلماذا لا يكون موضع التقدير الأسمى عندكم .

وماذا يصدكم عن موالاته ، ويحملكم على مجافاته ، مع أنكم المنتفعون به فى الاهتداء ، والسلامة من العثرات . ؟ ؟

ونحن نرى فى هذه الآية دعوة أخاذة للعقول الواعية ، وجذابة للقلوب الحية ، والمستعدة للحياة .

وليس بعدها عذر لمن يتبلد إحساسه ، ويتخلف ذهنه عن حسن التقدير .

* * *

٧ — هذا وإنا لنلمس فى شخصية الرسول وفى خصائصه نموذجا لدعوة إبراهيم وإسماعيل يوم كانا يقومان ببناء الكعبة فى مطلع التاريخ الإسلامى العربى ... ويضرعان إلى الله بالدعوات البارة بهما ، وبالإنسانية جميعا .

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم — أى فى الذرية المسلمة — رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك » . الآية ١٢٩ بقرة .

وفى آية أخرى كان دعاؤهما « ربنا وابعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياتك » ، وقد استجاب الله لإبراهيم وإسماعيل دعاءهما المبكر ، وبعث فى الأمة المسلمة رسولا من أنفسهم ، ختم به الرسالات والرسل .

والله يمتن علينا بهذا فى الآية التى معنا « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » .

وإنك لتشم من أريج الدعوة الإسلامية ومن نفحات القرآن كيفما نظرت فيه أو تلوت منه : أن شريعة محمد هى امتداد كامل لشريعة

إبراهيم ، كما أن شخصية محمد هي الوشيجة العطرة بين العرب وإسماعيل وإبراهيم .

« ذرية بعضها من بعض » وصلوات الله عليهم جميعا في الأولين ، والآخرين .

* * *

(ب) ٨ — ثم جاءت الآية الأخيرة من التوبة تسلية للرسول في مجهوده ، وتخفيفا من حدبه « فإن تولوا ، فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » ففيها تنبيه للنبي صلى الله عليه وسلم ، على أن الأمر مع هؤلاء قد بلغ مداه من العظة ، والاستنهاض فإن تولوا عنك يا محمد فيما دعوتهم إليه ، وأعرضوا عن توجيه أنفسهم نحوك فلا تشغل نفسك بهم : لأنك غير مكلف بإيمانهم ، وهدايتهم ... بل أنت مكلف بالدعوة ، والتذكير ، وقد فعلت ، وبعد ذلك لست عليهم بمسيطر ، ولا جبار .

« إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء » ، وقل في نفسك ، وللناس : حسبي الله ـ هو الذي أعتمد عليه دون غيره .

وهو الذي يكفيني شروركم ، ويغنيني عن معونتكم إياي على أمري ، ويعفيني من منتكم علي بالموازرة ... فإنه لا إله إلا هو ، مالك الأمر كله .. وهو وحده رب العرش العظيم .

والعرش هو مركز التدبير الإلآهي لشئون خلقه ... وهو عظيم بعظمة الملك الواسع الذي لا يعلم محيطه غير الله .

وهو عظيم كذلك بعظمة الله الذي استوى عليه للتدبير والتصرف .

ولا يعلم حقيقة العرش في كيانه ومداه غير الله تعالى .

ولا نقول بتشبيه الله في استوائه على العرش باستواء الإنسان على مقعده ، ولا نقول بتحديد جهة عاليا ، أو سفلي ... ولا نتعرض الخوض في أمور الغيب كلها ، وقد أعفانا الله من البحث في هذه الجوانب البعيدة عن مستوى عقولنا ، واكتفى من عباده أن يؤمنوا بالغيب على ما يعلمه الله .

وذلك هو إيمان العجائز في هذا الشأن المجهول لنا ، وكان الإمام مالك وغيره من جهابذة الأئمة يقولون : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

يريد ـ والله أعلم ـ أننا نفهم معنى الاستواء بالنسبة لنا ... ولكننا نجهل كيفيته بالنسبة لله ... وهذا مجال الدعاء بالإيمان البريء من التدخل ، كإيمان العجائز الذين يسلمون وجوههم إلى الله ، وهم محسنون ، فكانوا مستمسكين بالعروة الوثقى في تدينهم ؟

عبد اللطيف السبكي

مفهوم الإيمان

للأستاذ الحسيني عبد المجيد هاشم

إن جوهر الرسالة الإسلامية السمحاء التي أشرق بها خاتم الأنبياء على الدنيا ليوجهها نحو الهداية والخير هو الإيمان .

وقد حدد رسول الله صلى عليه وسلم مفهوم الإيمان تحديدا واضح المعالم فبين أن الإيمان عقيدة وقول وعمل .

ففي صحيح البخاري إمام المحدثين في باب أداء الخمس من الإيمان .

عن ابن عباس أن وفد عبد القيس لما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم قال : من القوم ؟ قالوا : ربيعة قال : مرحبا بالقوم غير خزايا ولا ندامى ، فقالوا : يارسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل الجنة - فكان مما أمرهم به - الإيمان بالله وحده قال : أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس إلخ .

فقد أوضح المعلم الأول حقيقة الإيمان في مفهوم الشرع بأنه يشمل مع التصديق النطق بالشهادتين وهو قول . وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان . وهي أعمال وهذا ما فهمه السلف ، وقال به المحدثون ، ومنهم إمامهم البخاري الذي أحاط بالسنة دراية ورواية .

وفي ضوء هذا الفهم لمعنى الإيمان فسر البخاري معنى الحديث الآخر الذي كان مثار الجدل في الاختلاف في معنى الإيمان عند المتكلمين .

وهو ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث . قال : ما الإسلام ؟ قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم .

قال أبو عبد الله البخاري فجعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك كله من الإيمان إذ جعله دينا والحق أنه ملحظ دقيق من البخاري يوحي به صراحة الحديث السابق لوفد

عبد القيس، بخلاف من غاير بين مفهوم الإيمان والإسلام، وقصر الإيمان على العقيدة ؛ فإنه لا يتمشى مع التعبير الصريح فى إحاطة الإيمان فى حديث وفد عبد القيس للعقيدة والقول والعمل ...

وإن تفسير العالم البصير بالأحاديث فى أمر من أمور الدين إنما يتسم بالدقة والاعتدال حتى لا يخالف نصاً آخر.

وكما كان البخـــارى صاحب قدم راسخة فى الحديث كان صاحب القدم الراسخة أيضا فى التفسير (١) فهو يمتاز بتفسير القرآن فى ضوء السنة الصحيحة.

وبهذه المقدرة جمع فى سهولة ويسر بين النصوص التى شبهت على علماء الكلام والجدل وأثاروا حولها ضجة جوفاء فى مفهوم الإيمان والإسلام.

فبين أن التغاير فى المفهوم إنما يكون حيث يراد المعنى اللغوى.

وأما حيث تراد الحقيقة الشرعية الكاملة فهما مترادفان.

وقد ترجم بما يوضح ذلك فقال : « باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل ».

لقوله تعالى : قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا.

فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل

ذكره « إن الدين عند الله الإسلام ، وبهذا المعنى قال الغزالى والدوانى.

« والإسلام الكامل الصحيح لا يكون إلا مع الإيمان ، فلا ينفك عنه والإسلام الظاهرى قد ينفك عن الإيمان ».

وبلغ إيمان البخارى بهذه العقيدة أنه كان لا يأخذ الحديث إلا عن قال : الإيمان قول وعمل يقول : أخذت عن أكثر من ألف رجل ثقة من أهل الحجاز ، والعراق ، والشام ، ومصر وخراسان ما رأيت واحدا منهم يختلف فى هذه الأشياء : الإيمان قول عمل ، وأن القرآن كلام الله.

وهذا هو ما كان عليه السلف كما يقرر إمام من أئمة الأحناف ومن كبار محدثى الهند محمد أنور الكشميرى.

يقول : الإيمان عند السلف عبارة عن ثلاثة أشياء : اعتقاد وقول وعمل يزيد وينقص »

وقد وفق الكشميرى بين قول أبى حنيفه : وبين قول السلف فى المعنى ، وحقق الخلاف بينهما بأنه فى التعبير اللفظى فقط.

فقال : وإمامنا وإن لم يجعل الأعمال جزءا لكنه اهتم بها ، وحرص عليها . وجعلها أسبابا سارية فى نماء الإيمان بخلاف المرجئة القائلين : بأن الإيمان هو التصديق فقط وأنه لا يضر مع الإيمان معصية ؛ فإنهم حطوا الأعمال عن رتبتها وعطلوها ، وجعلوها كالمطروح وهذا جهل عظيم.

(١) من مؤلفاته التفسير الكبير موجود بمكتبة فرنسا.

إلا أن تعبير المحدثين القائلين : بجزئية الأعمال لما كان أبعد من المرجئة المنكرين جزئية الأعمال وكان تعبير إمامنا أبى حنيفة أقرب إليهم من حيث نفى الجزئية الأعمال رمى الحنفية بالإرجاء وهم منه بريئون .

كما حقق الكشميرى الخلاف بين من قال من الأحناف بعدم زيادة الإيمان ونقصه ، وبين عقيدة السلف فى زيادة الإيمان ونقصه فبين أنه لا خلاف حيث إن الجهة متغايرة فمن قال بعدم الزيادة والنقصان أراد ما يؤمن به .

وأن من قال بالزيادة والنقصان أراد الإيمان نفسه .

وفى طبقات الحنفية تحت ترجمة (إبراهيم ابن يوسف) تلميذ أبى يوسف، وأحمد بن عمران « كانا يقولان بزيادة الإيمان ونقصانه ، مع كونهما من كبار الحنفية .

ويقول ابن حبان : إن البخارى عد كل طاعة عدها الله فى كتابه من الإيمان، وكل طاعة عدها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان .

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الإيمان : بضع وستون شعبة والحياء من الإيمان .

وفى شرح هذا الحديث يقول شيخ الإسلام ابن حجر بعد عرض كلام الشراح : « وقد لخصت مما أوردوه ما أذكره وهو أن هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان وأعمال البدن » .

ويقول الخطابى فى شرح شعب الإيمان : فى هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعى اسم لمعنى ذى شعب وأجزاء له ، أدنى وأعلى، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها والحقيقة تقتضى جميع شعبه ، وتستوفى جملة أجزائه كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء ، والاسم يتعلق ببعضها ، والحقيقة تقتضى جميع أجزائها وتستوفيها يدل عليه قوله صلى صلى الله عليه وسلم : « الحياء شعبة من الإيمان » ويقول الإمام النووى : وأما إطلاق اسم الإيمان على الأعمال فمتفق عليه عند أهل الحق، ودلائله فى الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر قال تعالى : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أجمعوا على أن المراد صلاتكم .

وفى شرح النووى لصحيح مسلم فى باب الإيمان قول وعمل ـ قال عبد الرزاق : سمعت من أدركت من شيوخنا ، وأصحابنا سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله بن عمر والأوزاعى، ومعمر بن راشد ، وابن جريج وسفيان بن عيينة، يقولون : « الإيمان قول وعمل يزيد وينقص » وهذا قول ابن مسعود، وحذيفة والنخعى، والحسن البصرى، وعطاء، وطاووس ومجاهد وعبد الله بن المبارك فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة التصديق بالقلب والإقرار باللسان

والعمل بالجوارح ، وذلك أنه لاخلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه لايستحق اسم مؤمن، وكذلك إذا أقر بالله تعالى وبرسله صلوات الله عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لايسمى مؤمنا بالإطلاق . وإن كان فى كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق فذلك غير مستحق فى كلام الله لقوله عز وجل « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً » . فأخبرنا سبحانه وتعالى: أن المؤمن من كانت هذه صفته .

ويقول ابن بطال : وهذا المعنى هو مذهب أهل السنة ، والجماعة ، وقد أراد البخارى رحمه الله ، ثباته فى كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه كلها ، وإنما أراد الرد على المرجئة فى قولهم إن الإيمان قول بلا عمل وتبيين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم الكتاب والسنة ومذاهب الأئمـــة .

وفقنا الله إلى الإيمان الصحيح عقيدة وقولا وعملا ، وهدانا سبيله المستقيم .

الحسينى عبد المجيد هاشم

المؤمنون حقـا

« إنمـا المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

حلاوة الإيمان

للأستاذ محمد محمد أبو زهو

(عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) . أخرجه البخارى ومسلم ، واللفظ للبخارى) .

ما تزال النبوة تنفح البشرية من أسرارها الدقيقة ، وحكمها الرفيعة . ما يعلى من شأنها ، ويرفع من قدرها إلى ذروة المجد والسؤدد ، والفوز والسعادة ، والنبوة فى هديها السامى معصومة عن الخطأ . وفى منهجها الحكيم منزهة عن الإكثار والثرثرة ، فجميع أقوالها جوامع كلم ، وكل أفعالها تصدر بميزان صحيح ، وحكم سليم ؛ لأنها فى كل ما تأتى أو تذر لا تنطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، وكل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب الرسالة المشرقة صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا الحديث الشريف يصور لنا رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه أثر الإيمان الكامل فى النفوس الطيبة ، والقلوب الطاهرة المخلصة ، التى أفعمت بمحبة الله ، وتمكن فيها الشعور بجلاله وعظمته ، فاستراحت إليه وحده ، واطمأنت إلى حكمه العادل وقوله الصادق ، وعرفت أنه هو - لا غيره - مصدر كل خير ، ومبعث كل إحسان وفضل ، بيده الملك والخلق والرزق والإنعام . خلق العالم أجمع ، ودبر شئونه . فهو يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وسخر الشمس والقمر والنجوم ، وخلق البحار والجبال ، وأرسل الرياح مبشرات ، وأنزل الأمطار . وأجرى الأنهار . « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض . لآيات لقوم يعقلون » ، « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، نعم نظر العقلاء فى هذه الآيات المبثوثة فى الأنفس والآفاق ، فعلموا أن لهم ربا

هو الإله الحق الواحد الأحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. كامل فى صفاته وأفعاله منزه عن كل ما سواه «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»، وعلموا كذلك أنه لم يخلق العالم عبثا، ولم يترك الناس هملا. بل كما تفضل عليهم بنعم لا تحصى، وآلاء لا تعد ولا تستقصى أنعم عليهم بنعمة الطهر وشريعة الإسلام الحنيف فبعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، رسولا بشيرا ونذيرا لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فهداهم به الصراط المستقيم بل أخرج العالم كله من ظلمات الجهل إلى نور العلم والعرفان، وصدق الله العظيم «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»، والمتأمل فى هذه الشريعة الخالدة يجد أن سر خلودها نوران: كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة مطهرة شارحة له ومفسرة لأغراضه، فاكتمل بهما الدين وتمت بهما النعمة «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا». فسبحان من أجرى السحاب وأنزل الكتاب. ففى كل منهما حياة للبشر حياة لأبدانهم وحياة لأرواحهم، فلا عجب إذن إذا كان المؤمن الذى جال بعقله وطاف بفكره فى هذا الملكوت العظيم، وتأمل فى هذه العوالم وما حوته من أسرار فلم يجد لها سوى الله ربا، أن تمتلىء نفسه حبا لله ويفعم قلبه بلذة روحية تملك عليه روحه وجوارحه. أجل إن محبة أساسها النظر إلى ما أبدع الخالق وما أفاض وما أنعم لهى نقطة انطلاق إلى العمل النافع من أجل حياة فاضلة وسعادة تامة فى الآخرة.

وسواء علينا أقلنا أن اللذة المترتبة على محبة الله تعالى حسية أم عقلية، فإنه مما لا شك فيه كما قرره النبى صلى الله عليه وسلم أن لذة ما تملك على المؤمن قلبه وروحه وجوارحه لتجعله يقطع كل صلة له بغير الله ورسوله ويقدم رضاهما على كل ما سواهما، حتى نفسه التى بين جنبيه «قل إن كان آباؤكم، وأبناؤكم، وإخوانكم، وأزواجكم، وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين». وقال عمر بن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم: (لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا نفسى. فقال: لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنك الآن - والله - أحب إلى من نفسى، فقال: الآن يا عمر).

يقول النبى صلى الله عليه وسلم: (ثلاث

من كن فيه وجد حلاوة الإيمان) أى خلال ثلاث من وجدن فيه وتحققت عنده وامتزجت بروحه ودمه ، وسرت فى عروقه ، وظهرت آثارها على جوارحه واشتغل بها جنانه وتحركت لها أركانه فإنه يجد للإيمان لذة روحية عقلية وفكرية يدركها بعين بصيرته ويحسها بحاسة القلب كما يحس من تعاطى شيئاً حلواً حيث يجد لذته فى فمه ، وهذا تمثيل وتصوير للأمر المعقول بصورة المحسوس تقريبا له فى الأذهان .

أولى هذه الخصال : (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) أى أنه يحب الله ورسوله حبا يعلو على حبه لكل شىء مما سواهما وهذا التعبير (بما) دون (من) لإفادة العموم فيتناول النفس والأهل والمال والولد والجاه والسلطان والدور والقصور ، وفى جمعه بين اسم الله والرسول فى ضمير إشارة لطيفة هى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة منهما على انفراد ، فمن ادعى حب الله وحده دون رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كاذب ومن ادعى حب الرسول وحده دون الله سبحانه وتعالى كان فى ادعائه ذلك كاذبا .

هذا وقد اختلف العلماء فى معنى محبة العبد لله تعالى . فبعضهم فسرها بالطاعة ، وبعضهم فسرها بأنها : ميل الطبع إلى شىء ملذ ، وتفسيرها بالمعنى الثانى أولى ، ويؤيده ما روى فى الصحيح أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : ما أعددت لها ؟ . قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكن أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم (أنت مع من أحببت) فقد فرق الرجل بين طاعة الله وحب الله ، وأقره النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك . غير أن الطاعة من لوازم المحبة فإن من أحب أحداً سعى فى مرضاته وعمل على تحقيق رغباته ولله المثل الأعلى فمن أحبه سبحانه عمل بطاعته وتجافى عن معصيته وإلا فما أحب الله من عصاه .

تعصى الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

الخصلة الثانية : (أن يحب المرء لا يحبه إلا لله) أى إنه لا يحب أحداً من الناس لغرض من الأغراض الدنيوية بل لغرض واحد فقط هو رضا الله بالطاعة والبعد عن المعصية ، فتكون محبته لوالديه مثلا لأن الله تعالى يرضى عن ذلك ، ولأنه أمر بالإحسان إليهما ودفع الأذى عنهما فى كتابه العزيز وعلى لسان نبيه الكريم وتكون

محبته لولده لأنه يعينه على طاعة الله ، ولأنه يكون خليفة له فى الإسلام يوحد الله ويعبده ويكثر سواد المسلمين والمجاهدين فى سبيل الله بالعلم والعمل والسيف والقلم وكذلك يكون بغضه للمرء بسبب بغض الله إياه لانحرافه وزيغه أو عصيانه وغيه .

هذا . وانظر إلى حال المسلمين الآن وقد أصبحت محبة بعضهم لبعض على أساس مادى خالص تبعاً لأهوائهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . وهذا سببه أنهم غفلوا عن مجرى الخير ومسديه ومانحه ومعطيه وهو الله رب العالمين ، كذلك غفلوا فلم يفقهوا أن جميع الخلق وسائط لا تنفع ولا تضر إلا إذا أراد الله لها النفع أو الضر وبالرغم من الحوادث والعبر التى كان ينبغى لهم أن يتعظوا بها فهم لا يعتبرون بما يقع لهم ولغيرهم فهذا رجل يحب ذا جاه طمعاً فى جاهه وينفق على هذه المحبة من النفاق والذل ، أو يملق قلبه بذى منصب كبير رجاء الحصول على درجة أو وظيفة ، فيهن ويذل فى سبيل ذلك ثم يفاجئه القدر بالموت أو العزل من المنصب لمن يعلق عليه آماله فيصبح يقلب كفيه على ما أنفق من ذل وهوان ألا إن الأمور كلها تجرى حسب ما قدر الله سبحانه وعلى وفق علمه وإرادته ، فلماذا لا نطلب حوائجنا ونحن أعزاء كما أريد منا (اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير) ألا إن المنافقين يطلبون العزة عند غير الله ، ويسلكون لها طريقاً هو طريق المذلة والهوان فباءوا بالخيبة والخذلان ، « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

ينبغى لنا أن ننخلع بأرواحنا إلى ما وراء المادة لنرى بعين البصيرة هذا المدبر الحكيم لشئون العوالم علويها وسفليها ، ولنعلم أن ما أصاب المرء لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً وأن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوا أحداً بشىء لم يكن إلا بما كتبه الله تعالى له ، وإن اجتمعوا على أن يضروه بشىء لم يضروه إلا بشىء قد كتبه الله تعالى عليه . فعلى المؤمن أن يلجأ بطلبته إلى الله قبل كل شىء فيقرع بابه ويجأر بحاجته ، ويديم ذلك - فإن الله يحب ذلك من عباده - ثم يأخذ فى الأسباب المادية سالكا طريق الدين الحنيف وهو الطلب فى عزة نفس ، فلا يغفل عن مسبب الأسباب الذى هو مصدر الخيرات كلها ، وإلا أشرك العبد مع الله غيره من حيث لا يدرى فى الحديث الشريف (من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه) .

الخصلة الثالثة : (أن يكره أن يعود

فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) أى أنه يكره أن يصير ويتحول إلى الكفر كراهة تعادل كراهته لأن يقذف به فى النار ويرمى به فيها رميا ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على ثبات إيمانه ، وقوة يقينه ، فاقتلاع الإيمان منه بعد ذلك انتزاع لروحه من جسده بأشد أنواع العذاب وهو العذاب بالنار فكأن الكفر والنار عدلان لذا كان جزاء الكافرين يوم القيامة عذاب النار .

أجل : إن المؤمن وقد غمره الله تعالى بآلائه وأسبغ عليه من عظيم نعمائه ، وسخر ما فى الكون جميعا لمنفعته ، وارتفع به عن مرتبة العجماوات إلى مرتبة الإنسان العاقل الرشيد . وفضله على كثير من خلقه ، وحمله فى البر والبحر ، ثم أكرمه بإرسال الرسل معلمين ومرشدين ليعده لحياة أعظم من هذه الحياة ينعم فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » فى جنة عرضها السموات والأرض إنه لا شك يدفعه ذلك إلى الحرص على الإيمان بالله ، والحفاظ عليه ، لأنه السبيل إلى النعيم المقيم ، كما أنه الطريق الوحيد للنجاة من الخلود فى نار جهنم . فيرى الكفر أمراً قبيحاً بشعاً ، وناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى .

هذا ، وإذا أمعنا النظر فى الخصلتين الثانية والثالثة وجدناهما راجعتين إلى الخصلة الأولى ولازمتين لها ، فإن محبة الله ورسوله تهيب بالمرء إلى طاعة الله ، وعمل ما يرضيه ، وتجنب ما يغضبه فهى أساس لجميع الخلال الحسنة ، وفعال الخير ظاهرة وباطنة ، فمن أحب الله ورسوله عامل الخلق معاملة أساسها رضا الله ، وتكون كراهته للوقوع فى الكفر مثل كراهته لأن يرمى به فى معظم النار وذلك راجع لمحبته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، بل إن كل خلال الخير وشعب الإيمان إذا أمعنا النظر فيها وجدناها ترجع لمحبتنا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنما اقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على هاتين الخصلتين اهتماما بهما لعظم شأنهما ، لأنهما أصلان لجميع شعب الإيمان وأمور الدين ، فإن إحداهما : وهى أن يحب المرء لا يحبه إلا لله تتعلق بمعاملة المخلوقين والثانية وهى أن يكره أن يعود فى الكفر تتعلق بمعاملة الخالق سبحانه وتعالى ، ولا تخرج آثار المحبة لله ورسوله فى سلوك العبد عن هاتين المعاملتين ، وهذا من أسرار البلاغة النبوية ، وجوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فسبحان من علمه ، وكمله ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

ونظرة أخرى ننقلها عن الحافظ بن أبي جمرة قال رحمه الله :

(هذه الثلاثة الألفاظ ترجع إلى اللفظ الأول منها ، وهو أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . لأن من ضرورة المحبة لله ولرسوله أن يدخل ما ذكر بعد فى ضمنه ، لكن فائدة إخباره عليه السلام بتبينك الحالتين اللتين ذكرتا بعد ذلك اللفظ يريد به أن من ادعى حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فليختبر نفسه فى حب المرء لماذا يحبه ؟ وفى الإكراه على الكفر كيف يجد نفسه إن ابتلى بذلك لأنه قد يسبق للنفوس ادعاء بحب الله ، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، فجعل عليه السلام هاتين العلامتين للتفريق بين الدعوى والحقيقة) .

ألا إن محبة الله ورسوله هى ملاك الأمر كله وهى طريق إلى النجح فى الحياتين ، وهى طلبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، سألها نبينا صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل فقال : (أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك)

والآن كيف نصل إلى هذه المحبة ؟ وما هى الأسباب التى توصلنا إليها ، وما هى الآثار التى تعود علينا وتؤثر فى سلوكنا كأفراد وجماعات ، ثم ما هى الأشراط والأمارات التى تظهر لنا فنعلم أننا نحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فنطمئن لأننا قد وصلنا إلى هذه المرتبة من السلوك . ثم ما مبلغ هذا السلوك فى واقع الأمة الإسلامية فى الماضى والحاضر ؟ وفى تكوين المجتمع المثالى ؟ هذا ما نريد أن نعرض له فى الكلمة الآتية إن شاء الله تعالى حبا فى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكشفاً عن أسرار هذه الشريعة الخالدة ومن الله العون والتوفيق .

محمد محمد أبو زهو
المدرس فى كلية أصول الدين

الفراغ النفسي عند الشباب

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

لقد منى الشباب فى العصر الحاضر بشىء غير قليل من الفراغ النفسى ، وسواء فى ذلك الشباب فى الشرق أم فى الغرب ، وها نحن أولاء نرى المصلحين والغيارى على مصالح أممهم وشعوبهم فزعين من هذه الحال التى وصل إليها الشباب فى هذا القرن الأخير ، ونسمع صيحاتهم ترتفع هنا وهناك بالعلاج ، وتدارك الأمر قبل أن يستشرى الداء ويعز الدواء .

وإن هذا الفراغ النفسى يتمثل فى فراغ القلب من معانى الإيمان والهداية ، وفراغ النفوس من معانى الأخلاق الكريمة ، والفضائل الإنسانية السامية ، وفراغ العقول من معانى الحق والعدل والخير ، والعلم النافع الصحيح الذى يبنى ولا يدمر ، ويصلح ولا يفسد ، وينصف ولا يتجنى ويظلم ، العلم الذى يجب أن يكون رحماً بين بنى آدم جميعاً ، والذى يسرى بين الناس جميعاً لا فرق بين شرقى وغربى ، ولا سامى وآرى ولا أبيض وأسود ولا بين جنس وجنس ، ولا بين شعب وشعب .

وحسبى أن أتناول ما وصل إليه حال الشباب فى بلاد الإسلام والعروبة ، وهى مهد النبوات والرسالات السماوية التى تتسم بالروحانية الصادقة ، والمعانى الإنسانية النبيلة ، والمادية المعتدلة المقتصدة غير الجائرة ، وموطن حضارة زاهية مشرقة فرضت سلطانها على العالم أحقاباً من الزمان بأصالتها وصفائها وإنسانيتها التى لم تفرق بين دين ودين ، ولا بين لون ولون ، ولا بين عربى وغير عربى ، والتى شملت بخيرها وبرها الناس جميعاً تلك هى حضارة الإسلام : حضارة الإيمان والأمان ، والرحمة والسلام ، والحق والعدل ، والتعاون على البر والتقوى ، والتآخى والتحاب .

وما كان لنا أن نصف الدواء لهذا الفراغ النفسى دون أن نعرض لبيان الأسباب .

وفى الحق إن هذا الفراغ النفسى فى بلاد الإسلام والعروبة جاء نتيجة تآمر دول الاستعمار على شعوب الشرق الإسلامى والعربى ، هذا التآمر الذى يعتبر امتداداً للحروب الصليبية وقد مضى عليها بضعة قرون ، وكانت نهايتها انتصار الشرق الإسلامى العربى على الغرب الصليبى البربرى المتعطش للدماء ، على يد الأبطال المغاوير بقيادة البطل المسلم العربى صلاح الدين ، ورجع الغرب يجرر أذيال الهزيمة والعار .

وما زال هذا النصر جروحا فى نفس الغرب لا تندمل حتى كان القرن الأخير وكان ما كان من تفرق المسلمين والعرب شيعاً وأحزابا ، فوجد الغرب المغيظ المحنق الفرصة سانحة لأن يشفى ما فى نفسه من غل وموجدة على الشرق الإسلامى العربى ، وبدأت فصول المأساة المحزنة تتلاحق حتى كان من ذلك ليل طويل مظلم لم يتنفس صبحه إلا بعد جهاد وكفاح مرير .

وليس أدل على بقاء الصليبية إلى عصرنا الأخير من قول اللورد اللنبى فى الحرب العالمية الأولى لما دخل بيت المقدس منتصراً « الآن انتهت الحروب الصليبية » !!!

إن الروح الصليبية - روح الغدر والحقد والتسلط - لا تزال مسيطرة على دول الغرب، وقد اتخذت طرقا شتى للوصول إلى غاياتها الدنيئة ، ومقاصدها السيئة فهى لا تزال تعمل ما استطاعت على استئصال الروح الدينية ، والقيم الخلقية من نفوس المسلمين والعرب حينا ، والغزو الثقافى ، والتشريعى والأخلاقى حينا آخر ، وعن طريق قمع ثورات التحرر والحرب السافرة حينا ثالثا .

ونحن لا ننسى ولا التاريخ ينسى ما قامت به دول الاستعمار من مقاومة لحركات التحرر من غير شفقة ولا رحمة فى مصر ، وفى بلاد الشام ، وفى ليبيا ، وفى الجزائر ، وفى بلاد المغرب ، وفى البلاد الشهيدة فلسطين ، وفى الجزيرة العربية ، كما لا ننسى هذا الهجوم الثلاثى الغادر على بور سعيد ، وسيناء ، ومنطقة القنال عام ١٩٥٦ ، والذى ارتد مذءوما مدحورا بفضل تضامن الشعب والجيش ، ووقوف الحكام والمحكومين صفا واحدا لم يجد فيه العدو الغادر المتربص ثغرة ينفذ منها .

ولا تزال هذه الصليبية تعمل عملها فى بلاد من بلاد العروبة كعدن والإمارات وسيقضى المجاهدون الثائرون على البغاة الحاقدين ، كما قضى على أسلافهم من قبل بإذن الله ومشيئته « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ، ولئن كان الاستعمار قد ولى ، وحمل عصاه على عاتقه إلى غير رجعة - إن شاء الله - فلا تزال آثاره السيئة باقية بيننا ، متسلطة على نفوس الكثيرين منا .

لقد نجح الاستعمار أيما نجاح فى إضعاف الوازع الدينى من القلوب ، وقلب المعايير الخلقية فى النفوس ، ومسخ الثقافة الإسلامية الأصيلة فى العقول ، وفى الإطاحة بحدود الإسلام ومناراته من المجتمعات الإسلامية .

وقد ساعد الاستعمار فى مهمته الهدامة التخريبية فئة رباها الاستعمار بيديه ، وصنعها على عينيه ، فتشبعت بآرائه وأفكاره فى الدين والتشريع ، والأخلاق والتعليم ، والحكم

والسياسة ، وهيأ لها مراكز القيادة والتوجيه فى بلاد الإسلام والعروبة ، فسارت الأمور فى هذه البلاد كما أراد المستعمرون ، فهم يدبرون ويكيدون من وراء الستار ، وهؤلاء الصنائع من أبناء هذه الشعوب ينفذون بل ويخلصون فى التنفيذ ، ويلبسون على الناس بأن هذا هو الإصلاح ، وقد انخدع بظواهر هؤلاء الكثيرون ، وإن كان قد تنبه لألاعيبهم المخلصون المحنكون ، وقليل ما هم ، وحذروا وأنذروا ، ولكن ما أطيع لهم رأى ، وذهبت صيحاتهم أدراج الرياح ، وكانوا كمن ينفخ فى رماد .

وها هى ذى دول الإسلام والعروبة قد تخلصت جميعها - تقريبا - بفضل الله ومنته ثم بفضل الجهاد والكفاح من كابوس الاستعمار وآصاره ، وأغلاله ومكايده .

نعم لقد تخلصت من الاستعمار السياسى ، ولكن آثار هذا الاستعمار من الغزو الروحى والخلقى ، والثقافى ، والتشريعى ، والاجتماعى لا زالت باقية بيننا ، هذه الآثار التى كانت العامل الأساسى فى إحداث هذا الفراغ النفسى فى نفوس الشعوب ولا سيما الشباب .

فما الذى يمنعنا — حكاما وشعوبا — وقد أضحى أمرنا بيدنا من القضاء على كل هذه الآثار السيئة ، وبذلك يتحقق لنا الاستقلال التام الصحيح ، وتعود لنا مقوماتنا الإسلامية وخصائصنا الثقافية ، والأخلاقية ، والتشريعية .

ولقد ساعد على هذا الفراغ النفسى هذا التغير والتحول الذى حدث بعد الحرب العالمية الثانية من سيطرة المادة ، وسلطان الآلة ، وما وصل إليه العالم من تقدم كبير فى علوم الذرة ، وغزو الفضاء ، وصناعة الأقمار وسفن الفضاء .

فقد كان لهذا تأثيره فى زعزعة العقيدة الإيمانية فى بعض النفوس التى لم تنل حظا من الدين ، وفى تخلخل القيم الخلقية فى النفوس وفى التقليل من شأن الثقافات الإنسانية ، والعلوم النظرية فى العقول ، فأصبحنا نجد من شبابنا من لا يهتم بشعائر دينه وآدابه ويعتبر التدين تخلفا ورجعية ، ولا ينفك عن التهكم بالدين وتعاليمه ، ومن لا يقيم للقيم الخلقية وزنا ، ويرى الوصول إلى مآربه وأهوائه حتى ولو كان فى هذا انتهاك الأعراض وسفك الدماء ، واغتصاب الأموال ، ومن لا يعرف لآبائنا المسلمين والعرب فضلا على الحضارة الإنسانية بل يتنقصهم ويحط من شأنهم . وتقسمت الأهواء ، والمذاهب الباطلة الشباب : فمنهم من هو ملحد ، ومنهم من هو وجودى ، ومن هو شيوعى ، ومن هو بهائى ، ومن هو قاديانى و ... إلخ ..

لقد كان أول من فتن بهذا التقدم العلمى

رائد من رواد الفضاء أبت عليه بيئته التى نشأ فيها ، وتعاليم هذه البيئة اللادينية أن يشكك فى وجود الإله زاعما أنه لم يره !!! وكأن هذا الرائد الذى ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة يظن أن الله سبحانه وتقدست أسماؤه وصفاته جسم من الأجسام ، أو آلة من الآلات ، وما درى - ويا هول ما جهل أن الله لا يرى بالأبصار وإنما يرى بالبصائر وأنه لا ترى ذاته ، وإنما يرى بآثاره ومظاهر خلقه ولو أنه فكر قليلا ، وتخلص من عقيدته الباطلة لاستجاب لفطرته بعد ما رأى وعاين من ملك الله وجلال خلقه ، وعظمة آثاره ، ولأيقن أن هذا الكون على سعته وعظمه لا يمكن فى العقول أن يوجد بغير موجد ، وأن له إلها مدبراً حكيما عليما قديراً قيوما ، وهو الله جل جلاله .

إن سفينة الفضاء التى حمل فيها هذا الرائد لو غفل عنها العلماء الذين يسيرونها أو اختل جزء منها ، أو انحرفت عن مسارها الذى خصص لها قيد شعرة لسقطت وهلك من فيها وصدق الله سبحانه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وقال فى أمثاله « لهم قلوب لا يفقلون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

وأحب أن أقول لهؤلاء الذين يحفلون من تقدم العلوم والمعارف ويشفقون من ذلك على الأديان : إن دين الإسلام لا يضره تقدم الكشوف العلمية والاختراعات ، لأنه دين العلم والمعرفة ، ودين العقل السليم ، والنقل الصحيح والمسلمون أيام أن كانوا مهتدين بهدى هذا الدين ومتمسكين به عقيدة ، وعلما وعملا وأخلاقا ، كانوا سادة الدنيا ومعلميها ، ورواد البحث والإبداع ، وما تخلفوا فى هذا المضمار إلا لما نكصوا عن هذه الهداية ، ولم يفهموا الإسلام على وجهه الصحيح ، بل بالعكس هذه الاختراعات والعلوم وعلى رأسها غزو الفضاء يفصح عن الأسرار التى أودعها الله سبحانه فى آياته الكونية ، والأنفسية ، والتنزيلية وأشار إليها النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أحاديثه ، فهى تزيد المؤمن إيمانا بربه وصفاته والمسلم الذى تتزعزع عقيدته بمثل هذه الاختراعات إما أنه ضعيف الإيمان ، أو أنه لم يفهم الإسلام على وجهه الصحيح وصدق الله حيث يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ؟ بلى والآن قد وضعنا الداء وشخصنا أسبابه فبأى شىء يكون الدواء ؟

ذلك ما سنعرض له فى المقال الآتى إن شاء الله ؟

الدكتور محمد محمد أبو شهبة

إن هـذا لهو القصص

للأستاذ : حسن جاد

فى العدد ١٠٨٩ من مجلة الرسالة ، بتاريخ ٢٦/١١/١٩٦٤م كتب كاتب مقالا عنوانه (مصادر القصص القرآنى) ، لا نراه إلا امتداداً لتلك الفكرة الطائشة التى أثارها من قبل نفر تعجلوا الشهرة من أقرب طريق على حساب مقدسات الدين ومقومات الأمة الإسلامية .

ولسنا ندرى كيف تسلل هذا القلم الجامح المنحرف إلى تلك المجلة التى عاشت عمرها على قداسة العروبة والإسلام ، وأصبحت فى رعاية دولتنا المسلمة ؟

إن هذه النزوة الطائشة من نزوات الجهل الأحمق والسقطة الكابية من سقطات التقليد الأعمى ، والثمرة الخبيثة من ثمرات الحنظل الإلحادى التى دس بذورها فى الأرض الطيبة بعض المخدوعين والمغرورين ؛ لتدفع إليها رغبة جامحة فى التماس الشهرة والظهور بالتجديد ، لتتردد أسماء أصحابها على الألسنة ، ويتجاوب ذكرهم على الأسماع . ولو بلغة اللاغين . وأى سبيل للشهرة والذيوع أقرب من مجابهة الحق ، ومصادمة الشعور ، وإنكار الواقع الثابت ، وتحطيم القيم الشامخة ؟

إذن فليسلك هؤلاء ذاك السبيل ليشتهروا شهرة كبار المحتالين ، وليقلدوا (مرجليوث) وغيره من كل مستشرق على شاكلته ، وليتحدوا مشاعر المسلمين بالنيل من قداسة القرآن الكريم ما وسعهم ذلك ، وليشككوا فى القصص القرآنى الحق ، وليبلغوا من وراء ذلك ما يريدون من الشهرة ، والجاه ، والمال .

وقد صدر العدد التالى من مجلة الرسالة وليس فيه كلمة مؤمنة تصفع تلك الكلمة الكافرة ، فلم يكن بد من أن تقال كلمة عاجلة فى هذا العدد من مجلة الأزهر لأن هذا الظرف ضيق تمثل فيه المجلة للطبع والظهور وأدع التفصيل إلى فرصة متسعة ، أو إلى من هم أقدر منى من العلماء على الإحاطة والاستقصاء :

تناول الكاتب موضـــوع (القصص القرآنى) على هذا النحو الذى يقول فيه :

١ — (فى قصص القرآن أحداث ومشاهد نجدها فى التوراة والإنجيل ، بل أحياناً نجد مشابهة فى سير بعض القصص) ، ثم يكاد ينقض هذه المشابهة أو ينقضها حين يقول : (إن الأمر لا يعدو مجرد اتفاق فى أسماء ، ومشابهة فى أحداث ، وإن أدق

تصفح القصص القرآنى والقصص فى التوراة مثلا ليوحى بالمخالفة بينهما) .

٢ — وينتهى من هذه المقارنة المضطربة إلى أن مصادر القصص القرآنى ليست هى التوراة والإنجيل ، وإنما هى شيء آخر . ما هو ؟ هو العرب أنفسهم ، وما عرفوه من من اليهود والنصارى ، وما انتشر بينهم من قصص التوراة والإنجيل عن موسى وأخيه ، وعيسى وأمه ، والمسيح وصلبه ، وغير ذلك مما أولعوا به وتداولوه ، مما ردده الشعراء كأمية ابن أبى الصلت الذى (التقط ما هو متطاير فى الجو من أحاديث وخرافات ! ! وعكسه فى شعره) ، وهو هنا يردد ما تبجح به المستشرقون من تأثر محمد صلوات الله عليه بأمية ،وما نقله من قصصه الشعرى فى القرآن .

ويمضى الكاتب فيعيد ما ردده أساتذة له من قبل ، ويضيف إلى ثقافة العرب التى استقى منها القرآن ، ما تأثروا به من الحديث المفاض عن إبراهيم ، وابنه اسماعيل ، وعن بئر زمزم ، وقصة بناء الكعبة ونحو ذلك .

ثم يقول : (وليس هذا كل الرذاذ الذى انتشر فى أفق الجزيرة العربية فكون ثقافة أهلها ! !) ، بل هناك ثقافة أخرى كونتها البيئة العربية بصحرائها الرهيبة ، يلفها الليل ، وتتردد فيها أصداء الرياح ، وتلتمع عيون الشهب بالشرر ، فيوحى ذلك بالرهبة فى نفس العربى ، ويملؤها بالأوهام ، ويخايلها بالأشباح ، ليجسد ذلك كله بالأوهام والخرافات عن الجن ، والغيلان والسعالى ، والشخصيات الأسطورية .

٣ — والنتيجة لكل هذا فى رأى الكاتب العبقرى الذى يدق أبواب الشهرة :

أولا : أن مصادر القصص القرآنى هى تلك الخرافات ، والأوهام ، والأساطير التى استقرت فى أذهان العرب، وكونت ثقافتهم ، وأن القرآن لم يصدم وجدان العرب وقد تشبع بذلك كله ، ولم يهزأ بما يحتاج فى « لا وعيهم » ، ولم يبلغ ما ألفوه من ظنون كاذبة ، وأساطير فاسدة ، بل جاراهم فى ذلك ونقل عنهم ، واستغل هذه الخرافات والأساطير فى الدعاية لمبادئه ليكسب لها الرواج .

فشخصية لقمان من الشخصيات الأسطورية الشائعة ، لماذا لا يستغلها ويحملها وصاياه ومبادئه ليضمن لها القبول والنجاح ؟ وكذلك شخصية عيسى ، وشخصية موسى والخضر لماذا لا يستغلها القرآن (فيدق على نغمة تشوف العرب للمجهول ومحاولتهم كشف الحجب عن طريق الجن والكهان والعرافين) ؟ . وهكذا كل شخصيات القرآن أسطورية جارى فيها الأساطير العربية ، ولم يصدم الوجدان العربى الذى ألفها .

وهنا أسائله : إذا كان القرآن قد جارى الأساطير العربية ولم يصدم الوجدان العربي فيما ألفه ، فما باله يصدم هذا الوجدان بنفي صلب المسيح مثلا ، مع أن ترك هذا لا يؤثر في استغلال القصة للدعاية للإسلام والتبشير به ؟ ! .

ويأخذ جهل الكاتب في الظهور شيئا فشيئاً فيكشف اللثام عن حقيقته المستترة بحجاب الكلمات الخادعة عن إعجاز القرآن البياني (فالعرب يعرفون قصص الحيوان الخيالي ، فيسير القرآن في هذا الاتجاه ويجعل الهدهد في قصة سليمان ينطق بمبادئ إسلامية) أي أن النمل لم يتكلم ، والهدهد لم ينطق حقيقة .

والكاتب العبقري الجهل يتجاهل حقيقة المعجزة التي خص الله بها سليمان عليه السلام : (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين) إلى آخر الآيات من سورة النمل .

ويزداد جهله وضوحا حين يدلل على أسطورة القصة في القرآن بذكر كلمة (الإسلام) قبل أن يوجد الإسلام ، كما في قوله تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، ويقول الكاتب في وقاحة جاهلة : « أشك أن هذا الموقف قد حدث ، فلم يكن الإسلام قد ظهر أيام إبراهيم وأبنائه ! ! » .

وعلى هذا النحو قوله تعالى : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » وفي قصة بناء الكعبة : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ... الآية » .

والكاتب بهذا يسجل جهله الفاضح بحقيقة كلمة (الإسلام) وما تعنيه من الإذعان والتسليم لله ، وهو قدر مشترك في الأديان السماوية ، فهي تنتظم كل دين يرتكز على حقيقة التوحيد والإذعان : « إن الدين عند الله الإسلام » .

وعقيدة الجن التي استقرت في نفوس العرب يستغلها القرآن كذلك في الدعاية له ، في هذا الحديث الخيالي ! ! الذي تضمنته سورة الجن ، مع أن القرآن في هذه السورة نفسها يصدم الوجدان العربي في مثل « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ... » .

ثانيا : والنتيجة الثانية التي انحرف إليها قلم الكاتب الخيالي الأحمق ، هي أن القصص القرآني إن هو إلا لون من ألوان القصص الفني الحديث بما فيه من الرومانسية الخيالية أو اللاوعي السريالي ، أو الواقعية الجزئية التي نشهدها عند نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم هو القصص الفني الإيحائي .

وهو هنا قزم يحمل بضعة شموع خافتة

يتطاول بها على ضوء الشمس الساطع الأشم ، فشتان ما بين القصة الفنية فى أحدث صورها الواقعية التى تجمع الأحداث الجزئية من هنا وهناك ، وربما وجد ، وما يمكن أن يتخيل وجوده ، وبين هذا القصص القرآنى الذى يعتمد على الحقيقة الكلية الواقعة فملا بحذافيرها .

لقد قال المشركون من قبل ما حكاه عنهم القرآن الكريم . « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » . والكاتب لا يقف عند هذا ، بل يتجاوزه إلى ما سماه بالإيحاءات والمعانى الثانية إذ يقول .

« لقد كان المشركون قصيرى النظر حين اقتصروا على ذلك ، ولم يتنبهوا إلى ما تحويه الأساطير من معان ثانية وإيحات » ويستدل بقول الرازى (إنهم كلما سمعوا شيئا من القصص قالوا ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ، ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها ، ولم يفهم الكاتب أن مراد الرازى بالأمور ما ينتزع من الحكم والمواعظ التى كشف عنها أو تشير إليها القصة القرآنية وما تدل عليه من صدق النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ما كان يبلغه عن ربه ومن أنه عليه السلام مؤيدا من الله بهذه القصص التى تعد بالنسبة إليه من المعجزات .

إن القصص القرآنى ـ أيها المخدوع ـ من وحى الله لرسوله قصه بالحق ، وساقه لتأييد هذا النبى الأمى فيما يدعـــوا إليه ، ولتصديق ما بين يديه من الكتب ، وتصحيح ما حرف منها ، وبيان ما داخلها من التحريف والتزييف ثم هو للعظة كذلك والاعتبار بما حدث السابقين « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » . إقرأ فى سورة يوسف : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

واقرأ ما يؤكد ذلك فى سورة آل عمران « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » ، وفى يوسف « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » .

« وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » وفى هود « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد » ، واقرأ فى هذه السورة : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » .

ثم اقرأ فى سورة النمل : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه

يختلفون». وفى طه: «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا».

والقرآن الكريم يؤكد أكثر من مرة أن هذا القصص حق لا مجال للشك فيه، وواقع لا يتطرق إلى ثبوته شك أسطورى.

«واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق»، «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين»، «ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون». وفى سورة الشعراء يختم كل قصة بهذه الجملة «إن فى ذلك لآية..»، وهى جملة تؤكد الواقع القصصى، وتصفع كل شيطان يسكن فى مثل رأسك يا مغرور.

وبعد - أيها الكاتب المجدد - أكان يجوز القرآن أن يتملق أوهام العرب وأساطيرهم، وينافق ما استقر فى وجدانهم من الخرافات، وهو الذى قام على الإقناع المنطقى فى دعوته، وعلى تحريك النظر، ومخاطبة العقل؟ أكان يجوزه ليضمن نجاح دعوته، وعدم ازورار القوم عنها، أن يستغل ما ألفوه، وهو الذى سفه أحلامهم، وعاب ما عكفوا عليه من خرافات وثنية وغير وثنية، وحارب تقليدهم الأعمى لسنة آبائهم: «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون»، «أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون»، ونعى على كثير منهم ما كانوا يقترفونه كوأد البنات، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وغير ذلك مما لا يتسع المقام لتفصيله؟

لقد خلطت بين الخرافات الوهمية والأساطير المروية وبين القصص الحق الذى جاءت به التوراة والإنجيل والقرآن، وسلكت سبيل السعالى، والغيلان، والعنقاء، والهواتف، وأخبار الأمم السابقة، وأنبياءها فى سلك واحد، فاشتبهت عليك المسالك، وضللت الطريق اللاحب؛ فجعلت القصص القرآنى الذى قصه الله على رسوله وأوحاه إليه تأييداً وإعجازا، وعظة واعتبارا، من وحى العرب ووجدانهم تملقا واستغلالا.

إننا نعرف هذه النغمة النشاز، ونعرف مصادرها الخبيثة، ونعرف ما ترمى إليه، مهما تسترت وراء الحديث عن (إعجاز القرآن الفنى الخالد).

فالقرآن هو ذلك الطود الشامخ، والحق الثابت الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تعالى عن أن يستجدى قصصه من أفواه من يتحداهم ويسفههم ويدفعهم بالحجة بعد الحجة، وتسامى عن أن يكون خطابيا أو خياليا فى دعوته الساطعة القوية. وهو بعد ذلك أسمى من أن يتطاول إلى قصصه الحق يراع مسموم، ولا يضيره أن يزيد عدد السفهاء الذين يشككون فيه واحدا فى آخر الزمان؟

حسن جاد

طاعة الرسل وطاعة الرسول ﷺ

للأستاذ عباس متولى حماده

قال تبارك وتعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله »[١] .

فى هذه الآية وأمثالها يبين الله تعالى فيها أن الغاية من إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام هى طاعتهم ، والانقياد لأوامرهم ، والإذعان لما يبلغونه عن ربهم بما أفاضه عليهم من علوم ومعارف كشف الله لهم الغطاء عنها ، حتى إذا بلغوا شريعة ربهم لم يخافوا أحداً ، ولم يرهبوا فى التبليغ عنه طاغيا ، أو متجبراً ؛ لأنهم كما يقول تعالى : « يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله »[٢] .

فطاعة الرسل عليهم الصلاة والسلام هى الغاية من إرسالهم ، ولهذا أمر الله بطاعتهم ، ولم يستثن من ذلك رسولا بل جعل طاعتهم سنته العامة ، وحكمته المضطردة التى تقررت بفضل إرسالهم للناس لا تتخلف أبداً .

وسواء أكانت « من » فى الآية صلة زائدة على رأى الزجاج ؛ ليتحقق من زيادتها عموم تلك السنة واضطرادها . أو أن عموم القضية استفيد من تنكير « رسول » الواقع فى سياق النفى فيفيد العموم والاستغراق . كأنه يقول:

(١) سورة النساء آية ٦٤

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٩ .

وما أرسلنا من هذا الجنس أحداً إلا ليطاع . فاضطراد طاعة الرسل سنة الله من إرسالهم على كلا الرأيين محقق وثابت وإن كانت المبالغة فى استغراق النفى أتم من جعل «من» صلة زائدة كما قاله المفسرون ، وخاصة الإمام الرازى[١] فى تفسير قول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » .

فكل رسول أرسل إلى قوم يجب عليهم طاعته ؛ إذ من صد عنهم وخرج عن طاعتهم ، أو رغب عن حكمهم كان متمرداً ومعانداً لحكمة الله المضطردة ، وسنته العامة فى إرسالهم ، ومعطلا لمهمتهم ، وغافلا عن الحكمة من بعثهم للناس ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل فهو بهذا داخل فى مضمون الحكم العام المقرر للرسل عامة ، وتطبق عليه السنة الألهية المضطردة وهى : إيجاب طاعته ، والانقياد لجميع أوامره صلى الله عليه وسلم لأنه أرسل كغيره للناس . كما قال تعالى : « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى »[٢] .

(١) مفاتيح الغيب للرازى (٣ : ٢٥٨) .

(٢) سورة الأحقاف آية ٩ .

ورسولنا صلى الله عليه وسلم تام الدليل ودلت المعجزة على صدق رسالته فيجب أن يطاع ، وفى ذلك يقول الشاطبى [1] : « إن العمل بالسنة ، والاعتماد عليها إنما يدل عليه الكتاب ؛ لأن الدليل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم : المعجزة . وقد حصر عليه الصلاة والسلام معجزته فى القرآن بقوله : « وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى » هذا وإن كانت له من المعجزات كثير جداً بعضه يؤمن على مثله البشر ولكن معجزة القرآن أعظم من ذلك كله » اهـ .

فإذا كانت طاعة الرسل واجبة ؛ بل هى السنة الإلهية العامة التى يجب ألا تتخلف عن كل من أرسله من رسله رغم أن شريعتهم كانت خاصة لطائفة ؛ بل إن بعضهم أرسله الله مجدداً شريعة رسول سابق ، وإذا كانت الطاعة مقررة للرسل مع هذا فإن الطاعة تكون آكد وأشد لزوما للرسول صلى الله عليه وسلم الذى أراد الله أن تكون شريعته عامة للبشرية وجعلها خاتمة الرسالات . كما قال تعالى : « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » [2] ، وقال سبحانه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

بل إذا كانت الطاعة واجبة للرسل عليهم السلام ، وفيهم من بعث لأمته ، ولم ينزل الله عليه كتاباً يقرأ ويتلى ويتعبد به كنوح عليه السلام . فكيف يقال إن طاعة رسولنا صلى الله عليه وسلم تجب فى خصوص ما يبلغه من القرآن الكريم فقط ، رغم أن الله تعالى يقول فى كتابه الكريم : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » .

ولقد أرسل الله رسلا بدون كتب تتلى ، وأوجب لهم الطاعة على أممهم ، ففى أى شىء كانوا يطيعونهم إن لم تكن طاعتهم يريد الله من الأمر بها أن تكون فى جميع ما يصدر منهم من أقوال وأفعال صدرت نتيجة علمهم بما أفاض عليهم من علم اليقين ، وإنزال الوحى إليهم ؛ ليساندهم ويرشدهم ويأمرهم بما يطلبه الله منهم أن يبلغوه إلى الناس حتى لا يكون للناس على الله حجة . قال تعالى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [1] .

فهل من متدبر لهذا الهدى الإلهى المستفاد من الحكم العام الذى جعله الله لرسله وهو : إيجاب طاعتهم — وخاصة ومنهم من أرسل ولم ينزل الله عليه كتاباً يقرأ ويتعبد بلفظه — حتى يخجل من القول فى الآيات القرآنية التى جاءت بالنص على الأمر بطاعة رسولنا صلى الله عليه وسلم بأن الأمر : خاص بطاعته فيما نزل عليه من القرآن الكريم ! !

(١) الموافقات (٣ : ٤٢) .
(٢) سورة الرعد آية ٧ .

(١) سورة الأنعام آية ٤٨ .

ليس هذا هو الذى يصح أن يفهم، أو يقال فى عرف العقلاء. لأن طاعة الرسل عليهم السلام حكم عام مضطرد. وسواء من أنزل الله عليه منهم كتابا أو لم ينزل والأمر فيمن أنزل الله عليهم منهم كتابا واضح، ولكن أى طاعة يمكن أن تتحقق لمن لم ينزل الله عليه كتابا منهم إذا لم نقل بأن وجوب طاعتهم فى كل ما يصدر عنهم سواء أكان كتابا مقروءا أو غير مقروء، لأنهم الصفوة المختارة من خلقه التى يجب أن تتبع وتطاع، ولا تعصى فى كل ما يصدر منها، أو يؤثر عنها لاصطفاء الله لهم بشرف التبليغ والرسالة.

قد يقال إن الشافعية يقولون: ما من عام إلا وخصص وأنت شافعى. قلت إن ما سأعرضه فى سورة الشعراء من تعدد الأوامر بطاعة الرسل التى حكاها الله على ألسنتهم يدفع احتمال التخصيص ويرده، ولهذا فأنى لا أجد فى نظرى آية من الآيات القرآنية الكثيرة التى استدل بها العلماء على حجية السنة، ولا يستطيع المنكر لحجيتها أن يتأولها، أو يدفعها إذا لاحظ فيها أن طاعة الرسل حكم عام أوجبه الله على العباد سواء منهم من أنزل الله عليه كتابا، أو لم ينزل، فإنها من هذا الاعتبار المقرر فيها أعصى على المنكرين لحجية السنة فى ردها أو تأويلها من غيرها، لأن طاعة الرسل: سنة الله العامة التى أوجبها لرسله على عباده بدون استثناء، أو تأول مقبول

هذا ملحظى، وقد يشترك معى فيه من ينظر فى الآية الكريمة النظرة التى أنظرها، إذ أوجه الدلالات عادة تخضع لنظرة الناظر فى الدليل، ولا يكون ملحظ شخص فيه حجة على شخص آخر.

بقى أن أقول إتماما للفائدة فى قوله تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله» أن قوله تعالى: «بإذن الله» سواء كان الإذن: الإرادة، أو الأوامر، أو التوفيق أو الإعانة أو كما قال الراغب «لازم ذلك» لأنه قال الإذن فى الشىء. الأعلام بإجازته والرخصة فيه غير ناظر إلى خلاف المعتزلة، وأهل السنة والمرجئة فى مفاهيم الإذن ومدلولاته، بل الذى يهمنى أن أثبت أن التعبير «بإذن الله» كان للاحتراس عما يظن أن يقال: إن الرسول يطاع لذاته بلا شرط ولا قيد، فقيد الله الطاعة بإذنه.

وفى هذا التقييد من الاحتراس ما فيه من الدقة حتى إنهم قالوا: إنه قيد من قيود القرآن الكريم المحكمة، الذاهبة بظنون من يظنون أن الرسول يطاع لذاته، إذ الله عز وجل له الطاعة لذاته وحده، وهو إن أمر بطاعة رسول فطاعته تتحقق بإذنه وأمره لا لذات الرسول وشخصه.

ويهمنى أيضا قبل أن أعرض لما جاء فى سورة الشعراء - من دلالة الآيات التى جاءت بعبارة واحدة: هى قوله تعالى. «فاتقوا الله


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فى كل ما يصدر منه ، سواء أكان قرآنا يتلى ويتعبد بلفظه ، أو غير قرآن وهى : سنته ؛ لأنه رسول قامت الأدلة والبراهين على صدق رسالته .

فهل بعد هذا يمكن أن يقال : إن طاعة رسولنا صلى الله عليه وسلم إنما تجب فى خصوص ما يبلغه عن ربه من القرآن الكريم ؟ !! وهو كما ترى متناف مع الحكم العام المقرر للرسل عامة بدون استثناء أحد منهم من هذا الحكم العام وهو : الطاعة التى نادى بها الرسل عليهم السلام وحكاها الله تعالى لنا فى سورة الشعراء ، وعرضها عرضاً بارعا لا يقدر أن يأتى بمثله أحد . قال تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١) .

فيا لله ما أروع هذا العرض ، وما أجل الغاية منه فهذه فقرة واحدة قصيرة « فاتقوا الله وأطيعون » يكررها الله تعالى فى سورة واحدة حكاية على لسان الرسل عليهم السلام ومع ذلك ما أحس قارئ لها منا بتكرارها فما بالنا بالعرب الفصحاء ، وكيف كان تذوقهم لهذا الهدى القرآنى الكريم الذى جاء حتى فى القصص بهذا النسق البديع .

فقرة واحدة تأتى بلفظ واحد فى قصص كثير من الرسل عليهم السلام ، وبعضهم أعادها مرتين فى أول قصته ، وبعضهم كررها مرتين فى خلال قصته ، ومع ذلك لا يحس القارئ أنها جاءت مكررة ، أو معادة أو ثقيلة على الأسماع والنفوس ؛ لأنها فى كل مرة يذكرها الله تعبر عن معنى جديد بحيث يكون لها وقع فى النفوس وجرس فى الأسماع .

وإنما جاء هذا فى القرآن الكريم ليقرر الله الحكم العام بطاعة الرسل فى الأذهان وليستقر فى النفوس .

ولكن أى نفوس وأى أذهان يريد الله تعالى أن يقرر لديها هذا المعنى : أنفوس الأمم السابقة وقد مضت ؟ ، أم نفوس الأجيال المقبلة التى تنتظر رسالة بعد رسالة رسولنا صلى الله عليه وسلم . والرسالات قد ختمت برسالته وانتهت ببعثته .

ليس هذا ولا ذاك يريده الله قطعا لمنافاته للواقع ولمعارضته الأدلة القطعية ، فلم يبق غير نفوسنا وأذهاننا التى يقرر الله تعالى لها هذا الحكم العام . ويريد بهذا البيان الذى ذكره فى قصص الرسل عليهم السلام بهذا النسق أن تكون طاعة رسولنا صلى الله عليه وسلم معلومة لدينا علما ضروريا لا يجوز أن يتمارى ، أو يشك فيه إنسان ، أو يجادل فيه عاقل . بصرنا الله دائما بهدى القرآن وجنبنا الزلل والزيغ آمين .

عباس متولى حماده

---

(١) سورة الاسراء (٨٨) .

عصمة الأنبياء بين اليهود والنصارى والقرآن

للأستاذ علي الخطيب

يختار الله الرسول من بين خلقه فيسير على نهج يأخذه به ربه، ويسلكه فيه فيصنعه على عينه، ويطبعه على طاعته، فلا تشينه شائبة تسقط من مروءته، أو يغضى لها طابع وجولته، وتنمو مكارم أخلاقه، وتنشط فيه صفات القيادة، ويوسعه ربه حلما وعلما، وعدلا ورحمة، وبرا وكرما حتى إذا جاءت الرسالة أداها بإيمان وقوة، لا ينطق فيها عن هوى، ولا يتحدث فيها برأى. وهو فوق ذلك كله معصوم من الخطأ.

وهذه "عصمة شاملة.

فإذا علمنا أن ما يأمر به الرسول أو ينهى عنه يعتبر إتيانه أو الكف عنه عبادة.

وأن ما يؤديه من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج يعتبر عبادة

وأن ما يشاهده فى قومه فيسكت عنه لا يعتبر معصية.

قلنا: إنه معصوم فى ذلك كله لا يخطىء فيه. فصانته فيه قائمة. وعصمته من الخطأ فيه كاملة. فهو من قبل الرسالة على خلق كريم، ومن بعدها على خلق عظيم.

وللعصمة بهذا المعنى شأن. وإنه لخطير بين اليهود، والنصارى، والقرآن.

فأما اليهود: فبكل أجيالهم التى تعبدت بالتوراة المتداولة المعروفة بالعهد القديم مع ما ضم إليها من صحف - هؤلاء جميعا لا يقرون بعصمة نبى، ولا يؤمنون بنزاهته، ويستوى فى نظرهم هذا موسى عليه السلام نفسه، ومن قبله من كل أنبياء العهد، كما لم يسلم من تعليقاتهم من أتى بعده من أنبياء.

فالرسول الذى نصب هاديا ومرشدا لا يرى فيه اليهود مانعا يمنعه أن يقتل أو يزنى أو يكذب، فلا كرامة لنبى عليهم، ولا يذكرون فى باب النزاهة فارقا بين نبى وغير نبى فالكل فى ذلك سواء.

وعلى هذا المنوال نسجوا الأنبياء واحدا بعد الآخر معصية:

نالوا من موسى عليه السلام «فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها» ٦٩ الأحزاب.

ومن قبل موسى نالوا من نوح عليه السلام فصوروه عربيدا قد شرب الخمر وتعرى حتى

ظهرت عورته « تكوين - ٩ - ٢٢ ، ٢٥ » .

وطغى نصيب لوط على نصيب نوح وتعدى السكر والعربدة إلى أشنع جريمة يمكن أن يسمع بها بشر فقد اتهموه فى ابنتيه وأنه نالها واحدة بعد الأخرى « تكوين - ١٩ - ٣٠ إلى ٣٧ » .

ونالوا من هرون عليه السلام فى مهمة النبوة الأولى فصوروه يدفعهم إلى الوثنية ويقول لهم : « انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم ، وأتونى بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل ، وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر » « خروج - ٣٢ - ٢ إلى ٤ » .

وجعلوا داود عليه السلام قاتلا فى أخبث رواية إذ صوروه يعجب بجمال إسرائيلية رآها خلسة فاحتال لإبعاد زوجها « أوريا » عنها ودفعه إلى ميـــدان القتال ، وفى الخطوط الأمامية لتى حتفه ، فأمكنه أن يتزوجها « صموئيل ثان - ١١ - ١ إلى ١٧ » وهى حيلة لا تخرج بفاعلها عن الإثم . لا تبرئه من الجريمة فالمتسبب فى القتل كفاعله .

وحين ثار عليهم « إرميا » النبى وسخط على الكتبة الذين يحرفون الكتاب وقال لهم « كيف تقولون نحن حكماء ، وشريعة الرب معنا . حقا . إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب ، خزى الحكماء ، ارتاعوا وأخذوا ، ها قد رفضوا كلمة الرب فأية حكمة لهم « إرميا ٨ - ٩ ، ١٠ » كما قال أيضا : « أما وحى الرب فلا تذكروه بعد ، لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه إذ قد حرفتم كلام الإله الحى ورب الجنود إلهنا « إرميا - ٢٣ ، ٣٦ » .

حين ثار إرميا عليهم ثورته اتهموه بالتجسس لحساب أعدائهم وألقوا به فى السجن كما يقص سفره « إرميا ٣٧ - ١٥ إلى ٢١ » .

وأما سليمان عليه السلام فسلكوه فى نفس التهمة التى ألصقت بهرون ورموه بالوثنية وجعلوا « عشتورث ، وملكوم ، وكموش ، ومولك » من الآلهة التى مال قلبه إليها زمن شيخوخته « ملوك أول ١١ - ٤ إلى ٩ » .

ولم تكن حملات عيسى بن مريم عليهما السلام هينة عليهم ، ولما لم يكن ملكا ، ولا محاربا وكان حصورا نقدوا كل أنواع التهم المتقدمة أن يلصقوها به فادعوا فيه وهو ابن البتول أنه ابن رشدة - زنا - وهى تهمة موجهة فى الواقع إلى مريم عليها السلام . فلعنهم الله « ... بكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ... » .

هذه منزلة النبوة بين اليهود ، وقد استحقوا بها لعنة داود ، وعيسى عليهما السلام فيهم « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا

يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، المائدة ٧٨ ، ٧٩ .

وهكذا ذهب اليهود بوزرهم فى الأنبياء .

وجاء المسيحيون : ولما كانوا يقرون بالعهد القديم لم يقدموا حلا لتلك القضية ولم يبرئوا أولئك الأنبياء والكرام من فرى اليهود ، ورغم أن للعصمة دراسات مسهبة فى كهنوتهم ؛ فلم يحظ منهم أولئك الأنبياء بمكانة العصمة فى حين وزعت منهم على غير الأنبياء .

فأما الكاثوليك فيرون أن « الكتب المقدسة لم تذكر كل شيء ، ويعنى هذا أن جانبا دينيا ضخما بقى فى حاجة إلى تشريعات لذلك جعلوا من (بابا روما) مسيحاً منظوراً ورأوا أنه « معصوم من الخطأ فى أحكامه الدينية فكل ما يشرعه فى جانب الإيمان ، وما يحدده فى جانب العقيدة يعتبر قضايا يقينية غير قابلة للتحوير أو التبديل كما أن تقريراته ليست بحاجة إلى موافقة الكنيسة عليها فهى صحيحة دون موافقتها ، ومن حقه أيضاً أن ينشر تعليما إيمانيا ويحتم حفظه ، لأن فحص الآيات خاص به منذ أجيال » [1] .

وبعصمة البابا أصبح للبابوية إنجيل مفتوح يستطيع أى البابوات أن يسطر فيه ما شاء ، ومع ذلك لم نر أحدهم يقدم دراسة لدفع هذه الاتهامات عن أولئك الأنبياء المصطفون الأخيار . بل إن (البابا) الراحل أمر بحذف صلوات استمر الكاثوليك يرددونها مئات السنين ، ثم تبين أنها حذفت لما فيها من لعنات على اليهود . فكان اهتمامه برفع السخط عنهم أهم بكثير فى نظره من اهتمامه بالأنبياء أنفسهم ، ومضى تاركا قضية النبوة لأهواء اليهود .

ويختلف الأرثوذكس عن الكاثوليك فى قضية العصمة ؛ فليست عندهم محصورة فى رأس الكنيسة لأى مذهب أرثوذكسى ، وأى البابوات الأرثوذكس لا يعتبر معصوما فى نظرهم ، ويقررون « العصمة » للمجامع المسكونية وحدها ، فقرارات هذه المجامع تعتبر معصومة من الخطأ ، وهذه المجامع مؤتمرات دينية تعقد على مستوى عالمى شامل للنظر فى القضايا الدينية ، والشئون الكنسية وبدأ أول مجمع منها عام ٣٢٥ م وكان يأمر بعقدها الملوك المعاصرون لشئونها [1] وفى هذا الخريف دعت كنيسة الفاتيكان إلى مجمع منها . غير أن قرارات هذا المجمع تواجه من

(١) انظر الصفحات (١٤٧ – ١٥٦ – ١٥٧ – ١٥٩ – ١٧٦) من كتاب « شرح التعليم المسيحى » ج ١ القس يوسف لويس . مطبعة البرتيرى ١٩٣٩ م . وكتاب « سلاحك أيها المسيحى » ص ٢٢٢ لمؤلفه نعمة الله العنمارى المرسل اللبنانى – جونيه – لبنان .

(١) انظر ص ٦٨ من كتاب « التعليم المسيحى الأرثوذكسى » للأغناطيوس فرزلى . مطبعة أناتولى . اسكندرية .

الأرثوذكس حرباً عنيفة ، ولا يبدو أنها ستحظى بالعصمة هذه المرة

والقراء فى العالم أجمع يعيشون لحظات هذا المؤتمر الأخير بدوافع شتى لكن المؤلم أن مؤتمراً واحداً من هذه المؤتمرات لم يتبرع برفع وصمة اليهود عن الأنبياء .

والبروتستنتية التى حملت بعنف عاصف على (عصمة) بابا روما وقفت موقفا سلبياً من نفس القضية رغم ما اتسمت به من ثورية هادفة فى قضية البابوية .

ويعنى هذا أننا نخلص من المسيحية إلى قرار غريب : (قرار يرى العصمة جائزة وموجودة فى غير الأنبياء ، وليست موجودة فى بعض الأنبياء) فالمجامع المسكونية عند الأرثوذكس ، و (بابا روما) عند الكاثوليك ذوو عصمة . بينما داود وغيره ممن عددنا من الأنبياء لا عصمة عندهم .

ثم جاء الإسلام والقرآن وحيه وترجمانه .

وحصر الإسلام العصمة فى الأنبياء وحدهم وقرر براءتهم جملة وتفصيلا ، ولا زال من تعاليمه لأتباعه أن يقولوا « آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ١٣٦ البقرة .

ونص القرآن فى نوح أنه « كان عبدا مشكورا » و « نوحا هدينا من قبل » « سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين » .

فنوح عليه السلام مؤمن بربه ، شاكر له ، محسن فى طاعته ، محوط بهداية الله المقررة له فنفذا الذى يخرق عليه ما أراده الله له من هداية ويسقيه خمرا ، ومن يهد الله فلا مضل له ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا

ولوط عليه السلام فى جملة من فضلهم الله على العالمين فقال : « وإسماعيل ، واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين » .

ويعنيه القرآن الكريم وحده فيقول : « ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ، وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين

وهكذا يقرر الله سبحانه صلاح لوط الذى جعله من المفضلين على العالمين والله سبحانه لا يستحى من الحق ، وما كان ليقرر فضل لوط وصلاحه إلا ولوط عليه السلام طاهر صالح برىء من الإثم وكفى بالله شهيدا .

ولقد أجمع رجال القانون من كل عصر وجيل أن « الاعتراف سيد الأدلة » والقرآن يسوق هذا الدليل فى مسألة هرون ، فموسى عليه السلام استمع إلى شهود القضية فقرروا جميعا إثم « السامرى » وقالوا : « حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى » .

وكر موسى على السامرى قال: «فما خطبك يا سامرى، قال بصرت بما لم يبصروا به، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى».

وهكذا اعترف السامرى وشهد الشهود ولا بيان ببراءة هرون أنصع من هذا.

وداود عليه السلام ممن قال الله فيهم «وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا» وجعله سبحانه أسوة لمحمد صلى الله عليه وسلم حين كثر الأذى عليه فقال تعالى لمحمد: «اصبر على ما يقولون، واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب»، وهل كان سبحانه وتعالى يجعل من قاتل أسوة ...؟!

وقال الله فى سليمان بأنصع عبارة وأبسطها وأسرعها فهما «وما كفر سليمان» وبرأه الله وقال فيه «نعم العبد إنه أواب» فلا كفر ولا زيغ ولكن طاعة مستمرة وتعلق دائم بالله، وحب خالص له.

ولم تمر حادثة إرميا بسلام فلا تزال شهادته فيهم تبعث الريب حتى فى حاخامات اليهود أنفسهم، وقد دفع ذلك وغيره الحاخام اليهودى المعاصر دكتور لويس جاكوبس إلى الشك فى العهد كله جملة وتفصيلا.

وأثار بذلك عاصفة بين يهود بريطانيا بكتابه «لدينا ما يجعلنا نؤمن» وقرر فيه أن الكتب التى تنسب إلى موسى عليه السلام نفسها لعب الإنسان فيها دورا ملحوظا (١) وهذا عين ما قرره إرميا.

وأما مريم البتول صلوات الله وسلامه عليها فهى صفوة نساء العالم فى طهارتها وإخلاصها لله وحرصها على رضاه ولقد أسمعها الله هذه الشهادة وهى لا تزال بين الأحياء وزفتها إليها الملائكة فقالت: «يا مريم إن الله اصطفاك، وطهرك، واصطفاك على نساء العالمين» ٤٢ آل عمران.

ولا عجب بعد هذا أن يكون عيسى ابنها عليه السلام (وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) بشهادة القرآن (٤٥ آل عمران).

وليس بين ما بقى من كتب السماء إلا القرآن يقرر - وحده - براءة النبوة، وكمال عنصرها ويصدع بالحق مفتريات اليهود ويرد كيدهم بتفصيل، ويعيد للنبوة جلالها، ويرفع لها كمالها، ويكشف للعالمين جرم اليهود فى حق صفوة البشر جلالا وكمالا، ومن شرف القرآن، وإعجازه المحيط أن تسطر آياته الحكيمة تلك البراءة، وتذيعها على العالمين إلى يوم الدين بيانا بالحق، وتبصرة وذكرى لأولى الألباب، فسحقا للمفترين، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى؟

على الخطيب
مجمع البحوث الإسلامية

---

(١) انظر الجمهورية ٢٦/٤/١٩٦٤ ص ١ ع ٨.

الوراثة وقوانينها ومظاهرها الغريبة ومراعاتها في الجاهلية والإسلام

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

وأطيعون ، على لسان كثير من الرسل حكاها الله في القرآن عنهم - أن أنبه إلى أنها وإن كانت وردت في شرائع غير شريعتنا إلا أن ورودها في القرآن الكريم جعلها كما قال الشاطبي (١) من « التعبد بأمر معقول صرف لا نظر فيه لأحد » اهـ . لا سيما وقد ورد في شرعنا ما يقرره ، وهو قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » . وتحقق وصف الرسالة بالمعجزات التي أهمها القرآن الكريم كما ذكرت .

وأيضا فإن القصص إنما سيق في القرآن الكريم للاعتبار به ، وليطاع الله عز وجل ويطاع رسوله صلى الله عليه وسلم ويتبع . وليؤمن الناس بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم

سورة الشعراء وطاعة الرسول

لما كانت سنة الله في إرساله الرسل عليهم السلام أن يطاعوا نادى كل رسول ، ودعا

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (١) » .

فأبان الله جلت قدرته له ما تعرض له الرسل عليهم السلام من قبله ، وأنهم رغم ما تعرضوا له استمروا في التبليغ ، وأمرهم لأممهم بطاعتهم في جلد وصبر . قال تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل (٢) » .

فهذا نوح عليه السلام وقد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما قص الله قصته في القرآن الكريم ، فيقول تبارك وتعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون » (٣) .

فالله تعالى يحكي عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : « إني لكم رسول أمين » ، وشأن الرسول الأمين أن يطاع ، ولكنه رغم ذلك أعقبه بقوله تعالى « فاتقوا الله وأطيعون »

الإنسانى ، وإنما ينتقل إليه ما تعتمد عليه من دعائم فى التكوين الجسمى والعصبى ، فالوراثة فى نظره ظاهرة جسمية خالصة ، والصفات الجسمية وحدها هى التى تنتقل عن طريقها ؛ أما الصفات العقلية والخلقية فلا تنتقل بطريق مباشر ، وإنما تنشأ عن وراثة لبعض أوضاع مادية فى الجسم والغدد والجهاز العصبى .

* * *

ومن أهم ما اكتشف من قوانين الوراثة قانون التغلب فى الصفات الموروثة ، وقانون الوراثة الخاصة غير المباشرة ؛ أما قانون التغلب فى الصفات الموروثة فيقرر أنه قد يحدث فى تكوين الطفل أن تتغلب صفات أحد أبويه على صفات الأب الآخر فتستكن الصفات المغلوبة وتختفى مظاهرها حتى ليخيل إلينا عدم وجودها ، مع أنها تكون فى هذه الحالة موجودة مستكنة ، وآية وجودها أنها قد تنتقل بطريق الوراثة إلى أولاد الفرع المستكنة لديه . وأما قانون الوراثة الخاصة غير المباشرة أى الوراثة من الأجداد والجدات عن مختلف الدرجات فيوضح القانون السابق ويكمله إذ يقرر أنه قد ينتقل إلى الطفل بطريق الوراثة بعض صفات كانت ظاهرة فى أحد أجداده أو إحدى جداته من جهة الأب ، أو من جهة الأم من الدرجة الاولى ، أو من الدرجات التالية لها ، ولم تكن ظاهرة فى أصله المباشر ، فيخيل إلينا أنه قد ورثها من أجداده أو جداته ، وأن هذه وراثة غير مباشرة ، والحقيقة أن الطفل لا يرث هذه الصفات عن أصله البعيد ، ولا يعقل أن يكون قد ورثها عنه ، لأن هذا الأصل لم يكن له دخل فى تكوينه ، وإنما يرثها عن أصله المباشر نفسه الذى خلق من مائه . وذلك أن هذه الصفات مع عدم ظهورها فى الأصل المباشر كانت موجودة لديه فى صورة مستكنة قابلة للانتقال إلى الفروع .

* * *

ومن الوراثة أنواع غريبة تظهر فى بادئ الرأى شاذة ، خارجة عن الأوضاع المألوفة ، صعبة التفسير ؛ ولكنها عند التأمل العميق يتبين أنها تخضع للقوانين نفسها التى يخضع لها غيرها من الأنواع الوراثية العادية ، وتنبعث عن العوامل نفسها التى تنبعث عنها هذه الأنواع . ومن ذلك ما يسمونه « الوراثة المتحدة الأزمنة » . وذلك أنه قد يظهر عند الأصل فى مرحلة ما من مراحل حياته صفة عارضة جسمية ، أو نفسية ، ثم تظهر هذه الصفة نفسها عند الفرع حينما يبلغ السن التى ظهرت فيها عند أصله ، مع أنها لم تكن موجودة عند الأصل فى الوقت الذى علقت فيه الأم بالفرع ، ويبدو هذا النوع على

الأخص فى صفات الأمراض والعاهات .

وقد سجل له الباحثون عدة أمثلة واقعية ، منها أن بعض الأفراد قد أصيبوا بالعمى أو بالصمم لأسباب غير معلومة بعد أن يلغوا سنا معينة ، وأن بعض أولادهم قد أصيبوا بالعاهة نفسها حينما بلغوا هذه السن ، مع أنهم فى وقت العلوق بهم لم تكن أصولهم مصابة بشىء من ذلك . ولكن هذا النوع نفسه ، مع غرابته وخفاء أسبابه فى الظاهر ، يعتمد فى الواقع على الدعائم نفسها التى تعتمد عليها الظواهر العادية فى الوراثة وتفسير ذلك أن الأصل فى مثل هذه الأحوال كانت لديه جراثيم مرض كامنة وأوضاع واستعدادات جسمية خاصة ينجم عنها بعد فترة ما فقد البصر أو السمع ، وأن هذه الأوضاع وتلك الاستعدادات التى كانت كامنة فى الأصل انتقلت إلى الفرع فى المادة الحيوية التى تألفت منها أجزاؤه ، وترتب على انتقالها بطريق الوراثة ظهور العادة لديه فى الميقات الذى الذى يحدده ما ورثه فى تكوين جسمه وجهازه العصبى . وهذه الحالات تبين لنا خطر الوراثة ودقة قوانينها ، وأن ويلاتها تحيق بكثير من الناس من حيث لا يشعرون .

* * *

هذا ، وقد فطن العرب فى الجاهلية إلى حقائق الوراثة ، وقوانينها ، وحرصوا على الإفادة منها فى شئون الزوج ، وصلة الرجال بالنساء ، وإنجاب الأولاد ، وثبوت النسب ، ونبغ لديهم كثير من الخبراء فى ظواهرها ، ووجوه تطبيقها .

فمن ذلك أن معظم عشائرهم كانت تكره الزواج من القريبات لما أرشدتهم إليه خبرتهم فى شئون الوراثة من أن زواج الرجل بقريبته ينتج نسلا ضاوياً [1] ضعيف الجسم والعقل ، وفى هذا يقول شاعرهم :

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة
مخافة أن يضوى على سليل

ويقول الآخر :

أنذر من كان بعيد الهم
تزويج أولاد بنات العم
فليس بناج من ضوى وسقم

ويقول الآخر :

ألا فتى نال العلى بهمه
ليس أبوه بابن عم امه

وتتفق آراؤهم هذه مع ما ظهر للمحدثين من قوانين الوراثة ، وذلك أن الزوجين إذا كانا من أسرة واحدة انتقل إلى أولادهما بطريق الوراثة جميع الصفات الوراثية السيئة التى تختص بها أسرتهما لوجودها فى الأصلين

(١) ضوى الولد يضوى ضوى من باب تعب إذا صغر جسمه وهزل ، والضوى المزال ، وأضواه غيره أى تسبب فى هزاله وضعفه .

معاً ظاهرة أو مستكنة ؛ على حين أنهما إذا كانا من أسرتين مختلفتين فإنه يندر أن يتحدا فى صفة وراثية سيئة ، بل تكون صفاتهما الوراثية متنوعة فى العادة . فيقابل نواحى الضعف فى أحدهما نواح قوية فى الآخر ، فيحدث بذلك التعادل فيما ينتقل عنهما إلى أولادهما بطريق الوراثة ؛ فينشأ هؤلاء الأولاد متوازنى الصفات ، معتدلين فى نواحيهم الجسمية ، والعقلية ، والخلقية .

ومن مظاهر خبرة العرب فى الجاهلية بحقائق الوراثة وحرصهم على الإفادة منها ، أن بعضهم كان يلجىء زوجته إلى ما اشتهرت تسميته بالاستبضاع ، وقد شرحت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها نظام الاستبضاع فيما أخرجه عنها البخارى موقوفا إذ تقول : « كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها (حيضها) أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها ، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها ، إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد » [1] ويظهر من هذا النص أن هذا كان يتم برغبة الزوج بل بأمره ، وأنه كان يفعل ذلك حرصا على نجابة الولد ، وأن هذا الولد كان يعتبر ولدا للزوج الشرعى ، لا للعظيم الذى جاء من صلبه وأن هذا العظيم كان يعتبر مجرد أداة استخدمت لإنجابه .

وكان العرب فى الجاهلية يلجئون إلى الخبراء منهم فى شئون الوراثة لتحقيق نسب الولد فى الحالات التى لا تكون ثمة دلالة أخرى على نسبه ، أو فى حالة الشك فى نسبه ، كما نلجأ نحن فى الوقت الحاضر فى مثل هذه الحالات إلى فحص فصيلة الدم ؛ وأكثر حالات التجائهم إلى ذلك كانت فى صدد أولاد البغايا ، وقد أشارت إلى ذلك السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فيما أخرجه عنها البخارى موقوفا إذ تقول : « كان يجتمع الناس الكثيرون فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، وكن ينصبن على بيوتهن رايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاط به ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك » [1] والقافة هم الخبراء فى فن « القيافة » وهو فن كان منتشراً عند العرب فى الجاهلية يستطيع الراسخون فيه أن يعرفوا الأصل الذى انحدر الولد من مائه عن طريق الشكل الخارجى لتكوين أعضائه ولون بشرته وما إلى ذلك ، وفقا لقوانين الوراثة ، والقافة أيضا الذين يعرفون آثار الأقدام ويعرفون

(١) صحيح البخارى فى باب من قال لا نكاح إلا بولى.

(١) المرجع السابق نفسه .

أصحابها منها ، ولعلهم كانوا يبحثون كذلك عن آثار الأقدام التي كان أصحابها يختلفون إلى البغي ليعرفوهم تمهيداً لإلحاق الولد بأحدهم ولعل هذا كان من بين الأمور التي كانت تدعو من يغشون منازل المومسات إلى أن يجروا أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أقدامهم على الرمال حتى لا يكونوا عرضة لأن يلتحق بنسبهم من تجيء به البغي ، أو المظلمة كما كانوا يسمونها ؛ لأن سفلة الناس وسوقتهم كانوا يختلفون إلى البغي في الظلام يجرون أطراف مآزرهم وراءهم ، ولذلك كان من جوامع كلمهم في المدح : « فلان لا يرخي لمظلمة إزاره ».

* * *

وقد أقر الإسلام قوانين الوراثة ، وحث الناس على الإفادة من خيراتها ، واتقاء شرورها وفي هذا يقول عليه السلام : « إياكم وخضراء الدمن ! » ، قالوا وما خضراء الدمن ؟ قال : « المرأة الحسناء في المنبت السوء » ويقول : « تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك ».

وحبب الإسلام الزواج بغير القريبات لاتقاء الأضرار الوراثية السابق ذكرها . وفي هذا يقول عليه السلام : « اغتربوا لا تضووا » أي تزوجوا بغير قريباتكم لأن زواجكم بالقريبات يضوي نسلكم أي يضعفه ويجعله هزيلا ، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال : « يا بني السائب قد ضويتم فانكحوا في الغرائب » ومر عمر على قوم من قريش صغار الأجسام فقال : ما لكم صغرتم ؟! قالوا : قرابة أمهاتنا من آبائنا . قال : صدقتم .

وكان الرسول عليه السلام يرتاح لآراء الخبراء في الوراثة ، وذوي الفراسة في شئونها . يروى أن زيد بن حارثة كان نائماً مع ابنه أسامة تحت غطاء واحد لم يظهر منه إلا أقدامهما فمر عليهما خبير في الوراثة ، ووقع نظره على أقدامهما ، فقال إن صاحب هذه الأقدام ، مشيراً إلى أقدام زيد لا بد أن يكون أبا هذه الأقدام الأخرى . وكان ذلك بحضرة الرسول عليه السلام ، فارتاح الرسول لمقولته وصدق فراسته ، وخبرته في شئون الوراثة .

وأما فيما يتعلق بثبوت النسب ، فإن الإسلام لم يربطه بمظاهر الوراثة ، وآراء الخبراء في شئونها ، وإنما أقامه على قواعد حكيمة تكفل استقرار الأسرة ، وتبعدها عن الشبهات ومظان الفتنة والريبة ، وتحمي أعراض نسائها ؛ فقرر أن « الولد للفراش » (وهذا نص حديث شريف) أي إن الولد الذي يجيء من فراش صحيح مشروع يلحق نسبه بالزوج صاحب هذا الفراش بدون حاجة إلى اعترافه به اعترافاً صريحاً ، وبقطع النظر عن مبلغ شبهه به من الناحية


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

يقظة التفكير الأوربي على صوت ابن رشد

للأستاذ محمد رجب البيومي

الفلسفة أسلوب ومنهج قبل أن تكون معارف وكليات ، فذو الفلسفة عميق الفكرة بارع التحليل يسبر الأغوار ، ويرصد الأبعاد والأطوال ، لذلك كان أصحاب الفلسفة ممن يمارسون الأدب على جانب قوى من البصيرة والنفاذ يصدرون عن أصالة حية . ويتجهون بأفكارهم الخصبة وجهات سديدة صائبة ، وقد أورثوا الأدب فى شتى فنونه المختلفة من مقالة وقصة ، ورسالة ، وملحمة ، وقصيدة دسامة قوية حية فوجهوا الأدباء الخلص إلى العمق والإحاطة ، والاستشفاف ، والاحتكام إلى موازين دقيقة فى المقدمات والنتائج ، أما الفلاسفة الأدباء ممن رزقوا روح الفنان وعقل الحكيم ، فقد جاءت كتاباتهم نمطا رفيعا من الإبداع . فمقالات (بيكون) الأدبية تجمع بين العمق الفلسفى ، والخيال الأدبى جمعا رائعا يدهش القارئ ويروعه ! وأسلوب فولتير ذو سحر رائع لايقاوم ؛ لأن الفلسفة الصائبة تحيط به من أقطاره وتوطىء له الدعائم والأسناد ، ولولا نصيب ويلز من الفلسفة ما اقتعد ذروة الأدب فى تاريخ انجلترا المعاصر ومهما وجد لدى كتاب أوربا فى عصور النهضة من دسامة وقوة فمرجعه إلى تعاطى الفلسفة ، والصدور عنها فيما يتناولون من بحوث !! لذلك لا نكون مبالغين حين نجزم بأن أسلوب الفلسفة فى البحث قد أكسب الأدب قوة حية جعلت رجاله زعماء نهضات ، وأصحاب دعوات ! ومن قل نصيبه منها فهو دون أصحابها استقامة سبيل واتساع أفق وارتفاع تحليق !

وحين نرصد مهاب الفلسفة على أوربا فى افتتاح عصر النهضة ، نجد ابن رشد صاحب الصوت المجلجل فى إيقاظ الأسماع ، وتنبيه الغافلين إلى أساليب الفلسفة ، ومناهجها فى البحث والدراسة ، ثم يأخذنا العجب كل العجب إذ نرى هذا الفيلسوف الأندلسى المسلم لا يجد حواريه فى أبناء لغته ودينه من المشارقة ، ولكنه يجدهم فى اليهود من أطباء وأحبار وفى المسيحيين من أباطرة وأساتذة وكهنة ، وهؤلاء هم الذين نقلوا كتبه وشروحه

وترجموا أفكاره وبحوثه ، فهدتهم إلى مفاتيح الثروة الفكرية الخالدة وأصبحوا بها أغنياء مترفين !

قدر على ابن رشد أن يأتى بعد الغزالى ، ليرى نجاحه الساحق فى هدم الفلسفة بالمشرق حيث حاربها أبو حامد محاربة مكتسحة ظافرة حاربها بأسلحتها المنطقية بعد أن خبرها ووقف على ما ظنه مقاتل مبيدة ، وقد قسم الفلاسفة إلى طوائف مختلفة ، فطائفة جحدت الصانع وقالت بقدم العالم ، وطائفة أنكرت البعث وما يعقبه من ثواب وعقاب ، وآخرون توغلوا فى دراسة الرياضيات والطبيعيات والمنطقيات والإلهيات ، فأصابوا مرة وأخطئوا مرات ! وقد اختلط الخطأ لديهم بالصواب اختلاطا لا يثمر غير التخبط والارتكاس ثم مضى ينقض براهين الفلاسفة بأمثالها مستعينا بالأقيسة والحجج العقلية تارة ، وبالأدلة الشرعية من نصوص قرآنية ، وأحاديث نبوية تارة أخرى ، ناهجا نهج علماء الكلام فى الرد والتوهين ، وأعلن فى النهاية فقدان الثقة بأقيسة المنطق وبراهين الفلسفة ورأى فى التصوف منجاة الحائر ، وملجأ المسترشد ، إذ يدرك به من الاطمئنان النفسى ما لا يدرك بالحجج والأقيسة :

وكان تصوف الغزالى تصوفا معتدلا بعيداً عن مغالاة النظريين من ذوى الشطحات وقريباً من منهج الصحابة فى الزهد والخشوع والتواضع فوافق أهواء الناس لعهده . فاعتنقوه عن إخلاص ورغبة ، ونفروا من الفلسفة نفوراً جعلها مدعاة الزندقة وباب الإلحاد وقد حاول ابن رشد أن يعيد الفلسفة مقامها لدى المسلمين بعد أن تساقطت مترنحة تحت ضربات الغزالى فألف كتابه تهافت التهافت يرد به على كتاب الغزالى الشهير تهافت الفلاسفة ، وقد قال فى مقدمته : « إن تعرض أبى حامد إلى مثل هذه الأشياء على هذا النحو لا يليق بمثله لأنه لا يخلو من أحد أمرين : إما أنه فهم هذه الأشياء على حقائقها ثم ساقها على غير وجهها وهذا فعل الأشرار ، وإما أنه لم يفهمها على حقيقتها فتعرض للقول فيما لم يحط به علما وهذا من فعل الجهال ، والرجل يجل عندنا عن هذين الوصفين ، ولكن لابد للجواد من كبوة ، ثم مضى يناقش أبا حامد فى كل ما تعرض له ! ولكن كتاب ابن رشد عن الغزالى لم يجد من يقرؤه فى الشرق ، وظلت آراء الغزالى فى الفلسفة راسخة لا تتزعزع ! حتى مطلع القرن العشرين إذ نقل الأستاذ فرح انطون فلسفة ابن رشد إلى قراء العرب مترجمة عن (رينان) ! فبدأ الفيلسوف الأندلسى يأخذ مكانه لدى أبناء لغته ودينه ! أما أثره البعيد فى التفكير الأوربى بعامة منذ فارق الحياة

فهو ما نحاول أن نجلوه فى هذه السطور لنرى كيف دق الأجراس المرنة فى عالم نائم غافل فلفظت المضاجع على رنانه المجلجلة جنوب النائمين !

لقد جاء دور ابن رشد فى المعترك الفلسفى بعد أن تقدمه فى الشرق أفذاذ نوابغ من أمثال الكندى وابن سينا والفارابى وإخوان الصفاء ممن أسهموا فى البناء الفلسفى إسهاماً تردد صداه فى كل مكان حتى وصل إلى الأندلس فأنتج بها فلاسفة حكماء من أمثال : ابن باجه وابن طفيل وابن زهر وكأن الأقدار قد جعلت ابن رشد خاتمة هؤلاء ليستطيع أن يقرأ ما كتبه سابقوه قراءة الفاحص الناقد ثم يضع النتائج النهائية لدراسته المتأملة ! وهو بعد صاحب ذهن فلسفى بعيد المطارح ، وقد عشق أرسطو عشقا تمكن من نفسه وسيطر على نزعاته حتى عده المثل الأعلى للفكر فى الحياة بل ارتقى به من الحدود البشرية إلى أن صار فى اعتباره المفكر الإلهى ، وقد قال عنه فى مقدمة كتابه : (عن الطبيعيات إنه أعقل أهل اليونان وواضع علوم المنطق والطبيعيات وما وراء الطبيعة إذ أن جميع من أتوا بعده من الفلاسفة لم يستطيعوا أن يزيدوا شيئا عما وضع أو أن ينقدوا قضية وصل إليها) ثم قال : « فلا ريب فى أن اجتماع هذا العلم فى إنسان واحد أمر عجيب يوجب تسميته ملكا إلهيا لا بشراً ولذلك كان القدماء يسمونه أرسطو الإلهى » !

وقد دفعه هذا التقدير البالغ إلى شرح أكثر ما كتب أرسطو من المؤلفات شروحا مختلفة منها الوجيز والمتوسط والمبسوط ، وإذا كان ابن سينا قد خالف أرسطو فى كثير من قضاياه فإن ابن رشد قد هاجم مخالفيه ، ووقف وقفات حاسمة أمام ما عورض به وأصبح فى نظر المؤرخ الفلسفى الشارح الأكبر لفيلسوف اليونان ، وتعرض إلى محن كثيرة من الحاجات العامة حتى نفى إلى غير موطنه ، وطرد من المسجد حين أمه للصلاة ، ولكنه لم يتخل عن منهجه الفلسفى بل شغل وقته بالشرح والدراسة حتى هيأت له الأسباب من نقل شروحه وآرائه إلى اللاتينية ، لتكون مصباحاً هاديا ينير الدراسات الفلسفية . ويبرز أرسطو فى وضع جديد !

ولا يمكننا أن نحدد أثر ابن رشد فى إنهاض الفكر الفلسفى بأوربا إلا حين نعرف حال الفلسفة فى القرون الوسطى قبل ابن رشد . فقد تأكد لدى بعض الأفهام أن الفكر الأغريقى قد زحف إلى أوربا الغربية مع الزحف الرومانى وأن العرب بناء على ذلك لم يضيفوا شيئا ذا بال إلى الفلسفة

الإغريقية إذ أن ترجمات ابن رشد وشروحه لم تأت بجديد حين نقلت إلى اللاتينية ، بل كانت نسخا مكررة للذائع المشتهر ، وهذا خطأ ظالم مغرض ، لأن الباحث فى تاريخ أوربا خلال العصر الوسيط يرى أن الكنيسة كانت تدرس الفلسفة الأغريقية من خلال المعتقدات المسيحية فهى تدور بها فى مجال العقيدة لتؤيد ما لديها من نصوص حتى ليخيل لقارئ هذه الفلسفة أن أرسطو وأفلاطون وأضرابهما قد وجدوا بعد المسيح ليؤيدوا تعاليمه ويجروا فى فلكه ، وقد حظر البحث عن أى حل من الحلول الفكرية لا يلائم النصوص ولا يسير وراءها شبرا بشبر ، وإذا كان الفيلسوف (سانت أوجوستان) قد فطن إلى التناقض الصريح بين مسائل الفلسفة الأغريقية والدين المسيحى فإنه لم يعلن ذلك صريحا كما ارتآه بل جعل يوفق بين الآراء فى أسلوب متكلف ينادى بالافتعال وكان خيرا له أن يعلن أن الفلسفة الإغريقية شىء آخر غير تعاليم المسيح ! بل إن المسيح لن يكون صاحب رسالة كبيرة إذا كان جميع ما أتى به موافقا لما سبق أن حكم به أرسطو وأفلاطون وإذا كانت الفلسفة الإغريقية تسير على هذا الوضع الكنسى فإن شروح ابن رشد وأضرابه لما قد فاجأت أوربا بالطريف ! ودفعت بالأنظار المتطلعة إلى أفق جديد .

وقد منيت الفلسفة الإسلامية باضطهاد أليم من الرأى الغربى العام ، إذ تواطأ أكثر الباحثين على أنها نقل وترديد لفلسفة الإغريق فهم يرددون ما عبر عنه (ألفريد جيوم) فى تراث الإسلام حين قال : « إن الشعوب الناطقة بالضاد لم تفعل شيئا أكثر من أنها استولت على الفلسفة اليونانية التى كانت شائعة بين المسيحين من أهل سوريا والمثقفين من أهل حران والوثنيين ، ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من فارس والهند وإن من الحق أن نرد الفلسفة العربية فى مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التى غزاها العرب وأن نعتبر الفلسفة اليونانية المعين الذى استقوا منه مذهبهم » .

وقريب منه قول (أرنست رينان) : « ومن عجائب القدر أن هذا الجنس السامى الذى استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة فى أسمى درجاتها لم يثمر أدنى بحث فلسفى خاص وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباساً صرفا جدباً وتقليداً للفلسفة اليونانية ! ! » .

إلى أمثال هذين الرأيين لعشرات الباحثين

مما تفيض به صفحات القوم ، دون إنصاف وتحقيق ، والردعليها واضح صريح لايستقيم بالباحث فى شعاب وعرة منقطعة تكتنفها الأشواك والصخور ، بل يدعوه إلى قراءة ما أنتجه فلاسفة الإسلام حين تمسكوا بحرية الفكر التى دعا إليها القرآن ونأوا عن التقليد الفاضح الذى عابه الإسلام فناقشوا فى علم الكلام ما يتعلق بالأزل والأبد وحرية الإرادة وأفعال العباد وقدرة الله ، مناقشة تعتمد على الدليل العقلى اعتماداً أساسياً فإذا استندت إلى النص فذلك استئناس لا استدلال وقد انتقلت مؤلفات أرسطو وأفلاطون إلى الأوربيين محاطة بالفكرة الإسلامية وبشروح المفكرين من أمثال ابن سينا والفارابى وابن رشد ! وبهذه الشروح أطل العالم الأوربى على نمط جديد غير مألوف ! واستيقظ من سباته ليرى موقفين متضادين: موقف الكنيسة حين تجعل العقيدة المسيحية مبدأ لكل بحث فلسفى ، وموقف فلاسفة الإسلام حين يحتكمون إلى المنطق بحججه وأقيسته مجرداً عن كل فكر سابق !! هذا الموقف الجرىء قد دفع بالفلسفة الإغريقية دفعة جديدة إذ طرد عنها شبح الكنيسة وأصبحت بشروح العرب ذات اتجاه جديد ! وإن كان من الفلاسفة الإسلاميين من خالفوا الجمهور فى بعض الأصول فذلك شىء طبيعى لا بد أن يتمخض عنه اختلاف العقول ، وتباين النظرات ، وهو مما يشير إلى الحرية التامة حين تكتسح القيود والأسوار .

نستطيع بعد هذه الإلمامة أن نتابع تأثير ابن رشد فى أوربا الغربية ، فنرى أنه برغم قلة تأثيره فى المشرق أو فقدان تأثيره على وجه التحديد إذ ذاك ، قد نال أكبر شهرة عند اليهود باعتباره شارحا لكتب أرسطو فكانت شروحه تنقل إلى اللاتينية على أنها نصوص يقينية ، ومن أشهر مقدريه معاصره الشهير (موسى بن ميمون) إذ بذل أكبر جهد فى إنشاء مدرسة رشدية ونقل شروحه إلى العبرية واللاتينية ، غير أننا نرى (باريس) فى حياة ابن رشد تتأثر بالمناهج العربية إذ تصبح مركزاً للفلسفة المدرسية ثم تمتد بها الأيام فتصبح فى مطلع القرن الثالث عشر حومة جدل فلسفى ينهج نهج المسلمين ، ويصل صداه إلى الدوائر الكنسية فتصدر قراراتها بتحريم الترجمات العربية والاكتفاء بالترجمات القديمة ، ومعنى ذلك أن تدور الفلسفة الارسطالية فى نطاق المسيحية من جديد ! وأن تبتعد شروح العرب ذات الفكر الاستقلالى والطابع الحر الفريد .

وكان من المصادفات أن يقبوأ فردريك الثانى امبراطورية صقلية سنة ١٢١٥ ، ومع اشتراكه فى بعض الحملات الصليبية إلى الشرق

فقد كان عدوا من صفوف الأصدقاء - إن جاز هذا التعبير - فقد اتصف بصفات رائعة قل أن تجتمع فى إنسان فهو يجيد ست لغات وينظم الشعر، ويعجب بفنون التصوير والنحت والموسيقى ويؤلف فى علوم الحيوان والطير ويشذ عن تقاليد الكنيسة فيميل إلى التسامح الدينى ويجمع فى بلاطه اليهودى والمسيحى والمسلم، وقد عشق الشرق فعاش عيشة رجاله يتكلم العربية، ويناقش مفكرى العرب وينأى عن التعصب فى جرأة وثورة، وكان شديد الإعجاب بفلاسفة المسلمين الذين يقرأ كتبهم فى لغتها العربية، ويظهر عطفا كبيرا على أساليبهم فى البحث والتفكير حتى تشيع لأكثر ما نادوا به من معتقدات مما اضطر (البابا) إلى تكفيره وإعلان مروقه، وقد أسس فى سنة ١٢٢٤ جامعة (نابولى) وجعل مهمتها الأساسية أن تدفع العلم العربى إلى أوربا فوضعت المترجمات على يد أساتذتها من العربية إلى اللاتينية وانتدب بعض أساتذتها إلى زيارة طليطله سنة ١٢١٧ لنقل شروح (ابن رشد) على كتب أرسطو وترجمتها.

وقد قام الأساتذة الموفدون برسالتهم وأعانهم على تحقيقها نفر من أحبار اليهود ممن تتلمذوا على آثار ابن رشد وهتفوا بفلسفته.

وقد نقد الأستاذ ديلاسى أوليرى المستشرق الانجليزى فصلا طويلا عن أثر الفلسفة العربية فى المدرسة اللاتينية بكتابه الشهير (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ)، ترجمة (الدكتور تمام حسان) تحدث فيه عن أثر الفلسفة الرشدية وأطوار تأثيرها حديثا مسلسلا يؤرخ خطوات هذا التأثير على مدى الأحقاب المتتالية حتى ينتهى بها إلى وضعها الراهن فى الفلسفة الحديثة، فيذكر أن القرن الثالث عشر قد أكمل ترجمات آثار (ابن رشد) الفلسفية إلى اللاتينية جميعها.

وقد ذاعت على أيدى مؤيديه ومعارضيه جميعا، فالمؤيدون يبسطون ما قال الفيلسوف العربى، والمعارضون يحاولون تفنيد آرائه بعد أن يبسطوها بسطا واضحا فتشتهر وتذيع، بل أن أحد هؤلاء المعارضين يضطر إلى نقل كتاب (تهافت الفلسفة) للغزالى محاولا أن يفحم به آراء (ابن رشد) وكأنه يعتصم بالأفكار الإسلامية حين أعوزه أن يثبت للرجل الكبير!

وقد التفت الأستاذ ديلاس اوليرى إلى نقطة عجيبة حقا حين قال ص ٢٩٣ ترجمة الدكتور حسان: «وكأن ثمة حداً فاصلا بين ابن رشد الشارح الذى عومل باحترام كبير كشارح لنصوص أرسطو وبين

ابن رشد الفيلسوف الذى كانوا يعتبرونه ملحداً وتبدو المسألة كما لو كان ثمة سياسة متعمدة للوصول إلى أرسطو عن طريق التضحية بالشراح العرب » .

ومعنى هـــذا أن شروح ابن رشد على أرسطو مقبولة لأنها فى وجهة نظرهم تمثل الفيلسوف اليونانى ، أما آراؤه الخاصه فرفوضة لأنها تمثل الفيلسوف العربى ، وهـذا الفهم على غضاضته الخلقية ودلالاته النفسية خطىء مضحك ، لأن شروح ابن رشد لا تمثل أرسطو وحده ولكنها تمثله فى مرآة ابن رشد ، والفرق بعيد بينها وبين الترجمة ، إذ أن الترجمة نقل خالص ، أما الشرح فتفسير وتحليل وتعليل ، وكثيراً ما يفهم الشارح أقوال غيره من وجهة نظره فهو ذو شخصية واضحة منفصلة فى التصور والإدراك والتعليل ! !

فالذين يحترمون ابن رشد الشارح بحجة أنهم يبحثون عن أرسطو قبل كل شىء قد أخطأهم السبيل ، وهم فى حاجة إلى من يقول لهم لقد فرض عليكم الشارح نفسه مفكراً وفيلسوفا وهذا ما تحذرون ! !

أما إذا كانت هناك سياسة متعمدة الوصول إلى أرسطو عن طريق التضحية بالشراح العرب فإن هذه السياسة لم تتحقق على وجهها المنشود لأن هؤلاء الباحثين عن أرسطو لم يتح لهم أن يجدوه من غير طريق العرب ! حتى أنهم حين عثروا بعد ذلك على النصوص الأغريقية الأولى فى لغتها اليونانية لم يستطيعوا فهمها إلا بالشروح العربية مقارنة وتحليلا إلى أن مضت مدة طويلة فهمت فيها هذه النصوص الأغريقية فهما تنوسى معــــه ما ساعد على توضيحه من شروح ابن رشد !

* * *

والذين يتحدثون عن أثر الأندلس فى اليقظة الأوربية فى غير مجال الفلسفة من المجالات الحضارية والفنية لا يواجهون صعوبة كبيرة فى توضيح دورها الكبير حيث تبدو الحقائق سافرة غير ملتبسة ، ولكنهم حين يتحدثون عن أثر الأندلس فى مجال الفلسفة يجدون من يلبسون عليهم القول متعللين بأن قصارى جهد . فلاسفة الإسلام أنهم تراجمة ناقلون ، أو شراح مفسرون أو هم يتعمدون إخفاء ما يعرفونه من الحقائق فى فلسفة الإســـلام إذ أن أسلوب مفكريه فى البحث الفلسفى قد تميز فى علم الكلام تميزاً يصعب إنكاره ، فهو إسلامى الوجهة والروح والمشرب ، وإن اصطنع سبيل الفلسفة فى البرهنة والاستدلال فذلك مما يمس الشكل الخارجى فى ترتيب الجدل ومسافه .

أما حقائقه الجوهرية فإسلامية خالصة جاء بها دين يرتكز على العقل ويدعو إلى الحرية والتفكير فى ملكوت السموات والأرض، وقد استطاع الأستاذ (ت. ج. ديبور) مؤلف تاريخ الفلسفة فى الإسلام أن ينصف المسلمين بعض الإنصاف حين تعرض لتحديد ما سماه فضل المسلمين على الفلسفة النصرانيـــة فى العصور الوسطى فقال فى ص ٢٨٦ نقلا عن ترجمة الدكتور أبى ريدة :

« أما أهم أثر للعرب فهو أن النصارى بعد قراءتهم لمؤلفات العرب ولا سيما ابن رشد صاروا يرون فى نظريات أرسطو رأيا خاصا فاعتبروها الحقيقة العليا، ولم يكن بد من أن يقضى هذا، إلى تصادم بين علوم العقائد والفلسفة أو إلى إحراج بينهما بل كاد يؤدى إلى إنكار العقائد الكنسية وإذن فقد كان تأثير الفلسفة الإسلامية على تطور العقائد الكنسية فى العصور الوسطى حافزاً من ناحية وعاملا على الهدم من ناحية أخرى، لأن علم الكلام والفلسفة لم يستطيعا أن يسيرا فى العالم النصرانى مستقلين كل على جادته لا يتعرض لصاحبه كما قد حدث عند مفكرى الإسلام ثم أن علوم العقائد النصرانية كانت فى القرون الأولى من نشوئها قد أفرطت فى أخذ الفلسفة اليونانية حتى أصبح الانفصال بين الدين والفلسفة غير ممكن بل كانت تستطيع فوق هذا أن تهضم أشياء قليلة أخرى وكان هضم الفلسفة اليونانية أسهل على العقائد الإسلامية البسيطة التى ليس فيها كثير من الآراء الفلسفية منه على العقائد النصرانية المركبة بما فيها من فلسفة ... الخ » .

وهكذا كان انتشار الفلسفة الإغريقية على يد العرب ترجمة وشرحاً وتعليقا تمهيداً لقيام النهضة فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر إذ بدأت الفلسفة تؤتى ثمارها فتوجه العقل الأوربى توجيها جديداً يستند إلى حرية الفكر، وشعور الإنسان بشخصيته واقتـــداره على التفكير الذاتى مستقلا عن غيره، وقد ذهب فى هذه الحرية إلى أبعد مدى حتى تصدى لفلسفة أرسطو نفسها فنقدها وكشف عن ثلومها ! وامتدى إلى فلسفة حديثه أنتجت مفكرين قادة وفلاسفة مصلحين، وانتقلت بضوابطها وأهدافها إلى الأدب الخالص فبسطت آفاقه وعمقت مجراه، وجعلته وليد تأمل دقيق وتحليل نافذ كشاف .

محمد رجب البيومى
المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

اتجاهات الثقافة فى الشرق العربى

للأستاذ محمود فرج العقدة

إن من المسلم به أن كل إنسان مسئول بفطرته ووجدانه - إن كان ذا فطرة مستقيمة ووجدان سليم - عن سعادة المجتمع الذى يعيش فيه ، ويدين له بحاضره وماضيه ، بل عن سعادة البشرية جمعاء - إن وجد إلى ذلك من سبيل وبدهى أن ذلك إنما هو بعد مسئوليته عن إسعاد نفسه فى دنياه وآخرته - إن كان يتصور أن بين السعادتين شيئا من الانفصال ، إذ أن كل واحدة منهما عند التأمل الصادق ، والنظر القويم إنما هى انعكاس للأخرى أو أثرها حتى كأنهما شىء واحد أو أمر سواء .

ولا سبيل لتحصيل السعادة كالعلم ، بل لا سبيل لها سواه ، وكيف لا وهو الميزة الظاهرة للإنسان على ما سواه حتى لقد جعله الله حجة على ملائكته فى استخلاف الإنسان فى الأرض كما قص علينا نبأ ذلك فى كتابه إذ يقول : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، إلى قوله : قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (١) » .

وبالهدى والعلم أرسل المرسلون ، وقام الدعاة والمرشدون ، ومضى على سننهم المصلحون .

وقد خالط العلم فى القديم والحديث فنون من الجدليات والأوهام موه بها على الناس الحق أقوام يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإنه لمن أوجب الواجبات علينا معشر المربين أن ننفى هذه الجدليات والأوهام عن ساحات العلم قبل أن تعصف بالبقية الباقية من عقول الناشئة ، أو أن تأتى عليها إتيان النار على الهشيم .

ومن الحق علينا لهذا الشرق العربى أن لا نشغل ناشئته التى هى معقد الأمل ومناط الرجاء إلا بما هو أشبه العلوم به ، وأوفقها له ، وأهداها إلى سبله ، وأبلغها تأثراً به ، وتأثيراً فيه . وأول ما يلفت النظر من ذلك أنه مجتمع روحى المذاهب والمشارب ، سماوى الشمائل والمشاعر ، ليس عنده من الجنوح إلى المادة ، ولا الجموح مع الباطل ما عند غيره من عباد المادة المسرفين ، وأشياع الباطل المفرطين ، وليس من خلقه أن يتخلى فى سهولة ويسر عن هذه الشيم والمكارم ، والمآثر والشمائل التى توارثها

---

(١) سورة البقرة الآيات ٣٠ إلى ٣٢ .

عن آبائه الميامين وأسلافه الماجدين ، وبهذا نستطيع أن نعود به تارة أخرى إلى أمجاده الأولى يوم غمر الآفاق بباهر سناه الذى بدد الظلمات ، ومحا الجهالات ، ووصل ما انقطع بين الأرض والسموات .

فهذا الشرق العربى محتاج منا دائما لتستقيم له الحياة - إلى الإمداد والإسعاد بالغذاء الروحى الذى يغذو قلبه ، ويروى ظمأه ، ويذكى مشاعره ، ويجلو بصائره ، وينير له سبله إلى كل مايصبو إليه بفطرته من مثل وما يهدف إليه من غايات .

وليس سوى التعليم الدينى الخالص من غذاء ورى لهذه القلوب وتلك الأرواح ؛ وإن حرمانها من ذلك ، أو شىء منه إنما هو كحرمان الأرض الطيبة من الغيث ، أو الروض النضير من الطل ، أو السماء الصافية من الضياء .

ولا نقصد بالتعليم الدينى ما يجرى مجرى الحفظ والتلقين بلا تدبر ولا وعى ، وحاشا لنا بعد ما عرفنا من آيات الله الحاثة على النظر والاعتبار ، والتأمل والادكار لمعرفة آيات الله فى خلقه ، وسنته فى كونه ، وآثار رحمته على عباده ، ومظاهر قدرته وإبداعه ؛ لنستكمل بذلك ديننا ، ونستتم به مقوماتنا ، ولنكون بعد ذلك أهلا للدعوة إلى الله على بصيرة وبينة ، وقادة للبشرية إلى سعادة الدنيا والآخرة ؛ وكيف نفهم أن التعليم الدينى مجرد تحصيل وتلقين ، وكتاب الله لا يزال يدعونا إلى التأمل البعيد فى ملكوت السموات والأرض ، والنظر السديد فيما خلق الله من شىء بمثل قوله جل شأنه : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (١) » وبمثل قوله : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات الأرض وما خلق الله من شىء (٢) » وبمثل قوله : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق (٣) » إلى أن يحض على النظر فى أحوال النفس ، وما فيها من عجائب الخلق إذ يقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون (٤) » وإنى لأرى أن الحض على إعمال النظر فى دلائل وجود الله وقدرته فى هذه الآثار حض صريح على الأخذ بما يعين عليها من شتى العلوم الكونية والطبيعية ؛ بل أرى أن هذه النظرات الصادقات فيما لله فى كونه من من شواهد وآيات هى أبين تفسير لكتاب

(١) سورة البقرة آية ١٦٤ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٨٥ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٢٠ .
(٤) سورة الذاريات آية ٢١ .

الله العظيم ، وأقوى برهان على أنه من عند الله رب العالمين ، وأعظم هاد بعده إلى مبدع الكائنات ، وفاطر الأرض والسموات .

وفي كل تحريكة وتسكينة في الورى شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولقد سمعت ممن أدرك الإمام الشيخ محمد عبده من شيوخ شيوخنا رحمهم الله - أنه رأى بعض علماء الكونيات من الألمان يخر مغشيا عليه إذا ذكر أمامه اسم الله - جل شأنه - وذلك يوشك أن يكون مصداقا لقوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فإن سياق الآية يشير إلى أن العلم بآثار قدرة الله يؤدى إلى تلك الحال ، فإن هذا السياق هو قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ... [1] » .

أما ثاني ما يلفت النظر ، وينبغي أن يكون موضع العناية والاهتمام في هذا الشرق العربي فهو هذه العلوم الطبيعية التي تفرضها علينا أسباب الحياة والسلامة ، والقوة والمنعة في بيئتنا التي ظاهرها العسر والجدب ، وباطنها اليسر والرخاء ، بل الأمل والرجاء ؛ فإن معظم كنوزها لا يزال بكرا لم يفتض ، وعروسا لم يكتب لها الجلاء ؛ وباكتشاف هذه الكنوز بأيدينا ، واستخراجها بسواعدنا نستطيع أن نسعد في بلادنا كل شقي ، ونطعم كل جائع ، ونسد حاجة كل محتاج ؛ بل نستطيع ما هو أعلى من ذلك وأغلى ، وهو أن ندفع بوثبتنا العربية الناهضة إلى مكان الصدارة في العالمين ، كما كان ذلك شأننا يوم استخلفنا الله في الأرض كما وعدنا في كتابه إذ يقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » ويوم جعل لنا السناء والرفعة فيها مصداقا لبشارة نبيه صلى الله عليه وسلم إذ يقول لبعض أصحابه : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والتمكين في الأرض » . فنحن إذن في أمس الحاجة إلى دراسات عملية بحتة بعد الدراسات الروحية الحقة ، يوجه إليها جميع شبابنا الأكفاء في شئون استخراج المعادن ، واكتشاف المناجم ، وإدارة المصانع ، وصناعة الآلات ومن الظلم الفادح لمستقبل هذا الشرق العربي وهو لم تندمل جراحه بعد من آثار مخالب الاستعمار أن تصرف همم أبنائه ومواهبهم إلى أنواع من الدراسات الأجنبية فلسفية أو أدبية لا تتصل بقوميته ، ولا تتجاوب مع

(١) سورة فاطر آية ٢٧ و ٢٨ .

مشاعره ، ولا تنمى من فضائله ، ولا تعينه على الانتفاع بكنوزه وذخائره ، ولا تذكره بأمجاده ومآثره ، ولا تجعله فى منعة عقلية أو روحية من حبائل الاستعمار ومكايده ، وشراكه ومصايده . وإنى لأتساءل متعجبا ما وجه الحاجة إلى هذه الفلسفات الأجنبية ، أو مذاهب النقد الأوروبية التى تلقى بأوزارها وأثقالها على كواهل مبادئنا الروحية وآدابنا العربية القومية ؟ وأى لغو وعبث بعد هذا نفنى فيه أوقات أبنائنا وعقولهم ، ونضيع فيه مواهبهم ، واستعداداتهم فى زمن أصبح تاريخ الأمم يكتب فيه بالأيام لا بالأعوام ، وبالشهور لا بالعصور ، وأصبحت القوة فيه أثرا من آثار الابتكار والاختراع ، ومظهرا من مظاهر الثراء والرخاء ، وأصبح فيه أمل الإنسانية فى البقاء منوطا بالإيمان بمن بيده وحده أن يكف البشرية عن نفسها ، ويحول بين سكان الأرض وبين ختم تاريخها ، وطمس معالم الحياة فيها ؟ ! وهو على ما يشاء قدير ؟

محمود فرج العقدة

المدرس بجامعة الأزهر

لسان حال اللغة العربية

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

حافظ إبراهيم

ومن أضاع تراثا من أبوته ... لم يستفد من سواهم قدر ما فقدا

أحمد الزين

نهضة العالم الإسلامى

للدكتور محمد مختار القاضى

يحضرنى وأنا أكتب هذا المقال قصة وردت فى كتاب كليلة ودمنة ، فى باب الحمامة والثعلب ، ومالك الحزين .

ومؤدى هذه القصة : أن حمامة كانت تفرخ فى رأس شجرة ، حتى إذا كبر فراخها ، صار يأتيها ثعلب فيقف فى أصل الشجرة ، ثم يصيح بها ويتوعدها لتلق إليه فراخها فتلقيها ، خشية أن يصعد إليها فيأكل فراخها ، ويأكلها هى أيضا . وفى ذات يوم شكت إلى مالك الحزين ما هى فيه ، فنصحها بألا تلق فراخها للثعلب ، فإذا صعد إليها ، ولن يصعد أبدا ، طارت هى ناجية بنفسها ، وخلفت فراخها للثعلب ، ولن تخسر شيئا ، ففراخها مأكولة على كل حال . فلما أخبر الثعلب بمقالة مالك ، لم يستطع أن يصعد ، وأمنت الحمامة ، وفراخها بقية أيام حياتها .

هذا بعض ماورد فى كتاب كليلة ودمنة ، وهو قول ينطبق على قصة العالم الإسلامى وصلته بالعالم الغـــربى الذى استغل المسلمين واستعمر بلادهم أكثر من قرن من الزمان .

لقد استغل الأوروبيون العالم الإسلامى وسخروه لمصالحهم المادية إلى أن أصبح حطاما ، وعظاما نخرة ، حتى إذا ماهم برفع رأسه هددوه بالحديد والنار والخراب والدمار .

وكان هذا العالم الإسلامى يخشى سطوة العالم الغربى وحده وناره ويحسب ألف حساب لتهديده ووعيده .

وكان زعماء المسلمين المخلصين فى حاجة إلى رأى مالك الحزين ليكشف لهم عن حقيقة قوة الثعلب الغربى ، ويقنعهم بأن هذه القوة ليست سوى تهديدات لا تضر ولا تنفع .

وانتظر العالم الإسلامى زمنا طويلا دون جدوى ، ولا طائل . إلى أن أعلن الرئيس العربى جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس ، وأعلن الفرسان الثلاثة حرب بور سعيد سنة ١٩٥٦ وما صحبه ذلك من استيلاء مصر على القاعدة البريطانية ، وبذلك قطع ذيل الأسد البريطانى فولى هاربا إلى غير رجعة ، منسحبا من مصر ومن ورائه المروضة الفرنسية ، واللبوة الإسرائيلية .

لقد كان هذا التاريخ نهاية عهد غامض ، تكتنفه الرهبة والفزع من ذلك الأسد الذى

كان الاستعمار الأوربى يخيف به الجانب الشرقى من الكرة الأرضية عامة ، والوطن العربى الإسلامى خاصة .

وكان هذا التاريخ نفسه بداية عهد جديد انكشفت فيه حقيقة التهديدات الغربية فأصبحت سافرة العيان ، لا غموض فيها ولا لبس ، وانكشفت ألاعيب الاستعمار الغربى فلم تصبح لغزا فى نظر الشرق ، ولا معجزة من عند الله .

فإلى هذا التاريخ كان الناس جميعا يعتقدون أن تحت القبة الغربية شيخا باتما سره ، نافذا أمره فى جميع منطقة الشرقين : الأوسط والأقصى وأن هذا الشيخ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .

وكانت هذه العقيدة راسخة فى عقول الناس كالطود الثابت ، تأخذ عليهم جميع تفكيرهم ثم تنتهى بهم إلى اليأس القاتل .

وكان هذا الشيخ الغربى يعوذ نفسه تارة بالإنذارات الصارمة ، وتارة أخرى بتحركات الأساطيل فى البحرين ، وثالثة بأزيز الطائرات فى السماء الصافية فى البلاد العربية والإسلامية فترجف قلوب النساء والأطفال ، وتهتز عروش الأمراء والملوك حذر الموت ، أو الحرمان أو الطرد وما شابه ذلك .

ولكن حرب بور سعيد أثبتت للعالم الشرقى عامة ، والعربى الإسلامى خاصة أن هذا الشيخ كان رجلا صاحب دجل ، ونصابا ذا حيل ، وأنه كان يركب الأسد ليخيف به الناس ، وهو أشد منهم خوفا ورعبا ، فما أن انقطع ذيل الأسد حتى هرب ملقيا بأصحابه فى الرغام ، وما أن ظهرت للناس حقيقة قوتهم حتى بدءوا يتألبون عليهم دولة فى إثر دولة وشعبا فى إثر شعب .

فهذا الانجليزى إيدن الذى أسقط ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية قد لقى مصرعه السياسى على يد الرئيس العربى جمال عبد الناصر .

وهذا ديجول الذى كان له شرف احتلال ألمانيا فى الحرب ذاتها ، فقد شرفه العسكرى عندما فقد درة الامبراطورية الفرنسية « الجزائر » على يد أحمد بن بيلا .

ولست أريد أن أعدد ما فقده الانجليز والفرنسيون من مستعمراتهم الإسلامية ، فهذا يريد وقتا أطول وورقا أكثر مما تستوعبه هذه الصحيفة ، ولكنى أريد أن أقول : إنه إينما تولوا فثم وجه من أوجه النهضة الإسلامية .

لقد انقشع كابوس الإستعمار ، وما بقى إلا أن يتعقب أهل هذا الوطن فلوله المتناثرة وجيوبه المستترة ، وأن يشدوا على رقبته وأن يأخذوه أخذ عزيز مقتدر .

وقد بدأ ذلك يحدث فعلا ، وإن هذه

المؤتمرات التى تعقد فى الوطن الإسلامى لدليل على أن القوم عندنا قد غيروا ما بأنفسهم ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ودليل على اقتناع العالم العربى الإسلامى أن التهديد الذى كان يقع على رءوسهم، وعروشهم كان تهديداً لا يخفى تحته قوة حقيقية متساندة الأركان ، وإنما كان مجرد ألعاب سحرية لا تبهر إلا الأطفال أثناء طفولتهم ، فلما كبروا عرفوا أن قوة الساحر ليست مستمدة من قوة إنس ولا جان ، وإنما هى خفة يد لم تلبث أن تبينت تحت الفحص الدقيق .

من كان يعتقد أن العالم العربى يجتمع بملوكه ورؤسائه أكثر من مرة ليرسم طرق الدفاع عن الكيان العربى ، وينفذها على الفور متحدياً أكبر الدول الاستعمارية فى العالم الغربى ؟ ماذا تغير فى العالم العربى ؟ أنا لا أعتقد أن قوتنا العسكرية قد وصلت أو قاربت القوة العسكرية لحلف الأطلنطى ، ولكن الذى تغير هو طريقة التفكير التى أدت بنا إلى كشف الأفكار الخاطئة عندنا وعند خصومنا

أما عندنا فقد انتهينا إلى كشف سر نجاح الشعوب ، إنه لا يكمن فى القوة العسكرية وحدها ، ولكن للنجاح طرقا أخرى غير القوة العسكرية .

إننا نملك موارد ، وطرقا برية وبحرية وجوية يحتاج العالم الغربى أن يتحالف مع أصحابها ليظفر بالأمن والدعة ، وإن حسن استغلال هذه الموارد والسيطرة عليها يعطينا من القوة أكبر مما تعطى القنبلة الذرية والهيدروجينية ، والميكروبية ، وقنبلة الكوبلت معا ، ذلك بأن وسائلنا هى للبناء والإنشاء ، ووسائلهم للهدم والدمار.

وأما عندهم فقد كشفنا أنهم ـ وإن سموا نفسهم حلفاء فى الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ـ فإنهم لا يملكون من صفة الحلفاء إلا مظاهر مؤقتة تدفعهم إليها الحاجة عند الحروب الكبرى ، فإذا انتهت الحرب عاد الحلفاء أعداء يتربص بعضهم بالبعض ، ويكيد بعضهم لبعض وقد رسم لهم هذه السياسة ماكيافيلى منذ أكثر من قرن فى كتابه الأمير .

ولم يكن ماكيافيلى هذا مجتهداً ، ولا مجدداً وإنما كان مؤكداً لأخلاق سبقت ، وعادات عرفت منذ الحروب الصليبية ، وإن هذه المدنية الغربية التى تفخر بالكهرباء والذرة وإخضاع البر والبحر والجو ، تعجز فى الحقيقة عن تحقيق شئ من المثل العليا .

فالاستعمار ذاته هو أكبر عار فى جبين المدنية الغربية ، وهذه الحروب العالمية فى كل ربع قرن ، والحروب المحلية الدائمة أكبر دليل على الوحشية الغربية ، وهذا

التمييز العنصرى الذى تجده فى أكبر الدول الداعية إلى المساواة ، والمتبنية لحقوق الإنسان أكبر مظهر من مظاهر الردة إلى البربرية القديمة .

ما أعتقد أن هذه المدنية الزائفة سوف يطول عمرها ، إنها قد قاربت الشيخوخة وإن تجملت بالأصبغة، والمساحيق. والحقن لتظهر أمام العالم بمظهر الشباب . والشباب ولى إلى غير رجعة .

سوف يتقهقر العالم المادى لأن رسالته فى الحقيقة لا تصلح لإقامة حياة سعيدة .

وهنا يجب أن يتهيأ العالم الروحى ؛ ليقود ركب الحضارة ، وينير الطريق أمام بنى الإنسان وإن القيم الروحية النابضة بالحياة لا تجدها إلا فى الجانب الشرقى من هذا العالم ، وهى قيم لا تزال سليمة لم يداخلها زيف ، ولا دنس ولم يلوثها رجس المادة وأوزارها .

لقد بدأت هذه القيم الروحية دورها وهى الآن تتجمع وتشتد وتتكتل ، وعندما تصل إلى منتهاها سوف تنقض لتقود البشرية التى امتهنها العالم الغربى قرونا منذ أن تسلم قيادتها من العالم الإسلامى أواخر العصور الوسطى ، فلم يحسن هذه القيادة وألقى بالبشرية فى حالة من الاضطراب والقلق تدعو إلى الأسف المرير .

دكتور محمد مختار القاضى

مصر والقضية العربية

سألنى فنان صهيونى : لماذا يهتم المصريون بمشاكل العرب... ؟

فاستغربت سؤاله ، ولم أكتمه أنه سؤال غريب ، فعاد يسأل : وما وجه الغرابة فيه . ؟

قلت : وجه الغرابة فيه أنك تنتظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومى فى فلسطين ، وتحسبه من الأمور الطبيعية التى لا تحتمل السؤال والاستفسار ولكنك تستغرب من العرب المتجاورين أن يهتم بعضهم ببعض ، وهم مضطرون إلى هذا الاهتمام ؟

عباس محمود العقاد

ليلة الإسراء والمعراج ﷺ

للأستاذ أحمد حنفي نصار

أراد الله العلي الكبير أن يمنح رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من واسع فضله وأن يكرمه بمشهد من علية خلقه فكانت الليلة المشهودة ، وهي ليلة الإسراء والمعراج . وقد وقعت للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو في السنة الحادية والخمسين من عمره المبارك ، قبل هجرته عليه السلام بنحو ثلاث سنين .

وكان الله الذي عصمه ورعاه ، أراد أن يخفف عنه المتاعب النفسية التي خلفتها الأعباء الجسام التي ناء بها أكثر من عشر سنين ، وهو يواجه قومه برسالة ربه مع عنتهم ولجاجهم العنيف ، وأن يشرح صدره ويزيده قوة روحية ، وثباتا نفسيا ، ولكي يعلمه بما يدله على قدره عنده ، ومكانته العالية لديه ، فتطيب نفسه ، ويطمئن قلبه بما يرى من آيات ربه الكبرى .

أسرى به الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فجاءه جبريل عليه السلام ومعه البراق ، ليكون مطية الرسول صلى الله عليه وسلم في ليلته الغراء - وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى بصره - فركب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وجبريل عليه السلام من حوله في سفرته . فرأى في سراه من آيات ربه ما رأى ، حتى وصل إلى المسجد الأقصى المبارك فنزل عنده ، ثم دخل المسجد حيث جمع الله له إخوانه الأنبياء ، وقدمه جبريل عليه السلام عليهم فصلى بهم إماما ، ولا عجب فهو المحتفى به وهو خاتمهم ، وأكرمهم على الله في الدنيا والآخرة ، وصاحب الشريعة القائمة العامة . الكاملة الدائمة . وأمته خير أمة أخرجت للناس .

وإذا كان الله قد كلم موسى عليه السلام فقد كان موسى في أرض سيناء على جبل الطور عند المناجاة ، ولم يرق إلى السماء ولما طلب الرؤية أخبره الله بأنه لن يراه كما يفهم من قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر

مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ».

وإذا كان عيسى عليه السلام قد طلب مائدة تنزل من السماء ، فاستجيب له ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد نبع الماء من بين أصابعه ، وبارك الطعام القليل فكفى الكثير حتى شبعوا وبقي من الطعام فضل.

وإذا كان عيسى عليه السلام قد أحيا الموتى بإذن الله فلم يك ذلك خصوصية له فقد سبقه إلى مثله إبراهيم عليه السلام بإحياء الطير كما يفهم من قوله : « قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا » وكذلك عادت الحياة إلى قتيل بني إسرائيل لما ضرب ببعض أجزاء البقرة بأمر الله في عهد موسى قبل مبعث عيسى عليهما السلام « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ».

وحقا إن ما كان الأنبياء قبل محمد عليهم السلام من معجزات ، له قدره وخطره في تأييد الله إياهم لكن ذلك لا يرقى إلى الإكرام السامي الفريد الذي كان لمحمد صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج ، لأنه تشريف لذاته ، وبما أجرى الله له من معجزات أخرى حسية ومعنوية متلاحقة لم تجتمع لغيره من النبيين ، وناهيك بتلك المعجزة الكبرى التي غطت على كل معجزة وهي القرآن الكريم ، القائم شاهد عدل على كمال شريعته ، وصدق رسالته ، محفوظا كما أنزل باقيا منار هدى على تعاقب الأيام واختلاف العصور إلى يوم الدين.

هذا وما استقر المقام بالرسول صلى الله عليه وسلم في بيت المقدس ، حتى عرج به إلى السموات السبع فرقى فيها ، والملائكة يرحبون بمقدمه في كل سماء ، ماراً بالأنبياء على منازلهم حيث وجدوا من السموات حتى وصل إلى سدرة المنتهى.

وكثير من السادة العلماء الذين تكلموا عن الإسراء والمعراج يفرقون بينهما في أدلة الثبوت وما يترتب عليه من أحكام فيقولون : إن الإسراء قد ثبت بصريح القرآن في أول سورة الإسراء إذ يقول الله تعالى « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ولكن المعراج المنير قد ورد ذكره في السنة النبوية الصحيحة فحسب.

ولست أدري لم هذه التفرقة ؟ وكيف أغفلوا النظر في قول الله تعالى في سورة النجم « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى

عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . وهذه الآيات تبين لنا بوضوح أنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها عند الشجرة أعلى السموات حيث ينتهي علم الخلائق ، وعندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة من الأنوار ما شاء الله أن يغشى . فكيف يتصور أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم تلك العجائب وهي أعلى السموات دون عروج ورقى إلى تلك الآفاق السامية ! وهل بعد هذا يمكن أن نفرق بين الإسراء والمعراج في الثبوت ، وما يبنى عليه من أحكام ، خصوصاً مع ما ورد من ذكر المعراج مفصلا في الحديث النبوي المبسوط في الكتب الصحاح ؟ !

ثم عاد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد جولته في السموات إلى بيت المقدس ، ومن ثم رجع إلى مكة المكرمة بعد أن رقى أعلى المنازل ، وسما فوق كل الدرجات ودخل الجنة ورأى ما فيها ، وغشى بالأنوار . ووقف حيث سمع صريف الأقلام ، وانحسرت عنه كل العوالم من ملك وإنس وجان .

فلما أصبح في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته ، فاشتد تكذيبهم له . وأذاهم إياه ، واستضراؤهم عليه . حتى إن جماعة ممن كانوا قد أسلموا ارتدوا . ويؤخذ من هذا أنه عليه السلام أخبرهم : بأنها رؤية بصرية رآها في يقظته ، وإلا لما كذبه أحد ، لأن من يرى في المنام الخوارق ما يكذبه أحد ولا ينكر عليه .

والله تعالى قد بدأ الإخبار عن الإسراء بالتسبيح ، والتسبيح لا يكون إلا في الأمر العظيم الخطير ، ولو لم يكن الإسراء يقظة ما كان أمراً عظيما . كما أنه جل جلاله قال « أسرى بعبده » ، والعبد يطلق على الشخص بجزأيه الجسم والروح معاً . ولفظ العبد ورد في القرآن الكريم وهذا المعنى متعين له فقد قال الله تعالى « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب » ، والكتاب أنزل عليه يقظة كما قال تعالى « أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى » والصلاة وقعت من الرسول يقظة ، ومن نهاه من المشركين نهاه يقظة . فيكون الإسراء على ذلك قد وقع له عليه السلام يقظة ومن هنا لابد أن يكون كذلك بروحه وجسمه معاً .

وظاهر أن هذا التكريم الإلهي من خصائص الرسول الأعظم ، ومن أعلام نبوته ، وأن المقصود المتعين منه أن يريه الله من آياته الكبرى لا مجرد قطع المسافة من مكة إلى بيت المقدس

إذ ليس هذا فى ظاهره بالأمر العجيب المعجز ، لأنه يقع لمن تحمله الجن ، وقد قال العفريت لسليمان عليه السلام ، أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » . وحمل عرش بلقيس من قصرها فى اليمن إلى مستقر سليمان عليه السلام بفلسطين ليس أقل من ذلك مع فارق بسيط : هو أن الجن وإن قدروا على أن يحملوا بعض الناس ، ويطيروا بهم فى الهواء من مكان ، إلى مكان فإن المحمول لا يدرى كيف حمل، ولا يستطيع أن يدرك شيئا مما يمر به، وهو محمول، وهذا فى الإسراء فى جو الأرض ، وأما المعراج : فإن الجن لا يقدرون إطلاقا على إصعادهم إلى السماء وإراءتهم آيات الله فيها ، ولا حفظ حياتهم بعد جو الأرض المتمين بهوائه لبقاء حياة البشر.

وكذلك قال الذى عنده علم من الكتاب لسليمان عليه السلام « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » وهذا أبلغ من قطع المسافة التى بين المسجدين فى ليلة أو بعض ليلة .

ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضل من الذى عنده علم من الكتاب ، ومن سليمان عليه السلام فلابد أن الذى خص الله به محمداً صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك . ولم يحصل مثله لسليمان، ولا لغيره من النبيين عليهم السلام .

وبذلك يكون ما آتى الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليس للجن والإنس قدرة على مثله ولا يستطيع أحد التلبيس على الناس فيه . وإنما هو تكريم إلهى كبير الدلالة على أنه عليه السلام قد بلغ النهاية من الرعاية والحب والرضوان « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

أحمد حنفى نصار القوصى

تعليق ...

ينبغى أن يلاحظ أن كل المعجزات التى ظهرت على يد الأنبياء من عمل الله لا من عمل أحد سواه . فليس لنبى يد فى الخوارق التى ظهرت على يديه ، وقهرت الخارجين عليه ، وقد عرض شوقى لهذا الموضوع ، فقارن بين القرآن ، وبين غيره من المعجزات التى ظهرت على يد الأنبياء وقال :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم

آياته كلما طال المدى جدد ... يزينهن جلال العتق والقدم

« المجـلة »

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ على العماري

— ٢ —

إن الدين عند الله الإسلام :

حين كنت فى هيئة تحرير مجلة الأزهر عرض علينا بحث عنوانه (دين الله واحد) وقد آثر كاتبه أن يقدمه غفلا من التوقيع.

ونظر فيه أحد الزملاء فما كاد ينتهى من قراءة المقدمة ، حتى ألقاه أمام رئيس التحرير ، وقال : إن هذا البحث كتبه مبشر جاهل.

ولكن كاتب هذا المقال راق له أن يتم قراءة البحث ، حتى إذا رفض نشره كانت فى يده (حيثيات الحكم) ، ثم إنه رغب أن يعرف ما يقوله هؤلاء الذين يبشرون بالمسيحية من غير أهلها ، فقد كان على يقين أنه لم يكتبه رجل من رجال الدين المسيحى ، وإنما كتبه أحد الكتاب المسلمين

وفعلا قرأت البحث بإمعان ، وكتبت على هوامش النسخة تعليقات تبين ما فيه من أخطاء علمية ، وما يتضمنه من انحراف فى العقيدة.

وكنت أظن أن صاحب هذا البحث - إذا كان معتداً بعقله ودينه - لن ينشره حتى يصلح من أخطائه ، ثم علمت أن البحث قد نشر ، وتبين أن مؤلفه ليس مبشراً جاهلا - كما حدس زميلنا - وإنما هو رجل مسلم يلبس العمامة ، ويرتدى الجبــة والقفطان.

وقد اعتزمت أن ألتزم الصمت حيال هذا الكاتب ، فربما كان الجدل حوله أحد الأهداف التى يقصد إليها المؤلف من نشره. وسكت.

غير أن أحد الكتاب الغيورين كتب منذ أسابيع فصلا فى مجلة الرسالة أبان فيه عما رآه فى الكتاب من انحراف ، ومع حرص الكاتب على التقصى ، ومقارعة الحجة بالحجة ، فقد فاتته أشياء ذات بال ، فرأيت أن الواجب يقتضينى - وقد علم بعض القراء شأن هــذا الكتاب - أن أكتب هذه الكلمات ، وأعتقد أن فيها فائدة للمؤلف - وإن لم ينتفع بما كتبت على هوامش البحث من قبل - وفائدة لأولئك الذين

يشجعونه على مثل هذا البحث، فإن فى البحث تغريراً بهم فى عقيدتهم، وفى هذا البيان إرشاد إلى الطريق القويم الذى يتحتم عليهم أن يسلكوه، حتى يكونوا عند الله من الناجين.

* * *

يقوم الكتاب على فكرة واحدة، أعلنها المؤلف فى صراحة، ثم راح يدور حولها فى كل فصول الكتاب

قال المؤلف: (فكل من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويعمل صالحاً فهو ناج بفضل الله - إن شاء الله -، ذلك بأن هذه الصفات الثلاث هى أركان الدين الأساسية على لسان كل رسول، فمن اتبع أحكامها، وأقام أصولها - من أى دين كان - فاز برضوان الله، ومن أخل بشىء منها، واتبع هواه فأمره إذن إلى الله، إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه، وهو - سبحانه - غفور رحيم لا يسأل عما يفعل).

ومعنى هذه العبارة أن الإيمان بالرسل، والكتب المنزلة، ليس ركنا من أركان الدين؛ لأنه حصر الأركان فى تلك الثلاثة: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح.

والمؤلف قد جعل النجاة - أولا - بفضل الله إن شاء، ثم جعلها - ثانيا - غير متوقفة على شىء غير اتباع أحكام هذه الأركان، وإقامة أصولها، فقد حكم بأن مثل هذا فاز برضوان الله - هكذا من غير تقييد بشىء.

والمسلمون يؤمنون بالله، وبرسله جميعا، وبكل كتبه المنزلة، وباليوم الآخر، فهم غير محتاجين لهذا القانون الذى وضعه المؤلف واليهود غير منتفعين به أيضا لأن المؤلف نبذهم بقوله فى ص ٧٦، (ولا يفوتنا أن نبين أن كلامنا عن اليهود - هنا - ليس على إطلاقه، وإنما نقصد به اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام بحق، وآمنوا بتوراته الصحيحة التى أنزلها الله إيماناً صحيحاً، وأخذوا أنفسهم بآدابها، وتعاليمها أخذاً صادقا).

فلم يبق إلا المسيحيون غير مقيدين بإيمانهم بما جاء به عيسى إيمانا صحيحا، ولا يشك من يقرأ هذا الكتيب: أن المؤلف وضعه لهذا، فكل فصوله تدور حول هذه الفكرة الذهبيه.

ولعل من أول الدلائل على ذلك أن المؤلف استشهد بكل ما جاء فى القرآن مصدقا بالإنجيل، ولم يذكر حرفا واحداً عن تحريف الإنجيل، مع أن القرآن ذكر ذلك صراحة فى أكثر من آية.

وقبل أن نناقش المؤلف فى دعاواه التى

أوردها فى الكتاب نحب أن ننبه إلى حقيقتين اثنتين فى هذه الكلمة التى نقلناها فى أول هذه الكلمة :

الحقيقة الأولى : كيف يتم الإيمان بالله دون أن يؤمن الإنسان بكل ما يصدر عنه ؟ .

والحقيقة الثانية : يقول : ومن أخل بشىء منها فأمره إلى الله إن شاء رحمه . . إلخ ومن هذه الثلاث (الإيمان بالله) فمعنى كلامه أن من أخل بالإيمان بالله ، أى كفر به ـ سبحانه ـ فأمره إلى الله إن شاء رحمه ، وإن شاء عذبه ، وهذا مخالف لنص حكم صريح من نصوص القرآن ، وهو قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » . والمؤلف يعرف حكم من ينكر نصا صريحا من نصوص القرآن الكريم .

ثم نأخذ فى مناقشة المؤلف فى كل ماجانب فيه الحق والصواب :

فرق المؤلف بين العبادات والمعاملات ، فجعل الأولى من وظيفة الرسل ، أما القول فى الثانية فلا شأن للرسل به ـ كما زعم ـ ومن ثم فلا تتعلق بها التشريعات التى جاءت بها الأديان وفى ذلك يقول : (أما أحكام الحياة ونظمها ـ وهو المعبر عنه (بالمعاملات) ـ فإنه يتغير بتغير الزمان ، وأحوال الناس ، وطبائعهم ، وطرائق معايشهم ، كما تتغير القوانين الوضعية بين الفينة والفينة ... وهذا الأمر قد تركه الله للناس ـ كما قال أستاذنا الإمام محمد عبده ـ وفى ذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم : أنتم أعلم بأمور دنياكم) .

ولا أدرى ما الدافع القوى الذى يدفع بعض من يريدون أن يقحموا أنفسهم فى الحديث عن التشريعات الإسلامية إلى أن يقولوا ، ويكرروا القول أن (المعاملات) لا تدخل فى نطاق التشريع ، وهم ـ بالطبع ـ يريدون التشريع الإسلامى ؟ !

إن (المعاملات) كلمة اصطلاحية ، وضعها فقهاء المسلمين لما يجرى بين الناس من شئون الحياة كالبيع والرهن ، والشفعة ، والهبة ... وما إلى ذلك . فهل هذه من شئون الدنيا التى تركها الرسول للناس ؟ . وهل خلا القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف من بيان أحكامها ؟ ، ليست هذه المعاملات متروكة للناس يقولون فيها بأهوائهم . وإنما وضعت الشريعة الإسلامية أصولا لكل هذه الأمور ، فإخراجها عن دائرة الشريعة لا يؤدى إلا إلى رفع حكم الله عنها ، وترك الناس يسيرون فيها كما يشاءون .

وإذا كانت المسيحية لم تعن ببيان أحكامها ، لأنها ـ كما هو معروف ـ إنما جاءت للحد من طغيان المادية اليهودية ، فأهملت هذه

الشئون إهمالا تاما ـ فإن الإسلام جاء للدين ، والدنيا .

وقد استعان المؤلف فى خبطه وخلطه بكلام الشيخ محمد عبده .

فأولا : ليقل الشيخ محمد عبده ، ومن هو أفقه من الشيخ محمد عبده ما شاء ، فإننا لا نأخذ ديننا عن هذا ، ولا عن ذاك ، وإنما نأخذه من مصادره الأولى ، وهى معروفة غير مجهولة .

والمعاملات الإسلامية التى تكلم فيها الفقهاء مصحوبة بأدلتها من الكتاب والسنة ، والقياس والإجماع من صميم الشريعة ، وليست كتأبير النخل ، تلك الحادثة التى ورد فيها قول الرسول العظيم : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

وثانيا : كلمة الشيخ محمد عبده لا تعنى المعاملات المعروفة ، ولا أظن الشيخ رحمه الله خطر بباله أن يخرج المعاملات عن حكم الشريعة ، وهذه هى كلمة الشيخ : (وأما تفصيل طرق المعيشة ، والحذق فى وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة ، والإرشاد إلى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون إلها واحداً قادراً عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل بأن يتصف به) .

وكيف يقصد الشيخ محمد عبده إلى التعميم ، والله يقول : « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة » ، ويقول : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ، وهذه الآية هى أطول آية فى القرآن ، وقد جمعت كل ما يتعلق بكتابة الدين ، ويقول : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ... الآية » .

والميراث : أهو من العبادات أم من المعاملات ؟ وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم ؟ ينبغى أن يكون عند الذين يقولون فيما يتصل بالتشريع الإسلامى شئ من الحياء .

* * *

ويرى المؤلف ـ وهذا هو جوهر البحث ـ أن لكل واحد من أصحاب الأديان أن يؤدى عبادته على الصورة التى ينهاه دينه ، إن فى معبده أو فى بيته ، أو فى خلوته ، أو فى أى بقعة من الأرض ، فأينما تولوا فثم وجه الله .

وهذا الكلام يحتمل وجهين :

الأول : أن يكون المؤلف قصد أن كل ذى دين من حقه أن يعبد الله على الطريقة التى نهجها له دينه ، لا حجر عليه فى ذلك ،


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

لوالديه ، وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله : « ما كان النبي » .

وأما - ثانيا - فمن قال للمؤلف : أن أحكام الإسلام يتحكم فيها العقل وحده ، ولكي يتبين القارئ مدى أمانة المؤلف ننقل له عبارة الكشاف التي اقتضبها المؤلف اقتضابا ، إن الزمخشري كان يفسر الآية الثانية ، (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) فأورد سؤالا ، وأجاب عنه ، قال : فإن قلت : كيف خفي على إبرهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده ؟

قلت : يجوز أن يظن: أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له ، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر .

فالمؤلف قد ألغى الجزء الأول من كلام الزمخشري ، واكتفى بالجزء الثاني الذي أراد به ذلك العالم الجليل أن يعتذر عن إبراهيم ، فنقله المؤلف إلى حيث يؤيد به مزعما من مزاعمه .

والعجب - أيضا - كيف ساق المؤلف قول النبي (ما لم أنه) ولم يذكر أن الآية نزلت تنهاه عن الاستغفار لأحد من المشركين .

وأما - ثالثا - فما معنى التقوى التي يسلم بها (ابني آدم) من الخوف والحزن ؟ .

أمن يدعي أن لله ولدا : أو أن الله ثالث ثلاثة هو ممن اتقوا وأصلحوا ؟

أمن جاءه دين من الله يدعوه إلى أن يؤمن بالله وبرسله وكتبه فضرب بكل ذلك عرض الحائط ممن اتقوا وأصلحوا ؟

ومن كل ما تقدم يدرك القارئ بوضوح أن المؤلف عمد إلى المغالطات ، وإلى اقتضاب النصوص ليدعم دعاواه .

وموعدنا معه في آرائه الأخرى التي حشا بها هذا الكتيب أحاديث قادمة إن شاء الله .

علي العماري

قال تعالى :

واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون .

من شيم العلماء وشغفهم بالعلم

للأستاذ محمود الشرقاوي

إسحق نيوتن : عالم يسجل التاريخ اسمه واحداً من أبرز العقول التي يفخر بها البشر في عصورهم كلها ، كشف عن قانون الجاذبية الأرضية ، فكان هذا الكشف هادياً للعلماء في أن يعرفوا حقائق جديدة رائعة عن عالمنا الأرضي ، وعن قوانين الحياة التي أبدعها الله : الذي « أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » .

وإينشتين : عقل من جبابرة العقول التي اختارها الله وميزها بالفهم والذكاء والقدرة والصبر ، وصل عقله المختار إلى نظرية النسبية ، فكانت بداية عصر جديد في تاريخ البشرية ، بني عليهـــا من النظريات والمخترعات ما يستطيعون به أن يجعلوا حياة الناس كلها « عسلا ولبنا » - إذا استعملوها في سبيل الرخاء والخير - ويستطيعون أن يشعلوا الأرض كلها حمما ولهبا ودمارا إذا أرادوا بها وبالناس شرا ونكرا .

يحقق « أينشتين » نظريات سلفه « نيوتن » باحثا متحرياً متابعاً ، وبين عصريهما قرنان من الزمان ، فمن الطبيعي أن يجد فيها شيئاً من الخطأ والنقص ، وأينشتين العالم يحب زميله نيوتن العالم ويقدره ، ولكنه يحب العلم والحقيقة أكثر مما يحبه ، فيكشف عن خطأ زميله ونقص نظرياته ، ثم يأخذه الحياء ، ويغلبه الأدب فيكتب - بعد التصحيح والتوضيح والتكملة - : معذرة يا نيوتن . ! كأنما يجلس في مجلس سلفه وأستاذه ، فيعتذر من جرأته عليه ، كما يفعل التلميذ في حضرة شيخه .

هذه قصة قرأتها ، وأعجبت بما فيها من معنى التواضع الذي هو صفة لازمة من صفات العلماء ، قرأتها وذكرت بها أشباها ونظائر من صفات أسلافنا الأئمة والعلماء وأخلاقهم ، أشباها ونظائر من تواضعهم وإخلاصهم للعلم وشجاعتهم ، وفيها تذكرة وعبرة وتكريم .

تواضع وكرم نفس :

١ — حكى الشعبي قال : ركب زيد بن ثابت ، صحابي رسول الله ، وكاتب وحيه ، فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا فقال زيد : أرني يدك ، فأخذها وقبلها ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

٢ — وفي تاريخ الإمام الشافعي أنه كان

يمسك زمام البغلة التي يركبها الإمام أحمد بن حنبل ، وأن ابنه تحدث إليه في ذلك فقال له : هكذا أمرنا أن نكرم العلماء ، وأنه كان يمسك زمام ، هذه البغلة يوما ويمشي خلف الإمام أحمد ، فحدثه في ذلك يحيى بن معين فكان جوابه : يا يحيى لو لزمت البغلة لا نتفعت.

٣ — وعلم سفيان الثوري أن الإمام الأوزاعي - إمام أهل الشام - قدم مكة فلقيه خارجها ، وعرف بعيره من القطار الذي يسير فيه الراكبون ، فحل رأس البعير ، ووضعه على رقبته ، وكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ.

٤ — وفي تاريخ الإمام مسلم ، صاحب الصحيح ، أنه جاء إلى شيخه الإمام البخاري فقبله بين عينيه وقال : دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأساتيذ ، وسيد المحدثين ويا طبيب الحديث في علله.

٥ — وفي أول القرن السادس الهجري تولى أبو بكر الشاشي ، رئيس الشافعية في زمنه ، التدريس في المدرسة النظامية في بغداد ، وكان يلي التدريس فيها قبله علماء أعلام كأبي إسحق الشيرازي والغزالي ، فلما جلس للتدريس غلبه التواضع ، وألح عليه البكاء حتى أخرج منديله فوضعه على عينيه ثم أنشد :

خلت الديار فسدت غير مسود ... ومن البلاء تفردي بالسؤدد

٦ — وعندما قدم العز بن عبد السلام - الذي كان يلقب « بسلطان العلماء » - إلى مصر ، توقف إمامها وعارفها الشيخ زكي الدين المنذري ، صاحب الترغيب والترهيب ، عن الإفتاء وقال : (كنا نفتي قبل حضوره ، أما بعد ذلك فالإفتاء متعين فيه) .

هؤلاء الصحابة والعلماء ، قد عملوا بقول النبي الكريم : (لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ، ولا تتجتروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار) .

وقد أكبر الأقدمون صفة التواضع في العلماء ورووا في ذلك أثرا يقول (ينبغي للعالم أن يضع الرماد على رأسه تواضعا لله عز وجل) .

الشغف بالعلم والصبر عليه :

١ — ومن صفات العلماء الشغف بالعلم والصبر على مشقاته ، وفي ذلك نجد لأسلافنا من العلماء مواقف ، وقصصا تدل على مدى هذا الشغف الذي كاد أن يلهيهم عن كل شيء سوى العلم وعلى مقدار هذا الصبر الذي يتعجب المرء من قدرتهم عليه .

ومن ذا الذي لا يذكر في هذا المجال شغف الإمام البخاري بجمع الحديث الشريف ، وصبره عليه ، حتى كان يرحل من بلد إلى بلد يسافر الأيام الطويلة ، ويلقى أعنف مشقات السفر سعيا وراء حديث يحفظه ، أو رواية حديث يقابلها ويراجعها على ما سمع وحفظ ، وفي ذلك يقول

البخاري عن نفسه (دخلت إلى الشام، ومصر والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام: ولا أحصى كم دخلت إلى الكوفة، وبغداد مع المحدثين).

٢ — وسمع جابر بن عبد الله أن عبد الله ابن أنس - وكان فى مصر - عنده حديث حفظه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القصاص، قال جابر - على ما رواه السيوطى فى «حسن المحاضرة»:

(خرجت إلى السوق فاشتريت بعيراً، ثم شددت عليه رحلا، ثم سرت إليه من المدينة إلى مصر — شهراً، فلما قدمت مصر، سألت عنه حتى وقفت على بابه، فسلمت فخرج على غلام أسود فقال: من أنت ... قلت: جابر بن عبد الله، فدخل عليه، فذكر ذلك فقال: قل له: أصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فخرج الغلام فقال ذلك فقلت: نعم، فخرج إلى والتزمنى والتزمته وعانق كل واحد منهما صاحبه، فقال: ما جاء بك يا أخى؟ قلت: حديث تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك أردت أن أسمعه منك قبل أن تموت أو أموت).

٣ — ومن ذلك ماروى عن الإمام الشافعى - فيما رواه المزنى - قيل للشافعى: ما شهوتك للعلم؟ ... قال: أسمع بالحرف مما لم أسمعه فتود أعضائى أن لها أسماعا تتنعم به مثل ما تنعمت به الآذان، فقيل له: كيف حرصك على العلم: قال: حرص الجموع المنوع فى بلوغ لذته للمال، قيل له: فكيف طلبك له، قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره.

٤ — وفى تاريخ الإمام احمد بن حنبل أن الإمام الشافعى نزل عليه ضيفاً، وكانت بنت الإمام أحمد تسمع أخبار الشافعى من أبيها وغيره، وتشتاق أن ترى مظاهر صلاحه وعبادته، فظلت ليلها ترقبه فتراه، مستلقيا على ظهره، وأبوها مشغول بذكره وعبادته. فلما أصبح الصبح قالت لأبيها: ما رأيت له فى هذه الليلة صلاة، ولا ذكرا. ونهض الإمام الشافعى، فقال له أحمد: كيف كانت ليلتك..؟ قال: ما رأيت أطيب منها ولا أبرك، ولا أربح، لأنى رتبت فيها مائة مسألة - وأنا مستلق على ظهرى - كلها فى منافع المسلمين، فقال أحمد لابنته: قد رأيت.

٥ — وقال الربيع: - من أصحاب الشافعى - أقام الشافعى فى مصر أربع سنين. فأملى ألفاً وخمسين ورقة، وخرج كتاب «الأم» ألفى ورقة، وكتاب: «السنن» وأشياء كثيرة، وكان عليلا شديد العلة، وربما خرج الدم وهو راكب، حتى يملأ سراويله وخفه، يعنى من «البواسير».

٦ — ومن ذلك ماروى عن «ابن المبارك»

وعلى بن الحسن بن شفيق الذى يقول : قمت مع ابن المبارك ليلة باردة ليخرج من المسجد ، فذاكرنى عند الباب بحديث ، وذاكرته ، فما زال يذاكرنى حتى جاء المؤذن فأذن للفجر .

الشجاعة فى الحق :

ومن صفات العلماء : « الشجاعة » : فالعالم لا يكتم كلمة الحق ، ولا يخشى فيه أحدا إلا الله ، ويجهر بما يعتقد فى الظالم ، ولو لقى فى ذلك العذاب والهلاك ، فهو يؤمن بأن خشية الله تمنعه أن يخشى سواه ، وأن الله مانحه العزة جزاء شجاعته فى الحق ، وخشيته له وحده ، والله تعالى يقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

١ — كان عمرو بن عبيد صديقا حميما لأبى جعفر المنصور ، قبل أن يلى الخلافة ، فلما وليها ابتعد عنه ، واقتصد فى زيارته ، وكان المنصور يشتاق أن يراه ، ويطلبه إلى مجلسه فيجىء بعد تمنع . وجاء العالم الزاهد الشجاع يوما ، بطلب من الخليفة ، فلما جلس إليه أخذ يعظه ويشتد فى تخويفه وزجره وتذكيره حساب الله حتى بكى المنصور ، فقال بعضهم له : يا أبا عثمان ، أبكيت أمير المؤمنين ، قال : وماذا عليه أن يبكى من خشية الله ... ؟ وأمر له المنصور بمال فرفضه وقال : ليست لى به حاجة ، فحلف المنصور أن يأخذه ، وحلف عمرو ألا يأخذه ، فقال من فى المجلس له : أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ... ؟ قال : لئن يحنث أمير المؤمنين أيسر من أن أحنث أنا ، فهو أقدر منى على كفارة اليمين .

ولما قام الشيخ الشجاع الزاهد قال له المنصور : هل من حاجة فأقضيها لك يا أبا عثمان ... ؟ قال : نعم ، حاجتى ألا تبعث إلى حتى آتيك ، ولا تعطينى حتى أسألك ، قال المنصور : إذن والله لا نلتقى أبدا .. ! قال له الشيخ : عن حاجتى سألتنى ، وخرج الشيخ فأنشد المنصور :

كلكم يمشى رويد
كلكم طالب صيد
غير عمرو بن عبيد

٢ — ومن قصص الشجاعة أن الفضل ابن الربيع ـ وزير الخليفة هارون الرشيد ـ شهد عند أبى يوسف ـ صاحب أبى حنيفة فلم يقبل شهادته .. وعاتبه الخليفة فى ذلك فقال له أبو يوسف : لم أقبل شهادته لأنى سمعته يقول للخليفة يوما : أنا عبدك ! فإن كان صادقا فلا شهادة للعبد ، وإن كان كاذبا فكذلك ، ومن يفعل ذلك فى مجلس الخليفة لا يبالى بالكذب فى مجلس القاضى ، وقبل الرشيد عذره وأكبر شجاعته .

محمود الشرقاوى

جماعة إخوان الصفا

للأستاذ محمد غفرانى الخراسانى

— ٣ —

ومهما يكن من أمر فإننا عند ما نوازن بين رسالة الحيوان ، وبين كليلة ودمنة ، نحس أن إخوان الصفا قد نهجوا فى تأليف هذه الرسالة منهج كتاب كليلة ودمنة من ناحية هذه الخصائص التى تمتاز بها حكايات الكتاب . ومنها تداخل المحاكمات . فإن المحاكمات فى رسالة الحيوان متداخلة يتلو بعضها بعضا ، وتتعاقب الواحدة تلو الأخرى دون انقطاع ، ولا أدنى مناسبة ، كما هو الشأن فى حكايات كليلة ودمنة ، ومنها طريقة التقديم لجلسات الدفاع بجملة التساؤل والاستفهام مثل : « كيف كان ذلك » أو « كيف ذلك »

ونورد لك نصاً لكل من رسالة الحيوان وكليلة ودمنة ، لتقف على مدى تأثر إخوان الصفا بابن المقفع من الناحية الفنية للقصة كما قلنا آنفا ، يقول إخوان الصفا فى إحدى جلسات الدفاع لزعيم السباع الذى كان قد أناب عن نفسه كليلة أخا دمنة للترافع أمام المحكمة : لا ، فلما بلغ زعيم السباع إلى هذا الموضع من الكلام ، قال له زعيم الإنس : أما أنتم يا معشر السباع فسبيلكم أن تسكتوا وتستحيوا ، ولا تتكلموا ، قال له كليلة: ولم ذلك؟ قال : لأنه ليس من الطوائف الحضور هاهنا جنس أشر منكم معشر السباع ، ولا أقسى قلوبا ولا أقل نفعا ، ولا أكثر ضرراً ، ولا أقل رحمة ولا أشد حرصاً على أكل الجيف وطلب المعاش ، قال : كيف ؟ قال : لأنكم تفترسون معشر السباع هذه البهائم ، والأنعام بمخالب حداد ، فتخرجون جلودها ، وتكسرون عظامها وتشربون دماءها ، وتنهشون لحومها بلا رحمة عليها ، ولا فكرة فيها ، ولا رفق بها ، قال زعيم السباع : « منكم تعلمنا وبكم اقتدينا فيما تعملون فى هذه البهائم ، قال الإنسى : كيف كان ذلك ؟ ... الخ » (1) .

وهذا نص الأسلوب الفنى الذى ألف به ابن المقفع قصص كليلة ودمنة ، فمثلا يقول فى باب الأسد والثور على لسان « دمنة » ـ ابن آوى ـ مخاطبا « شتربة » (2) : « فإن من حقر عدوه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى قال شتربة :

(1) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٢٧٨ .

(2) دمنة اسم لابن « آوى وشتربه اسم الثور ، وكلاهما من رجال حاشية الأسد ، ومن أبطال قصة الأسد والثور التى وردت فى الباب الأول من أبواب كلية ودمنة .

وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة : زعموا أن طائراً من طيور البحر يقال له الطيطوى كان وطنه فى ساحل البحر ، ومعه زوجة له ، فلما جاء أوان تفريخها قالت الأنثى للذكر : لو التمسنا مكانا حريزاً نفرخ فيه فإنى أخشى من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا . فقال لها : أفرخى مكانك ... فإنه لا يفعل ذلك . فقالت له : ما أشد تعنتك أما تذكر وعيده وتهدده أياك ، ألا تعرف نفسك وقدرك ؟ فأبى أن يطيعها فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له : إن من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين قال الذكر : وكيف كان ذلك ... الخ (١)

ومن الوجوه المتشابهة كذلك بين رسالة الحيوان ، وبين كليلة ودمنة . طريقة عرض جلسات المحاكمة حيث تنعقد أمام رئيس المحكمة ملك الجان (٢) يعلن افتتاح الجلسة بتوجيه السؤال إلى أحد الخصمين الماثلين أمام المحكمة - الإنسان والحيوان - ثم يقوم كل واحد منهما بالدفاع عن نفسه ، وبنى جنسه وهكذا تستمر المحاكمات كحلقات متواصلة وهذا الموقف من ملك الجان يشبه تماما موقف دبشليم الملك أحد البطلين فى حكايات كليلة ودمنة ، حيث يدور أمامه الحوار بين الحيوانات على لسان وزيره « بيدبا الفيلسوف » .

فنرى أن ملك الجان يبتدئ جلسات المحاكمة بتوجيه السؤال إلى أحد الخصمين كما يفعل ذلك دبشليم الملك عند ما يعقد جلسات السمر مع وزيره « بيدبا » ، ويوجه إليه السؤال ليضرب له مثلا لما دار بين شخصين من الأحداث والخطوب ، وذلك فى بداية كل قصة رئيسية من قصص الكتاب التى تسمى بأبواب الكتاب أمثال : قصة الأسد والثور وقصة الفحص عن أمر دمنة ، وقصة الحمامة المطوقة ، وقصة الأسد وابن آوى . فجلسات المحاكمة فى رسالة الحيوان تشبه أبواب كتاب كليلة ودمنه كما أن الفصول التى تتلو كل جلسة من تلك الجلسات تشبه الحكايات الفرعية التى تتلو كل حكاية رئيسية من كتاب كليلة ودمنة ، وإن الإطار الفنى الذى ألف فيه

---

(١) كليلة ودمنة ص ١٣٠ / ٤٠ ، تحقيق نائل المرصفى طبعة القاهرة .

(٢) واسمه كما مضى « بيراست الحكيم » ، « الملقب بشاه مردان - سيد الرجال - حاكم منطقة تقع فى جزيرة » « صاغون » « فى وسط البحر الأخضر مما يلى خط الاستواء وهذه الجزيرة أشبه إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة وللملك وزير يدعى » « بيراز » « ومن الطريف أن كلمة شاه مردان فارسية ومركبة من « شاه » الملك و « مردان جمع مرد » « الرجال وتطلق الأوساط الشعبية فى إيران هذا اللقب على على بن أبى طالب عليه —

— السلام ، وخاصة المتصوفة منهم كما أن هناك طائفة من المتصوفة فى إيران تسمى بـ « جمعية إخوان الصفا » .

إخوان الصفا رسالة الحيوان هو نفس الإطار الفنى الذى ألف فيـــه ابن المقفع حكايات كلية ودمنة .

هذا وتشبه رسالة الحيوان كتاب كليلة ودمنه لافى تداخل الحاكات ، وطريقة عرضها فحسب، بل إنهما يتشابهان فى توارد كثير من أسماء الحيوانات والأبطال الذين أسندت إليهم الأدوار فى كل القصة والحاكمة فنجد مثلا فى رسالة الحيوان فصلا من المحاكمة على لسان كليلة أخى دمنة مندوب الأسد - أبو الحارث - ليشترك مع سائر الوحوش فى جلسات المحاكمة [١] ، ومن المعروف أن هذين الاسمين هنديان وكان اصلهما « كرتكا ودمنكا » ، وقد دخلا فى اللغة العربية لأول مرة بعد تحريرهما إلى كليلة ودمنه بواسطة ابن المقفع . وكذلك يشبه الأسد فى رسالة الحيوان الأسد فى كليلة ودمنة فالأول يلعب دور ملك السباع ويشاور من حوله من الوحوش فى صفات الملك ، وفيمن يستحق أن يمثل الملك فى جلسات المحاكمة مندوبا [٢] عنه كما هو الحال بالنسبة لدور الأسد فى باب « الفحص عن أمر دمنة » حيث يشاور من حوله من الوحوش عند محاكمة دمنة بعد أن ثبتت إدانته بأنه كان سببا فى الإيقاع بين الأسد والثور مما أدى إلى مصرع الثور . ونرى أيضا أن النمر فى رسالة الحيوان يحتل مكانة الصدارة بين أفراد حاشية الأسد ، ويلعب دور الناصح الأمين للأسد ، ويأخذ برأيه . كما أن النمر فى باب الفحص عن أمر دمنه يعتبر من أخص أصحاب الأسد ومن أقرب افراد حاشيته اليه وهو الذى كشف عن أمر دمنه ، وابلغ أم الأسد عن المؤامرة التى كان قد دبرها دمنة ضد الأسد ، وحرضه على قتل شتربة [١]

وأما قصة تواصل إخوان الصفاء وتعاون بعضهم بعضا فقد أشرنا إليها فى مستهل حديثنا عن رسالة الحيوان ، وأن لها صلة بقصة الحمامة المطوقة من حيث فكرتها العامة فى تصافى الأخوان، وثمرة هذا الصفاء. وأن كان إخوان الصفا قد عمقوا معنى هذا التصافى بما يتفق ومبادئهم الفلسفية المبنية على اعتقادهم فى عالم الغيب « ما وراء الطبيعة » وقبل أن نشير إلى هذه المعانى التى انفردوا بها نورد نص هذه القصة « ينبغى أن نبين كيف يكون تواصل اخوان الصفا ، وكيف تكون معاونة بعضهم بعضا فى طلب معيشة الدنيا ، وماذا ترى كيف يكون حال من سبقته المنية قبل صاحبه . كيف يكون عيش الباقى منهم بعد صاحبه ، ذكر أن مدينة كانت على رأس

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٢٠٣ و ٢٠٦ .

(١) انظر كليلة ودمنة ص ١٥٢ تحقيق نائل المرصفى طبعة القاهرة .

جبل فى جزيرة من جزائر البحر ، مخصبة كثيرة النعم، رخية البال طيبة الهواء ، عذبة المياه ـ حسنة التربة كثيرة الأشجار لذيذة الثمار كثيرة أجناس الحيوانات ـ حسب ما تقضيه تربة تلك الجزيرة وأهويتها ومياهها ، وكان أهلوها أخوة وبنى عم بعضهم لبعض من نسل رجل واحد ، وكان عيشهم أهنأ عيش يكون بتردد ما كان بينهم من المحبة والرحمة والشفقة والرفق بلا تنغيص من الحسـد والبغى والعداوة وأنواع الشر ، كما يكون بين أهل المدن الجائرة المتضادة الطباع المتنافرة القوى المشتتة الآراء القبيحة الأعمال السيئة الأخلاق ثم أن طائفة من أهل تلك المدينة الفاضلة ركبوا البحر فكسر بهم المركب ، ورمى بهم الموج إلى جزيرة أخرى ، فيها جبل وعر فيه أشجار عالية ، وعليها ثمار نذرة ، فيها عيون غائرة ومياهها كدرة ، وفيها مغارات مظلمة وفيها سباع ضارية وإذا عامة أهل تلك الجزيرة قردة وكان فى بعض جزائر البحر طير عظيم الخلقة شديد القوة ، قد سلط عليها فى كل يوم وليلة ، يكر عليهم ويختطف من تلك القردة عدة . ثم أن هؤلاء النفر الذين نجوا من الغرق تفرقوا فى الجزيرة ، وفى أودية ذلك الجبل يطلبون ما يتقوتون به من ثمارها لما لحقهم من الجوع ، ويشربون من ماء تلك العيون ويستترون بأوراق تلك الأشجار يأوون بالليل إلى تلك المغارات ، ويعتصمون بها من الحر والبرد ، فأنسهم بهم تلك القرود ، وأنسوا بها إذ كانت أقرب أجناس السباع شبها لصورة الناس فوامت بهم إناث القردة وولع بها من كان به شبق . وتناسلوا وكثروا وتمادى بهم الزمان فاستوطنوا تلك الجزيرة واعتصموا بذلك الجبل وألفوا تلك الحال ونسوا بلدهم ونعيمهم وأهاليهم الذين كانوا معهم بديا ثم جعلوا يبنون من حجارة ذلك الجبل بنيانا ويتخذون منها منازل ويخرصون فى جميع تلك الثمار ويدخرها من كان منهم شرها وصاروا يتنافسون على إناث تلك القرود ويغبطون من كان منهم أكثر حظا من تلك الحالات وتمنوا الخلود هنا وانتشبت بينهم العداوة والبغضاء ، وتوقدت نيران الحرب ثم أن رجلا منهم رأى فيما يرى النائم كأنه قد رجع إلى بلده الذى خرج منه وأن أهل تلك المدينة لما سمعوا بمجيئه استبشروا واستقبله خارج تلك المدينة أقرباؤه فرأوه قد غيره السفر والغربة، فكرهوا أن يداخل المدينة على تلك الحال وكان على باب المدينة عين من الماء فغسلوه وحلقوا شعره وقصوا أظافره وألبسوه الجدد وبخروه وزينوه وحملوه على دابة ، وأدخلوه المدينـة فلما رآه أهل تلك المدينة استبشروا به وجعلوا يسألونه عن أصحابه وسفرهم

وما فعل الدهر بهم ، وأجلسوه فى صدر المجلس فى المدينة ، واجتمعوا حواليه يتعجبون منه ومن رجوعه بعد اليأس منه وهو فرحان ، بهم وبما نجاه الله عز وجل من تلك الغربة ، وذلك الغرق ، ومن صحبته تلك القرود، وتلك العيشة النكدة ، وهو يظن أن ذلك كله يراه فى اليقظة ، فلما تنبه إذا هو فى ذلك المكان بين القرود ، فأصبح حزينا منكسر البال ، زاهداً فى ذلك المكان مغتما متفكراً راغبا فى الرجوع إلى بلده ؛ فقص رؤياه على أخ له ، فتذكر ذلك الأخ ما أنساه الدهر من حال بلدهما وأقاربهما وأهاليهما والنعيم الذى كانا فيه ، فتشاورا فيما بينهما وأجالا الرأى ، وقالا : كيف السبيل إلى الرجوع وكيف النجاة من هنا ؟ فوقع فى فكرهما وجه الحيلة بأنهما يتعاونان ويجمعان من خشب تلك الجزيرة ، ويبنيان مركبا من البحر ويرجعان إلى بلدهما ، فتعاقدا على ذلك بينهما عهداً وميثاقا : أن لا يتخاذلا ولا يتكاسلا بل يجتهدا اجتهاد رجل واحد فيما عزما عليه ثم فكرا أنه لو كان رجل آخر معهما لكان أعون لهما على ذلك ، وكلما زاد عددهما يكون أبلغ فى الوصول إلى مطلبهم ومقصدهم، فجعلوا يذكرون إخوانهم أمر بلادهم ، ويرغبونهم فى الرجوع ، ويزهدونهم فى السكون هناك حتى التأم جماعة من أولئك القوم على أن يبنوا سفينة يركبوا فيها ، ويرجعوا إلى بلدهم فبينما هم فى ذلك دائبون فى قطع الأشجار ونشر الخشب لبناء تلك السفينة إذ جاء ذلك الطير الذى كان يختطف القرود فاختطف منهم رجلا ، وطار به فى الهواء ليأكله ، فلما أمعن فى طيرانه تأمله فاذا هو ليس من القرود التى اعتاد أكلها فمر به طائراً حتى مر به على رأس مدينته التى خرج منها ، فألقاه على سطح بيته وخلاه فلما تأمل ذلك الرجل إذا هو فى بلده ومنزله وأهله وأقربائه ، فجعل يتمنى لو أن ذلك الطير يمر فى كل يوم ويختطف منهم واحداً بعد واحد ، ويلقيه إلى بلده كما فعل به ، وأما أولئك القوم بعد ما اختطفه الطير من بينهم فقد جعلوا يبكون عليه محزونين على فراقه ؛ لأنهم لا يدرون ما فعل به الطير ، ولو أنهم علموا بحاله ، وما صار إليه لتمنوا ما تمنى لهم أخوهم [1] فقد شرح إخوان الصفا أنفسهم المغزى الذى يقصدون إليه من هذه القصة ، وعلقوا عليها عقب إيرادهم لها بقولهم « فهكذا ينبغى أن يكون اعتقاد اخوان الصفا فيمن قد سبقته المنية قبل صاحبه . لأن الدنيا تشبه تلك الجزيرة ، وأهلها يشبهون تلك القردة ، ومثل الموت كمثل ذلك الطير ، ومثل أولياء الله كمثل القوم الذين

(١) راجع كتاب رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٠٢ ـ ١٠٥

كسر بهم المركب ، ومثل دار الآخرة كمثل تلك المدينة التي خرجوا منها ، فهذا اعتقاد إخواننا الكرام في معاونتهم في الدنيا وما يعتقدون فيمن سبقته المنية قبل إخوانه .

فنرى أن إخوان الصفا قد رمزوا إلى دنيا الشهوات بالقرود ، وإلى من سقطوا في عالم الرذيلة عن استهوتهم هذه القرود ، وكان همهم هو التناكح والتناسل ، وارضاء الغريزة الحيوانية فحسب ، ونسوا بلدهم الأصيل وهو العالم الآخر الذي أتت منه أرواحهم ، وأما الصفوة منهم فلم تشغلهم المادة عن المعنى ، ولم تستهوهم تلك المظاهر الدنيوية . بل انصرفوا إلى التفكير الاجتماعي الذي يساعدهم على راحتهم النفسية وسعادتهم الموقوته في هذه الدار الفانية بمعاونة بعضهم بعضا ، وبث روح المحبة بين الطبقات ، والبعد عن التعصب لمذهب دون مذهب ، والتحمس لعقيدة دون عقيدة ، وعرفوا أن السعادة لا تتم الا بتضافر الجهود للخروج من عالم المادة والتوجه إلى الرقي والكمال بأرواحهم الطاهرة ، وأنفسهم الزكية حتى تلبي دعوة ربها .

« ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية » .

ونستخلص من تعليق إخوان الصفا على هذه القصة أنهم يعتبرون أن عالم الروح موطنهم الأصيل ، ودار السعادة الخالدة . ولا يمكن أن يصل أحد إلى هذا العالم إلا إذا صفت روحه وخلصت سريرته ، وتعاون مع إخوانه وأصدقائه بالإيمان الصادق الذي يقود المرء إلى العمل الصالح .

ونحن إذ نختم مقالنا هذا لا نستطيع أن ندعي أننا قد بلغنا غاية المطاف فيما كنا نقصد اليه ؛ بل إن المجال لا يزال متسعا أمامنا لاستخراج نتائج أخرى بالموازنة بين رسالة الحيوان ، وبين كتاب كليلة ودمنة ، إذ سيكون لهذه النتائج أهميتها البالغة في ميدان الدراسات المقارنة .

محمد غفراني الخراساني

من نثر أمير الشعراء :

« الثقة مراتب ، فلا ترفع لعليا مراتبها إلا الشريك في المر ، المعين على الضر ، الأمين على السر »

(الضمير النقي كالمرآة ، لو التمس فيها المرء وجه الغيب لرآه)

(يستأذن الموت على العاقل ، ويدفع الباب على الغافل)

(أسواق الذهب)

مع "شوقي" في مدائحه النبوية

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

لقد ذهب الشعراء في تناولهم مدح الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه مذاهب شتى ، تتناسب وشخصية الشاعر ، ولون ثقافته ، وتتأثر بالذوق الفني العام للأدب في العصر الذي قيلت فيه ، وبالظروف العامة من سياسية واجتماعية وفكرية في فترة إنشادها .

وسيرة الرسول الكريم من يوم أن بدأ دعوته إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى صارت مصدر إلهام الشعراء ، وينبوعا صافيا فياضا لا يعتريه نقص ، يتجدد فيضه دفاقا قويا عطرا ذكيا ، يستمد الشعراء منه أروع قصائدهم ، ويسجلون بأسلوبهم سجايا الرسول الكريم ، ومزايا شريعته الغراء ، ويرسمون للناس أمثل الطرق للاقتداء بنبيهم ، ويصورون ما تضمنته السيرة من بطولات وتضحيات، وصبر وجهاد، حتى أتم الله نوره وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم ، ورحم الله ابن الفارض حين قال :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه
يفنى الزمان ، وفيه ما لم يوصف

وبعض الشعراء يقتصرون على ذكر السيرة النبوية ، وصفات الرسول الكريم ، ونسبه الطاهر ، وسرد الغزوات ، وهذا ملحوظ في أغلب المدائح التي قيلت إلى أوائل عصرنا الحديث ، أما في هذا العصر فلم يعد الشعراء يكتفون بذلك بل إنهم وجهوا اهتمامهم إلى الموازنة، والربط بين الماضي والحاضر، والدعوة إلى الاقتداء بما في سيرة الرسول من بطولات وتضحيات ، وأخذا يبرزون مزايا الشريعة الإسلامية ، ويدعون العودة إليها ، ويبينون للمسلمين أن أهم أسباب تأخرهم ترجع إلى عزوفهم عن قرآنهم ، وسيرة رسولهم وأن المستعمرين لم يطمعوا فيهم إلا من يوم أن هجروا تعاليم دينهم . والذي وجه شعراءنا في العصر الحديث هذه الوجهة هو ما أصاب الأمة الإسلامية من نكبات بسبب الاستعمار الذي تغلغل في الأقطار الإسلامية ، وفرض سيطرته عليها ، وحاول متعمداً الغض من مبادىء الإسلام ، وتحقير كل ما هو شرقي .

وشاعرنا الكبير المرحوم احمد شوقي عاش في فترة من الزمن شهد فيها العالم العربي

أحداثا جساما، من احتلال أجنبي، إلى قيام حروب عالمية، ثم ما تلا ذلك من ثورات بغية التخلص من نير الأجانب، وما كان يظل الأقطار الإسلامية من سلطان الخلافة الإسلامية الواهي، وما دب بين شعوبها من فرقة وتخاذل، وما فشا فيها من جهل وفساد في نظم حياتها السياسية، والاجتماعية والفكرية، ولم يكن هناك غير بصيص من الأمل في الشعور المكبوت الذي غذته دعوات المصلحين: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومصطفى كامل، وقاسم أمين وغيرهم وأخذت تذكيه قرائح الشعراء الذين أسهموا بنصيب موفور في إيقاظ الشعور في القصائد الكبرى التي ظهرت عند نهاية الحروب العالمية الأولى مثل: بكرية عبد الحليم المصري، وعمرية حافظ، وعلوية عبد المطلب، التي صورت أقوى الشخصيات الإسلامية، وأروع انتصارات المسلمين في عهودهم الزاهرة يحفزون بها همم الشباب، ويؤججون الشعور العام.

وشعر شوقي في مجموعه يعتبر صورة حية للفترة التي عاش فيها، بالإضافة إلى تلك الصور الخالدة التي تنطق أحداث الماضي، وقد تناول أغراضا كثيرة، واعتبر في بعضها من المجددين.

ومن الموضوعات الإسلامية التي تناولها مدح الرسول الكريم في أربع قصائد كبرى تعد من عيون الشعر، حاكى في اثنين منها الإمام البوصيري: إحداهما نهج البردة، على وزن وروى بردة البوصيري، والأخرى هي الهمزية، أما القصيدة الثالثة فهي «سلو قلبي»، وهذه القصائد الثلاثة بالديوان، والرابعة بعنوان: ذكرى المولد وهي منشورة بكتاب آخر عنوانه «كرمة ابن هانى» وهذا غير مقطوعة من ثلاثة وخمسين ومائة بيت ضمن أرجوزة العرب الكبرى. وكان إنشاء هذه القصائد جميعا بين ١٩١٠، ١٩١٧.

وقد تناول شوقي في هذه المدائح نواحي عديدة من سيرة الرسول الكريم، وحياته وشريعته، وقد لا يتسع هذا المقال لعرض الموضوعات، والتعليق عليها جميعا، ومن ثم فإننا سنقصر حديثنا على ما ورد فيها عن مزايا الإسلام وتشريعاته، فإن «شوقي» قد نفذ إلى عرض ذلك في خلال هذه المدائح لينفس عما يجيش بصدره من آلام سببها هجوم المستعمرين: من أمثال هانوتو الذي نشر رسالته المشهورة عام ١٩٠٠، وتصدى لها الإمام محمد عبده بالتفنيد، ثم كرومر الذي كان لا يألوا جاهداً في الطعن على الشريعة الإسلامية، وغير هذين من المبشرين الذين كانوا يحاولون إذاعة الفتن وبلبلة الأفكار لزحزحة المسلمين عن عقائدهم.

ومن الأمور التى أذاعها المغرضون أن الإسلام قد أقام دعوته ونشرها بحد السيف وهم يرمون من وراء ذلك إلى الغض من قيمة القرآن فى هداية البشر، وقد تناول شوقى هذه الدعوى، وفندها منطقيا، مستدلا بما لقيته المسيحية من اضطهاد فى أول أمرها ...

يقول فى نهج البردة :

قالوا : غزوت . ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس، ولا جاءوا لسفك دم
جهل ، وتضليل أحلام ، وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب
تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعا . وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء ، كم شربت
بالصاب من شهوات الظالم الغلم (١)
طريدة الشرك ، يؤذيها ويوسعها
فى كل حين قتالا ساطع الحدم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها
بالسيف ، ما انتفعت بالرفق والرحم

وعند ما يجىء ذكر الشريعة الإسلامية ومزاياها نجد الفيض الغزير، والمعلومات القيمة التى تظهر فى الموازنة بين الشريعة الإسلامية ، وما سبقها ، ويخيل إليك أنك تستمع إلى عالم متضلع ، وفيلسوف يحلل ويقيم الأدلة والبراهين على فضل هذه الشريعة الغراء . وكأنه يريد أن يقول : إن كل ما ترى به هذه الشريعة من مطاعن ينبغى ألا يلتفت إليه ، أو يقام له وزن مهما كان مصدره .

يقول فى نهج البردة .

شريعة لك فجرت العقول بها
عن زاخر بصنوف العلم ملتطم
يلوح حول سنا التوحيد جوهرها
كالحلى للسيف ، أو كالوشى للعلم
غراء حامت عليها أنفس ونهى
ومن يجد سلسلا من حكمة يحم (١)

ثم يبين أنها صالحة لكل زمان ومكان ، وأنها كفيلة بأن تنير السبيل أمام المصلحين فى سائر أقطار العالم على مر الزمان ، وكر السنين :

نور السبيل ، يساس العالمون بها
تكفلت بشباب الدهر والهرم
يجرى الزمان وأحكام الزمان على
حكم لها نافذ فى الخلق مرتسم

ثم يبرهن على ذلك بما كان فى ماضى الأمة الإسلامية ، مما سجله التاريخ :

لما اعتلت دولة الإسلام واتسعت
مشت ممالكه فى نورها التمم

---

(١) الغلم : الثائر . الهائج .

(١) حامى عطف ومال .

وعلت أمة بالفقر نازلة
رعى القياصر بعد الشاء والنعم

أرأيت تصوراً أدق من هذا إلى أثر الإسلام فى الأمة العربية ؟ ثم استمع إليه حين يشير إلى نتيجة التمسك بمبادئ الإسلام وشريعته :

كم شيد المصلحون العاملون بها
فى الشرق والغرب ملكا باذخ العظم
للعلم ، والعدل ، والتمدين ما عزموا
من الأمور ، وما شدوا من الحزم
سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم
وأنهلوا الناس من سلسالها الشم
ساروا عليها هداة الناس فهى بهم
إلى الفلاح طريق واضح العظم

ثم نراه يعرض بسائر المبادىء التى يحاول المستعمرون إذاعتها لتنحية تعاليم الإسلام ويعتبر أن شريعة الإسلام وحدها هى الصالحة :

لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم
وحائط البغى إن تلمسه يهدم

* * *

ثم يعود إلى تكرار هذه المعانى بصورة أخرى فى الهمزية ، وهنا نجده يوازن بين تشريع الإسلام وغيره من الشرائع ، وينحى باللائمة على الذين يتعرضون للإسلام :

ظلموا شريعتك التى نلنا بها
ما لم ينل فى رومة الفقهاء
مشت الحضارة فى سناها واهتدى
فى الدين والدنيا بها السعداء

ويقول فى الموازنة :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة
بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد ، وهو حقيقة
نادى بها سقراط والقدماء

إلى أن يقول :

داء الجماعة من « أرسطاليس » لم
يوصف له حتى أتيت دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومة
لا سوقة فيها ، ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده
والناس تحت لوائها أكفاء

فهل جاء المصلحون ودعاة الديموقراطية بما هو أسمى من ذلك ؟ وزعماء الاشتراكية : هل سبقوا محمداً فى دعوته إليها ، وتطبيقه العملى لمبادئها ؟

الاشتراكيون أنت زعيمهم
لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة
وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

ثم يبين أن البر والمساعدات الاجتماعية ليست منحا وإنما هى حقوق مفروضة نظمتها الشريعة الإسلامية :

والبر عندك ذمة وفريضة
لا منة ممنونة وجباء

جاءت فوحدت الزكاة سبيله
حتى التقى الكرماء والبخلاء

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى
فالكل في حق الحياة سواء

فلو ان إنسانا تخير ملة
ما اختار إلا دينك الفقراء

ونقف قليلا عند هذا البيت الأخير : فإن الفقراء يختارون هذا الدين ، لأنهم يجدون فيه الإنصاف والعدالة ضد الأقوياء المتجبرين إذ يحدد لهم حقهم في أخذ أجورهم إن عملوا بحيث لا يبخسون ، ويجعل لهم نصيبا محددا في أموال الأغنياء إن كانوا عاجزين ، ويمنحهم حق الحياة الكريمة ؛ فلا سيد ولا مسود ، ولا ظلم ولا اضطهاد ، ولا سوق للأعمال بالقهر ، ولا استذلال بسبب تفاوت الطبقات .

• • •

ثم يقول في قصيدة « سلوا قلبي » :

فلم أر غير حكم الله حكما
ولم أر دون باب الله بابا

وبعد أبيات نراه يعيب على المسلمين حرمان الفقراء حقوقهم ، وإهمالهم فريضة الزكاة مع تأديتهم لغيرها من الفرائض :

عجبت لمعشر صلوا وصاموا
ظواهر خشية ، وتقى كذابا

وتلفيهم حيال المال صما
إذا داعي الزكاة بهم أهابا

لقد كتموا نصيب الله منه
كأن الله لم يحص النصابا

ثم يأخذ في بيان منافع العلم ، ويدعو إلى تعليم الفقراء ؛ عسى أن يخرج من بينهم من يكون شجاعا عبقريا ... :

أراد الله بالفقراء يسرا
وبالأيتام حبا وارتبابا

فرب صغير قوم علموه
سما ، وحمى المسومة العرابا

وكان لقومه نفعا وفخرا
ولو تركوه كان أذى وعابا

فعلم ما استطعت ، لعل جيلا
سيأتي يحدث العجب العجابا

ولا ترهق شباب الحي يأسا
فإن اليأس يخترم الشبابا

ثم يعود إلى الحديث عن الاشتراكية :

يريد الخالق الرزق اشتراكا
وإن يك خص أقواما وحابى

فما حرم المجد جنى يديه
ولا نسي الشقي ، ولا المصابا

ثم يدعو إلى العمل والجد ، وعدم الركوخ للذلة ، ويرسم لنا الطريق واضحا :

وكان بيانه للهدى سبلا
وكانت خيله للحق غابا

وعلمنا بناء المجـــد حتى
أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال
إذا الإقدام كان لهم ركابا

* * *

ومما جاء عن وصفه للشريعة الإسلامية ومزاياها فى قصيدة « ذكرى المولد » التى مطلعها :

به سحر يتيمه
كلا جفنيك يعلمه
هما كادا لمهجته
ومنك الكيد معظمه

قوله :

نظام الدين والدنيا
أتيح له يتممه
تطلع فى بنائهما
على التوحيد يدعمه
بشرح هام فيه النا
س هاشمه وأعجمه
كضوء الصبح بينه
وكالبنيان محكمه
بيان جل موحيه
وعلم عز ملهمه
وكم للحق من غاب
رسول الله ضيغمه
له الغزوات لا تحصى
ولا يحصى تكرمه

* * *

ولقد كان شوقى يشعر فى قرارة نفسه بالحالة العامة للأمة الإسلامية ، ولم يكن يملك غير الدعاء والتوسل إلى الله أن يأخذ بيدها ، وينتشلها مما تردت فيه، ولكن بعد أن عرض مزايا شريعة الإسلام ، وصور عظمة المسلمين أيام كانوا مستمسكين بها أدق تصوير، ودعا إلى العودة إليها ، لأن ذلك هو طريق العودة إلى المجد .

يقول فى ختام نهج البردة بعد أن سرد صوراً كريمة للخلفاء الراشدين :

يارب : هبت شعوب من منيتها
واستيقظت أمم من رقدة العدم
سعد ، ونحس ، وملك أنت مالكه
تديل من نعم فيه ومن نقم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته
أكرم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا
ولا تزد قومه خسفاً ولا تسم
يارب : أحسنت بدء المسلمين به
فتمم الفضل ، وامنح حسن مختتم

ويقول في ختام « سلو قلبي » :

وكان جنابهم فيها مهيبا

سألت الله في أبناء ديني ... وللأخلاق أجدر أن تهابا

فإن تكن الوسيلة لي أجابا ... فلولاها لساوى الليث ذئبا

وما للمسلمين سواك حصن ... وساوى الصارم الماضي قرابا

إذا ما الضر مسهم ونابا ... فإن قرنت مكارمها بعلم

كأن النحس حين جرى عليهم ... تذللت العلا بهما صعابا

أطار بكل مملكة غرابا

* * *

ثم يعلل أسباب الضعف، ويدعو إلى العودة لطريق الإسلام، ومكارم الأخلاق التي يدعو إليها :

ولو حفظوا سبيلك كان نورا

وكان من النحوس لهم حجابا

بنيت لهم من الأخلاق ركنا

فخانوا الركن ؛ فانهدم اضطرابا

رحم الله « شوقي » فقد كان في « إسلامياته » واعيا ، عميقاً ، ينطلق عن بحث في ماضي الأمة الإسلامية ، وخبرة في حاضرها ، وأمل في مستقبلها ، وقد استوفى في هذه المدائح الأربعة نواحي كثيرة من التاريخ الإسلامي ، ومزايا شريعته ؟

سعد الدين الجيزاوي

قال تعالى :

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . وإن تطع من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

الانســـان والجــمال

للأستاذ محمد أحمد العزب

لست فى هذه السطور باحثا يتعمق فلسفة الجمال، ويحاول تجليتها للناس، ولست كذلك فيلسوفا يقيم الحدود والأقيسة والتعاريف لقيمة من القيم الخالدة فى تاريخ البشر، إنما أنا إنسان - مجرد إنسان - يحاول فى بساطة واعية، أن يلتمس أغوار حقيقة ضخمة، أو قل يحاول أن يجيب على سؤال يزحف على شفاه الملايين، كلما انبهرت أعماقهم وأحداقهم جميعاً أمام مشهد من مشاهد الكون، أو خالجة من خوالج النفس، أو انتفاضة من انتفاضات الروح والوجدان فتساءلوا: كيف حدث ذلك؟

أنا هنا فحسب، لأشير إلى دور الجمال فى حياة الإنسان: من حيث هو فرد، وحياته من حيث وجوده فى مجموع ... ولأؤكد أن الجمال سلم مضيئة كم صعدنا عليها، وعانقنا فيها السماء ...

وقبل أن استرسل - فن حقك على أن تسألنى ... وما الجمال؟ ولأننا اتفقنا على مبدأ أننى لست هنا فيلسوفا يضع التعاريف والحدود ... فسأجيبك من خلال إحساسى الجمالى إجابة إنسان يستشعر جلال الجمال ...

أجل يا صاحبى ... إن الجمال ليس قطعة من «شىء» تمسكها بيمينك - ليس جرما من الأجرام تحتويه بيديك ... ليس مادة صلبة يمكن أن تستريح عليها قدماك.

إن الجمال قيمة من القيم التى تحس ولا تلمس ... تستشعر ولا تضغط، وبقدر إحساسنا بهذه القيمة، بقدر ما نقبل على الحياة ونعانق أفراح الوجود ... إن الجمال يشدنا إلى الكون ويوصل علاقتنا به ... وهو من هذه الزاوية ينهض فى حياتنا برسالة ضخمة، ودور قيادى كبير.

سأستطرد مع الجمال من حيث هو «قيمة خلقية» ... «وقيمة اجتماعية» ... «وقيمة دينية» ... تؤتى العالم أخصب الثمرات ...

فهو من حيث إنه قيمة خلقية، يفجر فينا مشاعر الحب، ويلهمنا نوازع السمو، ويرسم فى حياتنا معالم التطور، إنه يرقق أحاسيسنا، ويرهف أذواقنا، ويهبنا طاقات من الخير دفاقة أبداً ... إن الإنسان الجميل هو الإنسان الذى يكره الكلمات المشبوهة

المتوية - هو الذى لايحقد ... ، ولايغدر .. ولا يخون .. ، ولايقيم أخلاقياته على أنقاض أخلاقيات الآخرين ...

إن الإنسان الجميل هو الإنسان السوى الذى يحمل من قلبه مزرعة للعواطف الطيبة والمشاعر النبيلة ، والأحاسيس المرهفة .

ويقدر مايتوافر لدى الإنسان من كل هذه الأنماط الأخلاقية ، والسلوكية ، بقدر مايأخذ مكانه فى البناء الاجتماعى الشامخ الركين.

ولقد كان الإنسان العظيم « محمد ابن عبد الله » حريصا على أن يزرع فى أعماق أتباعه هذه الحاسة الجمالية ، لإيمانه الوطيد بأنها سبيل الترقى الإنسانى - وحافز التطور البشرى .

لقد كان الإنسان يحاول جاهدا أن يقيم صداقة واعية بين الإنسان والكون ، حتى يتلقى عن صديقه الكون كل مباهج الطبيعة الفاتنة ، وكل مشاعر الإحساس الجميل ...

فها هو ذا يخرج مرة فى أصحابه حتى يستقبل الجبل ، فيهتف من أعماقه صائحا «أحد ، جبل يحبنا ونحبه » .

وحين يطالع الهلال البازغ يرفع وجهه إليه فى جلال قائلا « ربى وربك الله » .

وحين يهل الربيع على الأرض ، وتبزغ نباتاته الصاعدة ، ينحنى عليها فى تراحم جم ويقول (عام خير وبركة إن شاء الله) .

وحين تمطر السماء . . يستقبل رذاذها بصدره عريان . . وحين يسألونه عن سر حفاوته بالمطر يلتفت إليهم قائلا (إنه حديث عهد بالسماء) .

وهو الصادح بكلماته الملهمة .!! (إن الله جميل يحب الجمال) !! .

وهكذا كان الإنسان العظيم محمد يقدر الجمال ، ويحاول أن يزرع غراسه فى أعماق الملايين - لأنه يؤمن بأن الجمال ركائز التكامل الخلقى الذى لاينحرف، ولايبتسر، ولايضرب فى أعماء الظلام .

والجمال قيمة اجتماعية ، يطهر علاقتنا بالكون . . وبأنفسنا ... وبالآخرين . . أنه يطهر علاقتنا بالكون . . لأنه يبنيها على أساس من التجاوب الصاعد الأصيل . . فأنت حين تستشعر الجمال فى نجمة . . أو نسمة . . تفتح كل مغاليق حياتك للحياة . . وتستقبل الوجود فى صداقة وحب . . إن الجمال يشدك إلى دنياك ، بينما ينفرك القبح حتى من نفسك ! ! وهو يطهر علاقاتنا بأنفسنا حين يوحى إلينا نزعة التعادل العاقل الملهم . . الذى لا يدمر فى ارتقائه الشاهق إلى أعلاه . ولا يتكظم فى إيغاله المرهق إلى أسفل . . إنه يعطيك معنى التعادل العاقل من خلال التناسق العام فى كل مشاهد الكون . . وكل مشاهد الحياة . .

وهو يطهر علاقاتنا بالآخرين حين يقيمها على أساس من التضامن الحلو ، والأخوة المتكاتفة ، والسلام الأرحب الخصيب .. إنه يغريك بالعدل حين يوحى إليك أن لا شيء أجمل من العدل ينشر أجنحته البيضاء فيحتضن بها الملايين ، ولا شيء أو بل من الظلم الذى هو افتيات صارخ على طبيعة الخلق فينا ، وتشويه هابط لفطرة البراءة ، وبراءة الفطرة وانهيار بالمستوى الآدمى إلى مستوى راكد وخيص ..

وهنا أستطيع أن أقول : إن للجمال رسالة إنسانية واجتماعية خالدة فى مكافحة القوى العدوانية ، ومؤازرة أنصار الحياة ، فى تحريك ما همد من العواطف الإنسانية البارة ، وإذكاء ما خمد من المشاعر الآدمية المضيئة ، وإثراء ما أجدب من مناطق فى قلوب الملايين ..

ألست معى فى أن قلوبا آدمية كانت قاسية رهيبة كوجه الطوفان ، ما لبثت أن تراعشت مذهولة أمام قيمة جمالية تذبح ، أو صوت إنسانى جميل يوشك أن يبح من النداء . ؟

لن أزج بالتاريخ فى هـــذا المشهد .. ولن أستشهد لك بما مضى من عصور .. ولكنى سأفترض موقفا من المواقف .. سأضع أمامك صورة من صور الجمال (الحياتى) الذى يوشك أن ينهار ، وأهيب بك أن تتماسك وأن تصمد مهما تنزت بك الأحقاد الفائرة .. واستبدت بك كراهية الجوع ..

تصور أنك ظلمت إنسانا من الناس ، وزحف بكل جراحاته إليك . قائلا فى أسى مذبوح :

ماذا أنا ؟ ألست إنسانا يحيا على الأرض؟ ومن أنت ؟ ألست إنسانا تحيا على الأرض؟ إذا فنحن أشقاء ؛ كلانا زاحف على الثرى والطين . لا يستطيع التحليق والطيران !! لماذا إذن تظلمنى ؟ ألأنك قادر ، وأنا عاجز ؟ ألأنك استطعت ، ولم أستطع أنا ؟ أم لأنك حرفت فطرتك ، ومسخت طبيعتك وانسلخت من إهابك الإنسانى ؟ ألا تدرى؟ ألا تحس ؟ ألا تتألم ؟ ألا تعرف أنك حين ظلمتنى فقد ظلمت من ورائى أكبادا جائعة . وأنفسا ضائعة !! إنك لست ظالمى وحدى . إنك ظالم لابتسامة طفلى البرىء ؛ لأنها ذوت منذ أيام !! ظالم لوشوشة الأحلام فى خيال طفلتى اللاعبة ؛ لأن أحلامها الآن لم تعد شيئا غير الرغيف !! ظالم لكرامة الأمومة فى عينى أمى العجوز !! لأنها - على تأبيها - سألتنى بالأمس ، هل من طعام ؟

تصور أنك هذا الظالم المتأله التياه ... وأن هذا الموقف المأسوى المدى يعربد من كثب أمامك .. فماذا أنت صانع به ؟ أوشك أن أؤكد لك - أن الجدار الثلجى الذى شاده الظلم فى أعماقك سينهار . سينهار حقا تحت مطارق هذه العواطف الإنسانية

المجروحة ، التى يوشك القبح أن يعفى على وجهها الضاحك الجميل .

ألم أقل لك : إن الجمال كقيمة اجتماعية يطهر علاقاتنا بالكون وبأنفسنا وبالآخرين ؟

والجمال من حيث هو قيمة دينية هادفة يعقد صداقة بين الإنسان والله . . صداقة أساسها الفهم المتحرر الواعد الذى ينمو على أرض جمالية . ويتفتح فى ضوء جمالى ، ويعرج إلى ربه فى نغم مؤمن حالم جميل . .
وهنا لا بد أن نطيل التأمل ؛ فليست قيمة من القيم الخالدة لتستطيع أن تقف إلى جوار الجمال فى حركة كونه معراجا إلى الإيمان . لأن الله يتخذ منه دائما مقدمات لقضية هذا الإيمان . . إن الله يدعو البشر للإيمان به عن طريق الجمال المبثوث فى الأرض ، المبثوث فى الآفاق ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . . والنخل باسقات لها طلع نضيد ... » . !!

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » .

« والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . . والنهار إذا جلاها . . والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . . . » .

« هذا خلق الله ... فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » .
إن القرآن فى هذه الكلمات يتخذ من الجمال مقدمة لقضية الإيمان ، فلا يلبث أن يتسرب بها إلى أعمق أعماق البشر ، لأن عاطفة الإحساس بالجمال ألصق عاطفة بالنفوس ، والاستثارة الإيمانية عن طريقها تختصر مراحل الطريق .

وأبدا لا أنسى هذا الريفى المتأنق الساذج الذى عرف بحسه الجمالى ، وشغفه بالحوار ، لا أنسى يوما جاءنى على مشهد من جماهير قريتى البسطاء ، ويحدثنى قائلا :

أنتم تقولون إن الله موجود ... فأين هو؟ إننى لا أؤمن إلا بما أراه .

قلت لصاحبى : لا تؤمن إلا بما تراه ، فأنت إذاً قد رأيت القاهرة وأمريكا وروسيا ، وباريس !

فأجابنى فى ذهول : أبداً . أبداً لم أر شيئا من هذا الذى تقول .

فقلت : إذن فهى غير موجودة . . لأنك يا صاحبي لم ترها

أجاب : كلا . . إنها موجودة من غير شك

فقلت : يا صاحبي . . إذن فالله موجود . ولا يطعن فى وجوده أنك لم تره ، أتستطيع أن تزعم رؤية الحياة الجارية فى الغصن الأخضر أتستطيع أن تحس أو تبصر تنفس الزرع الذى ترعره يداك ؟ أتستطيع حتى أن ترى سر الحياة الكامن فيك . . أنت . . والذى إذا صمت صمتت بجواره الأشياء ؟

وبدا على الرجل أنه قد فهم بعض الشىء . ولكنه بحركة عفوية ، ربما تكون بجرد حب للحوار . . همهم فى خفوت :

ولكن غيرى من الناس رأوا أمريكا وروسيا ، وغيرهما مما تقول ، وغيره من العلماء والأطباء قد رأوا حياة الزرع وحياة الناس .

قلت : ولكنى ألفتك إلى أن أناسا كذلك قد رأوا ربهم ليس كما يحبون أن يروه . . . ولكن كما يحب هو أن يروه ، إن الرسل قد رأوه يا صاحبي وجلجلوا فى الناس : « إنا قد رأينا ربنا » .

قال : فهل أستطيع أن أجلس إليك لتضع يدى على حقيقة وجود الله ؟

قلت : وأنا أعرف ما فى الرجل من حس جمالى يتعشق مظاهر الجمال : يا صاحبي . . أنا أستطيع أن أضع يدك على حقيقة وجود الله . . ولا أستطيع . . إن ذلك يتوقف على مدى تراحب عقلك ، وحسك ومدى ارتفاعك معى عن مستوى القياسات الترابية الهامدة ، إلى مستوى القياسات الإلهية العليا ... إنك إن رأيت الله واحتويت وجوده لم يكن هناك فارق بين الله ، وبين سيجارتك التى تتنهد فى يدك . . لا بد من منطقة فاصلة بين الله والأشياء ... لا بد أن يظل الله أكبر من أن يرى وأجل من أن يحصر ... وأشمل من أن يحاط به . . يكفى دائما أن نرى الله فيما يبدع ويصوغ : فى الزهرة الراعشة على غصنها والموجة السارية فى غديرها — والضوء الحائر فى أفقه ، والنسمة الغافية على شواطئ العبير !! فى أجنحة هذه الحمامات المطوقة التى تنساب هائمة عبر الآفاق هنا وهناك ... فى هذه الأرض السمراء التى تتنفس كل يوم عن جديد ... فيك أنت يا صاحبي ... فى خفقات قلبك النابض ...

وهمسات روحك الشاعر .. ورقرقات خيالك المشبوب ...

قلتها للرجل هذه الكلمات ... فإذا بشفتيه الذاويتين تختلجان فى رعشة بيضاء متمتما : يا سبحان الله العظيم ... تباركت ياذا الجلال والجمال ...

(البقية على صفحة ٦٢٣)

لم يكن يعبر عن تجربة شخصية ، وأن ذلك لم يخرجه عن دائرة الصدق ، إذ التجارب الخياليه كثيراً ما تقوم مقام التجارب الذاتية وأن دعوة أبي نواس إلى اطراح الغزل ليست إلا امتدادا لمبدئه في مهاجمته للمواضعات وأن دعوته إلى الابتداء بوصف الخمر ، إذا صلحت فإنما تصلح لأمثال الحكمي من عباد الخمر ، ولا تقوم مقام الغزل في الإشارة إلى الغرض الذي يقصده الشاعر ، والتهيئة لهذا الغرض بجو مناسب له من الغزل ، إقبالا أو إعراضا ، ألما أو نشوة ؟

كامل السيد شاهين

(بقية المنشور على صفحة ٦١٦)

ولست هنا أسوق هذه السطور كشهد تمثيل أو لمجرد أن أسود الصفحات ... أبداً فما إلى شيء من هذا قصدت .. وإنما هدفت من وراء ذلك إلى أن أؤكد أن الجمال أخصب مقدمة يمكن أن تفضي إلى نتيجة الإيمان إن الرجل لم يهتز بحوارى العقل . ولا بجدلي المنطق ... ولكنه تهاوى تحت مطارق الإحساس الجمالي الرهيف .. لقد أحس بأن هذه الكلمات التي يسمعها تعكس عالما بأسره يعيش في أطوائه وبين حناياه .. أحس بأنها تفتح عينيه على جمال الكون ، وأقداس الطبيعة ، لتقف منها على ما لم يقف عليه من قبل أو قل على ما كان يقف عليه في عفوية ساذجة بريئة ...

وبعد ...

فلسنا ندرى ماذا كانت تكون حياة الإنسان لو أنها أقفرت من الجمال ، وزخرت بأمواج القبح القبيح ، أغلب الظن أنها كانت لا بد أن تتحطم وتتهالك .. أو تأوى إلى كهف بارد منطوٍ الآفاق والأعماق ...

إذا ... فلنبارك الجمال كهبة من هبات السماء ... وهدية من هدايا الرب ، ولنمش هذا الجمال بكل ذرة من ذرات كياناتنا الحي . لتكن أعماقنا جميلة ... ولتكن أخلاقنا جميلة ... ولتكن علاقاتنا جميلة ... ولتكن عقائدنا جميلة ... فإن هذا الجمال وحده هو الذي يمكن أن يخلع على الحياة والأحياء جميعا كل مظاهر الحب وكل مظاهر التطور . وكل مظاهر الإيمان .

وما أجمل أن تكون جميلا ... وأن أكون جميلا ...

وأن تحيا الأسرة الإنسانية كلها عابدة في محارب الجمال ؟

محمد أحمد العزب

رأى جديد

هدف الغزل الجاهلى

للأستاذ كامل السيد شاهين

---

١ - كانت العرب تبدأ قصائدها فى الكثير الشائع بالغزل ، لما أن الحب من العواطف العامة التى تستصبى الفتى ، وتهز قلب الرجل ، وتثير ذكريات الشيخ ، ومن ثم كان موقعه من النفس جالبا اللذة والارتياح .

ولما كان هم الشاعر أن يثير فضولك ، ويحملك على الإصغاء ، ويجذب قلبك إليه كان أحسن المداخل أن يهز عاطفتك بأنغام تستهويك . وليس أقدر على ذلك من تحريك قلبك بالغزل ، وذكر الصبابه ، وموادة النساء .

ولما كان ذلك يتصل فى أكثر الأحيان عند العرب الجاهليين بذكر الرحلة ، من حيث إنهم قوم نجعة وارتياد ، وتقلب بين الأماكن الصالحة ، وكانت الرحلة ضربة شتات بين أليفين اتصلا زمنا وتجاوبت منهما القلوب .. كان لابد من ذكر التعريج على أماكن الصبوة والخلوة ، لما وراءها من إثارة حبيبة ، وذكر جياشة بأحر العواطف .

ومن هنا كان ذكر الأماكن فى مطالع القصائد ، وذكر مالاقاه العاشق من عنت ..

وربما كانت ناقة الشاعر مجالا طيبا لوصفه ، لأنها أداته إلى معاهد الحب ، ولأنها أيضا صديقه الذى يشركه فى الاضطراب بين الدارات والمناجع .

٢ — وأكبر الظن أن الشعراء - حاشا العشاق منهم - عندما يطالعوننا بالغزل فى صدور قصائدهم ، لا يقصد أحدهم وصف حبيبته هو ، ولايذكر وداعها هى ، ولا يريد بوقفته على الأطلال أن يريك ذلك منه وإنما هو يذكر حبيبتك أنت ، ويصف حبيبتك أنت ، ويريد أن يذكرك بوقفتك أنت .

فالأعشى عندما يودع هريرة لا يريد بها إلا (رمزاً) لحبيبتى، وحبيبتك ، ولايريد بها امرأة أو فتاة خاصة بينها وبينه حب وعلقة .

والأعشى عندما يقول : إنها غراء فرعاء مصقولة العوارض ، ثقيلة المشية بهية الطلعة ، إنما يبتغى إصابه شىء من وجوه الحسن التى تحمل الرجل على التعلق بالمرأة ، فهذا يحب فتاته لأنها صافية اللون ، وضاحة الجبين ، وهذا يحبها لأنها جزلة الشعر ، سابغة الفرع ، وهذا يعشق منها ثغرا واضحا ، كشعاع الشمس فى الغيم سطع .. فهو إذن يبحث عن مجالب الهوى من أسباب الحسن .. ليصيب السامع ويبعثه على الإصغاء .

ولعل هذا الارتياد لأسباب الإغراء والهوى هو الذى صبغ الغزل الجاهلى بهذا اللون المادى التكشف ، فظنه - من لا يعرف - إسفافا ونهما شهويا ، وتلذذا بهذه المفاتن . وليس ذاك ، وإنما هو استهواء السامع واجتذابه ، وترغيبه فى الاستماع .

وآية ذلك : أن الشاعر لا يذكر حبيبة واحدة ، وإنما يذكر حبائب كثيرات ، وربما كن من بنات الحوانيت ، وربات الهوى ، فأولئك لاحشمة معهن ، ولاحرج فى وصف مفاتنهن ومحاسنهن ، على حين أن الحرائر مصونات ، لا يجرؤ العاشق أن يذكرهن ولا أن يصف منهن . وللغيرة فى نفوس العرب سورة عجب ، فلا سبيل إذن إلى تناول المرأة وتفصيل أوصافها ، وتكشيف مفاتنها .

٣ — إذن فالغزل فى أكثر أمره - عند الجاهلى - خيال وليس حقيقة ، والغزل - فى أكثر أمره عند الجاهلى - يتصل بأوصاف الجسد من الوجه والبسمة والنظرة ومن الفرع والخصر ، ومن الردف والساق ، ومن الجيد والنهد ، وغير أولئك مما يقع عليه الحس ... وإنما ذهب هذا المذهب لأن الفتون بالجسد هو التجربة العامة عند سائر الناس ، أما ما يتصل بالعواطف من شجن وتلذع ، ومن هيام وخفقان ، ومن شقوة وإسعاد ، فهذا من التجارب الخاصة التى تنال بعض الأفراد دون سائرهم .

فهذا هو الذى دفع الجاهلى لسلوك هذا الطريق !

ولعلك تقول : فالغزل الجاهلى زيف كله ، لأنه افتراضى فلا أصل له ، ولا صدق فيه .

وإذا كان الأدب صياغة فنية لتجربة بشرية فهذا ليس أدبا لأنه لم يقم على تجربة حقيقية . فلنمنح الغزل الجاهلى عن ميدان الأدب بهذا الاعتبار .

ونحن نؤمن بأن الغزل الجاهلى - إلا أقله - لا يقوم على التجربة الشخصية ، وليس مستمدا من واقع الحياة ، ولكن من قال : إن الأدب لا يكون أدبا إلا إذا قام على تجربة شخصية نابعة من الواقع ؟ ومن قال : إن معايير الصدق والكذب قد وقفت عند حدود التجربة الشخصية ؟ بل إن الأديب قد يبلغ بخياله الخصيب ، وملاحظاته الدقيقة إلى حدود تكون أعمق صدقا ، وأكثر غنى من واقع الحياة !

وإن الأديب ليستمد من تجارب غيره رؤى تكون لها ملامح الحياة وخصائصها ، وهو لم يعش تلك التجارب ولم يعانها .

ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أن الأديب لا يمكن أن يصدق فى وصف آلام المخاض لأنه لم يعان التجربة ولم يعشها ؟

ومن ذا الذى يستطيع أن يدعى أن أديبا مثل شوقى ، قد عاش حياة المجنون وكاوبترة وعلى بك الكبير ، وقمبيز ، وعاش كذلك

حياة الست هدى ... بما فى هذه الحيوات من تدله ، ومكر ، وغدر ، وجبروت ، وسفح للدماء ، ورغبة فى الرجال .

ولو صح أن نقف عند حدود التجارب الشخصية ، وأعطيناها صفة الصدق دون التجارب الخيالية والتاريخية والأسطورية والاجتماعية ، لضيقنا مجال الأدب ، وأنضبنا مشارعه ، ولوجب على كل أديب أن يندفع إلى حيوات الانحلال والعربدة والجريمة ليكتسب التجارب الشخصية التى تحقق له الصدق ...

٤ — ولم يكن ابتداء الجاهلى بالغزل مسألة استصباء واستمالة فحسب ، بل هناك خاصية فى الغزل ليست ميسرة فى غيره من الفنون .

فأنت تستطيع أن تطوع الغزل لسائر الفنون ، فيكون غزلك غزلا مبتهجاً فرحاً ، ويكون غزلك غزلا عابثا زارياً ، أو يكون غزلا خائفاً مذعورا ، أو يكون صارما مدابرا ، باكيا حزينا .

ولقد تنبه القدماء والمحدثون لهذا الأصل وأدركوا أن الشاعر يضع غزله مناسبا لغرضه من القصيدة .

وقد عد صاحب الصناعتين من أبرع المطالع قول النابغة فى إحدى قصائده الاعتذارية :

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطىء الكواكب

فأنت ترى الشاعر بحذاقته وتلطفه وإرهاف شعوره قد استطاع أن يأتى بصفة عامة مشتركة بين الخائف المذعور المتوجس من الشر يطارقه فى كل حين ، وبين المحب الواله الذى يعتاده الهم فيرى الليل طويلا كأنه لا تتحول نجومه ... وهى بعد : مناسبة لبيئتنا العربية القديمة التى يمد فيها الليل مصدر الهول والإفزاع . ففى الليل تكون غارات الأعداء وتسلل الوحوش ، وسرحة الهوام ، وإضلال الماء ، واستبهام الطرق ، مما يلقى الرهبة فى نفس البدوى .

ولقد تجد دلالة الغزل على روح القصيدة فى مطلع دريد بن الصمة عند ما قتل أخوه عبد الله ، فقد جاء به غزلا ناعيا مؤذنا بالتفرق والانقطاع ، وانتهاء المودة ، فقال :

أرث جديد الحبل من أم معبد
بعاقبة ، أم أخلفت كل موعد

فلا وصل بينه وبين أم معبد إذ رث حبلها ، ولا لقاء بينه وبين أم معبد إذ هى مخلفة كل مواعيدها ... وإنما قال ذلك وهو ناظر إلى أنه بسبيل تفجع على فراق لا وصل بعده ، وانقطاع لا أمل معه فى لقيا .

ولقد لمح ذلك الدكتور طه حسين عند تناوله لقصيدة المثقب العبدى ، التى يغلظ فيها العتاب لعمرو بن هند ، ويخيره بين المودة الصريحة ، أو العداوة الصريحة . فجاء بهذا المطلع مغلظاً لصاحبته فاطمة :

أفاطم : قبل بينك متعيني
ومنعك ما سألت كأن تبيني
فلا تعدى مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دوني (١)
فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني
إذاً لقطعتها ، ولقلت : بيني .
كذلك أجتوى من يجتويني

قال الدكتور طه حسين :

« فهو في هذا البيت الأول قليل الرفق بصاحبته ، حريص على أن تمتعه قبل رحيلها بالنظر والحديث والتحية ، ولكنه لا يطلب إليها ذلك فيما ينبغي أن يكون عليه العاشق من الرفق والإلحاح الذي لا غلظة فيه ولا عنف . وإنما هو يطلب إليها ذلك في شيء من الجدال المنطقي العنيف ، ألست تراه يزعم لها أنها إن منعته ما سألها فكأنها قد ارتحلت عنه ، وكأنما انقطعت بينها وبينه الأسباب ، فقربها منه وجوارها له لا يغنيان عنها شيئاً إذا لم يصحبها الوصل .

وصاحبنا متعجل ملح مشفق من خيبة الأمل ، لا يطمئن إلى الوعد ، ولا يستريح إلى الأمل :

فلا تعدى مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دوني

(١) خص رياح الصيف لأنها تأتي بالغبار والعجاج ، فلا خير فيها .

ثم هو ينتقل من الطلب الملح ، والتشدد المشفق إلى الوعيد والنذير ، فهو لا يرضى من صاحبته هذا المطل ، ولا يحب منها هذا الخلاف ، وهو قد صبر وصابر على قلة حبه لهذا النحو من الصبر والمصابرة ، فلو أن إحدى يديه خالفته كما تخالفه فاطمة هذه لما وصل بها يده الأخرى ، بل لقطعها قطعا ولقال لها : إذهبي إلى غير رجعة ، فإني أكره من يكرهني ، وأتحول عمن يتحول عني .

ثم قال :

ولابد أن ننصف الشاعر ، فهو ينشئ قصيدته في العتاب ، وهو يفكر من غير شك في صاحبه الذي سيعاتبه حين ينتهي إليه ، أكثر مما يفكر في صاحبته التي يطلب إليها المتاع .

فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة القاسية الغليظة ، ووجه إليها هذا النذير الغليظ الخشن ، فهو خلق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازما صارما ، ومتشدداً قاطعا ، لا يحب الموادة ولا اللين (١)

٥ — وظل الشعراء يتبعون هذا النهج حتى كانت دعوة أبي نواس إلى اطراح التغزل جملة في مطالع القصائد ذهابا إلى أن هذه بلاغة القدم الجاهل .

أوكانت هذه الدعوة من أبي نواس جهلا بالغرض الذي كان يقصد إليه الشعراء

(١) من حديث الأربعاء ج ١ ص ١٦٢ .

حين يستفتحون قصائدهم بالغزل ، وعدم فطنة إلى المرمى الحقيقى له من الاستباء والاستصباء ..

أكبر الظن أن أبا نواس كان يقصد الخروج على المواصفات ، فقد كان لهجا بالسخرية من كل ما يتلقاه الناس بالقول والإذعان ، فهو ثائر على الأوضاع الدينيـــة ، ثائر على العرب ، ثائر على نظام القصيدة ، ثائر على اللغة .. وعلى الجملة فإنك لا ترى مواضعة اتفق النـاس على إنزالهـا منزلة الجـلالة إلا هاجها أبو نواس

والذى يعنينا أن ننظر : أكان أبو نواس على حق فيما دعا إليه من هجر الغزل واستبداله بالخمر ؟ .

أما إن أبا نواس لو دعا إلى عزل المقدمات جملة ، وبدء القصائد بما هو المقصود ، والاستغناء عن هذا التقليد الذى التزمه الناس دون اعتبار لمرماه ، ودون نظر إلى مناسبته ، ودون تحر لصدقه فصاروا يذكرون رامة واللوى والأجرع والزوراء ، وصـاروا يذكرون الأطلال العافية ، والدمن البالية ، دون أن يصدروا فى ذلك عن أصل ، ودون أن يكون للمخاطبين أنفسهم عهد يمثل هذه المواقف يهز قلوبهم ، ويثير ذكرياتهم ، بعد أن سكنوا القصور ، وعمروا المدن وجهلوا كل شئ فى حواضرهم عن الرحلة والمعاهد التى تبلى ، وتحول ..

لو دعا أبو نواس إلى اطراح هذه المقدمات التى لا تهز ولا تثير ، لأنها استنفدت أغراضها ، ولم تعد ذات شأن وأثر .. لصح أن تكون دعوة متقبلة .

ولـكنه يريد أن يستبدل مقدمة بمقدمة أخرى .. يريد أن يحول بين الناس وبين ذكر الطلول ، ليدعوهم إلى وصف ابنة الكرم :

صفة الطلول بلاغة الفدم
فاجعل صفاتك لابنة الكرم
تصف الطلول على السماع بها
أفذو العيان كأنت (١) فى الحكم
وإذا وصفت الشىء متبعاً
لم تخل من خطأ ومن وهم !

يريد أن يحول بينهم وبين ذكر الحبائب ، وأن يجعلوا ذكرهم للحمراء الحبيبة المشرقة :

لا تبك ليلى ، ولا تطرب إلى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويسخر من هذا الذى يذكر الوقوف على الديار والأطلال :

قل لمن يبكى على ربع درس
واقفا ، ما ضر لو كان جلس !

فثورة أبى نواس هــذه جديرة بالتقدير من ناحية أن فى متابعة الأقدمين على اختلاف

---

(١) هذا من أبى نواس خروج أيضا على المواضعات اللغوية ، فإن حرف الجر لا يجوز أن يدخل على ضمير الرفع والصواب أن يقول (مثلك) فى الحكم .. ولـكنه أبو نواس !

الوضع ، واختلاف البيئة جناية على الصدق صدق الشعور ، وفيها تزييف صارخ للعواطف والمواقف ، وفيها تهمة واضحة من السامع للشاعر .

ولكنها لا قيمة لها من جهة أخرى ، من ناحية أنه يريد من كل شاعر أن يذكر الخمر ويتغنى صفاتها .. ومعلوم أن ليس جميع الشعراء يحبون الخمر حب أبي نواس ، أو يبرعون في وصفها براعة أبي نواس .. وليس حب الخمر (كحب النساء) عاطفة مشتركة ، تلذ الشاب والرجل والشيخ ، وربما كان مقتها كبيراً في النفوس الصالحة التي غلب عليها الدين والتوقر .

إذن فلا تصلح الخمر أن تكون بديلا من الغزل ، إذ لا تثير مايثيره الغزل من انفعالات مشتركة فلو اتبعنا دعوة أبي نواس لم نخل من تزييف الشعور ، ولم نتحرر من كذب التغزل في المرأة إلا لنقع في كذب التغزل في الخمر .

ولذلك لم يستطع أبو نواس نفسه أن يطبق مبدأه هذا ، بل عاد إلى ذكر الغزل ، واصطناع المرادة والمحاورة بين جارته وبينه ، في مدحته للخصيب ، فذلك حيث يقول :

أجارة بيتينا أبوك غيور
وميسور ما يرجى لديك عسير
فإن كنت لا خلا ولا أنت زوجة
فلا برحت دوني عليك ستور

ثم يقول :

تقول التي من بيتها خف محملي
عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب
بلى ؛ إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها ، واستعجلتها بوادر
جرت فجرى في جريهن عبير
ذريني أكثر حاسديك برحلة
إلى بلد فيه الخصيب أمير

وإن كان من الحق والإنصاف أن نقول : أنه سلك في غزله طريقة مقبولة ، فلم يذكر رحلة ناقة ولم يقف على طلل ، ولم يحاول أن يخلع روحه الحضرية ليتقمص روحا بدوية كما كان يفعل الشعراء في عصره .

والرأى عندى ، أنه كان ينبغى لأبي نواس أن يستبقي الغزل ، في مطالع القصائد التي تتناسب أغراضها معه ، على أن يكون على طريقة الحضر ، لا على طريقة البدو ، فهذا أدخل في الصدق ، وأنأى عن الزيف ، وأحق بأن يستصبي السامع الحضرى الذى لم يمارس حياة البادية ، ولا تثيره معاهدها ، ولا نؤيها وأطلالها .

٦ — وجملة الأمر : أن الغزل الجاهلي - في الأعم الأشيع - كان يراد به اطباء السامعين واستهواؤهم وأنه - في الأعم الأشيع كذلك -

لم يكن يعبر عن تجربة شخصية ، وأن ذلك لم يخرجه عن دائرة الصدق ، إذ التجارب الخياليه كثيراً ما تقوم مقام التجارب الذاتية وأن دعوة أبي نواس إلى اطراح الغزل ليست إلا امتدادا لمبدئه في مواجهته للواضعات وأن دعوته إلى الابتداء بوصف الخمر ، إذا صلحت فإنما تصلح لأمثال الحكمى من عباد الخمر ، ولا تقوم مقام الغزل في الإشارة إلى الغرض الذي يقصده الشاعر ، والتهيئة لهذا الغرض بجو مناسب له من الغزل ، إقبالا أو إعراضا ، ألما أو نشوة ؟

كامل السيد شاهين

(بقية المنشور على صفحة ٦١٦)

ولست هنا أسوق هذه السطور كشهد تمثيلي أو لمجرد أن أسود الصفحات ... أبدا فما إلى شيء من هذا قصدت .. وإنما هدفت من وراء ذلك إلى أن أؤكد أن الجمال أخصب مقدمة يمكن أن تفضى إلى نتيجة الإيمان إن الرجل لم يهتز بحوارى العقل . ولا بجدلى المنطق ... ولكنه تهاوى تحت مطارق الإحساس الجمالى الرهيف .. لقد أحس بأن هذه الكلمات التي يسمعها تعكس عالما بأسره يعيش فى أطوائه وبين حناياه .. أحس بأنها تفتح عينيه على جمالى الكون ، وأقداس الطبيعة ، لتقف منها على ما لم يقف عليه من قبل أو قل على ما كان يقف عليه فى عفوية ساذجة بريئة ...

وبعد ...

فلسنا ندرى ماذا كانت تكون حياة الإنسان لو أنها أقفرت من الجمال ، وزخرت بأمواج القبح القبيح ، أغلب الظن أنها كانت لا بد أن تتحطم وتتهالك .. أو تأوى إلى كهف بارد منطفىء الآفاق والأعماق ...

إذا ... فلنبارك الجمال كهبة من هبات السماء ... وهدية من هدايا الرب ، ولنمش هذا الجمال بكل ذرة من ذرات كياناتنا الحى . لتكن أعماقنا جميلة ... ولتكن أخلاقنا جميلة ... ولتكن علاقاتنا جميلة ... ولتكن عقائدنا جميلة ... فإن هذا الجمال وحده هو الذى يمكن أن يخلع على الحياة والأحياء جميعا كل مظاهر الحب وكل مظاهر التطور . وكل مظاهر الإيمان .

وما أجمل أن تكون جميلا ... وأن أكون جميلا ...

وأن تحيا الأسرة الإنسانية كلها عابدة فى محارب الجمال ؟

محمد أحمد العزب

ما يقال عن الإسلام بين الأمس واليوم

للدكتور أحمد فؤاد الاهوانى

كان ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى ضربة قاضية على أكبر إمبراطوريتين فى العالم القديم، وهما الفرس والروم، وانتشر الإسلام من الشرق إلى الغرب بسرعة عجيبة، ليس لها مثيل فى التاريخ حتى اليوم، وظل الإسلام ينتشر ويمتد حتى القرن الخامس عشر الميلادى، حين بدأ يتراجع من الأندلس، ولكنه فى الوقت نفسه، أخذ يندفع بقوة من جهة الشرق نحو أواسط أوربا، ومن الطبيعى أن يحدث فى أثناء ذلك مد وجزر، وأن تقع تاريخيا مواقع دامية تمثلت فى الحروب الصليبية التى استمرت زهاء قرنين من الزمان، وفى غزو المغول الذى وفد من أقصى الشرق، وانتهى بصده وإسلام المغول أنفسهم، وظل الإسلام ثابتا شامخا كالطود، بل استطاع أن ينتشر فى بقاع جديدة من الدنيا، لا بحد السيف، بل بقوة العقيدة كالحال فى أندونيسيا.

فما هى القوة الكامنة فى الإسلام التى جعلته ينتشر هذا الانتشار فى أرجاء العالم، وأن يقف فى وجه الهجمات الخارجية على الرغم من ضراوتها.

هذا هو السؤال الكبير الذى دار فى خلد الدول غير الإسلامية قديما، والذى لا يزال محيراً أذهان أصحاب الملل غير الإسلامية إلى اليوم.

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر بدأت أوربا مع النهضة الصناعية والاستعمار الجديد تجيب عن هذا السؤال بشكل جديد، بعد أن اختل ميزان القوى بين الشرق والغرب، وتجمد الشرق وأخذ فى الضعف، على حين نهض الغرب، وصعد سلم القوة بسلاح العلم والصناعة والتصنيع.

ولقد اتجه البحث منذ ذلك الحين عن سر قوة الإسلام يسير فى طريق علمى، وتسلم رايته جماعة يسمون بالمستشرقين، وقد عالجوا هذا البحث من زوايا شتى، وهى تكون على اختلافها دراسات متكاملة،

بدأت هذه الأبحاث بما ينبغى البدء به ، أى بنشر الأصول نشراً علميا محققا مع العناية بالفهارس للاستفادة من تلك الكتب ، وهكذا نشر أعظم موسوعة تاريخية وهو تاريخ الطبرى ، كما نشرت المكتبة الجغرافية التى تشمل زهاء عشرة كتب فى الجغرافيا ، وكتب طبقات الأطباء وهى الفهرست لابن النديم ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وأخبار الحكماء للقفطى .

ثم اتجه البحث ثانياً بعد نشر الكتب الخطية إلى الكتابة عن العلوم والفنون العربية المختلفة ، مثل الطب ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، وغير ذلك . وأحسب أن قراء العربية يذكرون كتاب المستشرق الإيطالى ، نللينو ، الذى جاء إلى مصر عند افتتاح الجامعة المصرية ، والتى محاضرات فى تاريخ علم الفلك عند العرب ، طبعت كتاباً سنة ١٩١١ . فهذا نموذج لتلك الدراسات العلمية .

ثم اتجه البحث ثالثا إلى الكتابة عن الإسلام نفسه ، ورأى المستشرقون فى ذلك الحين أن جوهر الإسلام وقوته فى التصوف فتعددت دراساتهم عن هذا العلم . حقا كان التصوف منذ القرن الخامس الهجرى تأثير فى المسلمين من جهة تمسكهم بالدين ، وبخاصة بعد نشأة الطرق الصوفية التى كانت تجمع بين الدين والعلم والسياسة لأن « الرباطات » الصوفية كانت المواقع الأمامية للمسلمين التى يدافعون منها عن البلاد . وظل للطرق الصوفية هذا الأثر فى القرن التاسع عشر ، ولكنه أخـــذ فى التدهور شيئاً فشيئاً مع النهضات الحديثة فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ...

* * *

كان ذلك حال الدراسات الغربية عن الإسلام ، وهى التى تلخصها الاتجاهات الثلاثة السابقة ، نشر المخطوطات ، والعناية بالعلوم عند العرب ، والأبحاث فى التصوف والعقيدة بوجه عام .

وقد استنفدت تلك الاتجاهات أغراضها . إذ أن معظم الكتب الهامة قد فرغ المستشرقون من نشرها ، وقد ترجم بعضها لأهميته ، كما أن المباحث عن التصوف لم يعد فيها حاجة لمستزيد .

ولذلك وجب أن تتجه الأبحاث عن الإسلام وجهة جديدة ، يمكن أن تلخص فى أمور ثلاثة .

(١) الكشف عن التأثير الأجنبى فى الحضارة الإسلامية قديما ، وكيف وقع هذا التأثير ، وعلى أى نحو ، وفى أى المدن وما هى الكتب التى نقلت إلى اللغة العربية وكان لها تأثير فى تلك الحضارة .

وهذا النوع من الدراسة فى غاية التخصص

ويحتاج إلى تتبع الكتب فى ترجماتها الأولى وموازنة هذه الترجمات العربية بأصولها السريانية واليونانية. فنحن نعرف أن معظم التراث اليونانى كان قد نقل فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين إلى اللغة السريانية، فلما ظهر الإسلام، واستتب وبدأت حركة الترجمة منذ أوائل الدولة العباسية، واشتدت زمان الرشيد والمأمون والمعتصم فى بغداد، نقلت الكتب عن السريانية، وكان يكتفى بهذا النقل، أو تراجع الترجمة على الأصل اليونانى وقد حدث عند نقل الكتب من اليونانية إلى السريانية شىء من التغيير لاختلاف اللغتين، فلما نقلت الكتب مرة أخرى من السريانية إلى العربية وقع تغيير آخر.

ومن أحسن الدراسات الخاصة بهذا الضرب من الترجمة عن اليونانية من خلال السريانية، ذلك البحث الذى قدمه الدكتور خليل الجبر عن مقولات أرسطو، فى أصلها اليونانى، ثم فى ترجمتها السريانية، ثم فى ترجمتها إلى العربية. وهى دراسة نال بها إجازة الدكتوراه من جامعة السربون، فى أثناء الثلاثينيات من هذا القرن.

ولما كانت هذه الدراسات فى غاية الصعوبة كما ذكرنا؛ فإنها تحتاج إلى انقطاع وزمن وتخصص ومعرفة وثيقة بعدة لغات، ولذلك لا يزال يعمل بعض المستشرقين منذ سنوات كثيرة فى إعداد مخطوطات للنشر مع موازنتها بأصولها اليونانية، ولم تصدر أعمالهم بعد. أما الذين يستعجلون؛ فإن دراساتهم على الرغم من أهميتها تتسم بالضعف. مثال ذلك الدراسة التى نشرها الأستاذ فرنشسكو جبرييلى لكتاب « تلخيص النواميس » للفارابى. نشر النص العربى فى (٤٢) صفحة، وترجمه إلى اللغة اللاتينية، ووضع معجما بالألفاظ العربية وما يقابلها باليونانية فى ثلاث صفحات تقريبا. وكان الأجدر أن يكتب مقدمة البحث بلغة حديثة كالانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية بدلا من اللاتينية، وكذلك الترجمة. وما دام الناشر قد آثر اللاتينية، فلست أدرى لِمَ لَمْ يضع المصطلحات اللاتينية إلى جانب اليونانية. وليس غرضنا الآن نقد النص المنشور، وإنما غرضنا فقط بيان عناية المستشرقين بالموازنة مع الأصول اليونانية. ومن هذا القبيل أيضا، على سبيل المثال لا الحصر، كتاب علم العدد لنيقوماخوس، والذى نشره المستشرق « كوتش »، وهذا الكتاب ترجمة عربية قديمة لكتاب فى علم العدد، من تأليف نيقوماخوس أحد الرياضيين الذين كانوا يعيشون فى الإسكندرية، ويعد من علمائها. وقد نشر المستشرق فى آخر الكتاب ثبتا

بالمصطلحات العربية وما يقابلها باليونانية .

هذا الاتجاه نحو عصر الترجمة فى الإسلام لاشك يجلو جانبا مهما فى تاريخ الثقافة العربية ، ويثبت كيف استطاعت اللغة العربيـــة أن تكون لغة حضارة عالمية ، ولغة علم تتسع لجميع العلوم .

٢ — الاتجاه الثانى نحو العلوم عند العرب. حقا كانت الدراسات عن العلوم بدأت منذ القرن التاسع عشر ، بعضها فى الطب ، وبعضها الآخر فى الرياضيات كالحساب والهندسة ، إلا أن تلك الدراسات لم تكن مستفيضة ، وكانت تحتاج إلى مزيد من العمق والإحاطة والمتابعة .

وكانت هنـاك علوم بأكملها لم يدرسها المستشرقون فى القرن التاسع عشر ، مثل علم الكيميـــاء الذى لم يبحث بمعنى الكلمة إلا على يد المستشرق « كراوس » الذى وفد إلى مصر قبل الحرب العظمى الثانية ، وبقى بها إلى عام ١٩٤٥ تقريبا عندما انتحر لأسباب لم يكشف الستار عنها بعد ، لأنه كان يهوديا ، ويبدو أن إسرائيل كانت قد طالبته بأمور عجز عن فعلها . وقد طبع بحثه عن « جابر ابن حيان » باللغـة الفرنسية فى مصر ، فى مجلدين ، وذلك بالمجمع العلمى المصرى . وكان « كراوس » قد نشر قبل ذلك جزءاً كبيراً من رسائل جابر بن حيان .

وعلم آخر لم يدرسه المستشرقون من قبل اللهم إلا فى مقدمة كتبها أحدهم بمناسبة نشر كتاب فى الجغرافيا . ثم انقطع عالم مستشرق روسى، هو « كراتشوفسكى » لدراسة هذا العلم ، وأحاط بجميع الكتب الجغرافية العربية ، والتى كانت قد نشر بعضها باسم « المكتبة الجغرافية » ، ثم كتب بحثا مطولا فى مجلدين باللغة الروسية ، وقد ترجم هـذا الكتاب الجليل إلى اللغة العربية عن الروسية رأساً ، وصدر منه الجزء الأول (الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، والجزء الثانى فى المطبعة وسيصدر قريبا . ويعد هذا الكتاب نموذجا للتـأليف الرصين ، المحيط بكل أطراف الموضوع إحاطة تامة ، مع معرفة وثيقة بالبلدانيات ، والتضاريس ، والأجواء ، والأفلاك ، والأدب واللغة ، لأن الجغرافيا فروع كثيرة ، وبعض هذه الفروع كان يؤخذ من كتب اللغة وقواميسها . ومن أجل ذلك جعل المستشرق عنوان كتابه « الأدب الجغرافى عند العرب » .

وقد أشرنا من قبل إلى كتاب الأستاذ « نللينو » ، « علم الفلك عند العرب » والذى صدر سنة ١٩١١ أى منذ أكثر من خمسين عاماً ، وأكبر الظن لو أن هذا المستشرق كان لا يزال على قيد الحياة ، لأصدر من كتابه طبعة ثانية معدلة تعديلا أساسيا فى ضوء

المخطوطات العربية التى كشف عنها، وطبع بعضها. ومع ذلك لا يزال كتابه ذا قيمة كبيرة، وإن احتاج إلى تعديل، فى بعض التفصيلات لا فى الهيكل الأساسى.

ولكن هناك علوم عربية كثيرة لا تزال فى حاجة إلى دراسة شاملة مثل علم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الجيولوجيا، وعلم الهندسة، وفروع كثيرة من العلم الرياضى، وعلم الطب، وعلم الصيدلة والعقاقير، وغير ذلك. وإذا كان من الصحيح أن دراسات جزئية قد تمت فى كل هذه العلوم، إلا أن التأليف الشامل فيها، والمحيط بها لم يتم بعد، لا على أيدى المستشرقين، ولا على أيدى المسلمين أنفسهم.

نقول ذلك لأن المسلمين والعرب بدءوا يتلقفون الكرة من أيدى المستشرقين، فأقبلوا على التأليف فى هذه المجالات بالمنهج الحديث المنظم الذى كان يسير عليه المستشرقون. وفى بعض الأحيان يشترك مستشرق غربى، ومسلم عربى فى إخراج دراسة واحدة. مثال ذلك كتاب « الفلاحة » لابن بصال، الذى نشره وترجمه، وعلق عليه اثنان، أولهما « خوسى مياس بييكروسا » الأستاذ بجامعة برشلونة، والثانى « محمد عزيمان » السكرتير العام لوزارة التربية بالمغرب. والكتاب من منشورات معهد تطوان سنة ١٩٥٥. ومثال آخر لهذا التعاون كتاب « هنرى كوربان » عن تاريخ الفلسفة الإسلامية الذى ظهر هذا العام فى باريس، بالاشتراك مع « سيد حسين نصر » و « عثمان يحيى ».

ولكنى أقصد إلى شىء آخر، وهو استقلال المؤلفين العرب أو المسلمين بالتأليف باللغات الأجنبية. ومثال ذلك كتاب جليل صدر منه الجزء الأول والثانى فى طريقه إلى الصدور، بعنوان تاريخ الفلسفة الإسلامية A History of Muslim Philosophy أشرف على تأليفه الأستاذ شريف من الباكستان، وجميع الكتاب الذين كتبوا فصوله مسلمون إما من الباكستان أو الهند أو مصر والشام والعراق وغير ذلك من الدول العربية. وليس الكتاب خاصاً بالفلسفة فقط، بل بالفكر الإسلامى بوجه عام، إذ فيه فصول عن الفقهاء والمحدثين والمفسرين والأدباء، وقد اشتركت فى هذا الكتاب بفصلين أحدهما عن الكندى والآخر عن ابن رشد، وهما باللغة الإنجليزية لأن الكتاب كله بهذه اللغة، وحتى الذين كتبوا باللغة العربية فقد ترجمت فصولهم إلى الإنجليزية. والكتاب منشور فى فيسبادن بألمانيا.

٣ — الاتجاه الثالث، وهو الأهم، نحو

الكتابة عن الإسلام من الناحية الاجتماعية والسياسية ، وقد اقتضت ضرورة العصر الاتجاه هذه الوجهة ، ذلك أن علم الاجتماع علم حديث جداً ، لم يصبح علماً بمعنى الكلمة إلا فى هذا القرن العشرين ، وكذلك الحال فى علم النفس ، لذلك كان لابد أن يدرس الإسلام فى ضوء هذين العلمين ، وبمناهجهما الحديثة دراسة جديدة ، سواء من الناحية التاريخية ، أم فى الوقت الحاضر .

إن الاهتمام بالنواحى السياسية والاجتماعية والأخلاقية فى الإسلام سمة مميزة لدراسات معظم المستشرقين فى الوقت الحاضر ، وذلك لسببين : الأول : أن الإسلام لم يدرس من قبل من هذه الزاوية ، فكان لابد أن تطبق عليه المناهج الجديدة فى البحث ، وأن يفتح الباب لمثل هذه الدراسات . والثانى : أن الغرض الأساسى للمستشرقين منذ قيام الاستشراق قديما وحديثا هو البحث عن السر فى قوة الإسلام والمسلمين . وقد اتجهت المباحث قديما نحو الكشف عن العقيدة الإسلامية وعن العلوم عند العرب ، واليوم يتجه البحث نحو تركيب المجتمع الإسلامى .

ونضرب مثالا ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ لكتابين أحدهما للأستاذ روزنتال بعنوان « الفكر السياسى عند المسلمين فى العصر الوسيط » طبع طبعة أولى سنة ١٩٥٨ ، وأعيد طبعه فى نشرة شعبية رخيصة سنة ١٩٦٢ .

والكتاب الثانى بعنوان « البناء الاجتماعى للإسلام » ، صدر سنة ١٩٦٢ ، للأستاذ « روبن ليفى » . ولهذا الكتاب قصة تؤيد ماتذهب إليه من تطور الدراسات الاجتماعية فى العصر الحاضر بسرعة سريعة . ذلك أن طبعته الأولى صدرت فى مجلدين سنة ١٩٣١ والثانى سنة ١٩٣٣ ، بعنوان « الإسلام من الناحية الاجتماعية » The Sociology of Islam ولكن تطور علم الاجتماع السريع اقتضى أن يعدل المؤلف من كتابه تعديلا جوهريا ، فأصدره فى طبعته الثانية المعدلة سنة ١٩٥٧ بالعنوان المذكور آنفا ، وهو بالإنجليزية The Social Structure of Islam

ومن الدراسات التى تنحو هذا المنحى ولكن بطريقة أخرى ، الكتب الثلاثة التى ألفها الأستاذ « مونتجومرى وات » ، والتى تؤلف « ثلاثية » عجيبة ، وهى على التوالى « محمد فى مكة » و « محمد فى المدينة » و « الإسلام وتوحيد المجتمع » . ولما كانت هذه الكتب الثلاثة ، أو ثلاثية « مونتجومرى وات » ، فى غاية الأهمية والخطر ، إذ اتبع فيها التفسير المادى للتاريخ إلى الحد الذى اتهم فيه بالشيوعية ، فهى لا ريب جديرة بالتنفيد ، وهذا ماسوف نصنعه فى المستقبل إن شاء الله .

دكتور أحمد فؤاد الأهوانى

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

خالد بن الوليد والدعوة المحمدية :

الأستاذ محمد نجيب المطيعي

هذا الكتاب الذى نشرته مكتبة الجامعات بالقاهرة تبلغ صفحاته زهاء ثلثمائة وعشرين صفحة ، مهد المؤلف له ببحث عن المقومات النفسية للعرب ، ثم أشار إلى ميلاد خالد ونشأته وحروبه فى الجاهلية ، كما تحدث عن مدونى التاريخ الإسلامى ، ونشأة التدوين ، ورأى أن عبد الله بن عمر أول من حاول التدوين موجها همه إلى نطق النبي الكريم بين أصحابه ، إلا أنه مزق صحيفته خشية أن تختلط بالقرآن ، ثم تبعه بعض التابعين الذين تلقوا عن ابن عمر ، وقد قام عروة بن الزبير بالتدوين نقلا عن غيره بدون إسناد ، وذلك فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وولى عروة ابن إسحق المتوفى عام ١٥١ ه مقتبساً معلوماته من عروة ، ثم يليهما ابن هشام الذى استقى معلوماته عن ابن اسحق مع أنه توفى بعده بقرن و نصف ، ثم تبعهم الواقدى ثم الطبرى وهكذا .

ويشير المؤلف إلى صفحة جديدة فى تاريخ خالد ، حيث تحول من دفاع عن الأوثان وذب عن تقاليد الآباء ، وبجود اللات والعزى ومناة ، إلى دفاع عن الإسلام وقيمه ومبادئه ، فكان إسلامه حادثا خطيراً فى تاريخ قريش ، اهتزت له جنبات مكة ، وارتعدت منه فرائص أبى سفيان زعيمها .

وينتقل المؤلف مع خالد فى المعارك التى اشترك فيها أو قادها ، إلى تبوك ، وإلى ثقيف ، وإلى البطاح ، وإلى العراق والشام ، ليسجل له بطولات حفل بها التاريخ ، وعبقرية عسكرية فذة لم تزل مثار دهشة وعجب إلى يومنا هذا .

والمؤلف لم يكن فى دراسته عن خالد بمجرد مؤرخ يتتبع الروايات الصادقة فى سيرة البطل ، وإنما كان باحثا ومدققا وممحصا لهذه الروايات ، وقد عنى عناية كبرى بالقضايا التى أثيرت حول خالد فى معاركه ، ليبين فيها وجه الحق والصواب ، ويزيح عنها غبار الإسفاف والافتئات معاً .

فقصة خالد مثلا مع بنى جزيمة ، قد أخذ على خالد فيها أنه تعجل الفتك بهم ، ولم يمهلهم

حتى يتقين من قبولهم الدعوة الإسلامية أو رفضها حتى ينفذ حكم الله فيهم ، والمؤلف هنا بعد أن يسرد الروايات التاريخية للقصة يرجع عمل خالد في بني جزيمة إلى ثلاثة احتمالات يسوق على كل منها شواهد من التاريخ :

الاحتمال الأول : أن يكون خالد رأى القوم وعليهم سلاحهم ، فظن بهم الغدر ، وأراد أن يعاجلهم قبل أن يعاجلوه .

والاحتمال الثاني : أن يكون خالد رأى تردداً في بني جزيمة حيال دخولهم في الإسلام ، فأعمل فيهم السيف .

والاحتمال الثالث والأخير : أن يكون في نفس خالد بقية من إرث الجاهلية وأحقادها ، وقد كان بين بني جزيمة وبني سليم قوم خالد من ثأر .

ويخلص المؤلف بعد تمحيص هذه الاحتمالات إلى أن خالداً قد أخطأ في عمله هذا خطأ فدح بيت مال المسلمين بما غرقه من ديات وعوض بأمر من الرسول كعلاج لخطأ خالد ، وقد أخذ الفقهاء من هذه القصة حكم القائد الذي يخطىء ، فيودى عنه ما كان من دماء وأموال من بيت المال .

وينفي المؤلف عن خالد أن يكون قد قتل مالك بن نويرة ليحظى بامرأته الجميلة من بعده ، ويرى أن في القصة تهالكا وافتياتا على خالد ، وبما يبرىء خالداً أن مالك ابن نويرة لم يمت مسلماً ، ولم يكن قتله جناية من خالد ، ويستدل المؤلف برواية لقاء متمم ابن نويرة أخي مالك مع عمر بن الخطاب ، حين سمعه يرثي أخاه فقال عمر : « هذا والله التأبين . ولوددت أني أحسن الشعر ، فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك ، فقال متمم : والله لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته » . كما يستدل أيضاً بمناقشة أبي بكر لخالد حيث انتهت المناقشة ببراءته .

ويناقش المؤلف قصة عزل خالد إثر موقعة اليرموك ، بل ويشكك في هذه الرواية إذ ليس من طبيعة عمر الحازم أن يعزل قائداً في مثل هذه الظروف الحرجة . ويقيم تشككه على أن خالداً قد اشترك في بعض المواقع بعد اليرموك ، بل لقد وجد دينار ذهبي ضرب في طبرية في السنة الخامسة أو السادسة عشرة الهجرية من دنانير خالد ضربت على هيئة الدنانير الرومية .

الكتاب دراسة على جانب من الأهمية ، والمؤلف بذل جهداً له تقديره في تحليل الأحداث ، وتحقيق الروايات .

الإسراء والمعراج :

للدكتور محمد محمد أبو شهبة :

يقع في مائة صفحة وبضع صفحات من القطع المتوسط ، مهد لموضوع الإسراء والمعراج بتمهيد في ثلاثين صفحة عن حاجة البشر إلى الشرائع السماوية ، وحقيقة الرسل والمعجزة ، ومعجزات الرسول الحسية ،

وناقش المنكرين المعجزات الحسية، ثم انتقل إلى الموضوع نفسه، فتكلم عن الإسراء والمعراج وثبوتهما بالقرآن والسنة، وأكد أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معا، وناقش رأى المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد، وهو تصوير الإسراء والمعراج تصويرا روحيا مبنيا على فكرة وحدة الوجود، ويرى المؤلف أن هذه الفكرة فكرة خاطئة ومن مخلفات الفلسفات القديمة، وقد انتصر لها وتشيع بعض المتصوفة الذين ينتسبون إلى الإسلام وكتبوا بها فكان عاقبتهم الإلحاد فى الله وصفاته.

الخطر اليهودى

للأستاذ محمد خليفة التونسى

هذا الكتاب أول ترجمة عربية أمينة كاملة لبروتوكولات حكماء صهيون، قدم لها أستاذنا المرحوم العقاد، كما كتب المترجم مقدمة تحليلية فى مائة صفحة كشف فيها عن خطورة هذا الكتاب، وبعض عناصر المؤامرة الصهيونية، وذعر اليهود لنشر هذه البروتوكولات، كما قارن بينها وبين كتبهم المقدسة وأقوال ربانيهم وزعمائهم، وأكد أن المبادىء الصهيونية شر من المبادىء المكيافلية، وهذه النسخة العربية الوحيدة قام بترجمتها الأستاذ التونسى عن الطبعة الخامسة للترجمة الإنجليزية.

فضائل النبى فى القرآن:

للشيخ عبد الله الصديق الغمارى:

هذا الكتاب الذى نشرته مكتبة القاهرة بالأزهر يقع فى مائة وعشرين صفحة من القطع الكبير، تناول فيه المؤلف فضائل النبى من واقع كتاب الله فى جميع السور القرآنية، وألحق بهذا الكتاب بحثاً آخر فى ثلاثين صفحة تحت عنوان: «النفحة الإلهية فى الصلاة على خير البرية» ضمنه عديداً من الأحاديث النبوية التى تشيد بفضل الرسول وعلو منزلته.

الشريف الإدريسى وأثره فى الجغرافيا

للأستاذ مصطفى محمد كامل

هذه الرسالة إحدى حلقات «كتب إسلامية» التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، أراد المؤلف ببحثه أن يكون كشفاً للنقاب عن حضارة عربية ازدهرت على يد العرب، وإحساسا بفضل علمائنا وأثرهم فى تطور العلم، وفى مقدمتهم الخوارزمى، واليعقوبى، والاصطخرى، والمسعودى، وابن حوقل، والمقدسى، ثم الإدريسى الذى ولد عام ٤٩٣ هـ فى «سبتة» بالأندلس وقت إغارة المرابطين عليها.

محمد عبد الله السمان

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الإجابة لجنة الفتوى)

المراد بحديث « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة :

السؤال :

ما المقصود بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » . لأن هذا الأمر قد استشكل علينا ؟ أحمد عبد الله باغوث

كينيا - ممباسا .

الجواب :

حديث : « إذا أقيمت الصلاة ، فلا صلاة إلا المكتوبة » ، المراد منه النهي عن أن يشتغل المصلي بالنافلة إذا شرع المؤذن في الإقامة سواء تحية المسجد وركعتا الفجر وغيرهما من النوافل ، فإن ذلك يشغله عن إدراك فضيلة الركعة أو الركعتين معه وصلاة الجماعة آكد من صلاة النافلة فإنه قيل بوجوبها بخلاف النافلة فإنه مجمع على سنتها ، فإذا فعل وشرع في صلاة النافلة عند شروع المؤذن في الإقامة كان ذلك مكروها مع صحة صلاته . وقال بعض الأئمة : كان حراما ولا تنعقد صلاته ، أما إذا كان متلبسا بالنافلة قبل شروع المؤذن في الإقامة فإنه يتمها إذا لم يخش فوات الجماعة فإن خشي ذلك قطعها .

السؤال :

نقل الدم — عدم التبليغ عن الأمراض المعدية .

١ — ما حكم التطوع بالدم ... ؟

٢ — ما حكم عدم التبليغ عن الأمراض المعدية ... ؟ مهندس محمد وجدى المصرى

الجواب :

عن السؤال الأول نجيب : بأن التطوع بنقل الدم جائز بشرط أن تكون صحة المنقول منه قوية حتى لا يتضرر بنقل الدم منه قال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، وأن يكون الدم خالياً من الأمراض المعدية حتى لا تنتقل العدوى إلى غيره قال صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

وعن الثاني : نجيب بأن أخذ الحيطة في حال الإصابة بالمرض المعدي واجب صيانة للمجتمع عن تفشي الأوبئة وعدم التبليغ المصاحب للإهمال حرام لما فيه من تعريض المجتمع للعدوى بالأمراض الفتاكة ، الأمر الواجب على الجميع العمل على دفعه بقدر الطاقة .

السؤال :

وضع عين ميت لآخر

١ — هل يجوز إخراج عين ميت

ووضعها لأعمى لينتفع بها طوال عمره وهل يجوز الميت بذلك ثوابا إذ أن عينه ستصير بعد مدة ترابا ؟

٢ — ما حكم الصلاة على مكبر الصوت ؟

عبد الله أحمد — الهند

الجواب :

نجيب عن الأول : بأن الميت يتألم مما يتألم منه الحي غير أن ضرر الحي بفقد بصره أعظم فإذا تحقق لدى الإخصائيين أن نقل عين الميت إلى الحي نافع له جاز ما دام لا سبيل إلى التخفيف عنه غير ذلك تحقيقا للمصلحة بارتكاب أخف الضررين ، بشرط ألا يمانع في ذلك أهل الميت حتى لا تكون فتنة ، وبتقاتل الناس وألا يكون المنقول إليه مهدر الدم كالزاني المحصن والمرتد والحربي وإلا فلا حرمة له فلا يضر الميت لأجله.

وعن الثاني : نفيد بأن الصلاة على مكبر الصوت جائزة إذا احتيج إليه لإسماع المأمومين ولم يحدث به تشويش على مصل فإن حدث به تشويش على مصل حرم ، وإن لم يحتج إليه فالصلاة بخشوع أولى .

السؤال :

لحم الحلوف — زكاة الفول السوداني زكاة الخليطين :

١ — في بلادنا « أرتيريا » حيوان يسكن الخلاء والجبال يسمى « الحلوف » ويتغذى بأوراق الشجر وبفضلات النباتات فهل هذا الحيوان يؤكل أو يحرم أكله ؟

٢ — يزرع في بلادنا الفول السوداني بكثرة ، فهل يزكى الفول السوداني كما يزكى القمح والشعير أرجو أن تكون الإجابة على مذهب الإمام مالك ؟ .

٣ — في بلادنا تشترك الزوجة مع الزوج في تكوين ثروة حيوانية أو تجارية فهل يعتبر مال الزوج أو الزوجة معا بهذه الحالة كأنه مال واحد في الزكاة أم هناك تفصيل ؟.

عبد القادر عمر عبد — أرتيريا

الجواب :

عن الأول نفيد بأن الحلوف من الحيوانات المستخبثة عادة عند ذوي الطباع السليمة وهو أشبه بنزيره من وحوش كالذئب ونحوه فلا يجوز أكله ، وإن كان هو يأكل أوراق الشجر والنباتات فالحمار مثلا يأكل ذلك وهو محرم الأكل .

وعن الثاني بأن الفول السوداني تجب فيه الزكاة لأنه من القطاني السبعة التي عدها العلماء مما تجب فيه الزكاة ويحصل به الاقتيات عادة .

وعن الثالث بأن الخلطة لا يعتبرها المالكية إلا في النعم والإبل والبقر والغنم فإن الخليطين يعتبران حينئذ كمالك واحد أما في غير النعم ، فكل على ملكه لا زكاة عليه في ماله إلا إذا بلغ نصابا

وكذلك الحنابلة ، أما مذهب الشافعية رضي الله عنهم فإنهم يعتبرون الخليطين كمالك واحد في كل مال تجب فيه الزكاة سواء في ذلك الماشية وغيرها .

أنباء وآراء

مناقشات :

الأخلاق ولغة الأرقام

مناقشات كثيرة دارت فى الأيام الأخيرة بمجلس الأمة . فى محاولة حل ما أسماه سيادة الرئيس « بالمعادلة الصعبة » وتتلخص هذه المعادلة فى هذا السؤال البسيط :

كيف تنخفض أسعار المواد التموينية وغيرها إلى الحد اللائق بالمستوى العادى للشعب بينما أيضا تستمر عملية بناء الوطن وتحقيق مشروعاته فى كافة القطاعات .. والذى لاحظته — وأدهشنى — أن سائر الحلول التى طرحت للمناقشة . . هذه الحلول كلها قد أغفلت جانب الأخلاق والمثل ؛ كأنما المشكلة الاقتصادية لا تتصل من بعيد أو قريب بهذا المستوى الأخلاقى الهابط الذى تنحدر اليه أمتنا فى عنف وجنون . . وأنا هنا أحب فى عجالة أن ألقى ضوءاً على المشكلة الأخلاقية ومدى تأثيرها فى الاقتصاد القوى . . على الذين يناقشون مشكلة الاقتصاد يقنبهون إليها على الأقل — على أنها من جملة الأطعمة التى يضعونها على مائدة البحث . .

ونحن نعرف أن الدولة عندنا ـ مثلا ـ تبيع صنوفاً من المسكرات إعتقادا منها أن هذه المشروبات تفيد الخزانة ـ بعدة ملايين تأخذها من التجار والشاربين كضريبة ـ ولكن الدولة بالطبع لم تحسب حساب آلاف الأسر ، وآلاف الشبان ، وآلاف الثروات التى تحطمت على صخرة هذه المسكرات وأصبحت وأصبح أصحابها عالة على المجتمع ، يعيشون كما تعيش الطفيليات فى أنها لا توزع إلا الشر ولا تنشر إلا البوار ، إن الذى ينفق جنيها فى الليلة من متوسطى الدخل على الخمر والملاهى الليلية وصالات الرقص (والكباريهات) . . هذا الإنسان لا بد أن يولول يوم يزداد كيلوا اللحم عشرة قروش مثلا لا لشىء إلا لأنه لم تترك له ألوان الضياع أى شىء لا لحم ولا لغيره .

ورب الأسرة الملزم بتوفير كل الكماليات لأسرته وإلا اتهم بالجمود والرجعية ، والفتيات وأمهاتهن اللاتى تغريهن مجلات الأزياء على ملاحقة أحدث المودات و « التايورات » التى تظهر فى عاصمة الفجور فى الأرض ـ باريس ـ الماجنة .

هؤلا وأولئك لا يمكن أبدا الآن يصرخوا من زيادة قرش على سعر أية سلعة لأن الكماليات والمودات وغيرهما قد استنفدت هذا القرش وأضاعته . .

وبعد ـ فلست فى حاجة إلى أن أطيل بعد رأينا الامبراطورية العجوز تهوى على يد كريستين كيلر وتتحطم ـ كما قال قاضيها ويتنبج بسبب ضياع الأخلاق فيها على الرغم من ثرائها المادى الكبير ـ ، ألا رحم الله شوقى:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت خرابا

هدى الله أمتنا وأخذ بيدها إلى طريق الصواب ؟

عبد الحليم عبد الفتاح عويس
كلية دار العلوم

ذكورة وأنوثة :

« تعرضت الدكتورة سهير القلماوى والدكتورة عائشة عبد الرحمن للحديث عن الكلمة التى ألقاها الأستاذ محمد الغزالى بالمؤتمر الوطنى ، وبما ذهب إليه الأخيرة إنكار مقارنة الرجل بالمرأة زاعمة عبث المقارنة بين أبى جهل وعائشة رضى الله عنها مثلا ... » .

أقول : مهما كثر القول فى المرأة وموقفها من المجتمع ، وموقف المجتمع منها ، فإننا فى حاجة إلى تلك الحيدة التى لا يصدر القول فيها أحكاما مطلقة تبعاً للهوى ، ومجاراة لتلك الدعاوى التى أصبحت سمة الدراسات الحديثة .

وإذا كان الإيمان بفكرة لا يكون إيمانا كاملا إلا إذا تناول جزئياتها وكلياتها مع انهمنا لكل ، فإن الإيمان بما جاء به الإسلام ينبغى أن يتناول جزئياته قبل أن يتناول كلياته فضلا عما أرسله الأصوليون ببطلان تعليل الأحكام ، وعدذلك بحثا فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعى ، فإذا وجد الدليل المادى والمعنوى ، فإن ذلك ادعى إلى عدم الخوض فى تلك المسائل أن رضيت بها النفس أن لم ترض .

والذى عزب عن أولئك الذين تشوفت نفوسهم للكلام بصدد تلك المسألة أن مناط المقارنة هو « البيت » مناط وجود الأنوثة التى هى إحدى المجمولات فى معرض الامتنان .

محمد بدر عبد الجليل
جامعة الإسكندرية ـ أسرة اللغة العربية

« أخبار قصيرة :

فاز بعضوية المجمع اللغوى بالقاهرة السيد نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف والأزهر أحمد عبده الشرباصى خلفا للمغفور له أحمد لطفى السيد ، كما فاز بالعضوية فضيلة

الأستاذ الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد عميد كلية الدراسات العربية بجامعة الأزهر خلفاً للمغفور له الإمام الأكبر الشيخ محمود شيخ الأزهر السابق.

• فاز بجائزة الدولة التقديرية لعام ٩٦٤ كل من الأساتذة محمد فريد أبو حديد للآداب والدكتور عبد الحكيم الرفاعي للعلوم الاجتماعية والدكتور أحمد رياض تركي للعلوم، ومن الجدير بالذكر أن قيمة الجائزة ٢٥٠٠ جنيه مع ميدالية ذهبية، وميدالية تذكارية لعيد العلم.

• أعلن موريا عضو البرلمان الهندي أن سلطات الأمن اعتقلت خلال الأسبوع الأول من شهر ديسمبر أكثر من تسعة عشر ألف عامل من أعضاء الحزب الجمهوري وينتمي معظمهم إلى طائفة المنبوذين، بسبب الاضطرابات التي قاموا بها في جميع أنحاء الهند للمطالبة بتحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية.

في محيط الأزهر

• استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر في ١٤ ديسمبر الكاردينال كونيك رئيس أساقفة فينا بالنمسا، وبحثا معا رسالة الأديان في دعم قضية السلام، وعدوان الصهيونية على العرب بفلسطين، هذا وقد وجه الكاردينال الدعوة إلى شيخ الأزهر لزيارة النمسا وإلقاء عدة محاضرات عن الإسلام هناك.

كما استقبل فضيلة الإمام الأكبر المستشرق الفرنسي برجارناشو أستاذ التشريع الإسلامي بكلية حقوق جامعة باريس، والذي يزور القاهرة بدعوة من المهندس أحمد عبده الشرباصي نائب رئيس الوزراء لإلقاء محاضرات في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر.

أهدى الإمام الأكبر مكتبة إسلامية كاملة مكونة من مائة وثمانين مؤلفا في فروع علوم الإسلام المختلفة إلى جمعية محبي الدراسات الإسلامية التي تكونت أخيرا في فينا عاصمة النمسا.

تقرر إهداء الشعوب الإسلامية ثلاثين ألف نسخة من المصحف الشريف المطبوع والمرتل بمناسبة شهر رمضان المعظم وذلك لتوزيعها على الهيئات والأفراد والجمعيات في البلاد الإسلامية قبل أول رمضان.

فى محيط العالم الإسلامى

• اتحاد ماليزيا ... وإسرائيل :

كان من المقبول شكلا وموضوعا أن ينص دستور اتحاد ماليزيا على أن دين الدولة هو الإسلام ، لأن أغلبية شعوب السكان فى الاتحاد الماليزى من المسلمين .

ولا يعتقد عاقل — بعد ذلك — أن يكون مقبولا شكلا ولا موضوعا ، تصريح رئيس اتحاد ماليزيا فى البرلمان منذ أيام ، بأن الاتحاد لا يمكنه سحب الاعتراف بإسرائيل ، لأن إسرائيل دولة معترف بها فى هيئة الأمم المتحدة ، وكون رئيس الاتحاد السيد تنكو عبد الرحمن يعود بعد يوم من تصريحه الأول فيؤكد أن الاتحاد لن يتبادل التمثيل الدبلوماسى مع إسرائيل ، ليس إلا لعباً بالألفاظ .

إن السيد تنكو عبد الرحمن يعلم علم اليقين أن قرارات هيئة الأمم المتحدة ليست ملزمة لجميع الدول الأعضاء فى أية حالة من الحالات ولا ضرورة لأن نقول : كيف يستساغ لدولة ينص دستورها على أن دينها الرسمى هو الإسلام ، أن تعترف بدويلة معتدية باشرت أول عدوان لها على مقدسات الإسلام نفسه ، وعلى مليون مسلم عربى لتلقى بهم فى متاهات الفناء ؟ لأن هذا النص لمجرد النص واستغلاله عاطفياً فى الأزمات .

إن الصراع القائم بين أندونيسيا المسلمة ، واتحاد ماليزيا الذى نص دستوره على أن دينه الرسمى هو الإسلام . هذا الصراع الذى جعل الرئيس أحمد سوكارنو يصرح فى البرلمان الأندونيسى بأنه مسلم ووطنى وشيوعى .

ويشرك فى وزارته عضوين شيوعيين ، هو الذى جعل رئيس اتحاد ماليزيا يعض بنواجذه على صداقة إسرائيل ذيل الكتلة الغربية .

* * *

• السودان الشقيق :

إن الوثبة التى قام بها شعب السودان فى الشهر الماضى ، وثبة تاريخية أثبتت وجوده كشعب حى يرفض الضيم ، ويبذل من أجل حريته دماءه وعرقه ، ولا شك أن الاستعمار قد أقام مأتماً لنفسه إثر وثبة الشعب السودانى الجريئة ، وقد بدأت اللطمات توجه إليه بعنف حين قررت حكومة السودان منع الطائرات البريطانية من المرور فوق السودان فى طريقها إلى عدن والجنوب العربى ، والطائرات البلجيكية فى طريقها إلى الكنغو .

ولكن هذا الاستعمار عودنا أنه من الصعب أن يسلم بأنه قد لفظ أنفاسه الأخيرة، وفي سبيل إثبات أن فيه بقية من رمق يعبث بأصابعه في أضيق النوافذ، وها هو ذا يستغل جنوبي السودان ليحرك الفتنة، وما الاضطرابات الأخـــيرة إلا حركة استعمارية بغيضة..

إن شعب السودان: شماليه وجنوبيه شعب واحد، وقد وثب وثبته الأخيرة القوية الجريئة من أجل السودان بأسره، لا فرق بين شمال وجنوب. ونحن نرجو أن تتغلب الوطنية، حتى تصفى تلك النفوس الضعيفة التي لم تتخلص بعد من رواسب الاستعمار، ليتفرغ السودان الشقيق لما هو أهم، ويأخذ مكانه الصحيح بين دول العالم الحية.

• مؤسسة لنشر الإسلام والعربية:

أعدت وزارة الأوقاف بالجمهورية العربية المتحدة، التخطيط الجديد لمشروع الخدمات التي ستنفذها خلال السنوات الخمس القادمة، وكان من أبرز المشروعات العشرين مشروع إنشاء المؤسسة الإسلامية التي ستشرف على تعليم اللغة العربية، والعلوم الإسلامية في دول آسيا وأفريقيا، وستتبع هذا المشروع وحدات اجتماعية مزودة بالإخصائيين، كما ستزود كل وحدة بمسجد ومعهد ديني ووحدة صحية.

والذي لا ريب فيه، أن مثل هذا المشروع سيكون له أبعد الأثر، وبالطبع بعد أن يخرج إلى حيز التنفيذ، فالإسلام في معظم دول آسيا وأفريقيا لم يزل بدائيا، والتبشير لم تزل له قوته، وإمكانياته التي ينافس بها الإسلام الذي يجب أن يتخذ لنفسه مكانة أسمى في الأماكن الوثنية التي هي في مسيس الحاجة إلى غزو إسلامي.

إننا نأمل أن يهتم اهتماما بالغا بتعليم اللغة العربية للمسلمين، حتى يكونوا وثيق الصلة بدينهم وقرآنهم، والأحاديث النبوية، والفقه الشرعي، كما نأمل أن تختار هذه البقاع الكتب الإسلامية التي توضح معاني الإسلام في يسر وبساطة، والتي تتجنب من الأفكار ما يوحي بالجدل أو الإسفاف، كما نأمل ثالثا أن يختار الدعاة المستنيرون واسعو الأفق، الذين سيحملون إلى جانب علمهم عقيدة وإيمانا، وطاقة من الصبر والاحتمال.

• • •

أخبار قصيرة:

• الباكستان: اجتاحت الباكستان منذ أسابيع مظاهرات ضخمة معادية للرئيس أيوب خان، مما اضطر الحكومة إلى أن تصدر قراراً في الأسبوع الأول من ديسمبر بإغلاق جميع معاهد التعليم الحكومية والأهلية إلى أجل غير مسمى، ومن الجدير بالذكر

أن السيدة فاطمة جناح شقيقة المغفور له محمد على جناح ، والمنافسة للرئيس أيوب خان فى انتخاب الرئاسة هى التى تقرد جبهة المعارضة فى الباكستان .

• ليبيا والجزائر : بدأ الرئيس أحمد ابن بيلا محادثاته فى الأسبوع الأول من ديسمبر محادثاته مع رئيس وزراء ليبيا : السيد محمود منتصر ، وقد تناولت المحادثات مسألة تنسيق السياسة البترولية للبلدين باعتبارهما من أكبر الدول المنتجة للبترول فى أفريقيا .

• اتحاد ماليزيا : تقرر أن تزود كل من كندا والولايات المتحدة ماليزيا بالمقاتلات لمواجهة أندونيسيا فى معركتها معها . وكانت بعثتان عسكريتان فى أوائل ديسمبر : إحداهما كندية والأخرى أمريكية قد زارتا لهذا السبب كوالامبور عاصمة ماليزيا

• السودان : أذاع راديو أم درمان فى الأسبوع الثانى من ديسمبر أن قرارا صدر بالعفو الشامل عن جميع السودانيين الذين هربوا من السودان منذ يناير عام ١٩٥٥ ، والذين صدرت ضد بعضهم أحكام غيابية ، وقدم آخرون منهم للمحاكمة . ودعا الراديو جميع الذين شملهم العفو إلى العودة إلى السودان والإسهام فى بناء أمتهم .

• أندونيسيا : أصدر زعماء الأحزاب العشرة فى أندونيسيا فى ١٣ ديسمبر ١٩٦٤ بيانا جددوا فيه مبايعة الرئيس سوكارنو لشغل منصب رئيس الجمهورية الأندونيسية مدى الحياة .

• اعتمد المهندس السيد أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء عشرة آلاف جنيه لبناء مسجد افكبو فى شرقى نيجريا بجوار مقر المركز الإسلامى هناك .

• العراق : رأت حكومة العراق اتخاذ الخطوات لتوحيد المناهج الدراسية بين العراق ومصر ، وقد طلب وزير المعارف بالعراق من مديريات الوزارة المختصة إعداد الدراسات ، والمقترحات الخاصة بالقوانين والأنظمة المعمول بها حاليا فى المراحل الدراسية المختلفة .

• المغرب : وافقت الجمهورية العربية المتحدة على تصفية المشاكل المعلقة بينها وبين المملكة المغربية ، وقد صدر بيان بذلك فى الرباط فى شهر نوفمبر الماضى عقب المحادثات التى أجريت بين الملك الحسن الخامس والمشير عبد الحكيم عامر خلال جولته الأخيرة فى شمال أفريقيا . هذا وسيزور الملك أوائل العام الجديد القاهرة بدعوة من الرئيس جمال عبد الناصر .

محمد عبد الله السمان

pas négliger, institué des défenses, que vous ne devez point violer; mais il a omis certaines choses, non pas par oubli, mais par miséricorde pour vous. Donc, à propos de telles choses, ne cherchez pas trop." C'est dans de telles circonstances, nous dit Ibn Hibbâne, que fut révélé le passage Koranique qui dit :

"O vous qui avez cru, n'interrogez pas au sujet de certaines questions dont l'explication vous serait funeste, attendu que si vous y insistez pendant que le Koran est encore en train d'être révélé, cette explication vous sera donnée. Dieu l'a omise, car il est clément et miséricordieux. Avant vous, un autre peuple avait insisté sur des questions semblables, mais par la suite, il s'est montré infidèle à leur égard."

Cette élimination dans les règles koraniques de ce trop de *comment* et de *combien* est donc une mesure prise expressément, en vue de permettre aux hommes d'exercer différemment leur pouvoir intellectuel, physique et moral.

Voilà pour cette morale pratique et les traits généraux qui la caractérisent.

Passons maintenant à la morale théorique.

Aspect théorique — Ici également notre méthode s'écarte de la méthode commune. D'abord c'est l'aspect théologique ou juridique qui intéressait le plus nos savants. D'emblée, nous nous plaçons sur le terrain éthique, en posant chaque question dans les termes où elle se pose pour les moralistes modernes. D'autre part, c'est le Koran lui même que nous prenons pour point de départ, avec le souci constant d'en tirer la réponse par un recours direct au texte. Et c'est là précisément que réside la difficulté; car les textes relatifs à la théorie morale n'ont pas la même abondance et la même clarté que les préceptes pratiques. Mais une question préalable doit se poser.

Le Koran est-il un livre spéculatif, ou peut-on lui demander ce qu'on demande aux œuvres philosophiques ?

choisi et révisé
par
DR. AFIFY ABDUL-FATTAH
[*Suite*]

peuple sur les affaires communes. la forme de l'Etat musulman et le procédé pour établir son chef : suffrage universel, ou réservé à l'élite ? République ou Royauté ? etc..

Cette recherche excessive de la précision légale peut se manifester chez ceux qui font la loi, ou ceux qui la subissent. Dans le premier cas, elle est souvent déterminée par une défiance de la part des législateurs à l'égard des sujets à qui on confie l'application de la loi; au reste, elle tend à supprimer toute initiative, à rendre la vie commune, monotone, insupportable, à faire des membres de la société comme des exemplaires d'un même modèle mécanique. Mais il n'est pas rare de rencotrer parmi les hommes d'action eux-mêmes des gens qui souhaiteraient voir le législateur tout délimiter, tout codifier. A supposer l'entreprise réalisable, comment expliquer une telle exigence poussée à la limite, autrement que par la recherche du moindre effort intellectuel et moral ? pour ne pas dire par une abdication pure et simple de la personnalité.

Le Koran ne pèche pas par cette tendance à la quentification de toutes les règles. Il ne pèche pas non plus par la tendance opposée. Cette sage mesure, cette position tinermédiaire où l'on se tient toujours à l'écart des deux extrêmes, a-t-elle été prise fortuitement, arbitrairement, ou bien comporte-t-elle de la finalité ? Pour se convaincre que le Koran aussi bien dans son silence que dans ses explications vise à cette sagesse législative impeccable, il suffit de se rappeler le fait suivant :

Au c urs de l'un de ses discours, le prophète dit : "O Hommes, Dieu vous a prescrit pélerinage; accomplissez le donc." Un homme s'éleva alors et demanda : Faut-il l'accomplir tous les ans ? Le Prophète s'abstint d'abord de toute réponse; mais le question-neur insista. La Prophète répondit alors, un peu courioucé : "Si je disais oui, c'est qu'il serait ainsi prescrit; or, si l'on vous obligeait à l'accomplir annuellement, vous ne pourriez point vous y conformer. Laissez-moi tranquille, tant que je vous laisse; c'est à force de questionner et de discuter auprès de leurs Prophètes que vos prédécessurs ont péri. Lors donc que je vous interdis une chose, évitez-la; mais quand je vous adresse un commandement, vous n'avez qu'à le mettre en pratique dans la mesure du possible." Dans une autre formule plus explicite, rapporté par Ibn Djarîr, le Prophète s'exprime ainsi : "Dieu a établi des limites qu'il ne faut point dépasser; a prescrit des devoirs qu'il ne faut

"La Morale du Korân"

Par

DR. MOHAMMAD ABDULLAH DRAZ

(3)

Ce caractère totalisant trouve son complément dans un autre caractère, qui va lui donner sa plus haute valeur. Après avoir tracé pour chaque domaine de la vie une ligne de conduite, le Koran nous présente les cadres ainsi tracés sous la frome de cercles concentriques, susceptibles chacun de s'élargir et de se rétrécir en harmonie avec l'ensemble, au point de se pénétrer mutuellemant sans empiéter les uns sur les autres.

Comment le Koran a-t-il pu produire cet effet prodigieux ? Le processus en est très simple. C'est qu'il a choisi pour l'énoncé de ses règles des formules d'une *frappe* toute particulière, formules qui se tiennent toujours à mi-chemin entre l'*abstrait*, vague et flou, et le *concret* par trop formaliste. Ainsi les cadres qu'il censtruit sont à la fois rigides et souples. De par sa clarté, la teneur de chaque règle forme une sorte de barrière contre le désordre et l'anarchie du caprice; mais de par son indétermination, elle laisse à chacun le choix de la forme sous laquelle il doit adapter son idéal aux canditions données de l'expérience et concilier son devoir de l'heure avec les autres exigences de la moralité. Adaptation et conciliation devant s'effectuer par un sage effort, éloigné en même temps du relâchement et de la fougue non-contrôlée. De cette manière, la législation Koranique a pu atteindre une double perfection qui se trouve ailleurs difficilement conciliable : douceur dans la fermeté, progrès dans la stabilité, nuance dans l'unité. De cette manière, elle a permis à l'âme humaine de s'assurer un double bonheur, également antinomique : soumission dans la liberté, aisance dans la lutte, initiative dans la continuité. D'aucuns n'ont pas bien compris cette haute sagesse. C'est ainsi qu'on a parfois reproché à l'Islam de n'avoir pas précisé, par exemple, le mode de consulter le

Book Review

THE RELIGION OF ISLAM

A Standard Book, Companion and Introductory to the Quran

VOL. 11 (Third Edition)

BY : DR. AHMAD A GALWASH, M.A., Ph. D.

This book Should make an admirable introduction to Islam. It is authentic, comprehensive and highly readable. The author's analysis of the various aspects of Islam is acute and Sound. This VOL. 11 of "The Religion of Islam" is a survey of the Religion in its three sides : the devotional, the Social and the spiritual, as the reader shall find in this volume a well-informed survey of Practical Devotions, Transactions, Penal laws, Ethical basis of Social life and Moralities, Muslim Jurisprudence, Religious Defensive Warfare and Spiritual aspects of Islam.

Having explained the Muslim Prayers, with Practical illustrations, the author gives a detailed account of Zakat and Legal Alms, Fasting and Pilgrimage. The author describes with care and Sensitiveness, the various aspects of Marriage, Different forms of divorce, Legal Status of a married woman, Law of inheritance, Owner Ship and Divisions of Property.

Dealing with the penal laws the author explains the Criminal intentional injury, Adultry, Theft and Robbery, Divisions of Punishment and Classification of Sinful acts. This book gives an adequate explanation of the basis of social life in Islam. One of the most important subjects, in this chapter, is the position of women in Islam. The author also explained the various ways contributed by Islam towards the improvement of the position of women.

On the whole, the book is a brilliant piece of work. Hence this digest of "The Religion of Islam" Shall be a useful introduction to the message of Islam, particularly for English speaking people all over the world.

(From page 5)

Becca (Mecca), a blessed place, a guidance to the people".

It was, therefore, necessary that the celebration of the night of Ascent should remind the Muslims all over the World their connection with the Palestine and their obligation to this country whose Sons have been wrongfully driven out by a Cursed community "Those of the Children of Israel who went astray were Cursed by the tongue af David, and of Jesus, Son of Mary, that was becausc they rebelled and used to transgress".

The talk on the Ascent Should call upon the Muslim world to take necessary steps for restoring the right of people of palestine. Their position is there as follows: "How Should ye not fight for the cause of Allah and of the feeble among men and of the women and the children who are crying: Our Lord! Bring us forth from out of this town of which the people are Oppressors! Oh, Give us from thy presence some protecting friend! Oh, Give us from Thy presence Some defender!"

(From page 11)

form the nucleus of an Islamic Society in Portsmouth, both of which gave me much happiness. Dr. Awad of the Islamic Cultural Centre in London wns of great help with my correspondence to Al Azhar and I finally left London a few weeka ago for Cairo, where I was delighted to find Sheikh Sharkawi now back at Al Azhar. I feel very happy to be here in Egypt and at the very warm welcome and help everyone has given me, including the Rector of Al Azhar H. E. al-Sheikh H. Mamoun and the Director H. E. al-Sheikh A.H. al-Baqouri, who have been so kind as to agree to give me some personal tuition and also the Governor of Zagazig and Dr. I. Zayed of Cairo University who were most hospitable. I am really terribly impressed by all that I find here in Cairo and I am eagerly looking forward to seeing all the wonderful things your country has to offer, not only to me but to the world.

Now with a heart full of peace my life is dedicated to the service of Allah, which can best be described by this verse from the Holy Koran "Verily, my worship and my sacrifice and my living and my dying are for Allah Lord of the Worlds, Who hath no partner".

A.R. Ansari *(Cairo 1964).*

If a stalwart of the Jinn was able to bring the thrown of the Queen of Sheba unto solomon from yemen before he could rise from his place and One, with Whom was knowledge of the Scripture, has done such work before solomon's gaze returned unto him, then, how it will be difficult to believe that the Lord of the worlds carried His Choicest servant and His messenger by night from Mecca to Jerusalam? The beginning of the verse by the word "Subhan" is indicating that : The Allah, Almighty, is Exalted over disability. It is a regretful thing that some people are making uproars and suspicions about this miraculous story. It is recalled that this historical event took place when the prophet and his followers were facing cruel persecutions and threats from their opponents, The story of the ascent of the prophet was a great miracle of his prophet-hood as well as a good news foretelling a victory of Muslims over their enemies. At the time of this event the prophet and his companions were passing through a very dangerous period of their cause. The opposition to his preaching had grown rigid, the prophet had little succes among 'Meccans'. After the suffering of persecution of thirteen years the prophet and his followers migrated to 'Medina'.

The "Hijrah" makes a clear division of the prophet's mission. The Muslim were promised by God to enter Mecca in full security, the Quran says : "Ye shall enter the Sacred mosque, if Allah pleases, in full security". The entry was materialised soon and the prophet entered his native city as conqueror without bloodshed and he proclimed a general amnesty. The Holy Quran Says: "Allah hath promised such of you as believe and do good works that He will surely make them to succeed (the present rulers) in the earth even as He caused those who were before them to succeed (others); and that He will surely establish for them their religion which He hath approved for them, and will give them in exchange safty after their fear". In fulfilment of this promise the Muslim conquests extended from china i he East and to Atlantic in the west.

The event of the 'ascent' connected the Sacred Mosque of Jerusalam with the Sacred Mosque of Mecca. The Quram describes both these places as, 'blessed one'. The Holy Mosque of Mecca is mentioned in the Quran as the first house built for mankigd for worship:

"Lo! the first Sanctuary appointed for mankind was that at

(See page 12)

The 'Ascent' of the Prophet

By :

ABDUL RAHIM FUDA

There is no difference of opinion among Muslims about the story of the ascent of Prophet Muhammad, as the Holy Quran Says: "Glorified be He who carried His servant by night from the Inviolable Place of Worship (Mecca) to Far Distant Place of Worship (Jerusalam) the neighbourhood where of We have blessed, that We might show him of Our tokens! Lo! He, only He, is the Hearer, the Seer."

They are agreed unanimously that the prophet Muhammad (peace be upon him) was carried by night from the Inviolable Mosque of Mecca to the Sacred mosque of Jerusalam and it was to show him of His singns and wonders as the Quran testified by this sentence: ".... that We might show him of Our tokens". The difference of opinion about the nature of the ascent, whether the Prophet was carried by night to Jerusalam, Whence he was caught up through the heavens, By bodily and spiritualy or it was a spiritual ascent?

What a pity! This is a despised and inconsiderable question, because there could not be such doubt about the ability and the command of the cherisher of the Universe. The Quran Says: "But His command, When He intendth a thing, is only that he Saith unto it: Be! and it is. Therefore Glory be to Him in whose hand is the dominion over all things! unto Him ye will be brought back."

Moreover, the Quran and the other scriptures narrate the miraculous story of Prophet Solomon (Sulaiman), with birds, Jinn and the thrown of the Queen of Sheba etc. It is mentioned in the story of Solomon with the Queen of Sheba that he Soid: "O chiefs! which of you will bring me her thrown before they come unto me Surrendering. A stalwart of the Jinn Said: I will bring it thee before thou rise from thy place. Lo! I verily am strong and trusty for such work. One with whom was knowledge of the seripture Said: I will bring it thee before thy gaze returneth unto thee. And when he saw it in his presence, (solomon) Said: This is of the bounty of my Lord, that He may try me whether I give thank's or am ungrateful."

Then the Prophet added : " Have glad tidings, for God has forgiven you".

It is reported also that the companion of the Prophet Abu-Dharr said to the Prophet : " Teach me something that brings me closer to Paradise and makes me away from Hell " The Prophet said : " If you make bad deed, follow it with good deed, so you get by your good deed a ten-fold reward." Abu-Dharr asked : " Is the witness that there is no god but God is considered as a good deed ? " The Prophet answered : " It is the best of all ; it removes sins". In another Tradition, the Prophet is reported to have said to His companions : "Renew your faith" " How can we renew our faith ? " They asked. He said : " Say : there is no god but God, for this word is heavier than the heaven and the earth and what is therein ".

The Prophet Noah is said to have ordered one of his sons before his death : " I command to you these words : ' There is no god but God ' ; for if the Seven Heavens and the earth were weighed against these words ; they would over-weigh them." Moses is reported to have called his Lord : " O God ! Teach me something by which I remember you and call you " God said : " Say : There is no god but God, for if these words are weighed against the Seven Heavens and Seven Earths, They would over-weigh them."

Say : shall we indeed call on others besides God,
Things that can do us neither good nor harm,—

And turn on our heels after receiving guidance from God ? —

Like one whom the evils ones have made into a fool

wandering bewildered through the earth
(While) his friends calling 'come to us'
(Vainly) claiming) to guide him to the path ?
Say : "God's guidance is the (only) guidance
And we have been directed to submit ourselves
To the Lord of the worlds".

(VI : 71)

d) Since all beings in this universe are not self-sufficient, and governed by divine immutable laws, you should come to the conclusion that there is One Being above everything, and that this Being is the Only One distinguished by the Divine Attributes. This is the meaning of " there is no god but God".

The more you study the aspects of this universe, the more you increase in your faith that really " there is no god but God".

God, the Almighty, described Himself in this Holy Verse :

" God - there is no god but He, the Ever-Living, the self-Subsisting by Whom all subsist. Slumber overtakes Him not, nor sleep. To Him belongs Whatever is in the heavens and whatever is in the earth. Who is he that can intercede with Him but by His permission ? He knows what is before them and what is behind them. And they encompass nothing of His knowledge except what He pleases. His knowledge extendes over the heavens and the earth and the preservation of them both tires Him not. And He is the Most High the Great".

QUESTION

What are the proofs from the Quran and the Traditions " Sunna " which show that the declaration that " there is no god but God " is the first basic principle of Islam ?

ANSWER

It is reported that Omar Ibn Al-Khattab said : " The witness that there is no god but God is the expression of piety, sincerity and truth. For this declaration God created all creatures as He, the Almighty, said : ' And I have not created the jinn and the men except that they should serve Me '."

It is for this word of witness that God sent prophets, and revealed divine books. The Holy Quran says :

" And we sent no messenger before you but we revealed to him that there is no god but Me, so serve Me "

And :

" He sends down angels with revelation by his command on whom He pleases of His servants, saying : Give the warning that there is no god but Me, so keep your duty to Me. ?

The Prophet once heared a caller calling : " I witness that there is no god but God " when he said : " That is saved from Hell." He said also to some of his companions : ' Raise your hands and say : There is no god but God." After they obeyed the prophet's order, he himself raised his hand and said : " Praise be to God. O My Lord ! You commanded me with this word, and sent me by it and promised Paradise for it. You surly will not break your promise,"

"...The creation of God who created everything in perfection."

QUESTION :

We knew from our previous discussion that to witness that "there is no god but God" is the frist basic principle in Islam. What, then, is the meaning of this declaration ?.

ANSWER :

The prophet ordered Muslims that they should believe first that "there is no god but God". This sentence is the basis of Islam. It distinguishes the Muslim from the non-Muslim. Those who declare this sentence with faith are those who are promised prosperity and happiness in this life and the life hereafter : and those who deny it, are doomed to misery.

This sentence means that nothing in this universe is deserved to be worshipped and obeyed save God, the Almighty. He is the Only King and Ruler. Everything in the universe is in need of Him. He is beyond our senses and our minds. "Vision comprehends Him not, and He comprehends all vision; and He is the all - Kind, All-knowing"

This sentence of the declaration of faith indicates such important following meanings :

a) This great universe which cannot be comprehended fully by human mind must be created by a Living God. He must be, of necessity, out of need of anything else. He must be the Most-Power ul, the Most-Wise, the Source of life and sustenance for everything and the Exalted over disability and imperfection.

b) The Attributes of Godhead must be all ascribed to one being; for the Ruler of all things must be One in His Being Those Attributes cannot be divided among different gods : one to be the ruler, one to be the most-powerful, and so forth. The plurality of gods would necessarily bring the universe to ruin and extinction. Those Attributes, also cannot be exchanged, so one god assumes the position of godhead one time, and the other assumes it another times. For the god who could not preserve his godhead and his identity cannot grant life to others, nor can he manage and rule the universe.

c) Bearing this in mind, if you look in the universe, you find that everything you see or know cannot be described with the Godly Attributes. For all beings in the universe are not self-sufficient and are always in a state of change, and are governed by immutable laws.

The Fundamental Belief In Islam (2)

By : Abdul Wadood Shalaby

How true is the assumption of the materialists that the world existed by chance ?

ANSWER :

The fitness of the earth to life takes different forms which cannot be explained on the basis of chance. The globe is suspended in the space running around itself, causing the alteration of day and night. It soars around the sun making one round each Year causing the alteration of the four seasons. Earth is covered with a gaseous cover composed of the gases that is necessary for life and preserving the degree of warmth which is suitable for life. The earth's cover carries water steam from sea through which rain falls and revives the ground. The size of the globe which is smaller than the sun and larger than the moon, is the secret of the preservation of life on earth. If the globe was smaller that it is now, it could not retain its liquid and gaseous cover, and the heat would be so tremendous on the surface of the earth that it would cause death to every living being. If the globe was larger that it is, the power of its magnetism would be more than it is now by 150 times. And if the globe is nearer to or farther from the sun than it is actually situated heat or coldness will be not suitable to life on its surface.

How possibly we could believe, then, that mere chance is the cause of such wonderful universe. This is certainly an impossibility. Surely, the world is created by a reasonable mind, by the will of God the Creator of this universe. The Holy Quran says :

"Surely, We created everything in definite measurement."

"And the earth we spread it out, and put in it mountains and grew in it every balanced thing."

"Nothing in the universe but we have its treasures; and we bring it down in a balanced measure."

"Everything with God is at a balance."

self - reliance and independence. Thus it was that the words Rabbi and Rabbah, in Hebrew and Aramaic, and Rabu, in old Egyptian and Chaldean were used for one who brought up, he teacher and also the master.

When a child is born, it is but a help less lump of flesh and it instinctively cries for a protector and nourisher. The mother fills that role and she fulfils it with bound less love and devotion and never ceasing vigilance and care. According to its changing needs, she suckles it and gradually feeds it on different food which gives it strength and independence. She carries it in her lap, then supports it when it begins to stand and guides it as it begins to walk till it can run on its own and requires no help or guidance. This is the most perfect instance of 'nurture' or 'bringing up' that man can show. How imperfect and limited it is becomes obvious as soon as one lifts one's eye from that infinitesimal part of existence that is human life and casts it upon that vast and marvellous panorama of existence that includes countless beings and limitless forms of life and that is ever unfolded before one's eyes, if one but stops to see. With no one to teach them how to mother or nourish one finds animals, birds and insects performing those functions with greater devotion and constancy than even a human mother. There are also creatures beyond perception that have apparently none to nourish them but nevertheless find their nourishment provided for them from the moment they come into existence.

As one reflects on this, one is struck by the fact that not only are all the necessary means of existecne and nourishment to be found—that would be nature's bounty—but that they are found arranged in such perfect order that, if man dœs not disturb it, every thing is provided in the form, measure and manner in which it is required. Over and over again, the Quran draws attention to the order and right proportion in which every need of every being is provided for. "Verily we have created every thing in (the right) proportion and measure" (LIV : 49) Air, Water and food are the three indispensable requirements of life and not only are they found in greater quantity than any thing else but among themselves, they are to be found in a quantity which is exactly in proportion to their indispensability, water more than food and air in much greater abundance than either.(1)

(1) Quoted from "The Quntessence of Islam" by : Ashfaque Hussain.

for God; and the Quran adopted it not only because it had gained currency but also because it more suitable than any other word.

There was a stage in man's spiritual development when he bowed in adoration before various manifestations of nature; and that gradually and inevitably, led to idolworship. The number of gods grew, each representing some particular godly quality before which man bowed; and as the pantheon grew vast and bewildering, man's spirit longed and sought for one supreme god, the lord of all gods. Thus, while there were numerous names for gods, referring to their different attributes there was always a special word for the supreme Being. The basic letters of that word, in all semitic languages, were Alif (A) Lam (L) and Hay (H) and the Arabic Ilah, with the definite article (Al), became Allah.

As for the meaning of Ilah, there are various interpretations, but the Soundest appears to be that which derives the word from alha which means astonishment or wonder, (Alternatively, Ilah is said to be derived from the word walah, which also has the Same meaning). There could not be a more appropriate word for the Creator and the Lord of the universe. However much man may come to Know about Him, He remains beyond the range of human Knowledge. The more one tries to understand that Absolute Being, the greater is one's bewilderment. The quest begins and ends in wonder and humility. No other name could therefore be used for the Supreme Being. All other names only to some particular attribute of God and, in that Sense, are restrictive; but the word Allah immediately directs our mind to a Supreme Being who is all-embracing, beyond description and beyond Cognition.

Like Ilah, Rab is also a much used root word in all the Semitic languages. It means, in the most Comprchensive sense, to bring up or, in other words, to rear and nurture some living being Whether a plant or an animal or a human being, through its different stages of growth and according to its particular condition and needs till it attains maturity, i.e. that stage of its development when it ceases to need someone to look after it and can find its own where-withal of life for future progress; and even then the function of the Rab does not cease altogether but merely becomes less intense and less constant. The interest, devotion and readiness to guide and help are still there, but they are not seen in constant play as before, because their object has attained a measure of

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYYAT

RAJAB 1384	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	DECEMBER 1964

THE QURANIC CONCEPTION OF GOD

By :

MOULANA ABUL KALAM AZAD

" *Al - Hamdu L'illah Rabbil - Alameen* "

praise be to Allah, Cherisher of the Worlds

The first verse of the first chapter of the Quran opens with hamd (Praise), just as the very first impress on the mind and instinct of man, when he sets out in quest of God or Truth, is that of wonder and admiration.

The Seeker after Truth is described by the Quran as one who " reflects on the Creation of the heavens and the earth (with the thought): Our Lord ! Thou didst not creat (all) this in vain" (111 : 191). As he looks around and reflects, his mind is immediately illumined by the realisation that everything within him as well as outside reveals the hand of a Creator of transcendental wisdom and power; the care and bounty of the Creator manifest themselves in every particle of the universe. He is filled with wonder and admiration and he proclaims it with an instinctive exclamation, phrased differently according to the individual seeker's tradition and extent Knowledge but conveying the same homage to the Creator and Sustainer of the universe; and this instinctive tribute to the Creator saves him for ever from the fatal error of losing himself in the beauty of the Created and forgetting the Creator.

The word Allah, even before the Quran, was used as a proper noun

الفهرس

الثمن اربعون مليما

مطبعة الأزهر

٢٤٠

مجلة الأزهر

شعبان ١٣٨٤ هـ — يناير ١٩٦٥ م

لا إله إلا الله محمد رسول الله

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء السادس ـ السنة السادسة والثلاثون ـ شعبان سنة ١٣٨٤ هـ ـ ديسمبر ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

من رحلة الأندلس :

من روائح فردوسنا المفقود

بقلم : أحمد حسن الزيات

كان آخر من ودعت في القاهرة العالم الجليل الأستاذ : أحمد حسن الباقوري مدير جامعة الأزهر ، وكان أول من لقيت في برشلونة القسيس الحر : الأب أنخيلي جومز راعي كنيسة سرقسطة ، وكان بين وداع الأول ، ولقاء الآخر رحلة طويلة تحت النجوم ، وفوق الغيوم ، ابتدأت على طائرة مصرية سبحت بنا من سمائنا العربية الضاحية إلى سماء روما المضببة في ثلاث ساعات وبعض الساعة ، ثم انتهت على طائرة إيطالية ساحلت بنا فوق البحر الأبيض إلى نيس ثم إلى برشلونة في ساعتين .

وكان بيني وبين الإمام العربي حديث ، ثم كان بيني وبين الحبر الأسباني حديث . ولم يكن هذان الحديثان وحدهما هما اللذين جمعا بينهما في ذهني ، وإنما كان الجامع مشابه كثيرة من قسامة الوجه، واستواء القامة، وحلاوة النغمة وبراعة الذهن، ولطافة الحس، وطلاقة الفكر وخصوصية الزي، وخلوص العقل من شوائب التقليد، ورواسب الماضي، وخوادع الرأي .

كان آخر ما بقي في سمعي من حديث الباقوري روايته عن أحد المفسرين الظرفاء في تفسير قول الله تعالى حكاية عن سليمان : « وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان

من الضائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين » ، إذ فسر العذاب الشديد الذي توعد به سليمان الهدهد بأن ينتف ريشه ويهاض جناحه ثم يترك بين جماعة من الطير ، لا هي من أهله ، ولا هي من شكله ، حتى إذا نقرته لا يجد الريش الذي يقي ، ولا الجناح الذي يدفع ، ولا المنطق الذي يبين ، وكانت حالي وأنا بين المرضى في بهو الانتظار من عيادة الدكتور (براكير) التي تضم ثلاثين طبيبا وعشرين طبيبة ومائتي ممرضة غير الموظفين والخدم ، أشبه بحال الهدهد لو أن سليمان أنجز فيه هذا الوعيد : كنت أجلس في قوم من أشتات الناس والأجناس لا يتكلمون غير الأسبانية أو ما يشبهها ، فاذا تحدثوا لا أفهم ، وإذا حيوا لا أرد . نعم إنهم لم ينقروني كما تنقر جماعة الطير الغريب عنها ، فان الإنسان من الأنس ، والوحش من الوحشة ، ولكنهم صدوا بوجوههم عني صدود الدمية عن الدمية في المتحف العظيم .

وكان من توفيق الله أن جلس إلى جانبي ذلك القسيس الكريم ، ففطن إلى أنني لا أعرف الأسبانية ، فقلب على أذني بعض اللغات حتى قال بالفرنسية : لعلك من الجزائر ، فقلت له : أنا عربي من مصر ، فهش بي وأهل ثم قال في ابتسامة رقيقة : نحن إذن إخوة ، أنا من مواليد (طليطلة) ولا يزال بين أسرتي ، وبين العرب نسب شابك . وأن أسرتي تعرف إلى اليوم بأسرة (المولى) وهي لا تزال تعتز بهذا النسب ، وتحتفظ بهذا اللقب ، فقلت له وأنا أطالع في محياه سحنة الباقوري وسمرته : لشد ما يسعدني أن يكون أول من ألقى في برشلونة رجل تنزع نفسه ونفسي إلى عرق واحد ، ثم أفضنا في حديث العرب وما خلفوا في الأندلس من آثار ، وفي حديث الإسلام وما نقل إلى الفرنج من ثقافة .

وجاء دور القس فدعته ممرضة إلى لقاء الطبيب ، فقام وهو يربت بكفه اليسرى على كتفي ويقول : سأرجع . ثم عاد فاستأنفنا الحديث الشائق العذب ، وشققناه إلى معان شتى ، وكان بين دوره ودوري وقت طويل فسألته : ألا يزال رجال الكنيسة يعتقدون في العرب والإسلام ما كان يعتقده أسلافهم من قبل ؟ فأجاب في غير مداراة ولا مماراة : لقد درس المؤرخون المنصفون والعلماء المخلصون مآثر العرب ، ومبادئ الإسلام على المنهج الواضح والمنطق الصحيح ، والنية الحسنة ، فوجدوا أن خمسة عشر مليونا من المسلمين عمروا أسبانيا ثمانية قرون ومعهم الدين والأدب والفن والعلم والحضارة والعمارة ، قد نقلوها من الظلام إلى النور ، ومن الفوضى إلى النظام ومن الهمجية إلى المدنية ، حتى أصبحت في عهد الناصر والمستنصر مهوى الأفئدة ومنتجع العقول ، وملتقى الشرق والغرب

ويجتمع القيادة الروحية والمادية فى أوربا والعالم كله . ثم أدركو أن ما أعمى المستكبرين عن رؤيه النور إنما هو الجهل والتعصب ، فإن الأمر يومئذ كان للكنيسة فى سياسة الدين والدنيا ، ولم تر الكنيسة فى فتح العرب للأندلس إلا استبدال دين بدين ، وشعبا بشعب ، ولغة بلغة ، وسلطانا بسلطان ، فحاربت الإسلام بالشبه والأضاليل ، وحاربوا العرب بالخيانة والتفرقة ، ولو علموا كما يعلمون اليوم أن الإسلام طريق سماوى يؤدى إلى الله ، وأن المسلمين إخوة مؤمنة تتعاون على الخير لنعمت أسبانيا فى ظل التعايش السلمى بالنعيم الدائم ، والوحدة الشاملة .

أنا أعلم عن يقين أن الله نقطة فى مركز الكون يوصل إليها بطرق كثيرة ، مختلفة البدء متفقة النهاية ، والاعتقاد بأن طريقا بعينه من هذه الطرق هو وحده الذى يؤدى ، كان مصدر الشر على الناس جميعاً ، كل الطرق تؤدى إلى روما كما يقول المثل ، وما دام الطريق واضحاً مستقيما تبينه حدوداته ، وتهدى إليه أعلام الحق ، فهو لا محالة واصل ، ولا يضير سالكه أن يكون هناك طرق أخرى لكل منها اسم ورسم ، وأنا بهذا الاعتقاد أخدم الكنيسة التى أرعاها ، باعتبارها أحد هذه الطرق ، لا هى أكلها ولا هى أمثلها ، والإسلام الذى نقل البداة الجفاة من رعاة إبل وغنم ، إلى رعاة دول وأمم ، وحول أسبانيا الممزقة المستضعفة الجاهلة من عهد الفوضى والانحلال إلى عهد الناصر وابن رشد ، لا يمكن أن يكون هو الإسلام الذى زعم الجاهلون أنه قام على السيف ، وحكم بالتعصب ، وساد بالاستعمار ، وأن ما خلف فى الأندلس من الحضارة والعمارة والثقافة لدليل ناهض على سمو مبادئه وبلوغ وسائله وعدالة حكمه ، وإن الرأى الكنسى ليميل اليوم إلى التوفيق بين المذاهب المسيحية المختلفة ، ولعله يميل بعد ذلك إلى التقريب بين الأديان جميعا . فقلت له وأنا أنظر فى عجب إلى المسح الذى يلتف على بدنه ، وإلى الصليب الذى يتدلى من عنقه : أو يوافقك إخوان الكنيسة على هذا الفهم ؟ فقال وهو يهز رأسه : لا أزعم ذلك ولكل رأيه .

وكان دورى فى الدخول على الطبيب قد حان فودعته وفى نفسى ونفسه أن نتلاقى كلما واتت الفرصة .

لبثت فى برشلونة عاصمة أسبانيا بعد مدريد تسعين يوما معصوب العينين ، مرفوع الجنبين ، أسمع ولا أرى ، وأحس ولا ألمس ، وأتخيل ولا أتمثل . فإذا سألتنى عما رأيت من آثار فردوسنا المفقود قلت لك : لم أر إلا بعض المعالم من قطلونية فى أواخر أيام العلاج بعد أن كشف عنى الغطاء ، وخرجت من محبسى أبى العلاء ، فجلت فى شوارع برشلونة الشجر ، ووقفت فى ميادينها الفسيح ،

وجلست في حدائقها الغُنّ . وركبت الطريق الصاعد من ساحل البحر الأبيض إلى ربوة (تيبدابو) وهي قطعة من الروض سقطت من الجنة ، واستقرت على جبال (مالاس) و (مونت جويك) ، وشقت بينهما وادي (بيزوس) ، وهو متنزه الناس في أيام الآحاد والأعياد والمواسم .

فيما بين ذلك كنت أرسل طرف العمران في الأفق الضاحي فأرى الشمس التي أشرقت على قومي زهاء تسعين سنة منذ فتح برشلونة موسى بن نصير سنة ٧١٣ م إلى أن استردها لويس بن شرلمان سنة ٨٠١ م واستنشق الهواء الذي استنشقه أجدادي الفاتحون المعمرون المتحضرون فلاءوا به وثائهم ثمانية قرون ، ثم نفثوه في أقطار أسبانيا ، والبرتغال وفرنسا : دينا وأدبا وعلما وحكما وعمارة وحضارة ، ولكني واأسفاه لا أرى الأعـــلام الخضر التي تخفق ، ولا المآذن الشم التي تنادي ، ثم أرد طرفي إلى الأرض فأرى الشمائل العربية ولا أرى العـرب ، وأجد الخلائق الإسلامية ، ولا أجد الإسلام وتتراءى في خيالي أطياف الأمويين والمرابطين والموحدين هائمة في الضباب ، تنوح على ملك دال ، وحكم زال ، ومجد ذهب ، وما أدال هذا الملك ، وأزال هذا الحكم ، وأذهب هذا المجد إلا ما أصابهم من تفرق الكلمة ، وتعارض الهوى ، وتخاذل القوى ، وتحاسد الأنداد وممالأة العدو ، وتلك هي أدواء زعماء العرب في كل حين ، من يوم السقيفة إلى يوم فلسطين .

* * *

لم أر إذن فـراديس الأندلس ، ولكني شممت عبيرها ، ووجـدت رياها في ثلاث أوانس من حسان الجنوب كن يمرضنني : أولاهن من طليطلة ، وتسمى سلطانة ، وثانيتهن من قرطبة ، وتسمى فضيلة (فاديلا) ، وثالثتهن من بلنسية وتسمى الثريا (السرية) وكان هـؤلاء الأوانس الممرضات قد علمن أني عربي من مصر ، فكن يتسابقن إلى خدمتي ويتمانين على غـرفتي ، ويبتغين الوسائل إلى الوقوف طويلا بجانب سريري يحدثنني من أرومتهن العربية .وما بقي منها في دمائهن من الحنين إلى العرب ، والنزوع إلى الشرق . فإذا حدثنهن عن الإسـلام ـ وقد كان دين أجدادهن ـ غمغمن بالكلام المغلق ، أو أبن عن الجهل المطلق .

ونشأت بيني وبين الأوانس الجميلات على طول الأيام ودادة قلب ، أو صداقة نفس ، تقول إنها مواصلة القريب ، أو مؤانسة الغريب أو مخالصة الحب ، فكن يطمئنني على سير العلاج ويصبرنني على احتمال العيش في الظلام ، وطول النوم على الظهر ، وضيق النفس من الأرق ، ويشعرنني ـ بأنسهن المرح ، وحديثهن العذب ـ أني في بيتي وبين أهلي ، ويفضين إلى بأخبار المستشفى وبخاصة أخبار العرب النازلين به ، وكان حديثهن عن العرب قصيدا من المدح

على ما يظهرون لهن من عطف ، وما يفضلون عليهن من كرم ؛ إلا حديثهن عن عرفى كبير كان يعمل فى ديوان ملك سابق ، فقد قلن : إنه دخل المستشفى وعلى كتفه منصبه لم يحطه عنه، فهو يأمر وينهى كأنه فى ديوانه ، ويعامل الممرضات والسعاة معاملته لجواريه وغلمانه ولا يكاد الجرس المضىء يخفق من فوق بابه فإذا طلبوه إلى الطبيب فى أسفل الدار أصر على أن يصعد الطبيب إليه . وإذا أخبروه أن ذلك محال نزل فى بيجامته من غير رداء ، وصمم على أن يدخل قبل دوره من غير نداء . أما معاركه على الطعام فى كمه وكيفه فهى حديث الجيران والقم . وهو مع هذه المنجهية كلها كز الأنامل سليط اللسان ، لا تسقط (البزيتة)[1] الهينة من كفه ، ولا تخرج الكلمة اللينة من فيه.

زارنى حين علم من الممرضات أنى فى المستشفى لأن من خير ما فيه أنه يقرأ الرسالة ، فمكث طويلا لا يدير بين فكيه إلا كلاما ثقيل اللهجة ، خطل المنطق عن معاونة مصر لليمن . ومعاذ الله أن أغثى نفسك بسماعه وأنت صائم .

هذا لقاء القسيس وحديث الأوانس . وحديث الأوانس يتصل ولا ينقطع، وينشط ولا يفتر ويطول ولا يمل، ولقد ذكرت بصحبتهن ومودتهن أوانس الرشيد الثلاث: ضياء وسحر وخنث . وهن اللاتى أنطقنه بهذه الأبيات :

ملك الثلاث الآنسات عنانى
وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها
وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى
وبه قوين أعز من سلطانى

غير أن أوانسى لم يكن منهن عصيان ، ولم يكن لى عليهن سلطان .

كذلك ذكرت أوانس (جيان) الثلاث اللاتى وصفهن الشاعر (مانويل ماتشادو) بقوله فى قصيدته المشهورة :

ثلاث سمراوات
شغلن قلبى من جيان .
عائشة وفاطمة ومريم .
ثلاث سمراوات رائعات الجمال
ذهبن ليجنين الزيتون
فوجدنه قد جنى ...

ولكننى لا أذكر أوانس ابن أبى ربيعة الثلاث اللاتى اتخذ منهن مجنايتقى به عيون القوم:

فكان مجنى دون من كنت أتقى
ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

فإن الحديث برىء ، وإن رمضان كريم !

أما حديث الأندلس فسأعود إليه بعد أن أعود إلى برشلونة لإتمام العلاج ، فأعيش فى رياضها مع أول بنى أمية إلى آخر بنى سراج !

أحمد حسن الزيات

(١) عملة أسبانية تساوى ثمانية مليمات .

الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ أحمد محمد الغمراوي

— ٢ —

هناك جوانب عدة ينبغي أن يتناولها من يريد النظر في الإعجاز العلمي في القرآن عن طريق المطابقة بين القرآن والعلم الحديث فيما هو مشترك بينهما :

هناك جانب العلم الأساسيان : جانب موضوع العلم ، وجانب الطريقة العلمية في دراسة الموضوع . ثم هناك جانب ما كشف عنه العلماء في ميادين العلم المختلفة من حقائق خاصة يسميها العلم : دقائق، ويسميها القرآن آيات ، ومن حقائق عامة يسميها العلم قوانين طبيعية ، ويسميها القرآن سنن الله في الفطرة .

هذا الجانب الأخير هو الذي يهتم به الناس ويقع منهم في الإقناع موقعا ، وهو أنفع الجوانب وأعونها على الدعوة إلى الله إذا تبين التطابق فيه بين ما كشفه العلم ، وما نزل به القرآن . لكن لا ينبغي أن يقلل من أهمية التطابق في جانبي العلم الأولين ، فإنها الطريق إلى تلك الحقائق التي هي أقرب وأعجب إلى الناس .

أما طريقة العلم في دراسة موضوعه فلها ركنان : ابتغاء الحق بالبرهان الوثيق في المجال الذي اختاره العلم الحديث لنفسه ، مجال عالم الشهادة سوى الإنسان ، وركن التجربة الصحيحة ، والمشاهدة الدقيقة اللتين لا بد منهما في الكشف عن الوقائع أولا ، واختبار صحة تعليل الوقائع المتشابهة ثانياً . وفي الكلمة السابقة [1] بيان كاف للتطابق التام في الركنين كليهما . وهذا التطابق بناحيتيه من أكبر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

وليس يضعف من دلالة التطابق في الركن الأول أنه ركن ضروري في كل بحث ، علمي أو غير علمي ، فاشتراكه بين الفلسفة والعلم مثلا يقلل من دلالته فيما نحن بصدده ما دام ضرورياً للوصول إلى الحق في العلم ، وما دام العلم الحديث ، والفلسفة لم يكونا معروفين حين نزل القرآن .

---

(١) عدد جمادى الآخرة .

على أنه إن كانت عمومية هذا الركن شبهة قد يتعلق بها منكرو إعجاز القرآن من ناحية العلم ، فخصوصية الركن الثانى - من وجوب استعمال الحواس تحت إشراف العقل لاكتساب العلم اليقينى - بعيدة من كل شبهة ، ولا سبيل إلى إنكار الإعجاز العلمى فيه .

غير أن هناك دقيقة تحسن الإشارة إليها ، ودفع شبهة قد تبنى عليها ، هى أن آية سورة الإسراء : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، لم تذكر من الحواس إلا السمع والبصر ، والعلم فى طريقته يستعمل كل الحواس ، وقد يكتفى فى رد هذه الشبهة بالتنبيه إلى أن السمع والبصر هما أهم الحواس ، وبدونهما لا يتيسر بحث علمى ، وبهما يتم الانتفاع ببقية الحواس ، لكن هذه البقية لم يخل القرآن الكريم من إشارة إليها ، وكثير من أسرار الكون يأتى فى القرآن عن طريق الإشارة إلى سنن اللغة التى نزل بها ليحيط بالفطرة من جميع أقطارها ، ولتظل أسرارها مكنوزة فيه حتى يأذن الله فى ظهورها على توالى العصور بإظهار كل عصر من آيات الله فى الكون على القدر الذى يتيسر به فى فهم بعض تلك الإشارات فى كتابه ، ويتجدد بذلك من إعجاز القرآن ما يكون حجة جديدة لله على الناس ، وسنلقى من الله فيما نستقبل من الكلمات المثل بعد المثل بما يوضح هذا الإجمال ،

وإذن فما هى الإشارة القرآنية إلى كسب المعلومات عن طريق العقل والحواس جميعا ؟

تلك الإشارة نجدها فى الآية الكريمة . آية سورة النحل : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[1] هذه الآية أعم وأشمل فى معناها من الشطر الثانى لآية الإسراء إذ هى تشمل حياة الإنسان كلها منذ يولد ، من حيث نمو عقله باكتساب المعلومات عن طريق السمع والأبصار والعقل جميعا ، فى حين أن آية الإسراء تتعلق بحياته بعد أن يبلغ رشاده ، وتهديه إلى طريق العلم اليقينى ، وتحمله التبعة فى سلوك ذلك الطريق أحسن أم أساء .

والسمع والبصر والفؤاد ورد ذكرها فى الآيتين جميعا ، إلا أن السمع ورد على صيغة المفرد فى كلتيهما ، وورد البصر والفؤاد على صيغة الجمع فى آية سورة النحل فهل لذلك من حكمة ؟

إن الفخر الرازى فى موقف كهذا فى تفسيره آية (إنا منجوك وأهلك) من سورة العنكبوت تساءل : لماذا قالت الرسل

(١) الآية ٧٨ .

هنا « إنا منجوك » فى خطابهم لوطا ، وقالوا قبلها لإبراهيم (لننجينه وأهله) بصيغة الفعل فهل فيه من فائدة ؟ وقبل أن يجيب بجوابه المذكور فى صفحة ٦٦٨ من الجزء السادس من تفسيره ، قال - وهو المراد من هذا الاستطراد - : « ما من حرف ولا حركة فى القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ، ولا تصل إلى أكثرها وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا ، ورضى الله عن الفخر الرازى ، فقد أصاب بقوله هذا وجه شبه أساسى بين القرآن الذى هو من عند الله لهداية البشر على مر العصور ، وبين الفطرة التى هى من خلق الله ومظهر قدرته وحكمته ، لا يختلف فيها شىء عن قرينة أدنى اختلاف إلا كان لذلك الاختلاف مغزى عند أهله من أولى العلم ، فلنلتمس الآن مغزى جمع الأبصار - والأفئدة - وإفراد السمع فى آية النحل ، فقد التمسنا ذلك عند الزمخشرى والفخر الرازى فلم نجدهما تناولاه .

أما الأفئدة : فيكفى فى مجيئها على صيغة الجمع أن العقول تنشأ مختلفة فى الخصائص والقدر ليتمم بعضها بعضا فى الحياة ، والسمع فى وظيفته واحد قل أن يختلف فيها بين الناس ولذلك أفرد ، والبصر الذى آلته العين كالسمع الذى آلته الأذن ، وظيفته بين الناس واحدة ومع ذلك فهو لم يفرد فى الآية ، وتفاوت الناس فيه من حيث القوة لا يصلح تفسيرا لمجيئه على صيغة الجمع ، وإلا جاء السمع مجموعا كذلك ، لأن الناس يتفاوتون فيه أيضا من حيث القوة ، والأبصار بمعنى البصائر يغنى عنها ذكر الأفئدة فلم يبق إلا أن الأبصار جاءت بصيغة الجمع على المجاز لتدل على حواس الإدراك غير السمع الذى سبق ذكره فى الآية ، مادام موضوع الآية هو تذكير الناس بفضل الله عليهم فى تمكينهم من علم الأشياء بعد أن ولدوا لا يعلمون منها شيئا ، ومن العجب ذى الدلالة أن السمع جاء دائما مفردا ، والبصر جاء دائما مجموعا فى جميع الآيات التى اقترن فيها بالسمع عدا آية الإسراء .

وآيات النظر فى ملكوت الله فى السموات والأرض كثيرة فى القرآن ، بل هى أكثر من آيات الأحكام ، وما ذلك ألا لأن الكون وآيات الله فيه ، هو دليل وجود الله سبحانه ومظهر جلال صفاته وكماله ، ولقد قام المسلمون بما أمر الله ، من هذه الناحية لما استتب لهم الملك بعد الفتوح ، فكانوا هم من بدأوا عصر العلم الذى نصفه الآن « بالحديث » ظنا منا أنه لم يبدأ إلا فى الغرب ، وغفلة عما كان لأسلافنا من أثر فى هداية الغرب إليه لما اتصل أهله بالمدنية الإسلامية فى الأندلس وفى الشرق فى الحروب الصليبية ، ثم كان

ما كان مما أدى إلى غفوة المسلمين، وقعودهم عن العمل بما أمر به القرآن في هذا وفي غيره ، فسخر الله غير المسلمين في الغرب الكشف عن أسرار الفطرة ، وآيات الله فيها ليتم ما وعد الله به في قوله سبحانه :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . والقرآن مخاطب به الناس في جميع العصور يفهم أهل كل عصر من آياته على قدر ما أتوا من الفهم ، ومن العلم . والضمير في قوله تعالى (أنه الحق) راجع إلى القرآن وإن لم يذكر في الآية المذكورة آنفا من سورة (فصلت) تشهد لذلك الآية التي قبلها : « قل أرأيتم إن كان من عند الله، ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو في شقاق بعيد» والشقاق الذي كان فيه مشركو العرب كان في القرآن حيث ينكرون إنه من عند الله، وهو من عند الله، فإن احتيج إلى بيان فوق هذا أن الضمير في الآيتين إنما يراد به القرآن كان تمام البيان في أن القرآن كان موضع الحجاج قبل الآية السابقة بنحو سبع آيات ، إذ يقول الله سبحانه « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا: لولا فصلت آياته، أأعجمى وعربي ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر، وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد » ويقول سبحانه قبل هذه بآية : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » والذكر هو الكتاب العزيز . والكتاب العزيز هو القرآن الذي أغنى التصريح به في هذه الآيات قبيل اختتام السورة عن التصريح به في الآيتين في خاتمتها ، اكتفاء بالضمير الذي يدل على مرجعه السياق طبق الأسلوب البلاغي في العربية . ولعل هذه الإطالة في إثبات أن الضمير في قوله تعالى «حتى يتبين لهم أنه الحق» راجع إلى القرآن لم يكن لها داع لولا أهمية ما سيترتب على هذا من الارتباط بين آيات الله في الآفاق التي وعد الله بإظهارها لخلقه ، وبين القرآن الكريم الذي سيتبين الناس أنه الحق بظهور تلك الآيات ، وفي هذا ما فيه من الندب إلى تبين ما يمكن تبينه من تمام التطابق بين ما يكشفه الله على أيدي العلماء من أسرار الفطرة ، وبين ما أنزل الله في كتابه العزيز من آيات متعلقة بتلك الأسرار ، والسين في قوله تعالى (سنريهم آياتنا) ينبغي أن تنبهنا إلى أن المراد بالآيات في الآية الكريمة ليست هي مجرد هذه الظواهر الطبيعية البادية للناس منذ القدم ، ولكن هي أسرار مودعة فيها أو متعلقة بها إذا ظهر منها بعض على يد العلم في أي زمن كانت دليلا على أن

القرآن حق من عند الله إذا وجدت من يحسن المطابقة بينها وبين ماجاء فى موضوعها من آيات القرآن .

فالعلم الحديث بموضوعه وطريقته قرآنى من غير شك ، لكن العجيب حقا أن ترد مادة علم فى القرآن الكريم متصلة بالظواهر الطبيعية التى جعلها العلم ميدان بحوثه ، وجعل دراستها شغله الشاغل ، فكان ذلك دليلا على أن العلم الحديث ليس يضاد الدين كما يزعم الملحدون بل إن حقائقه فى الإسلام من صميم الدين .

فبهذا المعنى وردت مادة (علم) بصيغة الفعل فى قوله تعالى من سورة يونس : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » الآية ٥ ، وبنفس الصيغة أيضا وردت فى قوله تعالى من سورة الأنعام « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » الآية ٩٧ ، ووردت بصيغة اسم الفاعل مجموعا فى قوله تعالى من سورة الروم : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » الآية ٢٢ ،

كما وردت فى سورة فاطر أيضا بصيغة الاسم مجموعا فى قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ؛ إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » ٢٧ ، ٢٨ ، وواضح أن العلماء والعالمين هم الذين يعلمون ما أودع الله من آيات قدرته وجلاله وعظمته وحكمته فى هذه الظواهر التى ذكر فى هذه الآيات وفى غيرها من كتابه ، وأن العلم بها يزيد المؤمن يقينا بالله وخشية له سبحانه ، والعلوم التجريبية كلها سخرها الله للكشف عن أسرار هذه وأمثالها فى كتابه ، فلم يبق إلا أن يتعاون أولو الكفاية فى العلم والدين من المسلمين على المطابقة فى دقة واحتياط : بين آيات العلم وآيات القرآن ؛ ليعلم من لم يكن يعلم أن القرآن هو كتاب الله الحق ، وأن العلم الحديث بطريقته وموضوعه وحقائقه لا يجافى القرآن ، بل هو فرع من القرآن أو هو علم من علوم القرآن ؟

محمد أحمد الغمراوى

القيمة الأدبيّة في الأدب الصّوفي

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

يستقبل دارس الأدب الصوفي للوهلة الأولى من النظر فيه مشاعر مختلطة غائمة لا يدري معها ماذا يحمل هذا الأدب في كيانه من معطيات.. أهو كلام له مفهوم ومضمون ووراءه شيء، أم أنه تخبطات متخبطين، وشعوذات مشعوذين، وصيحات مخابيل ومتهوسين.. لا تحمل ثمرا، ولا زهرا، ولا ورقا!

ولهذا المظهر القاتم الغامض الذي يظهر فيه هذا الأدب لعيني لم يلم به إلماماً عارضاً أو يلقاه على نية مدخولة غير خالصة.

لأجل هذا كانت تلك الجفوة التي يجدها هذا الأدب من كثير من العلماء والأدباء، الذين يمرون به مروراً عجلا ويلقونه أو يلقاهم على غير قصد أو نية.. في ثنايا الدراسات الأدبية أو العقائدية ...

وحقيقة هذا الأدب - شعره ونثره - ليست على تلك الصفة التي تدعو إلى مجافاته وتحمل على الزهد فيه.. وأنه إذا كان لغير الأدباء وجه لأن يعتزلوا أدب المتصوفة، أو أن يتحرجوا أو يتأثموا من الوقوف عنده والنظر فيه، التماساً للعافية في دينهم، والسلامة لمعتقدهم - على حسب ما يظنون ويقدرون - ! نقول: إذا كان لغير الأدباء من علماء وفقهاء، أن يجفوا هذا الأدب، وأن يزهدوا فيه ويلووا وجوههم عنه، لأمر أو لآخر - فإن في أعناق الأدباء حقا لهذا الأدب، وواجب الأداء، لا تبرأ منه ذمة الأديب حتى يؤديه على الوجه الأمثل، فيختبر هذا الأدب اختبارا محايدا، ويدرسه دراسة خاصة خالصة للأدب، لا ينظر فيه إلى شيء غير ما تقضي به الأصول المقررة في فن القول: ثم ليكن الرأي - بعد هذا - في هذا الأدب، حمداً أو ذماً، رضاً أو سخطاً، فهو - على أي حال - رأي واجب الاحترام، صالح للنظر فيه، والاطمئنان إليه، لأنه صدر من جهة اختصاص، كما يقولون.

وقد كان لنا قول كهذا القول كما كتبنا في أعداد سبقت من الرسالة فاتهمنا أحد الفضلاء بأننا من «المتصوفة»، وأنه وجد ريح التصوف عالقاً فيما كتبت! وعلى الرغم من أنني حددت موقفي تحديداً واضحاً منذ أول حديث لي في هذه الدراسة، وقلت في صراحة صريحة لا تحتمل تحميلا ولا تأويلا:

إن هذه الدراسة للأدب الصوفي لا تمس الجانب العقدي من هذا الأدب، ولا تعرض له بخير أو شر، إذ هي دراسة أدبية خالصة للأدب وحده - على الرغم من هذا القول

الواضح الصريح فقد وقع ما خشيت أن يقع .

وأبى لبعض الناس فهمهم إلا أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ، وإلا أن يجدوا فى هذا القول ستاراً أستتر به الدعوة أو الدعاية للتصوف عن طريق الإعلان عن أدبه ، والترويج له بهذه الدراسة ! وليس بين يدى من اللغة وأساليبها ما يقدرنى على الإبانة أكثر مما فعلت لتحديد موقفى من هذا الأدب ، والقصد الذى قصدت إليه من تلك الدراسة !

وأقولها صريحة : إننى لست صوفيا ، ولا متصوفا ، وإنما أنا واحد فى آحاد المسلمين جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف شيعهم ونحلهم ومذاهبهم ... وإنه لو كان لى صبر على مجاهدة النفس ، وقدرة على مغالبة أهوائها ، وكظم نزعاتها لدخلت مدخل التصوف - كما أفهمه - ولعددت نفسى أهلا للحق بغبار السلف الكريم من صحابة الرسول وتابعيهم . ولكن كيف ؟ « والزاد قليل ، والسفر طويل ، والطريق موحش » كما يقول المثل الأعلى للتصوف ، على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ؟

أنا لا أفهم التصوف الإسلامى إلا على أنه أسلوب حياة قوية نقية ، مستقيمة استقامة الإسلام . . ولست أفهم التصوف على أنه طائفة ، أو طوائف مرتبة المنازل والدرجات ، ذات شارات وطقوس ، ومراسم . كلا ، فإن التصوف عندى سلوك شخصى فردى يصير بالمرء إلى حال من الاستقامة والصفاء والإشراق ، ثم إنه لا يعنينى بعد هذا أى اسم من الأسماء يحمله هذا الضرب من السلوك ، ليكن تصوفا ، أو زهدا ، أو جهاداً أو أى وصف يكون سمة للمسلم المستقيم على شريعة الإسلام ، فى غير انحراف أو ضعف !

وبعد ، فلنعد إلى موضوع حديثنا .

ماذا فى الأدب الصوفى من قيم أدبية يستأهل بها هذا الأدب أن يدرس ، وأن يضاف إلى الأدب العام . ويأخذ مكانه فيه ؟ ونستطيع أن نقول للإجابة على هذا : إن الأدب الصوفى إذا جمع مما سليما ، ودرس دراسة صادقة واعية منصفة - لو درس هذه الدراسة انكشفت لنا منه جوانب ذات خطر فى تقييم الأدب العربى وخاصة ما يتصل منه بالشعر .

إن تهمة الأدب العربى عند الغربيين هى أنه - فى جملته - أدب حسى ، جسدى ، سطحى ، يعنى بالظاهر المحسوس من الأشياء دون أن يتعمقها أو ينفذ إلى لبابها وصميمها . .

ولا أدل على ذلك - كما يقولون - من أن النفس الإنسانية - هذا العالم الرحيب وما يدور فيه - لم ينفذ إليها الأدب العربى ، ولم يتعامل معها ، بل ظل يلعق مما يفور على السطح من زبدها وغثائها دون أن يقع على شئ مما فى الصميم منها . . تلك تهمة الأدب العربى التى يرمى بها الغربيون فى وجه هذا الأدب ، ويتابعهم فيها كثيرون من

المستغربين من مواليد العرب، وأبناء العروبة.

تلك التهمة التى يجعلونها أم النقائص فى الأدب العربى، ويجعلون إليها السبب الأول فى تخلفه عن اللحاق بالأدب الأوربى أو التعلق بغباره!

وأحسب أن لو كان الأدب الصوفى قد أخذ مكانه فى الأدب العربى، وامتزج به، ولم يعزل عنه هذه العزلة المحكمة، حتى أنه ليكاد يصفى حسابه من الأدب العربى ليضاف إلى المقولات المذهبية.. فيما يتصل بالدين والعقيدة - أحسب أن لو أن هذا الأدب الصوفى خالط الأدب العربى، وأضيف إليه باعتباره عملا أدبيا خالصا - كما حدث ذلك فى الأدب الشيعى، وأدب الخوارج - لتغير بهذا وجه الأدب العربى، ولما وجد فيه ناقدوه هذا التخلف الذى نسبوه إليه، ورموه به، من القول بأنه أدب حسى سطحى، ولكان فيما يلقاهم من الأدب الصوفى من نظرات بعيدة عميقة فى أغوار النفس الإنسانية ما يسقط هذه التهمة من أفواههم قبل أن تقع على أقلامهم!

ففى الأدب الصوفى ثروة عظيمة نفيسة من الدراسات النفسية العميقة، التى نضجت فى «بوتقة» الرياضة الصوفية، التى أساسها مراقبة النفس، ورصد التيارات المتدفقة المتدافعة فيها... من رضى وسخط، ورجاء ويأس، وأمن وخوف.. إلى غير ذلك مما تتقلب فيه نفس الصوفى، وتنضج على دخانه ولهيبه، حتى تصفو وتسكن.. وهيهات!

لقد أقام التصوف من النفس كائنا مستقلا بذاتيته وبوجوده، يعيش إزاء الإنسان، بدوافعه ونوازعه، وبهذا استطاع المتصوف أن يلتقى النفس لقاء مواجها، وأن يكشف كل خافية منها، وأن يتعرف على مواطن القوة والضعف فيها خلال هذا الصراع الطويل المحتدم بينه وبينها، وفى أثناء تلك المراقبة الطويلة المتصلة لحركاتها ونزعاتها واتجاهاتها.. ثم كان الأدب الصوفى - وخاصة الشعر - معرضا مصورا لهذه المراقبة النفسية العميقة أتم تصوير وأوضحه، حيث يمكن أن يعتمد على هذا الأدب اعتمادا وثيقا إلى حد كبير كمرجع من مراجع علم النفس التجريبى. وإن أى حديث للنفس فى هذا الأدب ليس من خطرات الشعراء، ولا من نظرات الحكماء، وإنما هو تجارب إنسانية ناضجة، عاشها أصحابها، ونقلوها فى عبارات جرت على ألسنتهم. وهم متلبسون بهذه التجارب قبل أن تبرد، ويبوخ حميها..

فالنفس الإنسانية واقعة فى عين الصوفى، وفى خاطره أبدا. إن لم ترها عينه عيانا تمثلها خاطره مثلا مشخصا، يقاربه حينا ويباعده فى أكثر الأحيان.. وبهذه المراقبة المحكمة لا تفلت النفس من بين يدى الصوفى، ولا تنفلت من قبضته!

ومن عجب أن بعض فقهاء الغرب يعرف للأدب الصوفى هذه المنزلة، ويقدر أثرها

وخطرها فى الأدب العربى - على حين يأبى أكثر علمائنا وأدبائنا على هذا الأدب أن يحسب فى الأدب العربى، أو يضاف إليه، ولا ينظر أكثر هؤلاء وهؤلاء إلى الشعر الصوفى بوجه خاص إلا على أنه من متون النظم للعقيدة الصوفية، كألفية ابن مالك فى النحو، والشاطبية فى القراءات، وما أشبه ذلك.. وفى هذا ظلم عظيم للأدب العربى قبل أن يكون ظلما للشعر الصوفى نفسه.

يتحدث المستشرق (فون جى وينياوم) عن الأسس الجمالية فى الأدب العربى ويعلل لقصور الخيال فى هذا الأدب - حسب تصدره - فيقول: «استسلم الأدب العربى إلى ما كتبته عليه طبيعته الأصلية، فأصبح معرضا للتنويع فى موضوعات متشابهة، والتلذذ بالصور التى تثيرها الكلمات لا التجارب... وقد أفضى هذا كله إلى ما شاع فى العصر العباسى الأول من رفاهة ودقة فى الإحساس، ومن هذه الصفة انبعث الاهتمام بالناحية اللفظية فى الأدب. ولم يبق إلا التصوف يهدد بقاء المجادلات العقلية، ويؤخر انحدار الأدب العربى إلى الأفول... إن التصوف يقوم بدور مناقض فإن تلك النظرة الصوفية الحافزة التى ترى الإنسان قادراً على أن يسمو فوق ذاته، وأن يفصح عن مشاعره لا سيما الرموز والصور - هى ذات الشأن الأول فى استمرار شعر التصوف، وجعله شكلا ناميا التعبير عن الذات - حين كان دافع الخلق فى الفروع الأخرى من الأدب العربى قد أخذ يضمحل».

ونقول: إن فى الأدب الصوفى دعوة قوية جادة، تدعو الإنسان إلى التحليق والسمو وإلى شحذ الهمة، واستنهاض العزيمة حتى يعلو على نزعات نفسه، ويتغلب على تيارات أهوائه، ثم لا يزال هكذا فى مصابرة ومجاهدة حياته كلها... يريد أن يعلو على هذا الوجود الأرضى، وأن يسامت الملأ الأعلى، ويحيا فيه... ذلك أن الصوفى يدخل التصوف، ومعه رصيد كبير من الإيمان الوثيق، والأمل القوى فى أن ينتزع وجوده كله من هذا العالم الترابى إلى عالم الإشراق والنور، وأنه سيبلغ هذه الغاية يوما، ما دام على الطريق، وما لم تفتر عزيمته، أو تضعف همته! وسواء أصدقت الأيام آمال المتصوف أو كذبته، فإن هذا الأمل من شأنه أن يقيم فى كيانه مشاعر الثقة بوجوده كإنسان يمكن أن يعلو، وأن يترقى فى درجات الكمال إلى غير حد.

وكل هذه الحيوات التى يحياها الصوفى، وهذه الآمال والمنازع التى تملأ كيانه - كل هذا قد صوره الأدب الصوفى - شعره ونثره - أدق تصوير وأجله، وأصدقه.

فالأدب الصوفى - فى صميمه - دعوة إلى القوة فى أتم صورها، وأكمل مظاهرها... قوة تقهر المستحيل، وتستعلى على كل صعب، وتستهين بكل خطب

وإذن فالقول بأن أدب التصوف أدب انسجام من الحياة - قول لم يصدر من إدارك عميق صحيح لهذا الأدب ، ولعل مرد هذا الفهم يرجع إلى ما يشيع فى هذا الأدب من استخذاف بكثير مما يهتم له الناس ، ويحفلون به ... إذ يرى الصوفى أن ذلك دون همته ، وأهون عنده من أن يلتفت إليه ... كما يرجع هذا الفهم أيضا إلى نظرة قاصرة محدودة لا تقع إلا على حواش المتصوفة وشذاذهم ، من أولئك الأمساح الفارغين . أما رجال التصوف وأعلامه وشيوخه فقد كانوا نماذج عالية للقوة والتعالى على الشدائد والآلام .

وفى الأدب الصوفى أيضا مشاهد رائعة معجبة للحب المطلق. الحب لكل شىء، الحب البالغ غاية ما يمكن أن تحتمل النفس البشرية فى سبيل الحب من مواجد ، وحرق ، وآلام ، وظمأ ، وحرمان.

وسواء أنظرنا إلى هذا الحب نظرة صوفية ، أم أخذناه كما هو ، فإن مافيه من طاقات الحب ليروى كل عاطفة ، ويخصب كل جديب من تلك النفوس الصلدة المتحجرة ، لو أنه أصابها بوابل ، أو مسها بطل منه .

وهذا ولا شك كسب كبير للأدب باعتباره دعوة إلى تجاوب الإنسان مع الحياة وتفاهمه مع الوجود ، وفى هذا كسب عظيم للإنسانية بما يشيع فيها من نفوس مشرقة متفائلة متسامية ، متسامحة تسع الوجود كله ، وتبتسم فى وجه كل جميل وقبيح منه ...

يقول ابن عربى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى
إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
فأصبح قلبى قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ، وبيت لأوثان
ودير لرهبان ، وكعبة طائف
وألواح توراة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى !

ولا نحاسب ابن عربى هنا ولا نحاكمه فى ساحة الدين ... فليكن دينه أى دين ، ولكننا ننظر إليه كأديب وسعت نفسه الوجود كله ، وخفق قلبه بحب كل شىء فيه .

إننا ننظر إليه هنا كشاعر يترجم عن عواطفه ، وليس كناظم يؤلف متنا فى عقيدة أو مذهب .

ثم لماذا لا يكون شأن ابن عربى كشأن المعرى مثلا ؟ لماذا لا يعد فى الأدباء أو الفلاسفة ؟ ولماذا يجره غرماته جرا إلى ساحة الدين ؟ ويعدونه صاحب دعوة ورسالة فيه ؟ لماذا لا يطلق سراحه ليكون فى جماعة الأدباء أو الفلاسفة ، فيحتمل منه هنا ما لا يحتمل منه هناك ؟ وبذلك ينقطع هذا الجدل الكثير المتصل فيه ، وفيمن كان على شاكلته ؟ إنه شاعر ، وقد قبل الأدب العربى من هم أكثر منه شطحا ، أو تجديفا

أو زندقة ـ إن كان يرى فى أصحاب الشطح أو التجديف أو الزندقة ـ كأبى نواس، وبشار وحماد عجرد ، ومطيع بن إياس ... ثم أبى العلاء المعرى ! . لماذا لا يقبل ابن عربى وأمثاله من شعراء المتصوفة فى الشعراء كما قبل هؤلاء ؟ أو على أقل تقدير : لماذا لا يأخذ الأدب حظه من شعره ونثره ، كما أخذ الدين بنصيبه من عقيدته ومذهبه ؟ فالرجل إن يكن رجل دين ، فهو قبل هذا رجل أدب وفلسفة وكذلك شأن كثير من الشعراء الذين حسبوا فى المتصوفة ، ولم يكن لهم حساب فى الأدب وحسب شعرهم فى عداد المقولات الدينية ، وكان عكس هذا أقرب إلى الحق وأهدى سبيلا ... لأن الشاعر إنما يصور مشاعر وعواطف ووجدانات تسكون بها الحقائق وتتخفى بين ظلالها وأطيافها .. ولهذا لم يكن الشعر صالحا لتقرير القضايا الفقهية، أو الحقائق العلمية ـ إلا أن يكون نظم متون كما قلنا ـ وذلك لما يلتبس به من مشاعر ذاتية ، وما يعلق به من تمويهات الخيال وتهاويله . إن الشاعر ـ أى شاعر ـ هو صوفى فى مشاعره ووجداناته، بمعنى أن كلا منهما ـ الشاعر والصوفى ـ ملتهب العواطف ، مهتاج المشاعر تغلى فى كيانه لهفة طاغية إلى الوجود كله ، يريد أن يضمه إليه، ويحويه بين جوانحه . . ومن هنا كان هذا التعاطف القوى الوثيق بين الشعراء المتصوفة وغير المتصوفة ، وبين الوجود وموجوداته كلها . . .

يقول الشاعر المهجرى رشيد خورى (الشاعر القروى) :

لم يعن هذا الشعب أنى شاعر
حر يحب بلاده متفانى

بل كل ما يعنيه هل أنا مسلم
لله ، أم أنا لم أزل نصرانى

إنى على دين العروبة واقف
قلبى على سبحاتها ولسانى

إنجيلى الحب المقيم لأهلها
والذود عن حرماتها فرقانى

يا مسلمون ... ويا نصارى دينكم
دين العروبة . . واحد لا اثنان

ويقول الشاعر المهجرى أيضا رشيد أيوب :

أصلى لموسى ، وأعبد عيسى
وأتلو السلام على أحمد

فأى فرق بين هذا وذاك ، وبين قول « ابن عربى » الذى نقلناه آنفا ؟ أليس لنا أن نقول إن الحال التى كانت مسئولية على ابن عربى وهو يقول شعره ـ هى حال الشاعر وليست حال العالم ، ولا الفقيه ، ولا الصوفى ، إن ذلك هو القول الذى ينبغى أن يقال فى هذا المقام ولا أقول غيره . ؟

عبد الكريم الخطيب

فرق مسيحية تقول بوحدانية الله وموقف الإسلام منها

للدكتور على عبد الواحد وافى

كانت المسيحية فى مبدأ أمرها - كما ينبئنا بذلك القرآن - ديانة توحيد تدعو إلى عبادة إله واحد، وتقرر أن المسيح إنسان من البشر، أرسله الله تعالى بدين جديد وشريعة جديدة، كما أرسل رسلا من قبله، وأن الإرهاصات التى سبقت بعثته والمعجزات التى ظهرت على يديه بعد رسالته هى من نوع الإرهاصات والمعجزات التى يؤيد الله تعالى بها رسله، وأن خلقه بدون أب ليس إلا إرهاصا من هذه الإرهاصات، وأن أمه صديقة من البشر اصطفاها الله تعالى؛ فنفخ فيها من روحه فحملت بالمسيح: «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام».

وقد ظلت بعض الفرق المسيحية محافظة على عقيدة التوحيد، وظل لبعضها أتباع كثيرون حتى أواخر القرن السادس الميلادى ثم انقرضت كلها بعد ذلك.

ومن أهم هذه الفرق فرقة (إبيون) وفرقة (بولس الشمشاطى) وفرقة (أريوس).

١ — أما فرقة إبيون أو الإبيونيين فإنها تنتسب إلى زعيمها إبيون Ebion

وكانت هذه الفرقة تقر شرائع موسى، وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم، وتنكر ألوهية المسيح، وترى أنه مجرد بشر رسول، وكان لهذه الفرقة فى تفاصيل عقائدها إنجيل خاص مدون باللغة الآرامية لم يصل إلينا شىء من نصوصه، وإن كان التاريخ قد تحدث عنه وعن بعض مايشتمل عليه، وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض فى أوائل القرن الرابع الميلادى، وتم انقراضها فى أواخر هذا القرن.

٢ — وأما فرقة الشمشاطى فهم أتباع بولس الشمشاطى Paul de Somosate وكان بولس هذا أسقفاً لأنطاكية سنة ٢٦٠ ميلادية، وأنكر ألوهية المسيح، وقرر أنه مجرد بشر رسول، وقد عقد بأنطاكية من سنة ٢٦٤ إلى سنة ٢٦٩ ثلاث مجامع للنظر فى شأنه، وانتهى الأمر بحرمانه وطرده ولكن بقى لمذهبه على الرغم من ذلك أتباع حتى القرن السابع الميلادى قبيل بعثة رسولنا عليه الصلاة والسلام، ويذكر ابن حزم فى كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل

عن بولس هذا ، « أنه كان بطريركا بأنطاكية وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، كأحد الأنبياء عليهم السلام خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلاهية فيه » ... ويقول ابن البطريق (وهو مسيحى من رجال القرن الثالث الهجرى كان من أشهر مترجمى الخليفة المأمون وقد ترجم له كتابى المجسطى لبطليموس واقليدس [1]) فى بيان مذهب هذه الفرقة أنها كانت تقول : « إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره ، وإن ابتداء الابن من مريم (أى إنه محدث وليس قديما) ... ويقولون : إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد ، ولا يؤمنون بالكلمة (أى بالابن) ولا بروح القدس ، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وهم البوليقانيون » .

٣ - وأما الأريوسيون فهم أتباع Arius . وكان أريوس قسيسا فى كنيسة الإسكندرية وكان داعياً قوى التأثير ، واضح الحجة ، جريئا فى المجاهرة برأيه ، وقد أخذ على نفسه فى أوائل القرن الرابع الميلادى مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما كانت تذهب إليه من القول بألوهية المسيح ، وبنوته للآب ، فقام يقرر أن المسيح ليس إلاها ، ولا ابنا له ، وإنما هو بشر مخلوق . وأنكر جميع ما جاء فى الأناجيل الأربعة المعتمدة الآن لدى المسيحين (أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا) من العبارات التى توهم ألوهية المسيح ، ويلخص ابن البطريق مذهبه فيقول : « كان يقول : إن الآب وحده هو الله ، وإن الابن مخلوق مصنوع ، وقد كان الآب حينما لم يكن الابن » . - وقد تبعه مشايعون كثيرون . فقد كانت كنيسة أسيوط على هذا الرأى ، وعلى رأسها ميليتيوس ، وكان أنصاره فى الإسكندرية نفسها كثيرين فى العدد أقوياء فى المجاهرة بما يعتقدون ؛ كما تبعه خلق كثير فى فلسطين ، ومقدونية والقسطنطينية ؛ وذلك على الرغم من أن كنيسة الإسكندرية لم تأل جهدا فى محاربته ومحاربة آرائه ، وعلى الرغم من حكمها عليه بالطرد من الكنيسة . - ثم أخذ هذا المذهب يضمحل ويتناقص عدداً تباعه بعد أن حكم مجمع نيقية سنة ٣٢٥ بطرد أريوس ، وكفره وأصدر قراره بألوهية المسيح ، وما يزال يضمحل ويتناقص عدداً تباعه حتى انقرض كل الانقراض فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

ويظهر أن هذه الفرق كانت تعتمد فى عقائدها هذه على ما انتقل إليها من حقائق الإنجيل الصحيح الذى أنزله الله على عيسى ، وعلى أناجيل أخرى من تأليف الحواريين والتلاميذ ، والأتباع غير الأناجيل الأربعة التى تقرر عقيدة التثليث ، وألوهية المسيح ، وهى الأناجيل المعتمدة الآن لدى المسيحين (أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا) .

(١) أنظر الفهرست لابن النديم ص ٣٤١ .

وقد وصلت إلينا نصوص إنجيل من هذه الأناجيل الأخرى التى تقرر وحدانية الله وبشرية المسيح ، وهو إنجيل (برنابا) فقد قرر برنابا فى إنجيله هذا : أن المسيح ليس إلا بشراً رسولا ، وأنه ليس إلاها ، ولا ابنا لله ؛ ونص على ذلك فى مواطن كثيرة من هذا الإنجيل ، فهو يقول فى مقدمته : « أيها الأعزاء إن الله العظيم قد اختصنا بنبيه يسوع المسيح رحمة عظيمة للعالمين ، وخصه بمعجزات اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين ، فأخذوا يبشرون بتعاليم ممعنة فى الكفر ، داعين أن المسيح ابن الله ... وقد ضل مع هؤلاء بولس الذى لا أتحدث عنه إلا مع كثير من الأسف والأسى ، وهذا هو ما دعانى إلى أن أسطر الحق فى هذه الشئون » . ويروى فى آخر الفصل الثالث والتسعين أنه قد : « قدم على المسيح كبير الكهنة مع الوالى الرومانى والملك هيرودس ملك اليهود ، فذكر له كبير الكهنة أن فريقا من الناس يقولون : إنه إله ، وأن فريقا آخر يقولون : إنه ابن الله ، وطلب إليه أن يعمل على إزالة هذه الفتنة التى ثارت من أجله ، فقال يسوع : وأنت يا رئيس الكهنة لماذا لم تخمد الفتنة ؟! وهل جننت أنت أيضاً ؟! ثم قال : إنى أشهد أمام السماء ، وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برىء من كل ما قاله هؤلاء الناس عنى من أنى أعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله أعيش كسائر البشر » . ويقول فى آخر الفصل السبعين : « إن يسوع قد نظر إلى الحواريين عندما بلغه افتتان الناس به ، وادعاؤهم أنه إله أو أنه ابن الله ، وطلب إليهم أن يبدو رأيهم فى ذلك ، فأجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله فغضب حينئذ يسوع وانتهره قائلا : اذهب وانصرف عنى ؛ لأنك أنت الشيطان » .

وينسب هذا الإنجيل للقديس برنابا ، وهو أحد تلاميذ المسيح ، وكان قبل اعتناقه للمسيحية يهوديا من اللاويين (فقهاء اليهود من قبيلة لاوى أو ليفى) ، وكان اسمه يوسف وسماه الحواريون برنابا (أى ابن الوعظ والإرشاد ، لأنه كان مجليا فى هذا الميدان) . ويروى سفر « أعمال الرسل » للوقا ، وهو أحد أسفار العهد الجديد ، أن برنابا باع جميع ما يملكه من أرض فى فلسطين ، وقدم ثمنه للحواريين ليستعينوا به فى الدعوة إلى المسيحية ومساعدة فقراء المسيحيين ، وأنه هو الذى ضمن بولس أمام الحواريين ، وشهد بصحة إيمانه ، ولولا تزكيته هذه ما صدق الحواريون بولس وما قبلوا انضمامه إليهم ، وأن الحواريين قد كلفوا برنابا عدة مهام تتعلق بالتبشير وتنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ، فقام بما عهد إليه به خير قيام .

وينسب لبرنابا - بجانب الإنجيل الذى نتحدث عنه - سفر فى تاريخ الحواريين

والتلاميذ ، يتفق موضوعه مع موضوع « أعمال الرسل » لوقا ، ويحمل الاسم نفسه الذى يحمله هذا السفر الأخير .

ومع تقديس الكنائس المسيحية الحاضرة لبرنابا ، فإنها لا تعترف بصحة نسبتهما إلى برنابا ، بل تذهب إلى إنهما مزيفان ، وأن ملفقيهما قد ألصقوهما ببرنابا ليروجوهما .

* * *

ولعل هذه الفرق المسيحية التى بقيت محافظة على عقائد التوحيد ، وانقرضت قبل ظهور الإسلام هى التى يعنيها القرآن الكريم حينما يثنى على عقائدها ، ويقرر أن أفرادها ناجون . أما من أدرك الإسلام من أفراد النصارى على العموم فإن ، هذه الأحكام لا تصدق عليه إلا إذا آمن بالدين الجديد . ويؤكد هذا المعنى أن القرآن حينما يصدر هذه الأحكام على النصارى يقرر : أنها لا تصدق إلا على « من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا » ، أى حافظ على عقيدة التوحيد وعلى شريعة رسوله ، ومات على ذلك قبل ظهور الإسلام ، أو أدرك الإسلام وآمن به أيا كان حاله قبل ذلك . فمن ذلك قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؛ وقوله : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، وقوله : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين » ؛ وقوله : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب » ؛ وقوله : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما » ؛ وقوله : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون » وقوله : « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين » .

وفى ضوء ذلك يؤول جميع ما كتبه الشيخ محمد عبده فى هذا الموضوع .

دكتور على عبد الواحد وافى

نفحات القرآن

دعوة الله إلى الإسلام
أثارت عجب المتكبرين وإعجاب المصدقين

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

> أكان للناس عجباً : أن أوحينا إلى رجل منهم : أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا : أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين ...

١ — حينما يجرى قضاء الله بشىء جديد فى دنيانا تستقبله النفوس الخبيرة بإعجاب المبتهج ، وتبادر إلى الإيمان به فى غبطة بما أدركته منه ... وفى شكر لله على ما ظفرت به .

ويزداد يقينها فى حسن ما صنع الله ، وفى جميل ما أراد بخلقه .

وعلى غير ذلك نفوس ملتوية عن سبيل الرشد ، إذ يحجبها الجهل ، والكبرياء عن حسن التقدير ، وتغفل عن حظها فيه ، وتقف منه موقف المعجب الجاحد وتتمادى حتى تتردى فى مهالكها ، وتبوء بسوء مغبتها.

كان ذلك شأن قريش حين بعث الله من بينهم عبده محمداً رسولا إليهم ، وإلى الناس كافة .

فانحاز عن دعوته أناس ، وعجبوا أن يكون هذا قضاء الله .

وأقبل على الدعوة آخرون : مطمئنين إلى أقدار الله فى ملكه ، وفى خلقه .

أنكر الكفار أن يكون لله وحى إلى إنسان ، وأن يكون هذا الإنسان رجلا منهم فلا يستسيغون أن يكون تبليغ الله إلى خلقه محمولا على لسان بشر .

ويزداد إنكارهم لأن يكون تبليغ الإنسان إياهم بمنطق فوق مستواهم : وهم أهل الفصحى ولا جرم ...

يبهرهم ذلك ، فيقولون كذبا عن هذا المبعوث من بينهم ، وهم أعرف به : « إن هذا لساحر مبين » !! فهذه دهشة ، تثير حقدهم ، وتهيج مشاعرهم ، فيسكون قدحا مزدوجا فى النبى ، وفيما حدثهم به عن ربه ، فهو ساحر ، طلع عليهم بسحره ، وما السحر إلا شىء غريب مصطنع ... ذلك إنكارهم وقد بدأ الله حديثه عنهم فى سورة يونس

بإنكار دهشتهم ، ونفى ما بدا منهم بقوله « أكان للناس عجبا : أن أوحينا إلى رجل منهم » ، فذلك تبكيت لهم ، وفيه تقرير لما أنكر هؤلاء الناس ، وهم الكافرون .

٢ — وماذا ينكرون من عمل محمد ؟ أينكرون أنه ينذر الناس جميعا بتخويفهم من عذاب الله فيهتدوا ؟

وأنه يبشر المؤمنين منهم ومن غيرهم ، بأن لهم قدم الصدق عند ربهم ، فينشطوا ، ويضاعفوا صالح عملهم .

وقدم الصدق هى : أقدام السابقين إلى دخول الجنة ، فإن وعد الله بها صدق ، وأقدام المؤمنين تسعى بهم إلى الفوز بذلك الوعد ... كما قيل « إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ومما ورد فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم. نحن الآخرون السابقون يوم القيامة . وقوله : إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى أدخلها أنا . وعلى الأمم ، حتى تدخلها أمتى . ووجه ذلك : أن محمدا أفضل المرسلين ... وأن أمته المطيعة له خير أمة أخرجت للناس ، لما كانت عليه من تشريع كامل ، وإيمان أفسح من إيمان سواها ، فهم لذلك أسبق دخولا الجنة ...

٣ — لم يكن هجاء الكافرين قاصرا على السحر ، بل أسرفوا فى التشنيع ، فقالوا : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب . !

ثم استهانوا كذلك ، فقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ » ، يعنى : هلا ...

يريدون : أن محمداً لا يستحق الرسالة لو كانت حقا كما يقول . والأولى بها عندهم : الوليد بن المغيرة عظيم مكة ... أو حبيب ابن عمرو الثقفى : عظيم الطائف .

وكلاهما من المتبوعين لضعفاء الكفار ، ومن سراتهم ... والله سبحانه يستهين بتلك العقلية الجاحدة التى تفترض من عندها أن تكون الرسالة لواحد من صناديد كفارهم .

فينبه على أن الرسالة من عطاء الله ، ومن ملامح فضله ورحمته بخلقه ، فهو الذى يختار من يصلح لها فى حكمته ، وتقديره فيقول « أهم يقسمون رحمة ربك » ، ويقول : الله أعلم حيث يجعل رسالته . ويقول : وربك يخلق ما يشاء ، ويختار ، ما كان لهم الخيرة » وفى هذا نزول بهم عن مدارج الرشد . الإنسانى حيث يفترضون ما لا قبل لهم به ، ويضعون أنفسهم فوق مستواها : دون نظر فى تفاهتهم ، أو تنبه إلى هوانهم عند الله !!

٤ — وكانوا يقولون « لو شاء ربنا لأنزل ملائكة » ، يريدون أن الرسالة أمر يليق بالملائكة ولا يصلح له بشر . فهم يستكثرون على الله أن تكون له حكمة فيما يصنع .

والله ـ عز شأنه ـ يقيم حجته عليهم فيما دبره من شأن الرسالة قديما ، وحديثاً ، فيقول لرسوله : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون ، مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » !!.

ومفهوم ذلك : أن الأرض لا يسكنها ملائكة ، وأن الله استخلف فيها آدم ، وذريته فلو أرسل ملكا من ملائكته إلى عموم الناس لكان مغايراً لهم فى جنسيتهم ، وفى لغتهم ، فلا يكون التجانس بين الجانبين موفورا ، فلا يتسنى للناس أن يتلقوا تبليغ الملائكة إليهم ، لما بين الملائكية والإنسانية من تباعد .

وإنما يختار الله من الآدميين من هيأته القدرة بالمواهب التى تؤهله للاتصال بعالم الروح ، ومن خصه ربه بنفس زكية فوق مستوى النفوس العادية ، وأيدته القوة القدسية بمعالم الرشد اللائقة بمن يكون وسيطا بين عالم الروح ، وعالم المادة .

فيكون هذا الإنسان هو الرسول المختار لله وتكون رسالته تبليغا عن الله إلى سكان هذه الدنيا «وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

وهذه حكمة بينة تدحض كل تعسف ، وتعصف بكل باطل ، وتفضح كل أفاك .

وتأييدا لما ظهر من الحكمة السالفة يقول الله تعالى :

« الله يصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس » فالملائكة رسل الله فى تنفيذ أموره بنا ، ومنهم ملك الوحى ـ والناس يكونون رسلا إلى أممهم ، باصطفاء الله لهم ليتلقوا عن الملائكة . . ويقول : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليبين لهم » .

ويقول : «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم» .

وهكذا : مما يقتلع الباطل ، ويهدى إلى الحق ، لو كان القوم يفقهون .. !!

ولكنهم تبجحوا فقالوا ذلك أوغير ذلك . فرقة يقولون : إنه كاهن ، وأخرى : يرمونه بالجنون ، وبالشعر ، وبالتلقى عن رجل يهودى كان يعيش بمكة ، والله تعالى ينفى كل ذلك عن رسوله محمد ، وعن كتابه الكريم ، فيقرع أسماعهم بالثناء المستطاب ، ويكبت حقدهم بالتزكية العطرة البليغة ، ويقرر لكتابه منزلة فوق المنازل .. فيقول : « وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له » ... وما هو بقول شيطان رجيم .. وما صاحبكم بمجنون . . « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن : قليلا ما تذكرون » وغاية ما يطمحون إليه أن يخدشوا مقام النبوة ، ويتهوزوا فى الوحى ، وفى الكتاب ، والله سبحانه يقتص بهم ، وبكل مكابر يتعامى عن

جلال القرآن أو يتشكك ، أو يشكك فيه إلى تعجيز لا قيام لهم منه ، فيقول « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ثم يرميهم بحجر أخير، فيقول عنهم « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

٥ — ورب سائل : إذا كانت رسالة الله لمحمد إلى سكان الأرض ، فهل كانت إلى الجن كما كانت إلى الأنس ؟ وجواب ذلك : نعم !! وهو ما ورد منطوقا به فى القرآن ، فيكون إنكاره خروجا عن الايمان .

وانظر قول الله فى هذا : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى ، ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا . إنا سمعنا كتابا ، أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ... يا قومنا : أجيبوا داعى الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . . . إلخ » فنى هذه الآيات توجيه إلى تكليف الجن بالاستماع من محمد لما يتلوه ، وتصريح بأن المستمعين منهم بلغوا قومهم ، ووصفوا لهم ما سمعوا من القرآن ، ثم دعوهم إلى الإيمان يغفر الله لهم ذنوبهم ، وحذروهم التخلف عن دعوة القرآن على لسان محمد .

وهل فى المقام شك بعد ذلك التنصيص القاطع بتكليف الجن ، ورسالة محمد إليهم .

وكذلك يحكى الله عن الجن ما وقع منهم فى قصة كهذه .

« قل : أوحى إلى : أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ـ جميلا ـ يهدى إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا ، إلى أن قال منهم: « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ـ غير المسلمين ـ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » الخ .

ومن هذا نفهم أن للجن رسلا منهم ، كانوا مكلفين بالاستماع إلى محمد ، وبالتبليغ إلى قومهم ، وأن فيهم مطيعين للإسلام ، ومنهم مخالفون له . . وأن لهم جزاء عند الله على ما يقدمون من عمل ، كبنى الإنسان سواء .

على أنك تجد فى القرآن خطابا صريحا للثقلين جميعا : « يا معشر الجن والإنس : ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ » « يا معشر الجن والإنس : إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا » . « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن ، والإنس الخ » .

٦ — وقصارى الحديث فى هذا : أن رسالة محمد لعامة الخلق جميعا ، فهى رسالة تبليغ ، وتشريع ، وتكليف بالنسبة للإنس والجن جميعا .

وهى رسالة تشريف للملائكة ، إذ الملائكة

ليسوا بحاجة إلى تبليغ من جانب الرسول ، فإنهم مطبوعون على الطاعة بالجبلة لا بمقاومة الشهوة وجهاد النفس، بل بتلقينهم التدين من جانب الله مباشرة .

فليسوا من طينة الإنسان ، ولا من النار كالجن ، وإنما هم من عالم النور ، وعالم النور غير عالم المادة التي تهبط إلى الشهوات وتقترف المآثم فتحتاج إلى التهذيب .

فهم كما قال الله فيهم : « لا يعصون الله ما أمرهم .. ويفعلون ما يؤمرون » .

وحسبهم أنهم يتشرفون بالإيمان بمحمد ، وبتبليغ الرسالة إلى محمد ، وبالسير فى معية محمد ، ومناصرة محمد ، وهم سابقون فى طاعتهم على عهد محمد ، ولم يكن ينقصهم علم جديد ، ولا تدين جديد .

وليس من هدفنا أن نستطرد فى هذا الشأن وإنما هى مناسبة اقتضاها السياق لنشفى حاجة فى نفس القارئ .

٧ — هذا - وإن يكن فى الدنيا من يعيش على غير إيمان بما حدثناك : فقد تكفل الله بتكذيبهم قديما ، وحديثا وإليه مرجعهم جميعا ، فيوفى كلا منهم جزاءه غير منقوص .

٨ — وأنت ترى فيما ذكرنا لك من مثالب الكفار لمحمد صلى الله عليه وسلم بعدا عن المساس بنسبه ، وعن الغمز فى عشيرته .

والنسب عند العرب مناط المجد أكثر من أى شىء سواه فهم على ما أسرفوا فى جحودهم لرسالته لم ينالوا من أبوته ، ولا من أمومته بل لم ينكروا عراقته فى أمجاد الأصول القبلية .

كما أنهم لم يطعنوا عليه فى مسلك شخصى .

ولم يأخذوا عليه ريبة تغض من شأنه قليلا وهم الخصوم المعاصرون له .

ولو أتيح لهم أن يلتمسوا شيئا من ذلك لأذاعوا به ، ولأفاضوا فيه ، وأضافوا إليه ما يشفى غلة الخصومة فى نفوسهم الحانقة .

وكأنهم حادوا عن اختلاق شىء من ذلك لاعتقادهم أنه عند القوم بنجوة من الريبة فى شخصه وفى مسلكه بعامة .

وأنهم لو ابتدعوا غمزات من عندهم لكشفوا عن حفيظتهم ، ومكنوا الناس أن يكذبوهم فى كل ما يهرفون به ، وهم يجهدون أنفسهم فى ترويج ما يفترون .

ويكاد المريب يقول خذونى .

فليكن هذا كله ترويجا غير مباشر منهم لما نقرره نحن عن عقيدة حقة ، وليكن إقرارا على أنفسهم بالتناقض .

ثم ليكن تركيزا لإيماننا به ، ومزيدا لطاعتنا لشريعته ، وتعلقا بسيرته ، والتماسا لشفاعته فى الآخرة .

صلوات الله عليه وسلامه فى الأولين ، وفى الآخرين ، وفى الملأ الأعلى إلى يوم الدين وما بعد يوم الدين .

عبد اللطيف السبكى

إلى أى مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ٣ —

انتهيت فى المقالين السابقين إلى تحديد الخطوط الرئيسية للمسائل التى تقبل التطور والمسائل التى لا تقبل التطور وقد قلت: إن أكثر الأحكام قبولا له هى الأحكام التى ترجع إلى العرف أو الأحكام التى ترجع إلى المصالح المرسلة، ولما كان هذان الأصلان يحتاجان إلى تفصيل وبيان كان من اللازم بيانهما على أتم وجه ليكون الفقيه أو من يتعرض النظر فى الأحكام على بصيرة من أمره فلا ينزلق وراء تحكم الأهواء والأغراض.

وبحثنا - اليوم - فى العرف، فى تحديد معناه وبيان أقسامه، ومدى الاحتجاج به، وبيان الفرق بينه وبين الإجماع، وهل هو حجة شرعية مستقلة؟.

* * *

معنى العرف: فى اللغة - كما فى القاموس - الجود، واسم ما تبذله (أى تجود به) وموج البحر، وضد النكر وهذا المعنى الأخير هو أنسب المعانى للمعنى الاصطلاحى فقد عرفه الأصوليون بأنه ما تعارف عليه الناس أو طائفة منهم من قول أو فعل أو ترك، وهو ما يعرف بالعادة فالعرف القولى كتعارفهم على إطلاق لفظ دابة على ذوات الأربع، ولفظ حيوان على ما سوى الإنسان من أنواع الحيوانات وكتعارفهم على عدم إطلاق لفظ اللحم على السمك والكبد والكرش ولحوم الطير، فإنها لا تطلق - الآن - إلا مقيدة فيقال لحم سمك ولحم طير كدجاج وغيره، بدليل أنه لو أمر سيد خادمه أن يشترى له لحماً فاشترى سمكا أو دجاجا أو كبداً أو لحم رأس فإنه يعتبر مخالفاً لأمره.

ومن العرف العملى ما اعتاده الناس من وضع بطاقة بسعر البضاعة فتقوم مقام الإيجاب فى عقود البيع وما اعتادوه من ترك أمتعتهم أمام المصلى فيكون هذا وديعة يجب على المصلى حفظها حتى يعود صاحبها حتى إنه لو قصر فى المحافظة عليها كان ضامنا.

ومما تعارف الناس على تركه حتى إنه أصبح فى حكم المباح ما تساقط من السنابل عند حمل القمح أو ما فى معناه إلى البيدر وكذا ما يبقى فى الأرض بعد الحصاد، وكذا ما تعارف الناس على التساهل فيه كثمر بعض الأشجار

كالتوت والجميز فى بعض البلاد . كل ذلك مما تعارف الناس كلهم أو جماعة منهم عليه ؛ وهذا هو المسمى بالعرف حتى إنهم ينكرون على من خالفه ؛ ويعتبرونه شاذا .

أقسام العرف : ينقسم العرف - باعتبار ما وقع عليه التعارف - إلى قسمين لفظى وعملى ؛ فاللفظى كأن يكون للفظ معنى فى اللغة ولكن تعارف الناس على إطلاقه على بعض أفراده دون بعض كما مثلنا بلفظ دابة ، ولفظ حيوان ، ولفظ لحم .

والعرف العملى كما مثلنا بتسامح الناس فى ثمار بعض الأشجار ، وما تساقط من القمح وغيره . وينقسم - باعتبار ما اصطلحوا عليه - إلى قسمين : عام وخاص .

فالعرف العام : ما تواضع عليه عامة الأمة كإطلاق لفظ دابة على ذوات الأربع .

وخاص : وهو ما تواضع عليه أهل بلد أو أصحاب صناعة أو مهنة من لفظ أو عمل أو ترك كتواضع أهل مصر على تقسيم المهر إلى معجل ومؤجل وأن المؤجل يكون نصف المعجل ، وكتواضعهم على أن يكون أثاث المنزل - عادة - يكون للزوجة لا للزوج ؛ وتواضع أصحاب بعض السلع على ضمانها من التلف إلى مدد جرى بها عرفهم حتى ولو لم يذكر ذلك فى العقد .

كما ينقسم العرف - باعتبار كونه مشروعا أو غير مشروع - إلى قسمين : صحيح وهو ما تعارف الناس كلهم أو بعضهم عليه ولم يدل دليل من الشارع على فساده وبطلانه كالأمثلة التى ذكرتها آنفا وفاسد كتعارفهم على أن المؤجل من الثمن يكون بفائدة متعارفة عندهم ، فإن هذا ربا ، حتى ولو لم ينص عليه فى العقد ، فإن من القواعد الشرعية « أن المعروف عرفا كالمشروط شرطا » فتكون هذه الزيادة ربا ، لأنها فى حكم المنصوص عليها وقد عرف الربا شرعا بأنه : فضل خال عن عوض بعقد .

ومن العرف الفاسد ما تعارف عليه الناس من صنع أهل الميت طعاما للمعزين فقد روى الإمام أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن جرير ابن عبد الله رضى الله عنه قال : « كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعهم الطعام من النياحة » .

ومثل ذلك عمل المآتم وإحياء يوم الأربعين من موت الميت ونقل الطعام إلى القبور فى المواسم والأعياد ؛ بل إن المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم غير ذلك فقد ورد عنه أنه قال : « اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد جاءهم ما يشغلهم » رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم ؛ هذا وما أكثر العرف الفاسد فى المآتم والأفراح فينبغى عرض هذه العادات على قواعد الشريعة

فما وجدناه منها فاسداً حاربناه ؛ وإلا تركنا الناس وما اعتادوه فى حياتهم .

هذه هى أقسام العرف بحسب الاعتبارات المختلفة .

مدى الاحتجاج بالعرف :

إذا أسقطنا العرف الفاسد ، فإلى أى مدى نحتج بالعرف الصحيح ؛ وهل يمكن أن نخصص به النص الشرعى العام أو القواعد الشرعية العامة .

وقبل الإجابة على ذلك لابد أن نعرف الدليل على اعتبار الشارع للعرف .

لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وللعرب عرف وعادات فأقرها إلى أن أبطل الله تعالى بعض هذه العادات وأقر بعضها فنفهم من ذلك أن عادات الأمم لها اعتبارها ووزنها فى نظر الشارع ؛ لأن النبى صلوات الله وسلامه عليه بعث للناس كافة ؛ ألم يتبن الرسول صلى الله عليه وسلم زيداً حتى كان يقال له زيد بن محمد وبقى هذا التبنى وهو بمكة ورداحا من الزمن فى المدينة حتى نزل قوله تعالى « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » وقوله « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم » . « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .

وهذه الآيات كلها نزلت فى سورة الأحزاب وهى قد نزلت بعد موقعة الخندق فى السنة الخامسة من الهجرة ؟؟ !!

ثم ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم لخولة بنت ثعلبة التى ظاهر منها زوجها أوس ابن الصامت « ما أراك إلا قد حرمت عليه » لما تعارف عليه العرب من أن الظهار تحريم إلى أن نزل قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا » إلى آخر الآيات التى بين فيها أحكام الظهار .

ثم ألم يعتبر الشارع ما تعارفه العرب من اعتبار الكفاءة فى النكاح ؟ !! وإن كان تحديد معنى الكفاءة مما يختلف فيه العرف بين النـــاس ويختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة .

وكذلك اعتبر الشارع الدية وأوجبها على العاقلة لما بين أفرادها من تناصر ، ولما فى إيجابها عليها من الضرب على أيدى المفسدين ، كما اعتبر العصبية سببا للولاية والإرث إلى كثير من الأحكام التى جاء الشارع مقرراً فيها العرف حتى أصبحت شرعا لا يجوز لنا أن نحيد عنه ؛ بل إننا نفهم من هذه الأحكام أن الشارع جعل

العرف وزناً واعتباراً في التشريع ، ولقد بنى الأئمة المجتهدون كثيراً من الأحكام على العرف الشائع في زمانهم ، فكثيراً ما نرى صاحبي أبي حنيفة أبا يوسف ومحمداً يخالفانه في الرأي ؛ ونرى عند الرجوع إلى استدلالهم أن منشأ الخلاف هو اختلاف العرف باختلاف الزمن مع تقارب ما بينهم من زمن .

ونرى الشافعي رضي الله عنه غير كثيراً من آرائه بعد انتقاله إلى مصر ، ونرى أن بعض هذه الآراء ترجع إلى اختلاف العادات بين أهل العراق وأهل مصر .

ونرى مالكا رضي الله عنه يعتبر عرف أهل المدينة مصدراً من مصادر الأحكام فعلى أهل كل مذهب من هـذه المذاهب أن يعيدوا النظر في مذاهبهم فما وجدوه من الأحكام مبنياً على العرف فإنه يسعهم أن يخالفوا رأي إمامهم إن كان العرف قد تغير ، ولا يعتبرون بذلك خارجين على أصول مذهب إمامهم .

إذا عرفنا هذا فنقول : إن الإجماع منعقد على أن العرف القولي يعتبر مخصصا للنص الشرعي العام ، وللقواعد الشرعية العامة ؛ فإذا ورد عن الشارع نص فيه لفظ عام ولكن العرف خصص هـذا العام ببعض أفراده فإن هذا النص لا يحمل على كل أفراده ، بل يحمل على ما تعورف الحمل عليه ؛ وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم (لا تبيعوا الطعام بالطعام إلا مثلا بمثل) فلفظ الطعام عام في كل مطعوم ، ولكنه في هـذا الحديث لا يحمل إلا على البر وحده لأنه المتعارف عليه عند الإطلاق .

وأما العرف العملي فهل يخصص به العام ؟ ذهب الحنفية إلى أنه كالعرف القولي ؛ إذ التفرقة بينهما تحكم ؛ وكل ما قيل من وجوه التفرقة بينهما تمحل وتعصب فالاستصناع عرف عملي وقد ترك به قاعدة شرعية عامة وهي أن لا يجمع بين بيع وإجارة في عقد واحد ؛ ومع هذا فهو مشروع .

ودخول الحمام مع عدم تحديد القدر الذي يستهلكه من الماء أو الصابون وعدم تحديد زمن المكث جائز شرعاً مع أنه تعاقد فيه جهالة ولكن تعارف النـاس على التسامح فيها ..

وأمثال ذلك كثير وكثير ؛ ولو عرضنا كثيراً من المعاملات التي قال الفقهاء الأقدمون بفسادها بحجة أنها مفضية إلى النزاع ولكن الناس الآن تسامحوا فيها وأصبحت ليست مثار نزاع ؛ لو عرضناها ـ الآن ـ على بساط البحث لوسعنا أن نقول بجوازها ومشروعيتها اللهم إلا أن تكون ممنوعة بالنص .

الفرق بين العرف والإجماع :

العرف كما عرفنا في أول هـذا البحث

هو ما تواضع عليه الناس أو طائفة منهم من قول أو فعل أو ترك وينشأ من اتفاق الناس لا فرق بين عامتهم وخاصتهم بخلاف الإجماع فإنه - كما عرفه المحققون من الأصوليين - اتفاق مجتهدى الأمة فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم على حكم شرعى .

وبهذا يتبين أن العامة لهم مدخل فى العرف دون الإجماع ؛ والعرف قد يتغير بخلاف الإجماع فإنه إن انعقد لا يجوز لمن يأتى بعدهم أن يخالفهم لأنهم ما أجمعوا إلا بعد اجتهاد وتمحيص بخلاف العرف فإنه يحصل بين أهله بمجرد الاتفاق من غير بذل جهد أو استعراض أدلة ولكن تواضعوا عليه وتوارثوه فيما بينهم استجابة لحاجتهم وظروفهم ولهذا فهو يتغير بتغير الظروف والملابسات .

ولعلى بهذا أكون قد بينت مكانة العرف فى التشريع الإسلامى وأيا ما كان فليس العرف دليلا خارجا عن الأدلة الشرعية المعروفة وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس .

وإلى مقال آخر نفصل فيه الكلام على المصالح المرسلة إن شاء الله تعالى .

بدر المتولى عبد الباسط

القول فى دين الله عن جهل

ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد .

ويقول تعالى : وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً .

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ على العماري

— ٣ —

إن الدين عند الله الإسلام :

ثم يستطرد المؤلف إلى جدل وقع بين مسلم ومسيحى ، وقد عاب على المسلم استشهاده بقوله تعالى : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » ووجه العيب عنده أن الكلمة من قول اليهود ، يريد أنها لا تستعمل إلا كما قيلت ، وزعم أن الشيخ المسلم أدركه الحصر ، وأنه — أى المؤلف — قال للشيخ : حرام عليكم يا مولانا أن تفتروا على الله الكذب ، وأن تأخذوا ما فى المصحف الشريف وتفهموه على ما يقضى به علمكم ، وتوقدوا بذلك نار الفتنة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب ، وبخاصة النصارى .

والمؤلف يعلم أن جميع المسلمين عالمهم وجاهلهم ، يعاملون أهل الكتاب المقيمين بينهم كما أمرهم دينهم أن يعاملوهم : (لهم مالنا وعليهم ما علينا) ، ويسيرون على مقتضى قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

ويعلم أنه لا مانع : لا عربية ، ولا دينا ، ولا خلقا أن يتمثل إنسان بآية أو ببعض آية من القرآن إذا كان المقام يقتضى هذا التمثيل ، وهو يفهم جيداً ما أعنيه بهذه الكلمة .

فالشيخ لم يفتر على الله ، ولم يحاول أن يوقد نار فتنة ، ولعل صاحب المؤلف الذى وصفه بأنه من (إخوانه الأقباط) هو الذى بدأ بالعدوان ، ولكن المؤلف كأنما ندب نفسه للدفاع عن (إخوانه) بدليل قوله فى نفس الموضع (وبخاصة النصارى) .

وأعتقد أن نشر هذا الحديث كما ذكره المؤلف فى كتابه هو الذى يوقد نار الفتنة لا ما قاله الشيخ فى جدل محصور بينه وبين أحد الناس ، فما الذى حمل المؤلف أن ينشر هذه الحكاية الصغيرة فى كتاب ؟ !

ثم يستمر المؤلف فيذكرنا بأن القرآن وصف النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمسلمين ، وذلك فى الآية الكريمة : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة

الذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

ويكتب تعليقا فى هامش الصفحة على الأوصاف الأخيرة فى الآية فيقول : (لم تقل الآية : وإنهم غير مؤمنين بمحمد ، أو إنهم مسلمون معك !) هكذا بوضع علامة التعجب بعد هذه الكلمات .

فأولا : كيف غاب عن هذا المتحمس لإخوانه أن الدول المسيحية كانت ولا تزال تنزل بالمسلمين أقسى أنواع الاضطهاد ، وتستغلهم أسوأ أنواع الاستغلال ، وان ينسى المسلمون أبدا ما فعلته إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من الدول المسيحية بالعالم الإسلامى والعالم العربى ، وليس ما فعلوه مجهولا حتى ندل أحدا عليه ؟ .

وكيف غاب عنه أن كل أعمال المبشرين ، وكتاباتهم لا تعنى فى الدرجة الأولى - كما هو المفروض - بنشر المسيحية وتعاليمها ، ولكن عنايتهم الأولى بتحطيم الإسلام ، ونزعه من قلوب المسلمين ، وأن أعمال المبشرين وكتاباتهم هى التى هددت السلام بين الأمم التى تتألف من مسلمين ومسيحيين ، وهذه الكتب تفيض بالأحقاد على الإسلام والمسلمين .

وإذا كان المؤلف لم يسمع بشىء من هذا فإننا ننقل له كلمات من كتاب عنوانه (البحث عن الدين الحقيقى) وهذا الكتاب ألف ليدرس فى المدارس الأجنبية المنبثة فى البلاد العربية ، وقد صدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحى فى باريس ، ونال رضا البابا ليون الثالث عشر - كما ذكر صاحبا كتاب (التبشير والاستعمار) . وأما الكلمات فهى : (الإسلام فى القرن السابع للميلاد . برز فى الشرق عدو جديد ، ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة ، وقام على أشد أنواع التعصب ، لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يهلكون فى القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات) .

ثم يقول المؤلفان الدكتوران : مصطفى خالدى وعمر فروخ : هذا النوع من التأليف هو الذى أقلق السلام بين الشرق والغرب منذ أقدم الأزمنة ، وهو الذى يهدد السلام كل يوم وخصوصا فى الشرق .

وثانيا : ماذا أراد المؤلف بتعليقه فى الهامش ؟ هل أراد أن يقول إن القرآن لم يشترط فى المسيحيين الذين هم أقرب مودة للمؤمنين أن يؤمنوا بمحمد ، وأن كل مسيحى مهما كان أمره هو أقرب الناس مودة للذين آمنوا .

إذن فما بال المسيحيين - فى الغرب - منذ الحروب الصليبية إلى اليوم لم يتركوا أية فرصة دون أن يحاولوا ، وأن يعملوا - جاهدين - على هدم الإسلام ؟

ثم ، لم وقف المؤلف عند هذا الحد من الآيات الكريمة ، لعلى لو أكملت له الآيات - ولا أظنه تركها غافلا - لسقط فى يده ، ولوقع فى عمياء لا يدرى طريقا للخروج منها ، لأن الآيات كاملة تجعل تعليقته صادرة عن جهل أو خبث ، بل تغسل كتابه كله غسلا - لو كان يريد أن يكون من الذين يحترمون عقولهم وأقلامهم - .

قال الله تعالى بعد الآية السابقة : « وإنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » .

ما رأى المؤلف ؟ ألا يزال يصر على أن الآية لم تقل إنهم لم يؤمنوا بمحمد ؟ ألا يزال يرى أن لكل صاحب دين أن يؤدى عبادته كما وصفها دينه دون أن يلزمه الإيمان بالأديان الأخرى وبرسلها ؟ .

* * *

والمؤلف لا يلتزم بما التزمت به كل الشرائع ، فمن المعلوم من الأديان بالضرورة أن الإيمان بالله وبرسله أساس النجاة من عذاب الله ، والله لا يغفر أن يشرك به - كما جاء بنص القرآن الكريم - فما وجه العجب فى أن يحكم على رجل لم يؤمن بأن الله واحد ، ولم يؤمن بأن محمداً رسول الله بأنه لن ينال رحمة الله ؟ .

المؤلف يذكر حكاية - كما يقول - على سبيل الفكاهة ، خلاصتها أن أحد المشايخ أجاب عن سؤال يتعلق (بإديسون) فقال إنه لا يدخل الجنة لأنه لم ينطق بالشهادتين ، فعجب المؤلف من ذلك أشد العجب ، ووجه للشيخ كلاما كأنه يؤنبه ، فقال له أولهم : بعد أن أضاء العالم حتى مساجدكم ، وبيوتكم باختراعه ؟ فأجابوه : لا ، ولو ، فعاد يسأل : ألا يمكن أن يدخل الجنة عقلا ؟ وقد خيل إليه أنه حج المشايخ ، وسفه أحلامهم ، وهو - والله - مسكين ، فما دخل العقل هنا ؟ لقد قال الشيوخ : إن الرجل الذى لا ينطق بالشهادتين مهما أدى للعالم من خدمات فلن يغفر الله له ، وهو كلام يوافق صريح النصوص ، فإن كان يريد الاحتكام إلى العقل فهو يوافق العقل .

لقد أنعم الله على هذا المخترع بنعمة عظيمة ، وهى نعمة النبوغ ، وكان مقتضى هذه النعمة أن يعترف بوحدانية الله ، وأن يصدق بكتبه ورسوله ، ولكنه لم يحفل بذلك ، فمن الملوم ؟

إنه هو - ولا شك - وإذا حرم الله عليه الجنة فلأنه لم يشكر من وهب له هذه النعمة التى أضاء بها العالم، ومع ذلك فكيف نحتكم إلى العقل والنصوص صريحة واضحة؟

إذا كان المؤلف مسلما، يؤمن بأن القرآن من عند الله فهذا حكم القرآن، وإن كان يرى أن الإسلام يتحقق دون أن يؤمن الإنسان بأن القرآن من عند الله، وبأن محمداً رسول الله، وقد أرسل للناس كافة فالآن جاء الوقت للحديث معه فى هذا الشأن.

يبدو أن قوله تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يبدو أن هذه الآية الكريمة، أو على وجه الدقة، ظاهرها قد أغرى كثيراً من المنحرفين لأن يتخذوا منها برهانا على أن الإيمان بمحمد، وبالقرآن لا حاجة إليه فى النجاة عند الله.

ولعل أول الطريق ما وقع فيه السيد رشيد رضا - عن غير قصد - فاتخذه هؤلاء سندا وحجة، وراحوا يقلدونه دون أن ينظروا فى جملة أقواله، بل لعلهم نظروا، ولكنهم وجدوا فى هذا الموضع ما يسعفهم، ويساعدهم على ضلالتهم فتمسكوا به، وكأنهم يجهلون أن الناس يعرفون القراءة، وأنهم يستطيعون أن يرجعوا إلى كتب التفاسير، بل أن يرجعوا إلى القرآن نفسه، ويضعوا آية بجوار آية، ويطمئنوا أخيراً إلى الحق.

قال السيد رشيد رضا فى تفسير هذه الآية من سورة البقرة: (ولا إشكال فى عدم اشتراط الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم).

ومع أن هذا مخالف لما قال به جمهور المفسرين فى الآية، ومع أن الإيمان بالله يقتضى فى ذاته الإيمان بكل ما صدر عنه، فالإيمان بالكتب المنزلة، ومنها القرآن، والإيمان بالرسل ومنهم محمد جزء من الإيمان بالله، ولن يتحقق الإيمان بالله إلا بالإيمان بكل ذلك، ولذلك كان الإسلام الحق، هو الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته، واليوم الآخر، والمسلمون لا يفرقون بين أحد من رسله، مع كل ذلك نرجع إلى السيد رشيد رضا نفسه لنجد أنه لا يعنى بهذه الكلمة ما فهمه منها المنحرفون.

يقول فى تفسير قوله تعالى: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معهم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون»: (إن من مقتضى ذلك الميثاق أن دين الله واحد، وأن دعاته متفقون

متحدون ، فمن تولى بعد الميثاق عن ذلك عن هذه الوحدة ، واتخذ الدين آلة التفريق والعدوان ، ولم يؤمن بالنبي المتأخر المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره كأولئك الذين يجحدون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويؤذونه فأولئك هم الفاسقون أى الخارجون من ميثاق الله ، الناقضون لعهده ، وليسوا من دينه الحق فى شىء) .

ويقول فى التفسير (ج ١٠ ص ٣٠٠) : (من قال: إنه يؤمن برسالته - يقصد محمداً صلى الله عليه وسلم - إلى العرب خاصة لا يعتد بإيمانه ، لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية بما جاء به) .

إلى أقوال أخرى كثيرة مبثوثة فى تفسير المنار عند مناسباتها ، وإنما لفت النظر إلى أقوال هذا المفسر لأن المؤلف يعتمد عليه كثيراً ، ويأخذ حتى تعبيراته ، ولكنه - مع الأسف - يبترها كما يبتر الآيات ، والأحاديث ليوهم نفسه أنه وصل إلى غايته من خداع الناس ، وما خدع إلا نفسه ، وإلا الذين يظنون أنه حقق ما تهفو إليه نفوسهم المريضة .

إن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عامة أرسل إلى الإنس وإلى الجن ، وإلى جميع الناس ، وهو خاتم النبيين ، والنصوص على ذلك كثيرة من القرآن الكريم ، ومن الأحاديث النبوية الصحيحة ، وهى لشهرتها تغنى عن سردها هنا ، ولكن لا بأس أن نضع أمام المؤلف بعضها مع يقيننا بأنه لا يجهله .

قال تعالى فى سورة الأعراف : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » وقال سبحانه فى سورة سبأ : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وقال عز وجل فى سورة الأنعام : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » أى وأنذر به كل من بلغه من الثقلين .

وقال - وهو أصدق القائلين - فى سورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

فهل يمكن مع هذه النصوص الواضحة لإنسان يحترم عقله ، ويحترم القراء أن يدعى: أن الإيمان بمحمد ، والإيمان بالقرآن ليس واحد منهما شرطا فى النجاة عند الله ، وأن كل ما يطلب من الإنسان الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والعمل الصالح ، وهذه - كما يقول المؤلف - هى أركان الدين الأساسية .

أما تفسير الآية على وجهها الصحيح ، فيكفى أن يرجع من يريد إلى أى كتاب من كتب التفسير ليعرف وجه الحق فى تفسيرها ومهما أخذت هذه الآية على ظاهرها فلن

تكون الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع الخطير ، لأن فى القرآن آيات كثيرة تتعلق بعموم رسالة النبي محمد ، وتتعلق بموقف الإسلام من أهل الكتاب ، ومن دعوتهم إلى الإسلام ، وليس فيه آية واحدة تبيح لهم أن يبقوا على دياناتهم الأولى معرضين عما جاء به رسول البشرية ، ولا جاء ذلك فى حديث صحيح ، حتى ولا غير صحيح .

فهل نلغى كل النصوص الواضحة الصريحة ليتمسك مع المؤلف بظاهر آية واحدة أبان كل المفسرين المراد منها ، ودلت الآيات الأخرى على أنه لا يمكن حملها على ظاهرها .

ومن عجب أن المؤلف أخذ ينقل من تفسير المنار ، فنقل خمس صفحات كاملات ، ولكنه تجاوز عن كل ما يتعلق برسالة محمد ومعجزته ، لأنه يثبت بما لا يدع مجالا للشك دلالة القرآن على نبوة محمد وفيه هذه العبارة (وإن القرآن قد بلغ مرتبة الكمال فى (الهداية) فاهتدت به الأمم والشعوب .

فمن كان يؤمن بها على علم بحقيقتها لا تقليداً لآبائه وقومه فيها لايسعه أن يؤمن بالتوراة أو الإنجيل أو الفيدا أوغيرهن من الكتب المنسوبة إلى المرسلين الأولين ولا يؤمن بالقرآن وهو أكملها فى موضوعها ، وأصحها إلى من جاء به) .

وفيها أيضا أن من كان يؤمن بالله وأنه الرب الخالق للعالم بأكمل نظام المدبر لأمور العباد بالحكمة والاحتكام وتأمل تاريخ محمد لايمكن أن يدعى أن القرآن من أمور التعاليم البشريه الكسبية .

فهل يمكننا أن نسأل المؤلف لماذا تغافل عن هذا وأمثاله ، من كلام الإمامين اللذين يعتمد على أقوالها : محمد عبده ورشيد رضا؟ بل ليس لنا أن نسأل لأننا نعرف الجواب ، فإن من يجرؤ على أن يأخذ بعض الآيات ويترك بعضا لا يستغرب منه أن يأخذ من كلام الشيخين ويدع .

ولكن سوء النية هنا لايضر المؤلف وحده ، وإنما يضع فى نفوس القراء الذين لا تتهيأ لهم ظروفهم الاطلاع على ماكتبه الرجلان ، يضع سحابة من الشك ، فهو يسىء إلى شيخيه - كما يدعى - إساءة بالغة حين يبتر أقوالها ، ويأخذ منها ما يدل ظاهره على تأييده فى غرضه ، ولو نقل الكلام كاملا ، أو حتى لو لخص رأى الرجلين بأمانة لفهم الناس رأيهما على حقيقته ، ولكن كان أمامه أحد أمرين إما أن ينقل رأيهما كاملا ، وحينئذ يلقى بكتابه فى اليم ، وإما أن يتنكر للأمانة العلمية ، وحينئذ يصل - فى دنيا الوهم - إلى بعض غرضه ، ولعل هذا الكسب الخيالى الصغير أحب إلى نفسه من سلوك سبيل العلماء .

علي العماري

المرونة فى اللغة العربية

للأستاذ عبد الحميد حسن

— ٢ —

إن باب القياس لايزال مفتوحا ، وطريق الاجتهاد لم يوصد ولن يوصد ، وإن المجال فسيح للأخذ بأسباب التجديد والمرونة على الأسس التى لاتحيد باللغة عن نهجها ، ولا تنحرف بها عن خصائصها ، وإنا لنرى فى آراء العلماء وفيما لهم من مذاهب سنداً لكل هذا .

وإليكم بعض هذه الآراء التى تشجع على التيسير، ومسايرة التجديد :

١ — قال أبو حيان فى شرح التسهيل : «كل ما كان لغة لقبيلة صح القياس عليه » .

٢ — وقال ابن جنى فى الخصائص : « اللغات على اختلافها كلها حجة ، والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء » .

٣ — وقال ابن جنى أيضاً فى الخصائص : « حكم اللغتين إذا كانت إحداهما قليلة والأخرى كثيرة جداً فإنك حينئذ تأخذ بأوسعها رواية ، وأقواها قياسا ، وتتخير أشيعها ، إلا أنك لو استعملت الأقل لم تكن مخطئا فى كلام العرب » .

٤ — وقال السيوطى فى المزهر : قال ابن درستويه فى شرح الفصيح : « إنما أهمل « ودع » و « وذر » لأن فى أولها واواً وهو حرف مستقل ، فاستغنى عنهما بما خلا منه وهو « ترك » . ثم قال : « واستعمال ما أهملوا من هذا جائز صواب وهو الأصل » .

٥ — والكوفيون يعتدون بما ورد من الكلمات الشاذة ، ويعملون بالقياس عليها وابن مالك يوافقهم فى هذا .

* * *

وعلى هذا الأساس من المرونة والتيسير رد بعض الباحثين على من تشددوا فى اللغة وقواعدها وأبوا أن يعترفوا بما هو صحيح ومنعوا ما يمكن أن يصادف القبول .

فهذا هو الحريرى (٣٩٥) فى كتابة « درة الغواص فى أوهام الخواص» يتعرض لمسائل كثيرة يحكم بأنها خطأ ؛ فينبرى له الشهاب الخفاجى فى شرحه على « درة الغواص » ، ويصحح كثيراً مما رفض إجازته . ومن أمثلة ذلك :

اجتمع محمد مع على — دخول « أل » على « غير » وعلى « كافة » — المال بين زيد وبين عمرو بتكرير كلمة بين — جمع مرآة على « مرايا » — التعبير : « ما كان ذلك فى حسابى »

ويصر على أن نقول فى حسبانى - الألف درهم والألف كتاب ، إلى غير ذلك .

وهناك كتب أخرى لغير الحريرى ممن تصدوا لتخطئة كثير من الكلمات والعبارات . ومن ذلك :

١ - كتاب « ما تلحن فيه العامة » للكسائى (١٩٢) .

٢ - كتاب « إصلاح المنطق » لابن السكيت (٢٤٤) .

٣ - « أدب الكاتب » لابن قتيبة (٢٧٦)

٤ - « ما تلحن فيه العامة » للزبيدى (٣٧٩) .

٥ - « لغة الجرائد » لليازجى (١٩٠٦)

٦ - « تذكرة الكاتب » لأسعد خليل داغر (١٩٥٩) .

وقد تصدى العالم الجليل المحقق الأستاذ محمد على النجار عضو هذا المجمع لهذه الكتب فى محاضراته التى ألقاها أخيراً فى معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، ولقد جال سيادته فى هذه المحاضرات جولة موفقة ، ورد على طائفة مما ورد فى المجموع تكون على شكل واحد الكلمة الواحدة . ويسقط احتجاج اللغويين بما ورد وما لم يرد . وعلينا أن نرفض من الألفاظ ما تعددت معانيه تعدداً معيباً ، وما اختلف تحديد معناه ، وأن نعدل عن الظن بأن العلم بالغريب هو غاية العلم باللغة ، وأن لا نبقى منه إلا ما دل على شىء لا تدل عليه الكلمة المألوفة ، وهذا يستدعى معاجم حديثة من طراز يختلف فى جوهره عن المعاجم القديمة كما سنبينه فيما بعد .

الشعر : من أهم مصادر اللغة العربية الشعر . وكانت للناس به عناية فائقة . وكان يكتفى فى التدليل على صحة معنى كلمة أو صيغتها أو صواب تركيب ما أن يقولوا قال الشاعر . والذى دعا إلى كل هذه العناية بالشعر سهولة حفظه ، وتداوله بين الناس على نحو يقرب من التدوين ، حين عز التدوين بالكتابة ولعلهم كانوا يرون أن نظم الشعر يدل على قدر من الذوق الأدبى يسمح بالاستشهاد به . وقيل : إن الشعر ديوان العرب . وقد يكون حقا ديوان عاداتهم ، وأخلاقهم ، وأيامهم وما يحبون ، وما يكرهون ، ولكنه لا يصلح ديوانا للغة دون تحقيق دقيق .

والشعر فى اللغات كلها له أسلوب خاص وأوضاع وترتيب فى الكلام يقبل من الشاعر ولا يقبل من الكتاب عادة [1] ، ولا يعد أصلا يتبع فى النثر . بل قد يضطر الشاعر أن يغير من نطق كلمة بعينها ليستقيم الوزن ولا يجارى

---

(١) قيل عن كاتب إنجليزى متأنق : أنه كان لا يطيق أن تكون جملة نثرية فى ترتيب يجعلها كالمنظومة ويعد هذا عيبا فى النثر .

أحد من الكتاب الشعراء فى مثل هذا . الشعر العربى لا يختلف فى هذا عن الشعر فى اللغات الأخرى ، وإنما زاد فى صعوبته أن أوزانه محدودة محكمة ، لا تقبل إلا قليلا من المرونة ، وقافية القصيدة واحدة مما يزيد فى صعوبة النظم . ولو التزم الشعراء العرب صحة الألفاظ . واستقامة الأسلوب ، وجودة المعنى مع هذه الأوزان القاسية ، والقافية الموحدة دون تجاوز عن بعض الصيغ وتهاون فى الصرف ما استطاع أكثرهم أن يقول إلا القليل من الشعر .

على أن للنظم جمالا يجعل هذه الانحرافات فى اللغة والأسلوب مقبولة ، ولكن النحويين يخطئون حين يجعلون ذلك أصلا من أصول اللغة يباح لغير الشعراء . وليس هناك لغة تجعل للتقديم والتأخير فى الشعر قواعد خاصة تسرى على اللغة كلها ، إنما يتحكم فى ذلك الوزن ، والذنب على النحويين حين يتخذون من مثل قول الفرزدق .

قنافذ هداجون حول بيوتهم
بما كان إياهم عطية عودا

دليلا على جواز قولك كان طعامك زيد آكلا ، وذلك كلام مقبول حسن وهذا كلام سخيف .

والشعر مهما يكن جيدا قد لا يخلو من تساهل فى معانى الألفاظ ، فالشاعر يضع الكلمة التى يستقيم بها الوزن موضعها من البيت إذا كان معناها قريبا ، وهو يقحم المعنى الذى يريده على الكلمة ، وإن كانت بينهما فروق يسيره ، وضاعت بذلك دقة دلالة اللفظ على المعنى ، فالشاعر لا يقف عند الفرق بين الهجوع والنوم ، أو السير والسرى بل يختار ما يوافق النظم ، ولا نزاع فى أن هذا التساهل أفسد كثيراً من الدلالات الدقيقة للألفاظ ، وكذلك صيغ التكسير وغيرها يختار الشاعر منها ما يوافق الوزن ما دام الغرض مفهوما ، بل قد يخترع جموعا ومصادر لم يسمعها من قبل ولا يعنى ذلك أنها تصبح مباحة لغير الشعراء .

قال الشاعر :

لو كان فى قلبى كقدر قلامة
من حب غيرك قد أتاها أرسلى

والشعر ضعيف لا يعتد به ، ولكن النحويين درسوه ، قالوا : إن رسول لا تجمع على أرسل فإذا كان هذا صحيحاً فالشاعر أخطأ من غير شك ولكن الشعر أصل من أصول اللغة ، لا يقع فيه الخطأ ، فوجب التاويل ، وتخريج ابن جنى لذلك أن أفعل تجوز فى الجمع عند التأنيث وأن الرسل فى هذه الأمور يكونون عادة من النساء ، تخريج جميل ، ولكنه غير صحيح ؛ لأن الشاعر قال : ذلك دون أن يعنى بالقاعده جهلا أو اضطرارا .

وقال الشاعر :

مثلها يخرج النصيحة للقو م فلاة من دونها أفلاء

قال ابن سيده : أن فلاة لا تجمع على أفلاء وإنما أفلاء هذه جمع فلا التي هي جمع فلاة ، وهذا أيضا تخريج لا يطابق الواقع ، فالحارث ابن حلزة وجد أن أفلاء مفهومة على أنها جمع فلاة وأنها تناسب الوزن والقافية ، فوضعها غير عابئ بما سيقول فيه النحاة .

يقول النابغة الجعدى :

موالى حلف لا موالى قرابة ولكن قطينا يحلبون الأتاويا

وهو يريد جمع أتاوة ، ولكن أتاوة تجمع على أتاوى كهراوة وهراوى ، بعد أن تمر بمراتب لكل مرتبة علة فتكون : أتاء ، ثم أتايا كمطايا ، ثم أتاء ثم أتاوى ، ويعترف ابن جنى أن الشاعر غير فى هذا الجمع لتستقيم القافية لجعلها أتاويا ، وعلل ذلك بعلة معقدة غاية التعقيد .

والواقع أن الشاعر لم يقصد إلى شىء من ذلك أبدا إنما أراد جمع أتاوة جمعا نهايته تتفق مع روى القصيدة ، فقال أتاويا ، وليس لأحد أن ينسب إليه شيئا لم يفكر فيه ، ولا يصح أن نجعل هذا الخروج صحيحا يستطيعه من الكتاب من لم يضطر إليه .

وقالوا : إن سواء لغة فى سوى . ودليلهم قول الشعراء من سوائنا ، ظنا أن أهل هذا الشعر كانوا يقولون سوائنا . وهذا بالطبع فرض لا يقوم عليه برهان ، إنما وضع الشاعر من عنده ، وليست لغة فى سوى .

فإذا كان هذا هو مسلك اللغة العربية فى ضبط الكلمات ، وفى تحويل بعض الصيغ إلى بعض ، وفى تحميل الكلمة معانى كثيرة ، فهل تضيق عن مظاهر المرونة التى تجلت فى خصائصها وفى أساليبها ؟

إن لغتنا العربية فى حاجة إلى نظرة جديدة فى مختلف نواحيها :

١ — فهى فى حاجة إلى أن نسلك بها فى التوسع سبيلا نحصر فيه ما لم يرد فى معاجمنا فى العصور المبكرة مما جد حديثا من الألفاظ المولدة والمحدثة والدخيلة والعامية ، ونلقى على كل ذلك نظرة فاحصة ثم نفسح لها المجال فى المعجم الكبير ، كما وسعها المعجم الوسيط .

٢ — وهى فى حاجة إلى نظرة جديدة فى قواعد الاشتقاق ، وفى أصول القياس ، وإن فيما سجل الباحثون من آراء لمتسعا لهذا ، وفى اللغة استعداد للاستجابة والتطوير ومسايرة التجديد .

٣ — وهى فى حاجة إلى أن نقرب موردها للمتعطشين ، ونذلل صعابها للشادين ، حتى تصبح لغة الحياة فى جميع المقاصد ، ومختلف الشئون .

عبد الحميد حسن

المجتمع الاشتراكي في ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

١٢ — العبادة المالية

العبادة هي نهاية الخضوع لله سبحانه وتعالى مع الخوف من عقابه والطمع في ثوابه، وقد جعل العلماء الإيمان بالله وما يتصل به من ذكر وشكر رأس العبادات القلبية، وجعلوا إقامة الصلاة وما يدخل في معنى إقامتها رأس العبادات البدنية، أما رأس العبادات المالية فهو أداء الزكاة لمستحقيها ممن ذكرهم الله في قوله تعالى: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل» وقد لا أبعد عن الحقيقة إذا شبهت العبادة بالشجرة المزهرة المثمرة، وجعلت الإيمان منها بمنزلة البذرة والصلاة وما إليها من العبادات البدنية بمنزلة الجذع والغصون، والزكاة وما إليها من وجوه الانفاق بمنزلة الزهور والثمار، وإن كانت الحقيقة التي لا يرقى إليها شك هي أن الزكاة ركن من أركان الإسلام كما يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت وصوم رمضان) وقد قرن الله الزكاة بالصلاة في القرآن الكريم وجعلها حقاً معلوماً للسائل والمحروم، ورأى أبو بكر رضي الله عنه أن يقاتل عليها ما نعيها فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه.

وقد روى الطبراني عن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله فرض على أغنياء المسلمين بقدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهدوا إذا جاعوا وعروا إلا بما صنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً، ويعذبهم عذاباً أليما) وأنذر عليه الصلاة والسلام مانعي الزكاة بسوء الحال والمآل فقال: (وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا).

وإذا كانت الصلاة كما يقول الله: «تنهى عن الفحشاء والمنكر»، فإن الزكاة كما يقول سبحانه: «تطهرهم وتزكيهم»، فهي تطهر النفوس من الذنوب والبخل والشح وما يتصل

بهما من العيوب : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، وهى تزكيها بمعنى أنها تنمى نوازع البر والخير فيها ، وكما أنها تطهر نفوس الأغنياء ، من الشح والبخل تطهر نفوس الفقراء من الحسد والحقد ، ثم هى إلى ذلك تطهر المال من الشر الذى يشوبه بقاء حق الفقراء فيه ، وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره) ويقول عليه الصلاة والسلام : (حصنوا أموالكم بالزكاة) وهى كذلك تزكى المال بمعنى أنها تنميه ، وتضع البركة فيه ، كما يفهم من قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » ، وكما يفهم من قوله جل شأنه : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

أما أنها نماء وبركة وزيادة فى المال ورخاء المجتمع ، فلأنه ينتفع بها الفقير والغنى بوجه عام ، وحسبنا أن نذكر ما يسود المجتمع من ركود إذا احتجن الأغنياء فيه أموالهم ، ولم يسهموا بها ، أو بجزء منها فى تهيئة فرص العمل للعاطلين ممن لا يجدون ما ينفقون ، أو إذا عاشوا كسالى مكتفين بما تدره عليهم من فوائد أو عوائد نتيجة استغلال الحاجة إلى المال أو استغلال المال عند من لا يجدون المال ، فإن ذلك يخل بالتوازن ، ويقيم الحواجز والفوارق بين الطبقات ويمحق البركة ويجلب الشر والشقاء للجميع .

ثم إن فريضة الزكاة - كما يقول فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز « بمثابة رابطة بين الإنسان وربه من ناحية ، وبينه وبين المجتمع من ناحية أخرى ، وكأن الإسلام بفرضها أراد أن يلفت نظر المسلم إلى ضرورة شكر الله على ما أسدى إليه من نعم ، حتى يؤدى الزكاة ، وإلى أنه عضو فى مجتمع يجب أن يكون متعاونا متساندا ، كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

وقد انفرد الإسلام بين جميع الشرائع السماوية ، بإيجاب الزكاة ، وتحديد مقدارها ، وجعله حقا معلوما أو ضريبة مقدسة ، تدفع طوعا أو كرها ، قد يقال : أنها كانت من دعوة كل نبى ورسالة كل رسول من الأنبياء والمرسلين ، وذلك صحيح ، لأننا نجد ذلك فى القرآن حيث يقول الله عن إبراهيم وابنه إسحق وحفيده يعقوب : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . ونجده حيث يقول عن بنى إسرائيل : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين

وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . ونجده حيث يحكى الله عن عيسى قوله : « وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » .

ولكن هذا الأصل الذى نجده فى كل دين شرعه الله وبعث به أنبياءه ، كان الأمر به مجرد وصايا بالبذل لمن يستحقون العون والفضل ، ولم يكن بالمقدار المحدد الذى أوجبه الإسلام فى الأنعام والذهب والفضة والبضائع التجارية وثمار الأشجار والكروم وما يعثر عليه فى باطن الأرض من المعادن والكنوز ، وقد ألحق فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة الدور المعدة للاستغلال بالزروع وقال فى ذلك : « إن المعروف عن جمهور الفقهاء أنهم لم يقرروا زكاة فى الدور لأن الدور فى عصورهم لم تكن مستغلة ، بل كانت لسد الحاجات الأصلية ، وكان ذلك عدلا اجتماعيا فى عهد الاستنباط الفقهى ، أما فى عصرنا الحاضر فقد استبحر العمران ، وشيدت العمائر والقصور للاستغلال وصارت تدر أضعاف ما تدره الأرضون ، فكان من المصلحة أن تؤخذ منها زكاة كالأراضى الزراعية ، إذ لا فرق بين مالك تجبى إليه غلات عمارته كل شهر ، ومالك تجبى إليه غلات أرض زراعية كل عام ، فلو أوجبنا الزكاة فى الأراضى الزراعية ورفعناها عن المستغلات العقارية لكان ذلك ظلما » .

ويبدو أن فضيلته لم يضع فى تقديره أن غلات العمائر تتجمع أموالا وتدفع عنها زكاة الأموال ، أو أنه رأى من الأحوط ضبط إيراد هذه العمائر وفرض الزكاة عليه وبخاصة فى هذا الزمن الذى فسدت فيه الذمم والضمائر « وأحضرت الأنفس الشح » .

وهكذا نجد الزكاة أظهر مظهر لمعنى الاشتراكية فى الإسلام ، فإذا أضفنا إلى ما ذكرنا أن ما يعثر عليه فى باطن الأرض كالبترول يكون ملكا لبيت المال - كما هو مذهب مالك - أدركنا أى مقدار يمكن أن تحصل عليه الدولة أو المجتمع من فريضة الزكاة .

أما تفصيل أنصبتها ومقاديرها وأنواعها فلا يتسع له مقال ، وهو مبسوط فى كتب الفقه يستطيع أن يرجع إليه من شاء وأما إثم تاركها فقد صوره النبى صلى الله عليه وسلم بصورتين تقشعر منهما الأبدان : إذ يؤتى به وبماله يوم القيامة ، فإن كان المال الذى لم يؤد زكاته إبلا أو بقرا أو غنما جيء بها أكثر ما كانت وأسلم ما تكون ، ثم يوضع فى مكان مستو لتدوسه فيه وتصدو عليه بأخفافها وتنطحه بقرونها ، وتظل تغدو وتروح فى عدوها عليه حتى يقضى الله بين الناس ويفصل بينهم بحكمه

وإن كان هذا المال كنزا جاءه يوم القيامة حية خبيثة تفغر له فاها وتتبعه كلما فر منها وتقول له خذ كنزك الذى خبأته ، ثم تطلب إليه أن يدخل يده فى فيها ليأخذه من جوفها فلا يجد سبيلا إلى الخلاص منها ، فيدخل يده لتنوشها بأسنانها وتقطعها ...

هاتان الصورتان نجدهما فيما روى عن أبى هريرة وجابر رضى الله عنهما إذ قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى حق الله تعالى فيها إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت وأقعد لها بقاع قرقر (١) ، تستن (٢) عليه بقوائمها وأخفافها ، وتنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها (١) ، ليس فيها جماء ، ولا منكسر قرنها ، كلما مرت عليه أخرى عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الخلق ، ولا صاحب كنز إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعا (٢) أقرع يتبعه فاتحا فاه ، فإذا أتاه فر منه ، فيناديه : خذ كنزك الذى خبأته فأنا عنه غنى ، فإذا رأى أنه لا بد له منه سلك (٣) يده فى فيه فيقضمها (٤) قضم الفحل) .

نسأل الله أن يعيننا على الخير وأن يقينا الشر « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

عبد الرحيم فوده

(١) القاع المستوى المنخفض من الأرض والقرقر الأملس .
(٢) تستن عليه تعدو وتجرى فوقه .

(١) الظلف للشاة ، كالحافر للفرس .
(٢) الشجاع ، الحية .
(٣) سلك ، أدخل .
(٤) القضم ، القطع بالأسنان .

الهالكون بما كسبوا

قال تعالى :

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا ، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ، ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ، أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون .

القوم الصوفية[1]

بقلم : أ . م . م . ماكين

ترجمة : الأستاذ فتحى عثمان

— ١ —

شغف المستشرقون بدراسة (التصوف) فى الإسلام فكراً وعملا .

فالتصوف يرضى فى نفوس المستشرقين النزوع إلى عالم الأسرار والغوامض ، وارتباط الشرق فى نظرهم ، بهذا العالم العجيب ...

ومن هنا تتابعت دراسات نيكلسون ، وماسيفيون ، وآربرى ، وغيرهم . .

وهذا أحد المستشرقين يقدم فى إجمال طيب عرضاً للفكر الصوفى والتجمع الصوفى ... اختار له عنوان (القيم الصوفية) وقد اعتمد الكاتب (أ . م . م . ماكين) على دراسات من سبقه من المستشرقين ، وعلى قراءاته فى المراجع العربية ، كما تشير حواشيه وقائمة المراجع التى وضعها فى خاتمة بحثه إتماما للفائدة ...

المترجم

هذا تحليل موجز لتطور حركة الصوفية منذ فجر الإسلام ، والحركة تتضمن كلا جانبى التصوف : الفكر الصوفى ، والتجربة الصوفية على السواء ، فأما الفكر فهو يمدنا بالمضمون والمحتوى ، وأما التجربة فتعطينا شكل التصميم العملى ، على أن دراسة طبيعة النظرية وتطورها خارج عن نطاق هذه الدراسة ، وإنما سنشير إليه عند الضرورة والمحاولات لتحديد بداية الصوفية تبرز صعوبة هائلة بحكم طبيعتها الخاصة ، ولكن تتبع « الشكل » الذى اتخذته الحركة يتيح لنا صورة محسوسة بدرجة أكبر ، شأن كثير من ظواهر التاريخ

(١) كلمة (قوم) مما يطلق على الصوفية ولقد كان أصحاب النزعة الروحية الباطنية فى الإسلام يسمون منذ وقت مبكر بالصوفية ، أو المتصوفة ولكن استعمال وصف « قوم » لتمييز الجماعة يبدو أنه يعود إلى الفترة التالية للقشيرى توفى (٤٧٠ م) كما تشير مراجعنا ، وهذا يدل — مهما كانت درجة الدلالة — على تطور اجتماعى بعيد المدى كان يحدث حين ذاك فى أعماق المجتمع الاسلامى وليس ظهور الطرق الصوفية إلا ظاهرة من ظواهر تطور هذا التيار العريض .

الأخرى، ونمو هذه الحركة يعرض لنا أطوارا متميزة، كل منها يمثل استجابة لعوامل تاريخية واجتماعية أعمق، تحكم نمواً مقابلا فى المجتمع الإسلامى ...

وإن أصل كلمة (صوفى) معقد، على أنه من المحتمل جداً أن تكون الكلمة مرتبطة بلبس المسلمين الأوائل ثياب الصوف، وهذه العادة يمكن تتبعها إلى عهد الخليفة عبد الملك على الأقل (٦٨٥ : ٧٠٥م) وهى أصل إطلاق تسمية صوفى. ولكنها لم تظهر كلقب فى التاريخ حتى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى، والثامن الميلادى حين أطلق على جابر بن حيان (٧٧٦م) وأبى هاشم المتوفى (٧٧٦م) وكلاهما من الكوفة، وقبل أن ينتهى هذا القرن كان قد شاع استعمال هذا الوصف. ومنذ ذلك الزمن فصاعد أصبحت الحركة الروحية الباطنية mystical فى الإسلام تعرف بالاصطلاح العربى: «التصوف» الذى أعطاه الصوفية عدداً لا يحصى من التعريفات، جمعها نكلسون نقلا عن المراجع الأدبية حتى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فى ٧٨ تعريفا لكلمة «تصوف»[١]، بينما تضخمت القائمة عند أبى منصور عبد القاهر البغدادى (المتوفى ١٠٣٧م) إلى ألف تعريف تقريبا لكلمة «صوفى» وكلمة «تصوف»، وهذه التعريفات تعكس نزعات الصوفية واتجاهاتهم من لحظة إلى أخرى، لكنها لا تمثل مفهوما واحداً متكاملا، ولعل هذا ما جعل جب H.A.R.Gibb يرى أن «حركة الصوفية إذ لا تقدم كيانا مذهبيا عاما تتألف من مركب من نزعات الوجدان والخيال»[١]!

ويكتب نكلسون نتيجة بحثه للموضوع: «إن بذور الصوفية توجد فى نزعات الزهد القوية المنتشرة التى قامت داخل الإسلام خلال القرن الأول الهجرى»[٢]. ويرى الباحثون فى نزعة النسك Ascetis المعروفة فى العربية «بالزهد» سابقة بين يدى الصوفية الإلهية thesophical فى الفترة التالية. وينبغى أن يفهم «الزهد» فى هذا المقام على أنه يمثل الإدارك الروحى الموروث عن المسلمين الأوائل فى مجموعة، لا مجرد الصور السلبية للتجربة الدينية كما يؤكد الكتاب غالباً[٣].

---

(١) Nicloson, JRAS, 1906, P 3059
Jami, Nafahat, P. 31 Tbid, PP 303 : 348.

---

(١) MW, val xxx vIII, No 3, 1948 p283
(٢) Ibid, m. 304
(٣) إن الطابع الصيحى للنسك ascetism فى ظاهره لا يبدو مطابقا للزهد الذى يعنى فى اصطلاح الصوفية الضبط الأخلاق من داخل —

ويمكن ملاحظة الروح الكامنة فى النزعات الصوفية منذ فجر الإسلام ، ويشير إليها بوضوح قيام (الحنفاء) الذين كانوا من مظاهر حركة الزهد فى الجزيرة العربية فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى . وأن ملاحظة «ب» ماكدونالد: أن محمدا كان صوفيا فى طريقه إلى النبوة [١] . يشير إلى استعداد الروح الإنسانية الفطرى للغوص فى أسرار الطبيعة ، بما يتجلى فى حالتنا هذه فى الظروف الروحية لمجتمع الجزيرة العربية المبكر، تلك الظروف التى يصفها وستر مارك كعالم من «الظواهر الغريبة الغامضة التى تعزى لسبب إرادى ، وبما كان بوجه خاص شيئا يوحى بالرهبة فى القلوب » [٢] ، ولم تكن فكرة الصوفية بالنسبة لعرب الأولين مبدأ جديدا فى العقيدة يعتبر باعثا ووحيا دائرا بقدر ما كانت شيئا يتابع آثار حنيفية إبراهيم وإسماعيل . وعلى ذلك يكون من الصواب تماما القول بأن النبي قد أعاد صياغة هذه المبادىء ، ونقلها إلى إطار من الثقافة الدينية يقوم على التوحيد Monotheistic مبتعدا عن فرض أية أفكار غريبة أو دخيلة .

ويمثل عهد الرسول بالنسبة لظهور الشكل المبكر للحركة الصوفية مرحلة يغلب عليها طابع العموم[١] . وهو فترة وضعت خلالها القواعد الأساسية للبناء ، وقدمت نماذج رفيعة من التطبيق ، وكان لتعاليم محمد وشخصه أكبر تأثير على نمو الثقافة الدينية الإسلامية فى مراحلها الأولى ، وبالتالى على نمو نزعة النسك فى صورتها البدائية .

وقد عرض محمد عقيدة محددة فى وحدانية الله Monotheistic Creed فى العهد المكى كانت تدعو من جهة إلى الإيمان بإله واحد قدير متعال ، كما تدعو من جهة أخرى إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من وعد ووعيد . وقد عزز العهد المدنى هذه العقيدة بطائفة من النظم الدينية وشعائر العبادة ، وكان هذا كله أساسا لازدهار الثقافة الدينية الإسلامية ولقد كان النبي فى تقديم هذا الأساس «يصون

— النفس ؛ والتجرد المطلق لعبادة الله ، ويشار فى الكتابات المتأخرة بالطبع أحيانا إلى (الزهاد) بمعنى معين ، ولكن هؤلاء إنما كانوا قسما من جماعة عامة تضم أصحاب الميول الدينية الذين يوصفون كأفراد بالعباد والسائحين والفقراء — ثم إن القشيرى عرف الزهد فى وضوح بأنه : « الأخذ بالعزيمة » ويمكن القياس على كلمة (فقير) وهى تدل عند الصوفية على (علاقة المرء بربه الذى يوصف بالغنى فى القرآن) .

(١) Muslim Theology, P. 227.

(٢) Rityal and Belif in Marroco, 2 Vols, Londod 1926, II, 387

(١) لا أعنى بالشكل هنا الروح التى كانت تمارس الحركة ، وإنما أقصد الأسلوب الذى وجدت به كظاهرة تاريخية لها إحساس بكيانها .

الرمزية الدينية فى نفوس أتباعه بما لها من قوى موروثة لأجل استثارة طاقتهم المتخيلة مع نقلها فى إشاراتها من إطار الإيمان بالروح مطلقا animistic إلى إطار الإيمان بإله واحد monotheistic .

وقد تهيأت مادة البناء من إعادة التعبير عن المفاهيم الأولى مع إضافة النظم العملية للذكر والصلاة ، ويعطينا الترتيب الزمنى للفرائض الدينية، ومايزيد عليها من تطوع صورة كاملة لغراس التجربة الدينية ، وكان العابدون فى تطوعهم يسعون جاهدين كى تعلق بقلوبهم وأرواحهم شيئا من بصيرة النبى الملهمة وشيئا من تجربته . ومن هنا يمكن أن نقرر آمنين أن مثل هذه الميول كانت نتيجة طبيعية لتربية العادات الدينية عن طريق المسلمين الأوائل .

وكانت النتائج السلبية التى استثارها الإسلام فى أذهان معتنقيه الأوائل ترجع إلى عاملين فى حياة « النسك » : أولهما شعور مبالغ فيه بالخطيئة ، وثانيهما خشية غامرة من عقاب الله . ونحن نجد بيانا أوضح للتعبير العملى عن هذه المظاهر السلبية لتجربة « النسك » حين نسترجع صورة حياة « أهل الصفة » الذين عاشوا متنسكين فقراء للغاية ، محرومين من الثياب المناسبة ، ومن المأوى ، لكن متجردين للعبادة بكائين على الخطيئة .

والاتجاه الشائع عند بعض الباحثين المحدثين الذين ألفوا المجتمع العربى البلوتوقراطى يفترض أن واقعية العهد المدنى تجلت بين نتائجها تدهور نزعات « النسك » وهذا الاتجاه يثير التساؤل عن أساس تفسير الحركة الصوفية كلية ، وهو الذى شغل اهتماما جديا لدى هؤلاء الباحثين على تتابع السنين . وما أبعد العهد المدنى للإسلام فى الحقيقة عن أن يضيق مجال النمو أمام نزعات النسك داخليا ، إنه قد قدم مقياسا محددا للفضائل الدينية ، وبذلك أعطى أرضا ثابتة وخصبة لمزيد من القوة فى التعبير عن مثل هذه التجربة .

(للبحث بقية)

فتحى عثمان

معابثة أبى العلاء للنحاة

للأستاذ كامل السيد شاهين

١ — طاب لأبى العلاء أن يعبث بالنحاة عبثا طريفا ، شاع فى رسالتيه ، رسالة الغفران ورسالة الملائكة .

وأبو العلاء على تعدد قدراته ، ليست بضاعته النحو ، وإنما بضاعته اللغة ، والشعر والآثار والأخبار ، فإذا منح منها منح من بئر ثرارة ، لا تزيد على الاستقاء إلا فورانا .

فأما تعرضه للنحاة فى رسالة الغفران فهو أشبه بالخواطر السانحة ، تلوح له فى أعراض القصيدة فيسجلها عفــوا من غير قصد ولا إمعان فى التقصى .

وأبو العـــلاء مع النحاة ليس على حال واحدة .

فأنت تراه أحيانا يبدى عدم ارتياحه للرأى ، دون أن يكشف عن رأيه ، ودون أن يوقفنا على السبب فى عدم ارتياحه ... ثم يمضى تاركا لك سؤالين تضرب فى الجواب عنهما ما شئت ... لماذا هزئ أبو العلاء بهذا الرأى ؟ وما الرأى الذى ينبغى أن يصار إليه ؟ .

ترى ذلك إذ يصور لك ابن القارح جائلا فى الجنة مرتاحا للحديث عن الشعر والرواية والنحـــو فتلق عدى بن زيد العبادى فيقول له :

لقد هممت أن أسألك عن بيتك الذى استشهد به سيبويه ، وهو قولك :

أرواح مودع أم بكور
أنت ، فانظر لأى حال تسير

فإنه زعم أن (أنت) ، يجوز أن ترفع بفعل مضمر يفسره قولك (فانظر) . وأنا استبعد هذا المذهب ، ولا أظنك أردته .

فيقول عدى بن زيد ـ وقد شغل بلذائذ الجنة وأطايبها ـ دعنى من هذه الأباطيل : فالمعرى ههنا قد أراك رأى سيبويه وأراك أن رأى سيبويه رأى فائل ولكنه لم يوضح داعية رفضه لهذا الرأى ، ولم يبد من لدنه رأيا يخرج عليه إعراب هذا الضمير .

وأحيانا يضيق على الشاعر المسلك ، فينقض عليه كل ما يعن من تخريج كما فعل فى الحديث مع بشار عند ما تخيله فى سواء الجحيم ، تفتح الزبانية عينيه بكلاليب من نار ، ليرى هول ما ينزل به من العذاب .

وذلك إذ يقول له بلسان ابن القارح :

لقد أعجبنى قولك فى أرجوزتك :

والحر يلحى ، والعصا للعبد

وليس للملحف مثل الرد

بيد أنك جئت فى إحـــدى قوافيها بكلمة (السبد) .

فإن كنت جعلته جمع (سبد) وهو طائر فإن (فعلا) لا يجمع ذلك الجمع وإن كنت سكنت الباء تخفيفا عن فتحها ، فقد أسأت لأن تسكين الفتحة غير معروف .

فيقول بشار ، وهو فى تذبيع العذاب ياهذا دعنى من أباطيلك ، فإنى عنك مشغول ! .

وما كان افتراض أبو العلاء هذين الفرضين وملاحاته ابشار فيهما إلا ترديدا لتخـريج النحاة فى كلمة (السبد) وأخـــذا للطريق عليهم فى كلا التخريجين .

وقليلا مايعنى أبو العلاء فى رسالة الغفران بتوقيف القارىء على رأيه كما فعل حين تخيل ابن القارح يلقى لبيداً فى عرصات الجنات ، وفى يد لبيد محجن من ياقوت ، فيقول له ابن القارح فيما يقول :

أخبرنى من قولك فى ميميتك المعلقة :

تراك أمكنة إذا لم أرضها

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

هل أردت ببعض معنى كل ؟ فيقول لبيد : كلا ! إنما أردت نفسي ، وهذا كما تقول للرجل إذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا ، وأنت تعنى نفسك فى الحقيقة .

وظاهر هذا الكلام واقع على كل إنسان، وعلى كل فرقة تكون بعضا للناس .

فيقول ابن القارح : أخبرنى عن قولك : (أو يرتبط) هل مقصدك لم أرضها أو لم يرتبط، أم غرضك أترك المنازل أو يرتبط فيكون (يرتبط) كالمحمول على قولك : تراك أمكنة ؟

فيقول لبيد : الوجه الأول أردت .

فهنا ترى أبا العلاء يقف على رأيين النحاة فى إعراب يرتبط ، أهو معطوف على أرضها مسلط عليه ماتسلط عليها من النفى ، أم معطوف على تراك النازل منزلة أترك ؟

فينتصر للرأى الأول ...

ولكنه مع ذلك مقتصد ، لأنه نصر الأول بلا حجة ، وخذل الآخر بلا تفنيد .

ولقد يعمد أبو العلا إلى تصحيح رواية والإشارة إلى فساد أخرى ، وفساد ما تبعها من تخريج نحوى

فيتخيل ابن القارح فى المحشر بيده صك التوبة ، فيرى شيخا له كان يدرس النحو فى الدار العاجلة يعرف بأبى على الفارسى ، وقد امترس به قوم يطالبونه ، ويقولون : تأولت علينا ... ظلمتنا !

فما إن يراه أبو على حتى يشير إليه ... فإذا عنده طبقة منها يزيد بن الحكم الكلابى ، وهو يقول : ويحك ! أنشدت قولى :

فليت كفافا كان خيرك كله

وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

برفع الماء ، ولم أقله إلا بالنصب ! .

وكذلك رويت قولى :

تبدل خليلا بى كشكلك شكله

فإنى خليلا صالحا بك مقتوى

بفتح ميم (مقتوى) ، وأنا عدوت الضم .

وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومه على تأويله .

فيقول ابن القارح يا قوم ! إن هذه أمور هينة ، فلا تمقتوا هذا الشيخ ، فإنه ما سفك لكم دما ، ولا احتجن عنكم مالا ... فيتفرقون عنه .

أفلا ترى أبا العلاء يشير إلى جنوح أبى على الفارسى إلى التأويل ، وإلى إسرافه فيه إسرافا يحمله على الاعتساف ، حتى ليتخرج به الاعتساف إلى حد لا يخطر للشاعر ببال .

ومما يتصل بتصحيح الرواية أنه تخيل ابن القارح وقد لقيه النابغة ، فسأله ، كيف ينشدون قولى فى المتجردة :

وإذا نظرت رأيت أزهر مشرقا ...

وما بعده ؟

فيقول ابن القارح : ينشد : وإذا نظرت . وإذا لمست .. وإذا طعنت .. على الخطاب .

فيقول النابغة : قد يسوغ هذا ، ولكن الأجود أن تجعلوه إخباراً عن المتكلم ، لأنى بدأت بقولى :

زعم الهمام بأن فاها بارد

عذب مقبله شهى المورد

فما بعده داخل فى هذا الزعم . وصار قولى : زعم الهمام ، بمنزلة قولى : قال الهمام : فهذا أسلم ، إذ كان الملك إنما يحكى عن نفسه .

٢ — ولئن كان أبو العلاء لم يمعن فى التفصيل وتشقيق القول فى رسالة الغفران ، جنوحا إلى عدم الإملال ، وإيثارا للتنقل بين فنون الأدب ، وعدم الإثقال بالوقوف عند ضرب بعينه ، ورغبة فى سرعة العرض كما هو شأن المسرحيات الجياد ، إن أمره لم يكن كذلك فى رسالة الملائكة .

فهو قد بناها على أمور تتعلق بالصرف وموازينه بخاصة ، وتناول فيها الزيادة والقلب بوجه أخص ، فى شىء من التفصيل الذى يبلغ أحيانا حد الإغراق .

ولكنها كرسالة الغفران قائمة على الخيال ومسرحها الدار الآخرة .

فعند ما يحضره ملك الموت يناقشه فى وزن (ملك) ، وفى أصله من الاشتقاق ، وهو مألك ، ويأخذ فى الاستدلال على أن به قلبا مكانيا بجمعه على (ملائكة) ، إذ كانت الجموع من شيمتها أن ترد الأشياء إلى أصولها .

وعند ما يلقى منكراً ونكيرا يحاول أن يشغلهما عن أمره فيسألهما لم كان اسماهما عربيين وسائر أسماء الملائكة أعجمى ، فإذا لم يجد منهما رقة ، حاجاهما بوزن موسى كليم الله ثم سألهما عما بأيديهما ، فإذا قالا (ارزبة)

أعنتهما بسؤالها : أهى بتخفيف الباء أم بتثقيلها ، وهل يكون جمعها على التخفيف أو على التثقيل

فذلك إذ يقول فى الحديث عن لقاء منكر ونكير .

« فإن غشى على من الخيفة ، ثم أفقت ، وقد أشار إلى بالإرزبة ، قلت : تثبتا رحمكما الله !

كيف تصغران الإرزبة وتجمعانها جمع التكسير ؟ .

فإن قالا : أريزبة ، وأرازب بالتشديد .

قلت : هذا وهم ، وإنما ينبغى أن يقال أريزبة وأرازب بالتخفيف .

فإن قالا : كيف قالوا علابى فى جمع علباء فشددوا ؟

قلت : ليست الباء كغيرها من الحروف فإنها وإن لحقها التشديد فيها عنصر اللين .

فإن قالا : أليس قد زعم صاحبكم عمرو ابن عثمان المعروف بسيبويه أن الياء إذا شددت ذهب منها اللين ؟

قلت : قد زعم إلا أن السماع عن العرب لم يأت فيه نحو ماقال إلا أن يكون نادرا قليلا :

فهو هنا يجادل عن رأيه فى جمع الأرزبة وتصغيرها بالتخفيف ، وهو هنا يفسح المجال للمعارضة ويبسط رأى المعارضين ، وينتهى معهم إلى موقف خاص ... لأن بناء رسالة الملائكة على البيان الشافى وبناء رسالة الغفران على الاستعراض الوحى .

وانتصار أبى العلاء فى مواقف المجادلة ، يقوم أحيانا على اتساع الرواية ولطافة الفكر ، ولقد يكون إمام النحاة سيبويه هو الغرض المقصود لأبى العلاء إذا رمى .

ترى ذلك فى مشهد يقوم فيه (رضوان) دون باب الجنة ، ويجتمع لديه جماعة من المتعاطين للنحو والتصريف ، قصرت بهم أعمالهم عن دخول الجنة ... فوقفوا يحتالون لأنفسهم عسى أن تنفع الحيلة .

فمرة ينادون رضوان بقولهم (يا رضو) ، وأخرى ينادونه (يا رضو) ، فإذا التفت إليهم ، قالوا له : نحن نسألك أن تكون واسطتنا إلى أهل الجنة ، فإنهم لا يستغنون عن مثلنا ، وإنه لقبيح بالعبد المؤمن أن ينال هذه النعم ، وهو إذا سبح الله لحن ، ولا يحسن بساكن الجنان أن يصيب من ثمارها فى الخلود ، وهو لا يعرف حقائق تسميتها .

ولعل فى الفردوس قوما لا يدرون ، أحروف (الكمثرى) كلها أصلية أم بعضها زائد . ولو قيل لهم ما وزن كمثرى على مذهب أهل التصريف لم يعرفوا (فعلى) وهذا بناء مستنكر لم يذكر سيبويه له نظيرا .

ثم يستنكر أن يصيب المؤمنون من سفرجل الجنة ، وهم لا يعلمون كيف يكون

تصغيره وجمعه ولا يدرون أمن الجائز أن يشتق منه فعل ، أم أن ذلك من الحرام الخبيث .

وكذلك أمر (السندس) قد تجد فى الجنة من يفترشه ويطؤه ، وهو لا يدرى - بعد - أوزنه (فعلل) أم (فنعل) .

وكم من مستظل بشجرة (طوبى) ، ويجتنى ثمارها آخر الأبد ، ولا يدرى أمن بنات الواو هى أم من بنات الياء ؟

ثم يطيب لأبى العلاء مناوشة سيبويه ، فيقول :

وقد زعم سيبويه أن (الفعلى) التى تؤخذ من (أفعل منك) لا تستعمل إلا بالألف واللام أو الإضافة . تقول هذا أصغر منك ، فإذا رددته إلى المؤنث قلت : هذه الصغرى أو صغرى بناتك . . ويقبح عنده أن يقال صغرى بغير إضافة ولا ألف ولام .

وعلى الإضافة جاء قول سحيم ؟

ذهبن بمسواكى ، وغادرن مذهبا
من الصوغ فى صغرى بنان شماليا

وعلى الألف واللام جاء فى الكتاب العزيز وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، فسنيسره للعسرى لأنها أنثى (أفعل منك) .

ولكن أبا العلاء يشكل على سيبويه بقراءة بعض القراء : وقولوا للناس حسنى ، إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنى ، بغير تنوين ، وبقول عمر بن أبى ربيعة :

وأخرى أتت من دون نعم ومثلها
نهى ذا النهى لو يرعوى أو يفكر

فإن ادعى سيبويه أن أخرى معدولة عن الألف واللام ، فهلا سلك هذا السبيل فى حسنى وأخواتها ؟ !

— ٣ —

وبعد : فهل كان أبو العلاء يتناول هذه اللقطات الصرفية الطريفة ، تعالما ، وذهابا إلى الإغراب على الناس فى العلم ، على شاكلة إغرابه عليهم فى اللغة والأدب والأخبار ؟ أم أن ذلك كان استجابة - كما زعم ، وكما يزعم كل من يتعاطى التأليف - لسؤال سائل ملحف أم أنه كان رياضة للذهن وإدلالا بالمعرفة ، وامتحانا للسوس كما قال فى مقدمة السقط ؟

مهما يكن من شىء ، فإن أبا العلاء قد سلك فى تعليم هذه الغرائب الصرفية والنحوية والأدبية التى لا تخلو من جفاف يغص به القارىء ، ويعيى به ذهن اللقن . . طريقة القصة الخيالية الشائقة التى تنفى الملالة ، وتنسى القارىء نفسه حتى يأتى على سائر ما فى الرسالة .

وهذه أمتع طريقة فى التعليم ، وما كان يظن أن تطوع هذه الطريقة حتى تستخدم فى غرائب التصريف .

ولكنه أبو العلاء ! ؟

كامل السيد شاهين

نسمات الأندلس فى ربوع النيل

للأستاذ محمد رجب البيومى

حفظت مصر الثقافة العربية بعد سقوط بغداد إذ كان النصر السياسى الذى اكتسبه المماليك بعد موقعة عين جالوت مدعاة إلى هجرة كثير من العلماء من شتى الأماكن شرقية وغربية إلى القاهرة . لأن قيام الخلافة العباسية بها ـ ولو على وجه صورى ـ قد جعلها تأخذ مكان عاصمة الرشيد ، فيهرع إليها الناس من كل حدب ، وقد وجد العلماء من رعاية السلاطين ما بعث فيهم الرضا والحمد ، ففى كل حى مسجد ولكل مسجد أوقاف وأحباس ، وله مدرسون وطلاب ، وكتب وأوراق ، وكتب التاريخ تحصى هذه المساجد ذات الصبغة العلمية والدينية معا ، وتفيض فى ذكر من يدرسون العلم بها على اختلاف فروعه من فقه وتفسير وحديث ونحو وصرف وبلاغة وأصول وقراءات ومنطق ، كما تتحدث عن مشاهير العلماء من أئمة القول فى الدين واللغة ، ومنهم الغزنوى والصقلى والمصرى والمدنى والعراقى والآمدى والاربلى والمقدسى والشامى والخراسانى والمغربى والطوسى والنابلسى تعرفهم بأسمائهم كما تعرفهم بلهجاتهم وطباعهم إلا أنهم فى نظر الحكومة المصرية إذ ذاك علماء مسلمون يؤدون أشرف واجب فى أطهر مكان لهم واجب الرعاية والإجلال وبهم تزدهر المعرفة ويستنير الطلاب .

وقد كانت الأندلس أحد هذه الجداول التى تصب فى محيط القاهرة ، إذ كانت الرحلة من المغرب إلى المشرق لا تكاد تنقطع ، وفى الراحلين من يرتشف ويرجع ، ومنهم من يؤثر البقاء حيث يستريح ـ وقارىء نفح الطيب يقف على كثير من تراجم هؤلاء النازحين ، وهم من الكثرة بحيث يسجلون اعترافا صارخا بعلم المشرق وأستاذيته . ويطول بنا القول لو عرضنا لأشهر مشاهيرهم فضلا عن عامتهم ، ولم تكن الرحلة إلى مصر والإقامة بها مقصورة على عهد السلاطين من المماليك بل كانت من يوم أن فتحت الأندلس ولكن العصر المملوكى بالذات قد كتب له أن يشهد مغرب الأندلس وما سبقه من إرهاصات منذرة توحى بالكارثة المتوقعة ، فدعا ذلك إلى ضرورة الرحلة وجذب علماء الأندلس إلى مصر ، فلاقوا رحبا فسيحا وسهلا مريحا ، ووجدوا أهلا بأهل وإخوانا بإخوان ... ولئن اكتفى بعض هؤلاء بالإقامة فى دمشق دون مصر

فقد كانت مؤلفاتهم تطير إلى القاهرة سريعا لتلقى نصيبها من الرواج فهم عنها غير بعيد كابن مالك ومحى الدين ، وإذا كانت الثقافة الإسلامية متقاربة متشابهة تأخـــذ منحى واحدا فى التأليف والصياغة وبخاصة فى عصور التقليد والمحاكاة - إلا ما ندر من أفذاذ أماثل يعدون عداً - فقد يصعب علينا أن نبرز تأثير الأندلسيين فى الثقافة العربية المصرية إذ أن مؤلفاتهم فى الأعم الأغلب نسخ متشابهة من مؤلفات إخوانهم سواء من رحلوا إلى مصر من المشرق أو من رحلوا إليها من المغرب ، ولكننا على الرغم من ذلك كله نلمس تأثير الأندلسيين بارزا فى فروع خاصة من فروع الثقافة العربية إذ ذاك لأن جهدهم كان من الذيوع والاشتهار بحيث يدل على نفسه ، وقد رزق من الحظوة والإقبال ما جعله بارزا جهيرا يشير بتأثيره ، وإذا كان هؤلاء الراحلون الفضلاء قد كتبوا فى كل علم تقريبا ، فإن من هذه العلوم ما تأثر بتآليفهم تأثرا واضحا بل منها ما كاد أن يصبح وقفا على دراستهم ، هم أهله وأصحابه ، ولا يستغرب القارىء ذلك ، فعلم القراءات مثلا يكاد يكون أندلسيا إذا نظرنا إلى الكتب التى سبقت إلى تسجيله ، ثم أفاضت فى شرحه ، وسنبدأ بإيضاح ذلك فنقول .

لئن كانت القراءات سبعا أو عشرا مشرقية فإن التأليف فيها لم يأخذ سبيلا علميا معتمدا على نهج شارح إلا عند الأندلسين ، وسبب ذلك أن بعض جنود المنصور بن أبى عامر كان مثقفا عالما بالقراءات ثم ولى إمارة دانية والجزائر الشرقية فبذل جهده فى نشر هذا العلم تقربا إلى الله وإشباعا لرغبته العلمية فنفقت لديه سوق القراءة كما يقول ابن خلدون ص ٤٣٧ من المقدمة - وظهر لعهده أفذاذ دونوا العلم على نطاق شامل ، بحيث تضاءل جواره ما سبق أن كتب عنه شرقا وغربا وأبرز هؤلاء الأفذاذ هو الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى صاحب كتاب « التيسير » وقد كان شيخ مشايخ المقرئين بالأندلس رحل إلى الشرق وتخصص فى العلوم الدينية إذ ألف فى الحديث والفقه والتفسير والقراءات تاركا مائة وعشرين مصنفا كما يقول مؤرخوه ، وأحدها كتاب التيسير فى القراءات السبع وقد نشره العلامــة « برتزل » أحد أعضاء لجنة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية سنة ١٩٣٤ ، وصدره بمقدمة جيدة أشار فيها إلى منزلة علم القراءات من العربية والإسلامية ! وهى منزلة عالية تحتاج اليوم إلى تأكيد إذ وقر فى أذهان بعض المثقفين لدينا فى هذا العصر أن هذا العلم وقف على بعض المنقطعين لتلاوة القرآن فقط وفيهم أميون حفظوه دون أن يفهموه وهذا خطأ

واضح ، لأن علم القراءات فى العربية هو علم الإلقاء فى معاهد أوربا يتحدث عن مخارج الحروف ومميزات الأصوات ووسائل النطق الصحيح ! ولو قدر له أن يأخذ دوره الطبيعى فى التطور لأصبح ذا أثر هام فى إعداد الخطباء والمذيعين بعد أن توضع الخصائص المميزة للترتيل والتلاوة فيما يختص بالقرآن فلا نشكو اليوم ممن يميلون بالحروف عن مواضعها جاهلين أو متجاهلين .

أما الأستاذ برتزل المستشرق الألمانى فهوى لعلم القراءات من الخطر ما وضحه بقوله فى مقدمة الكتاب بتصرف ـ « إن البحث فى مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتيسير تلاوة القرآن على أفصح وجه وأبينه كان من أبلغ العوامل فى عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها ، وكان ثمرة هذا الاجتهاد أن القراء تشربوا مزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها ، ومما يؤيد ذلك أن الكثيرين من قدماء النحويين كانوا مبرزين فى علم القراءة كما كان الكثيرون من أئمة القراء كأبى عمرو والكسائى بارعين فى علم النحو فعلى كل من يتصدى للنظر فى تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التى تتناولها كتب النحويين واللغويين والمفسرين أن يتتبع علم القراءة والتجويد ومن شرع فى درس معانى القرآن واستقصاء لطائفه واستخراج حقائقه ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التى يجدها أمامه دون التفات إلى غيرها فقد أغفل أمرا ذا بال » .

أصبحت الأندلس إذن مركزا أساسيا لدراسة القراءات فى ديار الإسلام ونشأ من أبنائها من سبقوا إلى التأليف فيها عن دراية وأحكام حتى نبغ القاسم بن فيره بن خلف الشاطبى وكان كفيفا منذ مولده فانصرف إلى دراسة القراءات مع غيرها من علوم النحو واللغة والأدب وكان قوى الحافظة لدرجة تستغرب بحيث أصبح يصحح النسخ المكتوبة من الموطأ والبخارى ومسلم إذا تليت عليه من حفظه ، ثم يعقبها بشروح وافية واثقة وكان عزيز النفس بعيد الهمة عرضت عليه الخطابة بالمسجد الجامع فى بلدته فأنف وتأبى لأن الحكام يلزمونه مديح الملوك والرؤساء فى الخطبة الثانية وهم ظلمة لا يجوز أن يذكروا بالخير فى مثل هذا الموقف الجليل ، فأظهر الرغبة فى الحج ونزح إلى مصر ، وسمع بالإسكندرية على الحافظ السلفى ثم عين للإقراء فى مدرسة القاضى الفاضل بالقاهرة وتصدر لدراسة القراءات والنحو واللغة فبلغ شأوا بعيداً من العظمة والمهابة حتى كان الناس يتزاحمون فى حلقته ازدحاما يصل إلى الشبابك والتناحر حرصا على الدنو من مكانه ! وقد ترك فيما ترك

منظومته الشاطبية التى يتناقلها الناس إلى الآن مكبرين مرددين وقد قال عنها ابن خلكان لقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهى عمدة قراء هذا الزمان فى نقلهم ولا يشتغل بالقراءات أحد حتى يحفظها . وقد ظلت كذلك من عهد ابن خلكان إلى وقتنا ، حتى رأينا أكثر قراء الريف المصرى يحفظونها ويسعون جاهدين إلى من يفك رموزها ، ويوضح مغاليقها ، ومنذ ألف الشاطبى منظومته وهى عمدة التأليف فى هذا الفن وقد كتبت عليها شروح مستفيضة على توالى العصور نذكر هنا بعضها لنشير إلى أثر هذا الأندلسى الجهير فى ازدهار هذا العلم وانتشاره وأول من شرحها تلميذه أبو الحسن السخاوى بشرح أسماه فتح الوصيد فى شرح القصيد ثم أبو شامة المقدسى فى كتابه إبراز المعانى وبرهان الدين الجعبرى فى مؤلفه كنز المعانى وشروح أخرى لشهاب الدين بن عبد الدائم الحلبى وجلال الدين السيوطى وشهاب الدين القسطلانى ونفر غيرهم لا يحصون ، أشار إلى بعضهم حاجى خليفة فى كشف الظنون ! كما قام باختصارها ابن مالك النحوى فى قصيدته حوز المعانى فى اختصار حرز الأمانى وقام بإكمالها أحمد بن على المحلى شيخ القراء بالقاهرة وغيره من المشاهير فإذا قلنا أن علم القراءات كاد أن يكون أندلسيا وأن أثر الشاطبى بمصر فى هذا الفن كان من الخلود والذيوع بالمحل الأول لم نكن مبعدين .

وتذكرنا منظومة الشاطبى بأخت لها فى النحو والصرف نالت شهرتها الذائعة فى بابها وهى ألفية ابن مالك الأندلسى المسماة بالخلاصة ! فقد كان لها من التأثير العلمى منذ العصر المملوكى إلى هذا الوقت ما لم يتح لمؤلف نحوى آخر ، ولم يكن ابن مالك مجدداً فى علمه ولكنه ضابط ومقيد وشارح لأن كتاب سيبويه فى النحو لم يجد من أئمة النحاة بعده من يشغل باله بمعارضته ، بل أصبح إماما يرجع إليه وهاديا يستنار به وقصارى المؤلفين من بعده أن يلموا بموضوعه أو يشرحوا غوامضه ويفصلوا مجمله ! وقد عرف باسم (الكتاب) لجلاله وكان يقال لمن درسه لقد ركبت البحر استعظاما وإجلالا ، وقد رحل ابن مالك من الأندلس إلى دمشق وهى يومئذ تحت سلطنة المماليك فسمع الحديث بها وأخذ العربية عن غير واحد واعتمد فى قراءة كتب الأقدمين على نفسه وهذا مما عيره به منافسه أبو حيان الأندلسى نزيل مصر أيضا وصاحب التآليف الذائعة الجهيرة فى النحو والتفسير ، واللغة ، والقراءات ! وقد ألف ابن مالك كثيراً ، وعارض الشاطبى بمنظومة فى القراءات قال فيها :

ولا بد من نظمى قوافى تحتوى
لما قد حوى حرز الأمانى وأزيدا

فن بين مؤلفاته : الفوائد والمسهل وسبك المنظوم وشرح مقدمة الجزولى وشرح المفصل وعدة اللافظ والتعريف وشواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح ومن بين منظوماته الكافية الشافية فى ثلاثة آلاف بيت ، ونظم الفوائد ونظم لامية الأفعال والأعلام فى مثلث الكلام ! أما منظومته الخالدة فهى الخلاصة المعروفة بالألفية ، فقد أذاعت ذكر ابن مالك على مدى الأحقاب ، وخدمت بالشروح والحواشى والتقريرات ! ولذلك كان تأثيرها العلمى بارزا يذكر للأندلس ، وقد يكون لغير ابن مالك من مؤلفى المتون النحوية نظما ونثراً أفضل منها ، ولكن البحث هنا عن الأثر والتأثير ، والثابت المشاهد أن ألفية ابن مالك تركت دويا صاخباً فى دنيا الشروح والتآليف لم يتركه متن نحوى آخر ، ومن شراحها السيوطى وابن الناظم وابن عقيل ، وابن هشام ، وابن الصائغ وأكمل الدين البارق ، وناظر الجيش الحلبى وعبد الرحيم الأسنوى ! هذا غير الحواشى المستفيضة التى كتبت على كل شرح والتقريرات الهامة التى ألحقت بكل حاشية ! وكلها تدور حول ألفيه ابن مالك ! وقد نظمت ألفيات أخرى لغير ابن مالك ولكن لم تحظ بمنزلتها ، وربما كان لوضوح الخلاصة وسهولة صياغتها أثر فى ذلك ، ولكننا نرى منظومات ابن مالك الأخرى تشاركها هذا الوضوح ، ولم تحظ بمشار ما حظيت به مما يدل على أن الاشتهار حظ مقسوم ، ولئن كان الشاطبى وابن مالك كلاهما محافظ مقلد فى تأليفه ، وناقل صائغ فى نظمه ؛ فإننا لا نبحث هنا عن الابتكار ، ولكن نشير إلى التأثير ، وقد بلغت مؤلفاتهما التقليدية فى مجال التأثير والسيطرة ما لم تبلغه مؤلفات المجددين من أمثال ابن مضاء ! فوجب أن نشير إلى دورهما الكبير فى الثقافة العربية فلا نبخس أحدا فضله فى ميزان التقدير .

وإذا ذكر تأثير الأندلس فى مجال ما من مجالات التأليف العلمى بالعصر المملوكى وما لابسه من قبل ومن بعد ، فلا بد أن يذكر التصوف ، إذ أن الأندلس قد أمدت الشرق بنفر كبير من أعلام المتصوفين قادوا حركات روحية واسعة ، وشقوا شعابا رحيبة ، وتركوا مذاهب وآراء ومؤلفات تسير مسير الشمس فى القرون المتوالية ، دون أن يغرب لها شعاع ، بل أن بلدة واحدة بالأندلس هى (مرسية) أمدت الشرق بأفذاذ متصوفين رحلوا إليه فشغلوا به وشغلوه ، وحسب مرسية أن يكون من نجبائها أبو العباس المرسى ، ومحى الدين بن عربى

وابن سبعين ! وكل واحد من هؤلاء أمة وحده ! ومن الطريف أن أثر أبي العباس في مصر كان مضاداً من وجهته الصوفية لأثر محيي الدين ابن عربي . ولكن كليهما قاد بجانبه وجدد دراسة وحدد اتجاها ، وأحدث تأثيراً ، ولإيضاح ذلك عن أبي العباس المرسي نذكر أنه كان تلميذ أبي الحسن الشاذلي وترجمان أفكاره ، وجامع صحابته وأستاذ حلقته ، وخليفته من بعده ! لم يترك أبو العباس مؤلفات قائمة بذاتها ، ولكنه ترك أقوالا تنبيء عن معدنه ! وقد جاء دوره بعد أن عمت آراء الغزالي في التصوف وأصبح الفقهاء من أهل السنة متصوفين بعد أن كانوا حربا على الصوفية ! وصار الإحياء كتاب تصوف أخلاقي يهدى السبيل إلى الله بعيداً عن شطحات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ! يقول صاحب نفح الطيب عن أبي العباس : إن قبره بالإسكندرية مشهور بإجابة الدعاء وقد زرته مراراً كثيرة ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله ! ولو رجع المقرى اليوم إلى الحياة لوجد مسجد أبي العباس أعظم مسجد بالإسكندرية .

ولشاهد من تعظيمه وتبجيله في القرن الرابع عشر الهجرى ما شاهد قبل ذلك حين التمس القبول لديه ! وقد ظهر أثر أبي العباس العلمي في مجالسه الوعظية من ناحية وفي مؤلفات تلميذه الكبير ابن عطاء الله السكندرى من ناحية ، أما مجالس وعظه فما حفظه لنا المقرى منها في نفح الطيب ، يدل على ذوق الصوفي العارف ولطافة حسه ، ودقة منحاه ! فهو مثلا يقول في تفسير الحمد لله رب العالمين : « علم الله عجز خلقه عن حمده فحمد نفسه بنفسه في أزله ، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده ، ويقول في تفسير إياك نعبد وإياك نستعين : إياك نعبد شريعة ، وإياك نستعين حقيقة ، إياك نعبد إسلام ، وإياك نستعين إحسان ، إياك نعبد عبادة ، وإياك نستعين عبودية ، إياك نعبد فرق ، وإياك نستعين جمع ومن أقواله المختارة : الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة ، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا ، الزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه والعارف غريب في الآخرة لأن روحه عند الله ... هذه الدقة الرهيفة اللطيفة في التأويل والتفسير كانت الملهم الأول لابن عطاء الله السكندرى في الحكم بحيث شرب التلميذ من روح أستاذه ، وأصبح من المتعسر الشديد تمييز كلا الإنتاجين ونسبته إلى واحد منهما ! وقد أحدثت حكم ابن عطاء الله السكندرى دويها الشديد فكانت مجال الشرح والتفسير والدراسة منذ تأليفها إلى الآن ، حتى كان المفتى الأكبر (الشيخ محمد بخيت المطيعى) يلقى دروسه بجامع الحسين

فى رمضان شارحا لها ومفسرا ، هكذا يقول الدكتور زكى مبارك فى التصوف الإسلامى ، والشيخ بخيت فقيه كبير يحفظ أقوال الفقهاء فى مذهب أبى حنيفة ، ولكنه - كما تشهد مؤلفاته - لم يكن ممن يستطيعون السبح مع ابن عطاء ، فكيف جاز له أن يتخذ من حكمه مجالا للدراسة والتفسير ! من يدرى لعله اعتمد على شرح الرندى أو الشرقاوى أو ابن عجيبة أو أحد شروح الحكم ، وهى كثيرات مختلفات ! لقد كان من آثار أبى العباس ، وتلميذه ابن عطاء بعد جهاد الغزالى أن أصبح علماء الفقه ينتسبون إلى طريقة صوفية يحرصون على ذكرها عند التعريف بهم ، فيقولون مثلا فلان المغربى المالكى الأشعرى الشاذلى ! ومعنى ذلك أن الطريقة الصوفية وجدت أتباعها من بين أعلام الفقه والتشريع ! بل إن كثيراً منهم يتحدث فى مؤلفاته الفقهية عن العبادات والمعاملات والحدود ثم يختمها بأبواب صوفية تتصل بالمريد وآداب السلوك !! وقد ظل ذلك متداولا حتى العصر الحاضر ؛ إذ رأينا الشيخ محمد أمين الكردى النقشبندى سنة ١٩٠٨ يكتب مؤلفه (تنوير القلوب) فيفرد التصوف صفحات تؤاخى صفحات علم التوحيد ، وفصول العبادات والمعاملات ، وهذا امتداد بعيد لتأثير الغزالى وأبى العباس .

أما محيى الدين بن عربى فقد أحدث تأثيره الصوفى فى الدراسات المملوكية لآرائه الخطيرة فى وحدة الوجود إذ أن تصوفه الفلسفى قد قاده إلى مضايق حرجة تدق على العامة ، وتهتف بالشوائر أن تهب على عقيدته !! فأفردت مؤلفات كثيرة لشرح أفكاره ما بين مؤيدة ومعارضة .

ومات الرجل والصخب لا يكاد ينقطع حوله فى كل قرن ، حتى اضطر الشعرانى أن يحذف من كتبه فصولا كثيرة يعتقد أنها مدسوسة عليه لأنها لا توافق ما عليه أهل السنة والجماعة من المسلمين ، وهذا شطط بالغ من الشعرانى ، لأننا لو أجزنا لأنفسنا أن نحذف من كل مؤلف ما لا يوافق النظرة الجماعية فى عقيدة من العقائد ، لجاءت كتب المذاهب العقلية والدينية نسخا متشابهة ، ومن يدرى أمل فيما حذف ما فهم على غير وجهه ، أو ما يجب أن يكون ممثلا للتطور الذهنى شاذا أو مستقيما إذ أن من البعيد أن يكون صوفى خطير كمحيى الدين ، موافقا لأهل السنة والجماعة فى كل شىء ، ومن المسلم به أنه على اختلاف القوم فى اتجاهه قد أمتع التصوف بأدب فذ فريد وزاد كتب الصوفية ثروة وعمقا حتى قال عنه الدكتور زكى مبارك فى التصوف حـ ١ ص ١٧٩ : أنه راض اللغة على الجرى فى شعاب مجهولة ، وانطلق يتحدث عن فروض غيبية جلاها قلبه فى معارض شائقة

فأصبحت وكأنها من الحديث المأنوس ! لقد هضم كل ما قرأ ووعى كل ما سمع ، وراح يهدر فى لغة قوية عاتية لا يعيبها غير ما كان يقصد إليه أحيانا من الغموض !

ولقد ظل العصر المملوكى مشغولا بابن عربى فالفتاوى توجه الفقهاء عن معتقده، والمؤلفون يخطون الكتب فى نقده تارة وفى الدفاع عنه تارة ، وأظهر من حمل لواء الدفاع عنه سراج الدين البلقينى وجلال الدين السيوطى وعبد الوهاب الشعرانى وأن مفكرا يحدث عنه المثروة فى التنفيذ والتأييد لذو أثر كبير .

ولابد من كلمة فى مجال تفسير القرآن عن مؤلف أندلسى دام كان فريدا فى اتجاهه إذ أن التفسيرات الذائعة لعهده وما وليه لم تكن على غراره ، كان هناك مجلدات تفسيرية بعضها مطبوع وأكثرها مخطوط لابن عربى والعز ابن عبد السلام وابن ظفر الصقلى وسبط بن الجوزى وناصر الدين الجذامى وتقى الدين السبكى والجلال السيوطى والزركشى والبلقينى وأبى حيان، وابن قيم الجوزية، والقفطى، وابن كثير ، والعليمى، ولكنها لا تغنى غناء تفسير القرطبى ! إذ كان ذا منحى خاص ، يضيف الأقوال إلى قائليها ويضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ويفصل آيات الأحكام تفصيلا شافيا ويرضحها بمسائل تسفر عن معناها وترشد الطالب إلى مقتضاها، فى أسلوب سلس لا يصدمك بالاصطلاحات العلمية أو التخريجات النحوية والصرفية أو التمحلات البلاغية مما يغشى البيان القرآنى بضباب يحول دون اجتلائه إشباعا لرغبة مفسر قارئ بحاث ! وهو لا ينقل نصاما دون مناقشته كاشفا وجوه القول مما يجوز للمفسر أن يبديه من الرأى المؤيد بالحجة وما لا يجوز أن يتعرض له من الفروض والتأويلات القاصية ، ذاكرا ما دعت الحاجة نصوصا وافية من أحاديث الرسول وأقوال الصحابة ومشيخة التابعين وأئمة الرأى فى الإسلام ، وقد بدأ تفسيره بأبواب يراها ضرورية تتحدث عن فضائل القرآن وكيفية التلاوة وما يكره منها وما يحرم ، وجمع القرآن وترتيبه القراءات السبع ومصحف عثمان ! ولعل دار الكتب المصرية لمست الحاجة إليه فى هذا العصر فبدأت بنشره مطبوعا فى أجزاء قدر لها أن تبلغ السادسة والعشرين ، وقارئه المعاصر لا يشعر أنه يقرأ فى تفسير سابق كتب فى عهد بعيد ولكنه يجد من قرب التناول وإشباع الفكرة ويسر العرض ، وسلامة الاستنتاج ووفرة النصوص والشواهد ما يجذبه إلى متابعته !

وإذا كان لكل تفسير وجهته العلمية ، فإن ميزة القرطبى الأولى هى اهتمامه بالأحكام الفقهية ، يكشف عن وجهها كما تؤخذ صريحة من كتاب الله دون التعصب لمذهب فقهى خاص ! كما نقل كثيراً من آراء ابن عطية

الأندلسى ، وهو مفسر خطير ضاع تفسيره الكبير ولم تبق منه إلا أجزاء مستورة فى دار الكتب المصرية وقد أثنى عليه أبو حيان وقال عنه أنه أجل فن صنف فى علم التفسير وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير !

فكأن القرطبي قد حفظ لنا من آثاره ما حفظ ابن بسام فى الذخيرة من آراء ابن حيان المؤرخ ! وتلك إحدى مزايا النقل الكثير فى عهود الوراقة والمخطوطات! وقد قدم القرطبي إلى مصر وعاش بالصعيد الأوسط فى مينة ابن الخصيب ، دون أن تغره أضواء العاصمة بل انقطع للعبادة والتأليف فى معتزله الهادىء !

وإذا كانت الأيام قد حجبت تفسيره كثيراً عن التداول فإنه الآن بعد أن طبع طبعة راقية ممتازة بدار الكتب ، قد جاء بدعا بين قرنائه حتى ليعجب القارىء لتأليف مثله فى منهجه الرائع واطراده السهل ، واستقصائه الملمئن فى عصر يمج بالاعتراضات اللفظية وتزدحم تفسيراته بالقصص الإسرائيلية ! وهو عن هذه وتلك بعيد بعيد!

هذه إشارات موجزة إلى بعض المؤلفات الرنانة ذات التأثير البعيد وبجوارها أخوات كثيرات لأئمة الأندلسيين الذين قطنوا المشرق فى شتى فروع الثقافة الإسلامية ، ولكننا لم نشر إلى أحد منها عامدين ، حيث كانت على نفاستها مماثلة لسائر المصنفات العربية ذيوعا وتقليدا فلا يجوز أن تندرج فى موضوع يبحث عن المصنفات المؤثرة بطابعها المتميز أو بذيوعها المشتهر المتعالم ، ونمثل بمؤلفات المرسى السلمى فى التفسير وأشهرها رى الظمآن فى تفسير القرآن وهو ضخم يزيد على العشرين من الأجزاء ، ومؤلفات أبى حيان الأندلسى المتنوعة فى النحو والتفسير وهى من الشهرة بحيث يستغنى عن الإشارة إليها وابن القطاع الصقلى فى العروض والأدب والتاريخ وابن ظفر الصقلى فى اللغة والنحو والأدب وعلم الكلام وأبى بكر الطرطوشى صاحب كتابى الفتن وسراج الملوك فى السياسة والمختصر فى التفسير وحامل لواء السنة فى محاربة المستحدثات من البدع ، ولا نريد أن ننقل هنا من فهارس المكتبات العربية ما يشبعنا فى هذا المجال بل نترك ذلك لمن يشغف باستقصاء هذه النفائس وهى قيد المتناول هذا نمط يسير من القول فى تأثير المقيمين بالشرق من الأندلسيين فى الثقافة العربية أما لو أردنا الإلمام بتأثير الأفذاذ من غيرهم كابن حزم وأضرابه فما أظن القلم يستطيع أن يقف عند حد ، وحسبنا الآن أن نذكر الأندلس اسهامها فى إنعاش الحركة العلمية والأدبية على ضفاف النيل زمنا غير قصيراً.

محمد رجب البيومى

فجر الفكر الإسلامى فى مصر

للأستاذ عبد الجليل شلبى

تمهيد :

الفكر الإسلامى يشمل أنواعا متعددة من العلوم ، ولكننا نضع العلوم الدينية فى مقدمة أنواعه ، ونضع الفقه وتاريخ التشريع فى مقدمة علوم الدين ، وفى فجر هذه الحركة من تاريخ الفكر الإسلامى بعامة ، والفكر المصرى بخاصة تواجهنا حلقة مفقودة ، أو على الأقل فترة غامضة هى الفترة التى سبقت تكون مذاهب الفقه وظهور الأئمة المجتهدين ، ففى منتصف القرن الثانى ، أو قريبا من هذا الوقت نجد مذاهب فقهية ناضجة ونجد للقياس والاستنباط قواعد ممتزة ثابتة ونجد فى جدل الفقهاء أسسا مستقرة تنفى الحيرة وطول التردد أمام المشكلات ، وهى حالة كان مألوفا أن تواجه الصحابة عقب وفاة الرسول .

هذه الحالة سبقت ولا شك بمحاولات عديدة أدت إلى هذا النضج ، ومهدت للأمة طريق الاجتهاد ، ولكنها فترة شديدة الغموض وهى فى تاريخ الفكر المصرى أشد غموضا كما سبق ، ففى الحجاز والعراق والشام وجد عدد أوفر من كبار الصحابة ، ومشهورى التابعين ، ورؤساء القبائل وكان لهم أثر ملحوظ فى أحداث السياسة وتموج الفكر فإذا تعرضنا لتاريخ هذه الفترة هناك وجدنا مددا أوسع من المعلومات - وقد كانت تلك الأقاليم مسرح الفتنة الكبرى ، ومجال أحداثها وتاريخ هذه الفتنة يقدم لنا ألوانا متعددة من الجدل اعتمدت كلها على القرآن والأحاديث ، ومست من قرب تاريخ التشريع . ولكن مصر لم تشترك فى هذه الأحداث إلا من طرف بعيد فأثارت فيها حروب السيف وحمية التعصب ، ولكنها لم تثر شيئا من الجدل ولم تمس جوانب البحث فى الدين .

لهذا لا نجد أمامنا لدرس هذه الفترة من تاريخنا الفكرى غير كتب التراجم والتواريخ ، وعلينا أن نتصيد من ثناياها ومن بين حواشيها خيوطا نضم بعضها إلى بعض حتى نحصل بقدر طاقتنا على ما يوضح هذا الغموض .

ولا بد لنا فى هذه التوطئة أن نبين فى إيجاز أهم العوامل التى ميزت الفكر المصرى عن

غيره من أفكار البيئات الأخرى والتي لونت تاريخ التشريع والفكر الديني بوجه خاص بلون يستحق أن يكون سمة من سمات المصريين. فهل مرد ذلك النهج الديني إلى الصحابة الأولين الذين قاموا بمبادىء التعليم أم إلى المجتهدين الذين ثبتوا، قواعد المنهج لمن تبعهم من الباحثين أم إلى طبيعة الإقليم وما يتصف به أهله من طباع ثبتتها عوامل المناخ، ومظاهر الحضارة القديمة، وموروث العلوم؟ إنه من الحتم، ولا ريب أن نلاحظ كل هذه المؤثرات وأن نلاحظ أيها أعمق من غيره أثراً وأكثر ثباتاً على مر السنين وهذه فيما ارى هي معالم الطريق أمام الباحث وسيعود منها ولا شك بقبس، وسيجد على النار هدى.

وأوثر أن أبدأ بالبحث في شخصيات الرواد الأول من الصحابة والتابعين ومن بعد التابعين لنرى تسلسل الأفكار وطرق التهدى والاستدلال وقد يحملنا هذا إلى الخروج بعيداً عن مصر لنرى جذور الفكرة وينابيعها الأولى ولكن لا بأس بذلك مادمنا مشدودين إلى مركز معين تنتهي إليه في خاتمة المطاف.

حينما تفرق الصحابة في الأمصار بداية الفتوح، وكان ذلك منذ خلافة أبي بكر كان في كل إقليم أفراد يمتازون بالعلم ويشتهرون بسعة محصولهم من حديث النبي ومعرفتهم بالقرآن، وكان هؤلاء مرجع الناس في الفتيا ومعتمدهم في تعلم الدين، وكان العرب الفاتحون أنفسهم يرجعون إليهم فيما يعن لهم من مسائل، وما يجد في حياتهم من شئون. وكان من عادة الخليفة أن يرسل من هؤلاء العلماء قضاة ومعلمين لأن رسالة المحاربين الأولى هي نشر هذا الدين الجديد، وإلى هذا الوقت لم يكن الحديث قد جمع ولا قواعد الفتيا قد استقرت فلم يكن كل واحد من هؤلاء يعرف كل ما قاله أو فعله الرسول ولا يلم بكل غوامض القرآن أو يعرف كل أسباب النزول. وكانت الرحلات مستمرة ما بين إقليم وآخر ليحصل كل راغب في العلم ما فاته مما لدى الآخرين. وكان كل من القاضي والوالي والمعلم يجهد جهده في تطبيق قواعد الدين على المشكلات التي تطرأ له، وقد يفسرها بوجه ينكره عليه غيره وقد ينكر هو ما رضى الآخرون، ومن هنا بدأت شخصيات الفقهاء الأول تترك طابعها في فتاويهم، وتبعا لتنوع المشكلات في الأقاليم بدأت تظهر سمات مميزة للتفكير الفقهي في كل إقليم.

ومعروف أن الصحابة لم يكونوا سواء فيما أوتوا من العلم، ولا في جرأتهم على التصرف فيما أوتوا منه، ولا في مدى قدرتهم على

توليد فكر مستحدث ، وعلم جديد وهذا أمر طبيعى مرده إلى اختلاف الذكاء والطبائع والشخصيات وكان له أثره فى توجيه الاجتهاد .

اعتاد أمثال أبى بكر وزيد بن ثابت وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن عمرو وأمثالهم أن يتلقوا عن رسول الله فى طاعة وإخلاص وقلما سألوه عن حكمة تشريع أو راجعوه فى توجيه أمر ولكننا نجد عمر كثيراً ما كان يقترح عليه ويراجعه حتى لقد هم حين مماته أن يكتب لأصحابه كتابا لا يختلفون عليه بعده فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه المرض وحسبنا كتاب الله تعالى .

وأنكر حرقوص بن زهير - الذى ينتمى الخوارج إليه - على رسول الله قسمة فىء فصاح به أعدل يا رسول الله ! وأجابه الرسول ومن يعدل إذا أنا لم أعدل؟ وقال : عنه أنه يخرج من ضئضىء هذا الرجل قوم يحقر أحدكم صلاته وصيامه بجانب صلاتهم وصيامهم ولم ير فى هذه المواجهة ما يستقبح الخروج على الإسلام - وهذا التباين فى الموقف أمام عمل الرسول يلزمه التباين فى النظرة إلى النصوص .

وكان أبو بكر يتحرج أن يفسر برأيه آية لم يسمع تفسيرها من رسول الله ولكن ابن عباس كان يفسر ما غمض من ألفاظ القرآن بما يعرف من أشعار الجاهليين .

وهناك اختلاف أيضا فى الموقف أمام أعمال الرسول ترتب عليه اختلاف فى العبادات فكان عمر بن الخطاب يرى أن الرمل سنة فى الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا فعل فى الحجة الوحيدة التى حجها وكان ابن عباس لا يرى ذلك ويقول : إن النبي فعل هذا لسبب معين - فقد كان القرشيون يظنون فى المسلمين الضعف ويقولون : أنهكتهم حمى يثرب فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم قوة المسلمين وإذن فهو عمل ليس له بعد ذلك ما يدعو إليه . .

نظر أحدهما إلى عمل الرسول من حيث هو عمل وعبادة ونظر الآخر إلى علته والدافع إليه ، وهذا الاختلاف يبين لنا من جانب آخر سبب اختلاف المجتهدين فى نظرتهم إلى عمل أهل المدينة - فهو عند بعضهم قاعدة وحجة لأنهم إما تابعوا الرسول فيه وإما أقرهم عليه فله صفة السنية على أى حال وبعض آخر لا يعتد به لأنه من المباحات التى لا تقر ولا تنكر ولا بأس أن تخالف ؟ أو تتبع .

وفى مجال التحدث عن تأثير الشخصيات نجد ما يدعو إلى الحذر والاحتياط . فهناك

أشخاص انتقل فقههم إلى بلاد لم ينزلوها وهناك أشخاص أقاموا ببعض الأقاليم - مع مالهم من علم وشخصية - ولم يتركوا أثراً ملحوظا وربما لم يتركوا أصلا .

فعمر بن الخطاب ترك أثراً قوياً فى فقه العراق ولم يقم هناك ولكن أثره كان عن طريق تلميذه المخلص عبد الله بن مسعود - وعلى ابن أبى طالب وعبد الله بن عباس أقام كل منهما بالعراق ولم يترك فى فقهه أثراً أو ما تركه كان ضئيلا ، لأن كلا منهما شغل بشئون السياسة والحرب عن الفتيا والتعليم - وشىء آخر يدعو إلى الحيطة إزاء هذين الصحابيين العالمين وهو ما أضيف إليهما من شيعة على وخلفاء بنى العباس ؛ أو على الأصح من طاب لهم أن يتقربوا للعباسيين عن هذا الطريق - وقد انتقل من كل منهما آثار فكرية إلى مصر بحق أو بغير حق وسنواجهها فى غير هذا الحديث .

وبما هو فى حاجة إلى شىء من التمحيص من تأثير الشخصيات وهو أشد مساسا بموضوعنا ما يشيع من نسبة الفقه المصرى إلى مدرسة مالك ثم إلى مدرسة المدينة التى سبقت مالكا وانتهى فقهها إليه - فهذه المدرسة كانت تتكون من سبعة مشهورين ولكن لم يكونوا كلهم سواء فى قدرتهم على توجيه تلاميذهم - فقد رأينا ابن مسعود يتأثر بعمر دون غيره وكان كل من : عروة ابن الزبير والقاسم بن محمد بن أبى بكر أشد تأثيراً بفقه عائشة - وكان الكثيرون حتى من أعضاء المدرسة نفسها يفضلون فقه زيد ابن ثابت - وعن هذه المدرسة أخذ جماعة من مشهورى التابعين هم الذين انتهى فقههم إلى مالك ومدرسته - فإذا رددنا فقه مالك إلى أفراد معروفين من مدرسة المدينة أمكن أن نقف على الجذور الأولى لمدرسة المصريين .

وقد فتحت مصر فى زمن لا يبعد كثيراً عن فتح العراق ولكننا نجد فى العراق وفى الكوفة بالذات مدرسة تعاصر مدرسة المدينة بينما تأخرت هذه الحركة فى مصر أكثر عن ما تين المدرستين - ومع ذلك نزل مصر عدد من الصحابة فهل تأخر هذه المدرسة يرجع إلى الأشخاص أم يرجع لأسباب أخرى ؟ .

عبد الجليل شلبى

فى مسئوليات الناقد المعاصر

للدكتور أحمد كمال زكى

طه حسين والمازنى والعقاد قادوا حركة النقد ، وهم مسلحون بأسباب الثقافة العربية وبعد أن قرءوا الآثار الغربية فى لغاتها ، وكان وقوفهم فى الجانب الذى حاربه الرافعى إيذانا بوجود الناقد الذى لا يدور فى ضبابية الاصطلاحات . ويحاول - بعد إلمامه بالإنسانيات - أن يقوم الأثر الأدبى تقويما بعيداً عن طلاسم الديباجة المشرقة ، ونبالة المقصد ، ومماطلة التركيب ، وفخامة المعنى ، ونحو ذلك مما لا يفيد إلا فى الدلالة على تلاعب بلاغيينا بالألفاظ .

وكان المنهج العلمى الذى اصطنعوه - وهو لا يهمل اللغة ونحوها وبيانها - قد لفت إلى ضرورة تدريب الناقد العربى على الاتصال بالناقد الغربى ، وتم ذلك بنجاح بواسطة كتاب (ا. ريتشاردز) الذى وضعه سنة ١٩٢٤ باسم « مبادىء النقد الأدبى » . وإلى جانب هذا الكتاب الذى يستهدف ربط الإنتاج الأدبى فى مجالات النقد بالتحليل اللغوى المباشر ، ترجم الدكتور محمد عوض محمد « قواعد النقد الأدبى » لآبر كرومبى ، كما ترجم الدكتور زكى نجيب محمود « فنون الأدب » لتشارلتون ، فكان أمام العاملين فى ميدان النقد شروح لبعض القواعد الرئيسية التى أثرت تجارب الغربيين الأدبية .

والظاهر أن النتيجة كانت عكسية تماما ، فقد تضخمت بحوثنا النقدية بغير طائل ، وبدا كما لو كانت مدرسة الرافعى أكثر سداداً من المحدثين . حقا ظهر محمد مندور ومن بعده عبد القادر القط ، وحقا كان إلى جانب هذين سهير القلماوى ، ورشاد رشدى ومن يقرءون آثار الغربيين ويناقشونها ويقارنون بينها وبين ما يصدر عنه العرب ، إلا أن النقد ظل فى حاجة إلى من يحدد مجاله كما ظل عاجزاً - حتى اليوم للأسف العديد - عن استكشاف جمال الأدب كحقيقة قائمة من أجل البناء .

ماذا أقول ؟

بل بدا أن الناقد لم يعد يعرف مسئوليته على الحقيقة ، وكأنما ضاع كل ما قدمه طه حسين ، والمازنى ، والعقاد قبل أن يخلو الطريق لغيرهم من المجددين الشباب ، وظهرت مشكلات

متعددة نجمت عن محاولة تطبيق القواعد الغربية فى النقد العربى تطبيقا خاطئاً ، كما وجدت اصطلاحات تشبه فى تلبيسها اصطلاحات القدماء ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر « التطهير » و « لحظة التنوير » و « العصاب النفسى » و « فعل التعبير » و « الاستجابة الفاعلية » و « المضمون » و « الانطباعية » و « المعادل الموضوعى » و « التناسب الموضوعى » و « الالتزام » الخ .

ولم يكن بد من ألا يفقد الأدباء أملا على ناقديهم ، لا سيما بعد أن ظلوا على إصرارهم فى احتذاء الغربيين؛ بل فى احتذاء طائفة معينة منهم يوضع على رأسها ريتشاردز والغريب أن كتاب هذا الرجل – القديم نسبيا – لا يزال إلى اليوم عندنا المنفذ السهل إلى الكشف عما للكلمات من خطورة وأكبر الظن أن بعض النقاد وجد فيه امتدادات عربية غير مباشرة بطبيعة الحال من حيث حصر المجهود النقدى فى اللغة ، وفى نسيجها على نحو ما ظهر عند عبد القاهر الجرجانى ، فأصر على الإخلاص له دون أن يلحظ تلك الهزة التى تريد أن تعصف اليوم بمدرسته كلها ، حتى تقوم أساليب أخرى أجدى فى إظهار حقيقة النص الأدبى .

وامتد يأس الأدباء من ناقديهم إلى شئ آخر ، هو التفات أغلبهم إلى نفر معين من المنشئين ، حتى إن كتاباتهم تظهر كأنها مكرسة لهم فقط أو مقصورة على شخص يتلاءم إنتاجه مع فكرتهم النقدية .

وهنا وجه الخطر ! ..

إننا بلغنا مرحلة فنية لا نقول فيها : إن مناهج القدماء والغربيين بدون فهم لا تصلح لها فحسب، ولكن نقول فيها أيضا : إن التحيز لأديب دون أديب خطر دونه خطر الأخذ بالمقاييس الغربية ، أو دونه خطر التوقف عن البحث الجذرى فى قضايا الأدب العربى كله ، ولعله فى الدرجة نفسها التى ترتفع إليها قاعدة: أن النقد الحقيقى: هو فن دراسة الأساليب اللغوية فى إطارها الموسيقى ، وفى طاقاتها التشكيلية ؛ أو من حيث قدرتها على رسم الصور .

هكذا تتحدد مسئولية الناقد ، عليه أن يفسر بعد أن يصل إلى مرتبة التفقه الفنى ، ودون أن يتحيز لأحد ، ويهمل أحداً ، مع استيعاب كامل لأعمال عصره مؤمنا بأن وراء إمكانات فهمها آفاقا بعيدة ممتعة .

وتحديدنا المسئولية على هذا النحو لا يعنى أن نكفر بالقديم ، فبين القديم والمحدث تفاعل أكيد . ثم هو لا يدعى لها شرف الخلق، بمعنى أنها ترسم الحياة للأديب ، وبعد

ذلك تنفخها فيه . كل من الادعائين باطل ، غير أن الناقد يظل فيها مطالبا بالتوازن المطلق، وهو يصدر عن عمليات الفهم والتذوق والمناقشة والتفسير ، وعن هذه الوسائل يتحسس الأديب طريقه ، أو يرى موضع قدمه قبل أن يخطو خطوته .

ومن هنا يصح أن نطالب بوجود الناقد الذى يزن الأعمال بميزان علمى نزيه ، وهذا الميزان هو الذى يتحدى - بطبيعة تكوينه - حاضر الأديب إلى ماضيه ، ويرجح الأعمال التى تفسر الحياة تفسيرها الوجدانى ، وهو يقبل الفنون التى قد تبدو مناقشة دورها غريبة عند بعض المحافظين . وما أشبه صنيع هذا الناقد بما يقدمه « هربرت ريد » وإن يكن هناك من يرى أن « بول روزنفلد » الناقد الموسيقى الأمريكى [1] أحق بالذكر منه فى هذا المجال .

وفى هذا كله لا يطالب النقاد بأكثر من أن يمنوا « طاقة » الأديب إلى جانب « تقييم » إحساسه الكامل بالمسئولية الاجتماعية ، لا يطالبون بأكثر من أن يجعلوا « موضوعات » الأديب تعبيرية ، أى أن يطرحوا ما قبل طرح المادة التى يشكلها الفن القولى كتعبير عن الذات . وفى هذه الحال لابد من التسليم بوحدة المادة الأدبية وشكلها ، أو قل: بارتباط بنية المادة ، وصورتها الفنية ارتباطا عضويا ، ولا نقول بذلك الارتباط المفتعل الذى يفرض على ما يسمى الشكل والمحتوى، أو الصورة والمادة، أو الأسلوب والمعنى .

والواقع أن مسئولية الناقد تقوم فنياً على أساس أن بنية الإنتاج الأدبى تنتمى أولا إلى معطيات الوجود قبل أن ترتبط بذات الأديب ، ولكن المهم : هو البحث عن مدى نجاح الأديب فى تشكيل الصورة التى جسمت مادة التجربة ، بمعنى أنه لابد من التركيز على أن يكون الجهد الإبداعى هو خلق الشكل الذى يمكن أن ينفذ بالمادة إلى خبرات المتلقين . ويمكن أن يعتبر الشكل فى هذه الحالة حلقة الاتصال بين الأديب وقارئه ، والوسيلة المباشرة للتعرف على بنية الإنتاج من حيث كونه قصيدة ، أو مسرحية أو قصة ، أو أى جنس أدبى آخر .

حقا لا يخرج الشكل - عادة - عن أن يكون عنصراً واحداً من عناصر معرفة القيمة الجمالية ، إلا أنه يلعب الدور الأول فى تحديد الملامح التى تقرر نوع التأمل ، أو تضع نقطة

(١) Paul Rosenfeld ولد سنة ١٧٩٠ ومات سنة ١٩٤٦ ، وكان من رأيه أن يتعمق الفنان ضروب الفنون كافة، وأشهر كتبه فى هذا الموضوع By the way of Art وقد نشره عام ١٩٢٦ ، والتزم ما فيه المرأ ..مات.

البدء للتفكير . ويظل بعد ذلك أسلوب الفنان هو الذى يطبعه بطابع متميز ، وهو النقطة التى يختلف حولها المتفلسفون من حيث عده أساس المعرفة الفنية لأنه هو التابع بعكس المادة (١) .

ولما كانت كل خبرة قائمة على أساس وجود تفاعل بين الذات والعالم ، وأن هذا التفاعل موجود فعلا فى المادة المشكلة ، فإن من غير الممكن أن يمنع الناقد نفسه من أن يسأل : هل ما قيل ليقصد به الأديب خبرات الآخرين قد اندمج فى سياقه البشرى وبنى إنتاجه البناء المناسب ؟ أى يسأل : هل نجح فى التعبير ؟ .

إن كل ناقد يتصور أنه يسأل هذا السؤال ولكن الحقيقة أنه لا يفعل ، وإنما يقدم الاصطلاحات الغربية فى عبارات أكثرها فيه من المجاملة ما يطمس الحقيقة ويهدر القيم . وعلى ضوء ما يمكن أن يحدث لو التزم الجميع جادة الحق يتوارى متأدبون هم فى الصورة الآن ، ويظهر أدباء لم تسلط عليهم الأضواء ، ولا يكون القاص : (عبد الحليم عبد الله) مثلا كاتباً طليميا يضع أيدينا على فاعليات تاريخنا وحاضرنا ، وإنما يكون واحداً من الرواد الذين قد تضيع مضامينهم فى « بلاغيات » العبارة ، وتزدحم مادتهم بالشعارات المبهمة أو الطائشة .

أنا لا أعرض بأحد ولا أستطرد ، ولكنى أرى أن النقاد فى إهمالهم لمسئوليتهم وأخذهم بأسلوب المجاملات ، قد ضيعوا الحقيقة الأدبية ، وأصبح الأدب غريبا فى مجتمع تبدلت ملامحه . وفى الوقت نفسه أهدرت الخبرة السوية ، وضرب على فهم العوامل النفسية والاجتماعية وهى تخطط للجماليات ؟

دكتور أحمد كمال زكى
جامعة عين شمس

---

(١) يجب أن نلحظ أن التفرقة بين الشكل والمادة تفرقة ذهنية ، كما نلحظ أيضا أن أساس المعرفة الفلسفية على النحو المتقدم ناجم عن أن مادة الأدب أشبه ما تكون بالهيولى فهى مهوشة مضطربة وغير مستقرة ومن ثم يكون للشكل الذى سوى الصورة صفة الاستقرار والدوام . ولكن ما يهم الناقد هو أن يفرق بين المادة التى شكلت بأسلوب قاصر ، والمادة التى شكلها الأسلوب الكامل ، دون ما نظر إلا إلى « التنظيم » .

الشعر الحديث وبساتين القرآن

للأستاذ عبده بدوى

أى إنسان الآن حين يتعامل مع الشعر بالإحساس ، يجد أن طيور الشعر لا تحط على بساتين القرآن ، ولا تقترب من حديقة الرسول ، ولا تمد أعناقها إلى التراث الإسلامى . . . وأى إنسان حين يتعامل مع الشعر بطريقة المسح والإحصاء يجد أن ما نقوله حقيقة ، وليس معنى هذا أن التجربة الدينية غير خصبة ، أو أنها تعرقل التجربة الشعرية فى قليل أو كثير . فالتجربة الدينية مما يثرى الشعر إذا أخذت على أنها ليست موعظة ، أو نظما لموقف ، أو تفسيرا أو تحليلا لجانب من الجوانب الدينية ، أو وقوفا عند العبادات والأشكال الخارجية للدين .

أما إذا أخذت كخيوط فى النسيج العام للتجربة ، وكرموز تعمق العملية الشعرية ، ثم أخيراً ، إذا رأيناها تتجاوز الشكل العام للدين ثم تتعمق ، وتتعمق إلى أن تكون تعبيرا وإحساسا متواترا للجوهر الإلهى . . فإن هذا يكون هو الشعر ، مع تحقيق شرط لا بد منه وهو أن يكون الشعر هو الملامح البارزة فى العملية الشعرية ، وأن يتحول الإحساس الدينى إلى ما يشبه « اللهب الخلق » الذى من وظيفته فقط ، إلقاء ضوء خافت من همس النور ، ومن الحرارة العاقلة التى تؤثر على العين ولا تؤثر عند اللمس .

وقد يقول قائل : وما معنى هذا ، والناس منصرفون اليوم ، ومن فترة فى قليل أو كثير عن الدين ، وأن ما يشغلهم هو أمور دنياهم ولكن نظرة واحدة ترينا أن الدين يشغل الشاعر المعاصر ، ويأخذ عليه كل اتجاهاته ، ولا يتركه إلا وبه أثر منه .

فالشاعر (ت . س أليوت) يظهر فى أعماله التأثر العميق بالكاثوليكية ، وبعض النقاد يقول : إن قصيدة « الأرض الخراب » ـ التى تعتبر من معجزات الشعر فى هذا العصر ـ يمكن ، بل يجب أن تقرأ على أنها موعظة مسيحية ، وأن « القصائد الأربع » لا يجب أن ينظر إليها على أنها تأملات دينية ، وأن « رحلة المجوسى » يذكر عنها بعض النقاد أن عنوانها يذكر باللوحات الدينية فى العصور الوسطى ، وأن ما فيها من دفء وإشراق

يذكرنا « بالفرح العظيم المتزايد » في الإنجيل بل إن الأبيات الأولى مأخوذة من إحدى الخطب الدينية في القرن السابع عشر للأسقف « لانسلوت آندروز » .

ويمكن أن نحس هذا عند الشاعر بيتس ، وفروست ، وجورج هيربرت ، وفرانسيس تومسون ، والشاعرة كرستينا روستي .

ونحن يجب ألا يذهب بنا الظن بعيدا ، فالمتتبع الشعر العربي المعاصر ، وبخاصة الشعر الحر ، يجد أن التأثير الديني يلقي ظله عليه ، ولكن هذا التأثير الديني ليس إسلاميا ولكن مسيحيا ، وقد أرجعت هذه الظاهرة في « مجلة الرسالة » إلى أن الشعراء يخضعون لبعض المثقفين الشديدي الذكاء ، أو أنهم وجدوا أن القصيدة العمودية مرتبطة أشد الارتباط بالتراث الإسلامي ، ومن هنا كان انصرافهم إلى الجانب المقابل ، وأما أن بعض القوامين على الدين الإسلامي يبالغون في التشدد على رموزه ومواقفه .

والخطورة هنا : أن الشاعر المعاصر لا يستغني عن تحويل بعض المواقف والرموز الدينية إلى شعر ، ولكنه ينصرف تماما عن المواقف والرموز الإسلامية ، وقد عن لي أن أقوم بعملية مسح شعري في الشعر الحر المعاصر ، فوجدت صدق هذه الظاهرة ، بل وجدت بعض الشعراء يسخرون من الرموز الإسلامية ، وليس لهذا معنى غير أن بعض النقاد قد حولوا الشعراء بطريقة أو بأخرى عن المواقف ، والرموز الإسلامية .

وقد يظن ظان أن القرآن والحديث والمناخ الإسلامي لا يوحي بالشعر ، ولكن النظرة المنصفة تؤكد أن هذه المناطق الثلاث مملوءة بالشعر ، وأنها يمكن أن تعطي له الحنين والخصب ، والرحيل ، والبهجة ، والبعث ، كما يمكن أن تعطي له انتفاضة المرأة للجمال ، وللحمل ، والحقد ... كما في امرأة العزيز ، وامرأة ابراهيم ، وامرأة لوط ... واللحظة الحرجة في إقدام إبراهيم على ذبح ابنه ، وفي وضع أم موسى ابنها في الماء ، وفي فرحة محمد حين أتم الله دينه ، وفي حزن يعقوب على يوسف ، وإشفاق نوح على ابنه ، وفي ابتلاء أيوب ، وأصحاب الجنة !

وفي ضوء هذا نرى أن في القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي ما يمكن أن يثري الشعر ويملأ الشاعر ، بل إني أذهب إلى القول بأن الشعر المعاصر أصبح حائل التأثير ، وخافت الصوت ، وليست له « النكهة الشرقية » ، لأنه يتخطى القرآن إلى الإنجيل ، ولأنه يستمع إلى أنبياء ليست لهم الملامح النفسية لأنبيائنا ولأنه لا يحول ما يحس ويرى إلى شعر ، ولكن يحول ما يقرأ إلى تجارب ستظل دائما بعيدة

(البقية على صفحة ٧١٩)

ولكنها تفيد مع زيادتها معنى التوكيد كما قال ابن جنى : إن كل حرف زيد فى كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى ، فكأنه قيل : فتحت أبوابها فتحت أبوابها ، وكذلك بقية الآيات ، ومنها آية التوبة التى زيدت فيها (ثم) .

٢ — اختلف العلماء فى وقوع الزائد فى القرآن : فقليل منهم منعه ، والكثيرون أجازوه ، قال صاحب البرهان فى علوم القرآن فى الجزء الثالث : (وقد اختلف فى وقوع الزائد فى القرآن ، فمنهم من أنكره ، قال الطرطوسى فى العمدة : زعم المبرد وثعلب ألا صلة فى القرآن (أى لا زائد) ، والدهماء من العلماء والفقهاء والمفسرين على إثبات الصلات فى القرآن ، وقد وجد ذلك على وجه لا يسع إنكاره فذكر منه كثيرا) اه كلام البرهان وفى موافقة كثرة العلماء والفقهاء والمفسرين على وجود الزائد فى القرآن إلى ما تقدم من تضعيف مذهب البصريين وغيرهم نصر لمذهب الكوفيين والأخفش ، والله أعلم .

طه الزينى
دكتوراه فى النحو والصرف

(بقية المنشور على صفة ٧١٢)

من أحاسيسنا ، وغير ملتصقة بوجداننا ! .

وليس هناك من أمل سوى أن يميل هؤلاء الشعراء إلى أنفسهم ، وأن يستخرجوا ما بها من لآلىء دون خوف من « رجال الصاغة » ، وأن يدمنوا القرآن ، لا لأن بعض النقاد دعا إلى إدمان قراءة الإنجيل للشعراء أخيراً ، ولكن لأنهم سيجدون ما يعمق تجربتهم بالقرآن .

وليس معنى هذا أننا نريد حبس الشعراء فى الأجواء الإسلامية ، ولكننا فقط ندعوهم إلى « زيارتها » ، من الحدائق التى « سرقوا » إليها ، بل إنا ندعوهم الى أن يحلقوا فى كافة الأجواء الدينية ، وألا ينسوا التحليق على ما فى أنفسهم . . وما فى أنفس قومهم . . وما فى الشرق ! !

على أن يظل الشاعر دائماً متذكراً أن عليه أن يحول الدين الى شعر ، لا أن يحول الشعر الى دين .

تلك هى الدعوة التى ندعو إليها ، بعد أن قمنا بزيارة كافة الدواوين المعاصرة ، دون أن تقع أعيننا ونفوسنا على شىء يذكر بالشرق والإسلام ، بينما تدق الأجراس ، فوق رموز الخلاص بالحب ، والخلاص بالموت ، والصلب ، والجلجثة ، والخطيئة .

فما نقوله الآن ليس وليد لحظة عاطفية ، وليس وليد لحظة تعصب لأننا ندعو إلى الانتفاع بكافة الأديان ، ولكنه وليد لحظة علمية ، تشهد عليها عملية الإنتاج الشعرى المعاصر على الصعيد العربى ، ومن هنا نرفع صوتنا إلى الشعراء ثم نقول لهم : « إلى أين ! »

عبده بدوى

الفراغ النفسي عند الشباب

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

— ٢ —

في المقال السابق بينت الفراغ النفسي عند الشباب ، وأن هذا الفراغ يتمثل في الفراغ الديني ، والخلق ، والعلمي .

والآن سأعرض الدواء الذي سنعالج به الفراغ الديني والروحي ، فبأي شيء نملأ هذا الفراغ .

إن دواء هذا الفراغ الروحي هو غرس تعاليم الدين في النفوس ، وتنشئة الشباب تنشئة دينية روحية سليمة ، وذلك بملء القلوب بالإيمان : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . إيمانا مبناه الاعتقاد الجازم ، والعلم الصحيح بما يجب الإيمان به ، والعمل الصالح المصدق لهذا الإيمان .

هذا الإيمان الثابت الذي يدعمه العلم الصحيح، والعمل الصالح هو ما كان عليه السلف الصالح من هذه الأمة ، الذي صير من سكان الصحراء حكاما عادلين وخلفاء جديرين بالاستخلاف في الأرض .

لابد أن ننشيء الشباب من الصغر على تعاليم الدين وشرائعه ، وأن نلقنهم أصول الدين وأحكامه كما أنزلها الله ، وأن نعودهم إقامة شعائره ، حتى ينشأ الناشيء وهو غير غريب عن دينه وآدابه، وهذا يقتضي أن تعمم دراسة الدين في جميع المراحل الدراسية من المرحلة الأولى إلى المرحلة الجامعية، وأن يكون مادة أساسية لها وزنها في النجاح والرسوب في جميع السنوات ، وأن يكون لهذا تقديره أيضاً عند التقدم للكليات الجامعية والمعاهد العليا ، حتى يكون هذا حافزاً الشباب على أن يحصلوا على أقرب قسط من الثقافة الدينية .

وإنه ليؤسفني ألا تكون دراسة الدين وشرائعه وآدابه مقصودة لذاتها ، ولكن ماذا نفعل وقد أصبحنا أمام واقع مؤلم لا مفر منه ، وهو ربط التعليم بالنجاح والرسوب ، والإعداد للأعمال والوظائف ؟ وليست هذه المشكلة بنت اليوم ، فهي تضرب في التاريخ بجذور عميقة ، ويرحم الله الإمام الغزالي حيث قال : « طلبنا العلم لغير الله فأبى ألا أن يكون لله » ولكن فرق ما بين النظرتين اليوم والأمس .كفرق ما بين العصرين .

نعم : إن الدين يدرس في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ، ولكنها دراسة سطحية لا تصل بالطالب إلى اللباب .

فإذا ما وصل الطالب إلى الجامعة فإنه لا يرى أثراً للدراسة الدينية ، مع أن هذا الدور هو الذي يبلغ فيه الشباب درجة من

الاستعداد تؤهلهم لفهم حقائق الدين ، وفى هذا السن يصبح الطالب عرضة للتأثر بالمذاهب الهدامة ، والآراء الفاسدة ، والأفكار الوافدة .

وهذا القصور فى الدراسة الدينية ، فى الكليات الجامعية فيما عدا الكليات الأصيلة فى جامعة الأزهر ، أو التى تتغذى من روافده ، ولا يعنى بهذا النوع من التعليم إلا بضع جامعات فى العالم الإسلامى والعربى وأنا لا أنكر أنه قد وضعت كتب قيمة فى التربية الدينية ، وفيها شىء غير قليل من العبادات والأخلاق ، والسيرة النبوية لكنها - والحق يقال - لا يدرس منها إلا القليل جدا ، وما يدرس منها يدرس بطريقة لا تبنى عقيدة ، ولا تهذب نفساً ، ولا تقوم سلوكا وما منا أحد إلا وله أبناء فى المدارس فليرجع إليهم وليسألهم ، فإن الكثير من التلاميذ لا يحفظ من القرآن ما يصحح به صلاته ، والكثير منهم لا يكاد يحسن الوضوء .

وإذا كان لبعض الطلاب ثقافة دينية ، وسلوكهم لا ينافى الدين فرجع ذلك غالبا إلى البيئة التى نشئوا فيها ، أو إلى ظروف وملابسات كونتهم هذا التكوين ، وأعدتهم هذا الإعداد والطلاب الذين ينشئون فى أسر متدينة ، أو يغشون المساجد ، وقاعات المحاضرات الدينية والعلمية والأخلاقية ، غالبا ما يكون لهذا أثر ملموس فى تربيتهم .

وشىء آخر أحب أن أنبه إليه ، وهو أنه يجب أن يكون القائمون بتدريس الدين من المتخصصين فى علوم الدين ، الفاهمين له فهما صحيحا ، وممن يؤمنون بجدوى الدراسة الدينية وأثرها فى إصلاح النفوس ، وتهذيب السلوك وإلا خرج الكلام من فيه فاترا لا أثر له ، ميتا لا حياة فيه ، ولكن الأمر على خلاف هذا ، فدروس الدين كثيرا ما يراد بها تكميل جدول الدروس ، ولا يراعى فيها الرجل المتخصص ، ولا الرجل الذى يزكيه سلوكه ، واستقامته .

لا يكاد يختلف منا اثنان فى جدوى التعليم الدينى ، وصقل نفوس الشباب به ، وخطورة الفراغ الدينى فى النفوس ، فما الذى يمنعنا وقد أصبحت أمورنا بأيدينا ، وتخلصنا من نير الاستعمار ودسائسه وأحابيله - من أن نجعل تعليم الدين مادة أساسية ، وأن نعمم دراسته فى المراحل الدراسية كلها ، وأن نقوى من مناهجه ، ونزيد فيها ، وأن نختار لهذه الدراسة المدرس الكفء الصالح ، حتى يمكننا أن نكون شبابا مؤمنين بربهم ، عاملين لأوطانهم ، مخلصين لله فى أعمالهم ، لا يرتشون ولا يدلسون ، ولا يخونون ، ولا يغلون ، ولو أن وازع الدين والأخلاق كان قويا لما كنا سمعنا عن هذه السرقات من مال الدولة الذى هو مال الشعب .

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم

توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

ولكى يفيد التعليم الدينى فى معاهد العلم ويثمر ثمرته يجب أن تحافظ الأسر على القيم الروحية ، والتعاليم الدينية فإذا أخذ الوالدان أنفسهما بالتدين الصحيح والتحلى بالأخلاق الكريمة كان ذلك درسا نافعا ومفيدا للأبناء .

ومن العجيب أن الدارسين لنفسية الشباب فى الغرب دعوا إلى ما دعونا إليه من إحياء معانى التدين فى النفوس ، وإليك ما جاء فى صحيفة الأهرام [1] عن نتائج مؤتمر الأسرة والطفولة الذى عقد فى مدينة « ميونيخ » فى ألمانيا . قالت مندوبة مصر : « لقد تضمن جدول المؤتمر أكثر من فكرة وموضوع تهم الأسرة والشباب ، وأهمها فى رأيى المناقشات والأبحاث التى دارت عن أهمية المحافظة على القيم الروحية فى الأسرة وذلك حتى ينشأ الطفل فى جو أسرى متماسك ، فالأسر هى التى تتكون فيها شخصية الطفل من الناحية الروحية والعقلية ، حيث يتعلم من خلالها الحب ، والتضحية ، والحرية ولقد كان من آثار عدم الاهتمام بالقيم الروحية تفكك الروابط الأسرية فى المجتمعات الصناعية ، حيث ينساق الأفراد أمام التقدم المادى فقط ، بينما مازالت الدول النامية محافظة على تماسكها ، وقوتها .

وقد قال أحد الباحثين : إن الشباب فى العالم أصبح لديه احترام قوى وتقديس للعلم فقط وأهمل الدين ، وذلك نظرا لعدم وجود دراسات دينية ضمن التعليم فى المدارس للشباب كما أثارت مندوبة بريطانيا ظاهرة التدهور الخلقى فى شباب العصر الحديث ، وناشدت الحكومات ، والهيئات أن تعمل على محاربة الكتب والروايات السينمائية التى تتنافى مع الآداب ، وقالت مندوبة إيطاليا : إن هناك قانونا صدر أخيرا فى إيطاليا لمراقبة إعلانات الكتب والروايات التى تعلق بطريقة مثيرة فى الشوارع حيث يراها الصغار ، وقالت : إن جميع الإعلانات تعرض الآن على قاض للموافقة عليها ...

وإذا كانت الأديان تدعو إلى تربية العقائد وتقويم السلوك ، والدعوة إلى الخير والفضائل ففى الذروة من ذلك الدين العام الخالد دين الإسلام الذى ارتضاه الله دينا للناس كافة إذ يقول وصدق الله : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، وصدق المبلغ عن رب العالمين حيث قال صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة نبيه » رواه الحاكم .

محمد محمد أبو شهبة

(١) الأهرام الصادر فى ١٢ / ٩ / ١٩٦٤

طرائف لغوية :

الواو الزائدة فى الأساليب العربية

للأستاذ طه الزينى

قال الله تعالى عن المؤمنين عند دخولهم الجنة : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم » ، وعن أبى الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام حينما أسلما أمرهما إلى الله ورضيا بذبح إسماعيل : « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » ، وقال عن يوسف عليه السلام حين اتفق إخوته على جعله فى غيابة الجب حتى لا يعود إلى أبيه : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » ، وعن يأجوج ومأجوج : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق » ، وقرىء قوله تعالى عن احتجاز يوسف عليه السلام لأخيه : « فلما جهزهم بجهازهم ، وجعل السقاية فى رحل أخيه » ، بزيادة الواو قبل جعل .

وقال امرؤ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن[1] خبت ذى قفاف[2] عقنقل[3]

(١) واد معروف ببلاد العرب .
(٢) الحجارة . (٣) متسع عظيم .

قالت هاتى نولينى تمايلت
على هضيم[1] الكشح[2] ريا المخلخل[3]

وقال الشاعر :

حتى إذا امتلأت بطونكمو
ورأيتمو أبناءكم شبوا
وقلبتمو ظهر المجن[4] لنا
أن اللئيم العاجز الخب[5]

والناظر فى هذه الآيات والأبيات ، يرى أن المعنى مع وجود الواو كالمعنى مع عدمها ، ففى الآية الأولى لو أسقطت الواو فقيل : « فتحت أبوابها » كان المعنى صحيحاً ، ومؤديا للمطلوب وفى الآية الثانية لو قيل : « ناديناه » بدون الواو كان المعنى صحيحا ، ومؤديا للمطلوب كذلك . وفى الآية الثالثة لو قيل : « أوحينا إليه » بدل وأوحينا . كان المعنى صحيحا ومؤدياً للمطلوب كذلك ، وفى الآية الرابعة

(١) ناحلة (٢) الخاصرة
(٣) مكان وضع الخلخال فى الساق و « ريا » معناه ممتلئة
(٤) الترس الذى يدفع به المحارب السلاح عن نفسه .
(٥) الخداع بصيغة المبالغة وهى بفتح الخاء وكسرها .

لو قيل : « اقترب الوعد الحق » بدون واو كان المعنى صحيحا ، ومؤديا للمطلوب أيضا ، وفي بيت امرئ القيس ، والذي بعده لو قيل (انتحى بنا بطن) و (قلبتمو ظهر المجن) كان المعنى صحيحا ، وإذا كان المعنى عند ذكر الحرف ، وعدم ذكره صحيحا ، ومؤديا للغرض منه حمل ذلك على التفكير في كونه زائدا ، فهل هذه الواوات وأمثالها في الأساليب العربية زائدة أو ليست بزائدة ؟

اختلف النحويون في ذلك :

فالبصريون يرون أن الواو أصلية ، وليست بزائدة ، وحجتهم في ذلك : —

أن الحرف وضع لمعنى فلا يجوز جعله زائداً ما أمكن ذلك ، ومعنى الواو عندهم هنا العطف ، ويجعلون جواب (إذا) و (لما) محذوفا في الآيات والأبيات ، فيقولون في الآية الأولى : حتى إذا جاءوها صادفوا الثواب الذي وعدوه ، وفي الثانية : فلما أسلما وتله للجبين كان هناك ما لا يوصف من ألطافه تعالى ، وفي الآية الثالثة : فلما ذهبوا به ، وأجمعوا حفظه الله ، وفي بيت امرئ القيس : فلما أجزنا ساحة الحي حدث ما أتمناه ، وفي البيت الذي بعده : حتى إذا امتلأت بطونكمو ، ورأيتم أبناءكم شبوا ظهر غدركم ، ويزيدون على حجتهم السابقة أن حذف الجواب في الوعد والوعيد أبلغ من ذكره ، والآيات ، والأبيات السابقة مشتملة على الوعد والوعيد .

وذهب الكوفيون والأخفش (١) إلى أن الواو في الأساليب السالفة زائدة ، واستدلوا لمذهبهم بعدم وجود الجواب فيها ، وبأنه لا ضرورة لتقدير الجواب ، وما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إليه ، وبأن المعنى ظاهر كل الظهور على اعتبار الواو زائدة .

وقال بعض النحويين إن الواو للحال ، وقد مقدرة قبلها في الآيات الأربع والتقدير : وقد فتحت أبوابها ، وقد ناديناه ، وقد أوحينا إليه ، وقد اقترب الوعد الحق ، وفي الأبيات الواو عاطفة على محذوف وليست بزائدة ، والتقدير : فلما أجزنا ساحة الحي أجزناها ، وانتحى بنا بطن خبت ؛ وظهر غدركم وقلبتم ، والجواب مقدر على هذا الرأي أيضاً .

وأجاز ابن عصفور زيادة الواو في الشعر فقط كالأبيات السابقة .

ووافق الرضي شارح الكافية البصريين في عدم القول بزيادة الحرف متى أمكن تخريج الكلام على عدم الزيادة فقال ص٣٦٩ ج ٢ من شرح الكافية في قوله تعالى : « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا » ، وهذه

---

(١) نسب ابن يعيش في المفصل رأي الأخفش هنا للبغداديين .

الآية قد استدل بها الأخفش على زيادة ثم ، ولا منع من ارتكاب حذف المعطوف عليه أى ألهمهم الإنابة ، ثم تاب عليهم ، وكل ما جاء من أمثلته فإن أمكن الاعتذار عنه فهو أولى ، وإلا فليحكم بزيادة الحرف) اهـ.

ووافق ابن السراج أيضا البصريين فى عدم زيادة الحرف ، وزاد عليهم بأن منع وجود الزيادة فى كلام العرب جملة ، فقال : ليس فى كلام العرب زائد لأنه تكلم بغير فائدة وما ورد منه فى كلام العرب يحمل على التوكيد .

ووافق ابن جنى ابن السراج فقال : « كل حرف فى كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى .

وبعد سرد آراء النحويين فى الأساليب السابقة أرى : أن البصريين جامدون ، ومؤولون لما لاضرورة لتأويله ، فإن الظاهر فى آية الجنة والله أعلم . كون الفتح جواب إذا ، بدليل الآية الأخرى الواردة فى أهل جهنم ، وإن كانت زيادة الواو فى آية أهل الجنة لمعنى آخر غير العطف ، وسيأتى بيانه ، والفتح هو السبيل إلى الثواب الذى وعدوه ، بل هو جزء منه ولا داعى إلى استبدال الجواب الموجود فى الآية بجواب آخر يماثله فى المعنى ويخالفه فى اللفظ فراراً من زيادة الواو ، وكذلك الآية الثانية آية الفداء الجواب فيها هو النداء ؛ لأنه منع من الذبح وإخبار بالفداء وهو نفس الألطاف التى قدرها البصريون فهى كالسابقة . وكذلك بقية الآيات والأبيات أجوبتها فيها ، ولا داعى إلى تقديرها .

وأما جعل الواو حالية مع تقدير «قد» فهو خلاف الظاهر مع قلة تقديرها فى القرآن بالنسبة لإظهارها ، ومع الحاجة إلى تقدير الجواب وفيه ما تقدم من الاعتراض على رأى البصريين .

وأما جعلها عاطفة على محذوف فالأصل عدم الحذف مع ظهور ركاكة الأسلوب فى تقديرهم فى بيت امرىء القيس (أجزناها وانتحى) .

وتقدير الرضى الجواب فى آية التوبة تغافل عن المعنى ، وما يتطلبه ، وعن الأصل الذى هو عدم الحذف والتقدير ، ولا شك أن المعنى فى آية التوبة ظاهر جداً على أن التوبة هى الجواب ، والأصل « تاب عليهم » بدون « ثم » وإن كان لثم معنى آخر غير العطف سأذكره قريبا ، وأما إلهام الإنابة من الله فقد حصل قبل أن تضيق عليهم الأرض بما رحبت ، وهى لم تضق عليهم إلا بسبب إنابتهم وخوفهم من الله .

وأما تخصيص ابن عصفور الزيادة بالشعر فتحكم لا دليل عليه ، فقد وقعت الزيادة فى القرآن الكريم ، وهو فى أعلى مراتب البلاغة .

بقيت مسألة تتصل بهذا البحث وهى « كيف نقول بزيادة الواو فى الآيات السابقة ، وهل تقع الزيادة فى القرآن ؟ ولبيان ذلك أقول :

١ — المراد بالزائد ما كان زائدا من جهة الإعراب ، لا من جهة المعنى ، فالواو فى قوله تعالى : « وفتحت أبوابها » ليست للعطف

ولكنها تفيد مع زيادتها معنى التوكيد كما قال ابن جنى : إن كل حرف زيد فى كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى ، فكأنه قيل : فتحت أبوابها فتحت أبوابها ، وكذلك بقية الآيات ، ومنها آية التوبة التى زيدت فيها (ثم) .

٣ — اختلف العلماء فى وقوع الزائد فى القرآن : فقليل منهم منعه ، والكثيرون أجازوه ، قال صاحب البرهان فى علوم القرآن فى الجزء الثالث : (وقد اختلف فى وقوع الزائد فى القرآن ، فمنهم من أنكره ، قال الطرطوسى فى العمدة : زعم المبرد وثعلب ألا صلة فى القرآن (أى لا زائد) ، والدهماء من العلماء والفقهاء والمفسرين على إثبات الصلات فى القرآن ، وقد وجد ذلك على وجه لا يسع إنكاره فذكر منه كثيرا) اهـ كلام البرهان

وفى موافقة كثرة العلماء والفقهاء والمفسرين على وجود الزائد فى القرآن إلى ما تقدم من تضعيف مذهب البصريين وغيرهم نصر لمذهب الكوفيين والأخفش ، والله أعلم .

طه الزينى
دكتوراه فى النحو والصرف

(بقية المنشور على صفة ٧١٢)

من أحاسيسنا ، وغير ملتصقة بوجداننا ! .

وليس هناك من أمل سوى أن يميل هؤلاء الشعراء إلى أنفسهم ، وأن يستخرجوا ما بها من لآلئ دون خوف من « رجال الصاغة » ، وأن يدمنوا القرآن ، لا لأن بعض النقاد دعا إلى إدمان قراءة الإنجيل للشعراء أخيراً ، ولكن لأنهم سيجدون ما يعمق تجربتهم بالقرآن .

وليس معنى هذا أنا نريد حبس الشعراء فى الأجواء الإسلامية ، ولكننا فقط ندعوهم إلى « زيارتها » ، من الحدائق التى « سرقوا » إليها ، بل إنا ندعوهم الى أن يحلقوا فى كافة الأجواء الدينية ، وألا ينسوا التحليق على ما فى أنفسهم . . وما فى أنفس قومهم . . وما فى الشرق ! !

على أن يظل الشاعر دائما متذكراً أن عليه أن يحول الدين الى شعر ، لا أن يحول الشعر الى دين .

تلك هى الدعوة التى ندعو إليها ، بعد أن قمنا بزيارة كافة الدواوين المعاصرة ، دون أن تقع أعيننا ونفوسنا على شىء يذكر بالشرق والإسلام ، بينما تدق الأجراس ، فوق رموز الخلاص بالحب ، والخلاص بالموت ، والصلب ، والجلجثة ، والخطيئة .

فما نقوله الآن ليس وليد لحظة عاطفية ، وليس وليد لحظة تعصب لأننا ندعو إلى الانتفاع بكافة الأديان ، ولكنه وليد لحظة علمية ، تشهد عليها عملية الإنتاج الشعرى المعاصر على الصعيد العربى ، ومن هنا نرفع صوتنا إلى الشعراء ثم نقول لهم : « إلى أين ! »

عبده بدوى

حول مقال الإسلام وما يفتى عليه

للأستاذ على البولاقى

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ « عبد الكريم الخطيب » فى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ من مجلة الأزهر — مقالا حاداً صارخا ، وألصق بمن يهاجمهم — وهم علماء الدين جميعاً ، ألقابا لاذعة مثل : « حملة البخور فى محاريب الدين » والذين يعرضون الدين فى كل سوق ، ويبيعونه بكل عرض ، وبأى ثمن » وشمت بهم حيث أفتوا بتحريم بعض الأمور ، لجرفهم تيارها ، ودخلت عليهم من كل باب ونافذة ، واستهزأ بهم حيث وصفهم بأنهم صغار النفوس ومتطفلون ، وأنهم يظنون أنفسهم شيئاً مع أنهم أهون هوانا من « تيم » بل استهزأ بالصدر الأول كله حيث جعلهم أقـــواما لاتتسع نفوسهم لحقيقة الدين ، وإنما تتشكل فى عقولهم أمساخ شائهة مضروبة بالجهل والهوى ، أو مدموغة بالكيد والتضليل .

وأكثر فى مقاله من كلمات — العقل — الإرادة — عقل الإنسان العاقل — إرادة الإنسان المريد — التفكير — الشخصية — الإنسانية — الضمير ، فى عبارات تتزاحم لتزف إلى القراء فكرة زائفة بهيجة المظهر رديئة المخبر من « واردات أوربا » تلقفها مستغربون من مستشرقين وروجها مبشرون استعماريون فى ظل ما روجوه باسم « الأحرار المفكرين » .

ويصوغ الأستاذ كاتب المقال هذه الفكرة فى أساليب شتى ، خلاصتها : أن شئون الحياة وحوادثها يجب أن تترك لعقول الناس وإراداتهم إذ لا علاقة للدين بها ، فلا يفتى الدين فيها أحداً ، وقد مثل لهذه الشئون بالسفور والسينما والتصوير والنحت والتمثيل وألوان الطعام والشراب وأدواتهما والزى وأشكاله .

وهذه دعوى خطيرة لو سلمت له لكان معناها قصر الدين على العقائد والعبادات والأخلاق وبعض المناهى لأن ما عدا هذه الأمور يمكن اعتبارها من شئون الحياة وعلى هذا تلغى من الفقه الإسلامى أبواب المعاملات والأطعمة والأشربة والألبسة والأحوال الشخصية وغيرها ، وتلغى من السنة النبوية جميع الأحاديث التى تتناول بالتفصيل أحكام هذه الأبواب ونحوها ، بل تلغى من القرآن نفسه أحكاما كثيرة كتحريم الربا ، وإيجاب ضرب المرأة الخمار

على جيبها ، وتحريم الخنزير وما أهل لغير الله به ونحو ذلك من شئون الحياة التي يشير إليها الكاتب ، ويرى أن تترك العقول تخطىء تارة وتصيب أخرى ، وألا يزج بالدين فيها ؛ لئلا يخرج منهزما في عراكه معها ، ولاشك أن هذه الفكرة يفرح بها أولئك الذين استبدلوا بالقوانين الشرعية القوانين الوضعية المجتلبة من دول الغرب ، ولو خالفت نصوص كتاب الله وسنة رسوله .

وكأن الأستاذ يريد بهذه الفكرة أن يسلب من الإسلام ميزته الكبرى ، وهى أنه دين جمع بين شئون الدنيا والآخرة ؛ فكان قانوناً شاملا واسعاً صالحاً لكل زمان ومكان مما جعل بعض علماء القانون من غير المسلمين ومن غير العرب يشيد بما للشريعة الإسلامية من تفوق على القوانين الأوربية .

يقول الدكتور « أنريكو أنسابانوا » في كتابه « الإسلام وسياسة الحلفاء » ص ٩٤٦ : إن الإسلام إذا كان محدوداً غير متغير في شكله فإنه مع ذلك يساير ما تقتضيه الظروف ، فهو يستطيع أن يتطور دون أن يتضاءل مع مرور القرون ويحتفظ بكامل حيويته ومرونته ولا يجوز أن تهدم يد الخلافة هذا الصرح المظيم من العلوم الإسلامية ، أو أن تغفله ، أو أن تمسه بسوء ؛ فقد أوجد العالم أرسخ الشرائع ثباتا : الشريعة الإسلامية ، وهى تفوق في كثير من التفاصيل الشرائع الأوربية .

ويقول الأستاذ « بيولا كازيلي » في مجلة « مصر العصرية » السنة الثانية عشرة ص ١٩٥ : « إنه يجب على مصر أن تستمد قانونها من الشريعة الإسلامية ، وهى أكثر اتفاقا من غيرها مع روح البلد القانونية » .

ولعل كثيراً من القراء على ذكر من أن المؤتمر الدولي للقانون المقارن الذي عقد بمدينة لاهاي في أغسطس ١٩٣٧ م قرر أن الشريعة الإسلامية لها ذاتيتها ، ولا تمت إلى القانون الروماني بصلة ، ولا إلى أية شريعة أخرى ، وأن المؤتمر يعتبرها مصدراً رابعاً للقانون المقارن (ومعلوم أن القوانين الثلاثة التي اعتبرت مصادر من قبل هى القوانين الفرنسية والألمانية والانجليزية) .

دعامات الفكرة ومناقشتها :

دعم الأستاذ فكرته بدعامات واهية لاتغنى من الحق شيئا ، بيد أنه صاغها في عبارات فضفاضة تحتوى على تكرار كثير ، ولهذا أكتفى بتلخيص بعض منها مع مناقشته فيما يلي :

١ ـ أن القضايا التي تتحكك بالدين كثيرا ما تؤدى إلى نفرة الناس لأن النفس البشرية بطبيعتها تنفر من كل ما يلقاها على غير الوجه الذي ترقبه منه (ص ٢٨٠) .

وهذه الدعامة أوهى من خيط العنكبوت فإن نفور الناس من أمر يخالف عاداتهم الجارية أو لا يتفق مع أهوائهم وشهواتهم لا يدل على بطلان ذلك الأمر الذي نفروا

منه ، ولقد لقى الرسل الكرام من أقوامهم إنكاراً واستهزاءاً ونفوراً ، فهل منعهم ذلك أن يصدعوا بقولة الحق ؟!

٢ — أن تحكيم الدين فى شئون الحياة كلها يؤدى إلى ضمور الشخصية ، واغتيال ذاتية الإنسان وقتل المعالم الأصيلة فيه (ص٢٨٢).

وهذه الدعامة من نسج الخيال فإن شئون الحياة كما تستفتى جميع أرباب العلوم الطبيعية والطبية والزراعية والصناعية وغيرها ، كلا فيما يختص به ، كذلك تستفتى علماء الدين فيما يختصون به كالحــل والحرمة وموافقة النصوص الشرعية ومخالفتها ، وهــذا يؤدى إلى اتساع أفق الإنسان ، ودعم حياته المادية بحياته الروحية ، فلو صح ما يقوله الأستاذ لوجب إغلاق جميع المدارس والجامعات ، وأن يترك الناشئة ليصلوا بتجاربهم إلى ما وصل إليه الأولون حتى لا تضمر شخصيتهم وهذا خطأ شنيع بلا ريب .

٣ — أنه كما يقال: «القانون للإنسان وليس الإنسان للقانون» . وكما يقول السيد المسيح عليه السلام «إنما السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت» ، كذلك يصح بل يجب أن يقال : «إن الدين للإنسان وليس الإنسان للدين» فما الدين إلا قانون سماوى (ص٢٨٢).

وهذه الدعامة من أوهى الدعامات فأهل القانون أنفسهم يتمسكون إلى نصوصه التى لا يجدون محيصاً عن تنفيذها بعلة أنها تخالف المصلحة أو العدالة فى بعض الظروف.

وقول السيد المسيح: «إنما السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت» ، إن صح فهو إشارة منه إلى نسخ السبت ، وبيان انتهاء حكمه ، فقد كان السبت مقدسا ، ويحرم فيه الصيد ونحوه فلما بعث المسيح عليه السلام ، وقام بعلاج المرضى يوم السبت أنكروا عليه ، فأشار بكلمته إلى أن هذا التقديس قد انتهى ، فأصبح السبت يوما عاديا كسائر الأيام ، فهو الآن للإنسان يقوم فيه بما شاء من المصالح ، وليس الإنسان له ، فلا يمتنع فيه من القيام بأى أمر يريد .

فمن العجب أن يؤخذ من هذين القولين أن الدين للإنسان ، وليس الإنسان للدين ، وقد جاء فى كلام الكاتب مايستفاد منه المراد من الشطر الثانى من هذه القولة وهو الايترك الناس سلطان الدين يملك وجودهم ، ويشل إرادتهم (ص ٢٨١) ، ومعلوم أن الدين ليست له هذه الصفة ، فالإنسان مأمور بأن يتقى الله ما استطاع ، ولا يتوقف عن امتثال الأوامر ولو لم يعلم الحكمة فى بعضها ـ مادام مستطيعا ـ فإن التكليف قد يكون للابتلاء ، ولو أخذ برأى الكاتب لساغ للناس أن يمتنعوا عن التيمم بالصعيد استقذارا له ، إلى غير ذلك مما لا يدرى كثير منهم حكمة مشروعيته ، وقد قال تعالى:

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً » (الأحزاب / ٣٦) .

٤ ـ أن المسلم مطالب حين ينزل على أمر النبي أن يصحب معه عقله وإرادته ليكون لتسليمه بما سلم به مفهوم عنده وأثر عامل في كيانه ليقوم لهذا الأمر بما ينبغي له من احتفاء ووفاء ، وموقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ في صلح الحديبية ـ يشهد لذلك (٢٨٣) .

وهذه مغالطة ، فالمسلم مطالب بأن يصحب معه عقله ؛ ليفهم ما كلف به وليمتثله بقدر ما يستطيع ، لا ليفرق بين ما هو من شأن الآخرة ، فيتمثل فيه الأوامر ، وما هو من شأن الدنيا فيرده ويزعم أن عقله كفيل بمعرفة ما هو أصلح له ، فالتفرقة تخالف صريح القرآن كما في الآية السابقة .

واستشهاده بموقف عمر ـ رضي الله عنه ـ في صلح الحديبية مردود ، فإن من يتبع القصة يعلم أن عمر رضي الله عنه لم يخالف في أمر ولا نهي ؛ بل حينما سأل عن الحكمة في قبول الشروط القديمة أخبر بأن هذا أمر من الله فسلم تسليما .

وعلى الرغم من ذلك فإنه رضي الله عنه رأى أن ما صنعه في هذا اليوم كان من العظائم ولهذا قال : مازلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون هذا خيرا » (السيرة الحلبية جـ ٣/٢٧) فهل يقتدي بعمر في أمر استغفر الله منه ، وقام بأداء طاعات كثيرة رجاء تكفيره ؟ ولم لا يقتدي بأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في موقفه من هذا الصلح مع أن عمر نفسه قال : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الناس لرجح إيمان أبي بكر » .

بقي أن يقال له : مامعنى اصطحاب الإنسان إرادته ؟ إن الكاتب يقصد بهذه الكلمة ـ كما يتبين من سياق المقال ـ أن يكون حرا مختارا راضيا ، وهذا ينافي الآية التي ذكرناها والتي تنفي الخيرة ، ويخالف أيضا لسيرة الأنبياء والصديقين وجميع الصالحين .

فهذا سيدنا إسماعيل يقول لأبيه إبراهيم عليهما السلام « يا أبت افعل ما تؤمر » حين قال « إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ » فلم ير إسماعيل لنفسه خيرة في هذا الأمر وبادر بامتثاله وصبر على هذا الابتلاء العظيم . وقد نعى الله على من لم يبادر بامتثال الأوامر الإلهية ، ولو كانت شاقة على النفس مكروهة لها قال تعالى : ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا » .

فما موقف الكاتب إذا أمره الدين بقتل نفسه

أو الاستسلام لمن يقتله ؟ أيصطحب معه أرادته فيقول : « سمعنا وعصينا » أم يصبر ويقول : « سمعنا وأطعنا » ؟

٥ - أن الدين - والإسلام خاصة - خلى بين الناس ، وبين الحياة يعالجون شئونها بما عندهم من ذكاء واستعداد ، وليس للدين فى هذا المجال إلا قولة واحدة : هى أن يتحرك نشاط الناس فى غير بغى ولا عدوان ، وعن هذا الإيمان بحق الإنسان فى الانتفاع الكامل بعقله وخبراته وتجاربه كان قول الرسول الكريم لصحابته من أهل المدينة : «أنتم أعلم بشئون دنياكم » ، وكان صلوات الله وسلامه عليه قد أشار عليهم بتأبير النخل على صورة رآها ، فامتثلوا أمره فيه ، وكان ذلك جاريا على غير عادتهم ، وكانت نتيجة هذا أن جاء الثمر دون ما اعتادوا وفرة وجودة (ص ٢٨٥) .

ويقال : إن سلمنا أن دينا من الأديان السابقة خلى بين الناس وشئون الحياة ، فلن نسلم أن الإسلام خلى بينهم وبينها فإن الإسلام تحدث عنها جميعا ، وجاء فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، نصوص فى البيع والإجارة وسائر المعاملات ، والأكل والشرب والنكاح والطلاق ، والجنايات إلى غير ذلك ، مما جعل أحد اليهود يتعجب ويقول لأحد الصحابة ما معناه : « إن نبيكم يعلمكم كل شىء حتى الجلوس لقضاء الحاجة » .

وما قاله من : إنه ليس للدين فى هذا المجال إلا قولة واحدة ، هى أن يتحرك نشاط الناس فى غير بغى ولا عدوان : « هو إنكار صارخ لصرائح الكتاب والسنة الناطقة بالتفصيلات العديدة فى أكثر شئون الحياة » .

واستدلاله على دعواه بحديث النخل مغالطة صريحة ، ولفظ الحديث هكذا (أنتم أعلم بأمر دنياكم) وليس فيه « بشئون دنياكم » كما فى المقال ولا « بأمور دنياكم » كما فى كتاب « الإسلام وأصول الحكم » وليس بصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم أشار بتأبير النخل على صورة رآها كما زعم الأستاذ ، وليس بصحيح أيضا أنهم امتثلوا أمره ، فليس فى الحديث أمر ولا نهى ، وكل ما فيه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما أظن يغنى ذلك شيئا » ، يعنى أنه حينما مر على قوم يؤبرون النخل بنقل طلع الذكر للأنثى ولم يكن يعلم ذلك من قبل ، قال لهم : ما أظن أن ذلك التأبير يزيد فى جودة الثمرة . فهذا من النبى إخبار عما جال بخاطره فى شأن من شئون الحياة ، وقد صرح فيه بالظن الذى يدل على أنه ليس وحيا ، وليس فيه أمر ولا نهى ولا مشورة ، غير أن القوم حينما سمعوا هذه القولة تركوا التأبير ، فكانت النتيجة أن جاء النخل بثمر ردىء ، وليس هذا امتثالا لأمر ولا اتباعا لمشورة ، والذى يظهر أنهم

لم يجربوا ترك التأبير من قبل ؛ فخطر ببالهم أن يجربوه حينما سمعوا هذا القول من الرسول صلى الله عليه وسلم، فربما صادف ظنه الواقع ، فلما جاء الثمر رديئا علموا أن الظن لم يوافق الواقع ، واستفادوا بهذا فائدتين :

الأولى : أنهم علموا بالتجربة شيئا لم يكونوا علموا به من قبل ، والتجربة أصل جميع الاختراعات والاستكشافات .

الثانية : أنهم علموا أن ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الظن ، لا يلزم أن يتفق مع الواقع ؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل » . (انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٥ / ١١٦) .

وهذا يرشدنا إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال في شئون الحياة قولا عن الوحي وجب الأخذ به خلافا لما قرره وكرره كاتب المقال من أن الاسلام خلى بين الناس والحياة يعالجون شئونها .

على أن قوله صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بأمر دنياكم » يفيد صراحة ـ أن المقصود بأمر الدنيا الأمر الذي تعلق به العلم . وهو الجزم المطابق للواقع عن دليل ، وبيان هذا أن أمر الدنيا الذي ورد عليه الحديث هو كون التأبير سببا لجودة الثمر ، وهذه السببية متيقنة معلومة بجزوم بها مطابقة للوقع مأخوذة عن دليل وهو المشاهدة والتكرار فعلا وتركا فإن سلمنا أن شأن الدنيا الذي علم عن دليل لا يتدخل فيه الدين فكيف نسلم أن الدين لا يتدخل في شئون الدنيا التقليدية التي لم يدل عليها تكرار ، ولا مشاهدة ولا برهان كالأمثلة التي هي منشأ ثوره الكاتب على علماء الدين وهي السفور وما جاء عن الغرب من السينما والراديو والتمثيل والنحت والتصوير وغيرها ؟ فهذه الأمور إذا أريد التعبير عنها فإنما يعبر بمفردات هي موضوعات صالحة للحكم عليها ؛ بأنها محرمة أو غير محرمة ولا مناص من أحد هذين الحكمين ، وكلاهما من الدين ، فإن العقل لا يمكنه أن يهتدي إلى أن هذا الأمر محرم يستحق فاعله العقاب من الله تعالى ، أو غير محرم فلا يستحق ذلك .

هذا وقد ساق الكاتب حديث « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه » ولم يرد بهذا اللفظ في كتاب من كتب الأحاديث وصحته « إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه » (أخرجه ابن ماجة عن ابن عباس . برفعه ، وكذا ابن حبان وصححه والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين)

وقال الأستاذ في تعليقه على الحديث : « فما أسقط الإسلام هذه الأعمال والأقوال التي

تقع عن خطأ أو سهو أو إكراه ، وما أهدر آثارها ، إلا لأنها وقعت على غير إرادة الإنسان ، أو لأنها جاءت بعيدة عن مشيئته ، وعلى غير تقديره وتفكيره (ص٢٨٣) ويقال له : إن الإسلام إنما أسقط المؤاخذة في الآخرة على هذه الأعمال ، ولم يهدر آثارها كما يزعم ويكفي أن نشير إلى الآية الكريمة « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » .. الآية .

* * *

وبعد ، ففي المقال خلط بين الأحوال وخلط بين المفاهيم ، وتناقض واعتراف بديانات غير سماوية ، واعتراف بأن لها رسلا ، وفيه كذلك إباحة للردة ، وإنكار الدين لمن يطلع على اختلاف المفتين فيقول : أي دين هذا الذي يأتي بالمتناقضات ؟ وفيه أيضا قول غير لائق في حق الأنبياء عليهم السلام حيث قرر أن الإنسان ليس له أن ينزل عن عقله وإرادته ولا لنبي ، وفي هذا تجريد للنبي عن العصمة وتحريض لأتباعه على العصيان ، إلى غير ذلك من الهنات التي لو ذهبت أتتبعها وأتعقبها بالمناقشة لما كفته منها مقالة ولا مقالتان .

هذا أدعها لفطنة القارىء الكريم بعد أن كشفت له عن فكرة الكاتب الأساسية التي سبقه إليها مؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » منذ تسعة وثلاثين عاما وليس من العسير على من يتتبع الأحداث التاريخية أن يعلم أنها مستقاة من الخصومات الحادة التي كانت بين الكنيسة وأعدائها في القرون الوسطى ، والتي انتهت بردتهم وفصلهم العلم عن الدين ، فإن من الحجج التي تذرعوا بها أن رجال الكنيسة تدخلوا باسم الدين في شئون الدنيا مع أن المسيح عليه السلام لم يجيء لعمارتها ولا للبحث في شئونها بل قال كما نقل عنه : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فمن العجب أن تنقل هذه الفكرة من المسيحية إلى الإسلام الذي يمتاز بأنه دين شريعة عامة شاملة لأمور الدنيا والآخرة .

وقد ختم الكاتب مقاله بقوله « وإن يكن منكم في هذا المقام خير تقدمونه لهم فهو الصمت ، والصمت الطويل » وكان أولى به أن ينصح نفسه أولا بهذه النصيحة فلا يستهزىء بخيار الأمة من أجل فكرة تخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع المسلمين وما هو معلوم من الدين الإسلامي بالضرورة فليستغفر الله وليتذكر قوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

وأختم مقالي هذا بقوله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » رواه الشيخان .

علي حسن البولاقي

التراث الإسلامي والحضارة الأوروبية

للدكتور محمد مختار القاضي

دعاني إلى كتابة هذا المقال الموجز أمر أراني دائم التفكير فيه لأنه موجب للحيرة البالغة ، والجواب عنه قد يفتح باب العلاج ، ولاشك فإن الأمر الذى أنا بصدده يحمل علة ليس من السهل الكشف عنها ، وبالتالى ليس من السهل برؤها ، فهل أنا مستطيع فى هذه العجالة أن أكشف عن هذه العلة وأصف لها علاجا مناسبا ؟ أنا أدعى ذلك ، ولكنى لا أستطيع أن أظفر بما يعقبه الإجماع على صحة هذه الدعوى .

أما هذا الأمر أو هذه العلة فهو ذلك التناقض الوضح بين تلك العظمة الخالده والمجد الشامخ الذى جاء به الإسلام للعالم فى العصور الوسطى وبين ما آل إليه حال المسلمين فى العصر الحديث . فالعالم الغربى لا ينظر إلى المسلمين نظرة كريمة ، ولا يرى فى بلاد المسلمين إلا أنها مزارع وحقول تمده بالطعام والشراب والمواد الأولية اللازمة للصناعة . وهو لا يريدها مجانا أو على الأقل بثمن بخس يغبن فيه أصحابها غبنا فاحشا ، وإذا كان المسلمون سادة هذا العالم فى العصور الوسطى .

وكان الدين الإسلامى هو الدين الأوحد الذى لم يداخله الزيف والدين الكامل الذى شرع لكل أمور الدنيا ، ولزوم القصد بين الشدة واللين ، وحض على الأخذ بأساليب العلم ، وصنوف المعرفة ، إذا كانت هذه صفات الدين الإسلامى فالمنطق يقضى بوجوب ارتفاع شأن المسلمين فى كافة العصور ، ولكن الذى نراه أن المسلمين تخلفوا عن ركب الحضارة ، فهل هذا صحيح حقا ؟ ، وما هى أسبابه وما هى طرق علاجه ؟ : هذا ما أديم التفكير فيه ، وأنا الآن أفضى لك بما وصلت إليه بعد طول التفكير والتأمل .

لقد انتهيت وأنا أحلل عناصر الحضارة الإسلامية التى بلغت الذروة فى العصور الوسطى إلى أن هذه الحضارة كانت تقوم على نوعين من العلوم : أولهما العلوم الطبيعية ، ويدخل فيها الكيمياء والطبيعة والهندسة والطب ، والثانى علوم اجتماعية كعلم

الأخلاق والشريعة والأخلاق والاقتصاد السياسى .

وقد برز المسلمون فى العصور الوسطى فى كافة هذه العلوم بنوعيها. فأما العلوم الطبيعية فقد كان مركز الإشعاع الإسلامى لها فى الأندلس وبخاصة فى مدينة طليطلة حيث كان يهبط إليها المترجمون من كافة أنحاء أوروبا وقد أصبحت هذه المدينة بعد أن استولى عليها ألفونسو السادس عام ١٠٨٥ المركز الذى انتشرت منه الثقافة العربية إلى نواحى أسبانيا وأوروبا . وخلال حكم ألفونسو السابع (١١٢٦ - ١١٥٧) لجأ إليها نفر من اليهود ناجين بأنفسهم من اضطهاد أول خلفاء الموحدين لهم ، عبد المؤمن بن على ، وتولى زعامة التراجمة الأسقف (رايموندو) وشهر منهم (دومينيكوس جوند يسالفى) و(جوندا ليز) و(يوحنا بن داود الأسبانى)، وكان يهوديا ثم تنصر ، (وابن جبرول) ، و (جيراردو القرمونى) و (ميكل سكوت) الإنجليزى ، و(أندوبا) اليهودى و(هرمان) الألمانى وغيرهم . وكان المترجمون من اليهود ، ومعظمهم من الأندلس يقومون بترجمة الآثار الإسلامية إلى العبرية ثم ينقل غيرهم النص العربى إلى لغته الأصليه ، ذلك بأن هؤلاء اليهود بحكم إقامتهم فى الأندلس كانوا يجيدون اللغة العربية إلى جانب العبرية وكان فى أوربا كثيرون يجيدون العبرية إجاده تامة .

لقد هرع إلى مدينة طليطلة هؤلاء المترجمون من الإنجليز والألمان والطليان والفرنسيين واليهود لينقلوا إلى بلادهم كنوز المسلمين فى الهندسة والطبيعة والفلسفة والطب وفى التاريخ الطبيعى . وكذلك فعل هؤلاء الغربيون فى جزيرة صقلية التى كانت تزهو بالعلوم الإسلامية الرفيعة . وما أن تسلم الغربيون هذا التراث الإسلامى المجيد حتى أخذوا يعملون فيه عقولهم ويطورونه تطويرا سريعاً ، وقد ساعدهم على ذلك ما كانوا يرونه أو يسمعون به من آثار المدينة الإسلامية فى كل البلاد التى فتحها المسلمون ، وكذلك انتشار المسلمين فى كافة بقاع الأرض سواء فى الصين والهند أم فى روسيا وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا وجزر البحر الأبيض المتوسط ، فقد كانت أضواء المدينة الإسلامية تبهر الناظرين ، وكانت شهرتها تقرع أسماع هؤلاء الأوروبيين الذين تمنوا أن يكونوا فى مستوى المسلمين ، ولكن مفتاح الحضارة لم يكن بأيديهم حتى استله الأسبان من أمراء الأندلس المسلمين وطوفوا به فى أنحاء أوربا .

هذا ما فعله الأوروبيون بالعلوم الطبيعية حيث هذبوها وتقدموا بها حتى دانت لهم

الأرض ، وظنوا أنهم قادرون عليها ، ثم بدأوا يغزون السماء ، وظنوا أيضا أنهم قادرون عليها وقد أطمعهم فى ذلك أنهم أنطقوا الحديد وتقلوا الصور والنغم عبر البحار وأخضعوا الذرة والكهرباء ، وبالجملة تقدموا بالعلوم الطبيعية التى تلقوها عن الأساتذة المسلمين ، ثم زادوا عليها وتصرفوا فى فنونها .

ولكن التعصب الدينى حال بين الأوربيين وبين العلوم الاجتماعية الإسلامية حيلولة تامة فى بعض الأحوال ، وتكاد تكون كذلك فى بعض الأحوال ، الأخرى فالمبادىء الخلقية التى جاء بها الاسلام لم يأخذوا شيئا منها وأخذتهم العزة بالإثم ، ذلك بأن الأخلاق مرتبطة عند المسلمين بالدين ، عكس العلوم الطبيعية ، لا يرتبط بحثها بالدين .

وكذلك لم يأخذوا بالعلوم الشرعية الأخرى كنظام المعاملات والزواج والطلاق والحدود وغيرها فلقد عز على هؤلاء المسيحين أن يأخذوا شيئا من غير رؤسائهم الدينيين ، وكيف يأخذون بتعاليم الاسلام فى الأخلاق والقانون والعلوم الاجتماعية الأخرى وهم لا يزالون يذكرون تلك الهزائم التى نزلت بملوكهم فى الحروب الصليبية على يد الأمراء المسلمين ، لا بأس إذن بأن يفيدوا من العلوم الطبيعية الحرة وينبذوا فى نفس الوقت العلوم المنبثقة من القرآن والسنة ، وكيف يفعلون ذلك ولو فعلوه لاعتبروا مسلمين من حيث لا يشعرون ؟ ! .

ولقد صادف عهد النهضة الأوربية انحلالا خلقيا متعدد الجوانب ، والأسباب فى البلاد الأوربية التى تدين بتعاليم المسيحية ، وإذا كان الدين المسيحى الأصيل الذى جاء به عيسى عليه السلام دينا قويما يستند إلى مبادىء عتيدة ، إلا أن البابوات ظلوا يتسلطون على رعاياهم باسم السماء ، ويحكمون الناس بأحط أنواع الغرائز البشرية طوال العصور الوسطى فهم الذين كانوا يبيعون صكوك الغفران لعباد الله ، وهم الذين كانوا يجردون سيف الحرمان على هؤلاء المستضعفين فى الأرض فلا يدخل المحروم منهم أرض الجنة ، ولا يعرف ريحها ، وهم الذين جعلوا من أنفسهم طبقة ممتازة تعلو على طبقة المساكين ، وإن لم تتعال عن استغلالهم .

وإذا كانت هذه المعتقدات الزائفة قد ذهبت بكثير من غياهبها شمس الحرية الإسلامية التى انبثقت من الأندلس وغير الأندلس ، فأن كثيرا من المبادىء اللاخلقية بقيت ، بل وازدادت شدة . لقد قام مارتن لوثر بتحرير المعتقدات الدينية من صكوك الغفران ، وقرارات الحرمان متأثرا بالحرية

الإسلامية التى نشرت فى سماء أوروبا ، فإن (ماكيافلى) ضرب فى كتابه الأمير أسوأ مثل للأخلاق الإنسانية وخاصة فى العلاقات الدولية .

ولقد زاد الطين بلة أن الأوربيين فى سبيل الوصول إلى التقدم العلمى لم يبالوا بالتضحية بأى مبدأ من المبادىء الخلقية فى سبيل هذا التقدم فجندوا نساءهم مع رجالهم ، وأصبح الزوج عندهم مجرد وسيلة لإنجاب الأطفال وقد أدى ذلك إلى انحلال الأسرة انحلالا غريباً ، وإذا كانت مظاهر هذا الانحلال لا تظهر لكثير من الناس فذلك لسببين :

الأول : انتشار التعليم عندهم ، فإن التعليم يخفف من مضاعفات الأمراض الاجتماعية .

والثانى الثروة التى هبطت على الأوربيين من إفريقيا وآسيا وأمريكا . ومع ذلك فإن الحروب المتكررة التى مرت بها أوربا كحرب الثلاثين ، وحروب السبعين والحروب العالمية الأولى والثانية ، كل أولئك يدل على أن المكيافيلية تغلغلت فى الأخلاق الأوربية تغلغلا ينذر العالم بفناء قريب ، وبعد أن كانت العلوم الطبيعية بعيدة التأثر والتأثير على الأخلاق أصبحت هذه العلوم وسيلة من وسائل إنسان الأخلاق .

هذه هى حال الأوربيين قريبا من نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث ، وأنا لا أتطوع بهذا الاستنتاج ولكنه يشهد عليه شيخ أدباء فرنسا فى القرن الثامن عشر وهو جان جاك روسو ، كتب هذا السياسى الأديب بحثين : أولهما عام ١٧٥٠ تحت عنوان « هل أدى تقدم العلوم والفنون إلى تقويم الأخلاق ؟ » ، والثانى عام ١٧٥٤ وعنوانه : « الأسس التى يقوم عليها عدم المساواة بين الناس » وقد قدم هذين البحثين إلى جامعة ديجون وانتهى فيهما إلى النتيجة الآتية ، وهى أنه على الرغم من تقدم العلوم والفنون ازدادت الأخلاق فساداً ، أما حال المسلمين فقد كانت عجبا ، فعندما سلموا خلفاءهم الغرب كانت حالتهم السياسية قد تدهورت تدهوراً ملحوظا ، وسقط آخر معاقلهم فى الأندلس فى نهاية القرن الخامس عشر .

وإذا كان المسلمون قد بقوا فى الأندلس بعد سقوط دولتهم طوال القرن السادس عشر ، فإن بقاءهم فيها كان محل اضطهاد من المسيحيين مثله تماما مثل الاضطهاد الذى يعانيه العرب الذين بقوا فى إسرائيل بعد استيلاء اليهود فى عصرنا هذا ، ولم يأت أول القرن السابع عشر حتى طرد المسلمون من الأندلس بطريقة لا يقرها دين سماوى ، ولا وثنى ، فأغرق منهم

ما يربو على نصف مليون بين رجل وامرأة وطفل ، وأحرقت المراكب التى كانت تقلهم إلى شمال إفريقيا . ومع أن الأتراك كانوا قد غزوا أوروبا من الشرق وفتحوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ ثم توسعوا فى بداية القرن السادس عشر فأخضعوا المجر ، ووصلوا إلى فيينا ، وغزوا إفريقيا من الغرب واستولوا على الجزائر منذ القرن الخامس عشر ، وتونس فى القرن السادس عشر ، وكان فى مكنتهم أن يمدوا يد المساعدة إلى الدويلات الإسلامية المتحضرة فى الأندلس ويردوا للمسلمين كرامتهم إلا أنهم لم يفعلوا ذلك ، ولم يتقدموا لنصرة إخوانهم المسلمين الذين اضطهدوا فى الأندلس بعد سقوطها فى يد ملوك الأسبان ، ولو فعل الأتراك ذلك لتغير وجه التاريخ .

ومن الغريب أن أول العناصر التى بدأت فى هدم وحدة الأمة الإسلامية أيام الدولة العباسية كان عنصر الترك والشراكسة ، وكان عملهم فى هذا إيجابياً نشيطا فلما احتيج إلى نشاطهم فى محنة الأندلس اتخذوا لأنفسهم موقفا سلبيا خاملا . ولقد صادف الانحطاط السياسى للدولة الإسلامية نفس الحقبة التى بدأت أوروبا ترفع فيها رأسها . ولكن هذا الانحطاط السياسى لم يذهب بالتراث الإسلامى المكتسب فقد حافظوا عليه وعلى غيره من مخلفات الإسلام باعتبار هذه العلوم وحدة لا تنقسم ، وأخذ علماء المسلمين ، وخاصة فى الجامع الأزهر يدرسون فلسفة ابن رشد إلى جانب علم التوحيد ، وفقه القرآن ، والسنة ، ومنطق رفوفوريوس فى كتابه إيساغوجى ، وما عليه من تعليقات المناطقة المسلمين ، إلى جانب السير والمغازى ، وكذلك الفلك وغيره من العلوم الطبيعية .

ظل المسلمون محافظين على تراثهم العلمى ولكن مستوى هذا التراث لم يتقدم ، لأن الأتراك الذين تسلطوا على العالم الإسلامى لم يشاءوا ذلك بسبب عدم ميلهم الطبيعى للعلوم الطبيعية . ويكفيك دليلا ، أنه فيما عدا الفارابى الذى يقال : إنه من أصل تركى لم يضف الأتراك سطراً واحدا فى الحضارة الإسلامية . ومع ذلك فإن إخلاص الأتراك لدينهم الإسلامى كان سببا من الأسباب التى حفظت العلوم الدينية الإسلامية على ما هى عليه إلى أوائل القرن العشرين .

غزا الأتراك أوربا وبقوا فيها خمسة قرون وفى القرن التاسع عشر بدأ الأوربيون يؤلبون الدويلات الإسلامية على تركيا شيئا فشيئا كما فعلوا فى شمال أفريقيا .

ولم ينتصف القرن العشرون حتى صارت الإمبراطورية التركية وما تضم من ولايات

ملكا لانجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا والبرتغال وغيرها من دول أوربا .

هنا أبصر المسلمون أضواء أوربا تسطع في أراضيهم فأعجبوا بها كما أعجب الأوربيون أنفسهم بأضواء المدنية الإسلامية إبان الحروب الصليبية .

وإذن فقد رأوا التاريخ يعيد نفسه ، كما يقول أرسطو ، غير أن هنالك فارقا واحدا ، وإن كان جوهرياً فالأوربيون عندما أخذوا مدنية الإسلام في العلوم الطبيعية رفضوا أن يأخذوا مبادىء الأخلاق الإسلامية لاعتقادهم أنها تعاليم بنيت على القرآن ، وهم لا يدينون به ، والحديث وهم من منكريه .

أما نحن فلم نكن كذلك ، لقد قلدناهم تقليد الأعمى في كل مناحي حياتهم ، لقد أخذنا عنهم ما أضافوه إلى تراثنا في العلوم الطبيعية ، وأخذنا كذلك عاداتهم السيئة التي لا تتفق وتعاليم الإسلام ، بل ولا تعاليم المسيحية الأصلية ، لقد أخذنا عنهم الراديو والتليفون والتلفزيون والقطار والطائرة وهي من وسائل المدنية حقا لأنها تيسر على الإنسان مشقة حياته في حله وترحاله ، ولكننا أخذنا كذلك الرقص والخمر والميسر وأخذنا ما أعتقد أنه سبب من أسباب النقمة الإلهية علينا ألا وهو الشريعة الوضعية الأوربية ، وهم الذين رفضوا شريعتنا وهي شريعة الله التي لم يدخلها زيف ، ولا شبهة ولا تحريف ، فهذا نابليون بونابرت الذي انتهك حرمة هذه الدولة الإسلامية ومسجدها العظيم « الأزهر » والذي أخرج من مصر هو وجنوده وحلفاؤه مذمومين مدحورين ، نابليون هذا لا يحكم مصر ويحكم طائفة أخرى من الدول العربية ، يحكمهم إلى يومنا هذا بقانون وهو قانون على ما أعرف غير صالح حتى في فرنسا ذاتها ، لأنه كان سببا في انحلالها من الناحية الاجتماعية ، فهل لنا من رجعة لاستخلاص مدنيتنا الخالصة من الشوائب التي ألصقت بها في عهود الاستعمار البغيضة ، لقد كنا في الماضي مضطرين إلى السكوت وخفض الرأس أمام عواصف أوربا ، أما الآن فلم يعد لنا عذر بعد طرد المستعمرين وأخذهم بالنواصي والإقدام ، وبعد أن أخذت القومية العربية تبرز من جديد ولكن هذه القومية لن تصفو من شوائبها إلا إذا خلصت من سموم المدنية الأوربية . فإن لم نفعل ظللنا في نظر الغرب مقلدين وظلوا أئمة ينظرون إلينا نظرة غير جديرة بالاحترام ، فهل نحن فاعلون ؟ أرجو أن يكون ذلك وإن كان الأمل لا يزال بعيدا ؟

دكتور محمد مختار القاضي
دكتوراه في الحقوق

الإقليمية في الأدب

للأستاذ محمد كامل الفقي

نعني بإقليمية الأدب أن ينم الأدب في إقليم ما ، عن طابع خاص به ، وسمة مميزة له ، وخصائص تفرده عما سواه ... من حيث لفظه ومعناه ، وأسلوبه وخياله ، ووجهة الأديب الخاضعة لأحوال في الإقليم وملابسات تهيأت له دون غيره ، من ظروف الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ومن بسط كف الحاكم حينا ، أو جهورها وشحها حينا آخر .

وليس من شك في أن الأديب مرآة أهله واللسان المعبر عن حس قومه وشعورهم ، والشاعر بوجه أخص هو المترجم الدقيق لعواطف الناس وأحلامهم ، المستيقظ دائما لما يجرى فى نطاق أمته ، المستبطن كثيراً من رغائبهم ونوازعهم ، الذى يشرح فيما يشبه الإلهام ، ماخفى من المعانى ، ومادق من الأفهام .

ولأمر ما جعلوا لكل شاعر شيطانا أو فرضوه ، فهو يوسوس إليه من خفاياه ، ويتدسس إليه بسره ونجواه . فإذا هو مخصوص بفرط من العلم ، ومزيد من الحس ، وفيض من الصور البديعة . لا يدركها إلا الأذكياء والبصراء بأحوال الأمم ، العلماء بما يبنى على المقدمات من نتائج ، وبما تستهدفه كل خاطرة فردية أو جماعية من معانى الخير والشر جميعاً .

والذين يعيشون فى جو الأدب ، ويتابعون أحوال الأمم المنطبعة فى نفوس الأدباء المكابدين لأحوال الشعوب وقضاياهم السياسية وما ترسمه فى ضمائرهم ، يعرفون حق المعرفة أن الأدباء يحيون فى هذه البيئات منفعلين بها . متأثرين بشتى ظروفها . ثم آثارهم الأدبية فى كلامهم المنثور أو المنظوم عن حياة هذه الشعوب واضحة ناطقة ، حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ لهؤلاء الأدباء ، أنك لا تسمع الحوادث بل تبصرها ، ولا تقرأ خبر الأمم بل تكابدها وتشاهدها .

وليس لهذا الكلام من تفسير واضح ، إلا أن الأدباء ـ وبخاصة الشعراء ـ متأثرون حتما بالإقليم الذى غذوا بطعامه ، وارتووا من مائه ، ولقوا فيه من رفد الخليفة أو الوالى ريا ، أو عانوا من قبضهما وغل يديهما ما عانوا .

ولا يكون من الوهم أن الأديب الألمعى ، أو الشاعر اللماح ، تنطق فى نفسه صورة الإقليم ، وفيها سمات وملامح وقسمات ، فإذا لوى عنه عنانه إلى قطر آخر فعاش فى ربوعه زمنا ، جدت فى خواطره سمات وملامح وقسمات . وكان له فى حاله الأولى تعبير ناطق معبر ، يفصح عن شخصيته وشخصية إقليمه ، ثم كان له فى حاله الثانية تعبير ناطق معبر ، يفصح عن شخصيته وشخصية إقليمه .

ولقد كان الشعراء والأدباء قبل تقسيم المملكة الإسلامية فى العصر العباسى ، وتزايل أطرافها ، وتوزع سلطانها ، يعيشون فى إقليم واحد ، بعيد الأطراف ، فسيح الأرجاء ، عاصمته واحدة هى بغداد ، واليد التى تطعم وتسق واحدة وهى يد الخليفة .

فالملابسات التى تغمر المملكة واحدة أو متقاربة . وخصائص السلطان واحدة ، لأنه سلطان واحد يبسط ظله على الأرجاء جميعا ، فالأدباء والشعراء يصدرون عن ورد ، ويحتسون من كأس . ويرى كل بعينه مثل ما يرى الآخر بعينه .

وإذن فلا مجال لتفاوت فى حس ، ولا سبيل إلى إختلاف فى مشرب ، فالجميع أشباه فى النعمة والبؤس ، وأمثال فى الرضا والغضب وليس بين هؤلاء وأولئك من فرق إلا قدر ما بين الحس والحس ، والجودة والقبح ، والسبق والتخلف ، وكم القناعة والطموح .

وبهذه المثابة كان روح الشعر والأدب واحدا . وطابع الحياة الأدبية على نسق متفق أو متقارب .

ثم كان للبيئة الواسعة المدى ، الفسيحة الأنحاء ، المتميزة بطابع خاص دافع للشاعر موح إليه ، أثرها الواضح فى طبع صور فى إنتاجه الأدبى لا يشق على الفطن الذواق أن يهتدى إليها ، ويجتلى خواصها وظواهرها .

فليس الشعراء الذين عاشوا فى الحياة الجاهلية ومشوا على الرمال وامتطوا ظهور الجمال . وانتجعوا الكلأ . وخاضوا غمار الحروب . وكان لهم من المغامرات والمنافرات والعصبية والجاهلية ما كان ، ليس هؤلاء مثل الشعراء الذين عاشوا فى الحياة العباسية . وفتحوا على الحضارة أعينهم وكرعوا مع الخلفاء والأمراء من اللذائذ والترف . وغنوا وطربوا . وأيسروا من الشعر وكانوا ملوكا له وبه .

وليست بيئة الذين وصفوا الوحش والجمل والخيل والطير . والجبل والسهل . والحرب والسلم . كالشعراء المحدثين الذين أشرقت فى أعينهم مظاهر من الحضارة ، والعلم الحديث لم تكد تخطر على بال الأولين فاذا هم يصفون الطائرة والدبابة والصاروخ والمذياع . وكل طارق جديد .

لقد كان الأدباء والشعراء فى ظل المملكة الإسلامية الموحدة خاضعين لحكم عربى بحت فى العصر الأموى ، وكانت الدولة عربية خالصة ، يحوطها الأمويون بسياج متين ، فلم يسمحوا لدخيل أن يقتحم صفوفهم ، وأنفوا أن يتزوج المولى على إسلامه من عربية ، ومن تزوجها لجزاؤه أن تطلق منه ، وأن يلق الجلد عقوبة ونكالا ... ومن ثم لم ينفذ إلى الأفق الأدبى دخيل من فرس أو روم أو ترك أو زنج ، وبقى المحيط العربى فى أغلب الأمر نقيا من الدوافع التى تغير وجه الحياة العربية ، فالحكم عربى فى أسلوبه ، وشتى صوره والخليفة عربى ذواق يهتدى لمواطن الحسن فى الأدب ، وينفر من غثه ومهزوله ، ويتجافى عن الإحسان لمن

لم يكن من الشعراء ذا إحسان ، وللخليفة من مجالس الأدب بيئة خصبة تتطاول إليها الأعناق ، وله بصر يبلغ به أن تجد من ديوان الخليفة من يقول الشعراء ببابه : من كان يحس أن يمدح الخليفة بمثل قول فلان فليدخل .

وكم كان فى البلاط الأموى ، وفى صدر الدولة العباسية من حوافز تحفز الشعراء والأدباء واللغويين والعلماء على الإحسان والتجويد .

وبهذا كان الطابع الأدبى متقاربا ، والأيدى التى تمنح متشابهة ، وآثار الأدباء والشعراء فى مضمار الحياة لاتنم إلا عن تفاوت يسير فى حدود ضيقة .

فإذا ما انتهت الأمصار المتعددة والأقطار الكثيرة ، والأقاليم المختلفة إلى حكم عربى فى بعضها ، وغير عربى فى بعضها الآخر . وصار السلطان عليها بيد الفرس والترك فمن الحتم أن تتفاوت المسحة الأدبية ، وتتباعد النزعة الفنية ، وتجد للأدب حياة فى ظل دولة . بمكافأة حكامها وولاتها ، كما تجد ذبولا وابتئاسا فى ظل دولة أخرى ، باليد المغلولة . والرحم التى لم تكن موصولة بين المادح والممدوح .

لقد رأينا الأندلس يحكمها الأمويون وهم عرب وبلاد المغرب يحكمها الأدارسة العرب ، ورأينا مصر والشام فى أسرة الفاطميين العرب ، والموصل وحلبا فى سلطان الحمدانيين العرب والعراق يتنازعها الفرس (البويهيون) والأتراك ، ورأينا فارس تأكلها الدلفية فى كردستان ، وهم عرب والصفارية فى فارس ، والسامانية فى فارس وما وراء النهر ، والزيارية فى جرجان وكل منها من العنصر الفارسى . ورأينا الغزنويين فى أفغانستان والهند ، وهم من الترك . ورأينا الطولونيين والأخشيديين فى مصر والشام وهم من الترك .

ورأينا السلاجقة الأتراك ينهبون أنحاء شتى من المملكة الإسلامية فالسلاجقة العظام يحكمون من سنة ٤٢٩ إلى سنة ٥٥٢ هـ وسلاجقة كرمان يحكمون من سنة ٤٣٣ إلى سنة ٥٨٣ هـ ، وسلاجقة الشام يحكمون بين سنتى ٤٨٧ و ٥١١ هـ ، وسلاجقة العراق وكردستان يحكمون بين سنتى ٥١١ ، ٥٩٠ هـ وسلاجقة الروم يحكمون من سنة ٤٧٠ إلى سنة ٧٠٠ هـ .

وبعد أن كانت (بغداد) وحدها العاصمة التى يأوى إليها الأدباء والشعراء ، وتزهر فيها نهضة الأدب والعلم وتختص بالشخصية الأدبية بين بلدان المملكة صار إلى جوارها (القاهرة) و (حلب) و (الرى) و (بخارى) و (نيسابور) و (سيراف) و (فيروزاباد) و (شيراز) و (همذان) و (أصبهان) .

فليس من الممكن إذن بعد اختلاف الحكام جنسا ، وبعد تباينهم فى منح الأدباء والشعراء ، أو انقباضهم عنهم ، وبعد أن صارت العواصم مثابات مختلفة تخضع لعوامل غير متحدة وإن كانت متشابهة أن يكون الطابع الأدبى فى هذه الأقاليم واحداً ، وأن تكون خصائصه فى كل مصر تماثل الأخرى فى سمتها ووجهتها .

لقد اهتز الشعر والشاعر فى كنف الولاة العرب فى الدولة الحمدانية بالموصل وحلب . وفى الدولة الفاطمية بمصر والشام ، واهتز الشعر والشاعر فى حكم الفرس فى الدولة البويهية والسامانية لبصر الفرس بالآداب وحذقهم اللغتين غالباً . وعملهم الموصول على خلق جو أدبى إذ كانوا أصحاب حضارة قديمة ، وملك بائد . وآداب عريقة تداعبهم الأحلام أن يبعثوها بعد موت وفناء .

وقد حدث التاريخ فيما حدث عن الدولة السامانية التى قام حكمها فى تركستان والتى تنمى إلى (سامان بن حنا) الفارسى ، وتعاقب على حكمها عشرة ملوك بين سنتى ٢٦١ و٣٨٩ هـ أن أحد ملوكها وهو منصور بن نوح السامانى ، الذى قام على ملكها بين (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) استوزر العالم الفارسى (البلعمى) فترجم تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية .

وأعقبه ابنه (نوح بن منصور السامانى) (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) فاقترح نظم الشاهنامة (سفر الملوك) إلياذة الفرس فى الفارسية ، اقترح ذلك على شاعره (الدقيق) فنظم له بعضها . ثم قتل فأتم نظمها (الفردوسى) من بعده بإشارة من السلطان (محمود الغزنوى) والشاهنامة تتضمن خمسة وخمسين ألف بيت أودعت ما روى الفرس من أساطير وحقائق فى تاريخ ملوكهم منذ أقدم العصور إلى الفتح الإسلامى .

ولست أشك فى أن نظم الشاهنامة إنما هو من أثر العصبية الفارسية ، ولون من الغزو الثقافى ، ومحاولة لبسط النفوذ على العربية ولغتها .

ومن يدرس منازع الشعوبية ومظاهرها المختلفة ، يرمن أساليبها فى القرن الثالث الهجرى اعتزاز الشعراء بفارسيتهم ، وغير بعيد مسلك (بشار) و (ديك الجن) و (الخريمى) ، و (مهيار الديلمى) ، و (أبى نواس) من قبل .

ومن يدرسها كذلك يجد من مسالكهم أنهم عكفوا على التأليف فى مناقب العجم كسعيد بن حميد البختكان الذى كان يدعى أنه من سلالة ملوك الفرس فقد ألف (انتصاف العجم من العرب) و (فضل العجم على العرب وافتخارها) .

و (علان) الشعوبى الفارسى الأصل الذى ألف كتاب (الميدان فى المثالب) وغير هؤلاء كثير ... حرصوا على إبراز آداب الفرس ومحامدهم ، وحاولوا جاهدين أن يعلوا كلمة الفرس وآدابهم ...

وليس من شك فى أن اصطباغ الحياة الاجتماعية والأدبية بالثقافة الفارسية فى البلاد التى يحكمها الفرس أضفى على الأدب فيها صبغة تبعد فى قليل أو كثير عن مظاهر الأدب فى الأمصار التى استعلى عليها العرب ، ونم الحكم العربى فيها عن الصبغة العربية الخالصة ؟

« يتبع »

محمد كامل الفقى

دور العرب فى نشر الإسلام فى الهند

للأستاذ محيى الدين الألوائى

قال الإمام « الشهرستانى » فى كتابه الشهير (الملل والنحل) فى معرض تقسيم أهل العالم حسب الأمم والشعوب : « كبار الأمم أربعة : العرب والعجم والروم والهند ، ثم زاوج بين أمة وأمة ، وأن العرب والهند يتقاربان نحو مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء ، والحكم بأحكام الماهيات والحقائق ، واستخدام الأمور الروحية » . هذا هو الرأى الذى أبداه العلامة الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ - ١٢٥٣ م .

ومن هنا كانت الأمور فى الأمتين تجرى على نهج واحد ، مع أن موجات من الحضارات الكبرى نشأت فى كلا البلدين ، وكانت تتطور وتتبدل حسب تقلبات العصور ، وهناك دلائل عديدة تدل على أن الأفكار والطقوس والعقائد والمدنيات تنتقل من كلا الجانبين ، وقد كان العرب فى عهد الجاهلية يعرفون محصولات الهند ومنتجاتها ، وكانت موضع اهتمامهم البالغ ، وجرت فى لغتهم العربية أسماء عدة أشياء هندية مثل : الفلفل والمسك والكافور ، والتنبل ، والنارجيل ، والصندل وما إلى ذلك ، حتى كان أشهر الأسلحة عندهم السيف الهندى ، أو « الهندوانى » ، وكان فى الهند ترحاب كبير للعرب تجارا أو زائرين وكانت العلوم والفلسفة الهندية قد تأصلت جذورهما فى بلاد العرب .

وكان العرب يفدون إلى سواحل الهند الغربية قبل قدوم الإسكندر الأعظم بقرون عديدة ، وكانت محصولات الهند تصدر إلى جزيرة العرب عبر الخليج العربى ، ومن هناك ينقلها التجار العرب إلى سوريا ومصر وأما تجار الغرب ، فكانوا يشترون تلك السلع من سوريا ومصر ، فيصدرونها إلى بلادهم ، وهكذا كان العرب هم الوسطاء بين الهند وبين الروم ، واليونان فى ميدان العلاقات التجارية .

وبعد أن لاقت الدعوة الإسلامية نجاحا وانتشاراً منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة اعتنقت مئات من قبائل العرب الدين الإسلامى خلال الأعوام التالية وقد دخل سكان اليمن وحضرموت فى الإسلام أفواجا ، وكانوا جميعا من التجار ، وقد وصلت تجارتهم حينذاك إلى قمة الرقى والازدهار ، وكانوا يشحنون البضائع إلى

الخليج العربي ومصر والسند وملابار ومعبر وسيلان وجاوا والصين، وغيرها من البلدان النائية، وفي كل بلد ينزلون فيه قاموا بالدعوة إلى الإسلام، وينشرون تعاليمه، بطريقة سلمية ودية، وبهذه الطريقة وصل صوت الإسلام إلى الهند، وسيلان، عقب انبثاق فجره في جزيرة العرب.

ويقول «بزرك بن شهريار» في كتابه عن رحلته البحرية، الشهير باسم «عجائب الهند» في صدد بيانه عن جزيرة سيلان «فلما سمع أهالي سيلان عن الرسول العربي أوفدوا رجلا ممتازاً إلى جزيرة العرب لاستطلاع حالات دعوة ذلك الرسول الجديد ليبلغهم كما رأى وسمع، فوصل المبعوث إلى جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه (١٣ - ٢٣ هـ) فتشرف بمقابلة الخليفة، وتحدث معه عن دعوة الرسول، وسيرته وجمع معلومات وافية، ثم عاد إلى سيلان، ولكن فاجأه الموت في طريقه، وهو في «مكران»، وكان معه خادم هندي، فعاد إلى سيلان، وأبلغ أهلها عن مشاهداته وانطباعاته، وبين لهم ما سمع عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وعن أبي بكر الصديق، الخليفة الأول، وكذلك قدم تقريراً عن تفاصيل المحادثات التي جرت بينهما وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه [١].

(١) عجائب الهند صفحة ١٠٦.

وجاء في «تحفة المجاهدين» للشيخ الفاضل زين الدين بن عبد العزيز المعبري المليباري، عن بداية الإسلام في «ملابار»: «إن طائفة من اليهود والنصارى قد استوطنت في مدينة «كدنقلور» أو «كرانقلور» عاصمة «كيرالا» القديمة فلعل اليهود الذين أجلاهم ملك إيران «كخسرو» قد هاجروا إلى ملابار، ووصلوا إليها بطريق الخليج العربي ثم استوطنوا في مدينة «كوتشين»».

وقال الدكتور «فورستر» مستنداً إلى كتاب برتغالي: «إن جمعا من اليهود خرجوا من جزيرة «ميورقة» في الأندلس في سنة ٣٦٩ للميلاد، وكانوا زهاء سبعة آلاف نفر، ووصلوا إلى شاطىء ملابار، واستقروا في مدينة «كوتشين»».

وأما النصارى، فالمصادر التاريخية تشهد أن القديس توماس، من حواري المسيح عليه السلام، كان يبشر بالمسيحية، في أنحاء كيرالا ومدراس، وتبعه جماعة من النسطوريين من الشام ومن جزيرة العرب، وكلدان.

وبعد حقبة من الزمن نزلت في شاطىء «ملابار» فئة من التجار العرب المسلمين، في طريقهم إلى سيلان، ولما علم ملك ملابار خبر وصول هؤلاء، دعاهم إليه، واستفسر عن النبي العربي، فأجاب رجل منهم، وكان شيخا كبير السن، عن سيرة الرسول عليه

الصلاة والسلام ، وعن دعوته ، ومعجزة شق القمر ، فصدق الملك بالنبى ، وأسلم ، وأسر إليهم أنه سيرافقهم فى طريق عودتهم من سيلان إلى جزيرة العرب ، لمقابلة النبى الجديد شخصيا ، ولما رجع هؤلاء من سيلان أمر الملك للشيخ المذكور أن تعد سفينة ، تقله هو ومن معه إلى بلادهم ، ثم دعا عشيرته وأعيان مملكته ، وقال لهم : إننى عزمت العكوف على عبادة الله ، والانزواء عن مشاغل الدنيا ، فلا يقترين أحد منى ، طوال أيام الأسبوع . ثم وزع أمور الدولة على رجاله ، وكتب لهم فى ذلك وثيقة لئلا ينشب الخلاف فيما بينهم فى شئون الحكم .

ثم ركب هو ورفقاؤه السفينة ، ووصلوا إلى منطقة « فندرينة » فباتوا هناك ليلة ، وقضوا فيها نهاراً ، ثم أبحروا منها إلى « درمفتن » ومكثوا فيها ثلاثة أيام ، ثم واصلوا السفر ، حتى وصلوا إلى « شحر » ، وهناك أصيب الملك بمرض شديد ، فأوصى الدعاة الذين عقدوا عزمهم على العودة معهم إلى بلاد الهند ، لنشر الدعوة الإسلامية فيها ، ألا يهنوا ولا يحزنوا .

وكان من بينهم « مالك بن دينار » وشرف ابن مالك ، ومالك ابن حبيب ، فقالوا للملك : إننا لا نعرف بلادك ، ولا نعرف ثغورها ومدنها ، وإنما قصدنا الذهاب إليها لأنك معنا ، ففكر الملك مليا ، ثم كتب لهم باللغة المليبارية ، رسالة إلى أقربائه وأحبائه ، ودلهم على عناوينهم ، وطلب منهم أن ينزلوا فى « كدنفلور » ، وناشدهم الا يذكروا لأحد شيئا عن مرضه أو عن موته ، وبعد قليل توفى الملك ، ثم توجهوا مع عائلاتهم إلى ملابار وفور وصولهم إلى « كدنفلور » عرضوا خطاب الملك على وزيره ، فأكرم وفادتهم ومنحهم الضيعات والحقول ، وأسدى إليهم التسهيلات للقيام بنشر دعوتهم ، وبناء المساجد ، ودور العلم ، فبنوا فى تلك المدينة مسجدا ، يعتبر أول مسجد شيد فى شبه القارة الهندية ، ثم طافوا فى مختلف أنحاء البلاد ، داعين إلى الله ، وبانين المساجد ، وحاملين رسالة النور والعرفان .

أما الشيخ زين الدين المعبرى . فى روايته فلم يذكر اسم الملك الذى اعتنق الإسلام كما لم يحدد تاريخ حادثة الملك ، ولكن المؤرخ الكبير « فرشته » أثبت فى كتابه : أن اعتناق الملك الإسلام ، وسفره إلى البلاد العربية ، قد حدثا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم[1] وفى مكتبة « المكتب الهندى » الأثرى بلندى توجد منظومتان مخطوطتان ، باللغة العربية ، وفيهما شرح واف لحادثة اعتناق الملك الهندى ، الدين الإسلامى ، وقدوم المسلمين العرب إلى منطقة ملابار ، فى ساحل الهند الغربى ، ويستفاد

(١) تاريخ « فرشته » الجزء الثانى ص (٣٢)

من قول الدكتور (برنال) أيضا ، أن الملك المذكور كان معاصرا للنبي العربي عليه الصلاة والسلام [1] .

وهكذا وصل صوت الإسلام إلى الهند بأيدي العرب ، وكانوا هم طليعة المسلمين الذين استوطنوا فيها ، وأناروا الطريق لنشر التعاليم الإسلامية ، واللغة العربية ، في ربوعها ، وتبعهم في هذا الميدان المسلمون الهنود الذين تشبعوا بالدعوة الإسلامية ، والآداب العربية ، ويقول الشيخ زين الدين : « إن استيطان العرب الأول لم يكن منحصرا في منطقة ملابار فقط ، بل كانت هناك مراكز آهلة بهم في المناطق المجاورة لها » . فلما زار (ابن بطوطة) ملابار في القرن السابع الهجري ، وجد مراكز إسلامية عديدة منتشرة في سواحل الهند الغربية ، من « جوا » إلى « كويلون » في أقصى جنوب القارة الهندية .

ولا يرجع فضل انتشار الإسلام ، والثقافة العربية ـ في طول البلاد الهندية وعرضها ـ إلى الملوك أو الأباطرة الذين قاموا بفتوحات سياسية ، وأقاموا حكومات ودولا ، بل إلى دعاة مصلحين من العرب والهنود ، بطريقة سلمية ، وموعظة حسنة ، وكان رائدهم في ذلك إرشاده تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، حتى برز في أنحاء الهند رجال متفقهون في العلوم الإسلامية ، ومتمكنون في اللغة العربية ، قبل الفتح الإسلامي الأول ، الذي قام به محمد بن القاسم الثقفي ، في نحو عام ٩١ من الهجرة النبوية في مقاطعة السند في شمال شبه القارة .

وتوسع نطاق الجهود الفردية التي بدأها الدعاة المسلمون العرب ، لنشر الثقافة الإسلامية العربية ، تحت زعامة « مالك ابن دينار » في جنوب القارة الهندية إلى جميع أنحائها في فترة وجيزة ، حتى بلغ عدد المسلمين فيها وقت تقسيمها في عام ١٩٤٧ ـ أكثر من مائة (مليون) مسلم ، ساهموا مساهمة فعالة في تكوين مراكز خالدة للثقافة الإسلامية ، وهم غيورون للمبادىء الإسلامية ، ومتمسكون بأهداب الدين الحنيف ، وهم يشكلون اليوم جزءاً حيا من جسم العالم الإسلامي ، الذي الذي يربطه برباط وثيق من الدين والإيمان والأخوة الروحية ، ونرى الآن الارتباط التاريخي الوثيق بين مسلمي الهند وإخوانهم العرب الذين حملوا مشاعل الإسلام في أرجائها ورفعوا رايته في آفاقها ، موطد الأركان ومدعم الأساس ، فليكن الماضي المجيد ، نبراسا يضيء الطريق إلى مستقبل زاهر ميمون ؟

محيي الدين الألوائي
المدرس بكلية الطب ـ جامعة الأزهر

(١) ذكر « برنال » أن اسم الملك جيرمان برومال » كما أثبت ذلك غيره من المؤرخين .

من أباطيل اليهود

للأستاذ محمود شبكه

يعتقد اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن عنصرهم من عنصره ، وأنهم شعب الله المختار، كما يعتقدون : أن الله منحهم الصورة البشرية تكريماً لهم ، على حين خلق غيرهم من طينة شيطانية ، أو حيوانية نجسة ، وقد تكفل القرآن بالرد عليهم فى زعمهم هذا (وقالت اليهود : نحن أبناء الله وأحباؤه قل: فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء) وهم يزعمون أنهم أصلاء فى الإنسانية بحكم عنصرهم المستمد من الله ، مثلما يستمد الابن من أبيه ، وأن خيرات الأرض كلها منحة لهم من الله وحدهم وأن من عداهم من الناس خاضع لهم ، وتحت سيطرتهم ، وما دام هذا وضعهم مع غيرهم من الناس ، فلا مانع من ارتكاب السرقة والغش والكذب وهتك العرض ، وأن هذه ليست بجرائم ، بل قربات يثابون عليها وقد أشار القرآن إلى ذلك فى سورة آل عمران (ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ، إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا فى الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب ، وهم يعلمون) واليهود فى معتقداتهم وسلوكهم وسائر تصرفاتهم إنما يصدرون عن كتبهم المقدسة ، مثل العهد القديم ، والتلمود ، وأقوال زعمائهم ، رغم ما فى هذه الكتب والأقوال من المتناقضات والمضحكات ، ولنستعرض معاً بعض ما جاء فى هذه الكتب ، جاء فى التلمود : إن اليهود أحب إلى الله من الملائكة ، وأنهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه ، ومن يصفع اليهودى كمن يصفع الله ، والموت جزاء الأمى [1] إذا ضرب اليهودى ، ولولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض ، واحتجبت الشمس وانقطع المطر ، واليهود يفضلون الأميين كما يفضل الإنسان البهيمة ، والأميون جميعاً كلاب وخنازير ، وبيوتهم كحظائر البهائم النجسة ، ويحرم على اليهودى العطف على الأمى ، لأنه عدوه ، وعدو الله ، وكل خير يصنعه يهودى مع أمى فهو خطيئة عظمى وكل شر يفعله معه قربان لله يثيبه عليه ، وأن النطفة المخلوق منها باقى الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية نطفة حصان

---

(1) الأمى — الإنسان غير اليهودى

(تلمود أورشليم ص ٩٤) سلط الله اليهود على أموال باقى الأمم ودمائهم (من تفسير التلمود) .

الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية وأما باقى الشعوب فمثلهم كمثل الحمير (الحاخام بارانيل) .

أيها اليهود : إنكم من بنى البشر ؛ لأن أرواحكم مصدرها روح الله ، وأما باقى الأمم فليست كذلك ؛ لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة (مناحم الرومى) .

باستطاعتك أن تقتل أفضل المسيحيين (التلمود) لاترهب وجوههم ؛ لأن الرب آلهك فى وسطك إله عظيم ومخوف، ولكن الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليلا قليلا لا تستطيع أن تفنيهم سريعا لئلا يكثر عليك وحوش البرية ، ويدفعهم الرب إلهك أمامك ويوقع بهم اضطرابا عظيما حتى يفنوا ، ويدفع ملوكهم إلى يدك ، فتمحوا اسمهم من تحت السماء (تثنية ج ٧ ع ٢١ - ٢٤) .

هذه طائفة من النصوص ، لا تحتاج إلى تعليق فهى واضحة الافتعال والاضطراب ، وهى على ما فيها من ركاكة ، وضعف أسلوب تصور مطامع اليهود ، وآمالهم العريضة ، وما وعدوا به من إرث ، وما أمروا به من غلظة وقسوة ، وما ينتظرهم من مستقبل حافل بالمجد ، والسيطرة على العالم كله

وقد غرت هذه التعاليم (موسى شاريت) فوقف فى (الكنيست) يقول : إن إسرائيل لن يكتب لها البقاء ، ما لم تشن حربا وقائية ضد الدول العربية ، حتى تضمن سلامتها ، وتمد حدودها داخل هذه الدول ، وحتى تحقق الحلم الذى طالما حلم بتحقيقه فلاسفة الصهيونية ، ألا وهـــو إقامة أمبراطورية إسرائيلية ممتدة الأرجاء، تفرض سلطانا قويا يخافه الجميع .

وفى مؤتمر عقده المحاربون القدماء لمنظمة (الأرجون الإرهابية) فى ٢٨/١٠/١٩٥٥ قال (مناحم بيجن) زعيم حزب حيروت : يا بنى إسرائيل ، ويا شباب منظمة الأرجون إن العدو يحيط بنا من كل جانب ، وإننا إن لم نهاجمه فى دياره ، ونحطم قوته الحربية قام هو وحطم دولة إسرائيل ، وعليكم يقع واجب المحافظة على دولتكم ، وتوسيع رقعتها إن قتـــل عربى معناه إضعاف أعدائكم ، وتثبيت قدامكم ، فلا تتوانوا فى قتل أعدائكم ولا تأخذكم بهم رحمة وشفقة ؛ حتى نقضى على حضارة العرب المزعومة ، ونقيم على حطامها حضارة إسرائيل .

هذه تصريحات زعماء إسرائيل ، وكلها تنطق بما انطوت عليه نفوس هذا الجنس من غدر وخيانة ، وحقد على العرب ، ورغبة ملحة فى القتل ، وسفك الدماء ، وليست هذه الصفات

بجديدة على اليهود، فلقد وصفهم كثير من أنبيائهم فى كتبهم المقدسة بأنهم شعب غليظ القلب، صلب الرقبة، وأنهم أبناء الأفاعى، وقتلة الأنبياء، وما كثرة أنبيائهم إلا دلالة على دناءة أصلهم، وخسة طباعهم، وأن بذور الشر، وعوامل الفساد امتزجت بلحمهم ودمهم، فلا يفيدهم نصح، ولا ينفع معهم توجيه وإرشاد، وقد سجل القرآن عليهم هذه الظاهرة فى قوله تعالى: «ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرسل، وآتينا عيسى بن مريم البينات، وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم؟. ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون».

واليهود مشهورون بحب المال، والاستغلال وأينما حلوا فى بلد تراهم يحاولون السيطرة عليه اقتصاديا، فيستغلون البيوت المالية ويشرفون على الصحف والمجلات ودور النشر وشركات الأنباء، وهم يعيشون كالأمراض الطفيلية على الشعوب وحضاراتها مما دعا هتلر إلى احتقارهم، وفضح أساليبهم ونواياهم والتنكيل بهم، فهو يرى: أن اليهود جنس يضطرم بالأثرة. وأنه ذكى، ولكنه مجرد من الابتكار والطرافة، وأنه لم يخلق لنفسه أية حضارة، ولا يعدوه أى مثل أعلى ثم يصف الطرق التى يتبعها اليهودى فى دخول المجتمعات الجرمانية، فيقول: إنه يحل فى أثر الجيوش الأجنبية، ويتقدم كتاجر، ويشتغل بالوساطة، والربا الخطر، ويحتكر التجارة ويرهق الفلاحين، ويجتمع اليهود فى أحياء ومجتمعات خاصة، ويحرصون كل الحرص على بقاء جنسهم، وينشئون لذلك دولة داخل دولة، ثم يتملقون رجال السلطة والأمراء ويمدونهم بالمال، ويستظلون بحمايتهم ونفوذهم ويسيطرون على البورصة والانتاج [1]

وقد استطاع هتلر أن يحطم اليهود ويسحقهم أفراداً وجماعات بأقسى وأعنف الوسائل والصور، وعانى اليهود فى ظل النازية محنة ما عرفت فى تاريخهم الزاخر بالآلام والمحن والأمل قريب فى أن يكون مصير يهود فلسطين مصير آبائهم وأجدادهم فى مختلف العصور: من التنكيل والتشريد، وأن تعود فلسطين لأصحابها ما دام العرب قد جمع شملهم وتوحدت كلمتهم، وما دامت الجمهورية العربية المتحدة قد وضعت أمام عينيها تطهير فلسطين من اليهود، وعودتها إلى أهلها، كما جاء فى الميثاق (والجمهورية العربية المتحدة بالتاريخ وبالواقع هى الدولة العربية الوحيدة فى الظروف الحالية التى تستطيع تحمل مسئولية بناء جيش وطنى يكون بمثابة القوة الرادعة للخطط العدوانية الاستعمارية والصهيونية).

محمود شبكة

(١) كتاب هتلر كفاحى.

طبـاع ... وشرائع ...

للأستاذ على الخطيب

من حق المرء على هـذا الدين ألا يحبس عليه ميوله ، أو يقمع فيه فطرته ، وإنما يستجيب الإسلام لهذه الميول ، وتلك الفطر استجابة رصينة ، تتيح للمسلم بحكمتها أن ينال دائما ، توافقـا ، نظيفا بين طباعـه ، والاستجابة لهـا ، توافقا لا إفراط فيه ، ولا تفـريط ، وفى اتجـاه مستقيم ، ينجو من الضرر والعدوان ، فتتحقق الميول ، وتتأكد الطباع ، وتستوى الشخصية المسلمة بلا انحراف ولا شذوذ .

وقد حرص الإسلام على تأكيد هذا المعنى ، والحفاظ عليه حين شرع نفر من صحابة رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى مقـاومة طباعهم قائلين : ما حقنا إن لم نحدث عملا ؛ فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم . وجلسوا فى البيوت ، واعـتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس ، وهموا بالاختصاء ، وأجمعوا أمرهم لقيام الليل ، وصيام النهار !!

وبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : (ما بال أقوام يقول أحدهم : كذا وكذا . لكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ؛ فمن رغب عن سنتى فليس منى) ، ونزل قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » فقال القوم : اللهم سلمنا واتبعنا ! ، وتوقفت تلك التجربة نهائيا فى الإسلام .

وإنه لمن العبث أن يطلب تشريع من الإنسان أن يضطهد طباعه ، أو يقضى على ميوله ، وأى استجابة لمثل هذا التشريع تعنى بصورة مباشرة صراعا مريرا من الكبت والحرمان ، والضيق والحقد ، يستحيل الإنسان بعدها إلى امرىء متعطش للعدوان ، يختلس اللذات فى غـير حق ، ويستجيب لطباعه استجابات شاذة تضر به ، وبالمجتمع ، إنما الطبيعة ستتغلب فى النهاية ، وتحقق ذاتهـا ، وتؤكد أنها لا تموت .

فكان حقا على الإسلام ـ دين الفطرة ـ أن يقف أمام هـذه المحاولة ، ويقضى عليهـا ، وينذر كل مبتدع إلى يوم الدين أنه على غير سنته ، وحسابه على نفسه ، وجرم أتباعـه عليه : فكل بدعـة ضلالة ، وكل ضلالة فى النـار .

والتاريخ شاهد صدق يؤكد عبث الخروج على منطق (القصد والاعتدال) في كل حالة اعتبرت (الفطرة) معصية ، و(الاستجابة) لها جريمة ؛ وقص علينا التاريخ طرائف في هذا الباب :

(ا) ففي الرهبنة تبين أن فريقا من رهبان (المادية) الهنود يخلصون لحياة النسك طوال العام إلا يوما واحدا ، يطلقون فيه لشهواتهم العنان ، مقبلين فيه على لذة مفرطة يعبون فيها من كل لون وطعم ؛ كما يقول دكتور غلاب (ص ١١٥ فلسفة شرقية) .

كذلك لم يمنع مركز البابوية اسكندر بورجيا أن يطلق لشهواته ألف عنان على رءوس الاشهاد . حتى بات معلوما للعامة أن لهذا (البابا) ستة أولاد ، أو سبعة غير شرعيين [(١)] ، ولم يكن عجبا أن تموت دعوة (مانى) في مهدها . تلك الدعوة التى قضى فيها بتحريم الزواج استعجالا لفناء العالم ؛ فمات (مانى) وظل الناس يستمتعون بما أحل الله من زوج وبنين .

(ب) ولقد سلكت أكثر من عقيدة تنادى بالتناسخ ، وتؤمن بالحلول ، أو بطرف منه ـ طريق تحريم اللحم ، وتفاوتت فيما بينها في تشريع تحريمه ، فمنها ما حرمه أبدا ، ومنها ما قضى بالتحريم فترة ، ولو قد كانت حيا له وسطا ، ترغب في القصد والاعتدال ، لنالت استحسانا وتقديرا ، لكنها أبت إلا أن تشرع وتخطط ، وتأمر وتحذر ، وتملى المنع إملاء أغرى الناس بالتماس رغباتهم خفية . وأى الناس . ؟ إنهم كهان البوذية في اليابان ، فقد حاول الأباطرة في عصر « كيوتو » محاولة دينية قصدوا بها أن يؤيدوا قوانين التغذية كما تأخذ بها البوذية ، فحرموا ذبح الحيوان وأكله ، ولكن لما رأى الناس أن الكهنة أنفسهم كانوا يخرجون على تلك القوانين خفية . أخذوا يدخلون اللحم لونا شهيا من الطعام ، ويسرفون في أكله .

ومالنا نذهب بعيدا إن بودا هو أول من عصا البوذية . وكاد يودى بحياته بعد وجبة ضخمة من لحم الخنزير .

(ج) وفي التاريخ مثال لرجلين :

أحدهما « أكبر » امبراطور الهند في العصور الوسطى الذى أراد أن يحمل الناس كرها على اعتناق « دين » رسم هو خطوطه ، وحد حدوده ، وصور له وهمه أن دينه يستوعب الأديان جميعا ، فانطلق ـ وهو الامبراطور الذى يملك السلطة ، ويحوز القوة ـ يفرض عقيدته على الناس مؤملا أن يرضى طوائفهم في النهاية ، وفي سبيل ذلك أنزل ببعض الطوائف تشريعات ضد رغباتها ، وأصاب المسلمين في الهند من عنته شيء . فقد حرم عليهم صيام رمضان ، وحج البيت ، وأغراه

(١) ص ١٧١ سافونارولا : دار الكاتب المصرى

فى ذلك فكر سقيم ، وقوة غاشمة ، وعبثا ذهبت محاولاته ، وسقط ميتا دون أن تنال روحه عزاء من أى الناس ، بينما كان قصره فى المساء نفسه يتلألأ بفرح إعلان امبراطور جديد وتنفس الناس الصعداء .

والثانى : الحاكم بأمر الله .

وأى الناس لم يسمع بهذا الحاكم الذى أغراه السفه ، لا بمحاولة تغيير عقائد الناس فحسب بل اتجه إلى تغيير ما درجوا عليه من عرف فى العمل أو السلوك . مضطهدا طوائف العمال إذ أمرهم بممارسة عملهم ليلا ، والكف عنها نهارا ، وحد من حرية المرأة ؛ حتى حرم عليها ما أحل الله لها ؛ فأوقف كثيرا من المنتجات التى تخصها من رداء أو زينة ، ونادى بعض أتباعه فى المساجد نداء أنكره المؤمنون ، وقاوموه ، ثم أتت النهاية ، فمات الحاكم ميتة غامضة ، عادت الحياة بعدها سيرتها الأولى .

ولن يعدم ملتمس التاريخ حقائق فى هذا الباب تؤكد جميعا حتمية النصر للطبع المعتدل والميل الشريف ، وانتصار الحياة لهما .

من أجل ذلك يقف الإسلام حاميا منطق « القصد والاعتدال » يصونه أن يعبث به أحد أو ينحرف به ضال ، حتى لا يقذف الإفراط بالطبع ، والإسراف فى الميل ، إلى ضرر عارم أشد تدميرا على المجتمع من القمع والاضطهاد .

فكان نهج الإسلام خير حافظ للناس ومبق على كرامتهم ، وله فى ذلك نصوص صريحة ؛ يقول تعالى :

« فلا تميلوا كل الميل » ١٢٩ « النساء » .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ١٤٣ « البقرة »

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق . قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ٣٢ الأعراف .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كلوا ، واشربوا ، والبسوا ، وتصدقوا من غير مخيلة ، ولا سرف ؛ فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده .

هذا الإطار من تعاليم الله ورسوله كفيل ببيان احترام الفطرة ، والعمل على صيانتها حتى يستوى « التوافق » بين الإنسان وطباعه ويتم « الإشباع » النظيف بين المرء وميوله فى أحضان هذه الشريعة السمحة التى وسعت الرغبة ، وحفظت الطبيعة بنهج أصيل يحقق حكمة الحياة على مدار القرون ؟

على الخطيب

مجمع البحوث الإسلامية

ما يقال عن الإسلام

محمد فى مكة

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

أصدر الغربيون بشتى اللغات كتبا ودراسات متعددة عن محمد ، النبي العربى الذى أرسله الله تعالى إلى قومه، وأمره بتبليغ رسالة الإسلام ، فقام بتبليغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ولقى فى سبيل ذلك كثيرا من العنت والاضطهاد ، فى مكة أولا إلى أن هاجر إلى المدينة ، فهاجمه العرب فى المدينة وانتصر عليهم فى الغزوات المختلفة إلى أن انتهى الأمر بفتح مكة ، وخضعت بلاد العرب للإسلام . ولكن محمدا لم يقف برسالته عند حدود بلاد العرب ، بل أوفد رسله بكتب منه إلى : كسرى وهرقل والمقوقس ، يدعو الناس كافة إلى الدين الجديد . وبذلك يمكن أن يقال : إن سيرة محمد مرت فى ثلاثة أطوار أساسية ، فى مكة ، ثم فى المدينة ، ثم الإسلام وتوحيد المجتمع، وطبقا لهذا التقسيم، أصدر الأستاذ « مونتجومرى وات » ثلاث كتب يدرس فى كل واحد منها مرحلة من حياة النبي . صدر الكتاب الأول سنة ١٩٥٣ ، ويقع فى ١٩٢ صفحة . وهو من مطبوعات جامعة اكسفورد ، ويعد هذا الكتاب الأول فى « ثلاثية » مونتجومرى وات .

وليس (مونتجومرى وات) أول من كتب عن محمد ، إذ سبقه فى ذلك كثيرون من المستشرقين ، ومنذ زمن طويل ، بعضهم يهاجم محمدا ، ويرميه بأشنع التهم ويطعن عليه بأقبح المطاعن التى لا تستند إلى أى حقيقة تاريخية ، وقد انبرى للرد عليهم جماعة من علماء الغرب أنفسهم يبغون الدراسة النزيهة عن الهوى . ولذلك لم يكد يشهد القرن العشرون مشرقة حتى صدرت كتب جديدة تبحث سيرة محمد بأسلوب جديد ، ونغمة مخالفة ، وإنصاف أكثر ، نذكر من هؤلاء اثنين يعرفهما قراء العربية : هما (اميل درمنجم) ، والسير (وليم مور) . ونود أن نشير إلى أن اليقظة العربية القوية فى القرن العشرين ، مع اقتران هذه اليقظة بنهضة علمية وتقدم واسع الخطوات ، وشدة الاتصال بين الشرق والغرب ، وتفتح

النوافذ على الدراسات الغربية ، كل أولئك أحدث رد فعل عنيف فى مصر، دفع مفكريها إلى الكتابة عن محمد بأسلوب جديد يتلاءم مع العصر الحاضر ، ويتفق مع مناهج البحث العلمية . وكان ثمرة ذلك ما أصدره هيكل والعقاد وطه والحكيم وغيرهم عن محمد ، ولم يعزف كل واحد منهم على نفس القيثارة ، بل اتجه كل منهم وجهة خاصة فتعددت الأنغام تبعا لاختلاف المناهج التى اتبعها الباحث .

فهل بقى بعد كل تلك الدراسات ، الغربية والشرقية زيادة لمستزيد ؟ وهل يمكن أن يأتى كاتب بجديد ؟

تساءل الأستاذ « وات » عن ذلك ، وأجاب فى مقدمة الكتاب بما فحواه : أن الحاجة إلى كتابة حياة محمد - من جديد أمر شعر به طلبة البحث فى الإسلام (وليلاحظ القارىء أن مونتجومرى يكتب للغربيين) وبخاصة أصحاب العقول التاريخية . ليس ذلك بسبب الكشف عن مادة جديدة ، بل لأن اهتمام المؤرخين منذ أواخر القرن التاسع عشر قد اتجه وجهة البحث عن العوامل « المادية » التى تقع فى أساس التاريخ ، وهذا يعنى أن المؤرخ الحاضر ، الذى يعيش فى منتصف القرن العشرين يريد أن يطرح كثيراً من الأسئلة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى كانت قائمة فى الوقت الذى ظهر فيه محمد ، مع عدم إغفال الحركة الدينية والفكرية التى بدأها ، ومع أن أولئك الذين ينكرون أن مثل تلك العوامل ، هى التى تحدد وحدها سير الحوادث ، فإنهم مع ذلك لابد أن يسلموا بأهميتها .

فالجديد فى هذا الكتاب إذن : هو العناية ببحث العوامل « الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية » ، وبيان صلتها بالحركة الدينية الجديدة التى نادى بها محمد . وهذا منهج لا اعتراض عليه ، بل لابد منه ، وقد أصبح مألوفاً فى الوقت الحاضر عند كتابنا ، الذين يصورون العصر من شتى جوانبه السياسية والاجتماعية ،والاقتصادية والثقافية والدينية ، قبل الشروع فى الكتابة عن الشخصية التى ظهرت فى ذلك العصر .

ولما كان المؤلف يكتب بالإنجليزية لطائفتين من القراء ، الطائفة الأولى - وهى الأكثر - الغربيون ، وهم - فيما يفترض المؤلف - من المسيحيين ، والمؤلف كذلك مسيحى ، فقد كان من الطبيعى أن يقرب بعض المباحث الإسلامية إلى الذهن الغربى بضرب أمثلة من المسيحية ، والطائفة الثانية وهى الأقل - المسلمون ، وقد راعى المؤلف شعورهم، فى معظم المسائل الأساسية التى تمس الدين ، وعلى رأسها القرآن الذى يؤمن سائر المسلمين بأنه كلام الله، المنزل من عنده تعالى على محمد . لهذا السبب أعلن المؤلف فى صدر كتابه أنه لا يود أن يصدر حكماً عن القرآن،

فلا يذكر «قال الله . . . » ولا «قال محمد..» بل «جاء فى القرآن . . . » ، وسنناقش هذه المسألة بعد قليل .

ويزعم المؤلف أنه أصدر كتابه أولا، وقبل كل شيء للمؤرخ ، لا للمسيحى أو للمسلم ، وبهذه الصفة، فإنه يتحرى الحق وحده ، ولا يتحيز . ولكنه بين حين وآخر ، يعلن أنه مسيحى ، وأنه مؤله ، وأنه موحد ، فهو بذلك لم يستطع أن يتخلص تماماً من تحيزه العقيدة التى نشأ عليها ، وأن يتحرى الإنصاف كمؤرخ فقط .

وكتب المؤلف خمس صفحات عن المصادر. وفى مثل هذا البحث، لاشك أن قيمة المصادر وتقييمها ضرورى . وأول مصدر يعتمد عليه هو (١) القرآن، «وهو الوحى الذى تلقاه محمد (كما يعتقد) من الله» ، وكما يعتقد الموضوعة بين قوسين من كلام المؤلف ، أى أى كما يعتقد محمد .

ثم بعد ذلك (٢) سيرة ابن هشام (٣) تاريخ الطبرى (٤) مغازى الواقدى (٥) طبقات ابن سعد (٦) صحيح البخارى ومسلم ، ومسند ابن حنبل (٧) أسد الغابة لابن الأثير ، والإصابة لابن حجر .

هذه هى المصادر الأساسية التى رجع ويرجع إليها كل من يريد الكتابة عن محمد، مستشرقا غربياً ، أو كاتباً عربياً . ثم يشير المؤلف إلى مؤلفات غربية مثل : كتاب السير (وليم مور) وكايتانى فى تاريخه عن الإسلام، وغيرهم ولست أدرى والمؤلف يعرف اللغة العربية لماذا لم يرجع إلى المؤلفين العرب المحدثين ، على الأقل إلى هيكل فى كتاب «حياة محمد» ، وهو الذى نقل آراء المستشرقين وانبرى للرد عليها بالحجة الدامغة .

أطال المؤلف فى وصف حياة العرب فى الجاهلية من النواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والدينية ، واستغرق ذلك ثلاثين صفحة من جملة الكتاب البالغ عدد صفحاته مائة وتسعين. ونحن نرى أن هذه المقدمة مطولة على الرغم من أنها دراسة ممتعة ، ينتهى منها المؤلف إلى أن تدهور الأخلاق وانحطاط الدين واصطدام الفرس والروم وازدهار مكة تجارياً ، كل ذلك كان تربة صالحة لظهور دين جديد .

ناقش المؤلف مسألة الوحى طويلا فى الفصلين الثانى والثالث ، والثانى بعنوان طفولة محمد وشبابه (ودعوته إلى الإسلام) ؛ والثالث : بعنوان الرسالة الأولى . وبعد أن تكلم المؤلف عن نسب محمد ، ومولده وطفولته وزواجه من خديجة ، شرع يتحدث عن بعثته ، وبدأ بإيراد حديث الوحى عن ابن شهاب الزهرى عن عروة عن عائشة ، ورواية الطبرى فى تاريخه ؛ وكنت أحب لو أن المؤلف رجع فى هذا الحديث إلى البخارى ومسلم وغيرهما ، وبخاصة لأنه يناقشه مناقشة

علمية . وقد قسمه اثنتى عشرة فقرة ، هى (النص الذى نثبته هنا عن البخارى) .

(ا) أول ما بدىء به رسول الله (ص) من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

(ب) ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق (THE TRUTH) وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال . . .

وتعقيبنا على رواية الحديث ، أن المؤلف اعتمد على رواية الطبرى ، ولم يناقش الروايات الأخرى ، مع أنه شرع ينقد الحديث ، وسياقه ، وإسناده .

ويبدو أن الترجمة خطأ ، فالمؤلف يترجم « الحق » فى هذا الموضع بقوله Truth ، أى ما يقابل الباطل ، المقصود بهذه اللفظة فى الإنجليزية « الله » . ولكن الحق ههنا تعنى القرآن ، أو الوحى . ورواية البخارى « جاءه الحق ، فجاءه الملك » والملك جبريل .

يقول المؤلف ص٤٢ : « ليس ثمة أسباب جيدة للشك فى الفكرة الرئيسية الواردة فى الفقرة « ا » ، نعنى أن تجربة نبوة محمد بدأت بالرؤيا الصادقة . وهذا يختلف تماما عن الأحلام ... وما جاء فى الفقرة « ا » يتطابق

مع ما نأخذه من سورة النجم : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القــــوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . . . » .

ويعلق المؤلف على الآيات السابقة بأن التفسير الجارى عند المسلمين ، أن هذه الرؤى خاصة بجبريل « ولكن هناك أسبابا تجعلنا نظن أن محمداً فسر فى الأصل أن هذه الرؤى خاصة بالله نفسه . ذلك أنه لا يوجد أى ذكر لجبريل فى القرآن حتى نزول الوحى بالمدينة » .

نقول : إن الخوض فى تفسير القرآن مدعاة لمزالق كثيرة ، إذا صدر عن الأعاجم الذين يجهلون اللغة العربية ، ويتلقفون علمهم بالقرآن عن الترجمات الإنجليزية له . وفى اللغة العربية أسرار لا يعرفها إلا أصحابها . والقرآن يفسر بعضه بعضا . وطبقا لهذه القاعدة ، فسر المسلمون « إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، أى الملك ، وهو جبريل . لأن الله يقول فى موضع آخر من القرآن (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا ؛ فيوحى بإذنه ما يشاء) فهذه قاعدة قرآنية فى

الوحى ، تتنافى مع قول المؤلف : إنه يعتقد أن محمدا كان يتلقى الوحى رؤيا (vision) عن الله مباشرة ، لا عن الملك . وأين هى هذه الأسباب القوية التى يزعمها المؤلف ، مع أن المصادر هى القرآن ، والحديث . ونحن نرى أن الذى ضلل المؤلف اعتماده على الحديث الذى أورده الطبرى ، وإغفاله رواية البخارى ، مع العلم أنه رجع إلى البخارى فى فقرات أخر من الحديث . ولو أنه اعتمد روايه البخارى لاختلف حكمه ، لأن هذه الرواية تضيف « الملك » صراحة بعد قوله فجاءه الحق .

والعجب أننى لم يخطر ببالى أبداً - وأنا أقرأ الحديث فى أصله العربى - أن أفسر « الحق » فى هذا الموضع بأنه « الله » ، وفهمت منه على الفور أنه الوحى، أو القرآن . ومن المعروف أن الحق اسم فى القرآن ، للقرآن . ولكن المؤلف يريد أن يوجه التفسير وجهة تتفق مع هواه ، وتختلف مع الجارى فى اللغة والمأخوذ من جملة القرآن . فيقول إن « الحق » فى طريقة التعبير عن الله . والحق يستعمل فى القرآن استعمالات مختلفة ، فهو اسم من أسماء الله ، « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » ، أو هو القرآن « بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ... » أو هو الحق فى مقابل الباطل ،

وبناء على ذلك لا معنى للإصرار على أن الحق هو الله ، وأن الله هو الذى جاء إلى النبى ، أو أن النبى رآه ، ولا يحتمل حديث الوحى هذا التأويل ، ولا كذلك سورة النجم . ولا نود مناقشة التعليق على حديث الوحى فقرة فقرة ، وإلا طال بنا الكلام ، واحتاج إلى مجلدات . ولكننا مع ذلك نشير إشارات عابرة إلى بعض أمور استوقفت أنظارنا :

يذهب المؤلف إلى أن (اقرأ ، وقرآن) ، ينتسبان إلى ذلك المعجم الدينى الذى أدخلته المسيحية إلى بلاد العرب ، وأن الفعل (قرأ) يدل : إما على القراءة ، أو تلاوة النصوص المقدسة ، على حين أن « قرآن » مأخوذ من السريانية (قريانا) التى تدل على القراءة أو الدرس الدينى (صفحة ٤٦ — ٤٧) .

وهذا الكلام مأخوذ عن المستشرقين، وليس جديداً ، وقد نقله عنهم كما ذكر ، والذى استوقفنى حقاً أن هذين اللفظين مما أدخلتهما المسيحية ، ولماذا لا تكون اليهودية ؟ لو أن المؤلف كان يهوديا ، لزعم أن اليهود هم الذين أشاعوا اللفظ ، ولست أدرى لم لا تكون العربية أسبق من تلك الأصول كلها ؟ وقد كانت فى بلاد العرب مدنية قديمة ، بحكم موقعها الجغرافى بين الشرق والغرب ، وقد كانت هناك حضارة فى اليمن مزدهرة منذ

قديم الزمان ، ولا شك أن الكتابة كانت معروفة ، وبالتالى القراءة .

غير أن المؤلف يقول فى ختام مناقشته لحديث بدء الوحى (صفحة ٥٢) إنه على الرغم من وجود شكوك كثيرة حول الظروف المحيطة ببداية الوحى ، إلا أن الموازنة بين الأحاديث وتصفيتها يؤدى إلى صورة عامة تبعث قدراً معقولا من الثقة بها ، حتى لو ظل كثير من التفصيلات وبخاصة عن التواريخ غير مؤكدة .

ثم يمضى المؤلف إلى مناقشة إخلاص محمد فى شعوره بالنبوة .

وقد دافع المؤلف عن محمد ، مقيما دفاعه على حجج جديدة ، أولها : أن مقالة كارليل عن محمد فى كتابه « الأبطال » جعلت الغرب يتجه نحو الثقة بإخلاص محمد .

وثانيها : أن تحمله الاضطهاد فى سبيل عقيدته مع الروح العالية عند أصحابه الذين آمنوا به ، إلى جانب عظمة الدين الجديد ، كل ذلك يؤكد صدقه .

وثالثها : أننا لو افترضنا عكس ذلك ، وقلنا إنه لم يكن نبيا بل مدعياً لوقعنا فى مشكلات يصعب حلها .

ورابعها : أن الغرب ظل قرونا طويلة يشيع عن محمد وعن الإسلام صورة مشوهة مسرفة فى البعد عن الحقيقة ، وقد آن الأوان أن نعتقد فى صدق محمد ، وأمانته ، إذا وجب أن نفهمه على الإطلاق ، وإذا كان علينا أن نصحح الأخطاء الموروثة من الماضى ، فلا بد أن نتمسك بأن محمداً كان أمينا صادقا ، حتى يثبت لنا العكس نهائيا ، وهذا أمر عسير جداً فى مثل هذا البحث .

ومن قبيل نقد المفتريات التى يلصقها المستشرقون بمحمد ، قولهم : بأنه كان عرضة لنوبات من الصرع ، وأن القرآن الذى كان ينطق به هو نتيجة هذه النوبات ، وقد نفى المؤلف (ص ٥٧) صحة هذه التهمة ، على أساس أن الأعراض التى تذكر فى كتب السيرة لا تنطبق على أعراض الصرع الذى يؤدى إلى الضعف والتهافت ، على حين أن محمداً فى أثناء الوحى كان مالكا لقواه كلها ، ونضيف إلى ما ذكره المؤلف أن هيكل فى حياة «محمد» فند هذه التهمة تفصيلا ، وبين بطلانها من الناحية العلمية .

الخلاصة : أن موقف المؤلف من القرآن هو قبوله ، على أنه وحى إلهى أنزل على محمد ، على سبيل الفرض العلمى الذى لا يمكن بدونه تفسير الحوادث التاريخية التى وقعت فى القرن السابع الميلادى ، فى تلك الرقعة من الأرض تفسيراً صحيحا .

وقد زلزل هذا الدين الجديد قواعد النظام الجاهلى تماما ، اجتماعيا وأخلاقيا وفكريا

ودينياً واقتصاديا . فمن الناحيـة الاجتماعية اضطرب ذلك النظـام بين تضامن قائم على علاقة الدم والقرابة ، وبين تضامن قائم على المصلحة التجارية بعد أن أصبحت مكة مركزاً هاما للتجارة بين الشمال والجنوب ، ولـكن هذه العلاقة الجـــديدة التي ظهرت في مكة نفخت في نار الفردية ، وأضعفت الروح الجاهلية ، مما أدى إلى زيادة غنى الأغنياء ، وزيادة فقر الفقراء ، وهي الحال التي أطال القرآن في وصفها ، ولمـا كان الحـل الجاهلي الجديد ، نعني علاقـة المصالح المـالية لم يغن عن علاقة الدم القـديمة ، فقد جاء الإسلام بحل آخر يقـوم على الدين . ومما يأمر به من صدقة وإنفاق على الفقراء (ص ٧٢-٧٣) ،

ومن الناحية الأخلاقية ، كان المثل الأعلى الأخلاقي للعربي في الجاهلية هو « المروءة » ولم يعد هـــذا المثل الأعلى صالحا في الحياة التجارية الجـديدة ، وكان الدفاع في الجاهلية عن المروءة دفاعا عن شرف القبيـلة ، وكان الشعراء هم الناطقين بلسان قبائلهم في الدفاع عن هـذا الشرف حين يفخرون بالمروءة ، التي تضم بين جناحيها الشجاعـة في القتال ، والصبر على النوائب ، والأخـذ بالثأر ، وحماية الضعيف والوقوف في وجه القوى ، وكانت المثل الأخلاقية التي اتخـذها أهل مكة قدوة مثلا منهارة فاسدة فلما جاء الإسلام اهتم أول الأمر بتأكيد الإيمان بإله واحد ، وبيان ما أمر به ونهى عنه على الجملة ، مع الوعد بثواب المؤمن ، والوعيد بعقاب الكافر في الآخرة ، إما بنعيم الجنة أو بنار جهنم ، وجاء الدين الجديد بمفهوم أخلاقي جديد ، هو التزكيـة ، وأمر الفرد أن « يتزكى » ، ثم مع توالي نزول القرآن ، تطور هذا المصطلح إلى مفهوم آخـر مثل الإســـلام ، أي الاستسلام لله (ص ٧٦) .

إن مناقشة الأخلاقيات القديمة والجديدة وكذلك مفهوم « الإسلام » ، وهل تطور عن التزكية ؟ لا تكفي فيه هذه الصفحات القليلة ، ولكننا نقول مع الإيجاز الشديد : إن القرآن أتى بمفهوم أخلاقي ليس هو الدين ولـكنه تابع للدين ، وهذا المفهوم هو « التقوى » ، وهو مصطلح قرآني مستمد ، بحسب المنهج الذي يريد المؤلف اتباعـه . من أول نزول القـرآن تاريخيا ، إلى تمام كمال النزول ، ففي سورة العلق ، أول ما أنزل من القرآن ، يقول الله : « أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى » . وفي أول سورة البقرة وصف للقرآن ، وأنه (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون) .

ولقد جاء القرآن بحل للشكلة الاقتصادية ، وعلاج الحال السيئة التي انتهى إليها المجتمع

فى مكة ، وانفصاله إلى طبقتين متباعدتين ، طبقة الأغنياء المسرفين فى الغنى ، والفقراء المعـــدمين .

على هذا النحو من المناقشة التى تعتمد على الأصول والنصوص ، والتى يضطر المؤلف إلى ترجمتها الانجليزية لتحليلها ، والموازنة بينها ، يمضى فى الفصل الرابع يستعرض أول أسلم ، مع ربط هؤلاء الذين أسلموا بقبائلهم من وعشائرهم ، مثل هاشم ، والمطلب ، وعبدشمس ومخزوم ، وتيم ، وزهرة ، وغيرهم . وهو تحليل مفيد ، ودراسة منهجية جيدة .

ويتعلق الفصل الخامس بنمو المعارضة لدعوة محمد ، حتى إذا اشتد العرب فى إيذائهم المسلمين أمرهم محمد بالهجرة إلى الحبشة . ولما شرع أهل مكة يعتدون على محمد نفسه ، ويؤذونه ، ثم قرروا التخلص منه ، أمره الله بالهجرة ، ذهب أولا زهاء سبعين من المسلمين ولم يبق فى مكة سوى : أبو بكر وعلى ، وأخيرا هاجر محمد بصحبة أبى بكر .

وبهذا ينتهى الكتاب الأول من ثلاثية مونتجمرى وات .

وبعد صدور هذا الكتاب بالانجليزية سنة ١٩٥٣ ، تناوله النقاد بالتعليق ، فكتب عنه الأستاذ (بوسيكه) فى مجلة هباريس سنة ١٩٥٤ كلمة بعنوان (تفسير ماركسى لأصل الإسلام) . وكتب الأستاذ (رودنسون) سنة ١٩٥٧ مقالا فى مجلة (ديوجين) بعنوان (محمد والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام)

وقد أشار المؤلف ـ مونتجمرى وات ـ فى مقدمة كتابه الثالث (الإسلام وتوحيد المجتمع والصادر سنة ١٩٦١ ، إلى هذا النقد قائلا : (لقد أكد كتاب (محمد فى مكة) بوجه خاص منزلة العوامل الاقتصادية عند أول ظهور الإسلام ، وعلاقة هذه العوامل بأفكار الإسلام الأساسية . وبسبب هذا التأكيد ذهب النقاد ـ من أصحـــاب اليمين واليسار على السواء ـ إلى أن فى الكتاب نزعة ماركسية ...) .

إذا كان هذا رأى النقاد الغربيين ، فنحن نرى خلاف رأيهم ، ذلك أنهم يصدرون عن هوى وعصبية ضد الكتلة الشرقية . أما نحن العرب المسلمين ، فموقفنا الفكرى هو أننا كتلة لا غربية ولا شرقية ، لما كيانها الخاص النابع من تاريخها ومن دينها . ومن خلال هذا التراث الإسلامى ننظر إلى الأمور ، فنقول : إن مفكرينا قديما ، وحــديثا ، ربطوا بين الإسلام والأحوال الاقتصادية وكيف حل الإسلام هذه المشكلة . والقرآن نفسه يصور أحــوال العرب الاقتصادية فى الجاهلية أبلغ تصوير ، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالإسلام ، وما شرعه من فروض ، إذا اتبعت تحل أزمة المجتمع والإنسان .

(البقية على صفحة ٧٦٢)


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

كتاب المعراج للقشيرى :

تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر
عميد كلية الشريعة

هذا الكتاب الذى نشرته دار الكتب الحديثة بعابدين، يقع فى أكثر من مائة وثلاثين صفحة ، ألحق بها ملحقان : أحدهما فى تحقيق الأحاديث المعراجية ، والآخر فى معراج أبى يزيد البسطامى ، لأبى القاسم العارف ، وليس لأبى القاسم الجنيد حيث نسبه إليه خطأ كما يذكر الدكتور على حسن عبد القادر .

وقد كتب الدكتور مقدمة عن المعراج ، وآراء العلماء القدامى المختلفة ، وذكر أن تراث الإسلام الروحى قد تأثر بهذه القصة تأثيراً بليغاً ، ونعنى بهذا التصوف الإسلامى الذى ألهم كثيرا من أهل الشعر والفلسفة والأدب ، وأضاف للإسلام كنوزاً ثمينة، وآداباً إنسانية خالدة ، وحكمة شرقية ، وفنا رائعا ، ثم قدم ترجمة موجزة عن القشيرى الذى ولد عام ٣٧٦ هـ ، وتوفى عام ٤٦٥ هـ ، وعن مؤلفاته الموجودة والمعدومة ، والتى بلغت ثلاثة وعشرين كتابا ، أشهرها الرسالة القشيرية المعروفة ، ثم ختم المقدمة بكلمة عن أصل مخطوطة المعراج ، التى تطبع لأول مرة وذكر : أن أصل هذه المخطوطة محفوظ بمكتبة (بانكيبور) بالهند ، ولها صور فوتوغرافية بمكتبة المكتب الهندى بلندن وقد نقل هذه المخطوطة وأرسلها إلى الدكتور على حسن عبد القادر الأستاذ الدكتور (آربرى) أستاذ الأدب العربى بجامعة كمبردج .

أما كتاب المعراج نفسه ، فقد تناول القشيرى فيه شرح معنى المعراج عند أهل اللغة ، واختلاف العلماء فى أحكام تفصيلية فى الإسراء والمعراج ، ومذاهبهم فى المعراج وتناول اختلافهم فى وقوع المعراج لغير نبينا ، وفى وقوعه للأولياء ، كما تناول ما اختص نبينا فى ليلة المعراج ، وما ورد فى معارج إبراهيم وإلياس وموسى وعيسى عليهم السلام ، واختتم الكتاب برؤية النبى لربه ليلة المعراج ، ثم السر فى المعراج من بيت المقدس لا من مكة .

من القطع الصغير ، تناول المؤلف فيه الطب عند الأمم القديمة ، عند المصريين القدماء ،

لو أن القشيرى اقتصر فى كتابه على الأحاديث الصحيحة الواردة فى المعراج ، أو حتى على التفسيرات المقبولة للآيات القرآنية التى اتخذت دليلا على معراج الرسول لكان لكتابه تقديره - وكان علينا أن نتقبله برحابة صدر .

إلا أن القشيرى رحمه الله سلك طريقا فى رصد الأخبار التى لا مصدر لها إلا أفواه بعض المتصوفين وخيلاتهم ، حتى ليخيل إلى القارئ أن القشيرى أضفى على المعراج لونا أسطوريا لعب الخيال فيه دورا رئيسيا .

فالقشيرى يقول كثيرا فى الكتاب : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول ، ويقول بعض العلماء ، وقيل ، ثم يعتمد هذه الأقوال التى لا مصدر لها إلا قائلوها حجة مسلما بها .

مما ينسبه إلى الرسول : فرفعت لنا سدرة المنتهى ، فانتهينا إليها ، وإذا ساقها ذهب أحمر وقضبانها لؤلؤ أبيض ومرجان وعقيان وفضة وعلى كل قضيب سبعون ألف ورقة ، ما بين الورقة والورقة مسيرة أربعين عاما ، ورقها زمردا أخضر مثل ريش الطاووس فى الحسن الورقة منها تظل الدنيا ، على كل ورقة ملك كأن وجهه الورق ، مكتوب على جباههم : سكان سدرة المنتهى » .

ومما ينسب إلى إدريس عليه السلام أنه أول من عرج به إلى السماء من الأنبياء ، ولكنه احتال على الله وملائكته فى معراجه

ويذكر القشيرى : أن أبليس خرج من موضع قدم موسى ، فى وقت ما كان يسمع الخطاب من الله سبحانه ، فوسوس إلى موسى ، وقال له : ما يؤمنك أن الذى يخاطبك غير ربك ؟ ولكن جبريل ألقاه بعيدا ، وقال : تجسر أن تقرب منه فى هذا الوقت ؟ فقال إبليس : أنا لم أبال أن أخرجت أباه من الجنة ، أفأبالى أن أوسوس إليه فى هذا الوقت ؟ .

هكذا يغرقنا القشيرى فى جو من الأساطير، ولا سند له فى رواياته ، اللهم إلا ابتكار الخيال نفسه . .

وبعد - فطبع مثل هذا الكتاب لا يقنع أرباع المثقفين بأنه إحياء للتراث الإسلامى المجيد الذى بعث بمادته الفنية وأصالته ، والروح العالية فى نفوس الأدباء والشعراء والحكماء كما يذكر أستاذنا الدكتور على حسن عبد القادر ، فتراثنا الإسلامى المجيد لم يكن صورا الهوس والخيال الخصب والقصص المختلفة » .

كتب جديدة

الإسلام والطب

تأليف : د . محمد عبد الحميد البوشى

الناشر : المكتبة الثقافية

يقع الكتاب فى اثنتين وستين ومائة صفحة من القطع الصغير ، تناول المؤلف فيه الطب عند الأمم القديمة ، وعند المصريين القدماء .

عند الكلدانيين ، والبابليين ، والآشوريين ؛ ثم الطب في الإسلام في مختلف عصوره ، كما عرض المؤلف نماذج من الأطبا العرب والمسلمين ، وما أسدوه للانسانية والبشرية من أياد بيض خلدها التاريخ .

رجال حول الرسول :

تأليف : خالد محمد خالد

الناشر : دار الكتب الحديثة

صدر الجزء الثاني من كتاب : رجال حول الرسول ، ترجم فيه الأستاذ خالد لأحد عشر صحابيا جليلا ، هم .

حمزة بن عبد المطلب ، وعبد الله ابن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وعمار ابن ياسر ، وعبادة بن الصامت ، وخباب ابن الأرت ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان ابن مظعون ، وزيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبي طالب ، ثم عبد الله بن رواحة .

والواقع أن المؤلف قدم لنا دراسات مركزة عن هؤلاء الرجال الأفذاذ . امتازت بالتحليل العميق المكشف عن قيم عليا رفيعة كل منهم ، ويقع الكتاب في ست عشرة ومائتي صفحة من القطع المتوسط .

حياة آدم :

تأليف : محمود شلبي

الناشر : مكتبة القاهرة

يقع هذا الكتاب في مائة وست وعشرين صفحة من القطع الكبير ، بحث فيه المؤلف : ما قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، ومتى خلق الله آدم ، وقصة الصراع بينه وبين إبليس ، والمجادلة بين روحي آدم وموسى ، وهل كان إبليس من الجن أو من الملائكة ، وهل الجنة التي خرج منها آدم ، هي جنة الخلد أو جنة الأرض

وقد اعتمد المؤلف في دراسته لحياة آدم عليه السلام على كتب التفسير المختلفة ، وناقش كثيراً من آراء المفسرين .

مجتمعنا العربي كما ينبغي أن يكون :

تأليف : أحمد محمد جمال

الناشر : رابطة العالم الإسلامي

هذا الكتاب على إيجازه ، قدم لنا موضوعا على جانب من الأهمية ، فالتيارات الدخيلة التي تسللت إلى العالم العربي ، أضعفت كثيراً من القيم التي كانت تسود المجتمع العربي ، ووجدت أجهزة الأعلام كلها مسخرة لها في نشرها .

وبعد أن كشف المؤلف الستار عن تلك التيارات الدخيلة ، رأى أن يقوم مجتمعنا العربي على أسس أربعة : هي نفس الأسس التي قام عليها المجتمع الإسلامي : أولا : أن الحاكم المسلم خليفة الله في تطبيق شريعته بين خلقه ، وثانياً : وحدة المحكومين وحريتهم ، وثالثا : الشورى ، ورابعا : حرية الاقتصاد .

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الاجابة للجنة الفتوى)

شرب الدخان :

السؤال :

ما حكم الشرع الحنيف فى شرب الدخان ؟

حسن الرملى

الجواب :

شرب الدخان إن ترتب عليه ضرر فى البدن كان ممنوعا ، وكذا إن ترتب عليه ضرر بالمال ، إلا إذا احتيج إليه لدواء ، فلا يكون ممنوعا حينئذ ، فإن لم يترتب عليه ضرر بالبدن أو المال ، ولم يحتج إليه لدواء ، كان مباحا استصحابا للأصل لأن الأصل فى الأشياء الإباحة .

قص شعر السيدات :

السؤال :

صاحب صالون السيدات يقص شعرهن ويصبغه ويكويه ، ويقوم بتزيين العرايس وتزجيج الحواجب .

فما حكم الشرع بالنسبة لذلك ؟

عبد الرءوف عبد الرزاق

الجواب :

ما تسأل عنه من شأنه إثارة الغرائز والإيقاع فى الفتنة ، ولا حاجة تدعو إلى أن يقوم به رجل ، فغيره من النساء يصلح له فلا يحل له أن يتخذه مهنة ، تسترزق منها وواجبه أن يتخذ طريقا آخر للرزق غير هذا والمحافظة على دينه تحتم عليه أن يتخلى عن هذا العمل .

السؤال :

١ — هل يصح ذبح البقرة إذا مات والد الزوجة أو والدتها ، وإطعام الطعام عند أهلها كما هى العادة فى بلادنا ؟

٢ — هل يجوز أن تغنى المرأة العروس مع ضرب الدف ، والرقص والتصفيق ؟

٣ — هل يجوز ضرب الدف مع التصفيق أو بغير التصفيق ؟

٤ — هل يجوز عمل المولد النبى صلى الله عليه وسلم على أرض اليتامى إذا كان ينتفع منها اليتيم أو لا ينتفع منه ؟

٥ — هل يجوز تقديس بعض الأماكن اعتقادا بأن وليـــا عاش عليها ، أو عبد فيها الله ؟

محمد إسماعيل أبو دانيوس ـ أرتهريا

الجواب :

عن الأول : بأن ذبح البقرة أو غيرها حين الوفاة بنية التصدق على الفقراء وإهداء ثوابها للميت لا شيء فيه ، إذا لم يصحب ذلك حب الرياء والسمعة وكون ذلك فى بيت الميت لا مانع منه .

وعن الثانى والثالث : غناء النساء فى الأفراح للعروس ، وضرب الدف لذلك لا مانع منه إذا لم يقترن بمحرم من اختلاط الرجال بالنساء ، أو غـــير ذلك أما الرقص والتصفيق ، فغـير جائز ، إذ هو من اللهو غير المباح .

وعن الرابع : بأن عمل المولد النبوى لا مانع منه ، إذا لم يصحبه محرم ؛ وعمله على أرض اليتامى جائز إذا لم يترتب على ذلك ضرر بهم .

وعن الخامس : بأن الأماكن التى ورد الشرع بتعظيمها كمشاعر الحج والمساجـــد وخاصة المساجد الثلاثة لا مانع من تعظيمها ومراعاة حرمتها ، وما عدا ذلك مما لم يرد فيه نص فلا خصوصية له على غيره .

السؤال :

فى عام ١٩٠٠ اشترى (أ) من (ب) قطعة أرض مساحتها فدان بمبلغ ٤٠٠ جنيه ، وظل المشترى يماطـل فى أداء الثمن ، حتى تغيرت الظروف الاقتصادية ، فارتفعت قيمة الأرض فأصبح ثمنها ٨٠٠ جنيه فى عام ١٩٦٠ ، وهو عام السداد .

هـل يسدد المشترى مبلغ ٤٠٠ جنيه فقط أم يسدد مبلـغ ٨٠٠ جنيه وهو السعر وقت السداد ؟ .

فتحى محمد الكشكى

الجواب :

المستحق هو الثمن الذى وقع عليه العقد ، وتغير الظروف وارتفاع قيمة الأرض المبيعة لا يؤثر فى صحة العقد ، ولا يغير من قدر الثمن فإنها ارتفعت قيمتها ، وهى فى ملك المشترى كما أنه لو انخفضت قيمتها بعد العقد فإن المستحق هو المسمى وقت البيع بدون نظـــر إلى ما حصل من انخفاض بعد ذلك .

السؤال :

رجـل مريض بالربو ، أمره الطبيب بأن يكون دائمـا فى حالة دفء يخاف من استعمال الماء البارد فى الوضوء أن يزيد من مرضه أو يؤخر من شفائه ، فهل له أن يتيمم للصلاة

عبد الدائم محمود عبد الله ـ الإسكندرية

الجواب :

إذا تيسر له تسخين الماء من غير مشقة وجب عليه تسخينه ، والوضوء منه ، وما لم يتيسر له ذلك ، أو كان فيه مشقة عليه ، جاز له التيمم بنية استباحة الفرض ، ولا يصلى بهذا التيمم إلا فرضا واحدا ، فكل صلاة تحتاج الى تيمم مستقل ، نعم يجوز له حينئذ أن يصلى مع الفرض نفلا بالتيمم الذى صلى به فرضا .

السؤال :

عندى طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات ملصق بإصبعه الخنصر اليمنى زائدة تشبه حبة حمص متدلية من آخر الإصبع ، وهذه الزائدة تكبر وتنمو معه .

وأخشى من استفحالها مستقبلا وقد عرضتها على أحد الأطباء فقرر قطعها إلا أنى شككت فى أن يكون فى ذلك حرمة على لأنه مولود بها .

فما الحكم فى قطعها ؟

عبد النبي أحمد غازى

الجواب :

الزائدة التى ولد بها ولدك بجانب خنصر يده اليمنى يجوز لك قطعها ، إذا لم يكن فى قطعها خطر أو كان الخطر فى تركها أكثر من الخطر فى قطعها ، ويمتنع عليك القطع إذا اختص الخطر بالقطع ، أو كان الخطر فى القطع أكثر من الخطر فى بقائها ، أو تساوى الخطر فى القطع والترك ويعرف ذلك بقول الطبيب العدل العارف .

النذر المعين وهل يغير مصرفه ؟ :

السؤال :

نذر لله احتيج لقيمته فى عمارة المسجد الوحيد الموجود بالقرية .

فهل يجوز صرف هذا النذر فى عمارة المسجد . ؟

وهذا النذر - عبارة عن ذبيحة تذبح كل عام يدعى لها الفقراء ليطعموا منها ، ويقيموا ذكرا كما هو معروف .

محمد أحمد سعد

الجواب :

مصرف النذر هو ما عينه الناذر بنذره ، وما دام الناذر قد جعل مصرف النذر هو إطعام الفقراء فلا يعدل بذلك إلى صرفه فى عمارة المسجد .

السؤال :

١ - ما حكم الشرع فى كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية المعروفة ؟

٢ - هل يجوز إمامة رجل يعلم ابنه فى المدارس اللاتينية التى يدرس فيها القرآن

أيضا باللاتينية، ويرضى لابنه لبس البرنيطة ما حكم الشرع فى هذه المسائل؟

٣ — هل يجوز الاستماع لتلاوة القرآن الكريم من جهاز (الراديو) — وما حكم هذا فى الشرع بالتفصيل؟ وما الفرق بين ما إذا كان تسجيلا أم لا؟

بعض علماء اليونان

الجواب:

نجيب عن الأول بأن اللغة اللاتينية خالية من عدة حروف توافق الحروف العربية فلا تؤدى جميع ما تؤديه اللغة العربية بحروفها فلو كتب القرآن الكريم بالحروف اللاتينية على طريقة النظم العربى كما يفهم من الاستفتاء لوقع الإخلال، والتحريف فى لفظه، وتبعها تغيير المعنى وفساده، وقد قضت نصوص الشريعة بأن يصان القرآن من كل ما يعرضه للتبديل أو التحريف.

وأجمع علماء الإسلام سلفا وخلفا على أن كل تصرف فى القرآن الكريم، يؤدى إلى تحريف فى لفظه، أو تغيير فى معناه. ممنوع منعا باتا ومحرم تحريما قاطعا. وقد التزم الصحابة رضى الله عنهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا كتابة القرآن الكريم بالحروف العربية.

ومن هذا تبين أن كتابة القرآن بالحروف اللاتينية المعروفة لا يجوز، ومن اشتغل بهذا فهو فاسق، وإمامته مكروهة، فإن استحل ذلك كان كافرا لا تصح إمامته —

وعن الثانى: بأن تعليم الولد فى تلك المدارس من حيث هو تعليم. لا شىء فيه إذا كان خاليا عما يمس العقيدة والدين، غير أن مزج المناهج فى تلك المدارس بحصص تعليم القرآن باللاتينية الذى هو غير جائز، والذى لا يمكن التلميذ أن يتخلف عنه لأنه يجب عليه أن ينتظم فى سلك الدراسة مع أقرانه يجعل تعليم الولد فيها منهيا عنه إذ أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

أما لبس البرنيطة فقد أصبح غير خاص بالكفار فلا شىء فيه.

وعن الثالث نفيد بأن استماع القرآن الكريم من جهاز (الراديو) لا شىء فيه، بل هو عبادة متى كان محافظا على آداب الاستماع، (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون). وهذه الكيفية من القراءة (فى الراديو) لا شىء فيها، بل هى من باب «وتعاونوا على البر والتقوى»، لما فيها من نشر القرآن الكريم وإذاعته بين الناس لعلهم يهتدون، ولا فرق بين أن يكون ذلك تسجيلا أو من المقرئ نفسه فى الإذاعة ...

الزواج من مطلقة أبى الزوجة.

السؤال:

تزوج رجل بامرأة، وتزوج والد زوجته بامرأة أخرى، وحصلت مفارقة بين والد


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

القرآن ؟ فهل تفهم جوهر العقيدة التي تسلمها الأولون من السيد المسيح ؟ » .

الفريد هافنيث

* * *

يبدو أن الأب الفريد لم يقرأ العبارة التي وردت في آخر المقال عن أن القرآن وثيقة دينية إلى جانب أنه وثيقة تاريخية ، في ضوء ما سبق من كلام ، تخيل إليه أننا نخلط بين النص الديني والنص التاريخي ، ولذلك وجب أن نبرز المعنى المقصود تفصيلا بعد أن أجملناه بقولنا « والقرآن مرآة صادقة للعصر الذي نزل فيه على محمد عليه السلام » .

فالقرآن من جهة أنه « مرآة » لهذه الفترة التي نزل فيها منجما في بضعة وعشرين عاماً ، يؤرخ كذلك لهذه الفترة ، لا بالذات بل بالعرض ، لأن غرض القرآن بالذات بيان أصول الدين من إثبات وجود الله ووحدانيته وصفاته ، ثم إثبات نبوة الأنبياء والرسل وآخرهم محمد خاتم النبيين ، ثم البعث في الآخرة .

وبيان أصول التشريع والعبادات والمعاملات والأخلاق . أما بالعرض فإن الآيات المختلفة نزلت في مناسبات ووقائع ، فكانت تصويرا الجدل بين النبي والكفار من أهل قريش أو اليهود الذين كانوا يحاجون النبي ، أو كانت تشريعا نزل بعد غزوة أو غير ذلك . ونحن نعرف أن العرب كانوا أمة أمية لم يعنوا بالتدوين في كتب ، ولولا ان هذه الأمور أثبتت في القرآن ما علم بها أحد . وإنما حفظ العرب من جاهليتهم قصائد من الشعر ، وبعض الأمثال ، جرت في صفحة الذهن من جيل إلى آخر حتى دونت بعد قرن من الزمان من ظهور الإسلام . وقد شك كثير من العلماء في الشعر الجاهلي وذهبوا إلى أنه وضع وضعاً بعد الإسلام . ولكن هؤلاء العلماء - وهم من المستشرقين ، لم يشكوا أبداً في القرآن ، لأن تدوينه وحفظه تم في زمان مبكر في عهد عثمان بن عفان ، وروعيت في كتابة المصحف ضمانات شديدة تبعد عنه أي شك . وإذا كان القرآن نصاً صادقاً ووثيقة صحيحة ، فقد اعتمد عليه بعض المستشرقين في تصوير حياة النبي ، كما فعل الأستاذ بلاشير في كتابه عن « محمد » إذ اتخذ من القرآن نفسه أول مصدر ، يتلوه في القيمة الأحاديث . فالقرآن يصف النبي بأنه « المدثر » أو « المزمل » ويأمره بأن يقوم لينذر . وفيه وصف كذلك لإيذاء العرب له ، وبخاصة أبي لهب ، كما جاء في القرآن « تبت يدا أبي لهب وتب » . وهكذا تستطيع أن تمضي من القرآن وحده فتستخرج منه صورة « صادقة » لحياة النبي ، ما دمت قد اتخذت من القرآن « وثيقة تاريخية » .

فلا حاجة فالأب الفاضل لأن يدعو « الباحث أن يميز بين الإيمان والتاريخ » كما يقول ، بعد ما وضحناه . ثم إن الذى دعا إلى التمييز بين القرآن باعتباره وثيقة دينية وبينه باعتباره وثيقة تاريخية ، البحث فى الحنيفية والحنفاء ، والموازنة بين ما ورد من أخبار جاهلية عن هذا المصطلح وبين ما جاء فى القرآن ، مما دعانا إلى ترجيح النص القرآنى على الأخبار الجاهلية ، للسبب الذى وضحناه من قبل وهو صحة النص القرآنى تاريخيا .

أما الملاحظة الثانية التى أوردها الأب الفاضل عن انحراف أهل الكتاب فى الجاهلية وضلالهم بصرف النظر عن حكاية القرآن عنهم ، وإثبات ذلك « تاريخيا » فالجواب أنه ليس لدينا دليل تاريخى سوى ما جاء فى القرآن ، وليست مهمتنا التنقيب عن هذه الأدلة التاريخية ، أما قوله « هل تغير جوهر العقيدة التى تسلمها الأولون من السيد المسيح فالجواب أيضاً من القرآن الذى كان يحاج أهل الكتاب : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » المائدة / ٧٣ . وفى المائدة أيضاً آية ١١٦ : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته » .

وليس لنا شأن بعقيدة المؤمنين بألوهية المسيح ، وألوهية السيدة مريم فإنهم أحرار فى فهم دينهم ، وعليهم هم أن يلتمسوا إلى جانب النصوص الدينية - إن وجدت - ما يثبت ذلك تاريخيا ، إن وجدت الأسانيد التاريخية فى القرن الأول ، ونود أن نحيل الأب على المجامع الدينية ، مثل مجمع نيقية الذى انعقد للتوفيق بين المذاهب المختلفة ، ولم ينته إلى نتيجة ، ونحيله أيضاً إلى تاريخ آريوس ، وإلى تاريخ النساطرة الذين كانوا يعتقدون بأن المسيح عليه السلام ذو طبيعتين وأنه كان على الأرض إنسانا ، ونحيله ثالثاً إلى الخلافات العديدة بين الملكانية وبين اليعاقبة ، وكيف كان الملكانيون فى مصر يعذبون اليعاقبة ؟

دكتور أحمد فؤاد الأهوانى

* * *

فى محيط الأزهر

• حددت مشيخة الأزهر يوم ٢٩ من شهر أبريل القادم موعداً لانعقاد المؤتمر الثانى لعلماء الدول الإسلامية ، هذا وقد صرح الدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بأنه روعى فى تحديد هذا الموعد أن يكون علماء المسلمين قد انتهوا من تأدية فريضة الحج ، وتفرغوا لنشاط المؤتمر .

في محيط العالم الإسلامي

• **إيران المسلمة :**

من المسلم به أنه لا يكاد يوجد عربي واحد أو مسلم واحد يستسيغ سياسة الحكومة الإيرانية ، ومجاهرتها بالعداء للقضايا العربية التي تتصل بأعماق الإسلام نفسه ، وأقصد قضية فلسطين .

والمعروف أن إيران المسلمة التي تضم عشرين مليونا والمسلمون بها أكثر من ٩٩ ٪ كلهم من الشيعة ، ماعدا زهاء مليون سني ، تقف هذا الموقف الذي تتحدى به شعور أربعمائة مليون مسلم ، دون أن تبالي بالمواقف الوخيمة .

ولعل أقرب الأمثلة اغتيال رئيس وزرائها الذي لقي حتفه برصاصات شاب مسلم متدين ، قال الشاب المسلم محمد بخاري في التحقيق : إنه أراد قتل حسن علي منصور رئيس الوزراء ، لأن سياسة حكومته مخالفة لمبادئ الإسلام .

وفي عام ١٩٥١ قتلت جماعة فدائيان إسلام رئيس حكومة إيران الأسبق علي رازمار ، وحاولت قتل حسين علاء رئيس الحكومة بعد أربعة أعوام ..

نريد أن نقول : إن الإسلام بخير في إيران ، وسوف يستطيع في القريب أن يضع حداً لطغيان شاه إيران ، وحكوماته التي يصنع منها الاستعمار أداة لتحدي العرب والمسلمين .

* * *

نيجيريا :

إن الأزمة التي بدت طلائعها في نيجيريا يجب أن نهتم بها ، وأن ندرك عن يقين أن الاستعمار البريطاني يلعب دورا خطيرا بتدبير مؤامراته على نيجيريا .

والذي لم تستوفه الأنباء حقه ، هو أن بداية الأزمة نشأت بعد أن هاجمت صحف نيجيريا الشرقية ، التي تسيطر عليها الوثنية وغيرها ، الإسلام هجوما عنيفا ، تصدت للرد عليه نيجيريا الشمالية . ومن الجدير بالذكر أن نيجيريا يبلغ عددسكانها زهاء ٤٢ مليونا يمثل المسلمون بينهم أكثر من ٥٠ ٪ .

وفي نيجيريا الشمالية زهاء ١٧ مليونا يبلغ المسلمون منهم زهاء ١٢ مليونا ، وكانت تضم عدة إمارات إسلامية ، حتى وفد عليها الاستعمار البريطاني في القرن التاسع عشر عن طريق الشركات التجارية ، ووقعت في قبضته عام

• من المتوقع نجاح مباحثات البترول بين فرنسا والجزائر ، ومن المعروف أن هناك أملا فى إنتاج واحد وعشرين مليونا ونصف مليـــون طن من البترول سنويا ، وتنص الاتفاقية على أن تحصل الجزائر على نسبة أكثر من عوائد البترول ، وأن تزيد رقابتها على شركة البترول الفرنسية (ريبال) التى تمتلك الآن ٤٠ ٪ من أسهمها ، كذلك يقضى الاتفاق باشتراك فرنسا والجزائر فى تنفيذ عمليات اكتشاف واستغلال آبار البترول الجديدة فى الصحراء .

• ألغيت الأحكام العرفية فى العراق ، على أن تحل محل هذه الأحكام ، حالة الطوارىء فى الحالات الموجهـــة ، وأن تحال القضايا المعروضة عليها إلى محاكم أمن الدولة التى جرى تشكيلها .

• أذاعت وزارة الخارجية فى تركيا ، أن عدد القتلى من الأتراك خلال الأزمة القبرصية هذا العام بلغ ٢١٠ قتيل ، وعدد الجرحى ٢٣٥ بالإضافة إلى ٢٠٨ من المفقودين و٦٨٢ تم احتجازهم كرهائن أطلق سراحهم ما عـــدا ٢١ شخصا ما زالوا فى الاعتقالات لأسباب سياسية ، ومن الجدير بالذكر أن رئيس وفد تركيا فى هيئة الأمم قد صرح أخيرا : بعد أجل القوات الدولية ثلاثة أشهر فى قبرص بعد مارس القادم .

• الولايات المتحدة تعيد النظر فى معونتها لأندونيسيا بسبب انسحابها من هيئة الأمم ومن المعروف أن أمريكا خصصت عشرة ملايين دولار معونة لأندونيسيا .

• اجتاحت الاضطرابات الباكستان عقب الانتخابات التى فاز فيها أيوب خان ، ومن المعروف : أن فاطمة جناح المنافسة للرئيس المنتخب هى التى تتزعم المعارضة . هذا وقد تألفت لجنة من كبار رجال الحكومـة لإجراء تحقيق بشأن حوادث العنف التى وقعت فى كراتشى، وأدت إلى قتل بضعة عشر شخصا ، وجرح ٣٠٠ ، وتشريد ٢٠٠٠ شخص وعارضت المعارضة تكوين اللجنة ، ورأت تأليفها من رجال القضاء ، وليس من رجال الحكومة .

• طلبت الصومال من الجمهورية العربية المتحدة العدد اللازم لها من خـــبراء التعليم الصناعى لمعهد (هارجيسا) وذلك بعد انسحاب الخبراء الإنجليز عما عدد المعهد بالتعطل .

• صرح الرئيس ابن بيلا فى مقال نشر فى صحيفة (رينولوسيون إيه ترافاى) الأسبوعية التى يصدرها اتحاد العمال الجزائريين أن الإســلام يجب أن يكون قاعدة النظام الاشتراكى فى الجزائر، إن مستقبلنا يعتمد على الاشتراكية، والعودة إلى المصادر الإسلامية التى تكشف لنا عن ثورة التقاليد ، والثقافة القائمة على العدالة والحرية والإنسانية .

١٨٥١ . واعترفت دول أوروبا بهذا الحق في مؤتمر برلين عام ١٨٥٥ .

تركيا :

إن الأنباء التي ذاعت أخيرا من أن تركيا تنوى تعديل سياستها التقارب نحو الدول العربية والإسلامية ، مما يسر له كل عربي ومسلم .

وقد صرح سعدى كوكار العضو بمجلس الشيوخ التركى ، ورقيب بعثة الصداقة التركية التي زارت الأردن أخيرا بأن تركيا قررت انتهاج سياسة جديده تجاه الدول العربية تتسم بالتقارب والتفاهم ، وإقامة علاقات الصداقة ، وقد حث الدول العربية والإسلامية على تناسى الخلافات والتعاون من أجل قوة عالمية إسلامية ، كما ذكر أن تركيا ستعمل قريبا وتدريجيا على تخفيف علاقاتها بإسرائيل .

وهذا وقد زارت البعثة التركية دمشق وبيروت ، ثم القاهرة ، إننا نتمنى أن تصدق تركيا في اتجاهاتها الجديدة ، حتى تتخلص نهائيا من وصمة علاقاتها بإسرائيل ، فإن هذه النقطة بالذات هي التي تحدد نية تركيا نحو العرب والمسلمين .

تركيا الإسلامية التي يمثل سكانها الـ ٢٢ مليونا أكثر من ٩٨ ٪ من المسلمين ، والتي ارتبطت بالإسلام ارتباطا تاريخيا وسياسيا زهاء عدة قرون .

الكويت :

نشر أخيرا أن حكومة الكويت تفكر في إلغاء قرار حظر بيع الخمور وتعاطيها وذلك بعد أن توفى عدد من المدمنين بسبب إصابتهم بالتسمم لتعاطيهم الخمور ، وقالت صحف الكويت : إن الحكومة شكلت لجنة خاصة لدراسة مساوئ منع بيع الخمور ، وإمكان إلغاء قرار الحظر الذى صدر في منتصف عام ١٩٦٤ ، ومعظم حالات التسمم تنجم عن شرب ماء الكولونيا بدلا من المشروبات الروحية .

ونحن نرجو أن لا تخطو حكومة الكويت المسلمة : حكومة وشعبا ، هذه الخطوة ، فإباحة الخمر أقل ما يقال فيها : إنها تحد للشريعة الإسلامية ولا أظن أن وفاة بضعة أشخاص يمكن أن يكون وسيلة لإباحة الخمر التي حرمها الإسلام وما يترتب عليها من أضرار مالية وصحية تصيب المئات والآلاف فيما بعد .

* * *

أخبار قصيرة :

هددت أندونيسيا ماليزيا بالاعتراف بحكومة ثوار ماليزيا التي يتزعمها الأزهرى إذا ازدادت حدة النزاع بينها وبين ماليزيا .

والمعروف أن كثيرا من وساطات الدول لم تستطع بعد أن توفق بين ماليزيا وأندونيسيا .

et la plus détaillée qu'aucun enseignement pratique n'ait jamais fournie: mais, sous cet édifice colossale, nous le voyons jeter les assises les plus solides de la connaissance théorique. Posez-lui par exemple la question suivante : Sur quel fondement repose la loi du devoir Koranique, dans quelle source puise-t-elle son autorité ? Il vous répondra que la distinction du bien et du mal, avant d'être une législation céleste, est une révélation intérieure, inscrite dans l'âme humaine; qu'en dernière analyse la vertu tient son ascendant de sa propre nature et de sa valeur intrinsèque; et qu'ainsi Raison et Révélation ne sont qu'une double lumière révélatrice d'un même objet, une double traduction d'une seule et même réalité orgininelle, enracinée dans le found des choses.

Interrogez-le ensuite sur les caractères de cette loi et l'étendue de son pouvoir. Il vous dira que c'est une loi universelle et éternelle, qui assure à l'humanité ses légitims aspirations, mais qui s'oppose catégoriquement à ses appétits capricieux et arbitraires.

Interrogez-le en outre sur la responsabilité humaine, ses conditions et ses limites ; sur le moyen efficace d'acquérir la vertu ; sur le principe supérieur qui doit déterminer la volonté à agir, ou sur n'importe quel principe général qu'un moraliste conscient de son œuvre ne peut se passer de s'en faire une idée. Vous y trouverez à chaque question une formule précise et tranchante qui s'impose comme l'unique réponse, propre à rallier les consciences les plus éveillées et les plus équilibrées.

Et ce qui achève de capter notre admiration, c'est de voir avec quel contraste frappant les réponses à ces questions se présentent dans le Kor'an et ailleurs. Eh bien ! Tandis que, sous la lumière instantanée du Kor'an, ces vérités fondamentales sont mises définitivement au jour depuis bientôt quatorze siècles, les pensées les plus laborieuses qui les recherchent en dehors de cette lumière procèdent encore par tâtonnement, n'en découvrent quelques fragments qu'à de très longues échéances, et non sans tomber le plus souvent dans des erreurs grossières.

Corrigé
par
IBRAHIM -M- EL ASSIL

Révisé et choisi
par
DR. AFIFY ABDUL - FATTAH

(suite)

simple, l'autre en une conviction profonde, agissante et entraînante— toujours est-il que la philosophie dans sa partie la plus élevée et la religion sous toutes ses formes ont un double objet commun : résoudre le problème de l'existence, son origine et sa destinée, et définir la manière d'agir la plus sage et la plus propre à procurer le bonheur.

Mais ce qui démontre mieux l'affinité de la matière Koranique en particulier avec celle de la philosophie, c'est qu'en exposant sa doctrine sur la vérité et la vertu, le Kor'an non seulement en appelle toujours au bon sens, incite constamment à la réflexion et à la méditation, mais il entreprend lui-même de prouver et de justifier ce qu'il avance. Bien plus ! la nature de ses arguments et la manière dont il administre la preuve son choisis de telle façon qu'elles convainquent les philosophes les plus subtils, les logiciens les plus rigoureux, en même temps qu'elles satisfont les exigences les plus réalistes, les goûts poétiques les plus raffinés, les intuitions les plus ordinaires. Il ne suffit donc pas dire que le Kor'an ne condamne pas la vraie philosophie, fille de la réflexion mûre et amoureuse de la certitude. Il ne suffit même pas de dire qu'il l'autorise ou qu'il l'encourrge ou qu'il se prête volontiers à son examen impartial. Il faut ajouter qu'il l'alimente d'une abondante matière en sujets et en arguments.

Le Kor'an, certes, ne nous présente pas ces vérités fondamentales réunies sous la forme d'un système unifié. Mais, à défaut d'un tel système tout fait, n'existe-t-il pas dans ce Livre tous les éléments nécessaires et suffisants pour le construire ?

Que le Kor'an contienne tous les éléments fondamentaux de la philosophie religieuse : origine et destnée de l'homme et du monde, principes de cause et de fin, notions d'âme, de Dieu etc.. cela ne nous paraît point douteux, et le développement d'un tel sujet mériterait qu'on lui consacrât un travail indépendant.

Mais que ce Livre se soit prononcé en même temps sur les fondements de la théorie morale, voilà la première question que nous nous sommes posée dans la présente étude, et à laquelle nous avons consacré le plus gros de notre effort.

Et nous croyons être en mesure d'annoncer, dès à présent, qu'à la question ainsi posée, nous avons trouvé une réponse claire, pleinement affirmative.

Le Kor'an ne se contente pas, en effet, d'avoir posé la règle de la conduite de la façon la plus étendue

"La Morale du Korân"

Par

DR. MOHAMMAD ABDULLAH DRAZ

(4)

—La philosophie, au sens usuel du mot, est l'œuvre d'une pensée discursive, appuyée sur les seules lumièrs naturelles, et où l'on passe d'un jugement à l'autre avec une certaine méthode pour arriver à établir un système capable d'expliquer les choses en général ou un certain ordre de choses. Or il est évident que cet effort intellectuel et cette démarche progressive ne cadrent pas avec la lumière d'une révélation qui, sans recherche ni attente, inonde, l'âme et lui fournit instantanément un bloc de connaissances dans lesquelles les prémisses ne précèdent pas la conclusion, ni l'antécédent le conséquent.

Le Kor'an n'est donc pas une œuvre philosophique, en ce sens qu'il n'est pas le produit d'une philosophie et n'utilise pas les procédés d'acquisition philosophique. Ajoutez qu'il ne suit pas non plus les procédés didactiques des philosophes. A leur méthode rationnelle d'exposer (déinition, division, argumentation, objections et reponses) qui est d'une cohésion incontestable, mais qui n'affecte qu'un seul côté de l'âme, sa partie intellectuelle, le Kor'an substitue sa méthode à lui. S'adressant à l'âme tout entière, il lui fournit une nourriture complète, où la raison et le cœur ont leur part égale.

Ainsi l'enseignement Koranique et l'enseignement philosophique se séparent tant à leurs sources qu'à luers méthodes. En est-il de même de leur objet et de leur but ?

L'admettre, ce serait proclamer, sciemment ou inconsciemment que le Kor'an n'est pas un livre de religion. Car, quelles que puissent être leurs différences — que l'une prenne sa source dans le tâtonnement de la raison, l'autre dans la pleine lumière de la révélation, ou que toutes les deux se laissent guider parfois par le mirage de l'imagination; que l'une consiste en un savoir pur et

FASTING IN ISLAM

By : IBRAHIM - M - EL-ASSIL
(Islamic Research Academi)

"O you who believe! Fasting is enjoined on you, as it was enjoined on those before you, that you may ward off (evil)".(2:183).

Fasting, the third of the five pillars of Islam, is of profound significance to Muslims all over the world. To regard it as a mere injunction ordained by God for Muslims to obey, will be to minimize its overwheming blessing. It has in itself its own vitality, which is revealed only to the person who undergoes the exercise and experience of the fast. In its every part, fasting is never void of its quintessence which amply bespeak its greatness as a divine ordinance.

The universality and the purpose of fasting are stated and stressed in unequivocal terms in the Holy Qur'an as mentioned in preceded verse.

The institution of fasting is not peculiar to Islam,. Before the advent of Islam, fasting, was practised for the atonement of sins or for the attainment of salvation, when a man committed any transgression, he felt that he had incurred the warth of his deity, whom he wanted to propitiate by abstaining from food.

Fasting, then, was one of the methods of self-immolation. The ancients realized well that surfeiting prevents man from making spiritual headway, so that he becomes a slave to his Carnal desires. So we find fasting to be an important part of all divine religions.

But Islam gave to humanity a new interpretation of all ancient institution. Unlike the fasting of other religions, Islamic fasting is more genuine, pure and solemn inasmuch as it is neither a penance nor a punishment. It is one of the basic rungs of the ladder that leads to Heaven. Its aim is to enable Muslims to guard against tempting evils-animal passions, wicked words and impure thoughts. It creates a remarkable degree of unity and discipline among the Muslims. Total abnegation of food and drink is the order of the day in glittering palaces and in tottering huts.

Quran and Freedom of Belief

BY : MOHIADDIN ALWAYE

لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم .
(٢٥٦ البقرة)

"There is no compulsion in religion, the right direction is henceforth distinct from error. And he who rejects satan and believes in Allah grasped a firm handhold which will never break. Allah is Hearer and Knower."

Surah 11 (*The cow*) *verse 256.*

In this verse Qur'an declares that there should be no compulsion in religion. The Qur'an has also repeated that the belief in all prophets is an essential part of Islamic faith. As the Holy Quran says :"

إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما .
(١٥٠ ـ ١٥٢ النساء)

"Lo ! those who disbelieve in Allah and His messengers, and Say: We believe in some and disbelive in others and seek to choose a way in between ; Such are disbelivers in trouth., and for disbelievers we prepare shameful doom. But those who believe in Allah and His messengers and make no distinction between any of them, unto them Allah will give their wages, and Allah was ever forgiving, Merciful."

Surah IV (Women) verses 150, 151, 152

After establishing the necessity of belief in all prophets imperatively the Qur'an declares that all believers are one community :

إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون.
(٥٢ و ٥٣ المؤمنون)

"And lo ! this your religion is one religion and I am your lord, So keep your duty unto Me.

But they (mankind) have broken their religion among them sects, each group rejoicing in its tenets."

Surah XXIII (The belivers) Vorses 52,53

The above Quranic verses call the believers to work for communal amity and harmony. In this way Islam aims at to establish unity and brotherhood in humankind.

to this responsibility. On the Day of Judgment, God will direct His speech to both spicies. The Holy Verse says :

" O community of the Jinn and men, did there not come to you messengers from among you relating to you My messages and warning you of the meeting of this Day of yours ? . . .

It is noteworthy here that the Qur'an in its speech about the Jinn, did not make the belief in their existence as a basic principle in Islamic faith, as it did with regard to the Angels. The belief in the Jinn is derived only from the belief in the truthfulness of the Qur'an in its speech about them.

QUESTION :

What is the third basic principle of Islamic faith ?

ANSWER :

The belief in God and the Angels requires the belief in the messages from God to His servants through the Angels.

The divine messages are contained in the Divine Books which include the bases of faith, the ways of worship and the lawful and unlawful things.

Therefore, Islam requires faith in the Divine Books which were revealed to the Prophets of God, including the Holy Quran which was revealed to the Prophet Muhammed, the Scriptures of Abraham, the Torah of Moses, and the Gospel of Jesus.

QUESTION :

What is the difference between the Holy Quran and previous scriptures ?

ANSWER :

This difference may be summerized in the following :

First : The original texts of the previous scriptures were lost. What remained of them were mere translations. But the Quran is the only Divine Book which is still preserved in all its original language, word by word.

Second : Other scriptures were mixed with commentaries of interpreters, so that it is difficult to distinguish in them between God's words and human interpretations. The case is not so with regard to the Qur'an.

Third : Other scriptures were not recieved by their followers through authentic and successive transfer from one generation to another, as in the case of the Qur'an. The Pentateuch of Moses were not all written in Moses days. Some of it were authored after him by five centuries, some by seven centuries and even some other parts by more

(See page 7)

"And surely there are keepers over you. Honourable recorders. They know what you do".

These functions of the Angels are pertaining to the world of the unseen.

As we are not told about, the reality of the Angels and how they are created, but we are ordered to believe in their existence. It is not properly religious to initiate any information about their creation. It is a disbelief if we deny their existence, since the Holy Quran told us about them. One of the clear verses about the Angels is as follow :

"Praise be to God, the Creator of the heavens and the earth, who appointh the Angels messengers having wings two, three and four,

He increases in creation what He pleases. Surely God is possessor of power over all things".

QUESTION :

What is the difference between the Angels and the Jinn ?

ANSWER :

The Jinn are other kind of creatures pertaining to the world of the unseen. While the Qur'an did not tell us about the matter out of which the Angels were created, it speaks about the matter out of which the Jinn were created. It says :

"And He created the Jinn of a flame of fire."

On the other hand, while the Qur'an states that the Angels are in honourable close relation to God, and are immune from disobedience to God, it states that some of the Jinn are good and some are bad.

The Jinn differ from the Angels in that the latter convey the revelations of God to messengers and prophets, while the Jinn receive those revelations, like human beings, from messengers and prophets. We read in the Holy Qur'an :

"And when We turned towards you a party of the Jinn, who listened to the Qur'an ; so when they were in its presence, they said : Be silent. Then when it was finished, they turned back to their people warning them. They said : O our people ! We have heared a Book revealed after Moses, verifying that which is before it, guiding to the truth and to a right path. O our people ! Accept the Inviter to God and believe in Him.

He will forgive you some of your sins and protect you from a painful chastisment ".

Morevor, the Angels are not joined with human beings in the religious responsibility, while the Jinn are subject, with human beings,

FIFTH :

The belief in those words, moreover, creates in man will of power, courage and patience, for he knows that above his power there is the power of God. Thus he is not dismayed by misfortune, and he always be a follower of the way of truth.

SIXTH :

To witness that there is no god but Allah honours man and creats in him content and satisfaction, and purifies him from greed, envy and meanness. He will follow the lawful ways towards his all aims. This is because he believes that God is the Sustainer and Providor of everything.

SEVENTH :

This witness, also obliges one to act according to God's laws and orders. For he is certain that God knows everything, that He is nearer to him than himself, and that He is the All-Knowing. Thus one could not commit any bad action that is prohibited by God. He will hasten to good deeds and act according to God's commandments and orders in all situations, as the Prophet said : "Serve your God as if you see Him, if you see Him not, He sees you".

QUESTION :

What is the second basic principle of Islamic faith ?

ANSWER :

The second basic principle of Islamic faith is the belief in the Angels. The Holy Quran speaks about the Angels as unseen and immaterial creatures carrying different functions, through which they realize God's will in His universe. Some of the Angels convey God's revelation to His Messengers and Prophets, as the Quran says :

"The faithful spirit (Gabriel) has brought it (the Quran) on your heart that you may be a warner".

Some of them are directed to aid the prophets and make firm the believers, according to this verse :

" When your Lord revealed to the Angels : I am with you, so make firm those who believe".

Some others are delegated to give glad tidings to the believers who did good in this life and were abiding by God's orders. The Quran says :

"Say : the Angel of death, who is given charge, of you, will cause you to die, then to your Lord you will be returned".

Still some others are assigned to register peoples' deeds in this life so that their works are to be shown to them on the Day of Judgement. We read in God's Book :

The Fundamental Belief In Islam (3)

By : Abdul Wadood Shalaby

What are the practical effects of the witness that "there is no god but Allah", in individuals and society?

This belief creates in man the following effects :

FIRST :

The belief in the oness of god generates in man dignity and self-esteem. If one believes that God is One; that He is the Real Owner of this universe; that there is no harm neither benefit except through Him; that authority and power are only to Him; and that He is the One Who brings all things to life and death-if one really believes in all these he undoubtedly will have no fear from anybody, and will not be subject to any authority but God's alone.

SECOND :

The belief in those words creates humility in the soul, because who believes that there is no god but Allah cannot feel pride over others, and he realizes that Who gave him power and distinction can withdraw them from him if he misuses the favours of God on him.

THIRD :

The believer in those words knows certainly that the only way to success and prosperity is the good deeds. For he knows that the approach to God, the One and the Self-Sufficient, is only through good action. Other religions teach their followers false wishes when they preach that the "Son of God" has redeemed people against sins, or that they are - as followers of those religions-the children of God or His beloved ones, and thus they are immune from punishment for their crimes.

FOURTH :

That who declares faithfully those words harbours no dispair. When he believes that God owns the treasures of the heavens and the earth, he will be sure that God is Full of Mercy for His servants. Even when he is tried with misfortune or poverty, he still is hopeful in the eternal mercy of God.

your scientific Faculties, laboratories, and in the Faculty of girls, as Al-Azhar wishes you to be, that is to say the bearers of a glorious mission, and you must repay knowledge, because of its benevolence upon you, and this Country, for its kindness towards you and your university which provided for you all kinds of helps and instructions and take this opportunity of youth, before its departure and be keen in acquire knowledge, and make the book your best friend, because it is the pleasent companion in the lonliness and a best helper in company. May God bless you!

We cannot miss this occasion, as we are receiving this new academic- year, to beseech The Almighty God to protect the great President Jamal Abdul Nasser and to guide him to the path of success and victory.

Peace and God's blessing and mercy fall upon you!

(From page 11)

centuries. The case is the same in regarding the main four Gospels in the New Testment.

Fourth : The language of the scriptures were old and extinct while the language of the Quran is in the living Arabic.

Fifth : Creeds and laws of the old scriptures were pertaining to their respective followers. The message of the Quran, however, is directed to humankind in general and in all times.

Sixth : Other scriptures were not safe from change. Some shameful deeds were falsely ascribed to some of God's Messengers and Prophets, although they are immune from committing such things.

your scientific Faculties, laboratories, and in the Faculty of girls, as Al-Azhar wishes you to be, that is to say the bearers of a glorious mission, and you must repay knowledge, because of its benevolence upon you, and this Country, for its kindness towards you and your university which provided for you all kinds of helps and instructions and take this opportunity of youth, before its departure and be keen in acquire knowledge, and make the book your best friend, because it is the pleasent companion in the lonliness and a best helper in company. May God bless you!

We cannot miss this occasion, as we are receiving this new academic- year, to beseech The Almighty God to protect the great President Jamal Abdul Nasser and to guide him to the path of success and victory.

Peace and God's blessing and mercy fall upon you!

(From page 11)

centuries. The case is the same in regarding the main four Gospels in the New Testment.

Fourth : The language of the scriptures were old and extinct while the language of the Quran is in the living Arabic.

Fifth : Creeds and laws of the old scriptures were pertaining to their respective followers. The message of the Quran, however, is directed to humankind in general and in all times.

Sixth : Other scriptures were not safe from change. Some shameful deeds were falsely ascribed to some of God's Messengers and Prophets, although they are immune from committing such things.

By this, I do not mean that every one of those who received education from these schools and institutes was far from true patriotism and real nationalism, we find among the (men and women) who were bred up by these schools, some who bear high idealisms in themselves and whose behaviours are aiming at achieving good goals. And you may remember the martyr hero "Gawad Hussiny" in spite of his foreign culture and his English mother he has done his best in defending his country in "Port Said battle 1956".

I do not mean that all those who joined these schools were far away from Islamic spirit or patriotism, what I mean is that the aims of these schools and institutes could never be the Islamic teaching or patriotic training. Those who could overcome these methods, whether they were Muslims or good citizens, there is no doubt that they have good hearts and noble feelings because they were able, by the strong faith and confidence, to turned down the aims of the foreign plans and to foil the imperialistic targets through those methods and designs.

So, if the closing of doors of Al-Azhar before women, enabled many type of harmful culture to be entered to our homes, this harm has been doubled when Al-Azhar neglected the teaching of natural sciences and laboratory arts, then, it soon finds itself isolated from the society, and does not participate, in a way or other, in agriculture, industry, commerce or anything that concerns with man's conduct on this earth for his livelihood, and AL-Azhar's work became nothing but some words in a lesson or a preaching lecture in a pulpit.

Therefore, it was necessary in the view of the revolution, which was and is eager to the welfare of the nation, to develop Al-Azhar in a way that will provide our girls the same chance, what our boys are already getting in the field of knowledge and science, and by this way, it can also connect the scientific mission of Azhar with a laboratory mission. So Al-Azhar would, also be in a active position in the material sphere, as well as its persistent efforts in the spiritual field, and it will be able to deal with religious matters in the spirit of world matters and vice versa. And this is, in the just point of view, is the only way which enables Al-Azhar to serve man in his spirit and body, and to render good services to this country and to all humanity.

Student Girls and Boys !

You are our hopes, so you should be in your Universities, in

him, so, the Almighty God answered: "O! Zakaria you are asking me to do something for you which I did not do even for Myself".

Gentelmen :

There is no doubt that Al-Azhar University will follow her reverend father's methods and it will work for the achievement of the same goal. It will not be deviated from its Father's way except in what the changing modern life requires in changing methods and modifying means.

God has created man, firstly from blood and flesh and then soul and spirit, and each has its own characteristics and requirements. Al-Azhar has concentrated its endeavours in taking care with the spiritual side as much it has neglected the materialistic side, in other words, which are more closer to truth, Al-Azhar was directed to do so, for we knew that when the study circles of jurisprudence and literature were moved to Court yards of Al-Azhar free from the narrow sectarianism to the freedom of opinion and thought, it was the teaching centre of astronomy, medicine, mathematics, arithmetic and other sciences and special study circles-as history says-were held in many times for women folk. Women were getting their share in Al-Azhar circles until recently. Perhaps history has not forgotten to mention that great lady who had prepared to obtain the "Al-Azhar Alamia" Degree, and if that lady was allowed to pass the examination and if there were not some illusions in the minds of some people at that time, the system of women's education would have reached to a far and noble aim in Al-Azhar and we would have a more good society which understand the spirit of Islam and we would have saved our homes the evils of ignorance, or the evil of that knowledge, which was in many times, more dangerous than ignorance itself. Because, when Al-Azhar has shut its doors in the face of women, it opened, as much as it closed, doors to foreign schools and institutes, and our girls joined these institutes - girls are always the future mothers - so some of these schools and instituts were working to build homes and create generations which are closely connected with foreign civilization, and proud of it, because of the influence of the culture, that they have recelved through foreigners. This is not strange thing because people always believe in what thay knew and become enemies to what they donot know and the people are in resemblance with their culture more than their fathers and mothers.

where malice and hatred can hide and to be loosen from time to time to destroy the unity by differences and kill the connection by seperation and to disturb the stability and peace by fear and confusion. The degree of what happend in the different ages was not more than a frivolity which was stirred and faded away, and the extend of what is going on or what will be in future is not more than an article written by a writer in a magazine or a speech delivered by a speaker from a pulpit. Even those, whose religion is different from the religion of overhelming majority of the people of this country, the Azhar was and is still training the refractory souls to be kind to them and pave the way for peaceful existence with them in all walks of life.

The second of these two great facts represented in our country's position among other nations. Al-Azhar has done and is still doing a great deal of good deeds in this field also and is rendering valuable services to this country.

It is Al-Azhar which has filled the hearts of the enemies of this country with fear and respect as it filled the hearts of friends by love and affection. The country that have enmities, in different parts of the world, with adulation, as well as it have intimacies that bound her with care for its benefit and goodness; No doubt that this is a strong and powerful country. It was the right of those who add or take part in making the glory of their country to be honoured and to be loved.

By this it is the right of Al-Azhar, which has added much to the glory of this country, and has provided her with means of leadership, to receive from its citizens what a cause of their progress and a pillar of their glory and dignity is already receiving, whether those are agree or disagree with it because all the citizens are taking their share in the benefit, betterment and world goodwill which Al-Azhar is trying to achieve for all the citizens of this country whether they are Christians or Muslims. If hatred denied right and malice ignored the gratitude, we find in God's reward the best recompensation.

The right and gratitude of Al-Azhar are not the first that are denied, for howmany times have people denied even their Creator and ignored His blessings and let loose their tongues to speak about Him. One of our proverbial literature says that the Prophet Zakaria (peace upon him) has asked his Lord to save him from saying people against

and useful effort, the other is based on the fanaticism with the proud of race, blood and relationship. The wisdom is keeping pace with Islam in this matter because the distinction of people must be based on possible way and man has no choice in getting his colour or race, for if so, can any black skinned man to be changed to a white? or can any indian to be a persian, or a persian to be an arabian? So the problem of blood, race and colour is one the problems which causes misery to people, a misery that they have no hope to get rid of it as long as they have not the ability of choosing.

In this way Al-Azhar, has rendered to this human society, many good things which encircle a round the helping of principles, regardless of destinies of races and colours. It made the following Quranic verse as the Axis of all meanings of distinction.

« يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

" O mankind ! Lo ! we have created you male and female and we have made you nations and tribes that ye may know one another; the noblest of you, in the sight of Allah, is the best in conduct ".

By carrying this great and human mission, which is the message of the apostle, peace be upon him, Al-Azhar has done to all people these services and many like them, and by its great efforts it has taken out many people from darkness to light, and led them to the path of goodness it has, also, raised the dead alive, and made the slaves free in the broad meaning of world sphere. In this noble country the usefulness of Al-Azhar was very clear and the services of it were very valuable and perfect. Some selfish forces may be gathered on falsehood and some hearts may carry ill will and malice. Al-Azhar was unfortuntely, denied its right and ignored of its credit, perhaps some of the most closest people to it have said about it what Malik has said about wine or what freedom is saying about imperialism.

But those who bear illwill and malice can not hide two big facts which gave our country, through Al-Azhar, a great deal of Immortal goodness and an unforgetable glory.

The first of these facts is represented in the intellectual similarity which our citizens enjoy and this country is living, peacefully, under its shadow, even it has become impossible for any narrow religious difference to find for herself a place,

The object of Al-Azhar, in its long history, was only to be a circle in the sphere of calling to Allah and spreading the Message of Islam. It is easy to sum up this Message in three points for which all human kind are looking for to attain and trying to utilise their gains.

The first point : is to chase suspicion, perplexity and restlessness in the human society. The track down of these things means the chase of misery, for there is no misery that is more clear than the misery of perplexity when the hearts are disturbed and the beliefs are shaked.

Al-Azhar has carried the Faith of Islam, in its simplicity, moderation and easiness and by this Faith it has paved for the people the way of spiritual tranquility and stability, and has taken away from their shoulders the burdens of perplexity, anxiety and restlessness.

The Faith of Islam, in its simplicity, moderation and easiness, can be summedup as : that this Universe has one God, who have no partner, and His will, in reforming, in making people happy and in elevating is attached with a great messenger, the prophet Muhammad, prayers and God's peace be showered upon him who is the essence of all prophets and messengers.

The second point : can be summed up in the following : that Al-Azhar, in communicating the Message of the apostle, was always calling people to make themselves free from their tempts and passions so that they may liberate themselves from their conquerors and enslavers. A great number of forces have gathered round it (Al-Azhar) every where, carrying the banner of real freedom which assures that slavery to any one except God is unbearable burden, so let the humanity be liberated from all other kinds of slavery and to make it only for Allah, Lord of the worlds. Because all people are equal, and there is no superiority for Arabs on non-Arabs, except by Virtue. In this way Al-Azhar was, by a direct or an indirect way, a strong impulse in the human society to set the slaves free and to help them to regain their human dignity in many fields, in the, far and near World sphere.

The third point : the glorious Al-Azhar was always calling people to despise fanaticisms, of colour and race because all people came from Adam, and Adam was from dust. If one wants to be distinct, he has to be so by his good deeds and the great services he renders to the humanity. There are two ways for seeking distinction among people, the first is based on the good work

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYYAT

SHA'BAN 1384	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	JANUARY 1965

AL - AZHAR: Its Past and Present

By:

H.E. SHAIKH AHMAD HASSAN AL-BAQOURI

Rector of Al-Azhar University

The deliberations of the Academic - year of Al - Azhar University Commenced, this year, with a Conference held in the " Shaikh Muhammad Abduh" hall of Azhar. A large number of University professors and students were present. The Rector of the University, H.E. Shaikh Ahmad Hassan Al - Baqouri delivered a speech in the Conference.

It is not far from truth when we say that this speech is a historical document, as it will give the reader a clear idea of the message and the services of this great international Seat of learning.

The following is the English Version of the Arabic text of the speech — M. Alwaye.

"... On this day, by the preparation for the teaching of medicine, engineering and agriculture in faculties of these subjects, Al-Azhar University is taking a new step in its history. The University has already taken a step that made possible for it to pursue useful studies in the Faculty of Commerce and Faculty of girls, and it will take other steps in the near or far future which will help to begin many kinds of studies, and we do not know what or how it will be for it is still a hidden secret in the knowledge of All knowing Allah.

We beseech Almighty Allah that all the steps, which have been taken and what will be taken by Al-Azhar University should aim at acheiving the noble goal which was the aim of its great and reverend father "The glorious Al-Azhar Mosque".

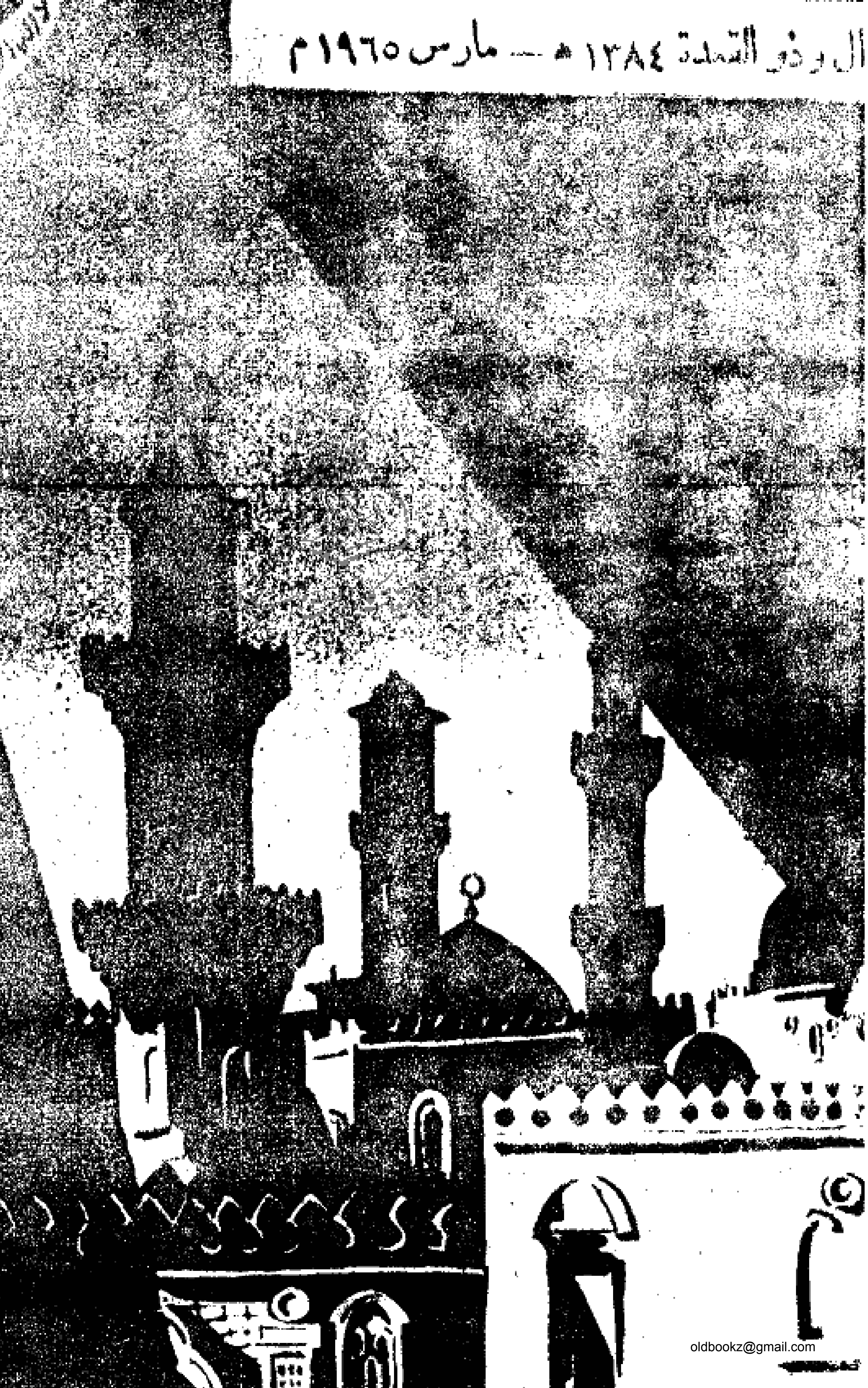
الفهرس

الثمن أربعون مليما

مطبعة الأزهر

مجلة الأزهر

ال ... ذو القعدة ١٣٨٤ هـ — مارس ١٩٦٥ م



مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مدير المجلة
عبد الرحيم فودة
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثامن والتاسع - السنة السادسة والثلاثون - شوال وذو القعدة سنة ١٣٨٤ هـ - مارس ١٩٦٥ م

أثر الأدب في ثورة العرب

بقلم : أحمد حسن الزيات

لا يمكن أن تكون ثورة إلا إذا سبقتها نهضة ، ولا يمكن أن تكون نهضة إلا إذا بشرت بها دعوة . والدعوة إما [!] نبي أو رسالة مصلح . وليس للنبيين من عدة إلا أدب الوحي . ولا للمصلحين من أداة إلا وحي الأدب . فالنهضة والثورة تتفقان في المصدر ، وتختلفان في المظهر : النهضة انتباهة والثورة انتفاضة . النهضة علاج يوقظ الوعي الغافي ، ويقوي الجسم الضعيف ، والثورة جراحة تستأصل الداء ، وتقي المريض النكسة . النهضة نهر فياض يتنفس بالحياة ويفيض بالخصب ويهيء البلاد العمران ، والثورة سيل جارف يحطم الحواجز ، ويقتلع الصخور ويهيء الأرض للربيع . النهضة دعوة باللسان ما دام هناك عقل مستعد ، والثورة جهاد بالسيف متى تغلب على العقل هوى مستبد . والنهضة والثورة قوامهما - كما قلت - واحد : هو الأدب . يكون للنهضة غذاء يحي ونوراً يهدي ، كما يكون للثورة وقوداً يشعل وناراً تطهر . فإذا زالت العقبات ، واستقرت الأمور ، وسكنت الثورة . انفرد الأدب بالنهضة ينفخها بروحه حتى لا تضوى ، وينضحها بنداه حتى لا تجف . وضراوة النهضة وجفافها معناهما المادية . والمادية

هى علة الشقاء للإنسان الحديث . أصيبت بها المدنية الأوروبية حين وقعت الجفوة بينها وبين الدين ، وانقطعت الصلة بينها وبين القلب فتباعدت القربى ، وتشعبت الحاجات ، وتنافست الأطماع ، وتكاشفت الأحقاد ، واضطرب الناس فى سبيل الكدح ، وألهبتهم حوافز النهم ، حتى عجزوا بخلقتهم وطبيعتهم عن مسايرة الحضارة الخالية من الروح والضمير والحب ، فـعوا بالطائرات وحلوا بالآلات ، ونظروا (بالتلسكوب) وسمعوا (بالميكرفون) . وضاقت عليهم الأرض برحبها فضربوا فى الآفاق، واختصموا على بلاد المستضعفين وحكموا بينهم السلاح ، فكانت هذه المدنية المادية أشبه بسعير الآخرة ، تنضج الجلود ولا تزهق الأرواح ليستمر الاضطراب ويتجدد العذاب ويدوم للطبيعة الخداعة هذا الثوب البراق بفضل هذا الإنسان الأحمق الذى يعمل ولا يعرف لماذا . ويسرع ولا يدرى إلى أين ! ...

لا نستطيع إذن أن نفصل بين نهضتنا والأدب ، ولا بين حضارتنا والدين اتعاظا بالفشل المروع الذى نكبت به الحضارة الغربية ، وإيمانا بأن انا نحن العـــرب رسالة روحية اصطفانا الله لأدائها جيلا بعد جيل ، ليبقى الاتصال بين السماء والأرض ، ويدوم المدد بين الله والإنسان .

سنظل مؤمنين مصدقين بما قال الله تعالى فينا : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وسنعتقد دائما : أن روح العروبة هو الأدب ، وحدها بعد شتات فى القرن السادس ، ثم أحياها بعد ممات فى القرن العشرين .

وفى هذين القرنين سجل التاريخ للعرب نهضتين عظيمتين مهدت الأولى للإسلام وكانت فتحاً لعالم جديد ، ومهدت الأخرى للسلام وستكون فاتحة لعالم أفضل .

كانت النهضة الأولى موطنها الحجاز، ومبعثها مكة ، ذلك لأن مكة كانت فى النصف الثانى من القرن السادس للميلاد محطاً للقوافل التجارية الآتية من الجنوب تحمل البضائع من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها فى أسواق الشام ومصر ، وكانت طرق مكة الموصلة آمنة لحرمة البيت ، ومكانة قريش ، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة آمنين فينزلون الأسواق ويهبطون المدن فيستفيدون بسطة فى العلم ، وقوة فى الفهم ، وثروة فى المال وخبرة بالحياة .

وكانوا بحكم إيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران ، أشد العرب

اختلاطها بالحبشة فى الجنوب ، وبالفرس فى الشرق ، وبالروم فى الشمال ، ثم كانوا على أثارة من العلم بالكتب المنزلة باليهودية فى يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء وبالنصرانية فى الشام ونجران والحيرة .

ذلك إلى أن مكة كانت فى الجاهلية كما هى فى الإسلام موضع البيت المحرم ، ومكان الحج المفروض فتفد إليها قبائل العرب من أقطار شبه الجزيرة يقضون المناسك ، ويتبادلون المنافع . وبفضل هذا الاجتماع الدينى العام كانت تقوم سوق عكاظ السنوية فى شهر ذى القعدة على مسافة قريبة من مكة ، فيجتمع فيها الحجيج وهم فى حمى الأشهر الحرم ، وحمى المدينة العامة المقدسة ، فيبيعون ويشترون . ثم تدعو طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول والمفاوضة فى الرأى والمبادهة بالشعر والمباهاة بالفصاحة . وكان الشعراء من أمثال : النابغة والأعشى ، والخطباء من أمثال : عمرو ابن كلثوم ، وقيس بن زهير ، والكهان من أمثال : قس بن ساعدة ، وأمية بن أبى الصلت ، يقومون فى هذه السوق مقامات مشهورة للمدح والفخر والوعظ . تحرض بعض النفوس على الشر ، وتوجه بعض النفوس إلى الخير ، وتسن للفتوة العربية خلال المجد ومناهج الحمد ، وتذيع فيما تذيع وحدة الخلق والعادة واللغة والغاية .

كان أثر عكاظ فى نهضة العرب أشبه بأثر الجناز فى نهضة الإغريق . كان الإغريق يقيمون الجناز للألعاب الرياضية فى مدينة (أولمبيا) كل أربع سنين كلما حجوا معبد (جوبتير) كبير الآلهة . وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم مدة الحج واللعب على نحو ما كان يفعل العرب فى الأشهر الحرم . ثم أصبح هذا الملعب الرياضى ميدانا لرجال الفكر والشعر والخطابة والتمثيل كان له الأثر البالغ فى ازدهار الأدب الإغريقى على الجملة .

على أن عكاظا كان أثره فى نهضة العرب والأدب أقوى ، ومداه أبعد ، فقد كان الرواة ينصرفون منه إلى أحيائهم وقرامهم ، وعلى ألسنتهم ما حفظوا من شعر ، وما سمعوا من قصص ، وما اكتسبوا من علم ، وما شهدوا من وقائع فينشرونه بين الناس فى السوامر والأندية فيتفتح الوعى ، وتنشأ المعرفة .

وهكذا اجتمعت الأسباب الطبيعية لنهضة عرب الشمال قبل الإسلام من احتشادهم فى هذه الأسواق ، واجتماعهم لأداء الحج ، واختلاطهم بأولى الحضارات والديانات من الأمم المجاورة ، واحتفالهم بقرض الشعر وتأثرهم به ، وطموحهم إلى المجد وسعيهم له ، حتى كان من ثمار تلك النهضة أولئك الأبطال الأعلام الذين قبلوا الإسلام وفهموه وفقهوه ونصروه ونشروه وقاموا على أمره ، كأبى بكر وعمر وعثمان

وعلى وعمرو وخالد وسعد . وليس أدل على نضج العقلية العربية فى ذلك الحين من هؤلاء . وكلهم من أقطاب الفكر والرأى والخطابة .

ولسلطان الأدب على النفوس فى هذه النهضة كانت معجزة الإسلام الوحيدة هى البلاغة وسلاحه القاطع هو التحدى ، ثم كانت من معارك الدعوة النبوية العظمى معركة الشعر . نشبت بين حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة من شعراء الإسلام ، وبين عبد الله بن الزبعرى وأبى سفيان ، وعمرو بن العاص من شعراء الشرك ، فلما اصطدمت الدعوة بالعناد ، ووضع المشركون فى طريقها السيف ، أمر الرسول بالجهاد فكانت الثورة وكان الفتح وكان السلام ، واستمر الأدب يؤازر الثورة كما آزر النهضة ، فكان يشجع القلوب بالشعر ويحمس الجنود بالقصص ، ويريض الأمور بالخطابة ، حتى ظهر الإسلام على الدين كله وتم نوره فى الشرق كله .

هذا إجمال القول فى النهضة العربية فى القرن السادس ، مهد لها الأدب ، ومهدت هى للإسلام ، وأتم الإسلام الألفة بين القلوب والوحدة بين القبائل ، ثم أشعل الثورة على الوثنية والاوستقراطية والفساد حتى طهر الأرض وحرر الناس ، ومدن العالم .

أما نهضة العرب الأخرى فى القرن العشرين وأثر الأدب فيها فهى موضوع المقال التالى .

احمد حسن الزيات

فى الإسلام

« ... الإسلام يريد أن يكون الخلفاء والولاة أمناء الناس على حقوقهم ، وأموالهم ومرافقهم ، يدبرونها عن ملأ منهم ، وعن مشاورة ومؤامرة ، ويمضونها فى غير تجبر ولا تكبر ، ولا أثرة ولا استعلاء ، ويدبرونها كذلك لا على أنهم سادة يمتازون من الناس بأى لون من ألوان الامتياز ؛ بل على أنهم قادة يثق الناس بهم ويطمئنون إليهم ، ويرونهم كفاءة للقيام على أمورهم ، فيعهدون إليهم بهذه الأمور عن رضا واختيار ، لا عن قهر أو استكراه . ثم يراجعهم فى هذه الأمور من شاء منهم أن يراجعهم فيها ، فإن استبان لهم أنهم أخطئوا كان من الحق عليهم أن يعودوا إلى الصواب ، وإن استبان لهم أنهم انحرفوا كان من الحق أن يستقيموا على الطريقة ... وعلى هذا النحو ... مضى النبى صلى الله عليه وسلم حتى إذا اختاره الله لجواره مضى خلفاؤه على سنته ... » . (طه حسين)

حكمة العيد وما شرع له

لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون
شيخ الجامع الأزهر

وجه الإمام الأكبر فضيلة الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر تلك الكلمة الطيبة للمسلمين فى استقبال عيد الفطر المبارك :

أيها المسلمون : باسم الله أحييكم ، فى اليوم الذى حياكم الله به بجعله لكم عيداً تستقبلونه بالبهجة ، والانشراح ، وتديمونه فى الزينة والبهاء ، تتزاورون فى صفاء ، وتلتقون فى ولاء ، تتهادون فى سخاء ، وتتوادون فى وفاء ، وتتعاونون فى أريحية ، وتتكافلون بالعطية ، كلكم باسم الثغر ، منطلق الأسارير ، طروب القلب ، تتجلى صفاء نفسه على جوارحه بشاشة تلاق ، وحرارة عناق ، وعذوبة تحلب ، ورائق مجاملات ، وهكذا يريدكم الله دائماً كل وقت ، كلكم سعيد ، وكل يوم فى حياتكم عيد ، ولا يتم لكم أيها المسلمون ذلك إلا إذا فهمتم حكمة العيد وما شرع له ، ورعيتم سره ، وما يقصد منه ، فالعيد فى الإسلام يختلف عن العيد فى غيره : فكرة وهدفا وحكمة ومزية . فالأعياد فى الأمم قد تكون الترفيه المجرد الذى يمكن الناس من حرية لا تنال فى جد الحياة ، وكفاح العمل ، وقد تكون لاستقبال أحداث جميلة تمر بالأمة . فيصيبها منها خير وبركة ونعمة وازدهار .

وقد تكون استعادة لذكريات سارة لها فى ضمير الأمم إكبار لما لها فى حياتها من آثار كحرية نيلت بعد نضال ، أو استقلال استخلص من احتلال ، أو نصر مؤزر على عدو ظالم ، وعدوان غاشم ، وكل هذه الأعياد ترجع لسبب واحد تهتز له الأمم كل عام ، وتتكرر فكرته الواحـــدة على الدوام ، ولكن أعياد الإسلام تميزت عن كل الأعياد ، بتجدد دواعيها ، فمع كل عيد مبررات الفرح به والبشاشة له والانشراح فيه ، فعيد الفطر الذى تستقبلونه اليوم يمثل الجزاء العاجل لمن قام بالواجب ، فمن حق المؤمن أن يفرح فيه لأنه أطاع أمر ربه ، فكف نفسه عن الشهوات ، وجاهد عادته بالجوع لتصفو ، وبالظمأ لتشرق ، وأصلح من مضغة قلبه فكف عن محارم ربه ، واستطاع أن يعيش شهراً كاملا صائم النهار ، قائم الليل ، مهذب النفس ، مثالى السلوك ، نقى السر رقيق الجهر ، جميل الفعل ، سخى البذل يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، فمن حقه أن يفرح لأنه انتصر على النفس ، وتغلب على الشيطان ، وأدى الواجب كما طلب منه ، ونفذ الأمر كما وجه إليه وإذا كان هذا فرحه بفطره . فكيف تكون فرحته بلقاء ربه .

أيها المسلمون : إنكم بهذا تستطيعون أن

تجعلوا كل حياتكم إسعاداً ، وتصيروا كل أيامكم أعياداً ، وذلكم يكون باستدامة طاعة ربكم ، والمجاهدة الدائمة لنفوسكم حتى تجدوا بعد كل طاعة فرحـــة ، ومع كل امتثال سروراً ، وعند كل جهاد عزة ، ومع كل كفاح راحة ، وبهذا تكونون أهلا لفروضات الله الدائمة ، وتجلياته المتتابعة وتصيرون أحقاء بمودة الله ، جديرين بمعيته في كل الشئون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أيها المسلمون : لقد عرفتم في رمضان تعالى الإيمان ، فلا تضلوا منه ، ولا ترجعوا عنه وإلا فغيرة الله على حدوده ومحارمه في كل زمان ، ولا يتميز بها رمضان عن غير رمضان ، فاستبقوا فضائله في نفوسكم ، وآثاره في سلوككم واجعلوا منه رياضة على التقوى طيلة عامكم فقد كرره الله كل عام ليجدد لليقين طاقته ، ويقوى للمؤمن عزيمته ، وإياكم أن تفسدوا على نفوسكم حكمة الله في العيد فتجعلوا فرحه لهواً ، وبشره لعبا ، ونديته تفاخراً ، وإحسانه إساءة وأشعروا بفرحة العيد كل بائس ، وأدخلوا نعمة الأمل على كل يائس ، ولا تحرجوا فقيراً إلى ذل مسألة ، ولا تلجئوه إلى خجل مظهره وصلوا الأرحام التي قال فيها الرحمن : من وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته ، وكونوا للأيتام أبا بالإحسان إليهم وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، وليجد المكدودون عندكم راحتهم ، والضعفاء عندكم قوتهم ، واجعلوا شكر نعمة الله عليكم برِّكم بعياله ، وبهذا تنعمون بمجتمع سعيد فاضل متكافل متكامل يتوجه بكل طاقاته لأمجاد أمته وإعزاز ملته .

أيها المسلمون : إن هـذا العيد لا يدرك فرحته ، ولا يحس البشر به إلا من قدم عليه هذا الجهاد من الصيام الحق ، والقيام الصدق والسلوك الورع ، أما من أسرف على نفسه وخالف عن أمر ربه فإنه يستقبله بحسرة ولا تغني ، وندم ولا يفيـد ، تنقبض نفسه حين يرى انبساط المطيع ، وتكون مظاهر السرور في عينيه قذى ونعمات النهانى في أذنيه جنادل فينَدك كبرياؤه ، ويحتقر نفسه ، وهكذا يكون ذل المعصية أمام عز الطاعة وخزى الضلال أمام جلال الامتثال ، وتخاذل البغى أمام شموخ الهدى .

أيها المسلمون : قبل الله صيامكم وقيامكم ، وألزمكم كلمة التقوى ، وأصح منكم العلن والنجوى ، وحياكم بتحياته الطيبات المباركات ، وجعل في وقوفكم بين يديه لصلاة العيد قرة عينكم ، وانشراح صدوركم وجعل تكبيركم له شارة حياتكم ، ورمز جهادكم فادعوه وأنتم ساجدون له : أن يوفق المسلمين في جميع البقاع ، إلى أحسن القول وخير العمل ، وأن يحقق لهم كل ما يصبون إليه من أمل ، وأن يمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وأن يوفق قادتهم إلى جمع كلمتهم حتى يتغلبوا على الأحداث ويردوا سهام أعدائهم إلى نحورهم .

وختاما أهنئكم أيها المسلمون في كل قطر وكل عام وأنتم بخير ؟

هيا إلى العيد الأكبر[١]

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

فى يوم من الأيام استدعى سيدنا إبراهيم عليه السلام، ابنه ليسير معه قليلا، وبينما هما سائران، خاطبه فى صراحة صريحة قائلا:

« يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك، فانظر ماذا ترى ».

فى هذا الإقليم الذى كانت الوالدة الحنون، تسعى فيه محزونة حيرى مشفقة تبحث عن قطرات من الماء، تحيى بها نفس هذا الغلام - الذى كان طفلا إذ ذاك - حتى لا يموت بين يديها ظمأ ..

فى هذا الإقليم الذى أنقذ الله الطفل وأمه فيه فتفجر الماء نبعا صافيا: فشرب الطفل؛ وشربت أمه وحمدت الله وشكرته.

فى هذا الإقليم، حاولت الأم جاهدة أن تحيى ابنها، وفى هذا المكان نفسه حاول الأب ذبحه استجابة للنداء فى الرؤيا.

سبحانك ربى !!! أتنقذه صغيراً، وتستبقيه قرة عين والديه: حتى تعلقت محبته فى القلوب، وغمرت كيان والديه: تأمر بذبحه، أشد ما يكون الوالدان حرصا عليه، ومحبة له؟

وما ذنب هذا الغلام البرىء؟

وما ذنب أمه؟

وماذا جنى والده، يختطف منه وقد أتاه على كبر، وبشر به من لدن الله، بشر به من مع وصفه بالحلم، والحلم سيد الأخلاق، فقال تعالى عنه: « وبشرناه بغلام حليم ».

إن حكمة الله فوق كل حكمة، وتقديره، سبحانه، فوق كل تقدير. وما ذلك الأمر فى الرؤيا إلا أسلوب من أساليبه، سبحانه، فى التربية: يخص به الذين اصطفى من عباده: « إن الله اصطفى آدم، ونوحا، وآل إبراهيم ... ».

وهذا الاصطفاء يقتضى صفاء وتصفية وإسلاما كاملا لله سبحانه، ولقد أسلم إبراهيم عليه السلام، نفسه وقلبه، وجمع كيانه لله سبحانه، ونجح نجاحا كاملا، فيما اختبره الله به من ألا يشرك مع الله أحداً فى الحب حتى ولو كان ابنه؛ حتى ولو كان هذا الابن أتى على لهفة وشوق إليه.

ها هو ذا يفرد الله بالمحبة، ويستعد

التضحية بابنه ، لا يتردد ، ولا يتباطأ . وإذا كان قد قال لابنه : « فانظر ماذا ترى ؟ » .

فما كان ذلك تخييرا للابن ، وإنما هو رغبة من الشيخ المؤمن فى أن يستجيب ابنه : طوعا لا كرها : فيكون الثواب والجزاء الحسن . لقد استجاب الشيخ وأسلم وجهه لله ، فكان بذلك مسلما . فما هو موقف الابن ؟

لقد حقق الابن أمل والده ، فأجاب فى غير تردد ولا تباطؤ : « يا أبت افعل ماتؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

لقد أسلم الابن : أسلم وجهه لله ، طمعا فى رضائه . وأحب رضاء الله ، فوق حبه لنفسه ، وللحياة الدنيا بأسرها ...

فلما أسلما إسلاما خالصا صافيا مطلقا : جاء الفداء من الله ، سبحانه ، فناداه :

« يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا : إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » .

هذا الإسلام منهما إنما هو لله سبحانه وتعالى وحده ؛ هذا هو الإسلام الذى استتبع الفداء ، هذا هو الإسلام الذى يستتبع حتما الفداء فى كل عصر ، وفى كل مصر ، هذا هو الإسلام الذى ينطوى فيه الإنسان إنطواء كليا تحت الراية الإلهية فيكون فى حماية الله ورعايته ، وعنايته : هو الذى يسجل بحفل تذبح فيه الذبائح يأكل منها البائس والفقير ، وتصنع منها موائد شهية تقدم للآكلين شكرا لله على هذه الهداية ، وهذا التوفيق الذى كانت نتيجته : « الإسلام » .

إن هذا الدين الذى كل فى القلب نضره بالنور ، وهذه النعمة التى أتمها الله ، وهذا الإسلام الذى رضيه سبحانه ... إن كل ذلك : لا بد له من عيد بل أعياد تعبر عن الشكر ، وعن الحمد ، وبمقدار قرب الإنسان من معنى الإسلام يكون عيده الأكبر .

ولكل إنسان عيده بمقدار إخلاصه لله ، وخشيته منه ، وخضوعه له ، وعبوديته الصافية أو المشوبة .

ما هى الوسيلة الكبرى التى تنتهى بها إلى العيد الأكبر ؟ .

إن من بين الوسائل الكثيرة التى بينها الله لتنتهى بالإنسان إلى الإسلام ... ثم إلى العيد - إن أسلم حقا - وسيلة كبرى هى : « الحج » .

وما من شك فى أن العيد هو أولا وبالذات ، لحجاج بيت الله الكرام ، وهو على الخصوص لمن أسلم - فى الحج - إسلاما صحيحا منهم ؛ وبمقدار تصحيح الدين ، وتصحيح الإسلام : يكون العيد .

وإذا كانت الأمة الإسلامية كلها :

تحتفل فرحا بالعيد ، فإن ذلك : إنما هو احتفال بهذه النخبة النادرة القليلة ، التى كمل دينها ، وتمت نعمة الله عليها ، وغمرها نور الإسلام .

أما هذه الوسيلة الكبرى للإسلام الخالص ، وبالتالى العيد - أعنى الحج - فإنها تبدأ أول ما تبدأ بالتوبة النصوح الصادقة ، ودعاء الله أن يجعل حجه خالصا لوجهه الكريم . ومنذ هذه اللحظة يقطع صلته بالماضى الآثم ليبدأ مستقبلا صالحا كريما . وتبدأ شعائر الله فى الحج بالإحرام : فيغتسل الإنسان ، وينوى غسل الإحرام ، ويتم له بذلك الاغتسال الباطنى بالتوبة النصوح والاغتسال الظاهرى ، إنه أصبح من المتطهرين ، وتثبيتا لذلك وعلامة على انقطاع صلته بالماضى ، وتجردا إلى الله : يفارق الثياب المخيطة ، ويلبس ثياب الإحرام : بيضاء ، ناصعة ، ثم ينوى (الإحرام بالحج) ومعنى ذلك : أنه أصبح خالصا لله ، مستجيبا إلى ندائه الكريم بأن : لا يتجه إلى سواه ، فينطق فؤاده ، وتنطق جوارحه : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك : إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) هاهو ذا الآن قد لبى : أى : استجاب إلى الله ، ونفى الشريك عنه سبحانه وقصر الحمد عليه واستقر فى كيانه : أن ما به من نعمة فمن الله ؛ وأن الملك كله لله ، والدنيا والآخرة ، الملك والملكوت له سبحانه : لا شريك له . هذه التلبية هى شعاره الدائم ؛ هى سنته المستقرة ، ينطق بها إذا صعد ؛ وينطق بها إذا هبط ؛ وينطق بها إذا ركب ؛ وينطق بها إذا نزل ؛ إنها ذكر فى كل لحظة ، فتصبح بذلك يقينا تاما .

حتى إذا ما انتهت به الأسفار إلى بيت الله الحرام ، ودخل المسجد قال هذه الكلمات التى تعبر عن التلبية بصورة أخرى وهى : « بسم الله ، وبالله ، ومن الله ، وإلى الله ، وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ويبدأ الطواف ببسم الله ، والله أكبر ، ها هو ذا يطوف بالبيت راجيا أن ينال نظرة من رب البيت : لعل الباب يفتح ، ولعل الأستار ترتفع ، لعل الأقنعة تتكشف فتزول ، لعل نسمات الرحمة تهب ، لعل رب البيت يأذن بالدخول ، لعل الرضا الكريم يغمر الأجواء والآفاق ، لعل الله يتقبل : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

ويبدأ السعى بين الصفا والمروة ، يبدأ بسم الله ، والله أكبر : إنه يسعى امتثالا لأمر الله ، ويسعى وهو متذكر تلك السيدة الكريمة التى كانت تسعى فى طلب الماء رحمة

بابنها : إنه يسعى طلبا للنبع الصافى الذى يتفجر من قلبه رحمة وإخلاصا : إنه يسعى ليشرب من الكأس التى يشرب منها الأبرار إنه يسعى ليشرب من العين التى يشرب بها عباد الله ، إنه يسعى فيمتلىء قلبه بالرحمة ، فيجد العين الصافية التى وجدها كل من حقق هدف الرسالة المحمدية « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ويجدها كل من قبل هدية الله إلى العالم ، وهدية الله إلى العالم : إنما هى سيدنا المصطفى صلوات الله عليه ، ورحمته وبركاته ، فقد قال :

(إنما أنا رحمة مهداة) .

إنه : صلوات الله عليه يمتزج بهذه الصفة الكريمة فيكون معها وحدة ، فهو رحمة ، وهو رحمة مهداة ، قبلها من قبلها : ففاز فى الدنيا والآخرة :

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا » .

(والحج عرفة) كما يقول صلوات الله عليه ، وفى عرفة تجتمع الأرواح وقد تزكت بالتوبة والإحرام ، والطواف ، والسعى : تتجه إلى الله فى ضراعة . وتدعوه سبحانه ، فى خضوع وتقف شاخصة ببصرها إلى السماء فى خشوع طالبة من الله الرحمة العامة الشاملة ، والرحمة الخاصة المنجية .

إن ربى قريب مجيب . إن ربى رحيم ودود . وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون .

أما بعد : فإن أعمال الحج فى أشهر الحج : تنتهى بهذه الصورة الرائعة صورة العزم المصمم على الابتعاد المطلق عن الإثم والمعصية ممثلة هذه الصورة فى رجم إبليس مصدر الشر والإثم : إن الحج ينتهى بقتل إبليس بالرجم - أو بتعبير أدق - ينتهى بقتل الشر حتى لا يتصلل مرة أخرى إلى النفس .

وأما بعد : فيقول صلوات الله عليه :

(من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) فإذا ما خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه : استحق أن يحتفل بالعيد ، وأن يهنأ بالعيد ... وها نحن أولاء قد عرفنا الطريق إلى العيد فهيا بنا نسلكه أيها المسلمون « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » .

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا) .

وبالله التوفيق ؟

عبد الحليم محمود

التثليث والصلب والقيامة والفداء
ونظائرها في الفلسفات والأديان السابقة

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

ترجع أهم الأصول التي تقوم عليها المسيحية الحاضرة إلى العقائد الآتية :

١ — ألوهية المسيح ، وقد استقرت هذه العقيدة في المسيحية بعد مجمع نيقية الأول الذي انعقد بأمر قسطنطين أمبراطور الرومان سنة ٣٢٥ ميلادية ، وذلك أن الفرق المسيحية قبل هذا المجمع لم تكن على رأي واحد فيما يتعلق بشخصية المسيح ، فبعضها كان يقول بألوهيته ، وبعضها كان يقول ببشريته ، وكان على رأس الفرق القائلة ببشريته أتباع أريوس ، وفي سنة ٣٢٥ ميلادية أمر قسطنطين أمبراطور الرومان بأن يعقد مجمع « مسكوني » أي مجمع يضم ممثلين لجميع الكنائس في العالم المسيحي ، يفصل أمر الخلاف بين أريوس ومعارضيه ، ويتخذ ما ينبغي اتخاذه من قرارات أخرى في شئون العقيدة والشريعة ، فاجتمع في نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة ، ولكنهم لم يستطيعوا الإجماع على رأي ، ويظهر أن قسطنطين كان يجنح للرأي القائل بألوهية المسيح ، فاختار من بين المجتمعين ثمانية عشر وثلثمائة من أشد أنصار هذا المذهب ، وألف منهم مجلساً خاصاً ، وعهد إليهم بأمر الفصل في هذا الخلاف واتخاذ ما يرون اتخاذه من قرارات أخرى في الشئون الدينية ، على أن تصبح قراراتهم مذهباً رسمياً يعتنقه جميع المسيحيين فانتهوا إلى عدة قرارات كان من أهمها القرار الخاص بألوهية المسيح وتكفير أريوس وحرمانه وطرده من هيئة الكهنوت : (فقد كان أريوس حينئذ قسيساً بكنيسة الإسكندرية) ، وتكفير كل من يذهب إلى أن المسيح إنسان وحرق جميع الكتب التي تتضمن هذا الرأي وتحريم قراءتها .

وكان من أشد أنصار هذا القرار والداعين إليه بطريرك الإسكندرية

ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الرأي عقيدة رسمية للدين المسيحي ، وأخذت المعتقدات الأخرى تنقرض شيئاً فشيئاً تحت تأثير ماكان يتعرض له أصحابها من اضطهاد وعذاب ، حتى انقرضت جميعها فلا توجد أية فرقة مسيحية لا تقول بألوهية المسيح . فهم الآن يعتقدون : أن الابن أو الكلمة أصل إلاهي ، وأن هذا الأصل قد تجسد في جسم المسيح ، وكل ما بينهم من خلاف في الوقت

الحاضر فى هذا الصدد يرجع إلى فهم هذا التجسد وما أضافه إلى الطبيعة الإلاهية الأولى، فبعضهم يذهب إلى أن المسيح ليست له إلا طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وهما الطبيعة الإلاهية والمشيئة الإلهية، وأن هذا التجسد لم يضف شيئا إليه؛ وهذا هو رأى ثلاث كنائس أرثوذكسية وهى: الكنيسة المصرية المرقسية، والكنيسة السريانية والكنيسة الأرمنية. وبعضهم يذهب إلى أن المسيح له طبيعتان، طبيعة إلهية، وطبيعة إنسانية، أى اجتمع فيه اللاهوت والناسوت بحسب تعبيرهم، ولكن ليست له إلا مشيئة واحدة وهى المشيئة الإلاهية، لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم إلهى واحد؛ وهو الابن أو الكلمة؛ وهذا هو رأى كنيسة صغيرة هى كنيسة الموارنة (أتباع يوحنا مارون) بلبنان، أما ما عدا هؤلاء وأولئك من المسيحيين فيذهبون إلى أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين؛ فهو يعمل ما يشبه الإله أن يعمل فى طبيعته، وما يشبه الإنسان أن يعمل فى طبيعته؛ وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها بمشيئتين غير متضادتين.

٢ — ألوهية روح القدس: وقد استقرت هذه العقيدة فى المسيحية بعد المجمع القسطنطينى الأول، وذلك أن الفرق المسيحية قبل هذا المجمع لم تكن على رأى واحد فيما يتعلق بطبيعة روح القدس، فبعضها كان يذهب إلى القول بأنه حادث مخلوق.

وكان من أشهر الفرق التى ذهبت إلى القول بحدوثه أتباع مقدونيوس، الذى كان بطريرك القسطنطينية فى القرن الرابع الميلادى فاجتمع من أجل ذلك فى القسطنطينية سنة ٣٨١م مجمع آخر اشتهر باسم المجمع القسطنطينى الأول، وكان عدد أعضائه مائة وخمسين أسقفا، وانتهى إلى إقرار الرأى القائل بألوهية روح القدس، وكانت كنيسة الاسكندرية من أشد الكنائس تعصبا لهذا الرأى، كما كانت من أشدها تعصباً للرأى القائل بألوهية المسيح.

وكان لأقوال بطريرك الاسكندرية والحجج التى أدلى بها فى هذا المجمع أثر كبير فى توجيهه إلى هذا القرار. ويصف ذلك ابن البطريق (وهو مسيحى من رجال القرن الثالث الهجرى) فيقول: «قال تيموثاوس بطريرك الاسكندرية فى هذا المجمع: ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله؛ وليس روح الله شيئا غير حياته؛ فإذا قلنا: إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن روح الله مخلوق؛ وإذا قلنا: إن روح الله مخلوق فقد قلنا: إن حياته مخلوقة؛ وإذا قلنا: إن حياته مخلوقة؛ فقد زعمنا أنه غير حى؛ وإذا زعمنا أنه غير حى؛ فقد كفرنا؛ ومن كفر به وجب عليه اللعن، واتفقوا على لعن مقدونيوس

فلعنوه هو وأشياعه ... وبذلك زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلثمائة والثمانية عشر أسقفا الذين اجتمعوا فى نيقية - الإيمان بروح القدس الرب المحيى .

وقد أصبح هذا الرأى عقيدة رسمية للدين المسيحى ، وأخذت المذاهب القائلة بحدوث روح القدس تنقرض شيئا فشيئا حتى انقرضت جميعها ، فلا توجد الآن أية فرقة مسيحية لا تقول بألوهية روح القدس ، وكل ما بينها من خلاف فى الوقت الحاضر فى هذا الصدد يرجع إلى تحديد الأصل الإلاهى الذى انبثق منه روح القدس ، فالكنيسة الغربية الكاثوليكية التى يرأسها بابوات روما تذهب إلى القول بأن : روح القدس منبثق عن الآب والابن معا ، بينما تذهب الكنيسة الشرقية اليونانية التى يرأسها بطاركة القسطنطينية (ويطلق عليها كذلك كنيسة الروم الأرثوذكس) إلى أنه منبثق عن الآب وحده .

٣ — عقيدة التثليث ، وبعد إقرار ألوهية المسيح وألوهية روح القدس أصبح الإله فى المسيحية عبارة عن ثلاثة أقانيم أى أصول ، وهى الآب (أو الأصل) والابن (أو الكلمة) وروح القدس ، والأقنوم الثانى : وهو الابن أو الكلمة هو الذى تجسد فى المسيح من التقاء روح القدس بمريم العذراء ، وهذه الأقانيم قديمة كلها وإن كان بعضها منبثقا عن بعض ، وذلك أن انبثاق بعضها عن بعض ليس انبثاق توالد ، بل انبثاق تلازم كانبثاق الضوء عن الشمس .

٤ — صلب المسيح وقيامته ورفعه : يجمع المسيحيون فى الوقت الحاضر وتجمع أناجيلهم الأربعة المعتمدة لديهم ، على أن المسيح قد تآمر عليه الفريسيون من اليهود والحكام من الرومان ، وساعدهم فى مؤامرتهم هذه يهوذا الإسخريوطى ، الذى كان أحد حوارى المسيح الاثنى عشر ، ثم خان عهده وأرشد هؤلاء إلى مكانه وإلى شخصه ، وأن هذه المؤامرة قد انتهت بالحكم على المسيح بالإعدام صلبا فصلب ثم دفن ، وأنه قام من قبره بعد ثلاثة أيام من دفنه (وهذا هو مايعبر عنه المسيحيون بالقيامة ، ويحتفلون به فى عيد يسمى عيد القيامة) وأنه ظل بعد ذلك مع حوارييه المسيحيين وتلاميذه وأنصاره أربعين يوما يعلمهم ويرشدهم ، ثم رفع إلى السماء وجلس على يمين أبيه ، يصرف شئون العالم ، وأنه سيتولى هو يوم القيامة حساب الناس على ما فعلوه فى الحياة الدنيا .

٥ — عقيدة الفداء أو الخلاص : يجمع المسيحيون فى الوقت الحاضر وتجمع أناجيلهم الأربعة المعتمدة لديهم أن المسيح قد صلب ليكفر بذلك عن الخطيئة الأزلية ، وهى الخطيئة التى ارتكبها آدم إذ عصى ربه وأكل من الشجرة ، فانتقلت الخطيئة بطريق

الوراثة إلى جميع نسله ، وكانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يبعثون لولا أن افتداهم المسيح بدمه ففى صلبه كان الخلاص للآدميين .

* * *

وغنى عن البيان أن هذه العقائد دخيلة فى المسيحية ويظهر أنها قد وفدت إليها من فلسفات قديمة ومن رواسب أديان ومعتقدات كانت سائدة فى البلاد التى انتشرت فيها المسيحية والتى احتك بأهلها المسيحيون ومن أهم الفلسفات والأديان التى تتضمن أشباها ر نظائر لهذه العقائد ويحتمل أن تكون المسيحية قد تأثرت بها كلها أو بعضها الفلسفة الأفلاطونية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، والديانة البرهمية والديانة البوذية والديانة اليونانية القديمة .

١ — أما الفلسفة الأفلاطونية . فكانت تذهب بصدد الألوهية إلى أن الله تعالى قد وضع بينه وبين العالم وسيطين يعتبران دونه وخارجين عنه ، وعلى نحو ما داخلين فيه ، أى تتضمنهما ذاته ، صادرين عنه ، دونه فى الكمال ، وبذلك أصبح ممكنا ، عن طريق هذين الوسيطين ، أن يصدر عن الله الواحد الكامل - البرىء من التغير - هذا العالم الكثير الناقص المتغير ، وأول هذين الوسيطين العقل وثانيهما الروح الإلاهى . وبذلك أصبح الإله فى نظر أفلاطون ثلاثة أصول أو أقانيم : أولها : هو مصدر كل كمال ويحوى فى وحدته كل الكمالات ، وهو يقابل مايدعوه المسيحيون الآب ؛ والثانى : هو العقل : وهو يقابل ما يدعوه المسيحيون الابن أو الكلمة ؛ والثالث : هو الروح الإلهى : وهو ما يدعوه المسيحيون روح القدس .

فالتشابه ، بل التوافق ، واضح بين أقانيم أفلاطون والأقانيم المسيحية فى طبيعتها ، بل فى أسمائها نفسها . وكل ما بينهما من فرق ينحصر فى أن أقانيم أفلاطون ليست فى نظره سواء فى الجوهر والرتبة ؛ بينما هى متساوية عند المسيحيين ؛ فالابن الذى يتولد من الآب لا يمكن فى نظرهم أن يكون أدنى كمالا منه ، وإلا صار من طبيعة الكامل أن يصدر اضطرارا عنه غير الكامل ، وهذا حط من رتبته ، وكذلك روح القدس فهو عندهم مساو للآب والابن . ومعروف أن أفلاطون قد ظهر قبل المسيح بأكثر من أربعة قرون (٤٢٩ - ٣٤٧ قبل الميلاد) ، وأن نظريته هذه كانت سائدة لدى اليونان والرومان الذين انتشر بينهم الدين المسيحى . فكأنهم لم يعتنقوا هذا الدين إلا بعد أن طوعوه لتفكيرهم وصبغوه بألوان فلسفاتهم .

٢ — الفلسفة الأفلاطونية الحديثة : وذلك أن أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠ م) زعيم مدرسة الإسكندرية ، وهى المـــدرسة التى تنسب إليها الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، كان يرى فيما يتعلق بالكون ومنشئه أن الله هو منشئ الأشياء لا يتصف بوصف من

أوصاف الحوادث ، فليس بجوهر ولا عرض ، وليس فكرا كفكرنا ، ولا إرادة كإرادتنا ، يتصف بكل كمال يليق به ، ويفيض على كل الأشياء نعمة الوجود ، ولا يحتاج هو إلى موجد ؛ وأن أول شيء صدر عن هذا المنشئ هو العقل ، وقد صدر عنه كأنه يتولد منه ، ولهذا العقل قوة الإنتاج ، ولكن ليس كمن يولد عنه ؛ ومن العقل تنبثق الروح التي هي وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ، ومنه يتولد كل شيء .

فوجه الشبه واضح كل الوضوح بين هذا المذهب من جهة وعقيدة التثليث التي استقرت عليها المسيحية من جهة أخرى . وإذا لاحظنا أن هذا المذهب كان منتشراً ومعروفا قبل مجمع نيقية بأمد طويل ، وأنه كان المذهب الفلسفي لمدرسة الإسكندرية ، وأن بطريارك الإسكندرية الذي نشأ في البيئة التي ساد فيها هذا المذهب كان من أكبر المدافعين عن عقيدة التثليث في مجمع نيقية وفي المجمع القسطنطيني الأول كما تقدم بيان ذلك ، إذا لاحظنا هذا كله ترجح الاحتمال الذي ذكرناه : وهو أنه يظهر أن العقيدة المسيحية الطارئة قد نشأت عن تأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

٣ ــ الديانة البرهمية في أوضاعها الأخيرة : وذلك أن الديانة البرهمية قد استقرت أوضاعها في آخر الأمر على الاعتقاد بتثليث الآلهة وصلب الإله وتقديم نفسه ذبيحة لتخليص الإنسانية من خطاياها ، أي على العقائد نفسها التي استقر عليها الدين المسيحي ، غير أن ثالوثها يختلف عن ثالوث المسيحيين في نشأة كل أقنوم من أقانيمه وعمله وصفاته ؛ ونظريتها في الخلاص والفداء تختلف كذلك بعض الاختلاف عن نظرية المسيحيين .

وذلك أنها تقرر أن الإله براهما كان قبل الوجود ، وأنه خلق العالم وسمى نفسه الخالق ثم انبثق الإله سيفا ، وهو الإله المدمر الموكل بالخراب والفناء ، ولو ترك هذا الإله وشأنه لفنيت السماوات والأرض ومن فيهن . ولهذا انبثق من براهما إله ثالث حافظ مجدد هو الإله فيشنو أو كريشنا . وهذا الإله الأخير قد خلص بني الإنسان بتقديم نفسه للصليب فداء عنهم . ومن ثم يصورونه مصلوبا مثقوب اليدين والرجلين ، وعلى قميصه صورة قلب إنسان معلق

فوجوه الشبه واضحة كل الوضوح بين هذه العقائد ، وما استقر عليه الدين المسيحي . فإذا لاحظنا أن البرهمية قد انتشرت في بلاد الهند وغيرها قبل ظهور المسيحية بنحو خمسة عشر قرنا ، وأن عقائدها قد تركت آثاراً واضحة في كثير من الأديان والنحل اللاحقة لها في مختلف أرجاء العالم ، ترجح ما ذكرناه من احتمال تأثر المسيحية الطارئة في عقائد التثليث والصلب والفداء بالدين البرهمي القديم .

٤ — الديانة البوذية فى أوضاعها الأخيرة : وذلك أن الديانة البوذية قد استقرت كذلك فى آخر الأمر على الاعتقاد بألوهية بوذا ، وأنه الابن الوحيد ، وأنه تجسد فى الناسوت وقدم نفسه ذبيحة ليكفر عن ذنوب البشر ، ومن ثم يسمونه : المسيح والمخلص والابن .

ولا يخفى ما بين هذه العقائد ونظائرها فى المسيحية من تطابق يكاد يكون كاملا . وهذا يرجح احتمال تأثر المسيحية الطارئة فى عقائد الابن والصلب والخلاص بالديانة البوذية التى ظهرت قبلها بنحو خمسة قرون .

٥ — الديانة اليونانية القديمة : تزعم الأساطير اليونانية أن الإله پروميتيه (پروميثيوس) هو إله النار وخالق الإنسان وحاميه ومؤسس حضارته وأنه صلب فى سبيله وذلك أنه لما طرده رئيس الإلهة جوبتيير من السماء وهبط إلى الأرض وقف حياته على العناية ببنى الإنسان ، فعدل صورهم ، وأصلح حواسهم ، ووهبهم العقل والتفكير وعلمهم مالم يكونوا يعلمون . ورأى أن النار تعوزهم فاختلسها من السماء وأهداها لهم ؛ فأصبحت حظاً مشاعا بينهم وبين الآلهة ، وكانت مصدر حضارتهم ، وقد أثارت فعلته هذه نقمة جوبيتير فصلبه على صخرة فى جبال القوقاز . ولكن پروميتيه — وهو الإله قد كتب له الخلود — لم يكن الصلب بمستطيع إهلاكه . فلم يسع جوبيتير إلا أن يفكر فى عذاب يلازمه أبد الآبدين . ووكل تنفيذ ذلك إلى ابنه هيفيستوس وإلى نسر من النسور الجارحة . أما هيفيستوس فقد كلف عمل قطع محماة من الحديد يغرسها الفينة بعد الفينة فى پروميتيه . وأما النسر فقد كلف أن ينقض على پروميتيه فيمزق أحشاءه بمخالبه ، ينهش كبده ؛ فإذا ما بدل كبدا وأحشاء أخرى عاد إليه النسر ضحى اليوم التالى فكرر فعلته معه ... وهكذا دواليك حتى قيض له الإله هيركول (هرقل) فكانت قيامته ونجاته على يديه .

ولا يخفى ما بين هذه الأسطورة وأسطورة صلب المسيح من اتفاق فى كثير من العناصر . فجبل القوقاز الذى صلب فيه پروميتيه يقابل جلجثه (أو الكالفير) الذى تقول أناجيلهم : أن المسيح قد صلب فيه ؛ وصلب پروميتيه فى سبيل بنى الإنسان يقابله ما يقرره المسيحيون من صلب المسيح لتخلص بنى آدم من الخطيئة الأزلية ... الخ — وقد حاول الفلاسفة من آباء الكنيسة أن يبرروا هذا التشابه العجيب بين أسطورة كانت رائدة فى عقائد اليونان قبل المسيحية بعدة قرون وما يقولونه فى صدد المسيح ، فذهبوا إلى أن أسطورة پروميتيه ليست إلا مظهرا من إرهاصات المسيح وتبشيرا بمجىء المخلص للعالم ألهمت به الوثنية اليونانية إلهاما .

دكتور علي عبد الواحد وافي

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدني

أحكام أخرى تتصل بالطلاق

٧ — (ختام البحث)

بقي بعد ما ذكرناه في الفصول السابقة أحكام أخر من شأنها أن تحد من كثرة الطلاق ، وأهمها :

١ — إيقاع الطلاق أمام القاضي أو بعد إذنه :

١ — الصيغ التي اعتبرها الشارع لا بد أن تؤدي مقتضياتها ما دامت قد صدرت عن يملكها مستوفية شروطها ، وهذا حكم شرعي مجمع عليه بين العلماء . ومن بين ذلك صيغة الطلاق فاذا أوقع الزوج على زوجته طلاقا توافرت فيه الشروط المعتبرة شرعا ، فلا بد من وقوعه ، سواء أكان ذلك أمام القاضي ، أم كان بعيداً عنه ، وسواء أكان بإذنه أم بغير إذنه ، فالطلاق حق مباح للزوج في الحدود التي رسمها الشارع له ، وقد استعمل حقه ، فليس للقاضي ، ولا للمشرع الوضعي ، أن يقول له : أنت أيها الزوج لم تستأذن في إيقاع الطلاق فلا يقع طلاقك ، أو أنت أوقعته بعيداً عني ، أو عمن هو نائب عني ، فلا يقع طلاقك : ليس له هذا ولا ذاك ، لأنه حينئذ يكون حائلا بين أن تأخذ صيغة شرعية مقتضاها الذي رتبه الشارع عليها ، وليس ذلك لأحد من الناس مجتهدين كانوا أو غير مجتهدين .

وهذا هو ما يسمى عند علماء الأصول « بالحكم السببي » وهو في قوة أن يقول المشرع : (جعلت الصيغة الفلانية سبباً في الحكم الفلاني) فإذا وقعت الصيغة وقع فلا يجوز لأحد من الناس بعد ذلك أن يقطع هذا الارتباط الذي ربطه الشارع بين السبب والمسبب لأن ذلك من شأن الشارع فقط كما أجمع عليه العلماء .

٢ — لكن ولي الأمر قد يلاحظ في أمر من الأمور أن الناس يسرفون في شأنه ، أولا يتحرون الشروط التي شرطها الشرع فيه ، أو يتعسفون في استعمال حقهم المشروع تعسفاً من شأنه أن يضر بالغير ؛ وقد يرى لمصلحة الأمة أن ينظم أمراً من الأمور المباحة على نحو يمكنه من تسجيل التصرفات ودراسة أحوال الناس من طريق إحصاء أحوالهم المعيشية أو الاجتماعية .

فلهذا أو ذاك يضع نظاما قانونيا يلزم به الناس ليحقق هذه الأغراض ، وله ذلك بشرط ألا يصادم ما هو مقرر بحكم الشرع .

ففي مسألتنا هذه يمكنه أن يشرع نظاما يلزم الناس ألا يوقعوا الطلاق إلا أمام من يمثل السلطة القضائية أو نحوها ، فيقول للأزواج : من أراد أن يطلق زوجته فلا يقدم على هذا التطليق إلا أمام القاضي ، أو بعد إذن القاضي ، ومن خالف ذلك فطلق زوجته بعيدا عن القاضي ، أو بغير إذنه ، فإن طلاقه يقع - لأن هذا هو حكم الشرع لكنى أعاقبه بالعقوبة التى يقررها قانون هذا النظام ؛ لأنه خالف أمرى ، وما هو من حق بمقتضى ولايتى .

فهو بهذا لا يكون خارجا على الشرع ، ولا معطلا لصيغة من الصيغ التى اعتبرها ، ولكنه إنما يقوم بدور تنظيمى يترتب على القيام به دفع ضرر ، أو تحقيق مصلحة .

والخلاصة : أن هناك فرقا بين أن يقول القانون : « لا يقع الطلاق إلا أمام القاضى أو بإذنه » وأن يقول : « لا يوقع الطلاق إلا أمام القاضى أو بإذنه » فالعبارة الأولى مصادمة لما قرره الشرع فى شأن الحكم السببى ، أما العبارة الثانية فهى نهى قانونى للمكلف فى شأن تنظيمى .

٣ - يأتى بعد ذلك ما يقال من أن إلزام الأزواج بالذهاب إلى القضاء - إذا أرادوا التطليق - سيجر إلى ذكر الأسرار ، وكشف كثير من المسائل التى يضر كشفها بالأسر ... الخ .

وهذه مسألة تقديرية تختلف فيها الأنظار ، فقد يرى بعض الناس : أن القضاء عادة هو المرجع عند الاختلاف ، وأن هناك قضايا كثيرة من قضايا الأسر تنظر أمامه ، وتكشف فيها الأسرار ، ولا مندوحة من قبول ذلك ، لأنه قد يكون أهون الشرين ، وأخف الضررين .

٢ - الإشهاد على الطلاق :

وهذه المسألة لها شيء من الصلة بالمسألة السابقة وأصلها قوله تعالى فى سورة الطلاق :

« يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله » .

فقوله تعالى : « وأشهدوا ذوى عدل منكم »

راجع إلى قوله : « فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف » ، أى إلى الرجعة والطلاق كليهما . والأمر فيه للوجوب لأنه ليس هناك قرينة تصرفه عن الأصل .

فمن أشهد على الطلاق فقد أتى بالطلاق على الوجه المأمور به شرعا ، وكذلك الرجعة.

ومن طلق ، أو راجع دون إشهاد فقد تعدى حدود ما أنزل الله فى هذه الآية .

بذلك يقول ابن عباس ، وعطاء ، وهو أحد قولين للشافعى ، وأحد قولين للإمام أحمد .

وذهب الشيعة الإمامية إلى وجوب الإشهاد على الطلاق ، وأن هذا الإشهاد ركن من أركانه ، فمن لم يشهد ذوى عدل على طلاقه فهو لغو كأن لم يكن .

فلو أخذ بهذا المذهب لخفف كثيرا من مآسى الطلاق ؛ إذ أن الغالب على الناس أنهم يتحرجون من حضور مجلس طلاق ليشهدوا عليه ، فيكون من هذا فرصة أمام الزوجين للتريث حتى يوجد من يشهد ، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمراً يعود به إلى الزوجين الصفاء .

وربما كان ذلك سبيلا إلى نقل الخلاف إلى القضاء ليتحقق من أن الشاهدين ذوا عدل كما شرط القرآن ، أو ليس أحدهما أو كلاهما من ذوى العدل ، ومن ثم يحجم الناس إلا قليلا عن الشهادة على الطلاق لكيلا يتعرضون فى مجلس القضاء النظر فى أنهم عدول أو غير عدول .

٣ — بطلان الطلاق فى الحيض .

وهذه مسألة يختلف فيها العلماء ، والمذاهب الأربعة تحكم بوقوع الطلاق فى الحيض ، ولكن هناك كثيراً من العلماء يرون عدم وقوعه ، ويستدلون على ذلك بأدلة كثيرة ، لا نطيل بذكرها ، حيث لا يتسع لها المقام ، وهى أدلة قوية يمكن التعويل عليها ، فيكون من ذلك تخفيف آخر لمشكلة الطلاق .

٤ — وجوب المتعة تعويضا للمطلقات :

١ — يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

« لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ، أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » الآية ٢٣٦ .

« وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون ، أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير » الآية ٢٣٧ .

وهاتان الآيتان تدلان على أن المطلقة قبل الدخول :

• إذا لم يسم لها المهر كان لها المتعة حسب وسع الزوج .

• وإذا سمى لها المهر كان لها نصفه .

وفى ذلك اتجاه واضح إلى تعويض المرأة المطلقة بعد أن تهيأت للزواج من رجل ثم حرمت من هذا الزوج فلم يتم دخوله بها .

بل يرى بعض العلماء أن التى سمى لها المهر يرغب الشارع فى إعطائها المهر كله ، لا نصفه فقط ، على سبيل الاستحباب ، وذلك أنه يفسر الاسم الموصول فى قوله تعالى : « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » بالزوج الذى طلق زوجته ، ويقول : إن الله تعالى يرغبه فى أن يعفو عن حقه فى أخذ نصف المهر ، أى يتنازل عنه ويعطيها المهر كاملا ، وقد يؤيد ذلك قوله تعالى : « وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم » ، فإن الأنسب أنه موجه إلى الأزواج لا إلى المطلقات ، ولا إلى أولياء الزوجات .

وقد أسند هذا الرأى إلى على ، وشريح ، وسعيد بن المسيب ، واختاره أبو حنيفة ، والشافعى فى مذهبه الجديد .

وقد روى الدار قطنى عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة من بنى نصر ، فطلقها قبل أن يدخل بها ، فأرسل إليها بالصداق كاملا ، وقال : أنا أحق بالعفو منها - قال الله تعالى : « إلا أن يعفون ، أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » .

وأيدوا ذلك بحديث رواه عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولى عقد النكاح هو الزوج »[1] .

٢ - ويقول الله عز وجل فى سورة الأحزاب :

« يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » الآية ٤٩ .

وظاهر هذه الآية أن المطلقة قبل الدخول ، لها المتعة ، ولم تقيد بعدم تسمية المهر ، كما فى الآية رقم ٢٣٦ من سورة البقرة التى سبق إيرادها .

وبذلك تكون المتعة لها ، وإن سمى لها المهر ، فالمتعة شىء آخر غير المهر .

• فمن رأى حمل هذه الآية المطلقة فى سورة الأحزاب ، على الآية المقيدة فى سورة البقرة ، حكم بأن غير المدخول بها - التى سمى لها المهر - ليس لها متعة ، وإنما حقها الواجب هو نصف المهر المسمى .

• ومن رأى حمل الآية المقيدة على الآية

(١) راجع ص ٢٢ من كتابنا « مناهج التفكير فى الشريعة الإسلامية » .

المطلقة - أى بالعكس - قال : إن المطلقة على عمومها ، والمقيد داخل فى المطلق باعتباره فرداً من أفراده ، وبذلك حكم بأن التى سمى لها المهر : لها متعة أيضا سوى نصف المهر .

وكل ذلك فى غير المدخول بها .

٣ - وقال الله فى سورة البقرة :

« وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » الآية ٢٤١ .

وفى سورة الأحزاب :

« يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » الآية ٢٨ .

والآية الأخيرة تدل على المتعة للمدخول بها .

والآية التى أوردناها قبلها ، تدل على أن المتعة عامة لكل مطلقة .

• ولهذا يرى ابن حزم : أن المتعة واجبة لكل مطلقة ، لا فرق بين مدخول بها وغير مدخول بها ، فيقول فى كتابه « المحلى » :

« المتعة فرض على كل مطلق ، واحدة ، أو اثنتين ، أو ثلاثا ، أو آخر ثلاث ، دخل بها أم لم يدخل ، فرض لها صداقها أم لم يفرض لها شيئا - يمتعها ، وكذلك المفتدية أيضا - أى التى طلبت من زوجها الطلاق على مال ، أى على سبيل الخلع - فلها المتعة أيضا ويجبره الحاكم على ذلك أحب أم كره ، برهان ذلك قول الله تعالى : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » . وقوله تعالى : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » ، فعم الله عزوجل كل مطلقة ولم يخص ، فأوجبه حقا لها على كل متق يخاف الله تعالى » .

• ويرى بعض العلماء أن المتعة واجبة لكل مطلقة إلا التى سمى مهرها ولم يدخل بها ، فإن نصف المهر متعة لها يغنى عن فرض متعة أخرى ، ويجمع بذلك بين النصوص .

وهذا هو مذهب الشافعى ، وقول لأحمد ، واختاره ابن تيمية .

* * *

بهذا يتبين أنه يمكن النظر فى تقرير تعويض للمطلقات استناداً إلى ما تقدم ، فيكون ذلك جبراً للمرأة المطلقة التى فرض عليها زوجها الطلاق ، وفوت عليها الطمأنينة فى بيت الزوجية ، ولا سيما إذا كبرت سنها ، وفات شبابها ، كما يكون فى ذلك أيضاً ردع للأزواج عن الإقدام على الطلاق إلا بحساب ؟

وقد انتهى البحث والحمد لله .

محمد محمد المدنى

نفحات القرآن

آية فيها نور للأبصار والبصائر

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

« هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نوراً ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين والحساب » .

١ — من عناية الله بنا أن ضاعف لنا أمارات الهداية ، وجعل من آياته المشهودة نظاما لحياتنا ... ووسيلة إلى تعرف الأحكام فى ديننا .

وأنت ترى فى الآية التى معنا توجيها إلى ربط الدين والدنيا ، بما يدلك على أن الله — سبحانه — لم يجعل أحدهما بمعزل عن الآخر ... بل أقام الدنيا دار عمل ، وسبيل أمل ... فليس على صواب من يحسبها حياة زمنية ليس بعدها جزاء .

وليس على صواب كذلك من يبخس الدنيا حقها ، ويحقر شأنها حتى يصورها فى صورة ممقوتة ، ويغرس فى الأذهان أن الاتجاه إليها مأثمة .

فإن فى هذا التصوير استهجانا لما أودع الله فيها من خير ، وتجاهلا لما يتاح بها من نعيم الخلود ...

٢ — وانظر قول الله : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » .

فهذا توجيه لنا إلى أمور مشهودة ، إذ لا يستطيع إنسان أن يجهل ، أو يتجاهل فضل الشمس ، أو القمر فى هذا الوجود الذى تتقلب فى آفاقه .

ذكر الله أنه جعل الشمس ضياء ، والقمر نوراً ... وهذا الإبداع مظهر لحكمته ، ومناط لمنافع خلقه ، وروعة فى جمال ملكه .

وفرق ما بين الضوء ، والنور : إن الأول أوضح سناء ، وأطول مكثا ، وهو لمنفعة النهار ، وقد جعل الله النهار معاشا .

وأما النور فهو أقل وضوحا ، وأسرع نهاية ، وهو لمنفعة الليل ، وقد جعل الله الليل لباساً ، نستقر فيه للنوم ، والاستجمام . وفى هذا يقول تعالى : « هو الذى جعل لكم

الليل لتسكنوا فيه ، والنهار مبصرا ، ، وذلك التنويع هو الأصل المفروض غالبا .

ومع ما فى ضوء كل منهما من منافع حيوية لكل ذى روح فنى كليهما خصوصيات يصلح بها الجو ، وينمو بها الحيوان ، والنبات ، ويتوقف عليها نضج الثمار المختلفة الأنواع .

ولو تصورنا الدنيا مجردة من شمسها وقمرها : كيف تكون بهجتها : « أو المقام فيها ، إنها لتكون ظلمة كظلمة الكهوف أو أشد » ، ولا تكون الدنيا مأوى صالحاً لذى روح .

فقضل الشمس والقمر فى الحياة ، هو عنوان الحياة .

وتلك إشارة القرآن فى قوله تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ... وسخر لكم الليل والنهار » .

وقد يذكر النور دون تفريق بينه وبين الضوء .

بل يقصد منه بوجه عام أنه نعمة قدسية من جانب الله .

وعلى هذا التعميم جعله الله مورداً لتشبيه الإيمان به : « فالإيمان نور القلب ... والكفر والضلال فى أى لون من ألوانه ظلمة القلب ... والقرآن حافل بالآيات فى ذلك التشبيه حتى جعل الله المؤمن بنور الإيمان مبصراً » ، وجعل الضال بظلمة ضلاله أعمى .

« وما يستوى الأعمى والبصير ... ولا الظلمات ولا النور » ... وهذا من البداهة .

وحينما أراد الله أن يضرب لنفسه مثلا لائقاً بعظمته ، وتصويراً لسابغ نعمه علينا اختار أن يصف نفسه بالنور ، فقال « الله نور السموات والأرض » ، فذكره النور ليس القصد منه أنه أقل من الضوء ، بل المعنى أوسع من ذلك التحديد .

ولفظ النور أعذب منطقاً فى أسلوب الآية من لفظ الضوء .

والمراد : أن الله صاحب النور المطلق فى ملكوته ، سواء : أكان النور حسياً من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، وكل ما يستضاء به ... أم كان نوراً معنويا بالهداية ، والتوفيق لطاعته .

فكل ذلك من معالم قدرته ، ومشاهد وجوده ، وألوهيته ... وكلها أمارات توحى إلى العقل بالطاعة ، وحسن الاستجابة .

ومن أجل هذا كان من دعوات الصالحين قديما أن يطلبوا نوره الكاشف عن صراطه المستقيم ، والعاصم لهم من عثرات الضلال ، فكانوا يقولون : اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نورا وعن شمالى نورا ... الخ

وهذا الدعاء يترجم لنا استسلام العبد لربه واعتصامه بحوله وقوته ، حتى لا يكون

للشيطان عليه سبيل ، وقد وعد الله بذلك من ينيب إليه فى إخلاص . « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن : فقد استمسك بالعروة الوثق ، وإلى الله عاقبة الأمور » .

٤ — ذكر الله الشمس والقمر ... والشمس هى هى ... والقمر يكون أول أمره هلالا .. ثم يكون قمراً بعد ثلاث ليال ... وحينئذ يتجلى نوره ، ويتألق فى سمائه ، ولهذا ذكر بلفظ القمر لاتضاح شكله ، وقوة ظهوره ، فيكون الامتنان به أوقع فى السمع ، وفى النظر وفى الاقتناع ... ولم يكن القمر أثناء ظهوره لنا حبيساً فى نطاق محدود ، بل هو سائر فى مجراه ، وقدره الله متنقلا فى منازل كما أن الشمس كذلك ليست حبيسة ، بل هما يتعاقبان ، ولا يدرك أحدهما الآخر « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

وإنما ذكر عن القمر دون الشمس أن الله قدر له منازل ، ليفيدنا أن القمر مع سرعته بالنسبة للشمس ليس مندفعاً فى انطلاقه ، بل هو سير رتيب ونظام مقدر .

ونحن ندرك نموه شيئا ، فشيئاً ، وندرك تنقله من غرب إلى شرق حتى يكتمل تمامه ثم يكون مطلعه من الشرق إلى الغرب عكس ما بدأ ، ويختفى رويداً ، رويداً عكس ما بدأ كذلك ...

وهذا ما صرحت به آية أخرى « والقمر قدرناه منازل ، حتى عاد كالعرجون القديم » والعرجون هو شمروخ النخل ونحوه ، فإنه ينمو ، ثم يجف أخيراً بعد رطوبته ويصفر بعد نضارته وخضرته ثم يتقوى بعد اعتداله

وحكمة ذلك فى القمر أن تتميز به الأوقات ونحتسب به الأشهر ونعرف به عدد السنين وحسابنا فى موعد الصوم ، والحج والأسفار ومدة العدة للنساء ، وغير ذلك من شؤون الحياة يعرف فى سهولة بالنظام القمرى الميسور .

فضلا عما فى أحوال القمر من أثر فى حياة الزرع ونضج الثمار .. وكذلك فى الشمس .

غير أن عادة الناس أن يلحظوا ذلك فى القمر كثيراً لدورانه بين نور فى ظهوره ، وظلمة بغيابه ، فيتضح لهم أن له أثرا بينا فى شأن الزروع ، كما أن للظلام نفعاً فى بعضها .

٥ — وتوكيدا لهذه الحكم الربانية فى أحوال الشمس والقمر ، يقول سبحانه : « ماخلق الله ذلك إلا بالحق ، فلا عبث ، ولا لهو فى صنع الله ، وإنما هى أوضاع مقدورة ، وإبداع صانع حكيم .

والله يفصل آياته ، ويبرزها على صفحة الكون ، وينسقها فى كتابه ، لتكون مشار علم ، ومشرق هداية لمن تهيأت مداركهم للعلم ، وتحررت عقولهم من لوثة العناد ، والإصرار على التقليد فى الباطل ، والركون إلى الجهالة .

وتوكيدا ثانيا : يقول الله : « إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » .

وبهذا التوكيد مرة ، بعد مرة تقوم الحجة علينا فى التخلف عن دعوة الله ، فليست لنا معذرة بعد توافر الأمارات على ربوبيته ، وألوهيته ، وحكمته فيما خلق ، وإبداعه فى كل ما تقع عليه العين ، ويحيط به النظر ، ويهدى إليه العلم فى جنبات الكون : علويه وسفليه ، وفيما بين السماء والأرض من كائنات لا يحيط بها غير علمه .

٦ — ولكن هذه الآيات إنما تجدى جدواها وتستلزم نتائجها عند من يوجهون أنفسهم ، ويتحللون من أهوائهم ، فيكشف الله عنهم رجز الشيطان . ويعيذهم من همزاته ، ويزيدهم هدى ، ويؤاتيهم تقواهم ... كما وعد فى كتابه : « والذين اهتدوا زادهم هدى ، وآتاهم تقواهم » .

وانظر تجد أن آية الشمس والقمر ختمت بقوله تعالى : « لآيات لقوم يعلمون » وأن آية الليل والنهار واختلافهما طولا ، وقصرا وتعاقب كل منهما للآخر : ختمت بقوله : « لآيات لقوم يتقون » وفى ذكر العلم أولا ، « والتقوى » ثانيا — توجيه بين : إلى أن العلم مرموق ، ومطلوب وأنه سبيل إلى التقوى عن بينة ، وفهم ، وحسن تقدير ، فتقوى العالم تكون أصح ، وأزكى من تقوى الجاهل

ومن خلال هذا ندرك أن الإشارة بالشمس والقمر ، والضوء والنور ... وأن التنبيه على اختلاف الليل والنهار : ليسا لمجرد ما ذكر من ظواهر النعمة ، بل الأمر أوسع من ذلك ... وأن هنا مجالا فسيحا للبحث العلمى العقلى فى منازل الشمس والقمر ، وفى ارتباط كل منهما بالآخر ، وفى تدرج كليهما فى فلكه الخاص ، وما وراء ذلك من علم بالكواكب والنجوم : مما حدثنا الله عنه تصريحا ، أو تلميحا .

وحينئذ : ندرك أن العلوم الكونية كالفلك ، والرياضة ضرورات ، لا يستغنى عنها الباحث فى توجيهات القرآن ، ولا الراغب فى المزيد من معرفة أهداف القرآن ، نعم : لم يجعل الله الاستيعاب فرضا عينيا ، وخفف عنا ، فألزمنا معرفة الأحكام ... لأنها الغاية الأولى فى تصحيح الدين والمعاملة .

ولكن التبحر فى المعرفة غاية لا تسقط فرضيتها عن الجميع ... بل هى رسالة القادرين على الاجتهاد فى كل جانب من جوانب العلم للدين ، أو للدنيا .

فإن الإسلام لا يقف بنا عند حدود معينة فى التفكير — ولا يرضى لنا أن نظل عيالا على جهود الغير فى باب الثقافة ، والمعرفة .

وكم أشاد بالعلم ، وبأهله : دون تقيد بنوع منه

دون نوع . وكم فضل أهل العلم على سواهم من أصحاب الحياة ، وأرباب الأموال وكم وعدهم ربهم برضوانه عنهم ، إذا هم قواعلما يهديهم .

ومع أن الله أفاض على رسوله ما أفاض من معرفة ، فقد حثه على التعلق بالعلم فى قوله « وقل رب زدنى علما » وهذا تشريع منه لخلقه عامة وللمسلمين خاصة .

وما ذلك إلا لما وراء العلم من خير الإنسانية ، ولما وراءه بالذات من وصول إلى الحق ، وهداية إلى الله .

وفى ضوء هذا نجد العلم الحديث يفيدنا فى فهم الكثير من الآيات الكونية كما سلف.

وليس حتما أن يكون العلم الحديث صادرا عن مسلمين ... فإن العلم هبة الله لفريق من عباده ـ ثم هو بعد ذلك ضوء ينتشر سناه بين المسلمين وغير المسلمين .

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فى ذلك « خذ الحكمة ، ولا يضرك من أى وعاء خرجت » ... ويقول : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها ! ! » .

ولا جدل فى أن علوم الدين خير ما يدركه الإنسان ، وهى أكرم حصيلة ينالها من جهده فى بحثه وهى الذخيرة الباقية مع صاحبها فى أخراه ، إن كان أمينا عليها ومهتديا بها فى غير تصنع ، ولا مراءاة والنبى يقول « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

وعلوم الدنيا وسيلة إلى أهدافها فى الحياة والحياة بحاجة إلى الكثير ، لتكون هنيئة لنا ، ومزرعة للآخرة . فإذا اقترن بعلوم الدنيا وعى صادق ، وقناعة إلى مشرق العلم ، وأنه منحة الله لمن هيأه له . كان ذلك سبيلا إلى الإيمان والإيمان والعلم على سواء ... ولا عداء بينهما إلا إذا كان علما ضارا . أو كان بريقا فى جنبات إنسان مغرور : فإنه عندئذ يحول بين القلب وبين الاهتداء إلى مشرقه الأول ويكون علما فى دائرة العيش الدنيوى ولا ينهض بصاحبه إلى نعيم الخلود فى حياة الخلود . ذلك الذى أضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » .

وذلك أيضا هو قول الله سبحانه عن علماء الدنيا . « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » يعنى أن جدوى العلم فى الدين أقوم شأنا وأبقى نفعا ولا يساويه علم الدنيا . وبعد : فأنا نجد فى الآية القصيرة كثيرا من المقاصد القدسية الهامة ... ونجد المجال الثقافى فى كتاب الله فضفاضا يتسع للاقتباس فى غير تكلف وهو مهيأ للأفهام .

وحسبنا ما ندركه ، والله يهدينا ، وينفعنا بالعلم ، وبالعمل . ويحفظنا من الضلال ، والجهالة .

عبد اللطيف السبكى

من بحوث مجمع البحوث

كتب ظاهر الرواية

للإمام محمد بن الحسن

بقلم الفاضل بن عاشور

— ٢ —

كان الإمام محمد، صاحب أبي حنيفة، قد انتصب لتدوين الفقه: تدوينا جامعا للفروع مستوعبا للمسائل، مفصلا للأحكام على تفاصيل الصور: بطريقة لم يسبق اليها أحد قبله في تصنيف الفقه. وكان اعتماده في جميع الأحكام، المفصلة على مسائلها، المطبقة على صورها، على ما قرره الإمام أبو حنيفة: مما روى عنه محمد بن الحسن مباشرة أو مارواه عنه أبو يوسف، مما وافقاه فيه معا، أو خالفاه معا، أو خالفه أحدهما ووافقه الآخر.

فكان هذا المنهج الجديد في تدوين الفقه بإيراد الصور مفروضة الوقوع لا واقعة نازلة وتفريع الصورة من الصورة بتفرع افتراضات الإمكان العقلي لصور الوقائع، متسلسلا بعضها عن بعض، والاجتهاد في تقرير الحكم الشرعي المنطبق على كل صورة من تلك الصور المفروضة، المتسلسلة على النحو الذي تؤلف عليه القوانين الآن، قد أعطى التدوين الفقهي صورة جديدة من البسط تتمثل في استيعاب المسائل بطريقة افتراض، بعد أن كان يقتصر فيها على النوازل الواقعة، كما تتمثل في بسط الأحكام، وبسط انطباقها على مناط الحكم من الصورة المفروضة بكيفية تختلف عما كان يسير عليه الإفتاء الصادر عن المجتهدين الأولين مؤسسي المذاهب من الإيجاز، والاقتصار. ولقد كان الإمام محمد بن الحسن يشعر كما يشعر الناس من حوله، بما بدا في صنيعه الجديد: من خصوصيات وميزات لم تكن للأوضاع الفقهية من قبله، فكأن لسان الحال، نطق عنهم وعنه، بوصف للمنهج الذي انتهجه، فجعل ذلك الوصف علما معنونا على ما ألف محمد بن الحسن، فسمى كتابه «المبسوط»، وبقيت هذه الكلمة كلمة «المبسوط» بعد وضعها العلمي، الذي وضعت به على كتاب: محمد بن الحسن الشيباني لا تخلو عن لمح للمعنى الوصفي الذي نقلت عنه بما يمثل منهجا خاصا في تدوين الفقه، فأطلق اسم «المبسوط» على طائفة كثيرة من الكتب الفقهية التي انتهجت ذلك المنهج، من أوضاع القرن الثالث والقرن الرابع والقرن الخامس.

سلك الإمام : محمد بن الحسن في تصنيف كتاب المبسوط . مسلك أخذ المواضيع الفقهية موضوعا موضوعا مستقلا كل موضوع منها عن الآخر ، على طريقة التبويب التي درج عليها الإمام مالك في الموطأ . واعتبر كل موضوع من تلك المواضيع : وحدة جامعة للمسائل المتفرعة منه والراجعة إليه ، بحيث أصبح الموضوع قائما بذاته مفرغا في قالب مستقل ، وكذلك أصدر محمد بن الحسن ما صنفه في الفقه كتبا كتبا بحسب المواضيع الفقهية : الصلاة ، والزكاة ، والمناسك ، والصرف ، والرهن والشفعة ، والوكالة ، والإقرار ، ونحو ذلك إلى عامة أبواب الفقه ، كما أوردها ابن النديم في الفهرست . فلما جمعت تلك الكتب ، وضم بعضها إلى بعض تكونت منها مجموعة تصانيف ، محتوية على أبواب الفقه بتفاريعها وتفاصيلها فأطلق على تلك المجموعة الكاملة ، الموزعة على كتب ، اسم شامل لمجموعها : هو اسم المبسوط . ولذلك فإن الفقهاء يذكرونه بهذين الاعتبارين . فمرة يعتبرونه كتابا واحدا ، وأخرى يعتبرونه جملة كتب فيقولون : قال محمد في كتاب العارية أو قال محمد في كتاب الوديعة ، ويعنون بذلك كتابا من مجموعة كتب المبسوط . وقد اهتم كثير من أئمة المذهب الحنفي باختصار المبسوط وكتبت على المختصرات شروح أهمها شرح شمس الأئمة السرخسي من رجال القرن الخامس على اختصار الحاكم الشهيد ، وهذا الشرح هو الذي اشتهر بمبسوط السرخسي . وقد طبع سنة ١٣٣١ هـ في ثلاثين جزءا بعناية المرحوم محمد بن ساسي التونسي . ولما كانت كتب المبسوط قد صنفت على وحدة المواضيع الفقهية ، وتحرى فيه البسط وتقليب الفروض وبيان اختلاف الرأي : بين الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وصاحبيه ، فإن غرض الحرص على ضبط مذهب أبي حنيفة وتدوين قوله مفردا عن الخلاف ، قد دعا إلى وضع مصنف جديد مبني على الاقتصار في المسائل على قول أبي حنيفة والتزامه . فألف محمد للوفاء بهذا الغرض - كتابا جامعا لأبواب الفقه كلها على النحو المقصود وهو كتاب الجامع الصغير فجاء مشتملا على مسائل تقدم ذكرها في كتب المبسوط ، أعيدت لأجل تحقيق عزوها للإمام أبي حنيفة ، ومسائل لم تذكر قبل ذلك ولا توجد إلا في الجامع الصغير وهي الأقل ثم كأنه لاحظ أن من مسائل الفقه ما بني على قواعد - تخفى على أكثر الناس - من دقائق العربية وخفايا العلوم الأخرى ، بحيث يتبادر إلى أذهانهم خلاف حكمها لغفلتهم عما عليه الحكم من مبنى دقيق ، فألف لها كتابا يشتمل من كل باب على مسائل معدودة يوجز في تصويرها ثم في تقرير حكمها وسماه « الجامع الكبير » . ولذلك جاء هذا الكتاب صعبا يحير العقل في فهم وجوه تراجمه حتى تشرح له كما قال عنه الشيخ زاهد الكوثري . ولذلك كتبت شروح كثيرة على الجامع الكبير عد منها في كشف

الظنون ثمانية وثلاثين غير التلاخيص والمنظومات وشروحها . وقد قامت بنشر هذا الكتاب لجنة إحياء المعارف النعمانية بالهند وكان طبعه في سنة ١٣٧٦ هـ .

هذا وإن الأحكام الراجعة إلى موقف المسلمين باعتبارهم جامعة ، من غيرهم ، ونظام علاقتهم بهم سلما وحربا ، وضبط حقوق غير المسلمين باختلاف أحوالهم داخل بلاد الإسلام وخارجها ، وهي المسماة : أحكام السير أو المغازي لما كانت ناحية من العمل الفقهي الذي يشتغل فيه المجتهدون بوضع الأحكام الموافقة للأصول الدينية المنطبقة على الأحوال الواقعية وكان شأن هذه الناحية عظيما جدا في بلاد الإسلام في ذلك القرن الثاني ، ولاسيما في الشام والعراق ، وكانت أكثر الصور التي عرضت للإمام محمد فيما يرجع إلى تلك الأحكام قد عرضت له في الأدوار الأخيرة من حياته بعد ولايته القضاء ، واعتباره مرجعا رسميا للدولة في شئون علاقاتها الدولية ، فإن أكثر المسائل الراجعة إلى تلك الناحية من الفقه قد جمعها بعد أن صدرت كتبه ، ورويت عنه واشتهرت وشاعت ، فوضع لخصوص أحكام السير صنفا خاصا جامعا ، استوعب فيه أحكام العلاقات في حالتي السلم والحرب ومسائل الأسرى . وحصانة السفراء والمهادنات والمعاهدات ، ومجرمي الحرب وغيرها من أدق المسائل التي لم يتنبه إليها فيبحث فيها الباحثون في القانون الدولي إلا بعد ثمانية قرون أو أكثر ، وقد جعل محمد بن الحسن تصنيفه للسير على صورتي تصنيفه المسائل في كتبه الأخرى بجزء بكتاب شامل لما روى عن أبي حنيفة وغيره وأفرد كتابا خاصا بما روى عن أبي حنيفة من ذلك . وسمى الأول وهو الشامل « كتاب السير الكبير » والثاني « كتاب السير الصغير » ، وكان هذان الكتابان آخر تصانيفه . وقد شرح كل منهما شروحا أهمها شرح شمس الأئمة السرخسي على السير الكبير وقد طبع بالهند في حيدراباد الدكن ١٣٣٦ في أربعة أجزاء ثم أعيد طبع جزء منه من طرف معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ويلتحق بهذه الكتب الخمسة كتاب الزيادات الذي وضعه الإمام محمد إكمالا لها وتفريعا عن مسائلها ، وهو أيضا ذو شروح كثيرة . وتوجد نسخة خطية منه تعد في النوادر بمخطوطات المكتبة العبدلية بتونس .

ومن هذه الكتب الستة : المبسوط والجامع الكبير والجامع الصغير والسير الكبير والسير الصغير والزيادات ، يتكون المرجع الأساسي للفقه الحنفي من كتب محمد بن الحسن وهو ما يعبر عنه « بظاهر الرواية » ، لأنها المروية عنه روايات مشهورة بطريق الثقات احترازا من كتبه الأخرى التي نقلت من طريق أقل اشتهارا . فكتب « ظاهر الرواية » هي التي نعدها لمقامها الأساسي في روافد الثقافة الإسلامية .

محمد الفاضل بن عاشور

إشارات أبي العلاء

للأستاذ كامل شاهين

١ – لا تكاد تجد لشاعر فى العربية من الإشارات ما لأبى العلاء المعرى .

فأنت تعثر فى ثنايا شعره على إشارات مختلفة الألوان ...

تجد الإشارات العلمية ، والإشارات التاريخية ، والإشارات الأدبية والإشارات الدينية .. وقد تجد فى القصيدة الواحدة نمطين أو أكثر، وقد تخلو القصيدة خلوا مطلقا منها .

فما الذى حمل أبا العلاء على اصطناع هذا اللون من التعبير ، حتى ليكاد يكون ظاهرة غريبة يمتاز بها الشعر العلائى ؟ .

أفيكون داعية ذلك إظهار المهارة ، والتكثر بالمعرفة لأن ظروفه قضت أن يرحل إلى بغداد ، وفى نفسه رغبة جامحة فى الشهرة ، وفى نفسه كذلك إيمان بأن شهرته لن تتسع إلا إذا بهر العلماء ، وأنه لن يبهر العلماء حتى يدخل عليهم بما لم ينالوا من حظ فى معرفة طرق التعبير ، أملا فى أن يقروا له بالعلم والشعر فى طلق واحد .

ذلك هو الظن بما صنع أبو العلاء فى شعره من ناحية الإشارات ، ويمكن أن يكون تفسيرا لما صنعه من ناحية الإغراب ومن ناحية اصطياد الجناس، ومن ناحية إيهام التناسب ، ومن كل شذوذ عن المنهج العام للشعر فى عصره

ولقد ترى مثلا لذلك فى قصيدته العينية التى أرسلها إلى أبى حامد الإسفراينى الفقيه ، عند دخوله (أى أبى العلاء) بغداد .

وفى هذه القصيدة يصف رحلته وما عاناه من ندرة الماء حتى اضطر للتيمم ثم يشرح التيمم بنفس هادئ كأنه فى حلقة درس الفقه ويعرض لقصر الصلاة وجمعها فيقول :

ورب ظهر وصلناها على عجل
بعصرها فى بعيد الورد لماع

بضربتين لطهر الوجه واحدة
وللذراعين أخرى ذات إسراع

وكم قصرنا صلاة غير نافلة
فى مهمه كصلاة الكسف شعشاع

الشاعر لم ينس أنه مقدم على فقيه ، وقد رأى أنه لا بد أن يبهره بالإشارات الفقهية ، ثم هو لا تكفيه الإشارة بل يبسط الكلام فى راحة ، واطمئنان .

وأدعوك إلى النظر فى كلمة «ذات إسراع» لتتبين إصراره على أن يتقصى شروط التيمم ، وفى قوله «غير نافلة» لتعلم أنه يصر على الاحتراز من الصلاة النافلة فإنها لا قصر فيها وهذا ليس من شأن الشعر ، ولكن رغبته

فى بسط نفس الفقيه الاسفرايني دعته إلى أن يجعل من الشعر درسا من دروس الفقه .

حتى إنه عند ما أراد أن يبين اتساع الفلاة التى اضطروا فيها إلى التيمم اختار لها تشبيها من الفقه أيضا ، فالمهمه كصلاة الكسوف ، وصلاة الكسوف كأطول ما تكون الصلاة ركوعا وسجودا وقراءة [١] .

وهذا التشبيه تشبيه يمعن فى الغرابة ، لا يلتقطه إلا فقيه ، ولا يستجيده ويلذه إلا فقيه .

ولم يكد ينتهى من ذلك حتى مضى يقول : إن خوف اللصوص والمغيرين فى هذا المهمه دعاهم إلى أن يصلوا سرا ، وألا يؤذنون بين يدى الصلاة .

وما جهرنا ، ولم يصدح مؤذننا
من خوف كل طويل الرمح شراع

ثم أراد أن يبين عدة أصحابه ، فأصابها فى عدد الجمرات التى يجمعها الحاج ليلا من المزدلفة ، ويرميها فى منى :

فى معشر كجمار الليل أجمعها
ليلا ، وفى الصبح ألقيها إلى القاع

وبعد أن يحدث عن غسل طمريه سبعا من مخالطة الكلاب ، يقبل على الاسفرايني معرفا بنفسه ، وأنه :

مؤدب النفس ، أكال على سغب
لحم النوائب ، شراب بأنقاع

ويخلص من ذلك التعريف الرائع الحلو ، إلى استفتاء الشيخ فى تعاطى الربا ، ويهجم فيزعم أنه يبيح الربا من غير أن يخرق الإجماع على حرمته :

أرحى وأسخط إلا أننى ربما
أبيت غير مجيز خرق إجماع

وبعد أن يبلغ هذا المدى من الإغراب ، وإرباك السامع ، وإهاجة أشواقه ، يقدم إليه (حل العقدة) فى قوله :

وذاك أنى أعطى الوسق منتحيا
من المودة ، معطى الود بالصاع

اعطنى صاعا من الود ، اعطك وسقا أى ستين صاعا ... فهذا هو الإرباء الحلال .

وإنه مع هــــذه النكت الفقهية المتصلة لا يخلى قصيدته من بعض الإشارات الأدبية وكأنه يرى أن أبا حامد ليس فقيها يعجبه هذا النحو من الكلام ليس غير ، فألم بطرف صالح منها فى مقام الحديث عن نفسه :

من قال : صادق لئام الناس . قلت له
قول ابن أسلت : قد أبلغت أسماعى

يشير إلى قول أبى قيس عامر بن الأسلت :

قالت ـ ولم تقصد لقيل الخنا ـ :
مهلا ، لقـــد أبلغت أسماعى

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنه : انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام فلم يكد ، يركع ، وركع فلم يكد يرفع ، ورفع فلم يكد يسجد ، وسجد فلم يكد يرفع . ثم فعل فى الركعة الأخرى مثل فعله فى الركعة الأولى

ثم يبين رأيه فى الهدايا ، وأنها كرامات لآخذها مالم يرد بها الإغراء والإطماع وأنه ليس عنده ما يهديه إلا قصائده ، فعل المسيب ابن علس :

ولا هدية عندى غير ما حملت

عن المسيب أرواح لقعقاع

وهو يشير فى ذلك لقول المسيب :

فلأهـدين مع الرياح قصيدة

منى مغلغـلة إلى القعقـاع

ترد المناهـل لا تزال غريبـة

فى القوم ، بين تمثل وسماع

ثم يتبعها إشارة أخرى فى قوله :

ولم أكن ورسولى غـير متهم

مثل الفرزدق فى إرسال وقاع

ولقد كان وقاع غلاما للفرزدق يرسله فى الجنايات وكرائه الأمور ، وأبو العلاء لا يرسل رسوله إلا فى الطيبات منها .

قدر أبو العلاء أن سامعى قصيدته سيظلون فاغرى الأفواه ساهى العقول ، يتمتم الفقهاء منهم : (بضربتين لطهر الوجه ! .. فى مهمة كصلاة الكسف ! . قصرنا صلاة غير نافلة !. فى معشر كجمار الرمى ! . . أبيت غير مجيز خرق إجماع !) ، ويتمتم الأدباء منهم : (قول ابن أسلت : قد أبلغت أسماعى . حملت عن المسيب أرواح لقعقاع . . لم أكن مثل الفرزدق فى إرسال وقاع) .

فيقول هؤلاء : ما أفقهه شاعراً ، ويقول أولئك : ما أشعره فقيها . .

٢ ــ ولقد ينصرنا فى هذا الظن أنه سلك هذه الطريق نفسها فى قصيدته التى يدعى أنه ارتجلها عند ما بلغه ـ عند دخوله بغداد ـ موت الشريف الموسوى ، والد الشريفين الرضى والمرتضى ، مع فرق جدير بالاعتبار ، هو أنه أعرض عن الإشارات الفقهية إلى الإشارات العروضية والأدبية ، وكأنه يراعى بذلك الفرق بين الاسفرايني الفقيه والرضى الشاعر الكبير ، وتكفينا إشارته فى هذا البيت الذى يبين أن البيت (بيت الشريف) لم يضر بموت أبى الشريفين ، هذا البيت الذى لا ندرى ، أنعجب لمعناه كيف التقطه أم لتشبيهه الذى استند فيه إلى العروض فأحسن الاستناد ، أم نعجب لثمرة العلم كيف تسلطت على الرجل ، فكادت تفسد لفظه الحلو ، ونغمه المطرد ... فذاك إذ يقول :

أنتم ذوو النسب القصير ، فطولكم

باد ، على الكبراء والأشراف

والخمر إن قيل : ابنة العنب اكتفت

بأب عن الأسماء والأوصاف

ما زاغ بيتكم الرفيع ، وإنما

بالوجـد أدركه خفى زحاف

فهذا البيت الذى قصر نسبه نطال ، مثله كمثل الخمر غنيت بأنها ابنة العنب عن كل وصف ولقب ... هذا البيت لا يهدمه موت

من مات منكم ، لثبات قواعده ، واشتداد معاقده ، وإنما أدركه بموت أبيكم - وإن كان مصابا عظيما - مثل ما يدرك البيت من الشعر ، إذا عرض له الزحاف الخفى . فهو لا يعيبه ولا ينقصه.

المعنى على ماترى ، جدة وروعة ، ولكن التشبيه بالزحاف الخفى ينقلنا إلى جو آخر ، نرى فيه الخبن ، والطى ، والعصب ، وما إلى ذلك مما يفسد جو الشعر ، ويكاد يذهب بروعة المعنى.

ولكن أبا العلاء يريد أن يبهر بالشعر وبالعلم ، فيمزق الشعر بالعلم ، ليبهر أهل بغداد بهذه الإحاطة ، وهذا الشمول ، وهذا الدخول من كل باب .

٣ - ويسوقنا ذلك التعرف على القيمة الأدبية لهذه الإشارات .

لقد رأينا أن أبا العلاء لم يخطىء التشبيه حين شبه المهمه المترامى الأطراف بصلاة الكسف ، ولكنه على هذا شىء محدود بحدوده ، مقيد بمجاله ، فهو يطيب للفقهاء والمشتغلين بصناعة الحديث والذين يعنون بإقامة السنن على وجهها فيجدون فى صلاة الكسوف طولا بليغا لا يجدونه فى صلاة أخرى .

فإذا انتقلت من هذا المجال إلى مجال الأدباء أو أهل الأخبار والرواية ، لم تجد لديهم طربة لهذا التشبيه ولا هشاشة ، فتأثيره فيهم فاتر ، ولذلك يعد هذا التشبيه غير مقبول .

ومثل هذا يقال فى تشبيه ما نال الشريف بموته ، بما نال بيت الشعر من الزحاف الخفى ... عيب لا يكاد يدرك .

وهذا أيضا من التشبيهات ضيقة المجال ، فإنما يحلو مثله لعشاق العروض ، أما الأدباء المطبوعون والنحاة والفقهاء ، فلا يحلو فى آذانهم ، ولا تستطعمه أذواقهم ...

ومن هنا يعد من التشبيهات ذات اللون الخاص ، التى يتقبلها ذوق بعينه ، ثم هو ذوق العلماء لا ذوق الأدباء .

وكما أرضى أبو العلاء الفقهاء وأرضى العروضيين ، كذلك أرضى النحاة ، ولا أظن غير النحوى يرضى عن التورية فى مثل قوله :

ولى حاجة عند العراق وأهله
فإن تقضياها فالجزاء هو الشرط

وقوله :

فدونكم خفض الحياة فإننا
نصبنا المطايا فى الفلاة على القطع

ومن غير النحوى يأنس إلى الجزاء والشرط ، وإلى الخفض والنصب ، وإلى الإتباع والقطع ، ولعل إعجاب النحاة يبلغ مداه ، إذا أنشدهم أبو العلاء قوله فى شاعر يسمى صريع البين :

دعيت بصارع فتداركته
مبالغة فرد إلى فعيل

كما قالوا : عليم ؛ إذا أرادوا

تناهى العلم فى الله العليم

فهذا بعمل نحوى كالفراء ويونس أشبه منه بعمل شاعر ، وهذا يعجب النحاة ويبهرهم ، لكنه يضايق الأدباء ويغيظهم .

٤ — ولعلك تسأل، فما الرأى فى الإشارات الأدبية والتاريخية ، أهى كذلك لضيق مجالها وخصوص لونها ، تعد بعيدة عن الأدب الحى الذى تتقبله كل النفوس وترتضيه كل الأذواق.

والأمر فى ذلك يسير، فإننا فى باب الأدب إنما نحتكم إلى أذواق الأدباء لا إلى أذواق الفقهاء والنحاة وأهل العروض .

ومادام أمرنا على ذلك ، فإن الإشارات الأدبية والتاريخية تنقاس بمقياس الذوق الأدبى ، والذوق الأدبى يتقبل مثل هذه الإشارات فى رحابة صدر وائتناس .

وأنت تجد واحدة فى قول أبى العلاء لأهل بغداد :

ذم الوليد ، ولم أذمم جواركم

فقال : ما أنصفت بغداد حوشيتا

لئن لقيت وليدا والنوى قذف

يوم القيامة لم أعدمه تبكيتا

يعنى بالوليد : أبا عبادة البحترى، وأراد بذمه بغداد ، قوله :

ما أنصفت بغداد حين توحشت

لنزيلها وهى المحل الآنس

ويذكرنا هذا بقول أبى العلاء نفسه عن البحترى نفسه :

وقال الوليد : النبع ليس بمثمر

وأخطأ، سرب الوحش من ثمر النبع

فدعوى البحترى أن النبع لا ثمر له ... باطلة ، ألا ترى أن القسى تصنع من شجر النبع ، وهى تصيد السرب من الظباء والعانة من حمر الوحش . فهذا من ثمرها .

وهو يشير بذلك لقول البحترى :

وعيرتنى خلال العدم آونة

والنبع عريان ، ما فى عوده ثمر

فهاتان الإشارتان تلذان للأدباء ، ولا يجتوونهما ، ولا يضيقون بهما ، والوزن فى الشعر إنما هو لأربابه لا للدخلاء عليه ولا لأرباب الصناعات الأخرى .

ولكن الإشارات قد تتتابع وتخفى فيصيب منها الشعر ما يصيبه من الإغراب اللغوى ، أو الفلسفة الدقيقة ، وأنت واجد ذلك النوع من التتابع والخفاء فى مثل قول أبى العلاء ، فى إحدى درعياته :

لو أنها كانت على عصمة

فى الوقبى لم يدع بالأجذم

الضمير للدرع ، يقول : لو أن الدرع كانت على عصمة بن عاصم المازنى عند ما ضربه شيبان بن خصفة التيمى يوم الوقبى ما قطعت يده ، ولا لقب بالأجذم . ثم قال :

ضماناتها النفس إحصانها
غير ضمانات أبي ضمضم

أبو ضمضم كان يتصدق بعرضه على عباد الله، فضمانه الإباحة وترك المحادة، أما هذه الدرع فضمانها إحصانها لابسها، والمحاماة دونه ثم قال:

ما خلت هماما لو ابتاعها
يفر من خوف أبي جهضم

همام بن غالب هو الفرزدق ، وكان قد هجا جريرا فتوعده أبو جهضم عباد بن الحصين الحبطي ، فقال الفرزدق :

أفي قملي من كليب هجوته
أبو جهضم تغلى على مراجله

يقول أبو العلاء ، لو أنها على الفرزدق إذ هدده عباد بن الحصين ما فر خوفا بل لثبت واطمأن .

ثم قال أبو العلاء :

وحاجب لو حجبت شخصه
لم يمس في المنة من زهدم

حاجب هو ابن زرارة التميمي ، وزهدم هو ابن حزن العبسي ، أدركه يوم جبلة زهدم فانقض عليه وأسره ، ثم غلبه عليه ذو الرقيبة : مالك بن عامر .

فلو كانت هذه الدرع على حاجب لقاتل عن نفسه زهدما ، ولم يصبح في منة منه بتركه .

فمن من الأدباء يستطيع أن يتصل بهذه الأحداث جميلة ، فيعرف ما حدث لعصمة يوم الوقبي ، ويعرف ضمانات ابن ضمضم ، أو إباحات أبي ضمضم ، ويعرف فرار الفرزدق من أبي جهضم ، والمنة على حاجب من زهدم .

هذا التتابع في سوق الأحداث طريف ، ولكنه لغرابته وعدم وضوح دلالته عند القارىء ، وحاجته إلى التنقيب والكشف ، يقلل من القيمة الأدبية للنص .

وهناك فرق بين رفض الإشارات الفقهية والنحوية وما جرى مجراها ، وبين رفض بعض الإشارات الأدبية والتاريخية .

الأولى نرفضها جملة برغم وضوحها وانكشاف معناها ، ونعدها من قبيل المهارة في الصناعة ، أو الخداع والشعوذة .

أما الأشارات الأدبية فإننا نستحليها ونرحب بها ما دامت واضحة الدلالة ، مصيبة موضعها ، في اقتصاد وتخفف .

ونحن نرفضها إذا حال بيننا وبين الاستمتاع بها غموض وعدم إسفار أو إسراف وإلحاح والأمران كما ترى ، منزعهما شديد الاختلاف ، وبعد :

فقد حاول أبو العلاء أن يكتسب وجاهة عند العلماء والفقهاء والأدباء وأهل الخبر والرواية ، ولكن لم يكسب إلا الكساد والحسد في بغداد ، فعاد إلى بلده مقهورا ، وأنشأ يغني لنفسه ويسجل نظراته في الوجود ورأيه في الحياة والأحياء في ديوانه اللزوميات لا يرجو ولا يخاف ؟

كامل السيد شاهين

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ على العماري

— ٥ —

ويجرؤ المؤلف، ويبلغ غاية التنكر للحق، حين يحاول أن ينفى عن أهل الكتاب وصمة الكفر بالله، مصادما الآيات القرآنية الصريحة التي لا تحتمل تأويلا.

فهذا عنوان فصل من فصول الكتاب: (اليهود والنصارى أهل كتاب، وليسوا مشركين ولا كافرين). ويبتدئ الفصل بأن الأسى يملأ جوانحه، لأن هناك فكرة خطيرة أعرمت فينا، وهى أن بعض رجال الدين من المسلمين يعتبرون اليهود والنصارى مشركين أو كافرين، وهذا الأمر - كما يقول - مرده إلى الجهل بأصول الأديان عامة، وبدين الإسلام خاصة، وما شاب أهل الجهل من تعصب بمقوت، لا تزال جذوره متأصلة فى النفوس، بغير علم ولا إدراك.

ثم يحز فى نفسه - صانها الله من كل سوء - أن يكون مبعث هذه النزعة الضارة من أناس عملهم فى الحياة الدعوة إلى السلام والوئام، ولكن جرى عملهم على غير ما يظن الناس فيهم، وأن الذى دفعهم إلى ذلك - فى تخريفه طبعا - إنما هو الدفاع عن مصالحهم الشخصية، التى لا تقوم - فيما يزعم - إلا على بذر بذور الفرقة بين الناس، وبث روح الخلاف بين العباد، اتباعا لشريعة الصيد فى الماء العكر. (ينبغى أن تؤمن أن المؤلف يصيد - دائما - فى الماء الصافى).

ويرى أنه من الضرورى أن يسوق - هنا - الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة - على حد تعبيره، على أن اليهود والنصارى لا يعتبرون مشركين، ولا كافرين!

والأدلة القاطعة التى ساقها (نخامته) تتلخص فى أن القرآن اعترف بكتبهم السماوية، وأوجب على كل مسلم الإيمان بها، وقد سماهم فى كثير من الآيات (أهل الكتاب)، وأن طعامهم حل للمسلمين، والمحصنات منهم..

كما يستدل بأن أصل دينهم الذى أنزل الله به الكتب، وأرسل به الرسل ليس فيه شرك، ولكنهم بدلوا وغيروا، وابتدعوا من الشرك ما لم ينزل به سلطانا، فصار فيهم الشرك، وكأنه ندم هنا أنه وصف (إخوانه) بأنهم

غيروا وبدلوا ، فأراد أن يكفر عن هذه (الجريمة) فقال فى الهامش : وكذلك ابتدع المسلمون ما لا يتفق ، وأصول الدين ، ولم ينزل به سلطان فى الكتاب المبين .

وإذن فليس (إخوانه) - كما يدعوهم - بدعا ، فإذا كانوا غيروا فالمسلمون - أيضا - غيروا - هذه هى خلاصة هذا الفصل ، وسأدع للمؤلف نفسه أن يحكم على خطئه بعد أن مر مراً صريعا على تخبطه فى هذا الفصل .

١ - آيات القرآن صريحة فى أن أهل الكتاب غيروا وبدلوا ، وأنهم كفروا بما أحدثوا فى الدين بما ينافى الوحدانية . قال الله تعالى فى سورة التوبة : « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون » .

وقال سبحانه فى سورة المائدة : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » . فسماهم القرآن (كفارا) و (مشركين) و (ظالمين) و (حرم عليهم الجنة) وتوعدهم بالنار ، وبالعذاب الأليم .

ومن عجب أن المؤلف أراد أن يتعالم فيدعى أن القرآن فرق بين أهل الكتاب ، والمشركين ، واستدل بقوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ... هكذا كتبها ، ثم علق عليها بقوله : فجعل المشركين غير أهل الكتاب .

ونسى - فهمه الله - أن هذه الآية تثبت الكفر لأهل الكتاب وهو ينفى فى عنوان الفصل وفى كل أجزائه أن يكون أهل الكتاب كفارا .

وإنى أسأل المؤلف : هل يقبل من مسلم أن يقول - مع هذه الآيات - إن أهل الكتاب ليسوا كفارا ؟ وماذا يعرف حضرته عن حكم الإسلام على من أنكر آية ، بل آيات صريحة من القرآن ؟

٢ - ماذا يقول المؤلف وقد وصف القائلين بحكم القرآن فى هذه المسألة بما وصفهم من جهل ، وتعصب واصطياد فى الماء العكر ، وعمل على بذر بذور الفرقة بين الناس ، ماذا يقول إذا علم أن الرجل الذى اعتمد فى كتابه من ألفه إلى يائه على آرائه - بعد تحريفها - إذا علم أن هذا الرجل ، وهو السيد رشيد رضا ، من القائلين هذه المقالة .

(نرى المصلحين الذين زعموا أنهم أعادوا النصرانية إلى أصلها لم يستطيعوا أن يرجعوها إلى التوحيد الذى هو دين المسيح ، وسائر أنبياء بنى إسرائيل ، ورسل الله أجمعين ،

فهم لا يزالون يقولون بألوهية المسيح ، وبالتثليث ويعدون الموحد غير مسيحي كما يقول ذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان من فرق النصرانية في هذا العصر ، وهم الكاثوليك والأرثوذكس ، فجميع فرق نصارى هذا العصر تقول إن الله هو المسيح ابن مريم ، وأن المسيح بن مريم هو الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) .

٣ — هل يرى المؤلف أن القرآن الكريم بآياته الواضحة هذه عامل على بذر بذور الفرقة وأنه يعمل ذلك ليصطاد في الماء العكر ؟ !

٤ — ما دخل اعتراف القرآن بكتبهم ، ودعوة المسلمين إلى الإيمان بهذه الكتب في موضوع وصف أهل الكتاب بالكفر ؟

وقد قال وأعاد ، وكرر أنهم حرفوا هذه الكتب ، ولم يؤمنوا إيمانا صحيحا بما جاء فيها.

أما إحلال طعامهم ، وذبائحهم ، فسببه أنهم لا يعبدون صنما ، ولا يذبحون باسم صنم ، ولو أنهم ذبحوا ذبائحهم وأهلوا عليها باسم المسيح ـ مثلا ـ لما جاز لنا أكلها .

* * *

ويتفضل المؤلف فيوجه لنا نصيحة غالية ، نقلها عن السيد رشيد رضا ، قال : خير ما يتبعه المسلمون مع غيرهم من أهل الأديان الأخرى هو الأخذ بالقاعدة الصحيحة المعقولة التي وصفها العلامة الكبير السيد رشيد رضا للاتفاق بين المختلفين في المذاهب والأجناس من المسلمين ، والمختلفين في الأديان ، والأجناس الأخرى ، وهي : (نتعاون على ما نشترك فيه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف عليه) .

قال المؤلف بعد ما ساق هذه القاعدة (الذهبية) : هذا ما أدعو إليه ، وأجهر به الناس كافة ـ على بصيرة ـ وقد بلغت ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد .

ولا أدري من أين نقل المؤلف هذا الكلام عن الشيخ رشيد ، فإني أشك أن يكون هذا وضع هذه (القاعدة) على النحو الذي رسمه المؤلف ، وقد عودنا المؤلف أن يبتر النصوص ويحرف فيها ليصل إلى الهدف الأسمى ، وهو إرضاء إخوانه .

فقد يكون حسنا ، وجميلا أن يعذر بعض المختلفين في المذاهب بعضا فيما اختلفوا فيه ، ولكن ما معنى أن يعذر أهل الأديان بعضا في هذا ؟

أيريد المؤلف أن نقول لليهود حين يقولون ويرددون : إن عيسى تولد من زنا ، وللمسيحيين حين يقولون إن عيسى هو الله ، أو هو ابن الله ، أو يقول الفريقان : إن محمداً كاذب ، وإن القرآن ليس من عند الله ، أيريدنا أن نقول لهم : إنكم معذورون ، ويكون هذا هو كل ما يطلبه منا ديننا ؟

إن الذي ينبغي أن يعيه كل مسلم أن واجبنا

أن نبلغ الإسلام على وجهه الصحيح ، وأن نذيع فى الناس أن الله واحد لاشريك له ، وألا نعذر أحداً حين يكفر بالله .

ونحن نؤمن أن الإسلام هو الدين الحق ، ولادين غيره ، وأن محمداً أرسل للناس كافة ، وأن علينا أن نجهر بهذا كله ، فكيف نؤدى ذلك إذا كان كل عملنا أن نكتفى مع المنكرين لهذا الدين، الصادين عنه ، العاملين على هدمه ، نكتفى بأن (نعذرهم) ؟ !

إنى أكره ، بل وأحتقر كل من يجامل أحداً على حساب الدين ، وإن أمرنا بمعاملة أهل الكتاب معاملة عادلة لا يعنى أن نغضى عما يفترون على الله ، وعلى نبينا ، وعلى كتابنا .

والمؤلف قال : (إن خير ما يتبعه المسلمون)، فلماذا لم يقدم هذه النصيحة إلى هؤلاء الذين يحاربون الإسلام ، وتعاليمه فى كل مكان ، وبكل أسلوب ؟ !

أم أن هذا واجب، فقط - فى رأى المؤلف - على المسلمين دون غيرهم ؟ أم أن المؤلف يرى أن أصحاب الديانات الأخرى يسيرون على تعليم هذه القاعدة ، وأن المسلمين فقط هم الذين يخالفونها ، فهو يريد أن ينبههم إليها ، ويرغبهم فى اتباعها ؟ !

الحق أن المؤلف كشف عن نفسه ، ولم ينفع الذين يدافع عنهم ، وعدو عاقل خير من صديق جاهل - كما يقول المثل - .

وليقل من شاء من المستشرقين ، والمستغربين ما شاء فى تعاليم الإسلام ، وليتجه دعاة التجديد إلى ما يشاءون من تفاسير لهذه التعاليم لا تتفق وطبيعتها ، فإن الذى ينبغى أن نفعله ، وأن نقوله هو أن نبين الأمور على وجوهها الصحيحة ، وألا نميل مع أى إنسان لكى ندفع عن الإسلام تهمة يختلقونها ، فإننا لو ظللنا نعمل ذلك لم نجد شيئاً فشيئاً عن روح الإسلام ، وعن حقائقه .

وعلينا أن نقولها صريحة واضحة : الإسلام دين حق ، وكل تشريع جاء به حق ، وكل وسيلة اتخذها لنشر دعوته حق ، وليقل من شاء ما شاء .

والعجب أن أحداً من أهل الأديان الأخرى لا يجاملنا ، فلماذا يعمل فريق منا على أن يعطوا الدنية فى دينهم ، وهم على الحق ، وغيرهم على الباطل .

ليس بمسلم عندى من تحمله الرغبة فى جاه أو مال أو صيت على أن يجامل على حساب الدين ، وإن أضل المضلين أولئك الذين يحبون أن يقول الناس عنهم إنهم مجددون ، وهم لا يحبون أن يصدعوا بكلمة الحق ، إذا كانت تظهرهم بمظهر المتمسكين بالدين الصحيح .

وقاتل الله الدنيا ، ما دخلت فى شئ إلا أفسدته .

وعلى الله قصد السبيل .

علي العماري

القوم الصوفية بقلم : ا.م.م. ماكين

ترجمة الأستاذ فتحى عثمان

— ٣ —

هذا التيار المندفع نحو مفهوم « الجماعة » الصوفية بتأكيده الطابع المتميز للعرفة الصوفية كانت تصاحبه وتسايره محاولات لتعبئة الرأى العام بأكثر مبادىء الشريعة السائدة معارضة وتشدداً ! وهذا التطور الأخير طبع الفترة التالية من تاريخ الحركة بطابع الثورة ، وعزز من الجهود النظارية لتأصيل الجماعة الصوفية منذ القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فصاعدا ظهور رجلين من أقطابها الشامخين : الغزالى (المتوفى سنة ١١١١ م) ، وابن العربى (المتوفى سنة ١٢٤٠ م) ، وفى هذا الوقت كانت موسوعة « إخوان الصفا » قد نفذت إلى الجو الفكرى للمجتمع الإسلامى ، وأشاعت العلم والفلسفة بين الجموع .

وقد عبر الباحثون المحدثون عن الحاجة إلى إعادة تقويم دور الغزالى المجدد فى الحركة الصوفية . وهكذا ظهر من الدراسات المتعمقة لطائفة منهم : أن الغزالى قد عمل على إحكام المحاولات التى بذلها أسلافه لإدخال الصوفية فى النطاق القرآنى للأفكار معززاً بتجربته الشخصية فى الطريق ، وقد كتب لجهوده الفوز المبين ، وعلى الرغم من أن تحوله إلى هذا المجال ، وتأييده الجسور لقضية الصوفية الرفيعة قد جلب عليه بادىء الأمر حنق الفقهاء التقليديين ، إلا أن الأمر اختلف من بعده « فتأكد الوفاق بين الصوفية المعتدلة [1] والتعاليم السنية » ، واتسع الأفق العقلى للجماعة الصوفية بعد مضى أكثر من قرن بدرجة فائقة ، نتيجة لما قدمه ابن العربى من عرض انتقائى تجميعى محكم يرفض الثنائية non-dualist ، ولقد كان نهجه الفكرى يحمل تحدياً صارخا لأقيسة علماء الكلام المنطقية [2] .

* * *

ولقد استمدت حركة الصوفيين — بكونها طاقة حية عاملة — قوة بدرجة تفوق ما استمدت من التعبير النظارى ، شأن كل الحركات المماثلة فى التاريخ . وأدى قيام نظرية

---

(١) ويمثل هذه النزعة مدرسة صوفية على رأسها الجنيد البغدادى (المتوفى سنة ٩١٠ م) وهى تؤكد التمييز الأساسى بين الشريعة ، والتجربة الصوفية .

(٢) توصف فلسفته عادة بأنها قائمة على وحدة الوجود . وفى اصطلاحات لا تبدو دقيقة فى التعبير عن نهجه .

صوفية إيجابية محددة إلى تقديم أساس متين الحركة فى مجموعها ، ولكن المجادلات حول وحدة الوجود : « على الرغم من أنها كانت مقروءة ، ومحل إعجاب لدى المثقفين ، وعلى الرغم من أنها أثمرت شعراً له آثاره العميقة إلا أنها لم تكن تؤخذ مأخذ الجد من عدد كبير من أبناء الطرق الصوفية ، وهناك محاولة لها دلالتها لتأكيد الطابع العملى للطريق يشير إليها استعمال كلمة (قوم) بدلا من كلمة صوفية ، وقد جاءت كلمة « قوم » أكثر شمولا وأبعد مدى فى مضمونها الاجتماعى ، ووجدت الفكرة تعبيراً عنها فى الكتابات النظرية المبكرة التى استعملت عبارات مثل : محبة القوم ، سيد القوم ، طريق القوم ، أسرار القوم ، زعيم القوم ، وهى عبارات تستوعب مجموع حياة الصوفية ممتدة من أعمال العبادة ، وحضور مجالس الذكر إلى مسائل تتعلق بالمكاسب .

وكانت الأهداف التى عملت لها حركة القوم منذ البداية قد ذاعت عن طريق بعض النظم مثل حلقة الذكر ، أو مجلس الذكر الذى كان اجتماعا عاما لترديد الذكر ، وقد اتسعت رموزها لتتضمن الجماعة كلها ، وبذلك تأكد القول : بأن الصوفية لم تكن مجرد مذهب لقلة من الناس ؛ بل طريق الحياة للكثرة ، واعتبرت أسمى وسيلة لإرشاد الإنسانية بأوسع معانى كلمة (إرشاد) ، ومن هنا عرف أبو حفص النيسابورى (المتوفى سنة ٨٨٣م) الصوفية : « بأنها طريق للقلب والعقل » ، بينما وصفها الجنيد المشهور : « بأنها نصيحة الأمة كلها » ، وعلى هذا المفهوم وضع الغزالى ، فيما بعد ، تفسيره لأسلوب التربية فى الطريق بهذا الصحيح كنهج سلكه الأنبياء حقا لإرشاد الناس .

وكان القوم يمثلون مجموعا من الاهتمامات لأتباع يتباينون فى مواهبهم العقلية ، لكن هناك تمييزا دقيقا ملحوظا بين الدعاة إلى طريق القوم ، وطابعهم التأكيد على العمل ، وبين المتصوفة العلماء من أهل المعرفة ، ويقابلون أهل العلم بالنسبة لفقهاء الشريعة ، ويشير الكلاباذى فى إجمال إلى الأقطاب وأصحاب النظريات والكتاب فى الصوفية بتعبير (رجال الصوفية) ، لكن مصادر (الطريقة) المتأخرة قد وضعت فيما بعد هذا التصنيف فى صورة أكثر تحديدا بالمقابلة بين سادة القوم ، وبين الأقطاب المتخصصين فى الموضوع الذين يطلق عليهم مثل هذه الأوصاف[1] : محقق القوم ، أهل التصوف أئمة التصوف ، وقد أوضح هذا جلال الدين السيوطى (المتوفى سنة ١٥٠٥ م)[2] حين

(١) ابن منيزيل : الكواكب ورقات ٩٢ أ ١٢١ أ ، ١٣٢ أ .

(٢) التأييد ص ١٨١ ، وانظر أيضا المصدر السابق ص ٣٠ / ٤٠ حيث تجد مناقشة مثمرة فى الرابطة بين الصوفية والقوم .

كتب أن خاصة القوم [1] هم الصوفية ، ونحن نقف على أرض ثابتة حين نذهب إلى أن هذه الاختلافات كانت داخلية الطابع ، وأنها جاءت تعبيرا عن الدرجات المتنوعة للمواهب الشخصية ، ولجهود مجموعات بعينها .

وتشربت هذه النزعة المحركة فى أساسها العريض خلال العصر العباسى أعدادا من الأتباع من مختلف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، ومنذ النصف الأخير من هذا العصر تقدمت الحركة بسرعة مذهلة واكتسبت فكرة « طريق القوم » أيام الغزالى تعبيراً أكثر ضبطا كأداة للتعليم الصوفى ، وتكامل بهذا أساسا عاملان لهما تأثيرهما : الشيوخ وجماعاتهم من الفقراء ، وكان الأعضاء المنتمون لهذه « الأخوة » من الفقراء يضعون أنفسهم تحت توجيه الشيخ بعد أخذ العهد على أن يكونوا من مريديه ، وعلى الرغم من أن القشيرى والغزالى قد أيدا (الطريقة) كتنظيم اجتماعى روحى أخلاقى سليم ، إلا أنهما انتقدا بصراحة تدهورها فى أيامهما والغزالى موعظة بينه فى « الإحياء » [2] . تناول فيها العيوب التى تعرضت لها الطريقة بتأثير جماعة من الأدعياء من المشعوذين المتنمين أو أهل الإباحة الذين يتذرعون بالطريقة للعبث بأحكام الشريعة .

ومن الملامح المميزة لصورة « الطريقة » كتجمع صوفى ظهور فكرة « القطب » ، وهو الرأس الأعلى لجماعة الأولياء ، أو فى الحقيقة « الهيئة المقدسة للإدارة التى تضطلع بأعباء حكومة العالم غير البادية للعيان » ، وأن الميزات والوظائف المتنوعة التى يختص بها أعضاء هــــذه الهيئة المقدسة تبدو ممثلة للمضمون الكامل لحركة الطريقة ، وفى مصادرنا عرض بليغ للموضوع ، وتبعا لهذه النقول نجد لكل مرتبة فى هذه الحكومة الدينية قطبا فى حين يكون القطب الموحد الأعظم هو « الغوث » الذى يناديه الناس للنجدة فى الشدائد والحوائج ، ويوصف القطب أحيانا بالخليفة و « الوارث » ، وذلك بالنظر إلى مركزه بالنسبة للنبي ، وإن لم يكن المنصب وقفا على أهل البيت وحدهم ، وتذكر هذه المصادر عموما (الحسن) السبط (٦٦٩ م) كأول من حمل هذا اللقب ، بينما يورد جولدزيهر أن بعض علماء الكلام قد أشار إلى فاطمة بنت النبي كأول من دعى بذلك ، ويبدو أن (مرجوليوث) يظن أن الكلمة استعملت فى عهد القشيرى تقريبا (توفى سنة ١٠٧٤م) وهو يرجح أن يوسف الهمدانى كان أول من حمل هذا الوصف ، ثم انتقلت التسمية

(١) يعزو لينجز استعمال تعبير (قوم) إلى نص حديث النبي صلى الله عليه وسلم يعرض للقوم الذين لا يشقى بهم جليسهم .

(٢) جـ ٣ ص ٣٤٧ / ٤٠٠ .

فيما بعد إلى كل مؤسسى الطرق المعروفين ، وتشير مصادرنا بالطبع إلى عبد القادر الجيلانى (المتوفى سنة ١١٦٦م) وأبى الحسن على الشاذلى (المتوفى ١٢٦٥ م) كأول من تسلم هذا المنصب الإلهى ، وبين أصحاب النظريات الصوفية الأوائل قيل : إن الحاكم الترمذى (٨٩٣م) كان أول من نشر الاعتقاد فى حكومة دينية يقوم على رأسها القطب .

ويبدو لابن خلدون أن الفكرة مشتقة من النقول الإسماعيلية والشيعية التى تذهب إلى أن الله يتمثل فى الأرض عن طريق وصيه الذى يرشد الإنسانية كافة ، ومن بين الباحثين المحدثين يعزو ماتبرج هذا المفهوم فى شىء من التشكك إلى صورة الإمامة عند الشيعة بينما يرجع بها (بل) بصورة أخرى إلى تراث المهديه ، ويؤثر (جب) أن يتتبع فكرة القطب والولايه ليعود بها إلى أصول مسيحية غنوسطية ، وثمة حقيقة تستحق الذكر هنا : هى اللبس الواضح فى معظم الدراسات المعاصرة إذ تذهب إلى أن القطب رمز غير مرئى فى العالم غير المنظور لحسب فى حين أن تراجم الصوفيه تبين أن اللقب مع ما دونه من الألقاب مثل الأبدال[1] قد خلع على أولياء كانوا أحياء ، وهو تقليد يجرى عليه العمل ويبدو سائداً حتى يومنا هذا ، وكان هؤلاء يعتبرون الممثلين الأرضيين لجماعة روحية خالدة.

وقد نتج عن هذا التركيب (شيخ الفقراء) تلك الظاهرة فى التطور الشورى للحركة الصوفية التى مهدت الطريق من القرن الثانى عشر فصاعداً لقيام جماعات الأخوة الدينية الكبرى التى رسخت قواعدها فيما بعد على أيدى معجبين لاحقين حافظوا على تسمية وتقاليد الأساتذة الأصليين الذين شرحوا الطريق ، وقد أجمل (د . ب . ماكدونالد) طبيعة هذه الطرق ومجالاتها ودورها فى هذا الوصف بعبارته المنسقة التالية : ولقد كان التنظيم فى مجموعه متحرراً من قيود المحاباة ومن الدنيويات ، وما يجره معها من أحابيل وعراقيل ؛ وكان المجموع - كما يمكن القول - حلما جميلا . وكانت الطرق مستقلة ، وتعمل على ترقية نفسها بنفسها ، وكانت هناك منافسة بينها ، ولكن لاتتحكم واحدة منها فى الأخرى ، ولكل منها طريقها الخاص فى الاعتقاد والسلوك ، لا تحكمها إلا حدود المضمون الروحى العالمى للإسلام ، وكانت الشاذلية إحدى الطرق التى سميت باسم منشئها الشهير أبى الحسن الشاذلى (المتوفى سنة ١٢٥٦م) .

(تم البحث)

فتحى عثمان

(١) ويقال : إن الإبدال سبعة ، وهم يكونون أحد أقسام الحكومة الدينية ، وهم قوم وصلوا إلى الكمال والاستقامة فى ترقيهم الروحى . أنظر مثلا ابن اياد : المفاخر ص١٣٠ .

الإسلام والحياة

للأستاذ محيي الدين الألوائي

إن العالم اليوم ينساق ـ طوعا أو كرها ـ إلى المبادئ التي أقرتها التعاليم الإسلامية ، ونادى بها الرسول الأعظم : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ـ قبل أربعة عشر قرنا مضت . وما السر الخفي وراء هذا الانسياق الفطري ؟ مع أن هناك محاولات تبذل لتشويه تعاليم الإسلام الحقة ، وتزييف إرشادات القرآن الصحيحة !! . كما نرى أناسا من الذين يزعمون الانتماء إلى حظيرة الدين الحنيف يبتعدون عن تعاليمه وإرشاداته . فأما سر هذا الانسياق فأن هذه المبادئ ، وتلك التعاليم فطرية إلهية تتمشى مع تطورات العالم وبيئاته وظروفه . « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » .

فإن فطرة الإنسان ، ونواميس الطبيعة لا تتغير ولا تتبدل مهما حاول المزيفون ، وسعى المخرفون لإبعاد الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها . فالقرآن كتاب الله المرقوم ، والطبيعة الكونية كتاب الله المختوم فكما لا يستطيع إنسان كائنا من كان ، تغيير شيء من الفطريات الإلهية ، والطبائع العالمية ، لا يستطيع أحد أن يبدل شيئا من القوانين الآلهية المنشورة في كتاب الله السماوي المرقوم ، فإن عناصر الخلود ، وعوامل الصلاحية ، لكل زمان ومكان متوفرة في تعاليمه التي تؤدي إلى تحقيق أسباب المجد والرقي والحضارة والرفاهية للجنس البشري كله .

ولا تفقد القوانين في صلاحيتها وقابليتها بسبب سوء فهم الناس لها ، أو الإهمال في العمل بها ، ويعود السبب الحقيقي لانكماش الناس عن تعاليم الإسلام ، وابتعادهم عن توجيهاته إلى سببين رئيسيين ، أولا : عدم الفهم ـ أو سوئه ـ لأساليبه وإرشاداته كما يجب أن يكون ، واتباع الأهواء والمصالح الذاتية في تطبيق قوانينه ، وتأويل أوامره ، وثانيا : هروب بعض العلماء ـ وأشباههم ـ وراء الألفاظ والكلمات ، مع غض النظر عن الحقيقة والغايات والإكتفاء بالسطحيات والابتعاد عن اللب والروح ، وفوق هذا وذاك فإن انهيار الامبراطورية الإسلامية جعل الوهن والضعف واليأس يتسرب

إلى قلوب ضعفاء الإيمان من العلماء والباحثين فانهارت قوائم العلمية والبحثية ، واكتفوا ببعض المظاهر والتقاليد من الإسلام ، وهم من روحه ولبه براء !.

وإن كتاب الله المقدس المنزل على خاتم الأنبياء والرسل يحمل هدايه للناس كافة إلى يوم الدين فهو المكفل من رب الناس بحفظه وبقائه وخلوده : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وأعد الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لأن يحمل رسالته للعالم أجمعه : أنسه وجنه ، أبيضه وأسوده ، وليكون شمس الهداية ، ومنار النور والعرفان ، فيقول الله سبحانه وتعالى فى معرض بيان مكانته عليه السلام ورسالته بين سائر الأنبياء ورسالاتهم : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا » ثم يقول : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

ويقول رب العباد فى كتابه الحكيم عن مكانة أمة محمد عليه الصلاة والسلام بين الأمم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ويفهم هذا صراحة من قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله تعالى : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس » .

وأما عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين جميعاً ، واستجابتها لكل حاجات البشر فى جميع مرافق الحياة فيبدو جلياً من قوله عز وجل مخاطباً رسوله الأجل « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقوله فيه : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً » .

وفى ضوء كل هذا وذاك من الأدلة العقلية والنقلية لم يبق للباحثين عن حقيقة التعاليم الإسلامية ، وعن مدى قدرتها لبناء الحضارة الإنسانية الحقة ، وإقرار الأمن والطمأنينة فى الجنس البشرى إلا الرجوع إلى كتاب الله المرقوم الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » ، وهو السجل الخالد المحفوظ من كل تغيير وتبديل ، والمصون من كل تخريف وتحريف وسنة رسوله الذى قضت حكمته لأن يحمله رسالته الكبرى وجعله أسوة حسنة للبشرية

جمعاء ، « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » لأنه رسول الإنسانية قاطبة ، : « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » .

نظرة الإسلام الى الحياة :

يصف الكتاب الحكيم الحياة الدنيا بأسلوب معجز ، ليس فى استطاعة أى بليغ مهما أوتى من قدرة الدقة فى التعبير ، وليس فى مقدور أى كاتب ملهم مهما بلغت مقدرته فى إجادة التصوير ، أن يحيط بوصف الحياة الدنيا الواقعية بأحسن منه إذ قال : « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » . وإن الله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان لأحلام اليقظة تلعب بعقله ، وتعبث بخياله كما تشاء بل أقام له دلائل قاطعة ، وبراهين ساطعة ، على أن الحياة الدنيا مملوءة بالمحن ، وسريعة الزوال ، وأودع خالق البشر والقوى فيه من الطبائع والغرائز ما يحمله على تنازع البقاء وحب السيادة ، ولكن رسالة كل فرد من الجنس البشرى — فى نظر الإسلام — هى القيام بالأعمال الصالحة التى تعود فائدتها عليه وعلى الناس فى حدود العمران والنهوض والتقدم ، مع التمسك بالتقوى والإحسان والإيثار والمحبة ، لكيلا يندفع الإنسان إلى الافتتان بهذه الحياة المطلية بالغرور الكاذب ، ويكف عن التكالب وراء حطام الدنيا البراق .

وقد شيد الإسلام صرح الحياة الناجحة على أسس الإيمان الصحيح ، والعمل الصالح فيقول القرآن الكريم : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فلا يكفى الإيمان وحده لنيل الفوز والظفر فى الدارين ولإقرار الأمن والطمأنينة فى العالم ولكن يجب أن يكون مقرونا بالعمل الصالح . العمل الصالح لله عز وجل ، ولنفسه ولوالديه ولأقاربه ، ولوطنه ولمواطنيه والعالم الإنسانى كله ، ولا شك أن الإيمان منشأ العمل الصالح ، والعمل الصالح مظهره ، فلكل منشأ مظهره ، ومن هنا صارت الأعمال الصالحة بكل معانيها ومظاهرها لازمة لسعادة الدارين ، ولإقامة العدالة الإجتماعية فى الجنس البشرى .

وأما الإسلام فدين العقيدة والعمل ، فيجب — بمقتضى تعاليمه — على كل إنسان أن يعمل عملا يفيد صاحبه وغيره على حد سواء ، وتظهر هذه الحقيقة النبيلة واضحة فى جميع تعاليم الإسلام التى أكدت بصراحة ووضوح أن الإنسان نتيجة عمله ، وأن هذه

الحياة حياة عمل وسعى » : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

ويقول الشاعر العربي :

حياة الورى حرب ، وأنت تريدها
سلاما ، وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تطاحنا
وكدحا ، ولو أن البقاء يسير

ويقول أمير الشعراء شوقي رحمه الله :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا
إن الحياة عقيـــدة وجهاد

ويعد الإسلام الإنسان جسميا وذهنيا لأن يواجه الحياة وهو بصير بأحوالها وخبير بشئونها ، فإن الإيمان بخالق الكون ، ووحدانيته ، وتفرده بالعبودية ، ومنح العون الحقيقي والإيمان بالآخرة ويوم الدين يربي في صاحبه روح الاعتماد ، في الشدائد ، على الله سبحانه وتعالى فيواجهها مطمئن القلب ويقبل على أداء واجبه نحو ربه ونفسه وأمته ووطنه في ثقة وإيمان ، ويعتمد في نجاحه ، بعد اتخاذ الوسائل الظاهرية على معونة الله وتوفيقه ، ونظرة من هذا القبيل إلى الحياة الدنيا تبعث في قلب الإنسان الشجاعة والصدق في العمل ، وتغرس في نفسه احترام حقوق الغير وعزته وكرامته ؛ لأن الناس سواسية أمام الله - لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وكلهم مسئول أمامه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

ويقرر الإسلام أن الإيمان يجب أن يكون منشأ للعمل كما يكون العمل مظهرا له ، فإنه لا يوجد مظهر بلا منشأ ، فلذا يقرن القرآن الكريم الإيمان دائما ، بالعمل ، كما يقول في سورة العصر « والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، وفي سورة التين : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فيا حبذا لو تمكنت هذه الفكرة القرآنية السامية في قلب كل إنسان يتطلع إلى النجاح في هذه الحياة الدنيا فإن العمل الناشيء من صميم العقيدة الراسخة في القلب هو الذي يؤدي إلى النجاح وبلوغ المرام .؟

محيي الدين الألوائي
المدرس بكلية الطب - جامعة الأزهر

أثر اليتيمة فى أدب الأندلس

للأستاذ محمد رجب البيومى

— ٢ —

لقد ذكر ابن بسام فى مقدمة كتابه أنه اتخذ تقسيم الثعالبي منهجاً له ، فهو يقسم الذخيرة أربعة أقسام كما قسم الثعالبي اليتيمة أربعة أقسام ، وهذا التقسيم جغرافى كتقسيم صاحبه فلكل إقليم شعراؤه مهما اختلفت منازعهم الأدبية ! فقسم لقرطبة وما يليها من وسط الأندلس وقسم لإشبيلية وماجاورها من الغرب ، وقسم لبلنسية وما يليها من الشرق وقسم أخير للوافدين من المشارقة إلى الأندلس ! وهكذا سار سير الثعالبي حين جعل اليتيمة أقساما أربعة : قسم لأشعار أهل الشام وما يجاورها ، وقسم لأشعار أهل العراق ، وقسم فى محاسن أشعار أهل الجبل والقسم الرابع فى محاسن أهل خراسان وما وراء النهر ، وهذا الاحتذاء السافر يتضمن اعتراف ابن بسام بمنهج أستاذه فهو فى رأيه كما نقل صاحب الوفيات عنه ح ١ ص ٥٢١ .

« كان فى وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ورأس المؤلفين فى زمانه وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الإبل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب طلوع النجم فى الغياهب » هذا الاحتذاء المقصود دفع المعاصرين من باحثينا الأفاضل إلى موازنات مختلفة بين الرجلين ؛ فالدكتور طه حسين يقول فى مقدمة الذخيرة الجزء الأول ا - ص ب « وهو يصطنع ما اصطنعه الثعالبي من السجع والتأنق فى تقديم الشعراء والكتاب ، والتعريف بهم ، والثناء عليهم والنقد لهم ، ولكنه بعد هذا كله يخالف الثعالبي فى أمر ذى خطر ، فهو أبعد منه نظرا ، وأنفذ منه بصيرة وأعمق تفكيرا ، وهو على تكلفه فى اللفظ لا ينخدع بالرواء الظاهر عما وراءه من جودة المعنى أو رداءته ومن صواب التفكير أو خطئه ولعله أن يكون أفقه من الثعالبي بالحياة الأدبية فى إقليم من الأقاليم ، فهو أدق منه ملاحظة لما يكون من الصلة القوية بين طبيعة الإقليم ، وماينتج فيه من أدب بل بين طبيعة الأجناس البشرية وما تنتج من أدب بل بين ما يكون من مجاورة الأمم المختلفة وما تنتج من الأدب الخ » .

والأستاذ على أدهم يقول فى العدد ٦٦٠ من الثقافة : ويبدو لى أن الثعالبي كان

على فضله وسعة اطلاعه أكثر خضوعا لأحكام القدماء من ابن بسام ، وأنه كثيرا ما يخدعه البهرج ويحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، أما ابن بسام فإنه نافذ النظر ، سليم الذوق بارع الناقدة دقيق الملاحظة ، لا يخدعه الطلاء المموه ، ولا تضل تفكيره الألفاظ الضخمة المدوية أو الطنطنة العالية » .

ومن يقرأ الذخيرة يعرف أن مؤلفها يعلم كل العلم موقفه من صاحب اليتيمة ، فهو على اعترافه بمتابعته يعلن أنه خالفه فى أمرين جوهريين : الأول ما أفاض فيه ابن بسام حين قال : المجلد الأول ، القسم الأول ص ٢٣ .

وقد وعدت فى صدر هذا الكتاب بأن أتخلل أشعار الشعراء ورسائل الكتاب والوزراء بما عسى أن يتعلق بأذيالها ويساير أفياء ظلالها ، من أنباء فتن ذلك الزمان البعيد - كان - طلقها ، المفرق لشمل الأمر فى هذه الجزيرة نسقها ، وتلمع بنبذ من مشهور وقائعها ونشير بأسماء طوائف زوابعها وتوابعها ، ليجمع هذا المجموع بين الشعر والخبر ، جمع الروضة بين الماء والزهر والزمان بين الأصائل والبكر ، فإنى رأيت أكثر ما ذكر الثعالبى من ذلك فى يتيمته محذوفا من أخبار قائليه ، مبتورا من الأسباب التى وصلت به وقيلت فيه فأمل قارىء كتابه منحاه وأحوجه إلى طلب ما أغفله من ذلك فى سواه » .

فهو ينعى على الثعالبى إغفال الحوادث والتواريخ ثم ينعى عليه مرة أخرى ذكر الفاحش من الأهاجى والماجن من القول فيقول بالقسم الثانى من المجلد الأول ص ٦٢ .

والقسم الثانى هو السباب الذى أحدثه جرير وطبقته وكان يقول : إذا هجوتم فأضحكوا وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ، ولا عيرت به قبيلة ، وهو الذى صنا هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه ، فإنه أبا منصور الثعالبى كتب منه فى يتيمته ماشانه وسمه ، وبقى عليه إثمه ، ونسأل بعد ذلك ، هل تقيد ابن بسام بمنهجه ؟ أما الذى يعرفه قارىء الذخيرة - ما نشر منها - فهو أنه لم يقدر على الإحاطة بالتواريخ والأخبار جميعها ، ولكنه بذل الجهد المستطاع ، وبقى ما بقى عما يتطلب البحث الجديد ، كما أن قارىء الذخيرة يعرف أن ابن بسام ترخص فى ذكر بعض الماجن من القول رغم حملته على الثعالبى بل العجيب أنه قبل هذه الحملة بصحيفتين فقط ص ٦١ يذكر أبياتا قذرة يقول : إنها من الكنايات المليحة التى تعرض بأمير المؤمنين على بن أبى طالب وكان له عنها محيد .

على أن ابن بسام مع هذا لا يقارن بمعاصره الفتح بن خاقان بحال ، مهما اضطرت

معاصرتهما كثيرا من النقاد إلى هذه المقارنة وإن عظم تأثرهما باليتيمة ويكفى أن نلخص السبب فى جملة واحدة هى أن ابن بسام جاد والفتح هازل ، فليس إلى إلتقائهما من سبيل!

ومن المفيد أن توضح وجهة نظرنا فى ذلك ، فننظر إليهما رجلين وأديبين ، لنرى الفتح يندفع فى استهتاره إلى ما يشين ، ثم يتطاول على الناس بالحق وبالباطل معا ، وهو حين عمد إلى التأليف لم يصدر عن رغبة فى اجتلاء حقائق الأدب والتاريخ ، ولكن اتخذ منه وسيلة التكسب المقيت ! فهو يرسل إلى أدباء عصره ومشهوري مصره يحدثهم عن رغبته فى تأليف كتاب أدبى يتحدث عنهم ، ويلتمس ما لديهم من الشعر والنثر ثم ينتظر ما يجيء ؛ فإن كان الرد مصحوبا بالبدر الثمينة والهدايا النفيسة أطلق أرسان المديح إلى أبعد الأشواط ، وإن تقاعس عنه ذوو الشمم عن يأنفون أن يكونوا لعبة فى يد لاعب أو يترفعون أن يشتروا المدح الزائف بمال مقرر مفروض ! فإن الفتح يشوهم بسياطه ويستعدى عليهم الحكام والناس ، ويصدر فى كل ذلك عن ذوق مريض ! لقد أرسل إلى الوزير الفليسوف النابغة أبى بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه يسأله بعض أشعاره مع ما يطمع فيه من المال ، فما التفت إلى دعوته ، ورأى فيه وصوليا يبتز المال من طريق بغيض ! ومثل ابن باجه لا يتأتى له أن يقدر سلوك الفتح وأدبه معا فهو فى الأول متسول محترف ، مع ما عرف عنه من العربدة واصطحاب السفلة وغشيان الريب ، وهو فى الثانى ينمق أسجاعا فارغة لا يراها الفيلسوف تهدف إلى جلاء حقيقة ملموسة ، أو تساعد على فهم ظاهرة مستعصية ! فما الذى يجذبه إليه مع هذه القبائح ! لقد عز على الفتح أن يهمل ويغفل فكتب فى القلائد فصلا عن الفيلسوف أملاه الحقد والضغينة والثأر قال فى مقدمته « هو رمد عين الدين وكمد نفوس المهتدين اشتهر سخفا وجنونا وترك مفروضا ومسنونا فما يتشرع ، وما يأخذ فى غير الأضاليل وما يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أظهر مخيلة إنابة ، ولا استنجى من حدث ولا أشجى فؤاده بتوار فى جدث ولا أقر بباريه ومصوره ولا فرد يباريه فى ميدان تهوره ، الإساءة لديه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر فى تلك التعاليم ، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم ، واقتصر على الهيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى ميعاد » .

لوكان الفتح يعتقد ذلك في ابن باجه عن صدق وإخلاص لوجد العذر من الناس في تسجيل ما سطره ، وافق الحق أو جافاه ، ولكنه كشف نفسه حين تراجع الوزير عن موقفه منه كفا لشره فنفحه ببعض المال ، فأطفأ جذوة غضبه، واندفع إلى كتابة جديدة ملأها بالثناء الحافل ، ولم يدخر وسعا في تنميق صفحة مضادة للأولى في كتابه مطمح الأنفس يقول فيها عنه :

« نور فهم ساطع وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فننا وتهدل إذا قدح زند فهمه أورى بشرر الجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي هو للإيمان شقيق ، والجد ، الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشترى أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور » .

هذان نصان متعارضان يكشفان عن معدن الرجل ! وهما أيضا يكشفان عن خصائص أدبه ، ولا يشرفانه في مجال الموازنة بينه وبين معاصره ابن بسام إذ أن صاحب الذخيرة قد تجافى عن بعض أخطاء يتيمة الدهر حين حاول تقييد الحوادث وتسجيل التواريخ ما استطاع !! أما الفتح فقد فهم يتأثير اليتيمة من ناحية ، وطبيعة الجو السائد من ناحية ثانية أن الكتابة معارض ألفاظ ، ومتاحف أسجاع ، وتطبيقات مدرسية للجناس والطباق والتورية ! أما أن تكشف عن حقيقة ، أو توضح فكرة ، فهذا مالا يبتغيه الفتح أو يعتقده ! ومع هذا فقد وجد من الأدباء من يقبلون تنميقه ، ويرتضون تلفيقه ، فلسان الدين بن الخطيب يقول عنه : « كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعانى وثيقها لعوبا بأطراف الكلام ، معجزا في باب الحلى والصفات » وابن سعيد يقول في المغرب عنه : الدهر من رواة قلائده وحملة فرائده ، طلع من الأفق الأشبيلى شمسا طبق الآفاق ضياؤها وعم المشرق والمغرب سناها وسناؤها وكان في الأدب أرفع الأعلام ، وحسنة الأيام ... وهو وأبو الحسن بن بسام صاحب الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييدا ، وعلما مفيدا وإطنابا في الأخبار ، وإمتاعا في الأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف وكلامه أكثر تعلقا وتعشقا بالأنفس ! » .

ويزول العجب من هذين القولين حين نعرف أن لسان الدين بن الخطيب وابن سعيد

المغربى كلهما من تلاميذة الثعالبى وهواة اليتيمة ! وخطتهما فى التأليف ترتضى الإكثار من القول والمباهاة بالزركشة اللفظية والزخرفة البديعية ! وذلك داء العصر ومنحاه ، فلا غرو أن هاما بأسلوب الفتح بن خاقان ! ولو رجع بهما الزمن إلى هذا العصر لسمعا الدكتور أحمد أمين يقول عن صاحب القلائد فى ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٨٣ :

(وأسلوب الذخيرة أقرب إلى نفوسنا فهو لا يلتزم السجع كما يفعل ابن خاقان ، وأسلوب الفتح هـذا أجوف يلعب بالألفاظ والاستعارات لعب البهلوان ! !

لقد شغلت منذ أعوام بدراسة الفلسفة الإسلامية بالأندلس ، فطالعت نبذا من آراء ابن باجه وابن طفيل وابن رشد ، وعرفت أن هناك فيلسوفا آخر هو الفضل بن شرف فحاولت أن أقف على سيرته ، وطفقت أبحث عنه فى كتب التراجم ، حتى عثرت على قول الفتح .

« الناظم الناثر ، الكثير المعالى والمآثر ، الذى لايدرك باعه ، ولايترك اقتفاؤه وأتباعه ، إن نثر رأيته بحرا يزخر ، وإن نظم وقلد الأجياد درا تباهى به وتفخر ، وإن تكلم فى علوم الأوائل بهرج الأذهان والألباب ، وولج منها فى كل باب ، وقد كان أول ما نجم بالأندلس وظهر ، وعرف بحرك القريض واشتهر ، تسدد إليه السهام ، وتنفذه الخواطر والأوهام فلا يصاب له غرض ، ولا يوجد فى جوهر إحسانه عرض وهو اليوم بدر هذه الآفاق ، وموقف الاختلاف والاتفاق ، مع جرى فى ميدان الطب إلى منتهاه ، وتصرف بين سماكه وسهاه ، وتصانيف فى الحكم ألف منها ما ألف ، وتقدم فيها وما تخلف ، فمنها كتابه المسمى دينر البر ، ومنها الكتاب الملقب بنجح النصح ، وسواها من تصانيف اشتمل عليها الأوان وحواها » هـذا كله ماقاله الفتح ، وقد أخذت أضرب كفا بكف بعد قراءته ، وأسأل نفسى : ماذا قدم لى المؤرخ الكبير غير بديع واسجاع وزركشة وابتداع ؟! وكان مما أسعدنى أن أجد الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان رحمه الله يحار مع الفتح حيرتى ، وينشر مقالا بالرسالة (١٤٩) سنة ١٩٣٦ يقول فيه بعد أن نقل كلام الفتح « وقد جرى الفتح فى هذه الترجمة على شنشنته فى سائر تراجمه ، فلم يذكر اسم المترجم له ولا اسم أبيه ولا منشأه فضلا عن أنه أغفل تاريخ مولده ووفاته ، كذلك لم نر لغير الفتح ترجمة لهذا الأديب الكبير يصح أن تسمى ترجمة يعول عليها » . (اهـ)

تأصلت إذن طريقة اليتيمة فى المؤلفات الأندلسية ، احتذاها الفتح شبرا بشبر ، ووقع فى بعض أخطائها ابن بسام ، ولولا

تشبه بمؤلفات ابن حيان لجعلها هو الآخر مثالا يحتذيه أما الحجـــارى وابن سعيد والمراكشى وابن الخطيب والمقرى ، وأما أضرابهم من مؤرخى عصر الطوائف وما يليه فقد أصابهم من تأثيرها الساحر ما لانزال نرى عقابيله فيما نقرأ لهم من التصانيف ، ! ولم يقتصر نمط اليتيمة على الأفق الأندلسى وحده ، ولكن بريقه الساطع قد جذب إليه مترجمى المشارقة ممن فتنوا به ، ونسجوا على منواله ، لقد حاول أبو منصور أن يجعل اليتيمة بأجزائها الأربعة ذيلا لكتاب البارع فى أخبار الشعراء الذى تقدم به هرون بن على بن المنجم المتوفى ٢٨٨ هـ » .

ثم جاء من بعد الثعالبى أبو الحسن على بن الحسن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧ هـ وألف كتابه دمية القصر وقد جعله ذيلا لليتيمة نهج به نهجه وقلد عبارته وأسجاعه ثم جاء أبو المعالى سعد بن على الوراق الحظيرى المتوفى ٥٦٨ هـ وصنف كتاب (زينة الدهر) جاعلا إياه ذيلا على كتاب الباخرزى دمية القصر ثم ظهر الكاتب الأشهر العماد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فأصدر خريدة القصر وجريدة أهل العصر ... وكل هذه الذيول المطولة تنهل من مورد الثعالبى ، وتنهج نهجه !! وهى بعد مشرقية لا أندلسية ؛ ثم توالت المؤلفات التاريخية تحمل الطابع البديعى وكان العصر المملوكى فى الشرق وعصور الزوال بالأندلس قد استطابت هذا اللون وارتضته عن إجماع لا يخرج عنه إلا كاتب عبقرى كابن خلدون ! !

كان أبو منصور الثعالبى يبذل جهده الحافل فى جمع الأشعار البعيدة ، وسؤال من يلقاه عمن يعرفون من الشعراء ، وإذا صادف أديبا مصريا أو أندلسيا أو فارسيا فرح به وأخذ ينقل عنه ما يروى ، وأنت تقرأ بعض تراجمه للشعراء ، فتجده لا يكاد يعرف عن الشاعر شيئا إلا ما سمع من أشعار ، فيضطر اضطرارا أن يكتب له ترجمة إنشائية تنحو منحى المقامات ، وتصلح لكل شاعر ينظم الشعر ، كما تباع الملابس فى المحلات التجارية ، ليشترى منها الآباء لأبنائهم غيباً ما يخالونه يتناسب ، وقد يلبس الابن حلته المشتراة فإذا بها ليست مما يصلح له ، ولكنه مضطر إلى ارتدائها ، كما اضطر القارىء أن يقبل تراجم الثعالبى للشعراء فى اليتيمة وإن لم تبرز قسماتهم وشياتهم على اتضاح ، والحق أن صاحب اليتيمة بذل طاقة قوية فى حفظ تراث الشعراء من بنى عصره ، ولولاه ما استطعنا أن نعرف شيئا عن أكثر من روى لهم من الشعراء لأن المغمورين لديه أضعاف أضعاف المشهورين ! ولكن طريقته فى السؤال عن الأدباء واستهدائهم بعض أشعارهم قد انتقلت إلى من بعده ، فكان ابن بسام يكتب لأدباء زمانه طالباً نماذج

قوية من أشعارهم ليضمها إلى الذخيرة ، فيفد إليه ما يريد ! وكل مسئول لا محالة يهدى من قوله أطيب ما يستحسن فى رأيه، وهذا حسن إذا جاء الأمر من بابه ، ولكنه انقلب تسولا شائنا على يد الفتح بن خاقان بل صار أداة إرهاب وهجو واستعداء ، وأذكر أن الطبيب الذائع والفيلسوف الماهر أبا العلاء زهر لم يقبل أن يجيبه على شىء ، فكتب الفتح رسالة فاحشة فى ثلبه وتقدم بها إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، محاولا أن يتهمه بالإلحاد والمروق ، كما أن طريقة الثعالبى فى الاعتماد على الوافدين غير مأمونة فقد يروى أديب لشاعر ما ليس له عن قصد وعن غير قصد ! ولابد أن تكون هناك نماذج كثيرة فى اليتيمة والدمية والخريدة والذخيرة والقلائد والمطمح ليست لأصحابها على وجه التأكيد، مهما يكن من شىء فنحن فى معرض إنصاف الثعالبى نقرر أنه بذل أقصى ما يستطيع ، وأن هيامه بالأدب قد دفعه إلى تشييد معقل قوى من معاقله حفظ جانبا من تراث القرنين الرابع والخامس معا ؟ أما قصور تراجمه وتراجم من بعده عن أن تقدم التاريخ الحى فى أكثر ما درج ، فيواجهنا بمهمة خطيرة ، إذ ينبغى أن يحرص ناشرو هذه المجلدات من علمائنا المحققين على استيفاء النقص ما أمكن ، فلا بد - إن صدق الناشر المحقق فى إخراجه - أن يضع فى هامش كل ترجمة ما يصل إليه جهده الباحث من أخبار صاحبها ذاكرا ما وقف عليه من المراجع والمصادر! فإذا اتجه أصلاء المحققين من الناشرين هذه الوجهة فلابد أنهم سيجدون الجيد المفيد ، ولك أن تتصور معى اليتيمة والخريدة وأضرابهما وقد عولجت هذا العلاج ، فأكملت ما تيسر من النقص ؛ وأصبحت مرجعا أدبيا وتاريخيا معا ؟ ومن المحقق أن بعض من ترجم لهم فى هذه الموسوعات لا نجد من المصادر المعاصرة ما يمدنا عنهم بشىء ، ولكن من المحقق أيضا أن كثيرا من هؤلاء قد كتب عنهم فهم يتطلبون عناية المحقق واهتمامه ، إن كان كفئا لعمله إذ من المقرر أن يضطلع بالنشر بحاثة متمرس ضليع قواد أما الذين يكتفون بالنشر الخاطف فهم وراقون !

لقد نشر الأستاذ الجليل أحمد يوسف نجاتى رحمه الله تسعة أجزاء من كتاب نفح الطيب عن دار المأمون قام بتحقيقها واستيفاء النقص فيما ورد من تراجمه ، فلم تكاده عقبة ما فى طريقه بل كان اطلاعه الثاقب الشامل - وإن أسرف أحيانا - يمده بجميع ما يريد ، ولو صدق محققو التراث الأدبى صدق الأستاذ نجاتى لتلافوا النقص ، وقوموا المائل ، ومهدوا الطريق . . .

محمد رجب البيومى

من شيم العلماء وشغفهم بالعلم

للأستاذ محمود الشرقاوي

— ٢ —

« إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

هذه الآية الكريمة كانت وما تزال وستبقى بقاء الدهر هاديا ونبراساً لكل عالم يضيء قلبه بنور الإيمان والعلم ، وتعتز نفسه ، ويوقن ضميره بأن خشية الله تمنعه أن يخشى سواه ، وأن الله مانحه العزة — والعزة لله جميعاً — جزاء شجاعته فى الحق ، وخشيته له وحده ، وقد رأينا أمثلة من ذلك فى مقالنا السابق .

وفى تاريخ علمائنا أمثلة تفوق الحصر نستوحى منها ما يجب أن توحيه من العظة والعبرة واستلهام القدوة .

١ — قصة يعرفها مؤرخو الفقه والحديث ومؤرخو الإمام مالك على وجه خاص : خلاصتها أن مالكا روى حديثاً عن رسول الله عليه السلام يقول : (ليس على مستكره طلاق) وكان أبو جعفر المنصور يأخذ لنفسه البيعة من الناس ويحلفون له بذلك ، وأراد خصوم مالك أن يكيدوا له فدسوا عليه بأنه يقصد بروايته لحديث بطلان الطلاق من المقسمين به : البيعة . حتى يتحلل المقسمون من قسمهم وبيعتهم .

واستمع جعفر بن سليمان ، والى المدينة من قبل أبى جعفر إلى كيدهم فطلب إلى مالك أن يكف عن رواية هذا الحديث ، وزاد الأمر شدة وتعقيدا ، كما زاد جعفرا سخطاً وغضباً ، أن خرج على الخليفة — فى الوقت نفسه — محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، وأخذ يدعو لنفسه ، فأمر جعفر مالكا أن يكف عن حديثه ، ولا يرويه لأحد ، ولكن مالكا أبى أن يكتم حديثاً يحقق روايته وثبوته عن رسول الله ، فجاء به جعفر . وطرحه على الأرض ، وأمر بأن يضرب بالسياط ، وضرب مالك ، وشدت يده حتى انخلعت كتفاه ، ولكنه صبر على المحنة ، وأبى أن يخشى إلا الله ، وأن يخون أمانة العلم ، وتناقل الناس ما حل بمالك ، فسخطوا وبلغ سخطهم مسامع الخليفة فلما قدم للحج دعا إليه مالكا ، واعتذر له بكلمات صادقة غاضبة يقول فيها : والله ما أمرت بالذى كان ولا علمته ، وقد أمرت بعدو الله جعفر أن يؤتى به على قتب : « رحل » ، وأمرت بضيق محبسه والمبالغة فى امتهانه ، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه) .

ولكننا نجد مالكا وقد سمت نفسه إلى مثل عليها كريمة يطلب إلى الخليفة أن يعفو عن جعفر لقرابته من رسول الله ومن الخليفة .

وشبيه بهذه القصة ما جرى للإمام أحمد فى المحنة المشهورة : « خلق القرآن » .

٢ — وروى السيوطى أن الملك الكامل أراد أن يشهد فى قضية أمام القاضى ابن عين الدولة ، فقال له القاضى : السلطان يأمر ولا يشهد ، وأخذ السلطان يجادله حتى قال له : أما تريد أن تقبل شهادتى ... ؟ قال القاضى : لا أقبلها وأنا أعرف أن المغنية « عجيبة » تصعد إليك كل ليلة فتسمع غناءها وتمايلها إلى الصبح ... ؟ وغضب الملك فوجه القاضى - بالفارسية - كلمة شتم ، وأدرك الشيخ ذلك فأعلن عزل نفسه عن القضاء ، وأشهد من حضر المجلس على هذا العزل ، ونهض بعضهم إلى السلطان يخوفه عاقبة ذلك ، فقام السلطان بنفسه إلى الشيخ فترضاه وطلب إليه أن يبقى فى القضاء .

٣ — وعاد جيش (بيبرس الجاشنكير) و (سلار) نائبى السلطان المظفر (قطز) مهزوما من إحدى وقائع التتار فى سوريا لم ينتصر كما انتصر قبله جيش سابق ، وأراد الأميران أن يجمعا مالا من الشعب ليعاودا الحرب ، فوقف لهما ابن دقيق العيد وأبى عليهما ذلك ، وقال رجل من المنافقين : إن شيخ الإسلام العز بن عبد السلام أفتى بذلك للسلطان من قبل ، فقال ابن دقيق العيد : إن شيخنا العز بن عبد السلام لم يفعل ذلك إلا بعد أن جمع (قطز) كل ما عنده وعند حريمه وأمرائه من الجواهر والأموال قبل أن يجمع شيئا من الشعب ، وكيف أبيح الآن لنائبى السلطان أن يأخذا أموال الشعب وأنا أعرف أن الأمراء يكنزون الذهب والجوهر ، وأن بعضهم كان فى جهاز بنته الكثير من الذهب واللؤلؤ وأوانى الفضة الخالصة ، ومنهم من يضع الجواهر فى (شبشب) زوجته ، يريد الأمير بيبرس ، والله لا أفعل ذلك أبدا ولا أفتى به .

(٤) وكان حكام مصر ، فى القرن الماضى ، من الجهل والغفلة والبلاهة بحيث يعتقدون أن (تلاوة) البخارى - مع ضعف العتاد ونقص الاستعداد - تكفل لجيوشهم النصر كأنهم لم يقرءوا ولم يسمعوا قول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

كانت الحرب تدور بين مصر والحبشة ، ووقعت هزائم كبيرة على جيش إسماعيل ، وخرج هـــذا يوما ومعه رئيس وزرائه شريف باشا وهو ضيق الصدر لما وقع بجيشه ، وتحدث إلى شريف فى أن يرشده ويشير عليه ، فقال له شريف : إنى إذا ضقت بشىء أو وقع لى مكروه دعوت العلماء الأطهار فقرءوا صحيح البخارى فتنفرج الشدة . عند

ذلك أمره إسماعيل أن يـكلم فى ذلك الشيخ العروسى شيخ الأزهر واجتمع العلماء أمام (القبلة القديمة) فى الأزهر يتلون صحيح البخارى ، ولكن الهزائم ظلت تتوالى على جيش إسماعيل ، فذهب إسماعيل ومعه وزيره شريف إلى مجلس العلماء، وقال لهم وهو غاضب : إما أن هذا الذى تقرءونه ليس صحيح البخارى وإما أن تكونوا لستم من العلماء الصالحين فإن الله لم يدفع بتلاوتكم شيئا ، فوجم الشيوخ وبهتوا ؛ ولكن صوتا من آخر الصف علا وجبه إسماعيل ووزيره بقوله : منك يا إسماعيل فإنا حفظنا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم).

وترك إسماعيل ووزيره مجلس العلماء واجمين ، ثم طلب إسماعيل أن يرى الشيخ فى قصره ، فلما دخل عليه طلب إليه أن يعيد ما سمعه منه فى « الأزهر » فأعاده ، ثم أخذ يلقى على سمع إسماعيل ما صنع من الشر والخروج على الشريعة ، ثم قال بعد ذلك : ما ذنب البخارى وما حيلة العلماء . . ؟ وكان إسماعيل يسمع ، وهو مطرق صامت لا يجيب .

هؤلاء العلماء قد استمسوا واتسموا بالآية الكريمة : إنما يخشى الله من عباده العلماء ، وكانت لهم أسوة وقدوة فى هذه الكلمة المؤمنة الشجاعة التى قالها أبو ذر : (والله لو وضعتم الصمصامة على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها عن النبى عليه السلام قبل أن يجيزوا على لأنفذتها) .

كرم وسماحة :

كذلك من شيم العلماء أن يكونوا كرماء سمحة نفوسهم .

١ — ذكر القرطبى ، صاحب التفسير ، أن الإمام الشافعى كان يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية ، ومع ذلك كان يفرق ما يرد إليه من الهبات الضخمة الكبيرة عند ورودها إليه ، ولا يفارق مجلسه قبل أن يفرقها .

٢ — وكان أبو حنيفة يتاجر ويجمع ربحه فيشترى به لشيوخ المحدثين حاجتهم ثم يعطيهم ما بقى ويقول لهم : لا تحمدوا إلا الله فإنى ما أعطيتكم شيئا من مالى ، فهو فضل الله عليكم يجريه على يدى .

وكان - كما وصفه تلميذه أبو يوسف - لا يكاد يسأل عن حاجة إلا قضاها .

ويقول سفيان بن عيينة إن أبا حنيفة : (وجه إلى هدايا استوحشت من كثرتها ، فشكوت ذلك لبعض أصحابى فقال : لو رأيت ما بعث به إلى سعيد بن أبى عروبة) . ويقول إنه ما كان يدع أحداً من المحدثين إلا بره براً واسعا .

٣ — وكان الشيخ قاضى القضاة « ابن دقيق العيد » فقيراً يصفه مؤرخوه بأنه كان يستدين ، أكثر أيامه ، وذكر المقريزى أنه - وهو قاضى القضاة - طلب من زوجته

دوهما يشترى شمعة فلم تجد . ومن شعره يصف حاجته وفقره :

لعمرى لقد قاسيت بالفقر شدة
وقعت بها فى حيرة وشتات
فإن بحت بالشكوى هتكت مروءتى
وإن لم أبح بالصبر ، خفت مماتى
فأعظم به من نازل بملة
يزيل حيائى أو يزيل حياتى

ولكنه ، مع هذا الشمم وهذه الصيانة ، كان يبذل من ماله القليل فى معونة المحتاجين من تلاميذه ومعارفه . يقول تلميذه القونى : إنه كان يعطيه فى كثير من الأوقات الدراهم والدنانير . ويقول أحد نوابه فى القضاء - وهو الشيخ نجم الدين محمد عقيل - إنه عندما اختاره نائبا أعطاه مائتى درهم . ومن قصص كرمه وسماحته ما تحدث به تلميذه محمد الحواسيى القوصى ، حيث يقول : كان الشيخ يعطينى فى كل وقت شيئا من المال ، على قدر ما يستطيع ، وأصبحت يوما مفلسا فأرسلت إليه ورقة كتبت فيها : تلميذك محمد القوصى فى شدة ، فأرسل لى مالا . وفى اليوم الثانى أرسلت إليه ورقة كتبت فيها : تلميذك محمد الحواسيى فى شدة ، فأرسل لى مالا ، وفى اليوم الثالث كتبت له : تلميذك محمد فى شدة ، فأرسل يطلبنى ، ثم قال لى : محمد القوصى أعرف أنه أنت ، فمن هو محمد الحواسيى . . ؟ قلت : أنا ، فقال : ومن محمد الثالث . . ؟ فقلت : أنا . . ! فقال : تكذب على وتدلس . . ؟ ! قلت الضرورة والحاجة ياشيخى رفع الله عنك الضر ، فضحك وأعطانى .

* * *

هذه الشمائل الغراء والشيم الكريمة وضعت العلماء فى تلك المكانة الشامخة والمنزلة السامية والكرامة العزيزة التى تدوك مداها من هاتين القصتين :

١ - الخليفة « المعتضد » يطوف فى بستان ، ومعه ثابت بن قرة الحرانى ، وكان الخليفة يضع يده فى يد ثابت وهما يسيران ، ثم جذب يده من يد ثابت فقال ثابت : ما بدا يا أمير المؤمنين . ؟ وأجابه الخليفة : كانت يدى فوق يدك ، والعلم يعلو ولا يعلى .

٢ - دخل خوارزم شاه يوما قصره وهو راكب ، وكان أبو الريحان البيرونى داخل القصر فطلب أن يراه . وأبطأ البيرونى قليلا فظن خوارزم شاه أن البيرونى قد ساءه أن يستدعيه ، وثنى عنان فرسه ليذهب إليه وشاهد البيرونى وهو قادم ، وهم أن ينزل من على ظهر فرسه ، ولكن البيرونى سارع إليه وأقسم عليه ألا يفعل ، فأنشد خوارزم شاه :

العلم من أشرف الولايات
يأتيه كل الورى ، ولا يأتى

ثم قال : لولا رسوم الملك ما استدعيتك . فالعلم يعلو ولا يعلى ؟

محمود الشرقاوى

الإقليمية في الأدب

للأستاذ محمد كامل الفقي

— ٢ —

لعل من إقليمية الأدب الناشئة بعد انقسام الدولة العباسية إلى دويلات، ما انطبع به الأدب العربي في عصر الفاطميين من أسلوب الدعاية وفرض الشعر في تمجيد الفاطميين وحكمهم، مما هو تجاوب واضح مع ارتياح الشعراء للعطاء الجزل، والمثوبة الخصبة، ومما هو صدى لأعياد الفاطميين ومواسمهم، إذ أبقوا على الأعياد المألوفة من قبل، وزادوا عليها عشرات وعشرات، فلهم مع عيدي الفطر والأضحى، عيد رأس السنة، ويوم عاشوراء، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد علي كرم الله وجهه، ومولد الحسن ومولد الحسين رضي الله عنهما، ومولد فاطمة الزهراء ومولد الخليفة (الحاضر)، وأول رجب، وأول شعبان، ونصف شعبان، وغرة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف وفتح الخليج، ويوم النيروز، ويوم الغطاس ويوم الميلاد، وغير ذلك، مما يدخل البهجة على الأمة، ويربط بينها وبين الحكام بأواصر ويجيء للشعراء مواسم بر، وموائد كرم.

إذ ذاك يركب الخليفة في زي فاخر، وموكب فخم وينثر الأعطية والمنح، فيكون ذلك ملهما الشعراء أن يجيدوا المدائح ويتسابقوا إليها.

حتى النثر الفاطمي كان مرآة لحياة الترف الماثلة في القصور، والفن والزينة البادية فيها وفي المساجد والمدارس والمكتبات مما لا يزال في مرأى العين حتى أيامنا هذه. وليس في الإمكان أن يحيا الأديب والشاعر بمعزل عن مظاهر الفن وسماته، فإنه يمعن فيها نظره ويملأ من مفاتنه عينيه، وتشرق من خصائص الفن سمات في شعره لا يعز على الذواق أن يجتليها.

وإن ذلك ليذكرنا بما كان في العصر المملوكي إذ بدت الإقليمية في الأساليب الانشائية من هندسة اللفظ وزخرفته وتحليته، فقد كان الشعب يرزح تحت حكم غاشم، فاضطر الأدباء إلى تنميق الأساليب، وتحوير الألفاظ، وحشد ألوان الصناعة كالتورية والاستخدام، والتلميح والإشارات والنكت، ليخفي في أستار ذلك ما في النفس من غيظ وحنق على حكم لا يجد الناس حيلة في الخلاص منه

إلا بعمل جاد تكون هذه الأساليب دعوة له وتهيئة إليه .

ذلك إلى أن نفوس الأدباء انطبعت فيها مرائى الزينة فى المبانى والمساجد والقصور وغيرها . فكانت تلك إقليمية فى أدب المماليك لا يغرب عن الذواق أن يميزه بها من سواه من أدب العصور .

هذا ولا ننسى ما اصطبغ به الشعر الفاطمى من صبغة تعليمية ، فقد استغله الشعراء فى ترويج المذهب الفاطمى ، وساقوه حججا وبراهين يدعون بها رأى الشيعة ، وقد رأينا ابن هانىء الأندلسى ، يؤيد فى شعره عقائد الإسماعيلية ، ويلهم الشعراء كيف يمدحون الخلفاء الفاطميين من ناحية عقائدهم ، ولعل ذلك سر إيثار الفاطميين له ، واعتزازهم به ، وتعويلهم عليه ، فقد أحلوه من أنفسهم المحل الذى أخل به كل شاعر معه ، وعظمت الفجيعة فيه ، حتى قال المعز حين بلغه خبر موته : لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك .

وابن هانىء ، هو الذى يقول مؤيداً هذه العقائد ، ومؤسسا نظرية الدعوة :

أنت الورى فاعمر حياة الورى
باسم من الدعوة مشتق (١)

ويقول :

قد كان ينذر بالوعيد لطول ما
أصغى إليك وعلم التأويلا (١)

ويقول :

أهل النبوة والرسالة والهدى
فى البينات وسادة أطهار
والوحى والتأويل والتحريـ
ـم لا خلف ولا إنكار

ويقول :

ماذا تريد من الكتاب نواصب
ولها ظهور دونها وبطون

ففى الأبيات التى مرت بك تأكيد من ابن هانىء ، لعقيدة الفاطميين الشيعيين فى أن الشريعة ظاهراً وباطنا ، وأن التأويل لا يعلمه إلا الله ورسوله وخلفاؤه القائمون من قبله إماما فى إثر إمام ، وسائر الناس يشحذون علم التأويل من هؤلاء كل على قدر استعداده .

وهو الذى يقول أيضا فى بث هذه العقائد وإثباتها :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها
فلا بد فيها من دليل مقدم

ويقول :

لولاك لم يكن التفكر واعظا
والعقل رشدا والقياس دليلا

(١) يقول للممدوح : أنت الناس جميعا ، فاعمر حياتهم مجتمعة ، وإنك داع إلى الله يدعوهم إلى الهدى

(١) الضمير فى كان يعود إلى السيف ، والمعنى كان سيفك ينذر بالوعيد ويعلم التأويل لطول مصاحبته لك واستماعه لبيانك .

لو لم تكن سكن البلاد تضعضعت
وتزايلت أركانها تزييلا

فهو يؤسس أيضا الدعوة ونظرية الإمامة والعصمة للأئمة ، وعلم الإمام بالحقائق ، وأنه مظهر من نور الله .

ففى هذا السلوك فى الشعر الفاطمى سمات ومعالم فى الشعر ، وحدود تحجزه عما سواه ، وإقليمية ترى فيها خصائص وقومية .

ولا ننسى فى الحديث عن النثر الفنى فى العهد الطولونى أن نقول : إن حظه كان أعظم من حظ الشعر ، وأن ذلك يتجلى كما يقول المرحوم الأستاذ (أحمد أمين) فى رسائل (ابن عبدكان) ، ككتابه الذى كتبه على لسان (أحمد بن طولون) لابنه حين خرج عليه : « ففيه المسحة العراقية : جمعت بين طول نفس الجاحظ ، وجزالة عمرو ابن مسعدة . مع ميل إلى السجع كثيراً ، والمزاوجة دائما ، وإطناب فى اللفظ ، وتكرار فى المعنى » ، فأنت ترى فى النثر فى بعض الأمصار « مسحة عراقية » لها سمات ومزايا ، وليس ذلك فيما نفهمه إلا إقليمية فى أدب ، بمعنى أنها خاصية فى أسلوب أحد الأقاليم .

وقد قيل فى الحديث عن (الحسن ابن عبد السلام) الشاعر المصرى فى العهد الفاطمى : إنه ربما ظهرت مصريته فى ميله إلى الفكاهة .

وإذا رجعت إلى حكم السلاجقة الأتراك وأمعنت النظر فى طابعه المميز . وجدت مظهر الشكوى والأنين من الشعراء . وسمعت من ثنايا الشعر ضجرهم وضيقهم بالحرمان فى هذا العهد . رغم تذكيرهم الولاة . وبسط اليد وذل السؤال . حتى لو ألقى إليك شعر دون نسبة لعصره ما شق على سمعك وعلى ذوقك رده إلى حكم السلاجقة .

هذه إقليمية فى أدب الممالك الإسلامية فى العصر العباسى الثانى . ترى فيها تميزا لأدب قطر على قطر ، ولشعر مصر على شعر مصر وإن كان الشكل يجرى على نطاق الدولة العربية التى تزهو حينا وتخذل حينا آخر .

وبهذا الذى سقناه يتضح أن لكل إقليم طابعا خاصا فى أدبه يخضع لأسلوب حياته وشتى ملابساته . وفى هذا المعنى يقول (عبد الكريم النهشلى) أحد أدباء المغرب « وقد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر . ويستحق عند بلد ما لا يستحق عند أهل غيره ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله . بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء . وحد الاعتدال . وجودة الصيغة وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل

كثيرا فى غيره . كاستعمال أهل البصره بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادرهم وحكاياتهم » .

ويقول بعض مؤلفى الأدب المعاصرين فى الحديث عن الحواضر التى صارت بعد الانقسام مزاحمة لبغداد ، « وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعلماء فصار لشعراء كل إقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لسائر الشعراء » [1] .

ولنا أن نتساءل بعد أن أشرقت معالم الإقليمية إلى أى مدى كانت ؟ أكان بها تمام التغاير فى الأدب ، ونهاية التخالف والتضاد . أم أنها كانت هينة الشأن ، تبدو فى خفر واستحياء وترى ويرى معها السمت العربى والأسلوب العربى فى كل حال ؟ .

الحق أن الأدباء لم يتسللوا من إهابهم العربى مهما انبثوا فى هذه الأقاليم ، ومهما أتيحت لهم فرص الهجرة والانتقال . ومهما كابدوا من من الحكم الدخيل فارسيا كان أو تركيا .

صحيح أن الأحداث التى شتتت شمل العربى أضعفت شأن الجزيرة العربية وانتهت بها إلى شبه عزلة أخرتها ماديا وعلميا حتى قال المقدسى ، حين وصف لغة أهل الجزيرة العربية : « وأهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلا بصحار ، فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس ... » .

ولكن هيء العلماء والأدباء إذ ذاك ماظلت الصلة به قوية بين الأمصار ، وما نهنه من حدة التفرق والتصدع ، فقد كان من مظاهر الحركة العلمية والأدبية فى هذا العصر أن يهاجر العلماء والأدباء من قطر إلى قطر لايصرفهم عن ذلك عناء ولا تعب ، وصار تقليدا مرعيا بينهم أن يعرج العالم إلى بلد أخيه يأخذ منه وينقل عنه .

وبلغ الغاية فى ذلك المحدثون ، فقد كان أحدهم يقطع الأرض جادا فى طلب الحديث والتثبت منه ، وما تطير شهرة عالم فى بلد حتى يصبح كعبة يؤمها القصاد ، والمثل فى ذلك بالإمام البخارى الذى جاب ما بين مدن خراسان والجبال والعراق والحجاز والشام ومصر ، يأخذ ويناقش ويصوب ويتحرى وهو فى هذا المنهج المشكور أسوة وقدوة .

فإذا ما فتحت بلد فشد ما يهرع إليها العلماء والأدباء والفقهاء ينشرون بين ربوعها العلم والأدب والفقه ، فتراها بين ومضات بيئة خصبة تنبت وتزهو ، وآية ذلك صقلية التى صارت مركزا من مراكز الإشعاع الفكرى حيث طار إليها العلماء والأدباء على أثر الفتح الإسلامى لها ، فإذا هى متقبلة هذه النهضة فى حرص وانتفاع .

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى للأستاذ السباعى بيومى ص ٤٢٤ .

كذلك كان لإنشاء الطرق وتمهيدها وإقامة الرباطات والأديار فى الدولة العباسية بين بلد وآخر لتسهيل التجارة وتنظيم البريد أعظم الأثر فى تقريب أطراف المملكة الإسلامية وتذليل العقبات للرتحلين المهاجرين مما مزج بين البلاد المتنائية، وعبد طريق الهجرة بين العلماء والأدباء، حتى لكأن المملكة الإسلامية وحدة متلاصقة على تعدد الملوك والحكام واختلاف أجناسهم، فإن كلا من العلماء والأدباء والفنانين لا يبالون بالحدود التى ترسمها السياسة، ويرى أكثر هؤلاء أن اللغة والدين أقوى وأشد بأسا.

لذلك ضعفت الشخصية الإقليمية وهانت الفوارق بين مصر ومصر؛ فلم - نجد إلا قليلا - تميزا ظاهرا لعلم مصر وأدبها على علم العراق وأدبه. أو علم خراسان وأدبه، وما وراء النهر والسند وأدبهما.

نجدها كلها متقاربة لاتفاقهم جميعا فى الدين واللغة والجنس، ولأن رحلة العلماء وشدة الاتصال قربت بين الفروق، وما يظهر امتياز فى ناحيـــة ما إلا استمدته الناحية الأخرى وجودته واستغلته، والشعراء القائمون على أبواب الملوك والأمراء ينتقلون من بلاط إلى بلاط فيوحدون مناهج الشعر.

كذلك نرى العلماء أمضوا جانبا من حياتهم فى قطر، وجانبا منها فى قطر آخر، فهم حينا فى مصر وحينا فى الشام، وطورا فى العراق وطورا فى فارس، حتى صار من العسير نسبة أحدهم إلى بلد دون صاحبه، ولهذه الوحدة أو شبهها اتجه أكثر مؤلفى التراجم إلى جمع علماء العالم الإسلامى باعتبارهم نتاج مملكة واحدة، هى كقطر واحد.

« نعم توجد شخصية لنتاج كل إقليم كالأدب المصرى والشامى والعراق وفارس وهكذا. ولكنها شخصية غامضة خفية لا ترى إلا بالمنظار الدقيق والبحث الطويل».

وأكثر ما يظهر هذا فى منابع الظاهرة العلمية والأدبية حين تظهر، فظهورها فى إقليم خاضع ولا بد لمؤثرات اجتماعية فى هذا الإقليم كظهور المقامات فى فارس والموشحات بالأندلس والأسلوب المسجع المحلى بالبديع فى الرى وما حولها والرسائل الشاملة لفروع الفلسفة كرسائل إخوان الصفاء فى البصرة.

كل هذا له علل اجتماعية وتاريخية وإقليمية مرتبطة بهذه الظواهر ارتباط السبب بالمسبب ولكن لا تلبث بعد ظهورها أن تقلد فى سائر الأمصار ولو لم تكن العلة الأصلية موجودة وتقوم علة التقليد مقام الابتكار، وتختفى الشخصية الأولى وراء المظهر العام للوحدة المشتركة »[1]؟

محمد كامل الفقى

---

(١) ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢١٨.

الأزهرى الذى وجه الاستشراق الحديث وعلماءه وجهة جديدة :

الشيخ محمد عياد طنطاوى

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

---

١ — لا يكاد أحد من العرب ممن كان له علاقة بروسيا فى القرن التاسع عشر يكون شخصية طريفة كشخصية أستاذ جامعة بطرسبرج الشيخ الطنطاوى ، فالدور الذى لعبه الشيخ فى تاريخ الاستعراب الأوربى ليس بيسير [١] .
كان الطنطاوى رجل الآداب العربية الحديثة العامل فى حقل الاستعراب الروسى [٢] ويبرز الطنطاوى فى تاريخ هذا الاستعراب والآداب الجديدة فى صورة فريدة لا نظير لها حتى الآن [٣] . فشخصية هذا « المستشار » تبرز بروزا فريدا فى تاريخ كرسى اللغة العربية وآدابها فى مــــدى قرن ونيف فى جامعة بطرسبرج [٤] .

هكذا يقول المستشرق الروسى كراتشكوفسكى عن الطنطاوى الذى كان شخصية فذة فى تاريخ الاستشراق ، والذى وضع أصولا ثابتة للدراسات الاستشراقية فى الغرب وقد شغل أذهان المستشرقين وكتاباتهم أمدا طويلا . ويعد أستاذ الكثيرين منهم .

٢ — كتبت دور الاستشراق عن الطنطاوى كتابات طويلة ، ونوهت بدوره الفعال فى خدمة اللغة العربية ، ووصفت أعماله العجيبة وصفا رائعا ، وسجلت دوائر المعارف العالمية الكثير من المعلومات عنه .

وعكف كراتشكوفسكى شيخ المستشرقين الروس عشر سنوات لكتابة دراسة عنه ، وأخيرا ألف بالروسية كتابه الرائع « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى [١] » ، الذى عهد المجلس الأعلى للفنون والآداب فى الجمهورية العربية المتحدة إلى السيدة كلثوم عودة ،

(١) ص ١١٤ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى لكراتشكوفسكى

(٢) ص ١٧ المرجع نفسه .

(٣) ص ١٠٨ المرجع نفسه .

(٤) ص ٩ المرجع نفسه .

(١) لكراتشكوفسكى دراسة عن الوأواء الدمشقى ، وعدة دراسات أخرى وهو الذى نشر كتاب البديع لابن المعتز وكان كتابه عن الطنطاوى أحب كتبه إلى نفسه وتوفى كراتشكوفسكى بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن أنقذ مخطوطات مكتبة لينتجراد من الدمار الذى لحق المدينة فى الحرب العالمية الثانية

وهى عربية فلسطينية مقيمة فى روسيا، بترجمته إلى العربية ، وعهد إلى الأستاذين: عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغنى حسن بمراجعة النص العربى وتحقيقه والتعليق عليه ، ثم قام بنشره عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ لجاء سفرا نفيسا فى نحو ١٨٠ صفحة ؛ ولكنه يمثل جهادا علميا جليلا فى الكشف عن حياة الطنطاوى ومواهبه وآثاره وثقافته ، وفى تفصيل خدماته للاستشراق والمستشرقين فى القرن التاسع عشر.

لقد تناولت الكتاب لقراءته ، فإذا بى أمام بطولة علمية حقة ، قام بها كراتشكوفسكى ، من أجل تسجيل حياة مواطن عربى ، مصرى ، أزهرى ؛ اعترافا بفضله على الثقافة الاستشراقية فى العصر الحديث ...

وكنت أقرأ الكتاب وكأننى أمام أحداث مصورة ؛ كل الألوان والظلال والسمات ، وكل خطوة خطاها هذا العالم الأزهرى الخالد ، منذ ميلاده حتى وفاته ، وكل حدث علمى أو فكرى أسهم فيه ؛ قد أبرزه كراتشكوفسكى بصورة زاهية أمينة ، معتمداً على كثير من المصادر والمخطوطات وسجلات المستشرقين ومؤلفاتهم ؛ وعلى مجموعة الشيخ محمد عياد الطنطاوى الخطية ، التى تبلغ نحو ١٥٠ مخطوطا عربيا ، مودعة فى مكتبة جامعة بطرسبرج ، والتى نرجو أن تقوم بعثات دار الكتب المصرية فى الخارج بتصويرها كلها أو بعضها مما له أهمية خاصة .

وكان كراتشكوفسكى يكتب عن الطنطاوى مأخوذا بروعة أعماله ، وجهاده العلمى ، ويسجل كل رأى فيه ، ويزن أعماله بميزان نقدى سليم منصف ، ويقول : لقد بدت لى فجأة شخصية شيخنا واضحة منيرة [1] .

وكان عمل المترجمة وعمل المراجعين موازيا لعمل المؤلف نفسه ؛ دقة تامة ، وأمانة علمية بارزة ، وتحرر لجميع الحقائق ، ووقوف صوفى ، كأنه الاستغراق ، أمام جميع النصوص . مما جعلنى مذهولا حقا أمام هذا العمل العلمى الفريد ، الذى يجب أن ينال تقدير الدولة ، وتقدير جامعاتها ، وبخاصة الأزهر ، وكم أود أن تكون أعمال الطنطاوى فى ميدان الاستشراق الحديث مادة للدراسة فى جميع معاهدنا وجامعاتنا ، وأن يطلق أستاذنا أحمد حسن الباقورى مدير جامعة الأزهر اسم الطنطاوى على أحد مدرجات الجامعة ، تخليداً لذكرى رجل نشأ بين صفوفه طالبا ، وعمل فى حلقاته العلمية مدرسا ، وقدره العالم كله عالما ومفكراً ومصدراً للحركة الاستشراقية فى العالم كله ، وأكسب وطنه مصر مجدا علميا باقيا على مر الزمان .

(١) ١١٧ المرجع السابق .

٣ — كان الطنطاوى أعظم من ضحوا من العرب فى خدمة الثقافة الإنسانية ، وخدمة البحث العلمى الحر . ولقد ولد فى قرية نجريد المصرية عام ١٢٢٥ هـ : ١٨١٠ م ؛ وكان أبوه تاجرا كثيرا التجول ، من محلة مرحوم بقرب طنطا ، وأمه من بلدة الصافية [1] .

وذهب إلى طنطا فى سن السادسة لحفظ القرآن الكريم ، وبدأ فى تلقى دروس العلم فى سن العاشرة فى حلقات الجامع الأحمدى .

ثم رحل مع أبيه إلى القاهرة عام ١٢٣٨ هـ : ١٨٢٣ م ، ودخل الأزهر ، وفيه تتلمذ على : محمد الكومى ، ومحمد أبى النجا ، ومصطفى القناوى ، وإبراهيم الباجورى شيخ الأزهر (ت ١٨٦١ م) ، وحسن العطار) (ت ١٨٣٠ م) ، وإبراهيم السقا (ت ١٨٨٠ م) .

وكان من زملائه فى الدراسة : الشاعر الشيخ شهاب الدين (١٨٥٧ م) ، ورفاعة الطهطاوى (١٨٧٣م) ، ومحمد قطة العدوى (١٨٦٤ م) ، ومحمد الأشمونى ، وإبراهيم الدسوقى (١٨٨٣ م) ، الذى تتلمذ عليه كثير من المستشرقين .

وفى عام ١٨٢٧ م توفى أبوه ، فترك الطنطاوى الدراسة فى الأزهر ، تحت ضغط الظروف القاسية ، وعاد إلى طنطا ، ومنحه أستاذه مصطفى القناوى شيخ المسجد الأحمدى أجازة فى التدريس عام ١٨٢٨ م ، ثم عاد ودرس فى الأزهر عام ١٨٣٠ م ، وكان أول من قرأ المعلقات والمقامات فى حلقاته العلمية وهو فى العشرين من عمره ، وظل فى الأزهر عشر سنين ، وله تعليقات على مقامات الحريرى وشرح الزوزنى على المعلقات .

ومن تلاميذ الطنطاوى فى الأزهر : يوسف الأسير السورى (١٨٨٩) ، وابراهيم مرزوق (١٨٦٦ م) ، وعبد الهادى نجا الأبيارى .

واشتغل مع عمله فى الأزهر بالتدريس فى المدرسة الانجليزية بالقاهرة (مدرسة الإرسالية البروتستانتية) عام ١٨٣٥ م . وفيها اتصل بكثير من الأوروبيين الوافدين على مصر ، ومن بينهم جماعة من المستشرقين مثل فرينل الفرنسوى (١٨٥٥) الذى ترجم لامية العرب الشنفرى إلى الفرنسية بمساعدة أستاذه الطنطاوى ، والذى علم أستاذه اللغة الفرنسية ؛ وكذلك بيرون وفيل وبرونر ، وأصبح الشيخ أثيراً عندهم ، واعتمدوا عليه اعتمادا كليا فى بحوثهم وتتلمذوا عليه تلمذة فعلية ،

(١) قرية تقع الآن فى مركز دسوق من أعمال مديرية كفر الشيخ .

وكتب فرينل يقول : إنه مدين للطنطاوى الشيخ المصرى الوحيد ، الذى يدرس لغته بمحبة واهتمام ، ويدرس كتب الآداب العربية القديمة » .

ومن تلاميذه : موخين ، وفرين الروسيان وبسببهما سافر الطنطاوى إلى روسيا عام ١٨٤٠ .

غادر الطنطاوى القاهرة فى ٢٤ من المحرم ١٢٥٦ هـ : فبراير ١٨٤٠ م إلى الإسكندرية حيث نزل فى ضيافة قنصل روسيا فيها «مديم» وفى ٢٦ مارس ركب باخرة نمساوية إلى استامبول ، ومنها إلى أوديسا ؛ وفى يوم ٢٩ يونيو ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج .

كانت روسيا آنذاك تهتم باللغات الشرقية ، وأنشأت فى بلادها دراسات لها . وفى نحو عام ١٨٣٦ أنشأت معهدا للغات الشرقية وألحقته بجامعة بطرسبرج (بتروغراد ثم لنينغراد أو لنينجراد فيما بعد) ، وخصصت كرسيا فيه ـ لتدريس اللغة العربية ، بجانب اللغات الشرقية الأخرى كالفارسية والتركية ، والمغولية والصينية ، والفضل فى ذلك راجع الى م . بوشكين وزير المعارف الروسية آنذاك ، وأرادت روسيا شغل كرسى اللغة العربية ، فكلفت قنصلها فى القاهرة ، ليقوم بالاتفاق مع من يعرف فيه القدرة على القيام بهذه المهمة ، فاتصل بالشيخ وحبب إليه السفر إلى روسيا لهذه الغاية ، فتردد الشيخ ، إلا أن أصدقاءه رغبوه فى القبول ، وأضيف إلى ذلك إلحاح القنصل وسخاء العرض ، فوافق على السفر ليأخذ مكانه بين أساتذة اللغات الشرقية فى بطرسبرج .

وقوبل الشيخ هناك بالحفاوة ، وجعل له مرتب سخى ، واشتغل منذ ٢ يوليو ١٨٤٠ بالتدريس فى معهد اللغات الشرقية . وبالعمل فى ديوان الخارجية فى بطرسبرج .

كتب سافيليف ـ الذى صار فيما بعد من أشهر علماء الآثار ، وأحد مؤسسى جمعية الآثار ـ يرحب بالطنطاوى : وبعث بمقال له ـ مذيل بتوقيعه ، وبتاريخ ١٧ أغسطس ١٨٤٠ إلى جريدة (فدومستى بطرسبرج) ، ونشرت الجريدة المقال فى عدد ١٨٩ بتاريخ ٢٢ / ٨ / ١٨٤٠ ، وجاء فيه :

(أنت تسألنى : من هذا الرجل الجليل ، فى لباس شرقى ، وعمامة بيضاء ، وله لحية سوداء كجناح الغراب ، وعينان تشعان بإشعاع غريب ، وعلى وجهه سمة الذكاء ، وقد لفحت الشمس بشرته ، وليست بالطبع شمس بلادنا الشمالية الباردة ؛ هو ضيف جديد من ضفة النيل ، الشيخ الفاضل محمد عياد الطنطاوى . إن اسمه معروف لدى كل

من يدرس اللغة العربية ، وكل السياح الذين انتفعوا بخدماته والمدينين له بنجاح أبحاثهم يذكرونه بالشكر ، ويكنون له المودة ، مذيعين شهرته فى أوربا . فمن هنا نرى ما كسبته كلية اللغات الشرقية المحلية التى دعت الشيخ القاهرى ليحتل كرسى اللغة العربية الشاغر . ويمكنك الآن أن تتعلم اللغة العربية بدون أن تغادر بطرسبرج وفى الأسبوع الماضى ألقى الشيخ الطنطاوى أول محاضرة له فى قاعة الجامعة حضرها ما عدا تلاميذ المدرسة بعض المستشرقين غير المنتمين إليها) .

خلف الطنطاوى فى قسم اللغات الشرقية سلفه (ديمانج) الذى توفى عام ١٨٣٩ م ؛ وقضى ما يقرب من سبع سنوات مجاهدا فى تدريس اللغة العربية ثم عين بعد ذلك عام ١٨٤٧ أستاذا لكرسى اللغة العربية فى جامعة بطرسبرج وعين المستشرق الروسى « نفروتسكى » مساعداً له . وظل أستاذاً لهذا الكرسى طيلة أربعة عشر عاما (١٨٤٧ - ١٨٦١ م) ، وعلى يديه تتلمذ كثير من المستشرقين الروس والألمان والفنلنديين الذين كان من أشهرهم « فالين » .

وفى سبتمبر عام ١٨٥٥ أصيب الشيخ بشلل فى رجليه ، وظل يغالب المرض والمرض يغالبه سنوات صعاباً على نفسه . وأقام فى منزله رهين المرض .

كان يشرف على العناية بالشيخ زوجته المصرية « أم حسن » ، التى ولدت له فى ١٩ مايو ١٨٥٠ ولداً سماه « أحمد » .

وتوفيت زوجه المصرية عام ١٨٦٠ وابنه فى سن العاشرة ، ولما لم يكن الشيخ بمستطيع القيام على تربية ابنه طلب إدخاله فى داخلية إحدى المدارس الوسطى ، ودخل أحمد جناز لارينا فى ١٩ نوفبر ١٨٦٠ على حساب الدولة ، ولم يلبث الشيخ غير قليل حتى أحيل على التقاعد فى ١٩ / ١ / ١٨٦١ ، ثم وافاه الأجل فى ٢٤ ربيع الثانى ١٢٧٨هـ : ٢٩ أكتوبر ١٨٦١ م ، ودفن فى قرية فولكوفا بجوار بطرسبرج بجوار مقبرة زوجه المصرية الوفية ؛ وكانت فى هذه القرية مقابر المسلمين . وتسمى المقابر التى دفن فى وسطها مقبرة التتر . وعين نفروتسكى خلفا له فى كرسى اللغة العربية بالجامعة ، وصرفت الدولة معاش الشيخ إلى ابنه أحمد ، واختير نفروتسكى وصياً عليه . وفى عام ١٨٧١ باع أحمد مجموعة والده الخطية إلى مكتبة الجامعة . ثم تزوج أحمد وخلف بنتا ولم يلبث كذلك إلا قليلا وتوفى عام ١٨٨١ ، ودفن بجوار أمه ، وألحقت ابنته بدار أيتام الأشراف باسم هيلانة ، وصارت مسيحية منذ ذلك التاريخ أو أريد لها ذلك ، إذ كانت

طفلة صغيرة آنذاك ، ولا ندرى من أخبارها بعد ذلك شيئاً .

٤ — ترك الشيخ آثاراً كثيرة تبلغ الواحد والأربعين مؤلفا ، أحصاها كراتشكوفسكى ، وفى مقدمتها : تاريخ حياته وكتابه المخطوط « تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا » ، وورد اسمه فى مرجع آخر فهو كتاب كراتشكوفسكى هكذا « هدية النجباء فى تحقيق إقليم روسيا [1] » ، وقد ألفه الطنطاوى عام ١٨٥٠ م / ١٢٦٦ هـ ، وأهداه إلى السلطان عبد المجيد ، وكانت كتابته فيه دقيقة ، وملاحظاته فاحصة ، وإحساسه وروحه عاليين ولم يكن الكتاب سردا تاريخيا أو جغرافيا ، بل كان وصفا دقيقا حيا بيئيا لرحلته من القاهرة إلى بطرسبرج وزياراته لأقاليم روسيا ، وانفعالاته مع الإقليم والشعب فيها خلال إقامته طيلة العشر السنوات التى قضاها هناك منذ هجرته عام ١٨٤٠ حتى تاريخ تأليف الكتاب (١٨٥٠) ووصف رحلاته فى روسيا وفى دول البلطيق وفنلندا من حولها ، ويتضمن الكتاب كذلك دراسة مفصلة لتاريخ روسيا الحديث وصورا سريعة لطبوغرافية بطرسبرج فى ذلك الحين ؛ وهذا العمل مكتوب بصورة لامعة ولا يزال محتفظا بقيمته العلمية إلى اليوم .

والطنطاوى كتاب عنوانه « النحو العربى » أو قواعد اللغة العربية » ، وهو أول كتاب كتبه كاتب عربى باللغة العربية للتدريس فى جامعات روسيا ومعاهدها العالية ، وهو موضع اهتمام المستشرقين ، ونال شهرة كبيرة فى كل دوائر الاستشراق الأوربى .

إلى كتب أخرى ألفها الشيخ ، وأحصاها كلها كراتشكوفسكى فى كتابه القيم .

٥ — كان الطنطاوى يجيد عدا العربية الفرنسية والروسية والفارسية والتركية واللغة التترية ، ويقول كراتشكوفسكى : إنه كان إلى جانب العربية له إلمام بست لغات أخر ، وإن هذا أفق كان بعيدا عن مواطنيه فى ذلك الحين [1] .

٦ — إن هذا الكتاب القيم لتاريخ حى من تاريخ مصر وأزهرها فى العصر الحديث فهو ينطق بعظمة الفكر المصرى فى أول عصر النهضة ، ويصور الحياة الثقافية فى مصر وحياة الأزهر العلمية فى القرن التاسع عشر تصويرا صادقا أمينا وهو من أجمل الكتب التى أخرجتها المطبعة العربية ؛ والفضل فى ذلك راجع إلى عمل المؤلف وعمل الترجمة

(١) ص ١١٠ بين المخطوطات العربية لكراتشكوفسكى طبع ليدن ١٩٠٣ .

(١) ١٠٢ تاريخ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى

وحمل المراجعين الفاضلين الذى ينم عن جهد كبير بذلاه فيه .

والكتاب مقسم إلى :

١ — توطئة أو مقدمة تحدث فيها المؤلف عن مصادر حياة الطنطاوى وعن ظروف قيامه بهذه الدراسة .

٢ — ثم ثلاثة فصول : الأول عن « الطنطاوى فى مصر وسفره إلى روسيا » ، والثانى عن « الطنطاوى فى روسيا » ، والثالث عن « مصنفات الطنطاوى » .

٣ — ويلى ذلك ملحقات بعضها بقلم الطنطاوى نفسه ، وبعضها نصوص أخرى للمؤلف وغيره .

٤ — ثم رسائل من الطنطاوى إلى غوتولد المستشرق(١٨٩٧م) والأستاذ فى جامعة قازان .

٥ — ويلى ذلك كله تعليقات وتحقيقات بقلم المراجعين كتباها شرحا أو تعليقا على بعض نقاط وردت فى الكتاب .

وفى صدر الكتاب صورة الطنطارى وسمها له مرتينوف عام ١٨٥٣ ، وصورة أخرى لقبره أخذها له بعض المستشرقين عام ١٩٢٣ ؛ وتقديم بقلم المراجعين الفاضلين .

٧ — وكنت أحب للمراجعين أن يذيلا الكتاب بكلمة عن كراتشكوفسكى وجهوده فى ميدان الاستشراق ، وبفهارس للموضوعات والأعلام .

ومع ما بذلاه من عناية وجهد فقد وقعت بعض أخطاء مطبعية فى الكتاب ، ومنها :

١ — لفظه جمادى الأولى التى وردت فى التعليق رقم ٣ فى الصفحة التاسعة ، وصحتها جمادى الآخرة .

٢ — تاريخ عام ١٨٥٧ وهو تاريخ وفاة الشاعر الشيخ شهاب الدين ، وورد فى الكتاب فى صفحة ٢٣ هكذا : ١٨٧٥ .

٣ — تاريخ عام ١٨٦٠ ورد فى صفحة ٧٧ هكذا : ١٦٨٠ .

٤ — لفظه يهنئه فى صفحة ١٥٤ وصحتها يهنئه ولا شك أن الكتاب جملة صورة مشرقة لجهد المراجعين الجليلين .

٨ — وبعد فقد مضى على وفاة الطنطاوى أكثر من مائة عام ، ومع ذلك فجهوده فى خدمة الاستشراق حديث الجامعات فى الغرب ، فتى تذكر الجامعات العربية هذا الرجل الفذ ، ومتى ترد له بعض ديونه وتعترف بقيمة ما أداه الفكر العالمى والعربى من خدمات جليلة باقية على مر الأيام ؟.

محمد عبد المنعم خفاجى

الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ أحمد محمد الغمراوى

— ٣ —

بقى الجانب الثالث من جوانب الإعجاز العلمى فى القرآن . وهو أعجب الجوانب الثلاثة إلى الناس ، وأقربها أن يقنع كل ذى عقل : أن القرآن هو حقا من عند الله فاطر الكون . ذلك الجانب هو جانب التطابق بين يقينيات العلم الحديث فى ميادينه المختلفة وما يتصل بها من الآيات القرآنية .

والآيات القرآنية الكونية أقسام : منها الخاص ومنها العام ، والخاص أعجب الاثنين إلى الناس ، لكن العام إلى العلماء أعجب ، الخاص : قضايا محددة تعبر فى الظاهر عن حقيقة واحدة تقنع العوام والخواص على سواء ، أما العام : فهو وإن كان أيضا قضايا محددة إلا أنها قضايا كلية لا يقدرها قدرها إلا من يعلم أن أقصى مايطمح إليه العلم فى موضوعها هو الوصول إلى مثلها بعد استقراء طويل عريض لجزئيات كان كل منها يوما ما مجهولا حتى كشف عنه البحث العلمى الدقيق ، فالقضية الكلية الثابتة علميا هى فى العلم قانون تندرج تحته قضايا خاصة كثيرة تمثل كشوفا علمية لم تتم إلا بتعاون العلماء فى الحقبة المتطاولة من الزمان .

والقرآن الكريم فى كل من ميدانى الخاص والعام أسلوبه الحكيم للدلالة على ما يريد أن يدل عليه من أسرار الفطرة ليكون كل سر منها ، إذا أذن الله بالكشف عنه ، هاديا إلى الله فاطر الفطرة ومنزل القرآن ، ولما كان القرآن إنما أنزل لهداية الناس إلى من أنزله سبحانه ، فقد اقتضت الحكمة الإلهية فى آياته الكونية أن ينزل بأسلوب لا يصدم المسلم البديهى عند الناس فيكذبوه ، ولا ينافى الحقيقة الكونية فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه إذ ايسر الله سبيل الكشف عن تلك الحقيقة فانكشفت لأولى العلم فى مستقبل العصور ، وهذا من أعجب عجائب القرآن التى لا تنقضى ، ومن أدل الدلائل على أن القرآن حقا من عند الله ، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماما أو يدل عليها أولى العلم ثم لا يصدم الناس فيما يعتقدون ولو كان ما يعتقدونه مخالفا تلك الحقيقة

- هذا الأسلوب القرآني في التعبير عن الحقائق الكونية وفي دلالة أولي العلم عليها أمر يعجز عنها البشر ولا يقدر عليه إلا الله الذي أنزل القرآن بالحق هدى للناس.

ولعل أوضح مثل لهذه الظاهرة القرآنية العجيبة قوله تعالى: «والشمس تجري لمستقر لها. ذلك تقدير العزيز العليم» الآية (٣٧) من سورة يس. وهي مسبوقة بقوله تعالى: «وآية لهم الليل. نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون» فكلمة «الشمس» في الآية الكريمة إما أن تكون معطوفة على «الليل» في الآية قبلها ويكون المعنى «وآية لهم الشمس» تجري لمستقر لها، وتكون جملة (تجري لمستقر لها) كجملة (نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) في الآية قبلها تبيانا لوجه آية الله في الليل وفي الشمس. وإما أن تكون كلمة (الشمس) مبتدأ في جملة مستأنفة خبره (تجري لمستقر لها)؛ وفي هذه الحالة يكون كونها آية لله من حيث إنها تجري مفهوما من السياق ويدل عليه في الآية القرآنية نفسها قوله تعالى (ذلك تقدير العزيز العليم). وعلى أي الوجهين أعربنا الآية الكريمة فالقضية الكونية فيها هو أن الشمس تجري، وقضية أخرى أنها تجري لمستقر لها. وقد سيقت القضيتان ليكون في كل منهما أو في مجموعهما هاد إلى الله ودليل على أن الذي أجرى الشمس وقدر مجراها هو الإله الحق الذي لا تجب العبادة إلا له. فضلال أي ضلال أن يعبد الإنسان سواه!.

فانظر إلى القضية الأولى، قضية أن الشمس تجري. كيف انطبقت على البديهي المشاهد من حركة الشمس في السماء من المشرق إلى المغرب في كل مكان يعيش فيه الإنسان، في نصف الكرة الأرضية الشمالي وفي نصفها الجنوبي، من قطب إلى قطب. لكن هذه الحركة إنما هي في الظاهر. وقد فسرتها الفلسفة اليونانية أو العلم القديم بما فسرت أو فسر، بما خطأه علم الفلك الحديث إذ أثبت أن حركة الشمس في الظاهر حول الأرض - كما هو معروف - هي حركة نسبية راجعة في الحقيقة إلى حركة الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق مرة في اليوم ينشأ عنها النهار والليل، كما أثبت للأرض حركة سنوية حول الشمس تنشأ عنها الفصول.

فهل فقدت الآية الكريمة شيئاً من دلالتها بهذا الذي أثبته العلم؟ إن الذي جد بما أثبته العلم هو انتقال الحركة عن الشمس إلى الأرض فصار للأرض حركتان تفسران الليل والنهار واختلاف الفصول، بدلا من حركة الشمس وحدها. والدلالة هي في حركة الجرم العظيم حركة دائبة مقدرة تقديرا تنشأ عنه ظواهر

كونية متكررة فى اليوم وفى العام تنطق بنائها وبعظمها وبانتظام تكررها وتكرر آثارها البالغة يوما بعد يوم وعاما بعد عام، ألا بد لها من موجد قدير حكيم قدر ودبر ولايزال يرعاها بتدبيره وحكمته، وهو الآله الحق سبحانه . ولا ينقص من هذه الدلالة شيئاً أن يصبح الجرم العظيم الذى له تلك الحركة العجيبة هو الأرض فى حكم العلم الحديث بعد أن كان هو الشمس فى رأى العين ورأى الفلسفة اليونانية أو العلم القديم .

لكن هناك سؤال آخر لايقل أهمية عن السؤال السابق لأنه يتعلق بالصدق كما تعلق ذلك بالدلالة . فهل فقدت الآية الكريمة شيئاً من صدقها وإن لم تفقد شيئا من دلالتها بذلك الذى أثبته العلم من التفسير الصحيح لظاهرة حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ؟ إن الله سبحانه يقول عن كتابه (وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فستحيل أن يكون فى القرآن شىء من الباطل قط لا فى كونياته ولا فى قصصه ولا فيما عدا ذلك مما تعرض له القرآن بعبارة أو بإشارة . بهذا تقضى هذه الآية الكريمة . والمؤمن بها الذى يحاذر أن يقفو ماليس له به علم ليس أمامه فى الإجابة على السؤال إلا الجزم بأن آيه سورة يس لا يمكن أن تفقد من صدقها شيئا بما كشف أو يكشف عنه العلم ، وليس له فى تفهمها إلاطريقان : طريق الحقيقة وطريق المجاز . والعدول عن الحقيقة إلى المجاز لابدله فى الكلام من قرينة تبرره وتدل على أن المعنى المجازى هو المراد. وليس فى الآية الكريمة ولافيما قبلها أو بعدها فى موضعها من سورة يس ما يدل على أن كلمة (تجرى) فى قوله تعالى (والشمس تجرى) مستعملة فى غيرما وضعت له أو أن من الممكن صرفها إلى حركة سريعة للأرض بدلا من حركة سريعة الشمس ، من باب إطلاق المسبب على السبب . فلم يبق إلا أن تكون كلمة (تجرى) فى الآيه الكريمة على حقيقتها مسندة إلى الشمس حقيقة لامجازاً .

وهنا نتبين عجيبة من عجائب الإعجاز العلمى فى القرآن ، فقد جاء علم الفلك الحديث ، بعد نحو ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، فأثبت للشمس حركة غير هذه الحركة الظاهرة من المشرق إلى المغرب .

وأثبت أن هذه الحركة ذاتية للشمس ، وقدر سرعتها بركنيها : أى من حيث المقدار والاتجاه ، فأما المقدار فهو اثنا عشر ميلا فى الثانية ! وأما الاتجاه فهو نحو النجم المسمى « فيجا » فى الإنجليزية ، والنسر الواقع فى العربية .

أى أن علم الفلك الحديث أثبت أن الشمس ، على عظم كتلتها الهائلة ، تجرى

في الفضاء بسرعة اثني عشر ميلا في الثانية في اتجاه النسر الواقع .

« والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم » .

فأنت ترى الآن أن في قوله سبحانه : « والشمس تجرى » معجزة علمية عظمى لم تكن تخطر لأحد على بال حتى كشف عنها علم الفلك الحديث ، والعلم الحديث لم يكشف عنها إلا في القرن التاسع عشر بعد أن تهيأ له من آلات الرصد ، وأدوات التحليل الضوئي ومن المقدرة على تفسير النتائج التي توصل إليها عن طريقها ، ما أدى به إلى الكشف عن ذلك السر العظيم : كتلة من النار قدر كتلة الأرض ٣٣٣ ألف مرة تقريبا تجرى في ملكوت الله بسرعة تزيد على ضعف سرعة ما يسمونه بالقمر الصناعي في دورته حول الأرض ! .

لقد افتتن الناس ، أو كادوا ، بهذه الأقمار أو القميرات الصناعية التي ليس للإنسان فيها إلا صنعها وإحكام إطلاقها مستعملا في ذلك ما وهبه الله من علم ومقدرة ، أما دورانها حول الأرض فليس له فيه من فضل إذ هي إنما تدور طوعا لسنن الله في الحركة من ناحية وفي الجاذبية بينها وبين الأرض من ناحية أخرى ، فكيف يمكن أن يكون في هذه القميرات دليل على وجود الإنسان وما بلغ من رقي في الصناعة والعلم ولا يكون في الشمس وجريها في الفضاء على ذلك الوجه العظيم الهائل دليل على وجود الله العزيز العليم سبحانه ، الذي خلق الشمس وأجراها وقدر لها مجراها في الفضاء ؟ .

ثم كيف لا يكون في إخبار القرآن بجرى الشمس هذا قبل أن يؤتى الإنسان من العلم والمقدرة ما يكشفه به ، بحيث تمر القرون بعد نزول القرآن والبشرية كلها في غفلة عن جريها وجهل به - كيف لا يكون في هذا كله دليل قاطع وبرهان ساطع على أن القرآن إنما أنزله رب الشمس سبحانه ، الذي فطرها وأجراها وقدر لها ذلك المجرى ؟ . إن في ذلك لآية لقوم يعلمون .

فانظر الآن كيف أثبت العلم الحديث صدق ما ينتجه الإيمان بالقرآن من قوله تعالى (والشمس تجرى) إذا اتبعت الدقة في تطبيق القاعدة البلاغية القاضية بالا يعدل — في تفهم الآيات القرآنية الكونية — عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية في نفس الكلام صحيح إن الاستنتاج قد وقع ونحن نعلم أن العلم قد أثبت صدق الآية حرفيا ، لكن هذا لا ينقص شيئا من العبرة التي ينبغي استخلاصها ألا وهي وجوب الاستمساك بما ينتجه التطبيق الدقيق لقواعد اللغة في تفهم آي الذكر الحكيم في ضوء المعروف من الحق

والمعروف من الحق فى هذه الحالة هو أن الحركة الظاهرة للشمس من المشرق إلى المغرب راجعه فى حقيقتها إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق.

ثم تأمل بالغ حكمة الله سبحانه فى أن جعل جرى الشمس حقيقة فى الفضاء يتفق خبره إذا ذكر فى القرآن مع ما علم سبحانه أن ستبدو به الشمس لعباده نتيجة لما قدره للأرض من حركة يومية حول محورها وحركة سنوية حول الشمس ، ليكون التطابق بين الخبر والجرى الظاهرى فيه عبرة وهدى للناس أثناء الحقبة المتطاولة التى علم سبحانه ان سوف تمر قبل أن يستطيع أولو العلم الكشف عن جرى الشمس الحقيقى ، حتى إذا كشفوه وحققوا بذلك صدق الخبر الكونى القرآنى حرفيا ، كان ذلك معجزة علمية كبرى فى القرآن تقنع كل ذى عقل لم يغلبه الهوى والعناد أن القرآن حقا من عند الله .

والمعجزة العلمية الكبرى المتمثلة فى قوله تعالى (والشمس تجرى) ينطوى تحتها فى الواقع معجزة أخرى ، إذ قد خطأت علم الفلك القديم حين قال فى تفسير الشروق والغروب : إن الشمس معلقة أو مركوزة فى فلك مادى كرى هو الذى يدور بالشمس حول الأرض ، فجعل حركة الشمس غير ذاتية والآية الكريمة تقرر أن لها حركة ذاتية سريعة ؛ فإن الجرى لا يمكن إلا أن يكون ذاتيا ، وقد وجد التفسير الفلسفى أو الفلكى القديم طريقه إلى كتب التفسير ليس فقط فيما يتعلق بالشمس ولكن أيضا فيما يتعلق بالقمر وقد اعتبرهما فلاسفة اليونان خطأ من السيارات التى فسروا حركاتها عبر السماء بما فسروا به حركة الشمس ، فافترضوها مركوزة فى أفلاك كريه شفافة مجوفة بعضها داخل بعض ومركزها جميعا الأرض فهى تدور كلها بحركات مختلفة من المشرق إلى المغرب حول الأرض التى جعلوها ساكنه لا حركة لها ، وتبعهم فى ذلك فلاسفة المسلمين والمفسرون .

وقد يكون من تكليف ما ليس فى الوسع أن ينتظر منهم استنباط جرى للشمس غير هذا الذى يرونه بأعينهم كل يوم ، لكن كان من المنتظر على الأقل أن يخطئوا الفلسفة اليونانية فى قولها : إن الشمس والقمر وبقية السيارات تجرى بالواسطة لا بالذات ، استنادا منهم إلى قوله تعالى : « والشمس تجرى » ، وقوله : « وكل فى فلك يسبحون » ، إذ لا قرينة فى الآى على أن الجرى والسبح معدول بهما عن الحقيقة إلى المجاز ؟

الحمر محمد الغمراوى

رحلات الخليل ابراهيم الى الحجاز

للأستاذ على الخطيب

بين العراق وفلسطين ومصر والحجاز سرت خطا خليل الرحمن : إبراهيم عليه السلام ؛ ينطلق إلى إحداها مدفوعا بوحى ربه ، أو طلباً للارتفاق ، أو صلة لرحمه ، وتسجل « الأخبار الصحيحة » أخذا من الكتاب والسنة معا خمس رحلات له عليه السلام إلى مكة المكرمة بالأرض الحرام من الحجاز مستوعبة تفاصيلها ، ذاكرة أسبابها.

لقد ترك الخليل موطنه بالعراق حين أنكر قومه وأنكروه ، وأجمعوا أن يحرقوه فاعتزلهم مهاجراً إلى ربه ... إلى فلسطين ، ثم قدم مصر بزوجه فى قحط ، وحفظ الله عليه أهله فيها ، وعاد مكرما بسارة زوجه ، وقد أهدى إليها من ملكها « هاجر » ، فأهدتها بدورها لزوجها ، وهاجر فى ذلك أخت لـ « مارية » ، هدية المقوقس لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكلتا المرأتين هدية ملك إلى نبى ... وكلتا هما كانت من خيار النساء ... ولعل مارية كانت تذكر محمداً بالخليل ، فسمى ولده منها « إبراهيم » .

وحين عاد الخليل إلى فلسطين لم يكن قد أنجب بعد ، حتى إذا سكن لهاجر أنجب إسماعيل عليه السلام ، فاشتدت الغيرة بسارة ، وساءها أن تعلو عليها بالإنجاب أمة ، ولعلها ضايقت هاجر ، فإن الأخيرة حين أمر الخليل بإبداعها مهجورها بمكة كانت تمشى مرتعدة وقد اتخذت (منطقاً) لتعفى أثرها على « سارة » زوج الخليل كما يحدث ابن عباس رضى الله عنهما وكانت تلك أولى رحلات الخليل إلى الأرض الحرام .

يروى ابن عباس فى صحيح البخارى أن إبراهيم الخليل : « وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم ... وليس بمكة يومئذ أحد » ، ولكنها - وإن كانت قفراً - كانت الأرض الحرم الآمن فقد حرمها الله وجعلها أمنا من « يوم خلق الله السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة » ، كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ، وضعهما إبراهيم إذن بخير بقعة فى الأرض ، صادعا فى ذلك لأمر ربه ، ولعله لم يستطع الغلبة على حنينه وحبه فأولاهما ظهره طاويا قلبه على شوق جارف ورحمة للأم والوليد ليس الجلد عليهما إلا رحمة من الله .

وأما الأم البارة فقد عصمها الإيمان أن تسىء الظن بالخليل ، وهى تناديه مراراً دون أن يلتفت إليها : « أين تذهب وتتركنا

بهذا الوادى الذى لا أنيس فيه ولا شىء ؟ » ثم تدرك مقام النبوة فتسأله : « آلله أمرك بهذا ؟ » فيجيبها : « نعم » ، فيغمرها الرضا بقضاء الله ، والأمن فى ظله ؛ فتقول : « انطلق فإنه لا يضيعنا ! » .

وبعد تلك الهجرة بشرت سارة بإسحاق ، وبشرت به فى حال لم تحدث لأحد فى العالمين ليس لأنها وردت على لسان الملائكة ... بل لما حوته البشارة من امتداد حياة إسحاق ، وامتداد حياتها هى حتى ترى حفيدها يعقوب « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » وكان يمكن بعد تلك الحادثة أن تعود هاجر إلى فلسطين ... إلى قريب من مكان زوجها وقد ذهبت الحال الأليمة التى آذت سارة عليها السلام ، واستوت المرأتان فى منزلة الإنجاب ، وارتفعت سارة بمنزلة السيادة . لكن الله كان يريد أمراً آخر فى البقعة الحرام إذ جعل للخليل فيها رسالة بعد رسالته لقومه الفاجرين ، كان عليه أن يبنى البيت ، ويؤذن بالحج ، ويؤدى شعائره ، كان الله يريد أن ينشأ البيت وبجانبه « لبنة » آدمية زكية ، هى لبنة النبوة ، تصون البيت ، وتؤدى واجبه ، وتحيط به فى نبوة بعد نبوة من ولد إبراهيم وذرية إسماعيل عليهما السلام ، ثم إن إبراهيم لم ينقطع عن زور أهله بمكة ... حقا ... إننا نجد زورات قد سلطت عليها الأضواء وتحدث عنها ابن عباس فى الصحيح منوطة بأحداثها . لكن لا يغيب عنا : مقام النبوة التى هى أدعى استجابة إلى صلة الأرحام ، وإبراهيم الخليل نبى كريم ، ووالد إنسان ، ورجل حنون شفوق بأهله فليس عجبا أن تتكرر زوراته ، وفى الصحيح أنه عليه السلام : « كان يزور أهله بمكة على البراق سريعا ثم يعود إلى أهله » .

وتأتى الرحلة الثانية إلى الحجاز من تلك الرحلات المفصلة التى وقعت أحداثها بمكة ، ونزل بهذه القرآن وتأتى حين شب إسماعيل ، وأدرك الحلم ، ورأى ابراهيم فى منامه أن يذبحه ، ووجد ذلك وحيا ، وأحس به أمرا فأسرع إلى تنفيذه فكان بمكة التنفيذ الذبح (١) ذلك (البلاء المبين) الذى يبصر المؤمنين بما ينبغى أن يكون عليه المرء طاعة لربه ،

(١) ينبغى أن يعلم المسلمون أنه لا دليل علمى أو غير علمى بيد اليهود يثبت أن الذبيح هو إسحاق ، وإنما ذلك قصة ابتدعوها طلبا لمخالفة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما اعتبر « قانونيا » من العهد يخلو من ذكر ذلك . وحسبنا الآية الكريمة بعد نصا قاطعا فى الأمر : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » نقل ابن كثير : أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب ؛ فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه . فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه فتعين أن يكون هو إسماعيل » اهـ .

وتضحية فى سبيل رضاه . إن إبراهيم الخليل لم يشاركه أحد من قبل ومن بعد موقف إبتلائه هذا . وحسبنا أن نعلم أن الخليل حتى لحظة الفداء ونزول الكبش ، وبعد أن استسلم إسماعيل للذبح وهم به الخليل كان فى روعه عليه السلام أن الذبح سيتم لا محالة ومن ذا الذى يمكنه من بنى البشر أن يصور نفسية الخليل تلك اللحظة أو يطيق أن يتخيل أمرها مهما أوتى من ضبط النفس وقوة الجنان . وهل بعد ذلك تقصير فى طاعة !؟ أو اقتصاد فى إخـــلاص . ؟ إنما ذلك الإخـــلاص كله ، والطاعة كلها ، وكان إبراهيم بهما خليل الرحمن .

ونحن لا ندرى كم عاشت هاجر ، لكننا نأخذ من ظاهر خبر صحيح أنها عاشت إلى ما بعد زواج إسماعيل «الأول» . فقد جاور هاجر وإسماعيل بطن أو أكثر من (جرهم) وكانوا خير جيرة لهما وبينهم (... شب الغلام وتعلم العربية ، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ... وماتت أم إسماعيل ...) صحيح البخارى كتاب الأنبياء

ويعنى هذا أن إسماعيل عليه السلام متعه الله بوالدته حتى اشتد عوده ، وأصبح يمكنته أن يستقل بالكدح ، ويسعى لرزقه ، فماتت أمه قريرة العين ، لا تخشى عليه ضياعا ، وتثق بالله فى أمره كله

لم تكن زيجة إسماعيل منهم بصالحة لأمره ولم تكن تلك الزوجة تصلح لمشاركته فى حياته لقد كانت تلتوى أمام مشاعر النبوة العالية ، وآدابها السامية ، واكتشف الخليل ذلك فى زيارته لإسماعيل بعد هذا الزواج، وعرف أنها كنود تضيق بالناس، ولا تألف الكرم وتهوى الشح وتنفر من الضيف ، ولا تحمد لزوجها بعد ذلك كله جهدا ، ولا تشكر له صنيعا .

قدم إبراهيم فلم يجد اسماعيل فسألها عنه فقالت : (خرج يبتغى لنا ذهب يصيد) فلما سألها عن حالهم كان ردها : (نحن بشر... نحن فى ضيق وشدة ...) وما كان إبراهيم عليه السلام لينتظر منها شيئا حتى تمضى فتقص له بلاءها ولكنها بدت امرأة لا تهتم بواجب، وتفرط فى الأنانية ، وحب الذات ، وتغض من قدر إسماعيل ، فقال لها الخليل: (إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له : يغير عتبة بابه) ففعلت ، وأدرك إسماعيل فقال لها : (ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك !) .

ووفق إسماعيل فى الزيجة الثانية ، وتبين ذلك إبراهيم الخليل فى زيارته التالية وقد صادف كل الظروف الأولى عدا الزوجـــة الكنود ، فإسماعيل يصيد ، وفى البيت امرأة غير أنها تستبشر له وتدعوه إلى الطعام والشراب ، وتحمد لزوجها جهده ، وتحدثه عن الخير الذى تعيش فيه والأمن الذى تنعم

(البقية على الصفحة التالية)

نقد ابن تيمية لمذاهب الاتحادية والقائلين بوحدة الوجود

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

— ١ —

نتساءل مقدما عن الأسباب التي حملت ابن تيمية على هذا النقد :

إن ابن تيمية كما نعرفه ، هو رجل من أتباع المدرسة الفقهية التي أنشأها ابن حنبل في تاريخ الفكر الإسلامى لأول مرة . وقديما حمل ابن حنبل على ذلك الفريق من المتصوفة الذى ذهب إلى حد القول بأن الفناء فى الذات الإلهية يمكن أن يتم عن طريق المجاهدة وأخذ النفس بألوان من الرياضات على نحو ما علمنا من كل من أبى يزيد "بسطامى والحلاج وأمثالها من أصحاب الأذواق ، وأرباب الأحوال .

فالنزاع بين الفقهاء والصوفية يرجع إلى زمن متقدم جدا على العصر الذى عاش فيه ابن تيمية والهجمات التي تعرض لها الصوفية إنما كانت تتوالى عليهم بصورة قوية ، حينا ، وفاترة حينا آخر طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولئن كان ظهور الصوفية قد بدأ فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، فإن النزاع الحقيقى قد بدأ

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

به ، وقد سألها إبراهيم : « ما طعامكم وما شرابكم ... ؟ قالت : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء ، قال : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم » ، ورحل الخليل وقد ترك لابنه رسالة ، وجاء إسماعيل وسألها : « هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى : كيف عيشنا فأخبرته : أنا بخير . قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال : ذاك أبى ، وأنت العتبة ... » اﻫ .

وتدل هاتان الزيارتان على مدى اهتمام الخليل بأمر ولده ، ورعايته شأنه ، والمشاركة فى إصلاح أمره فى حنان موصول وبر كامل .

ثم أمر الخليل ببناء البيت فقدم مكة ، واتجه إلى ولده فوجد : « إسماعيل يبرى نبلا تحت دوحة قريبا من زمزم ... فقال : يا إسماعيل ، إن ربك عز وجل أمرنى أن أبنى له بيتا ، فقال : أطع ربك عز وجل . قال : إنه قد أمرنى أن تعيننى عليه فقال : إذن أفعل » .

وارتفع البيت ليكون مأثرة من ملة أبينا إبراهيم وشعيرة وطاعة إلى يوم الدين ؟

على الخطيب
بمجمع البحوث الإسلامية

نقد ابن تيمية لمذاهب الاتحادية والقائلين بوحدة الوجود
للأستاذ عبد الفتاح الديدي

— ١ —

نتساءل مقدما عن الأسباب التي حملت ابن تيمية على هذا النقد :

إن ابن تيمية كما نعرفه ، هو رجل من أتباع المدرسة الفقهية التي أنشأها ابن حنبل في تاريخ الفكر الإسلامي لأول مرة . وقديما حمل ابن حنبل على ذلك الفريق من المتصوفة الذي ذهب إلى حد القول بأن الفناء في الذات الإلهية يمكن أن يتم عن طريق المجاهدة وأخذ النفس بألوان من الرياضات على نحو ما علمنا من كل من أبي يزيد البسطامي والحلاج وأمثالهما من أصحاب الأذواق ، وأرباب الأحوال .

فالنزاع بين الفقهاء والصوفية يرجع إلى زمن متقدم جدا على العصر الذي عاش فيه ابن تيمية والهجمات التي تعرض لها الصوفية إنما كانت تتوالى عليهم بصور قوية ، حينا ، وفاترة حينا آخر طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولئن كان ظهور الصوفية قد بدأ في منتصف القرن الثاني الهجري ، فإن النزاع الحقيقي قد بدأ

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

به ، وقد سألها إبراهيم : « ما طعامكم وما شرابكم ... ؟ قالت : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء ، قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم » ، ورحل الخليل وقد ترك لابنه رسالة ، وجاء إسماعيل وسألها : « هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته ، فسألني : كيف عيشنا فأخبرته : أنا بخير . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة ... » اهـ .

وتدل هاتان الزيارتان على مدى اهتمام الخليل بأمر ولده ، ورعايته شأنه ، والمشاركة في إصلاح أمره في حنان موصول وبر كامل .

ثم أمر الخليل ببناء البيت فقدم مكة ، واتجه إلى ولده فوجد : « إسماعيل يبري نبلا تحت دوحة قريبا من زمزم ... فقال : يا إسماعيل ، إن ربك عز وجل أمرني أن أبني له بيتا ، فقال : أطع ربك عز وجل . قال : إنه قد أمرني أن تعينني عليه فقال : إذن أفعل » .

وارتفع البيت ليكون مأثرة من ملة أبينا إبراهيم وشعيرة وطاعة إلى يوم الدين ؟

علي الخطيب
بمجمع البحوث الإسلامية

فى مستهل القرن الثالث أى بعد أن اشتهر أمر مدرستى : الكوفة والبصرة وفى منتصف القرن الثالث بدأت تنشأ فى العاصمة العباسية ثقافة جديدة لها طابع خاص بها يوافق الثقافة العباسية الإسلامية . وانحدرت إلى العاصمة الجديدة بعض أفكار ونزعات تصوفية كان من آثارها تكوين مدرسة بغداد الصوفية التى يمثلها المحاسبى . وهذه المدرسة قد ورثت فى الغالب من معظم الاتهامات التى نسبت إليها ومع ذلك فقد عاشت إلى جوارها مدرسة الحنابلة الذين فطروا بطبيعة مذهبهم المتشدد فى الأمور الفقهية والكلامية على ضرب من الزهد . وهذا هو الذى أتاح فرصة مناوشة كل من الفريقين للآخر . فحمل ابن حنبل على الصوفية وقال : إنهم أصل البلية فى حوادث (جهم) . وتوالت الأزمات بين الفريقين، ووصل الأمر بالحنابلة أن حملوا الدولة على الوقوف من الصوفية نفس الموقف الذى اتخذته بإزاء الزنادقة أيام المهدى . وأفلحوا فى النهاية فى التدخل فى أمر الحلاج والقضاء بقتله لما نسب إليه من الزندقة ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ بل استمر النزاع متمثلا فى اعتقاد الفقهاء بأن الصوفية : أهل بواطن وقلوب وأصحاب أشواق ومواجيد مما لا سبيل إلى أن يسلم به كل إنسان . وهى فى غالب أمرها، مسائل خاصة : وتجارب ذاتية وشطحات روحية من الصعب تأييدها ،

أو نقلها إلى الغير . ظل الأمر على هذا النحو حتى القرنين السادس والسابع الهجريين حينما جاء ابن تيمية ، فكان خاتمة لتلك الصراع الروحى الذى امتد طويلا بطريقة فكرية وفى بيان قوى ، ومما لا شك فيه أن الصراع لا يزال جاريا على أشده حتى يومنا هذا ولكن لم يأخذ قط بعد ابن تيمية مثل تلك الصورة القوية الفذة بحق . وهذا إن كان يدل على شىء ، فإنما يدل على أنه قد كان لنقده سبب تاريخى موروث ضمن العقيدة المذهبية التى كان يتشيع لها .

وعلى الرغم من أنه كان ينظر نظرة احترام وتقدير لبعض المتصوفة : كالغزالى وابن عربى وأبى الحسن بن سالم ، وعبد الله الأنصارى وعبد القادر الجيلانى كما يقول ماسينيون فى مادة تصوف بدائرة المعارف الإسلامية ولم يصفهما كما وصف غيرهما بالمروق من الدين ؛ فإنه لم يأل جهداً فى الحط من أقدار بعض المتصوفة الذين غالوا فى الاتجاه المخالف لاتجاه المدرسة الفقهية التى سار فى أثرها . ونحن نريد أن نكشف من هذا كله عن أثر دفين بنفسه للمذهب الذى شايعه ، وبتاريخه الطويل مما جعله يندفع فى هذا الاتجاه اندفاعا مؤيداً بالتعصب الدينى ، ومزوداً بالسلاح الفكرى اللازم .

أما السبب الثانى الذى كان يستوجب من

ابن تيمية كل هذه الثورة فيتصل اتصالا مباشراً بمسألة الصفات . وهى مسألة لها المحل الأول لدى مفكر إسلامى كابن تيمية ، فضلا عن أنها كانت الأصل فى كل خلاف نشأ بين الصوفية والفقهاء ، وموضع النزاع الدائم بينهما ولقد كان من المهم جداً بالنسبة إلى الإسلام أن يحدد موقفه من عقيدته فى الألوهية خاصة وقد جاء ليصلح أنظاراً دينية سابقة عليه وليبين الفساد فى بعض الآراء التى كانت معاصرة له . والواقع أن عقيدة الألوهية وما يتصل بها تعد من النقط الرئيسية فى كل دين خصوصاً فى الأوقات التى تعمل الفلسفة على تأييده فيها بالبرهان العقلى أو الفترات التى تنتاب الديانة فيها أزمات تدخل فى صميم العقيدة وابن تيمية من هذه الناحية متعصب لتعاليم الإسلام ، ومتمسك باعتقاد النبى عليه السلام نفسه فى الإله . فهو كما وصفه لاووست Laoust فى كتابه المسمى باسم Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques d'Ibn Taymia. ص ١٥٥ : يؤمن بوحدة الله وبأنه ذات تتعالى عن التحديد الوصفى ، وتسمو على القياس العقلى ، وموقفه هذا مستمد من الآيتين : « قل هو الله أحد » « ليس كمثله شىء » يضاف إلى هذا : أن القرآن يصف الله : بأنه قد استوى على العرش ، ويذكر الحديث عنه أنه ينزل كل ليلة إلى سماء قريبة ؛ فيسمع صلاة الصالحين . فإذا اعتمد ابن تيمية على النص وأخذ بالإسناد التاريخى فيما يتعلق بمسألة الصفات فلا بد له — وهو الرجل المسلم الحنبلى — أن يدافع عن مبدأ واحد ، هو مبدأ « وحدة الذات الالهية » ، ولا ينفى هذا بطبيعة الحال تعدد مظاهر قوته ، ولا يتعاوض مع الكثرة ، أو التسلسل التدريجى ؛ فالله واحد الذات ، متعدد الآثار فى آن معا . وفى القرآن يتكلم عن نفسه أحيانا بقوله : أنا ، وأحيانا أخرى بقوله : نحن . فالذات واحدة إذن أما الصفات فكثيرة ، (ونحن) هى بعض التعظيم ، فالواحد المعظم لنفسه يستعمل نحن .

وهذه نقطة حساسة جدا فى فهم ابن تيمية للصفات ، وأكره شىء إلى قلبه أن يوجد من المسلمين من ينكر الصفات على نحو ما فعل جهم من قبل ، أو كما يفعل القائلون بالاتحاد أو الوحدة ، وحين فضل ابن عربى على بقية أصحاب الاتحاد ، وميزه منهم ؛ لم يكن مدفوعا إلى هذا إلا لأن ابن عربى كما جاء فى مجموعة الرسائل والمسائل (فى ص ١٧٦) يفرق بين الظاهر والمظاهر ، وأول خطر أحسه ابن تيمية فى كلام الصوفية إنما عينه من وجهة النظر هذه ، فصفات الله عنده هى صفات الكمال سواء بسواء إذا قيست بالنسبة إلى الله نفسه ، أو إلى الخلق ، وهذا الكمال القدمى لا يتفق مع وجود درجات

فى الصفات ، أو مع قول باختلاف فى قيم هذه الصفات ، ولذلك تراه يقول (ص ٢٦ ج ٤) : مذهب هؤلاء الاتحادية كابن عربى وابن سبعين والقونوى والتلمسانى مركب من ثلاثة مواد :

١ — سلب الجهمية وتعطيلهم .

٢ — مجملات الصوفية : وهو ما يوجد فى كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة كما ضلت النصارى بمثل ذلك فيما يروونه عن المسيح فيتبعون المتشابه ، ويتركون المحكم .

٣ — وأيضا كلمات المغلوبين على عقلهم ، الذين تكلموا فى حال السكر . فتراه من ذلك يولى مسألة الصفات جل اهتمامه ، وتعد هذه النقطة لكثرة ما تحدث فيها محل البدء فى نقده ، والواقع أنه لم يكن فى هذه المسألة مبتكرا أو فيلسوفا بالمعنى الصحيح ، وإنما كان مقلدا للمدرسة الحنبلية بصفة خاصة تلك المدرسة التى قاتلت انتصارا للسنة ، والتزاما بحرفية القرآن . ومما يدلك على ذلك تلك الرواية المشهورة التى جاءت فى كتاب (العقيدة والشريعة فى الإسلام) بقلم جولد تسهير (ص ٩٧ من الترجمة العربية) من أنه ذكر فى عظة من عظاته نصا يتعلق بنزول الله ؛ فعمل على نفى أن يكون النص من المتشابه ، وعلى أن يشهر عيانا فهمه لنزول الله فنزل بعض درجات المنبر قائلا « كنزولى هذا ») فمن هذه الناحية يمكن أن ندخل ابن تيمية فى تلك الطائفة المسماة : بالمشبهة أو المجسمة . قد يظن البعض أننا نتعارض بهذا مع ما قلناه : من أنه يأخذ فى مذهبه بالآية القائلة « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » سورة الشورى (١١) ولكن نلاحظ دائما أنه كان يأخذ بهذه الآية على نحو ما فسرها محمد بن سعدون المعروف بأبى عامر القرشى إذ يقول : « معناها ألا يمكن أن يقارب الله أحد فى الألوهية ؛ أما فيما يتعلق بالهيئة والصورة فهو مثلك ومثلى » وهذا تفسير يتفق تماما مع رغبة ابن تيمية فى تصوير الله بأنه غير عاجز كما تصوره الفلاسفة ، وغير مجانس للوجود المرئى كما تصوره الصوفية .

ونتكلم الآن عن السبب الثالث الذى دفع ابن تيمية إلى اتخاذ هذا الموقف . والحق أن ابن تيمية عاش فى فترة لم يكن فيها الإسلام بخير ، ولم تكن الفرق الصوفية جديرة باعتبار واحترام . ففى عهده بدأت الطرق الصوفية فى الانتشار وبدأت الخانقاوات والزوايا فى الزيادة بصورة لم تحصل من قبل ، كما تعددت ألوان المنشآت الإخوانية . ولم يكن النشاط الصوفى قاصرا على المجال الجمعى وحده ، وإنما كان يمتاز فى وقته بجانب فردى تمثل فى اتخاذ بعض الأفراد خطة خاصة فى الحياة

وأسلوبا معينا فى السلوك ، جعلوا به من أنفسهم صوفية من طراز متوحد .

ولقد عرف الإسلام من قبل ضروبا مختلفة من التصوف أهمها وأميزها وأقربها إلى روح الإسلام وأحبها لفعل الخير هو ذلك التصوف المنظم كما كان عند الغزالى الذى عارض الطقوس المذهبية ، والأمور الشكلية لدى رجال الدين ، واتخذ من حب الله وحده دافعا إلى النقاوة والطهر والصفاء . ولكنه لم يعرف شيئاً من هذه الروح الخبيثة التى بدأت تندس فى أنحاء مختلفة من أقوال الصوفية فى عهده وأعمالهم المتصلة بجملة عقائدهم ، ونلخص أظهر المساوىء التى امتازبها تصوفهم فى النقط الآتية :

أولا : حوروا فى الأسس التقليدية للشريعة الإسلامية بصورة مزعجة إذ قد كانت الشهادة على هذا النحو « لا إله إلا الله » فتحولت على أيديهم إلى هذه الجملة : ليس إلا الله .

ثانياً : وكان مما أثار غضب ابن تيمية أنهم مزجوا بين التصوف والخزعبلات ، كما يقول لاووست فى وصف حالة الصوفية فى الفترة التى عاصرها ابن تيمية (ص ٢٩) فنهم من كان يعد الرقص أنشودة روحية تقتاد النفس إلى النشوة والسكر وتفتح للبعد سبيلا للاتصال بالله . ومن هذه الفرق الأحمدية والرفاعية واختص أعلامهم فى عرض الخوارق والمعجزات على مشهد من الأمراء .

ثالثا : تتصل الصوفية فى واقع الأمر بالميول الإسلامية الشعبية وتغذيها ، ومن ثم تمكن أصحابها من إقناع العامة بأنهم فى مرتبة الأنبياء ، وأن النبى هو قائدهم الأعلى ورئيسهم الأكبر . ومن هنا سادت بين الناس فكرة الاحتفال بالمولد ، وصارت مرضاة الله بين يدى الشيخ أو السيد أو الولى .

رابعاً : أدت حالات الزهد والانقطاع بالكثيرين من الأولياء إلى تفضيل الغلمان على النساء عند الأداء الجنسى ، كما أن منهم من بقى فى حال العزوبية التى تتعارض مع الدين الحنيف . (لاووست ص ٢٨) .

خامساً : يمثل التصوف على النحو الذى شاهده ابن تيمية فى عصره انحلالا ظاهرا فى العقيدة الموروثة ، ويتيح للعناصر النصرانية من جهة ، واليونانية من جهة أخرى ، أن تتدخل فيما هو من أصول الدين الإسلامى . ولم يكن بد من أن يعلن ابن تيمية سخطه على هذه الفئة التى تضلل المسلمين ، وتفسد الإيمان على أهله بحيث تسلمهم فى النهاية إلى الأمراض الاجتماعية الفتاكة التى تجعل منهم فريسة لكل طامع سياسى ، وذلك بعد البساطة الروحية التى امتازوا بها ، والقوة الدنيوية التى كانوا عليها . (البحث بقية)

عبد الفتاح الديدى

الإنسان
بين هوى النفس والشيطان
للأستاذ أحمد حنفي نصار القوصي

منذ هبط آدم عليه السلام من السماء ليكون خليفة في الأرض يعيش عليها ، ويعمرها هو وذرياته إلى نهاية الدنيا ، منذ ذلك الحين - ولما يمض غير قليل - انكشفت خصائص البشرية ، وبان ما يكمن فيها من استعداد وقدرة على عمل الخيرات ، واكتساب السيئات على حد سواء ، وقد ظهر ذلك جليا أول ما ظهر في قصة ولدى آدم عليه السلام من صلبه وهما قابيل وهابيل « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر قال : لأقتلنك ، قال : إنما يتقبل الله من المتقين ... فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » .

ومنذ طرد إبليس من الجنة ، وأنزل إلى الأرض مذءوما مدحورا لمخالفته أمر ربه بالامتناع عن السجود لآدم عليه السلام بدأت حربه التي لا تنقطع ولا تفتر ضد بني آدم ، ولزم هو وجنوده حد قوله فيما يحكى القرآن عنه إذ يقول : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين » وإذ يقول « فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » .

وقد اقتضت حكمة الله ورحمته بعباده أن يسد هذه الثغرات ، وأن يستجيب لحاجة البشر الماسة إلى التبصرة والتذكير بين الحين والحين ، لعلمه المحيط بهم ، وعلمه بسطوة عدوهم ، وبما هم عليه من ضعف في مقاومته ومدافعة استغلاله لشهواتهم ، ولعبه بأهوائهم فاصطفى لإرشادهم رسلا ينزل عليهم آيات هدايته ليدعوهم إلى الإيمان بالله ، ويرشدوهم إلى الصراط المستقيم ، يبينوا لهم حدود الله « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ولتكون مجازاة من كفر بالله ، ويلحد في آياته حقا وعدلا « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

وقد اختار الله رسله - وهو العليم الحكيم - من البشر ليألفهم الناس ويتيسر عليهم الاتصال بهم والأخذ عنهم والفهم منهم لاتحاد الجنس « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان

قومه ليبين لهم ، كما اختارهم رجالا ليقووا على احتمال المكاره والصبر على الشدائد التي تصادفهم في سبيل أداء أماناتهم بتبليغ رسالات الله « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » .

ولا شك في أن الهدى في كل زمان يضاد ما عليه الناس من الباطل ، ويصدمهم في كثير مما يحبون ، فيعرض أكثرهم عنه لضلالهم وتمسكهم بأوضاعهم القائمة ، وعبوديتهم للعادات المتمكنة ، والأرث الذي يقدسونه جهلا وعمى ؛ برغم مجافاته للعقل والرشد « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ؟ ! والشيطان من وراء ذلك كله يسوقهم إلى المعصية بعصاه الخفية القوية سوقا ، ويستغل ضعفهم ، ويوسوس لهم بالتزيين والتلبيس والوعود الفاسدة ، والأماني الكاذبة « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

واستمر الشيطان مع الإنسان على الأرض عدوا له مبينا . فأما الشيطان فقد احتمى بخصائصه ، وبطبيعة خلقه ، وأخذ يفعل أفاعيله في الاحتيال بعزم وقوة . وأما الناس فقد اختلفوا وانقسموا إلى قسمين : منهم من صدق برسالة الله فاستمع الموعظة ، واعتصم بحبل الله المتين بإيمان صادق ، وإرادة قوية ، محتقرا المغريات الشيطان ، وأمانيه الكاذبة ، فنجا من حبائله ، وأخذ طريقه إلى النصر عليه . كلما حاول منازلته « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون » فكيد الشيطان بالنسبة لهؤلاء هباء ، ومنهم من يستجيب للوسواس ، ويخضع لداعي الشهوة ، ويغلبه على أمره هواه ؛ فيكذب برسالات الله ، ويعرض عنها وينأى بجانبه ، ويؤذى الرسول ، ويكيد له ، ويحاول تبديل كلمات الله « ولا مبدل لكلمات الله » فيصير من حزب الشيطان مع الهالكين .

وإذن فحزب الله رسله والمؤمنون ، وحزب الشيطان إبليس وجنوده من الجن وضلال الأنس وهما في صراع دائم وحرب مستعرة مستمرة لا تتوقف ما بقي على الأرض الأناسي والشياطين . لذلك كانت مهمة الرسل شاقة ، وطريقهم وعرا ، وكان لا بد لهم من تأييد السماء ، فكانت المعجزات على تنوعها لتصدقهم وتدعم موقفهم تجاه المضلين .

وسواء منها ما كان في نوع العلم ، أو في نوع القدرة ، فهو خارج عن قدرة الأنس والجن جميعا ، لأن الجن من جملة من دعاه الأنبياء إلى الإيمان ، وأرسلت إليهم الرسل قال تعالى : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا » . ومعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان فلا بد أن يأتي بآية خارجة عن مقدورهم ،

وإذن فلا بد أن تكون آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الجن والإنس جميعاً .

ومع هـذا فإن حزب الشيطان لم يقف مكتوف اليدين ، بل حاول من جانبه بكل جهـده أن يشوش على معجزات الأنبياء بخوارق تنشا كلها فى الظاهر من السحر والكهانة ، وما إلى ذلك ليوهموا أنها من جنس المعجزات فيختلط الأمر على الناس ، فلا يفرقون بين الحق والباطل ، حتى أنهم أوغلوا فى ذلك فألفوا الكتب فى السحر ، وطرق الاتصال بالشياطين ونحو ذلك قال تعالى « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » وأدرجوا فى بعض هذه الكتب - إمعانا فى الإضلال - معروفا لاشبهة فيه ليلبسوا الحق بالباطل كى يفهم الناس أنه جميعا غير منكر ، وعمل مشروع . ففتن بها كثير منهم وكأنهم لم يتبينوا من قبل الحـدود الفاصلة بين المعجزات وما يلحق بها وغيرها من الأباطيل.

والمعلوم أن المعجزة أمر إلهى خارق للعادة اقترن بدعوى النبوة ، لتدل على صدق الرسول يظهرها الله على يديه ابتداء ، أو عنـد التحدى ، أو يجريها إرهاصا توطئة ، وإعلاما بمجىء الرسول ، وكذلك تخرق العادة لأولياء الله المعروفين بالصلاح والتقوى من أتباع الرسل عليهم السلام تأييداً لدين الله ، ودلالة على صحة ما جاء به الرسول .

وتسمى هذه كرامات للتفرقة بينها وبين المعجزات ، وهى ولاشك لا تبلغ على أى حال إلى مثل معجزات المرسلين وإن شاركوهم فى بعض أعمالهم ، والكرامة كذلك لا تدل على عصمة الولى ، ولا على أنه تجب طاعته فى كل ما يقوله ، كما هو الحال مع المرسلين .

وعلى ذلك فإن ما تقـدم الرسول من الإرهاصات ، وما تأخر ، وجرى على يد الصالحين فى أمته من بعده سواء أحدث ابتداء أو ظهر عند التحدى للدين فهو من معجزاته . ومثل هـذا ما ذكر فى حديث رسولنا صلى الله عليه وسلم عن الثلاثة الذين تكلموا فى المهد ، وما حدث لأتباعه صلى الله عليه وسلم كمخاطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سارية على المنبر مع بعد ما بينهما .

وما يكون من الكفار والسحرة والكهان والمشركين من أهل الكتاب والضلال من غيرهم فالأنبياء والأولياء قادرون على إبطاله ، وكشف زيفه بعون الله ، وأوضح دليل على ذلك ما ظهر على أعين الناس مجتمعين ضد سحرة فرعون على يد موسى عليه السلام .

وعلى كل فأفعال المفسدين على اختلافها من جنس الأفعال المقدورة للخلق من الجن والإنس والحيوان ليس فيها قلب جنس

ولا مسخ ولا إبطال خاصية بخلاف ما يجرى على يد الرسل فإنه من عمل الله لا يستطيعه مخلوق.

فالساحر قد يمرض بسحره أو يقتل والمرض والقتل أعراض يقبلها فى العادة الحيوان . وكذلك إحضار الطعام والمال من الغيب إنما هو نقل من مكان إلى مكان تفعله الجن والإنس ولكن الجن يفعلونه وهم فى خفاء عن الناس . وهذا كله ليس معجزاً لأنه فى مقدور المخلوق . وكذلك الأخبار ببعض الأمور الغائبة من مثل ما تفعله الشياطين مع الكهان فهذا تلفيق لا يخلو من الكذب أبداً لأن المصدر الشيطان وهو لابد له من الكذب على الإنس سخرية بهم . وقد أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » ومع ذلك فكل ما يخبرون به فهو من جنس المعتاد للناس مما يعلم بالمنامات وشبهها وفيه خلط وزيف وهو على أى حال ليس بالحق اليقين .

وأما أخبار الأنبياء عليهم السلام فليس فيها كذب قط لأنها من عند الله ومن غيبه الذى لا يقدر عليه الجن والإنس قال تعالى « عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، والأنبياء عليهم السلام فى ذاتهم صادقون والكذب فى حقهم مستحيل .

ومن العجيب المؤلم حقا أنه إلى عصرنا هذا ـ وقد بلغ العقل البشرى رشده كما يقولون وعلم الإنسان بظواهر الكون قد اتسع ، وقطع شوطا بعيدا ـ لاتزال مثل هذه الترهات تجرى فى الناس ، وتأخذ طريقها إلى عقولهم ، فيؤخذ بها ضعاف الأحلام ، ويلتبس أمرها على كثير .

وكنا نظن أن علماء السلف عليهم الرضوان من أمة محمد عليه السلام وقد تدبروا هذه المسائل من مئات السنين ، وبينوا الحدود بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين وأفاعيل المضلين كنا نظن أنه لم يبق هناك داع للعودة إلى الكلام فى هذه الأمور ، ولكن الإنسان أثبت أنه برغم رقيه وحضارته لا يزال فى حاجة إلى الموعظة والتذكير وإلى من يضع يده دائما على الحق . وهو كذلك ـ من باب أولى ـ فى أمس الحاجة إلى التنبيه على ما يجد من مفاسد العابثين وألاعيب الشياطين .

ومن هذه المفاسد وليست آخرها ألعوبة « الشيطان بالإنسان فى خرافة تحضير أرواح الموتى » . تلك البدعة التى استحدثت وراجت سوقها من بضع سنين وصدق بها كثير من الناس حتى من مدعى المعرفة مأخوذين بسراب من ظواهر الأمور دون نظر أو تحقيق .؟

أحمد حنفى نصار القوصى

ما يقال عن الإسلام

الفنون الإسلامية

للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

ليس الإسلام دينا يقتصر على العقائد والعبادات ولكنه إيمان وعمل ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر .

ولا يمكن فهم الإسلام حق الفهم إلا بالإحاطة الشاملة الوثيقة بسائر ما كان يقوم به المسلمون فى أمور معاشهم ، وما يقومون به فى الوقت الحاضر ، وجماع ذلك كله يسمى بالحضارة ، فالإسلام حضارة معينة ، تشمل تلك النواحى المختلفة التى ذكرناها ، ومنها الفنون .

ولم يغب هذا المعنى عن قدماء المفكرين فى الإسلام ، غير أنهم لم يفردوا للفنون كتبا خاصة تنهض بدراستها ، والأغلب أن المفكرين فى الزمن القديم لم تتجه عنايتهم إلى هذه الدراسات العملية ، أو الفنية ، أو التكنولوجية ، وذلك لاعتقادهم أن الفكر المجرد والنظر الخالص أسمى من العمل وبخاصة الأعمال اليدوية ، ولم يكن هذا الفصل بين النظر والعمل ، مع سمو النظر على العمل مقصوراً على المسلمين ، ولكنه ميراث طويل عن الحضارات القديمة .

ولما جاء المستشرقون فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، شرعوا يطبقون المناهج الحديثة فى دراسة الفنون على الفن الإسلامى ، فكانوا بذلك أصحاب الفضل فى فتح هذا الباب أمام الباحثين العرب الذين تعلموا عنهم هذا اللون من الدراسة ، وكتب فى ذلك المرحوم الدكتور زكى محمد حسن كتابه عن الفنون الإسلامية معتمداً على تلك الدراسات الأجنبية .

وقد ترجم إلى اللغة العربية منذ عشر سنوات تقريبا كتاب الفنون الإسلامية تأليف الأستاذ ديماند ، وقد أحسن المترجم بقوله « الفنون الإسلامية » فى العنوان بدلا من الأصل الأجنبى وهو « الفن المحمدى » ، ومعنى ذلك أن المؤلف يضع للإسلام اسماً هو « المحمدية » . وقد فعل ذلك الأستاذ جب ، المستشرق المعاصر المعروف ، حين ألف كتابه عن الإسلام وسماه « المحمدية » والراسخون فى العلم لا يقولون بذلك ، بل يقولون : الإسلام ، لأن الدين عند الله الإسلام ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل .

وقد أخذ معظم المستشرقين فى الوقت الحاضر بهذه الوجهة الصحيحة من النظر ، وهذا ما فعله اثنان من كبار المشتغلين بالفنون والآثار الإسلامية ، هما : « كرسويل » الإنجليزى الذى كان أستاذاً للفن الإسلامى بالجامعة المصرية ، و « جورج مارسيه » عضو الأكاديمية فى باريس ، ومدير متحف الفن بالجزائر قبل استقلالها ، وعنوان كتاب كرسويل « فن العمارة الإسلامى قديما » ، وعنوان كتاب مارسيه « الفن الإسلامى » ، أو « الفن فى الإسلام » ، أو « الفنون الإسلامية » .

والأغلب أن المشتغلين بهذا اللون من الفنون يسمونه إسلاميا لا عربيا ، على حين أنهم حين يتحدثون عن العلوم يقولون « العلوم العربية » لا الإسلامية ، وذلك لسببين : الأول أن العلم لا وطن له ، وهو دراسة مغايرة للدين ولا تخضع له ، فيكون من التناقض القول بعلوم إسلامية أو مسيحية (المقصود هنا العلوم بمعناها الخاص كالحساب والهندسة والفلك والطب وغير ذلك) . والسبب الثانى أن تسميتهم العلوم بأنها عربية نسبة إلى اللغة العربية لا إلى الدين .

صفوة القول : إن الفنون إسلامية والعلوم عربية ، وهذا فى الأغلب الأعم ، اللهم إلا عند بعض المتحذلقين والمخالفين ، وهم عندنا قلة لا يحسب لها حساب ، ولا يؤخذ برأيها فى هذا الباب .

يفتتح الأستاذ جورج مارسيه كتابه بهذه العبارة : « تصور أنك تقوم بهذه التجربة ، إذ تمضى ساعة من فراغك تتصفح مجموعة من الصور هى عبارة عن مجموعات فوتوغرافية مأخوذة عن ألوان مختلفة من الفنون : هناك تماثيل إغريقية ، يتلوها نقوش على مقابر قدماء المصريين ، ثم سواتر مزركشة على الطريقة اليابانية ، ثم تقع عينك وأنت تقلب الصور ، على لوحة من الجص المنحوت مأخوذة عن إحدى صالات قصر الحمراء ، ثم على صفحة من مصحف كتب بقلم مصرى ثم على نقش محفور على إناء إيرانى من النحاس ومهما تبلغ ثقافتك الفنية من الضآلة ، فإنك ستتحقق على الفور أن هذه الصور الثلاث الأخيرة تنتمى إلى الفن الإسلامى » .

يريد المؤلف أن يقول : إن الفنون الإسلامية على تنوعها وتطورها على مر العصور ، وتباين الأقطار الإسلامية التى نشأت فيها من الشرق الأقصى إلى أقصى الغرب ، تمتاز بشخصية ، ووحدة وخصائص تجعل الناظر إليها يدرك ، ولا يخطىء أنها إسلامية .

ويذهب مارسيه إلى أن الفن الإسلامى يمتاز بصفتين أساسيتين هما : الشخصية والوحدة ، ولامراء فى شخصية الفن الإسلامى هذه الشخصية الواضحة البارزة التى يسرت

الحكم على القطع الفنية على تنوعها بأنها إسلامية وقد جاءت للفنون الإسلامية هذه الشخصية من عدة عوامل على رأسها : الدين ففى ذلك العالم الإسلامى الذى امتدت رقعته من الصين شرقا إلى الأندلس غربا ، كان المسلمون يخضعون لديانة التوحيد ، ويتلون كتاباً واحداً باللغة العربية هو القرآن ، ويمارسون عبادات واحدة هى الصلوات الخمس كل يوم ، ويجتمعون معا لصلاة الجماعة فى المساجد ، ومن أجل ذلك اتخذت المساجد هيئة خاصة فى بنائها تستلزم وجود مئذنة للأذان ومنبر لخطبة الجمعة ، والمحراب لبيان اتجاه القبلة ، والميضأة لقضاء الحاجة والوضوء والنقوش التى تحلى بها جدران المساجد من الداخل ومن الخارج ومعظمها من الآيات القرآنية :

وقد كان القرآن وما زال وسيظل كتاب المسلمين المقدس ، يعظمونه لأنه كلام الله ، ويحفظونه فى الصدور ، ويكتبونه فى المصاحف بخط جميل ، وينقشون هوامش المصاحف بألوان من الرسوم الجميلة . ولم تقتصر الكتابات القرآنية من الناحية الفنية على تزيين جدران المساجد ، بل وضعت على كل ما يستخدمه المرء فى منزله من أدوات ، بحيث يعيش المرء فى داره محوطا بالشعارات الدينية ، وعلى رأسها شعار المسلمين وأساس دينهم وهو : (لا إله إلا الله) و (محمد رسول الله) . أو : (بسم الله الرحمن الرحيم) وغير ذلك . ونحن نعرف أن الدراهم والدنانير كان يضرب على أحد وجهيها فى الأغلب : لا إله إلا الله .

وهكذا نجد أن شخصية الفن الإسلامى تستمد كيانها من الدين . بل إن بناء البيوت على هيئة خاصة ، من وجود فناء داخلى ، ونافورة مياه ، ومشربيات تطل على الخارج كل ذلك يمكن تفسيره دينيا كما يمكن تفسيره جغرافيا .

وفى ذلك يقول الأستاذ مارسيه بعد حديثه عن العامل الجغرافى وعامل الجو وأثرهما فى الفن الإسلامى ما نصه (صفحة ٨) : (ومع ذلك فإن الذى حفظ قبل كل شىء آخر وحدة الفن الإسلامى بين الأقطار المختلفة هو الإسلام نفسه ، تلك الوحدة التى يحمل كل أثر فنى طابعها . ذلك أن العامل الدينى هو أكثر العوامل فعالية وأدومها) . هذا ولم يغب عن باله عامل آخر له أهمية عظمى وأثر كبير فى الفن الإسلام ، وهو اللغة العربية . ويقول فى هذا الصدد :(إن التقارب بين الفن ، ولغة الحديث أمر لا شك فيه . ذلك أن ما يجعل من اللغة العربية - على الرغم من بعد الشقة بين الشعوب وتنوعها - لغة حديث مشتركة هو أنها لغة مقدسة ، واللسان الذى نزل به الوحى المدون فى القرآن) .

ولما كانت الفنون الإسلامية تستخدم فى الأغلب الكتابة العربية للحلية، والتبرك، والتقرب إلى الله، فلا غرابة أن نجد هذه الكتابات على جميع الآثار من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. وانظر معى إلى هذه النغمة الجديدة التى تبغى أن تتخذ من الأحرف اللاتينية طريقة لكتابة اللغة العربية، وتريد ترجمة القرآن إلى لغات غير العربية، فكيف يكون الفن الإسلامى بعد ذلك عاملا من عوامل التوحيد؟ إنها - ولا نزاع - نغمات شاذة مغرضة تبغى هدم الإسلام عن طريق هدم اللغة العربية، والتخلص منها.

والفن لغة، يعبر بالخطوط والألوان والظلال والصور عن روح الأمة وتاريخها. والفن من أجل ذلك حى بحياة الأمم، يسمو مع نهوضها، وينحدر مع ضعفها ويتغير بتغير تاريخها. ولا يمكن أن يظل الفن ثابتاً خلال القرون الأربعة عشر التى مر بها الإسلام منذ ظهوره حتى الآن. والفنون الإسلامية مظهر من مظاهر التاريخ الإسلامى، وسجل لذلك التاريخ، وثمرة له، كما أننا نستطيع أن نستقرىء التاريخ الإسلامى من النظر إلى الآثار الإسلامية الباقية حتى اليوم، والمحفوظة فى المتاحف. ثم إن الإنتاج الفنى يفترض عموما حالة معينة من توازن المجتمع، وازدهار الدول وقوتها.

ولما كانت الفنون الإسلامية عبر تاريخها الطويل قد خضعت لتأثير السلاطين والخلفاء والأمراء الذين كانوا يرعون الفنون ويشيدون المساجد والمدارس باسمهم تخليداً لذكرهم، كان لابد من معرفة وثيقة بالتاريخ الإسلامى لمعرفة أسرار هذه الفنون.

لهذا السبب يقسم علماء الفنون كتبهم بحسب العصور التاريخية؛ ويمهدون لكتبهم بمقدمة فى التاريخ الإسلامى. وهذا ما فعله الأستاذ كرسويل فى كتابه عن العمارة الإسلامية.

أما الأستاذ مارسيه فقد قسم بحثه إلى أربعة عصور، أو فترات دون الإفاضة فى العرض التاريخى.

الفترة الأولى: من ظهور الإسلام إلى نهاية القرن الثالث.

والفترة الثانية: من القرن الرابع، أى عصر انقسام الدولة العباسية إلى دويلات، وازدهار الدولة فى الأندلس، وظهور الفاطميين فى شمال إفريقية ومصر، وتستمر هذه الفترة حوالى قرنين ونصف من الزمان.

ثم فى الفترة الثالثة: تبدأ الدولة الإسلامية فى التميز خلال القرون: من السابع إلى العاشر، ويبرز الفن الإيرانى بوجه خاص والفن المملوكى.

وفى الفترة الرابعة: يظهر التأثير التركى

عقب نفوذ الأتراك فى العالم الإسلامى ، وهو يبحث فى كل عصر الفنون على النحو التالى :
(١) العمارة الدينية ـ والمقصود منها المساجد أساساً ، ولكن فى بعض العصور وجدت مقابر . (٢) العمارة المدنية مثل القصور والبيوت . (٣) الزخرفة بأنواعها . (٤) الفنون المتحركة أو المنقولة وهى على عكس العمارة التى تعد من الفن الثابت ، ويدخل فى هذا الفن كل ما يمكن نقله مثل الأوانى النحاسية ، والمصنوعة من الفخار ، والأقمشة ، والأبسطة ، والسجاجيد ، وجلود الكتب وغير ذلك .

أما كتاب كرسويل فإنه مقتصر على العمارة يتحدث فيه عن فن العمارة أولا فى الدولة الأموية ، ثم ثانيا فى الدولة العباسية حتى نهاية القرن الثالث الهجرى .

ثم إن كرسويل لم يعرض التاريخ من حيث هو كذلك ، بل فى الحدود التى تسمح بإبراز الإنتاج الفنى . ولذلك استهل كتابه بقوله : « لايبدو أن بلاد العرب عند ظهور الإسلام كانت تملك شيئا يستحق اسم العمارة ، إذ لم يستقر فى الأرض سوى نسبة ضئيلة من السكان اتخذت لها بيوتا أشبه بالمغاور . وسمى الذين يعيشون فى بيوت من الآجر أهل المدر ، وسمى البدو الذين كانوا يعيشون فى خيام من الشعر أهل الوبر » .

هذا المدخل إلى العمارة الإسلامية يفصح عن اتجاه واضح نحو انتزاع أى عمارة عن العرب قبل الإسلام وعند ظهوره حتى يقال : إن المسلمين نقلوا هذا الفن عن البيزنطيين بوجه خاص ، وعن الفرس . وليس لدينا سند صحيح يبين مدى ما بلغته العمارة العربية قبل ظهور الإسلام مباشرة فى مكة والمدينة غير أن المستشرقين الذين يكتبون عن الإسلام ويحاولون تفسير الأسباب المادية لظهوره . يذهبون إلى أن العرب فى الجاهلية بلغوا مرتبة من الازدهار ثمرة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ليس لها مثيل ، ولو أن الفارق كان كبيرا بين الأغنياء والفقراء . وجدير بمن بلغ هذا الثراء الفاحش من أهل مكة أن يتخذ لنفسه دوراً أنيقة ، يقوم ببنائها مهرة الصناع من مصر أو اليمن أو الحبشة أو الشام ، تماما كما هى الحال فى الوقت الحاضر . مهما يكن من شىء فنحن بإزاء تفسيرين متناقضين يذكرهما المستشرقون ، الأول أن حالة العرب الجاهلية كانت فى غاية التأخر حضاريا ، والثانى : أنها كانت غاية فى الازدهار ، فترى بأى التفسيرين نأخذ ؟ .

على أى حال يتناقض كرسويل مع نفسه حين يتحدث فى الصفحة الأولى من كتابه عقب ذلك عن تجديد بناء الكعبة قبل بعثة

الرسول ، معتمداً فى ذلك على رواية قدماء المؤرخين العرب مثل الأزرق . وتذهب الروايات إلى أن قريشا جلبت الأخشاب التى بنت بها الكعبة من حطام سفينة غرقت عند الساحل ، واستخدمت نجاراً وبناء اسمه باقوم كان على ظهر السفينة ، إلى آخر هذه الرواية .

وقد كانت الكعبة بناء كبيراً نسبيا ، لأن الأصنام التى كان العرب يعبدونها كانت موجودة فى داخل الكعبة ، فضلا عن صور الأنبياء (بحسب رواية الأزرق) .

وقد ذكرنا من قبل أن المؤرخين العرب لم يوجهوا عنايتهم نحو تسجيل العمارة وهندسة البناء بمقدار ما كان يهمهم تسجيل الظواهر المتصلة بحياة الرسول الكريم

وخلاصة الرأى عند كرسويل فيما يختص بنشأة العمارة فى الإسلام ، أن فكرة عرب الجاهلية عن العمارة كانت ساذجة جداً ، وأن الكعبة ، وهى الهيكل المقدس عندهم ، لم تكن أكثر من بناء يحوطه أربعة جدران بارتفاع قامة الرجل وفى داخله بئر زمزم ولما ظهر الإسلام بنيت المساجد فى غاية البساطة لتحقق الغرض من اتخاذها مكاناً للعبادة . وأنشىء فى البصرة والكوفة والفسطاط أول المساجد وكانت ساذجة بدائية إلى أقصى حد . أما فى سوريا فإن أول مساجد اتخذها المسلمون إما أنها كانت كنائس ، أو أجزاء من كنائس شارك فيها المسلمون المسيحيين .

ولا يمكن اعتبار بداية المساجد بمعنى الكلمة من حيث فن العمارة إلا فى خلافة عبد الملك ابن مروان أو الوليد بن عبد الملك ، وقد ظل العرب بعيدين عن أى مطامح فى فن العمارة مدة قرن من الزمان بعد ظهور الإسلام ، ثم نقلوا بعد ذلك عن الفن الساسانى فى العراق ، وعن الفن البيزنطى فى الشام .

وقد اعتمد كرسويل فى دراسته على أوراق البردى إلى جانب المصادر التاريخية المعروفة ، حين وصف بناء مسجد دمشق الذى قام به الوليد ، وشرح ، كما يقول المقدسى ، فى طلب مهرة الصناع لتنفيذ غرضه ، وجاء فى أوراق البردى التى عثر عليها بمصر ما يؤيد تلك الرواية ، إذ نقرأ فى إحداها أمراً بدفع أجور الصناع ، وفى أخرى أمراً آخر باستبقاء أربعين صانعا (أنظر صفحة ٥٤ من كتاب كرسويل).

والكتاب محلى بالرسوم واللوحات الهندسية لشرح عمارة المساجد ، وليس غرضنا وصف العمارة الإسلامية من حيث هى كذلك ، إلا بمقدار ما تفيد فى توضيح حالة المسلمين فى العصور المختلفة ، ومدى تعلقهم بدينهم ، وكيفية تصورهم لهذا الدين ، من خلال الفنون الإسلامية ، وقد أسهم علماء الغرب فى هذا المجال مساهمة محمودة لاشك فيها ؟

د . أحمد فؤاد الأهوانى

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الإجابة للجنة الفتوى بالأزهر)

الحج ونفقة الأقارب :

السؤال :

رجل يريد الحج وعنده أقارب محتاجون للقوت الضرورى فما الحكم ؟

شعبان عبد الرحمن الشيحى

الجواب :

هؤلاء الأقارب إذا كانت نفقتهم واجبة على من يريد الحج كزوجته وأولاده الصغار أو الكبار العاجزين عن الكسب أو الأبوين الفقيرين وليس عنده ما ينفقه عليهم إلا ما يريد الحج به لا يكون الحج واجبا عليه لأنه غير مستطيع حينئذ فإذا حج والحالة هذه كان آثما.

الحج من مال مكتسب من بلد غير اسلامى

السؤال :

لى أم تريد أن تؤدى فريضة الحج هذا العام، ولا عائق والحمد لله إلا شيء واحد هو مصدر الأموال المطلوبة للإنفاق على الحج، ومصدرها: أننى أعمل فى ألمانيا الغربية طول اليوم وأكد فى الحصول على المال بعرق الجبين.

فهل هذه الأموال المجموعة من بلد غير إسلامى حلال أم حرام؟ وهل يجوز بها أداء فريضة الحج ؟

نايف أحمد مفلح / ألمانيا

الجواب :

كسب الرجل من عمله حلال ، بل هو من خير الحلال متى كان يعمل عملا مشروعا كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكون العمل الذى يقوم به السائل فى ألمانيا أو غيرها لا يمنع من الإنفاق منه على والدته فى قيامها بفريضة الحج فإن كسبه فى مقابل عمله ، فالمال إذاً ملك حلال له .

الإنابة فى الحج .

السؤال :

هل يجوز شرعا أن أجهز حاجا لكى يحج نيابة عن أخى أو أبى المتوفى وما هى الشروط الواجب توافرها فى هذه الحالة ؟ وهل يعود ثواب ذلك على المتوفى ؟ وهل يعتبر كما لو كان المتوفى قد حج عن نفسه ؟

على لبيب عزيز

الجواب :

يجوز للسائل أن ينيب شخصاً للقيام بالحج عمن توفى سواء أكان أبا أو أخا .

ويجزى هذا الحج عن ذلك المتوفى وله ثوابه.

ويشترط فيمن يقوم بهذا الحج أن يكون حج عن نفسه من قبل .

هل يصح لمن ذهب لأداء فريضة الحج القصر فى الصلاة :

السؤال :

أحد الحجاج بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام فى صلاة الظهر وهو مؤتم بالإمام الراتب (المقيم) سلم من ركعتين على أنه مسافر وأن له أن يقصر فى الصلاة فما الحكم فى صلاته هذه هل هى صحيحة أم غير صحيحة وماذا كان يجب عليه لتصح صلاته على المذاهب الإسلامية الأربعة ؟

دكتور أحمد غلوش القاهرى

الجواب :

الشافعية والحنفية والإمام أحمد على أن المسافر إذا اقتدى بالمقيم فى جزء من صلاته ركعة أو دونها لزمه الإتمام . ومذهب مالك على أنه إن أدرك ركعة فأكثر لزمه الإتمام أو دونها فله القصر .

وعلى ذلك فالمصلى فى مسألتنا يلزمه الإتمام عند الجميع لأنه صلى مع الإمام المقيم ركعتين. وحيث لم يتم وسلم من ركعتين فصلاته باطلة عند الأئمة الأربعة ، ويجب عليه فعلها ثانياً أداء إن أدرك وقت الصلاة وقضاء إن فاته .

الحج وعدة الوفاة :

السؤال :

سيدة توفى زوجها بتاريخ ٣ / ٢ / ١٩٦٥ وتريد أن تؤدى فريضة الحج مع ابنها هذا العام هل يجوز لها ذلك مع الإحاطة بأنها تبلغ من العمر ٥٩ عاما ؟

أكبر محمد

الجواب :

يجب على المتوفى عنها زوجها أن تقضى عدة الوفاة فى بيت الزوجية التى مات عنها زوجها فيه وذلك مقدم على أداء فريضة الحج التى يمكنها أن تؤديها فى وقت آخر إذا فاتت ولا كذلك عدة الوفاة وأيضاً فى العدة حق الله تعالى فيجب مراعاته .

هل تجوز الزكاة للابن :

السؤال :

هل يجوز إعطاء الزكاة من المال للابن إذا كان منفصلا فى معيشته عن أبيه ومعسراً ؟

محمد على سيد أحمد

الجواب :

الابن إذا وجبت نفقته على أبيه بأن كان

فقيراً وهو صغير أو مريض مرضا يمنعه من الكسب كان غنياً بنفقة أبيه فلا يعطيه حينئذ من الزكاة ـ أما إن كانت نفقته غير واجبة على أبيه بأن كان بالغا قادراً على الكسب لكن كسبه لا يكفيه فهو فى هذه الحالة فقير أو مسكين يجوز لأبيه أن يعطيه من الزكاة .

زكاة الأرض المستأجرة :

السؤال :

على من تجب زكاة الأرض المستأجرة على المؤجر أم المستأجر وما مقدارها ؟

عبد الفتاح سعد ـ كفر الدوار

الجواب :

الزكاة حق الزرع وهى نوع من الشكر على نعمة إنبات الزرع ، وقد جاء أصل هذه الزكاة فى قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده »[1] ، وفى قوله تعالى : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض »[2] .

فدلت الآيتان على أن الزكاة فى كل ما تخرجه الأرض، خراجية كانت يدفع عليها مال حكومى ، أم عشرية لا يدفع عليها مال ، قليلا كانت ما أخرجته الأرض أم كثيراً ، قوتا كان كالحنطة والأرز والذرة والفول ، أم فاكهة كالعنب والرمان والتفاح ، أم خضراً كالخيار والبطيخ وغيرهما .

وقد بينت السنة أن زكاة الزرع هى عشر ما تخرجه الأرض إذا سقيت « بالراحة » أو نصفه إذا سقيت بالآلة ، وذلك فى قوله عليه السلام : « فيما سقت السماء العشر » .

وزكاة الزرع هذه ترتبط بالزراعة لا بالحول ، حتى لو زرعت الأرض أكثر من مرة فى العام الواحد وجب إخراج زكاة الزرع فى كل مرة ، اتحد الصنف أم اختلف .

والتعميم فى زكاة الزرع على هذا الوجه ـ هو الذى يحقق معنى التكافل الاجتماعى الذى يقصده الإسلام من مشروعية الزكاة ، والذى يقضى بعدم استئثار طائفة من الناس بنعم الأرض التى أعدها الله للزرع وامتن بها على جميع عباده .

والرأى المعتمد أن زكاة الأرض على المستأجر الذى يباشر الزرع[1] .

---

(١) الآية ١٤١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٦٧ من سورة البقرة .

(١) انظر كتاب الفتاوى لفضيلة الإمام الراحل محمود شلتوت إذ له فى هذه المسألة بحث مستفيض .

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

إيمان فرعون

للأستاذ محمد محمد عبد اللطيف

من غرائب المصنفات قدم لنا الأديب المحقق الأستاذ محمد محمد عبد اللطيف (ابن الخطيب) قضية « إيمان فرعون » وهى قضية ليست شائكة وحسب ، ولكنها على جانب من الأهمية ، إذ أنها تثير مشكلات فلسفية وعقيدية ولغوية .

يرى الأديب المحقق أنه من المعلوم عقلا ونقلا أن فرعون كان من أئمة الكافرين ، وهكذا اعتقد كما اعتقدت الأمة الإسلامية جمعاء دون أن يشذ عن هذا الإجماع واحد من المفكرين أو من غير المفكرين ، ممن ينتسب إلى العلم أو ممن لا ينتسب .. ولكنه بينما كان يقرأ فى كتاب « فصوص الحكم لمحيى الدين بن عربى ، إذ به يقول قولا جازما بإيمان فرعون إيمانا لازما ، فاضطر إلى أن يواصل البحث والتنقيب عله يجد مؤيداً لابن عربى بين السابقين أو معارضا له ، فعثر على رسالة خطية للعلامة جلال الدين الدوانى تقول بما قال به ابن عربى ، وعلى رسالة أخرى للعلامة على بن سلطان القارى أسماها « فر العون من مدعى إيمان فرعون » ، فرأى أن يسوق هذا البحث .

الرسالة الأولى دفاع عن ابن عربى وتأييد لرأيه فى إيمان فرعون ، وحجته الآية المشهورة : « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » ، وقوله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء » ، و « أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ، و « إن الله يغفر الذنوب جميعا » ، ثم أخذ فى تأويل الآيات التى تدين فرعون مثال قوله تعالى : « ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » ، وقوله تعالى عن فرعون : « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

أما الرسالة الأخرى : فهى بمثابة تعقيب على الرسالة الأولى لدحض آرائها ، وتوضيح بطلانها بالكتاب والسنة والإجماع ، وأنكرت أن يكون هناك أى خلاف بين علماء

المسلمين فى تطويق فرعون بالكفر وخلوده فى النار ، كما اعتبر المؤلف كلام ابن عربى نفسه فى كتابه فصوص الحكم مدخولا مدسوساً عليه ، وتمسك بقوله تعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » تمسك بهذه الآية دليلا قاطعا على عدم قبول توبة فرعون . .

هذا وقد أثبت الأديب المحقق ابن الخطيب الذى بذل مجهوداً مشكوراً فى تحقيق النصوص والتعليق عليها ، أثبت بعد الرسالتين رأى السيوطى فى ابن العربى ، ومؤداه أن لا نقطع فيه برأى ، وأثبت أيضاً رأى ابن حجر فيه ، فذكر أن ابن العربى لم يرد إثبات إيمان فرعون بدليل ما سبق عنه فى الفتوحات ، وإنما قصد أن الأدلة فى كفره ليست قطعية .

وبعد - فالقضية قضية شائكة كما قلت ، لكن المعروف أنه لم يشذ عن إجماع علماء المسلمين فى موت فرعون على الكفر غير ابن العربى إن ثبت عليه ما نسب إليه فى كتابه الفصوص .

وأما تأييد بعض تلامذته لآرائه فلا يعتد به ، لأنهم على منواله ينسجون ، وحتى المعتزلة المعروفون بالتفكير الحر لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه ابن العربى ، فالزمخشرى فى تفسيره يذكر أن إيمان فرعون لم يقبل منه حيث أخطأ وقته ، وقاله حين لم يبق له اختيار .

كنت أود أن الأستاذ المحقق لم يفته أن يعرفنا - كما عرفنا بابن العربى - بالعلامتين صاحبى الرسالتين ، ليقف القارئ من واقع حياتهما على منهجهما المذهبى ، والمعروف أن الأول العلامة الدوانى متشيع لابن العربى ، ولد فى دوان من بلاد كازرون ، وسكن شيراز وتوفى بها عام ٩١٨ هـ فى فارس حيث ولى قضاءها ، وله عدة مؤلفات معظمها مخطوط وعدة رسائل بالفارسية ترجم بعضها إلى الانجليزية . وأما العلامة القارى فهو على بن محمد سلطان المشهور بالملا على القارى ، فقيه حنفى ولد فى هراة وسكن مكة وتوفى بها عام ١٠١٤ هـ ، وله مؤلفات كثيرة ، منها تفسير للقرآن ، ورسالة فى الرد على ابن العربى فى كتابه الفصوص ولعلها التى نقلها لنا الأديب المحقق .

* * *

دولة الفكرة

للأستاذ فتحى عثمان

ومنذ أيام ظهر كتاب جديد للأستاذ فتحى عثمان هو عبارة عن بحث مركز فى دولة

الفكرة التي أقامها رسول الإسلام عقب الهجرة هذه الدولة التي يراها المؤلف حلم البشرية ، لا تقوم على حتمية ظروف الأرض أو الدم ، ولكنها تقوم على اختيار الإنسان بوعيه الكامل وإرادته الحرة ، ولقد كانت هذه الدولة التي أقامها رسول الإسلام في المدينة عقب الهجرة تجربة حية مبكرة للدولة الأيديولوجية في التاريخ ، لم تكن دولة مكة أو قريش ، ولا دولة المدينة أو الأوس والخزرج ، بل كانت دولة الإسلام المعروض على عقل كل إنسان .

في هذا البحث عرض المؤلف للبناء القانوني للدولة ، أركانها الثلاثة : الأمة والسيادة والإقليم كما عرض للكيان المعنوي للدولة الإسلامية ، وأنها كانت أرحب في آفاقها من الدم والأرض والسكان والإقليم ، وعرض لأيديولوجية الدولة المسلمة ، وأنها ترفض الولاء التقليدي ، لأنها تقوم على أمة العقل والفكر ، أمة الحجة والدليل ، أمة الحق وحده ، ثم عرض لعالمية الدولة الإسلامية ، وختم البحث بدراسة مستفيضة عن العقد الاجتماعي والتضامن الاجتماعي ، فناقش آراء الفلاسفة الذين أجهدوا عقولهم ليقيموا شرعة العدل ، مثل روسو وروبادتيوف ، وديجي ، ثم عقب بقوله : إن الفلسفة التشريعية للأيديولوجية الإسلامية في مبادئها العامة وموجهاتها العليا مصدرها الله وبيانها الوحي في الكتاب والسنة ، فهي القانون الأعلى لكل من تقبل عقيدة الإسلام واقتنع بمنطق الإيمان .

* * *

كتب جديدة

مطلع النور

تأليف : عباس محمود العقاد

الناشر : دار العروبة بالقاهرة

يقع الكتاب في مائتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط ، وهو دراسة مدار البحث فيها على البعثة النبوية ، وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين .

تناولت الدراسة في الفصل الأول الطوالع والنبوءات وما تضمنته الكتب الدينية السابقة من بشارات برسول الله ، وفي الفصل الثاني مقدمات النبوة ، وفي الفصل الثالث النبوة المحمدية ، وفي الفصل الرابع سيد الأنبياء . وفي الفصل الخامس الإسلام دين الإنسانية ، وفي الفصل السادس الكعبة ، وفي الفصل السابع والأخير أسرة النبي صلوات الله عليه .

أنباء وآراء

حول جمع القرآن وتدوينه :

جاء فى مناقشة السيد الدكتور الأهوانى للأب الفريد هافنيىك قوله : « ولكن هؤلاء العلماء ، وهم من المستشرقين ، لم يشكوا أبدا فى القرآن ، لأن تدوينه وحفظه تم فى زمان مبكر فى عهد عثمان بن عفان ، وروعيت فى كتابة المصحف ضمانات شديدة تبعد عنه أى شك » وتبيانا للحقيقة أقول :

إن القرآن الكريم كتب ودون جميعه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم غير أنه كان مفرقا فى العسب ، واللخاف ، والأكتاف ، والرقاع ، وأنه كان محفوظا جميعه فى عهد النبى حفظه عن ظهر قلب العدد الكثير الذين يثبت بهم التواتر المفيد للقطع واليقين ، وهـــذا أمر استفاض به النقل الصحيح الموثوق به ، فلما توفى النبى ، وحدثت موقعة اليمامة التى استشهد فيها كثير من القراء أشار الفاروق عمر على الخليفة الأول أبى بكر أن يجمع القرآن فى صحف مجموعة . وبعد مناقشة بينهما وافق الصديق على كتابة القرآن فى مكان واحد بدل كتابته مفرقا ، وقام بهذا العمل العظيم الصحابى الجليل : زيد بن ثابت أحد كتاب الوحى الأمناء بين يدى الرسول فجمعه بعد تحر وتوثق بالغين ، وقد حفظت هذه الصحف عند الصديق ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة حتى طلبها منها عثمان فى جمع المصاحف فى عهده .

فلما كان عهد عثمان واتسعت رقعة الإسلام ، واختلف بعض المسلمين فى القراءات كل يزعم أن قراءته خير من قراءة الآخر ، رأى عثمان ورأى معه الصحابة أن يكتب القرآن بحرف واحد وهو حرف ـ لغة ـ قريش ، وهو أحد الأحرف السبعة التى نزل بها جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم تيسيراً على العرب آنئذ وتسهيلا ، فندب لهذا العمل الموفق زيد بن ثابت ، ومعه ثلاثة من خيار المسلمين وحفاظهم وهم : عبد الله بن الزبير ، وسعيد ابن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فكتبوا المصاحف العثمانية من عين ما كتب فى الصحف التى جمعت فى عهد الصديق مقتصرين على حرف قريش ، ثم ردوا الصحف إلى حفصة ، ثم وجه عثمان إلى كل قطر من الأقطار الإسلامية المشهورة بمصحف ، وأمرهم بالتزام القراءة على ما فيه ، وأبقى

لنفسه مصحفا وهو ما يعرف بالإمام ، وبهذا العمل الموفق قضى على الخلاف ، ووقى الله المسلمين شر الفتنة .

ومن ثم يتبين لنا أن القرآن كله ، كان مكتوباً محفوظاً فى عهد النبى ، وأن ما كتب فى عهد عثمان هى المصاحف العثمانية والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد فى الدنيا الذى توفرت له من الضمانات ، والإثبات التاريخى اليقينى ما لم يتوافر لغيره من الكتب ، فقد نقله عن النبى الجم الغفير من الصحابة ، وعنهم نقله وحفظه الألوف وهكذا تناقله الألوف عن الألوف حتى وصل إلينا كما أنزله الله سبحانه من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف ولا تبديل مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وعسى أن تكون لى عودة لتجلية هذا الموضوع الجليل إن شاء الله تعالى ؟

د . محمد محمد أبو شهبه

الذين يعيشون فى الظلام !..

إنهم طائفة من الناس ، لا يستطيعون العيش إلا فى الظلام ...

فى ظلام الريب والظنون ... وتدبير المؤامرات ضد الآمنين ... وضد الناجحين .

مثلهم كمثل الخفافيش ، التى لا تخرج إلا تحت جنح الظلام ... حتى إذا ما انبلج النور اختفت ، وتوارت بالحجاب ... لأن عينيها الضعيفتين لا تقويان على مواجهة النور ! .

نرى هذه « الخفافيش البشرية » تعيث بيننا فسادا ... فى بيوتنا ... وفى دوائر أعمالنا . تجارتها الوقيعة ، وهدفها الوصول بأى ثمن ولو على أشلاء الأبرياء ! ...

أشد ما يغضبهم ، وينغص عليهم حياتهم ، أن يروا الناس فى صفاء ... متحابين ... فيكدرون صفوهم بما يروجونه حولهم من شائعات كاذبة ، واتهامات باطلة ، يفرقون بها بين المرء وزوجه ... وبين الأخ وأخيه وبين الابن وأبيه ... وبين الصديق وصديقه حتى إذا ما نجحت خطتهم الدنيئة ، طابت أنفسهم ، وقرت أعينهم ، وراحوا يبحثون عن صيد جديد ... وما أكثر ضحاياهم ؟ ...

ولو أن هؤلاء الذين يعيشون فى الظلام استعانوا بهذا الذكاء الخارق فى نواحى الخير والإصلاح بين الناس ، لكان خيراً لهم وأقوم ولكسبوا محبة الناس وعاشوا معهم ... فى النور !! ...

ولو أنهم نفقوا هذا الوقت الذى يضيعونه فى تدبير المؤامرات فيما ينفعهم ، وتذوقوا لذة الخير ... لما وجدوا أطيب منها مذاقا ! .

ليتهم يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ! .

عيسى متولى

في محيط العالم الإسلامي

يقدمه : محمد عبد الله السمان

ماذا العرب وعدهم ؟

ليست قضية فلسطين عربية محضة لأنها قطعة من أرض العرب ، فالحقيقة التي لا جدال فيها ، إن فلسطين أيضا بلد إسلامي لحما ودما ، فيها ثالث الحرمين ، وأرضها مهبط عديد من الأنبياء والرسل ـ صلوات الله عليهم .

وإذا كانت الشعوب العربية قد عقدت العزم على أن تنتصر لقضية فلسطين ، وأن تمحو الوصمة التي ألصقتها الصهيونية الآثمة بجبينها منذ سبعة عشر عاما . فتسترد الأرض السليبة ، وتستعيد كيان أكثر من مليون لاجيء ، فليس معنى هذا إعفاء الشعوب المسلمة قاطبة من واجب المشاركة في الجهاد من أجل فلسطين ، فليس المجال مجال فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، وإنما هو فرض عين ، ما دام عدوانا ماقد وقع على أرض إسلامية كما يقول فقهاؤنا .

لماذا أسهم يهود العالم جميعا في وجود إسرائيل ، ولم يزالوا يسهمون ، ويتقاعد المسلمون عن نصرة إخوانهم في العقيدة ؟ أنسي المسلمون أن المؤمنين إخوة ، وأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وأن المسلمين يجب أن يكونوا يدا واحدة على من سواهم ...

وإذا كانت الشعوب المسلمة قد نسيت ، فأين علماء الدين ، وهم من الكثرة بمكان ؟ يصيحون دائما في الشعوب ليوقظوا فيها إحساساتها ، ويحركوا مشاعرها نحو قضية فلسطين العربية المسلمة .

هذه ألمانيا الغربية تتحدى أربعمائة مليون مسلم أو يزيدون ، وكأنما حق على هؤلاء الأربعمائة مليون قول الله عز وجل : « وتحسبهم أيقاظا ، وهم رقود » صدق الله العظيم .

* * *

أخبار قصيرة :

• صدق الحاكم العام في غزة على قانون التجنيد الإجباري ، بعد أن أقره المجلس التشريعي الفلسطيني ، وأصبح بذلك نافذ المفعول .

• أصدر الرئيس الجزائري : أحمد بن بيللا أمراً بالعفو عن عدد من المسجونين السياسيين أثناء زيارته لسجن ناربروس ، بمناسبة المؤتمر الذي عقدته منظمة المجاهدين

القدماء والأحياء ذكرى المعتقلين السياسيين الذين توفوا فى السجن أثناء ثورة الجزائر .

* تدرس وزارة الأوقاف بالقاهرة مشروع المساهمة فى إنشاء الجامعة الإسلامية الجديدة فى الباكستان . جاءت تعليمات إسلامية ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الجامعة سيدرس فيها العلوم الإسلامية والعربية باللغة العربية .

* أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أن الولايات المتحدة تعيد النظر الآن فى جميع علاقاتها بأندونيسيا ، وذلك بعد إغلاق جميع مكاتب الإعلام الأمريكية فى أندونيسيا .

* أصدر المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى مقديشيو عاصمة الصومال قرارات تقضى بإنشاء هيئة استشارية للشئون الدينية الخاصة بالمسلمين الأفريقيين ، وبإقامة معهد لتدريب رجال الهيئات الإسلامية ، وبإنشاء سوق مشتركة بين الدول الإسلامية فى آسيا وإفريقيا .

* وكذلك أصدر المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى جاكرتا عاصمة أندونيسيا بيانا دعا فيه الشعوب الإسلامية إلى التضامن فى الكفاح ضد الاستعمار بشكليه : القديم والجديد ، وندد البيان بالأعمال الإجرامية التى يباشرها الاستعمار فى الجنوب العربى وعمان وفى انجولا وموزبيق ، وقرر المؤتمر تشكيل سكرتارية دائمة للمؤتمر يكون مقرها فى أندونيسيا .

* صرح الرئيس الجزائرى أحمد بن بيلا خلال جولته فى غرب الجزائر بأن : رسالة الثورة الجزائرية عربية إسلامية منبثقة من صميم واقع بلادنا .

* بلغت المساعدات الاقتصادية الأمريكية لباكستان فى العام الماضى أكثر من ٤٠٠ مليون دولار ، ومن الجدير بالذكر أن الصين الشعبية قدمت لباكستان قرضا قدره ستون مليون دولار ، وأن الاتحاد السوفيتى أعلن استعداده أيضا لتقديم قرض قيمته سبعون مليون دولار .

* حث فرع منظمة الملايو الوطنية الحاكمة فى أراو بشمال الملايو حكومة ماليزيا على سحب اعترافها بإسرائيل .

* زار القاهرة وفد السلام اليابانى بعد زيارته للقدس ، يضم الوفد عشرين عضوا يرأسهم عميد جامعة ريكيو اليابانيه ، وذلك ضمن جولة إلى بلاد الشرق الأوسط الغرض منها الدعوة إلى السلام فى العالم ، ومناقشة المسائل الدينية . قابل الوفد الامام الأكبر شيخ الأزهر ، والسيد المهندس أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف والأزهر ، الذى أوضح للوفد مبادىء الإسلام ، ودورها فى تدعيم السلام ودور وزارة الأوقاف فى نشر المعرفة والدين والتطور الذى تم فى جامعة الأزهر .

محمد عبد الله السمان

News From The Muslim World

By : Muhammad Abdullah El - Samman

* The Secretary general of the Islamic Researches Academy of AL-Azhar has extended the invitations to fourty (40) countries and a number of important personalities from all over the world, to attend the Second conference of muslim Scholars, to be Commenced in Cairo from the middle of May 1965. It is undestood that the muslim Scholars will hold a Special Session of the Conferenee in Gaza Strip to discuss the Palestine problem. A large number of Palestinian Scholars and leaders, and the members of Palesteine Liberation Organisation, will attend the Session.

* Just a few months ago an Islamic Conference was held in the capital of Somalia. The Conference has recommended in a resolution, to form an advisory body to look after the religious affairs of the African muslims. It also recommended to establish a training centre for muslim Scholars.

* The Faculty of Islamic law of the Al-Azhar University has started an institute of higher Studies, in the premises of the ancient Al-Azhar Mosque. It will facilitate to teach Islamic studies and Arabic litrature for the foreign Students and the obtainers of Al - Azhar Secondary certificates or its equivalant. After the completion of four year course, they will be given a certificate equivalent to the Al-Alamia degree.

* The grand Sheikh of AL-Azhar, H. E. Hassan Al-Mamoon precided a meeting of the Scholars of Islamic Jurisprudence. the meeting discussed the possiblity of preparing an encyclopedia of the legal Schools of the muslim jurisprudence and to translate it into living languages; to bring nearer the different Schools of Islamic faith and provied the non-muslims with the heritage of Islamic jurisprudence and thought.

* keeping in view the historical importance of the city of Jerusalam, the Jordanian parlia-ment has passed a bill, banning the possession of land or building in that city by foreign or Jordanian Companies and religious Societies.

* It is reported that Japan will undertake a project to build a railway line between Nigeria and Sudan to Connect the Lagos City (in the Nigeria) with port Sudan. The project will cost £ 30 million. This link will help the muslim pilgrims coming from west Africa.

Sheikh Al-Azhar Answers

H. E. Sheikh Hassan Mamoun, the grand Sheikh of Al-Azhar, received on March 21st. Mr. IB REHNE of the Danish State Radio. He asked his Eminence four questions about Islam and the message of Al-Azhar.

Q- Al-Azhar is regarded as the spiritual centre of Islamic world. Is it still so ?

A- Al-Azhar was, and is still and will be, the spiritual centre of the Islamic world for it devotes its message to the education and the preservation of Islamic heritage as prescribed in the holy Quran and the Sunna both of which are the chief source and foundations of Islamic legislation. Since the establishment of Al-Azhar up to the present day, it has undertaken the preaching of the Islamic call througout the world. Also it is the theological stronghold of Islam to which Muslims from every part of the world come to study Islamic faith and return to their countries to be the messengers of Islam.

Q- Does Al-Azhar play, a poli-role in the Middle East ?

A- The U.A.R. Policy in the Middle East is founded on positive neutrality and Non-alignment and the liberation and unity of the Arab and Muslim people. Besides; Al-Azhar teaches these principles to the sons of the Middle Eastern countries and others. In all this Al-Azhar conforms to the teachings of Islam and the fundamental principles which are enjoined by the Quran and prescribed by the Sunna on condition that they are not opposed to the spirit of the legislation stated by God.

Q- To what extent does Islam correspond with modern Arab Socialism ?

A- Arab-socialism is represented in sufficiency and justice, which are the two main aims of the Islamic faith.

Q- Does the government ask the opinion of Al-Azhar before issueing a new Socialist law ?

A- Socialist laws issued by the government aim at granting the interests of both the individual and society, at the prevailing of justice, at the eliminating of class differences and at the establishing of equality of rights and duties among the citizens. Al-Azhar approves these principles for Islam approves and promulgates them. & Al-Azhar does not hesitate to co-operate with the Government in issuing any Islamic Legislation that aims at the common Good so long as it is not contradicted to any statement in the Quran and the Sunna.

Translated By :
FATHY HAMMAD
Member of the office of Sheikh Al-Azhar

The Qur'an says :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٧ / ٥٩) .

And whatsoever the messenger giveth you, take it and wahatsoever he forbiddeth, abstain (from it).(7/59)

It also says :

«وما ينطق عن الهوى. ان هو إلا وحي يوحى» (٣ ، ٤ / ٥٣) .

« Nor doth he speak of (his own) desire. It is not save an inspiration that is inspired.»

The prophet also very often emphasised the impotance of tradition as a guide for his followers. He was happy at the reply of Mu'ath ben Jabal who said to him when he was appointed as on official in Yeman that he would follow his prophet's tradition if he failed to find guidance in the Qur'an.

Almost all the companions, however decided the cases with which they had to deal, on the basis of of the traditions, of the prophet, if they failed to find any guidance in the Qur'an, and followed their opinions only when they could not find any tradition on the subject, but as soon as they came to know of it, they changed their decisions if necessary and followed the tradition :

There are three kinds of traditions :

1) It may be a saying of the prophet which has a bearing on a religious.

2) It may be an action or practice of his.

3) or it may be his silent approval of the action or practice of some person.

There is an important notice in this connection that the idea at prophethood in Islam is very different from that in christianity and some other religions, as it has explained in the Qur'an at many places. In Islam the prophet is neither a God nor an angel nor a demi - god - He is a human being like other human beings, having the same needs and requirements as they have. The important difference between the prophet and other human beings is that he is gifted with a special capacity to receive inspiration from God, and possesses great keeping related to all that, self cotrol, self confidence and great capacity for influencing the thoughts and activities of peouple at large, and leading them to the righ path.

Tradition is the Second Source of Islamic Law

By

IBRAHIM M. EL - ASSIL
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY

The Qur'an is the first source of Islamic Law. It is considered the eternal miracle of Islam and has been revealed in parts at different times during a period of twenty three years, as necessity demanded it. The Qur'an is comparatively short, so it contains the general principles by which all matters as dorgmatic, ritual legal political and social questions should be regulated.

It is therefore essential to interpret and elaborate the relevant texts.

The natural, and indeed the only possible interpreter whose judgement can be trusted is the prophet through whom they were revealed; According to the Qur'an itself this prophet was possessed not only the Qur'an but also the wisdom. Allah says :

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم » (٣٠١/٤)

« Allah revealeth unto thee the scripture and wisdom and teacheth thee that which thou knewest not» (113 / 4)

In addition to these important sources of Islamic Law there are the other two sources, analogy (qiyàs) and consensus (Ijmaà) when a new problem, which is not covered by a clear statement in Qur'an or tradition arises, the jurists look for a case resembling it in the Qur'an or in the tradition, and by reasoning on the basis of analogy, arrive at adicision, that process called analogy and it is counted as the third source of Islamic Law.

The well-known learned men of Islamic Law, in looking for a solve to a new problem, may gather togather and consult and if they agreed upon one opinion (by a majority, this process represents the fourth source of Islamic Law «Consensus of opinion) "Ijama".»

That is about the four sources of Islamic Law in general but in the following I shall confine my saying to the second source "tradition" Hadith.

The importance of tradition as an important source of Islamic Law has been laid down in the Qur'an, emphasised by the Prophet, recognized by his successors, and accepted by all the Muslim jurists.

In this way Islam achieves equality, fraternity, and sympathy amongst the individuals of the society. It does not open its breast to grudge between the members of the society, and sinks all differences to the bottom.

God has Said in his Holy book "the Qur'an" the great story of korah whom God had bestoweed richness on him, but he declared that nobody had a right in his money, and thought that he had gain it with his own efforts, and thus no body had a right to take onything from him. In the end he faced damage and was smashed.

Korah was of Moses folk but he oppressed, and behaved haughtily towards them, for God had given him such treasure that its keys would have burdened a company of men of strength, when his people said to him "excult not, for God loves not those who excult, but seek the future mansion, and neglect not your part in this world, but he bounteous to others as God has been bounteous to you, and seek not to commit excesses on the earth, for God loves not those who commit excesses. He said : It has been given me only on account of the knowledge that is in me.

Did he not know that God had destroyed before him generations they were mightier than he in strength and has amassed more abundant wealth ?. But the wicked shall not he asked of their crimes.

God imposed with the same intention to climinate class disparities between the rich and the poor, the Zakat of the lesser bairam. God considers it a duty which complete the obligation of fast.

In this way God enables the rich to lend a hand to the poor, and leads to them a happy life, filled with felicity, and free from misery.

Thus good temper oils the wheels of life, and no hatred is born in the hearts of the poor towards the rich, and no reproaches are heaped or borne on the back of the latter. This due makes the rich friends indeed to those who are in nead.

Some people do not find the opportunity to eat their fill except on the days of greater bairam.

On the day of Ashouraa alms are given to poor on occasion of these blessing days and auspicious nights

Thus Islam undertakes the rights of the poor, and grasps reciprocal responsibility to achieve justly social security amongst the people.

condition is to reach a certain limit which is considered the law portion to richness. The Muslim jurisprudents considered the wealth which is below this partition exonerated from this due.

Muhammad, the messenger says " Aim is imposed on the back of the rich ".

It is paid provided that it is growing wealth in order one may pay it through one's wins. In this case his capital does not descrease. This condition is not imposed only on increasing money but also on money liable to increase, and prepared to grow.

One who keeps his money in the bank, and does not fructify his wealth, and invest his money in any project must pay this due because his money is capable of being increased, but its owner declines to make use of it.

The condition which should be fulfilled to have growing money is to reach a certain portion as it was mentioned, but it should pass one year in order to wipe out any suspect of being not increased.

It must be the remainder after its owner has been satisfied, because if one is in need of money to spend on himself or on his family, or to pay his debts one is not in any respect a rich man. Thus this one must not pay the poor due. If One is compelled to pay this due it will be taken in this case without One's free will, but forcibly.

God says in the holy Qur'an : " And they ask thee what they aught to spend, say that which is superfluous. Thus Allah maketh plain to you. His revelations that haply ye may reflect " Surah II. 219.

God wished moderation in what is paid to the poor in order to allow the poor to feel justice, and to enable the Rich to pay this due with satisfaction. One should pay two and a half percent of One's money, whether it is from gold or silver, or banknotes, or the costs of commercial goods. Four per cent of the harvests of the fields which owner irrigate them should be paid as a duty. In every twenty Ardels (unity of capacity) of cow, or barley, or rice which exceed the need of their owner, he should give half ardeb to the poor and needy.

The owner of the sheep, the cows, and the camels which pasture and graze nearly in all the year should pay a certain duty mentioned in the Islamic law.

One pound should be paid as zakat on every fourty pounds which one owns above One's necessity.

Lo ! Thy prayer is an assuagement for them. Allah is Hearer, knower.

God also says " Worship none save Allah (only) and be good to parents, and to kindred, and to orphans, and the needy, and speak kindly to mankind, and establish worship, and pay the poor due".

Thus Zakat is one of the pillars of Islam which fills the gap between the rich and the poor. and abolish loathsomeness, and hatred towards the former class.

No wonder Muhammad the messenger says "Islam is established on five pillars: the witness that there is no God save Allah, and Muhammad is the messenger of God, to establish worship, and to pay Zakat, or the poor due, to keep fast, and to visit the holy land, and go on pilgrimage to those who are capable to pay this visit.

A man from the tribe of Tamim came to Muhammad and said "Oh Messenger: I have much money, and numerous relatives, and I own a great city. Tell me, then, what can I do, and how do I spend my wealth ?. The messenger adressed him : You pay the poor due "Zakat" from your money because it purifies it, intimate relations with your relatives, know the right of the indigent, your neighbour, and the medicant.

Thus Zakat is a part from the money, or the wealth of the rich which God has enacted. It is paid in eight respects which God has nominated. The alms are only for the poor, and the needy, and those who collect them, and those whose hearts are to be reconciled, and to free captives, and the debtors, and for the cause of Allah, and for the wayfarer. It is a duty imposed by Allah.

A special portion of Alms was allotted to the people of Mecca, the former enemies of Islam, who were converted en mass after the capture of the city and whose hearts are reconciled.

The alms should be given to those who are absolute paupers, those who are in some temporary distress. This due is not only an ordinance from God but also a remedy for the shattered hearts, and stillness for the puzzled souls.

When God has imposed this due he has kept in view justice in the money of the rich, and mercy on the poor. God acts to fit the intrests of the rich to the sustain of the poor, and complies with the principle of economy in spending money, and paying heed to the conditions which should be fulfilled in every just tax.

The legislator has put a condition to impose the poor due. This

Social Security in ISLAM

By: Dr. GAMAL ELDIN ELRAMADI

Amongst the Islamic principles which Islam has imposed on the Muslims to achieve social security is to urge every capable man to work and not to remain idle because idleness seems as weeds which grow apace in the heart of the unemployed. It brings mischievious thoughts, and arouses revenge towards those who can gain easily their livings and pick up the threads of a happy life.

Islam appeals to make co-operation amongst the individuals of the society. This co-operation is a protective shield against seperation and crack. It avoids the arrival of disasters, the spread of misery, indigence, and penury.

Islam has prescribed some ways to cure these maladies, and wipe out these ailments, and thus rescue the Islamic society from the perils which threaten it and lead it to damage.

The ways which Islam has surveyed to abolish these pests and nuisances open the gates to sustain the poor, and miserable.

God does not consider this help a sort of contribution or alms but a legal right which should be paid to them. Not only God does not confine this right to the wealth of the rich but also God particularizes a special part for the poor in the revenue of the state.

We are going to explain briefly what Islam has done to combat poverty, deal with the poor benevolently, and beneficently, and we will notice clearly that Islam is without misgiving, and doubt the religion of mercy, godliness, and sympathy. If the Muslims stick to their religion, and execute its orders, they will be exceedingly happy and will abolish misery, and solve the problems of poverty.

At first, Islam has enjoined Zakat, or the poor due which is one of the pillars of Islam. God says "But if they repent and establish worship, and pay the poor-due, then they are your brethren in religion. We detail our revelations for a people who have knowledge" (Surah the Repentance IX. II.) God says also "Take alms of their wealth wherewith thou mayst purify them and mayst make them grow, and pray for them"

when he was about to die. He said in his last minutes: "Keep up the Prayer. Keep up the Prayer..."

Observing the Prayer is so important in Islam that it is required to be performem in all eases: staying and travelling, in security and in case of danger. God, the Almighty; says: (Guard the Prayers and the Most Excellent Prayer, and, stand up truly obedient to God. But if you are in danger, say your Prayers on foot or on horseback. And when you are secure, remember God as He has taught you what you Knew not.)

He, the Almighty, spoke in the most threatning language about those who neglect the Prayers, in such as these Verses:

(But there came after them an evil generation, who wasted prayers and followed bad desires, so they will meet perdition).

"So woe to the praying ones, who are unmindful of their prayer".

It is repoted through Abdullah ibn Amr ibn al-As thaf the Prophet said: "Whoever Keeps up the Prayer, it will for him a light, an evidence of security, and a cause safety in the Day of gudgment. And whoever wastes the Prayer, it will not be a light for him, an evidence of security, of a cause of samety in the Day of Judgment. Such as this will be gathered among Qarun, Pharao, Haman, and Obayy ibn Khalaf." The great scholar Ib Al-Qayyim commented on this saying of the Prophet in this way: "That who wastes the Prayer is either occupied tco much by his money, his Kingdom, his high office, or his trade. The first will be among the company of Quran, the second among the company of Pharaoh, the third among the company of Haman, and the last among the company of Obuyy ibn Khalaf."

QUESTION

Did Islam lay special conditions in the performance of the Prayers?

ANSWER

There are some conditions that should be realized before the performance of any Prayer, such as cleanliness of clothes, body, and place covering the private parts of the body and facing the direction of Kaaba in Mecca. There are some othere immaterial conditions that are required to be realized during the berformance of the Prayer, the most important as which is humility. The Prayer is not were words and movements like the quick movements of birds and animals. The accepted Prayer is the one that is performed in meditation, humility, and fear of God.

QUESTION

If prayer was common in all divine religions, what, then, is the difference between prayer in Islam and in other religions ?

ANSWER

Prayer in Islam is a perfect and organized institution. It is not mere words of appeal and call to God. It is rather both action and speech fulfilled by meditation, heart, tongue and whole body. Islam laid out some conditions in order that the Prayer be valid, that is, cleanliness, well dressing, and facing the direction of Ka'aba in Mecca. Prayer should be performed in definite times, and each prayer of a given time has special sequence. Some times the Prayer may be performed individually or with the congregation, and some times it should be performed with the congregation. It is called out for in a special manner and special words. Therefore, the Prayer of Islam has no parallel in any other religion.

Prayer in Islam includes all physical kinds of respect and veneration, such as raising hands, standing, bowing down, prostration, and appeal. People usually resort to one kind or another of these symbols of respect when they meet important personalities. But the Prayer included all known kinds of respect in successive actions, in gratitude to the Creator, and in adoration to His Mighty Presence. Thus, Prayer begins by the declaration "Allahu Akbar" that is, God is the Greatest, accompanied by raising hands to the sides of the face, as a sign of respect. The praying one, then, stands reading "Al-Fatiha" which is known as "the Mother of the Qur'an", then he bows, and prostractes to the ground twice saying in all these movements "Allahu Akbar". The prostration in the Prayer indicates that people should venerate their Lord, Who is the Sole King and Creator, in a manner that is not allowed to be done to other than Him.

QUESTION

How important is the Prayer in relation to other kinds of worship in Islam ?

ANSWER

Prayer occupies the most important position in the Religion. The Prophet said : "The foundation of every matter is Islam; the pillar of Islam is Prayer; and the crouning end of it is the Jihad or strife in the cause of God." The Prayer is the first thing one is questioned about in the Day of gudgment according to the Profhet in one of his sayings. The Prayer wan commanded by the Prophet eves

God, the Almighty says to Abraham and Ismail, : (Purify My House for those who visit it and those who abide in it for devotion and those who bow down and those who prostrate themselves).

The Angels called out Mary, the mother of Jesus (peace be upon him), saying in this Qur'anic Verse :

O Mary, surely God has chosen you above the women of the world. O Mary, be obedient to your Lord and humble yourself and bow down with those who bow ".

Jesus (peace be upon him) spoke about the favours of God on him and said, according to the Qur'an :

And He has made me blessed wherever I may be, and He has enjoined on me prayer and poor-rate so long as I live.

God praises Ismail in this Verse :

(And he enjoined on his people prayer and almsgiving, and was one in whom his Lord was well pleased).

In his advise to his son, Luqman said in these Qur'anic words :

(O my son keep up prayer and enjoin good and forbid evil, and bear patiently that which befalls you. Surely this is an affair of great resolution).

When God made a covenant with the Children of Israel, He made prayer one of the most important obligations in that covenant. The Almighty says :

" And when we made a covenant with the Children of Israel : You shall serve none but God. And do good to your parents, and to the near of kin and to orphans and the needy, and speak good words to all men, and keep up prayer and pay the poor-rate . . . "

And :

(And certainly God made a covenant with the Children of Israel, and We raised among them twelve princes. And God said : Surely I am with you. If you keep up prayer and pay the poor-rate and believe in My messengers and assist them and offer to God a goodly gift, I will certoinly cover your evil deeds, and cause you to enter Paradise wherien rivers flow. But whoever among you disbelieves after that, he indeed strays from the right way).

From all these texts, it is evident that prayer is an old worship called for by all Prophets and all divine religions, and it was not an exclusive to Islam.

PILLARS OF ISLAM

(1)

By : Abdul Wadood Shalaby

What is the first worship obligated in Islam ?

Prayer is the first worship obligated in Islam. It was made obligatory before Hijra by about three years. The way it was made obligatory shows how important is it in the eyes of God. Prayer was legislated exclusively in heaven during the Night of Ascension " Isra' " by a direct order from God to His servant Muhammad.

It is a known fact that governments call out their ambassadors for consultation in important matters where correspondence is not sufficient. Muhammad is the Messenger of God to His service. Being called by his Lord to ascend to the high heavens to give him the order about Prayer is a great evidence of its importance. The Prophet said in his Tradition of Ascension :

" God, the Almighty, made obligatory on my people fifty prayers. I returned carrying this divine order and I passed by Moses (peace be upon him) when he said : What has God made obligatory on your people ? I said : Fifty prayers. Moses said : Go and consult your Lord, Exalted be He, for your people could not bear it. I returned to my Lord, and He put off some of the prayers. Then I went back and told Moses who said again : Go and consult your Lord, for your people could not bear it. When I returned to my Lord, He said : They " the Prayers " are five " in number " and fifty " in reward ". No change there will be to My order. When I went back to Moses and he asked me to consult my Lord again I said : I am ashamed of my Lord, Exalted be He".

QUESTION

Is Prayer an exclusive worship of Islam, or it was also practiced in other divine religions ?

Prayer is one of the oldest kinds of worship in all religions. When Abraham (peace be npon him) migrated with his family to the barren valley of Mecca, he said what is reported in the Holy Qur'an :

"Our Lord, that they may keep up prayer ; so make the hearts of some people yearn towards them, and provide them with fruits ; so that they may be grateful".

mercy and prosperity, He is the owner of life and death.

This belief creats in soul of man courage and bravery, because he will have no fear of any power and will not be subject to any one but the cherisher of the worlds. Also this belief creats in him humility, for he knows that there is no power and distinction except from God. He can not feel pride over others because he realizes that there is no distinction between man and man except through good actions.

This faith also creats in him will of power for he is not dismayed by misfortune nor despair. He knows that the power of God is above all the powers. Those who believe in the supreme authority of God will be free from greed, anvy, and he will follow the way of truth in his all actions because he is sure that his creator knows every thing. He is nearor to him than himself. The prophet Muhammad commanded :

« اعبد ربك كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

(Serve your God as if you see him, if you see him not he sees you) The belief in the existence of God and His oneness obliges one to act according His Laws and orders and he will hasten to do good Services and actions, for the benefit of all human kind.

The belief in the Day of Judgment is another vital force that incites man to elevation in this life. It is a basic principle of Islamic faith. This Day is the end toward which every one will be returned. The holly Quran says :

« وأن ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى ». (النجم : ٣٩ ـ ٤٢)

(And that man can have nothing but what he strives for. And that his striving will be seen. Then he will be rewarded for it with the fullest reward. And that to your Lord is the Goal.

The Holy Quran States that the life of everyone, with its reward or punishment, abiding in paradise or Hell, depend upon the course of his life in this world. The Almighty Allah Says :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (الزلزلة ـ ٧ ، ٨)

(So he who does an atom's weight of good will see it; And he who does an atom's weight of evil will see it).

« فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » (النازعات ٣٧، ٤١)

(Then as for him who is inordinate, and prefers the life of this world; Hell is Surely the abode. And as for him who fears to stand before his Lord and restrains him self from lust the Paradise is surely abode).

The Effects of the Belief in the Oneness of God

By : A. M. Mohiaddin Alwaye

The first basic principle of Islam is faith. The basis of Islamic faith is to believe in the existence of God and his oneness. This faith is realized by the first sentence of "shahada" of the witness : «لا إله إلا الله» (there is no god But Allah.) The belief in the oneness of God is the key of Islamic faith. The Holy Quran Says :—

«قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» .

(Say : He is Allah, the one ! Allah, the eternal, the absolute, He begets not, nor was begotten. And there is nonelike Him.) He is the creator of this universe. And there is no creator but He, no partner to Him. He is the onlyone who is distinguished by worship and he is the sole cherisher of human kind.

Nobody is asked for help or mercy save him. His mighty being is beyond limited human comprehensiom. He is the All Kind, All Knowing, He Knows all things both secret and open. He is Merciful and Beneficent, He is the Source of peace and safety. Quran describes attributes of Almighty, Allah, in this verse :

الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

(Allah ! There is no god but He, The ever-living the self subsistent by whom all subsist. Slumber over takes Him not, nor sleep. To Him belongs what ever is in the heavens and what ever is in the earth. Who is he that can intercede with Him but by His permission ? He Knows what is before them and what is behind them. And they encompass nothing of his Knowledge except what he pleases. His Knowledge extends over the heavens and the earth and the preservation of them both tires Him Not. And he is the Most High, the Great).

The believer in the oneness of God will have no fear from anybody and he will not submit him self to any thing but the Real Lord of this Universe. One who believes that there is no god But Allah is, undoubtedly, Knows that there is no harm and benefit except through Him, All authority and power are only to Him. He is the granter of

then granted its guidance.) The same turth is more fully stated elsewhere in the Qur'an as :

« سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى » .

(Praise the name of thy Lord the Most High, who hath created and then given order and proportion, who hath fixed a measure for every being and then granted it guidance).

It is this divine attribute of Cherisher and Sustainer of the Universe upon which much of the argument of the Quran is based, and it may be well, before proceeding further to state that argument briefly.

The first principle of the Quran's argument is an invitation to the intellect to understand and reflect. Over and over again it impress upon the reader that the only path to Truth lies through intellect and reason. Man must try to understand and reflect upon everything he feels or preceives with in himself and out side.

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

(For those of firm faith, there are Signs (i.e. Signposts of Truth) (enough) on earth and also within yourselves. Will you not see ?).

وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

(How many are the Signs on earth and in the heavens which they (carelessly) pass by and from which they turn away (their faces).

If man will but make use of his intellect and reflect on the created Universe, the very first truth that will down upou his realisation will be the fundamental and universal law and discipline and part of an ordered System ; there is nothing without good reason or a beneficent ultimate purpose. Were it otherwise, there would not have been this universal discipline and order which so carefully, to the minutest detail, holds together everything in the universe in a single integrated whole.

« خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين » .

(God has created the heavens and the earth with good purpose. Verily, in this there is a sign for those who believe.)

« ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

(and: Yet most of them do not know it)[1].

---

(1) The Quintessence of Islam.

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYYAT

DHU'LQA'DAH 1384	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	MARCH 1965

THE QUR'ANIC CONCEPTION OF GOD - III

By : Moulana Abul Kalam Azad

The next stage of divine guidance is that throuh the faculties of sense, perception and mental understanding. Beings lower than man lack intellect and reason, but they possess the powers of senses and understanding in the fullest measure necessary for all the functions relating to selfpreservation and reproduction. These powers, it is also to be noted, are not the same kind or degree for all beings, to each is given exactly that power and in that measure which would enable it to live in the environment or that particular state in which taqdir has placed it. The ant is givin a relatively stronger sense of smell; the eagle has relatively stronger sight. It would be irrelevant to examine whether these different faculties of animals and insects were so from the first, whatever that might mean, or whether they developed to meet the requirements of the situation. what is to be noted is that these faculties could not have been so developed by any human or other earthly agancy; they are Naturegiven, and Nature has prescribed the laws of existence, adjustment, growth and development which are unalterable.

Thus it is that, after naming Allah, the first divine attribute that this sura directs our attention to is that of Rabbil Alameen, the lord who cherishes, nourishes and sustains everything and guides it to its fulfilment. It was this attribute to which *Moses* referred when he said:

«قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»

(Our Lord is he who has given everything its form and nature and

الفهرس

تتوقف المجلة عن الصدور فى الشهرين العربيين المسايرين
لشهرى : يوليو وأغسطس

الثمن اربعون مليما

مطبعة الأزهر



ذى الحجة سنة ١٣٨٤ هـ — ابريل ١٩٦٥ م



مظاهر رائعة من عظمة الرسول عليه السلام

إيثاره المسلمين على نفسه وأهله في حياته وبعد مماته

للأستاذ الدكتور
علي عبد الواحد وافي

كان عليه الصلاة والسلام في مأكله ومشربه وملبسه وشئون حياته المنزلية الخاصة يعيش كما يعيش أفقر رجل من أصحابه . وقد وصفت حياته هذه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ تقول : « ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتاليين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وتحدثت مرة أخرى عن ذلك مع عروة بن الزبير ، وهو ابن أختها : أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين فقالت : « والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلى عليه وسلم نار » : أي إنه كان يمر على زوجات الرسول عليه السلام شهران قريبان كاملان ويدخل الشهر الثالث بدون أن يكون قد أوقدت نار في بيوتهن لطهو اللحم أو لإعداد طعام من الأطعمة التي يقتضي إعدادها إيقاد نار . قال عروة فقلت لها : « ياخالة ! فبم إذن عيشكم ؟ » . فقالت : « يا ابن أختي كان معظم عيشنا بالأسودين : « التمر والماء » . - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : دخلت يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مضطجع على حصير خشن ، فجلست فإذا الحصير قد أثر في جنبه ، وإذا عليه إزار ليس عليه غيره ، وإذا أنا بقبضة من الشعير بمقدار صاع في ناحية من الغرفة . فابتدرت عيناي بالبكاء فقال عليه السلام : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فقلت : يا نبي الله ومالي لا أبكي ؟ ! وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذا ملبسك عليك إزار ليس عليك غيره ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا هذه القبضة من الشعير . وذاك كسرى وذاك قيصر يعيشان في الثمار والنعيم والثياب الفاخرة ؛ وأنت نبي الله وصفوته ! فقال عليه السلام : « يا ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا » .

وكانت ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها أفقر بناته جميعاً. فقد كانت بناته الأخريات زوجات لثريين من أثرياء قريش وهما: أبو العاص بن الربيع زوج زينب، وعثمان بن عفان زوج رقية وأم كلثوم، تزوج إحداهما أولا، وبعد وفاتها تزوج الأخرى، ومن ثم يسمى: (ذا النورين). أما فاطمة فكانت زوجة لابن عمه: على بن أبي طالب. وكان رضى الله عنه من أفقر رجال قريش فقد وقف حياته كلها على الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، والتفقه في دينه، وإشاعة الثقافة الإسلامية، وصحبة الرسول عليه السلام، ولم يشتغل في حياته بتجارة، ولا استثمار لأرض، ولا استغلال لمال وكان أبوه (أبو طالب) عم الرسول عليه السلام فقيرا كثير العيال؛ حتى لقد قام بعض أقربائه بكفالة أولاده، فقام أخوه العباس بكفالة ابنه جعفر؛ وقام محمد بن عبد الله قبل رسالته، وبعد زواجه بخديجة بكفالة ابنه على والقليل من المال والعقار والمتاع الذي تركه أبو طالب بعد وفاته لم يرث منه على شيئا؛ وإنما ورثه أخواه: طالب وعقيل، لأنهما كانا حينئذ على دين أبيهما، وكان على مسلما ولا يرث المسلم من الكافر، ولا الكافر من المسلم، ولذلك حينما قال أسامة بن زيد للرسول عليه السلام يوم فتح مكة: «هل ستنزل في بيتك يارسول الله؟» (يعنى بيت عمه أبي طالب شقيق أبيه)، أجاب عليه السلام بقوله: «وهل ترك لنا عقيل من منزل؟!» ثم قال: «ولا يورث المؤمن الكافر، ولا يرث الكافر المؤمن».

هكذا كان حال ابنته فاطمة وحال صهره على من الفقر ورقة الحال، وكانت حياتهما في بيتهما كحياته عليه الصلاة والسلام في بيته، فكانا يعيشان في المستوى نفسه الذي وصفته عائشة ووصفه عمر في الحديثين السابق ذكرهما حتى إن عليا وفاطمة لم يكن لديهما غطاء يغطي جميع أجزاء جسميهما وهما نائمان، فكانا إذا جذباه على كتفيهما انكشفت ساقاهما، وإذا جذباه على ساقيهما انكشفت كتفاهما، أما جهازهما وأثاث بيتهما فقد وصفه على رضى الله عنه إذ يقول: «إن الرسول عليه السلام لما زوجه ابنته فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة حشوها من ليف ورحيين وسقاء وجرتين، وكانت فاطمة رضى الله عنها تقوم بنفسها بجميع شئون بيتها وخدمة زوجها، ولم تكن لديها خادمة تساعدها في أعمالها. وقد ذهبت مرة إلى أبيها عليه السلام وعلى يديها وأصابعها آثار الجهد، وشكت إليه ما هي فيه، ورجته أن يمنحها جارية من سبايا الحرب تساعدها فيما تقوم به، فقال لها عليه السلام: «ألا أنبئك بكلمات تزيل

عنك الهم ، وتكشف عنك الكرب ، وحفظها بعض تسبيحات ودعوات تتجه بها إلى الله تعالى ايربط على قلبها ، ويشرح صدرها ويمنحها القوة على عملها ، فرجعت إلى بيتها ومعها بضع دعوات صالحات ترددهن كلما وهنت قواها وشق عليها متابعة ما تقوم به من عمل ، بدلا من الخادمة التى كانت تأمل أن ترجع بها قال ابن أبى ليلى : أخبرنا على أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرحى فبلغها أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بسبى فأتته تسأل خادما ، فلم توافقه (أى لم تجده) فذكرت ذلك لعائشة فجاء النبى ، فذكرت عائشة له ذلك فأتانا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم ، فقال على مكانكما ، حتى وجدت برد قدمه على صدرى فقال : « ألا أدلكما على خير مما سألتمانى ؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله ثلاثا وثلاثين واحمداه ثلاثا وثلاثين وسبحاه ثلاثا وثلاثين . إن ذلك خير لكما مما سألتماه » ، وورد فى حديث آخر عن على فى هذه القصة قوله عليه السلام : « والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم . ولكن أبيعهم (يقصد الرقيق) وأنفق عليهم أثمانهم » . (وأهل الصفة جماعة من فقراء المسلمين منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفارى ، كانوا ملازمين للرسول عليه السلام وكان مقامهم أمام بيوته . ويحدد مكانهم الآن بإطار أمام الروضة النبوية الشريفة) .

ولم يعش الرسول عليه السلام هو وأهله هذه العيشة ، ولم يحمل ابنته وزوجها على أن يعيشا هذه المعيشة ، لعجزه عن حياة الرغد والرخاء . فقد كان لديه من موارد الرزق التى أحلها الله تعالى له ما يتيح له أن يعيش هو وأهله وابنته وزوجها وأولادهما فى أرغد عيش .

فقد جعل الله تعالى له الحق فى خمس غنائم الحرب ينفق منه على نفسه وأهله وذوى قرباه . قال تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (آية ٤١ من سورة الأنفال) . وجعل الله تعالى له الحق فى الفىء ، وهو ما يحصل عليه المسلمون من أعدائهم بدون حرب على أثر استسلام أو قبول الجلاء كفىء بنى النضير وبنى قريظة من اليهود . قال تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (آية ٧ من سورة الحشر) ، وأهل القرى هم اليهود الذين كانوا يسكنون يثرب وضواحيها . وقد أفاء الله على رسوله مالا كثيرا مما تركوه بعد إجلاء بعضهم ، والقضاء على بعضهم الآخر .

ويتحدث القرآن الكريم عن ذلك فيقول : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم » (وهم بنو قريظة الذين ظاهروا قريشا وأحلافها وغدروا بمحمد عليه السلام ونكثوا عهده فى أثناء غزوة الخندق ، فأمكن الله تعالى المسلمين منهم وأنزلهم من صياصيهم أى حصونهم) « وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شئ قديرا » (الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الأحزاب) . ومن خمس الغنائم وأموال الفىء التى جعل الله للرسول وذوى قرباه نصيبا كبيرا منها كان يستطيع عليه السلام لو أنفقها على نفسه وذوى قرباه ، أن يعيش هو وأهله وابنته وزوجها وأولادهما فى أرغد عيش . ولكنه عليه السلام كان ينفق معظم ما أحله الله تعالى له من هذين الموردين ومن غيرهما على الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل وذوى الحاجة من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، ويؤثر هؤلاء على نفسه وأهله وابنته ، ويعيش هو وأهله وابنته عيشة الكفاف ، بل ما هو أدنى من عيش الكفاف ، على النحو الذى وصفناه .

وقد أبى عليه السلام إلا أن يؤثر المسلمين على نفسه وأهله وابنته ، وأبى إلا أن ينأى بنفسه وأهله وابنته عن مواطن الشبهة والريبة واستغلال المكانة والقرابة ، لا فى حياته فحسب ، بل بعد مماته كذلك ، فقد قرر عليه السلام أن ما يتركه بعد وفاته لا ترثه بناته ولا زوجاته ولا يرثه أحد من أقربائه ، وإنما يضم إلى بيت المال فيكون لجميع المسلمين .

وفى هذا يقول عليه السلام : « لا تقسم ورثتى دينارا ولا درهما ، ما تركت بعد نفقة أهلى ومئونة عاملى فهو صدقة » . ومن ثم لم يعط أبو بكر بنات الرسول ولا زوجاته ولا أحدا من أقربائه شيئا مما تركه الرسول بعد وفاته ، حتى بيوته عليه السلام نفسها فقد أبيح لزوجاته من بعده مجرد الاحتفاظ بسكنها فقط ما دمن على قيد الحياة ، وكانت كلما توفيت واحدة منهن ضم بيتها إلى المسجد الذى يعم نفعه جميع المسلمين ، وهكذا حتى دخلت بيوتهن جميعا فى المسجد النبوى وفى مكانها الآن قبر الرسول عليه السلام وما يقع أمامه من مسجده ، فقد كانت هذه المساحة مشغولة ببيوت أمهات المؤمنين ، وكذلك كان لكل واحدة منهن نفقتها فقط من تركة الرسول ، وبعد وفاتهن ضم ما كان ينفق منه عليهن إلى بيت المال ، وصرف

فى منافع المسلمين . ولم يرث بيوتهن ولا مصادر نفقاتهن أحد من أقربائهن .

* * *

وليس معنى هذا أن الرسول عليه السلام كان يعيش عيشة تحنث ورهبنة ؛ بل لقد كانت حياته حياة عمل وجد نشاط ، وكان قسط كبير منها وقفا على الجهاد وقيادة الجيوش وتدبير شئون المسلمين وتبليغ الرسالة ونشر الدعوة وتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم وعقد المعاهدات ... وما إلى ذلك من عظائم الأمور . وكان يأخذ من الدنيا بعض ما أحله الله له ، ولا يدع العبادة تستأثر إلا بجزء من وقته . جاء إلى بيوت الرسول عليه السلام ثلاثة رهط من كبار الأتقياء ، ممن عزفوا عن جميع متع الحياة ، وتفرغوا للعبادة ، جاءوا إلى بيوت الرسول يسألون عن عبادته حتى تتم عباداتهم له ويتداركوا ما عسى أن يكون قد فاتهم ، فلما أخبروا بمناهجه فى العبادة كأنهم تقالوها ، أى عدوها قليلة بالقياس إلى عباداتهم هم . وقالوا ملتمسين للرسول العذر ومبررين انكبابهم على عبادة الله : وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وقال أحدهم : أما أنا فإنى أقوم الليل أبدا ولا أهجع وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر وقال ثالثهم : وأنا أعتزل النساء أبدا ولا أتزوج تبتلا وتقربا لله ؛ فدخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم الذين تقولون كذا وكذا ؟ ؛ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكننى أصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

دكتور على عبد الواحد وافى

محمد وصحبه فى القـــرآن

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجـــراً عظيما » .

نفحات القرآن

حول ظلمات الكفر .. وأضواء الإيمان

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

(أ) « إن الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون : أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » . ٧ - ٨ يونس

(ب) « إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار ، فى جنات النعيم ... دعواهم فيها : سبحانك اللهم ... وتحيتهم فيها سلام ... وآخر دعواهم : أن الحمد لله رب العالمين » . ٩ - ١٠ يونس

١ — فى الشطر الأول : حديث عن الكافرين ، وسوء منتهاهم ...

وفى الشطر الثانى : نماذج من مباهج المؤمنين فى أخراهم .

وقد يخطر لإنسان أن القرآن تحدث كثيراً عن الإيمان وأهله ، وعن الكفر وأصحابه : حتى أصبح شأن الفريقين مستفاداً من آيات لا تبلغ هذه الكثرة التى تتلوها فى مقامات عدة ... فلا تكون هذه الكثرة إلا لمجرد التأكيد ، وإزالة الشبهات ...

ولكن ذلك زعم غير حصيف ... أو هو زعم من يضيق وعيه عن مرامى القرآن فى خطابه الناس وفى توجيهاته ...

فإن الله لم يخلقنا سدى ، ولم يتركنا هملا ، وإنما خلقنا تنفيذاً لحكمته ، ومظهراً لقدرته ، ورسم لنا فى الدنيا مناهج ، وأعد لنا فى الآخرة مآلا يختلف باختلاف مسالكنا فى الحياة .

فكان من تمام فضله على الناس : بل على الإنس ، والجن أن يبصرهم تشريعه بما يكفل هداهم ، ويكشف لهم من الغيب عنهم ما تقصر دونه أفهامهم ، أو تطغى عليه أهواؤهم ، وشواغلهم .

فإذا قرأنا كثرة من الآيات فى التوجيه إلى الإيمان والترغيب فى عقباه . أو قرأنا كثيراً عن الكفر والتحذير من منتهاه : فإن

فى هذا التكرار مساندة للعقول بالتذكير وفيه تقويم لما فى النفس من عوج لا يستقيم وحده : وفيه تجلية لصدأ القلوب من شوائب الغفلة ، أو عدوى التقليد لأهل النفاق .

فلا يكون تكرار القرآن لحديثه عن الإيمان أو غيره لمجرد التأكيد ، وإزالة الشبهات .

بل هو فى كل مقام : يراد منه استلفات التوجيه ، وإبراز الخفى ، وإثارة الوعى من غفلته حينا بعد حين .

وإن نظرة القارىء فى كل آية مستقلة عما يراد فيها لتحدث عنده تنبها جديدا ، وخشية مستمدة من نفس الآية باستقلالها ...

ولا تحمل على التأكيد لسواها إلا عند ما نجمع آية إلى آية أخرى فى موضوع واحد ، فقد يراعى التوافق فى الغرض المتحد ...

على أنك حينما تجمع بين الآيتين مثلا : فأيهما التى تراها تأسيساً ، والتى تراها تأكيداً ؟ ؟ ذلك مطلب عسير على الكثيرين : إلا إذا عرفنا تاريخ النزول على وجه الضبط ... وهيهات

وعلى هذا الأساس ننظر فى الآيتين السالفتين (ا ـ ب) .

(ا)

٢ ـ « إن الذين لا يرجون لقاءنا ... الآية » .

فى الكفر مقاطعة العبد لربه ، وحين المقاطعة الروحية لا يتجه العبد نحو ربه بخوف من عذابه ، ولا طمع فى ثوابه ، فإنه ينكر لقاء الله بعد الحياة الدنيا ، ولا يحسب أن هناك بعثا ولا حساباً ، فلا مثار عنده لرجاء بمعنى الخوف ، أو الطمع .

وهذا وصف من جملة صفات يذكرها القرآن عن الكافرين « لا يرجون لقاءنا » .

والانصراف عن الآخرة ، وإنكار ما بعد الموت يربط الإنسان بدنياه ، ويفرغ لها قلبه ، وحبه كله .

فلا يتخلى عن التعلق بها ، بل ينحصر همه فيها ، وذلك وصف ثان من لوازم الكفران .

« ورضوا بالحياة الدنيا » .

وحين يتصور الخيال أن الدنيا هى المراح والمغدى ، وأن حبها هو المتاع والحظوة : تكون أثيرة عند المرء ، ويطمئن إليها كأنها الخلود الذى لا يتبدل ، والنعيم الذى لا يتحول فهى قبلته المرموقة ، وهى عبادته الشاغلة عما سواها ... وذلك وصف ثالث ذكرته الآية « واطمأنوا بها » .

وإذا ما اجتمع حول المرء عوامل ثلاث ، مقاطعة لله ... وتفرغ للدنيا ... واطمئنان إلى مفاتنها : لا تجد بين جنبيه قلبا يفقه ... ولا نفسا تخشع ... ولا حياة لضمير ...

وعندما ينحدر المرء إلى هذه المهواة يفقد كل معانى الإدراك المنشود ... ويبتعد عن كل تقدير، ويتجرد من ملامح الرشد.

وهذه هى المسماة فى القرآن بالغفلة عن آيات الله فى سمائه، وفى أرضه، وفى كتابه الذى ينادينا ولكن لا حياة لمن ينادى ... وتلك خصلة رابعة « والذين هم عن آياتنا غافلون ».

٣ — وفى هذا المستوى يكون الإنسان فى جهالته قد انحط إلى البهيمية، بل يكون أسوأ منها حالا، لأنها معذورة بحرمانها من خصائص البشرية التى استوفاها وأغفلها.

« أولئك كالأنعام، بل هم أضل: أولئك هم الغافلون ».

وهؤلاء الذين ورطوا أنفسهم فى الكفر وترددوا فى ظلماته: لابد لهم من مآل يستقرون فيه مهما يكن زعمهم فى عدم البعث أو الغفلة عن آيات الله.

فليكن مأواهم لائقا بمسلكهم ومثبتا لما جحدوه.

وهذ هو منطق العدل الذى قامت عليه شرعة الله فى سياسته لخلقه، وقد كاشفهم الله بذلك قبل أن تفلت من أيديهم الفرصة « أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » هم الكاسبون لهذه المآثم: فجزاؤهم من جنس عملهم.

٤ — والجزاء بعد العمل يعتبر مبادلة بين الله وعباده ... فما نقدمه نكافأ عليه « ولا يظلم ربك أحدا ».

٥ — وانظر بعد ذلك إلى الآية الثانية « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ... الآية ».

الإيمان: صلة وثيقة بين المعبود وربه، وفرق ما بين المؤمن والكافر أشبه ما بين النور والظلام أو ما بين العلم والجهل، أو ما بين الحياة الفاخرة، والموت المسخوط الرخيص وخاصة إذا كان إيمانا مقرونا بصالح الأعمال، وذلك هو الإيمان الكامل الذى تعلنه الآية، ويعنى به القرآن أكثر من إيمان مجرد عن عمل.

والإيمان المثمر لصالح الأعمال هو العلاقة الروحية التى تهش لها الفطرة السمحة وتطمئن إليها النفوس المشرقة، وتجنح إليها الإنسانية العالية الرحيمة.

وبذكر الإيمان، وعمل الصالحات: انبثق فى مجال الحديث نور، وفاح منه عبير، وابتسم فى مطلعه أمل.

لأنه حديث عن الإيمان، والمؤمنين، وليس أحب إلى الله من الإيمان، وذكر المؤمنين ... !

وأنت تلحظ هذه الملامح فى سياق الآية فقد تجاوزت عن ذكر الأعمال فى تفصيل

إلى ذكر المباهج التى يظفر بها المؤمنون .

وكان الحديث عن الكفار بذكر أعمالهم البغيضة ، ليقيم عليهم الحجة بما كسبوا حتى كانت النار مأواهم ، وفى هذا النمط صدود عنهم ، وتجهم فى شأنهم ، وانصراف إلى سواهم .

أما المؤمنون فيتبسط القرآن فى ذكراهم ويرطب الحديث عنهم بذكر تلك المباهج المرموقة ، التى كانت لهم جـــزاء كريم عند ربهم .

٦ — وأولها « يهديهم ربهم بإيمانهم » كانت هدايتهم فى الدنيا إيمانا وعملا ... أما هدايتهم الآن : فهى توجيه إلى الجنة بعد البعث والحساب ... وهى تمكين لهم من منازلهم فيها ، وتحقيق لآمالهم التى تعلقوا بها ، واستجابة لطاعتهم فى الدنيا بإدراك ما تطلعوا إليه فى الآخرة .

وانظر فى لطافة التعبير : يهديهم ربهم !! فإنه يتعهدهم برعايته ، ويقرر اعترافهم بأنه ربهم . . !! وذلك هو عنوان الإيمان الذى كان السبب فى الجزاء .

٧ — وثانية المباهج « تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » .

إذا أتيح للإنسان فى دنياه أن يعيش وقتا ما بين زروع وأنهار ، وفى صحة ورخاء : جاشت بنفسه مسرة تملك عليه نفسه ، وتجمع إليه ألوان الهناءة ، فينسى همومه ، ويكاد يحسب أن الدنيا تطوعت له .

ونحن نعلم أن نعيم الجنة فوق تقديرنا له وأن متع الدنيا دون ما هنالك بكثير وكثير .

فما بالك إذا عرف المؤمنون أن لهم خلودا فى الجنات ، يتقلبون فى نعيمها ، ويحظون بمشاهدها ، ويتفيئون ظلالها ، ويتملئون بأعينهم ، وأحاسيسهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

٨ — ثالثة المباهج « دعواهم فيهـــا : سبحانك اللهم » .

والدعوى هنا هى الدعاء ويكون بالتسبيح والتمجيد تلذذا ، وطربا ، وبهجة بما هم فيه ، وشكرا على ما منحهم ، وليس ذلك تكليفا ، فقد تجاوزوا حياة التكليف إلى الخلود فى نعيم مقيم :

وليس دعاؤهم طلبا لشىء ، فقد أغناهم الله عن الطلب : وكلما تعلقت رغبتهم بشىء ، تفضل الله عليهم به ، دون سؤال : وفى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (إذا شغل عبدى ثناؤه على عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) .

وإذا كان هذا فى أهل الدنيا : فما ظنك بأهل الجنة .

٩ — وبهجة رابعة « وتحيتهم فيها سلام » المعنى : تحية الله لهم : سلام وأمان من كل ما

كان يخشاه المرء فى دنياه : ونحو هذا « سلام قولا من رب رحيم »

وتحيتهم من الملائكة كذلك : سلام يرددونه عليهم ، كلما تلاقوا معهم : للتكريم والتهنئة « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وتحية المؤمنين فيما بينهم كذلك : سلام يتبادلونه فى صفاء ، وحبور ، ومسرة تتجدد فلا يشوبها كدر ، ولا تلاحقها غضاضة : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، إخوانا على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها نصب ، وما هم منها بمخرجين » .

١٠ — وخامسة المباهج « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

فى كل ما يصادفونه من نعمة ... وفى كل ما ينتهون إليه من شأن يحمدون الله رب العالمين .

وهذا شعار يدين به أهل الجنة على سواء . فالكل شاعر بحظه فى جوار الله ، والكل آمن على سعادته فى رحاب الله ...

ومهما يكن بينهم من تفاضل : فلا حسد ، ولا أنانية ، ولا جشع ، ولا غير هذا ..

بل العيون قريرة ، والنعماء وفيرة ، والحياة فضفاضة الجوانب ، والأمل مديد غير مقطوع : « وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة ـ وسائد ـ وزرابى مبثوثة » بسط مفروشة .

وهذا قبس موجز عن نعيم الجنة ...

ونعيمها ـ كما سلف ـ فوق ما تراه العين فى الدنيا ، وفوق ما سمعت الأذن ، وفوق ما يخطر على قلب بشر ...

وإن كانت مطامح النفس ، والعين لا تقف عند حدود ، ففى الجنة كما قرر الكتاب الكريم ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين : من مستطاب لا يحيط به خيالنا .

١١ — وفى نهاية الحديث بذكر الحمد على لسان المؤمنين فى الجنة توجيـــه لنا إلى الاعتراف لله بفضله ، وتقرير الحمد له على ما ندرك من خيره ... كما وجهنا فى مقامات أخر إلى الابتداء بذكر اسمه ـ تعالى ـ

فيكون العبد فى سائر شئونه مستعينا بذكر الله ، ومنتهيا إلى حمد الله .

وهكذا يكون اللسان رطباً بالثناء ، وبالشكر ، والدعاء .

فلا يكون العبد جافا مع ربه ، ولا مقاطعاً للتوجه نحوه .

وقد قال سبحانه : « فاذكرونى أذكركم » ؟

عبد اللطيف السبكى

نقد ابن تيمية لمذاهب الاتحادية والقائلين بوحدة الوجود

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

— ٢ —

أما السبب الرابع الذي من أجله هاجم ابن تيمية جماعة المتصوفة فيرجع إلى تاريخ التصوف ذاته . فنحن نعرف من هذا التاريخ أنه وجدت فئات تقول بالحلول والاتحاد وبوحدة الوجود . والحلول من شأنه أن يجعل مجانسة بين الوجودين : الإنساني والإلهي أو الناسوت واللاهوت كما جاء في شعر الحلاج أما الاتحاد فيقصد أصحابه تصيير ذاتين واحدة أو امتزاج الاثنين في كائن واحد كابن الفارض الذي أفناه حبه لمحبوبه عن نفسه ؛ فلم يشعر إلا بالاتحاد التام به فقال :

متى حلت عن قولي « أنا هي » أو أقل
وحاشا لمثلي أنها فيَّ حلّت

فإذا كان الحلول اثنينيا فالاتحاد واحدي . وبذلك تكون كل من النظرتين ملحدة بالنسبة إلى الدين الإسلامي ، فهو لا يعترف بإمكان هذه الواحدية كما لا يقر بالمجانسة بين الاثنين ولعل ابن تيمية لم يخفف من حكمه على ابن عربي إلا لأنه كما جاء في النص السابع من نصوص الحكم يقول : بأن الله أحدي بذاته ولا يقبل التبعيض ، ولكنه يحمل عليه حملا شديدا في بعض أجزاء نقده ، وعلى مذهبه في الوحدة ، فيقول مثلا : (ص ٢٥ ج ٤ م . ر . م .) فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ، وليسوا غيره ولا سواه ؟ ولا يتصور أن يعذب إلا نفسه وأن كل ناطق في الكون فهو عين السامع ؟ وأن الناكح عين المنكوح ؟ » ومن ذلك أيضا (بالجزء الأول ج ٧٧ م . ر . م .) نقده لقول ابن عربي ظاهره خلقه ، وباطنه حقه ، فيقول : « هو قول أهل الحلول ، وهو متناقض في ذلك ، فإنه يقول بالوحدة ، فلا يكون هناك موجودان : أحدهما باطن ، والآخر ظاهر » وهذه النقطة بالذات تحتاج إلى توضيح أكثر من هذا وخاصة فيما يتصل بمذهب ابن عربي ، وسنتحدث عنها عند الكلام عن فهم ابن تيمية للاتحاد والوحدة ، ومقدار نفاذه في مذهب ابن عربي .

هذه الأسباب الأربعة هي التي دفعت ابن تيمية دفعا إلى مهاجمة القائلين بالاتحاد والوحدة من المتصوفة . وسأتكلم الآن عن عناصر هذا النقد وهي ثلاثة عناصر :

١ ـــ العنصر الأول هو العنصر الخطابي وهذا يبدو بوضوح في أنحاء كثيرة من نقد ابن تيمية . فكثيرا ما تراه يحاول التأثير في نفوس الناس بطرق ليست من الصدق أو المنطق في شيء ، ويضطر في أغلب الأحيان إلى الاعتماد على السب والشتم . كثيرا ما يقول « وهذا مع أنه من أعظم الكفر والكذب الباطل في العقل والدين » ، أو يحاول الإغراء فيقدم لرأيه قائلا : « والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الأصناف » . ويحاول في جملة أنحاء من نقده إظهار ما في التصوف من عناصر مسيحية وذلك كيما يجعل الناس تزهد فيه ، وتعتقد في أهله الكفر ، ويشعرون بالكراهية نحوه مثل كراهيتهم للعقائد المخالفة للإسلام . فمثلا تراه يعلق على بيتي الحلاج .

« سبحان من أظهر ناسوته
سرسنا لاهوته الثاقب »
« حتى بدا في خلقه ظاهرا
في صورة الآكل والشارب »

بقوله : «فهذه قد تعين بها الحلول الخاص كما تقوله النصارى في المسيح » ، وهذا الكلام حين يكون في معرض البحث والدراسة لهذه الطائفة يكون معقولا إلى حد ما ، وحتى حينما يقوله رجل كما سيفيون في كتبه نشك في مقدار صدقه . أما إذا جاءت في معرض ؛ النقد فلا معنى لها إلا مجرد محاولة التجريح ، خاصة ، وأن موقف الإسلام من هذه النقطة بالذات في المذهب المسيحي مناقضة على الإطلاق .

٢ ـــ أما العنصر الثاني فهو العنصر الديني . فتجده في حلوله التي يقدمها لمعظم المشاكل يعتمد على وجهة النظر الدينية بمفردها ويتكئ عليها مسلما بها في إذعان ، وبغير مناقشة . وهذا الموقف محسوس منذ بدأ نقده حتى ليمكن القول بأنه : كان يتهرب من المناقشة الموضوعية ويلتصق التصاقا بالنظرية الدينية التي يسلم بها كل إنسان مضطرا تحت تأثير الخوف : إما من الله أو من السلطة الحاكمة . ولنضرب مثلا بمشكلة الخير والشر ؛ فأصحاب الوحدة والاتحاديون يقولون لهذه المشكلة تفسيرا لا يضع من قيمة الشر ، ولا يحط من قدر الأفعال المنكرة بوصفها داخلة ضمن النطاق الإلهي : وكان أغلبهم يحتج بالقدر على المعاصي ويجد مبررا لأعماله من هذا الطريق . ويرد ابن تيمية عليهم قائلا : « إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجة لكل أحد ؛ فان ذلك مستلزم الفساد الذي لا صلاح معه ، والشر الذي لا خير فيه . إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب معتد ، ولا اقتص من باغ » . وهذا الرد بطبيعة الحال ديني خاص ولا يمكن بحال

أن يقنع واحدا لا يؤمن بالثواب والعقاب الأخرويين: وحينما يريد أن يجيب إجابة معقولة على هذه المشكلة يدخل فى كلام لا معنى له أو هو بعينه الذى يرد عليه كقوله : « فالأمر الكونى ليس هو أمرا للعبد أن يفعل ذلك الأمر ، بل هو أمر تكوين لذلك الفعل فى العبد أو أمر تكوين لكون العبد على ذلك الحال ، ثم يتبعه بمقولة دينية : « فهو سبحانه هو الذى خلق الانسان هلوعا : إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، وهو الذى جعل المسلمين مسلمين كما قال الخليل :

(ربنا ، واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) فهو سبحانه جعل العباد على الأحوال التى خلقهم عليها ، وأمره لهم بذلك أمر تكوين بمعنى أنه قال لهم : كونوا كذلك فيكونون كذلك » . ويقول بعد هذا كلاما طويلا يختمه بهذه العبارة الصريحة : « وليس فى القدر حجة لابن آدم ، ولا عذر بل القدر يؤمن به ولا يحتج به ، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين ، متناقض ، فإن القدر إن كان حجة وعذرا لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه ، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظلم فى نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصر من الظالم ، ولا يغضب عليه ، ولا يذمه . وهذا أمر ممتنع فى الطبيعة لا يمكن أحداً أن يفعله ؛ فهو ممتنع طبعا محرم شرعا . ولو كان القدر حجة وعذرا لم يكن إبليس ملوما معاقبا ، ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار » . الخ

هـذا التعليل الذى يسوقه ابن تيمية (ص ٨٩) :

٣ — والعنصر الثالث هو العنصر الفلسفى والمنطقى : والحق: يقال إن ابن تيمية وإن كان كارها للفلسفة ومندداً بها فى كل مناسبة لعلمه بأن كثيرا من أفكار الوحدة والاتحاد إنما جاءت من اليونان (راجع ص ١١٣ (١) دائرة المعارف الإسلامية) فإنه كان عقلية خصبة وقوية فى نفس الوقت . ولذلك يقول عنه ماسينيون (فى ص ٣٨٦ جـ ١ من كتاب الحلاج) فى مسألة الحلاج : يعد ابن تيمية رجل الشرع الوحيد الذى اتخذ موقفا منطقيا متماسكا : وهذا صحيح إلى حد كبير ؛ فإننا نجد ابن تيمية يعقد فصولا برمتها من الرسائل التى ينقد فيها الاتحاد والوحدة لبحث فكرة فى المنطق أو معالجة موضوع من موضوعاته الفكرية واللغوية معا :

أنظر مثلا حينما يحاول ابن تيمية أن يكشف الضعف فى القول بوحدة الوجود عن طريق إثبات خطأ القضية : « أن الوجود واحد » فهو هنا منطقى يحاول أن يظهر الخطأ العقلى فى فهم حكم من الأحكام . هو يذهب بعيدا عن التفسيرات المختلفة التى تتعلق بهذه

النقطة ويتعامى عن صلة الفكرة بجملة المذاهب التوحيدية ويأخذ فى تحليل القضية البسيطة التى تحكم على الوجود بأنه واحد .

وهذا ليس غريبا كما قد يبدو لأول وهلة عن روح ابن تيمية . فهو فى كثير من مواضع نقده يأخذ فى الإبانة عن معرفته بأصول المنطق ، وقواعد الاستدلال . ويترك النقطة الرئيسية التى يتحدث فيها كيما ينساق بالقارىء إلى بحوث منطقية ولغوية صرفة . ولهذا نجـــده علاوة على جملة ما هاجم به الصوفية ، وأصحاب الوحدة منهم خاصة ، يبذل عناية شديدة بالناحية العقلية فى أساليب كتابهم وإذا استطعنا بسهولة أن نجد عناصر خطابية أو عناصر فلسفية ، أو عناصر دينية فى أسلوب ابن تيمية النقدى ؛ فإننا سنكون بنفس السهولة قادرين على اكتشاف عناصر منطقية خالصة فى طريقة مهاجمته لهؤلاء القوم . وهو إذ يفعل هذا ، نراه يرتكن على نقده لعدة من أهم القضايا التى يرتكز عليها مفهوم الوحدة الوجودية عندهم من هذا مثلا : « الكثرة وهم » فهذه قضية من وضع « ابن سبعين » على الخصوص وهو إذ قام بوضعها فإنما جعلها فى مقابل قول المسلمين : « لا إله إلا الله » ، وابن تيمية فى عرضه لنقد هذه القضية كان مرتكنا على نظرة تكاد تكون قريبة الشبه من بعض أصحاب المنطق الحديث ، فهو يعمل حسابا للذات الإنسانية حين تحكم بوصفها العنصر المدرك فى هذا الوجود . يقول : « هذا تناقض ، فإن قوله « وهم » يقتضى متوهما ، فإن كان المتوهم هو الوهم، فيكون الله هو الوهم؛ وإن كان المتوهم هو غير الوهم فقد تعدد الوجود . وكذلك : إن كان المتوهم هو الله فقد وصف الله بالوهم الباطل ، وهذا مع أنه كفر ، فإنه يناقض قوله : الوجود واحد ، وإن كان المتوهم غيره ؛ فقد أثبت غير الله ، وهذا يناقض أصله . ثم متى أثبت غيراً لزمت الكثرة فلا تكون الكثرة وهما بل تكون حقا . (ص ٧٨ ج ١ م . ر . م . م .)

فالقول بأن الكثرة وهم فيها خطأ منطقى يلاحظ إذا ما قمنا بتحليل معنى كل من هاتين اللفظتين . فكلمة الوهم تقتضى الواهم . ومادام هناك واهم فلا يمكن أن يكون هو نفسه الله . إذن فهناك شىء آخر غير الله وهناك أكثر من وجود واحد .

والمهم هو أن نعرف الآن أن ابن تيمية لم يكن قويا كل القوة فى هذا الجانب لأحد أمرين : إما رغبته فى تشويه صورة التصوف وإما جهله ، أو خطؤه فى فهم بعض آراء أصحاب الوحدة والاتحاد والحلول والفروق الدقيقة فيما بينها . فكثيرا ما نراه يخلط بين

أشياء ما كان يخلط بينها لو صدق النية، أو لو أحسن الفهم .

أنظر مثلا تعليقه على بيتى ابن الفارض :

وشاهد إذا استجليت ذاتك من ترى
بغير مراء فى المراء الصقيلة
أغيرك فيها لاح، أم أنت ناظر
إليك بها عند انعكاس الأشعة

فهذا التمثيل فى نظره فاسد لسببين :

أولا : لأن الناظر فى المرآة مثال نفسه فيرى نفسه ويرى المرآة، ولا يمكن أن يرى نفسه بغير أن تتوسط المرآة .

وثانياً : لأن هذه المرآة لا بد أن تكون خارج نفسه فيرى نفسه، أو مثال نفسه فى شىء سواه ، وإذا كان الأمر على هذا النحو فثمت تناقض ظاهر لأن الكون عندهم كما يقول : ليس فيه غير ولا سوى ، فليس هناك مظهر مغاير للطبيعة ، ولا مرآة مغايرة للرائى ، (ص ٨٧ م . ر . م . ج ١) .

فالواقع أن ابن الفارض لم يكن من أصحاب الوحدة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكل ما تدل عليه أقواله ، هو أنه قد أفنى نفسه فى حب الله ، وعن كل ما سوى الله ، فلم ير - بالتالى - فى الوجود غيره ، وهذه وحدة شهود لا وحدة وجود ، وفرق بين فيض العاطفة وشطحات الجذب ، وبين نظرية فلسفية فى الإلهيات ... أى أن ثمة فرقا بين الحلاج صاح الذى فى حالة من أحوال جذبه بقوله : « أنا الحق » أو ابن الفارف الذى أفناه حبه لمحبوبه عن نفسه ، فلم يشعر إلا بالاتحاد التام به وبين ابن عربى الذى يعبر فى صراحة لا مواربة فيها ولا لبس لا عن وحـــدته هو بالذات الإلهية ، ولا عن فنائه فى محبوبه ، بل عن وحدة الحق والخلق ، إذن لم يكن لمذهب وحدة الوجود وجود فى الإسلام بصورته الكاملة قبل ابن عربى كما يقول الدكتور أبو العلا عفيفى (ص ٢٥ فصـــوص الحكم) ، وابن الفارض ليس إلا من أصحاب الاتحاد الذين يفترضون الثنائية مقدما ، فالاتحاد بهذا المعنى يتضمن وجود كائنين يصيران شيئا واحداً .

ولنضرب مثلا آخر من نقده لابن عربى : فهو يزعم أنه يثبت الذات ، ويقول بتجليها عند المشاهدة والمكاشفة ، فى حين أنه يحكم بعكس ذلك ، ويأتى بدليل على تناقضه فى هذا من قوله :

ما غبت عن قلب ولا عن عين
ما بينكم وبيننا من بين

فيعلق على هذا البيت بقوله: حتى لو تغاضينا عن هذا التناقض الظاهر فى أحكامهم ، فإننا

فى البيت، أو فى هذا المعنى الذى يجىء به الشاعر تكون بإزاء قول يقتضى المغاير، أى أن يغاير المخلوق خالقه وأن يكون المخاطب غير المخاطب والشاهد غير المشهود. ويذهب فى تفصيله لرأيه قائلا « ما بينكم وبيننا من بين» فيه إثبات ضمير المتكلم وضمير المخاطب وهذا إثبات لاثنين وإن قالوا مظاهر ومجال، قيل: فإن كانت المظاهر والمجالى غير الظاهر المتجلى فقد ثبتت التثنية وبطل التعدد ، وإن كان هو إياهما فقد بطلت الوحدة فالجمع بينهما تناقض (ص ١٠١ ج١م ر م) والواقع أن هذه المغايرة لا قيمة لها لو فطن ابن تيمية لمعنى البيت فهما صحيحا فأية مغايرة تلك التى تكون بين كائنين لكل منهما نفس المكان والزمان، فكلمة « ما » فى أول البيت حددت الزمان وكلمة بين حددت المكان، ولم يعد من الممكن الفصل بين الحق والخلق بهذا المعنى على الرغم من التفرقة المعنوية الظاهرة بين كل منهما . فالشيئان اللذان يحتلان مكانا واحدا وزمانا واحدا لا يمكن إلا أن يكونا شيئا واحدا، وبالتالى نعرف أنه لا تناقض هناك فى كلام ابن عربى فإذا كان للعلوم الفلسفية أثرها فى تفكير شيخ الإسلام ابن تيمية - كما يقول مصطفى عبد الرازق (ص ١٢١ فيلسوف العرب والمعلم الثانى) فإن تفكيره أحيانا لا يستوفى التمحيص الفلسفى » .

وهناك نقطة هامة فى الاستدلال القرآنى أغفلها ابن تيمية إغفالا تاما وهى أن الآيات التى كان يستشهد بها من حين لحين يمكن أن يوجد لها مقابل يؤيد مذهب الصوفية تأييدا كليا وجزئيا، وذلك راجع بطبيعة الحال إلى ما فى الشريعة من ازدواج كما يقول جولد تسهير، فمن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهبا عقيديا متجانسا أو نشتق جانبا واحدا فى تأييد مطلق لتيار معين، والآيات والأحاديث التى يستشهد بها الصوفية والتى تؤيد أقوالهم أكثر من أن تحصى وأذيع من أن تحتاج لتعريف جديد، وبهذا نعرف أن ابن تيمية لم يكن حريصا كل الحرص، وأن السلاح الذى استخدمه لحرب القائلين بالاتحاد والوحدة لم يحسم فى الأمر تماما ؟

عبد الفتاح البربرى

ضجة مفتعلة ينكرها الدين والواقع

للأستاذ محمد الغزالي

تقبلت بشيء غير قليل من الدهشة اللغط الطويل الذى احترف إثارته بعض الناس حول ما يسمى بقوانين الأحوال الشخصية .

وأريد أن أنفي أولا وجود هذه التسمية فى ميدان الفقه الإسلامى وأن أرفض الإيحاء المقترن بها .

فشرائع الأسرة ليست أحوالا شخصية تهم أصحابها وحدهم من حقهم أن يبقوها إذا شاءوا أو يغيروها إذا شاءوا .

وإذا كان هذا العنوان اصطلاحا فنياً محضاً فهو ليس من وضع علماء الإسلام ، ويبدو أنه مترجم عن اللغة الفرنسية ولا وجود لكلمة قوانين الأحوال الشخصية فى كتبنا الفقهية كلها .

وندع هذا الاستطراد إلى موضوع حديثنا وهو ما شرع الله فى الزواج والطلاق والحضانة والميراث . فنقول فى حسم . إن أى تفكير فى تغيير هذه الشرائع مرفوض جملة وتفصيلا وأن كلمة « تطوير » قوانين الأحوال الشخصية التى لهج البعض بترديدها ليست غير احتيال منكور للانسلاخ من أحكام الإسلام التى نطقت بها النصوص ، وانعقد على تفسيرها الإجماع .

فالزواج بالواحدة إلى الأربع مباح يقيناً لمن يستطيع العدل .

والطلاق من الرجل لا يمكن لأحد أن يسلبه إياه .

وللمرأة نصف نصيب الرجل فى الميراث .

والرجل هو رب البيت والقوام عليه والراعى الأكبر لأولاده .

وما يطلبه النساء اليوم من تغيير لهذه المبادىء الإسلامية ضرب من الغرور يجب أن يقمع دون هوادة .

وسنرى عند التأمل فى أحوال المجتمع المصرى أن اللزام حول انهيار الأسرة المصرية بسبب إباحة التعدد والطلاق مكذوبة من أساسها .

وأن الأسرة المصرية أشرف سيرة وأنقى جواً من الأسرة الأوربية والأمريكية وأنه - إذا كان هناك ما يعكر صفو الأسرة - فهو سلوك المنحلين الذين اطرحوا تعاليم الدين ظهريا ويريدون إغراء غيرهم بالمروق منها والتمرد عليها .

أما الأمة فهى تود لو عاشت ظاهراً وباطناً فى حدود دينها العظيم .

لقد سمعنا كلاما كثيراً حول إساءة الناس لحق التعدد ، ولإباحة والطلاق . .

ولا نرد على هذا الكلام بأكثر من ذكر الإحصاءات الرسمية التى تنطق بعكس ما يدعيه هؤلاء . . . وإلى القراء الكرام الجدول المثبت فى صفحة ٣٠ من الكتاب الذى أصدرته مصلحة الإحصاء والتعداد ١٩٦٠ — ١٩٦١ .

جدول ١٧ — عقود الزواج وإشهادات الطلاق
ونسبتها لكل ألف من السكان

السنوات	عقود الزواج		إشهادات الطلاق	
	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪
١٩٤٥	٢٧٥٦٨٦	١٤ر٩	٧٩٩٩١	٤ر٣
١٩٤٦	٢٨٧٩٢٩	١٥ر٣	٨٠٤١٥	٤ر٣
١٩٤٧	٢٦٠٥٨٦	١٣ر٧	٧٥٤٠٤	٤ر٠
١٩٤٨	٢٧٢١٢٨	١٤ر٠	٧٦١٥٤	٣ر٩
١٩٤٩	٢٨٠٤٦٣	١٤ر١	٧٣٨٢٧	٣ر٧
١٩٥٠	٢٧٢٧٩٥	١٣ر٤	٧٤٨٨١	٣ر٧
١٩٥١	٢٥٢٠٢٦	١٢ر١	٧٥٢٧٧	٣ر٦
١٩٥٢	٢٣١٨٤٦	١٠ر٨	٦٩٥٣٨	٣ر٢
١٩٥٣	٢١٦٢٦٨	٩ر٨	٦٢٢٩٦	٢ر٨
١٩٥٤	٢١٩٠٠٦	٩ر٧	٥٩٥٨٠	٢ر٦
١٩٥٥	٢٢٦٣٦٤	٩ر٨	٦٠٣٣١	٢ر٦
١٩٥٦	٢٢٢٠١١	٩ر٤	٥٧١٨٧	٢ر٤
١٩٥٧	٢٤١٤٣٦	١٠ر٠	٥٩٩٤٨	٢ر٥
١٩٥٨	٢٢٨٠١٨	٩ر٢	٦٠٠٤٤	٢ر٤

من هذه الأرقام يتضح لكل ذى بصيرة :
أولا : أن عدد عقود الزواج فى تناقص مستمر برغم أن الزيادة فى عدد السكان مطاردة . لقد زاد عدد السكان خلال هذه السنوات الأربع عشرة نحو ثمانية ملايين من السكان . وكان ينبغى أن يصل عدد عقود الزواج إلى أربعمائة ألف ... لا أن يهبط العدد إلى مائتى ألف . فالأزمة المخوفة هى قلة الزواج لا كثرته كما يرجف النساء وأشياعهن من الرجال المخدوعين ...

ثانياً : إن إشهادات الطلاق التى تمت سنة ١٩٥٨ وعددها ستون ألفاً يجب أن تذكر الحقائق الآتية ، أنها تشمل الطلاق قبل الدخول ، وبعده ، والطلاق الرجعى والبائن ، والطلاق بالتراضى أو بحكم القاضى ، وأن التصفية النهائية لهذه الأحوال المتباينة تظهر فى الجدول المثبت صفحة ١٣ من الكتاب الرسمى السابق لمصلحة الإحصاء والتعداد .

جدول ٥ — تعداد السكان حسب الحالة الزوجية والنسبة المئوية لكل حالة إلى الجملة

(الأرقام بالألف)

الحالة الزوجية	١٩٤٧				١٩٣٧				١٩٢٧			
	ذكور	النسبة./	إناث	النسبة./	ذكور	النسبة./	إناث	النسبة./	ذكور	النسبة./	إناث	النسبة./
لم يتزوج أبدا	١٢٠٢	٢٣	٦٦٢	١١	١٠٢٨	٢٤	٤٩٧	١١	٨٩٨	٢٣	٣٦١	٩
متزوج	٣٦٢٨	٧١	٣٧٦٦	٦٥	٣٠٩٧	٧٢	٣١٨٠	٦٧	٢٧٧٧	٧٢	٢٨٩٦	٦٨
مطلق	٦٩	١	١٢٧	٢	٦٠	١	٩٧	٢	٦٦	٢	١٢٠	٣
أرمل	١٣٨	٣	١١٣١	٢٠	١٢٩	٣	٩٣٢	٢٠	١٠٥	٣	٨٧٠	٢٠
غير مبين	٨٨	٢	٩٧	٢	١٠	—	٧	—	١٢	—	٩	—
الجملة	٥١٢٥	١٠٠	٥٧٨٣	١٠٠	٤٣٢٤	١٠٠	٤٧١٣	١٠٠	٣٨٥٨	١٠٠	٤٢٥٦	١٠٠

(١) لا يشمل الذكور دون الثامنة عشرة ، والإناث دون السادسة عشرة .

من هذه الأرقام يتبين أن نسبة المطلقين الذين تخلوا عن تكوين الأسر نهائيا إلى مجموع المتزوجين أرباب الأسر هى ١ : ٧٢ .

فهل هذا هو الباعث على الصراخ والعويل من فوضى الأحكام الإسلامية كما يفترى هؤلاء الكاذبون على دين الله ودنيا الناس .

إن لغة الأرقام تكشف عن الفراغ الهائل فى منطق المتهجمين على « قوانين الأحوال الشخصية » كما يسمونها .

وتبين أن هناك بواعث أخرى كامنة فى النفوس هى سر اللغط الذى يتجدد بين الحين والحين ضد تعاليم الإسلام فى هذا المجال .

ولقد ألقيت نظرة على بعض التفاصيل فى إشهادات الطلاق فوجدت أن ثلاثة أرباع المطلقين لا أولاد لهم البتة . لأنهم إذا طلقوا قبل الدخول أو بعده والزوجة عقيم . أو لما تلد .

وقلت للمسئول فى وزارة الشئون إن هذا الإحصاء قاطع بفساد الادعاء أن الطلاق سبب الأسباب فى تشرد الطفولة ...

فقال : لا تنس أن الربع الباقى فى حالات الطلاق يخلف وراءه ثلاثين ألف ولد .

فقلت : هل المطلقون الذين لهم أولاد صعاليك جميعا . ففيم إذن قضايا النفقة والحضانة التى تشغل المحاكم .

إن الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، وما نريد أن يلجأ إليه أحد إلا عند اليأس من صلاح ذات البين .

لكن القول بأن الطلاق سبب أول أو ثان أو ثالث لتشرد الأطفال فى مجتمعنا جرأة مستنكرة وتخبط شائن .

ونعاود السؤال : إذا كان عدد الذين يتزوجون أكثر من واحدة قرابة ٢ ٪ وعدد الذين يطلقون يهبط بعد التصفية التى كشف عنها الإحصاء إلى مثل هذه النسبة ففيم عويل النساء ؟ .

وفيم فزع بعض الكتبة الذين طالت ألسنتهم فى الإسلام وتعاليمه ؟ .

ثم لماذا لم نسمع لهؤلاء صوتا يضيق بإباحة الزنا فى الظروف التى حددها القانون ؟ .

إن الجؤار هناك والصمت هنا دلالة ضمير عائن ونصيحة مغشوشة ومن ثم فنحن نلفت الأنظار إلى ما ينطوى عليه هذا التناقض الغريب .

قال لى بعض المتحمسين لتقييد الطلاق : إن سهولة الطلاق فى الإسلام يسرت لمن يبغضون زوجاتهم من النصارى أن يتركوا دينهم ويدخلوا فى الإسلام حتى يتخلصوا بالطلاق من الزوجات اللاتى يكرهون .

قلت كأن التشريع المقترح محاولة لمنع هؤلاء الفارين من اللجوء إلينا !.

لو أن هناك عقلا راشداً لاتخذنا هذا المسلك دليلا على أن سلب الرجل حق الطلاق مزلقة لسلبه دينه .

إن عشرات الأمم المسيحية احترمت الواقع وأباحت للرجل الطلاق بعيداً عن التعاليم المتوارثة بين كهنة الكنيسة فكيف نفكر نحن أن نضع أيدى المسلمين فى الأغلال التى طرحها غيرهم ؟ .

وماذا يقع لو قيدنا الطلاق كما يقترح هؤلاء القاصرون ؟ .

أما يترك نفر من المسلمين دينهم فراراً من الزوجة التى لا يطيقون ؟ .

وبذلك تكون أولى بركات القانون المراد منه أن نمرق غير المسلمين من الإسلام ، وأن تدفع بعض المسلمين إلى الارتداد حين يعجزون عن ترك زوجاتهم وذلك كله تحت عنوان إرضاء المرأة أو حماية الأسرة !!! .

إن هذا التشريع ـ لو صدر ـ فسيكون ذريعة إلى مفاسد هائلة ، وجرائم فاتكة .

وإنا لموقنون أن أولى الأمر لن يخدعوا بهذا الضجيج المصطنع مهما تتابع الصياح واستطال الإلحاح .

بل أن أملنا يتجاوز التزام تعاليم الإسلام بشأن الأسرة إلى إشاعة تعاليم الإسلام فى أرجاء المجتمع كله فتتناول صنوف المعاملات ، وتنفخ روح الشرف والحق فى قوانين العقوبات وسائر التصرفات .

ويومئذ تكون بلادنا قد نجحت فى صد الاستعمار الثقافى وعادت سيرتها الأولى تضيء الطريق للحائرين .

محمد الغزالى

رجل الدهر

إنى مخبركم عن صاحب لى ملأت لى منه يدى ، وطويت على حبه نفسى ، وجعلته منى من بين صحبى . فقد كان بصيراً بورد الأمور وصدرها ، ويعرف من مطلع كل أمر ما يكون مقطعه ، وتقوم أدنى فراسة منه مقام البينة ، ويصيب بالظن ما يخطىء غيره بالعيان .

كان أكتم ما يكون للسر إذا باحت الألسنة من الأسرار بمصونها ، وانفرجت صدور الثقات عن مكنونها ، كان أبيا لو خطبت له إمارة على أن يكون مهرها ذل ساعة ، لآثر أن يزف إلى قبره على أن تزف إليه الإمارة . كان صلب العود على النوب ، إذا رماه الدهر بخطب يبلوه ، بلى منه الخطب بالنفس المرة والخلق الوعر ، والصدر الذى تضل فى ساحة صبره كل نائبه .

صادق عنبر

إلى أى مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ٦ —

المصالح المرسلة :

انتهيت فى المقال السابق إلى تعريف المصالح المرسلة ، والفرق بينها وبين المصالح الملغاة كما بينت آراء العلماء فى جواز الاحتجاج بها ووجهة نظر كل منهم والذى نبحثه اليوم هو الإجابة عن هذا السؤال ، هل المصالح المرسلة دليل مستقل ، ويتبع هذا بيان المدى الذى نعتمد فيه على المصالح المرسلة فى التشريع والفتوى .

* * *

وقبل الإجابة على هذا السؤال يحسن أن نعيد النظر فيما ساقه العلماء من أدلة تبين وجهة نظرهم فى جواز الاحتجاج بها ، وإذا نحن تجردنا عن الهوى وقارنا بين الآراء المختلفة ونظرنا فى أدلتهم وجدنا أن المانعين أخذوا بالأحوط فى أمر التشريع وابتعدوا جهد الطاقة عن فتح باب التشهى فى الأحكام ؛ وقالوا : إن الشريعة بأصولها العامة ونصوصها المرنة فيها غنية عن فتح هذا الباب الذى لا يدرى أحد إلى أية نهاية ينتهى بنا ، ولا سيما فى هذا العصر الذى لا يأمن فيه ذو دين على دينه والذى كثر فيه أدعياء الاجتهاد الأخرق والمفتون الماجنون والمتاجرون بالدين إما رغبة أو رهبة .

وأما الذين أجازوا الاجتهاد فى التشريع والفتيا على المصالح المرسلة فوجهة نظرهم تتلخص فى أن عدم الاعتداد بها جمود قد يحمل الناس على النفور من الشريعة جملة وتفصيلا ، وفى هذا من الضرر ما يربو على الضرر الذى ساقه المانعون .

والذى تطمئن إليه نفسى أن فى كلا القولين مغالاة ، وأنه فى الإمكان أن نجتمع على كلمة سواء ؛ وذلك لأن من دقق النظر فيما نقل عن السلف من مسائل ردها بعض العلماء إلى القول برعاية المصالح نجد أن الشارع اعتبر تلك المصلحة بأى وجه من وجوه الاعتبار التى تحدثت عنها تفصيلا فى المقال الرابع وإجمالا فى المقال الخامس ؛ ولذا يبدو لى أن المصالح ليست منقسمة إلى ثلاثة أقسام معتبرة وملغاة ومرسلة بل هى منقسمة إلى قسمين :

معتبرة وملغاة ؛ وإن المصالح المسماة بالمصالح المرسلة لابد وأن يكون لها شاهد من الشرع ولو فى الجملة كأن يرتب الشارع حكما على مصلحة من جنس هذه المصلحة إلى غير ذلك من وجوه الاعتبار ، وأما القول بأن هذه المصالح ليس لهـا شاهد أصلا من الشرع بالاعتبار أو الإلغاء فهذا ما ينقضه الواقع ؛ ولنتتبع المسائل التى نسبت إلى الصحابة والتابعين وقيل إنها مردودة إلى المصالح المرسلة لنرى أهى ـ حقا ـ لا شاهد لها من الشرع .

١ ـ جمع الصديق رضى الله عنه الصحف التى كان مدونا بها القرآن الكريم ، وهذا الأمر أبعد ما يكون عن المصالح المرسلة ؛ فهذا يرجع إلى أصـل ثابت بالنص من الكتاب والسنة أليس من أصـول الدين المحافظة على الكتاب بأية وسيلة من الوسائل « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [1] « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشـتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » [2] ، وهذه الآية وإن كانت فيمن سبقنا من الأمم ولكن فيها تحذير لنا من الكتمان وعدم الإبلاغ ؛ والآيات فى هذا المقام كثيرة كلها تحض على عدم تحريف كلام الله ووجوب إبلاغه والمحافظة عليه ، ولما كان جمع الصحف خشية الضياع هو الوسيلة إلى ذلك لذا رأى الخليفة الأول رضى الله عنه وجوبه فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ وإذا كان رضى الله عنه تردد فى ذلك فهو تردد المؤمن المتخوف حتى إذا استبان له وجـه الحق أقدم إقدام المؤمن المتثبت ؛ وهذا هو خلق المؤمن لا يقدم على الأمر متهوراً ولكنه يقدم عليه متثبتاً .

٢ ـ استخلافه رضى الله عنه لعمر رضى الله عنه .

وهذا ـ أيضاً ـ يرجع إلى أصل ثابت بالنص وهو اتقاء الفتنة : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » [1] ، والظرف الذى استخلفه فيـه كانت الدولة الإسلامية الناشئة تحارب أكبر دولتين عرفهما التاريخ القديم وهما فارس والروم ؛ فهل يترك الأمر ليفتح باب الفتنة فى أخطر مراحل التاريخ على أن الخلافة فى نهاية الأمر مردها إلى البيعة ؛ ولم يكن هـذا الاستخلاف من أبى بكر إلا نصحا للأمة باختيار من يرى أنه قادر على حمل هذا العبء

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٧ .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

فى هذا الوقت ، ولو كان فى هذا الاستخلاف شهوة لنفسه لكان له فى ولده أو أهل بيته وقرابته من يكل إليهم هذا الأمر الخطير ، ولقد كان الخير لهذه الأمة ما أقدم عليه أبو بكر فتاريخ عمر مفخرة لكل مسلم بل هو مفخرة للإنسانية كلها .

٣ — حرب أبى بكر رضى الله عنه لمانعى الزكاة ، وماذا فى ذلك من مصلحة مرسلة ؟ !! أليست الزكاة ركناً من أركان الإسلام وعلى ولى الأمر أن يراقب الأمة فى تنفيذ حكم الله ، وإلا فما هى وظيفته ، أهى أبهة الحكم ومظاهر السلطان ، ثم ألم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجبى الزكاة من المسلمين « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (١) .

٤ — إمضاء عمر رضى الله عنه الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا وقد كان واحدة .

وهذه المسألة - أيضا - لما شاهد من الشرع ، فقد أسند عبد الرازق عن عبادة ابن الصامت إن أباه طلق زوجته ألف تطليقة فانطلق عبادة فسأل النبى صلى الله عليه وسلم : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بانت بثلاث فى معصية الله تعالى ، وبقى تسعمائة وسبع وتسعون عدوانا وظلما إن شاء عذبه بها وإن شاء غفر له » .

وفى بعض الروايات من حديث طلاق ابن عمر لامرأته فى الحيض أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله « أرأيت لو طلقتها ثلاثا أكان يحل لى أن أراجعها فقال : لا كانت تبين منك وكانت معصية » .

فأنت ترى أن ما أخذ به عمر فى أمر الطلاق الثلاث له أصل عن صاحب الشرع ؛ ولعل كثرة التطليق بالثلاث بلفظ واحد فى عهده جعله يلتمس دليلا فيه شىء من التشديد والتأديب حتى وجده ؛ وصحة خبر عند أحد المجتهدين وعدم صحته عند غيره أمر كثير الوقوع ؛ على أن قوله تعالى : « الطلاق مرتان » (١) ، يحتمل من وجه بعيد أن الطلقتين مجتمعتان أو متفرقتان ؛ وعمر رضى الله عنه أخذ بهذا الاحتمال نظراً لما رآه من المصلحة ، ولا سيما بعد أن سقط الحديثين المتقدمين ، ولهذا رأينا من جاء بعده من الخلفاء أنفذوا رأيه ؛ وذلك لما رأوه من أدلة تشهد له عن صاحب الشرع .

وهذا الذى قررناه يؤكد ماسبق أن قررته فى أوائل هذا البحث أنه يجوز الأخذ بالرأى المرجوح - إن لم يكن ساقطا - إذا كان الأخذ به

(١) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٩ .

يحقق مصلحة راجحة أو يدفـــع ضرراً أعظم .

٥ ـــ منعه رضى الله عنـه المؤلفة قلوبهم من أخذ الزكاة

وهذا ـ أيضا ـ ليس من قبيل المصالح المرسلة بل هو أعمال للنص ؛ وذلك لأن الذين حرمهم من سهمهم فى الزكاة وهم : الزبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس وجماعتهما لم يكونوا يستحقون الزكاة بذواتهم وإنمـا استحقوها بصفتهم من المؤلفة قلوبهم ومن المعروف عنـد من له خبرة بأصول الفقه أنه تعليق الحكم بمشتق يؤذن بعلية المصدر ؛ وهو ـ هنا ـ التأليف ؛ وهؤلاء قوم أسلموا من عهد رسول الله وأعطاهم الرسول صلوات الله وسلامه من سهم المؤلفة قلوبهم لحاجة الدولة إلى التأليف وحاجتهم هم إلى التثبيت ؛ وحينما منعهم عمر كانت الدولة الإسلامية تضرب كسرى على أم رأسه كما تضرب قيصر على قفاه ، فهل هى فى حاجة إلى تأليف أمثال الزبرقان والأقرع ولا سيما وقد مضى على دخولهم الإسلام مدة كافية يتذوقون فيها الإيمـان من غير أن يكون لهم حافز من مال ؛ ولو أن عمر رضى الله عنه وجد فى عهده داع إلى التأليف لـكان أول من يعطيهم من مال الزكاة ؛ فمنع المؤلفة قلوبهم لم يكن استصلاحا وإنمـا كان تطبيقا دقيقاً للنص الشرعى .

٦ ـــ وضع الخراج على الأرض المفتوحة وعدم توزيعها على الغزاة الفاتحين .

وقد أغنانا رضى الله عنه مؤونة الرد على من يقول : إنه فعل ذلك تشهيا أو استصلاحا فقد استدل على وجهة نظـره بآيات سورة الحشـر التى وردت فى أمر الفئ من الآية السـابعة إلى الآية العاشرة وفيها « ما أفاء الله على رسوله من أهـل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منـــكم » وفى الآية العاشرة « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » ولهذا كان يقول لمن عارضه : وماذا نترك للذرارى ... ؟ إلى أن واجههم بآيات سورة الحشر فنزلوا على رأيه نزولا على حكم الله لا على حكم عمر .

٧ ـــ تدوين الدواوين وإنشاء السجون .

وهذا أيضا ـ له شاهد من الشرع فإن حفظ مال الأمة وإعداد القوة من مقاصد الشريعة وتدوين الدواوين وسيلة إلى حفظ الأموال ومعرفة القادرين على الجهاد ، وكما قلنا : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ وإنشاء السجون نفى من الأرض ؛ وقد شهد الشارع لهذا المبدأ

فقد قال تعالى فى شأن الساعين فى الأرض بالفساد : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض »[١] : . .

٨ — نفيه نصر بن حجاج ولم يكن قد ارتكب جريمة .

وهذا - أيضا - يرجع إلى أصل شرعى وهو اتقاء الفتنة ، ولم يكن نفيه عقوبة له وإنما خشية افتتان النساء به ، ولا سيما أن كثرة من الرجال المقيمين بالمدينة كانوا غائبين فى الغزوات ؛ ولا شك أنه كفل له أسباب الراحة ؛ وهذا إجراء وقائى يقره الإسلام فإن الوقاية خير من العلاج .

٩ — تعطيل حد السرقة عام الرمادة .

وهذا - أيضا - له شاهد من الشرع ؛ فإن المجاعة شبهة قوية كافية لإسقاط حد السرقة تحقيقا لقوله صلى الله عليه وسلم « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

١٠ — جمع عثمان بن عفان رضى الله للمصحف وكتابته وأمره بحرق ما سواه .

وما قلناه فى جمع أبى بكر للمصحف يقال هنا والأمر بإحراق ما عدا مصحف عثمان سد باب الفتنة وهو أصل مشروع ؛ والاحتياط الذى اتخذه عثمان عند كتابة المصحف كفيل فى صيانة الكتاب العزيز عن التحريف .

١١ — توريثه زوجة الفار وهو الذى طلق زوجته فى مرض موته حتى لا ترثه .

وهذا الحكم له شاهد من الشرع بطريق القياس على حرمان القاتل من ميراث المقتول لأنه استعجل أمرا قبل أوانه . فنأخذ من ذلك أن من مبادئ الشريعة أن سيء القصد - متى قامت الدلائل على سوء قصده - يعامل بغير قصده .

١٢ — تحريق على كرم الله وجهه لغلاة الرافضة الذين ادعوا ألوهيته فلقبح جريمتهم وله أصل شاهد له من الشرع وهو تسميل عيون العرنيين الذين قابلوا إحسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بقتل رعاة إبل الصدقة واستياقها ، على أن جريمة غلاة الرافضة أفحش ، ولقد لجأ رضى الله عنه إلى ذلك زيادة منه فى التبرؤ من دعواهم الكاذبة .

١٣ — تحريق الصحابة لمن ارتكبوا جريمة قوم لوط عليه السلام .

إن الذى يرجع إلى آراء الصحابة فى هذه المسألة يجدهم حريصين على الاستناد إلى نص شرعى فى هذه المسألة فقد اختلف رأيهم فى هؤلاء المجرمين نظراً لأنه لم يرد نص صريح فى تحديد

(١) المائدة ٣٣

عقوبة لهم، لأن هذه الجريمة الشنعاء لم تكن معروفة في البيئة العربية حين كان ينزل القرآن، فلما اختلط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى سرت العدوى إلى المجتمع الإسلامي واختلفوا في تحديد العقوبة التي تنزل بهم فمن قائل يعاقبون بحد الزنا الجلد إن لم يكن محصنا والرجم إن كان محصنا، لأنه انتهاك حرمة فرج آدمي محرم، ومن قائل أنه يرمى من شاهق جبل لأن الله عاقب قوم لوط بأن قلب ديارهم فجعل عاليها سافلها «فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها(١)»، «فأخذتهم الصيحة مشرقين، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل(٢)».

ومن قائل بالتحريق لأن الله حرق قرى قوم لوط، ففي سورة هود «فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد(٣)»، وفي قوله تعالى «وما هي من الظالمين ببعيد» إشارة إلى أن التحريق جزاء من ارتكب مثل جريمتهم.

فأنت ترى أن مافعله الصحابة مع هؤلاء كان له شاهد من الشرع.

١٤ — وضع النقط وعلامات الإعراب في المصحف في عهد التابعين.

يرجع هذا إلى أصل شرعي وهو المحافظة على الكتاب من التحريف والتبديل وهو من أوائل مقاصد الشريعة، ومقدمة الواجب والوسيلة إليه واجبة كما قررناه أكثر من مرة.

١٥ — تدوين الحديث وفتاوى الصحابة في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

هذا - أيضا - يرجع إلى حفظ الشريعة وفيه امتثال لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه «نضر الله وجه امرىء سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها».

ولما زال المانع من التدوين وهو خشية اختلاط القرآن بالسنة بعد أن انتشر الحفاظ في بقاع الأرض وكثرت المصاحف وأمن من اللبس كان من الواجب أن تدون السنة خشية اندراسها، وحفظ الدين من مقاصد التشريع الأولى كما قلت آنفا.

بعد هذا يمكن أن أقرر مطمئنا أن ما يسمى بالمصلحة المرسلة لا بد وأن يكون لها شاهد باعتبار الشارع بأي نوع من وجوه الاعتبار، وليس من الواجب أن نعتبرها بذاتها بل يكفي أن يعتبر نوعها أو جنسها، ومن هنا أستطيع أن أجزم أن المصلحة المرسلة

---

(١) هود ٨٢.

(٢) الحجر ٧٣، ٧٤

(٣) هود ٨٢، ٨٣

ليست دليلا مستقلا ؛ بل هي ترجع إما إلى الكتاب والسنة أو الإجماع أو القياس مع التوسع في تطبيقه .

هذا ومن اعتبر المصلحة دليلا مستقلا أجاز أن يخصص بها عمومات الكتاب والسنة من باب أولى ؛ وذلك لأن دلالة العام ظنية ـ عند الجمهور سوى الحنفية ـ والمصلحة ظنية والظنى يخصص الظنى .

* * *

وبعد فإن باب الاستصلاح فى الشريعة خطير جدا ، وعندى أنه ـ صيانة للشريعة من عبث العابثين وتبرئة لها من الجمود ـ لابد عند عرض مثل هذه الأحوال للفتيا أو للتقنين أن يعرض الأمر على جماعة عرفوا بالعدالة أولا وبالتعمق فى فهم الشريعة ثانيا مع قوم متخصصين فى دراسة حقائق هذه المسائل لمعرفة ما فيها من مضار ومنافع وأن تعقد مقارنة وموازنة صادقة بين الضرر والنفع ، فإذا اطمأنوا إلى أن ناحية النفع أرجح من ناحية الضرر يجىء دور رجال الفقه الإسلامى للنظر فى هذه المصلحة من ناحية اعتبار الشارع لها ؛ فإن كانت مصلحة ملغاة صرف النظر عنها مهما كان فيها من نفع ، فالله أعلم بمصالح عباده من أنفسهم ، فإذا لم تكن ملغاة ، نظروا ثانية : هل لها شاهد من الشرع بأى وجه من وجوه الاعتبار ، فإن وجد هذا الشاهد ولو بعيداً أخذنا به ؛ وإلا رجعنا إلى قواعد الشريعة العامة وكالأصل فى الأشياء الإباحة : « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » إلى غير ذلك من القواعد الفقهية المستنبطة من تتبع أحكام الله للعباد .

ثم إن دعوى تطوير الأحكام الشرعية اتباعا للأهواء والأغراض خروج على الدين لا يقره مسلم مهما ألبسناه من زخارف القول وصدق الله العظيم إذ يقول : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » [1] ؟

بدر المتولى عبد الباسط

(١) سورة المائدة الآية ٤٩ ، ٥٠ .

القدرة اللغوية عند أبي العلاء

للأستاذ كامل السيد شاهين

١ — حدث صاحب الأمالي عن أبي بكر ابن أبي حاتم عن الأصمعي ، أن خلفاً الأحمر قال يوماً لأصحابه : ما تقولون في بيت النمر بن تولب :

ألم بصحبتي وهم هجود
خيال طارق من أم حصن

لو كان موضع (أم حصن) ، أم حفص ، كيف كان يكون قوله :

لها ما تشتهي ، عسل مصفى
إذا شاءت ، وحواري بسمن

قالوا : لا نعلم ، فقال : وحواري بلمص[1] انتهى .

ووقف أبو العلاء على هذا الخبر ، وكأنه استشعر أن في سؤال خلف ، وعجز أصحابه ، وإفادته إياهم بالقافية المناسبة ، إدلالا من خلف بالمعرفة . . فأبى عليه شيطان اللغة إلا أن يعبث بخلف وعلمه ، فأدار حرف الروي في البيت الأول على سائر حروف المعجم ، واستطاع أن يلائم بين البيت الثاني والبيت الأول في حرف الروي .

قال أبو العلاء بعد أن ساق حكاية خلف وأصحابه :

« ويفرع على هذه الحكاية فيقال :

لو كان مكان أم حصن ، أم جزء ، وآخره همزة ، ما كان يقال في القافية الثانية ؟ فإنه يحتمل أن يقول : وحواري بكشء ، من قولهم : كشأت اللحم إذا شويته حتى ييبس ، ولو قال : وحواري بنسء ، لجاز ، وأحسن ما يتأول فيه أن يكون من نسأ الله في أجله أي لها خبز مع طول حياة ، وهذا أحسن من أن يحمل على أن النسء : اللبن الكثير الماء ، وقد قيل إن النسء الخمر ، وفسروا بيت عروة بن الورد على الوجهين :

سقوني النسء ثم تكنفوني
عداة الله من كذب وزور

(١) أمالي القالي ، ج ١ ص ١٥٧ ، والحواري : الدقيق الأبيض ، والخبز ، واللمص : الفالوذ .

ولو حمل حوارى بغسىء على اللبن أو الخمر لجاز ، لأن الحوارى تؤكل بذلك ، أى لهما الحوارى مع الخمر ، وقد حدث محدث أنه رأى « بسيل » ملك الروم ، وهو يغمس خبزا فى خمر ويصيب منه » .

ثم يمضى أبو العلاء فيغير الروى إلى حرف الباء ، فيجعلها : أم حرب ، ويجىء البيت الثانى : وحوارى بصرب ، أو بإرب ، أو بكشب [1] .

ثم يغيره إلى أم صمت ، وأم شث ، وأم لج وأم شح ، وأم دخ ، وأم سعد ، وأم وقذ ، وأم عمرو ، وأم كرز ، حتى يصل إلى أواخر الحروف ، فيأتيك بأم دو ، وأم كره ، وأم شرى .

أفلست ترى أبا العلاء بهذا يتحدى خلفا ، ويزعم له أنه أعرف منه باللغة ، وأنه إذا كان خلف يستطيع أن يغير الروى فى صورة فأبو العلاء قادر على أن يغيره فى خمس وعشرين .. وأنه فى كل صورة منها لا يكتفى بوجه واحد بل يزيدك على الوجه وجهين أو أكثر .

ثم إن لنا أن نسأل : ما الذى أغرى أبا العلاء بهذه المعاياة ؟ ، أو ليس ذلك لأنه يعرف من نفسه قدرة لغوية خاصة لم تتح لكثير من مشهورى الرواة وعلماء اللغة ؟ .

ومهما يكن من شىء فمعرفة أبى العلاء باللغة يمكننا أن نستبينها فى رسالة الغفران ، وفى الفصول والغايات .. ويظهر أن هذه القدرة تهيأت له فى صدر شبابه ، لأن فى قصائده السقطيات ما يدلك دلالة واضحة على استبحار الشاعر وتمكنه .

٢ — وليست معرفة أبى العلاء باللغة معرفة قاموسية ، بل هى إلى ذلك معرفة شعور وإحساس وخبرة بأجواء الألفاظ وفوحها والقارىء لقصيدته [1] التى مطلعها :

مكة أقوت من بنى الدرديبس
فما لجنى بها من حسيس

وفيها يذكر الجنى (خيتعور) الملقب بـ (أبى هدرش) ما آل إليه أمر مكة بعد نزول القرآن ، وظهور النبى عليه الصلاة والسلام ، من بعد ما كانت مسرحا للجنان الذين يصفهم بأنهم :

بيض ، بهاليل ، ثقال ، يعا
ليل ، كرام ، ينطقون الهسيس

(١) الصرب بالصاد المهملة : اللبن الحامض ، والإرب : العضو من الشواء أو القديد ، والكشب : أكل الشواء .

(١) هى قصيدة نظمها أبو العلاء على لسان الجنى وفيها ضروب من الغواية التى يرتكبها الشياطين لأبناء آدم .

يرى كيف اختار قافيتها (حينا) ، لما فيها من الصفير ، ولأن لفظها من جوهر الغنة(١) ولأنها تناسب ما فى حديث الشيطان من الوسوسة والخفاء الذى يورث الرهبة والمخافة ثم جاء بها ساكنة ليكون ذلك أمد فى لفظها وأجرى للنفس بها ، وأظهر للصفير فيها .

ثم أشاعها فى القصيدة كلها حتى تحس كأن الجو كله من حولك جو شيطانى خفى هامس غامض مريب .

وفى تسمية الجنى (خيتعورا) ، وتلقيبه (أبا هدرش) ، وجعل بنى الجن (بنى الدردبيس) إشعار بأن لدى أبى العلاء إحساساً لغويا يهيىء له وضع ألفاظ مناسبة لما بين يديه .

على أن المعانى التى تناولها أبو العلاء فى هذه القصيدة من التشيطن بسبب قوى ، فهو يصف : كيف كان يغار على العروس فيتخلجها بواشك الصرعة ، قبل أن تزف ، وكيف كان يزين للشاب والشيخ أن يفرغ كيسا فى الخنا بعد كيس ، وكيف كان يخرج الحسناء مطرودة من بيتها بلا سبب إلا سوء الظن ، ويغرى زوجها بأن يبت طلاقها ، حتى إذا صارت إلى غيره هاجت نفسه إليها :

نذكره منها وقد زوجت
ثغرا كدر فى مدام غريس

ويتحدث عن الراهب المتبتل كيف يخدعه عن فصحه بعدما مل أكل السمك ، قال :

ويخدع القسيس عن فصحه
من بعد ما ملّ بالانقليس

أصبح مشتاقا إلى لذة
محللا بالصرف أو بالخفيس

أقسم لا يشرب إلا دوين
السكر ، والبازل تالى السديس

قلنا له ازدد قدحا واحداً
ما أنت أن تزداده بالوكيس

فصب فيهـــا ، فوهى لبه
وصُــكَّ من آل العين الرجيس

حتى يفيض الفم منه على
نُمرقتيه بالشراب القليس

فأبو هدرش يخدع هذا القسيس الراهب بعد ما صام فصحه طاهرا متقشفا ، معرضا عن اللحم الحرام إلى الأنقليس (الحوت) الحلال ، وأصبح فى شوق إلى الخمر صرفا أو ممزوجة ، ثم خدع نفسه فأقسم ألا ينال منها إلا دون السكر ، ولكن كلما هم بالكف أغراه الشيطان بالمزيد . قدح واحد ! ما أنت

---

(١) جمهرة ابن دريد .

إن تزدنه بالخاسر ، حتى صب ، فغدا واهى اللب ، من آل الشيطان الرجيس !

شرب القسيس حتى تحبب ، وكان عاقبة ذلك أن فاض فمه بالخمر القليس على نمرقيته فياله من منظر مخجل ، ووارحمتا لبنى آدم المساكين من كيد الشياطين ! .

* * *

وكذلك يفعل أبو العلاء فى موضع آخر عندما يُشهدك امرأة عجوزا همة توصى ولدها الا يتزوج ، فإنها شاخت ويبس جنباها ، وأصبح شعرها أبيض قصيرا متفرقا كأنه الثغام ... وهى تخشى أن تهزأ منها زوجه الشابة بما فيها من طراءة الصبا ووفرة الشعر :

فحن إلى المكارم والمعالى
ولا تثقل مطاك بعبء حَنه
فإنى قد كبرتُ ، وما كعاب
ملائمـــة عجوزا مقسئنة
ترى تنومها وترى ثغامى
فتهزأ من مُنهبلة مُسنة (١)

ثم تذكر شبابها الدابر ، وما كان عليه شعرها من وفرة وسواد .

فإن يبيض للحدثان فودى
فقد أغدو بفود كالدجنه

إذا ما السارحات نظرن فيه
عجبن لما سرحن وما دهنه

ثم تحذره من خـــداع الدلالات الدواهى اللاتى

يقلن : فلانة ابنة خـــير قوم
شفاء للعيون إذا شفنه

وأنها رزان رجاح بجدولة القد جدل الأعنة ... فأولئك يتجرن بالكذب .

أولئك ما أتين بنصح خل
ولا دين المليك ولايدنه
ولو طاوعتهن لجئن يوما
بأخبث الغول ، والنصف الضفنة (١)

فالحديث حديث نساء عن نساء ، ولذلك التمس له أبو العلاء قافية تجمع النون المشددة والهاء الساكنة : قافية نسوية مخنثة وجاء بها على زنة الوافر ، والوافر يصلح للأداء العاطـــفى غضبا أم حماسا أم رقة وحنينا .

وعندما عرض للأوصاف القبيحة استعان عليها باللفظ المستفظع الذى يفيدك القبح بمخارجه من قبل أن يكشف عن معناه فهى مقسئنة ، وهى منهبلة . والدلالات جئن بالنصف الضفنة : ويزيد على ذلك أنه

---

(١) المقسئنة : اليابسة . والمنهبلة : الضعيفة للهى والتنوم : شجر عزيز الفروع سابغها .

(١) الضفنة : المسترخية المترهلة المستفيضة البطن.

يعطى نوعا من الطرافة والتفكه لا تعطيه الكلمات المكافئة لها فى المعنى :

بينما تجده إذ يعرض للأوصاف الحسنة يجىء بألفاظ حلوة مشوقة (رزان الحلم رجاح ، شفاء العيون ، جدلت كجدل الأعنة ، كعاب ، تنوم) .

واختيار الألفاظ ووضعها فى المواضع التى تشيع فيها الجو المناسب ، من أدق المعايير التى يوزن بهما الشاعر القادر ، والشاعر العاجز .

وأبو العلاء دائما قادر على أن يخلط الجد بالهزل ، وروح الفكاهة لا يفارق هذا الضرير السوداوى المزاج .

فبينما تراه جاداً كل الجد ، إذ تراه يهتك هذا الجد بفكاهة تدفعك إلى ضحك يهز كيانك هزا : وهذا مالا تظفر به إلا عند أمثال الفرزدق من الفحول القروم . خذ مثلا لذلك قوله :

نار لها ضرمية كرمية
تأريثها إرث من الأسلاف

تسقيك والأرى الضريب ولو عدت
نهى الإله لثلثت بسلاف

وهنا نجد نارا متضرمة ، شبت للقرى ، يورثها الأبناء بعد الآباء . ونجد بعد الطعام سقيا ، من اللبن المخلوط ، والعسل المصفى ...

ولولا نهى الإله لكانت السلاف ثالثتهما ثم يقول :

وإذا تضيفت النعام ضياءها
حمل الهبيد لها مع الألطاف

ماذا ؟ إذا جاءت النعام على ضوء النار تبتغى القرى ، وجدت ضيافتها هبيدا أى حنظلا ، وألطافا أخرى ، من قطع الحديد والمرو ! يحملها الغلمان على الصحاف ، ويسعون بها بين يدى ضيوفهم من النعام ! .

ألا يذكرنا هـــذا بقوله فى الشريف الموسوى يذكر كرمه وهو فى قبره :

إن زاره الموتى كساهم فى البلى
أكفان أبلج مكرم الأضياف

ونظير ذلك قوله فى الحديث عن أمه :

لولا رجاء لقائها لما تبعت
عنسى دليلا كسر الغمد إصليتا

وصف الدليل بأنه مشوق ضامر كالسيف الماضى .

ثم قال .

ولا صحبت ذئاب الإنس طاوية
تراقب الجدى فى الخضراء مسبوتا

جعل اللصوص ذئاب الإنس . ولما كانوا ذئابا فإنهم يطمعون الجداء وهؤلاء اللصوص الطاوون يترقبون جدى السماء وهو برج

من أبراجها ينتظرون نعاسه ليصيدوه ويأكلوه.

وربما يكون في كلام الجنى السابق وفي حديث العجوز ما يعزز إدعاءنا في مقدرة أبى العلاء على إشاعة الفكاهة.

٤ — والقدرة اللغوية مكنت أبا العلاء من الظفر بالتجنيس في عفوية تارة، وعلى استكراه تارة، ولقد يعد أبو العلاء أحذق من تعاطى هذا النوع من المهارة اللفظية في العربية.

وقد تعاطاه أبو تمام قبله، ولكنه كان يقرح فيه جفنه، فإذا ناله ناله وجبينه يتفصد عرقا!

وتعاطاه الصفى الحلى، وابن نباته بعده، ولكنهما كانا يرصدانه ويعدانه إعداد، فأما أبو العلاء فكان إذا أراده صاده، لوفرة محصوله، وطواعية اللغة في يديه.

* * *

والتجنيس في ذاته قتب أشرس، ذلك بأنه لا يحس حتى يكون موقع الكلمتين المتجانستين من العقل موقعا جيدا.

والمعانى لا تدين في كل موضع لما يجتذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعانى والمصرفة في حكمها، ولن تجد حكما أعدل من أن ترسل المعانى على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ التى تناسبها، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها [١].

وأنت تجد لأبى العلاء الحلو المقبول الذى يزيد في الترنم ويلذ في الأفواه، وتجد منه الوبيل المستوخم، الذى خزم من أنفه، ثم أنيخ على الصخر الأصم.

وتتبع الجناس عند أبى العلاء أمر يطول ولكننا نضرب أمثلة الحسن، وأخرى القبيح:

فأما الحسن فتجده في مثل قوله في حديثه عن الإبل:

أأبغى لها شرا، ولم أر مثلها
سفائن ليل، أو سفائر آل

وقوله في شأن حنين الإبل:

لعل كراها قد أراها جذابها
ذوائب طلح بالعقيق وضال

وقوله في شأن الحمام:

ترى كل خطباء الجناح كأنها
خطيب تنمى في الفضيض من الينع

إذا وطئته عوداً برجل حسبتها
ثقيلة حجل، تلبس العود ذا الشرع [٢]

وقوله في شأن إحدى الأعرابيات:

ألفت الملا، حتى تعلمت بالفلا
رنو الطلا، أو صنعة الآل بالخدع

---

(١) أسرار البلاغة.

(٢) العود الأول: الغصن، والثانى: عود الغناء الذى يضرب عليه والحجل: الخلخال.

وأما الرذل المقيت ، فتجده في مثل قوله :

وعمرو هند كأن الله صوره

عمرو بن هند ، يسوم الناس تعنيتا

فالعمر الأول واحد العمور ، وهي خرزة حمراء كثيرة الماء تكون في القرطة ، وعمرو بن هند أحد ملوك الحيرة ، كان لصرامته وشدة سطوته يلقب (بمضرط الحجارة) .

فماذا يشق من أمر هذه الخرزة على العاشقين فيمنتهم إعنات عمرو بن هند للناس؟!

وأشد منه عند الله والناس مقتا قوله في المطايا :

مطا يامطايا وجدكن منازل

متى زل عنها ليس عنى بمقلع

مطا ، بمعنى مد ، يامطايا : نداء ومنادى ، ومنازل فاعل مطا ، أي مد وجدكن ربوع من ديار الحبيبة .

بمعنى قدر ، وزل عنها أى أخطأها ، يريد أن قدراً أخطأها فبقيت ماثلة ، وأصابني فبليت وما بقيت .

قال الخوارزمي : ولقد أحسن في التجنيس وأبدع ! . وعجبي لهذا الأديب الفاضل كيف يستحسن هذا النوع من التجنيس ، ورقى العقارب أكثر منه وضوحا ... على أن المعنى بعد ذلك بالغ غاية السقم .

ومن الجناس الرذل ما هو حسن في ذاته ، ولكن عاد الموضوع عليه بالاستهجان ... كما ترى في قول أبي العلاء يرثى :

خلو فؤادي بالمودة إخلال

وإبلال جسمي في طلابك إبلال

ولي حاجة عند المنية ، فتسكها

بروحي ، والأهواء مذكن أهوال

فالجناس في هذا المقام خطيئة نكراء ، فإن الطالب للجناس المتحرى له لابد أن يكون فارغ القلب بعيداً عن الانفعال ... فإن المنفعل لا يمكن أن يغلب من انفعاله ليتسكع في دروب المحسنات ، وبخاصة هذا النمط الصعب ...

وليت شعرى عن أبي جعفر المنصور ، إذ قال في شأن أبي ذؤيب ، وقد استرسل من رثاء أولاده إلى وصف حمر الوحش ... قال أبو جعفر : (الآن سلا أبو ذؤيب) .

فماذا كان يقول لو سمع المعرى يبتدئ رثاءه لأمه بالخلو والإخلال والإبلاء والإبلال والأهواء والأهوال ؟

— • —

وإذ كان التزام ما لا يلزم ، من أبرز مظاهر القدرة اللغوية ، وقد ذهب أبو العلاء في هذا النوع بشهرة لا تنازع فقد أعرضنا عن الإطالة بشرحها في هذا المجال ؟

كامل السيد شاهين

الإنسان المعاصر والقيم الروحية :

ما وراء المحسوس في فلسفة الجمال ومذاهب الفن

للأستاذ فتحي عثمان

جولة استطلاع لآراء الفلاسفة ومذاهب الفن ، تومىء في جلاء إلى إشعاعات ما وراء المحسوس التي تومض من خلال الحكايات والتعريفات والتحليلات ، مهما اختلفت المنازع والمذاهب والأفكار !!

إن ديدرو مثلا Diderot (١٧١٣/١٧٨٤م) يرى أن الفن عملية فكرية حقا ، ولكنه لا يلبث أن يصرح في مواضع أنه : « لا بد من الحميا الفنية بما تستلزمه من رهف الإحساس وقوة العاطفة » والدكتور غنيمي هلال يفسر ذلك بأن ديدرو ربما كان يريد من الفنان أن يكون قوي الذوق والعاطفة في أثناء الإحساس والالتقاط ، لكنه عندما يمارس التعبير الفني يجب أن يغلب عقله وإدراكه في نقل التجربة وفي تصويرها ، إذ أن العاطفة المشبوبة كالإحساسات الحادة عمليه خرساء لا تبين عن نفسها ، وقد يكون هذا نواة لرأي بندتو كروتشيه في ضرورة تمثيل العاطفة قبل محاولة التعبير الفني عنها .

وقد خاض ديدرو محاولات دقيقة للتمييز والتفرقة في مجالات المعاني والمعنويات ، لقد فرق بين الجمال واللذة ، فأقام معنى الجمال على إدراك العلاقات بين الأشياء والأجزاء ، أما ما يصل عن طريق حاستي الذوق والشم كالأطعمة والروائح فهو يوصف باللذة والطيب لا بالجمال ! كما فرق ديدرو بين الجمال والمنفعة فالإعجاب بالجمال ذاتي في مبدئه لا يعبأ بالمنفعة أفلا يحدث في كثير من الأحيان أن يهجر المرء الشيء النافع من أجل شيء جميل ؟ على أن ديدرو يرى أن الحق والخير والجمال بينها وشائج وثيقة وإذا أضيفت إلى الحق والخير بعض الصفات النادرة الوضاءة فسيصير الحق جميلا والخير جميلا ، وهو يعرف الذوق بأنه قوة مكتسبة بالتجارب المتكررة ، بها يتيسر فهم الحق أو الخير في حالة يصير بها كلاهما جميلا بحيث ينتج به التأثير السريع القوي ، بل إنه ليرى أن واجب كل فنان كريم هو تصوير الفضيلة محبوبة ، والرذيلة بغيضة !

وجاء كانت (١٧٢٤ / ١٨٠٤ م) Kant ففرق بين الحكم الجمالي والحكم العقلي أو الخلقي ... إن الحكم الجمالي يصدر عن الذوق والذوق يصدره عن رضا لاتدفع إليه منفعة في حين أن اللذة الحسية تتطلب التملك والرضا الخلقي يتطلب تحقيق موضوعه ، إن الجمال هو الصورة الغائية لموضوعه !.

وإذا كان الحكم تقريرا الحقيقة عن طريق التجربة ، أو برهنة نظرية على قضية علمية يسلم بها ضرورة ، أو بمجرد احتمال منطقى ، فإن الجمال هو خاصة تقرير مايدرك ضرورة إدراكا ذاتيا ابتداء ، لكنه موضوعى من ناحية التصور بافتراض عموم الشعور به لدى ذوى الأذواق ، فالجميل هو ما يعترف له بهذه الصفة لأنه مصدر شعور ذاتى بالرضا به دون حاجة إلى أفكار وأقيسة يتطلبها الحكم الموضوعى .

على أن « كانت » يقرر صلة صريحة بين الجمال — طبيعيا كان أم فنيا — وبين الخلق فهو يقرر : أن الحكم الجمالى يصدر عن الذوق وفيه إرضاء للوعى الجمالى بأن يكون الشىء الجميل مصدر متعة جمالية ، والأمر الذى يكاد يحس المرء أنه خاضع له ومستجيب حين يصدر الحكم الجمالى ليس أمرا منطقيا أو تجريبيا — كما هو الحال فى القضايا الرياضية أو الطبيعية ، وإنما هو أمر يقارن بالأمر الخلقى فى صدوره عن الوعى الجمالى الفردى . فالشخص الذى يفكر فى شىء جميل ، يخضع له خضوعا قريبا من خضوعه العقلى حين يفكر فى الطبيعة ، وقريبا من خضوعه للمبدأ الخلقى فى ذاته .

وتتضمن المثالية فى الجمال التعبير عما هو خلقى ، أى عما هو رمز لما فوق الحس من الحقائق ، وبدون هذا لا يمكن لموضوع الجمال أن يصل إلى درجة يكون فيها عاليا .

وجاء فيشته (١٧٦٢ : ١٨١٤ م) Fichte متأثرا بكانت ، وقد كان يرى فى الفن تحريراً الذات من حيث هى ، وفى هذا التحرير تمهيد للحرية الحقيقية . وأما شوبنهور (١٧٨٨ : ١٨٦٠ م) Shopenhauer فقد ارتأى أن التأمل فى الجمال تأملا روحيا خالصا يهىء للاهتداء إلى الزهد المطلق أو الخلق المؤسس على الرحمة ، وقد كان الشاعر الفرنسى بودلير (١٨٢١ : ١٨٦٧م) Baudelaire وجهة نظر فى علاقة الفن بالمنفعة وبالأخلاق ، فالفن نافع لأنه الفن . وإذا كانت الرذيلة فاتنة فيجب أن توصف بأنها فاتنة ، على أن الرذيلة تجر وراءها أمراضا وآلاما خلقية فريدة يجب وصفها كذلك .

وهكذا يخوض الفلاسفة فى آفاق المثالية لاستجلاء مفهوم الجمال وخصائصه ، وتتردد

فى كلماتهم نفثات تشير إلى العالم الذى يرتادونه وراء المحسوس، سواء أكان هذا العالم هو الوجدان أو الفكر. وقد كان هيجل Hegel (١٧٧٠ : ١٨٣١ م) ذهنى المنزع، وعنده أن فكرة الجمال قد مرت فى ثلاث مراحل: ففى المرحلة الأولى سيطرت المادة على الفكرة فكان الجمال يتجلى فى العمارة - وهذه هى المرحلة الرمزية ويمثلها عند هيجل الفن الشرقى والمصرى، أما المرحلة الثانية ففيها يتعادل المضمون مع الشكل ويصور النحت فكرة الجمال فى هذه المرحلة - وهى المرحلة الكلاسيكية، ويمثلها عند هيجل الفن الإغريقى ثم تغلب الفكرة على الصورة فى آخر المراحل، وتبرز الفنون الذهنية كالموسيقى والشعر، ويطلق هيجل على هذه المرحلة المرحلة المسيحية. على أن هيجل يرى أن للفن أصوله ووسائله، وإذا كان لا ينبغى له أن يؤذى الإحساس فإنما يطلب الخالق ذلك منه باسم الجمال الذى يستهدفه الفن دون سواه.

وعن طريق التحليل الذهنى أيضا توصل بندبتو كروتشيه (١٨٦٦ : ١٩٥٢ م) Benedette Groce أن للفكر أربعة ألوان من النشاط: جانب منها نظرى أوله الحدس intuition أو التصور الصادق: وهو نشاط الفكر فى مجال الجمال، وبجانب ذلك هناك الإدراك: وهو وقوف الفكر على ما هو كونى وتوحيده مع الوعى الفردى فهو نشاط الفكر فى مجال المنطق، وفى الجانب العملى نجد: الإرادة، فإذا تعلقت بما هو فردى فإنها تتناول مجال النشاط الاقتصادى، وإذا تعلقت بما هو عالمى فإنها تتناول مجال الأخلاق.

والفكر يخلق الجمال بإنتاجه الفنى عن طريق الحدس، ويراه كروتشيه فى ذلك مستقلا عن العالم الخارجى على أن العمل الفنى ليس نتيجة الشعور فحسب، ولكنه نتيجة ذكاء وفكر وإرادة أيضا، إنه قد يعتمد على الشعور والعاطفة ولكن على أن يتخذ الفنان من هذا موضـــوع تفكير، فتفقد العاطفة بهذا التفكير والتأمل حدتها الذاتية التى كانت لها فى البدء، ويفقد الشعور عنصر الاضطراب الذاتى، إذ من خصائص الفن تحقيق موضوعية الشعور الذاتى [1].

هذه النزعة المثالية فى فلسفة الجمال صار لها عنوانها المميز ومقوماتها الخاصة فهى النزعة التعبيرية Expressionism التى كان من آثارها فى النقد ظهور المدرسة الانطباعية أو usImpressioni، أما فى الفن فقد برزت الرمزية بعد عام ١٨٨٠م، إذ الرمز هو تعبير غير مباشر عن الأغوار النفسية المستترة التى لا تنهض بتحليلها ألفاظ اللغة فى دلالاتها

---

١ — من المراجع الأساسية: مؤلفا الدكتور غنيمى هلال: المدخل إلى النقد الأدبى الحديث، الأدب المقارن

المحدودة ، فى حين يكون الرمز هو الصلة بين الذات والأشياء بحيث تتولد المشاعر من طريق الإثارة النفسية لا عن طريق القسمية والتصريح والنزوع إلى الرمز أصل وركيزة فى فلسفة «كانت» ، وعلى النقيض نجد النزوع إلى التجسيم الذى يبرز فى (البرناسيه) فالشعر يحاول مثلا أن يلحق بالموسيقى عندالرمزيين بدل أن يرتبط بالتصوير من نحت أو رسم .

على أن الرومانتيكية كانت هى التى جاءت لتضع فى المقام الأول الحساسية والخيال والتعبير الشخصى وإثبات الذات وتمجيد الغريزة ، وتميل فى تعبيراتها إلى المبالغة والتضخيم ، وكانت الحركة الرومانتيكية فى التصوير أسبق منها فى الأدب . يقول ديلا كروا (المتوفى عام ١٨٦٣ م) : « إذا كان المقصود من الرومانتيكية التعبير الحر عن انطباعاتى الشخصية ، وابتعاد عن الأنماط والنماذج التى يعاد نسخها فى المدارس دون أدنى تغيير ، ونفورى من المواصفات الأكاديمية ، فإنه من الواجب ألا أعترف فقط أننى رومانتيكى ، بل إننى كنت رومانتيكيا منذ الخامسة عشرة » ! وهكذا جاءت الرومانتيكية ثورة على القواعد والقوالب الكلاسيكية ، وانتصارا للنزعة الفردية ، وإعلاء للحساسية والعواطف على العقل ، فإذا كان الناس جميعا يشتركون فى التمتع بالعقل ، فإن ما يميز كل شخصية فى صميمها وذاتيتها هو الجانب الوجدانى وبخاصة اللاشعورى منه ، وقد بلغت الرومانتيكية ذروتها سنة ١٨٣٠ م ، وتزعمها فى الأدب (هوجو) وفى الموسيقى (برليوز) وفى التصوير (ديلا كروا) ، وكان جمهورها من الطبقة البورجوازية بعد أن كان جمهور الفن الكلاسيكى من الطبقة الارستقراطية ، وكان عصرها عصر الحركات القومية والوطنية والدستورية فى أوربا ، والخيال عند أصحاب النزعة الرومانتيكية هو الذى يولد الصور ، وهو يستطيع أن يستقل بتكوين هذه الصور دون ضرورة لاستلهام مثال من الأشياء يوجد أمامه ، ومن هنا يكون كمال الشعر فى لغته التصويرية لا فى تقريراته العقلية ، حتى يرى (كوليردج) مثلا : أن الشعر الكلاسيكى قد ضحى بالعاطفة المنطلقة المشبوبة من أجل الدقائق الذهنية والزنبات الفكرية ، إن الفنان الرومانتيكى ينبغى أن يعبر عن الطبيعة والأشياء من خلال ذاته ، فنفسه مرآة لما حوله ومن حوله ، والصور هى وسائل تجسيم المشاعر والأفكار !

وإذا كانت النزعة الرومانتيكية قد دارت عليها الدورة ، فإن ما خلفها كان شأنه شأنها وشأن ما سبقها من منازع ومذاهب فى فلسفة الجمال والفن ، لا يفتأ يومض ببريق الأشعة العجيبة الصادرة من عالم عجيب وراء المحسوس ؟

فتحى عثمان

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

٥ — قضية المرأة :

لم تتعرض نصوص الإسلام وشرائعه للزراية ، والتحريف ، والتهجم الحاقد ، في قضية من القضايا كما تعرضت في هذه القضية .

والمرأة ـ كما لا ينكر أحد من العقلاء ـ ذات رسالة سامية في الحياة ، لها مكانتها في نفوس الرجال ، ولها احترامها وتقديرها . أما ، وزوجا ، وأختا ، وبنتا .

ولئن كانت القوانين الوضعية في مختلف العصور ، والأمم ، عنيت بالنص على ما ينبغي أن تعامل به المرأة ، من البر ، والإكرام ، والتقدير ، والاحترام ، وعنيت بإعطائها حقها ، وتمكينها من أداء رسالتها ، فإن الشرائع السماوية قد عنيت بكل ذلك على أتم وجه ، وأعدله .

والإسلام ـ بخاصة ـ من بين هذه الشرائع بلغ في ذلك ما لم تبلغه شريعة سماوية ، ولا قانون وضعي .

وآية واحدة في كتاب الله تبين المدى الواسع ، والمنزل الكريم الذي وضع الله فيه بنات حواء ، وتشير ـ مع إيجازها ـ إلى غاية ما تطمح إليه كل امرأة عاقلة ، مؤمنة بربها ، خبيرة برسالتها ، بصيرة بما يضرها وبما ينفعها ، تلك هي قوله تعالى في سورة البقرة : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

وكما نهج القرآن الكريم لأتباعه طريقة سمحة كريمة في معاملة المرأة كان الرسول عليه الصلاة والسلام يكثر من الوصاة بالنساء خيرا ، حتى روى أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه ، وخفي كلامه ، وهو يحتضر ، وهذه الثلاث هي : الصلاة ، والرقيق ، والنساء وقد بدأ وصيته بالنساء بقوله : الله ، الله في النساء ، وهو أسلوب يشعر بمدى اهتمامه عليه السلام بهذه الوصية .

عرض الإسلام لكل شأن من شئون النساء في قضايا كلية واضحة ، ومسائل جزئية واضحة أيضا فجاء في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية المطهرة ، نصوص تبين ما للمرأة ، وما عليها .

كل ذلك حق ، ولكن فريقا من المنحرفين ، والمنحرفات ، يتنكرون لنصوص الإسلام ، أو يحاولون التخلص منها ، أو تحريفها حين يخوضون في هذه القضية .

فمنذ ما يقرب من عشرين عاما بلغت الجرأة

بعالم أزهرى أن يطرح الدين بعيداً عن قضية المرأة، فأرسلها دون وحى أو استحياء، إنه (ليستحى أن يقحم الدين فى مسألة نفض يده منها) هكذا جاء فى كتاب (من هنا نبدأ) للأستاذ: خالد محمد خالد، وما نظن إلا أنه نادم الآن على كل ما قاله فى فصله الغريب (الرئة المعطلة).

الدين نفض يده من قضية المرأة، كأن الإسلام أنزل للرجال دون النساء، وكأنه - كبعض النظم الوضعية الفاسدة - لا يعترف للمرأة بوجود فى هذه الحياة، وهذا شر ما يرمى به نظام من النظم سواء كان من وضع البشر، أو من وضع السماء، فكيف نتهم به الإسلام، وهو الدين الخالد الذى جاء من العليم الخبير، الحكم العدل ؟!.

وهذا المؤلف الذى استحى أن يقحم الدين فى قضية المرأة - بادئ ذى بدء - عاد فتمسح بالدين فى آخر الحديث، فقال: على أن هناك حجة حاسمة، تغنينا عن كل حجة ودليل، هى ذلك التفويض المطلق الذى منحه الدين للناس، حين قال الرسول: أنتم أعلم بشئون دنياكم، أليست هذه الحقوق السياسية من شئون الدنيا.

وعجيب أمر هؤلاء الذين يفسرون الإسلام بأهوائهم كلما واجههم قائل فى شأن من الشئون بنصوص تضيق بها صدورهم، فيلجئون إلى هذا الحديث: أنتم أعلم بشئون دنياكم، وهم يعرفون - إن أحسنا الظن بهم - المناسبة التى قيل فيها هذا الحديث، والمدى الذى لا يمكن أن يتعداه ما يشير إليه، ولكنهم يجهلون، أو يتجاهلون.

حقوق المرأة السياسية من شئون الدنيا، كأن المرأة حين تمارس هذه الحقوق تمارسها فى معزل عن المجتمع، وتقوم بها بعيداً عن الرجال، وكأن الإسلام لم يحد لظهور المرأة بين الرجال حدوداً، ولم يضع لتصرفاتها ووظيفتها فى الحياة تعاليم، وشرائع، وكأن الرسول لم يقل فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى: لن يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة، وكأنه لم يقل: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.

ولكن المؤلف لا يعترف إلا (بالتطور) فكل ما وصلت إليه المرأة استجابة لقانون التطور، من تحد السفور المعيب، والاختلاط المريب هو - عند المؤلف - (الفضيلة)، فهو يقول: (ليس هناك إثم أشد، ولا خطيئة أفحش من مقاومة التطور)، هكذا بدون قيد ولا شرط، فلا بأس أن يكون التطور إلى أسوأ، وأن يكون مجافياً للتعاليم الإسلامية، والفضائل الإسلامية.

هذا فى - الحقيقة - أنموذج فقط للانحراف فى هذه القضية، وإنما عنينا بهذا الأنموذج - على قدمه نوعاً - لندل على المدى الذى بلغه الكائدون للإسلام من بلبلة الأفكار، وإشاعة الشك فى نصوص الدين، فالمؤلف عالم، وعالم تخرج فى الأزهر الشريف، فإذا صدر منه مثل هذا القول كان من الخطورة بمكان.

فإذا جئنا إلى أيامنا هذه وجدنا عالما آخر ، وهو رجل فاضل ، وعالم متمكن ، وباحث لا نشك فى قدرته على البحث المفيد ، ولا نرتاب فى دينه ، ولا خلقه ، وجدناه مسوقا بغير قصد - إن كان ما نقل عنه صحيحاً - إلى ما لا ينبغى أن يصدر عن مثله ، فى علمه ، وفضله .

جاء فى إحدى الصحف اليومية أن رئيس لجنة الأحوال الشخصية (وهو الشيخ فرج السنهورى) سئل : لماذا أعطيتم المرأة حق طلب الطلاق إذا تزوج امرأة أخرى غيرها ؟ فأجاب أعطينا المرأة هذا الحق من أجل إسكات النابحات فقط .

فهذه الإجابة فى منتهى الغرابة ، والخطورة :

أولا : يقول (أعطينا) كأن من حقه أن يعطى ، وأن يمنع ، وكان عليه أن يقول : إننا رأينا أن نأخذ بهذا الحكم من أحكام الإسلام .

ثانياً : هل يؤثر حكم على حكم آخر لمجرد الرغبة فى إسكات المطالبات بهذا الحكم الأول ؟

إننا لو سلكنا هذا المسلك للجأنا إلى الأخذ بالضعيف ، والحكم الذى لا مستند له ، ولكان إرضاء الناس آثر عندنا من التزام ما يظهر لنا من قوة الدليل

ومتى كان إرضاء فريق من الناس باعثاً من بواعث الأحكام ، فى أى نظام من النظم ، إلا أن يكون نظاما لا يستهدف المصلحة العامة ، وإنما يستهدف إرضاء من لا يرضون بغير ما يوافق أهواءهم .

ثالثاً : ما قيمة هذا الحق الذى يعطى ؛ لأن فريقا من (النابحات) طلبنه ؟ أليس هناك - أيضا - جماعات من (النابحين) ؟ !

رابعا : إذا كن (نابحات) وكلنا يعرف مدلول هذه الكلمة ، فلماذا نعنى أنفسنا بإجابة رغباتهن ؟ .

أليس المثل العربى يقول : الكلب ينبح ، والقافلة تسير ؟ !

خامسا : لقد قيل : إن الدليل الذى استندت إليه اللجنة دليل واهن ضعيف ، فإلى متى نلجأ إلى ثنيات الطريق ؟ .

ولا أظن أنه يذهب عن أكثر هؤلاء المشرعين فيما يتعلق بالأحوال الشخصية أن جماهير المسلمين تنفر من كل حكم يضعف مستنده من الدين .

إنى أعد قانون الأحوال الشخصية الذى تعمل به المحاكم الآن قانونا ميتا فى ضمائر المسلمين ، ولطالما استفتانى رجال ، وكان كل منهم يطلب إلى مع توجيه سؤاله ألا أفتيه بما تسير عليه المحاكم الشرعية الآن ، فقلبه لا يطمئن به ، وقليل من الناس من يتقبل هذه الأحكام ربما للضرورة القصوى ، وربما لأنه يستهين بعامة أحكام الدين .

إن مسألة كمسألة الطلاق ينبغى أن نلتزم فيها رأى جمهور الفقهاء ، فإن ذلك أصون للعلاقة الزوجية ، وأنظف لها فى ضمير الرجل والمرأة على السواء ، ولقد رأيت من النساء من استبد بها القلق على حياتها الزوجية الطاهرة لأن

زوجها يباشرها بعد طلاق استند فى الخلاص منه إلى رأى ضعيف من آراء بعض الفقهاء .

ثم نرى الخلط ، والخبط ، والانحراف ، والجرأة ، والضلال ، والسفه .

فهذا مستشار يعجب لماذا لا تأخذ المرأة فى الميراث نصيبا كنصيب الرجل ، وينادى بذلك ويدعو إليه ، وهو - بطبيعة عمله - يعرف تمام المعرفة النص الواضح الصريح الذى جاء فى القرآن الكريم خاصا بهذا الحكم ، كأنه يقول لنا : لاداعى التمسك بنصوص القرآن .

ولا بأس عليه فقد سمعنا عالما كبيراً يذيع على الناس أنه من حقنا أن نهمل النص إذا اقتضت المصلحة إهماله .

وهذا عالم يرى أن ضرب الرجل امرأته للتأديب (وحشية) ، وينسى أو يتناسى أن القرآن الكريم جعل هذه العقوبة إحدى الوسائل لإصلاح المرأة فى نص لا يتحمل التأويل .

وكاتب يرى أن قول الرسول الكريم فى النساء إنهن (ناقصات عقل ودين) من الأقوال (البشعة) .

وكاتبة ترى أن القرآن لم يفسر إلى الآن بمعانيه الحقيقية ، وينبغى أن ينشط علماء العصر ، وأن يفسروه بهـــذه المعانى ، حتى تأخذ المرأة كل حقوقها .

وكاتبة أخرى ترى وجوب المساواة التامة بين الرجل والمرأة ، فإذا قيل لها : إن الطبيعة ، والنصوص الدينية تأبى كلها هذه المساواة ، فالله سبحانه وتعالى يقول : « وللرجال عليهن درجة » ، ويقول : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » ، أجابت بأن (الميثاق) كفل للمرأة هذه المساواة ، ونسيت أن (الميثاق) قرر مبدأ المساواة، كما قرره الإسلام، وأنه ما كان للميثاق ، وهو عمل حكومة مسلمة لأمة مسلمة أن يخرج عن أصول الدين .

والحق أن الكاتبات المتطرفات يسئن إلى الميثاق بمثل هذا المنطق حين يدعين أنه أعطى لهن ما لم يعطه الإسلام ، والميثاق برىء مما يرفن .

فهل الميثاق أعطى للمرأة حق أن تطلق زوجها متى أرادت ؟ وهل الميثاق أعطى لها حق أن تتزوج من اثنين فى آن واحد ؟ وهل الميثاق فرض عليها أن تقوم بنفقة زوجها وأولادها ؟

إن عيب الكاتبات المتطرفات عندنا - مع جهلهن بأحكام الدين - أنهن لا يتورعن أن يطوعن لرغباتهن كل القوانين ، وكل النظم ، وينسين فى هذه الحماقة المدى الذى يستطعن أن يتساوين فيه مع الرجال لتصلح حياة الأسرة ، وحياة المجتمع .

ونعود إلى قصة (ضرب المرأة) ، ذلك أن امرأة ضربت زوجها ، ورفع الأمر إلى القضاء ، فأدانها القاضى قائلا : إن للزوج حقا فى تأديب زوجته جسمانيا ، وضربها ، فثار أحد الكتاب لذلك ، واعتبره مظهراً من (مظاهر إهدار حقوق المرأة ، والتفنن

فى ظلها) وأن المرأة (لذلك تريد أن تمارس حقها السياسى لترفع الإصر والأغلال التى عليها وتقضى على "فوارق الظالمة ، المتعسفة).

وإذن ، فمن حق المرأة - عند هذا الكاتب وأمثاله ، ومثيلاته - أن تؤدب زوجها بالهجر ، والضرب ، حتى لا تكون هناك فوارق ظالمة متعسفة ، ونسى الكاتب ، أو تناسى أن القاضى الفاضل إنما استمد حكمه من قول الله تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا » .

ولو تأمل (الجاملون) للمرأة ، و(المتملقون)لها ، و(الواقعون تحت سلطانها) هذه الآية جيداً ، ثم نظروا فى نصوص الشريعة الأخرى لرأوا أن هذا (الضرب) لا بد منه فى بعض الحالات ، وأنه فى أضيق الحدود .

فالآية الكريمة بدئت بأمر يخشى منه على كيان الأسرة ، وهو (النشوز) من المرأة طبعا ، ، ثم ذكرت لهذا الداء الوبيل ألوانا من العلاج ، لايلجأ إلى ثانيها إلا بعد إخفاق أولها ، فالوعظ ، ثم الهجر فى المضجع ، ثم الضرب ، وقد فسره العلماء بالضرب الخفيف ، ثم لم يقف النص عند هذا الحد ، بل نهى بل نهى الرجال أن يكون لهم سبيل إلى إيذاء متى أطعنهم ، وعدلن عن هذا النشوز الذى يهدد حياة الأسرة ، ثم ذكر الرجال بأن الله على كبير ، فإذا كان منهم من يخدعه سلطانه ، وقوامته على بيته ، ويظن فى نفسه العلو ، والاستكبار فليتذكر أن الله أعلى وأكبر وأنه محاسبه إذا بغى وتجبر .

على أن الضرب لم يشرع إلا فى حالات خاصة ، ولنوع خاص من النساء ، وقد بين الرسول الكريم أن الضرب أمر توجبه الضرورة ، وأن على الإنسان أن يتفاداه ما استطاع ، فإذا لم يجد حيلة للإصلاح إلا الضرب فلا حيلة إلا اللجوء إليه .

وينبغى أن يعترف أنصار المرأة ، بل والمتطرفات من المناديات بمساواة المرأة للرجل بحقيقة مشاهدة ملموسة ، وهى أن من النساء من لا يصلحها إلا الضرب ، ولولا خوفها من بطش زوجها لفسدت ، وأفسدت وأن الإسلام لو حظر على الرجل هذا الحق لتعذر على رب الأسرة أن يقوم حقا على بيته

على أن المؤسف أن هذا الأمر ليس خاصا بالجاهلات ، أو الساكنات فى أجواف الصحارى ، وعلى قمم الجبال ، بل إن من النساء المتعلمات المتحضرات من لا يقيمها على الجادة ، إلا الخوف من رجلها .

وصدق الله العظيم ، ورغم ألوف المكابرين والمكابرات ، والمنحرفين والمنحرفات .

على العمارى

الحرّيـّة كما يُريـّدها الإسلام

للأستاذ عبد المنعم النمر

الحرية روح هذه الحياة وريحانتها، والنعمة الكبرى التي أكرم الله بها الإنسان دون غيره من المخلوقات، ولقد خلق الله آدم في الجنة وميزه بحرية الإرادة والتفكير، فكانت هذه الحرية، هي الأساس لتعمير هذا الكون، وكل ما قام ويقوم فيه من حضارات.

لذلك عنى الإسلام بحرية الإنسان، عنايته بتكريمه، وأقام تكاليفه وتوجيهاته، على أساس أن الإنسان حر الإرادة والتفكير والاختيار .. حتى وجدناه يرفع المؤاخذة والحساب، عن كل إنسان سلب حريته، لأنه في نظره، يكون حينئذ قد سلب إنسانيته ومسئوليته.

والحرية في نظر الإسلام، لا يحدها حد إلا قانون السماء، ويتمتع بها الحاكم والمحكوم، في ظل هذا القانون على سواء، وقد جعل الإسلام أهمّ ميزة في للمسلمين، مباشرتهم لهذه الحرية، في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفي التوجيه والتقويم، وهدد كل جماعة منهم، لا تباشر هذه الحرية، بالشقاء والبعد عن رحمة الله، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لكم» هذه هي منزلة الحرية، واستعمالها في نظر الإسلام .. ومن أجل هذا عُنى عناية شديدة، بغرسها في النفوس، حتى تؤتى أكلها الطيب في الحياة، ويعيش المسلمون كراما أعزاء ...

ولقد كان المنبت الأول لهذه الحرية عقيدة التوحيد، التي تربط الإنسان في خوفه ورجائه بالله الذي يملك وحده الضّر والنفع، فلا يذل الإنسان نفسه لمخلوق مثله، لا يملك له ضرا ولا نفعا «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله» فالموحد المؤمن الصادق يعيش حر النفس، مهما تعترضه النكبات والأهوال ... حتى عقيدة التوحيد نفسها جعل الإسلام حرية التفكير، أساس اعتناقها وقبولها، حين دعا العقول إلى تدبر ما حولها من بدائع صنع الله، لتصل في حرية واقتناع،

إلى وحدة خالقها ، بل نجد القرآن يقرر هذه الحرية في صراحة حين قال « لا إكراه في الدين » « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» وبذلك وضع الإسلام أساس حرية الإنسان فيما يعتقد ، وهذا هو الشيء الطبيعي ، الذي يتمشى مع تكريم الله له ، إذ ليس من تكريمه في شيء أن يجبر على أن يقول أو يفعل ما لا يعتقده ولا يقتنع به .

ومن أجل تدعيم هذه الحرية ، وفي سبيلها ، شرع الله القتال والجهاد ، واعتبر الذين يموتون في سبيل الدفاع عنها شهداء ، ولو كان دفاعهم متمثلا في كلمة حق ، يقولونها لسلطان جائر ، واعتبر كلَّ إنسان متهاون في حريته ، راض بذله واستكانته ، ظالماً لنفسه ، مستحقاً العذاب في جهنم وبئس المصير يقول الله تعالى « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » ويهيب بالمسلمين إلى أن يناصروا الضعفاء المغلوبين على حريتهم ، ويقاتلوا من أجلهم ، فيقول : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

ثم نجد الإسلام يدعم هذه الحرية ، ويقيم حياة المسلمين العملية على أساسها ، حين يأمر نبيه أن يشاور أصحابه فيقول له : « وشاورهم في الأمر » ويمدح المؤمنين الذين يعيشون في ظل هذه الحرية فيقول « وأمرهم شورى بينهم» ويجعل الشورى قرينة للصلاة والزكاة..

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم المثال الأعلى للحاكم المسلم ، الذي يعتز بهذه الحرية ويقدرها ، ويطبقها أصحابه في دروس عملية واقعية ، وعرف صحابته رضوان الله عليهم منه هذا ، فكانوا يعلنون آراءهم المعارضة لرأيه أحيانا دون خوف ، وكان لا يجد غضاضة في أن ينزل عن رأيه في بعض الظروف ، ويأخذ بآرائهم ، تقديراً منه لوجهات نظرهم ، كما حدث في مواطن متعددة معروفة ، قابل عمر ابن الخطاب مرة أبا هريرة ، منصرفا من مجلس الرسول ، ليبلغ الناس حديثا عنه صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « من قال لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه دخل الجنة » ، فخشى عمر أن يتكل الناس على ظاهر هذا الحديث ولا يعملون ، وعمر وراءه ، فصد أبا هريرة وزجره ، ورجع أبا هريرة يبكي ويشكو لرسول الله ما فعل وعمر وراءه ... فقال الرسول : « ما حملك يا عمر على ما فعلت » فقال عمر : « بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لقد خشيت أن يتكل الناس عليها ، فخلهم

يعملون» . فاذا كان موقف الرسول من هذه المعارضة؟ هل غضب؟ لا ... بل قدر وجهة نظر عمر ، وأخذ بها ، وتنازل عن رأيه فى التبليغ ، وقال : «فخلهم يعملون يا عمر» صلى عليك الله وسلم يا رسول الحرية ومعلم البشرية ...

وعلى يد رسول الحرية ، وفى مدرسته القرآنية الكبرى ، تعلم الصحابة معنى الحرية وتقديرها ، فعاشوا أحراراً ، وحرصوا على الحرية حكاما ومحكومين ، حتى وجدنا الخليفة منهم ، يطلب من الناس أن يقوموه ويرشدوه إذا أخطأ ، فيقف رجل من عامة المسلمين ، يوجه كلامه لعمر ، الخليفة الحازم ، ويقول له : «والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا» ، فلا يغضب عمر بل يفرح ويقول «أحمد الله أن جعل فى أمة محمد من يقوم عمر بحد سيفه» ، ويرى فى هذه الظاهرة مظهراً كريماً للأمة الرشيدة ... وفى ملأ من الناس تنتقده امرأة ، فيقبل انتقادها ، ويعلن أمامها وأمامهم ، فى صراحة المؤمن الواثق من نفسه «أصابت امرأة وأخطأ عمر» .

وهناك أمثلة كثيرة وضاءة فى التاريخ الإسلامى وهى كلها تؤكد حرص المسلمين الصادقين ، على تقرير حق الإنسان فى الحرية ، وعلى تقديرهم لها ، حتى مع الأمم التى فتحوها ، وحتى مع الذين يخالفونهم فى عقيدتهم ... لأنهم كانوا واضحين ، حريصين دائماً على العدل وعلى مصلحة شعوبهم .

ولعلنا نعرف بعد هذا ، أن الإسلام لا يرضى عن أى إجراء يتخذه المسلم ، يعتدى به على حرية الفرد أو الجماعة ، وأن أية محاولة يتخذها حاكم مسلم لخنق حرية المسلمين ، يبرأ منها الإسلام ، وأن الذين يدعون الحكم بالإسلام ثم يسلبون شعوبهم حرياتهم ، وينكلون بالأحرار المؤمنين ، لا يمثلون رأى الإسلام فى شىء ، وإن أعلنوا أنهم يحكمون بقوانينه .

إن الحرية فى نظر الإسلام ، تعادل حياة الإنسان وكرامته ، ومن لا حرية له فلا حياة له ولا كرامة ، وإن طلاب الحرية وعاشقيها لا يجدون فى قاموس الحرية أروع ولا أعظم مما سجله الرسول وخلفاؤه الراشدون ، من تقديرهم للحرية ، واعتزازهم بها . وإلى الذين يحاولون الاعتداء على حريات المسلمين باسم الإسلام أسوق حكمة عمر بل صرخته الخالدة من أجل الحرية «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» .

عبد المنعم النمر

بمناسبة ذكرى الفيلسوف الإسلامى « إقبال » :

رسالة "إقبال" إلى شباب الإسلام

للأستاذ محيى الدين الألوائى

إن الفيلسوف الهندى المسلم ، والشاعر الإسلامى الملهم ، « محمد إقبال » كان أحد الشخصيات البارزة التى جاد بها القرن العشرون للعالم الإسلامى خاصة ، والعالم الإنسانى عامة . دعا قومه إلى الألفة والود ، والعالم الإسلامى كله إلى الأخوة والوحدة ، والعالم الإنسانى إلى النور والعرفان .

ولد « محمد إقبال » فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٨٩ هـ فى مدينة سيالكوت [١] ، فى ولاية بنجاب فى شبه القارة الهندية ، وكانت عائلته منحدرة من « كشمير » ، فأما أبوه فكان متصوفا عاملا ، وتقيا ورعا ، وقد تأثر إقبال منذ صباه بالأخلاق الصوفية ، التى تحلى بها والده الفاضل ، وقيل : إنه قال لإقبال حين رآه يكثر قراءة القرآن : إن أردت أن تفقه القرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك .

واستمد إقبال آراءه الفكرية ، ومذاهبه الفلسفية ، وحميته الإسلامية من المنابع القرآنية ، وتدل كثرة اقتباسه من القرآن فى شعره على أن القرآن كان على قلبه ولسانه وله فضل كبير فى إيقاظ الهمم ، وتشحيذ العزائم فى قلوب الملايين من المسلمين ، ودعوتهم إلى ينبوع التعاليم القرآنية ، فى داخل الهند وخارجها ، وبمناسبة احتفاء العالم بذكراه العاطرة نرى من المناسب أن نقوم بتطواف سريع حول رسالته إلى شباب الإسلام الذى فى يده مقاليد المستقبل ومفتاح الرقى والنهضة فى العالم العربى والإسلامى بوجه خاص ، والعالم الإنسانى بوجه عام ، فيقول إقبال مخاطبا الشباب المسلم :

« المسلم المثالى هو الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه وعقيدته ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عُباد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين الأوطان والألوان ، والشعوب بآفاقيته وإنسانيته ،

(١) الواقعة بالباكستان الغربية بعد تقسيم شبه القارة .

وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده وتمرده على موازين المجتمع الزائفة، وقيم الأشياء المقهورة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبح نفسه، ويعيش برسالته ولرسالته، ذلك المسلم الحق، الذى مهما اختلفت الأوضاع، وتطورت الحياة لايزال يؤمن بالحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول ـ هذا الشاب المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار، بل خلق ليوجه العالم، ويملى عليه إرادته، لأنه صاحب الرسالة، وحامل العلم اليقين، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع، بل مقام الإمامة والقيادة، وإذا تنكر له الزمان، وعصاه المجتمع، لم يكن له أن يستسلم ويخضع، ويضع أوزاره، ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه، وينازله، حتى يقضى الله فى أمره وبذلك يرد الأمر إلى نصابه، ويقيم عوج الدهر المشوم، ويصلح الفاسد »،

وفى هذا يقول الدكتور محمد إقبال ممثلا :

« سألنى ربى هل ناسبك هذا العصر، وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا يارب، قال : حطمه، ولا تبال !! »،

وأخيراً يرى إقبال أن الخضوع والاستكانة للأحوال الفاسدة، والأوضاع القاهرة، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام، وفى هذا يقول فى بعض أشعاره :

« المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر، أما المؤمن القوى بنفسه فهو قضاء الله الغالب، وقدره الذى لا يرد » [١] .

ويقول إقبال فى بيان مقصد حياة المسلم، وموقفه من مواجهة الصعاب، فى سبيل إعلاء كلمة الله، لأنه خليفة الله فى الأرض :

« إن المسلم القوى الذى نشأته الصحراء، وأحكمته رياحها الهوجاء، أضعفته رياح العجم فصار فيها كالناى، نحولا ونواحا، وإن الذى كان يذبح الليث كالشاة تهاب وطء النملة رجلاه، والذى كان تكبيره يذيب الأحجار، انقلب وجلا من صفير الأطيار، والذى عزيمة عزمه بشم الجبال غل يديه ورجليه بأوهام الاتكال، والذى كان ضربه فى رقاب الأعداء صار يضرب صدره فى اللأواء، والذى نقشت قدمه على الأرض ثورة كسرت رجلاه عكوفا فى الخلوة، والذى كان يمضى على الدهر حكمه، ويقف الملوك على بابه رضى من السعى بالقنوع، ولذلة الاستجداء والخنوع »، وأردف قوله فى بيان فطرة المسلم المتخلق بالآداب المحمدية إذ قال على لسان والده له :

« إن فطرة المسلم الرحمة، والرحمة يده ولسانه فى هذه الدنيا، وإن الرسول بعث رحمة للعالمين، فإن بعدت عن سنته فلست منا

---

(١) رسالة . شاعر الإسلام د اقبال .

أنت طائر فى بستاننا ، تفرد بتغريدنا ، فإن تكن ذا نغمة فنى بستاننا فغن بها ، كل حى تهلكه العناصر المضادة ، فإن تكن بلبلا ، فنى الروض طيرانك وتغريدك ، وإن تكن عقابا ففى الصحارى مسرحك ومصيدك ، وإن تكن كوكبا فأضئ فى حبالك ، ولا تحد عن أفلاكك ، إن طينة المسلم الطاهرة لؤلؤة ، من بحر النبى ماؤها ولألاؤها » :

وكذلك تطارق إقبال إلى حياة الأمة التى تريد مركزاً مرموقا ، وحياة شريفة ، فقال : « إن الحياة طائر لا عش له ، إنها ليست إلا الطيران ، إنها طائر طليق ، وفى القفص حبيس ، يخلط تغريده بنواحه ، الحياة تعقد العقد فى أمورها ثم تحل ما انعقد بتدبيرها ، إن الحياة السريعة تقيد قدمها فى الطين لتزيد لذة نمائها وسيرها كل حين ، فإن فى حرقتها ألحانا لا تنفد ، وإن وليد يومها الأمس والغد ، هى كالرائحة حركة لا تقر ، ولكن تسكن الصدر ، فتصير نفسا حيا عقد الحياة فيها ورق وثمر كالحبة ، تفتح عينها على نفسها ، فإذا هى شجرة ، وتلبث الحياة خلعة من الماء والطين ، فإذا هى حواس مدركة ، كذلك سنة ميلاد الأمم أن تجتمع الحياة فى مركز ، المركز من الدائرة كالروح من الجسد ، إن خطها مضمر فى نقطتها ، بالمركز انتظام الأقوام . وبالمركز يقدر لها الدوام ، وإن سرنا فى الحرم ، وفيه بكاؤنا وغناؤنا لا جرم : بستاننا من نداه زاهر وزرعنا من زمزمه ناضر ، وبه علا فى الدنيا صوتنا ، ووصل قديمنا حديثنا إن التئام الملة البيضاء من الطواف بالحرم به توحدت كثرتنا ، واستحكمت بقيد الوحدة عزيمتنا :

يا شاكيا جور الزمان ،

ويا أسير الوهم والحسبان

اجعل قيصك ثوب الإحرام ،

وأطلع الصبح فى هذا الظلام (١)

وتكملة لرسالته فى الحياة وتأدية لواجباته نحو الأمة وتنبيها للشباب من غفلاته ، يبين مقاصد الأمة فى الحياة ، فى حروف واضحة وكلمات :

« إن مقصد الحياة سر بقائها ، وبه يأتلف ما تفرق من قواها ، وإذا تنبهت الحياة لمقصدها وجهت أسباب العالم إليه وتوجهت نحوه تجنى وتنتقى وترد ، فإن الكون يعمل جاهداً حتى يبلغ مقصداً من مقاصده ، فهو يغرس ألف مقصبة ليظفر بأنة من نى ، وكم صور ورمى وكسر حتى أثبت صورتك فى لوح الحياة ، وكم بث نواحا فى النفس حتى صعد صوت أذان ، وكم حارب الأحرار ، ونصر الأشرار ، وبذر الإيمان فى طين الإنسان حتى قرأ على لسانك كلمة التوحيد »(٢)

(١) كتاب « إقبال » الدكتور عبد الوهاب عزام

(٢) « محمد إقبال » للدكتور عبد الوهاب عزام .

(البقية على الصفحة التالية)

محمد رسول الله

للأستاذ مصطفى عبد الواحد

— ٢ —

« ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » !

وإذا لم يكن فى تراث الحنفاء من العرب ما يصلح مصدراً لدعوة محمد ، فقد اتجهت طائفة من المستشرقين ، بل يكادون يجمعون على ذلك فى حديثهم عن الإسلام ، إلى أن محمداً قد أتيح له الاتصال بالنصرانية ودراسة مبادئها ، عن طريق أتباع الكنيسة النسطورية ، وأنه تلقى مبادىء الدين عن هؤلاء ، وما كانت دعوة الإسلام — فى نظرهم — إلا اقتباساً من المسيحية لونته البيئة ، وأثرت فيه الظروف . .

يردد ذلك القول الكثير من المستشرقين ، حتى من نظنهم علمانيين لا يدورون فى فلك التبشير ولا يخدمون أغراض الاستعمار الصليبى ، مثل بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب العربى [1] » .

ولا بأس ! فلنقف أيضاً عند هذا الرأى ، ليس معنا إلا نور العقل ، وبرهان التاريخ وضياء الإنصاف ، ولنطارح مع ذلك الحماسة والعاطفة ! .

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص ١٣٥ .

(البقية على الصفحة السابقة)

وأفاض إقبال فى بيان تبعه شباب الإسلام فى إعلاء الحق ونشر التوحيد ، وحفظ كيان الأمة ، والعمل لرفاهية البشرية وأخيرا وجه كلمته الحاسمة لأمته بقوله :

« إن هـذا العالم مسخر للإنسان وإن للإنسان فيه جهاداً ، وإن لذة الإنسان وكماله فى هـذا الجهاد ، وإن الله جعل هذه الدنيا نصيب الأخيار ، وجلا محاسنها لعين المؤمن ، هذه الدنيا طريق القافلة ، هذه الدنيا امتحان لقوة الإيمان ، فسخرها لئلا تسخرك إن فكر الإنسان يسبح فى العالم ليسخر قواه ويتصرف فيه فنون التصرف ، فاركب الهواء واصدع الجبال ، واستخرج اللؤلؤ من البحار [1] .

هذا ما سمح به المقام ، ووسعه المقال ، من ذكرى إقبال الفيلسوف المفضال .؟

محمد البدوى الأقفهوى

(١) نفس المرجع السابق .

محمد رسول الله

للأستاذ مصطفى عبد الواحد

- ٢ -

« ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » !

وإذا لم يكن فى تراث الحنفاء من العرب ما يصلح مصدراً لدعوة محمد ، فقد اتجهت طائفة من المستشرقين ، بل يكادون يجمعون على ذلك فى حديثهم عن الإسلام ، إلى أن محمداً قد أتيح له الاتصال بالنصرانية ودراسة مبادئها ، عن طريق أتباع الكنيسة النسطورية ، وأنه تلقى مبادىء الدين عن هؤلاء ، وما كانت دعوة الإسلام - فى نظرهم - إلا اقتباساً من المسيحية لونته البيئة ، وأثرت فيه الظروف . .

يردد ذلك القول الكثير من المستشرقين ، حتى من نظنهم علمانيين لا يدورون فى فلك التبشير ولا يخدمون أغراض الاستعمار الصليبى ، مثل بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب العربى [١] » .

ولا بأس ! فلنقف أيضاً عند هذا الرأى ، ليس معنا إلا نور العقل ، وبرهان التاريخ وضياء الإنصاف ، ولنطارح مع ذلك الحماسة والعاطفة ! .

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص ١٣٥ .

(البقية على الصفحة السابقة)

وأفاض إقبال فى بيان تبعه شباب الإسلام فى إعلاء الحق ونشر التوحيد ، وحفظ كيان الأمة ، والعمل لرفاهية البشرية وأخيرا وجه كلمته الحاسمة لأمته بقوله :

« إن هــذا العالم مسخر للإنسان وإن للإنسان فيه جهاداً ، وإن لذة الإنسان وكماله فى هـذا الجهاد ، وإن الله جعل هذه الدنيا نصيب الأخيار ، وجلا محاسنها لعين المؤمن ، هذه الدنيا طريق القافلة ، هذه الدنيا امتحان لقوة الإيمان ، فسخرها لئلا تسخرك إن فكر الإنسان يسبح فى العالم ليسخر قواه ويتصرف فيه فنون التصرف ، فاركب الهواء واصدع الجبال ، واستخرج اللؤلؤ من البحار [١] » .

هذا ما سمح به المقام ، ووسعه المقال ، من ذكرى إقبال الفيلسوف المفضال . ؟

محمد البدوى الأفوكى

(١) نفس المرجع السابق .

من أين له ذلك ؟

ونبادر إلى السؤال : كيف تسنى لمحمد أن يدرس النصرانية ويطلع على مصادرها ؟ لا أن يسمع بها بمجرد السماع ، فذلك أمر شائع فى كل البيئات لا يثمر علما ولا يؤدى إلى تأثر .

إنه ليستطيع الإنسان المحاكاة ويقدر على الاستمداد والتأثر ، لابد له من اتصال قريب يعمق المعرفة ويباشر الوجدان ، ولابد له من ترديد النظر وإجالة الرأى واختيار الفكرة ، ليدرك دوره بعد ذلك وليخرج على الناس بشىء يستطيع الدعوة إليه . .

فمن أين لمحمد الاتصال بالمسيحية ، بل ودراستها والتعمق فى أصولها ، حتى خرج على الناس بهذا « المزيج » الجديد ؟ ! .

هل كان ذلك الاتصال فى مكة ؟

ولا يمكن أحداً القول بأنه كان فى مكة جالية مسيحية ، فضلا عن كنيسة أو مركز دينى يدعو ويؤثر ، بل إن الملاحظ أن المسيحية كانت لا تثير حماس العرب ، قبل الإسلام ، ولا تقع عندهم بموقع .

وقد كانت تجربتهم القريبة مع دولة مسيحية قبل مولد الرسول عام الفيل ، عندما عبر أحد العرب عن سخطه على محاولة أبرهة أن يصرف العرب عن البيت الحرام إلى كنيسة بناها بصنعاء ، فأثارت فعلة العربى الساذج غضب أبرهة ، فأقبل ليهدم الكعبة ، فكان من أمره ما كان مما هو محفوظ مشهور . .

والذين تنصروا من العرب كانوا من الندرة بحيث حفظت أسماؤهم ودونت أخبارهم ، مما لم يجعل للتبشير بالمسيحية فى الجزيرة العربية نشاطا قبل الإسلام .

الرحلة فى حياة النبى :

ولكن المستشرقين يوفرون على أنفسهم مشقة الجواب ، ويبادرون إلى تحديد المصدر الذى درس الرسول عن طريقه النصرانية .

فهم يقرأون فى سيرة النبى - صلوات الله عليه - أنه سافر إلى الشام ، فيجدون فى ذلك دليل رأيهم ، ويرون أنه فى سفره إلى الشام لابد جالس الرهبان وتأثر بتوجيههم وعرف مبادىء الدين عنهم .

ذلك فرض ، يحتمل المناقشة ، ولكن المستشرقين يرقون به إلى درجة الحقيقة الثابتة ، ويؤسسون على ذلك رأيهم فى الإسلام .

وليس هكذا تناقش المبادىء أو تحاكم الأديان والدعوات !

أما أن الرسول قد رحل إلى الشام قبل نبوته ، فذلك أمر ثابت فى سيرته ، لا ينكره الأصدقاء ، ولكن دراسته النصرانية عن هذا الطريق أمر طريف يثير السخرية ولا يتقرر عند العقلاء .

إذ أن الروايات تجمع على أن الرسول سافر إلى الشام مرتين فحسب ، كانت الأولى وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وكانت الثانية فى تجارته لخديجة .

فكيف يستطيع محمد فى زورتيه للشام ، وكان فى إحداهما غلاما ، أن يتبصر فى النصرانية ويتعمق إلى حد أن « يؤلف » دينا على أساس تلك الدراسة ، يحوى عقائد وعبادات وشرائع !.

أما كان الأجدر بهذا « الاقتباس » رجل رحالة مثل « أبى سفيان » الذى كان يكثر الخروج إلى الشام ، ويتردد فى تجارته بين الأقطار ؟!.

ولماذا يتسنى ذلك لمحمد ولا يتسنى لأكثر العرب بحثا عن الدين وخروجا إلى الشام كذلك ، وهو « أمية بن أبى الصلت » .

وقد كان أمية من رجحان العقل بحظ وافر ، وكان لفرط تشوقه إلى الحق وبحثه فى العقيدة ، يهتدى بالفطرة إلى الغرض السليم وهو وحدانية الإله وضرورة اليوم الآخر حتى قال فيه الرسول بعد البعثة : « كاد أمية أن يسلم » .

كما كان يكثر الجلوس إلى الرهبان فى زوراته للشام ، وكان له منهم الأصدقاء الأوداء .

فلم أخطأه التوفيق ولم يقم بالدعوة التى قام بها محمد ، إذا كان الأمر استفادة من رحلات الشام فى نظر المستشرقين ؟!

قد يقولون : لا لم تكونا رحلتين إلى الشام فقط ، بل إنها رحلات ورحلات ، ينقص منها الرواة عن عمد رغبة فى إنكار هذا التأثر !.

ونجيب : فليكن ! ولتفرضوها رحلات عديدة ، مخالفين بذلك الحقيقة والتاريخ ، مضربين عن المقارنة بينه وبين الرحالة العرب فأى مدى ، ترى ، تصل إليه تلك الرحلات فى نفس محمد ؟ .

إلى إتقان النصرانية وإجادة شعائرها ، أو الاقتناع بها والولاء لها . ؟

وهل يجاوز فى ذلك أن يصير راهبا أو متنسكا لكن ذلك أو أقل منه لم يؤثر عن محمد فى أولى ولا آخرة ، ولم ير فى يوم مؤديا لطقوس أو مفيضا فى عقيدة أو مجادلا فى شأن من تلك الشئون .

وكل ما أثر عنه فى الجاهلية من أمر الدين نوع من التأمل والتفكير فى خلوته السنوية لا يصل به البحث إلا إلى بقايا دين إبراهيم من أمر التوحيد والتنزيه .

فصلة محمد فى الجاهلية بالنصرانية صلة مبتوتة لا دليل عليها ولا شاهد .

ويقول المستشرقون : لسنا نريد أنه دان بالنصرانية ، ولكن المقصود أن اتصاله برهبان الشام وجلوسه إليهم قد لقنه مبادىء الدين ودفعه إلى التفكير فى العقيدة مما كان حصيلة دعوة الإسلام ، التى خرج بها على الناس :

وعند هذا الحد نصل إلى نقطة حاسمة ، تتصل بمضمون الإسلام ، تقتضينا مزيدا من التأمل ومزيدا من الإنصاف والحق .

وهل هناك عناصر مسيحية فى الإسلام ؟

إن كان المراد أن دعوة الإسلام ترديد لمبادىء النصرانية [1] ومحاكاة لها كما كانت فى عهد الرسول ، فذلك قول زائف لا يثبت أمام النظر السطحى فضلا عن التفكير والتأمل

إذ أن الخلاف بين الإسلام والمسيحية ، خلاف جذرى يتصل بأمر العقيدة ، ويفترق عند حدود فاصلة ، لا يمكن معها ادعاء تأثر أو محاكاة .

فعند « لا إله إلا الله » كان الافتراق الفاصل ، الذى ميز دعوة الإسلام ، وحدد لها غايتها وخط طريقها .

فشتان بين دين يأتى من أول يوم ليدعو إلى عقيدة التوحيد ، لا يحيد عنها ولا يسمح بمساومة حولها ولا إغضاء عن وضوحها ولا شائبة تشوب صفوها أو تغض من قدسيتها وجلالها ، وبين دين يختلف أتباعه فى العقيدة ويفترقون ، ويؤمن أكثرهم بتعدد الإله وتثليثه ...

لقد كانت عقيدة التوحيد أهم مبادىء الإسلام وأخطرها ، وكانت محور الخلاف بين محمد وقومه ...

« أجعل الآلهة إلها واحداً ، إن هذا لشىء عجاب » .

وكل شىء عداها كان يمكن أن تقبله العرب أو تناقشه ...

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

والذى يتبصر فى القرآن يرى دعوة التوحيد قد شغلت منه جانباً كبيراً ، وأنها قضية العقيدة الإسلامية الأولى التى كافح الوحى من أجلها .

ولو كان أمر التوحيد فى الإسلام هينا لوفر الإسلام على نفسه العناء الذى لقيه فى دعوة العرب إليه ، ولقبل عرض الكفار حين قالوا للرسول : نعبد إلهك يوما وتعبد آلهتنا يوما ، ولكن القرآن يرفض ذلك بإصرار وحسم : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

فلو أن الإسلام التقى مع المسيحية فى العقيدة فى الله ، ثم اختلف معها فى فرع من الشريعة أو جانب من العبادة لهان الأمر فى دعوة المستشرقين ، ولكن خلافا أصيلا

(١) يذكر بروكلمان من مصادره فى بحثه عن القرآن هذه الكتب : عناصر نصرانية فى القرآن تأليف هـ . نز والمصادر الأصيلة للقرآن تأليف تزدال طبع فى لندن سنة ١٩٠٥ و« طابع الإنجيل فى القرآن » تأليف ولكر طبع سنة ١٩٣١ و« رسالة محمد وأصالته » لجرنباوم .

فى العقيدة ، لا يمكن معه القول باستفادة أو تأثر ...

لقد كانت عقيدة التوحيد محور الخلاف بين الإسلام والنصرانية ، وبها يقف الإسلام من النصرانية موقف التقويم والإرشاد ، فقد كانت المسيحية فى انتظار الإسلام : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » .

ولذلك يتجه القرآن إلى أهل الكتاب فى ثقة يحذرهم من الغلو والافتراء ، ويهديهم إلى جانب الرشاد فى العقيدة :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد » .

فمن من العرب الأميين ، مهما رحل إلى الشام وجالس الرهبان أو أقام معهم فى صوامعهم كان يستطيع أن يتحدث إلى النصارى بهذه اللهجة ليهدى إلى جانب الحق ويكشف ما أصاب العقيدة من ضلال ويبين لهم استحالة الولد على الله ؟ !

وهل يريد المستشرقون أن الإسلام نزعة إصلاح فى المسيحية ؟ .

إن المذاهب المتفرعة أو محاولات الإصلاح لا بد أن تلتقى عند الجذور الأولى مع المذهب الأصيل ، ولا بد أن تتفق فى أمر العقيدة ، ثم يفسح المجال بعد ذلك للزيادة والابتكار أو الخلاف والتشعب .

ولكن محمداً فى دعوته للإسلام لا يصدق عليه مقياس تأثر أو استفادة من النصرانية إذ أن نظرته إلى أمر العقيدة أعلى درجة وأفسح مجالا ، وموقفه مما تقدم من الأديان موقف الحكم والهيمنة « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » .

وقد كان القرآن ، منذ العهد المكى ، واضحا فى موقفه من النصرانية ، وحاسما فى أمر العقيدة ، وفاصلا فى حقيقة عيسى ابن مريم عليه السلام .

فالله واحد ، لا شك فى ذلك ولا تردد « قل هو الله أحد » ، « إن إلهكم لواحد » « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » ، « وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد » .

كذلك كان موقف القرآن من عيسى عليه السلام ، وهو الجانب الخطير فى العقيدة المسيحية واضحاً أشد الوضوح .

فمن البداية يؤكد القرآن أنه لا ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، وأن ادعاء ذلك افتراء وبهتان « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئاً إدا ، تكاد السموات يتفطرن

منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا »[١] .

وكيف يكون له سبحانه ولد ، والولد يستلزم أن يكون له صاحبة ، تنزه عن ذلك وتقدس ، « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا »[٢] « وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا »[٣] ، فعلاقة الكون كله بالله علاقة الصنعة بالصانع ، لا فرق بين بشر وحجر .

« أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم »[٤] .

وعلى هذا الأساس يفسر القرآن حقيقة عيسى ابن مريم ويكشف عن قصته اللبس والغموض .

فمريم ابنة عمران أمرأة صالحة متعبدة أحصنت فرجها « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين »[٥] اختارها الله سبحانه لتكون في ولادتها لعيسى من غير أب شاهدا على قدرته التي لا تحد « وجعلناها وابنها آية للعالمين »[٦] .

وحينئذ فلا غموض في أمر عيسى ولا اختلاف . « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[١] بل إن آدم في ذلك أعجب وأغرب .

والقرآن يذكر أن عيسى دعا قومه إلى عبادة الله ربه وربهم ، « وأن الله ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم »[٢] .

ولكن الخلاف في أمره وغموض التصور في تلك العصور من التاريخ ، أدى بقومه إلى ألوان من الاتجاهات وعديد من الآراء جانبها الحق ونأى عنها الرشاد ... «فاختلف الأحزاب من بينهم ،فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم »[٣] .

بهذا نطق القرآن في مكة ، وبهذا حدد الإسلام موقفه من المسيحية ولم يلتق معها في العقيدة التي هي حجر الأساس في بناء الدين والتي يتفرع عليها الاتجاه والعمل .

فأين تقع معرفة محمد بالمسيحية من الدين الذي جاء به ، وأين هي الاستفادة من النصرانية التي يدعيها المستشرقون المنصفون ؟

مصطفى عبد الواحد

---

(١) سورة مريم .
(٢) سورة الجن .
(٣) سورة الإسراء
(٤) سورة الأنعام .
(٥) سورة التحريم .
(٦) سورة الأنبياء

---

(١) سورة آل عمران .
(٢) سورة مريم .
(٣) سورة مريم .

الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ أحمد محمد الغمراوي

— ٤ —

بعد أن أوردنا ما أثبته علم الفلك الحديث للشمس من جرى حقيق قدره اثنا عشر ميلا فى الثانية فى الفضاء مصداقا لقوله تعالى : « والشمس تجرى » ، فكان ذلك مثلا باهراً للإعجاز العلمى فى القرآن ، لم نتعرض للشطر الثانى من الآية الكريمة : « والشمس تجرى لمستقر لها » ، إذ من الواضح أن المستقر الذى ينتهى إليه الجرى أمر من أمور الغيب التى لا يعلمها إلا الله العزيز العليم ، الذى قدر ذلك الجرى على هيئته ، لينتهى إلى غايته فى الوقت الذى استأثر سبحانه بعلمه ، إذ هو فيما يبدو متعلق بالأشراط الفلكية لقيام الساعة إن لم يكن هو وقت قيامها .

إن السنة الكونية التى يسميها العلم بقانون الجاذبية العام بين الأجرام والتى لا يدرى العلماء لها تفسيراً ولا تعليلا — هذه السنة تقضى بأن جرى الشمس بتلك السرعة لابد أن يكون راجعاً إلى جاذب هائل يجذبها فى الاتجاه الذى تجرى فيه كما تجذب هى سياراتها ، وكما تجذب السيارات ذوات الأقمار أقمارها ، وليس يعلم إلا الله ما هو ذلك الجاذب الهائل ، ليس يعلم إلا الله هل هو جرم واحد بالغ العظم يجذبها فيكون مستقرها أن تصطدم ، وتستقر فيه ، أو هو عدة أجرام فى مواقع مختلفة كل منها عظيم يجذبها فى اتجاهه فيكون لمجموع قوى الجذب فى الاتجاهات المختلفة تأثير قوة واحدة يجرى بها الله الشمس فى مجراها الذى يعرفه العلم الآن سرعة واتجاها ، ويكون مستقرها الذى سوف تصير حتما إليه راجعا : إما إلى تغيرات فى تلك القوى تنشأ عن تغيرات فى مواقع تلك الأجرام المتحركة تؤدى بها فى النهاية إلى توازن تصير به الشمس إلى السكون ، وإما إلى تدخل جاذب جديد يعرض للشمس فى مجراها فى اتجاه مضاد بحيث تكون نتيجة تدخله استيقاف الشمس وسكونها فى النهاية عند الموقف أو المستقر الذى قدره لها الله العزيز العليم ، من غير اصطدام بأحد تلك الأجرام . وعروض هذا الجاذب الجديد جائز فى الحالة الأولى أيضا ، حالة احتمال أن يكون الجاذب

المائل جرما واحداً بالغ العظم ، فالله سبحانه أعلم أى هذه الاحتمالات يكون .

لكن مهما يكن منها - أو من غيرها ، وهذا من باب الاحتياط - فلابد أن يتم على الوجه الذى تتحقق به جميع الآثار التى جاءت فى القرآن المجيد وفى الحديث الصحيح من مقدمات الساعة ، كطلوع الشمس من مغربها فى حديث أبى ذر ، أو من أحداث قيام الساعة نفسها كجمع الشمس والقمر فى سورة القيامة .

فانظر إلى ذلك الجرى الذى أثبته القرآن للشمس وحققه علم الفلك الحديث بعد نزول القرآن بقرون وقرون ، ثم إلى ذلك المستقر الذى أخبر القرآن ، فى أوجز لفظه وأفصحه وأوضحه ، أنه غاية ذلك الجرى ونهايته ، وإن لم يعرف العلم عنه شيئاً بعد - انظر إليهما معا كيف إنهما فى ضوء سنة الجاذبية العامة قد استلزما أن تكون الساعة وأشراطها وأحداثها لا خرقا ، ولكن طبقاً للسنن الكونية التى فطر الله عليها الكون ، ومن الممكن الفلكى الحديث المتمكن من العلم ومن فقه كونيات القرآن معاً أن يسترشد بتلك الأشراط والأحداث الفلكية ، كما جاءت فى كتاب الله وعلى لسان رسوله فيستنبط منها ومن الثابت اليقينى فى العلم ، كثيراً مما لابد منه كى تتحقق الآثار بالترتيب

الذى ينبغى أن تكون عليه ، أما الذى لا يمكن لأحد أن يعرفه قطعاً مهما بلغ من العلم والفقه والبصر فهو الوقت الذى قدر لتلك الآثار والأشراط والأحداث أن تقع فيه على التتابع أو التجمع الذى قدره الله لها ، فإن الله سبحانه قد استأثر بعلم ذلك الوقت كما أخبر فى كتابه العزيز .

وتنكير المستقر فى قوله تعالى : (لمستقر لها) ، يشير إلى شأنه وهول آثاره التى ستكون ، كالذى نبه إليه الإمام عبد القاهر من دلالة التنكير فى قوله تعالى : (وأمطرنا عليهم مطراً) فى قصص قوم لوط ، والقرينة على هذه الدلالة فى إحدى الآيتين تختلف عنها فى الأخرى لاختلاف المقام فى كل ، كما يدل عليه السياق ، فالمقام فى آية قصة قوم لوط مقام تحذير من عاقبة الإصرار على الغواية وتكذيب الرسل ، فكانت القرينة قوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » فى آية (٨٤) من سورة الأعراف ، وقوله تعالى : « فساء مطر المنذرين » فى آية (١٧٣) من الشعراء ، وآية (٥٨) من النمل « وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) الأعراف .

« وأمطرنا عليهم مطراً ، فساء مطر المنذرين » النمل والشعراء .

أما المقام فى آية يس فهو مقام تحذير إجمالى

من تكذيب الرسل ، وتنبيه تفصيلى إلى بعض آيات الله الكونية الدالة عليه سبحانه وعلى كمال قدرته وحكمته ، وجلال فضله ونعمته على عباده ، فكانت القرينة قوله تعالى : « ذلك تقدير العزيز العليم » فى الآية ٣٨ : « والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم » .

والإشارة فى « ذلك » ، هى طبعاً لكون الشمس تجرى لمستقر ، أى الجرى وغايته معاً لا لأحدهما وحده ، وغريب أن يكون غاب عن الفخر الرازى شمول التقدير للأمرين جميعاً ، إذ جعل اسم الإشارة راجعاً إلى الجرى أو إلى المستقر على الاحتمال ، كما تراه فى موضعه من الجزء السابع من تفسيره .

وكما دل التنكير على عظم شأن المستقر الذى تنتهى إليه الشمس فى جريها الحقيق فإنه أيضا قد سمح لأكثر المفسرين أن يذهبوا فى معنى المستقر إلى ما يتفق وجرى الشمس الظاهرى وتغير مواقعها فى الشروق والغروب طوال العام ، وترددها فى ذلك كل عام بين أقصى موقعين تبلغهما فى الشتاء والصيف لا تتعداهما بحال ، فكل موقع من هذين الأقصيين هو لها مستقر فى الشتاء مرة وفى الصيف أخرى ، هذا هو خير ما قاله الأكثرون ، ولولا تنكير « مستقر » ما استقام لهم هذا لأنهم يقررون أن الشمس إذ تبلغ أحد الموقعين تبدأ ترجع أدراجها حتى تبلغ الموقع الآخر فى ستة أشهر وليس هذا باستقرار إلا على وجه مجازى يبيحه التنكير .

وفى المفسرين القدامى من قال : إنه لا استقرار للشمس فى حركتها حتى يجىء يوم القيامة فتبطل حركتها وتستقر ، وهذا أقرب تفسير إلى الصواب لولا أن أهله قصدوا بحركة الشمس هذه الحركة اليومية الظاهرة الراجعة فى الحقيقة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس والراجع اختلاف المشارق والمغارب فيها إلى اختلاف مواقع الأرض من الشمس فى حركة الأرض السنوية ودورانها حول الشمس مرة فى العام فهم طبعا لم يقصدوا الحركة الحقيقية العظيمة السرعة التى أثبتها العلم للشمس وأنبأ بها القرآن قبل أن يولد علم الفلك الحديث فكان ذلك القرآن معجزة علمية كبرى ينبغى أن يتذكرها دائما كل مسلم مثقف ويجعلها نصب عينيه ليزداد بها يقينا : أن القرآن من عند الله حقا ، وليعرف عن اقتناع أن ليس هناك شطط ولا تكلف فى المطابقة الصحيحة الدقيقة بين يقينيات العلم وكونيات القرآن .

فهذه المطابقة ، بالصورة التى رأيت فى هذا المقال والذى قبله ، قد بينت صنوفا

من الإعجاز فى آية يس لا يكاد الإنسان يقضى حقها عجبا ، آية من أربع كلمات تحوى فى كلمتين معجزة علمية : (والشمس تجرى) ، وتحوى فى كلمتين أخريين (لمستقر لها) نبوءة مذهلة ستتحقق من غير شك لأنها قرينة المعجزة العلمية الصادرة عن فاطر الشمس سبحانه ؛ ثم تحوى فى الكلمات الأربع إعجازا بلاغيا فى مراعاة مقتضى الحال ، إذ تتحمل فى كل من شطريها تأويلا يتفق مع الظاهر للناس من حركة الشمس حتى يهتدى بها الناس جميعا ، من عرف سر هذه الحركة النسبية ومن لم يعرف ، من عرف هذا السر اهتدى به وبالمعجزة العلمية التى حوتها الآية ، ومن لم يعرف اهتدى بموافقة الآية للحركة التى يرى.

* * *

ودوران الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس : ما موقف القرآن منهما ؟ وهل فيه دلالة عليهما ؟

إن هذا التساؤل ليس فيه افتيات كما قد يظن بعض من يخشى أن نحمل آى القرآن ما لا تحتمل ، بل هو تساؤل ينبغى أن يكون . إن الله قد أنبأ بالحركة الذاتية للشمس ليكون فيها وفى الإنباء بها آية للناس ، فمن المعقول أن يدل الله فى كتابه على الحركة الذاتية للأرض التى يخلق بها سبحانه هذه الحركة الظاهرة للشمس ، ليكون فى الدلالة على حركة الأرض فى القرآن الكريم آية أخرى للناس تهدى إلى الله وتشهد للقرآن مرة أخرى : أنه حقا من عند الله ، فقد لبث الناس عامتهم وخاصتهم قرونا بعد نزول القرآن ، وهم يعتقدون أن الأرض ثابتة لا حراك بها إذ ليس للأرض حركة محسوسة فى الظاهر كحركة الشمس النسبية من المشرق إلى المغرب التى فسرها فلاسفة اليونان تفسيرهم الذى خطأه علم الفلك الحديث من جميع الوجوه .

وفى الحق أن هذا المعقول أن يكون قد كان فعلا فى القرآن ، ففى القرآن الكريم دلالات متعددة على حركة الأرض بنوعيها جاءت عن طريق الإشارة ، لا صريح العبارة مراعاة لمقتضى الحال فى خفائها وعدم إحساس الناس بها ، فلو أن القرآن العزيز صارحهم بحركة الأرض وهم يحسونها ساكنة لكذبوه وحيل بينهم وبين هدايته ، فكان من الحكمة البالغة ومن الإعجاز البلاغى فى الأسلوب أن ينبه الناس فى كتاب الله إلى آيته سبحانه فى حركة الأرض حول محورها وفى حركتها حول الشمس بمختلف الإشارات إلى نتائج كل من الحركتين ، منا عليهم بها وحثا لهم على اكتناه أسبابها .

ومن أعجب مظاهر المن والحث مجتمعين القسم : قسم الخالق سبحانه بمخلوقاته حين غفل الناس عن آياته فيها لما تعودوا وألفوا

منها حتى غطت العادة والألفة على مواقع النعمة ومواطن الحكمة ومواضع العبرة فيما خلق لعباده ، فإذا أقسم الله سبحانه فى كتابه العزيز بالليل وبالصبح وبالضحى وبالنهار أفلا يكون فى هذا أكبر داع لهم أن يتأملوها ويتساءلوا : ماذا أودع الله فيها من مجالى حكمته ومظاهر عظمته وقدرته حتى استحقت أن يقسم لعباده بها وهو خالقهم وخالقها ؟ فإذا بحثوا وعرفوا أنها ناشئة عن حركة للأرض فى كل يوم أمام الشمس ، أفلا يكون فى ذلك القسم دليل إلى تلك الحركة .

على أن الله سبحانه لم يجرد القسم من إشارة تدل على طبيعة السر الذى أودع فى المقسم به . فقد وصف الليل عند القسم به بالإدبار تارة : (والليل إذ أدبر) فى قراءة نافع وحفص ومن إليهما ، (والليل إذا دبر) فى قراءة أكثر القراء العشرة [1] ، ووصفه بالإقبال والإدبار كليهما فى قوله تعالى (والليل إذا عسعس) لأن الفعل معنـــاه : أقبل ظلامه أو أدبر كما فى القاموس ، ووصفه بالسرى فى سورة الفجر : (والليل إذا يسر) فى قراءة أكثر العشرة وقفاً ، (والليل إذا يسرى) فى قراءة ابن كثير ومن إليه . وكلها أوصاف تقتضى الحركة وهى كناية عجيبة عن حركة الأرض اليومية لا تفهم على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هى الأصل فى جو الأرض فى النصف غير المقابل للشمس ، وإلا إذا تصورنا الأرض تدور حول محورها دورة فى اليوم من المغرب إلى المشرق أمام الشمس ليتعاقب فيها الليل والنهار على كل مكان فى الأرض على جانبى خط الاستواء إلى قريب من القطبين .

ومن عجيب أمر القسم بالصبح وبالنهار فى القرآن الكريم أنهما لم يوصفا بإقبال ولا بإدبار ، لأن ذلك لو كان لما جاء بمعنى جديد إذ هو لازم حتما من إدبار الليل وإقباله ، ولكنهما وصفا بالوصف الخاص بهما ، الناشئ عن سلوك الضوء ، ضوء الشمس فى الغلاف الهوائى المحيط بالأرض وولوجه فيه تدريجا عن طريق الانكسار فى طبقات الهواء العليا الأخف إلى طبقات الهواء السفلى الأكثف ، من الفجر إلى الإسفار ، ثم انتشاره بعد طلوع الشمس تدريجا أيضا بالانعكاس على الأخص وبالانكسار أيضا حتى يعم النهار ولولا الغلاف الهوائى ما كان هنـــاك فجر ولا صبح ولا إسفار فى أول النهار قبل طلوع الشمس ، ولا شفق فى آخر النهار بعد غروبها ، فليس شىء من ذلك بكائن على القمر مثلا بعد أن فقد هواءه لضعف جاذبيته الناشىء

(١) من كتاب البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة للشيخ : عبد الفتاح القاضى شيخ معهد القراءات بالأزهر .

من صفر كثلثه مع سرعة حركة الجزئيات فى أى غاز .

من أجل ذلك جاء القسم بالصبح إذا أسفر بعد القسم بالليل إذا أدبر فى سورة المدثر ، وجاء القسم بالنهار إذا جلى الشمس فى الآية الكريمة (والنهار إذا جلاها) من سورة الشمس ، وليس على القمر نهار كالذى نعرفه على الأرض تتجلى فيه الشمس ، فسماء القمر تظل مظلمة فى نهاره الطويل طول نصف شهره عندنا ، كما هو الحال فى نهارنا أيضا إذا علونا الغلاف الجوى بهوائه وسحبه كما استنتجه العلماء من أن الضوء لا يرى بذاته ولكن بالانعكاس عن المرئيات ، وكما شاهده طيارو الفضاء حين دارت بهم القمير ات الصناعية حول الأرض أعلى من غلافها الجوى بكثير .

ومن عجب أن هذا الذى يستنتجه العلماء وشاهده طيارو الفضاء من ظلمة السماء قاطبة بالنهار إذا علونا الأرض وجاوزنا غلافها الهوائى - هذه الحقيقة التى لم يكن ليصدق بها أحد من قبل قد دل عليها القرآن المجيد صراحة فى كلمتين هما (وأغطش ليلها) فى قوله تعالى: (أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) فالضمير فى (ليلها) راجع إلى السماء التى تتكلم الآيات الكريمة عنها وحدها ، فالله سبحانه ينبئنا أنه أظلم ليل السماء لا ليل الأرض ، ومع ذلك فقد فاتت المفسرين دلالة هذه الإضافة ، وهم معذورون إذ صرفوها إلى مايعرفون من هذا الليل ، وجعلوها من المجاز ولو لزموا النص ودلالته لاهتدوا إلى حقيقة عجيبة غريبة أنبأ بها القرآن ولم يحققها الإنسان إلا منذ سنوات لما بدأ عصر الفضاء هذا ، فأثبت بذلك من حيث لا يدرى معجزة علمية أخرى للقرآن ليس إلى جحودها سبيل .

فإذا ما تجاوزنا القسم وإشارته واستزدنا من الدلالة على حركة الأرض اليومية فى القرآن وجدناها فى قوله تعالى : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف . فالمغشى يصح أن يكون الليل أو النهار لأن التعبير يحتملهما كما يقول الزمخشرى ، وإذن فهو يشملهما إذ لو كان أحدهما هو وحده المغشى لا الآخر لجاء التعبير القرآنى نصا فى ذلك لا يحتمل غيره ، لأنه كلام الخالق سبحانه لا كلام مخلوق يجوز أن يأتى لفظه أضيق أو أوسع من المعنى الذى قصد ، وإذن فكل من الليل والنهار يطلب الآخر طلباً حثيثا بإذن الله كى يغشاه حتى يغشاه ، ثم يكون ذلك على وجه التجدد المستمر كما تفيده صيغة المضارعة فى الفعلين مع الحالية فى الفعل الثانى . فتأمل معى جلال هذه الكلمات القرآنية الخمس كيف صورت أدق تصوير تلك الظاهرة الكونية العجيبة

ظاهرة زحف النهار إثر الليل حالا محله من طرف ، وزحف الليل إثر النهار حالا محله من الطرف الآخر في كل بقعة من بقاع الأرض أثناء دورتها اليومية حول نفسها أو حول محورها أمام الشمس نتيجة لذلك الدوران الذي يدل على عظم جلاله وجماله مرجع الضمير في قوله تعالى (يغشى الليل النهار) .

ثم هذا الدوران نفسه قد دل القرآن عليه بما يكاد يكون نصا صريحا في قوله تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) في الآية (الخامسة) من سورة الزمر . والتكوير اللف واللي ، يقال : كار العمامة على رأسه وكورها ، كما يقول الزمخشري في تفسيره . إلا أنه جعل يلتمس لذلك معنى مجازيا لما غاب عنه ما ظل مجهولا للناس أجمعين لقرون بعده من أن الله سبحانه يلف الليل على النهار بلف محوري حقيقي للأرض التي هي محل الليل ، ويلف النهار على الليل بلى حقيقي لأشعة ضوء الشمس في غلاف الأرض الهوائي الذي تملأه الظلمة وهي تدور . وفي الفعل (يكور) المكرر مرتين في الآية الكريمة معجزة علمية أخرى ، إذ قد دل بوضوح على كروية الأرض بكروية جوها الذي يشغله ويتحاوره الليل والنهار على التجدد في كل بقعة من بقاع الأرض . وفي هذا غناء عن الاستشهاد بكلمة (دحاها) في قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) في الآية (٣٠) من سورة النازعات .

فإن احتجت إلى مزيد من الدلالة في القرآن على الحركة اليومية الأرض فأنت واجد حاجتك بإذن الله في قوله تعالى (ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون) ومعنى الكلمات الأربع الأولى ظاهر مما تقدم ، فلا محل للإشكال الذي ذكره الفخر الرازي أما الشاهد فهو في الكلمات الأربع الأخرى : (وكل في فلك يسبحون) وقد جاءت في إثر الأربع الأولى كما ترى فهي تشمل الليل والنهار المذكورين فيها ، كما تشمل الشمس والقمر المذكورين في مفتتح الآية الكريمة : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون) من سورة يس . فالليل والنهار يسبحان في فلك ، لكل فلك يدور فيه ألا وهو فلك الأرض أو بالأحرى فلك جوها الذي يدور بدورانها مرة حول محورها أمام الشمس كل يوم .

أما حركة الأرض السنوية حول الشمس ففي القرآن الكريم دلالتان عليها على الأقل : إحداهما عن طريق الإشارة إلى أثرها في الليل والنهار من حيث تداخل أحدهما في الآخر من جهة الطول والقصر على تتابع الفصول الناشئة عن تلك الحركة ، وذلك في مثل

قوله تعالى : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » فى الآية (١٣) من سورة فاطر . وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » فى الآية (٢٩) من سورة لقمان . وقوله تعالى : « ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » فى الآية (٦١) من سورة الحج . وتكرار المعنى هكذا فى آيات متعددة توكيد له من ناحية ، وتنبيه من الله لعباده أن يتطلبوا سر هذه الظاهرة الكونية التى يحسونها من ناحية أخرى . والسر هو فى تلك الحركة كما عرفها الفلكيون والجغرافيون خاضعة للسنن الكونية الثلاث المعروفة بقوانين « كبلر » لدوران السيارات حول الشمس ، ولقانون الجاذبية العامة التى كشفها وكشف قانونها « نيوتن » .

أما الدلالة الثانية فهى أهم لأنها إشارة تكاد تكون فى صراحة عبارة تنص على أن للأرض حركة غير حركتها اليومية . تلك هى دلالة قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء » فى الآية (٨٨) من سورة النمل .

والسحاب، كما هو معروف لا ، يتحرك بذاته ولكن ينتقل محمولا على الرياح ، فكذلك الجبال يراها الرائى فيظنها جامدة فى مكانها وهى تمر مسرعة محمولة أيضا . وليس لها حامل إلا الأرض . فالأرض إذن هى المسرعة بها كما تسرع الرياح بالسحاب ، وكلا الأمرين صنع الله الذى أتقن كل شىء . فالاستنتاج فى الواقع قريب غير بعيد ، يسره الله لأهله بذلك التشبيه العجيب الذى دل أو ينبغى أن يدل الناظر إلى أن فى حركة الأرض الحاملة الجبال من آيات الله ومن المنافع لعبـاده ما يشبه الآيات والمنافع التى أودعها الله فى حركة الرياح الحاملة للسحاب ، والتى نوه الله بها فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم .

وليس عجيبا أن يفوت المفسرين جميعا هذا المعنى على قربه لمن يعرف ما أثبته العلم للأرض من حركة حول الشمس ، لأنهم — رحمهم الله — لم يكونوا يعرفون أن للأرض حركة ما ، لا يومية ولا سنوية . ومن هنا صرفوا المعنى عما يقتضيه المفعول المطلق فى الآية الكريمة وما يستلزمه قوله تعالى : « صنع الله الذى أتقن كل شىء » ، من أن الظاهرة التى لفت الله إليها الإنسان فى قوله : « وترى الجبال ... » الآية . هى ظاهرة كونية فيها من إتقان الصنع ما يدل على جلال حكمته وقدرته سبحانه ، وما ينافى ما سماه قدامى المفسرين نقضا لسنن الله فى الكون يوم القيامة أو بين يدى يوم القيامة ، من نسف الجبال نسفا إلى آخر

ما نطقت الآيات القرآنية المتعلقة بالساعة وأشراطها والزمخشري وحده هو الذي أدرك بذوقه البياني عدم التلاؤم بين قوله تعالى (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وبين ما سيحل بالجبال بين يدي الساعة ، فقدر محذوفا يليق في رأيه بذلك الصنع المتقن إذ قال « والمعنى ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين ثم قال (صنع الله) يريد به الإثابة والمعاقبة وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب » إلى آخر ما قال مما رفضه غيره مثل أبي حيان في تفسيره ونسبه إلى مذهب الزمخشري في الاعتزال .

ولو عرف الزمخشري وأبو حيان ما نعرفه اليوم من دوران الأرض حول الشمس بتلك الكيفية الباهرة ، وما يحكمها من تلك السنن الإلهية الدقيقة القاهرة . وما يترتب عليها من المنافع الناس إذن لكبروا الله ولسارعوا إلى المعنى المتبادر من الآية ومن تشبيهها التمثيلي ومن القرائن الحسية والبلاغية فيها ، وليفهموا الخطاب في (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) على أنه خطاب للإنسان الآن وفي كل عصر آت يدله على آية من آيات الله الكبرى علّه يهتدي بها إلى الله ، كما دله في الآية التي قبلها بآيتين على مثيلة أو مثيلات لها تهدي إلى الله أو من شأنها أن تهدي إليه سبحانه وهي قوله تعالى : (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) . والسياق ودلالته ينبغي على الأقل أن يشمل هذه الآية ودلالتها فيما يشمل ، وإذن تسقط حجة المحتج بأن آية (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين) في موضعها بين الآيتين ، تشهد لمن يجعل آية الجبال خاصة بما يتعلق بالجبال من أحداث يوم القيامة .

وبعد ، فإن من لطيف المناسبة أن تشير آية (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) إلى ظاهرة تنشأ عن إحدى حركتي الأرض ، وأن تشير آية (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) إلى الحركة الأخرى تلك الإشارة الواضحة العجيبة : ومن حكمة الله البالغة أن جعل بين الآيتين آية تتعلق بيوم البعث لتصرف الأذهان بها عن المعنى الذي لم تكن لتعقله قبل أن يأذن الله بالكشف عن سنة الله في حركة الأرض حول الشمس كسيار من السيارات التي أقسم الله بها ، تنبيها إلى آياته فيها ، إذ يقول سبحانه : (فلا أقسم بالخنس ، الجواري الكنس) في الآيتين (١٥ ، ١٦) من سورة التكوير) ؟

محمد أحمد الغمراوي

آذان الفجر في بلاط الشهداء

للأستاذ محمد رجب البيومي

« تروى الأساطير التاريخية أن صوت الأذان الإسلامي قد ظل يسمع عند الفجر بساحة بلاط الشهداء مائة عام ، وأن حمائم بيض كانت ترفرف ساعتئذ ويراها الناس » .

بروح الحجا هذا الأذان المحبر ... من الأرض ، يتلى أم لدى الخلد يذكر

تخيلته من جنة الخلد صادحا ... وإلا فما هذا الأريج المعطر

يضوء به الفجر ائتلاقا على الربى ... كأن شعاع الفجر صبح منور

تردده الأرواح نشوى كأنما ... لها قبل يوم الحشر فى الفجر محشر

تنزل من عليا السماء وضيئة ... كأوسمة من سدة العرش تنثر

حمائم ليست كالحمام وإنما ... يرف مع الورقاء روح مطهر

تراقبها فى الفجر تهبط من عل ... فتخشع إجلالا لها حين تنظر

ترى الأفق مزهواً بها متخايلا ... فصفحته الحمراء ورد منضر

وكانت دماً يوم الوغى فتفتحت ... وروداً بها عطر الشهادة يبهر

كأن نسيم الفجر يحمل عطرها ... شذاً كاد منه الميت فى القبر ينشر

حمائم جنات النعيم هديلها ... هتاف بترداد الأذان مكرر

أبت أن تمس الأرض مسا ، وإنما ... لها فنن فى الخلد ريان أنضر

دنت ذات طوق فى احتفاء لأختها ... تذكرها الأمس القريب فتذكر

تسائلها : ماذا أصاب عداتنا ... فضلوا سبيل الحق والنهج مسفر

أتيناهمو بالنور يهدى شعاعه ... ملايين فى ظلمائها تتعثر

شعوباً بأوربا تكاثف جهلها ... وكاد دجاها فوقها يتحجر

لقد ألفوا الليل البهيم فإن يروا ... مشاعل ضوء تطمس الليل يذعروا

أتيناهمو كالأصدقاء وعندنا ... من الدين والأخلاق سفر مسطر

لهم مالنا لا نبتغى أن نذلهم ... فما فى بنى الإسلام من يتجبر

عليهم جميعاً ما علينا ، وإنها ... مساواة دستور يطاع فيأمر
إذا نزل الغيث الروي فكلنا ... سنتهل منه إذ يفيض فيذخر
ألم يشرب الطغيان بغياً دماءهم ... فهم في سطاه كالسوائم تنحر
شراذم أميون إلا قساوسا ... إذا استظهروا الإنجيل لم يتدبروا
ترون قذارات الجسوم فضيلة ... مقدسة ، يا ويل من يتطهر
معاذ الهدى أن نسلب القوم دينهم ... مراغمة ، بل راشد يتخير
لديه طريق الحق ، إن يستجب له ... مضى قدما فيه ، وما ثم مجبر !
فيا ليتهم فاءوا لرشد يقودهم ... إلى حيث ينجو بالرشاد مفكر
ثعابين في الأحراش يرشح سمها ... تحكم فيها أفعوان مسيطر
دعاها إلينا «شارل مارتل» فارتمت ... كطوفان موج خلفه يتحدر
أتينا نميط الشر عنها قصدها ... من الخير شر في النفوس مقرر
لهم صرخات بالعراء كأنهم ... نمور بأدغال تصيح وتزأر
تردوا جلود الوحش في الكون فاغتدى ... لهم نسب عند الوحوش مؤصر
شعور تعم الجسم والوجه أرسلت ... عليهم ففيها القذارة مظهر
إذا غمر الشعر الكثيف صدورهم ... تجلى من الإنسان ذئب مصور
ولما تلاقينا ودوى هتافنا ... يشق عنان الأفق : الله أكبر
ولما تراءينا ولاحت سيوفنا ... تضيء مثار النقع والجو أكدر
تجلت لجيش الغافقي مهابة ... وتم له مرأى بديع ومخبر
وخاضت خيول الله في ساحة الوغى ... تجدل ما شاء الكفاح وتأسر
ولاح بريق النصر يومض فجره ... وبعد هنيات يفيض فيبهر
رأوا حتفهم يدنو فراموا مكيدة ... تقوم مقام الحرب والكيد أقدر
سرت صيحة أن الغنائم هوجمت ... ففر من الميدان قوط وبربر
لئن حسبوا فقد النضار خطورة ... لقد جلبوا العار الذي هو أخطر
لقد كشفوا الإسلام ، لولا عصابة ... رأت أن وعد الموت حتم مقدر
وأن لقاء الله أنفس مأرب ... لمستشهد يلقى الجنان فيؤجر
ولم أر مثل الغافقي قد انبرى ... ومقلته من جاحم الغيظ تسعر

بعاطفه استشهادنا فتأججت ... مواجده ، وانقض غضبان يثأر
بيوم هوت فيه الشوامخ رهبة ... فلا صرح إلا مائل يتبعثر
تزين به الصرعى أكاليل عزة ... فيا مصرعاً فيه الأكاليل تضفر
مشوقا تصبته الشهادة فارتقى ... لها ، ومحياه من البشر يزهر
وكان مرد الموت سهلا ، فلم يشأ ... فرارا ، وأنى ، وهو فى الروع قسور
لئن كان فى الدنيا أميرا فإنه ... كذلك أمير فى الجنان مؤمر

* * *

ورفت عليها من قريب حمامة ... تسامرها ، والطير فى الخلد يسمر
يهيب بها : كفى ملامك عنهمو ... فنحن عن الجانين نعفو ونغفر
لقد جهلوا ما نفتديه من الهدى ... وكل جهول لا محالة يعذر
ولو درسوا أخلاقنا لتقدموا ... إلينا على شوق ، ولم يتأخروا

* * *

فصاحت بها : أختاه ، لم يخف ديننا ... عن الناس ، وهو المستفيض المشهر
ألم يسألوا « الأسبان » عما نرومه ... وهم إخوة ، إن يسألوا الرأى أخبروا
ألم تك أسبانيا مباءة فسق ... يعيث بها الإقطاع جهراً فيفجر
أليس رقيق الأرض فيها شراذما ... مع الطين تشويها السياط فتصهر
طغى النبلاء المتخمون على الورى ... فكل نبيل فى التجبر قيصر
يسير وأحراس الرقيق تحوطه ... وما منهمو إلا الذليل المسخر
وأخرى من الكهان عز دواؤها ... تسيل جراحا بالمكيدة تنغر
لقد شرحت سود العمائم واللحى ... لدن أيقنت : أن الكنائس متجر
إذا فاض بالشكوى أجير معذب ... تلوا نص إنجيل به يتخدر
شرور تلظت نارها فلوى بها ... من الفاتحين الأريحيين عسكر
أسالوا ديار القوط فردوس جنة ... ترعرع فيها العالم المتحضر
مدارس التثقيف فاضت حياضها ... وطوفانها الجياش بالعلم يزخر
محاكم للحق النزيه تسودها ... مساواة شرع بالعدالة يجهر
مصحات طب ينتحيها أخو الضنى ... فينشط لا يثنى خطاه مكدر

(البقية على الصفحة التالية)

خاتمة المطاف

للأستاذ على الخطيب

العفة هبة المرأة التى بها تعتز ، والحب مطلبها الذى به تسعد ، وجلال حياتها أن يتوج عفافها بحب تنعم به ، ويشيع فيها الثقة والاحترام

وإذا كان الرجل تقوده عيناه إلى الجمال فإن عقله يدفعه إلى العفة ، وتبلغ سعادته القمة حين يطمئن لوجودهما معاً فى إنسانة فيسكن إليها سعيداً ، ويهواها دواماً ، والرجل الشرقى — بخاصة — إذا فقد العفة فى المرأة لا يجذبه جمالها فى الغالب ، وإنما يبحث من جديد ، ويفضل العفة فى النهاية ، ويضحى بالجمال ، لما استقر فى نفسه من « شرف » البيت ، والشغف بالولد والحرص على تربيته فالعائلية عميقة الجذور فى نفسه ... تتكامل شخصيته بوجودها ، ويرتاح بتحقيقها .

ولقد فتن الشرق من أمد الغرب ... فتنته حرية المرأة ...

(البقية على الصفحة السابقة)

حدائق تكسوها الرياحين بهجة ⁂ وأدواحها اللفاء تزهو وتثمر

ولو لم تتح للناس أندلس لما ⁂ غدا لجمال الكون فى الكون منظر

ولو لم تتح للناس أندلس لما ⁂ غدا لسمو الفكر فى الناس مظهر

تحرر شعب من براثن قيده ⁂ وأعجب بوثب الشعب إذ يتحرر

وعاد رقيق الأرض للأرض سيداً ⁂ له من نداها كوثر يتفجر

ألم يسألوا الأسبان هنا فيعرفوا ⁂ رسالتنا ، إن صاح بالشك منكر

أردنا ارتقاء بالمكيد للذرى ⁂ فأمكن منهم نحسهم فتدهوروا

• • •

ومرت هنيهات فطارت لأوجها ⁂ حمائم ، كانت نشوة تتخطر

قضت ساعة الذكرى وخفت لأيكها ⁂ وقد تسعد اللذات من يتذكر

دعاها إلى الفردوس رضوان فاغتدت ⁂ لمقعد صدق فى ربى الخلد يؤثر

وما زال فى سمعى ، وقد غاب طيفها ، ⁂ يرن هتاف الفجر : الله أكبر

محمد رجب البيومى

خاتمة المطاف

للأستاذ علي الخطيب

العفة هبة المرأة التي بها تعتز، والحب مطلبها الذي به تسعد، وجلال حياتها أن يتوج عفافها بحب تنعم به، ويشيع فيها الثقة والاحترام

وإذا كان الرجل تقوده عيناه إلى الجمال فإن عقله يدفعه إلى العفة، وتبلغ سعادته القمة حين يطمئن لوجودهما معاً في إنسانة فيسكن إليها سعيداً، ويهواها دواما، والرجل الشرقي — بخاصة — إذا فقد العفة في المرأة لا يجذبه جمالها في الغالب، وإنما يبحث من جديد، ويفضل العفة في النهاية، ويضحي بالجمال، لما استقر في نفسه من «شرف» البيت، والشغف بالولد والحرص على تربيته فالعائلية عميقة الجذور في نفسه ... تتكامل شخصيته بوجودها، ويرتاح بتحقيقها.

ولقد فتن الشرق من أمد الغرب ... فتنته حرية المرأة ...

(البقية على الصفحة السابقة)

حدائق تكسوها الرياحين بهجة ... وأدواحها اللفاء تزهو وتثمر

ولو لم تتح للناس أندلس لما ... غدا لجمال الكون في الكون منظر

ولو لم تتح للناس أندلس لما ... غدا لسمو الفكر في الناس مظهر

تحرر شعب من براثن قيده ... وأعجب بوثب الشعب إذ يتحرر

وعاد رقيق الأرض للأرض سيداً ... له من نداها كوثر يتفجر

ألم يسألوا الأسبان هنا فيعرفوا ... رسالتنا، إن صاح بالشك منكر

وردنا ارتقاء بالمذاكيد للذرى ... فأمكن منهم نحسهم فتدهوروا

• • •

ومرت هنيهات فطارت لأوجها ... حمائم، كانت نشوة تتخطر

فضمت ساعة الذكرى وخفت لأيكها ... وقد تسعد اللذات من يتذكر

دعاها إلى الفردوس رضوان فاغتدت ... لمقعد صدق في ربى الخلد يؤثر

وما زال في سمعي، وقد غاب طيفها، ... رنين هتاف الفجر: الله أكبر

محمد رجب البيومي

وليس المهم أن نتساءل ... عن فلسفة هذه الحرية ... وإنما نحن سنمر هنا بواقعها واقعها المرير الذى نفرت منه ... أخيراً ... المرأة ...

لقد بدت المرأة الغربية تملأ علينا خيالنا بحوريات الجنان ... حين خطرت فى بلاد الشرق سائحة ... أو بدت على « الشاشة » مشخصة ... أو ماست بـ « الأزياء » عارضة جميلة إذا سترت جسدها ، أو حسرت عن جيد ، أو كشفت عن ساق ... تبدو فى ذلك كله « حرة » تختار ما تريد (وتهوى) من تشاء ، (وتسكن) إلى من تختار .

واستخدمت أدوات التزيين الغربية فجرت على وجهها ظلالا ، ورموشاً ، وألوانا .

وجذب الفن شعرها ... وأبدع تشكيله ، وزوده بقلانس ذوات شعور مختلفة المقص والاسترسال ... تتوزع مع أوقات الليل والنهار يصاحبها ملبس أنيق ، وعطر خلاب ... يتجدد بذلك كله مطلعها حتى كأن الواحدة منهن سبع نساء ...

وخطرت من قبل ذلك وبعده إلى معاهد الرقص نخفت حركتها ، ورشق هيكلها ... وفى معاهد التجميل ... ألقت بشحمها ، واختصرت سنها ، واكتسبت نضارة الوجه وجمال القوام علق ، وضايها الثوب فأبرز هذا الجمال ، أو فضفض فباح بلدانة جسدها وأثار الخيال .

واغتبط الرجل فى كل أنحاء الدنيا !

ولم (يقوِّم) هذا المظهر الجميل بمقدار ما طرح فى بيت الزوجية من (سعادة) أو بقى من (خلق) ... أو قدم من (تربية) . ولكنه (قوم) فى سطحية انطباعات مشاعره حين رؤياه هذا الجمال المشرق ... والملبس الفاتن ... والجرأة القاهرة .

وكان الشرق ورجاله ـ إلا من عصم الله ـ أول من عمى فأخطأ التقويم ، واعتبر هذا « المظهر » عنوان التقدم ... فنادى به ... وصرخ فى وجه من تصدى الطريق ... وبعد جيل ... نادى بعضهم : الشرف شىء والجنس شىء آخر .

وكانت المرأة فى الشرق قد بهرت بهذا المظهر ، وكانت فتنته على أعصابها قاهرة ، وزت منها الحكمة ، ووأدت منها البصيرة ، وغالبا ما كان الرجل بجوارها يهوى ذلك ... فاندفعت تقلد ... وتبدع ... وسارت فى الطريق . طريق ملىء بالجمال ... فواح بالعطر ، لكن أرضه ستر فوق بركان ، غامض بذير معالم ... متشعب الأنحاء ... ملتوى الاتجاهات ... تتقصف فيه العاثرات ، وكم ضاعت فيه نساء بعد أن ضيعن كل شىء ... وذهبن دون دمعة وداع ... أو رثاء حبيب ، تبق أو ذكرى فى نفس زوج ... أو عطف تمتلىء به روح ولد ... وفطنت المرأة الغربية التى بدأت بفتح الطريق ... حين انتهت إلى آخره ... فارتدت منه بوجه حزين انسابت

منه الدموع ... وعلته الغبرة ... وبدا عليه الجهد والفناء ... خاوية اليدين ... تلتفت إلى ماض مظلم كئيب ... ولا تجد أمامها مستقبلا يشرق بأدنى أمل ، فالتفتت إلى أخواتها ... أخواتها الدليلات ... يطلبن محاولة أخيرة ، وقد كان ...

لقد كان أقسى شيء على نفسها أن تهون على المجتمع نفسه ... وتفتقد فيه النصير ... فلا رجل أخلاق ... ولا مصلح اجتماع ... بعد يدأ ... وقد نبذ الكل قضيتها ... وكان واضحا لها ... أن الرجل قد استغلها حين ظنت هي أنها قادرة على كل شيء ... وأنها لن تكون غريرة بيد الرجال ... ونسيت أن أخواتها يدرن حول رجلها مثيرات ... وفيهن خير منها ... ولهن نفس الحرية ... وعندهن نفس الثقة ... وينشدن نفس الطلب ... وكان الصراع وسقطت المرأة ، وملأت المدن أطفالا غير شرعيين ، وأصبحت مدينة لندن بالفتات يولد بها طفل غير شرعي بين كل سبعة أطفال شرعيين ، وتدفقت الفتيات الحوامل على المدينة حيث يمكنهن إخفاء الفضيحة فى زحام العاصمة ، كما يقول دكتور سقيوارت مدير إدارة الرعاية الطبية بلندن (١) .

(١) الأهرام ١٢/٠/١٩٦٠ . وكالات الأنباء ص ١ ع ٨ .

وزحفت المشكلة إلى آخر مكان يمكن أن يتصور إنسان أن تهبط فيه ؛ فدور العلم حصن الأخلاق ... استسلمت بدورها للإغراء . . وانقادت الشهوات ، وانهارت حياة سبعمائة طالبة بجامعة شيفيلد صرعى النزق ، فأسرع طبيب الجامعة يصرف لهن حبوب منع الحمل بعد أن ارتفع عدد الأطفال غير الشرعيين الذين تنجبهم الطالبات بمعدل اثنى عشر طفلا سنويا (١) .

ولا يمكن أن يكون « علم النفس » هو سبب ذلك كله ، فالعلم ذو وقار ، وإذا كان علم النفس يعترف بضرر « الكبت » ويقر آلام « المراهقة » ويعترف بمشاعر « النقص » فإنه أيضا غير عاجز عن وضع الحلول القيمة المفيدة التي تخفف الكبت ، وتساعد المراهق وتزيل مشاعر النقص ، وتقيم قواعد الأخلاق الكريمة .

فى الحق إنه ليس العلم ... ولكنها .. فتنة العلماء ... !

تلك الفتنة التي واصلت سيرها حتى اقتحمت أدمغة المشرعين فى مستواهم « الوظيفى » العالى فأعدوا فى الدانمرك : « مشروع قانون ينص على اعتبار جريمة الزنا غير كافية للحصول على الطلاق ، وقد تم وضع مشروع القانون بعد دراسة استمرت سبع سنوات قامت بها لجنة حكومية من خمسة أعضاء ، وتهدف

(١) الأهرام ١٧/٢/٦٥ ص ١ ع ٣ .

من ذلك إلى إيجاد تشريع مشترك للزواج بين الدول الخمس : الدانمرك ، والنرويج ، والسويد ، وفنلندا ، وإيسلندا ، [١] .

فهل أعجب ذلك المرأة التي قطعت الطريق وذاقت ثماره ، ربما لو تخلت عن عقلها جانبا لصرخت مغتبطة بما حازته في هذا القانون ، ولكنها على العكس ، ضاقت بذلك كله ، وشعرت بالهوان ، ولم تستسلم للطعم ، ورفضت في شمم هذه النهاية ، التي تستوي فيها بالأنعام وأحست :

أنه لا يمكن بعد ذلك أن تجد رجلا يحلها عن إخلاص، ويشاركها حياتها في غبطة ويسكن إليها في حب ، وهو يعلم يقينا : أن هذه المرأة يمكن أن تغرر بحبه ، وتهوى غيره ، وتستسلم لهذا الغير ، وتعطيه الجسد والفؤاد دون أن يكون لزوجها عليها حق الطاعة أو حق العفاف ... بله كرامة الشرف وصيانة القلب ... ويعني هذا أن تفقد المرأة في طريق حياتها (الأمين) الذي يستقيم بجوارها بعد والديها ... إلى نهاية الحياة .

وأنه لا يمكن بعد ذلك أن تطمع في ولد تخصه بحبها ، وتطرح عليه من كرامتها ، وقد فر الزوج خوفا من ضياع الشرف ، ولوثة الولد ... ورأت المرأة الغربية الحديثة أنها ستمضي وتخلف دنياها لا كجداتها - اللواتي بنين الأسرة من ثلاث طبقات : الوالدين . والأبناء ... والأحفاد ... في نزاهة وشرف لا ... ستمضي دون أن تضع لبنة ... حتى في الطبقة الأولى .

وثارت ضيقة بهذا كله ، وحملت الصحف صباح ٢٤ / ٤ / ١٩٦٥ ثورتها . ونقلت أخبار اليوم عنوانها :

« مظاهرة نسائية احتجاجا على الحرية الجنسية في السويد » .

وقد شملت ثورة النساء السويديات أنحاء البلاد احتجاجا على إطلاق الحريات الجنسية في بلادهن . . وتقدمن باحتجاجهن إلى المسئولين ، وبلغن في استكهولم وحدها نحو مائة ألف امرأة .

إن نساء السويد بالذات يتوقعن الكارثة ويحسسن بها أكثر من الأخريات . . لقد بلغن قمة الحضارة . . والمساواة . . ولم يعطين الوطن أطفالا . . وتلك نكبة السويد التي يتناقص عددها عاما بعد عام ... فحق المرأة أن تسترد من الذين سلبوها بالخداع كل شيء - حقها في حياة كريمة شيئا بعد شيء . ونحن نقول لهذه المرأة بالغرب : سدد الله خطاك . . وربما قالها رجال في الشرق ... للمرأة الشرقية بعد مئات السنين ... حين ينتهي بها الطريق وتأتي خاتمة المطاف .

علي الخطيب
مجمع البحوث الإسلامية

---

(١) الأهرام ٢١/١٢/١٩٦٤ ص ٥ ع ٢ .

دسائس اليهود

للأستاذ محمود محمد شبكة

رحب اليهود فى المدينة بالضيف القادم والنزيل الوافد ، ولم يكن هذا الترحيب ناتجا عن شعور بالكرم ، أو إحساس بالمروءة ، وإنما كان مرده ومبعثه أن اليهود ظنوا محمدا صلى الله عليه وسلم الرجل الذى يمكن أن يستمال ، والداعى الذى يمكن أن يستغل .

ظنوا أنه من الممكن أن يتحالفوا مع الرسول ضد النصرانية التى أجلتهم عن أرض الميعاد (فلسطين) ومن أجل ذلك هشوا لاستقباله وخفوا للترحيب به . وقد بادلهم الرسول تحية بتحية ، ووثق صلته بهم وتقرب إليه رؤساؤهم وكبراؤهم بوصف أنهم أهل كتاب موحدون ، وعقد معهم معاهدة صداقة وتحالف فيها تقرير لحرية العقيدة وحرية الرأى .

وقد كانت هذه المعاهدة الملزمة والمعاملة الحسنة كفيلة بأن تستل الأحقاد من نفوسهم وتنزع الضغينة من قلوبهم لو أن نفوسهم كانت صافية ، ولكن أنى لليهودى أن تصفو نفسه ، ويستريح ضميره ، وهذه دعوة محمد تفتح لها مغالق القلوب ، ويدخل فيها الناس أفواجا ، وقد بدأت القلة تكثر ، والسلطان يعظم ، والنفوذ الروحى يمتد ، لقد كان اليهود يؤملون الاستعانة بمحمد على النصارى ، وإذا بمحمد أقوى من هؤلاء وأولئك .

حينئذ تحرك داؤهم القديم ، وظهر حقدهم الدفين ، وبخاصة حين أسلم عبد الله بن سلام وهو حبر من أحبارهم ، وبدءوا يحاربون الرسول وصحبه بالجدل والدس والوقيعة ، ويرجون من وراء ذلك أن تنحل الرابطة وينفرط العقد ، وتتفرق الجماعة ، ولكن هيهات هيهات ، لقد أحكم الإسلام الرابطة ، ووثق الألفة ، وصفى النفوس .

مر يهودى يدعى شاس بن قيس على نفر من الأوس والخزرج وهم يجتمعون فغاظه ما هم فيه من ألفة ومحبة فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد وما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم من قرار ، وجاء إلى شاب من اليهود فقال له : أعمد إليهم ، فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث ، وأنشدهم ما كانوا يتقاولون به من الأشعار ، ففعل الشاب ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة ، ونادى هؤلاء : يا آل الأوس ونادى هؤلاء : يا آل الخزرج ، ثم خرجوا

للحرب ، وقد أخذوا السلاح ، واصطفوا للقتال ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج فيمن كان معه من المهاجرين فقال : يامعشر المسلمين : الله الله . اتقوا الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم إلى الإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ». حينئذ أدرك القوم أن ما حدث كان دسيسة يهودي فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج ، ونزل في شاس بن قيس وأمثاله قول الله تبارك وتعالى : « قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا ، وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » . ونزل في شأن الأنصار قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله ، وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

ولقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتحدث إلى يهودي يسمى فنحاص ويدعوه إلى الإسلام ، فرد عليه فنحاص هذا بقوله : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه أغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ، ويعطيناه ، ولو كان غنيا ما أعطانا ! يشير اليهودي ، إلى قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » .

لكن أبا بكر على ما كان عليه من دماثة خلق ، وطول أناة لم يطق صبراً على هذا الجواب فثارت حفيظته واشتد غضبه وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله ، وشكا فنحاص أمره إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنكر ما قاله لأبي بكر فنزل قوله تعالى « لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول : ذوقوا عذاب الحريق » .

ولقد بلغت باليهود الجرأة والوقاحة أن حاولوا فتنة الرسول نفسه حينما ذهب إليه أحبارهم وسادتهم وقالوا له : إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإنا إذا اتبعناك اتبعك اليهود

ولم يخالفونا ، وإنا بيننا وبين قومنا خصومة فنحتكم إليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك فنزل فيهم قوله تعالى «وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون .!؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » .

ولم يقف الأمر باليهود عند هذا الحد بل حاول بنو النضير اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم حينما ذهب إليهم يستعينهم فى دية قتيلين ، ولكن الله سبحانه وتعالى حفظه من كيدهم ونجاه من شرهم كذلك انضم بنو قريظة إلى المشركين فى غزوة الأحزاب بغية القضاء على المسلمين كما حاولت زينب بنت الحارث قتل الرسول بعد أن وقع الصلح بينه وبين أهل خيبر بأن أهدت إليه شاة مسمومة ، فجلس وأصحابه حولها ليأكلوها وتناول عليه السلام الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ، وكان بشر بن البراء قد تناول منها مثل ما تناول الرسول ، فأما بشر فأساغها وازدردها وأما الرسول فلفظها وهو يقول: إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ثم دعا بزينب فاعترفت ، وقالت : لقد بلغت من قومى ما لم يخف عليك . فقلت : إن كان ملكا استرحت منه . وإن كان نبيا فسيخبر .

أما بشر فقد مات من أكلته هذه ، وكان لهذه الفعلة أثرها العميق فى نفوس المسلمين إذ جعلتهم يخشون غدر اليهود فرادى بعد أن تخلصوا منهم جماعات .

ويقول الأستاذ محمد خليفة التونسى فى كتابه «الخطر اليهودى»: (اليهودى يهودى قبل كل شىء مهما تكن جنسيته ومهما يعتنق من مبادىء وعقائد فى الظاهر ليخدم باعتناقها نفسه وأمته فهو يتجنس بالجنسية الأمريكية أو الإنجليزية أو الفرنسية ويؤيد جنسيته طالما كان ذلك فى مصلحته اليهودية فإذا تعارضت المصلحتان لم يكن إلا يهوديا فعضد يهوديته وضحى بجنسيته الأخرى ، واليهودى ، يسلم أو يتنصر نفاقا ليفسد الإسلام والمسيحية أو يوجه تعاليم هذا الدين الجديد وتقاليده وجهة تعود بالخير على اليهودية أو يبث روح المروءة لهم ، والعطف عليهم) .

وهذا الكلام ينطبق تماما على شخصين كلاهما كان له خطره الفاحش وضرره البالغ فقد أسلما تظاهراً وخداعا أولهما : كعب الأحبار ، وثانيهما : عبد الله بن سبأ ،

أما كعب فهو من يهود اليمن أظهر إسلامه حينما تضاءلت اليهودية فى بلاد اليمن ، ورأى الإسلام ينمو ويزدهر وتعز دعوته الآفاق

أسلم ليجد لحقده متنفساً ولسمومه مجالا .
والمحققون من الباحثين يؤكدون اشتراك كعب الأحبار فى مقتل عمر ، أو على الأقل كان يعلم بالمؤامرة التى دبرت لاغتيال خليفة رسول الله ، ويستدلون على ذلك بالحديث الذى دار بينه وبين عمر بن الخطاب قبل وفاته حينما هدده أبو لؤلؤة ، وقال له : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ، ثم انصرف عنه ، فقال عمر : لقد توعدنى العبد آنفاً .

فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال : يا أمير المؤمنين . أعهد ، فإنك ميت فى ثلاثة أيام ، فقال : وما يدريك ؟ . قال : أجده فى كتاب الله التوراة ، فقال عمر : الله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ، فقال : اللهم لا ، ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً .

فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار وقال له : يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان ، ثم جاءه من غد الغد وقال : ذهب يومان وبقى يوم وليلة ، وهى لك إلى صبيحتها . فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة فطعن .

فهل يشك أحد بعد ذلك فى أن لهذا الرجل علما تاما بالمؤامرة ، ومعرفة أكيدة بالوقت المحدد لاغتيال عمر ، إن التوراة مقروءة متداولة وليس فيها شىء مما قاله كعب عن صفات عمر .

والتوراة كتاب أنزل ليبين للناس أحكام الدين وأصول الشريعة لا ليتحدث عن وفاة رجل لم يكن خرج إلى الحياة بعد .

ويقول الخضرى رحمه الله : (لو كنت ممن يحقق فى هذه القضية ما ترددت لحظة فى أن لكعب يداً فى مقتل عمر ، أو أنه كان عالما بما تم عليه الاتفاق بين المتآمرين) ، وقد استطاع كعب أن يفيض علينا ثروة واسعة من الأخبار الإسرائيلية التى هى فى حقيقتها محض كذب وافتراء والعجب أن كثيراً من علماء المسلمين تقبلوا هذه المفتريات بقبول حسن دون معرفة لحقيقتها ودراية بمصادرها .

أما عبد بن سبأ فهو ابن أمة سوداء ولذلك لقب بابن السوداء ، وهو من يهود اليمن كذلك ، أسلم فى أيام عثمان بن عفان ، ثم استغل الفتنة وصار يتنقل فى الأمصار يحرض على الخليفة ، ويغرى به ، ويذيع عنه قالة السوء ، ذهب إلى البصرة فأخرجه منها عبد الله بن عامر حينما علم بحقيقة أمره ثم ذهب إلى الشام فأخرجه معاوية فاتجه إلى مصر ، وفيها وجد من يساعده على بدعه ومكائده ، فكان يتحدث إلى الناس بأن النبى محمدا أحق بالرجعة من عيسى ويذكر قوله تعالى : « إن الذى فرض عليك القرآن

لرادك إلى معاد » ، وكان يقول : إن لكل نبي وصياً وعلي وصي محمد ، وعلي خاتم الأوصياء ، كما أن محمداً خاتم الأنبياء ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصيه ، ومنعه حقه ، وتناول أمر هذه الأمة بغير الحق .

ثم قال : إن عثمان اغتصب الأمر بغير الحق من صاحبه (علي) فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس . ثم أخذ ينتقص من أقدار الأئمة ويذم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ولما بلغ ذلك علياً قال : مالي وما لهذا الخبيث الأسود الذي يكذب على الله ورسوله ، ثم يقوم إلى علي وهو يخطب فيقول له : (أنت أنت) فيقول له علي : ويلك من أنا . فيقول : أنت الله . ومن هنا بدأ فكرة تأليه علي ، وقد أمر أمير المؤمنين بقتله بعد أن سمع منه هذا الكلام . ولكنه اكتفى بنفيه إلى المدائن .

هؤلاء هم اليهود في مؤامراتهم ودسائسهم وحقدهم على الإسلام وأهله ، وعلى الرسول وصحابته . وما زالوا حتى يومنا هذا وحتى يرث الله الأرض ومن عليها يواصلون مؤامراتهم ومكائدهم . فقد استطاعوا بمساعدة الاستعمار الاعتداء على شعب مسالم وادع هو شعب فلسطين . وأخرجوه من بلده ظلماً وعدواناً ، وارتكبوا في سبيل ذلك من المخازي والفضائح ما يندى له الجبين ولم تقف أطماعهم عند هذا الحد بل امتدت أبصارهم إلى توسيع الرقعة وتشجيع الهجرة والتمكن في الأرض والإضرار بالعرب ففكروا في تحويل مجرى نهر الأردن علماً بأنه ليس لليهود أي حق سياسي أو قانوني في تحويل هذا النهر . فإن القانون الدولي ينص على أنه لا يحق لأية دولة من الدول المشتركة في مجرى نهر واحد أن تحول مجرى هذا النهر بحيث يتسبب عن هذا التحويل إضرار بالدول الأخرى المشتركة فيه [١] .

ولكن متى اعترفت إسرائيل بالقانون ؟ ومتى أقرت المعاهدات واستجابت للنداء ؟ ولذلك جاءت قرارات العرب في مؤتمر القمة الأول والثاني ضربة قاضية ولطمة قاسية أطاحت بأمل إسرائيل وأفسدت خططها وأحبطت مؤامرات اليهود ؛ بل وقربت من نهايتهم وعلى نفسها تجني براقش ؟

محمود محمد شبكة

(١) نهر الأردن والمؤامرة الصهيونية ص ٢٠٧ .

تمبكتـــــو

أقـــدم مراكز الإســـلام فى غرب إفريقية

للأستاذ محمد جـلال عبّاس

مقـــدمة :

على أحـد المدرجات الجنوبية للصحراء الكبرى ، وعلى ارتفاع يبلغ نحو ٢٦٠ مترا فوق سطح البحر تقع مدينة « تمبكتو » ، على بعد بضعة كيلو مترات من رأس المنحنى الشمالى لنهر النيجر (نيل السودان كما سماه الجغرافيون العرب) تحيط بها رمال الصحراء الكبرى من الشمال ، ويصلها ذراع من النهر يحف بجنوبها . يجرى بالمياه الدافقة فى فصل الفيضان وتستمر به المياه سائر فصول السنة ولذلك أصبحت تمبكتو توصف بأنها ميناء الصحراء ، وذلك لأنها ملتقى الإبل بالقوارب.

كانت هذه المدينة هى أول مركز ازدهر بالثقافة الإسلامية فى غرب إفريقية ، بدأت بالإسلام ، وازدهرت بثقافته ، وأصبحت مركزا لنشره ، ومحط أنظار الراغبين فى علومه ثم أصابها الاضمحلال ، ولكنها أخفت بين جدرانها نورا أشعته فى فترات مختلفة ، ثم أخذ الازدهار يعود إليها فى ظل جمهورية « مالى » المستقلة .

وسوف نتناول فى هذا المقال دراسة لنشأة المدينة وتاريخها وتطورها ونشير إلى أمجادها الإسلامية .

أسطورة حـول تسمية المدينة :

اتخذ قسوم من الطوارق موقع التقاء الرمال بماء نيل السودان مضربا لخيامهم فى فصل الجفاف التام حيث كانوا يجدون السقاية لإبلهم وأغنامهم ، واعتادوا ذلك كل عام ، وظلوا هكذا عشرات السنين ، وحدثنى بهذا الحديث بعض شيوخ المدينة ، وقد اتفق أكثرهم على أن زعيما من زعماء عشيرة الطوارق « المقشرن » (١) . رأى يوما على شط النهر حسناء من قبائل « الصنغاى » شـــديدة السمرة جميلة الجسد ، كانت تمتاز بين بنات قبيلتها بأن موضع الحبل السرى مقطوع قطعا سليما لم يخلف بروزا بل كان غائرا مثل « البكت » (٢) ، فأعجب الزعيم الطارقى بجمالها وأحبها ، وقرر الإقامة

---

(١) تحريف لكلمة المقشرين أى البيض لأن الطوارق كانوا شديدى بياض البشرة .

(٢) بكت فى لغة الصنغاى معناها الصحن الصغير

الدائمة هناك من أجلها ، وأقام له بالموقع أول بناء ثابت من اللبن ليقطنه بجوار ديار عشيقته .

وقد قال البعض : إن هذا الأمير الطارقي قد استرق هذه الفتاة ، وقال آخرون : إنه قد تزوجها بعد أن دخل أهلها الإسلام ، وقالت جماعة أخرى : إنه حاول خطفها فقتلت في المعركة ، ولكن الذي أجمعوا عليه هو أن صفة هذه الفتاة (ذات الصحن) أو بلغة الصنغاي (سن بكست) قد أطلقت على المدينة تذكارا لهذه الحسناء التي من أجلها بني أول بيت في المدينة ونما العمران من حوله . وهذا هو الاسم الذي عرفت به المدينة لدى الكتاب العرب الأوائل .

نشأة المدينة ونموها :

يتفق حديث تسمية المدينة ذلك مع ما ذكره عبد الرحمن السعدي في تاريخه من أن الموقع كان منزلا لبعض رعاة الصحراء يلجئون إليه لرعي أغنامهم في فصل الجفاف ويرحلون عنه في الخريف (فصل المطر) ولما أصبح الموقع معروفا نشأت به سوق صغيرة . كان الطوارق يقايضون فيها أغنامهم بالحبوب التي يحملها الصنغاي في قواربهم الصغيرة ، ثم عرف الموقع على مدى أبعد وكبرت المدينة ونمت وأضحت سوقا هامة يقصدها التجار بطريق النهر ليلتقوا بقوافل الصحراء الآتية من الشمال .

وقد تحولت الخيام التي كان يضربها الطوارق في الموقع إلى أكواخ من الحشائش وفروع الشجيرات ثم تطورت إلى بيوت مبنية من قوالب اللبن في أوائل القرن الثاني عشر (١) .

وجاء انتقال المدينة من مرحلة النشأة الأولى إلى مرحلة النمو في عهد المرابطين الذين أشاعوا في الصحراء وأطرافها بعض الاستقرار ثم ازدادت أهميتها كمركز تجاري خلال القرن الثالث عشر بازدياد حركة النقل على طرق القوافل التي كانت تصلها بالشمال وأهمها طريق مراكش الذي كان يعبر الصحراء شمالا مارا : بأروان ، وتاودني ، وتغازا ، ثم يعبر جبال الأطلس إلى مراكش وطريق الشرق الذي كان يتجه من تمبكتو إلى أجادس ، ثم شمالا إلى واحة مرزوق في الصحراء الليبية حيث كان يصل إلى مصر شرقا أو إلى طرابلس شمالا . وكان فرع منه يتجه إلى كانو ، ومنها إلى بداية طريق الأربعين في الفاشر ثم إلى مصر أيضا (٢) .

وعلى هذه الطرق كان ينقل إلى تمبكتو الملح والأقمشة من الشمال ومن الصحراء ، ويصدر منها الذهب الذي اشتهرت به بلاد السودان وتعتبر تجارة الملح من العوامل الهامة التي ساعدت على ازدهار مدينة تمبكتو في خلال القرنين : الثاني عشر والثالث عشر ، وذلك لأن منطقة النيجر كلها كانت تعتمد على الملح الوارد من تغازا التي تبعد نحو ٦٠٠ ميلا شمال غربي تمبكتو .

---

(١) فيج ص ١١٦ .

(٢) فيتزجيرالد (والتر) ص ٤١٥ .

وكادت أهمية تمبكتو تضيع كمركز تجارى حينما استولى ملوك مراكش على منطقة مناجم الملح فى تغازا لولا أن اكتشفت مناجم جديدة للملح فى « تاودنى » الأقرب إلى تمبكتو مما سهل نقله إليها وعوضتها بذلك تاودنى خيرا من مناجم تغازا .

ومن العوامل التى ساعدت على ازدهار تمبكتو كمركز تجارى هو ضم منطقتها إلى مملكة مالى ثم إلى امبراطورية الصنغاى حيث كانت غالبية صادرات هاتين المملكتين من الذهب والعاج والأخشاب الثمينة والجلود هى السلع المطلوبة فى المغرب ، وكانت تمبكتو تصدر هذه السلع مقابل الملح والأقمشة المطرزة والجلود المصنعة والأوانى الفضية وغيرها من السلع الثمينة التى كانت تستخدم فى بلاط الملوك ، وكذلك الخيول التى كانت من مظاهر الأبهة والعظمة فى هاتين المملكتين .

اكتساب المركز الدينى والعلمى

ولقد ارتبط ازدهار المدينة كمركز تجارى باكتسابها مركزاً دينياً وعلمياً هاما ، إذ سرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار فأخذوا يشخصون إليها من المغرب الأقصى والأندلس ؛ بل ومن مصر ، وغدامس ، وطوات ، وتافيلت وغيرها (١) .

وجاء انتقال مركز نشاط الثقافة الإسلامية إلى تمبكتو تدريجيا ، ذلك أن بعض العلماء والدعاة أقاموا فيها منذ نشأتها ، غير أن مركزها ككعبة للعلوم الإسلامية لم تكتسبه إلا منذ القرن الرابع عشر ، ولقد مرت حركة انتقال مركز الثقافة العربية والإسلامية إلى تمبكتو بالمراحل التالية :

١ — نزل أبناء قبيلة جدالة الذين كانوا يعتبرون فقهاء الصحراء فى منطقة « ادرار موريتانيا » حيث اتخذوا كومبى أو قنبى مركزاً لهم ، وظلوا فى كومبى سنين طويلة يستقبلون الراغبين فى دراسة الفقه وعلوم الدين ليتخرجوا على أيديهم مبشرين بالإسلام ومعلمين لقواعده الصحيحة فى البلاد الأخرى وقد نزل بعض هؤلاء التلاميذ مع الطوارق المقشرين إلى تمبكتو منذ فجر نشأتها ، وكانوا من عشيرة تسمى السوك توارثت علوم الدين والعربية حتى يومنا هذا فى تمبكتو وجاد وغيرها من مدن شمال مالى

٢ — فى خلال القرن الثالث عشر استولت قبائل « السوسو » على « كومبى » فسادت بها الاضطرابات التى أدت إلى هجرة علماء وفقهاء جداله منها إلى المدن المجاورة ومنها « والاته » وتمبكتو ، ولكن نصيب والاته من العلماء فاق بكثير نصيب تمبكتو فظلت والاته تحتل مركز الصدارة والتفوق نحو نصف قرن من الزمان (١) .

---

(١) السعدى ص ٢٢ .

(١) بوفيل ص ٨٩ — ٩٠


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

استطاع أن يخضع تمبكتو وينفذ أمر السلطان المنصور محمد بأن يأتيه بعلمائها أسارى مكبلين، وكان أن نقل علماء تمبكتو وعلى رأسهم أحمد بابا إلى البلاط المراكشى حيث أرغمهم السلطان على التفرغ لكتابة ما يعلمون ويحفظون من علوم، وعاشوا هكذا فى فاس متفرغين لإحياء العلوم فيها.

ونقل المغاربة أيضا ما كان فى تمبكتو من كتب ورسائل مما وقعت فى أيديهم.

وبذلك فقدت تمبكتو مركزها العلمى وعاشت قرناً كاملا من الفوضى والاضطراب فى عهد باشوات مراكش ولكنها احتفظت بين جدرانها ببعض العلماء الذين كانوا يتابعون الدراسة والدرس سرا.

ومضات النور

وتتابع فى بلاد السودان الغربى ظهور ممالك إسلامية نهض بها زعماء القبائل الكبيرة مثل: البامبارا، الذين كونوا مملكة السيجو بزعامة كالاديان كوليبالى (١٦٥٠ - ١٦٨٢) الذى حاول ضم تمبكتو ولكنه لم يستطع فاكتفى بفرض الجزية على باشواتها، ثم استطاع «انجولو ديارا» أحد أحفاده بعد نحو قرن من الزمان أن يستولى عليها سنة ١٧٧٠ (١).

وقد شجع ديارا وورثته العلماء على الظهور من مخابئهم للإفتاء فى أمور الدين والنشر العلم والتبشير بالإسلام بين من لم يعتنقه من أبناء القبائل.

وخلف البامبارا فى حكم تمبكتو ملوك الفولانى وأهمهم: سيكو أحمدو (١٨١٠ - ١٨٤٤) الذى استطاع أن يستولى على تمبكتو، وشجع علماءها، واعتمد عليهم فى بعض الفتاوى، وخاصة الشيخ احمد البكاوى الذى كان بينه وبين سيكو أحمد رسائل كثيرة وخلافات فقهية عديدة (١).

وفى سنة ١٨٣٣ استطاع الحاج عمر الفوتى أن يكون امبراطورية أخذ يوسع أراضيها حتى شملت تمبكتو التى استولى عليها سنة ١٨٦٢ وشجع على إحياء علوم الدين فيها بل واستعان ببعض رجالها مثل: الحاج البكاى انقيبى فى نشر الإسلام على الطريقة القادرية بين بعض القبائل الوثنية مثل الدوجون والتوكولور (٢).

ثم أتاها الاستعمار:

فى ذلك الوقت من القرن التاسع عشر كان الفرنسيون يتقدمون من الجنوب ومن الغرب إلى بلاد السودان، وقد اتخذ الحاج عمر من تمبكتو قاعدة خلفية لهجومه المضاد على الفرنسيين الذين كانوا قد استولوا على مدينة كاى، غير أن مقاومته هو وأبناؤه قد خارت أمام القوات الفرنسية خاصة وأنه

(١) روبرت كورنيفان ص ٣٦٨

(١) فينسنت مونتى ص ٩٠

(٢) روبرت كورنيفان ص ٣٦٤

لم يكن قد استطاع تحقيق الاستقرار الكامل فى أرض مملكته ، وظل الفرنسيون يتقدمون فى أراضى السودان الغربى (مالى) فاستولوا على باماكو سنة ١٨٨٣ ثم استولوا على صيجو عاصمة مملكة الحاج عمر سنة ١٨٩١ وهاجموا تمبكتو آخر قواعد الحاج عمر الخليفة سنة ١٨٩٤ ، ولكن المعركة أمامها بين الفرنسيين وبين أحمدو بن الحاج عمر الذى كان أبوه قد عينه على هذه المدينة استمرت سنة كاملة دخل الفرنسيون بعدها المدينة بعد تخريبها وفرار الكثير من أهلها إلى الصحراء .

ورغم المحاولات العديدة التى قام بها الفرنسيون القضاء على الشخصية الإسلامية للمدينة إلا أن تمبكتو ظلت محتفظة بطابعها الإسلامى ، ونجح العلماء والمشايخ فى أن يحافظوا على العلم والدين بالمهادنة أحيانا وبالتلويح بالثورة والتهديد أحيانا أخرى وقد اضطر الفرنسيون أمام فشلهم فى سياستهم الصريحة أن يتبعوا طرق الخداع فأنشأوا فيها مدرسة عربية سنة ١٩١٦ وأدخلوا فيها الفرنسية تدريجياً حتى طغت على العربية وأصبحت العربية فيها لغة أجنبية ، وكان قصدهم من ذلك هو جذب بعض أبناء القبائل من الحسانية والحراثين والصنغاى إلى التعليم الحديث وإبعادهم عن التعليم الدينى فى مجالس المساجد وخلوات الفقهاء وبيوت العلماء (١) على أن مجالس العلم الخاصة والعرافين كانت تجذب كل أبناء القرية فظلت المدرسة على فخامة بنائها وضخامته لا تضم إلا عددا صغيراً من التلاميذ من أبناء الموظفين الذين يعملون فى المدينة .

وأيضا حاول الفرنسيون عزل تمبكتو عن العالم الإسلامى ، ولكن لم يستطيعوا ، فقد ظل علماء تمبكتو على اتصال دائم بعلماء الجزائر ، بل واتصلوا بمصر أيضا فى عهد جمال الأفغانى ومحمد عبده وخلفهم السيد رشيد رضا ، وكانوا على صلة أيضا بجمعية الشبان المسلمين ، وكان بعض أبناء المدينة يأتون إلى مصر للدراسة سيرا على الأقدام آلاف الكيلو مترات ويعودون حاملين كتب السلفية والكتب الحديثة التى طورت علوم الدين هناك .

اليوم والغد :

بهذا الاستعراض لتاريخ تمبكتو نرى أنها نشأت بالإسلام وازدهرت به وحافظت عليه ، وهى اليوم أهم مركز للثقافة العربية فى جمهورية مالى ، اتخذتها الحكومة بعد الاستقلال مركزا لنشر الثقافة العربية فدعمت المدرسة العربية بها وجعلت اللغة

(١) فرجينا تومسون وريتشاردأدولف ص ٤٢٩

(البقية على الصفحة التالية)

مايقال عن الإسلام

العروبة والاسلام

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

١ – فرانشسكو جبريلى يعد عميد المستشرقين فى إيطاليا فى الوقت الحاضر ، وهو أستاذ الأدب العربى واللغة العربية بجامعة روما ، له عدة كتب وكثير من البحوث والمقالات فى المجلات المتخصصة ، ومن هذه الكتب « الخليفة هشام » (صدر سنة ١٩٣٥) ، و « قصة الأدب العربى » (روما ١٩٥١) ، و « مظاهر من الحضارة العربية الإسلامية » : عبارة عن مجموعة محاضرات ألقيت براديو إيطاليا ١٩٥٧ ، وأخيراً كتابه عن « العرب » ، صدر باللغة الإيطالية سنة ١٩٥٧ ، وترجم إلى اللغة الفرنسية ، وطبع سنة ١٩٦٣ فى باريس ، وهو معجب بالعرب ، والمسلمين ، منصف لهم ، يجيد العربية ويعرفها كأحد أبنائها ، ويتمثل بآيات من القرآن الكريم ، ويأبى أن يترجمها إذ يبدو أن رأيه فى القرآن أنه لا يترجم ، ومن الآيات التى استشهد بها فى مقدمته « فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » كل ما فى الأمر أنه كتبها بحروف لاتينية لا بالرسم العثمانى .

والقضية التى يعرض لها جبريلى فى هذا الكتاب الصغير الحجم قضية خطيرة حقاً ، لم ينقطع الحديث عنها منذ ظهور الإسلام

(البقية على الصفحة السابقة)

العربية إجبارية فى جميع مدارسها بل ومدارس الأقليم الشمالى كله . واتخذت منها فى الصيف الماضى مركزاً لتدريب معلمى اللغة العربية من الوطنيين وتأهيلهم تأهيلا تربويا على أيدى أساتذة من مصر ، ليكونوا نواة لنشر اللغة العربية ـ لغة الإسلام الذى تدين به الغالبية العظمى من السكان .

وبذلك تخطو تمبكتو فى عهد مالى المستقلة نحو استعادة بعض أمجادها الماضية كمركز إشعاع الثقافة العربية والإسلامية فى إفريقية الغربيه .

فهى بحق كما وصفها عبد الرحمن السعدى المدينة الوحيدة فى العالم التى « ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن » .؟

محمد جمول عباس

مايقال عن الإسلام

العروبة والاسلام

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

١ ــ فرانشسكو جبريلى يعد عميد المستشرقين فى إيطاليا فى الوقت الحاضر ، وهو أستاذ الأدب العربى واللغة العربية بجامعة روما ، له عدة كتب وكثير من البحوث والمقالات فى المجلات المتخصصة ، ومن هذه الكتب « الخليفة هشام » (صدر سنة ١٩٣٥) ، و « قصة الأدب العربى » (روما ١٩٥١) ، و « مظاهر من الحضارة العربية الإسلامية » : عبارة عن مجموعة محاضرات ألقيت براديو إيطاليا ١٩٥٧ ، وأخيراً كتابه عن « العرب » ، صدر باللغة الإيطالية سنة ١٩٥٧ ، وترجم إلى اللغة الفرنسية ، وطبع سنة ١٩٦٣ فى باريس ، وهو معجب بالعرب ، والمسلمين ، منصف لهم ، يجيد العربية ويعرفها كأحد أبنائها ، ويتمثل بآيات من القرآن الكريم ، ويأبى أن يترجمها إذ يبدو أن رأيه فى القرآن أنه لا يترجم ، ومن الآيات التى استشهد بها فى مقدمته « فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » كل ما فى الأمر أنه كتبها بحروف لاتينية لا بالرسم العثمانى .

والقضية التى يعرض لها جبريلى فى هذا الكتاب الصغير الحجم قضية خطيرة حقاً ، لم ينقطع الحديث عنها منذ ظهور الإسلام

(البقية على الصفحة السابقة)

العربية إجبارية فى جميع مدارسها بل ومدارس الأقليم الشمالى كله . واتخذت منها فى الصيف الماضى مركزا لتدريب معلمى اللغة العربية من الوطنيين وتأهيلهم تأهيلا تربويا على أيدى أساتذة من مصر ، ليكونوا نواة لنشر اللغة العربية ـ لغة الإسلام الذى تدين به الغالبية العظمى من السكان .

وبذلك تخطو تمبكتو فى عهد مالى المستقلة نحو استعادة بعض أمجادها الماضية كمركز إشعاع الثقافة العربية والإسلامية فى إفريقية الغربية .

فهى بحق كما وصفها عبد الرحمن السعدى « المدينة الوحيدة فى العالم التى ، ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن » ؟

محمد جمول عباس

حتى اليوم ، وهى قضية الصلة بين العروبة والإسلام ، أهما شيء واحد أم شيئان مختلفان ، وإن كانا مختلفين فما حقيقة الخلاف بينهما ؟ وما هى المواضع التى تلتقى فيها العروبة والإسلام .

وقد برزت هذه القضية فى الأيام الأخيرة منذ ظهور نغمة القومية العربية ، تلك الموجة التى امتدت حتى شملت الناطقين بالضاد من الخليج إلى المحيط ، وبعبارة أخرى : الدول التى تضمها جامعة الدول العربية .

ونحن نعلم أن كثيراً من المفكرين وذوى الرأى وأصحاب القلم كتبوا فى القومية العربية وانقسموا فريقين : أحدهما يقرر أن العروبة التى ننادى بها فى الوقت الحاضر لا صلة لها بالدين ، إسلاميا كان أم مسيحيا ، والآخر يذهب إلى أن أهل هذه المنطقة لظروف تاريخية أصبح الإسلام جزءاً لا يتجزأ من كيانهم ، ولذلك امتزجت العروبة والإسلام فى حضارتهم ، فاتخذوا من العربية لسانا ومن الإسلام دينا .

وكاتب هذه السطور من هذا الفريق الثانى وله فى هذا الموضوع كتاب بعنوان « القومية العربية » صدر منذ بضع سنوات .

وقد أعجبنى الأستاذ : فرانسسكو جبرييلى لأنه يلتقى معى فى هذا الرأى ، ويدافع عن هذه الوجهة من النظر بأدلة رائعة ، وقبل أن نبسط رأيه نقول : إن الكتاب يقع فى ثمانية فصول الأول : عن العرب قبل الإسلام والثانى : محمد والإسلام والثالث : الخلفاء الراشدون والفتوحات الإسلامية ، والرابع : الامبراطورية العربية ، والخامس : الامبراطورية الإسلامية ، والسادس فى العرب والمغرب ، والسابع : فى العرب والترك ، والثامن : فى تأخر العرب والنهضة الحديثة ، ويتضح من تسلسل هذه الفصول على النحو المذكور أن العروبة فكرة ينظر إليها فى هذا الكتاب فى ضوء الأحداث التاريخية التى مرت عبر الزمان منذ الجاهلية إلى ظهور الإسلام وانتشاره وتكوين الامبراطورية العربية الكبرى فى العصر الأموى ، ثم فى صدر الدولة العباسية وبعد ذلك أخذ الإسلام يستقر وينتشر بعيداً بعض الشيء عن العروبة حتى أصبح السلطان الأخير للترك ، وأخيراً عادت القومية العربية إلى الظهور ، مما نعيش فيه بالفعل .

٢ — وليس ثمة نزاع فى أن أى باحث يتعرض للعروبة من زاويتها التاريخية لا بد له أن ينظر فى حال العرب فى الجاهلية ، أى قبل الإسلام ، من جهة موطنهم الجغرافى والبيئة الصحراوية التى كانوا يعيشون فيها وظروفهم السياسية التى أوجبت عليهم الاتصال بالفرس من جهة والروم من جهة أخرى

وهما أعظم دولتين متصارعتين فى ذلك الزمان ، وحياتهم الروحية وعباداتهم من وثنية منتشرة بين معظم قبائلهم ، يعبدون الأصنام ، إلى جانب فرق من النصارى واليهود ، وحياتهم الاقتصادية واشتغالهم بالتجارة بين اليمن والشام ومصر ووقوعهم على خط الطرق التجارية الوافدة من أقصى الشرق هذا إلى نمو لغتهم وشعرهم واحتفاظ هذه اللغة بالقيم الروحية والمثل العليا التى يمجدها العرب

وكل ذلك حسن ، إلا أنه كما يقول الأستاذ جبريلى (صفحة ٣٢) : إن أى حب رومانسى لماضى العرب لا يمكن أن يتنكر لهذه الحقيقة ، وهى أنه : لولا رسالة محمد ودعوته إلى الإسلام ، فإنهم كانوا فى أكبر الظن سيقبعون خلال عصور طويلة وسط صحرائهم تشغلهم الحروب القبلية وتفنى أبناءهم ، ويتطلعون إلى بيزنطة وفارس وكأنهما منارات بعيدة للحضارة لا يستطيعون بلوغها ، فلما جاء الإسلام إذا بهم يقرعون أبواب هاتين الدولتين قرعا عنيفاً بصوت الآمر النافذ الكلمة والسلطان . وهذا لا ينفى أن عرب الجاهلية كانت لهم خصال أصيلة من عشق الحرية ، وحفظ الجوار وإكرام الضيف إلى ما عرف عنهم من نخوة ومروءة ، مما قبله الإسلام ودعا إليه وأجازه

ومعنى ذلك أن الروح العربية سرت فى شرايين الدين الجديد دون أن تفقد شخصيتها فى هذا الدين ولكن الإسلام هو الذى علت كلمته وارتفع صوته من فوق منبر التاريخ .

٣ — ولا ينفصل الحديث عن الإسلام فى نشأته وظهوره عن التعرض لسيرة النبى عليه السلام ، ومن أجل ذلك عقد المؤلف فصلا خاصاً عن « محمد والإسلام » ، بدأه بقوله : « إن الإسلام ظاهرة مع أنه يتجاوز تاريخ العرب إلا أنه يستمد جذوره منهم ، وقد وجد فيهم وقت ظهوره القوة المحركة لانتشاره ذلك الانتشار الذى لم يتمكن أحد من صده . وظل الإسلام والعروبة قرنين من الزمان - من السابع الميلادى إلى التاسع الميلادى - صنوين ، وامتدت العقيدة الإسلامية فى قلب آسيا وعلى ضفاف حوض البحر الأبيض بسرعة سريعة ، حتى إذا اتضح أن ملكة الفتح وسلطان شعب واحد لا يتلاءمان مع انتشار الدين، توقف هذا التلاقى بين الإسلام والعروبة ، ولو ظلت العروبة على الدوام إسلامية فى شمولها ، لسار الإسلام بين الشعوب بطرق أخرى ، واحتفظ طابع من ذلك الجو العربى لا يمحى » .

وليس لنا اعتراض على ما قرره المؤلف ، اللهم إلا فى تقدير الزمن الذى بدأ الإسلام ينفصل فيه عن العروبة ، والرأى عندنا

أن حركة المد العربى ظلت متوافقة مع حركة المد الإسلامى حتى القرن السادس الهجرى على الأقل، ثم بدأت موجة أخرى من التراجع العربى، مع استمرار المد الإسلامى، ويكفى أن نقرأ لأبى الريحان البيرونى - وهو فارسى - فى القرن الخامس الهجرى يقول ما فحواه: إن الهجو بالعربية أحب إليه من المدح بالفارسية، لنعلم أن العروبة كانت لا تزال مسيطرة على العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى، ولعل هذا يجرنا إلى تحديد معنى العروبة، فنقول: إنها لغة أولا وقبل كل شىء، فكل من يصطنع اللغة العربية لسانا فهو عربى، مسلماً كان أم غير مسلم، ولكن الظروف التاريخية جعلت معظم سكان المنطقة العربية من المسلمين فالتق الإسلام بالعروبة على أرض الإمبراطورية الإسلامية، ويمكن أن يضاف إلى اللغة العربية المميزة للعروبة: الحضارة والآمال والآلام المشتركة، بل والدين باعتبار أن لغة الإسلام وكتاب المسلمين هو القرآن الذى أنزل بلسان عربى مبين، والذى أنزل قرآنا عربياً، ولذلك ذهب أغلب المسلمين، - وهو الرأى الراجح الذى نأخذ به - إلى أنه لا يجوز ترجمة القرآن، وإن جازت ترجمة معانيه، وأنه لا تجوز الصلاة إلا بقراءة القرآن بالعربية، وإن أفتت قلة قليلة من الفقهاء بجواز قراءة الفاتحة مترجمة، وعندنا أن هذا باطل، والدليل على ذلك: أن المسلمين فى صدر الإسلام لم يقبلوا الإسلام بغير العربية، فكانت النتيجة أن هذه اللغة أصبحت لغة عالمية، يرددها المسلمون من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غربا، وكانت اللغة العربية إلى ذلك لغة الحضارة، ألفت بها العلوم المختلفة من طب وهندسة وفلك وغير ذلك..

ولكن النعرة الشعوبية، من الفرس تارة، ومن الترك تارة أخرى، ظلت تهاجم العروبة هجوماً لا هوادة فيه طوال قرون وقرون، حتى أفلح الفرس فى محو اللغة العربية من أرض إيران بحيث لا يتكلمها اليوم إلا رجال الدين فقط، أما بقية الشعب فيجهلونها جهلا تاماً، ونحن نخشى أنه على مر الزمن سيتحلل الشعب كذلك من إسلاميته، لأن الذى كان يربط المسلم بدينه هو القرآن العربى، ولم يعد القرآن بعد فقدانهم اللغة العربية هو القرآن الذى يؤثر فى النفوس، لأن قراءته مترجماً لا تحدث نفس الأثر.

٤ — هذه هى الدعوى الأساسية التى يبسطها المؤلف فى كتابه، نعنى المد العربى الإسلامى، ثم الجزر العربى على الرغم من انتشار الإسلام، إلى أن ينتهى إلى النهضة العربية الحديثة.

هذا العرض الشامل التاريخي لابد أن يتعرض للسياسة ، من جهة أن تفسير الحوادث التاريخية لابد أن يتضمن تفسيراً سياسياً ، من قيام دول ، وسقوط أخرى ، ونشوب حروب وما إلى ذلك ، ولما كان الكتاب صغير الحجم لم يكن من الميسور أن يتبسط فى التأويلات السياسية ، فضلا عن أن السياسة ليست مقصودة عنده لذاتها ، وإنما غرض المؤلف أن يستعرض الحركة العربية ، منذ الجاهلية إلى الإسلام إلى العصر الحاضر ، فى شتى مظاهرها الحضارية وبخاصة من جهة مظهرها الدينى ، باعتبار أن الإسلام هو الذى صبغ العروبة وطبعها بطابع لا يمحى .

من أجل ذلك يجد القارىء عرضاً سريعاً جدا لحياة الرسول ، ودعوته ، وهجرته ، وغزواته ، وفتح مكة ، ثم النزاع على الخلافة بين الأنصار والمهاجرين ، وتولى أبى بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب من بعده ، ومع الشيخين استقرت دعائم الإسلام ، وتمت الفتوحات الكبرى ، وانتصار العرب على الفرس والروم ، فلما تولى عثمان حدثت الفتنة الكبرى ، وقتل الخليفة الثالث ، وتولى على بن أبى طالب فوجد أمامه مشاكل سياسية كحرب طلحة والزبير وعائشة ، ثم حرب معاوية وما انتهت إليه هذه الحرب من مقتل على بيد الخوارج ، وبذلك انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وأصبح الملك مع معاوية ملكا عضوضا ، وتأسست الامبراطورية العربية وكانت عاصمتها دمشق .

ويذكر المؤلف أن تاريخ الأمويين غامض وأنه زيف على يد العباسيين الذين كان الفرس من ورائهم ، وأن التاريخ الأموى يجب أن يكتب من جديد فى ضوء العروبة ، حقا العباسيون عرب ، وخلفاؤهم يمتون بصلة إلى العباس عم النبى عليه السلام ، إلا أن النفوذ الفارسى بوجه خاص كان يحركهم ، إذ قامت الدعوة بخراسان ، وجند الفرس هم الذين انتصروا على مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان الوزراء حتى خلافة الرشيد من البرامكة ، وهم أسرة من نبلاء الفرس ، مكنوا لأنفسهم فى الأرض ، وأصبحت لهم دولة داخل الدولة ، حتى خشى الرشيد على سلطانه منهم ، ففتك بهم وقضى عليهم . ولكن الخلفاء بعد أن اتخذوا جندا من الأتراك ، ومن الفرس ، أصبحوا هم أنفسهم ألعوبة فى يد القواد العسكريين ، ومنذ القرن الرابع الهجرى بدأ نفوذ الترك يستشرى ويتغلب على النفوذ العربى . وانقسمت الامبراطـــورية إلى دويلات وتفككت الامبراطورية ، على الرغم من ازدهار الحضارة الإسلامية .

٥ – يفتتح المؤلف الفصل الأخير عن تدهور العرب ونهضتهم بقوله : إن سيطرة الترك التي استمرت على العرب منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى العشرين ، والتي جاء الاستعمار الأوربي في عقبها ، تتميز ببلوغ التدهور العربي أوجه ، ويبدو أن العرب انطووا على أنفسهم في أول الأمر ، ورضوا بهذا المصير ، وخضعوا للشعب الأجنبي عنهم جنسا ولغة ، ولكنه مشارك لهم دينا ، والذي استطاع أن يمتص حضارتهم ، ولم يلبث أن ظهر في مصر والشام والحجاز تيارات وطنية عربية ، ثم يقول المؤلف – وهو على حق – : إن التيار الانفصالي في مصر على يد محمد على لم يكن تياراً عربياً ، أما التيار العربي الأصيل ، البعيد عن كل أثر أجنبي فهو الذي ظهر في الحجاز باسم الحركة الوهابية ، التي تعد إحياء للمذهب الحنبلي ، وخلاصة الدعوة الوهابية الرجوع إلى الإسلام في فطرته الأولى ، وإلغاء كل مادخل على الإسلام من مظاهر مدنية بعيدة عن جوهر الدين ، ويمضي المؤلف بعد ذلك في استعراض الحوادث السياسية أثناء القرن التاسع عشر في مصر والحجاز والشام ، وحروب محمد على مع السلطان ، وكيف وقف عند حدود مصر سنة ١٨٤٠ ، وكيف تطورت الحوادث بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى ، وانهزام الأتراك . وانفصال ولاياتها عنها ، وظهور النزعات الاستقلالية في البلاد العربية ، ويستمر المؤلف في عرضه حتى الستينات من هذا القرن ، فيذكر ثورة عبد الناصر وتطورها حتى سنة ١٩٦١ .

٦ – وأحسب – وقد لخصت للكتاب بما أرجو أن يكون تلخيصا أمينا – أنه قد حان الوقت لتوجيه بعض الانتقادات للمؤلف ، واقفين عند أمور ثلاثة :

الأولى : أن الغرض السياسي كان طاغياً على المؤلف ، وبخاصة في النصف الأخير من الكتاب ، مع أنه في النصف الأول منه لم يقف عند حدود السياسة فقط بل تجاوزها إلى ألوان الحضارة العربية كلها ، ثم إن المؤلف وقد فطن إلى أن العروبة لا يمكن أن تنفصل عن الإسلام ، كان جديراً به أن يمضي في هذا الطريق ، فيبين لنا كيف يمكن أن يتفاعل الإسلام مع العروبة مرة أخرى فتقوم النهضة العربية الحاضرة على أساس من تعاليم الإسلام .

الثاني : أنه أشار إلى الوهابية باعتبار أنها الحركة العربية الخالصة من كل أثر أجنبي ، وحدثنا عن تاريخ هذا الداعية وصلته بالسعوديين أمراء نجد ، ولكنه لم يحدثنا عن تيارات عربية إسلامية مماثلة ظهرت في العالم العربي ، نذكر منها حركة الأفغاني

والشيخ محمد عبده في مصر ، والسنوسية في شمالي إفريقية .

وهذه الحركات الثلاث تعزف جميعاً على قيثارة واحدة ، وتصدر نغمة واحدة ، مع اختلاف التفاصيل ، فهي كلها حركات تجديد وإصلاح ، وهي كلها تبغي الرجوع بالإسلام إلى فطرته الأولى وتخلصه من الشوائب التي دخلت عليه وتسد غريبة عنه ، وهي كلها تدعو إلى الوقوف في وجه التقليد وفتح باب الاجتهاد ، غير أن الوهابية - لأنها كانت متطرفة في التمسك باليمين الإسلامي - كانت متزمتة غاية التزمت حتى لقد أمرت بهدم شواهد قبور الصحابة في المدينة .

أما السنوسية : فقد اتجهت وجهة تربية دينية ودفاعية ، فأنشأت الكتاتيب والمدارس والأربطة في شتى أنحاء ليبيا وتونس والجزائر ، وكان لها أثر لا نزاع فيه في التمسك بالإسلام في مواجهة النزعات الصليبية الوافدة على شمال أفريقيا ، وتعد حركة جمال الدين ومحمد عبده حركة إصلاح معتدلة ، تقوم على تفسير الدين تفسيرا اجتماعيا وفلسفيا يتلاءم مع روح العصر الحاضر ، وتفسير المنار الذي بدأه الشيخ محمد عبده ، وتبعه في ذلك الشيخ رشيد رضا أشهر من أن ينوه به ، والاتجاهات المعاصرة في التفسير التي نقرأها ونسمعها في المذياع إنما هي ثمرة هذا الاتجاه الجديد .

الثالث : أن المؤلف لم يذكر الأزهر - وهو منارة الإسلام وراية العروبة وحصن العربية - بحرف واحد في كتابه ، قد يقول قائل : إنه يكتب عن العرب لا عن الإسلام ، ولا شأن للأزهر بالعرب ، ونحن نقول في الجواب : إن الإسلام والعروبة لا ينفصلان ، وإن الدفاع عن الإسلام ، دفاع عن العروبة وبخاصة إذا كان هذا النوع من الإسلام قائما على كتاب الله الكريم باللغة التي أنزل بها ، ونعوذ بالمسلمين أن يفرطوا في كتابهم العربي أو يقبلوا ترجمته ، ونحن نعلم : أن المسلمين من شتى بقاع العالم ، من أندونيسيا والهند والباكستان إلى مراكش والكونغو والصومال يحضرون دروس العلم بالأزهر فيتعلمون اللغة العربية كما يتعلمون الدين ، ويعودون إلى بلادهم أئمة المسلمين وهداة الدين ، فإذا كان العرب سائرين اليوم في طريق النهضة ، فلا جرم أن الأزهر قوة دافعة في طريق هذه النهضة .

وبعد ، فإن الأستاذ جبرييل مشكور لحسن دفاعه عن العرب في قضيتهم التي يرى أنها لا تزال في بدايتها ، وأنها كما يقول في ختام كتابه : تنفجر عن طاقات جديدة تشهد بأن رسالة العرب في البحر الأبيض وفي الشرق الأدنى لم تتحقق بعد .؟

أحمد فؤاد الأهواني

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

ترانيم الليل :

للأستاذ على الجندى

ديوان جديد للمؤلف يقع فى ثلثمائة وأربعين صفحة من القطع الكبير ، قدم له الأديب الكبير الدكتور شوقى ضيف الأستاذ بكلية آداب القاهرة بمقدمة موجزة أشار فيها إلى أن المؤلف الشاعر يوقع ترانيمه وألحانه على أوتار قيثارتنا الشعرية الموروثة عن الآباء والأسلاف ، والتى تهزنا وتروعنا بما تقدمه لنا من غذاء للعقول وشفاء للقلوب والنفوس ، لا لأنها تراث الأسلاف والآباء فحسب ، ولكن لأنها أيضا تحمل رحيقا موسيقيا صافيا ، يلذ الآذان كما يلذ الأفئدة ، فتصغى إليه منتشية بألحانه وأنغامه . والديوان ستة أبواب :

الأول : تحت راية الوطن ، تضمن قصائد فى فرحة وادى النيل بالثورة ، ومصر والسودان الشقيقتين ، وقسم التحرير ودولة الإقطاع ، وبورسعيد الخالدة ، ونشيد العمال ، وما إلى ذلك من القضايا السياسية .

الثانى : فى ظلال العروبة ، فيه قصائد عن أمة العرب ، والدولة المزعومة ، وفرنسا الرعناء ، وبنزرت الباسلة ، وبطل الريف ، وما إلى ذلك من القضايا التى تمس كيان العروبة تاريخيا وسياسيا .

والثالث : صور من الحياة ، فيه قصائد تناولت مأساة حسناء ، وتقاليع العم سام ، والثعبان العاشق ، وكعك العيد ، والسائقات الفاتنات ، وما إلى ذلك من صور الحياة الاجتماعية التى لمسها الشاعر بنفسه ، وأهاجت فيه شاعريته .

والرابع : زفرات ، فيه قصائد تناولت انقلاب القيم ، والزمن الوغد والشعر قبل الثورة ، وغربة الحياة ، وشكوى الأديب ، وما إلى ذلك من الصور الحية المليئة بالأسى ، والتى أثارت أشجان الشاعر .

والباب الخامس . ذكريات الصبا أو بين أفنان الجمال ، فيه قصائد عن مصدر الحب والجمال ، والعاتبة الغضبى ، والفنانة الحسناء والتوحيد فى الحب ، وحورية التليفزيون ،

والحب بين جمال الجسد وجمال الروح ، وما إلى ذلك من الصور الناطقة التي جاءت ترجمة عميقة لذكريات الصبا عند الشاعر .

والباب السادس الأخير : خواطر وأفكار فيه قصائد عن الروح الظمأى ، وموكب الربيع ، وحواء المستأسدة ، والمؤمن الكافر وفلسفة النحل ، ودولة الفجر بين الماضي والحاضر ، وما إلى ذلك من الصور المتفرقة التي تناولت شتى جوانب الحياة من فن وسياسة وأدب واجتماع .

• • •

من قصيدته « الدولة المزعومة » :

أبناء اسرائيل قد أصبحوا
حاتما فرضها الأجدل
في كل يوم لهم صفعة
بسود أقفائهم تنزل
هم القرود مسخوا على الدنى
أتى بذاك الخبر المنزل
أذل من ذل على أرضنا
أسفل من قيل له : أسفل

الحق أن ديوان الشاعر الكبير الأستاذ على الجندى عميد كلية دار العلوم السابق ، ديوان جمع فأوعى ، فهو بمثابة موسوعة تناولت جوانب عديدة من الحياة ، في مجالات السياسة والمجتمع ، والنفس ، والعقل والجمال وقد حتى على قصائد ديوانه مزيجا من الآراء الفلسفية والنظريات الاجتماعية .

كنا نود أن لا يخلو الديوان من باب للإسلاميات ، يتناول فيه قضايا الإسلام ، وقضايا شعوبه ، فهو من أقدر شعرائنا على سد هذا الفراغ ، ومن يدرى فربما كان شاعرنا الكبير في طريقه إلى اخراج ديوان خاص بالإسلام الذى أصبح في مسيس الحاجة إلى ثورة شعرية جديدة ، لا تتغنى بأمجاده السالفة ، ولكن تزفر بآلامه ، وآلام شعوبه

• • •

كتب جديدة

النبوة والأنبياء في القرآن :

تأليف : أبو الحسن الندوى

الناشر : مكتبة وهبة - عابدين

المؤلف ليس في حاجة إلى التعريف ، فهو رئيس ندوة العلماء بالهند ، وأحد علماء المسلمين القلائل في العالم ممن عرفوا بغزارة العلم ، وسعة المعرفة ، والارتباط بقضايا الإسلام والمسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مجال التفكير الإسلامي الخصب.

في هذا الكتاب عرض فضيلة المؤلف لحاجة الإنسان إلى الأنبياء ، ولسمات النبوة وخصائص الأنبياء ، وللأنبياء كأئمة الهدى وقادة للإنسانية .

يذكر المؤلف فى مقدمته أن البحث فى النبوة والأنبياء من البحوث والدراسات التى تشهد بحاجة الطبقة المثقفة إليها ، وهو يعتقد أن أقوى سبب الانحراف هذه الطبقة ، هو بعدها عن منهج النبوة ، وجهلها لقيمها وفضلها على الحياة المدنية والعقل الإنسانى .

* * *

الفاروق عمر :

تأليف : اللواء الركن محمود شيت خطاب

الناشر : مطبعة العانى ـ بغداد

المؤلف أحد وزراء العراق ، ومن الأدباء المؤرخين ، له زهاء عشرين مؤلفا فى التاريخ الإسلامى ، وفى كتابه الأخير هذا ترجمة وافية شاملة لسيرة عملاق من عمالقة التاريخ فى الإسلام ، عرض فى هذه الترجمة للفتح الإسلامى قبل عمر ، ثم بقيادة عمر ، ثم تحليل دقيق لقيادة عمر نفسها ومعالمها وخصائصها ، ولمكانة عمر فى التاريخ .

الكتاب : ١٩٢ صفحة من القطع الكبير

* * *

رجال حول الرسول :

تأليف : خالد محمد خالد

الناشر : دار الكتب الحديثة ـ القاهرة

هذا هو الجزء الثالث من السلسلة التى بدأها الأستاذ خالد منذ عامين باحثا عن جوانب العظمة فى أصحاب الرسول ـ صلوات الله عليه ـ وقد تضمن الجزءان الأول والثانى بحوثا عن واحد وعشرين صحابيا ، أما هذا الجزء فنقرأ فيه عن اثنى عشر صحابياً : منهم خالد بن الوليد الذى لا ينام ولا يترك أحد ينام ، ومنهم عمير بن وهب شيطان الجاهلية وحوارى الإسلام ، ومنهم زيد بن ثابت جامع القرآن ، ثم خالد بن سعيد وهو فدائى من الرعيل الأول ، ثم قيس بن سعد بن عبادة ، وأبو الدرداء ، وزيد بن الخطاب ، وطلحة والزبير وخبيب ، وعمير بن سعد ، وأبو أيوب الأنصارى ، كل صحابى أبرز المؤلف فيه جوانب عظمته ، وخصه بسمة مميزة .

الكتاب ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط

* * *

تطوير الخطابة المنبرية :

تأليف : على رفاعى

الناشر : مكتبة صبيح بالأزهر :

المؤلف فضيلة الأستاذ الشيخ على رفاعى مراقب عام الوعظ بالأزهر من خيرة العلماء الذين أسهموا بنصيب وافر فى تطوير الخطابة المنبرية ، وله مؤلفات بلغت اثنى عشر كتابا ، وأعانت ـ ولم تزل تعين ـ

خطباء المنابر من العلماء وغير العلماء على مهمتهم ، وهذا الكتاب الأخير - كما يشير المؤلف إلى ذلك - على مستوى الشعوب الإسلامية ، يساير نهضاتها ويرسم طريق الوصول إلى أهدافها .

فى الكتاب بحث عن أهمية الخطابة المنبرية وبعض النماذج التى عرض فيها للتحليل العلمى والصوغ الخطابى لها ، ثم زهاء أربعين خطبة منبرية فى شتى جوانب الحياة العلمية ، ثم بضعة نماذج لدروس التفسير .

الكتاب ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط

محمد عبد الله السمان

الصراع الأدبى

بين القديم والجديد

للأستاذ : على محمد حسن العمارى

يعرف قراء هذه المجلة الأستاذ : على محمد حسن العمارى بما قدمه إليهم فيها من بحوث أدبية ودينية تعتز هذه المجلة بها وبما ينشره دائما فيها لغزارة علمه وسعة اطلاعه ويقظة ذهنه ووجدانه .

وقد ألف عدة كتب فى البلاغة والأدب ، وكان آخر ما أصدره لجمهرة القراء والمثقفين خاصة كتاب : « الصراع الأدبى بين القديم والجديد » وقد تتبع هذا الصراع منذ نشأ فى العصر الجاهلى ، ثم فى العصر العباسى . . ثم فى هذا العصر الذى انحرفت فيه الاتجاهات الأدبية عند بعض الكتاب والشعراء انحرافات ضارة بقوميتنا العربية وديننا الإسلامى ، والقارىء لهذا الكتاب يجد الكاتب من خلاله عالما بموضوع بحثه غنيا بالشواهد والأسانيد التى يدعم بها قضاياه ، نافذ البصر والبصيرة إلى الدوافع التى تمكن وراء الاتجاهات التى يتناولها بحثه أو تعقيبه ، وقد كتب مقدمته الأستاذ الكبير احمد حسن الزيات .

ونرجو أن نعرض لموضوع هذا الكتاب بالتفصيل فى القريب العاجل إن شاء الله .

(المجلة)

فى محيط العالم الإسلامى

مأساة محزنة :

حدث أخيراً أن أصيبت دولة الصومال المسلمة بمجاعة هزت كيان زهاء مليون مسلم والمؤلم فى الخبر أن جمعية الصليب الأحمر هى التى أخذت على عاتقها الدعوة إلى إنقاذ الألوف التى هزها الجوع وفتك بعدد منها ، بينما العالم الإسلامى بأسره لم يحس بهذه المأساة ، ويظهر أنه ليس مستعداً لأن يحس بها .

وإذا كانت العوامل السياسية الجائرة أصرت على أن لا تقوم لوحدة المسلمين قائمة فأى عقبة يمكن أن تقف فى سبيل وحدة روحية تربط بين قلوب المسلمين وعواطفهم لتؤدى واجبها - على الأقل فى مثل هذه المأساة ؟! .

• صنعاء : صدر قرار جمهورى بإقرار الدستور المؤقت لليمن وينص هذا الدستور على أن اليمن جمهورية عربية إسلامية ديمقراطية ، كما ينص على تكوين مجلس جمهورى يرأسه رئيس الجمهورية ، ومجلس الشورى يضم تسعة وستين عضواً ، يتولى اختيار أعضاء المجلس الجمهورى ، ويقوم بوضع الدستور الدائم وعرضه على الاستفتاء العام خلال فترة الانتقال ومدتها سنتان .

• داكار : وافقت حكومة السنغال على انسحاب عشرة آلاف جندى فرنسى من بلادها من تلك القوات الفرنسية التى لم تزل بالسنغال بعد استقلالها ، ومن الجدير بالذكر أن السنغال كانت إحدى المستعمرات الفرنسية فى غربى إفريقيا .

• الخرطوم : رفضت حكومة السودان الموافقة على زيارة وفد حكومة تشومبى للسودان لإجراء محادثات بشأن التوتر الذى يسود الحدود بين الكنغو والسودان ، بسبب الاعتداءات المتكررة من قوات حكومة تشومبى على حدود السودان بدعوى مطاردة الثوار .

• القدس : بدأ العمل فى المرحلة الثانية لإصلاح المسجد الأقصى ، ومن المقرر أن تنتهى هذه المرحلة خلال سنوات أربع .

• جاكرتا : رفضت حكومة أندونيسيا إجراء استفتاء فى إيريان الغربية طبقاً للاتفاق الذى تم تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة ،

وقد صرح الرئيس سوكارنو بأن العالم أجمع يعترف بأن إيريان الغربية جزء لا يتجزأ من الأراضي الأندونيسية وليس لهولاندة أي حق فيها .

* غزة : بدأ تجنيد الدفعة الأولى من الفلسطينيين بقطاع غزة من مواليد عامي ٢٧ ، ٤٤ ، تنفيذاً لقانون التجنيد الإجباري للفلسطينيين ، الذي أقره المجلس التشريعي في أواخر فبراير الماضي ، ويقضي بأن تكون الخدمة العسكرية إجبارية لكل فلسطيني من سن ١٨ - ٣٠ سنة .

* القاهرة : أقيم في القاهرة المؤتمر الثالث لتنظيم الأسرة ، اشترك فيه عدد من المؤسسات والهيئات الأجنبية ، منها المجلس الأعلى للدراسات السكانية بأمريكا ، ومؤسسة فورد ، وجامعة جراتز بالنمسا ، والجمعية الدولية للأسرة .

* الفاتيكان : أنشأت الفاتيكان قسماً جديداً للشئون الإسلامية ، في سكرتاريتها المختصة بشئون الديانات غير المسيحية ، وقد عين رئيساً لهذا القسم القس الفرنسي الأب جوزيف كوك الخبير بالشئون الإسلامية .

* لندن : صدر في لندن مصور عن الفن الإسلامي أعده دافيد تاليوت رايس ، كما صدر كتاب جديد باللغة الإنجليزية للكاتبة دورنا راسل عنوانه : القاهرة في العصور الوسطى ، وتبلغ صفحات هذا الكتاب ٣٤٩ صفحة .

القاهرة : من المنتظر أن يضاف إلى تلاوة القرآن . في محطة إذاعة القرآن برنامج لتفسير القرآن يقدمه كبار العلماء والمختصون بالدراسات الإسلامية .

في محيط الأزهر

* استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بعثة الحج اليوغسلافية برياسة الحاج مصطفى شوا مدير المعهد الإسلامي بسيراييفور وذلك بمناسبة مرور البعثة بالقاهرة في طريقها إلى الأراضي المقدسة لتأدية فريضة الحج ، وقد تناول الحديث شئون الإسلام والمسلمين بيوغوسلافيا .

* تقرر لأول مرة قبول طلاب المنازل الحاصلين على الشهادة الإعدادية والابتدائية في امتحان الشهادة الثانوية الأزهرية المعادلة هذا العام .

* أصدر السيد المهندس أحمد عبده الشرباصي نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف والأزهر — قراراً بأن يكون امتحان القبول بالمعاهد الأزهرية والمعهد

النموذجي للبنين في القرآن الكريم تحريريا اعتباراً من العام الدراسي القادم .

* طلبت جامعة الأزهر إلى مجلس الدولة إبداء الرأي في التماس الذين لا يحملون أية مؤهلات دراسية ، وسبق لهم أن تقدموا للحصول على العالمية المؤقتة ورسبوا فيها ، ويرغبون في الالتحاق بالسنة الرابعة النظامية بالقسم العالي للجامع الأزهر ، ومن المعروف أن قانون تنظيم جامعة الأزهر كان قد اشترط لها ضرورة الحصول على الشهادة الثانوية كأدنى مؤهل دراسي للالتحاق بالسنة الأولى الدراسية .

* نوقشت في أبريل الماضي بجامعة الأزهر الرسالة المقدمة من الأستاذ فتحي عبد القادر الدريني الأستاذ بكلية الشريعة بدمشق ، والموفد إلى جامعة الأزهر في بعثة علمية لتحضير رسالة الأستاذية في الفقه والأصول . موضوع الرسالة « التعسف في استعمال الحق بين الشريعة والقانون » بلغت صفحاتها ٥٢٣ من القطع الكبير ، ألفت اللجنة برئاسة الشيخ طه الديناري ، وعضوية الدكتورين : محمد مختار القاضي ، وجاد الرب رمضان ، وقد قررت اللجنة منح الأستاذ الدريني درجة الامتياز مع مرتبة الشرف .

السيد

فهرس أبجدى عام
لموضوعات المجلد السادس والثلاثين

٣ — تعرضت والاته فى أواخر القرن الثالث عشر إلى غزوات متعددة من طوارق الصحراء مما أشاع فيها الاضطراب فهجرها والكونتا ، علماء جداله إلى تمبكتو حيث كان الحكم فيها قد استتب لملوك مالى فى عهد « منسى موسى » (١٣٠٧ — ١٣٣٢) وهنا دخلت تمبكتو مرحلة الازدهار بالثقافة العربية والإسلامية ، وظلت كذلك حتى القرن السادس عشر حينما وصلها الغزو المغربى من الشمال .

العصر الذهبى لتمبكتو

بلغت تمبكتو ذروة مجدها فى عهد منسى موسى أشهر ملوك مالى بفضل عنايته الشخصية بالمدينة وتشجيعه العلماء على الإقامة فيها ، وبعد عودته من الحج أحضر معه أيضاً عدداً من علماء المدينة المنورة وكميات كبيرة من الكتب من مصر .

ويذكر عبد الرحمن السعدى أن فقيها اسمه عبدالرحمن التميمى جاء من الحجاز بصحبة منسى موسى صاحب مالى ، فأقام بتنبكت زمناً ، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه فى معظم العلوم غادرها إلى فاس حيث درس مزيداً من علوم الشرع وعاد ثانية لإقامة مجلس علم بتمبكتو (١) .

وكان أهم حدث فى تاريخ تمبكتو الثقافى أن السلطان منسى موسى استدعى أبا إسحق الساحلى الغرناطى الأصل من المغرب لبناء قصر للملك ومسجد كبير فى تمبكتو ، ومنذ بناء هذا المسجد وعلماء جداله يجلسون فيه للدرس ، وقد كثر تلاميذهم الوافدين من كل فج : من درعه ، وسوس ، وسجلماسه ، بل ومن فاس فى المغرب الأقصى وطوات وغدامس وفزان .

وفى أوائل القرن الخامس عشر استطاع الطوارق بقيادة زعيمهم « عقيل مالوال » أن يستولوا بتمبكتو ، وعينوا عليها رجلا من صنهاجه يدعى عمر ، كان محباً للعلم والدين ، فأرسل سراً إلى سونى على أول ملوك الصنغاى يدعوه إلى غزو تمبكتو لإعادة الاستقرار إليها ، فدخلها سونى على سنة ١٤٦٨ ، غير أن عقيل مالوال هرب بعد أن صحب معه عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء الذين عادوا واحداً تلو الآخر إلى تمبكتو فيما بعد لأن المقام لم يطب لهم وسط طوارق الصحراء (١) .

ولقد عاشت تمبكتو فى ظل ملوك الصنغاى فترة ازدهار علمى ودينى لما كان يحرزه علماء الدين فيها من مركز لدى الملوك ، وبنى فيها « أسكيا داوود » مسجداً كبيراً جديداً أتى له بالأخشاب من غابات الجنوب ، وأقام فيه صوامع للفقهاء للعبادة والدرس ، وأصبح هذا المسجد جامعة إسلامية مرموقة معروفة بعلمائها وفقهائها الذين كانوا يتلقون الرسائل من مصر والمغرب والحجاز للإفتاء فى أمور الدين وكثير من المسائل الفقهية المشكلة .

---

(١) السعدى ص ٨٣ — ٨٤ .

(١) روبرت كورنيفان ص ٢٥٥ .

واشتهر فى عهد ملوك الصنغاى من علماء سنكورى والحاج جبر القاضى، ابن عبدالرحمن ابن أبى بكر ، وعمر السالك تنديبع ، الذى تولى القضاء فى عهد أسكيا محمد وأحمد بابا التبكتى الذى ترك مئات الرسائل والكتب .

ومما ذكره أحمد كاتى فى كتابه تاريخ الفتاش أنه : فى ذلك العهد كانت المدينة مليئة بطلاب العلم من أبناء السودان الذين تملأ نفوسهم الرغبة فى التحصيل وتقصى الحقائق ، وذكر أحمد كاتى فى موضع آخر من كتابه أن : أحد المعلمين مثل على زكريا (ناكارى) كان يجنى كل خميس قرابة ١٧٢٥ مثقالا من تلاميذه البالغ عددهم ١٢٥ حيث كان كل منهم يقدم ما بين خمس وعشر ، وكان هؤلاء التلاميذ يجمعون الحطب الذى يشعلون فيه النار لتضئ لهم أثناء دروس الليل (١) .

واهتم كل من أسكيا داوود وأسكيا محمد بكتب العلم والفقه والدين فكان أسكيا داوود يحتفظ فى بلاطه بآلاف الكتب المخطوطة ، وكان ينفق الكثير على الخطاطين الذين ينسخون من هذه الكتب نسخا ليوزعها على علماء تمبكتو (٢)

وقد قامت بين علماء الأزهر فى مصر وبين علماء تمبكتو مراسلات عديدة ، وعرف جلال الدين السيوطى عندهم حيث كان يطلق عليه اسم بابا سانتاو ويوصف بأنه العالم المصرى ، ومما يؤكد هذه الصلة أن أحمد بابا التمبكتى العالم الفقيه السودانى كان من بين رسائله رسالة فى الرد على المسألة المصرية تتضمن فتوى فى بعض أسئلة وصلته حول الفرائض (أى الميراث) .

الغزو المراكشى وعهد الاضطراب

وفى أواسط القرن السادس عشر ظهرت لدى ملوك المغرب الأقصى أطماع توسعية فيما وراء الصحراء للسيطرة على تجارة الذهب والملح ، وعلى مراكز التجارة فى بلاد السودان ، وأدت هذه الأطماع إلى أن أرسل السلطان المنصور محمد ملك مراكش حملة بقيادة قائده الأسبانى الأصل : جودر باشا بدأت سنة ١٥٨٥ بغزو تغازا مركز استخراج وتجارة الملح وطردت منها قوات الأسكيا اسحق الثانى نهائيا ، واستمر الغزو المراكشى بقيادة جودر باشا بجيوش مرتزقة من الأندلسيين المسلحين بأسلحة نارية ، وانتهت الغزوات بهزيمة الصنغاى فى تاودنى وتعقبتهم جيوش جودر باشا إلى النيجر حيث حاربوا على مشارق تمبكتو وجاو ، وجنى وأشاعوا فيها الفوضى والفساد .

وقد خلف جودر باشا فى قيادة الجيوش المغربية قائد يسمى : احمد بن زرقون الذى

(١) محمد كاتى : كتاب تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ترجمة هوداس وديلافوس باريس سنة ١٩١٣ ص ٧٨ ، ٣١٦ .

(٢) محمد كاتى ص ٧٧ .

News From The Muslim World

By : Mohammad Abdullah El-Sammam

* The Yemeni Republican Council has approved a provisional draft constitution of the Republic of Yemen. This Constitution bears a historical Significance as it means a land mark in the history of the Arab world. The new constitution declares that Yemen is an Islamic Democratic Arab Republic. The transition period is two years.

* The Afghanistan Parliament ratified recently a new Constitution for the country. The constitution states that the religion of Afghanistan is the Sacred faith of Islam. The state disposes, of religious matters in accordance with the Hanafi Command ments'. Those members of the nation who do not follow the the Islamic faith are free to conduct their religious Ceremonies within the limits of the laws formulated to maintain the decorum and tranqullity of the public (chapter 1, Article 2.)

* The Palestine Liberation Organisation observed this month the aniversary of the palestine tragedy. President Jamal Abdul Nasser Said in his message to the Palestine Day Conference that the Arabs would exploit all their Sources of wealth to face the Israeli danger and that they would work hard to realize development.

* The Prime Minister of Malaysia, Tunku Abdul Rahiman, Said, in Kuala Lumpar, that he would write to the leaders of the Arab Nations and tell them that Malaysia had no intention of establishing deplomatic relations with Israel.

* The Vatican has announced the establishment of a Section for Islamic Affairs. This Section will be attached to its special Secrateriate which deals with the affairs of world religious other than christianity.

* The Muslim students association of the United States and Canada has passed a resolution, at its Second Convention, which was held in Urbana, Illinois, about the necessity of promation of friendship among Muslim Organisations in the World. The resolution says : " Muslims Should be Urged to remember that they are the representatives of Islam and that their behaviour is regarded, by the non-Muslims, as Muslim behaviour."

Caliph : The matter stands quite clear then. We leave it to you to decide. You do not curse the Pharaoh a confirmed enemy of God. Do you think it is in any way lawful to curse those who keep up prayers and abserve the month of Ramadan and give alms ? Surely we can punish the transgressors, but can never curse.

Representatives : well and good. But better for you and us both if you cut off your connections with them.

Caliph : The Kufites anp Basrites once led on army against your ancestors. They put to death many of them. Did you forsake those people ?

Representatives : No.

Caliph : If that is so, we do not understand why you compel us to do what you did not yourselves.

He who professes to believe in the oneness of God and the prophet hood of Muhammad, God and his Apostle are ready to take him under protection. And is it not a pity to find this, that it is only you who refuse to extend your sympathies to believers ? Is it, then, the regeneration of Islam you are driving at ?

The proxies could make no reply.

They acknowledged in express words their satisfaction, and said : « we beg to be excused for our outspokenness. We are very much thankful to you for your leading a patient ear to so lengthy a talk».

A woman accuses the son of caliph Mamun in open court Mamun was once holding court when there appeared a woman. A child was clinging to her breast. She cared not for the formal ceremonious etiquette of the court, and at once burst out into tears and cried aloud, saying : « O, Caliph ! the house of a widow has been seized for no fault.

Do Justice to my complaint and keep in vieev the Day of Judgment where I shall stand up and raise my voice admist the crowd against you if you do not make good the wrong done to me ».

The courtiers were quite astonished to hear the woman speaking so loudly in the presence of the Caliph.

The Caliph, on hearing this complaint, was startled, as if taken aback by some unexpected calamity.

« Well, who has done such a glaring injury to you ? Tell us his name ».

The woman blushingly said Princé Abbas, your son ».

(Continued on page 11)

Aspects of Socialism and Equality
- From the History of Early Muslims -

By

IBRAHIM M. EL-ASSIL
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY

On his ascending the throne of caliphate, Omar bin Abdul'Aziz had to face of a rebellion raised by Bistam, a Kharijite, due to some difference of opinion. The caliph wrote a short note to him, which ran as follows:

" We learn that your sole aim is to regenerate the faith of Islam.

We also, let it be known to you are bending our energies to the same end. Would not you, then, appreciate the idea of holding a debote between both the rival parties ? If we can advance convincing arguments, you will have to give allegiance to our authority. But if you get the better of us, we would consider the matter"

Upon this Bistam commissioned two proxies to the court of the Caliph.

The debate was convened, and the following words passed between the Caliph and the representatives :

Caliph : well, what reasons have you to justify yourselves to disturb the peace of the country ?

Representatives : You have ridden rough-shod over the desires and wishes of the people in general and your relatives in particular. You have confiscated their landed properties. If they did a wroug thing, is it not quite justified, according to Islamic jurisprudence, to curse them ?

Caliph : You do not seem to catch the point. I have taken back only what they had received either through unlawful means or because they did not deserve it. I do not see any necessity of upbraiding the unbelievers and wrong-doers, nor is it supported by any verse or authority either of the Qur'an or the Traditions.

Did you ever curse Pharaoh ? Do you believe honestly that it is incumbent upon you to do so ?

Representatives : We never curse the Pharooh, nor is this an article of faith with us.

pillar is the practise of the obligatory prayers five times during the day, but how many perform the farz let alone the sunnat or nafl prayers? the third pillar is Zakat or charity, while this primarily means to give a percentage of your income to the poor in a certain month of the year we should not forget charity in our daily lives as well. . . how many times has a suppliant been thrust aside with a curse given instead of a coin, even if we cannot give money surely we can give a kind word, little as it may be, for charity also means love, understanding, tolerance, kindness and mercy ; the fourth pillar is fasting during the month of Ramadan when all Muslims must fast from dawn to dusk, but do we also abstain from indulging in anger, lying and cheating ; the fifth and final pillar is the Hajj or pilgrimage to Mecca, this is indeed a difficult task which often causes great sacrifice but it is the envy of all the other religions, for it is the bond that once a year brings thousands of Muslims together from all parts of the world to worship and pay homage to the One God, Allah.

All these things are the main roots of Islam and if we would only cultivate them in ourselves, then from these roots would spring forth the divine towering tree of our eternal faith whose green branches would give shade to our souls and whose fragrance would refresh our heart, it would give shelter from the storm of life and abundant sustenance to a hungry spirit. Water these roots with your tears of contrition, prune its branches with love and discrimination, fertilise it with your very being, adore and cherish it in truth, and you will then live as only a Muslim can live. . . in happiness and and contentment.

RASCHID AL-ANSARI

(ROBERT WELLESLEY)

FUNDAMENTALS OF ISLAM

By : Rashid Al - Ansari

Many of us seem to forget the fundimentals of Islam and become lost in the wandering pathways of useless speculation on the finer points of Islamic theology and thouhgt until at last we are far from the basic teachings of Islam, finding ourselves living a life of petty restrictions that have very little meaning. Then, as we say, you cannot see the forest for the trees . . . in other words the whole becomes obscured by the part. It is a little like a carpenter who pays meticulous attention to the seat of a chair, carving it and polishing it, and in the process completely forgetting all about the legs of the chair ! And how can you have a chair without legs ? It is a ridiculous thought. Even so does Islam lose its dignity and simplicity when insistence is put on form and not on spirit. It is therefore important that we should keep in mind what are sometimes known as the Pillars of Faith and the Pillars of Wisdom.

In the Seven Pillars of Faith the first pillar is belief in Allah, the Eternal and One God who has no equal ; the second pillar is belief in in His angels, of whom we are each said to have our Guardian Angel ; the third pillar is belief in the Books sent from Allah for our guidance, of which it is a fact that the Qoran is the only one to retain its original purity ; the fourth pillar is belief in all the prophets of Allah, such as Moses, Abraham, Jesus and Muhammad (may peace be upon them), who brought the message of Allah to a wayward world ; the fifth pillar is belief in the Hereafter, of the continuation of life after the body dies, thus Allah bestows on us a certain immortality, for only Allah is truely immortal, the sixth pillar is belief in the ultimate will of Allah, that though we must strive and do our best in every possible way we must always remember to surrender ourselves to His will, it is the neglect of this that causes a lot of the evil present in this world today ; the seventh pillar is the belief in the Day of Judgement, when we will face the radiant and supreme wisdom of our Lord to beseech His mercy on our souls.

Then we come to the Five Pillars of Wisdom, the first pillar being the belief in the one God alone, Allah, and His last messenger Muhammad (may peace be upon him) who was yet the first ; the second

a painful punishment. On the day when it will be heated in the fire of Hell, then their foreheads and their sides and their backs will be branded with it : This is what you hoared up for yourselves, to taste what you used to hoard.")

And :

(And let not those who are niggardly in spending that which God has granted them out of his grace think that it is good for them. May, it is evil for them. They shall have a collar of niggardliness on their necks on the Day of Resurrection . . .)

And the Prophet said :

" Whomever God granted wealth and he withheld the poor-rate, his wealth shall be pictured for him on the Day Judgment as a big sanke with two lorns, and it will fold around his body and hold up his cheecks saying : I am your hoarded money, I am your wealth."

It is also reported through Abdullah ibn Omar that the Prophet said :

" O immigrants and helpers ! There are five evils I take refuge in God not to befall you. If adultry appears among people, they will be stricken with such ills as not happened to their past generations. If they do not give right measure in their scales, they will be tried with poverty, scarcity of provisions, and injustice of their rulers. If they prevent the poor-rate, they will be denied rain from the sky, except for the sake of their animals. If they do not fulfil the Covenant of God and His Messenger, God will raise against them those take away some of what they possess. And if their rulers do not rule according to the Law of God, the fighting among them will be severe."

(Continued from page 15)

The caliph had earned a good name for justice. The story told by the woman, by name Mughira, set the blood of Mamun boiling ; his face glowed with anger. He at once ordered 'Abbas to stand by the side of the plaintiff, so that every distinction be wiped out.' Abbas, being guilty, could not clear his position. But Mughira was so eloquent in giving vent to her compelled right that her very eyes, sparkling with passionate anger, seemed to speak for the worth in her bosom.

The nobles could not reconcile the audacity of the woman with forebearance of the Caliph. One of them could not help saying :

« O, woman ! Such conduct does not become in the presence of the caliph. You are so rude ».

a due share for the beggar and for one who is a needy."

In the chapter of " Al-Qalam " the pen", the Holy Qur'an relates the story of the people who owned a garden and who intended to cut out its fruits to deny the rights of the poor in those fruits, and how they were doomed :

" But a visitation came from your lord, came out on it (the garden) while they slept. So it became as black, barren land. "

The Holy Qur'an also says :

« أرايت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع
اليتيم ولا يحض على طعام المسكين »

" Have you seen who belies religion? That is the one who is rough to the orphan. And urges not the feeding of the needy."

In another verse, the Holy Qur'an warns the disbelievers who are characterised by withholding the poor-rate in this way :

" ... And woe to the disbelievers ! Who give not the poor-rate, and who deny the Hereafter."

The Holy Book urges us to pay the poor-rate in this verse :

" ... And keep up prayer and pay the poor-rate and offer to God a goodly gift ... "

«Anas», the companion of the Prophet reported that a man came to the Prophet and saide : "O Messenger of God ! I possess a good amount of wealth and I have a great number of relatives. Tell me how should I spend?» The Prophet said: "You have to pay the poor-rate out of your wealth, for it is a cleanliness for it, and keep your relation to your relatives, and know the right of the unfortunate, the neighbour, and the beggar."

"Aysha" also reported that the Prophet said : " I swear that there are three things, the performer of which is participating in three shares in Islam : Prayer, fasting, and almsgiving." It is reported in "Al-Bukhari" and "Muslim" that Garir ibn Abdullah said : " I paid the oath of allegiance to the Prophet that I will keep up prayer, pay the poor-rate, and give good council to every Muslim."

Those who withhold almsgiving are spoken of in they Holy Qur'an in this sharp language :

«والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها
فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها
فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم
هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»

(" ... And those who hoard up gold and silver and spend it not in God's way, announce to them

"They ask you as to what they can spend. Say: What ever wealth you spend, it is for the parents and the near of Kin and the orphans and the needy and the wayfarer. And whatever good you do, God surely is Knower of it.")

When Muslims were settled and the circle of their life was expanded through Immigration to Medina, the amount of Zakat was fixed regarding all kind of wealth. So the amount of almsgiving regarding the harvests that were irrigated by rain was the tenth of it, and those which were irrigated by mashines was half tenth. The fourth of the tenth was the amount prescribed on gold and silver, and the same was fixed regarding the articles of trade. Those amounts were payable yearly. As to the almsgiving on animals such as camels, sheep and cows, the amounts are fixad in a special manner.

The reason behind the difference of the amount of Zakat, regarding the different amounts of wealth, is due to the difference of effort which is paid toward the earning of wealth. The more one pays in his effort to earn wealth, the less he gives in the amount of Zakat, and vice versa.

QUESTION :

What are the proofs to evidence the prescription of Zakat (almsgiving) in the Holy Qur'an and the Sunna?

ANSWER :

We said before that there are eighty two verses in the Holy Qur'an in which almsgiving is mentioned together with prayer. Among these verses we read :

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة »

"And the believers, men and women, are friends one of another. They enjoin good and forbid evil and keep up prayer and pay the poor-rete ..." and :

«الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . »

"Those who, if we establish them in the earth, well keep up prayer and pay the poor-rate and enjoin good and forbid evil.."

In the chapter of Al-Muddathir, the Holy Qur'an relates the profession of the people of Hell, and tells us about the reason of their miserable situation :

"... They ask one another - About the guilty : What has brought you into hell ? They will say : We were not of those who performed prayer. Nor we did feed the poor." God, the Almighty, praises the praises the believers in this way :

« وفى أموالهم حق السائل والمحروم »

"And in their wealth there was

you (alon) and seek your help, I say : To my servant what he a asked for. And when he says: Guide us to the right way, the way of those on whom you bestowed your favour, not those you are angry of them nor those who are stray, I say: Surely to My servant what he requested,

No wonder, then, to state that the Prayer supports the believer with big spiritual power. Dr. Alexis Carrel says in this respect: "The Prayer is a great sourse of vitality. As a physician I have seen many patients who were cured through prayer when the drugs failed to feal them.

Certainly the prayer is like the mineral of radium, a source of power and vitality."

Through prayer we are connected with the Originator of the universe, who help us over the difficulties of life. Our appeal to God in our Prayer is certainly a spiritual force which help us and give us peace and happiness.

What is the second worship prescribed in Islam ?

The second worship prescribed in Islam is almsgiving "Zakat". It is one of the five pillars of Islamic faith. It is mentioned to gether with prayer in eighty two verses in the Holy Quran. It is prescribed in both the Holy Quran and the Sunna. It is reported through "Ibn Abbas" that the Prophet (peace be upon him) said to his companion "Mu'adh ibn Jabal" when the Prophet sent him in a mission to Yemen: "You are going to reach a people who are followers of divine books. So call them to witness that there is no god but Allah and that I am the Messenger of God. If they accept, tell them that God has prescribed on them five prayers daily. If they obey, this, then tell them that God has preseribed on them a poor-rate in their wealth, to be taken from the rich among them and given back to the poor. If they accept to pay the poor-rate, do not follow the best and the dearest things of their wealth to take the poor-rate out of them. And guard against the call of the oppressed one, for the appeal of the oppressed supplicant is liable to reach God promptly."

Zakat was prescribed in Mecca undefined and unristricted to a special amount. It was left to the personal feeling of the rich toward the poor. The Quran says:

« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »

("... An they ask you as to what they can spend. Say: What you can spare . . .") and :

« يسألونك ماينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم »

PILLARS OF ISLAM

(2)

By : Abdul Wadood Shalaby

What is the reason behind making the Prayer five times every a day ?

God prescribed the Prayer on the believers in a timely order for five times a day, in order to be a continuous spiritual exercise. This was illustrated by the Prophet when he asked some of his companions :

Suppose that you wash yourself up five times a day in a nearby river, would that leave out any dirt on you ? They answered : Certainly not. He said : This is like the five daily Prayers. They wash away all sins. The Prophet pictured that meaning in another time. He was sitting under a tree and beside him there was his companion "Salman Al-Farisi," and the Prophet picked up a dry branch out of the tree and shook it until all its leaves fell down, and said : O Salman ! You may be wondering why I do this ? Know then that if the Muslim maks a good ablution and performs the Five Prayers his sins will fall away from him just as the leaves of this branch. Then the Prophet recited this Verse :

« أقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » .

("And keep up Prayer at the two ends of the day and in the first hours of the night. Surely good deeds take away evil deeds. This is a reminder for the mindful.")

Besides taking away sins, the Prayers transfer man from the world of hate and strife to the peaceful moments of humility and fear in the eyes of God. The Five Prayers are like five spiritual meals of appeal to God, which illumine his heart, and take the praying one from earth to heaven. They enable man to ask the Only Creator, the Self-Sufficient, who answers the applicant who appeals to Him Who said : I divided the Prayer between Myself and My servant. The portion of My servant is that I answer him. So when he says in his Prayer : Praise be to God, the lord of the Worlds, I say : My servant praised Me. When he says : The Beneficent, the Merciful, I say : My servant exalted Me. When he says : The Owner of the Day of Judgment, I say : My servant glorified Me. When he says : We worship

man kind as it embellished life by providing man with a brilliant and superior idealogy which covers the entire field of human conditions. By this brilliant system of life the prophet Muhammad lifted up a nation sunk so low as were the Arabs and made of them, in a short period of time, torch - bearers of a high culture and a great civilization. This system could unify the discordant elements of a society into a harmonious nation.

The ideal life that Islam seaks man to pursue is an ideal of developing and growing of itself to satisfy his future needs. And it gives a new meaning to life and impels man to strive for the attainment of the highest spiritual values

This ideal should link man's everyday life with the life hereafter. The Holy Quran states :

« وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى »
(سورة النجم — ٣٩)

« And that man can have nothing but what he strives for ; And that his striving will be seen; Then he will be rewarded for it with the fullest reward ; And that to your lord is the Goal ».

And :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

« So he who does an atom's weight of good, will see it ; And he who does an atom's weight of evil, will see it »

The Cardinal principle of Islamic faith is to belive in the existence of God and His Oneness. This belief creats in Soul of man Courage, bravery humanity, brotherhood and equality. This faith also creats in him will of power for he is not dismayed by misfortune nor despair. The believer in the oneness of God will hava no fear from anybody and he knows that there is no harm and benefit except through Him,All authority and power are only to Him, He is the granter of mercy and prosperity, He is the owner of life and death. This belief, undoubtedly, will lead man to a stable, properious and happy life in this world and incite him to perfection and elevation, in order to attain the highest grade in the hereafter.

ISLAM AND LIFE

(1)

By : A. M. Mohiaddin Alwaye

Islam is a complete System of life suited to all times and climes and acceptable to all those that dwell under the sun. It is but natural for such a universal message to adopt itself to the varying conditions of human life. Islam consists of faith to regulate man's relation with his Lord and Sustainer, as it consists of legislation to regulate human behaviour in the capacity of an individual, a society and a nation. Its legislation should take into consideration all the needs of the human society, individually and collectively and should regulate all kinds of human relations.

Islam calls man to follow his original nature as designed by God. The Quran mentions that the true religion is to follow the nature, in which Allah has created man. The Quran Says :

« فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(سورة الروم : الآية ٣٠)

«So set thy purpose for religion as a man by nature upright, the nature (framed) of Allah, in which He has created man. There is no altering (the law of) Allah's Creation. That is the right religion, but most man know not ». The Holy Quran stated that Islam is a perfect constitution and an excellent guidance to mankind in all walks of life :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

« This is my way : leading straight ; follow it, and follow not other ways, they should scatter you from His - Straight - path ».

Islam sought to liberate the mind of man from doubt and superstition and it rid him of the fear and suspicion. It made plain to him that nature can be his friend and not his enemy. As it created new interests and avenues for man to exploit. In short, Islam is a progressive liberation movement which freed mankind from the ideological bankruptcy and the failure of equality. It offered spiritual food to a Spirituall starved

فلينظر الانسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعاً لكم ولأنعامكم . »

"Let man consider his food (and how we provide it). We (first) pour forth water in abundance, then split the earth in clefts and cause to grow therein corn and grapes and nutritious plants and olives and dates and enclosed gardens of thick foliage and fodder, provision for you and for your cattle." (LXXX: 24 - 32).

« وأن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه ، من بين فرث « ودم لبنــاً خالصاً سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منــه سكرا ، ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون : الآية)

"And verily in the cattle (too) there is a lesson for you. From within their bodies, between excretions and blood, We produce milk which is pure and agreeable to drink. And from the fruits of the date-palm and the vine you obtain both strong drink and good nourishment. Therein also is a sign for the intelligent. And (consider again,) thy Lord inspired the bee to dwell in the hills and in the trees and in the structures (men) put up, and then to suck the juice of all kinds of flowers and to follow the directions of its Lord till there issues from within its body a drink of diverse hues, wherein is healing for men. Verily, herein is a sign for those who reflect" (XVI: 66 - 69).

The argument can go on into infinity, for His mercy and the signs of Truth are infinite.

From an all-pervading Providence, the Quran proceeds directly to the unity of God. To whom can man bow in adoration and submission but to the Lord, Who cherishes and sustains the entire Universe and Whose limitless bounty and mercy one acknowledges with every beat of one's heart.

« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو »

"O mankind, reflect upon Allah's grace. Is there a creator other than Allah who gives you sustenance from the heavens and the earth? No, there is no God but He" (XXXV: 3).

The argument naturally leads also to the need, for man, of a moral code, of revelation and of a messenger from God. It is not possible that the Lord, Who has provided every necessary thing for man's material well-being, should not also have provided a discipline and order for his spiritual sustenance and progress. The spirit has needs just as much as the body, and it cannot be that God should provide all the wherewithal for the development of the body but nothing for that of the spirit.[1]

(1) The Quintessence of Islam.

proposition; his reason revolts against it, his nature strives for constructive belief and faith and, in so doing, can pass through but cannot dwell in the barren regions of doubt and disbelief.

The Qur'an's approach in this matter is not dialectical; it deos not propound metaphysical these and frame logical arguments for them so as to compel an adversary to submission; it addresses itself always to man's natural instinct. According to the Qur'an, the sentiment of God worship is ingrained in human nature. If a man is inclined to turn away from it, it is but a laps on his part, and it is necessary to redirect his attention. Arguments will no doubt have to be used for this purpose but they must be such as will not merely create a ferment in his intellect and reason but will knock at the inner recesses of his heart and awaken his natural instinct. Once his instinct is awake and active, he will need no argument or sermon to take him to his goal.

«بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره» .

"Man('s very exis ence) is witness against himself, however he may Seek excuses." (LXXV : 14-15)

« قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فيقولون الله ، فقل أفلا تتقون » .

(Who provides you with nourishment from the sky and the earth? who has power over your hearing and sight? And who brings out a living being out of a lifeless one and a lifeless being out of a living one? And who rules and regulates every thing (with Such discipline and order)? (X : 31).

« أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي . . . »

(Who created the heavnes and the earth? Who sends down for you rain from the sky, then causes to grow orchards, full of beauty and delight, whose trees it is not in your power to cause to grow? Is there another God (to be worshiped) besides Allah? (But alas,) there are people who stray from the right path. Say then, who fixed the earth as an abode and ran rivers in its folds and for (giving) it (balance), placed firm mountains and erected a barrier between two waters (i. e. between oceans or between an ocean and a river)? Can there be any God other than Allah? And yet (alas,) there are many that know not) (XXVII:60-61)

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء العاشر ـ السنة السادسة والثلاثون ـ ذى الحجة سنة ١٣٨٤ هـ ـ ابريل ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر الأدب في ثورة العرب

بقلم : أحمد حسن الزيات

— ٢ —

قلت في المقال السابق : إن الأمة العربية في تاريخها الطويل الحفيل لم يكن لها غير نهضتين : نهضة في القرن السادس كانت بالدين انطلاقا من الجهل ، ونهضة في القرن العشرين كانت بالعلم انبعاثا من الموت ، وكان الأدب في كلتا النهضتين كما قررنا هو الباعث الأول كان في الأولى ومضة المنارة التي تذهب الضلال ، وكان في الأخرى نفخة الصور التي تسبق البعث ، فكيف كان العرب بعد أن تقدموا وقدموا الدنيا ، وكيف صاروا بعد أن تأخروا وأخروا الدين ؟ .

كان العرب في القرن الرابع للهجرة قد بلغوا من السلطان والعمران ما لم تبلغه من قبلهم أمة ، كانت لهم في عصر واحد ثلاث خلافات تشع الحرارة والنور في القارات الثلاث : خلافة العباسيين ذات العلم الأسود ببغداد في آسيا ، وخلافة الفاطميين ذات العلم الأبيض بالقاهرة في إفريقيا ، وخلافة الأمويين ذات العلم الأخضر بقرطبة في أوربا ، وكان العالم القديم كله من شرقه إلى غربه يعيش في ظلال هذا الملك المعظم خاضعا للعرب الحاكمين خضوع الجيش للقائد أو القافلة للدليل ،

فلما أخلد العرب إلى الترف ، وفقدوا بالانقسام والخصام والترف قوة الاتحاد ، وقوة السلطان ، وقوة الدين ، وقوة العلم ، أصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغول والترك والفرس والجركس والأسبان .

وفعل التتار فى العراق ، والصليبيون فى الشام ، والفرنج فى الأندلس ، ما تفعله الزلازل والبراكين بالعمران المزدهر . ثم انحصر العالم العربى فى أواخر القرن الثامن عشر للميلاد فى العراق وسورية وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب ، وآل السلطان والحكم فيه إلى الدولة العثمانية سنة ١٠١٦ م فحكمته بالعسف ، القهر ، وأذلته بالجهل والفقر ، وفرقت بين أجزائه بالدول والقطيعة ، وطردت اللغة العربية من الدواوين حتى من محاكم الشريعة ، واستطلعت التركية فى التعليم حتى فى دروس النحو ! ثم انقطع ما بين العرب والدين الصحيح والأدب الحر فاعتراهم ما يشبه الخدر فى الحواس ، فلم يشعروا بالوجود ولم يحفلوا بالحياة ، حتى غشى الأرض ما غشى من طغيان عبد الحميد ، وقاست العروبة ما قاست من اضطهاد الأتراك ، فأخذ تاريخ المجد العربى يثور فى رءوس بعض الزعماء والقادة ومأثور الأدب العربى يحيا فى نفوس بعض الشعراء والكتاب وانبعثت من وراء الرقابة الشديدة والجاسوسية اليقظة أصوات الأدباء تهيب فى خفوت وحذر بالراقدين أن يهبوا ، وبالقاعدين أن ينهضوا ، وسمع الناس أول ما سمعوا صرخات العرب المسيحيين لسوء سياسة الترك فيهم ، وقسوة الحكام عليهم ، كفتح الله مراش ، ورزق الله حسون ، وأديب اسحق ، وإبراهيم اليازجى صاحب البائية المشهورة التى نظمها فى سنة ١٨٩٦ م ومطلعها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى السيل حتى غاصت الركب

كم تظلمون ولستم تشتكون وكم
تستغضبون ولا يبدو لكم غضب

ألستم من سطوا فى الأرض واقتحموا
شرقا وغربا وعزوا أينما ذهبوا

فما لكم ويحكم أصبحتم هملا
ووجه عزكم بالهون منتقب

لا دولة لكم يشتد أزركم
بها ولا ناصر للخطب ينتدب

أقداركم فى عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدى الترك مغتصب

والقصيدة كلها على هذا النسق من استنهاض العزم ثم لاسترجاع المجد الذاهب ، واسترداد الحق المغصوب وهى مثل لما كانت تنشره الصحف وترويه المجالس فى مهاجر الأحرار بمصر وأوربا وأمريكا ، وكانت هذه الصيحات المذكرة المنذرة تجد تشجيعا

من مدحت باشا والى تركية على العراق، ثم على سورية، لأنه كان يطمع فى أن يستقل بالشام كما استقل محمد على بمصر، فقويت حركة الإصلاح، واتسعت دائرة المعارضة، واشترك فيها المسيحيون والمسلمون على سواء.

ونهض يومئذ المصلح الحلبى العظيم الشيخ عبد الرحمن الكواكبى المتوفى سنة ١٩٠٢ م فألف كتابيه القيمين: «طبائع الاستبداد» و«أم القرى»، دعا فى الأول إلى تحرير المجتمع العربى من العادات الضارة والاعتقادات الفاسدة، ودعا فى الآخر إلى خلافة عربية يكون مقرها جزيرة العرب، فكان لهذين الكتابين أثر قوى فى إنعاش الفكرة العربية، فقطع الترك على المؤلف من جرائهما كل سبيل، وشردوه فى كل أفق.

ثم تجاوبت بأناشيد الذكرى والألم والأمل صيادح الشعر على ضفاف دجلة وبردى والأردن، فيقول الرصافى من قصيدة عنوانها: «تنبيه النيام»:

عجبت لقوم يخضعون لدولة
يسوسهم فى الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها
وأموالها منهم ومنهم جنودها

ويقول الزهاوى من قصيدة نظمها فى سنة ١٨٩٧:

لقد عبثت بالشعب اطماع ظالم
يحمله من جوره ما يحمل
فيا ويح قوم فوضوا أمر نفسهم
إلى ملك عن فعله ليس يسأل

ويقول عبد الحميد الرافعى فى طرابلس من قصيدة مطلعها:

ما تصلح الدنيا ولا ناسها
ما لم يل الأقوام أجناسها
هبوا بنى العرب.. إلام الكرى
وقد دعا الآمال دعاسها
طلبتم الإصلاح من عصبة
توتر بالإفساد أقواسها
ألستم نسل القروم الألى
تفتصل الهامات أفراسها
فكم تقيمون على ذلة
وروضة الصبر ذوى آسها
جردوا العزم الذى طالما
شق صدوراً طال وسواسها

ويقول سليمان الفاروقى فى فلسطين:

بنى انهضوا واحيوا حياة عزيزة
حياة تعيد المجد للعرب ثانيا
ألا نهضة شرقيـة عربية
تزلزل أقواما وتوهى رواسيا؟
ألا رجل ذو مرة فيلكم
ويرأب صدعا فيكم بات واهيا؟

يقوم فلا يرتد أو يبلغ المدى
ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا

ثم انضم إلى أدباء العرب الثائرين على طغيان السلطان أحرار الأدباء من الأتراك أنفسهم من أمثال: رضا توفيق، وولى الدين يكن، فكان من أولئك كله وقود جزل للثورة التي أشعلتها في تركيا « جمعية الاتحاد والترقي »، وكان أن أعلن في نورها الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨، ثم كان أن سقط في نارها عبد الحميد في سنة ١٩٠٩.

وظن العرب أنهم سينعمون في ظلال الدستور بالحرية والمساواة، ولكن الظن كذب، والأمل خاب، وعاد الشعراء يقولون مع الفاروقي:

كنا نؤمل بالدستور أنفسنا
بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى إذا جاء لم يحدث لنا حدثا
ولا استجيب لنا في مطلب طلب

واشتدت الخصومة بين العصبيتين: العربية والتركية، واحتدمت ثورة الأدب ثانية في المجلات والصحف، وترددت أصداؤها في المحافل والأندية، وتجمعت القوى المتفرقة فتألفت الجمعيات السياسية في العواصم المختلفة كجمعية المنتدى العربي، وجمعية العهد في الأستانة والجمعية القحطانية والجامعة العربية في مصر، والجمعية الإصلاحية في بيروت، وكلها كانت تعتمد في الدعاية على الأدب في شتى ضروبه، وجميع مظاهره، حتى شبت الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤، وكانت تركيا خصما فيها لانجلترا وفرنسا وهما الدولتان الطامعتان منذ طويل في اقتطاع الشرق العربي وابتلاعه من تركة الرجل المريض كما كانوا يسمون الدولة العلية، وأراد الله جل شأنه أن يهيء الأمور لتحرير الأمة التي اختارها لإظهار دينه وإعلاء حقه، فأسرف الأتراك في البغي وأمعنوا في الجور وحكموا بالإعدام ظالمين على صفوة من أقطاب الأدب والسياسة. شنقوهم سنة ١٩١٥ في ساحات بيروت ودمشق، فكان استشهادهم المروع مناحة للأدب في كل قطر، واستغل الاستعمار الراصد هذه النكبة، فتقدمت انجلترا إلى الحسين بن علي شريف مكة في سنة ١٩١٦ بالوعد أن تجمع له الأقطار العربية كلها تحت تاجه، فكانت ثورة الحجاز، وكان انخذال الترك، وكان استقلال العرب.

كذب الإنجليز وعدهم، وصدق الله وعده، وانتهى أمرهم إلى الانتداب والأمر لله وحده.

ذلك ما اتسع له القول في جهاد الأدب لإنهاض العرب في هذا القرن، أما جهاده في جمع كلمتهم وتحقيق وحدتهم فهو موضوع المقال التالي؟

أحمد حسن الزيات

تحية الإمام الأكبر للمسلمين في عيد الأضحى

أيها المسلمون فى أنحاء الدنيا :

بسم الله أحييكم فى هذا اليوم الأغر ، يوم عيد المسلمين الأكبر ، يوم التضحية والفداء ، يوم العاشر من ذى الحجة - فإنه ما إن يطلع على العالم حتى تتعلق مشاعر المسلمين ببيت الله الحرام ، وتهفو قلوبهم إلى أم القرى مكة التى باركها الله ، ويتأهب الحجيج لأداء المناسك ، مستلهمين من الله العون على أداء فريضة الحج سائلين الله سبحانه أن يتم عليهم نعمته ، بعد أن لبوا نداء إبراهيم ، ودعوة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم - إنهم ليذكرون هذ الحرم الآمن ، الذى أسكن إليه إبراهيم فترك بجواره وديعته إسماعيل ، فتعهده الله بالتربية وشب فى رمال الصحراء ، وترعرع بين الصفا والمروة « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

ثم يعود إبراهيم ليجد ابنه إسماعيل وقد صلب عوده ، وقويت بنيته ، فيعيد معه قواعد البيت العتيق ، « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » حتى إذا تم بناء البيت أتم الله نعمته على العرب فأمر خليله إبراهيم أن يؤذن فى الناس بحج البيت المعمور ، ونادى إبراهيم ولبى الناس وما زالوا يلبون :

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك

قال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند

ربه ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق، ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فإلهكم إله واحد فله أسلموا ، وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير. فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » .

أيها المسلمون :

وقد أراد الله سبحانه أن يكون بيته الحرام مثابة للناس وأمنا من عهد الخليل إبراهيم وأبى العرب إسماعيل قال تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبرهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ، واستمرت هذه الفريضة (فريضة الحج) وجددها الإسلام ، فجعلها أحد أركانه الخمسة . قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

يهرع المسلمون إلى هذا الحرم الآمن محرمين ملبين ، وحول البيت طوافين رافعين إليه أكف الضراعة ، وبين الصفا والمروة ساعين ، وعلى عرفات واقفين مستلهمين من الله مزيد الرحمات ذاكرين هذا اليوم الخالد يوم وقف رسول الإسلام والسلام : محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد فتح الله عليه جزيرة العرب ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا وحج رسول الله حجة الوداع ؛ فخطب وخاطب الأجيال كلها من فوق جبل عرفات ، وقد امتطى صلوات الله وسلامه عليه ناقته العضباء ، فأرسى قواعد الإسلام ، ورسم للأمة طريقها ، وخط لها منهاجها .

أيها الناس : اسمعوا قولى ؛ فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا - وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . ألا قد بلغت اللهم فاشهد » .

« فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها » .

وأبطل الرسول فى هذه الخطبة الجامعة ما بقى من الربا ـ فقال صلوات الله عليه وسلامه « وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا » .

أيها الناس : ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه أبدا ، ولكنه أن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ـ فاحذروه على دينكم » .

وفى خطبة الوداع ـ أيها المسلمون ـ التى يودع الرسول فيها مكة بلده الحبيب ويكاد يودع بها العالم كله مرتحلا إلى الرفيق الأعلى يضع للأسرة نظاماً وهديا نبويا ، يحفظ كيانها ويدعم بنيانها ـ أما بعد .

« أيها المسلمون : اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، ويذكر الرسول فيما يذكر أنه قد ترك للمسلمين أمرين لن يضلوا ما تمسكوا بهما : كتاب الله وسنته . ويسجل الرسول على أمته تبليغ رسالة ربه : « ألا هل بلغت فقالوا : اللهم نعم فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : اللهم فاشهد » .

أيها المسلمون فى كل مكان :

لكأنى برسول الله صلوات الله عليه وسلامه يعلمنا فى حجته هذه كيف نتخذ من اجتماع المسلمين الأكبر فى عرفات مؤتمرا إسلاميا نتدارس فيه مشاكل المسلمين ونجمع أمرنا على كلمة سواء ، كلمة الوحدة ، كلمة العروبة كلمة الاسلام ، وصدق الله إذ يقول : ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات .

أيها المستمعون الكرام :

لقد كان من نعم الله على عباده أن جعل لهم عقب كل فريضة سنوية عيدا يجتمعون فيه فيذكرون الله ويشكرونه على ما أولاهم من نعم وآلاء . فأول شوال من كل عام عيد الفطر المبارك يستضيف الله فيه عباده الصائمين ليعترفوا بفضل الله على أن أعانهم على فريضة الصيام فيفرحوا بفضل الله عليهم فإن للصائم فرحتين : فرحة يوم فطره ، وفرحة يوم لقاء ربه .

وعيد الأضحى أيها المسلمون عيد أكبر يشكر المسلمون فيه ربهم على أن أعان حجاج بيته الحرام على أداء هذه الفريضة الجامعة ، وقد جعل الله شكره فى هذا اليوم الأغر بتقديم الهدى والضحايا قربانا لله بعد صلاة العيد قال تعالى : إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر . وهذه الهدايا وتلك

الضحايا التى يتقدم بها المسلمون إلى الله سبحانه وتعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منهم .

إن هذه الضحايا أيها المسلمون : إنما هى وتذكير بموقف خالد من مواقف البطولة شكر بالفداء . موقف إبراهيم عليه السلام ، وقد رأى فى المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل فأسرع الى تنفيذ ما أوحى به إليه ربه فى منامه ثم ما كان من إسماعيل وهو استجابة الابن البار استجابة مطلقة برا بأبيه وطاعة لربه ثم هو تذكير برحمة الله التى تنزل على عباده الصالحين ، « فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم ، إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين » ألا ما أروع التضحية وما أعظم الفداء .

أيها المسلمون : إننى من أرض الله المقدسة ومن بيت الله العتيق ، ومن أم القرى مكة المكرمة بعد أن أنعم الله على بحج بيته الحرام أسجد لله شكرا على ما أولانى من نعمة وأبعث إليكم فى بقاع الدنيا بتحياتى وتهنئتى لكم بالأصالة عن نفسى والنيابة عن أزهرنا المعمور ، وأبعث إلى جمهوريتنا العربية وفيها كعبة العلم (الأزهر الشريف) وإلى بلاد الدنيا جميعا بأطيب التهانى بعيد الأضحى المبارك سائلا الله سبحانه أن يجمع كلمة المسلمين ويوحد بينهم قادة وحكاما ومحكومين .

أيها السادة ... كل عام وأنتم جميعا بخير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسن مأمون
شيخ الأزهر

and reason and were based, instead, on irrational dogmas. The Quran offered a rational conception for the worship of God.

2— The call of the Quran is basically addressed to intelligent understanding and rational reflection; it particularly invites man to look carefully at everything in the universe and to reflect upon it.

3— If man will use his powers of understanding and reflection he will realise that everything in the universe has been created with a particular purpose and that it is related to the rest of the universe under a superior discipline and order.

4— Once man begins so to reflect on the purposefulness of creation, the scales will drop from his eyes, his mind will shed ignorance, and the path to Truth will unfold itself before him.

Of all the manifestations of nature, the Quran has drawn mostly, for its argument, on the spirit and power of a Supreme Norisher and Sustainer, which is evident in the organisation of the universe as a whole, in every separate nook and corner and in every single being within it. That the universe should so function that everything in it assists in the fundamental function of sustaining and continuing life, that everything that happens should prove to be a life giving force and, finally, that there should be evident an inherent organisation which takes into account every possible state and circumstance and makes every necessary adjustment cannot but instil in the instinct of man the assurance that there must be a Lord and Sustainer of the Universe. Otherwise such a perfect and flawless organisation for the sustenance and continuance of life in a wholly intelligent and ordered manner could not be possible.

Could such a universe com into existence by itself without any purpose, will or life force behind'it? It is blind nature, lifeless matter and senseless electrons which have made this perfectly conceived and organised universe, without there being any intelligent will behind it? Can it be that the function of norishment and sustenance is performed with out anyone to perform it, that there is a vast, complicated edifice but no architect, that things damaged are set right again without a repairer, that there are manifestations of mercy but no merciful being, that there are evident signs of intelligence, and wisdom without there being awise intelligence, that there is an organisation without an organiser, a drawing without an artist, a deed without a doer? Man's instinct refuses to accept such a